مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ السَّادِسُ والأَرْبعُونَ

سورة سَبأ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد السادس والأربعون

سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2025

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الثَّانِي وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ سَبَإٍ

﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ حالِ الجِنِّ في أعمالِهم بعد ذِكْرِ تَسخيرِهم

لَمّا أخبرَ اللهُ تعالى أنَّه سخَّر لسُلَيمانَ عليه السلام الجِنَّ؛ ذكَرَ حالَهم في أعمالِهم؛ دلالةً على أنَّه سُبحانَه يتصرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ وما فيهما بما يشاءُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾: (حرب) تدلُّ اشتقاقاتُه على بَعْضِ المجالِسِ[2]، ومنه: المِحْرابُ، وهو صَدْرُ البَيْتِ، وأكْرَمُ مَوْضِعٍ فيه، وقيل: أشْرَفُ المَجالِسِ[3]، ويُطلَقُ على مَقامِ الإمامِ مِنَ المَسجِدِ، سُمِّيَ بذلك؛ لانْفرادِ الإمامِ فيه وبُعْدِهِ عن القَوْمِ، وقيل: مأخوذٌ من المُحارَبَةِ؛ لأنَّ المُصلِّي يُحارِبُ الشَّيطانَ، ويُحارِبُ نَفْسَهُ بإحْضارِ قَلْبِه[4]، ومِن مَعانيه: الغُرفةُ، والمَوضِعُ العالي، والقِبلةُ[5]، والمَحاريبُ: جمع محرابٍ، وهو الحِصْنُ الذي يُحارَبُ منه العَدوُّ والمُهاجِمُ للمدينةِ، أو لأنَّه يُرْمى من شُرُفاتِه بالحِرابِ، ثمَّ أُطلِقَ على القَصْرِ الحَصينِ، وقد سمَّوا قُصورَ غُمْدانَ في اليمنِ: مَحاريبَ غُمْدانَ، وهذا المعنى هو المُرادُ في هذه الآيةِ[6].

2) ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾: (مثل) تدُلُّ تصريفاتُه على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[7]، ومِنهُ: المُثولُ، وهو الانتصابُ، والمُمَثَّلُ: المصوَّرُ على مثالِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 467.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرب).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (حرب).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (حرب).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حرب).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 160.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).

غيرِه، يقال: مَثُلَ الشَّيءُ، أي: انتصبَ، وتصوَّر[1]، وعليه فالتِّمْثال: اسمٌ للشَّيءِ المَصنوعِ مشبَّهًا بخَلْقٍ من خَلْقِ اللّه تعالى، وجَمْعُهُ: التَّماثيل، وأَصله مِنْ قولكَ: مَثَّلْت الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ؛ إذا قدَّرتَه عَلَى قَدْرِه، ويكونُ تَمْثيل الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ تَشْبيهًا بِهِ، واسْمُ ذَلِكَ المُمثَّل: تِمْثال[2]، فهو الصّورةُ المُمثَّلةُ، أَي: المُجسَّمةُ مثل شيءٍ من الأجسام[3].

3) ﴿وَجِفَانٍ﴾: (جفن) تدور اشتقاقاته على شَيءٍ يُطيفُ بشَيءٍ ويَحويه[4]، ومِنْهُ: الجَفْنة، وهو أعظم ما يكون من القِصاع[5]، والتَّجْفِيْنُ: إطعامُ النّاسِ، يُقال: جَفَّنَ فلانٌ لفُلانٍ؛ إذا اتَّخذَ له طعامًا[6]، وقيل للبئر الصَّغيرة: جفنةٌ؛ تشبيهًا بها، والجِفْن: وعاءُ السَّيفِ والعينِ، وجمعُهُ: أجفانٌ، وسُمّي الكرم جفنًا؛ تصوُّرًا أنَّه وعاءُ العنب[7]، والمُرادُ بالجِفانِ في الآية: جمعُ جَفْنَةٍ، وهي الآنيةُ الكبيرةُ.

4) ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: (جبي) تدُلُّ تصريفاتُه على جَمعِ الشَّيءِ[8]، يُقال: جَبَيْتُ الماءَ في الحوضِ، أي: جمعتهُ، والحوض الجامع له: جابيَة، وجمعها: جَوابٍ[9]، والجَبايا: الركايا الَّتي تُحْفَر، وتُنْصَب فيها قضبانُ الكَرم[10]، والمقصود بالجَوابي هنا: جمعُ جابيةٍ، وهي الحَوضُ الضَّخمُ الذي يُجبَى فيه الماءُ، أي: يُجمَعُ.

5) ﴿وَقُدُورٍ﴾: (قدر) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِهِ[11]، والقِدْرُ: اسمٌ لما يُطبخ فيه اللَّحمُ، وقَدَرْتُ اللَّحم: طبختهُ في القِدْرِ، والقَديرُ: المطبوخُ فيها، والقُدارُ: الذي يُنحر، ويُقْدَرُ[12]، والقُدورُ: جمعُ قِدْرٍ، وهي إناءٌ يوضعُ فيه الطَّعامُ ليُطبخَ من لحمٍ وزيتٍ وأدهانٍ وتوابلَ[13].

(1) الراغب، المفردات: (مثل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مثل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 162.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جفن).
(5) ابن سيده، المحكم: (جفن).
(6) ابن عباد، المحيط في اللغة: (جفن).
(7) الراغب، المفردات: (جفن).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جبي).
(9) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (جبى).
(10) ابن سيده، المحكم: (جبى).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدرو).
(12) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قدر).
(13) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 163.

6) ﴿رَّاسِيَٰتٍۚ﴾: (رسو) تدور اشتقاقاتُه على ثباتٍ، تقولُ: رَسا الشَّيءُ يَرْسو؛ إذا ثَبَتَ، واللّهُ جَلَّ ثناؤُهُ أرسى الجبالَ، أي: أثبتَها، ورَسَتْ أقدامُهُم في الحربِ، أي: ثَبتت[1]، ورَستِ السَّفينةُ: انتَهَت إلى قرار الماء، فبقيت لا تسيرُ، والمِرْساةُ: أَنْجَرٌ يُشَدُّ بالحِبال، فيُرْسَلُ في البحر، فيُمسِك بالسَّفينةِ، ويُرسيها، فلا تَسيرُ، وألقتِ السَّحابةُ مَراسيَها: ثَبَتَتْ في مَوْضعٍ، وجادتْ بالمَطَرِ[2]، ومعنى ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾، أي: ثوابت لكبرها، لا تُنتقل عن أماكنها؛ تنبيهًا على أنَّها مُخالفةٌ لِما عليه عادة النّاس[3].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

كان الجنُّ مسخَّرين لسُليمان عليه السلام في عمَلِ ما يُريد منْهُم

يعمل هؤُلاءِ الجنُّ لسليمانَ عليه السلام ما يشاءُ عمله مِن القصور الشّامخة، والصّور المختلفة، مِنَ النُّحاس والزُّجاج والرُّخام ونحوها، والجفان الكبيرة التي تكفي لعشراتِ النّاس، والبِرَكِ الواسعةِ التي يُجمَعُ فيها الماءُ، وقُدورٍ ثوابتَ في مواضِعِها، وقُلْنا لداوودَ ووَلَدِه وأهلِه: اعملوا يا آلَ داوودَ بطاعة اللّهِ سُبحانَهُ شُكرًا له على نِعَمِه الَّتي أنعمها عليكم في الدّين والدُّنيا[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ قوله: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾:

التَّفصيلُ بعد الإجمالِ توضيحٌ لما كُلِّف به الجنُّ من أعمالٍ

قوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ استئنافٌ؛ لبيان نوعيَّةِ أعمال الجنِّ[5]، وقد فُصِلَتْ هذه الجُملة عن جملة: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾؛ لكون الآيةِ الثّانية بيانًا وايضاحًا لإجمال

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسو).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (رسو).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (رسو).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 232، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 275، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 500، والبقاعي، نظم الدرر: 15/ 468، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 67.
(5) عبد الكريم مدرس، مواهب الرَّحمن، ص: 266.

الأولى؛ إذ هي مِنَ المواضع التي يُحْتاجُ فيها إلى زيادةِ بيانٍ؛ لكشفِ الغموض وإزالَةِ الإبهام، فيكون بين الجملتينِ كمالُ الاتِّصالِ.

ويجوزُ أن يكونَ بينَ الجُمْلَتينِ شبهُ كمالِ الاتِّصال؛ فتكون الآيةُ الثّانية وارِدَةً جوابًا عن سُؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الأولى، ووجهُ ذلك أنَّه لمّا كان من طبعِ تكوين الجنِّ ما جُبلوا عليه من التَّمرُّد؛ كان تسخيرُهم لسليمان عليه السلام أمرًا تحار فيه العقولُ، وهو ما يجعلُها تتطلَّع لمعرفة نوعِ ذلك، فكأنَّ سائلًا سأل: فما أعمالهم التي أُمِروا بها؟ فجاء التَّفصيلُ لما يقومُ به الجِنُّ من الأَعمال لسُليمان عليه السلام[1].

لطيفةُ صوغِ الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مُضارعًا:

الدَّلالـةُ على استمرارِ العمل ودوامه

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع في ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، لدلالتها على الاستمرارِ والدَّوام، حيث تُشير إلى أنَّ عملَ الجِنِّ لسُليمان عليه السلام كان مستمرًّا دون انقطاع أو توقُّف، ما يَدلُّ على طبيعة الخِدمة التي يُؤدّونها بين يديه على وجه الدَّوام.

نُكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

بيـانُ التَّمكينِ الإلـهـيِّ والسُّلطان الخاصِّ لسُليمانَ عليه السلام على الجنِّ

بيَّنَ اللّهُ سبحانه ما يعمله الجنُّ لسليمانَ عليه السلام، فقال: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ﴾، أي: يعمل الجِنُّ لسليمانَ عليه السلام ما يَشاءُ ويُريد[2]، فكان له التَّصرُّفُ التامُّ في الجِنِّ؛ ليُنفذوا ما يختاره، ويريده، وهذا دالٌّ على عظمةِ التَّمكين الإلهيِّ الذي منحهُ لنبيِّه سُليمانَ عليه السلام، وخصَّه به دونَ غَيْرِه.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿مَا﴾ في ﴿مَا يَشَآءُ﴾:

الدَّلالـةُ على التَّفخيمِ والتَّهويل لعجيب صنع الجِنِّ وتنوُّع مهامِّهم

الاسمُ الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ دالٌّ على التَّفخيمِ والتهويل؛ لعجيبِ صنع الجنِّ وتَعدُّد مهاراتِهم في ذلك، كما توحي باستعدادهم التّامِّ لعمل ما يشاء دون حَصْرِهم بعمل خاصٍّ، مِمّا يقتضي إتقانَهم واختلافَ مهامِّهم[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 125، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 310.

(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 204.

(3) آل مبارك، البلاغة القرآنيَّة في سورة سبأ، ص: 73.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾:

الإيضاحُ بعد الإبهامِ

(مِنْ) في قولهِ تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ بيانيَّةٌ؛ إذ الاسمُ الموصول ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ مبهَمٌ[1]، فجاء حرفُ الجرِّ وما بعدَهُ مبيِّنًا الأنواعَ المختلفة مِنَ الأعمال والمصنوعاتِ، مثل: المحاريب، والتَّماثيل، والجفان، وغيرها مِمّا ذُكرَ في الآية الكريمة.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾، ولطيفة تنكيرها:

الدَّلالةُ على المجالس الشَّريفة التي يُحامى عنها

المحاريبُ: جمعُ محرابٍ، وهو الحصنُ الذي يحارَبُ منه العدوُّ والمهاجِم للمدينة؛ ولأنَّه يُرْمى من شُرفاتهِ بالحِراب، وهو أشرفُ موضعٍ في البناء، ثُمَّ أُطْلِقَ على القَصْرِ الحصين العظيم الذي يُحارِبُ صاحبُه غيرَه بحمايته، وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية[2]، ثُمَّ أطلقَ المحراب على الذي يُخْتَلى فيه للعبادة، فهو بمنزلةِ المسجدِ الخاصِّ، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: 39]، وكان لداوودَ محرابٌ يجلس فيه للعبادة، كما قال تعالى: ﴿۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ٢١﴾ [ص: 21][3]، فالتَّعبيرُ بلفظ المحاريب مع إيرادِها منكَّرةً يدلُّ على معنى المكان المُكرَّم أو المَهيبِ العظيم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾، ولطيفة تنكيرها:

إفادةُ التَّعدُّدِ والتَّنوُّعِ في الأشكال والأصناف

التَّماثيلُ: جمع تِمثالٍ، وهو ما صوِّر على مثالِ شيءٍ آخرَ، فكلُّ ما صوِّرَ على مثال شيءٍ آخرَ، فإنَّه يُقال: تمثال له، وعلى هذا فيُمكن أنْ يُقالَ لمن صَوَّر صورة شجرةٍ، ونَحتَها مِن جسم: إنَّ هذا تمثالٌ للشَّجرة، وكذلك يُقال لمن نَحت خَشَبًا أو حَجَرًا على صورة حيوانٍ: إنَّ هذا تِمْثالٌ[4]، فتمثالُ الشَّيءِ مِثاله وصورته أيًّا كان المثالُ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 272، والعثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 112.
(2) ملاحويش آل غازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 500.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 160.
(4) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 113.

والصّورة، ذاتَ جسمٍ أو ليست بِذات جسم، ومِثالُ الشَّيء ما يُماثلُه ويحكيه[1]، وهذا التَّعبيرُ مع تنكيرِهِ يُفيد التَّعدُّد والتَّنوُّعَ في الأشكال والأصناف بحسب تنوُّع الشَّيء المُصَوَّر.

دلالةُ عطفِ الجفان على المحاريب والتَّماثيل:

كونُ آلاتِ المآكل تُطلَبُ بعد الاستقرارِ في المَسْكن

ذَكَرَ النَّظمُ الكريم آلاتِ المأكل ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ بعد المحاريب والتَّماثيل؛ لأنَّها أوَّلُ ما تُطلب بعد الاستقرار في المَسْكَن[2]، فبعد أن يتهَيَّأ الإنسانُ للسَّكن، ويُعَدُّ له بأبْهى الزّينة، تكون حاجَةُ الطَّعام هي التّالية والأكثرَ ضرورَةً، وهو ما يدلُّ عليه ذكرُ الجِفان الضَّخمة.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَجِفَانٍ﴾:

الـدَّلالـةُ على مظاهر العظمة إشـارةٌ إلى احـتـيـاجـات مملكةِ سُليمان العظيمةِ

الجِفانُ: صِحافٌ عظيمة وقِصاع كبيرة وسيعَة[3]، وجاءت مُنكَّرة في لفظها؛ تأكيدًا على عِظَمها، وهذا يتناسب مع عظمة مملكة سليمانَ عليه السلام، ووفرة ما قُدِّرَ له من الرِّزق، واحتياجات جيشِه الكبير وخَدَمِه الكثير[4].

بلاغةُ التَّشبيهِ في قوله: ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾:

بيانُ عظمةِ تلك الجفان وسَعَتِها

في قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ تشبيهٌ؛ حيث شُبِّهتِ الأواني الَّتي يوضَع فيها الطَّعام بالأحواض الكبيرة الواسعَة، فقد كان يَجْلس على القصعةِ الواحدة ألفُ رجُلٍ لكثرة جُنْدِه، وهذا التَّشبيهُ مرسلٌ مُجمَلٌ؛ لذكر أداة التَّشبيهِ وحذف وجه الشَّبه.

والغرضُ منه: بيانُ عظمة تلك الجفانِ، فَقد عبَّر النَّظم الكريمُ عَن عِظَم الجفان بِطَريقَيْن: بتَنْكيرِها الدّالِّ على العظمة، ثُمَّ تشبيهِها بالجَوابي[5].

(1) السّايس، تفسير آيات الأحكام، ص: 670.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 468.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 162.
(4) الشَّيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 171، والخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 789.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 162.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾:

القُدور: جمع قدرٍ، وهو ما يُطبخ فيه الطَّعامُ، ويُنضَجُ على النّار، وقوله: ﴿رَّاسِيَٰتٍۚ﴾، أي: ثابتات كالجبال، لا تنتقل لضَخامَتِها، وإيرادُ لفظ القُدورِ منكَّرًا يقتضي ضخامةَ حَجْمِها وتنوُّعِها واختلافَ أشكالها، وهو دليلٌ على سَعة ملك سليمانَ عليه السلام، وما بسط اللّهُ تَعالى له مِن رِزْقٍ، حتَّى إنَّه لَيُطْعِمُ على مائدتِه هذه الأعدادَ الكثيرة من النّاس التي أُعِدَّت لها تلك الأواني والأدوات لتهيئةِ الطَّعام لها[1].

نُكتةُ وصفِ ﴿وَقُدُورٖ﴾ بـ ﴿رَّاسِيَٰتٍۚ﴾:

الرّاسيات: الثّابتات في الأرض التي لا تُنزل من فوق أثافيها؛ لتداول الطَّبخِ فيها صباحَ مساءَ[2]، وقد وُصفت القدور بأنَّها راسيات لِعظَمِها؛ إذ إنَّها لا تُنقل مِن مَحَلِّها، بَل تَبْقى على الأثافي لكثرةِ الطَّبخ فيها وثِقَلِها لِعِظَمِها، واستعمالهم إيّاها دائمًا[3].

بلاغةُ الكناية بِذِكْرِ الجفان والقُدور الرّاسيات:

في قَولِه تعالى: ﴿وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ كنايةٌ عن كرم سُلَيمانَ عليه السلام وإخبارٌ بكثرةِ المأكول؛ لأنَّ الجِفانَ التي يوضَع فيها الطَّعامُ كالجَوابي، أي: كالأحواضِ الكبيرةِ، والقُدور التي يُطبَخ فيه الطَّعامُ راسياتٌ؛ لِكِبَرِها[4]، ولا يكون ذلك إلّا من كثرة الأكل، وذلك دالٌّ على كثرةِ الآكلين، وهذا يقتضي الجودَ والكرمَ، فتكون هذه الكنايَةُ عن الصِّفة من باب التَّلويح؛ لكثرةِ وسائِطِها.

نُكتةُ التَّرتيبِ بين المحاريب، والتماثيل، والجفان، والقُدور:

ذُكِرَتِ المحاريب أوَّلًا قبل التَّماثيل؛ لأنَّ الزَّخارفَ والنُّقوش تظهر عادةً على البناءِ بعد قيامِه، وجاء ذِكْرُ الجفان قبل القُدور؛ لكون

الـدَّلالـةُ على عِـظَـم الـقـدور واستعمالها الـدّائـم بيانٌ لعظمة الملك ووفرة الرِّزق

الإشـارة إلى أنَّ القدورَ عظيمةٌ لا تُـنـقَـلُ من مكانِها لثقلها واستعمالها الدّائم

بـيـانُ كـرم سُلَيمانَ عليه السلام والإخبارُ بكثرة المأكول

التَّدرُّج في عَرْضِ الآلات بِحَسَبِ المنفعةِ إبرازٌ لِعظمة المُلك وسَعة الرِّزق

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 789.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 162.
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السَّبع: 2/ 211، وملا حويش آل غازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 500.
(4) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 114، 117.

القدورِ تُستخدم للطَّهي والجفانِ لتقديم الطَّعام، والطَّهي وإن كان يَسبقُ التَّقديم؛ إلّا أنَّهُ قُدِّمَ في نظم الآية ما كان مقصودًا على ما كان وسيلةً، ولأنَّهُ لّما بيَّن حالَ الجِفانِ العَظيمَة؛ كان يقعُ في نَفْسِ المتلقّي أنَّ الطَّعام الذي يكون فيها في أيِّ شَيْءٍ يُطْبَخُ؟ فذكر القُدورَ المُناسبةَ للجِفان(1).

سِرُّ ذِكْرِ آلاتِ البناءِ هُنا وآلاتِ الحَرْبِ معَ داوود:

ذَكَرَ النَّظمُ الكريم في حقِّ داوودَ اشتغالَه بآلةِ الحرْبِ؛ لاحتياجِه إلى قِتالِ الأعداءِ، وفي حقِّ سُليمانَ المَحاريبَ والتَّماثيلَ؛ لأنَّه كان مَلِكًا ابنَ ملِكٍ، قد وطَّدَ له أبوهُ المُلكَ، فكانت حالُهُ حالَ سِلْمٍ؛ إذْ لم يكُنْ أحدٌ يَقدِرُ على مُحارَبتِهِ(2).

التَّفريقُ بَيْنَ مُهمّاتِ داوود وسُليمان وفقَ احتياجاتِ الحرب والسِّلْمِ

بلاغةُ الإطنابِ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ﴾ اسْتَدْعى المقامُ الإطنابَ، حتَّى يتأمَّل المُتلقّي أو المستمع قُدرةَ الجِنِّ الخارقة في صناعة الأشياء العظيمة، مع كونهم مُسخَّرين لنبيِّ اللّه سُليمان عليه السلام، ممّا يدلُّ على قوَّته وجبروته، كما فُصِّل الإجمالُ بهذه الأشياءِ الخارقة دون غيرها؛ ليُبْرَزَ من جهةٍ أخرى عظمةُ مُلْكِ سُليمان عليه السلام ونفاذ أمره، فأفاد هذا التَّفصيلُ قدرةَ الجِنِّ التي أودعها اللّهُ تَعالى فيهم، وقوَّة مُلْكِ سُليمان عليه السلام بتسخير الجِنِّ له وإنفاذ أمره فيهم بإذنِ اللّهِ بالإجمال أوَّلًا في قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، وبالتَّفصيل ثانيًا لئلّا يُتوهَّم أنَّ الجِنَّ لا تمتثِلُ أمرَهُ إلّا في الأمورِ اليسيرة(3).

التَّفصيلُ لإبراز عظمة مُلْك سليمان وقوَّة الجِنِّ المُسخَّر له

موقعُ جُملةِ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ وعِلَّةُ فصلها:

جُملة ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ جُملةٌ طلبيَّة على سبيل الأمر، وفيها حثٌّ على سُرعةِ الامتثالِ بالطّاعة بَعْدَ سَوْقِ جُملةٍ من أصناف

الحَثُّ على سُرعةِ الامتثال بالطّاعة بَعْدَ سَوْقِ جُملةٍ من أصنافِ النِّعَم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 198.
(2) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 8/ 528، 529.
(3) آل مبارك، البلاغة القرآنيَّة في سورة سبأ، ص: 72.

النِّعم والفضائل، وفُصِلت عمّا قبلَها؛ لأنَّها بتقديرِ القولِ على الاستئناف، والتَّقديرُ: وقُلنا اعْمَلوا، فجُملة ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ مقولٌ لِقولٍ محذوفٍ، أي: قُلنا: اعْمَلوا يا آل داوود، ومفعولُ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ محذوفٌ، دَلَّ عليه قوله: ﴿شُكۡرٗاۚ﴾[1]؛ فلمّا ذُكِرَتِ المساكِنُ وما تَبِعَها؛ أتبَعَها الأمرَ بالعمَلِ إشارَةً إلى أنَّه ﷺ ومَنْ تَبِعه لا يُلهيهم ذلك عن العبادة، فقال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾[2].

دلالةُ الأمر بـ (العمل) دون (الفعل):

إفــادةُ الاستمراريَّة والتَّواصل في أداء العمل على امتداد الزَّمن

في اختيارِ التَّعبير بالعمَلِ دون الفِعْلِ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾؛ لما يكون في العمل من الدَّلالَةِ على امتداد الزَّمان، بخلاف لفظ (الفعل)؛ فإنَّه يدلُّ على الحدث السَّريع، نحو: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ [الفيل: 1]؛ لأنَّه إهلاك وقعَ من غير بطء[3]، فالعمل يَدلُّ على أداءٍ مُستمرٍّ مُتواصلٍ، وهو المطلوب في الشُّكْرِ؛ إذِ الشُّكر يكون في مقابلِ النِّعمة، ونِعَمُ اللّه تَعالى لا تَنْقَطِعُ.

سِرُّ حذفِ القولِ في الآية الكريمة:

العنايةُ بالمقول في جَعْلِه صورةً ماثلةً للعيان

يُلْحَظ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ حَذْفُ القول، وهو كثيرٌ في القرآن، والغرضُ من حذفِ القولِ هُنا: العنايةُ بالمقول، كما أنَّ حَذْفَ القول يُعيد الصّورة أو الحالَ التي قيل فيها حتّى كأنَّها ماثلةٌ، فإذا ذُكِرَ؛ كانت حكايةً فقط، ومن هنا حُذِفَ القول لِتَتَّسِقَ الآية في سَرْدِها عن خَبَرِ سُليمان عليه السلام بضمير الغائبِ، وعَرْضِها كما هي من غيرِ فصلِ أحداثِها بفعلِ القَوْلِ[4].

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾:

الدَّلالةُ على سُرعةِ الامتثال والقيام بالمأمور

الفعلُ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ فعلُ أمرٍ، وهو باقٍ على أصلِه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 163.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 468.
(3) الكفوي، الكُليّات، ص: 616.
(4) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 8/ 529، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 163.

من الدلالة على وجوب الامتثالِ والإلزام به، ولا يُنافي هذا أن يكونَ الأمرُ متضمِّنًا معنى النُّصح والإرشادِ؛ لما في امتثالِ الأمرِ من تحقيق مصالحَ دينيَّةٍ ودُنيويَّةٍ.

دلالةُ توجيهِ الأمر للجماعة:

شمولُ الخطاب لكلِّ مَن يقَعُ تحتَ رعايةِ سُليمان عليه السلام

المُراد بهذا الأمر ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ هو سُليمان عليه السلام؛ لأنَّ هذا الكلام قد ورد في سياقِ ذكرِ قِصَّته، وخطابُ الجمعِ يُراد به التَّعظيم، أو يكون المرادُ بالأمر هوَ وأولاده، أو كُلُّ مَن يُنفق عليه، فيكون الأمر لهُ ولأتباعه ممَّن يعملون معه، أو كُلُّ مَن يتأتّى منه الشُّكرُ من أُمَّته[1]، وعليه فالضَّمير هُنا يُضفي على الخطاب طابعَ العمومِ؛ ليشمل جميعَ مَن يقع تحت رعايتِه، أو يتأتّى منهُ الشُّكر.

دلالةُ حذفِ النِّداء في: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾:

الإشارةُ إلى قُربِ مكانَتِهم

في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ أسلوبُ نداءٍ، قد حُذف حرف النِّداء مِنْهُ، والتَّقدير: اعمَلوا يا آلَ داوود، وحذفُ حَرْفِ النِّداء يُبْرِزُ قُرب مكانة المُنادَى من المُنادي، كما أنَّ في حذف حرفِ النِّداء إيماءً إلى سرعة الامتثال للأمرِ والمبادرةِ إلى العمل به[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (الآل):

تشريفُ آل داوود عليه السلام

لفظُ ﴿ءَالَ﴾ في اللُّغة: تَدلُّ على أهل البيت، أو أتباعه الذين يتَّبعون منهجَهُ وسيرتَه، ومنهم ذريَّتُه أو مَن كانوا معه على دينه وطريقته، وفي ذِكرِ ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ هُنا تشريفٌ لَهُم وتكريم بالتَّعبيرِ بـ (الآلِ)، وذكرهم في مقام العمل والشُّكر[3].

نكتةُ تقييد الفعل ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ بـ ﴿شُكۡرٗاۚ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالفعلِ أيضًا

قَولُ الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالفعلِ، كما يكونُ بالقولِ والنِّيَّةِ، كما قال الشّاعرُ:

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 8/ 526، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 276.
(2) الشِّربيني، السراج المنير: 3/ 355.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 1/ 468.

أفادَتْكُمُ النَّعْماءُ مِنّي ثلاثةً *** يدي، ولِساني، والضَّميرَ المُحَجَّبا[1]

ولا يختَصُّ الشُّكرُ باللِّسانِ[2]، فإنَّه لَمّا قام النَّبيُّ ﷺ حتَّى تورَّمَتْ قَدَماه، قيل له: "أتَتَكَلَّفُ هذا، وقد غَفَرَ اللهُ لك ما تقدَّم مِن ذَنْبِك وما تأخَّر؟"، فقال: «أفَلا أكونُ عبدًا شَكورًا؟»[3]، فجعَلَ الاجتهادَ والنَّصَبَ في قيامِ اللَّيلِ مِن جُملةِ الشُّكرِ[4]، وفي قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ دلالةٌ على وُجوبِ الشُّكرِ[5].

سِرُّ إيثارِ الأمرِ بالعمَلِ:

آثر النَّظمُ الكريمُ الفعلَ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾، دونَ: اشكروا؛ ليُنبِّهَ على التِزامِ الأنواعِ الثَّلاثة مِن الشُّكرِ بالقلب واللِّسان وسائر الجوارحِ[6].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الشُّكْر) منصوبًا:

الإشارةُ إلى أنَّ العمَلَ يكون من أجل الشُّكر، وأنَّ الشُّكرَ نفسَه من جُملة العمل

نُصِبَ لفظُ الشُّكرِ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ على أنَّه مفعولٌ له، أي: اعملوا الطّاعات يا آلَ داوود لأجل الشُّكر، وهو تعظيمُهُ في مقابلة نِعَمِهِ ليَزيدَكُم مِن فضلِهِ، وفي ذلكَ إشارَةٌ إلى أنَّ من مقاصدِ العمل أن يكونَ للشُّكر، لا لمجرَّد الرجاء والخوف وحدهما، ويجوز أن يكونَ انتصابُ ﴿شُكۡرٗاۚ﴾ على أنَّه مفعول مُطلَقٌ لـ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾؛ لأنَّ الشُّكرَ نوعٌ من العمل، كما يجوزُ أن يكون مفعولًا به، والمعنى: إنّا سخَّرنا لكم الجِنَّ يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شُكرًا، ويكون ذلك على طريق المُشاكلة[7].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 500.
(2) السُّيوطي، الإكليل، ص: 215.
(3) أخرجه البخاري، ومسلم واللفظ له، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، يُنظَر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب: التهجد، باب: قيام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، برقم (1130)، ومسلم، صحيح مُسلم: كتاب صِفَةِ القيامَةِ والجَنَّةِ والنّارِ، بابُ إكْثارِ الأعْمالِ والاجتِهادِ في العِبادَةِ، برقم (2819).
(4) العزُّ بن عبد السَّلام، شجرة المعارف والأحوال، ص: 263.
(5) السُّيوطي، الإكليل، ص: 215، والعُثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 117.
(6) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 75.
(7) الشِّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 529، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 468، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 137.

الإشارةُ إلى عَظمَةِ نِعَمِ الله تَعالى وتقصير الشّاكرين في مُقابلها

لطيفةُ تنكير لفظ الشُّكر:

نُكِّرَ لفظ ﴿شُكۡرٗاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ لإرادةِ التَّقليل، فإنَّ الشُّكرَ الكثير بالنِّسبة إلى نعماء اللّه سُبحانه خارج عن طوق البَشر بل عن طوق كُلِّ مَخلوق[1]، فالشُّكرُ بقَدرِ الطّاقةِ البشَريَّةِ هو الواقِعُ وقليلٌ فاعِلُه، وأمّا الشُّكرُ الذي يُناسِبُ نِعَمَ اللّه تعالى؛ فلا قُدرةَ عليه، ولا يُكَلِّفُ اللّهُ نفْسًا إلّا وُسْعَها[2].

التَّأكيدُ على قِلَّة الشّاكرين

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (القِلَّة)، ولطيفة تنكيرها:

في قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ نُصَّ على قلَّة عدد الشّاكرين بالنَّظر إلى مجموع العبادِ، وزيدَت هذه الدِّلالة بتنكيرِ لفظِ ﴿وَقَلِيلٞ﴾؛ تأكيدًا على قِلَّة الشّاكرين الذين يُؤَدّون حَقَّ الشُّكرِ للّه سبحانَهُ، فأفاد مجموعُ ذلك أنَّ الشّاكرينَ أقلُّ القليل.

الاهتمامُ بشأنِ هؤلاء القِلَّة الشّاكرين والتَّنويه بهم

دلالةُ تقديمِ الخَبَرِ في قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾:

﴿وَقَلِيلٞ﴾ من قول اللّه تَعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ خبرٌ مقدَّمٌ، قُدِّم للتَّنبيه عَلَى القلَّةِ من أوَّل الأمر المُتوقِّر عَلَى أداء الشُّكر[3]، و﴿ٱلشَّكُورُ﴾ مبتدأ مؤخَّر، وفي تقديم الخبر أيضًا: عنايةٌ بشأنِ المقدَّم، واهتمامٌ لأمره حتَّى يُدرَك معناه، وحتَّى يلتفتَ الأمر لهؤلاء القِلَّة، مع ما فيه من مدحٍ لهذا القليل[4].

تشريفُ عبادِ الله المؤمنين وتكريمُهم

دلالةُ الإضافةِ إلى ياء المُتكلِّم في ﴿عِبَادِيَ﴾:

المُراد من ﴿عِبَادِيَ﴾: عبادُ اللّهِ تَعالى المؤمنون، فالإضافةُ يُراد بها تَشريف المُضاف؛ إذ في إضافَةِ ضمير المُتكلِّم إلى (عباد) تشريف لهم[5]، فإنَّ لفظة ﴿عِبَادِيَ﴾ مع الإضافةِ إلى نفْسِه ﷻ لَم

(1) المظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 13.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 199.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 472.
(4) المسيري، دلالات التقديم والتأخير، ص: 565، والخرّاط، المُجتبى: 3/ 984.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 472.

تَرِدْ في القرآنِ إلّا في حَقِّ النّاجينَ، كقَوله تعالى: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: 53]، وقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحِجر: 42][1].

بلاغةُ الحذفِ في الآية الكريمة:

توجيهُ المُتلقّي إلى الصِّفة وحَثُّهُ على التَّحلّي بها

في قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ حَذْفٌ من قبيل حذف الموصوفِ وإبقاء صفته، والتَّقدير: (وقليلٌ من عبادي العبدُ الشَّكور)، وقد أفاد هذا الحذفُ - بالإضافة إلى الإيجاز - توجيهَ المُتلقّي إلى الصِّفة لكونها هي الغَرَض الأهَمَّ، والحَثَّ على التَّحلّي بها؛ لأنَّه هو المقصودُ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الشُّكر) في ﴿ٱلشَّكُورُ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ مَن يقَعُ منه مُطلَقُ الشُّكر كَثيرٌ والمبالغون فيه قليل

﴿ٱلشَّكُورُ﴾ المُبالغ في الشكر المُكثر منه، وهو من عادته الشُّكر في الأحوال كُلِّها ومثلُ هذا في النّاس قليل، وهذا معنى قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، وجيء بصيغةِ المبالَغة (فَعول) دونَ (شاكرٍ)؛ لأنَّ الشّاكِرينَ غيرُ قليلينَ، ففيها إشارةٌ إلى أنَّ مَن يقَعُ منه مُطلَقُ الشُّكرِ كَثيرٌ، وأقلُّ ذلك حال الاضطرار، وأمّا المُبالِغون في الشُّكرِ فقليلونَ[3].

دلالةُ التَّذييل بـ ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾:

التَّنبيهُ إلى أنَّ توفيَةَ شُكرِ اللهِ تَعالى متعسِّرٌ

قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ تذييلٌ، وقد جرى هنا مجرى المثل؛ لاسْتِقْلالِهِ بالإفادةِ وعدَمِ افتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في الكشْفِ عَنْ تمام مَعْناهُ، وقد أفاد التَّذييلُ في الآيةِ التَّنبيهَ إلى أنَّ توفيَةَ شُكرِ اللّه تعالى متعسِّرٌ؛ ولذا لم يُثنِ بالشُّكر من أوليائه إلّا على اثنين، فقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾ [النَّحل: 121]،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 199.
(2) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 75.
(3) السمين، عُمدة الحُفّاظ: 2/ 284، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 469.

وقال في نوح: ﴿كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: 3]، فهذا التَّذييلُ من تمام المقولِ، وفيه حَثٌّ على الاهتمام بالعمل الصّالِح وعلى الشُّكر، ويجوز أن يكون هذا التَّذييل كلامًا جديدًا مستأنفًا، أي: قُلنا ذلك لآل داوودَ، فعَمِلَ منهم قليلٌ، ولم يَعْمَلْ كثيرٌ، وكان سُليمانُ عليه السلام من أوَّل الفئة القَليلَة[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الحمد والشُّكر:

الحمدُ في اللُّغة هو الوصفُ بالجميل على جهة التَّعظيم، ومورده اللِّسان، ويُضاف إليهِ القلبُ؛ لأنَّه محلُّ التَّعظيم، ومُتعلِّقه النِّعمة وغَيْرُها، فمورِدُهُ خاصٌّ، ومتعلِّقه عامٌّ، والشُّكْرُ لغةً: عرفانُ الإحسانِ ونشرُهُ، ولا يكون إلّا في مقابل النِّعمة، فمُتعلِّقه خاصٌّ، ومورده عامٌّ؛ لأنَّه فعلٌ يُشْعِرُ بتعظيم المُنعم بسببِ إنْعامِه، فموردُهُ الظّاهر والباطن؛ لأنَّه يَعُمُّ اللِّسانَ والجَنان والأركان، ومتعلِّقُهُ النِّعمة الواصلة إلى الشّاكر، ومِن موارده القلبُ، وهو أشرفُ الموارد كلِّها[2].

الحمد أعمُّ مُتَعَلِّقًا وأخصُّ آلةً، والشُّكرُ أخصُّ مُتَعَلِّقًا وأعمُّ آلةً

فبَيْنَ الحمدِ والشُّكْرِ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ؛ لأنَّ الحمدَ قد يترتَّب على الفضائل المجرَّدة، والشُّكْرَ قد يختصُّ بالفواضلِ، والحمدُ أعمُّ مُتَعَلِّقًا وأخصُّ آلةً، والشُّكْرُ: أخصُّ مُتَعَلِّقًا وأعمُّ آلةً[3]؛ لأنَّ الحَمْدَ يكون في مقابِل النِّعمةِ، ويكون ابتداءً، قال الأزهريُّ: "الحمدُ قَدْ يكون شُكْرًا للصَّنيعة، ويكون ابْتِداءً للثَّناء عَلَى الرَّجُلِ"[4]، بل قد يُحْمَدُ على المُصيبَةِ، وذلك في حَمْدِ اللهِ تعالَى؛ إذْ يكون عَلَى كلِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 163، تفسير ابن عثيمين - سورة سبأ، ص: 117.
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (شكر)، والجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية: (حمد)، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 432.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 202، والتَّهانَوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/ 541.
(4) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (حمد).

حالٍ بخلاف الشُّكْرِ، فلا يكون إلّا في مُقابَلَةِ نِعْمَةٍ، قال في القاموسِ: "الشُّكْرُ - بالضَّمِّ -: عِرْفانُ الإحْسانِ ونَشْرُه، ولا يَكونُ إلّا عن يَدٍ"[1].

فتَحَصَّل مِن هذا أنَّ الحَمْدَ أعمُّ متعلِّقًا مِن الشُّكر؛ أمّا الآلةُ؛ فالحَمْدُ يكون باللِّسان والقلبِ دون الجوارحِ، بخلاف الشُّكْرِ فَإنَّه يكون بالقلب واللِّسان والجوارح، كما قال اللّه سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾، فتقرَّر مِن هذا أَنَّ الشُّكْرَ أعمُّ مِنْ جهة الآلَةِ.

الحَمْد والمَدْحُ:

المدحُ أعـمُّ مِـنَ الحَمْدِ مُطلقًا

الحمدُ: الإخبارُ عن محاسنِ المحمودِ مع حُبِّه وإجلاله وتعظيمه، أمّا المدحُ؛ فهو ذلك الإخبارُ ولو مُجَرَّدًا عن الحُبِّ وتوابعه، كما أَنَّ الحمدَ لا يكون إلّا لحيٍّ، والمدحَ يكون لِلحَيِّ وغيرِه، فقد يَمْدَحُ الإنسانُ جمادًا[2]، وعلى هذا يكونُ المدحُ أَعَمَّ مِنَ الحَمْدِ مُطلقًا.

(1) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/ 93، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/ 191.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإشـارَةُ إلى حتميَّة الأجل لجميعِ النّاس مَهْما بلغ مُلْكُهم

لَمّا بيَّن اللّهُ تعالى عَظمةَ سُليمانَ عليه السلام، وتَسخيرَ الرّيحِ والجنِّ له؛ بيَّن أنَّه لم يَنْجُ مِنَ الموتِ، وأنَّه قضَى عليه الموتَ؛ تنبيهًا للخَلقِ على أنَّ الموتَ لا بُدَّ منه، ولو نجا منه أحدٌ؛ لكان سُليمانُ عليه السلام أولى بالنَّجاةِ منه، فحكى اللّهُ تعالى أَمْرَ موتِه، بعد أن حكى عظمةَ مُلْكِ سُليمان، وتسخيرِ الرّيحِ والجنِّ، ليُنَبِّه أنَّه لم ينجُ من المَوْتِ، مع ما أُعطيَ مِنَ المُلْكِ الباهِرِ، وعلى أنَّ المَوْتَ لا بُدَّ منه لِكُلِّ حيّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَضَيْنَا﴾: أَصْلُ (قضي) يدُلُّ على إحْكامِ أَمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لِجِهَتِه، القضاءُ: الحُكْمُ والفَصْلُ، يُقالُ: قَضَى في الأَمْرِ، أيْ: حَكَمَ وفَصَلَ فيه[2]، ويأتي بمعنى: الأَداء، تقول: قَضَى دَيْنَهُ، أيْ: أدّاهُ، والقضاءُ أيضًا: الإنْهاءُ والإتمامُ، يُقالُ: قَضَيْتُ عَمَلي، أيْ: أَنْهَيْتُهُ، وأَتْمَمْتُهُ، وسُمّيَ القاضي قاضيًا؛ لأنَّه يَحْكُمُ في الأَشْياءِ، ويُنْهي الخِلافَ فيها، والقَضاءُ كذلك: الأَمر، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23]، أَيْ: أَمر رَبِّك[3]، والانقضاءُ: ذَهابُ الشَّيءِ وفَناؤُه، وكَذَلكَ التَّقضّي[4]، ويُعبَّرُ عَنِ الموتِ بالقَضاءِ، فيُقال: فلانٌ قضى نَحْبَهُ، كأنَّه فُصِلَ أمرُه المُخْتَصُّ به من دُنْياهُ، والمقصودُ بالقَضاءِ في الآيَة: فَصْلُ الأمرِ، قولًا كان ذلك أو فعلًا.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 199، والمنصوري، المُقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 294.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قضي).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قضي).

2) ﴿دَلَّهُمۡ﴾: (دلّ) تدلُّ تصريفاتُه على إبانة الشَّيءِ بأَمارَةٍ تتعلَّمُها، والدَّليلُ: الأَمارَةُ في الشَّيءِ، وهو بَيِّنُ الدَّلالةِ والدِّلالَةِ[1]، وهو أيضًا: الدّالُّ، وقد دَلَّه على الطَّريقِ يدُلُّه دَلالَة ودِلالة ودُلولة، والفَتْحُ أَعلى[2]، والدَّلالة: ما يتوصَّل به إلى معرفة الشَّيء[3]، والمرادُ بالدَّلالَةِ في الآية: الإشعارُ بأَمْرٍ خفيٍّ[4].

3) ﴿دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾: (دبّ) تدور اشتقاقاتُه على حركةٍ على الأرضِ أخفَّ من المَشْيِ، تقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكلُّ شيءٍ ممّا خَلَقَ اللّٰهُ تعالى يُسمَّى دابَّة، والاسمُ العامُّ: الدّابَّةُ لما يُرْكَبُ، وتصغيرها: دوَيبة[5]، ودَبَّ النَّمْل يَدبُّ دَبيبًا، أَي: مَشَى على هينته، ودبَّ القَوْم إِلَى العَدوِّ دبيبًا، أَي: مَشَوا على هينتهم لم يُسْرِعوا[6]، والدَّبيبُ: الزَّحف على الوجه[7]، والمقصود بـ ﴿دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ في الآية: الأَرَضَةُ، وهي السُّرْفَةُ، سوسٌ يَنْخُرُ الخَشَبَ[8]، وإضافَتُها إلى الأَرْض مِن إضافَتِها إلى ما تُحْدِثُه، وهو الأَرض، أي: أَكل الخَشَب.

4) ﴿مِنسَأَتَهُۥۖ﴾: (نسأ) تَدُلُّ تصريفاتُه على تأخيرِ الشَّيءِ[9]، ومِنْهُ: المِنْسَأُ: عصًا يُنْسَأُ به الشَّيءُ، أي: يُبعَد، ويُدفع[10]، يُقالُ: نَسَأت ناقتي، أي: دَفَعْتُها في السَّير، والمُنْتَسَأُ مِنَ الإبل: المباعَدُ لجرَبه، والانْتِساءُ: التَّباعُد، وما أَجِدُ عنه مُنتَسأً ومُنْسَأً، أي: متباعدًا[11]، والعَصا الضَّخمةُ التي تكون مع الرّاعي، يُقال لَها: المِنْسأة، أُخِذَت من نَسأْتُ البَعير، أَي: زَجَرْتُه ليزدادَ سيرُه[12]، والمقصودُ بالمِنْسَأَةِ في الآية: العَصا؛ لأَنَّ بها يُبعَدُ الشَّيءُ، ويُدفَعُ.

5) ﴿خَرَّ﴾: (خرر) تدور اشْتِقاقاتُه على اضطرابٍ وسُقوطٍ مع صوتٍ[13]، فالخَريرُ:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دلل).
(3) الراغب، المفردات: (دل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 164.
(5) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دبَّ).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (دبَّ).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (دبَّ).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 164.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).
(10) الراغب، المفردات: (نسأ).
(11) الخليل، العين: (نسأ).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (نسأ).
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرَّ).

صوتُ الماء والرّيح والعِقاب، وغير ذلك ممّا يسقط من عُلوٍّ[1]، وخَرَّ لله تعالى ساجِدًا يَخِرُّ خُرورًا، أَي: سقطَ سقوطًا يُسمَعُ منه خَريرٌ[2]، والمراد بالخُرورِ في الآية: الهويُّ والسُّقوطُ من عُلوٍّ إلى الأرض.

6) ﴿تَبَيَّنَتِ﴾: (بين) تدلُّ تصريفاتُه على بُعْدِ الشَّيءِ وانْكِشافِه، فالبَيْنُ: الفِراقُ، يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً[3]، والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، ومنه قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، والبَيِّنة أيضًا: الحُجَّةُ والدَّلالة الواضحة عقليَّةً كانت أو حسيَّة[4]، والتَّبْيينُ: الإيضاح، والتَّبْيِين أَيضًا: الوُضوحُ[5]، والبيان: التَّوضيحُ والكَشْفُ[6]، ومعنى ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ في الآية: عَلِمَت، من قولِهم: تبيَّن الشَّيءُ؛ إذا ظهرَ بعد التِباسٍ.

7) ﴿مَا لَبِثُواْ﴾: (لبث) تَدُلُّ تصريفاتُه على تَمَكُّث وانتظارٍ واستبطاءٍ، واللَّبْثُ: الاسمُ، واللُّبْثُ بِالضَّمِّ: المَصدرُ[7]، يُقالُ: لَبِثَ بالمكانِ، أقامَ به مُلازمًا له، وأَلْبِثْ عن فلانٍ، أي: انْتَظِرْهُ حتّى يُبديَ انتظارُكَ إيّاه خَطأَ رَأْيِه[8]، واستلبَثَهُ؛ إذا استبطأه، وهو استَفْعَلَ من اللَّبْثِ، وهو الإبطاءُ والتَّأَخُّر[9]، والمقصود باللَّبْثِ في الآية: المُكوثُ والإقامَةُ، أي: ما مَكَثوا فيه، وأَقاموا عليه.

المَعْنى الإجماليُّ:

اختصاصُ عِلْمِ الغيبِ باللهِ تعالى

ثمَّ يذكُرُ الله سبحانه كيفيَّةَ موتِ سُلَيمانَ عليه السلام، فيقولُ: فلمّا جاء سُلَيمانَ عليه السلام الموتُ ما عرَفَ الجِنُّ مَوتَه إلّا حينَ أكلَتِ الأَرَضةُ عَصاه

(1) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (خر).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خر - خرر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (بين).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بين).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لبث).
(8) ابن عباد، المحيط في اللغة: (لبث).
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (لبث).

التي كان مُتوكِّئًا عليها، فلمّا سَقَط سُلَيمانُ ﷺ مَيِّتًا حينَ ضَعُفَت عصاه، فسَقَطَت بفِعلِ الأَرَضةِ؛ ظهَر أمرُ الجِنِّ، وانكشَف للنّاسِ أنَّهم لا يَعلَمونَ الغيبَ، كما كانوا يَتوهَّمونَ، أو يوهِمونَ النّاسَ بذلك، فلو كانوا يَعلمونَ الغيبَ؛ لعَلِموا مَوتَ سُليمانَ، ولم يَلبَثوا في عَمَلِهم الشّاقِّ المُؤلِم المُذِلِّ الذي كانوا مُسَخَّرينَ فيه لسُلَيمانَ ﷺ، وهم يَحسَبونَه حَيًّا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) وسِرُّ إيثارها:

الإشارةُ إلى سُرعة وقوع المَوتِ، وتذكير الإنسان بِقِصَرِ حياته ووجوب اغتنامها بالطّاعة

وقعت الفاء عاطفة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾؛ لأنَّه لمّا كان رُبَّما استبعد بعضٌ موتَ مَن هو على هذه الصِّفة من ضخامةِ المُلك بِنُفوذ الأمرِ وسَعَةِ الحال وكثرة الجُنود؛ أشار إلى سُهولَتِه بِقُرْب زمَنِه وسُرعة إيقاعه بقوله: ﴿فَلَمَّا﴾ بالفاء، كما أنَّ التَّعقيبَ بالفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا﴾ إشارةٌ إلى قِصَرِ حياة الإنسانِ، وهو ما يَدْعو إلى شُغلها بالطّاعة والعبادة، فالفاء تفريعٌ على قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾، أيْ: (دام عَمَلُهم له حتَّى مات، فلمّا قضينا عليه الموتَ ...) إلخ[2].

بلاغةُ الكنايةِ في الفعل ﴿قَضَيۡنَا﴾:

الدّلالةُ على اكْتِمالِ الأجل وانتهاء العُمر المُقدَّر

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا﴾، أي: فحين أَمْضَيْنا قضاءَنا عليه أَن يَموتَ إذْ جاءَ أجلُهُ المُقدَّر لانتهاءِ حياتِه وموته، فـ ﴿قَضَيۡنَا﴾ كنايةٌ عنِ الموتِ، وهو كناية عن صفة، وإنَّما كان هذا التَّعبيرُ كنايةً؛ لأنَّ معنى القضاءِ الانتهاءُ مِنَ الشَّيء[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 239، 244، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 489، 490، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 501، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 676.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 469، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 164.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 473، والميداني، معارج التَّفكُّر: 12/ 53.

لطيفةُ الإسنادِ في ﴿قَضَيۡنَا﴾:

إظهارُ عظمِ قُدرة الله تَعالى وجلاله

اللّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ موصوف بالعظمةِ والجلال والكمال، وقوله: ﴿قَضَيۡنَا﴾ تَدُلُّ على التَّعظيم، ففي إسناد فعلِ القضاء إلى ضمير العظَمَة إشارَةٌ بليغَةٌ إلى قُدرة اللّهِ تَعالى المُطلقة، وسُلطانه التّامِّ، فالضَّمير هُنا يَدلُّ على عظمةِ الرُّبوبيَّة وهَيْمَنَتها؛ إذْ يُضفي على القضاءِ مَظْهَرَ الجلالِ، ويُعزِّز إدراكَ أَنَّ قوَّة اللّه وقهرَهُ مَهما بلغَتْ عظمة المخلوق وقوَّته حيثُ لا يخرجُ عن سُلْطانِه أحَدٌ، حتَّى ولو كان مِن أصحاب المُلك العظيم، كما في حالِ سُليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[1].

معنى (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهِ﴾:

بيانُ استعلاءِ قُدرة الخالق على المخلوق

حقَّق النَّظمُ الكريمُ صفة القُدرة بحرف الاستعلاء (على)، فقال سبحانَهُ: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾[2]، وفي ذلك دلالةٌ على السُّلطة والقهر، وهذا يُظهر أنَّه مَهما بلغَت عظمَةُ المخلوقِ وقوَّته أو مكانَته، فإنَّه لا مَفرَّ له من قُدرة اللّهِ تَعالى وقضائه، حيث يَخْضَعُ لأمره، ويَسْتَسْلِم لحُكمِه.

دلالةُ القصر بالنَّفي والاستثناء في الآيَةِ:

كَشْفُ زَيْفِ ادِّعاء الجِنِّ علمَ الغيبِ وفَضْحُ أمرِهم

القصر في قول اللّه تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ نَفى فيه اللّهُ تَعالى عنهم العلمَ بِمَوْتِ سُليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأثبت عِلْمَهُم بذلك عن طريقِ الأَرَضَة التي أكَلَت مِن عَصا سُليمانَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو مِن قبيل قَصْرِ المَوصوف على الصِّفة، ويلمح مِن هذا القصر ما ادَّعته الجِنُّ من معرفتهم بعلم الغيب أنَّهُ ادِّعاء باطل مِنْهم، فَفَضَحَهُمُ موتُ سُليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على هذه الهيئة، حيثُ توصَّلت إلى هذا الخبر العَظيم دوَيْبَة أقلُّ منهم شأنًا، وهو أمرٌ لعَظَمِه لا يغيب، فإنَّ موتَ المُلوك سُرعان ما ينتَشِرُ خبرُه، إضافةً إلى أنَّ نُفوسَهُم تتطَلَّع إلى

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 469، والعثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 118.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 469.

ذلكَ اليوم الذي يُعْلِنونَ فيه الخلاصَ مِن عذابهم، ولذلك قال: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[1].

سِرُّ التَّعبيرِ في الفعل ﴿دَلَّهُمْ﴾:

الإشعار إلى غفلتهم الشَّديدة وإدراكهم القاصر

الدَّلالةُ: الإشعار بأمر خفيّ، وقوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ يوحي بغفلتهم الشَّديدة وإدراكهم القاصر، بأن احتاجوا إلى من يَدُلُّهم إلى أمرٍ عظيم يتطلَّعون إليه، وهو من الأمور التي تَسْري أخبارُها كالنّار في الهشيم، كموتِ الملوك والعظماء الذي لا يَكاد يَخْفى على أحَدٍ[2].

بلاغةُ المجازِ في إسناد الدَّلالة إلى الدّابّة:

إظهارُ عَجْزِ الجِنِّ وبيان محدوديَّة عِلْمِهِم

سمعت الجنُّ صوتَ سُقوط سُليمان عليه السلام بعدما توارى مدَّةً من الزَّمن، حيث نَخَرت السّوسةُ عصاه، فانْكَسَرت فسقَط على الأرض، وهُنا تَتَبَيَّن أَنَّ الذي نبَّه الجنَّ أوَّلًا إلى مَوْتِه هو صوتُ سُقوطِه، فنسبةُ الدَّلالةِ إلى الدّابّة نسبةٌ إلى السَّبب البعيد؛ لأنَّ الدّالَّ خُرورُه لَمّا كسرت العصا لِضَعْفِها بأَكْلِها منها، وقد أَسْنَدَت الآيَةُ ذلك إلى دابَّة الأرضِ في قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾، فهو مجازٌ عقليٌّ علاقته السَّببية؛ لأنَّ الدّابَّة عندما نخَرت عَصا سُليمان عليه السلام لم تَتَحَمَّل العصا جسمَ نبيِّ اللّه تعالى سُليمان عليه السلام، فانْكَسَرت به، فكانت سببًا في وُقوع سُليمان عليه السلام وإحداث الصَّوت الذي نَبَّه الجنَّ لموتِه، ولو افْتُرِض أنَّ العصا لَم تُكْسَر؛ لم يَعْلَم الجنُّ بأمرِ موته، وهو دليلٌ على أنَّ ما نبَّه الجنَّ أوَّلًا هو صوتُ السُّقوط، بدليلِ التَّعبير بـ ﴿خَرَّ﴾ التي تدلُّ على أنَّه سَقَطَ سقوطًا يُسمَع منه خرير، وقد منع من إرادة المعنى الأصليِّ القرينةُ اللَّفظيَّة؛ لأنَّ الدّابَّة من العَجْماوات التي لا تعقل، ويتعذَّرُ أن تدلَّ بنفسِها على موتِ سُليمان عليه السلام، فهذا المجازُ يدلُّ على عجز الجِنِّ، ويوحي بمحدوديَّة قُدرة الجِنِّ التي

---

(1) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 77.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 164، وآل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 77.

يدَّعونها بعلم الغيب، حيث دلَّتهم هذه الدّوَيبَة رُغْم ضَعْفِها وصِغرِها بمَوْتِه قبل أن يَعْلَموا ذلك[1].

دلالةُ مرجِعِ الضَّمير في ﴿دَلَّهُمۡ﴾:

الـدَّلالـةُ على الـشُّـمـول في المَعْنيّين بالأمر مـن الـجـنِّ والإنس

قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمۡ﴾، أي: ما دَلَّ الجِنَّ التي كانت تعمل مُسخَّرةً تحت أمرِه على موته إلّا دوَيْبَةٌ صغيرَة كانت تأكُل مِن عَصاه[2]، ويحتَمِلُ أن يعودَ ضميرُ ﴿دَلَّهُمۡ﴾ إلى معلوم مِنَ المقام، أي: أهل بَلاطِه[3]، ولا تنافيَ بين الدَّلالتين، ولا مانع من إرادَتِهما معًا.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿دَآبَّةُ﴾، ولطيفةُ إضافَتِها:

تـفـخـيـمُ شـأنِ هـذه الـدّابَّـة وتعظيمُ أمْرِها

دابَّة الأرض: السّوس التي تَنْخر الخشبَ، ويحتملُ أن تكونَ إضافتُها إلى الأرض مِن إضافة الشَّيء إلى فِعْلِه، فأُضيفَت إلى فِعْلِها، وهو الأرض، أي: الأكل، كما يَحْتَمِلُ أن تكونَ إضافَتُها إلى الأرضِ التي تَدِبُّ عليها، ففخَّمها بهذه الإضافة التي مِن معناها أنَّه لا دابَّة للأرضِ غيرها؛ لِما أفادته من العلم[4].

وفي التَّعبير بالدّابة مُبالغةٌ في الإشارة إلى جَهْلِ الجِنِّ بعلم ما في الغيب، وأنَّ دابَّةً من الدَّوابِّ في الأرض أعلَمُ مِنْهُم، حيث دلَّتهم، وكشفت لهم عَمّا عجزوا هُم عن كَشْفِه، وهيَ مِمّا على الأرض، فكيف بما في السَّماء من عوالِمِ المخلوقات[5].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ ودلالتها:

الـدَّلالـةُ على الـجـنـس في الأرض، وأنَّ الدّابَّة هي الّتي تَخْرُجُ منها

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ يُرادُ بها الجِنس، أي: فالمُراد بالأرض: الجنسُ، والمعنى: إلّا الدّابَّة التي تخرج من الأرض، وهي الأَرَضَةُ، أو لأنَّها لكَونها تأكل من كُلِّ شيءٍ من أجزاء الأرض مِن خشبٍ

(1) الشِّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 531، وآل مبارك، البلاغة القرآنيَّة في سورة سبأ، ص: 77.
(2) الحجازي، التَّفسير الواضح: 3/ 132.
(3) النَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 12/ 236، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل وأسرار التأويل: 4/ 244.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 469، 470.
(5) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 11/ 793.

وتُرابٍ وثيابٍ وغَيْرِ ذلك، وهي أحقُّ الدَّواب بهذا الاسم، ويَزيدُ ذلك حُسنًا أنَّ مَصْدَرَ فِعلِها (أَرَضٌ) بالفتحِ والإسكانِ، فيصيرُ مِن قبيلِ التَّورية[1].

لطيفةُ صَوْغِ فعلِ الأكل مُضارعًا:

إفــادةُ الاستمراريَّة والتَّدريج في الفعل

التَّعبيرُ بالفعل ﴿تَأْكُلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ يحمِلُ دلالةً بليغَةً؛ حيثُ جاء بصيغَةِ المُضارع؛ ليُفيدَ الاستمراريَّة والتَّدرُّج، مِمّا يُشير إلى أنَّ الأكْلَ كان عمليَّة مُستمرَّة بمُرور الوقتِ، ولم يكن دُفعةً واحدة؛ وقد ذَكَرَ المُفسِّرون أنَّها ظَلَّت تفعل هذا مُدَّة طويلة، بلغ بها بَعْضُ أهل التَّفسيرِ سنَةً كاملةً[2]، فهذا الاختيارُ يُظهر طبيعةَ فعلِ السّوسة في أكلِ عَصا سُليمان عليه السلام ببطء، دون أن يُدرك الجِنُّ الذين كانوا يواصلون عَمَلَهم، مُعتَقِدين أنَّ سليمان عليه السلام لا يَزالُ حيًّا.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾، ولطيفة الإضافة فيه:

إبـرازُ هَـيْـبَـةِ سُليمان عليه السلام تأكيدٌ على زَجْرِ الجِنِّ وإظهار ضَعْفِهم

﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾، أي: عصاه التي يَتَوَكَّأ عليها مِنَ النَّسيء، وهو التَّأخير في الوقت؛ لأنَّ العصا يُؤَخَّر بها الشَّيء، ويُزجر، ويُطرد[3]، وآثرت الآيةُ لفظة (منسأة)، وهي مِن الألفاظ التي تَفَرَّدت، فلم تتكَرَّرْ في القرآن الكريم، مع تكرار مُرادفها (عصا)، ووجهُ ذلكَ: تصويرُ الهَيْئَةِ التي كان عليها سُليمان عليه السلام أَثْناءَ موته، حيث كان مُنكَبًّا على العصا في حالِ خُشوع وإنابة اللّهِ تَعالى، ولتُفَسِّر لنا هذه الهيئة سرَّ انتباه الجِنِّ بِمَوْتِه، حيثُ سَمِعوا صوتَ سُقوطه؛ إذْ لَو كان مُضْطَجِعًا مثلًا؛ لَما أدرك الجِنُّ موتَهُ إلى أن يشاء اللّه تعالى، لِنَخْلُصَ بعدَ هذا كُلِّهِ إلى كَذِبِ ادِّعاء الجِنِّ أنَّهم يَعْلمونَ الغَيْبَ[4]،

---

(1) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 123.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 373، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 503، والخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 11/ 793.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 573، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 244.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 280، وآل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 78.

فالتَّعبيرُ بالمِنْسَأَة يُبْرِزُ هَيْبَة سُليمان ﵇ حتّى في هيئةِ مَوْتِه تأكيدًا على زَجْرِ الجِنِّ وإظهار ضَعْفِهم.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾:

التَّرتيبُ الزَّمنيُّ في الأحداث مع الإشارة إلى السُّرعة في الحدث

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ تصويرٌ للحال التي ظهر فيها خبرُ موت سُليمان ﵇ وانكشافه؛ إذْ بينَما هو مُتَّكئ عليها، وقد وافاهُ القَضاء المحتومُ؛ انْكَسَرت عصاه، فسقط على الأرض، فاستبان للجِنِّ أنَّهُم لا يعلمون الغيبَ، كما كانوا يَزْعُمون[1]، وتأتّي الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾ تعقيبٌ يُفيد التَّرتيب الزَّمنيَّ في الأحداث مع الإشارةِ إلى السُّرعة في الحدَث.

دلالةُ (لمّا) في قولِه: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾:

الدَّلالةُ على التَّرابطِ الزَّمنيِّ بَيْنَ السُّقوط والتَّبيُّن

(لمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ ظرفيَّةٌ حينيَّة مُتضمِّنة معنى الشَّرط، متعلِّقة بالجواب ﴿دَلَّهُمۡ﴾[2]، والمعنى: فحين سقط سُليمانُ ﵇ بعد أن انْكَسَرَت عصاهُ؛ خَرَّ، وسَقَطَ ﵇ على الأرض، فحينئذٍ قد تَبَيَّنَتِ الجِنُّ[3]، فلمّا تُبيِّن الزَّمن الذي جاء فيه الحدثُ، وتَرْبط بينَ السُّقوط وتبيُّن الجِنِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الخرور) في الفعل ﴿خَرَّ﴾:

إظهارُ تأثير الفعل في تصوير إدراك الجِنِّ لموت سُليمان ﵇

معنى ﴿خَرَّ﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾: سَقَطَ سقوطًا يُسمَع منه خرير، والخرير يُقال لصوت الماء والرّيح وغير ذلك مِمّا يسقط من علوٍّ[4]، وقد آثر النَّظمُ القرآنيُّ اختيارَ لفظة ﴿خَرَّ﴾ لما فيها مِن مَعْنى الموت وزيادة، وهو الهَوِيُّ من علوٍّ إلى سُفْلٍ، مع سماع صوتِ السُّقوط؛ وذلك لأنَّ سليمان ﵇ سَقَطَ، وخرَّ على الأرض

(1) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 67، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 212.
(2) طيب إبراهيم، إعراب القرآن الكريم، ص: 429، وبهجت صالح، إعراب القرآن الكريم، ص: 207.
(3) شيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 172، والجيلاني، تفسير الجيلاني، ص: 415.
(4) الرّاغب الأصفهاني، المفردات: (خرَّ)، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 278.

خُرورَ المَوْتى[1]، في تلك اللَّحظةِ التي تحَقَّقت فيها حقيقةُ المَوْتِ، فَهو قرينَةٌ بيِّنة على الموتِ.

دلالةُ نسبَةِ الخُرور إلى الفاعِل:

الـدَّلالـةُ على إضافـةِ الـشَّيءِ إلى مَن لم يَقُمْ به باختيارِه

في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ إضافةُ الشَّيءِ إلى مَن لم يَقُمْ به باختيارِه، فالخرورُ قد يُضافُ إلى الفاعلِ بالاختيارِ، كقوله تعالى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ [مريم: 58]، وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾ [الإسراء: 109] هذا بالاختيارِ، وقد يُضافُ إلى الفاعلِ بغيرِ الاختيارِ، فيُقال: (خَرَّ الماءُ)، ويُقال: (خَرَّ ميِّتًا)[2].

موقعُ جُملة ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾، ودلالة فَصْلِها:

كونُها جوابًا عمّا جاء قَبْلَها مِن كلامٍ

جُملة ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ واردةٌ جوابًا عن سؤالٍ تُثيرُهُ جُملة ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾، فكانَ فصلها عنها؛ لما بينهما مِنْ شِبْهِ كمال الاتِّصال، فكأنَّ سائلًا سأل: ماذا كان الأمرُ بعد انكسار العصا وسُقوط سليمان عليه السلام على الأرض، فجاء الجوابُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾[3].

دلالةُ إسنادِ التَّبيُّن إلى الجنِّ:

الدَّلالةُ على أنَّ الجِنَّ لهم عقول يهتدون بها إلى الأمور

في قَولِه تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ دليلٌ على أنَّ الجنَّ ذوو عقولٍ، فقد أعطاهم اللّهُ تعالى عقولًا يَهتدون بها إلى مصالحِ دينِهم ودُنياهم[4]، ولذا أُسنِدَ فعلُ التَّبيُّن لَهُمْ.

بلاغةُ الحذف في الآية الكريمة:

الدَّليلُ على كذب دَعوى الجِنِّ وإبطال اعتقاد العامَّة فيهم

في قول اللّهِ تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ إيجازٌ بالحذف، فقَد حُذِفَ المُضاف، وتقديرُهُ: تبيَّن أمرُ الجنِّ، أي: ظهر وبانَ، فلمّا حُذِفَ المُضافُ، وأقيم المضافُ إليه مُقامه، وكان مِمّا يجوز تأنيث فِعْلِه؛ أُلْحِقَت علامة التَّأنيث به[5]، وتظهر نُكتَةُ الحذفِ في توصُّل الجنِّ

(1) الميداني، معارج التَّفكُّر: 12/ 54.
(2) العُثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 124.
(3) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 8/ 76، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 32.
(4) العُثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 124.
(5) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 9/ 167.

بأنفُسِهم إلى الحقيقةِ بما جعلهُ اللّه تعالى سببًا من أمر الأرَضَةِ، وفي هذا دليلٌ على كذب دَعْواهُم بمعرفة الغيب، وإبطالٌ لاعتقاد العامَّة يومئذٍ وما يَعْتَقِدُه المشركون أنَّ الجنَّ يَعْلَمون الغيبَ، فلذلك كان المشركون يَسْتَعْلِمون المغيَّبات مِنَ الكُهّان، ويَزْعُمون أَنَّ لكلِّ كاهنٍ جنّيًّا يأتيه بأخبار الغيب، ويسمّونه رَئيًّا[1].

دلالةُ فَصْلِ قوله: ﴿أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ﴾:

إبطالُ دعوى علمِ الغيبِ لدى الجِنِّ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ عمّا قبله؛ لوقوع ﴿أَن﴾ مع صلتها بدلًا مِن ﴿ٱلۡجِنُّ﴾ بدلَ اشتمال، فيكون المعنى: ظهر أنَّ الجنَّ ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾، أو: علم الجنُّ كُلُّهم علمًا بَيِّنًا بعد التباس الأمر عن عامَّتهم وضعَفتهم، وتوهُّمهم أنَّ كبارَهم يَصْدُقون في ادِّعائهم علمَ الغيب، وأنَّهم لا يعلمون الغيبَ، وإن كانو عالمين قبلَ ذلك بحالهم، وإنَّما أُريدَ التَّهكُّمُ بهمْ، كما تَتهكَّمُ بمُدَّعي الباطلِ؛ إذا بَطَلَت حُجَّتُه، وظهَرَ إبطالُه بقولِكَ: هلْ تبيَّنْتَ أنَّك مُبطِلٌ؟[2].

سِرُّ استعمال أداةِ الشَّرط ﴿لَّوۡ﴾ بعد (لمّا):

إظهارُ شدَّةِ حَسرتهم بعد عِلْمِهم بموت سُليمان عليه السلام

يُلْحَظُ أنَّ الآيَةَ الكريمةَ ورَدَ فيها أداتا شرطٍ، وهما: (لمّا) و﴿لَّوۡ﴾، وبالنَّظر إلى المدَّة الزَّمنيَّة بين حدوث شرط (لمّا) في قوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ هو موتُ سُليمان عليه السلام، وبين جوابِهِ وهوَ ظهور أمر وفاته؛ فإنَّنا نجدهُ الوقتَ ذاتَهُ الذي يَصْطَلون فيه بأنواع العذاب، ولو كانو يعلمون الغيبَ؛ ما خَفيَ عَنْهُم مثلُ هذا الأمر العظيم الذي يتَمَنَّون حصولَه، ولذلك جاء التَّعبير بـ ﴿لَّوۡ﴾ الشَّرطيَّة التي تُفيد امتناعَ الجوابِ لامْتِناعِ الشَّرط، وهو أسلوبٌ يدلُّ على شدَّةِ تحسُّرِهم في هذا الموقِفِ العَجيب[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 165، وآل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 79.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 574، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 8/ 532.

(3) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 80.

الإشارةُ إلى ادِّعائهم السّابق واعتقادهم الفاسد

دلالةُ التَّعبير بالكون الماضي:

دخول ﴿لَّوۡ كَانُواْ﴾ على الفعل المضارع ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في قوله: ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ يحوِّل معناه إلى المُضيِّ، وفي التَّعبيرِ بالفعل المُضارع هنا إشارةٌ إلى ادِّعائهم السّابق واعتقادهم الفاسد في أنَّهم يتحلَّون بهذه الصِّفة[1].

الإشارةُ إلى رؤساء الجِنِّ وتبيان حقيقتهم لعامَّة الجِنِّ والإنس

لطيفةُ العدولِ مِن التَّأنيث إلى التَّذكير:

عَدَل النَّظمُ الكريم عن التَّأنيث في الفعل ﴿كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ بعد أن أُنِّث الفعل ﴿تَبَيَّنَتِ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالضَّمير في ﴿كَانُواْ﴾ هُم رؤساؤُهم؛ إذْ هُمُ الذين يَدَّعون علمَ الغيب لأتْباعِهم مِنَ الجِنِّ والإنْسِ، ويوهِمونَهُم بذلكَ[2]، وبذلك يكون المعنى: أنَّ الذين تبيَّنت لهم الحقيقةُ هُم عامَّة الجِنِّ أو صغارُهُم؛ حيثُ انْكَشَفَت لهم حقيقةُ مَرَدَتِهم وكِبارِهِم.

شدَّةُ الانغماس في العذابِ المُذِلِّ

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾:

المُرادُ بالجِنِّ في الآية الكريمة: الكفرَةُ منهم؛ لأنَّ المؤمن لا يكون مُهانًا في مُلْك نَبيِّه[3]، وقد دلَّ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ على شدَّةِ انغماسِهم في العذاب المُذِلِّ، حيث كان سُليمان عليه السلام يأمرهم، ويستعمِلُهُم في أمور شاقَّة وأعمال صَعْبَة، فبَيَّنَ أنَّ لُبثهم في ذلك هوَ لبثٌ في العذاب المُهين[4].

التَّهديدُ بالإهانَةِ والاحْتِقار لكُلِّ مَن تَمَرَّد عن أمرِ مَوْلاهُ

دلالةُ صيغةِ (فعيل) في ﴿ٱلۡمُهِينِ﴾:

﴿ٱلۡمُهِينِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ صيغة مُبالغة، وهيَ تدلُّ على مُضاعفة العذابِ الذي كان سُليمان عليه السلام يَصبُّه عليهم لِعِصْيانِهم وتمرُّدهم على الطّاعة، وكان العَذابُ الذي عُذِّبوا بِهِ هوَ

(1) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 80.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 412.
(3) آلغازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 502.
(4) الماتريدي، تفسير الماتريدي: 8/ 436.

مُكثُهم في الخِدْمَةِ حَوْلًا كامِلًا بَعْدَ مَوْتِ سُلَيْمانَ عليه السلام، وهم يَحْسبونَ أَنَّ سُلَيْمانَ عليه السلام حَيٌّ[1]، حيث بَقوا في الأَعمال الشّاقَّة والعذاب البالغ الحدَّ في المهانة والذُّلِّ[2]، كما أنَّ في هذه الصّيغة تهديدًا ووعيدًا بالإهانة والاحتقار لكُلِّ مَن خالَف وتمَرَّد عن أمرِ مَوْلاهُ.

مناسبَةُ ذِكْرِ العذابِ المُهين لمَطْلَعِ الآياتِ:

كشفُ حقيقَةِ مَرَدَةِ الجِنِّ

في ذِكْر عذابِ الجِنِّ ملمحٌ إلى أمرٍ غَفل عنهُ المشركون، فإنَّه لمّا كانوا يَعْتَقِدون ما يعتقده الجِنُّ أنفسُهم مِنِ ادِّعاء معرفتِهم الغيبَ واطِّلاعهم عليه؛ كان سبب وقوعِهم في العذابِ المُهين هو ما اعْتَقدوهُ، فلَمْ يُنْجِهم مِنَ العذاب ادِّعاؤهم الغيبَ باعْتِقادهم أَنَّ سليمان عليه السلام لا يَزالُ حَيًّا، ولو قُدِّر لهم غيرُ ذلك؛ لعرفوا مَوْتَهُ، كما اسْتَدَلَّت عليه دابَّةُ الأرض، بما أودعه اللّهُ تعالى فيها مِن خصائصَ، وفي هذا تحذيرٌ للمُشْرِكين أَنْ يَتَّخِذوهُم آلهَةً بعدَ كَشْفِ حَقيقَتِهم[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الدَّلالة والإرشاد:

الـدَّلالـة عـامَّة في معنى البيان والـتَّـعـريـف، والإرشـاد بيانُ وجـه الـحَـقِّ والخير

الدَّلالةُ: ما يُتَوصَّل به إلى معرفة الشَّيء، كدلالة الألفاظِ على المعنى، ودلالة الإشاراتِ والرُّموز والكتابة والعقود في الحساب، وسواء أكان ذلك بقصد ممَّن يجعلهُ دلالةً، أم لم يكُن بقَصْدٍ، كمَنْ يَرى حركةَ إنسانٍ، فيعلم أنَّه حيٌّ، قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾، والإرشاد بيانُ الطَّريق والتَّعريف بالقصد والصَّواب[4]، ولا يُقال: أَرْشَدَهُ إلى المحبوبِ، والرّاشد هو القابل للإرشاد، والرَّشيد: مُبالغة من ذلك، ويجوز أن يكون الرَّشيد: الذي صَلُح بِما في نفسه ممّا بعث عليه الخير، والرّاشد: القابل

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 371.
(2) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 310، والعُثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 125.
(3) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 80.
(4) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رشد).

لما دلَّ عليه من طريق الرُّشد[1]، والنّاظر في سياق الآياتِ الَّتي ورد فيها لفظ الدَّلالة ومُشتقّاته؛ يَجِدُ أَنَّ أكثرها في غير معنى الهداية إلى اللّه تَعالى، بل الدَّلالة على شيءٍ دُنْيَويٍّ، عدا قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠﴾ [الصف: 10]، وفي هذا قرينةٌ على أنَّ الاستعمال القرآنيَّ للفظ الدَّلالة يَقْصُرُه على معنى البيان والتَّعريف، وعلى هذا يكون الإرشادُ أخصَّ من الدَّلالة، فالدَّلالة عامَّة في معنى البيانِ والتَّعريف، سواءٌ أكان ذلك في الخير أم في الشَّرِّ، وبقَصْدٍ أم بغير قصد، بخلاف الإرشاد فإنَّهُ بيانُ وجه الحقِّ والخير، ولا يكون الإرشاد في الشَّرِّ، ولا بُدَّ أن يكون مقصودًا[2].

(1) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 4/ 141.
(2) محمد داوود، معجم الفروق الدلالية، ص: 254.

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾ [سبأ: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قـصّـةُ داود وسليمان مَثَلٌ للشّكور، وقصّةُ سبأٍ مَثَلٌ للكفور

لـمّا بيَّن اللّهُ تعالى لقريش حالَ الشّاكِرينَ لنِعَمِهِ المنيبينَ إليه، بذكْرِ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السلام؛ بيَّنَ حالَ الكافِرينَ بأنعُمِه، المعرضين عنه، بحكايةِ أهلِ سَبَأٍ[1]؛ لأنَّ في حالِ أهلِ سَبأٍ مُضادَّةً لأحوالِ داودَ وسُليمانَ؛ إذ كان هذانِ مَثلًا في إسباغِ النِّعمةِ على الشّاكرينَ، وكان أولئك مَثَلًا لِسَلبِ النِّعمةِ عن الكافرين[2]، وأيضًا جَرَّ خبَرُ سُلَيمانَ عليه السلام إلى ذِكْرِ سَبأٍ؛ لِما بيْنَ مُلكِ سُليمانَ وبيْن مَملكةِ سَبأٍ من الاتّصالِ؛ بسَبَبِ قِصَّةِ بِلْقيسَ[3]، أو لَمّا فرَغَ التَّمثيلُ لمحمَّدٍ ﷺ؛ رجَعَ التَّمثيلُ للمُشرِكينَ - أي: لحالِهم - بسبَأٍ، وما كان من هلاكِهم بالكُفرِ والعُتوِّ[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِسَبَإٖ﴾: (سبأ) أصلٌ يدلُّ عَلَى أَربَعَةِ معانٍ مختَلِفةٍ: فالأوَّلُ سبَأْتُ الجِلْدَ، إذا مَحَشْتَهُ حتَّى أَحرقَ شَيئًا من أَعاليه، والثّاني سَبَأْتُ جِلدهُ: سَلَخْتُهُ، والثّالثُ سَبَأَ فُلانٌ عَلَى يَمينٍ كاذِبَةٍ، إذا مَرَّ عَلَيها غَيرَ مُكتَرِثٍ، وممّا يُشتَقُّ من هَذا قَولُهُم: انْسَبَأَ اللَّبَنُ، إذا خَرَجَ مِنَ الضَّرعِ، والمَسبَأُ: الطَّريقُ في الجَبَلِ، والمَعنَى الرّابعُ قَولُهُم: ذَهَبوا أَيادي سَبَأَ، أَي مُتَفَرِّقينَ، وهَذا من تَفَرُّقِ أَهلِ اليَمَنِ[5]، وسَبَأَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 200.
(2) دروزة، التّفسير الحديث: 4/ 275.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 165.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 413، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 165.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبي/ سبأ).

في الأصل اسمُ رجلٍ من قحطان، ثمّ سُميّتْ به بلدةٌ معروفة[1] في اليمن، اشتُهرتْ تاريخيًّا بمَلِكتها (بلقيس)، وبسدّها العظيم (سدّ مأرب)، الذي كان تَهَدُّمُه إيذانًا بأفولِ نجم الحضارة السّبئيّة[2]، والمُرادُ بسبأ في الآية: الحيُّ أو القبيلةُ المُسمّاةُ باسمه، وكانوا يسكنون مأرب[3].

2) ﴿مَسۡكَنِهِمۡ﴾: (سكن) أصل يدلُّ على خِلافِ الاِضْطِرابِ والحَرَكَةِ؛ أي: هو دالٌّ على الاستقرار، والسَّكَنُ: السّكونُ، وما يُسْكَنُ إليه، ويُستعملُ في الاستيطان، نحو: سَكَنَ فلانٌ مكانَ كذا؛ أي: استوطنه[4]، وسكَنَ بالمكانِ: أقامَ فيه[5]، والمَسْكَنُ بفتْحِ الكافِ وكَسْرِها: البَيْتُ، والمَنزِلُ، والجَمْعُ مَساكِنُ[6]، ومعنى ﴿مَسۡكَنِهِمۡ﴾ في الآية: منازلُ آل سبأ.

3) ﴿طَيِّبَةٞ﴾: (طيب) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الخبيثِ، والطَّيِّبِ: ما تستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النَّفس، يُقالُ: أرضٌ طيِّبةٌ للّتي تصلحُ للنَّبات، وريحٌ طيِّبةٌ؛ إذا كانت ليِّنةً ليستْ بشديدةٍ؛ وطُعْمةٌ طَيِّبَةٌ؛ إذا كانتْ حلالًا، وامرأةٌ طيِّبةٌ؛ إذا كانت حَصانًا عفيفة[7]، ومعنى ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾؛ أيْ: كثيرةُ الثّمار، وطيّبةُ الهواء، ليس فيها شيءٌ مُؤذٍ[8].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

إخبارٌ عن أهلِ سبأ وما آتاهم اللهُ من نِعَمٍ دالّةٍ على قدرةِ اللهِ وفضله

يقولُ تعالى: لقد كان لأهلِ سَبَأٍ في مَسكَنِهم علامةٌ واضِحةٌ تدلُّ على قدرةِ اللّه وعلى فضلِه على خلقه، وعلى وجوبِ شُكره على

(1) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (سبأ).
(2) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (سبأ).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 279.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سكن).
(5) ابن سِيده، المحكم: (سكن).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 377، والواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 342، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 59.

نعمه؛ بُستانانِ عَظيمانِ عن أيمانِهم وشَمائِلِهم، وقُلْنا لهم: كُلوا مِن رِزقِ رَبِّكم، واعمَلوا للّه تعالى وحْدَه وأطيعوه؛ شُكرًا له على ما أنعَمَ به عليكم، ثمّ بيَّن ما يوجِبُ الشُّكرَ المأمورَ به[1]، ببيانِ تمامِ النّعمة عليهم، فقال سبحانه[2]: هذه بلدةٌ طَيِّبةٌ، والمُنعِمُ بها رَبٌّ غَفورٌ يَستُرُ الذُّنوبَ، ويَتجاوَزُ عنِ المُؤاخَذةِ بها[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل الآية عمّا قبلها:

عدمُ اشتراكِ الجملتيْن في الحُكمِ يمنعُ من عطفهما

بيْنَ جملة ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ﴾، وجملة ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: 14] تناسبٌ وارتباطٌ؛ فهما تتعلّقان بقصّتين قُصدَ بهما تذكيرُ قريشٍ بمثَلَيْنِ يعرفونهما؛ مثلٌ لِمَنْ آمنَ وشكرَ، وهو داود وسليمان عليهما السلام، ومثل لِمَنْ أعرضَ وكفرَ، وهم قومُ سبأ، لكنْ يمنعُ من عطفهما مانعٌ؛ أنّ السّابقة خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى، وهذه إنشائيّةٌ لفظًا ومعنًى، فبينهما كمالُ انقطاعٍ؛ فهي قصة جديدة مستأنفة.

توالي المؤكِّدات في جملة ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ﴾:

مبالغةٌ في تأكيدِ الآيةِ الدّالّةِ على قدرةِ اللهِ وعظيمِ إحسانه

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾ عدّةَ مُؤكِّدات؛ وهي: اللّامُ الموطِّئةُ للقَسَم، وحَرفُ التَّحقيقِ (قَدْ)، والقَسَمُ المُقدَّر؛ لأنَّ هذا على تَقدير القَسَم؛ أيْ: "واللّه لَقَدْ كانَ لِسَبَأ آيةٌ عظيمةٌ دالّة على اللّهِ جل جلاله، وعلى قدرتِه على مجازاةِ المحسنِ بإحسانه، والمسيء بإساءته"[4]، وكذلك من المؤكِّدات: الجملةُ الاسميّةُ التي تَدلُّ على ثباتِ وقوّةِ الحُكْمِ وبَقائِه؛ أيْ: ثبات هذه الآيةِ الدّالَّة على قدرةِ اللّه وعظيمِ إحسانه، وهذا التّأكيدُ لِتَنزيلِ المُخاطَبينَ بالتَّعريضِ بهذه القِصَّةِ مَنزِلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك؛ لِعَدَمِ اتِّعاظِهم بحالِ قَومٍ مِن أهْلِ

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 138.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 200.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 375، 377.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 126.

بِلادِهم[1]، وإنْ كانتْ روحُ الآياتِ ومضمونها يُلهِمان أنّ ما كان من أمرِ سبأ وما صاروا إليه ليس غريبًا على السّامعين، وهذا ما يجعلُ العبرةَ والمثلَ قويّيْن ومُلزِميْن هنا أيضًا[2].

دلالة التّعبير بفعل الكون الماضي:

آيةٌ باقيةٌ حتى الآنَ، لكلّ مَن قرَأَ خبرَها

استعملَ البيانُ الإلهيُّ فعلَ الكون الماضي ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾؛ للدّلالةِ على إطلاقِ هذه الآية، الدّالّةِ على قدرةِ اللّه؛ لا اختصاصِها بالزّمن الماضي قبلَ زمان الخطاب؛ لأنّ ﴿كَانَ﴾ تدلُّ على مجُرَّد الحُدوث؛ أي: إنّها مَسلوبةُ الدَّلالة على الزّمَن، فإنّ هذه الآيَةَ باقيةٌ حتى الآنَ، لكلّ مَن قرَأَ خبرَها[3].

معنى (اللّام) ودلالتُها في المتعلّق ﴿لِسَبَإٍ﴾:

بيانُ اختصاصِ أهلِ سبأ بالتّكريمِ إقامةً للحُجّةِ عليهم

لامُ ﴿لِسَبَإٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ للاختصاص؛ لقصدِ تشريفهم بهذا الاختصاص؛ امتنانًا من اللّهِ عليهم؛ أيّ: خصّكم بهذه الآية العظيمة، الدّالّة على قدرةِ اللّه وإحسانه ووجوبِ شكره، وفي هذا مبالغةٌ في إقامةِ الحُجّة عليهم، بأنْ خصّهم بما لم يخصّ غيرَهم، فكفروا ولم يشكروا.

أثر تنوُّع القراءات في قوله: ﴿لِسَبَإٍ﴾:

في الجمعِ بين القراءات إثراءٌ للمعنى

في قوله تعالى: ﴿لِسَبَإٍ﴾ ثلاثُ قراءات[4]: قراءةُ أبي عمرو والبزّي عن ابن كثير بالمنعِ من الصّرفِ؛ أيّ: بفتحِ الهمزةِ من غيرِ تنوين: ﴿لِسَبَأَ﴾، على أنّه اسمُ بُقْعَة، وهي تشيرُ إلى رجوعهم بما صاروا إليه من سوءِ الحالِ إلى غالبِ أحوالِ تلك البلاد في الإقفارِ وقلّة النّبتِ والعطش، وقراءةُ الجمهور بالصّرفِ؛ أيّ: بجرِّ الهمزةِ مع التّنوين على أنّه اسمُ قبيلة؛ لأنَّ اللّهَ جعلَ الآيةَ لسبأٍ، والظّاهرُ هو العاقلُ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 166.
(2) دروزة، التّفسير الحديث: 4/ 275.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 126.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 337.

المكان، فلا يحتاجُ إلى إضمارِ الأهل[1]، وهذه القراءة تشيرُ إلى ما كان عليه أهلُ سبأ من الدّعةِ ورفاهةِ العيش.

وقراءةُ قُنبل بتسكينِ الهمزة: ﴿لِسَبَأْ﴾، وهي تشيرُ كذلك إلى ما كان عليه أهلُ سبأ من الدّعةِ والسّكونِ والطّمأنينة[2]، وفي الجمع بين القراءات الثّلاث إثراءٌ للمعنى، وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿فِي مَسۡكَنِهِمۡ﴾:

دلائلُ متمكّنةٌ ظاهرةٌ للنّعمِ التي أنعمَ اللهُ بها على أهلِ سبأ في مساكنهم

دلّ حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾ على الظّرفيّة، وهي ظرفيّةُ تمكُّنٍ وإيغالٍ للدّلائلِ على قدرةِ اللهِ، والعبرِ فيما حَباهمُ اللّهُ من نِعَمٍ في مساكنهم، وما تضمّنته من جنانٍ عن يمينٍ وشمالٍ، وفي هذا التَّمكّنِ والإيغالِ دلالةٌ على ظهورها لكلّ أحدٍ.

سرّ انتقاءِ لفظِ المسكن:

المسكنُ من إنعامِ اللهِ تعالى؛ فهو مكانُ الاستقرارِ والإقامةِ، والرّاحةِ من التّعب

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بلفظ المسَّكن دون المنزلِ والبيت في قوله تعالى: ﴿كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾؛ لكونهِ أنسبَ مع سياقِ الحديثِ عن كمالِ الإنعامِ على قبيلةِ سبأ؛ فإنّ المسكنَ من السّكونِ وعدمِ الاضطراب والحركة، فهو مكانُ الاستقرارِ والاستيطانِ والإقامةِ والرّاحةِ من التّعب[3]، وهذا يقتضي أنْ يكون السّكنُ في مكانٍ تحقّقتْ فيه مقوّماتُ الأمنِ.

غرضُ إضافة (مَسْكَن) إلى ضمير أهل سبأ:

اختصاصُ أهلِ سبأ بنعمةِ السّكنِ والطّمأنينة؛ امتنانًا وإقامةً للحُجّة عليهم

أضافَ البيانُ القرآنيّ لفظ (مَسْكَن) إلى ضميرِ أهلِ سبأ (هم) في قوله: ﴿مَسۡكَنِهِمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى كمالِ إنعامِ اللّهِ على أهلِ سبأ، بأنْ خصّهم بهذه المساكن التي كانتْ آيةً عظيمةً في

---

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم القرآن: 16/ 38.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 475.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن سِيده، المحكم، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سكن).

جمالها، وما تُحقّقهُ من سكنٍ وراحةٍ وطمأنينة ومُتعٍ كثيرة؛ امتنانًا وإقامةً للحُجّة عليهم.

أثر تنوُّع القراءات القرآنيّة في ﴿مَسۡكَنِهِمۡ﴾:

التّنوّعُ في آثارِ نعيمِ مساكنِ أهلِ سبأ، دليلٌ على عمومِ رَغَدِ عيشِهِم

قرأ الجمهورُ ﴿مَسَٰكِنِهِمۡ﴾ بصيغةِ الجمع، وهو ما يدلُّ على أنّ كلَّ واحدٍ منهم له مَسكنٌ[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى عموم الرَّغدِ وانتفاءِ الفقرِ والفاقة، وقرأه حمزةُ وحفصٌ وخلف بلفظِ المُفرد في ﴿مَسۡكَنِهِمۡ﴾.

وقرأ الكسائي وخلف العاشر بالإفراد مع كسر الكاف: ﴿مَسۡكِنِهِمۡ﴾، فحجة من وحَّد أنه بمعنى السكنى، فهو مصدر يدلُّ على القليل والكثير من جنسه، فاستغنى به عن الجمع مع خفَّة الواحد، وحجة من جمع أنه لـمّا كان لكل واحد منهم مسكن وجب الجمع، ليوافق اللفظ المعنى، وحجة من فتح الكاف في الواحد أنَّه أتى به على المستعمل المعروف، لأن المصدر من: (فعَل يفعُل)، يأتي أبدًا بالفتح، نحو: (المقعد، والمدخل، والمخرج)، فهو أصل الباب، وحجة من كسر أنه جعله ممّا خرج على الأصل سماعًا، جاء بالكسر في المصدر، والفعل على (فعَل يفعُل)، وقد جاء ذلك في أحرف محفوظة منها: (المسجد، والمطلع)[2].

ولا خِلاف بينهما في المَعنَى؛ لأنَّ لفظ (مَسۡكَن) مُفرَد، والمُفرَد المُضاف يَعُمُّ ويشمَل كُلَّ ما يَدخُل تحت هذا المَعنَى[3].

عندما تذوب الفروق فلا امتياز لأحدٍ

وفي الإفراد "إشارةٌ إلى أنّها لشدّةِ اتّصالِ المنافعِ والمرافقِ كالمسكنِ الواحد"[4]، وكذلك فيه إشارةٌ إلى عموم الرّغد حتّى إنّ مساكنهم متشابهةٌ لا فروقَ بينهما؛ فهي كالمسكنِ الواحد، إلّا أنّ حمزةَ وحفصًا فتحا الكاف ﴿مَسۡكَنِهِمۡ﴾ على أنّه اسم المكان[5]، أو

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 350، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 413.
(2) مكّي، الكشف: 2/ 204.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 127.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 475.
(5) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 16/ 38.

على المصدر؛ أي: السُّكْنَى، وهو اسمُ جنسٍ يُراد به الجمع[1]، وفي الفتح "إشارةٌ إلى ما فيها من الرّوحِ والرّاحة"[2]، وقرأها الكسائيُّ وخَلَف: ﴿مَسۡكِنِهِمۡ﴾ بكسر الكاف؛ بمعنى: "في موضعِ سُكْناهُم"[3]، وهو خارجٌ عن القياس؛ لأنّه مضارعٌ غيرُ مكسورِ العينِ، فحَقُّ اسم المكان منْهُ فتحُ العين[4]، وفي الكَسْر "إشارةٌ إلى أنّها في غايةِ الملاءمة لهم واللّين"[5].

دلالة التّعبير بـ ﴿ءَايَةٞۖ﴾، ولطيفةُ تنكيرها:

عجيبُ نعيمِ جنانِ سبأ علامةٌ واضحةٌ على قدرةِ الله وإنعامه

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التعبيرَ بالآية في قوله تعالى: ﴿فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾؛ لكون لفظِ الآية أعمَّ من غيرها؛ كالعَلامة والعبرة والدّليل؛ فقد وردتْ معاني لفظ (الآية) في القرآن على أوجهٍ؛ إلّا أنَّ التّعبير بلفظ ﴿ءَايَةٞۖ﴾ أنسبُ لوضوحِ وكمالِ هذه الجنانِ التي أكرمَ اللّه بها أهلَ سبأ، ولكونها علامةً ظاهرةً ودلالةً واضحةً، وبرهانًا ساطعًا على الحقّ، وعلى أنَّ لَهُمْ خالقًا خَلَقَهُمْ، وأنّ المنعمَ عليهم هو اللّه، وعلى قُدْرةِ اللّه وحِكْمته في النِّهاية؛ لأنَّ هذه المَساكِنَ - كما سيَأتي - دُمِّرَتْ بسبَبِ إعْراضِهم[6].

في جنتيْ سبأ شديدُ عَجَبٍ

في التَّعبير بـ﴿ءَايَةٞۖ﴾ أيضًا إشارةٌ إلى أنّ في الجنَّتَيْن - وهما ماهيّة هذه الآية - عجائبَ، وأنّهما يختلفان عن الجنانِ التي نعرفها، وقد ذَكرتْ بعضُ كتب التّفسير شيئًا من هذه العجائب[7]، ومنها: أنّه ليس فيها بَعوضٌ ولا ذبابٌ ولا برغوث ولا عقربٌ ولا حيّة[8]، أمّا تنكيرُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 413.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 475.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 413.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 166.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 475.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 375، والواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 341، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 283.
(7) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12293.
(8) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 59.

لفظ الآية؛ فللدّلالةِ على تعظيمِ هذه الآية؛ فهي آيةٌ فخيمةٌ عظيمةٌ لا يُقادرُ قدرُها.

فائدة إفراد لفظ ﴿ءَايَةٌۖ﴾:

عجائبُ جنانِ سبأ مُتماثلةٌ في الدّلالة متّحدةُ الجهة

عبَّر السّياق القرآنيُّ بلَفظ (الآيةِ) في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾، مع أنَّ الجَنَّتينِ آيتانِ، والعجائبَ في هاتين الجنّتين كثيرةٌ؛ لِتَماثُلِهما في الدَّلالةِ، واتِّحادِ جِهتِهما، كقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50][1]، ولأنّ كلمةَ (آية) تُطلقُ على الجمعِ أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]؛ فلم يَقُلْ: آيتين؛ لأنّ الأمرَ الغريبَ الذي جمعهما واحدٌ[2].

سِرُّ تقييد ﴿لِسَبَإٖ﴾ بالجارّ والمجرور:

في ذِكْرِ مسكنِ سبأ اهتمامٌ به، ودفعٌ لتصوُّرِ عجائبه وتعريضٌ بالمشركين

قيّدَ البيانُ الحكيمُ لفظَ ﴿لِسَبَإٖ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿فِي مَسۡكَنِهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ﴾، ولم يَقُلْ: (لقد كان لسبأ آيةٌ جنتان)؛ اهتمامًا بنعمةِ المسكنِ، وبيانًا لعظيم عجائبه، ودفعًا أكثرَ للتأمُّلِ في هذه الآيةِ المتعلّقةِ بمكانِ إقامتهم الذي يعيشون فيه، وقد تمكّنوا في نعمِه، وتحقّقَ لهم فيه الاستقرارُ والاستيطانُ، والهُدوءُ وعدمُ الاضطرابِ، والإقامةُ والرّاحةُ من التّعب؛ بما يُهيّئُ الذِّهنَ لتصوّرِ هذا النّعيم، وفي هذا القيد كذلك تعريضٌ بقريش، التي أنعمَ اللّهُ عليها بالبلدِ الأمين، الذي تُجبى إليه ثمراتُ كلّ شيءٍ.

أثر الموقع الإعرابيّ لقوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾:

في البدليّة والإخبارِ بيانٌ لماهيّةِ الآيةِ وتفسيرٌ لها

﴿جَنَّتَانِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾ إمّا بدلٌ من ﴿ءَايَةٞۖ﴾ باعتبارِ تكملَتِه بما اتَّصلَ به

(1) الرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 419، والأنصاريّ، فتح الرحمن، ص: 465.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12293.

من المُتَعَلِّقِ والقَوْلُ المُقَدَّرُ، "وأبدلَ مُثَنَّى من مفرد؛ لأنّ هذا المفرد يصدقُ على هذا المثنى"[1]، أو خبرُ مبتدأٍ تقديرُه: (الآيةُ جنتان)، أو (هي جنتان)[2]، ويمكنُ أنْ تكونَ ﴿جَنَّتَانِ﴾ ابتداءً، وخبرُه في قوله: ﴿عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾[3]، "وفيه: معنى المدح، ويُؤَيِّدُه قراءةُ النَّصبِ على المدح"[4].

وفي البدليّةِ والإخبارِ بيانٌ لماهيّة الآيةِ وتفسيرٌ لها[5]، وكذلك في البدليّة كِنايةٌ عن طيبِ تُربةِ بلادِهم، وقد قيل: إنّ أهل سبأ كانوا يَزْرَعونَ ثلاثَ مَرّاتٍ في كُلِّ عامٍ[6].

نُكْتَةُ تثنية ﴿جَنَّتَانِ﴾، ولطيفةُ تنكيرهما:

كثرةُ الجنانِ واتّصالُها عن يمينِ وشمالِ مسكنِ سبأ دلالةٌ على الرّغدِ والأمنِ

تَثْنِيَةُ الجَنَّتَيْنِ في قوله تعالى: ﴿فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ﴾ إمّا بِاعْتِبارِ أَنَّ ما على يَمِينِ السّائِرِ كَجَنَّةٍ، وما على يَسارِهِ كَجَنَّةٍ؛ بما يدلُّ على كَمالِ هذهِ الجنّات، والمعنى: مجموعةُ جنانٍ عن يمينِ مسكنهم، ومجموعةٌ عن شماله، كلُّ واحدةٍ منهما في تقاربها وتضامّها كأنّها جنّة واحدة[7]؛ فهي "لشدّةِ اتّصالِ بعضِه ببعضٍ عن يمينِ كلِّ سالكٍ وشماله في أيّ مكانٍ سلكَ من بلادهم، ليس فيها موضعٌ مُعطّل"[8]، وهذا فيه إشارةٌ إلى أنّ الأمنَ كان مُستتبًّا بينهم، بما لا يضطرهم إلى الفصلِ بين بساتينهم بسورٍ أو حائطٍ[9].

جنانٌ وثمارٌ وظلالٌ، هل بعد هذا جمال؟.

ويحتمل أيضًا أن يكون المقصود أنَّه كانَ لكلّ رجلٍ مِنْهُم في مَسْكَنِهِ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 16/ 41.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 58، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 244، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 16/ 41.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 413.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 127.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 534.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 166 - 167.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 244.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 477.
(9) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12294.

- أيْ: دارِه - جَنَّتانِ؛ جَنَّةٌ عَنْ يَمينِ مسكنِه، وجَنَّةٌ عَنْ شِماله[1]، فَكانوا يتفيّؤون ظِلالَهُما في الصَّباحِ والمساء، ويجتنونَ ثمارهما مِنْ نَخيلٍ وأَعْنابٍ وغَيْرِها، فَيَكونُ مَعْنَى التَّرْكيبِ عَلَى التَّوْزيعِ؛ أيْ: لِكُلِّ مَسْكَنٍ جَنَّتانِ، كَقَوْلِهِمْ: رَكِبَ القَوْمُ دَوابَّهُمْ، وهذا يؤيّده السّياق؛ فقد ورد فيه قوله: (في مَساكِنِهِمْ)، دونَ (في بِلادِهِمْ)، أَوْ (ديارِهِمْ)[2]، وأمّا تنكيرُ ﴿جَنَّتَانِ﴾؛ فللدّلالة على كثرةِ الجنانِ وتعظيمها وتفخيم شأنها، فهي جنانٌ عظيمةٌ كثيرةٌ فخيمةٌ، جَعلتْ أهلَ سبأ في أَحسَنِ ما يكونون من الرَّغَد والهَناء والأَمْن.

دلالة الجارِّ والمجرور ﴿عَن يَمِينٍ﴾:

صفةُ مساكنِ سبأ أنّها محفوفةٌ بالجنان

الجارُّ والمجرور ﴿عَن يَمِينٍ﴾ إمّا صفةٌ لـ﴿جَنَّتَانِ﴾[3]، أو خبرٌ للمبتدأ ﴿جَنَّتَانِ﴾[4]، أو خبرُ مبتدأ مُضمرٍ؛ أيْ: هما عن يمينِ الوادي وشِماله، أو: هما عن يمين مَنْ أتاها وشماله[5]، والمعنيان لا يتعارضان، و﴿عَن﴾ بمعنى (عند)، فإنّ المساكنَ محفوفةٌ بالجنّتين، لا مظروفةٌ لهما[6].

دلالة ذِكْر جهتي ﴿يَمِينٍ﴾، ﴿وَشِمَالٖ﴾:

خِصْبٌ وازدهارٌ في كلِّ جزءٍ من أجزاءِ مساكن سبأ

في ذِكْرِ جهتي اليمينِ والشِّمال في قوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٖ﴾ كنايةٌ عن الخصبِ والازدهارِ في كلّ جزءٍ من أجزاءِ البلاد، وأنّ المارَّ بأرضِ سبأ كان أنّى اتّجه يرى الخيراتِ عن يمينه وشماله، ونكّر الجهتَيْن فلم يَقُلْ: عن اليمين والشِّمال؛ لإفادةِ عموم هاتَيْن الجهتَيْن وشمولهما وسعتهما، فهما ليستا جهتين محدودتين بسعةٍ معيّنة؛ بل تشملان كلّ يمينٍ وشمالٍ للوادي، أو لكلِّ مسكنٍ من مساكنهم.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 244، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 127.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 167.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 81.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 413.
(5) ابن عادل، اللّباب في علوم القرآن: 16/ 41.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 81.

بلاغة المطابقة بين ﴿يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾:

بيانُ كمالِ نعمةِ جنانٍ تشملُ وادي سبأ ومسكنَهم كلّه

﴿يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ بينهما طباقٌ لكونهما متقابلين في المعنى، وفي هذا زيادةٌ في حُسْنِ الكلام، ودلالةٌ على بيانِ كمالِ نعمةِ الجنانِ التي تشملُ الوادي كلّه، يمينَه وشمالَه، أو تشملُ يمينَ وشمالَ كلّ مسكنٍ من مساكنهم؛ أيْ: كانتْ مدينتهم (مأرب) محفوفةً على يمينها وشمالها بغابةٍ من الجنّات، يصطافون فيها ويستثمرونها.

موقع جملة ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾، ودلالتُه:

بيانٌ لكمالِ النّعمةِ، وتعجيلٌ لسوقها

جملة ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ هي مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ؛ حِكايةً لِما قيلَ لهم على لِسانِ نبيِّهم؛ تَكْميلًا للنِّعمةِ، وتَذكيرًا لِحُقوقِها، أو لِما نطَقَ به لِسانُ الحالِ، أو بَيانٌ لِكَونِهم أحِقّاءَ بأنْ يُقالَ لهم ذلك[1]، وفي حذفه بلاغةُ إيجازِ الحذف؛ تعجيلًا لسوقِ المقول، وزيادةً في بيانِ كمالِ النّعمة.

سِرُّ إيثار التّعبير بالأكل دونَ غيره:

الأكلُ أعظمُ وجوهِ المنافع، وفيه دلالةٌ على كرمِ جنانِ سبأ، ويُسْرِ الانتفاعِ بها

آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ التّعبيرَ بالأكلِ دونَ غيره، فلمْ يقلْ مثلًا: (انتفعوا)، رغم أنّ المُرادَ به الانتفاعُ بسائرِ ما ينتفعُ به، من أكلٍ وشربٍ وغير ذلك؛ وذلك لأنّ الأكلَ هو أعظمُ وجوهِ الانتفاع؛ إذ تقومُ به البُنية؛ وللإشارةِ إلى كرم تلك الجنانِ، وسعةِ ما بها من الخير، ويُسرِ الانتفاع بها، حتّى وكأنّه جاهزٌ للأكل، ولا يُحتاجُ إلّا أنْ يُقال لهم: كلوا[2]، فاللّهُ ﷻ جعَلَ في هاتين الجَنَّتَينِ خيرًا كثيرًا، وجعَلَ تَناوُلَها مُيَسَّرًا، كما لو قدّمتُ لكَ طعامًا وقُلْتُ: كُلْ؛ أيْ: إنَّ هذه الجَنّاتُ تُعطي ثِمارها بدون مَشَقَّة، بل باليُسْر والسُّهولة[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 575، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 127، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 167.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 477.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 129.

غرض الأمر ﴿كُلُواْ﴾، ومرجعُ ضمير الخطاب:

أَمْرُ أهلِ سبأ بالأكلِ هو لمُطلَقِ الإباحةِ أو بمعنى الخبر

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ على إطلاقه؛ أيّ: للإباحة[1]، لا ندبَ ولا إيجاب، وفي الأمرِ إشارةٌ إلى تكميلِ النّعم عليهم، حيثُ لم يمنعهم من أكلِ ثمارها خوفٌ ولا مرضٌ[2]، أو أنّه أمرٌ بمعنى الخبر؛ أيّ: يخبرُ اللّهُ بأنّهم كانوا يأكلونَ من رزقِ ربّهم[3]، والضّمير في ﴿كُلُواْ﴾ يعودُ على قوم سبأ؛ لأنّ الحديثَ عنهم.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾:

الرِّزقُ من اللهِ لقومِ سبأ كثيرٌ بما يستدعي شكرَهم لا كفرَهم

حرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إمّا لابتداءِ الغايةِ إنْ عُلّقتْ بالفعل ﴿كُلُواْ﴾، أو للتّبعيض[4] إنْ عُلّقت بمحذوف هو مفعول ﴿كُلُواْ﴾، تقديره: (رزقًا)، وتكون ﴿مِن﴾ حالًا من ذلك المفعول المقدّر؛ أيّ: كلوا رزقًا من رزقِ ربّكم، والتّبعيضُ يفيدُ كثرةَ الرّزقِ الذي تميّزتْ به بلدةُ سبأ، وهذا يستدعي شكرهم للّه لا كفرهم به، وفي هذا إقامةٌ للحجّة عليهم.

دلالة التّعبير بالرّزق:

الرّزقُ قِوامُ الحياةِ والنّعمةُ الظّاهرةُ وهو أنسبُ لكمالِ الإنعامِ

عبّر البيانُ الحكيمُ عمّا أنعمَ اللّهُ به على أهلِ سبأ بالرّزق في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾؛ لأنّ الرّزقَ هو عطاءُ اللّهِ سبحانه[5]، والرّازقُ: المُعطي، وهوَ اللّهُ[6]، ولأنّ الرّزق هو الغايةَ المرجوّة، وهو النّعمةُ الظّاهرةُ التي أنعمَ بها ﷻ على عباده في حياتهم؛ من غذاءٍ ولباسٍ ومأوى، فهو يشملُ كلَّ ما يُنتفعُ به من مالٍ ونحوه[7]، ومن ثَمَّ كان التّعبيرُ بالرّزقِ أنسبَ للسّياقِ المتضمّنِ لكمالِ الإنعامِ من اللّه تعالى.

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 480.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 200.
(3) الكتّانيّ، تفسير القرآن الكريم: 219/ 2.
(4) بهجت صالح، الإعراب المفصّل: 9/ 326.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رزق).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (رزق).

سِرُّ إضافة الرِّزق إلى الرُّبوبيّة ﴿رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ﴾:

آثرَ النّظمُ الحكيمُ الإضافةَ إلى لفظِ الرّبوبيّةِ دون لفظ الأُلوهيّة في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ﴾، فلم يَقُلْ: (كُلوا من رزق الله)؛ وذلك للدّلالةِ على عظيم عطائهِ وإحسانه سبحانه وامتنانه وتفضّله[1]؛ فإنّ لفظَ الرّبوبيّة يدلّ على المِلكِ والتّربيةِ والرّعايةِ والعنايةِ والتّدبيرِ والقوامةِ والإصلاحِ والعطاءِ والإنعام، والمعنى: كلوا من رزقِ المُحسن إليكم، المُتفضّل عليكم، الذي أخرجَ لكم منها كلَّ ما تشتهون[2]؛ أيْ: في الإضافة دلالةٌ على أنّها "رُبوبيةٌ خاصَّةٌ لعِنايته ﷻ بهم، بما أَعطاهم في هذه الجَنّاتِ"[3] تلطّفًا بهم، وتأليفًا لقلوبهم نحو الشُّكران، كما أنّ لفظَ الرّبوبيّة أعمُّ من لفظِ الألوهيّة، وهو بذلك أنسبُ للسّياق؛ فلفظُ ﴿كُلُواْ﴾ خطابٌ عامٌّ يشملُ كلَّ مربوبٍ، وعطاءُ الرّبوبيّة يشملُ كلّ النّاسِ، مؤمنِهم وكافرِهم، أمّا عطاءُ الأُلوهيّة فهو خاصٌّ بالمؤمنين الذين يتّبعونَ منهجَه سبحانه.

بيانٌ لعظيمِ عطائهِ وعنايتهِ سبحانه؛ تلطّفًا بقومِ سبأ، وتأليفًا لقلوبهم

سِرُّ تقييد فعلِ الأكل بالقيد ﴿مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ﴾:

قيَّد البيانُ القرآنيُّ فعلَ الأكل بالقيد ﴿مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ﴾ دون غيره؛ فلم يَقُل: (مما تحرثون وتزرعون)؛ للإشارةِ إلى تعظيم شأنِ هذا الرّزق المضافِ إلى الرّبّ سبحانه، المتّصفِ بصفاتِ الجلال والكمال، وأنّه لا يكونُ فيه عملٌ أو سببٌ، وإنّما عطاءٌ من اللهِ بلا عملٍ وبلا سببٍ، لذلك تمّمَ الآية وختمها بقوله: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾، وفي هذا كلّه تعريضٌ بهم لزهدهم في هذه النّعمةِ العظيمة الثّابتة؛ إذ لا زُهدَ في نعمةٍ لتكرارها، وتعريضٌ بهم لعدم شُكرهم لهذه النِّعمةِ التي لم يُكلّفوا بأسبابها، وإنّما كُلّفوا فقط بشُكرها،

تعظيمٌ لانتفاع لا كُلفةَ لسبأٍ فيه، وتعريضٌ بهم لزُهدهم في نِعَم الله

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصّل: 9/ 326.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 477.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 129.

وفيه تحذيرٌ لهم منَ الاغترار بها، بظنّهم أنّهم أصبحوا مالكين لها، ونسيانهم أنّ المُنعِمَ بها عليهم هو اللّه، وكلُّ ما هم فيه إنّما هو من عطاءِ اللّه وفضله(1).

امتنانٌ ناسبهُ إضافةُ الرّزقِ إلى الله، وتملّكٌ ناسبهُ الإضافة إلى القرية

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ:

أضافَ البيانُ القرآنيُّ الرّزقَ إلى اللّهِ سبحانه في الآية هنا: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾؛ لأنّ السّياقَ سياقُ امتنانٍ، ناسبَهُ إضافةُ الرّزق إلى اللّه ﷻ، بينما لم يُضفِ الرّزق إلى اللّهِ ﷻ في سورة النَّحل في قوله: ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا﴾ [النّحل: 112]؛ لأنّ المقامَ مقامُ وصفٍ للامتيازاتِ التي وقعتْ لهذهِ القرية، ولذا أُضيفَ الرّزقُ إليها من بابِ النّصِ على امتلاكِ القريةِ لهذه الامتيازات؛ أيْ: ناسبتِ الإضافةُ سياقَ التّنعم والتّملّك(2).

معنى (الواو) ودلالتُها في قوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾:

الشّكرُ لا يُطلَبُ إلّا على النّعمةِ المُعتَبَرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قولُه: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾، بجامعِ أنّ كليهما أمرٌ من اللّهِ على لسانِ نبيّهم؛ بالتّنعم برزقِ ربّهم، وهو أمرُ إباحةٍ، والشّكرِ على هذه النّعم، وهو أمرٌ مُشتركٌ بين الوجوب والنَّدب، "فإنَّ الشّكرَ لا يُطلبُ إلّا على النّعمة المعتبرة؛ أي: اعملوا له بطاعته"(3).

غرض الأمر في قوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾:

أمرُ وجوبٍ وندبٍ، يُظهرُ صدقَ الاعترافِ بنِعَمِ اللهِ وتعظيمه

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ للوجوبِ، أو أنْ يكونَ للأمرِ المشترك بين الوجوب والنّدب، وهو ليس للإباحة(4)، والمُرادُ بهذا الأمر الإلهيّ إظهارُ تعظيمِ اللّه تعالى، وبيانٌ لِكَمالِ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12294 - 12295.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 225.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 16/ 42.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 480.

النِّعْمَةِ؛ فإنَّ الشّكرَ لا يُطلبُ إلّا على النّعمةِ المعتبرة[1]، وهو بيانٌ لمدى صدقيّةِ تقديرِ هذه النّعمةِ من قِبَلِ قوم سبأ؛ إذ شُكرُ النّعمةِ هو طاعةُ اللّهِ بها بتركِ المعاصي، ولزومِ الطّاعات والتّقربِ إلى اللّهِ وطلبِ رضوانه.

دلالة التّعبير بالشّكر:

عطاءاتٌ من اللهِ لقومِ سبأ، تستوجبُ شكرهم باللّسانِ والجوارحِ والجَنانِ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ الشّكر في قوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ دون غيره من الألفاظ كالمدح والثّناء؛ لأنّ المدحَ يكونُ على الصّفاتِ، والشّكرَ يكونُ على الأفعال، ولا يكونُ الشّكرُ إلّا عن يَدٍ[2]، وعلى إنعامٍ وصلَ إلى المُنعَم عليه[3]، والمدحُ والثّناءُ لا يكونُ إلّا باللّسان، بخلافِ الشّكر فإنّه يكون باللّسانِ والجوارحِ والجَنان[4]، وسياقُ الآية هي عطاءاتٌ من اللّه ونِعَم أنعمَ بها على قومِ سبأ، وهي تستوجبُ الشّكرَ لا المدحَ والثّناء، ولأنّ مظاهرَ الشّكرِ من قِبَل العبدِ تتعلّقُ بالقَلْب واللّسان والجوارِح، والمعنى: فاعترِفوا بأنَّ هذه النِّعْمَةَ من اللّه تعالى، وأَثْنوا على اللّهِ تعالى بها، وقوموا بجوارِحِكم بطاعته حتّى تُؤدّوا الشُّكر على الوجهِ المَطلوب منكم[5]؛ أي: اشكروا اللّهَ بالكلمةِ المنفتحةِ على نعمه، المعترفةِ بفضله، وبالعملِ الصّالح الذي يتجسّدُ فيه رضاه.

في الشّكر منجاةٌ من الوقوع في كفر النّعمة

والتّعبير بالشّكرِ أيضًا مناسبٌ لسياقِ ذِكْرِ الكفر في الآيات: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾؛ لأنّ الشّكرَ في اللّغة يضادّ الكفر[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 200.
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (شكر).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/ 19.
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 450.
(5) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 129.
(6) الرّاغب، المفردات، ص: 461.

معنى (اللّام) ودلالتُها في قوله: ﴿لَهُۥ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾ لإفادة الاختصاص؛ والمعنى: "خصّوه بالشّكرِ بالعملِ بما أنعمَ به في ما يُرضيهِ ليُديمَ لكم النِّعمة"(1).

نُكْتَةُ إسنادِ ﴿كُلُواْ﴾ و﴿وَٱشۡكُرُواْ﴾ إلى واو الجماعة:

عمومُ التّفضّلِ بالنّعمِ يستلزمُ عمومَ الشّكرِ عليها

أسندَ البيانُ القرآنيُّ الفعلين ﴿كُلُواْ﴾ و﴿وَٱشۡكُرُواْ﴾ إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾؛ للدّلالة على عموم تفضّله سبحانه بإباحةِ الانتفاع بكلّ ما أنعمَ اللّهُ به، لكلِّ فردٍ من أفرادِ قوم سبأ، وبالمقابل أمرَ كلَّ فردٍ منهم بشُكرِ هذه النّعم، وأنْ يجتمعَ رأيهم وحالُهم على ذلك، فعمومُ التّفضّلِ يستلزمُ عمومَ الشّكر عليها.

نُكْتَةُ تقييد فعلِ الشّكر بالقيد ﴿لَهُۥ﴾:

التّخفيفُ على قومِ سبأٍ في الشّكر، وعدمُ تحميلهم ما لا يستطيعون

قُيِّد الفعلُ في ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾ بالجارِّ، ولم يُقلْ: (واشكروه)؛ لِما بينهما من فرقٍ؛ ففي القول (واشكروه) لا يُلتفتُ إلى فعلِ الإحسانِ المذكور، بل يُتجاوزُ إلى شكرِ ذاته العليّة بجميعِ ما تتفضّلُ به، بخلافِ القول ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾، فإنّ الشّكرَ فيه على ما تفضّلَ من الإحسانِ المذكور، وفي هذا تخفيفٌ عن المخاطَبين، ورفقًا بهم وبقدراتهم، بتكليفهم بحسبِ ما يستطيعون، فإنّهم يقصرونَ عن إدراكِ عَظَمَةِ عطائه سبحانه(2).

نُكْتَةُ تقديم جملة ﴿كُلُواْ﴾ على ﴿وَٱشۡكُرُواْ﴾:

النّعمةُ توجبُ شُكرَ المُنعِمِ الذي أباحَ ومكّنَ

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ﴾ على جملة ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾، من باب تقديمِ السَّببِ على المُسبَّب؛ فإنّ النّعمةَ توجبُ شكرَ المنعمِ الذي أباحَ ومكّنَ، وهو سلوكُ الأوفياءِ ومنهجُ الأتقياءِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 477.
(2) حقّي، روح البيان: 1/ 256.

علّة فصلِ جملة ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾ عمّا قبلها:

استئنافٌ مُبيِّنٌ لِما يوجبُ الشُّكرَ المأمورَ به

فَصَلَ القرآنُ جملةَ ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ عمّا قبلها، ولم يربطهما بعاطف؛ إمّا لِما بين الجملتين من كمال اتّصال؛ لأنّ جملة ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾ من تمام القولِ، وهي مستأنفةٌ في الكلام المقول؛ أيِّ: بلدةٌ لكم طيّبة[1]؛ إذ إنّه لَمّا بيّن حالهم في مساكنهم وبساتينهم وأكلهم؛ أتمّ بقوله: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ ببيان النّعمة، بأنْ بيّن أنْ لا غائلةَ عليه، ولا تَبِعةَ في المآل في الدّنيا، فقال: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾؛ أيِّ: طاهرةٌ عن المُؤذياتِ؛ لا حيّةَ فيها ولا عقربَ، ولا وباءَ ولا وخم، وقال: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾؛ أيِّ: لا عقابَ عليكم ولا عذابَ في الآخرة، فعند هذا بانَ كمالُ النّعمة، حيثُ كانت لذّةً خاليةً عن المفاسدِ العاجلةِ والمآليّة[2].

شكرُ اللهِ أمرٌ واجبٌ على العبد

أو لِما بينَ الجُملتين من شبهِ كمالِ الاتّصال؛ وذلك أنّ جُملةَ ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لِما يوجبُ الشُّكرَ المأمور به، وكأنّه لَمّا أمَر اللّهُ تعالى بشُكرِه بقوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ كأنّ سائلًا سألَ: ما موجبُ الشُّكر المأمورَ به؟ فجاءَ الجوابُ في قوله تعالى: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾؛ أيِّ: بلدتُكم بلدةٌ طيّبةٌ، وربّكمُ الذي رزقكمْ ما فيها من الطَّيباتِ، وطلب منكم الشُّكرَ؛ ربٌّ غفورٌ لذنوب مَن يشكره[3].

غرض حذف المُسنَد إليه في الآية:

في حذفِ المعلومِ احترازٌ عن العبثِ بذِكْرِه

حَذَفَ البيانُ الإلهيُّ المُسند إليه في الجملتين: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾، وهو: (بلدتُكم) و(وربُّكم)؛ إذِ التّقدير: "بلدتُكم التي فيها رزقُكم بلدةٌ طيّبة، وربّكمُ الذي رزقكم وطلبَ شُكرَكم ربٌّ غفورٌ لِمَنْ شكَرَهُ"[4]؛ والحذف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 168.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 200.
(3) البيضاويّ، مدارك التّنزيل: 4/ 244، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 127، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 138.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 575.

للاختصار؛ وذلك لكونهما معلومين بقرينةِ السّياق؛ أيِ: احترازًا عن العبثِ بذِكْرهما، فقد دلّ لفظ ﴿مَسۡكَنِهِمۡ﴾ ولفظ ﴿رَبِّكُمۡ﴾ على ما حُذف، وهذا الحذفُ من كمالِ النّظم، وروعةِ الإيجاز، إذ لو ذُكرا في السّياق لكان فيهما ثِقَلٌ، والقرآنُ مُنزَّهٌ عن ذلك، كما أنّه لو ذُكِر المبتدآن لَما كان لهذا التّركيبِ مزيّةٌ، وما كان للتّنكيرِ هنا دورٌ يتجاوزُ الإخبار، ولكن بحذفِ المبتدأين برزَ دورُ التّنكير، الذي دلَّ - كما هو واضحٌ - على التّعظيم والتّفخيم.

غرض التّنكير في ﴿بَلۡدَةٞ﴾:

بلدةٌ عظيمةٌ فخيمةٌ خُصّتْ سبأٌ بها

تَنكيرُ ﴿بَلۡدَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾ للتّعظيم والتّفخيم، وعُدِلَ عن إضافةِ ﴿بَلۡدَةٞ﴾ إلى ضَميرِهم، ولم يقل: (بلدتُكم طيّبةٌ)؛ إمّا لكون ﴿بَلۡدَةٞ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف (بلدتكم)، والتّقدير: بلدتُكم بلدةٌ طيّبة[1]، أو لكون ﴿بَلۡدَةٞ﴾ مبتدأ يُقَدَّرُ له لامُ الاختِصاصِ؛ أيْ: (بلدةٌ لكم طيّبةٌ)؛ لِقَصدِ تَشريفِهم بهذا الاختصاصِ، ولِتَكونَ الجُملةُ خَفيفةً على اللِّسانِ، فتكونَ بمَنزلةِ المَثَلِ[2].

غرض التّأنيث في ﴿بَلۡدَةٞ﴾:

نِعَمُ الله على سبأ غيرُ محدودة

جاء التّعبيرُ بصيغة التّأنيث ﴿بَلۡدَةٞ﴾ دون التّذكير، فلم يُقلْ: (بلدٌ طيّبٌ)؛ وذلك لمناسبة السّياق الذي يتحدّثُ عن المكانِ وما تضمّنه من نِعمٍ كثيرةٍ، من الجنانِ الكثيرةِ وطيبِ تربتها ومناخها وهوائها ومائها وثمارها وغيرِ ذلك؛ إذ البَلدةُ في اللّغة تُطلقُ على الأرض والمكان[3]، وهذا بخلافِ لفظِ (البلد) فإنّه في غالبِ الاستعمال القرآنيّ يُشير إلى المكان وساكنيه.

نُكْتَةُ وصفِ ﴿بَلۡدَةٞ﴾ بـ﴿طَيِّبَةٞ﴾:

وصَفَ البيانُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾ البلدةَ بلفظ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 575.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 168.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (بلد).

اتّساعُ معاني (طيّبة) أنسبُ لكمالِ الإنعامِ وقصدِ الامتنان

﴿طَيِّبَةٌ﴾ دون (كريمة)، و(رغدة)؛ لكون لفظ ﴿طَيِّبَةٌ﴾ أعمَّ؛ فمن معاني الطّيّبة: كريمةُ التُّربة، حسنةُ الهواء، رغدةٌ من النّعم[1]، ومن معانيها: أنّها الحَسَنةُ في جِنسها، الملائِمَةُ لمُزاولها ومُستثمرها؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: 22]، ومن معانيها في الآية: السّلامةُ من الخَبَثِ بجميع أنواعه؛ إذِ الطّاء والياء والباء أصلٌ واحدٌ يدلّ على خلافِ الخبيث[2]، ومن طيبها: "سعتُها وكثرةُ ريعها ومياهها، وألوانُ ثمارها وفواكهها"[3].

الطّيّبة كلمةٌ واسعة الدّلالة

واشتقاقه من الطّيِّب - بكسر الطّاء - وهو الشّيء الذي تعبقُ منه رائحةٌ لذيذة[4]، إذًا تتّسع معاني الطّيّبة، فيُقال: أرضٌ طيّبةٌ للتي تصلحُ للنّبات؛ وريحٌ طيّبةٌ إذا كانت ليّنةً ليستْ بشديدةٍ؛ وطعمةٌ طيّبةٌ إذا كانت حلالًا[5]، ومِنْ ثَمّ فهي بلدةٌ طيبةٌ في تربتها وهوائها وثمارها وروائحها، وما تُحقّقه من أمنٍ واستقرارٍ واستيطانٍ، وفي كلِّ شيءٍ فيها، وفي هذا دلالةٌ على تمامِ النّعمة.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾:

كمالُ نعمةٍ جمعتْ بين نعمةِ البلدِ الطيّب ونعمةِ الغُفران

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه: جملة ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾[6]، وفي هذا العطف بيانٌ لكمالِ وعظَمة النِّعمة التي جمعتْ بين البلدةِ الطّيّبةِ الطّاهرة عن المُؤذيات؛ فلا حَيَّةَ فيها ولا عَقرَبَ ولا وباءَ ولا وخَمَ؛ أيْ: لا غائلةَ ولا تبِعَةَ في المال في الدُّنيا، والمغفرةُ الرّبانيّة: فلا عِقابَ ولا عَذابَ في الآخِرَة[7]، وبهذا تطيبُ النّعمة، ويتّسعُ للإنسانِ مجالَ التّمتّع بها، على خلافِ ما لو كان ربٌّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 534، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صيب).
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 437.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 168.
(5) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طيب).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 168.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 200.

هذه النّعم يحاسِبُ على الصَّغير والكبير، ويأخذُ أصحابَها بكلّ ما اقترفوا، فذلك ممّا يقيمُ الإنسانَ على حذرٍ متّصل، وخوفٍ دائم، فلا يُهَنِؤه ما بين يديه من نِعَم.

ما أجمل الجمع بين سعادتي الدّنيا والآخرة

ولم تقتصرِ النّعمةُ على أهلِ سبأ في الدّنيا فحسب، وإنّما تعدّتْ نعمتُه عليهم إلى الآخرة؛ ففي الدّنيا ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾، وفي الآخرة ﴿وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ يتجاوزُ عنهم إنْ حدثتْ منهم زلّةٌ أو هفوة[1]، وفي هذا إقامةٌ للحُجّة عليهم، فبعدَ النّعمة والغُفران ما الذي يُقْعِدهم عن الحمدِ والشّكران؟!

إيثار التّعبير بالرّبوبيّة دونَ الأُلوهيّة:

كمالُ الإنعامِ من ربٍّ متّصفٍ بالرّحمةِ والإحسان

عبّرَ البيانُ الحكيمُ بالرّبوبيّة دونَ الأُلوهيّة في قوله تعالى:﴿وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾؛ لِما في الرّبوبيّة من معنى الرَّحمة والتَّربية والإشعارِ باللّطف ما لا يخفى، والإحسانِ والعطاء؛ بما يوحي لقومِ سبأ بأنّه بإمكانهم الاطمئنانُ للاستمرارِ في حياتهم، بالانفتاحِ على النّعم الوافرةِ الطيّبة التي يغدقها اللّهُ عليهم، من خلالِ رعايتِه لهم في كلِّ أمورهم الخاصّة والعامّة، فليسوا مُهمَلين؛ لأنّ الرّبَّ الذي خلقهم لنْ يتركهم للضّياعِ، ولنْ يقسو عليهم بالعقاب، فهو "﴿غَفُورٞ﴾ أي: لذنبِ مَنْ شكره وتقصيره، بمَحْوِ عينِ ما قصرَ فيه وأثرِه، فلا يُعاقبُ عليه ولا يُعاتب، ولولا ذلك ما أنعمَ عليكم بما أنتم فيه، ولأهلَكَكُم بذنوبكم"[2]، وهذا هو الأنسبُ للسّياق الذي هو حديثٌ عن كمالِ إنعامه ﷻ.

غرض تنكير ﴿وَرَبٌّ﴾:

ربٌّ عظيمٌ ذو رحمةٍ لا يُقادَرُ قدرُها

تنكيرُ ﴿وَرَبٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ للتّعظيم والتفخيم، فـ"لا يَقْدِرُ أحدٌ على أنْ يَقْدُرَهُ حقَّ قدره"[3]، والعُدولُ عن إضافةِ (ربّ)

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12297.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.

لِضَميرِ المُخاطَبينَ إلى تَنكيرِ (ربّ)، وتَقديرِ لامِ الاختِصاص؛ لِقَصدِ تَشريفِهم بهذا الاختصاص، ولِتَكونَ الجُملةُ على وزنِ الَّتي قبْلَها؛ طَلبًا للتَّخفيف، ولِتَحصُلَ المُزاوَجةُ بيْن الفِقْرتين، فتَسيرا مَسيرَ المَثَل[1]، هذا عندَ من عدّ (ربّ) مبتدأً، وأمّا من عدّهُ خبرًا لمبتدأ محذوف (ربّكم)، والتّقدير: ربكُم ربٌّ غفورٌ[2]، فلا تستقيمُ الإضافةُ عنده.

دلالة وصف الرّبّ بـ﴿غَفُورٌ﴾:

التّعبيرُ بوصف الغفور في قوله تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ دلالةٌ على عظيمِ فضلِ اللّه تعالى؛ إذ إنّه يُكمِلُ عطاءه وإنعامه بأنْ يتجاوز عن التّقصيرِ في شكرِ هذا الإنعام، فهو غفورٌ لذنبِ مَن شَكَره وتقصيره، بمحوِ عينِ ما قصَّر فيهِ وأثرِه، فلا يعاقبُ عليه ولا يُعاتب، ولولا ذلك ما أنعمَ عليهم بما هم فيه، ولأَهْلَكهم بذنوبهم[3]، وفي هذا إيذانٌ بأنّ شُكرَهم لم يكنْ وافيًا بتلك النّعمة، وأنّه تعالى يرضى عنهم بقليلِ الشّكرِ من كثيرِ النّعمة[4].

في المبالغةِ تأكيدٌ لمغفرةِ اللهِ، وزيادةٌ في إقامةِ الحُجّةِ على أهلِ سبأ

نكتة صوغ ﴿غَفُورٌ﴾ على وزن (فعول):

وفي صوغِ ﴿غَفُورٌ﴾ على وزن (فعول) مبالغةٌ في تأكيدِ مغفرته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ لكونِ هذه الصّيغةِ من صيغِ المبالغة؛ أيْ: إنّه سبحانه كثيرُ الغفران، وهذه صفةٌ من صفاته جَلَّ جَلَالُهُ، أو اسمٌ من أسمائه، وفيه ما يوحي به من الرّحمةِ والعطفِ والحنانِ الإلهيّ الذي لا ينتظرُ فيه الرّبُّ عبادَه ليخطئوا حتى يعاقبهم؛ بل إنّه ينتظرهم ليرجعوا إليه بعد الخطأِ ليَغفرَ لهم.

سبحان من يَنظر عباده ليغفر لهم ولا يتعجّل عليهم

نُكتَةُ تنكير ﴿غَفُورٌ﴾:

نُكّرَ الاسم الجليل ﴿غَفُورٌ﴾؛ للدّلالةِ على تفخيمِ وتعظيمِ غفرانِ

غفرانُ اللهِ عظيمٌ فخيمٌ، لا يُحدُّ حدُّه، ولا يُقادَرُ قَدرُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 168.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 575.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 533.

اللّهِ، فهو غفرانٌ لا يمكنُ أنْ تدركه عقولكم؛ بمعنى: أنّه خارجُ حدودِ المعرفةِ، لا تستطيعُ أنْ تتبّينه، فهو شيءٌ فخيمٌ عظيمٌ، لا يُحدُّ حَدُّه، ولا يُقادرُ قَدرُه، وخاصّةً أنّه جاءَ في سياقِ تعظيمِ ما جعله اللّهُ آيةً دالّةً على قدرته وإنعامهِ وإحسانه.

نُكْتَةُ تقديم جملة ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾:

الامتحانُ في الدّنيا يسبقُ الحسابَ في الآخرة

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾ على جملة ﴿وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ من بابِ تقديمِ ما له علاقةٌ بالدنيا؛ بجعلِ بلدتهم بلدةً طيبةً؛ امتحانًا لهم على ما له علاقة بالآخرة؛ وهو مغفرةُ الذّنوبِ أو التّقصيرُ في الشّكر المطلوب؛ أيّ: إنّ التّقديمَ هو باعتبارِ السّبقِ في الزّمانِ، فالامتحانُ في الدّنيا يسبقُ الحسابَ في الآخرة.

بلاغةُ ضربِ المثل لقريش بقوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ﴾:

مَثَلٌ يتنبّهُ به الغافلُ ويجتهدُ به المتنبّهُ

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾ وما بعدها، مَثَلٌ لقريش بقوم أنعمَ اللّهُ عليهم، وأرسلَ إليهم الرّسلَ، فكفروا وعصَوا، فانتقمَ اللّهُ منهم؛ أيّ: فأنتم أيّها القوم مثلهم[1]، وغرضُ هذا المثلِ ردعُ مشركي قريش، وزجرُهم عن كفرهم، وترهيبهم ببيانِ إحسانِ المحسنِ وثوابه، وإساءةِ المسيء وعقوبته؛ ليتجافَوا من المعاصي، ويرغبوا في الطّاعة[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المسكن والمنزل:

السّكونُ والاستقرارُ والرّاحةُ من التّعب نِعمٌ على أهلِ سبأ

المسكنُ: هو مكانُ الاستقرارِ والاستيطانِ والإقامةِ والرّاحةِ من التّعب، فأصلُه من السّكونِ وعدمِ الاضطراب والحركة[3]، فإذا كان المكانُ يُراعَى فيه معنى الهدوء والسّكون عن الحركة، واتّخاذه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 413.
(2) مكّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 9/ 5916.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سكن).

للجلوسِ والرّاحة من التّعب سُمّي مسكنًا، وأمّا المنزلُ فهو مكانُ النّزول والإقامةِ والحلولِ، إذ أصلُه منَ الهبوطِ والوقوعِ والحلولِ في المكان[1]، فكلُّ مكانٍ يُنزَلُ فيه يُسمَى منزلًا، إذًا فالمسكنُ فيه معنى زائدٌ عن المنزلِ؛ وهو السّكونُ والاستقرارُ والرّاحةُ من التّعب.

البلدة والقرية:

البلدةُ تُطلَقُ على المكان، والقريةُ تُطلَقُ على المكانِ والنّاس

البلدةُ أخصُّ من القرية، فالبلدةُ في اللّغة تُطلقُ على الأرض والمكان[2]، وقد وردتْ في الاستعمالِ القرآنيّ في خمسةِ مواضع بمعنى المكان[3]، والقريةُ أعمُّ من البلدة من جهة أنّ القريةَ تُطلقُ على الموضعِ الذي يجتمعُ فيه النّاس؛ أي: المَكان الذي اتَّصلَتْ بِهِ الأَبْنِيَةُ واتُّخِذَ قَرارًا، وعلى النّاس المجتمعين[4]، فأصلُ القرية مأخوذٌ من الجمعِ والاجتماع[5]، ويُقال لِلْمدينةِ: قريةٌ؛ لاجتماعِ النّاس فيها[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نزل).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (بلد).
(3) ينظر الآيات: الفرقان: 49، النّمل: 91، سبأ: 15، الزّخرف: 11، ق: 11.
(4) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (قري).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قري).
(6) النّحّاس، معاني القرآن: 3/ 57.

﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ١٦﴾ [سبأ: 16]

بدلَ الشُّكرِ والعرفانِ كانَ الإعراضُ والجُحودُ والنُّكرانُ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ ما كان من إحسانِه إلى قوم سبأ، وكثرةِ النِّعم عليهم بالرِّزق والجنتين، فأضْحتْ بلدتُهم بلدةً طيبةً، واستوجبَ ذلك أنْ يكونوا شاكرين له؛ ذكرَ ما كان من جانبهم في مقابلته من البَطَرِ والإعراضِ وعدمِ الشُّكر، فقال: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾: (عرض) أصلُه من العَرْضِ الَّذي يُخالِفُ الطّولَ، ومنه: أَعْرَضَ عَنْ فُلانٍ، وأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ: ولّاهُ عَرْضَهُ، ويُقالُ: أَعْرَضَ لَكَ الشَّيْءُ مِنْ بَعيدٍ: ظَهَرَ لَكَ وبَدا؛ أيْ: رَأَيْتَ عَرْضَهُ[2]، وقيل: أعرضَ: أظهرَ عُرضَه؛ أيْ: ناحيته، وأعرضَ عنّي: ولّى مُبديًا عُرضَه[3]، وأعرضَ عن فلانٍ كأنّه انحرفَ عنه وولّاه عُرْضه؛ أيْ: جانبه أو عارِضَه[4]، والمعنى في الآية: فأَعْرَضوا عَنِ الاِسْتِجابَةِ لدَعْوَةِ التَّوحيد[5].

2) ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾: (سيل) أصلٌ يدُلُّ على جَرَيانٍ وامتدادٍ، يُقالُ: سالَ الماءُ وغَيْرُهُ يَسيلُ سَيْلًا وسَيَلانًا[6]، والسَّيْلُ مَعْروفٌ، وجَمْعُهُ: سُيولٌ، وهو الماءُ الكَثيرُ السّائِلُ الجاري الذي لا يُضبَطُ دفعُه لِعظَمِه،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 534، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عرض).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عرض).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 168.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سيل).

ويُطلَقُ السّيلُ على المُجْتَمِعِ مِنَ المَطَرِ الجاري في الأَوْدِيَةِ[1]، والعَرِمُ من (عرم) وأصلُه يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وحِدَّةٍ، وعُرامُ الجَيْشِ: شِرَّتُهُ وحَدُّهُ وكَثْرَتُهُ، وقيل: العَرِمُ هو المطرُ الشّديدُ والسَّيْلُ الَّذي لا يُطاقُ، والعَرِمَةُ: السِّكْرُ والمُسَنّاةُ، وجَمْعُها عَرِمٌ؛ لِأَنَّ الماءَ إذا سُكِرَ كانَ لَهُ عُرامٌ مِنْ كَثْرَتِهِ[2]، وقيل: هو اسمُ الوادي، وقيل: اسمُ حيوان الخُلْدِ الذي نقبَ السّدَ حتّى فُتِحَ، وسالَ ماؤهُ فأغرقَ ديارَهم وأهلكَ بساتينهم، وقيل: العَرِمُ الجُرَذُ الذَّكَرُ، ونُسبَ إليه السّيلُ من حيث إنّه نَقَبَ المُسَنّاة[3].

3) ﴿خَمْطٍ﴾: (خمط) أصلٌ يدلُّ على الانْجِراد والمَلاسَة، ومنه الخَمْطُ، وهوَ كُلُّ شَيْءٍ لا شَوْكَ لَهُ[4]، وقيلَ: الحامضُ، وقيلَ: المُرُّ من كُل شَيْءٍ[5]، وقيل: أكلُ شجرٍ له ثمرٌ ذو مرارةٍ، وكلّ ما أخذَ طعمًا من مرارةٍ حتّى لا يمكنُ أكلُهُ فهو خمطٌ، وقيل: ضَرْبٌ مِنَ الأَراكِ لَهُ حَمْلٌ يُؤْكَلُ[6]، والمعنى المحوريّ للخمط: هو فقدُ الشّيء طيبَه أو عدمُ قبولِ النّفس له[7]، ومعنى ﴿خَمْطٍ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللّغويّ؛ أيْ: شجرُ الأراك والشّيءُ المُرّ[8].

4) ﴿وَأَثْلٍ﴾: (أثل) أصلٌ يَدُلُّ على أساس الشَّيْءِ وتَجَمُّعِه، يُقال: أَثَّلَ اللّهُ مالَهُ؛ أيْ: كَثَّره، وكُلُّ شَيْءٍ لَهُ أَصلٌ قَديمٌ، أَو جُمِعَ حَتَّى يَصيرَ لَهُ أَصلٌ فَهوَ مُؤَثَّل، والأَثْلُ: شَجَرٌ يُشْبِهُ الطَّرْفاءَ إلّا أَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْهُ وأَجْوَدُ عودًا مِنْهُ، تُصْنَعُ مِنْهُ الأَقْداحُ الجيادُ، ومِنْهُ اتُّخِذَ مِنبرُ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ رَسولِ اللهِ ﷺ [9]، ومعنى الأثل في الآية موافق للمعنى اللّغويّ؛ أيْ: شجرُ الطّرفاء، أو شبيهٌ بالطّرفاء غيرَ أنّه أعظم منه[10].

5) ﴿سِدْرٍ﴾: (سدر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى شِبْهِ الحَيْرَةِ واضْطِرابِ الرَّأْيِ[11]، والسِّدْرُ اسْمٌ لِلْجِنْسِ، واحِدَتُها: سِدْرَة، وهو شجرٌ قليلُ الغناءِ عند الأكلِ، وقد يُخضدُ ويُستظلُّ به،

(1) ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/ 137، والفيّوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سيل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (عرم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عرم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خمط).
(5) ابن سيده، المحكم: (خمط).
(6) الرّازيّ، مختار الصّحاح، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خمط).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خمط).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 383، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أثل).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 383، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سدر).

والسِّدْرُ مِنَ الشَّجَرِ سِدْرانِ؛ أَحدهما: بَرّيّ لا يُنْتَفَعُ بِثَمَرِه، ولا يَصْلُحُ ورَقُهُ للغَسولِ، ورُبَّما خَبَط ورَقَها الرّاعيةُ، وثَمَرُهُ عَفِصٌ لا يُسَوَّغُ في الحَلْقِ، والعَرَبُ تُسَمّيهِ الضّالَ، والسِّدْرُ الثّاني: يَنْبُتُ عَلَى الماءِ وثَمَرُهُ النَّبْقُ، ووَرَقُهُ غَسولٌ يُشْبِهُ شَجَرَ العُنّاب، لَهُ سُلّاءٌ كَسُلّائه، ووَرَقُهُ كَوَرَقِه، غَيْرَ أَنّ ثَمَرَ العُنّابِ أَحمرُ حُلْوٌ، وثَمَرُ السِّدْرِ أَصفرُ مُزٌّ يُتَفَكَّه بِه[1]، والمقصود بالسّدر هنا: شَجَرٌ مِنَ العِضاهِ لَهُ شَوْكٌ يُشْبِهُ شَجَرَ العُنّابِ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بإعراضهم عن العبوديَّةِ والشُّكرِ؛ تحوّلتِ النِّعمةُ إلى نِقمةٍ

استعانوا بنعمةِ اللّهِ على معصيته، واستغنَوا بفضلِه عن عبادته، وبعد أنْ حذَّرهم وأنذَرهم على لسانِ رسله، أَعرضَ قومُ سبأ عن طاعةِ ربِّهم، وصدّوا عن اتِّباع ما دعتهم إليه رسلهم من أنَّه خالقُهم[3]، ولم ينتفِعوا بالنُّذر، ولم يتعِّظوا بالعِبَر، فأَرسلَ اللّهُ تعالى عليهم سيلًا كثيرًا خرَّبَ سدَّهم، وذهبَ بالجنانِ والبساتين، وأهلكَ الحرثَ والنَّسل[4]، وأبدلهم بالحدائق الغنّاءِ والبساتين الفيحاءِ أشجارًا لا تُسمنُ ولا تُغني من جوعٍ، كالسِّدر وغيرِه ممّا ينبتُ في الصَّحراء، ولا يستَسيغُهُ إلّا حيوانٌ جائعٌ، أو إنسانٌ أضناهُ الفقرُ والعَوَزُ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) ودلالتُها في ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾:

سرعةُ إعراضِ سبأ وكُفرهم، دليلٌ على شدّةِ بطرهم وطغيانهم

الفاء في قوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ قد تكون عاطفةً[5]، والجملةُ معطوفةٌ على جملةِ القولِ المُقدّر[6]؛ والمعنى: "أَنَّهم مع هذه النِّعَم من جَنّاتٍ وبَساتينَ عَظيمةٍ وبلَدٍ طَيِّب ومَغفرةٍ للذّنوب، أعرضوا عن الشُّكْر، وقابَلوا

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سدر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 378.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 70.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 81، ودعاس، إعراب القرآن: 3/ 16.
(6) علوان، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1879.

هذه النِّعْمَةَ بالكُفْر"[1]، وتُفيدُ الفاءَ معنى التّعقيب والتّرتيب[2]، وسرعةُ إعراضِهم وترتُّبه على إنعامِ اللّهِ يدلُّ على شدّةِ بطرهم وطغيانهم.

البطر بالإعراض عن الشّكر جحودٌ

وتفيدُ الفاءُ كذلك تفريعَ إعراضهم على قوله سبحانه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾، وهذا التّفريعُ وقعَ اعتراضًا بين أجزاءِ القصَّةِ الّتي بقيّتُها قولُه سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى﴾[3]، وتفيدُ معنى السّببيّة على تقديرِ محذوف، وهو (فبَطَروا)؛ أيْ: ولّما تسبّبَ عن هذا الإنعام بطرُهم الموجِبُ لإعراضهم عن الشّكر؛ دلّ على ذلك بقوله: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾[4]، أو أنّها فاءُ الفصيحة؛ لأنّها أفصحتْ عن جوابِ شرطٍ مُقدَّر، تقديرُه: إذا عرفتَ ما قيلَ لهم، وأردتَ بيانَ ما فعلوا بعد ذلك، فأقولُ لك: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾[5].

دلالةُ التَّعبير ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تنوّعُ معاني الإعراضِ وملائمتُه لحالهم يدلُّ على شدّةِ بطرهم وكفرهم وكفرانهم

عبَّر القرآنُ بالإعراضِ في قوله: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ دونَ غيره من الألفاظ كالتّولّي أو الرّفض؛ لكونِ لفظ الإعراضِ أوسعَ دلالةً، وأنسبَ مع حالهم؛ فإنّ من معاني الإعراض: الصّدُّ، والتَّولّي، وتَركُ العمل، والامتناعُ، والرَّفضُ، والإهمالُ، والتّركُ مع التّجاهل وعدمِ الاكتراث، فالإعراضُ أشدُّ من التّولّي، وفيه إساءةُ أدبٍ مع مَنْ أعرضَ عنه، وهذه المعاني تتناسبُ مع حالهم، وهذا التّنوّعُ والكثرةُ في المعاني فيه دلالةٌ على شدّةِ طغيانهم وبطرهم، وأمّا التّعبيرُ بالإعراض بصيغة الماضي ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾؛ للدّلالة على تحقّقِ الإعراضِ منهم ووقوعه، ومن ثَمّ استحقاقُهم للعذاب، بالإضافة إلى أنّه في سياقِ حكايةِ قصّة سبأ، وهي أحداثٌ وقعتْ وانقضتْ.

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 133.
(2) الهلال، تفسير القرآن الجامع: 22/ 59.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 168.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 263.

تَوافُقُ قومِ سبأ في إعراضِهم وكفرِهم باللهِ وكفرانِهم النِّعَم قولًا وعملًا

دلالة التَّعبيرِ بالضّمير وإسنادُه في: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾:

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ إلى الضَّمير (واو الجماعة) في قوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾؛ اختصارًا وبُعْدًا عن الإطالة؛ فقد ذُكِرَ الفاعلُ مُصرَّحًا به في الآية الَّتي قبلها، وهم قومُ سبأ الّذين تتحدَّثُ الآياتُ عنهم، وأسندَ فعلَ الإعراضِ إلى واو الجماعة؛ إشارةً إلى اجتماعهم على الباطلِ، وتوافقِ حالهم في تحقُّقِ الإعراض منهم جميعًا قولًا وعملًا، بعد أنْ أنعمَ اللّهُ عليهم بالجنَّتين وبالبلدةِ الطَّيّبة، فلمّا كان الإعراضُ صادرًا من الجميع كان العقابُ واقعًا على الجميع، كما أنّ جميعَ الضّمائر في سياقِ قصّةِ سبأ كانت بصيغة الجماعة.

إعراضٌ عن كلِّ واجبٍ وعُبوديَّةٍ وشُكر

غرض حذف متعلّق الفعل ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾:

حذفَ النَّصُّ القرآنيّ متعلَّقَ الفعلِ في قوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ اختصارًا؛ للعلم به؛ فقد سبقَ في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ إذ أُمروا بالشّكر، والتّقدير: فأعرضوا عن شكرِ اللّه؛ إذِ اعتقدوا أنّهم يأكلون من سعيهم ومهارتهم، ولم يشكروا اللّهَ على هذه النِّعم؛ لأنَّ النِّعمَ أترفتهم فنَسوا شكرَها[1]، وكذلك أفادَ حذفُ المتعلّق العمومَ؛ ولو ذَكرَ أحدَ هذه المعاني لاقتصرَ عليه، ولذا تنوّعتْ تقديرات المفسّرين له، فمنها: فأعرَضوا عن طاعةِ ربّهم واتّباعِ ما دعتهم إليه رسلُه[2]، وأعرضوا عن الشُّكر[3] بعد إبانةِ الآيات الدّاعيةِ لهم إليه، وتصديقِ الرّسل[4]، وأعرضوا عن الإيمان[5]، وأعرضوا عن العمل الصّالح، والتّصرّفَ الحميد فيما أنعم اللّهُ عليهم[6].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12297.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 378.
(3) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 325.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 127.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 85.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 535.

معنى (الفاء) ودلالتُها في ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾:

إعراضٌ وجحودٌ استَوْجَبَ عقوبةً وتأديبًا

الفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ عاطفةٌ، تُفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيب والفوريَّة[1]، كلٌّ بحسبه، أي: ترتَّبتْ عقوبةُ السّيلِ والتّبديلِ على الإعراض، وجاءتْ عقِبَه، وتفيدُ كذلك السّببيّةَ؛ لأنّ هذه العقوبة كانتْ بسببِ إعْراضهم[2]، وهذه سُنَّةُ اللّه في خَلْقه، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النّحل: 112]، فهؤلاء أَعرَضوا، فدمَّرَ اللّه تعالى ديارهم[3]، وإضافةً لِما سبق، فهي تفيدُ كذلك تفريعَ إصابةِ قوم سبأ بهذه المصائب من السّيلِ والتّبديلِ على إعراضهم وعتوّهم وعنادهم[4].

دلالة التّعبير بـ (الإرسال):

السّيلُ المنبعثُ المـمتـدُّ الموجّـهُ المسلّطُ رسالةُ عـذابٍ من اللهِ لقومِ سبأ

عبّر النَّصُّ القرآنيُّ بالإرسال في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾، دونَ غيره من الألفاظ كالإطلاق والتَّفجير؛ مناسبةً للسّياق؛ لأنَّ الإرسالَ يدلُّ على الانبعاثِ والامتداد[5]، ومن معانيه: البعثُ والتَّسليطُ والتَّوجيهُ والإطْلاقُ[6]، والإرْسالُ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يجْري مجْراها[7]، فالسّيلُ رسالةُ عذابٍ مُرسلةٍ من اللّهِ تعالى على إعراضهم وكفرهم وعدمِ شُكرهم، فسلّطَ اللّهُ السَّيلَ الجارفَ الَّذي يَحمِلُ في طريقه الحجارةَ لشدَّةِ تدفُّقه، ووجَّهَهُ فحطّمَ السَّدَّ، وانساحتْ المياه فطغتْ وأغرقتْ، فالإرسالُ هنا أنسبُ مع السّياق؛

---

(1) الهلال، الثّريّ الجامع: 22/ 59.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 41، وابن عُثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 133.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 69.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).

(6) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (رسل).

(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

إذِ السّيلُ لا يُشترطُ أنْ يكون محبوسًا، فربّما كان نتيجةَ مطرٍ شديدٍ كثيرٍ[1]، أو اجتمعَ فيه الأمران: حبسُ السّدّ، وماءُ المطر.

غرضُ إسناد (الإرسال) إلى ضمير العظَمة:

إرسالُ السّيلِ المدمِّر مَظْهَرٌ من مظاهرِ عقابِ المُرسِلِ العظيمِ سبحانه

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ (أرسل) إلى اللّهِ تعالى مُعبِّرًا عنه بضميرِ العظَمة في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾؛ ليُشْعِرَ بعظَمةِ المُرسِل سبحانه وعظَمةِ هذا السّيلِ الشّديد الكثيرِ، المتناهي في الأذى الذي لا يَردُّهُ شيءٌ، ولا تمنعُهُ حيلةٌ بسَدٍّ ولا غيرِه من العَرامة[2]، ويُفيد التّأكيدَ على أهمّيّة المضمونِ، وهو رسالةُ العذابِ، وأنَّ الإرسالَ لا شكَّ فيه ولا ريبَ، وأنَّه محيطٌ بهم، ومُرَتَّبٌ عليه أثَرُهُ من العذابِ والتَّنكيلِ بهم.

معنى (على) ودلالتُها في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

في الاستعلاءِ تجليَةٌ لمعنى الإرسالِ بالعقوبةِ والنّقمة

تعديةُ فعل ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ بحرف الاستعلاءِ (على) - الذي يعطي معنى الفوقيّة والقوّة والتّسليط بكونه إرسالًا من فوق - مؤذنٌ بأنّ الإرسالَ إرسالُ نقمةٍ لا رحمة[3]؛ لأنَّ سيلَ العَرِم إمّا أنّه كان محبوسًا بالسَّدِّ في مأرب، فلمّا كفروا باللّه قدّرَ اللّهُ لهم أسبابَ انهدام السّدّ، فاندفعَ ما فيه من الماء؛ فكان لهم غرقًا وإتلافًا للأنعام والأشجار[4]، أو أنّه سبحانه سيّحَ المطرَ الغالبَ المُؤذي الشّديدَ الكثيرَ الحادَّ الفعلِ، المتناهي في الأذى الذي لا يَرُدّه شيء، ولا تمنعُهُ حيلةٌ بسَدّ ولا غيره، فأفسدَ عليهم جميعَ ما ينتفعون به[5]، كما أنّ حرفَ (على) دلَّ على أنَّ جملة ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ مُفرَّعةٌ تفريعَ العقابِ، لا تفريعَ زيادةِ الآياتِ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 169.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 69.

دلالة التّعبير بـ ﴿سَيۡلَ﴾ دون (صيّب):

اختارَ النَّصُّ القرآنيُّ كلمةَ السَّيل في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾؛ لأنَّ السَّيلَ في اللّغة يدُلُّ على جَرَيانٍ وامتِدادٍ[1]، والسَّيْلُ: هو الماءُ الكَثيرُ السّائِلُ الجاري الذي لا يُضبطُ دَفْعُه لعظَمِه، ويُطلَقُ أيضًا على الْمُجْتَمِعِ مِنَ المَطَرِ الجاري في الأَوْدِيَةِ[2]، وهذه المعاني تتناسبُ مع جريانِ الماءِ الكثيرِ واندفاعه، سواءٌ من سدٍّ أو من مطرٍ، والذي لم يمكنهم دفعُه، فأغرقَ ديارَهم وأهلَكَ بساتينهم، وهذا لا يتحقَّق في الصَّيّب؛ الذي يدلُّ على نزولِ شيءٍ واستقرارِه قرارَه، أو يُطلق على السّحابِ ذي الصّوب[3]، وهذه المعاني لا تُحقّق القَصدَ من سَوْقِ الآية، ولا تتناسبُ مع الإرسالِ والاستعلاء، والمراد من أنَّ اللّهَ ﷻ سلّطَ عليهم سيلًا جعلَ فيه نقمتَه وعذابَه عليهم.

سيلٌ مُمتدٌّ جارٍ لا يحولُ أمامَه حائلٌ

دلالةُ التّعبير بـ ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾، ومعنى (اللّام) ودلالتُها فيه:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ لاتّساعِ دلالته ومناسبتِه للسّياقِ والمقام؛ إذ يدلُّ أصلُه على الشِّدّةِ والحِدّةِ والكثرةِ والشّراسةِ والصّعوبة[4]، وهذه المعاني تتناسبُ مع شدّةِ العذابِ وحِدّته وكثرته، وتتناسبُ مع كلّ التفسيرات التي ذكرها الْمُفسِّرون من كونهِ المطرَ الشّديدَ الكثيرَ، أو السّيلُ العظيم، أو هو السِّكْرُ والْمُسَنّاةُ، أو الحجارةُ المركومةُ العظيمةُ، أو اسمُ الوادي الكبير العظيم الواسع، وفي هذه المعاني دلالةٌ على سطوةِ عذابِ اللّهِ المنتقمِ وسطوته ﷻ.

سيلٌ معهودٌ اجتمعَتْ فيه الشِّدَّةُ والقوّةُ والشَّراسةُ والبأس

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾:

لامُ التَّعريف في ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ عهديَّةٌ، معهودُها ذِهنيٌّ، فسَيْلُ العَرِمِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سيل).

(2) ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/ 137، والفيّوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سيل).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 127.

سيلٌ معهودٌ معروفٌ عند العرب بأنّه السّيلُ الذي كان سببَ إغراقِ ديارِ أهلِ سبأ وإهلاكِ جنّاتهم.

سرّ إضافة ﴿سَيۡلَ﴾ إلى ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾:

بيانٌ للسّيلِ الشّديدِ القويّ الذي أرسلهُ اللهُ عذابًا على أهلِ سبأ

إضافةُ الـ ﴿سَيۡلَ﴾ إلى ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ في الآية؛ إمّا من بابِ إضافةِ المُسمَّى إلى الاسم، بأنْ يكون العَرِمُ اسمًا للسّيلِ الذي كان ينصبُّ في السّدّ، والتّقدير: أرسلنا السّيلَ العَرِمَ، أو من باب إضافةِ الموصوفِ إلى صفته، والتّقدير: أرسلنا السّيلَ العَرِمَ؛ أي: الشّديدَ[1]، أو من بابِ إضافته إلى محذوفٍ وإقامةِ الصّفةِ مقامَه، والتّقدير: أرسلنا عليهم سيلَ المطرِ العَرِم؛ أي: الشّديدِ الكثيرِ، فالعَرِمُ صفةٌ للمطر[2]، أو أنْ تكون الإضافة بأدنى ملابسة، وفي الإضافةِ بكافّة أنواعها بيانٌ للسّيلِ الشّديدِ الذي أرسله اللّهُ على أهلِ سبأ فأهلكهم؛ إذ لفظُ ﴿سَيۡلَ﴾ نكرةٌ مبهمةٌ تحتاجُ إلى بيانٍ، فأضافَ ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ لبيانِ وتعريف السّيلِ، وإظهارِ قوّته وشدّته.

غرض تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

بكفرهم وإعراضِهم كان العذابُ عليهم دونَ غيرِهم

قدّم النَّصُّ القرآنيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول ﴿سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾، لإفادةِ الحصرِ، وهو أنَّ اللّهَ سبحانه اختصَّهم بالعقابِ والنِّقمة دونَ غيرهم، وللاهتمام بالمُقدَّم لفتًا للانتباهِ إليه، وتنبيهًا على أنّ إعراضَهم هو الَّذي أوصلَهم إلى إرسالِ السَّيلِ العرم عليهم، وأنّهم لو شكروا وعبدوا اللّهَ لَما أرسلَ اللّهُ عليهم عقوبةً، ولا حَرمَهم الجنَّتين، وفي هذا مزيدُ ترهيبٍ وتخويفٍ لِمَن يأتي بعد سبأ؛ كي يعتبرَ بما حلّ بهم.

معنى (الواو) ودلالتُها في قوله: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم﴾:

اجتماعُ العقوباتِ الإلهيّة على قوم سبأ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 169.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 535.

عليه قولُه تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾[1]؛ بجامع أنّ كليهما عقوبةٌ من اللّه على أهلِ سبأ؛ فالأولى: إغراقُهم بالسّيلِ العَرِم، والثّانية: تبديلُ جنانِهم جنّتين ذواتَي أُكلٍ خَمطٍ وأَثلٍ وشيءٍ من سِدرٍ قليل، وفي العطفِ اجتماعٌ لأكثرِ من عقوبةٍ إلهيّةٍ عليهم؛ بما يدلُّ على شدّةِ العذابِ واستحقاقهم له.

دلالة التَّعبير (بالتّبديل):

بـدّل اللـهُ حـالَ الجنّتيْن وأعـطـاهـم جنتيْن قاحلتيْن عقبَ إعراضِهم وكفرهم

استعملَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ (بَدّلَ) في قوله: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ دونَ لفظ (غيّر)، فلم يَقُلْ: (وغيَّرنا جنتيهم)؛ لكون لفظِ التّبديل أعمَّ من التّغيير، وأنسبَ للسّياق والمقام؛ فالتّبديلُ عامٌّ في أخذِ شيءٍ وإعطاءِ شيء[2]، إذ أصلُ معناه هو قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ الشَّيْءِ الذّاهِبِ[3]، ومن معانيه: العِوَضُ، والخَلَفُ[4]، وكلّ هذه المعاني تتناسبُ مع قصّة سبأ، حيثُ بدّل اللّهُ حالَ جنّتيهم، فأخذَ منهم الجنتين الوارفَتين، وأعطاهم جنتين قاحلتَين عقبَ إعراضهم وكُفْرِهم، وكأنّه عِوضٌ عن كُفْرانهمُ النّعمةَ تهكّمًا وتوبيخًا لهم، بينما التّغييرُ لا يدلّ على كلّ هذه المعاني؛ إذ أصلُه يدلّ على اختلافِ شيئين[5].

غرضُ الإسناد إلى ضمير العظَمة في ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم﴾:

عـــذابُ الـلـهِ عظيمٌ، وعقوبتُه شديدةٌ أليمةٌ

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ (التّبديل) إلى ضمير العظَمة في قوله: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾؛ ليُضفيَ الجلالَ والهيبةَ على النّفوس، وليُشيرَ إلى عَظَمَةِ عقوبةِ المَحْقِ والتّبديل بعد ما كانوا فيه من النّعم، والتّقدير: (بدّلناهم بما لنا من العَظَمَة)، وهذا يتركُ الأثرَ الكبيرَ في التَّنكيلِ بهم، والتَّهديدِ لِمَنْ يأتي بعدَهم إذا فعلوا فعلَهم، وأعرضوا عن الإيمان باللّه والشّكرِ له على نِعَمه وآلائه.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 82.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/ 418.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).

(4) ابن منظور، لسان العرب، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بدل).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غير).

معنى (الباء) ودلالتُها في قوله: ﴿بِجَنَّتَيۡهِمۡ﴾:

بإعراضهم بدلّهم الله بجنتيهم أشجارَ خَمْطٍ وأَثْلٍ وسِدر

الباءُ في قوله سبحانه: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ حرفُ جرٍّ، وهي داخلةٌ على المتروك، وانتصبَ ما كانَ بدلًا، وهو قوله: ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ على المعهودِ في لسانِ العرب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [البقرة: 108][1]، وهي باءُ العوض، والمعنى: (أعطيناهم أشجارَ خَمْطٍ وأَثْلٍ وسِدرٍ عِوَضًا عن جنتيهم)، وفيما بين هذَين الحالين أحوالٌ عظيمة انتابتهم[2]، ويمكن أنْ تُفيدَ الإلصاق؛ أي: التّبديلُ ملتصقٌ بجنّتيهم، ويكون العوضُ مُستفادًا من لفظ ﴿بَدَّلۡنَٰهُم﴾[3].

نُكْتَةُ الإظهارِ في مقام الإضمار في ﴿بِجَنَّتَيۡهِمۡ﴾:

في التّصريح بجنّتيهم تذكيرٌ للتّحسّر، ومقابلةٌ للاستهزاءِ والتّهكّم

أظهرَ البيانُ القرآنيُّ الجنَّتين في قوله: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ﴾، ولم يَقلْ: (بدّلناهم بهما) رغمَ سبقِ ذِكْرهما في قوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ﴾؛ وذلك تذكيرًا بجنّتَيهم وما تضمّنتا من رزقِ ربّهم ونِعَمِه، وفي هذا زيادةُ تحسيرٍ لهم، وإظهارٌ لكمالِ المقابلة والبونِ الشّاسع بين الجنّتين الوارفتين والجنّتين القاحلتين، وهذا يُعطي معنى التّهكُّم والاستهزاء بهم.

غرض الإضافة في قوله: ﴿بِجَنَّتَيۡهِمۡ﴾:

في التّذكير بملكهم وحيازتهم لجنّتَي النّعيم زيادةُ حسرةٍ وألمٍ وعذابٍ لهم

أضافَ النّصُّ القرآنيُّ الجنَّتين إلى قوم سبأ في قوله: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ﴾؛ تذكيرًا لهم بما أكرمهم اللّهُ به من تمليكهم لنِعَمِ الجنّتين، وإقدارهم على كمالِ الانتفاعِ بهما؛ وذلك ليزيدَ الحسرةَ عليهم، وليشعروا بعِظَمِ ما فقدوا، وما صدرَ عنهم من بَطَرِ النّعم وكفرانها، والتّسبُّبِ في إضاعتها، وذلك حين ينظرون إلى جنَّتيهم

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 536.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.

(3) زيدان، اختلاف الأوجه والمعاني، ص: 166.

الذّاهبتين، ثمَّ إلى هاتين الجنَّتين اللَّتين بين أيديهم، فلا يرون فيهما غيرَ النَّباتِ الخسيسِ، الَّذي تعافُ رعيَه الأنعامُ[1].

بلاغة المشاكلة في البديلَيْن ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾:

في مقابلةِ الجنَّتين بالجنَّتين زيادةُ تهكُّمٍ واستهزاءٍ وتحسير

جاء البيانُ الإلهيّ في قوله: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ بذِكرِ بدلِ جنّتَيِ النَّعيم بأنَّهما جنّتان، ولم يَقُلْ: (وبدلناهم بجنّتيهم أرضًا قاحلةً ليس فيها إلّا شجرُ العِضاهِ والباديةِ)[2]، مع أنّ أشجارَ البوادي لا تُسمّى جنَّةً وبستانًا؛ وذلك على سبيلِ المشاكلةِ وازدواجِ الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ﴾ [الشّورى: 40]، ولِما في هذا التّعبيرِ من تهكُّمٍ واستهزاءٍ بهم[3]؛ لكونهم بَطَروا نعمةَ الجنّتين اللّتَين أنعمَ اللّهُ بهما، وفيه أيضًا تحسيرٌ لهم بتذكيرهم بالجِنانِ التي ضيّعوها بكفرهم وكفرانهم.

نُكْتَةُ وصف ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ بـ﴿ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ﴾:

في قوّةِ وصفِ الأرضِ بالقاحلة نفيٌ لأيّ شَبَهٍ بالجنانِ التي أُبدلَتْ

وصفَ البيانُ الحكيمُ الجنّتين بـ﴿ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ﴾: تقييدًا وبيانًا للجنّتين بأنّهما ليستا جنّتين على الحقيقة، وإنّما هما في غايةِ ما يكون من مضادّةِ جنّتيهم، ولذلك فسّرهما بالوصفِ؛ إعلامًا بأنّ إطلاقَ الجنّتين عليهما مشاكلةٌ لفظيّةٌ للتّهكّم بقوم سبأ[4]؛ لأنّهما صارتا أرضًا قاحلةً ليس فيها إلّا شَجرُ العِضاهِ والباديةِ[5].

سبحانَ مَن يُغيِّر ولا يتغيَّر

والوصفَ بلفظ: ﴿ذَوَاتَيۡ﴾ - وهو بمعنى: صاحبتَي - يدلُّ على شدّةِ اتّصافِ الجنّتين بهذه الصّفات؛ لأنّ الوصفَ بـ(ذو) أبلغُ من الوصفِ بـ(صاحب)، فإنّ (ذو) يُضافُ إلى التّابعِ، و(صاحب)

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 799.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 245، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 59، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(4) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 291.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.

يُضافُ إلى المتبوع[1]، وفي قوّةِ هذا الاتّصاف نفيٌ لأيّ شَبَهٍ بالجنانِ التي أُبدلتْ بها هاتان الجنّتان.

دلالةُ جمع (ذوات):

الجمعُ والتّعدادُ لصفاتِ الأرضِ القاحلةِ التي أُبدلوها زيادةٌ تحسيرٍ لقومِ سبأ

(ذوات) جمعُ (ذات) التي بمعنى صاحبة[2]، والتّعبيرُ بصيغة الجمع في الوصفِ بها في قوله: ﴿جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَىۡ﴾؛ مراعاةً لتعدّدِ الصّفاتِ في الآية، وهي: ﴿ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ خَمۡطٍ وَأَثۡلٍ وَشَيۡءٍ مِّن سِدۡرٍ قَلِيلٍ﴾، أيْ: جنّتين ذواتي أشجارِ خَمْطٍ وأثلٍ وشيءٍ قليلٍ من سدرٍ[3]، وفي هذا الجمعِ والتّعدادِ لهذه الصّفاتِ للأرضِ القاحلة التي أُعطوها بدلَ جنانٍ عظيمةٍ كانوا قد أنعموا بها؛ زيادةُ تحسيرٍ لقومِ سبأ.

غرضُ الإضافةِ ﴿ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ﴾:

الإبدالُ إلى الأسوأ أكثرُ تحسيرًا من الإزالةِ

الإضافةُ في ﴿ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ﴾ إضافةٌ بيانيّةٌ؛ بيَّنَتِ الإبهامَ في لفظ ﴿ذَوَاتَىۡ﴾ بأنّ الجنّتين ذواتا أشجارِ خَمطٍ وأَثْلٍ وسِدرٍ؛ أيْ: ليستا خاويتَيْنِ على عروشهما، وأرادَ بذلك أنْ يُذكّرهم ويُريهم بأمِّ أعينهم قدرتَهُ سبحانه على إهلاكِ أشجارهم المُثمرة، وإبدالها بأشجارٍ لا ثمارَ لها؛ لتكون عليهم حسرةً.

لطيفة التّعبير بمُفرَدة ﴿أُكُلٍ﴾:

إطلاقُ الأكلِ على ما لا يُؤكَلُ مُشاكَلةٌ للتَّهكُّمِ بقومِ سبأ

عبّر البيانُ الحكيم بلفظ ﴿أُكُلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ﴾، والخَمطُ والأَثْلُ وبعضُ السِّدر ليس أكْلًا؛ أيْ: لم يَقُلْ: (جنّتين فيها خَمْطٌ وأَثْلٌ وشيءٌ من سِدرٍ قليلٌ)؛ وذلك للمشاكلةِ اللّفظية التي يُقصَدُ بها التّهكُّمُ بهم، وزيادةُ تحسّرهم، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21].

---

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 231.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 172.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.

تنوّعُ القراءات في ﴿أُكُلٍ﴾ وثراءُ المعنى:

قـراءةُ التّنوين أقعدُ في التّهكّمِ مـن قـراءةِ الإضـافـة، وفي أكل المُرِّ تعذيب للنَّفس شديدٌ

قرأ نافعُ وابنُ كثير ﴿أُكُلٍ خَمۡطٖ﴾ بضمّ الهمزة وسكونِ الكاف، وقرأه باقي العشرة بضمّ الكاف على اختلافهم بحركة اللّام، فقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿أُكُلِ خَمۡطٖ﴾، وقرأ الباقون ﴿أُكُلٍ خَمۡطٖ﴾، وكلاهما بمعنى المأكول[1]، وهو الثّمرُ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ﴾ [البقرة: 265]؛ أيِّ: ثمرها[2]، فالجمهورُ بتنوين اللّام ﴿أُكُلٍ﴾ مجرورًا؛ أيِّ: ﴿أُكُلٍ خَمۡطٖ﴾، فإذا كان ﴿خَمۡطٖ﴾ مُرادًا به الشّجر المسمّى بالخَمْط، فلا يجوزُ أنْ يكونَ ﴿خَمۡطٖ﴾ صفةً لـ﴿أُكُلٍ﴾؛ لأنّ الخَمْطَ شجرٌ، والأُكُل اسم للمأكول، ولا أنْ يكونَ بدلًا من ﴿أُكُلٍ﴾ كذلك، ولا عطفَ بيان؛ لأنَّ عطفَ البيان كالبدلِ المطابق، فتعيّن أنْ يكون ﴿خَمۡطٖ﴾ هنا صفةً، يُقال: شيءٌ خامطٌ إذا كان مُرًّا.

وعلى قراءة أبي عمرو ويعقوب بالإضافة إلى الخَمْط؛ على أنّه شجرُ الأراكِ، وأُكُلُهُ: ثَمَرُهُ، وهو البريرُ، وهو مرُّ الطَّعم[3]، وهو من إضافةِ الثّمرةِ إلى الشّجرة، مثل: تمرُ نخلٍ، وعنبُ كرمٍ[4]، وبناءً على ذلك فإنّ قراءةَ التّنوين أقعدُ في التّهكمِ من قراءةِ الإضافة[5].

دلالة التّعبير بمفردة ﴿خَمۡطٖ﴾:

ثـراءُ معنى الخَمْطِ يتناسبُ مـع سـياقِ العذابِ وحالِ المُعذَّبين

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿خَمۡطٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُكُلٍ خَمۡطٖ﴾، ولم يقلْ: ذواتَي أُكُلٍ مُرٍّ من كل شَيْء[6]، أو حامض، أو لهُ شوكٌ[7]، أو غيرُ ذلك ممّا يدلّ عليه معنى خَمْط؛ وذلك إيجازًا في التّعبير وثراءً

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 172.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 281.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 172.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 172.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 479.
(6) ابن سِيده، المُحكم: (خمط).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خمط).

في المعنى، إضافةً إلى كونِ الخَمْطِ مُشتركًا بين البهائمِ والإنسان في الأكلِ والتّجنّبِ(1)، ممّا يُشيرُ إلى ما أعدّ اللّهُ لقوم سبأ من تحقيرٍ وإهانةٍ، ومع سياقِ العذابِ وغرضِه منَ التّبكيتِ والتّهكّم والتّحسير؛ لإقامةِ المقارنة بين ما كانوا عليه من نعيمِ الجِنانِ، وما حلَّ بهم، ومع حالِ المعذَّبينَ المستحقينَ لهذا العذاب.

نُكْتَةُ تعديدِ الأوصاف ﴿خَمْطٖ﴾، ﴿وَأَثۡلٖ﴾، ﴿سِدۡرٖ﴾:

مبالغةٌ في التّنفير وزيادةٌ في التَّحسير

لم يقلْ سبحانه: (وبدلناهم بأرضٍ قاحلةٍ ليس فيها إلّا شَجرُ العِضاهِ والباديةِ)، وإنّما عدّدَ هذه الأشجار المختلفةِ في نوعها، المشتركةِ في التّنفير منها، وأنّها "كلّها تنبتُ في الفيافي"(2)، وبدأ بالخَمْطِ وهو مُشترِكٌ بين البهائمِ والإنسانِ في الأكلِ والتّجنّب، ثمّ عطفَ عليه نوعًا آخر وهو ما يخصُّ البهائمَ؛ أي: (الأثل) وهو شجرٌ لا ثمرَ له، ثمّ ذكرَ ما يخصُّ الإنسانَ وهو (السِّدر)، مقتصرًا منه على شيءٍ قليلٍ جدًّا يُمكنُ الاستفادةُ القليلةُ منه(3)، إذِ السِّدرُ نوعان؛ أحدُهما: لا يُنْتَفَعُ بِثَمَرِه، والآخر: النَّبِقُ(4)، وفي هذا العطف والتّعدّد لهذه الأوصافِ المنفّرة مبالغةٌ في التّنفير من هذه الأرضِ القاحلةِ، وزيادةُ التّحسير لهم في تنكيرها مبالغةٌ في تحقيرِها، وتنفيرِ النّفس منها.

لطيفة التّعبير بالشّيئيّة: ﴿وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ﴾:

مبالغةٌ في تقليل فائدةِ شجرِ السّدرِ وتحقيرِها

عبّر البيانُ القرآنيّ بلفظ (شيء) في قوله تعالى: ﴿وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ﴾؛ لأنّه لمّا كان السّدرُ أكثرَ الأنواعِ في الآية نفعًا؛ أرادَ البيانُ القرآنيّ التّنبيهَ إلى أنّ معظمَه لا فائدةَ منه(5)؛ لأنّ كلمة (شَيءٍ) مُؤْذِنةِ في ذاتِها بالقِلّة؛ بل وزادَ التّعبيرُ بها في تقليلِ الفائدة من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 479.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 480.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سدر).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 201.

السّدرِ بلفظ ﴿قَلِيلٖ﴾ قلّةً، وللتَّنبيهِ كذلك على أنّ المقصودَ بهذا الشّيء هو النَّوعُ الذي لا فائدةَ منه، ولو قال: (وسدر) لشملَ النّوعيْن، وأمّا إن كان المُرادُ بالشّيء ما فيه منفعةٌ قليلةٌ؛ فذلك لتحسيرِ قوم سبأ؛ أيْ: "أوتوه تذكيرًا للنّعم الزّائلةِ؛ لتكونَ حسرةً عليهم"[1]؛ بأَنْ يبقى أثرٌ ما منه على الجِنانِ المُبدَلة، يتذاكرونَ به ما كانَ ويتحسَّرون عليه[2]، وقد زاد القِلّةَ مبالغةً تنكيرُ لفظِ (شيء)؛ إذ أفادَ تنكيرَها التّقليلَ، إضافةً إلى التّحقيرِ للسّدر[3].

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّن سِدۡرٖ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾ بيانيّةٌ؛ لكونها سُبقتْ بـ(شيء)، وهو لفظٌ مبهمٌ يحتاجُ لبيان، والمعنى: وشيءٍ حالة كونه من سِدرٍ[4].

بلاغة الإطناب بلفظ ﴿قَلِيلٖ﴾:

إطنابُ إيغالٍ ختمَ الكلامَ بزيادةِ تقليلِ القليلِ من السِّدرِ قِلّةً

أطنبَ البيانُ الحكيمُ بذِكْر لفظ ﴿قَلِيلٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾؛ لأنَّ القِلَّة مفهومةٌ من لفظ (شيء) التي تدلُّ على هذا المعنى؛ وذلك تأكيدًا لقِلّةِ هذا الشّيءِ القليل من شجرِ السّدرِ، الذي يختلفُ عن الأُكُل الخَمْطِ والأَثْلِ؛ باحتواءِ صنفٍ منه على بعضِ الفوائد؛ لأنّه لو كَثُرَ كان نعمةً لا نِقْمَة[5]؛ يقول ابنُ عاشور: "وزيدَ تَقْليلُهُ قِلَّةً بِذِكْرِ كَلِمَةِ شَيْءٍ، المُؤْذِنَةِ في ذاتِها بالقِلَّة"[6]، وهذا من إطنابِ الإيغالِ، الذي معناه ختمُ الكلامِ بما يفيدُ فائدةً يتمُّ المعنى بدونها[7].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 313.
(3) صالح، الإعراب المفصّل: 9/ 328.
(4) صالح، الإعراب المفصّل: 9/ 328.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(7) بسيونيّ، علم المعاني: 2/ 262.

في تتابع أنواع الأشجارِ أثرٌ معنويٌّ وصوتيٌّ

غرضُ تقديم ﴿مِّن سِدۡرٖ﴾ على قوله: ﴿قَلِيلٖ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾ فيه تقديمٌ، تقديرُه: (وشيءٍ قليلٍ من السّدر)[1]، وهو تقديمُ صفةٍ على صفة؛ إذ ﴿مِّن سِدۡرٖ﴾ صفةٌ لشيء، و﴿قَلِيلٖ﴾ صفةٌ ثانية[2]، وذلك ليكونَ ﴿مِّن سِدۡرٖ﴾ أقربَ للخَمْط والأَثْل، بما يُحقّقُ الأثرَ المعنويّ والصّوتيّ لهذه الكلمات بتتابعها، ولكون ﴿قَلِيلٖ﴾ أقربَ لفواصلِ الآيات، كما أنّ بتأخيرِ لفظ ﴿قَلِيلٖ﴾ يتحقّقُ في الفاصلةِ بلاغةُ الإيغال.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإعراض والتّولّي:

الإعراضُ أشدُّ من التّولّي؛ وفيه إساءةُ أدبٍ تتناسبُ مع حالِ أهلِ سبأ

الإعراضُ أشدُّ من التّولّي، فالإعراضُ لا يكونُ إلّا انصرافًا وتركًا مع التّجاهل وعدم الاكتراث، فالإعراضُ أصلُه من العَرْض الّذي يُخالِفُ الطّولَ، ومنه أَعْرَضَ عَنْ فُلانٍ، وأَعْرَضَ بوَجْهِه: كأنّه انحرفَ عنه، وولّاهُ عُرْضَه؛ أيْ: جانِبَه أو عارِضَه، وولّاهُ عَرْضَهُ، أدارَ ظهرَه له غيرَ مُكتَرِثٍ أو مُهتمٍّ به، وصَدَّ عنه، وتجاهَلَه، وجفاه[3].

وأمّا التّولّي: فهو أعمُّ من الإعراضِ؛ إذِ التّولّي قد يكون إعراضًا، وقد يكون إقبالًا؛ أيْ: يَكونُ بِمَعْنَى الإعْراضِ، ويَكونُ بِمَعْنَى الاتِّباعِ[4]، والتّولّي إذا عُدّي بنفسه اقتضى معنى الولايةِ، وحصوله في أقرب المواضع، وإذا عُدّي بـ(إلى) يكون بِمَعْنَى الإقبال عَلَيْه، وإذا عُدّيَ بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتضى معنى الإعراض وتَرْكِ القُرْب[5].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 495.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 82، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 263.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (عرض).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ولي).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 343، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 28.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ ذِكْرِ المَحْقِ لأهلِ سبأ، هوّلَ أمْرَه مُبيِّنًا سبَبَه

لمّا أخبرَ البيانُ القرآنيُّ عن المَحْقِ والتّقتير لأهلِ سبأ في قوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ بعد ما كانوا فيه من ذلك المُلْكِ الكبير في قوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾، هوّلَ أمْرَ هذا المَحقِ والتّقتير، وبيّن سببَه فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾: (جزى) قيامُ الشَّيءِ مَقامَ غَيرِه ومُكافَأتُه إيّاهُ[2]، وجزى يجزي جزاءً؛ أيْ: كافأَ بالإحسانِ وبالإساءةِ[3]، فالجزاءُ يكونُ ثَوابًا، ويكونُ عِقابًا[4]، والجزاءُ: الغِناءُ والكِفايةُ[5]، والمعنى المحوريّ له: هو تحصيلُ شيءٍ مَقصودٍ مِن تناوُلِ شيءٍ أو معالجتِه، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ فهو مِنَ الجزاءِ بمعنى المكافأةِ على الشَّيءِ في الخيرِ والشّرِّ، ويَصدقُ في الثّوابِ والعِقابِ، ومنه: جَزَيْتُهُ حقَّهُ: قضيتُه[6]، ومعنى ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾ في الآية: كافأناهم على كفرهم[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

سببُ الجزاءِ الفظيعِ لقومِ سبأ مبالغتُهم في الكُفرانِ أو الكُفر

يقولُ اللّهُ تعالى مبيّنًا سببَ ذلك العقاب ومُهوّلًا أمرَه: هذا الذي فعلنا بهؤلاءِ القومِ من سبأ، من إرسالنا عليهم سيلَ العَرِم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 483.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(3) الخليل، العين: (جزي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جزى).
(5) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جزأ).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 384.

حتّى هلكتْ أموالُهم وخربتْ جنّاتهم، جزاءً منّا على كفرهم بنا، وتكذيبهم رسلَنا[1]، وما نجازي هذا الجزاءَ الفظيع - بسلبِ النّعمةِ، ونزولِ النّقمة - إلّا المُبالغَ في الكُفرانِ أو الكُفر[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّةُ فصل الآية عمّا قبلها:

استئنافٌ يُبيّنُ سببَ الجزاءِ الفظيعِ لأهلِ سبأ

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ عمّا قبله، وهو قولُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾، ولم يربطْ بينهما بعاطف؛ لما بينهما من شبهِ كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنّ قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ جملةٌ مُستأْنَفةٌ، وقعَتْ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ عمّا ذكرته الآيةُ السّابقةُ من العقابِ لأهلِ سبأ، بإرسالِ سيلِ العَرِمِ عليهم حتّى هلكتْ أموالُهم، وخربتْ جنّاتهم، كأنَّه قيل: ما سببُ هذا الجزاءِ الفظيع؟ فقيل: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾[3].

غرض التّعبير باسم الإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾:

في المصدريّةِ تأكيدٌ للجزاءِ، وفي المفعوليّةِ بيانٌ له

مرجعُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ إمّا مصدرُ قوله: ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾، أو هو ما تقدَّمَ مِن التَّبديلِ بجَنَّتيهم جنَّتينِ أُخريَين، في قوله: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ﴾، ومحلُّه على الأوَّلِ النّصبُ على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ للفعل المذكور، وعلى الثّاني النَّصبُ على أنّه مفعولٌ ثانٍ له، والتّقدير على المرجعين: ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاءَ آخرَ، أو ذلك التَّبديل جزيناهم لا غيرَه[4].

أيُّ هولٍ أكبرُ من سيلٍ يجرف كلَّ شيءٍ، ويزيلُ النّعمةَ؟!

ويجوز أنْ يكون اسمُ الإشارة في محلّ رفعٍ بالابتداء، وتكونُ الإشارةُ إلى ما تقدّمَ من قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ ... ﴿مِّن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 384.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 238.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.

﴿سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾، وتكونُ جملةُ ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾ خبرَ المبتدأ، والرّابطُ ضميرٌ محذوف، تقديره: جزيناهموه[1]، وقد عبّر باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المتضمّنِ مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ رُتبةِ الجزاءِ في الفَظاعة[2]، وقد استُحضِر الجزاءُ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾، ولم يَقُلْ: جَزَيْناهم جزاءً بما كفروا؛ لِما في التّعبيرِ باسمِ الإشارة من عظَمةِ هولِه[3]؛ أيْ: ذلك الجزاء العظيم العالي الرُّتبة[4]، وفي ذلك إشارةٌ إلى شدّةِ كفرِهم التي استدعتْ هذا الجزاءَ المَهولَ.

غرض تقديم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الاهتمامُ بشدّةِ الجزاءِ وتهويله لفتًا للانتباه إليه

قدّمَ البيانُ الحكيم اسمَ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ على عاملِها ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾؛ إذ التّقدير: جَزَيْناهم الجزاءَ المُشارَ إليه؛ وذلك للاهتمام بشِدَّةِ ذلك الجزاءِ وتَعظيمِه[5] وتهويله[6]، ولفتِ الانتباهِ إليه، وأنّه ممّا يهتمُّ غايةَ الاهتمام بتعرُّفه[7]، ويمكن أيضًا أنْ يكون للتّخصيص؛ أيْ: ذلك التّبديلَ جزيناهم لا غيرَه، أو ذلك الجزاءَ الفظيعَ جزيناهم لا جزاءَ آخر[8].

دلالة التّعبير بالمجازاة في قوله: ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾:

عقابُ اللهِ لأهلِ سبأ كان مقابلةً ومكافأةً على كفرهم وكفرانهم النّعم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالمجازاة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ عقابَ اللّه لأهلِ سبأ كان مقابلةً ومكافأةً على كفرهم وكفرانهم النّعمَ عِوضَ أنْ يشكروها، وأنّ هذا العقابَ كان

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 484، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 483.

(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 245، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.

(6) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.

(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 483.

(8) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.

معالجةً لإعراضهم؛ لتحصيل الكِفايَةِ من مقابلتهم الإساءةَ بالإساءة، فالمجازاةُ في اللّغة هي المكافأةُ على الشَّيءِ في الخيرِ والشّرِّ، وتكونُ بالإحسانِ وبالإساءةِ[1]، كما أنّ الجزاءَ هو تحصيلُ شيءٍ مَقصودٍ مِن تناوُلِ شيءٍ أو معالجتِه، فأصلُ الجزاء: الغِناءُ والكِفايةُ، أي: تحصيلُ الكِفايَة من المقابلة، إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شرًّا فَشَرٌّ[2].

غرضُ إسناد المجازاة إلى ضمير العظَمة:

جـزاءُ العظيم سبحانه لا يكونُ إلّا عظيمًا

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ المجازاة إلى ضميرِ العظَمة ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾؛ لبيانِ شدّةِ الجزاء؛ أيْ: جزيناهم الجزاءَ العظيمَ العاليَ الرّتبة، بما لنا من العظَمة[3]، فجزاءُ العظيم سبحانه لا يكونُ إلّا عظيمًا، وفي هذا من التّخويف ما فيه، وخاصّة لمشركي قريش الذين سيقتْ لهمُ القصّةُ من أجل أنْ يعتبروا.

مرجع ضمير المفعول في ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾:

جـزاءُ اللهِ طالَ أهلَ سبأ جميعًا؛ لإجماعهم على الكفر

ضميرُ المفعول (هم) في قوله: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ يرجعُ إلى أهلِ سبأ؛ لأنّ القصّةَ عنهم، والضّمائرَ فيها تعودُ إليهم، كقوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾، ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم﴾، وقد جاء ضميرُ المفعول مجموعًا؛ للإشارةِ إلى أنّ الجزاءَ طالهم جميعًا؛ لإجماعهم على الكفر ﴿بِمَا كَفَرُواْۖ﴾، وكذلك توافقًا مع الضّمائر السّابقة، فجميعُها جاءتْ بصيغةِ الجماعة.

معنى (الباء) ودلالتُها في قوله: ﴿بِمَا كَفَرُواْۖ﴾:

الكفرُ باللهِ وبنِعمهِ سببٌ للعقابِ الشّديدِ من الله

الباءُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ سببيّةٌ، والمعنى: ذلك الّذي فعَلْناه بأولئك القَومِ هو جزاءٌ منّا لهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم[4] النِّعمَةَ؛ حيثُ نزعناها منهم، ووضعنا مكانَها ضِدَّها، أو بسببِ كفرهم بالرُّسل[5].

---

(1) الخليل، العين: (جزي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جزأ).

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جزا).

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 483.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 263.

(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 245، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.

نوع (ما) ودلالتُها في جملة ﴿بِمَا كَفَرُواْۖ﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ مصدريّة[1]، والمصدرُ المؤوّل من (ما) والفعل ﴿كَفَرُواْۖ﴾ في محلّ جرّ بحرف الجرّ، متعلّقٌ بالفعل جزيناهم[2]، والتّقدير: جزيناهم بكُفرِهم بالرّسل، أو بكفرانهم النّعمة، حيثُ نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضِدَّها[3].

جزاءُ أهلِ سبأ كان بكفرهم الرّسل وبكُفرانهم النّعمة

دلالة التّعبير بالكفر في ﴿كَفَرُواْۖ﴾:

عبّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ الكفر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ دون غيره؛ لاتّساع دلالته بحيثُ يشملُ تكذيبَ ما جاءَ منْ عنْد اللّه، والجحودَ به، والشّركَ، وسترَ النّعمةِ وتركَ شكرِها[4]، إذ يدورُ معنى الكفر لغةً على السَّتْرِ والتَّغطيةِ والجَحْدِ[5]؛ كما يُطْلَقُ الكُفر في الشَّرع على ما يُقابلُ: الإيمانَ، وما يُقابلُ: الشُّكْرَ[6]، ولو عبّر بأحدِ المعاني السّابقة لاقتصرَ عليها، ولم يشملْ بقيّةَ المعاني، كما أنّ التّعبيرَ بالكفر يدلُّ على مبالغتهم في كفرهم باللّه وبنعمه؛ فقد تنوّعتْ صورُ الكفرِ منهم؛ وهذه الشّدّةُ في الكفرِ تُشيرُ إلى استحقاقهم العذابَ الشّديدَ من اللّهِ العدل، وصياغةُ ﴿كَفَرُواْۖ﴾ بصيغةِ الماضي؛ للدّلالةِ على تحقّقِ الكفرِ منهم، وليتناسبَ مع فعلِ ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾؛ أيْ: تحقّقَ الجزاءُ عليهم لتحقّقِ وقوعِ الكفرِ منهم.

تنوّعُ صورِ كفرِ قومِ سبأ دليلٌ على استحقاقهم العذابَ الشّديدَ

غرضُ إسناد فعل الكفر إلى ضمير جماعتهم:

أسندَ البيانُ القرآنيُّ الكفرَ إلى ضميرِ جماعتهم في قوله تعالى: ﴿جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾؛ للإشارةِ إلى شمولِ الكفر والكفران وشيوعه

اجتماعُ أهلِ سبأ على الكفر والكفران دليلٌ على بلوغهم غايةَ العنادِ والجحود

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.
(2) بهجت صالح، الإعراب المُفصّل: 9/ 329.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 485.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفر).
(6) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 516 - 517.

في أهلِ سبأ جميعًا، واجتماعِهم عليه، بما يشيرُ إلى بلوغهم الغايةَ في العنادِ والجُحود، ومِنْ ثَمَّ استحقاقهم هذا الجزاءَ الفظيع.

نُكْتَةُ التّعبير بجملة ﴿بِمَا كَفَرُواْۖ﴾:

عقابُ اللهِ الشّديد لأهلِ سبأ لوقوعِ الكفرِ والكفرانِ منهم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالمصدرِ المؤوّل ﴿بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ دون الصّريح في قوله تعالى: ﴿جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾، ولم يقلْ: (بكفرهم)؛ ليُتيحَ صلاحيةَ الكلامِ لإفادةِ اعتبارٍ من شأنهِ أنْ يقوّيَ المعنى، ويزيدَ توكيده، وهو أنّ جزاءَ اللّهِ لأهلِ سبأ إنّما كان لتحقّقِ ووقوعِ الكفر والكفران منهم؛ لأنّ المصدرَ المؤوَّل هنا جعلَ الكلام صالحًا لدخولِ الفعل الماضي ﴿كَفَرُواْۖ﴾ على الجملةِ، بما أعطاها معنى تحقّق الوقوعِ المُستفادِ من الفعل الماضي.

معنى (الواو) ودلالتُها في جملة: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾:

الـــواو بين معنى الحاليّة والتّعليل

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ حاليّةٌ، لأنَّها تذييلٌ لجملة: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾[1]، والمعنى: جزيناهم ذلك الجزاءَ والحالُ أنّهُ ما يُجازاه إلّا الكَفورُ[2]، أو استئنافية[3] تفيدُ التّعليل[4]؛ لكونها جاءتْ كذلك تذييلًا لما قبلَها[5]؛ والمعنى: جزيناهم ذلك الجزاء؛ لأنّه ما يُجازاه إلّا الكفور.

غرضُ الاستفهام بـ (هل) في ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ﴾:

استفهامٌ إنكاريٌّ ينفي المبالغةَ في الجزاءِ إلّا عن المُبالِغ في الكفر

المعنى الحقيقي للاستفهام هو طلبُ الفهم، وقد خرجَ الاستفهام بالأداة (هل) عن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّآ ٱلۡكَفُورَ﴾ إلى إشراقٍ دلاليّ هو: الإنكارُ في مَعنى النَّفي، والمعنى لا يحتملُ غيره؛ بسببِ وجودِ الاستثناء المفرَّغ الذي يقترنُ - عادةً -

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 620.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 263.
(4) صالح، الإعراب المفصّل: 9/ 329.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/ 83.

بالنّفيّ، والنّفيُّ هو الإنكار[1]، والتّقدير: وما نجزي هذا الجزاءَ إلّا المُبالغَ في الكُفرانِ[2].

دلالة التّعبير بالمجازاة ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ﴾:

الكفورُ يُجازَى بمثلِ فعلِهِ قَدْرًا بقَدْرٍ، والمؤمنُ جزاؤه بتفضّلٍ وتضعيفٍ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بالمجازاة في قوله: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾، ولم يَقُلۡ: (وهل نجزي)؛ لأنّ الحديثَ عن الكفّار؛ أيِّ: استُعملتِ المجازاة في معنى المعاقبة[3]، والمعنى: وهل نُجازي هذا الجزاءَ الذي هو على وجهِ العقاب إلّا الكفور[4]، قال الفرّاء: "المؤمنُ يُجزى ولا يُجازى - كأنّه يشيرُ إلى أنّ عقابَ المسيء هو لأجلِ عمله، فهو مفاعلة، وأمّا ثوابُ المطيع فهو فضلٌ من اللّهِ لا لأجلِ عمله، فإنّ عمله نعمةٌ من اللّه، وذلك لا ينافي المضاعفة"[5]، ولأنّ المجازاةَ مفاعلةٌ، وهي في أكثرِ الأمر تكونُ بين اثنين، يُؤخذُ من كلِّ واحدٍ جزاءً في حقّ الآخر، وفي النّعمةِ لا تكونُ مجازاةً؛ لأنّ اللّهَ تعالى مبتدئٌ بالنّعم[6].

يُجازَى مَن أساءَ بعد الإحسان، وقابلَ الإنعامَ بالكفران

وفي التّعبير بصيغة المبالغة ﴿نُجَٰزِيٓ﴾ أيضًا مراعاةٌ للعُرفِ في المبالغة في جزاءِ مَن أساءَ بعد الإحسان، وقابلَ الإنعامَ بالكفران؛ فهي من العادةِ المُستقرَّة عند ذوي الهمم العَوالِ، العريقين في مقارعةِ الأبطال[7]، وفيه مراعاةٌ لعادةِ القرآن؛ إذ أكثرُ ما يُستعملُ الجزاءُ في الخير، والمجازاةُ في الشَّرّ، لكن في تقييدهما قد يقعُ كلُّ واحدٍ منهما موقعَ الآخر[8].

غرض إسناد فعلِ المُجازاة إلى ضمير العَظَمَة:

العظيمُ لا يكونُ جزاؤُه إلّا جزاءً عظيمًا

إسنادُ فعلِ المجازاة إلى ضميرِ العظَمة في قوله: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 586، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 677.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 484.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 484.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 201.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 484.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 537.

﴿ٱلۡكَفُورَ﴾ يدلّ على عظَمةِ هذا الجزاء والمبالغةِ فيه؛ فالعظيمُ لا يكون جزاؤُه إلّا عظيمًا، وخاصّةً لِمَن يستحقّ هذا الجزاءَ الفظيعَ الشّديدَ المستأصل؛ بسببِ مبالغتهِ في كفرانِ النّعم، أو الكفرِ باللّه ورسوله.

تنوعّ القراءات القرآنيّة في ﴿نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾:

كلّتا القراءتين تُفيدُ العظَمةَ لله؛ إذ لا فاعلَ على الحقيقةِ إلّا العظيم

قرأ الجمهورُ: (يُجازَى إلّا الكَفورُ) بياء الغائبِ والبناءِ للمفعول، ورفعِ الكفور؛ اختصارًا؛ لأنّ هذا الفعلَ لا يكونُ إلّا من اللّه، فالفاعلُ هو اللّهُ وحدَه، لا فاعلَ إلّا اللّه، ولا مجازيَ على الكفرِ غيرُه، وقرأ حمزةُ والكسائيّ وخَلَف ويعقوب وحفصٌ عن عاصم ﴿نُجَٰزِيٓ﴾ بنون العظَمةِ مع كسرِ الزّاي، ونصبِ الكفور[1]، "على أسلوبِ ما قبله من العظَمة"[2]، والمعنى على القراءتَيْن واحدٌ[3]، وكلاهما يُفيدُ العظَمةَ للّه؛ إذ لا فاعلَ على الحقيقةِ إلّا العظيم.

معنى ﴿إِلَّآ﴾ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾:

جزاءُ الاستئصال محصورٌ بالمبالغ في كفرِه باللّهِ، أو كُفرانِ نعمه

﴿إِلَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ أداةُ استثناءٍ مفرّغ[4]، وهو الذي يقترنُ عادةً بالنّفي، ويفيدُ الحصرَ[5]، والمعنى: ما يُجازى ذلك الجزاءَ المستأصلَ إلّا المُبالغَ في الكُفرانِ أو الكفر[6].

نُكْتَةُ التّعبير بصيغة (فعول):

من رحمةِ اللهِ أن لا يُجازيَ الجزاءَ المستأصِلَ إلّا المبالغَ في الكفر

عُبِّرَ بصيغةِ (فعول) في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾، وهي صيغةُ مبالغة، ولم يَقُلْ سبحانه: (الكافر)؛ للدّلالة على شدّةِ كفرهم؛ إذ معنى كفور: شديدُ الكفرِ؛ لأنّهم كانوا لا يعرفونَ اللّه، ويعبدون الشّمس، فهم أسوأُ حالًا من أهلِ الشّرك، وللدّلالةِ على

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 586، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 350.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 484.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 288.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 263.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 82.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 288، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.

رحمته سبحانه بعباده، فهو سبحانه لا يُجازي منهم إلّاَ الكفور؛ أي: المُصِرّ على الكفرِ المُتمادي فيه[1]؛ أيّ: ما نُجازي هذا الجزاءَ الشديدَ المستأصلَ إلّا عظيمَ الكفرانِ للنّعم، الجُحودَ للفضلِ والمِنن، المبالغَ في ذلك[2]، و(أل) في ﴿ٱلۡكَفُورَ﴾ جنسيّةٌ تُفيدُ العموم، فكلُّ كفورٍ يكافئه اللّهُ مقابلَ عملِه دونَ زيادةٍ أو نقصٍ، بخلافِ المؤمن الذي يتفضّلُ اللّهُ عليه بالمغفرة[3].

بلاغة القَصْر ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾:

جزاءُ الاستئصالِ مقصورٌ على المبالِغِ في الكُفرانِ أو الكفر

الأسلوبُ في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ أسلوبُ قصرٍ، ولكن لَمّا سبق قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ تعيّنَ أنَّ المُرادَ: وهل يُجازَى مثلُ جزائهم العظيمِ والمَهولِ في نوعه الشّديدِ المستأصلِ إلّا الكفور؛ أي: المبالغَ في الكفران أو الكفر، ومِن ثَمَّ فلا يتوجّهُ على الحصرِ إشكال[4]، ولا يُتوهّمُ أنّ هذا يقتضي أنّ غيرَ الكفور لا يُجازى على فعله، ولا أنَّ الثّوابَ لا يُسَمّى جزاءً، ولا أنَّ العاصيَ المؤمنَ لا يُجازَى على معصيته؛ لأنّ تلكَ التّوهّماتِ كلّها مندفعةٌ بما في اسمِ الإشارة من بيانِ نوعِ الجزاء، فإنّ الاستئصالَ ونحوَه لا يجري على المؤمنين[5]، ولا يُجازى بجزاءِ الاستئصالِ والإهلاك إلّا مَنْ كفر[6]، و"لأنّه لم يُرِدِ الجزاءَ العامَّ، وإنّما أرادَ الخاصّ وهو العقاب؛ بل لا يجوزُ أنْ يُرادَ العمومُ وليس بموضعه، ألا ترى أنّك لو قلتَ: جزيناهم بما كفروا، وهل يُجازى إلّا الكافر والمؤمن، لم يصحّ ولم يَسُدّ كلامًا"[7]، ويكون الغرضُ من القصرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12302.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 71.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 385.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 174.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 288.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 506.

عدَّ غيرِ جزائهم بالنّسبة إليه عدمًا؛ تهديدًا يصدعُ القلوبَ ويردعُ النّفوسَ، ويدعُ الأعناقَ خاضعةً والرّؤوسَ[1].

بلاغة التّعبير بالتّذييل في ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾:

توكيدٌ وتقريرٌ لمجازاةِ اللهِ لكلِّ كفورٍ

قولُه: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ تذييلٌ؛ إذ إنّه يتضمّنُ المعنى الذي تضمّنته الجملةُ قبلَه، وهذا من مقاماتِ الإطنابِ، وهو يفيدُ التّوكيدَ والتّقريرَ لحقيقةِ ما ذُكرَ من مجازاةِ اللّه للكافرين من أهلِ سبأ بسببِ كفرهم، ويزدادُ به المعنى انشراحًا والمقصدُ اتّضاحًا عند مَن فهمه، ويتّضحُ عند مَن لم يفهمه[2].

أهلُ سبأ مضربُ المثَلِ في المجازاة بالكفران

وهذا التّذييل يُمكنُ عدُّهُ ممّا جَرى مَجرى الأمثال في الاسْتِقْلالِ وفُشوِّ الاسْتِعْمالِ[3]، ذلك أنّ الجزاءَ عامٌّ لكلّ مكافأة، يُستعملُ تارةً في معنى المعاقبة، وأخرى في معنى الإثابة، فلمّا استُعمل في معنى المعاقبة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾، بمعنى: (عاقبناهم بكفرهم)، قيل: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾؛ بمعنى: وهل يُعاقَب؛ أيَ: لم يُرِد به الجزاءَ العامَّ هنا؛ وإنّما أرادَ الخاصّ وهو العقاب[4].

لا يُجازَى بمثل هذا العقاب إلّا الكفور

أو ممّا لم يَخرُجْ مَخرَجَ المَثلِ؛ لكون الجُملةِ الثّانيةِ مُتوقِّفةً على الأولى في إفادةِ المُرادِ؛ أيَ: وهلْ يُجازَى ذلك الجزاءَ المَخصوصَ المُعجّل بالعقابِ، المهلكِ الشّاملِ للقوم إلّا من كان كفورًا[5]؟! ومَضمونُ الجُملةِ الأولى أنَّ آلَ سَبأٍ جَزاهم اللّهُ تعالى بكُفرهم، ومَضمونُ الثّانيةِ أنَّ ذلك العِقابَ المخصوصَ لا يقَعُ إلّا للكَفور، وفَرْقٌ بيْنَ قولِنا: جَزيتُه بسَببِ كذا، وبيْنَ قَولِنا: ولا يُجزى ذلك الجزاءَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 484.
(2) العسكريّ، الصّناعتين، ص: 373.
(3) الحمويّ، خزانة الأدب: 1/ 242.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 576، وابن معصوم، أنوار الرّبيع، ص: 176.
(5) الميدانيّ، البلاغة العربيّة: 2/ 87.

إلّا مَن كان بذلك السَّببِ، ولِتَغايُرِهما يصِحُّ أنْ يُجعَلَ الثّاني عِلَّةً للأوَّلِ، ولكنَّ اختلافَ مَفهومِهما لا يُنافي تأْكيدَ أحدِهما بالآخَرِ؛ لِلُزومِ معنًى[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المجازاة والمعاقبة:

المجازاةُ أعمُّ من المعاقبة؛ فالجزاءُ يكونُ ثَوابًا، ويكونُ عِقابًا[2]، والمجازاةُ هي المكافأةُ على الشَّيءِ في الخيرِ والشّرِّ، وتكونُ بالإحسانِ وبالإساءةِ[3]، كما أنّ الجزاءَ: تحصيلُ شيءٍ مَقصودٍ مِن تناوُلِ شيءٍ أو معالجتِهِ، فأصلُ الجزاءِ الغِناءُ والكِفايةُ؛ أيْ: تحصيلُ الكِفايَةِ من المقابلة، إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شرًّا فَشَرٌّ[4]، بينما المعاقبةُ والعقابُ والعقوبةُ تختصُّ بالعذابِ[5]، ولا تكونُ إلّا بعد ذنب، وسُمّيَتْ عُقوبَةً لِأَنَّها تَكونُ آخِرًا وثانيَ الذَّنبِ، وأصلُ العقاب يَدُلُّ عَلَى ارْتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ[6]، وقد استعملَ البيانُ القرآنيُّ هنا لفظَ المجازاةِ مع أنّ المرادَ بها العقابُ؛ لكونه مكافأةً لهم على كفرهم، وذلك تناسبًا مع حالهم من كُفرانِ النّعم عِوضَ أنْ يشكروها.

المجازاةُ تكونُ ثَوابًا وتكونُ عِقابًا؛ فهي أعمُّ من المعاقبة المُختصّة بالعذابِ

(1) ابن عَبْدِ الحَقِّ، درر الفرائد، ص: 313، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 84.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جزى).
(3) الخليل، العين: (جزي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جزأ).
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جزا).
(5) الراغب، المفردات: (عقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾ [سبأ: 18]

إتمامُ ذِكْرِ ما أنعمَ اللهُ به على قومِ سبأ بنِعَمٍ عظيمةٍ في حَضَرِهم وسَفَرِهم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَكمِلةُ القِصَّةِ بذِكرِ نِعمةٍ بعدَ نِعمةٍ؛ فإنَّ ما تقدَّمَ: لِنعمةِ الرَّخاءِ والبَهجةِ، وطيبِ الإقامةِ، وها هنا: لِنعمةِ الأمنِ، وتيسيرِ الأسفارِ، وعُمرانِ بلادِهم[1]، أو أنّه بعد أنْ حكى سبحانه ما أوتوا من النّعم في مساكنهم، ثمّ كفرانهم بها، وما جوزوا به من الخرابِ والدّمار؛ قصّ علينا ما أُعطَوه من النّعم في مسايرهم ومتاجرهم، ثمّ جحودهم بها، ثمّ ما حاقَ بهم بسببِ ذلك فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَٰرَكۡنَا﴾: (برك) أصلٌ يدلُّ على ثَباتِ الشَّيْءِ، يُقالُ: بَرَكَ فُلانٌ عَلَى الأمْرِ وبارَكَ: إذا واظَبَ عَلَيْهِ، والبَرَكَةُ مِنَ الزِّيادَةِ والنَّماءِ، يُقال: ما أبركَ هَذا الطَّعام؛ أَيْ: ما أنماه؟! والتَّبْريكُ: أَنْ تَدْعوَ بِالبَرَكَةِ، و﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 54] تَمْجيدٌ وتَجْليلٌ[3]، وتباركَ لا يوصفُ بِهِ إلّا اللّه سبحانه، والبركةُ: كثرةُ الخيرِ وتزايده، وخُصّتْ البركةُ بثبوتِ الخيرِ الإلهيّ والفيضِ الرّبّانيّ[4]، ومعنى ﴿بَٰرَكۡنَا﴾؛ أيْ: وسَّعنا على أهلها في النّعم والمياه[5].

2) ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾: (قدر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 174.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 485، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 73.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (برك).
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 119، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 183.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 386، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 60.

ونهايَتِه[1]، وقدّر من التّقدير، وقَدَّره وقَدَره: بمعنًى، وقَدْرُ كلّ شيء: قياسُه ومَبْلَغُه، و(قدَّر) إمّا لبيانِ القَدْرِ المادّيّ، وإمّا بمعنى التّهيئة للقَدْر، أو إحكامه والقضاء به ماديًّا أو معنويًّا[2]، ويُقال: بَيْنَ أَرضِك وأَرْضِ فلان لَيْلَةٌ قادِرَةٌ؛ أيْ: هَيِّنَةٌ لَيِّنَةُ السَّيْرِ لا تَعَبَ فيها[3]، ومعنى ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾؛ أيْ: سيرًا مُقدّرًا، وأَبْعادَها على تَقْديرٍ وتَعادُلٍ، فجعلنا المسافات بينها مقدّرة قريبةً حسبَ ما يحتاجُ المسافرون إليه بحيثُ يسهلُ التّنقّل بينها[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حِكايةٌ لِما أوتوا مِن النِّعَمِ البادِيةِ في مَسايِرِهِم في أماكِنَ آمنةٍ وقرى متواصلةٍ

يبيّنُ اللّه أنّه جمعَ لهم مع العيشِ الهنيء في بلادهم العيشَ الهنيءَ في مَسايرِهم ومَتاجِرِهم في بلادٍ مَرضيَّةٍ وأماكن آمنةٍ وقرى متواصلةٍ؛ فقال: وجعلنا بين قراهم وقرى الشام التي باركنا فيها بالتّوسعة على أهلها قرىً متواصلةً يظهرُ بعضها لبعض، لأنّها مبنيّةٌ على آكام عاليةٍ، وجعلنا بين بعضها مقاديرَ متناسبةً بحيث يقبلُ الغادي في قريةٍ، ويبيتُ الرائحُ في أخرى إلى أن يصلَ إلى الشام، وهو لا يحملُ معه زادًا ولا ماءً، وقلنا لهم سيروا في هذه القرى التي بين قراكم وقرى الشام التي باركنا فيها لياليَ وأيامًا، وأنتم آمنون لا تخشون جوعًا ولا عطشًا، ولا عدوًّا يبطشُ بكم[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) ودلالتُها في: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ﴾:

تَكْميلٌ لِما أوتوا مِن أنواعِ النَّعْماءِ، وتَوْفيرٌ لَها في الحَضَرِ والسَّفَرِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قدر).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (قدر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 387، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 261.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 73.

﴿قُرَى ظَٰهِرَةً﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ﴾، لا عَلى ما بَعْدَهُ مِنَ الجُمَلِ النّاطِقَةِ بِأفْعالِهِمْ، أوْ بِأجْزِيَتِها؛ أيْ: عَطَفَ ما أوتوا مِن النِّعَمِ البادِيَةِ في مَسايِرِهم ومَتاجِرِهم على نِعمةِ الرَّخاءِ والبَهجةِ وطيبِ الإقامةِ؛ وذلك تَكملةٌ لِقصَّةِ سَبأٍ بذِكرِ نِعمةٍ بعْدَ نِعمةٍ، وبَيانٌ لِعاقبتِهم؛ أيْ: ذَكَرَ حالَ نَفْسِ بَلَدِهِمْ، وبَيَّنَ تَبْديلَ ذَلِكَ بِالخَمْطِ والأثْلِ[1]، ثُمَّ ذَكَرَ حالَ خارِجِ بَلَدِهِمْ، وذَكَرَ عِمارَتَها بِكَثْرَةِ القُرى، ثُمَّ ذَكَرَ تَبْديلَهُ ذلك بِالمَفاوِزِ والبَيادي والبَراري[2]، وإنَّما لم يُذكَرِ الكلُّ معًا؛ لِما في التَّثنيَةِ والتَّكريرِ مِن زيادةِ تَنبيهٍ وتَذكيرٍ[3].

دلالة التّعبير بـ (الجَعْل)، ولطيفةُ صَوْغِه ماضيًا:

إحداثُ القِرى الظّاهرةِ وتصييرُها محلًّا لكمالِ الانتفاعِ بها أمرٌ قد تحقّق

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ الحكيمُ بلفظِ (الجَعْل) دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾؛ لأنَّه لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلّها، فهو أعمّ من (فَعَلَ) و(صَنَعَ) وسائرِ أخواتها، ومن معانيه: الخَلْق[4]، ولذا ذكرَ بعضُ العلماءِ أنّ الآيةَ فيها دلالةٌ على خَلْقِ اللهِ للأفعال؛ لأنّه سبحانه أخبرَ أنّه جعلَ قرًى ظاهرةً، والقُرى ما اتّخذها أهلُها، ولكونه أنسبَ للمقام، وهو بناءُ هذه القُرى واستنباطُ آبارِها ومصانعِها وتخصيصُ مَنْ يرعاها ويحفظُها؛ لأنّ الجَعْلَ في اللّغة فيه معنى التّهيئة والتّضمين والتّبعيّة، وإحداثُ شيءٍ من شيءٍ وتكوينِه منه[5].

ما قدَّره الله كائنٌ مُتحقِّقُ الوقوعِ

وقد صيغ قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ ماضيًا للدِّلالةِ على تحقُّقِ الوقوعِ؛ أيْ: وقوعِ فعل الجَعْل، وهو إحداثُ هذه القُرى الظّاهرة

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 495، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 174.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 201.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 439.
(5) الرّاغب، المفردات: (جعل).

وتصييرُها محلًّا لكمالِ الانتفاعِ لأهلِ سبأ؛ فهو كنايةٌ عن حَدَثٍ قد مضى وانقضى؛ أيْ: قد تحقّقَ ولا مجالَ لإنكاره، فهم يرون آثارَه.

غرضُ الإسناد في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

القُرى الظّاهرةُ يُحتمَلُ أنّها تكوّنتْ من عملِ النّاس القاطِنين حَفافي الطَّريقِ السّابِلَةِ بين مأرب وجِلَّقَ؛ لقصدِ استجلابِ الانتفاع بنزولِ القوافل بينهم، وابتياعِ الأزوادِ منهم، ويُحتمَلُ أنّ سبأ أقاموا مباني يأوون إليها عند كلِّ مرحلةٍ من مراحل أسفارهم، وهذا من جملةِ ما وطَّدَ لهم ملوكُهُم مِن أسبابِ الحضارَةِ والأمنِ على القوافلِ، فكان إسنادُ جَعْلِ تلك القرى إلى الله تعالى؛ لأنّه المُلْهِمُ النّاسَ والملوك، أو لأنّه الذي خلقَ لهم تربةً طيّبة تتوفرُ محاصيلُها على حاجةِ السّكانِ، فتسمحُ لهم بتطلبِ ترويجها في بلاد أخرى[1].

عظمةُ المنعم سبحانه دلالةٌ على عظَمةِ إنعامِه بالقُرى الظّاهرة

التّعبير بضمير العظَمة في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

التّعبير بضميرِ العظَمة للدّلالة على عِظَم هذه النّعمة، فالعظيمُ لا تكونُ نعمُه إلّا عظيمةً سبحانه؛ أيْ: جعلنا هذه القرى بما لنا من العظَمة[2]، وتتمثّلُ هذه النّعمة في أنّ أهلَ سبأ كانوا إذا خرجوا من مأرب إلى البلادِ الشّاميّة في قوافلَ للتّجارةِ وبيعِ الطّعام؛ سلكوا طريقَ تهامة، ثمّ الحجازِ، ثمّ مشارفِ الشّام، ثمّ بلادِ الشّام، فكانوا كلّما ساروا مرحلةً وجدوا قريةً أو بلدًا أو دارًا للاستراحةِ واستراحوا وتزودوا؛ فكانوا من أجلِ ذلك لا يحملون معهم أزوادًا إذا خرجوا من مأرب[3].

عظَمة النِّعمةِ من عِظَمِ خالقها

نُكْتَةُ التّعبير بالبينيّة وتكرارُها:

(بين) موضوعةٌ للخَلل بين الشّيئَيْن ووسطِهما، ولا تستعملُ إلّا فيما له مسافة، نحو بين البلدين[4]، وهي هنا في قوله: ﴿بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ

(بين) موضوعةٌ للمسافةِ بين مساكن سبأ وقرى بلادِ الشّام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 485.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 174.
(4) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 221.

﴿ٱلْقُرَى﴾ كذلك، وقد أُضيفتْ (بين) الأولى وهي قولُه: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ إلى الضّميرِ الرّاجعِ إلى قومِ سبأ، وأُضيفتْ (بين) الثّانية وهي قوله: ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى﴾ إلى الاسمِ الظّاهر وهو: ﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾؛ وذلك لأنّ (بين) ظرفٌ مبهمٌ لا يتبيّنُ معناه إلّا بإضافته إلى اسمَيْن فصاعِدًا، أو ما يقومُ مقامَهما، والمعنى: وجعلنا بينَ مساكنِ قومِ سبأ وقُرى بلادِ الشّام قرًى ظاهرة.

مهما بلغ شُكرُ العبادِ؛ فلن يُقَدّروا النّعمة حقّها

أعادَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (بين) في قوله: ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى﴾ بعد ﴿بَيْنَهُمْ﴾، ولم يكتفِ بحرفِ العطف، فلم يَقُلْ: (وجعلنا بينهم والقرى)؛ لوجوبِ إعادةِ ذِكْرها حتى يستقيمَ المعنى؛ لأنّها من صورةِ عطفِ الظّاهر على الضّمير بعد (بين)، وفي تكرارها ما يضفي كذلك إيقاعًا جميلًا على الآية، ممّا يساعدُ في تيسيرِ حفظها وتذكّرها.

غرضُ تقديم الظّرف ﴿بَيْنَهُمْ﴾:

اهتمامٌ بما كانَ يَهُمُّ أهلَ سبأ وهو طُرقُ أسفارِهم

قدّمَ البيانُ القرآنيّ القيدَ بالظّرف ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى﴾ على المفعول به ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾، ولم يَقُلْ: (وجعلنا قرًى ظاهرةً بينهم وبين القرى)؛ اهتمامًا بالمُقدّم؛ وهو طريقُ مَسايرِهم وتنقّلاتهم وأسفارِهم ومَتاجِرِهم من أرضِ اليمن إلى الشّام، وتشويقًا للمُؤخّر؛ وهو النّعمُ البادية في هذا الطّريق، كما أنّ تقديمَ الظّرفِ هنا - أي: في النّعم الباديَة في مسايرهم ومتاجرِهم بالأمن وتيسيرِ الأسفار - يتناسبُ مع تقديمِ الظّرفِ في النّعمِ البادية في مساكنهم بالرّخاءِ والبهجةِ وطيبِ الإقامةِ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾.

معنى (اللّام) في ﴿ٱلْقُرَى﴾، ولطيفةُ جمعها:

من بركةِ قرى الشّام تعدّدها وكثرتها

المُراد بالقُرى التي بوركتْ في قوله تعالى: ﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ قرى بِلادِ الشّامِ عند أغلبِ المفسّرين[1]، فإنّها هي البقعة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 386، والثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 4/ 371، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 415.

المباركة[1]، فهي القرى المعهودةُ عندهم بما حباها اللّهُ منَ البَركة؛ وهي قُرى الشّام التي دلّ عليها قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء: 1]، وقولُه: ﴿ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنبياء: 71]، فهي للعهدِ الذّكريّ، والتّعبيرُ عنها بصيغة الجمعِ يدلُّ على تعدّدها وكثرتها؛ للتّناسبِ مع سياقِ التّفضلِ والامتنانِ، باجتماع النّاس فيها وترابطهم وعدم تفرّقهم عن بعضهم؛ بما يزيدهم قوّةً وأُلفةً ومَنَعَةً؛ إذِ القُرى في أَصلها اللُّغويّ تدلّ على جُمَعٍ واجتماعٍ، وسُميّتِ القَريةُ بهذا الاسم لاجتماعِ النّاس فيها[2].

عِلّة التّعبير في الصّفة بالموصول ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا﴾:

في الموصوليّة تقريرٌ لفضل اللهِ وامتنانه ببركةِ القُرى

آثرَ البيانُ الحكيم الوصفَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾ في قوله: ﴿ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ دون الاسم، فلم يَقُلْ: (القرى المباركة)؛ زيادةً في تقريرِ الغرضِ المسوقِ له الكلام، وهو بيانُ قدرةِ اللّه تعالى، وأنّ له وحدَه الفضلَ والمنّةَ فيما هم فيه من الخيرِ والبَركة.

دلالةُ التّعبير بالبَرَكة مادّةً وصيغةً:

بركةُ القُرى بركةٌ إلهيّةٌ ثابتةٌ دائمةُ النّماءِ والزّيادة

عبّرَ النّظمُ الحكيمُ بلفظ البركة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾؛ للدّلالة على ثباتِ الخيرِ الإلهيّ في هذه القرى ونمائه وزيادته؛ فأصلُ البركةِ يدلُّ على ثباتِ الشّيء[3]، ومن معانيها الزّيادةُ والنّماءُ[4]، وقد عبّرَ بالماضي ﴿بَٰرَكۡنَا﴾ للدّلالة على تحقّقِ هذه البركة، وأتى به على وزن (فاعَلَ) للدّلالة على زيادةِ هذه البَرَكةِ الإلهيّة وثبوتها؛ أيْ: هي بركةٌ اعتنينا بها اعتناءَ مَن يناظِرُ آخَرَ بغايةِ العظَمة[5]، وأُضيفت البَرَكَة إلى ضمير التّعظيم (نا)؛

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 201.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قرى، قري).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).

(4) الفراهيديّ، العين: (برك).

(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 485.

للدّلالةِ على عظَمةِ هذه البركة؛ أيّ: باركنا فيها بما لنا من العَظَمَة، فالعظيمُ سبحانه لا تكونُ بركتُه إلّا عظيمة.

معنى (في) في قوله: ﴿بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾:

البركةُ مُستقِرّةٌ مُتمكِّنةٌ في قُرى بلادِ الشّام

(فيها) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ حرف جرّ، معناه الظّرفيّة المكانيّة، والجارُّ والمجرور مُتعلِّقٌ بالفعل ﴿بَٰرَكۡنَا﴾، وقدْ عُدّي بالجارِّ مع إمكانيّةِ الإيجازِ بتعديته إليها مباشرةً، بأنْ يقول: (باركناها)؛ وذلك لدلالةِ الظّرفيّة على معنى استقرارِ وتمكّنِ البركةِ في كلّ جزءٍ من أجزاءِ قُرى بلادِ الشّام؛ أيّ: جعلناها محالَّ الشّجر والماء[1]، والعِلْم والرّزق بالأنبياء وأصفياء الأولياء[2]، ولو عبّر بقوله: (باركناها)؛ لاحتملَ أنْ تقتصرَ البَركةُ عليها عمومًا، كما أنّه لم يقلْ: باركنا ما فيها؛ لتكونَ المباركةُ مطلقة، ولا تقتصرُ على الأشياءِ المادّيّة فحسب؛ بل تشملُ البركةُ المادّيّاتِ والمعنويّاتِ والرّوحانيّات.

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ القرية دونَ المدينة:

قـرًى صغيرةٌ ممتدّةٌ ما بين سبأ والشّام يمرّ بها المسافرُ للاستراحة والتزوّد

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ (القرية) دون المدينة في قوله تعالى: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾؛ لكون القرى أنسبَ مع السّياقِ الذي يتحدّثُ عن كثرةِ هذه القُرى وتجمّعِها؛ إذِ القُرى في أصلها اللّغويّ تدلُّ على جُمَعٍ واجتماعٍ[3]، والقريةُ هي البلدةُ الصّغيرة، وهي أصغرُ من المدينة[4]، بينما المدنُ تدلُّ في أصلها اللّغويّ على الإقامة؛ من مَدَنَ بالمَكانِ: أَقامَ بِهِ، والمدينةُ هي البلدةُ الكبيرة التي كَثُرَ سكانُها[5]، والسّياقُ هنا لا يدلّ على الإقامةِ في مدنٍ كبيرة كثيرةِ السّكان، وإنّما يدلُّ على

(1) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 530.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 485.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قرى، قري).
(4) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قري).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (مدن).

قرى كثيرةٍ صغيرةٍ متجمّعةٍ متواصلة بين سبأ وبلادِ الشّام يمرُّ بها المسافرُ، فيبيتُ فيها، ويتزوّدُ منها، ويمضي في طريقه.

نُكْتَةُ الجمع في ﴿قُرَى﴾:

في تعدّدِ القُرى الظّاهرةِ وكثرتها وعظَمتها زيادةُ امتنانٍ على أهلِ سبأ

في التّعبيرِ بصيغة الجمع في لفظِ ﴿قُرَى﴾ في قوله تعالى: ﴿قُرَى ظَٰهِرَةً﴾ دلالةٌ على تعدّدِ هذه القُرى الظّاهرةِ وكثرتها، ومِنْ ثمّ زيادةُ الامتنانِ على أهلِ سبأ، وقد ذُكِرَ أنّها بلغتْ أربعةَ آلافٍ وسبعَمائةِ قريةٍ متّصلة من سبأ إلى الشّام، يُرى بعضُها من بعض لتقاربها[1].

نُكْتَةُ تنكير ﴿قُرَى﴾:

التّناسبُ مع سياقِ الامتنانِ عليهم، وبيانِ ضلالِهم بكفرهم

نُكِّرت ﴿قُرَى﴾ لتفخيم شأنِها وتعظيمه؛ فهي قرًى مع كثرتها عظيمةٌ فخيمةٌ في بنائها وأراضيها ومصانعِها ونفعها وتجارتها التي لا تنقطعُ، فقد كانتْ هذه القرى متجرَهم من أرضِ اليمن إلى أرضِ الشّام على كلّ ميلٍ قريةٌ وسوقٌ[2]، والتّعبيرُ بالتّنكير متناسبٌ مع سياقِ الامتنانِ عليهم، وبيانِ ضلالِهم بكفرهم بهذه النِّعَم العظيمة الفخيمة الجليلة.

سِرُّ وصف القُرى بالظّهور:

قُرًى متقاربةٌ متّصلةٌ مرتفعةٌ عامرةٌ نِعَمُها كثيرةٌ بيّنةٌ

تتعدّد معاني لفظ ﴿ظَٰهِرَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿قُرَى ظَٰهِرَةً﴾، فهي المتقاربةُ المتّصلة بحيثُ يظهرُ بعضُها لبعضٍ، ويتراءى بعضُها من بعض، وهذا المعنى يُؤذِنُ بقُرْبها، وهي الظّاهرةُ التي تظهرُ للسّائرِ من بُعد؛ بأنْ كانتِ القُرى مبنيّةً على الآكام والظّراب، يشاهدُها المسافرُ فلا يَضِلُّ طريقَها، أو هي الخارجةُ عن المُدُنِ؛ فهي في ظَواهرِ المُدنِ، ومنه قولُهم: نَزَلْنا بظاهرِ المدينةِ الفُلانيَّة؛ أيْ: خارجًا عنها؛ فقولُه: ظاهِرَةً كتَسميةِ النّاسِ إيّاها بالباديةِ وبالضّاحيةِ، فيكونُ في قولِه: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ على ذلك كِنايةٌ عن وفرةِ المُدنِ، حتّى إنَّ القُرى كلَّها

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 60.

(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 530.

ظاهرةٌ منها[1]، "وجائزٌ أنْ يكون المعنى: نِعمُها بيّنة"[2]، أو ظاهرةٌ بالعُمْران وكثرةِ الماء[3]، ولا مانعَ أنْ يجتمع في هذه الكلمةِ المعاني السّابقة كلّها؛ فهي قُرًى خارجةٌ عن ظواهرِ المدنِ، متقاربةٌ متّصلةٌ مرتفعةٌ عامرةٌ، نِعَمُها كثيرةٌ بيّنةٌ.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾:

جمعٌ بين نعمةِ اتّصال القرى وتقاربها، وبين نعمةِ الرّفق بالمسافر

عَطَفَ القرآنُ الحكيمُ قولَه تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾؛ ليجمعَ في هذه النّعمةِ الإلهيّة لأهلِ سبأ بين ما جعلَ لهم من مدنهم الكثيرة، والقُرى الظّاهرةِ المُتّصلة المتقاربةِ في أشرافِ الأرض كأنّها الكواكب الحسان؛ فيها المالُ والمفاخرُ والنّفعُ والمعونةُ للمارّة، وما قُدِّرَ لهم من تهيئةِ كلّ أسبابِ الرّاحة في السّيرِ بين هذه القُرى في سفرهم؛ بإزالةِ ما فيه عُسْرٌ بعدمِ الموافقة في المَقيل والمبيت؛ فجعلَها على غايةِ الرّفقِ بالمسافر في نزوله متى أرادَ من ليلٍ أو نهارٍ على ما جرتْ به عوائدُ السّفّار[4].

دلالة التّعبير بالتّقدير في الفعل ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾:

مقاديرٌ في غايةِ الرّفقِ بالمسافرِ، بما يحقّقُ كمالَ الإنعامِ منه سبحانه

عبّر البيانُ الحكيم بلفظ ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾؛ للدّلالة على بلوغِ ما قدّره اللّهُ من السّيرِ فيها منتهى غايتِه، التي أرادها اللّهُ تعالى بما يحقّقُ كمالَ الإنعامِ منه سبحانه؛ وذلك لأنّ ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾ من التّقدير، وأصلُ (قدر) يَدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونهايَتِهِ[5]، فقَدْرُ كلّ شيء: قياسُه ومَبْلَغُه، ومن معاني تقديرِ اللّه للأشياء: أنْ يجعلها على مقدارٍ مخصوصٍ، ووجهٍ مخصوصٍ حسبما اقتضتِ الحكمةُ[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 439.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 445.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قدر).

والمعنى في الآية: جَعَلْنا نِسْبَةَ بَعْضِ القرى إلى بَعْضٍ عَلى مِقْدارٍ مُعَيَّنٍ مِنَ السَّيْرِ؛ أيْ: "إنّ أبعادها على تقديرٍ وتعادلٍ بحيثُ لا يتجاوزُ مقدارَ مرحلة"(1)؛ فمَن سارَ مِن قَرْيَةٍ صَباحًا وصَلَ إلى أُخْرى وقْتَ الظَّهيرَةِ والقَيْلولَةِ، ومَن سارَ بَعْدَ الظُّهْرِ وصَلَ إلى أُخْرى عِنْدَ الغُروبِ، فَلا يُحْتاجُ إلى حَمْلِ زادٍ ولا مَبيتٍ في أرْضٍ خاليَةٍ، ولا يُخافُ مِن عَدوٍّ ونَحْوِهِ(2)؛ أيْ: "يصبحونَ في منزلٍ وقريةٍ وماءٍ، ويُمسونَ في منزلٍ وقريةٍ وماءٍ"(3).

أيُّ رفاهيةٍ تلك التي كانت لسبأ في سفرهم!

وجاء الفعل ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾ بصيغة الماضي للدّلالة على تحقّق وقوع هذا التّقدير، واستفادتُهم من آثارِه الخَيّرةِ عليهم، وما حقَّقَتْهُ من راحةٍ وطمأنينةٍ وأمنٍ خلالَ سفرهم، إذ كان السّفرُ فيها محدودَ المسافات، مأمونًا على المسافرين، كما كانتِ الرّاحةُ موفورةً؛ لتقاربِ المنازلِ وتقاربِ المحطّات في الطّريق، ورغم ذلك كفروا باللّهِ وكفروا بنِعَمِ اللّهِ، ومنها هذه النّعم العظيمة.

يَسَّرَ اللهُ على أهلِ سبأ، لكنّهم عسَّروا على أنفسهم

سرّ الإسناد إلى ضمير العظَمة ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾:

يُشيرُ إسنادُ فعلِ التّقدير إلى ضميرِ العظَمة في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾ إلى دقّةِ هذه المقادير وكمالها في تحقيقِ الرّفقِ بالمسافرين، في نزولهم متى أرادوا من ليلٍ أو نهار، فهو تقديرٌ من العظيم المنعِم سبحانه.

دقّةُ هذه المقادير وكمالُها في تحقيقِ الرّفقِ بالمسافرين

معنى (في) ودلالتُها في قوله: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا﴾:

(في) في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾ حرفُ جرٍّ معناه الظّرفيّةُ على تقديرِ مضاف؛ لأنَّ التّقديرَ في أبعادِ القُرى لا في السَّيرِ؛ إذ تقديرُ السّيرِ تبعٌ لتقديرِ الأبعاد(4)، والجارُّ والمجرور

الظّرفيّةُ مُؤذِنةٌ بشِدّةِ القُربِ بين القُرى الظّاهرة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 304.
(3) ابن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 2/ 754.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.

مُتعلّقان بفعلِ ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾ لا بالسّير، والتّعبيرُ بالجارِّ (في) مُؤْذِنٌ بِشِدَّةِ القُرْب، حَتّى كَأنَّهم لَمْ يَخْرُجوا مِن القُرى نفسِها[1]، أو تكون بمعنى (بين)، والتّقدير: (وقدرنا السّير بينها).

غرض تقديم ﴿فِيهَا﴾ على المفعول ﴿ٱلسَّيۡرَۖ﴾:

اهتمامٌ بأبعادِ المراحلِ المُقدَّرة، إذ هي محطُّ اهتمامِ المسافر

قدّم البيانُ القرآني الجارَّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على المفعول ﴿ٱلسَّيۡرَۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾، ولم يَقُلْ: (وقدرنا السّير فيها)؛ لكون الجارِّ والمجرور متعلّقَيْن بالفعلِ ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾، وللاهتمام بأبعادِ المراحلِ المقدّرةِ بين القُرى الظّاهرة؛ إذ هي محطُّ اهتمامِ المسافر.

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلسَّيۡرَۖ﴾:

السّيرُ أنسبُ للمسيرِ ليلًا ونهارًا بمسافاتٍ مُحدَّدةٍ ومعهودةٍ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلسَّيۡرَۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾؛ لكون معاني السّير تتناسبُ مع السّياقِ الذي هو سياقُ الامتنانِ والإنعامِ على أهلِ سبأ؛ بأنْ جعلَ مسافةَ السّيرِ بين القُرى مُقدّرًا مُعيّنًا، بما يحقّقُ الرّفقَ بالمسافرين في نزولهم بها متى أرادوا من ليلٍ أو نهار، فمعنى السّيرُ هو المضيُّ في الأرض، ويكونُ ليلًا ونهارًا، والسّيرُ والمسير: المسافةُ التي يُسارُ فيها مِنَ الأَرض[2]، فالسّيرُ هو من وحداتِ مقاسِ المسافات، يُقال: بينهما مسيرةُ يوم وليلة، فالتّعبيرُ بلفظِ ﴿ٱلسَّيۡرَۖ﴾ - الذي يدلّ على المضيِّ من ليلٍ أو نهارٍ، ويدلُّ كذلك على المسافة - ناسبَ ما ورد في السّياق من لفظ ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾، وقولِه: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، ولهذا فسّر بعضُهم السّيرَ بالمَقيلَ والمَبيتَ، بحيثُ يقيلون في قريةٍ، ويبيتون في أخرى إلى انتهاءِ سفرهم[3]، واللّام في ﴿ٱلسَّيۡرَۖ﴾ عهديّةٌ، فهي

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 304، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 486.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سير)، والرّاغب، المفردات: (سار).
(3) ابن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 2/ 755، والسّيوطيّ والمحليّ، تفسير الجلالين، ص: 566.

مسافاتٌ مقدّرةٌ معهودةٌ لأهلِ سبأ؛ أيْ: "سيرًا مُقدّرًا يعرفونه، ويحكمونَ عليه، بحيثُ لا يتيهونَ عنه"[1].

موقع جملة ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ ممّا قبلَها ودلالتُه:

سيرُهم في القُرى الظّاهرة - أمرًا أو حالًا - امتنانٌ من اللهِ عليهم

جملة ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ في محلّ نصب مقول قولٍ محذوف[2]، والتّقدير: "قلنا لهم سيروا"[3]، أو أن يكونَ الأمرُ بمعنى الخبر، ومعناه: مكنّاهم من السّير، فكانوا يسيرونَ فيها لياليَ وأيامًا آمنين[4]، فتكون في محلّ نصبِ حال؛ أيْ: كان حالهم السّيرَ فيها.

مرجع ضمير المخاطبين في ﴿سِيرُواْ﴾، ونُكْتَةُ جمعه:

نعمةُ السّير الآمنِ عامّةٌ لكلِّ أهلِ سبأ

ضميرُ الخطاب في ﴿سِيرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ يعودُ على أهلِ سبأ؛ لأنّ القصّةَ فيهم، وسياقُ الآيات في خطابهم، والضّمائرُ جميعها تعودُ عليهم، وقد جاء بصيغة الجمع، للدّلالة على أنّ نعمةَ السّيرِ بين القرى الظّاهرة - من نعمةِ الأمنِ والرّاحةِ والطّمأنينةِ وغيرِ ذلك - نعمةٌ عامّةٌ تشملُ جميعَ أهلِ سبأ.

غرض الأمر بالسّير في جملة ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾:

أمرٌ على سبيلِ الامتنانِ، سواءٌ كان بلسانِ المقالِ أو الحالِ

الظّاهرُ أنّ ﴿سِيرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أمرٌ حقيقيٌّ منه ﷻ على لسانِ نبيٍّ أو نحوه، بغرضِ الامتنان، وهو بتقديرِ القول؛ أيْ: قلنا لهم سيروا في تلك القُرى[5]، أو أنّه لا قولَ ثَمَّ، ولكنّهم لَمّا مُكّنوا من السّير، وسوّيَتْ لهم أسبابُه، وجعلَ اللّهُ القُرى على مقادير هي في غايةِ الرّفقِ بالمسافر في نزوله متى أرادَ من ليلٍ أو نهارٍ؛ كانتْ حقيقةً بأنْ يُقالَ لأهلها والنّازلين

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 677.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 83.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 388، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 416، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 304.

(4) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 328، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 678.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 388، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 538، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 304.

بها على سبيلِ الامتنان: ﴿سِيرُواْ﴾[1]؛ أيّ: كأنّهم أُمروا بذلك وأُذِنَ لهم فيه[2].

إذا أُمِن طريقُ السَّفر تراجعتْ مشقَّتُهُ

ويحتمَل أنَّ يكون الأمرُ والقول هو قول التّكوين؛ وهو جعلهم يسيرونَ فيها، وصيغةُ الأمر للتّكوين[3]، وكأنّ اللّهَ تعالى قال للقرى: اجعليهم يسيرون فيكِ، ولشدّةِ سرعة الاستجابة أسندَ الأمرَ إليه مباشرة على اعتبار أنّ القرى استجابتْ، فما عليكم إلّا أنْ تسيروا، أو أنّه أمرٌ بمعنى الخبر، ومعناه: مكّناهم من السّيرِ، فكانوا يسيرون فيها لياليَ وأيامًا آمنين[4].

بلاغة التّعبير بالجناس في: ﴿ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ﴾:

تكاملٌ في نعمةِ السّيرِ؛ إذ قدّرَ لهم السّيرَ الآمنَ وأمرهم به

في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ﴾ بين الكلمتَيْن الأخيرتَيْن جناسُ اشتقاقٍ؛ لأنّ كلمةَ ﴿سِيرُواْ﴾ مشتقةٌ من السّير، وهذا الجناسُ يُضفي قوّةً ووضوحًا على المعنى الذي يتكاملُ بالصّيغتين؛ فكلتا الكلمتين تدلّ على السّير، أمّا الأولى فتدلّ على النّعمة الإلَهيّة في تقديرِ السّير الآمنِ لقوم سبأ، وأمّا الثّانية فتدلّ على الفعل؛ أيّ: قدّرَ لهم السّيرَ الآمنَ وأمرهم أنْ يسيروا، كما أنّ تكرارَ الصّيغة الاشتقاقيّة يُعطي إيقاعًا، يجعلُ الآيةَ أكثرَ جاذبيةٍ، ويساعدُ في تيسيرِ حفظها.

معنى (في) ودلالتُها في قوله: ﴿فِيهَا﴾:

في الظّرفيَّةِ إيذانٌ بشدّةِ تقاربِ القرى وحلولِ الأمنِ وتمكّنه فيها

حرف الجرِّ (في) في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ يفيد الظّرفيّةَ، وهذه الظّرفيّة تَخْييلٌ لاستعارةٍ مَكْنيَّةٍ؛ إذ شُبِّهَتِ القُرى لشدّةِ تقاربها بالظّرف، وحُذِفَ المُشَبَّهُ بِهِ، ورُمِزَ إليه بحرفِ الظّرفيّة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 577، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.

(4) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 328، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 678.

والمعنى: سيروا بينها[1]، ولكنّه عبّر بحرفِ الظّرفيّة للإشارةِ الى أنّ السّيرَ في خارجها كالسّيرِ في داخلها؛ مبالغةً في ذِكْرِ نِعمها لهم من شدّةِ القُربِ، كأنّهم لم يخرجوا منها، أو أنْ تكون (في) على حالها، ولكنْ بتقديرِ مضاف، والمعنى: سيروا في طُرقها، وفي الظّرفيّة كذلك إشارةٌ إلى حلولِ الأمنِ وتمكّنه في كلّ جزءٍ من هذه القُرى، من ليلٍ أو نهارٍ.

مرجع الضّمير في ﴿فِيهَا﴾، ونُكْتَةُ تكرارِه:

السّيرُ المقصودُ بالامتنانِ هو السّيرُ في القُرى الظّاهرة

ضمير ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ عائدٌ إلى القُرى الظّاهرة التي قدّرَ اللّهُ فيها السَّيرَ الآمن[2]، وقد كرّرَ النَّظمُ الحكيم لفظَ ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾، ولم يَقُلْ: (وقدّرنا فيها السّيرَ سيروا ليالي وأيامًا)؛ لإفادةِ التّأكيد على أنّ السَّيرَ المقصودَ بالامتنانِ هو السَّيرُ في هذه القرى الظّاهرة لا في غيرها.

غرض تقديم ﴿فِيهَا﴾ على المفعول ﴿لَيَالِيَ﴾:

الاهتمامُ بتحقُّقِ الأمنِ بين القُرى الظّاهرةِ وفي طرقها

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ ﴿فِيهَا﴾ على المفعول به ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾، ولم يقلْ: (سيروا ليالي فيها)؛ اهتمامًا بالمُقدَّم؛ وهو القُرى الظّاهرة، ولفتَ الانتباهِ إلى ما تضمّنته من نِعَمٍ عظيمةٍ؛ من تحقُّقِ الأمنِ بين هذه القُرى وفي طرقها، وتشويقًا للمُؤخَّر، وهو أمنُهم لياليَ وأيامًا.

سِرُّ تقييد السّير فيها بـ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾:

الأمنُ حاصلٌ لهم في سيرهم في القُرى الظّاهرة ليلًا ونهارًا

دلَّ تقييد السّير في القُرى الظّاهرة بـ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ على كثرة هذه القرى وطولِ مسافتها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.

وصلاحيتها للسّير في أيّ وقتٍ أُريدَ من ليلٍ أو نهار[1]، فالأمنُ حاصلٌ لهم في سيرهم ليلًا ونهارًا[2]، والمعنى: سيروا كَيْفَ شِئْتُمْ[3].

سِرُّ جمع ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾، ولطيفةُ تنكيرهما:

كمالُ نعمةِ الأمنِ بسيرهم في أيّ وقتٍ شاؤوا من ليلٍ أو نهارٍ

جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين لفظي اللّيالي والأيام في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ للدّلالةِ على كمالِ نعمةِ الأمنِ التي تفضّل اللّهُ بها على أهل سبأ؛ إذ يستطيعون أنْ يسيروا في أيِّ وقت شاؤوا من ليلٍ أو نهار، "بخلافِ المواضعِ المخوفةِ، فإنّ بعضها يُسلكُ ليلًا لعدمِ علْمِ العدوّ بسيرهم، وبعضُها يُسلكُ نهارًا لئلّا يقصدهم العدوّ، إذا كان العدوّ غير مُجاهرٍ بالقصدِ والعداوة"[4].

رفاهيةٌ قوبلت بالجحود لا بالشُّكر

واللّيلَ أدلُّ على الأمْنِ وأعدَلُ للسَّيرِ في البلادِ الحارَّةِ، والنّهار أدلُّ على كَثرةِ الظِّلالِ والرُّطوبةِ والاعتدالِ الَّذي يُمكِنُ معه السَّيرُ في جَميعِ النَّهارِ[5]، وفي تَنكيرِ ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ إلْماعٌ إلى قِصَرِ أسفارِهم؛ فقد كانتْ قَصيرةً؛ لأنَّهم يَرتَعون في بُحْبوحةٍ مِن العَيشِ، ورَغَدٍ منه، لا يَحتاجون إلى مواصَلةِ الكَدِّ، وتَجشُّمِ عَناءِ الأسفارِ للحُصولِ على ما يُرفِّهُ عَيْشَهم[6].

غرضُ تقديم ﴿لَيَالِيَ﴾ على ﴿وَأَيَّامًا﴾:

المسافرونَ أحوَجُ إلى الأمْنِ في اللَّيلِ منهم إليه في النَّهارِ

تَقديمُ اللَّيالي على الأيّامِ في قولِه تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ للاهتمامِ بها في مَقامِ الامتِنانِ؛ لأنَّ المسافرينَ أحوَجُ إلى الأمْنِ في اللَّيلِ منهم إليه في النَّهارِ؛ لأنَّ اللَّيلَ تَعترِضُهم فيه القُطّاعُ والسِّباعُ[7]، وهو مَظِنَّةُ الخَوْفِ من مُغْتالٍ، وأخفى للويل[8]، فقدَّمَ ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 509.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 176.
(4) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 293.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 84.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 538، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 176.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 304.

هو أدلُّ على الأمْنِ، وأعدَلُ للسَّيرِ في البلادِ الحارَّة(1)، أوْ لِأنَّها سابِقَةٌ عَلى الأيّامِ(2).

سِرُّ التَّقييد بالحال ﴿ءَامِنِينَ﴾:

نعمةُ الأمنِ سببُ استقرارِ الحياة

قيّدَ البيانُ الحكيمُ سيرَ أهلِ سبأ بالحال ﴿ءَامِنِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ إبرازًا لهذه النّعمةِ العظيمة؛ وهي الأمنُ الذي هو سببُ استقرارِ الحياة، وتذكيرًا لقريش بنعمةِ الأمن التي ذكرتها سورةُ قريش ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش: 4]، وفيه إشارَةٌ إلَى كَثْرَةِ العِمارَة، فإنَّ خَوْفَ قطّاعِ الطَّريقِ والانقطاع عنِ الرَّفيقِ لا يكونُ في مِثْلِ هذه الأماكنِ(3).

نُكْتَةُ صَوْغِ الحال على وزن (فاعِلين):

استمراريّةُ الأمن تُزهِر الحضاراتِ

صيغَ الحالُ في ﴿ءَامِنِينَ﴾ على وزن اسم الفاعل الذي يدلُّ على الثّباتِ والاستمرار؛ مبالغةً في بيانِ عظَمةِ هذه النّعمة؛ فهو أمنٌ ثابتٌ مستمرٌّ عظيمٌ في كلّ أحوالهم وأوقاتهم وأماكنهم بالنّسبةِ إلى كلّ مُلمٍّ(4)، والمعنى: سيروا فيها آمنين من كُلِّ ما تَكْرَهونَهُ لا يَخْتَلِفُ الأمْنُ فيها بِاخْتِلافِ الأوْقات، أوْ سيروا فيها آمِنينَ وإنْ تَطاوَلَتْ مُدَّةُ سَفَرِكم، وامْتَدَّتْ لَيالِيَ وأيّامًا كَثيرَةً، أوْ سيروا فيها لَيالِيَ أعمارِكم وأيّامَها لا تَلْقَوْنَ فيها إلّا الأمْنَ، لَكِنْ لا عَلى الحَقيقَة، بَلْ عَلى تَنْزيلِ تَمْكينِهِمْ مِنَ السَّيْرِ المَذْكور، وتَسْوِيَةُ مَبادِئِه وأسْبابِه عَلى الوَجْهِ المَذْكورِ مَنزِلَةَ أمْرِهِمْ بِذَلِكَ(5).

غرضُ حذف مُتعلَّق الأمان في ﴿ءَامِنِينَ﴾:

في تكاملِ نعمةِ الأمنِ على أهلِ سبأ مزيدُ امتنانٍ وإنعامٍ

حذفَ البيانُ القرآنيُّ متعلَّقَ الأمان في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 304.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 202.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.

﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ لإفادةِ العموم، إذ لو ذكرَ أحدَ أفرادِه لاقتصرَ عليه، والمعنى: سيروا فيها آمِنينَ مِن كُلِّ ما تَكْرَهونَهُ، لا يَخْتَلِفُ الأَمْنُ فيها بِاخْتِلافِ الأَوْقاتِ[1]، آمنين من الخوفِ من النّاسِ المفسدين، ومن السّباعِ، وآمِنينَ من الجوعِ والعطشِ والسّغبِ والتّعبِ والضّيعةِ وآفات المسافر وغير ذلك[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى تكاملِ نِعَمِهِ عليهم في السّفر، كما أنّه كذلك في الحضر.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَرَكة والزّيادة:

البَرَكةُ أعمُّ وأبلغُ من الزّيادة، إذِ البَرَكةُ تختصُّ بثبوتِ الخيرِ الإلهيّ

البَركةُ أعمّ من الزّيادة، فكلُّ بركةٍ زيادة، وليس كلّ زيادةٍ بركة[3]، والبَركةُ أبلغُ من الزيادة؛ فالبَركةُ هي الزّيادةُ والنّماءُ مع الثّبوتِ والدّوام، والبَركةُ: كثرةُ الخيرِ وتزايده، ولا يُسندُ فعلَ البركةِ إلّا إلى اللّه، ولا يوجدُ لضدّ البركةِ اسمٌ معروف، فيُقال: قليلُ البَركة[4].

أمّا الزيادةُ: فضِدُّ النُّقصان، وهي أنْ ينضمّ إلى ما عليه الشّيء في نفسه شيءٌ آخر، وأصلها يدلّ على الفضلِ، والزّيادةُ قد تكونُ مذمومةً كالزّيادةِ على الكفاية[5]، والبَركةُ لا تكونُ إلّا في الخير، فلا تكونُ إلّا محمودةً.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 245، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 416، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 96، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (برك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زيد).

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾ [سبأ: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مقابلةُ ما يستدعي الشُّكران بالبَطَرِ والكفران

لَمّا انقضى الخبَرُ عن الأوصافِ الَّتي تَستدعي غايةَ الشُّكرِ؛ لِما فيها مِن الألطافِ - دَلَّ على بَطَرِهم للنِّعمةِ بها، بأنَّهم جعَلوها سببًا للتَّضَجُّرِ والمَلالِ، بقولِه: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَٰعِدۡ﴾: (بعد) البُعْدُ: خِلافُ القُرب، والبُعْدُ والبَعَدُ: الهَلاكُ، والمباعدةُ: تباعدُ الشّيءِ عن الشّيءِ[2]، وبَعِدَ الشَّيءُ عن كذا: نأى، وابتعدَ الشَّخصُ: ذهبَ إلى مكانٍ بعيد، وبعِد عن النّار: أقامَ بعيدًا على مسافةٍ ما، وأبعدَ في السَّفر ونحوِه: جاوزَ الحَدَّ[3]، ومعنى ﴿بَٰعِدۡ﴾ في الآية الكريمة: اجعل بيننا وبين أسفارنا مسافاتٍ كبيرة.

2) ﴿أَحَادِيثَ﴾: أصلُه من (حدث)، وهو كَوْنُ شيءٍ لم يَكُنْ، ومنه الحَديثُ؛ لأنّه كَلامٌ يَحْدُثُ منه الشَّيءُ بَعْدَ الشَّيءِ[4]، والحديثُ: نقيضُ القديم، والحديثُ: الخبرُ قليلُه وكثيرُه، وهو ما يُحدِّثُ به المُحَدِّثُ تَحديثًا، واستحدثتُ خبرًا؛ أيْ: وجدتُ خبرًا جديدًا[5]، "وكلُّ كلامٍ يبلغُ الإنسانَ من جهةِ السّمع، أو الوحي في يقظته، أو منامه،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعد).
(3) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بعد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حدث).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (حدث).

يُقال له: حديث"[1]، ومعنى الأحاديث في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ؛ أيْ: صيّرناهم حديثًا للنّاسِ، يضربون بهم المثلَ.

3) ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ﴾: (مزق) أصلٌ يدلُّ على تَخرُّقٍ في شَيْءٍ، والتَّمْزيقُ: التَّخْريقُ والتَّقْطيعُ، ومَزَّقْتُ القَوْمَ: فَرَّقْتُهُمْ فتَمَزَّقوا، وتمزيقُهم: تفرُّقُهم وزَوالُ مُلكهم وقطعُ دابِرِهمْ[2]، ومزَقَ الثّوبَ ونحوَه: خرقَهُ وشقَّه وقطَّعَه تقطيعًا، ومزَّقَ اللّهُ الطّغاةَ: شتّتهم وفرَّقهم في كُلِّ وجهٍ من البلاد، والمعنى المحوريّ للمزق: هو شقُّ الشّيءِ الرّقيقِ الجِرمِ شقًّا واصلًا إلى عمقه[3]، والمقصود في الآية: فَرّقَ شَمْلَهُمْ في البلاد.

4) ﴿صَبَّارٍ﴾: (صبر) أصلُه من الحَبْسُ، يُقالُ: صَبَرْتُ نَفْسي على ذَلِكَ الأَمْرِ؛ أَيْ: حَبَسْتُها[4]، والصَّبرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عِنْدَ الجَزَعِ، فالصَّبْرُ: نقيضُ الجَزَعِ[5]، والصَّبْرُ: الحبسُ والكفُّ والإمساكُ في ضيق، وقيل: مراتِبُ الصَّبْرِ خَمْسَةٌ: (صابِرٌ، ومُصْطَبِرٌ، ومُتَصَبِّرٌ، وصَبورٌ، وصَبّارٌ)[6]، وصَبَرَ صبرًا: تجلّدَ ولم يجزعْ، وانتظرَ في هدوءٍ واطمئنان، ويُقال: صَبرَ على الأَمرِ: احتمله ولم يجزعْ، وصبرَ عنهُ: حبسَ نَفسه عَنهُ، وصبّر نَفسَه: حَبسها وضبطها[7]، والصّبّارُ: كثيرُ الصّبرِ عن المعاصي والشّهواتِ ودواعي الهوى، وعلى البلايا ومشاقّ الطّاعات[8].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يذكرُ اللّهُ سبحانه أنّ أهلَ سبأ بَطَروا ومَلّوا تلكَ النِّعَم، وآثَروا الذي هو أدنى على الذي هو خير، كما فعلَ بنو إسرائيل، فطلبوا أنْ يفصلَ بين القُرى بمفاوز وقِفار؛ ليُظْهِرَ القادرون منهم الأزوادَ والرّواحل تكبّرًا وفخرًا على العاجزين، فأجابَ اللّهُ طلبَهم وعاقبهم؛ إذ قد عرَّضوا أنفسَهم للسّخطِ والعذاب بغمطِ النّعمةِ وعدمِ الوفاءِ بشُكرها،

(1) الرّاغب، المفردات: (حدث).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (مزق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (مزق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (صبر).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (صبر).
(7) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (صبر).
(8) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 73.

بَطَرُ أهلِ سبأ نعمةَ الله وإحسانَه جعلهم عُرْضَةً لسَخَطِهِ وعذابه

فجعلهم أحاديثَ للنّاس يسمرونَ بها، ويعتبرون بأمرهم، وكيف مَكَرَ اللّهُ بهم، وفرّق شملهم بعد الاجتماعِ والأُلفةِ والعيشِ الهنيّ، وقَطَّعَهم في الأرضِ كلَّ مُقطَّع، فتفَرَّقوا في نواحٍ كثيرةٍ، وصاروا مضربَ الأمثال في التَّشَتُّتِ والتّفَرُّقِ(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء)، ودلالتُها في ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ﴾:

مسارعةُ أهلِ سبأ في الكفرِ والكُفران دليلٌ على تماديهم في الطّغيانِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾؛ إمّا لِتَعقيبِ قَولِهم هذا إثْرَ إتمامِ النِّعمةِ عليهم باقترابِ المُدُنِ، وتَيسيرِ الأسفارِ، والتَّعْقيبُ في كلِّ شيءٍ بِحَسَبِه، فلمّا تمَّتِ النِّعمةُ بَطِروها، فحلَّتْ بهم أسبابُ سَلْبِها عنهم، ومن أكبرِ أسبابِ زوالِ النّعمة كفرانُها(2).

سئموا الرّاحةَ فَدَعَوا على أنفسهم؛ فأُجيبت دعوتُهم البئيسةُ

ويحتمل أن تكون الفاء لتعقيبِ قَولِهم إثْرَ مواعظِ أنبيائهم والصّالحين منهم، حين ينهونهم عن الشّركِ، فهم يعظونهم بأنّ اللّهَ أنعمَ عليهم بتلكَ الرّفاهيّة، وهم يجيبون بهذا القول إفحامًا لدعاةِ الخيرِ منهم، على نحو قولِ كفّارِ قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: 32]، ويُقوّي هذا المعنى السّياقُ؛ إذ سبقَ قولَه: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾، والإعراضُ يقتضي دعوةً لشيءٍ، وقال عقبَ حكاية قولهم: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾(3)، والتّعقيبُ يُشيرُ إلى أنّه "ما كانَ من شأنهم إلّا التّمادي في عصيانهم، والإصرارَ على غيّهم وطغيانهم"(4).

دلالةُ التّعبير بـ (القول) في ﴿فَقَالُواْ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالقول في قوله: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 388، 391، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 176.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 181.

في المعنى الحقيقيّ أو الكنائيّ لسبأ دلالةٌ على شدّةِ تماديهم وجُرأتِهم في الباطل

﴿أَسْفَارِنَا﴾؛ إمّا لكونهم قالوا هذا القولَ على الحقيقة؛ بطرًا وطغيانًا، والمعنى: فبَطِروا وسَئِموا الرّاحةَ وطغوا، ولم يصبروا على العافية، وكانوا كاليهود لَمّا طلبتِ الثّومَ والبصل بدلَ المنِّ والسّلوى، وقالوا: لو كانَ جَنَى جَنّاتنا أبعدَ ممّا هي كان أجدرَ أنْ نشتهيَه[1]، أو أنْ يكونَ التَّعبير بالقول كناية عن فسادِ اعتقادِهم، وشدّةِ اعتمادِهم على أنَّ ذلكَ النَّعيمَ لا يعدم، كما يقولُ القائل لغيره: اضربني؛ إشارةً إلى أنّه لا يَقْدِرُ عليه، أو أنّ يكونَ قولهم بلسانِ الحال، أي: لَمّا كفروا فقد طلبوا أنْ يُبَعَّدَ بين أسفارهم، وتخريبَ المعمورِ من ديارهم[2]، ويكون على التّعبيرِ بالقول؛ للإشارة إلى شدّةِ طغيانهم وتماديهم في الكُفران، وجرأتِهم في الباطل، وفي التّعبير بصيغة الماضي دلالةٌ على تحقّقِ وقوعِ القول منهم، سواءٌ على المعنى الحقيقيّ أو الكنائيّ.

غرض إسناد القول إلى ضمير جماعتهم في ﴿فَقَالُواْ﴾:

عوملَ قومُ سبأ بما استوجبوا باجتماعهم على الكفرِ والبَطَر

إسنادُ القولِ إلى ضميرِ جماعةِ قومِ سبأ في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ يوحي بتواطؤهم على هذا القول، واجتماعهم على البَطَر، وعدمِ صبرهم على العافية، وعلى طغيانهم وفسادهم وإفسادهم، وهذا يبيّن استحقاقَهم لِما أنزلَ اللّهُ بهم من العذابِ والتّمزيق كلّ ممزقٍ، وأنّهم "ما عوملوا إلّا بما استوجبوا، ولا سُقوا إلّا ممّا ثَبطوا[3]؛ وما وقعوا إلّا في الوهدةِ التي حفروا، وما قُتِلوا إلّا بالسّيف الذي صنعوا"[4].

غرض حذف أداة النّداء في قوله: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ﴾:

في الاختصارِ إشارةٌ إلى شدّةِ بَطَرِهم للنّعمة، باستعجالهم طلبَ المباعدة

حذَفَ البيانُ الإلهيُّ ياءَ النّداء في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾؛ اختصارًا وإيجازًا؛ للإشارةِ إلى شِدّةِ بَطَرِهم للنّعمةِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 202.
(3) الثَّبِطُ، ككتِفٍ: الأَحْمَقُ في عَمَلِه، والضّعيفُ، ينظر: الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (ثبط).
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 181.

وعُتوّهم باستعجالهم طلبَ المباعدة بين أسفارهم، حتّى إنّهم لم يلفظوا ياء النّداء لذلك، وهذا الاستعجالُ يناسبُ السّياقَ والمقام؛ فقد عبّروا كذلك بفاءِ التّعقيبِ؛ استعجالًا منهم في المباعدةِ بين أسفارهم، واتّفقوا واجتمعوا على ذلك، وعبّروا بلسانِ الجماعة.

غرض النّداء ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ﴾:

طَلَبُ قومِ سبأ من اللهِ الكَدَّ والتَّعبَ بدلَ طيبِ العيشِ دليلُ انتكاسةٍ وبَطَر

النّداءُ المُقدَّر في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ على قراءةِ ﴿رَبَّنَا﴾ بالنّصب[1] هو على معناه الحقيقيّ، وهو "طلبُ المتكلّم إقبالَ المخاطب عليه بحرفٍ نائب مناب (أنادي) المنقول من الخبر إلى الإنشاء"[2]؛ أيْ: غرضُ النّداءِ في الآيةِ السّؤالُ والطّلبُ من اللّه تعالى، وقد عبّروا عن ندائهم بلفظِ الرّبوبيّة الذي يدلّ على التّربيةِ والعطاءِ والتّفضّل، فلم يقولوا: (يا اللّه أو اللّهمّ)؛ وذلك مناسبةً لسياقِ الإنعام؛ ظنًّا منهم أنّ في ذلك زيادةً في رغَدِ العيش، وهو عينُ انتكاستِهم؛ إذ "بَطِروا النِّعمةَ وسئِموا أطيبَ العيشِ ومَلّوا العافيةَ؛ فطلبوا الكدَّ والتَّعبَ"[3]، والمعنى: أيّها المُربّي لنا؛ أعظِمِ البُعْدَ بين أسفارنا وشَدِّده[4].

دلالة التّعبير بالمباعدة في قوله: ﴿بَٰعِدۡ﴾:

طلبُ قومِ سبأ عكسَ ما كانَ من قُربِ القُرى تجاوزٌ للحدّ وسببٌ للهلاك

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ المباعدة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾؛ لمناسبةِ معاني المباعدة للسّياق؛ فالبُعدُ خلافُ القُرب، والمباعدةُ: تَباعدُ الشّيء عن الشّيء، ومن معاني البُعد: الهلاك[5]، والسّياقُ يدلّ على تقاربِ القُرى الظّاهرة وتواصلِها، وتداخلِ منازلِها، وقِصَرِ المسافات بينها بمقادير محدّدةٍ، فطَلَبُهم للمباعدة بين هذه القُرى هو عكسُ ما كان من القُرْب، وهذا يتطلَّب أن تُدمّر بعضُ القُرى ليتمّ التّباعُد بينها، وهو تجاوزٌ للحَدّ وطغيانٌ، وسببٌ

(1) المنتجب، الكتاب الفريد: 5/ 290.

(2) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 89.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.

(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بعد).

للهلاك، كما أنّ طلبهم المباعدةَ يناسبُ حالَهم الظّالمةَ المُتكبرة، التي سئمتْ أطيبَ العيش؛ فالمسافاتُ القصيرة لا تُشبعُ لذّةَ الرّحلات عند مَن أُصيبَ ببطرِ القلبِ وظُلم النّفس، كما ورد في الآية ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ فدعا بدعاءِ حُمقٍ وجهل.

غرضُ الأمر في جملة ﴿بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾:

دعاءُ بَطَرٍ وطغيانٍ وحُمْقٍ وجَهْلٍ من قوم سبأ

الفعلُ ﴿بَٰعِدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ هو فعلُ أمرٍ، لكنّه خرجَ عن ظاهرِ الأمرِ، وجاء في معنى الدَّعاء؛ لأنَّه صدرَ من الأدنى إلى الأعلى[1]، والمعنى: ربّنا اجعلها مفاوزَ ليَقِلّ النّاسُ، فيكونَ ما يخصُّ كلّ إنسانٍ من هذه الجنانِ أضعافَ ما يخصّه الآن، وليَتطاوَلوا على الفقراءِ بركوبِ الرّواحل، وتزوّدِ الأزوادِ والماء، والسّيرِ على النّجائبِ، والتّعلّق بالسّلاحِ، واستجادةِ المراكبِ؛ فَبطروا النّعمةَ، وظلموا أنفسَهم بالكفر[2].

أثر تنوُّع القراءات في قوله: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ﴾:

تنوّعُ القراءةِ يُشيرُ إلى كثرةِ عتوّهم وبطرهم وتنوّعِه

اختلفَ القرّاءُ في قراءة قوله: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾؛ فقرأ العامّةُ ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ﴾ بالألف ﴿بَٰعِدۡ﴾ بزنةِ (فاعِل) على وجهِ الدّعاءِ والمسألةِ؛ أيْ: سألوا المُباعدةَ في أسفارهم، "المقتضيةَ لمَدّهِ وتطويلِهِ"[3]، ليركبوا فيها الرّواحلَ ويتزوّدوا الأزوادَ، ويربحوا في التّجارات، ويتفاخروا على النّاس، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وهشام: ﴿رَبَّنَا بَعِّدۡ﴾ بتشديد العين وإسكانِ الدّال من التّبعيد على الدّعاء أيضًا بزيادةِ تأكيدٍ؛ أيْ: "أعظِم البُعْدَ وشَدِّده"[4]، وقرأ يعقوبُ: ﴿رَبُّنَا بَٰعَدَ﴾ على وجهِ الخبرِ من اللّه، بأنّ اللّهَ فعلَ بهم ذلك؛ أيْ: (لقد

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 293.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 487، والسّيوطيّ والمحلّيّ، تفسير الجلالَيْن، ص: 566، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 293.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 487.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.

باعدَ ربُنا بَيْنَ أَسْفارِنا)[1]، وهذه القراءةُ على الضِّدِ من غرضِ السّابقَين؛ إذ تدلّ على استكثارِ القائلين مسافةَ ما بين كلّ قريتين، بما تدلّ على ازدرائهم تلكَ النّعمةَ الواردة على قانونِ الحِكْمة[2]، واستبعادِهم مسايرهم مع قِصرها أو دنوِّها، وسهولةِ سلوكها؛ لفرطِ تنعُّمهم وغايةِ ترفّههم، وعدمِ اعتدادهمْ بنِعَم اللّه تعالى، كأنَّهم يتشاجَون على اللّهِ تعالى ويتحازنون عليه[3]، وتنوّعُ القراءة يشيرُ إلى كثرةِ عُتوّهم وبَطَرهم وتنوّعِه؛ فهذه الأقوال وردتْ على مجموعاتٍ منهم.

سِرُّ التقييد بالظّرف ﴿بَيْنَ﴾:

طلبُ قومِ سبأ المباعدةَ بين جميعِ المراحلِ دليلٌ على حمقهم

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالظّرف ﴿بَيْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾، ولم يَقُلْ: (ربنا باعد أسفارنا)؛ للدّلالة على إبعادِ المراحل بين القرى؛ لأنّ كلّ مرحلةٍ تُعتبرُ سفرًا؛ أيْ: باعِدْ بين مراحلِ أسفارنا؛ لأنّ ﴿بَيْنَ﴾ تقتضي أشياء؛ إذ هي موضوعةٌ للخَللِ بين الشّيئين ووسطهما، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾ [الكهف: 32][4]، بما يجعلُ المعنى: باعدْ بين السّفرِ والسّفرِ من أسفارنا؛ أيْ: مراحل أسفارنا[5]، وفي هذا دلالةٌ على زيادةِ مجاوزتهم للحدّ في الطّلبِ، وحمقِهم وعُتوِّهم؛ إذ طلبوا المباعدةَ بين جميعِ المراحل؛ بما يؤدّي إلى زيادةِ الكدِّ والتّعب.

دلالة التّعبير بـ﴿أَسۡفَارِنَا﴾ مادّةً وصيغةً:

في التَّعبير القرآنيّ بلاغةٌ وإيجازٌ مع اتّساعٍ في الدّلالة

عبّر البيانُ الحكيم بلفظ ﴿أَسۡفَارِنَا﴾؛ لاتّساع دلالته؛ إذ دلّ في الآية على معنى المنازل والقرى[6]، بالإضافة إلى دلالته على معنى قطعِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 291.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 487.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 177.
(4) الرّاغب، المفردات: (بين).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 177.
(6) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 123.

مسافةٍ لا تقِلُّ عن يوم[1]، والمعنى: ربَّنا باعِدْ بين منازلنا وقُرانا التي نُسافرُ فيها[2]، وفي هذا إيجازٌ وبلاغةٌ في التَّعبير؛ فلو قال: (ربّنا باعِدْ بين قُرانا أو منازلنا) لَما أعطى المعاني التي يتضمّنها لفظُ (سفر) من الرّحيلِ من مكانٍ إلى مكانٍ، وقطعِ المسافةِ الطّويلة، والتّفريقِ، والانكشافِ عن الأماكن، والبُروزِ للأرض الفضاء[3]؛ أي: اجعلْ بيننا وبين القرى المباركة فلواتٍ ومفاوزَ وصحارى متباعدةَ الأقطار[4].

أيُّ حُمقٍ هذا الذي يدعو فيه المَرءُ على نفسه

ولفظ (أسفار) الذي يشيرُ إلى المسافاتِ الطّويلة التي يسافرها الإنسانُ، هو الأنسبُ مع طلبهم إبعادَ المسافات بين القُرى الظّاهرة، وقد عبّر بصيغة الجمع، فلم يَقُلْ: (باعدْ بين سفرنا)؛ للدّلالة على تعدُّدِ الرّحلات والمَشاقِّ التي لن يتحمَّلَها كلّ النّاس؛ وإنّما سيختصّون بها؛ احتكارًا منهم للتّجارة، وتطاولًا على الفقراءِ بتميُّزهم عنهم بركوبِ الرّواحلِ، واستجادةِ المراكب، والتّزوُّد بالأزوادِ والماء، والتَّعلُّقِ بالسّلاح.

لطيفةُ الإضافة في قولهم ﴿أَسۡفَارِنَا﴾:

إضافة الضّمير (نا) إلى لفظ (أسفار) تعكسُ شخصيتَهم المتكبّرة؛ لكونه يُعطي إحساسًا منهم بالمُلْكيّة لهذه الأسفار، دون غيرِهم من الفقراءِ وعمومِ النّاس.

معنى (الواو) ودلالتُها في قوله: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

جمعوا بين كفرانِ النّعمةِ والإشراكِ بالله

الواو في قوله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ إمّا عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملةُ ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ﴾، والمعنى: فأعقبوا ذلك بكفرانِ النّعمةِ وبالإشراك، فإنّ ظلمَ النّفسِ أُطلقَ كثيرًا على الإشراكِ باللّه في القرآن، وما الإشراكُ إلّا أعظمُ كفرانٍ لنعمةِ الخالق، وإمّا أن تكون الواو حاليّةً، والجملةُ بعدَها في موضعِ الحال، والمعنى: قالوا ذلك

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: (سفر).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 487.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (سفر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 389، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 282.

وقد ظلموا أنفسهم بالشّركِ، فكان قولُهم مقارنًا للإشراك، وعلى الاعتبارين فإنَّ العقابَ إنّما كان مسبّبًا بسببين؛ فاستئصالُهم بسببِ كفرهم، وتمزيقُهم كلّ ممزقٍ بسببِ كفرانهم نعمةِ تقاربِ البلاد(1).

دلالة التّعبير بالظّلم في ﴿وَظَلَمُوٓاْ﴾:

عينُ الظّلمِ عَدُّ النّعمةِ نقمةً والإحسانِ إساءةً

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التعبيرَ بالظّلمِ في قوله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ دون غيره من الألفاظ كـ: (البغي، والعُدوان، والعُتوّ، والطّغيان)، رغمَ أنّ المفرداتِ كلَّها فيها معنى مجاوزةِ الحَدّ؛ لكون معناه اللّغويّ أنسبَ للسّياق؛ وهو كُفرانُ النّعمةِ واستعمالُها في غير ما أراده اللّهُ سبحانه، فهو وضعُ الشّيء في غيرِ موضعه المُختصّ به، إمّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعدولٍ عن وقته ومكانه(2)، ولكونه أنسبَ كذلك لِما عُطِفَ عليه من الدّعاء بالمباعدةِ بين أسفارهم، والظّلمُ هو أوّل ما يَهُمُّ به الإنسانُ بأنْ يظلم نفسَه(3).

وصيغ فعلُ ﴿وَظَلَمُوٓاْ﴾ بصيغة الماضي؛ لإفادةِ تحقّقِ ظلمهم لأنفسهم بتحقّقِ إشراكهم باللّه وكُفْرانِهم للنّعم؛ أيْ: تحقّقِ ظلمِهم لأنفسهم بتعريضها للسَّخطِ والعذاب.

غرضُ إسنادِ فعل الظّلم إلى ضمير جماعتهم:

إسنادُ فعلِ الظّلمِ إلى ضميرِ جماعتهم في قوله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على اجتماعهم على الشّركِ باللّه وكُفرانِ النّعِم، بما يدلُّ على شدّةِ فسادهم وإفسادهم.

دلالةُ إيقاع فعلِ ظلمهم على ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾:

وبالُ الظّلمِ راجعٌ على النّفسِ بجميعِ أنواعه

أوقعَ البيانُ القرآنيّ فعلَ ظلمهم على أنفسهم في قوله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لأنّ وبالَهما راجعٌ إلى النّفس؛ إذ إنّ الظّلم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 176، 177.
(2) الرّاغب، المفردات: (ظلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (ظلم).

بأنواعه الثّلاثة - وهو ظلمٌ بينَه وبين اللّه، وظلمٌ بينَه وبين النّاس، وظلمٌ بينَه وبين نفسه - في الحقيقةِ هي ظُلْمٌ للنّفس[1]، وتهكّمًا وتوبيخًا لهم؛ لأنّ العقلَ السّويَّ والفطرةَ السّويّةَ تأبى أنْ يظلمَ الإنسانُ نفسَه.

غرض حذفِ مُتعلّق الظّلم:

الشّركُ هو أعظمُ كفرانِ نِعَمِ الخالق

حُذِفَ متعلّقُ الظّلمِ في قوله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ إيجازًا؛ لكون المتعلّقِ معلومًا من السّياق، والتّقدير: وظلموا أنفسَهم بكفرانِ النّعمةِ وبالإشراكِ باللّه، ولأنّ ظُلمَ النّفس أُطلقَ كثيرًا على الإشراكِ باللّه في القرآن، والإشراكُ هو أعظمُ الظّلم، وكُفرانِ نعمةِ الخالق[2].

نُكْتَةُ جمعِ المفعول ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾:

أنْفُسُ قومِ سبأ قليلٌ بالنّسبةِ لجميعِ نفوسِ الخلقِ

يستعملُ البيانُ القرآنيُّ لفظ (نفوس) وهو جمعُ كثرةٍ عند الحديث عن عمومِ الخَلْقِ المُكلّفين، ويستعملُ لفظَ (أنفس) وهو جمعُ قلّةٍ عند الحديث عن طائفةٍ أو جماعةٍ أو قوم، ولذا استعملَ هنا جمعَ القلّة ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لأنّ الحديثَ عن قوم سبأ، وهم قِلّةٌ بالنّسبةِ لجميعِ الخَلْقِ، ومن حيثُ الصّوتِ ففي لفظِ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ إخفاءٌ بخلافِ (نفوس)، والخفاءُ ينسجمُ مع الظّلمِ الذي هو وضعُ الشّيء في غيرِ موضعه؛ أيْ: فيه إخفاءٌ للحقّ.

معنى (الفاء) ودلالتُها في جملة ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾:

استئصالُ قومِ سبأ مُسبَّبٌ عن كفرهم وبطرِهم النّعمةَ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ سببيّةٌ[3]؛ أيْ: سببُ ظلمهم لأنفسهم - حيثُ كفروا باللّه، وبَطِروا نعمتَه، وتعرّضوا لنُقمته - هو تبديلُ ما هم فيه من النّعمة، بحالٍ هو في الوحشةِ بقَدْرِ ما كانوا فيه من الأُنس[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (ظلم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 176.
(3) صالح، الإعراب المفصّل: 9/ 331.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 487، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 177.

دلالة التّعبير بـ (الجَعْل) في ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾:

عبّر القرآنُ بلفظ الجَعْلِ في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾؛ للدّلالةِ على تغيّر أحوالهم وتبدّلها، إذ من معاني الجَعْلِ في اللّغة تصييرُ الشّيء من حالةٍ إلى حالة[1]، ففِعْلُ الجَعلِ يَقْتَضي تَغييرًا، ولَمّا عُلِّقَ بذَواتِهم انقَلَبَتْ من ذواتٍ مُشاهَدةٍ إلى كَونِها أخبارًا مَسموعةً، والمعنى: أنَّهم هَلَكوا وتَحدَّثَ النّاسُ بهم، أو أُريدَ: فجعَلْناهم أحاديثَ اعتبارٍ ومَوعظةٍ؛ أيْ: فأصَبْناهم بأمْرٍ غَريبٍ مِن شأْنِه أنْ يَتَحَدَّثَ به النّاسُ؛ فيكونُ ﴿أَحَادِيثَ﴾ مَوصوفًا بصِفَةٍ مُقدَّرةٍ دلَّ عليها السّياقُ[2]، وقد أتى بصيغةِ الفعلِ الماضي الذي يدلُّ على التّحقّقِ والوقوعِ، للدّلالةِ على تحقّقِ هذا الفعلِ منه سبحانه.

تغييرُ حالِ أهلِ سبأ وهلاكُهم ليصبحوا أحدوثةً للنّاس

غرضُ إسناد (الجَعْل) إلى ضمير العظَمة:

أسندَ النّظمُ الحكيمُ فعلَ الجَعْلِ إلى ضميرِ العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾؛ للدّلالةِ على عِظمِ الإهلاكِ الذي أنزله اللّهُ بهم وعجيبِ أمره، وذلك بما له سبحانه من العظَمة[3]؛ أيْ: أصَبْناهم بأمْرٍ عظيمٍ عجيبٍ غَريبٍ، مِن شأْنِه أنْ يَتَحَدَّثَ النّاسُ عنه، متعجّبين من أمرِ أهله، ومعتَبرين بعاقبتهم ومآلهم[4].

إهلاكٌ إلهيٌّ عظيمٌ وعجيبٌ مِن شأنه أنْ يكونَ أحدوثةً على ألسنةِ النّاس

بلاغة التّعبير بالكناية في ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾:

الأحاديثُ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ جمعُ (أحدوثةٍ)، لا جمعَ (حديث) على خلافِ القياس، والأُحدوثة هي: الحديثُ العجيبُ لعِظَمِه أو غرابتِه، وما يتحدّثُ به النّاسُ على سبيل التّلهّي والتّعجُّب والاستغراب، والتّعبيرُ بـ﴿أَحَادِيثَ﴾؛ أيْ: جعلهم نفسَ الأحاديثِ؛ إمّا كنايةٌ عن هلاكهم؛ أيْ: قالوا ما قالوا من سوءٍ،

نتيجةُ كفرِ قومِ سبأ وكفرانِهم النِّعَمَ، استئصالٌ يتحدّثُ النّاسُ عنه

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جعل).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 178.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 487.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.

وفعلوا ما فعلوا من منكرٍ، فكانتْ نتيجةُ ذلك أنْ صيرناهم أحاديثَ يتلهّى النّاسُ بأخبارهم، ويضربون بهمُ المثَلَ، فيقولون: تفرّقوا أيدي سبأ[1]، أو على سبيلِ المبالغة، أو تقديرِ المضاف؛ أيْ: جعلناهم بحديثٍ يتحدّثُ النّاسُ بهم، متعجّبين من أحوالهم، ومُعتبرينَ بعاقبتِهم ومآلِهم، أو أنّه لم يبقَ منهم إلّا الحديثَ عنهم، ولو بقيَ منهم طائفةٌ لم يكونوا أحاديث[2]؛ أيْ: أفنيناهم كلّهم، ولم يبقَ إلّا التّحدّثَ العجيب عنهم[3].

نُكْتَةُ جمعِ ﴿أَحَادِيثَ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

كثرةُ الأحاديثِ العجيبةِ الغريبةِ عن قومِ سبأ وتنوّعها

عبَّر البيانُ الحكيمُ بصيغة الجمع في لفظ ﴿أَحَادِيثَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾؛ للإشارةِ إلى كثرةِ هذه الأحاديث التي تدورُ على الألسُن والصّفحاتِ، تتناقلُها الأجيالُ عبرَ مسيرةِ التّاريخ الطّويلة، وتنوّعها، وكثرةِ من يتحدّثُ بها، وذلك لِما لهذه الأحاديث منَ الهَول[4]، وتنكيرُ هذه الأحاديث يدلُّ على المبالغةِ في هذه الكثرة، والمبالغةِ في تهويلها.

بلاغة إيجاز القَصْر في ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾:

لا حَذْفَ في الكلامِ وإنّما غزارةٌ في المعنى

ضمّنَ البيانُ القرآنيُّ في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ معانيَ كثيرةً من غيرِ أنْ يكونَ هناك حذفٌ؛ فقد جاءتْ هذه الجملةُ في معرضِ الحديثِ عن مملكةِ سبأ، فبعدَ أنْ ذكرَ موجباتِ إهلاكِهم التي تجاوزتِ الحدودَ، كان يمكنُ أنْ يأتيَ العقابُ موافقًا لإجرامهم، ولكنَّنا نرى السّياقَ القرآنيَّ اكتفى بأنْ يقول: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ من غيرِ تفصيلٍ في دقائق طريقةِ الإهلاك، ممّا يجعلُنا نتخيَّلُ وخامَةَ هذه الإبادةِ، بحيثُ يتحوَّلُ أهلُها من واقعٍ ملموسٍ إلى أحاديثَ

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 283.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 305.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 178.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 487.

تدورُ على الألسُنِ والصّفحات، تتناقلُها الأجيالُ عبرَ مسيرةِ التّاريخ الطّويلة، يذكرون أخبارهم للتّندُّرِ والعِبرةِ، فذهبوا مذهبَ الأمثالِ.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ﴾:

الجمعُ بين تبديدِ شملِ أهلِ سبأ، وتصييرِهم أحاديثَ يرويها الرّواةُ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قولُه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾[1]؛ بجامع كونهما عقابًا من اللّهِ تعالى على بَطرهم وكُفرهم وظُلمهم، وهذه الجملة مبيّنةٌ لجعلهم أحاديث؛ لأنَّ اللّهَ سبحانه لمّا غرَّق مكانَهم وأذهب جنَّتَيْهم تبدَّدوا وتفرّقوا في البلاد، فصارتِ العربُ تَضرِبُ بهم المثَلَ في الفُرقة، فتقول: تفرّقوا أيدي سبأ[2]، وقيل: فُرِّقوا بالهلاكِ حتّى صاروا ترابًا تذروهُ الرّياحُ[3].

بلاغةُ التّعبيرِ بالاستعارة في ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ﴾:

تشبيهُ تفريقِ اجتماعِ قومِ سبأ شَذَرَ مَذَرَ بتَمزيقِ الثَّوبِ قِطَعًا

التَّمزيقُ في اللّغة: تَقطيعُ الثَّوبِ قِطَعًا، وهو هنا في قوله تعالى: ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ تَشبيهٌ لِتفريقِ جامعةِ القوم شَذَرَ مَذَرَ بتَمزيقِ الثّوبِ قِطَعًا[4]، فحَذفَ المشبهَ به وأبقى شيئًا من لوازمه وهو التّمزيق، وهذه استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ في الفعلِ (مزّقناهم).

دلالة التّعبير بـ (التّمزيق) ولطيفةُ صَوْغِه ماضيًا:

في حكايةِ تمزيقِ قومِ سبأ تهويلٌ لِما حلَّ بهم من شدّة التّفرّق

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ التَّمزيقِ الخاصِّ بتَفريقِ المُتَّصلِ وخَرْقِه وشقّهِ وتشتيته وتقطيعِه إلى قطعٍ[5]، دون لفظ التّفريق الذي يدلّ على جَعْلِ الشّيءِ مفارقًا لغيره، فهو ضِدُّ التّجمّع[6]؛ لِما في التّعبير بالتّمزيق من تَهويلِ الأمْرِ والدّلالةِ على شِدَّةِ التَّأثيرِ والإيلامِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 264، وصالح، الإعراب المفصّل: 9/ 232.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 496، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 370.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 446.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 178.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (مزق).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (فرق).

ما لا يَخْفى[1]؛ ذلك لأنّ التّمزيق أشدُّ وأبلغُ من التّفريق، ولأنّ التّعبيرَ بالتّمزيق أنسبُ مع سياقِ الآيات التي يَذْكرُ فيها شدّةَ اتّصالِ القُرى الظّاهرة وقُربها من بعضها، ولِما فيه كذلك من التّناسبِ مع ما مرّ ذِكْره من التّمزيق عند الحديث عن المشركين: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ٧﴾ [سبأ: 7]، والآيةُ هنا وإنْ كانتْ عن قصّةِ سبأ وتمزيقِهم إلّا أنّها سيقت لتحذيرِ مشركي قريش، وأمّا صَوغُه بالماضي فلأنّ تمزيقَ قومِ سبأ قد وقعَ وتحقّق؛ فهو حكايةٌ لِما حلّ بهم لَمّا بَطِروا النّعمةَ وكفروا باللّه.

غرضُ إسناد (التّمزيق) إلى ضمير العَظَمَة:

تمزيقُ قومِ سبأ تمزيقٌ شديدٌ وعظيمٌ وعبرةٌ لِمَن يعتبر

أَسندَ البيانُ الحكيم لفظَ التّمزيق إلى ضمير العظَمة في قوله: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾؛ للدّلالةِ على هَوْل وعظَمةِ وشدّةِ هذا التّمزيق، والمعنى: ومزّقناهم تمزيقًا يناسبُ عظَمتَنا، فما كان لهم دأبٌ إلّا المطاوعة، فمُزقوا كلَّ ممزّقٍ؛ أيْ: تمزيقًا كما يمزقُ الثّوب، بحيثُ صاروا مثلًا مضروبًا إلى هذا الزّمان[2]؛ عبرةً لكلّ مَنْ يعتبر، وخاصّةً كفارُ قريش، الذين سيقتِ القصّة لأجلهم.

دلالةُ إيقاعِ فعلِ التّمزيق على ضمير جماعتهم:

تمزيقٌ عظيمٌ طالَ جميعَ مَن كفرَ من أهلِ سبأ

أوقعَ البيانُ الحكيمُ فعلَ التّمزيقِ على جماعتهم؛ للدّلالة على كونِ هذا التّمزيقِ الشّديد العامّ قد وقعَ على جميع أفرادِ قوم سبأ؛ ممّن كفر باللّه وبالنّعم التي أرسلها لهم، ولم يستثنِ أحدًا منهم، وفي هذا إشارةٌ إلى عظيم هذا العذابِ النّازلِ من العظيم سبحانه.

سرّ التّعبير بلفظ العموم ﴿كُلَّ﴾:

تمزيقٌ بلغَ الغايةَ في التّفريق وتبديدِ الشّملِ

﴿كُلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ من ألفاظِ العموم، ولكنّها تدلّ هنا على المبالغة في غايةِ التّمزق وشدّتِه بكلّ أنواعه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 487.

وطرقه[1]؛ أيْ: تدلّ على الكثرةِ لا الجميع[2]، فيشملُ تمزيقُهم كثيرًا من أنواعِ وصنوفِ التّمزيق باعتبار المُمزَّق مصدرًا، وأماكنَه باعتبار المُمزَّقِ اسمَ مكان[3]؛ فقد فرّقَهم في كلّ وجهٍ من البلاد كلَّ التّفريق[4]؛ أيْ: مُزّقوا بالتّفرّق والتّباعدِ، ويشملُ كذلك تفريقَهم بالهلاكِ حتّى صاروا ترابًا تذروهُ الرّياح[5]؛ أيْ: بدّد عظامَهم وأوصالَهم فأكلَهُم التُّرابُ[6]، وكذلك يشملُ تمزيقَ قوّتِهم، حتّى صاروا بمضربِ المَثلِ في التّمزّق والتّفرّق.

بلاغةُ التّعبير باللّفّ والنّشر في الآية:

الاستئصالُ مسبَّبٌ على الكفر، والتّمزيقُ مسبَّبٌ على كفرانِ النّعمة

جاء نظْمُ الكلام في قوله: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ على طَريقة اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ؛ فإنّ العقابَ إنّما كان مسبّبًا بسببين؛ فالمُسَبَّبُ على الكُفرِ في قوله: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ هو استئصالُهم؛ وهو مَدلولُ قولِه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾، والمُسبَّبُ على كُفرانِ نِعمة تَقارُبِ البلادِ، وهو قولُه: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ هو تَمزيقُهم كلَّ مُمزَّقٍ؛ أيْ: تَفريقُهم[7].

علّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾:

تأكيدٌ على إنعامِ النّظرِ فيما فُعلَ بقومِ سبأ؛ استدلالًا على صفاتِ كمالِ الله

فصلَ البيانُ القرآني قولَه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ عمّا قبله، ولم يأتِ بينهما بعاطف؛ لِما بين الجملتين من كمالِ اتّصال؛ إذ إنّ هذه الجملةَ استنتاجٌ ممّا قبلَها وتأكيدٌ وتقريرٌ له؛ بهدفِ إنعامِ النّظرِ فيه، لِما له من الدّلالة على صفاتِ الكمال[8]، ولذا

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 491.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 178.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 6/ 396.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 446.
(6) ابن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 2/ 755.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 177.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 488.

تُعدُّ تذييلًا للآية[1]؛ أيْ: إنّ فيما ذُكِرَ من أمرِ قومِ سبأ في العمارةِ والخرابِ أمرًا باهرًا دالًّا على أمورٍ كثيرة، منها قدرتُه سبحانه على السّاعة التي هي مقصودُ السّورةِ بالنّقلة من النّعيمِ إلى الجحيم[2].

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في المتعلّق ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ ظرفيّةٌ مجازيّة، تشيرُ إلى تمكّنِ هذه الآياتِ الكثيرة، وهي العِبرُ والعِظاتُ الواضحات، والدّلائلُ الشّاهداتُ من قصّة سبأ، وتغلغلِها في قلبِ كلِّ صبّارٍ في جميعِ أحواله؛ وشكورٍ يستقبلُ كلَّ نعمةٍ من نِعمِ اللّهِ بما تستأهلُ من حمَدٍ وشُكران.

تمكّنُ الآياتِ وتغلغلُها في قلبِ كلّ صبّارٍ شكور

مرجع الإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾، ولطيفة البُعد فيه:

المُشارُ إليه بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إمّا هوَ كلُّ ما تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾؛ أيْ: قِصَّةُ سَبَأٍ على وجهِ العُموم[3]، أو هو تمزيقُهم كُلَّ مُمَزَّقٍ، والمعنى: إنّ في تمزيقنا لهم كلَّ مُمزّقٍ لعظَةً وعِبرةً ودلالةً على واجبِ حقّ اللّهِ على عبده من الشّكرِ والصّبر[4]، وقد اختارَ ما يُشارُ به إلى البعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، مع أنّ المشارَ إليه قريبٌ - وهو قصّةُ سبأ أو تمزيقهم -؛ تعظيمًا وتفخيمًا لهذه القصّة بما حوته من الآيات، وإظهارًا لعلوِّ شأنها، وتهويلًا لِما أوقعه اللّهُ فيهم من التّمزيقِ الفظيع، والتّقدير: "إنّ في ذلك؛ أي: الأمر العظيم"[5].

قصّةُ قومِ سبأ أو تمزيقُهم عِظةٌ وعِبرةٌ ودلالةٌ على واجبِ حقّ الله

غرض تقديم ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾:

قدّم البيانُ الإلهيُّ المُسندَ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على المُسند إليه ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾

اهتمامٌ بقصّةِ سبأ وما تضمّنته من عِبرٍ وعظاتٍ ودلائلَ على قدرة الله

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 180.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 488.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 180، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 145.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 391، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 512، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 678.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 488.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾؛ لإفادة حصرِ الغايةِ من ذِكْرِ ما أُشيرَ إليه ممّا سبق في العبرةِ والعظَةِ، لا للقصّ والتّسليةِ، ولإفادةِ الاهتمام بقصّةِ سبأ، وما تضمّنته من عبرٍ وعظاتٍ ودلائلَ شاهداتٍ على قدرةِ اللّه تعالى على التّصرّف فيما بين أيديهم وما خلفَهم؛ بالإيجادِ والتّمزيقِ والإعدامِ للذّواتِ والصّفاتِ، وعلى قدرته كذلك على السّاعةِ التي هي مقصودُ السّورةِ بالنّقلةِ من النّعيم إلى الجحيم والحشرِ إلى ما لا يريدُ الإنسانُ؛ كما حُشِرَ أهلُ سبأ إلى كثيرٍ من أقطارِ البلاد، كما هو مشهورٌ في قصّتهم[1].

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لَآيَٰتٖ﴾:

توكيدٌ لعظيم دلائلِ قدرةِ اللهِ تعالى وعظاتِ قصصهِ وعِبرِه

لامُ ﴿لَآيَٰتٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ﴾ لامُ الابتداء، وقد دخلتْ على اسم إنَّ ﴿لَآيَٰتٖ﴾ لحيلولةِ الخبرِ المقدّر بينَه وبينها؛ إذ لو كان يليها ما جازَ دخولُها، وهي تفيدُ التّوكيد؛ أيْ: توكيدَ عظَمِ دلائل قُدرةِ اللّه.

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿لَآيَٰتٖ﴾ ونُكْتَة جمعِها:

اتّساعُ دلالةِ الآياتِ يناسبُ تعدّدَ أغراضِ قصّةِ سبأ

آثرَ البيانُ الحكيمُ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ﴾ التّعبيرَ بلفظ الآياتِ دون ألفاظٍ أخرى، كدلائل وعلامات وعظات؛ لاتّساع دلالةِ لفظ الآيات؛ إذ تشملُ المعاني المذكورة، التي لو عبّر بأحدها لاقتصرَ المعنى عليه، والتّقدير: إنّ في تمزيقنا لهم كلَّ مُمزّقٍ أو في المذكور من قصّتهم، وما فعل اللّهُ بهم لآياتٍ عظيمةً، وعلاماتٍ كثيرةً، وعِبرًا بليغةً، وحُججًا قاطعةً على الوحدانيّةِ والقُدرةِ، ودلالاتٍ واضحة[2] على واجبِ حقّ اللّه على عبده؛ من الشّكرِ على نعمه إذا أنعمَ عليه، وحقّه من الصّبرِ على محنته إذا امتحنهُ ببلاءٍ[3]، وقد عبَّر السّياقُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 488.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 244.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 391.

الحكيم بصيغة الجمع في لفظ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ للدّلالة على أنّهم صاروا فِرقًا كثيرةً، كلٌّ منهم آيةٌ مستقلّة[1]، ولأنَّ في تلكَ القصَّةِ عِدَّةَ آياتٍ وعِبَرٍ؛ فحالةُ مساكنِهم آيَةٌ على قدرةِ اللّه ورحمته وإنعامه، وعلى أنّه الواحدُ بالتَّصرُّفِ، وإرسالُ سيلِ العَرم عليهم آيَةٌ على انفرادهِ تعالى بالتّصرف، وعلى أنّه المنتقِمُ، وعلى أنّه واحدٌ، وفي انعكاسِ حالهم من الرّفاهيّة إلى الشّظفِ آيَةٌ على تقلّبِ الأحوالِ وتغيّرِ العالَم، وآيَةٌ على صفاتِ الأفعالِ للّه تعالى من خَلْقٍ ورِزقٍ وإحياءٍ وإماتةٍ، وفي ذلك آيَةٌ من عدمِ الاطمئنانِ لدوام حالهم في الخيرِ والشّرّ، وفيما كان من عمرانِ إقليمهم واتّساع قُراهم إلى بلادِ الشّام آيَةٌ على مبلغِ العُمرانِ وعِظَم السّلطان من آياتِ التّصرّفات[2].

غرض تنكير ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾:

جاءتْ كلمةُ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ بالتّنكير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾؛ تعظيمًا لها وتفخيمًا لشأنها كمًّا وكيفًا، فمن أغراضِ تنكيرِ المُسنَد إليه تعظيمُه[3]، وتنبيهًا كذلك على كثرةِ هذه الآياتِ من العبرِ والعِظاتِ الواضحاتِ، والدّلائل الشّاهدات لكلّ مَن روّضَ نفسَه على الصّبر، وغالبَ الشّهوات، وقدّرَ نِعَمَ اللّه، وقابلها بالمزيدِ من الشّكرِ والطّاعات.

آياتُ اللهِ عظيمةٌ فخيمةٌ كمًّا وكيفًا

بلاغة توالي المؤكّدات في الآية:

أكّد البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ بعدّة مؤكّداتٍ؛ ترسيخًا للخبرِ واهتمامًا به[4]، وهي: الافتتاحُ بأداة التّوكيد ﴿إِنَّ﴾، والجملةُ الاسميّة الّتي تَدلُّ على الثّباتِ، ولامُ الابتداء ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، وتقديمُ المُسند ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على المسندِ إليه ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ ممّا يفيدُ الحصرَ، وكذلك صيغتا المبالغة في ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

تأكيدٌ على أنّ المنتفعَ منَ الآياتِ هو كلُّ صبّارٍ شكورٍ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 244.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 180، 181.
(3) عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/ 42.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 180.

معنى (اللّام) ودلالتُها في قوله: ﴿لِّكُلِّ﴾:

آياتُ اللهِ في قصّة سبأ يختصُّ بالانتفاعِ بها كلُّ صبّارٍ شكورٍ

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لامُ الاختصاص؛ أيْ: هذه الآيات بما تحمله من دلائلَ على قدرةِ اللّه، ومن عظاتٍ وعِبر يختصُّ بالانتفاعِ بها كلُّ مؤمنٍ اتّصف بالصّبر والشّكر.

دلالة التّعبير بلفظ العموم (كلّ):

الانتفاعُ بآياتِ اللهِ يشملُ كلّ صبّارٍ شكورٍ

(كلّ) في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ من ألفاظِ العموم، ويدلُّ في الآيةِ على عموم المتّصفين بكثرةِ الصّبرِ والشّكرِ، المنتفعينَ بدلائلِ قدرةِ اللّه وعظاته وعِبره؛ أيْ: إنّ الانتفاعَ بآياتِ اللّهِ يشملُ كلّ صبّارٍ شكورٍ، ولكن إضافتها إلى لفظ ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ - وهما نكرة - أفادَ مع العموم الاستقصاءَ الشّاملَ لكلِّ ما يصْلُحُ أنْ يُطلقَ عليه لفظا (صبّار وشكور)، ويتصوّره الذّهنُ، فيشملُ الصّبّارَ على البلاء، والصّبّارَ على الطّاعات، والصّبّارَ عن المعاصي[1]، والصّبّارَ على العاقبة[2]، ويشملُ الشّكورَ على النّعم الإلَهيّة في كلّ الأوقاتِ والحالاتِ، والشّكورَ في طاعة اللّه[3].

دلالةُ تَخصيصِ الصّبّارِ الشّكورِ بالذِّكر دون غيرهما:

لا ينتفعُ بآياتِ اللهِ إلّا أهلُ الصّبرِ والشّكرِ

تَخصيصُ الصَّبّارِ الشَّكورِ بالذِّكر؛ لأنَّهم المُنتفِعون بآياته وعِبره ومواعظه[4]، فآياتُ الرَّبِّ إنَّما يَنتفِعُ بها أهلُ الصَّبرِ والشُّكرِ[5]؛ أيْ: في تخصيصِ هذَيْن الوصفيْن بالذِّكرِ إشارةٌ إلى أنّ آياتِ اللّهِ لا يراها ولا ينتفع بها إلّا أهلُ الإيمان الواثقون باللّه، الذين إذا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 578، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 678، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 244.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 181.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 446.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 130، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 283، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 245.
(5) ابن القيم، عدّة الصّابرين، ص: 75.

أصابهم الضّرّ صبروا، وإنْ أصابهم الخير شكروا[1]؛ لأنَّ الإيمانَ نصفٌ صبرٌ ونصفٌ وشكر[2].

لطيفة تنكير ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

لا ينتفع بآيات الله إلّا مَن كان صبّارًا شكورًا

جاء تنكيرُ اللّفظين ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ للتّعظيم والتّفخيم[3]، ففيهما كمالُ الإيمانِ وتمامُ العِرفان، وللمبالغة في تأكيدِ عموم المتّصفين بكثرةِ الصّبرِ والشّكر، وخاصّة أنّهما أُضيفا إلى لفظ (كلّ) وهو من ألفاظِ العموم؛ أيّ: إنّ الانتفاعَ بآياتِ اللّه يشملُ كلَّ مَنِ اتّصف بكثرةِ الصّبرِ وكثرةِ الشّكرِ.

نُكْتَةُ الجمع بين صفتي ﴿صَبَّارٍ﴾ و﴿شَكُورٍ﴾:

مَنْ جمَعَ الصّبرَ والشّكرَ؛ أحرزَ كمالَ الإيمانِ وتمامَ العِرفان

في الجمع بين ﴿صَبَّارٍ﴾ و﴿شَكُورٍ﴾ في الوَصْفِ دلالةٌ على أَنَّ من جمعَ الصّبرِ والشّكرِ فقد أحرزَ كمالَ الإيمان وتمامَ العِرفان[4]، وهو المؤمنُ الذي لا تنقصُهُ خُلّةٌ جميلة بوجه[5]، وفيه دلالةٌ كذلك على أنّ واجِبَ المؤمنِ التَّخَلُّقُ بالخُلُقَيْنِ؛ وهما: الصَّبْرُ على المَكارِهِ، والشُّكْرُ على النِّعَمِ؛ لأنّ هؤلاء المتحدَّث عنهم لم يشكروا النّعمةَ فبَطِروها، ولم يصبروا على ما أصابهم من زوالها؛ فاضطربتْ نفوسُهم، وعمّهُمُ الجَزَعُ؛ فخرجوا من ديارهم، وتفرّقوا في الأرض، ولا تسألْ عمّا لاقوهُ في ذلك من المتالِفِ والمَذَلّات[6].

غرضُ تقديمِ صفةِ الصّبرِ على الشُّكرِ:

الصّبرُ أتعبُ على النّفسِ من الشُّكرِ

قدّم البيانُ الإلهيُّ صفةَ الصّبرِ على الشُّكرِ في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ لأنّ الصّبرَ أتعبُ على النّفس؛ فيكون أفضلَ؛ إذِ الصّبرُ هو صبرٌ على الطّاعةِ، وصبرٌ عن المعصيةِ، بينما الشُّكرُ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 591.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 244.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 491.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 491.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 416.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 180.

شكرٌ على الطّاعةِ، وفي ذلك أيضًا مراعاةٌ للفاصلةِ القرآنيّةِ في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾[1]؛ لِما لها من وقعٍ حَسَنٍ على السّمع.

دلالة التّعبير بـ ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ مادة وصيغة:

المبالغةُ في الوَصفَين تأكيدٌ عليهما وتحذيرٌ من عدمِ التّخلّقِ بهما

في قوله تعالى: ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ صفتا الصّبر والشّكر صيغتا مبالغة على وزنِ (فعّال) و(فعول)؛ أي: الذين لا يُفارقهمُ الوصفان[2]، وهما كثيرُ الصّبرِ في جميع الأحوال، وكثيرُ الشّكر باستقباله كلَّ نعمةٍ من نعم اللّه بما تستأهلُ من حمدٍ وشُكران، وهما مَن يتحصّل لهما الانتفاعُ بالآيات؛ فكأنّها لهم دون غيرهم[3]، كما أنّ المبالغةَ في الوصفين تأكيدٌ على الصّبرِ والشّكرِ، وتحذيرٌ لقريش على عدمِ التّخلّق بهما؛ لأنّ الإنسان لِما طُبِعَ عليه مِنَ القلق، كثيرًا ما يرى النّعمَ نقمًا، واللّذةَ ألمًا، ولِما كانَ عطفُ النّفوسِ إلى الشّكرِ بعد جماحها بطغيانِ النّعم صعبًا[4].

بلاغة تذييل الآية الكريمة:

مَنْ لمْ يكنْ في طبعه الصّبرُ والشّكرُ يقعُ فيما وقعَ فيه قومُ سبأ من كفرانِ النّعم

جُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ تَذييلٌ غرضُه تَنْهيةٌ للقِصَّةِ بما يلائمها، وذلك بالدّلالةِ على أنّ مَن لم يكنْ في طبعه الصّبرُ والشّكرُ؛ يقعُ فيما وقعَ فيه قومُ سبأ من كُفرانِ النّعم، وأنّه مَن ليس في طبعهِ الصّبرُ فاتَهُ الشُّكرُ[5]، وغرضُه كذلك الدّلالةُ على أفضليَةِ مَن يتّعظ بما حلّ في قوم سبأ من التّمزيق أو من النّقمةِ والعذابِ، بعد النّعمةِ والعافية؛ أَيِّ: إنّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ مَن هو من أفاضلِ المؤمنين؛ لأنّ جميعَ خصالِ الإسلام ترجعُ إلى الصّبرِ والشّكر[6].

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 491.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190.
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 89.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 488.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 488.
(6) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 89.

لا يكتمل الإيمانُ بدون الصّبر والشّكر

وفي هذا التّذييل تنبيهٌ على أنَّ ما بعْدَ هذه الجُملةِ مُتعلِّقٌ بالغرَضِ الأوَّلِ المُتعلِّق بأقوالِ المشركينَ، والمُنتقَلِ منه إلى العِبرةِ بداودَ وسُليمانَ، والمُمثَّلِ لحالِ المُشركينَ فيه بحالِ أهْلِ سَبأٍ[1]، وهو الاعتبارُ بالتزامِ خُلُقي الصّبرِ والشّكر؛ فإنّ قصّةَ داوود وسليمان كانتْ مثالًا على الصّبرِ والشّكرِ، بينما قصّةُ قومِ سبأ كانتْ مثالًا لعدمِ الصّبرِ والشّكر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّمزيق والتّفريق:

التّمزيقُ أشدُّ وأبلغُ من التّفريق؛ فهو تشتيتٌ وتقطيعٌ وتفريقٌ بعد اجتماع

التّمزيقُ أشدُّ وأبلغُ من التّفريق؛ فالتّمزيقُ هو الشّقُّ والتَّخْريقُ والتّشتيت والتَّقْطيعُ إلى قطعٍ[2]، والتّمزيقُ هو تفريقُ المتّصلُ؛ أي: التّفرّقُ بعد الاجتماع[3]، إذِ المعنى المحوريُّ للتّمزيق هو الشّقُّ الواصلُ إلى العمق[4]، بينما التّفريقُ ضدّ التّجمع، فالتّفريق: التّمييزُ والتّزييلُ والانفصال، وجَعْلُ الشّيء مفارقًا لغيره، حتّى كأنّه جَعلَ بينهما فرقًا، حتّى تباينًا مادّيًّا كان أو معنويًّا[5]، فكان استعمالُ لفظِ التّمزيق هنا أنسبَ؛ كونه مع سياقِ عذابهم بنقيضِ ما كانوا عليه من النِّعم العظيمة؛ من اتّصال القرى وقُربها من بعضها ومباركتها، فمَزّقهم وقطّعهم أشدَّ تقطيعٍ، كأنّما شقَّ اجتماعَهم وما كانوا عليه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 180 - 181.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (مزق).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (مزق)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مزق).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (فرق).

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢٠﴾ [سبأ: 20]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من إطارِ القصّة المحدودِ إلى إطارِ التّدبيرِ الإلهيّ العامِّ والتّقديرِ المُحْكمِ الشّامل

بعدَ أنْ ذكَرَ تعالى جَلّت قُدرتُه قَصَصَ سَبَأٍ، وما كان مِن أمْرِهم في اتِّباعِ الهَوى والشَّيطانِ والجُحودِ والفسوقِ؛ أردَفَ ذلك الإخبارَ بالأسباب التي أدَّتْ بهم، وهي أنَّهم صدَّقوا ظَنَّ إبليسَ فيهم وفي أمثالِهم ممَّن ركَنوا إلى الغَوايةِ والضَّلالِ؛ إذ تسَلَّطَ عليهم، وانقادوا إلى وسوستِه إلى ذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَدَّقَ﴾: (صدق) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ في القَوْلِ وغيره، ومِنْ ذَلِكَ: الصِّدْقُ: ضِدُّ الكَذِبِ، سُمِّيَ صِدْقًا؛ لِقوَّتِه في نَفْسِهِ؛ ولِأَنَّ الكَذِبَ باطلٌ لا قوَّةَ لَهُ، و(صَدَّق) يدلُّ على كَثرةِ الصِّدقِ[2]، ومعنى ﴿صَدَّقَ﴾ في الآية؛ أيْ: صدقَ ظنُّه ذلك فيهم، فحقّقَ ذلك بهم، وباتّباعهم إيّاه[3].

2) ﴿ظَنَّهُۥ﴾: (ظنّ) أصلٌ يَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: يَقينٍ وشَكٍّ، ومن الأوّل قولُهم: مَظِنَّةُ الشَّيْءِ: مَعْلَمُهُ ومَكانُه، ومن الثّاني قولُهم: الظِّنَّةُ: التُّهَمَةُ[4]، ويدورُ معنى الظّنّ على توقُّعِ وجودِ شيءٍ مُهِمٍّ؛ لأمارَةٍ أو دليلٍ قويَّينِ[5]، فمتَى قويتْ هذه العلامَةُ أدَّتْ إلى

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 512، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 75، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 283.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير: (صدق).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 391، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 540.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظن).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظنن).

اليقين والعِلْم، ومتى ضَعُفَتْ جدًّا لم يتجاوزِ الظَّنُّ حدَّ التَّوهُّم[1]، ومعنى الظّنّ في الآية؛ أيْ: توقّعُ إضلالِهم وإغوائِهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعقيبٌ عامٌّ لبيانِ السّنّةِ الإلَهيّةِ في الإغواءِ والهدايةِ، وتنبيهٌ إلى مكائدِ الشّيطان

يبيّنُ اللّهُ السّنّةَ الإلَهيّة في الإغواءِ والهداية، فيقول: لقد حقّق إبليسُ ظنّه فيمن أطاعهُ من النّاس، ومنهم أهلُ سبأ حين انخدعوا لوسوسته، فهو لمّا وسوسَ لهم ظنَّ أنّهم يطيعونه، أو صَدَقَ إبليسُ في ظنّه أنّه إذا أغواهم اتّبعوه؛ لأنّه بمجرّد أنّ زيّن لهم المعاصي أطاعوه، إلّا فَريقًا مِنَ المؤمنينَ المُخلصينَ للّهِ تعالى، الثّابتِينَ على توحيدِه وطاعتِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) ودلالتُها في قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ﴾:

عودةٌ إلى حكايةِ واقعِ الكفّار أو انتقالٌ من حكايةِ الماضي إلى عظةٍ عامّةٍ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ إمّا أنْ تكونَ عاطفةً، والمعطوفُ عليه إمّا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ [سبأ: 7]، وما بيْنَهما مِن الأخبارِ المَسوقةِ للاعتبارِ واقعٌ مَوقِعَ الاستِطرادِ والاعتِراضِ؛ أيْ: إنّه عودةٌ إلى حكايةِ موقف كفّار مكّة وواقعِ أمرهم، وتعليلٌ لذلك بعدما جاءهمْ من الموعظةِ ما جاءهم، أو أنْ يكون المعطوفُ عليه ما سبقَ من قصّة قومِ سبأ[3]، ويكون كذلك تعليلٌ لحالهم وواقعِ أمرهم، وقد تكون الواو استئنافيّةً؛ أيْ: "إنّ قصّةَ سبأ انتهتْ عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾، ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أيْ: على جنسِ النّاس؛ فتكون الآيةُ عامّةً في كلّ مَن اتّبعه"[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (ظنّ).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 391، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 183، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 284.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 182.

(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 677.

أثر التّوكيد باللّام وبـ (قد) في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾:

صُدِّر قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ باللّام الواقعة في جوابِ القسم المحذوف، وبحرفِ التّحقيق (قد)؛ فاجتمعَ تأكيدان لمضمونِ الآية، وهو تحقّقُ ظنّ إبليسَ في قوم سبأ أو بني آدمَ ممّن اتّبعه في قدرتِه على إغوائهم، وذلك لإنكار كلّ أحدٍ أنْ يكون صَدّق ظنّ إبليس فيه[1]، فأفادَ التّوكيدُ مباغتتَهم بشيء يعلمونه ويخفونه.

تأكيد تحقُّق ظَنّ إبليس في قومِ سبأ، أو بني آدمَ ممّن اتّبعَه في قدرتِهِ على إغوائهم

أثر تنوّع القراءاتِ في ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾:

﴿صَدَّقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ فيه قراءتان؛ قرأ عاصم وحمزة والكسائيّ وخَلَف بتشديد الدّال المفتوحة[2]، وعلى هذه القراءة يكون ﴿ظَنَّهُۥ﴾ مفعولاً به، والمعنى: ولقد صدَّق عليهم إبليسُ ظنَّه في قدرتِه على إغوائهم؛ أيْ: "حقّقَ ظنّه عليهم حين انخدعوا لوسوسته، فهو لمّا وسوسَ لهم ظَنَّ أنّهم يطيعونه فجدَّ في الوسوسةِ حتّى استهواهم، فحقّقَ ظنَّه عليهم"[3]، وقرأ الجمهورُ بفتح الدّال بدون تشديد ﴿صَدَقَ﴾[4]، وعلى هذه القراءة يكون ﴿ظَنَّهُۥ﴾ منصوبًا بنزعِ الخافض، والمعنى: ولقد صَدَقَ إبليسُ في ظنّه أنّه إذا أغواهم اتّبعوه؛ لأنّه بمجرّد أنْ زيّنَ لهم المعاصيَ أطاعوه، إلّا فريقًا من المؤمنين لم يطيعوه[5]، أو منصوبًا على المصدريّة، والمعنى: صدقَ عليهم إبليسُ ظنًّا ظنّه وصدقَ في ظنّه[6].

إبليسُ حقّق ظنّه، أو وجدَهُ صادقًا

دلالةُ التّعبير بـ (التّصديق)، ولطيفةُ صَوْغِه ماضيًا:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ التَّصديق في قوله تعالى: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾، ولم يَقُلْ: ولقد حقّق عليهم إبليسُ ظنَّه حين

لا يألُ إبليسُ جهدًا وقوّةً في تحقيقِ ظنّه في إغواءِ بني آدم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 489.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 350.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 183.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 350.
(5) مكّيّ، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 5919، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 284.
(6) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 14.

انخدعوا لوسوسته؛ وذلك لكون لفظ ﴿صَدَّقَ﴾ أنسبَ مع حالِ إبليس الذي أخذَ على النّفسِ ألّا يألوا جهدًا في إغواءِ بني آدمَ، والصّاد والدّال والقاف تَدُلُّ تصاريفُها على قوّةٍ في الشّيءِ، قولًا كان أو غيرَه[1]، كما أنّ التّعبيرَ بالتّصديق أنسبُ للسّياق الذي وردَ فيه لفظُ الظّنّ؛ إذ لفظُ الصّدقِ هو الحقيقة، بينما الظّنّ متردّدٌ بين الحقيقةِ وعدمِ الحقيقة، وقدْ صاغَ فعلَ التّصديقِ ﴿صَدَّقَ﴾ بصيغةِ الماضي؛ للدّلالة على تحقّقِ ظنّ إبليسَ بإغواءِ أناسٍ من بني آدمَ، ولذلك أرسلَ اللّهُ الرّسلَ وأنزلَ الكتب.

معنى (على) ودلالتُها في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

إبليسُ مُستعلٍ ومُتغلِّبٌ ومُسلَّطٌ على مَن استغواهم

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بحَرْف الاستعلاءِ (على) في قولِه: ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ رغمَ أنّ المعنى: (صدّق فيهم)[2]؛ للإيماءِ إلى أنَّ عملَ إبليسَ كان مِن جنسِ التَّغلُّبِ والاستعلاءِ عليهم[3]، وإلى كونِ إبليس في استغوائهم غالبًا لهم في إركابهم ما تشهدُ عقولُهم بأنّه ضلال[4]، و(على) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿صَدَّقَ﴾؛ كقولك: صَدَّقْتُ عليكَ فيما ظنَنتُه بك، ولا يتعلَّقُ بالظّنّ[5].

مرجع الضّمير المجرور في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

تحقيقُ إبليسَ ظنَّه في كفّارِ مكّة وقومِ سبأ ومَن تبعهُ من ذريّةِ آدمَ

يعودُ ضَميرُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ إمّا إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سبأ: 7] في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ [سبأ: 7]؛ أيْ: على كفّارِ مكّة ومُشركيهم "بقرينةِ الآياتِ التي جاءتْ بعدَها، وأمرَ النّبيُّ ﷺ فيها بتوجيه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدق).
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التّفسير: 3/ 496.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 182.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 489.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 543.

الخطابِ إلى كفّارِ مكّة ومشركيهم متحديًّا منددًا"[1]، أو أنْ يعودَ إلى قوم سبأ المتحدَّث عنهم، على أنْ يكون قولُه تعالى بعْدَ ذلك: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، هو عَودٌ إلى مُحاجَّةِ المشركينَ المُنتقَلِ منها بذِكْرِ قصَّةِ داودَ وسُليمانَ وأهلِ سَبأ، وصُلوحيَّةُ الآيةِ للمَحملَين ناشئةٌ مِن مَوقعِها، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ المُستفادَةِ مِن تَرتيبِ مَواقعِ الآيةِ[2].

ويُحتمل أن يعود ضَميرُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ إلى ذريّة آدمَ ﷺ من الكفّار؛ أيْ: جميعِ الكفّار من كفّار سبأ وغيرهم[3]، قال مجاهد: "على النّاس كلّهم إلّا مَن أطاع اللّه"[4]، بأنْ يكون الكلامُ ابتداءً، وذلك أنّ إبليسَ قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: 82 - 83]، فكان ذلك ظنًّا منه فصَدقَ ظنُّه[5].

الشّيطان بالمرصاد فلا ينجو منه إلّا المؤمنون

غرض تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿إِبۡلِيسُ﴾:

تحميلُ مَنْ صدّقَ إبليسَ جزءًا من المسؤوليّة وتوبيخًا لهم باستعلاءِ إبليسَ عليهم

قدّم النّظمُ الحكيم الجارَّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الفاعل ﴿إِبۡلِيسُ﴾؛ تحميلًا لمَنْ حقّق إبليسُ فيهم ظنَّه بإغوائه جزءًا من المسؤوليّة عن تصديقهم لظنّ إبليس، وتوبيخًا لهم بإظهارِ استعلاءِ إبليسَ عليهم، مع امتلاكهمُ العقولَ التي تُظهِرُ لهم ضلالَهُ، والرُّسلَ والكتبَ السّماويّة التي تبيّنُ لهم حقيقتَه، وتكشِفُ لهم تلبيسَه ووسائلَ إغوائه، ولفتًا للانتباه لهؤلاءِ الذين أغواهم إبليسُ؛ تنبيهًا للمؤمنين لئلّا يقعوا فيما وقعَ فيه هؤلاءُ من حبائل إبليسَ، كما أنَّ تقديمَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على اسم إبليسَ وتأخيرَه يُعطي انطباعًا بأنّ إبليسَ قد نجحَ في تحقيقِ ظنّه، مما يُبرزُ قوّتَه وتأثيرَهُ السّلبيّ.

(1) دَرْوَزة، التّفسير الحديث: 4/ 277.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 182.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 489 - 490، وابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 490.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 22/ 87.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 87.

إيثار التّعبير بـ﴿إِبۡلِيسُ﴾ دون (الشّيطان):

عبّرَ البيانُ الحكيمُ بلفظ ﴿إِبۡلِيسُ﴾ دونَ الشّيطان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾؛ مبالغةً في التّبكيتِ والتّوبيخ للكافرين، وأنّهم سيحزنون ويندمونَ وقتَ لا ينفعُ ندمٌ؛ لأنّ السّياقَ هو سياقُ الإثباتِ لعظَمةِ اللّه، وما عنده من الخيرِ، وما له من التّصرّفِ التّامّ الدّاعي ذلك إلى الإقبالِ إليه، وقَصْرِ الهِمَم عليه، ورغمَ ذلك صدّق فيهم إبليسُ ظنَّه، وهو الذي - أي: إبليس - من (البَلَسُ) وهو ما لا خيرَ عندَه[1]، أو الآيسِ من رحمةِ اللّه، أو من (الإبلاس) وهو اليأسُ من كلّ خير[2]؛ وهذا بخلافِ لفظِ الشّيطانِ الذي يُركّز على بُعْدِ الشّيطانِ عنِ الحقِّ وتمرُّده، أو على أنّه مخلوقٌ مِنَ النّار[3].

توبيخٌ لمَن أعرضوا عن العظيم سبحانه، وانخدعوا بالآيسِ من كلِّ خيرٍ

دلالة التّعبير بالظّنّ في ﴿ظَنَّهُۥ﴾:

في التّعبير بلفظِ الظّنّ في قوله تعالى: ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ مناسبةٌ للمقام؛ فقد قال إبليسُ ما قالَ فيما حكاه اللّهُ عنه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: 82 - 83] بظنٍّ لا بعلمٍ ويقين[4]؛ والظّاء والنّونان تدلُّ تصاريفها على توقُّع وجودِ شيءٍ مُهِمٍّ؛ لأمارَةٍ أو دليلٍ قويَّين[5]؛ أيْ: هو توقّعٌ؛ لأنّه لا يعلمُ الغيبَ، ولم يأتِه خبرٌ من اللّه، أنّه سيغويهم أجمعين[6]، ثمّ صارَ ذلك حقًّا باتّباعهم إيّاه[7].

توقّعُ إبليسَ إغواءَ بني آدمَ بأمارةِ إغواءِ أبيهم قد تحقّق باتّباعِ بعضهم له

نُكْتَةُ إضافةِ الظّنّ إلى إبليسَ:

في إضافةِ البيانِ القرآنيّ الظّنَّ إلى إبليسَ في قوله تعالى:

كيدُ الشّيطانِ ضعيفٌ؛ ولكنَّ الغاوين نفوسُهم أضعفُ

---

(1) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (بلس).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 490، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 294.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شطن).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 360، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 392.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظنن).
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 677.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 392.

﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ تأكيدٌ على ضَعْفِ إبليسَ، وأنّه لا سلطانَ قَهْرٍ له على الإنسان؛ وإنّما هو الوسوسةُ والإغواءُ، وعلى أنّ ظنّه هذا توقّعٌ منه لأمارةِ إغوائه آدمَ عليه السلام، ولا عِلْمَ عنده من اللّه، وأنّه لا يعلمُ الغيبَ.

غرضُ الحَذْف في قوله: ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾:

توبيخُ مَنِ اتّبعه من قومِ سبأ، أو من النّاسِ لسُرعةِ اتّباعهم

في قوله تعالى: ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ إيجازُ حَذْفٍ؛ لأنَّ صِدقَ الظَّنِّ المُفرَّعَ عنه اتّباعُهم له يَقْتضي أنَّه دَعاهم إلى شَيءٍ ظانًّا استجابةَ دَعوتِه إيّاهم[1]، وفي الحذفِ توبيخٌ لِمَنِ اتّبعه من قوم سبأ أو من النّاس؛ إذ في الحذفِ إشارةٌ إلى سُرعةِ اتّباعِه.

معنى (الفاء) ودلالتُها في قوله: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾:

سببيّةٌ تدلُّ على خطورةِ وسوسةِ إبليسَ، وتعقيبٌ يدلُّ على سُرعةِ الاستجابة له

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فاءُ تَفريعٍ وتَعقيبٍ على فِعلِ ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾؛ أيْ: تَحقَّقَ ظَنُّه حينَ انفَعَلوا لِفعلِ وسوستِه، فبادَروا إلى العملِ بما دَعاهم إليه من الإشراكِ والكُفرانِ[2]، وفي التّعقيبِ دلالةٌ على سُرعةِ استجابتهم لوسوستِه وإغوائه، وفيها معنى السّببيّة[3]؛ أيْ: كانتْ دعوةُ إبليسَ لأهلِ سبأ أو للنّاس، ووسوستِه هي سببُ اتّباعِه، والتّقدير: دَعاهم إبليسُ إلى شَيءٍ ظانًّا استجابةَ دَعوتِه إيّاهم فاتّبعوه، وفي هذا تنبيهُ المؤمنين إلى مكائد الشّيطان.

دلالةُ التّعبير بالاتِّباع في ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾:

بيانٌ لشِدّةِ قُبحِ فعلِ المُتّبعين لإبليسَ ومدى أثرِ إغوائِه فيهم

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظِ الاتّباع دونَ غيرِه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾؛ للدّلالةِ على شِدّةِ قُبحِ فعلِ المُتّبعين، ومدى أثرِ إغواءِ الشّيطان فيهم؛ إذ لم يكتفوا بالإذعانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 183.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 490، وصالح، الإعراب المفصّل: 9/ 332.

والانقيادِ والطّاعةِ له، وإنّما بمتابعته واقتفاءِ أثره بالارتسام لِما رَسمَ، والائتمارِ لِما أمرَ واللّحاقِ به؛ إذ أصلُ الاتّباعِ في اللّغة: التُّلُوُّ والقَفْوُ[1]، واتّبعه: أدركَهُ ولحِقَهُ[2]، وهذا فيه بذلُ جَهْدٍ منهم، والمعنى: فاتّبعوه بغايةِ الجهد بمَيلِ الطّبعِ والاستلذاذِ الموجِبِ للنّزوعِ والتّرامي، بعضُهم في الكُفران، وبعضُهم في مُطلقِ العِصيان[3]، وقد جاء الفعل ماضيًا للدّلالةِ على تحقّقِ هذه المتابعة من قومِ سبأ، وممّن اتّبعَ إبليسَ من النّاس.

اقتفاءُ أثرِ إبليسَ والائتمارُ بأمره بيانٌ لحالِ أهلِ سبأ أو لحالِ كلِّ من تَبعه

مرجع ضمير الفاعل في ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾:

يعودُ ضميرُ الفاعل في قوله: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ إلى أهلِ سبأٍ أو النّاسِ[4]، فإنْ كان الأوّل فالكلامُ تَتِمَّةٌ لقصّة سبأ إمّا حالًا أو عَطفًا؛ أيْ: بيانٌ لحالِ قومِ سبأ بأنّهم قد حقّقَ الشّيطانُ فيهم ظنَّه بغوايتهم فقدِ اتّبعوه، وإنْ كان الثّاني، وهو عودةُ الضّمير إلى النّاس عمومًا، فهو كالتّذييلِ لقصّةِ سبأ، بذِكْرِ حالِ إبليس مع بني آدمَ وتحقُّقِ ظنّه فيهم، وفي هذا تأكيدٌ لِما حصلَ مع قومِ سبأ؛ من إغواءِ إبليسَ لهم واتّباعهم له[5]، وفي إسنادِ الاتِّباعِ إلى ضميرِ جماعتهم ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ دلالةٌ على إجماعهم على الضّلالِ وبَطَرِ النّعمةِ والكفرِ باللّه باتّباعهم إبليسَ.

معنى ﴿إِلَّا﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾:

الاستثناءُ يُؤذِنُ بأنّ فريقَ المؤمنين قليلٌ بالنّسبةِ لمجموعِ الكافرين

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أداةُ استثناء، والاستثناءُ من ضميرِ الجماعة في ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾، وهو إمّا استثناءٌ مُتّصلٌ على قولِ مجاهد، أو مُنقطعٌ على قولِ غيره[6]؛ أيْ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (تبع).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (تبع).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 490.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 130.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 544.
(6) الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 294.

بمعنى لكن[1]، والمعنى: لكنَّ فريقًا من المؤمنين لم يتّبعوه فخابَ ظنّه فيهم، وهذا الاستثناءُ يُؤذِنُ بأنّ الفريقَ قليلٌ بالنّسبةِ للبقيّة، وهذا على القولِ برجوعِ الضّمير إلى بني آدم، أو أنّه قليلٌ في حدِّ ذاته على القولِ برجوعِ الضّمير إلى سبأ؛ لعدمِ شيوعِ كثرةِ المؤمنين في حدّ ذاتهم منهم[2].

المؤمنون انفصلوا عن إبليسَ وتميّزوا وتفرّدوا عنه

دلالة التّعبير بـ ﴿فَرِيقًا﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بلفظِ الفريق دونَ غيره؛ لكون لفظِ ﴿فَرِيقًا﴾ من النّاحيةِ اللّغويّة أنسبَ مع المقامِ وحالِ المؤمنين الذين لم يتّبعوا إبليسَ؛ لأنّ جَذْرها اللّغويّ من (فرق)، وهو من الفَصْلِ والتّفريق[3]، والتّفريق يدُلُّ على تمييزٍ وتَزييلٍ بين شَيئَين[4]، والفَرْقُ: الانفصالُ عن الشّيء، والفريقُ: جماعةٌ تتفرّق وتنفصلُ عن غيرها[5]، والمؤمنون انفصلوا عن إبليس وجماعته، وتميّزوا وتفرّدوا عنه، وهذا بخلافِ لفظِ الطّائفة والفئة والجماعة؛ لأنّها لا تتضمّن معنى الانفصال والتّمييز والانفراد، وأمّا لفظُ الفِرقة فغيرُ مناسبٍ هنا؛ لأنّ المؤمنين وإنْ كانوا قليلًا بالنّسبة لمجموعِ الكافرين، إلّا أنّهم ليسوا فرقةً وإنّما فريقٌ؛ لأنّ الفرقةَ طائِفةٌ مِنَ النّاس، والفَريقُ أكثرُ منه[6].

المؤمنون الذين لا يُغويهم الشّيطان في كلِّ زمنٍ قِلَّةٌ

غرضُ التّنكير في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا﴾:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿فَرِيقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لإفادةِ الإبهامِ الذي يُفيدُ التّشويق، وقد بيّنه بقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولإفادةِ تفخيمِ شأنِ هذا الفريق الذي هو

(1) السّيوطيّ والمحليّ، تفسير الجلالين، ص: 566.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 308.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رفق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(5) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (فرق).

المؤمنون كلّهم، أو بعضُ المؤمنين الذين سلّمهمُ اللّهُ من الذّنوب، وهمُ المخلصون الذي قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: 42]، ولإفادةِ التّقليلِ كذلك، والتّقليلُ إمّا لعمومِ المؤمنين بالنّسبة للكفّار، أو لمؤمني قوم سبأ بالنّسبةِ لكفارهم.

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

كلُّ مؤمنٍ كاملٍ في إيمانه سالمٌ من غوايةِ إبليسَ بالكفرِ أو الاتّباع

(اللّام) في لفظ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للاستغراق(1)؛ أيّ: المقصود كلّ مؤمنٍ كاملٍ في إيمانه، سواءٌ كانت ﴿مِّنَ﴾ بيانيّة؛ أيّ: إلّا فريقًا هم كلّ المؤمنين لم يتّبعوه، وتقليلُهم بالإضافة إلى الكُفّارِ، أو كانت تبعيضيّة؛ أيّ: إلّا فريقًا من جنسِ المؤمنين في الأزمانِ والبلدان، وهم المؤمنون العريقون في الإيمان، فكانوا خالصين للّه مُخلِصينَ في عبادته، وأمّا غيرُهم فمالوا معه، وكان منهم المُقلّ ومنهم المُكثر بالهَفَوات والزَّلّات الصَّغائرِ والكبائر(2).

لطيفة جمع ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

المؤمنون إنْ وقعوا في المعاصي فسُرعانَ ما يتوبون

يدلُّ مَجيءُ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل الذي يدلُّ على الثَّباتِ والدّوام للدّلالة على كونِ المقصود من المؤمنين هم المُخلَصون(3)، عند مَن رأى هذا المعنى، وعند غيرهم فلِلدّلالة على استمرارِ المؤمنين على إيمانهم، وعدمِ كفرهم وإنْ وقعوا في شِراكِ بعض المعاصي، فسُرعانَ ما يتوبون إلى ربّهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظَّنُّ والشَّكُّ:

الظّنُّ توقُّعُ وجودِ شيءٍ مُهِمٍّ؛ لأمارَةٍ أو دليلٍ قويَّينِ(4)، فالظّنُّ هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 183.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 491، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 130.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 130.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظنن).

قوَّةُ أحدِ الشَّيْئَيْنِ على نقيضه في النَّفس، وأمّا الشّكُّ فهو التَّردُّد في أَمرَيْن لا مزيّةَ لأحدهما على الآخر[1]؛ أيِ: الظَّنُّ رُجْحانُ أحدِ طرفي التّجويز، أي: قوَّةُ المَعْنى في النَّفس من غير بُلوغ حال الثِّقَة الثابتة، بينما الشَّكُ هو استِواءُ طرفي التّجويز؛ لِأَنَّهُ لا دَليلَ هُناكَ ولا أَمارَة، فهوَ وقوفٌ بَين النّقيضيْن من غير تَقْوِيَة أَحدهما على الآخر[2]؛ أيِ: اعتدالُ النّقيضَيْن عند الإنسانِ وتَساويهما، وذلك قد يكون لوجودِ أمارَتَيْن مُتساويَتَيْن عند النَّقيضَيْن، أو لعدَمِ الأمارةِ فيهما، فهو ضرْبٌ من الجَهل.

الظّنّ رُجْحانُ أحدِ طَرفي التّجويز لأمارةٍ أو دليلٍ، والشّكُّ اسْتِواءُ طَرَفي التّجويز

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 424.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 99.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استدراكٌ بنفي أيّ سلطانٍ لإبليسَ؛ دفعًا لتوهّمِ ذلك

لَمّا قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ رُبَّما أوهمَ أنَّ لإبليسَ أمرًا بنَفْسِه؛ فنفاه هنا، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾[1]؛ أيْ: إنَّ إغواءَ الشّيطان لأهلِ سبأ ولأشباههم من بني آدمَ لم يكنْ عن قسرٍ وإكراهٍ، وإنّما كان عن اختيارٍ منهم؛ ليتميّزَ الخبيثُ من الطّيّب[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾: (سلط) أَصْلٌ واحِدٌ يدلُّ على القوَّة والقَهْر، ولِذَلِكَ سُمّيَ السُّلْطانُ سُلْطانًا[3]؛ "لأنّه يتمكّنُ من قهرِ رعيّته على ما يريد"[4]، والسُّلطانُ: الحُجَّةُ والبُرهانُ، والسُّلطانُ: الوالي والحاكمُ ذو القُدرةِ الظّاهرةِ الواضحةِ، والسُّلطان إنّما سُمّيَ سُلْطانًا لأَنّه حجّةُ اللّهِ في أَرضه، ولأنّه تُقامُ بِهِ الحُجَّةُ والحُقوق[5]، والمُراد بالسّلطان هنا: التّسلّطُ بالقهرِ والغَلبةِ والإكراهِ[6]، أو ما له مِنْ تَسَلُّطٍ واسْتيلاءٍ بالوَسْوَسَةِ والاسْتِغواءِ[7].

2) ﴿شَكّٖ﴾: (شكّ) أصلٌ يدلّ على التّداخُلِ، ومنه الشَّكُّ، الَّذي هوَ خِلافُ اليَقينِ، إنَّما سُمّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الشّاكَّ كَأَنَّهُ شُكَّ لَهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 284.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سلط).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سلط).
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 284.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 246، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 540.

الأَمْرانِ في مَشَكٍّ واحِدٍ، وهوَ لا يَتَيَقَّنُ واحِدًا مِنْهُما[1]، والشّكُّ: هو الارتيابُ، والتَّرَدُّدُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ سَواءٌ اسْتَوَى طَرَفاهُ أَوْ رَجَحَ أَحَدُهُما عَلَى الآخَرِ[2]، وهو اعتدالُ النّقيضَين عند الإنسان وتَساويهُما، وذلك قد يكون لوجودِ أمارَتَين مُتساويتَين عند النَّقيضَين، أو لعدَمِ الأمارةِ فيهما، والشَّكُّ: ضَرْبٌ من الجَهل[3]، ومعنى الشّكّ في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ؛ أي: الارتيابُ وعدمُ اليقين.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إبليسُ امتحانٌ من اللهِ ليَميزَ المؤمنَ من الكافر

يقول تعالى ذِكْرُه: وما كان لإبليسَ على هؤلاءِ القومِ الذين وصفَ صفتَهم من حُجّةٍ أو قُدرةٍ وتَسَلُّطٍ واستيلاءٍ إلّا أمانيَّ وغرورًا دعاهم إليها، ولكنْ نحن سلَّطناه عليهم بسلطاننا، وملكّناهُ قيادَهم بقَهْرنا[4]؛ ليُعْلَمَ حزبُنا وأولياؤنا، وهم مَن يُصَدّقُ بالبَعثِ والثّوابِ والعقابِ، مِمَّنْ لا يوقِنُ بالمعاد، ولا يُصدّقُ بثوابٍ ولا عقابٍ؛ عِلمًا يترتَّبُ عليه الجزاءُ، وربُّك - يا محمَّد - على أعمالِ هؤلاء الكفرةِ به وغيرِ ذلك من الأشياءِ كلّها، حَفيظٌ لا يَعْزُبُ عنه علمُ شيءٍ منه، وهو مُجازٍ جميعَهم يومَ القيامة بما كسبوا في الدّنيا من خيرٍ وشرٍّ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) ودلالتُها في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

إخبارٌ عن حالِ إبليسَ في انتفاءِ سلطانه على مَنِ اتّبعَه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ واوُ الحال، والمعنى: ولقد صدّقَ عليهم إبليسُ ظنّه فاتّبعوه، والحالُ أنّ إبليسَ ما كان له من سلطان[6]، ويحتملُ أنْ تكونَ واوَ العطف[7]، والمعطوفُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكّ).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (شكك).
(3) الرّاغب، المفردات: (شكك).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 393.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 86، وصالح، الإعراب المفصّل: 9/ 333.

عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾، فكلاهما تُخْبِرُ عن إبليسَ، فالأوْلى: أخبرتْ أنّه صدقَ ظنُّ إبليسَ على منِ اتّبعه، والثّانية: أخبرتْ أنّ إبليسَ لم يكنْ له أيُّ سلطانٍ عليهم.

معنى (ما) ودلالتُها في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم﴾:

تأكيدُ نفي حالِ أنْ يكونَ لإبليسَ أيُّ سلطانٍ

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ نافيةٌ[1] غيرُ عاملة، وهي لنفي الحال، وفيها معنى التّأكيد[2]، فقد أكّدتْ نفيَ حالِ أنْ يكون لإبليسَ أيُّ سلطانٍ على مَنِ اتّبعوه أو على غيرهم.

دلالة التّعبير بالماضي: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم﴾:

انتفاءُ أن يكون للشّيطان سلطانٌ مستمرٌّ عبرَ الأزمان

استعملَ البيانُ الإلهيُّ فعلَ الكون الماضي المنفي (ما كان) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ "للدّوام في النّفي"[3]، إذ فعلُ ﴿كَانَ﴾ في النّفي مع ﴿مِّن﴾ الّتي تُفيدُ الاستغراقَ في النَّفي يُفيدُ انتفاءَ السُّلطانِ؛ أيِ: الملكِ والتَّصريفِ للشَّيطانِ؛ أيْ: ليستْ له قدرةٌ ذاتيةٌ هو مستقلٌ بها يتصرّف بها في العالَم كيف يشاء؛ لأنَّ تلكَ القدرةَ خاصّةٌ باللّه تعالى[4].

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لَهُۥ﴾:

ليس لإبليسَ أيُّ سلطانٍ خاصّ وقدرةٍ ذاتيّة مستقلٍّ بها

لام ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ معناها الاختصاص؛ أيْ: نفيُ أنْ يكونَ لإبليسَ أيُّ سلطانٍ خاصّ به على الذين اتّبعوه، وليس له أيُّ قدرةٍ ذاتيّة مستقلٍّ بها، يتصرّف بها في العالَم كيف يشاء، وضمير الهاء في ﴿لَهُۥ﴾ يعودُ على إبليسَ[5]، الذي ورد ذِكْرُه في الآية السّابقة: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾، والمعنى: وما كان لإبليس من سلطانٍ على الذين اتّبعوه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 289.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 494.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 183.
(5) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 153.

معنى (على) ودلالتُها في ﴿عَلَيۡهِم﴾:

(على) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ حرفُ جرٍّ يفيدُ الاستعلاءَ والتمكّن، والمُراد: نفيُ أنْ يكون لإبليس أيُّ استعلاءٍ واستقدارٍ وتسلّطٍ قاهرٍ عليهم، فلم يقهرهم على الكفر[1]، والضّمير في ﴿عَلَيۡهِم﴾ يعودُ على القومِ الذين أَغواهُم[2]، وهم مَن عادَ عليهم ضمير ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في الآية السّابقة: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾؛ أيّ: "ما كان لإبليس على الذين صار ظنّه فيهم صدقًا"[3]؛ أيّ: على أولئك الكفّار[4] من قومِ سبأ وغيرِهم.

لا تسلّطَ قهْرٍ واستعلاءٍ لإبليسَ على القومِ الذي أغواهم

سرُّ تقييد الكون المنفي بـ﴿عَلَيۡهِم﴾:

قيّد البيانُ الحكيم الكونَ المنفيَّ بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ ولم يَقُلْ: (وما كان له من سلطان)؛ للإيحاءِ بالحمايةِ الإلهيّة من تسلّط إبليس على مَن اتّبعوه وغيرهم، ومن ثَمّ إيحاءٌ بالحريّة التي يملكونها في مواجهةِ وساوسِه؛ "أيّ: لم يَقْهَرهم إبليسُ على الكفر، وإنّما كان منه الدّعاء والتّزيين"[5]، وفي هذا توبيخٌ لهم وإقامةٌ للحُجّةِ عليه؛ إذ سارعوا لاتّباعه بسببِ وساوسه وإغواءاته، وهو مثلُهم عبدٌ عاجزٌ مقهورٌ، ذليلٌ خائفٌ مدحورٌ[6]، وفي هذا القيد مزيدُ تطمينٍ للمؤمنين؛ فإذا كان ليس لإبليس أيّ: سلطانٍ على مَن اتّبعوه، فكيف يكون له أيُّ سلطانٍ على المؤمنين؟!

في نفي أيِّ تسلّطِ قهرٍ لإبليسَ إقامةٌ للحُجّةِ على مَن اتّبعَ وساوسَه

غرض تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على قوله: ﴿عَلَيۡهِم﴾:

قدّم البيانُ الحكيمُ المُتعلّقَ ﴿لَهُۥ﴾ على القيد ﴿عَلَيۡهِم﴾ في قوله

في الإيماءِ بأثر قوّةِ غوايةِ إبليس تحذيرٌ من طرقِ غوايته

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 417.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 153.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 61.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 294.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 293.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾، ولم يَقلْ: (وما كان عليهم له من سلطان)؛ وذلك لكونِ المقام والسّياق حديثًا عن إبليس وظنّه، ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ فكان تقديمُ ما يتعلّق به أنسبَ، وللإشارة إلى قوّة أثرِ هذه الغواية التي سمح اللّهُ بها امتحانًا للنّاس؛ ليَميزَ المؤمنَ من غيره، ومن ثمّ التّحذير ممّا سيقومُ به إبليسُ من طرقِ الإغواء.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾:

تأكيد نفي أنْ يكون لإبليسَ أيُّ سلطان

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ حرفُ جرٍّ زائدٍ للتّوكيد[1]، والتّقدير: (ما كان له عليهم سلطان)، والغرضُ منها توكيدُ عموم النّفي واستغراقِه[2]؛ أيَ: تأكيدُ نفي أيِّ سلطانٍ لإبليسَ على الذين اتّبعوه، ولا على غيرهم.

دلالة التّعبير بـ (السّلطان):

في نفي أيِّ قوّةٍ وقهرٍ وحُجّةٍ لإبليسَ مبالغةٌ في إقامةِ الحُجّة على منِ اتّبعه

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ لاتّساع دلالته ومناسبته للسّياق؛ إذ من معاني السّلطان: القوّةُ والقهرُ والغلبةُ والنّفوذ والسّيطرة[3]، والقُدرةُ القاهرة، والحُجّةُ، والبرهانُ، والمعنى المحوريّ له: التّمكّنُ من القهرِ من بعيد[4]، وهذه المعاني تتناسبُ مع السّياقِ الذي ينفي عن إبليسَ أيَّ قوّةٍ وأيَّ تسلّطِ غلبةٍ ونفوذٍ وقهرٍ يقهرُ به مَن اتّبعه على الكفر، وليس له أيُّ حُجّةٍ وبرهانٍ في اتّباعه؛ أيَ: لم تكنْ له حجّةٌ يستتبعهم بها، ولا برهانٌ على صدقه، وإنّما اتّبعوهُ بشهوةٍ وتقليدٍ وهوى نفس؛ لا عن حُجّةٍ ودليلٍ[5]، وليس له أيُّ تسليطٍ واستيلاءٍ

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 153.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 183.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط)، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (سلطن).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلط).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 293.

بالوسوسةِ والاستغواءِ إلّا لحكمةٍ، وفي هذا مبالغةٌ في إقامةِ الحُجّة على مَنِ اتّبع.

لطيفةُ تنكير مفردة ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾:

إبليسُ ضعيفٌ مقهور لا يملك إلّا الوساوسَ

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ مُفردةَ ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾؛ لإفادةِ العموم، لكونها جاءت نكرةً في سياق النَّفي؛ أيْ: ليس لإبليسَ "أيّ تسلّطٍ قاهرٍ لشيء من الأشياء بوجهٍ؛ لأنّه مثلُهم في كونه عبدًا عاجزًا مقهورًا، ذليلًا خائفًا مدحورًا"[1].

غرض تقديم ﴿لَهُۥ﴾ و﴿عَلَيۡهِم﴾:

اهتمامٌ بالعلاقةِ بين إبليسَ وبني آدمَ، وتنبيهٌ على خطورتِها وتحذيرٌ منها

قدّم البيانُ الإلهيُّ المسندَ ﴿لَهُۥ﴾ والقيدَ ﴿عَلَيۡهِم﴾ على المُسند إليه ﴿مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾؛ اهتمامًا بالعلاقةِ بين إبليسَ وبني آدمَ، وتنبيهًا على خطورتها، وتحذيرًا لبني آدمَ من غوايةِ إبليسَ الذي دعاهم، فاستجابوا له دون أيِّ سلطانٍ قاهر، وإنّما هي وسوسةٌ وإغواءٌ؛ امتحانًا لهم.

معنى ﴿إِلَّا﴾ ودلالتُها في جملة ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾:

استثناءٌ يُشيرُ إلى حكمةِ الله من وسوسةِ إبليسَ لبني آدمَ

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أداةُ استثناء، والاستثناءُ إمّا استثناءٌ متَّصلٌ مُفَرَّغٌ مِن أعمِّ العلل[2]، والمعنى: وما كانَ له عليهم من تسلّطٍ لعِلّةٍ من العِللِ إلّا ليتعلّق عِلْمُنا بمَن يؤمنُ ومَن لا يؤمنُ؛ لأنَّه سبحانه قد عَلِمَ ذلك عِلمًا أزَليًّا، والحصرُ حقيقيّ[3]، ويجوز أنْ يكون الاستثناءُ من عموم ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾، وحُذفَ المستثنى ودلَّ عليه بعِلّته، والتّقدير: إلّا سلطانًا - وهو سلطانُ الوسوسة - لنعلمَ مَن يؤمنُ بالآخرة، فيدلّ على أنّه سلطانٌ مجعولٌ له بجعلِ اللّهِ؛ بقرينةِ أنّ تعليله مُسندٌ إلى ضميرِ الجلالة[4].

الوسوسة اختبارٌ لإيمان الخَلْق

وربما كان الاستثناءُ منقَطِعًا؛ وعليه يكون المعنى: لا سُلطانَ له

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 131، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 184.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 495.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 184.

عليهم، ولكن ابتلَيْناهم بوَسوستِه؛ لِنَعلَمَ من يؤمنُ بالآخرة ممّنْ هو في شكّ منها[1]، وإنّما استعارَ ﴿إِلَّا﴾ موضع (لكن)؛ إشارةً إلى أنّه مكّنه تمكينًا تامًّا صارَ به كمَنْ لهُ سلطانٌ حقيقيٌّ[2].

معنى (اللّام) ودلالتُها في قوله: ﴿لِنَعۡلَمَ﴾:

تسليطُ إبليسَ على بني آدمَ بالوسوسةِ والاستغواءِ لأجلِ امتحانهم

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هي لامُ العاقبة[3]، والمعنى: إلّا ليَؤولَ الأمرُ إلى العِلْمِ الواقعِ بمَن يؤمنُ بالآخرة ممَّن هو في شكٍّ فيها، أو هي لامُ التّعليل[4]، والمعنى: وما كان تسليطنا إبليسَ عليهم بالوسوسةِ والاستغواء إلّا لأجلِ أنْ نعلمَ علمَ ظهورٍ ونميِّز[5].

المُراد بالعِلْم في حقّ الله في الفعل ﴿لِنَعۡلَمَ﴾:

إظهارُ اللهِ لِما عَلِمَ أنّه سيكون، فيُجازي على العملِ لا على عِلْمه به

علّلَ سبحانه تمكينَ إبليسَ من الوسوسةِ والإغواء لبني آدمَ بقوله: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، مع أنّه عالمٌ بجميعِ الأمور بما كان وما سيكون، وقد كان هذا معلومًا عنده سبحانه بالغيب، والجواب عن ذلك: أنّ المُرادَ بالعِلْم هنا عِلْمُ وقوعٍ وظهور؛ أيْ: ليَظهرَ ما علمناه أزلًا في شأنهم، والمعنى: لنَعْلَمَ إيمانَ المؤمنِ ظاهرًا، وكفرَ الكافرِ ظاهرًا موجودًا، أو المُراد من حصولِ العِلْم حصولُ مُتعلّقه مبالغةً؛ أي: فيظهرَ متعلّقُ عِلْمنا من صحّةِ الجزاءِ على الكفرِ والإيمان[6]، أو يكون العِلْمُ بمعنى التّمييز، والمعنى: ليتميّزَ المؤمنُ من الشّاكّ[7]، أو يكون المعنى: لنعاملهم معاملةَ مَن كأنّه لا يعلم، وإنّما يعمل ليعلم[8].

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 371.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 492.

(3) الصّاويّ، حاشية على الجلالين، ص: 1531.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 265، وصالح، الإعراب المفصّل: 9/ 333، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 153.

(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 247.

(6) ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/ 145، والواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 354، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 679، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 246.

(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 246.

(8) ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/ 145.

بلاغة التّضمين في الفعل ﴿لِنَعۡلَمَ﴾:

إظهارُ التّمييزِ بين المؤمن بالآخرة والشّاكّ فيها

كنّى البيانُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾ بـ﴿لِنَعۡلَمَ﴾ عن إظهارِ التَّمييز بيْنَ الحالَين؛ لأنَّ الظُّهورَ يُلازِمُ العِلْمَ في العُرفِ، والمعنى: ليَظهرَ ويتميّزَ مَن يؤمنُ بالآخرةِ عمّن هو منها في شكّ فيعلمَه مَن يعلمُه، ويتعلّقَ علمُنا به تعلُّقًا جزئيًّا عند حصوله يترتّبُ عليه الجزاء[1]، أو أنْ يكون هذا التّعبير من قبيل التّضمين؛ أيْ: ضُمِّنَتْ ﴿لِنَعۡلَمَ﴾ معنى (نُمَيِّز)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِمَّنۡ هُوَ﴾؛ يعني: إلّا لِنُمَيِّزَ مَن يؤمنُ بالآخرةِ ممَّن هو منها في شكٍّ[2]، "والمُراد من حصولِ العِلْم حصولُ متعلَّقِه مبالغةً"[3].

معنى ﴿مَن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

تمييزُ الذي يؤمنُ بالآخرة هو علّةُ تمكين إبليسَ في تسلّطه على بني آدمَ

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾ إمّا موصولةٌ، في محلّ نصب مفعول ﴿لِنَعۡلَمَ﴾[4]؛ والمعنى: وما كان تسلُّطُه عليهم إلّا ليتعلَّقَ علمُنا بمَنْ يُؤمنُ بالآخرةِ مُتميِّزًا ممَّن هو في شكّ منها تعلُّقًا حاليًّا يترتَّب عليه الجزاءُ، أو إلّا ليتميَّزَ المؤمنُ من الشّاكِّ، أو إلّا ليُؤمنَ من قُدِّر إيمانُه، ويشُكُّ من قُدِّر ضلالُه[5]، أو استفهاميّة سدّتْ مسدَّ مفعولي العِلْم، وتكون في محلّ رفع مبتدأ، وجملة ﴿يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ خبر[6].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

الإيمانُ بالآخِرة تصديقٌ مستمرٌّ فهو اعتقادٌ وإقرارٌ وعملٌ

عبّر النَّظمُ الحكيمُ بلفظِ الإيمان دونَ التّصديق في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ولم يقلْ: (لنَعلمَ من يصدّق

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 184.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 495، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 155.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 131.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 86.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 131.

(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 86.

بالآخرة)؛ لكون لفظِ الإيمانِ أعمَّ وأنسبَ للسّياق من لفظِ التّصديق، فالإيمانُ في اللّغة التّصديق[1]، وفي الشّرع: اعتقادٌ بالجَنانِ، وإقرارٌ باللّسانِ، وعملٌ بالأركان[2]؛ أي: العَمَلُ بالأعضاء بِمُقْتَضى ما صدّق بِهِ بإقراره، واعتقده بِقَلْبه[3]، كما أنّ الإيمانَ يقابله الكفرُ، والصّدقُ يقابلهُ الكذبُ[4]؛ فدلَّ التّعبيرَ بلفظِ الإيمان أنّ مَن يؤمنُ بالآخرة مقابلُ مَن يكفرُ بها، ولا يكون العبدُ مؤمنًا بها حتّى يعتقدَ بقلبه وجودَها، ويُقرَّ بلسانه، ويعملَ ويستعدّ لذلك اليوم من خلال اتّباع أوامر اللّه ونواهيه، واجتنابِ الشّيطان ووساوسِه.

دلالة صوغ الفعل ﴿يُؤۡمِنُ﴾ مضارعًا:

يَنۡبَغي للمؤمن أنْ يترقّى في العرفان والإيقان

أتى السّياق القرآنيّ الحكيم بصيغة المضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾ التي تدلُّ على الاستمرارِ التّجدّدي؛ للدّلالةِ على أنّ الإيمانَ بالآخرة لا يغيبُ عنه، وللإشارَةِ إلَى أنّه يَنۡبَغي للمؤمن أنْ يترقّى في العرفان والإيقان، بحَيۡثُ كلّما وضعَ عصاه بدا له سفرٌ في الإيقان إلَى أنْ يخرجَ الرّوح عن الأبدان[5].

معنى (الباء) ودلالتُها في قوله: ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

إيمانُ المؤمن بالآخرة قويٌّ ثابتٌ مرتبطٌ بها

الباء في قوله تعالى: ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حرفُ جرٍّ معناه الإلصاق، والجارُّ والمجرور مُتعلّق بالفعل ﴿يُؤۡمِنُ﴾، والمعنى: مَن يكون إيمانه مُلتصقًا بالآخرة لا ينفكّ عنها، وهذا فيه إشارةٌ إلى قوّةِ إيمانِ المؤمن وثباته، وارتباطِ أعماله بالآخرة واستعداده لها.

سِرُّ إيثار التّعبير بـ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الإيمانُ مطلوبٌ بكلّ ما في الآخرة، والشّكّ بأيّ شيء منها كفرٌ

عبّر النّظمُ بلفظ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أمن)، (صدق).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 124.
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 418.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أمن)، (صدق).
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 496.

﴿يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون غيرها كـ(السّاعة) أو (القيامة)؛ لكون لفظ (الآخرة) أعمَّ من (السّاعة) و(القيامة)، وأنسبَ للسّياق الذي يتحدّث عمَّن يؤمنُ وعمَّن يشكّ بالنَّشأةِ الثّانية والحياةِ الثّانية بعد الموت بكلّ ما فيها؛ من بعثٍ ونشورٍ وحسابٍ ...الخ[1]، ويُعبّرُ بالآخرة عن النَّشأة الثّانية، كما يُعبَّر بالدُّنيا عن النَّشأة الأولى[2]، فالآخرةُ صفةٌ غالبةٌ للدّار أو الحياة التي بعد دار الدُّنيا[3]، وليس السّياق مقتصرًا في الحديث عن وقتِ فناءِ العالم، وغايةِ المهلة التي أُمهلها النّاسُ، وموتهم عند الصّيحةِ الأولى، وهو ما يُعبَّر عنه بالسّاعة[4]، وكذلك ليس السّياقُ عنِ انتصابِ النّاس وقيامِهم من قبورهم للّه سبحانه؛ ليُقيمَ العدلَ فيهم، وهو ما يدلّ عليه لفظ القيامة[5].

معنى ﴿مِمَّنۡ﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا﴾:

فصلٌ وتمييزٌ لضِدّ الذي يؤمن بالآخرة وهو الذي يشكُّ بها

﴿مِمَّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا﴾ مركّبة من حرفين؛ أي: (مِنْ مَنْ هو منها في شكٍّ) فـ (مِنْ) الأولى حرفُ جَرّ، ومعناه: الفصلُ والتّمييز، فهي داخلةٌ على ثاني الضِّدَّين، في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾، فمَنْ يشكّ في الآخرة ضِدُّ مَن يؤمنُ بها، وأمّا (مَنْ) الثّانية فهي اسم موصول بمعنى (الذي)، والمعنى: مِنَ الذي هو منها في شكّ.

معنى (مِنْ) ودلالتُها في ﴿مِنۡهَا﴾:

شكُّ مَن يتبع إبليسَ ناشئٌ عن أمر الآخرة

﴿مِنۡهَا﴾ في قوله: ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتعلّق بـ﴿شَكّٖۗ﴾[6]؛ أيّ: بحالِ من شكّ، و(مِنْ) للابتداءِ المجازيّ؛ أيّ: في

(1) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (أَخَرَ).
(2) الرّاغب، المفردات: (آخر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أَخَرَ).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.

شكّ ناشئٍ عن أمرِ الآخرة[1]؛ أيِّ: إنّ (مِنْ) تُشيرُ إلى المصدر الذي أدّى إلى الشّك.

أو أنْ تكون (مِنْ) بمعنى (في) لكون الشّكِ يتعدّى بـ(في) والعدول إلى كلمةِ (مِنْ)؛ للمبالغة والإشعارِ بشدّته، وأنّه لا يُرجى زوالُه[2]، كما أنّ التّعبير بها أخصرُ في الكلام؛ إذِ التّعبيرُ بـ(في) يقتضي تقديرَ مضاف، وهو لفظ (وجود)؛ أيِّ: (هو في شكٍّ في وجودِ الآخرة)؛ حتّى لا يختلّ المعنى، ويظنّ أنّ الشّكّ حاصلٌ في الآخرة، والضّمير يعودُ على الآخرة، والمعنى: ممّن هو من الآخرة في شكٍّ[3].

غرض تقديم القيد ﴿مِنۡهَا﴾ على المتُعلّق ﴿فِي شَكّٖ﴾:

بيانُ خطورة الآخرة وأهمّيّتِها، وأنّها ملاكُ الإيمانِ بالله

قدّمَ البيانُ الحكيمُ القيدَ ﴿مِنۡهَا﴾ على المتعلّق ﴿فِي شَكّٖ﴾، ولم يَقُلْ: ممّن هو في شكٍّ منها؛ مبالغةً في بيانِ خطورةِ الآخرة وأهمّيّتها، وأنّها ملاكُ الإيمان باللّه تعالى، وإشارةً إلى شدّةِ شكّ مَنِ اتّبعَ إبليسَ في الآخرة[4].

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿فِي شَكّٖ﴾:

جَعْلُ الشّكّ ظَرفًا لمَن يتّبع إبليسَ إشعارٌ بكثرته وأنّه لا يُرجَى زوالُه

جيءَ في جُملة ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ﴾ بحَرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾، ولم يُقلْ: ممّن هم شاكّون أو يَشُكّون؛ للدّلالةِ على إحاطةِ الشَّكِّ بنُفوسِ مَن يتّبع إبليسَ[5]، كإحاطةِ الظّرفِ بالمظروف[6]، فهو شكٌّ كثيرٌ، ولكثرته صارَ مُحيطًا بهم، وللإشعارِ بشدّته وأنّه لا يُرجى زوالُه[7].

سِرُّ إيثار التّعبير بالـ﴿شَكّٖ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

مجرّدُ الشّكِ بوجودِ الآخرة يُحبطُ العملَ

عبّر البيانُ القرآنيّ بلفظِ الشّكِّ دونَ الكفر في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 274.
(3) ابن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 2/ 757.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 274.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.
(6) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 495.
(7) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 274.

﴿لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾، ولم يَقُلْ: (مَن يؤمنُ بالآخرة ممَّن لا يؤمنُ بها، أو ممَّن يكفرُ بها)، مع أنّ الإيمان يقابله الكفرُ وفقَ المقتضى اللّغويّ؛ أيْ: عدلَ عن التّعبيرِ بالكفرِ إلى التّعبير بالشّكّ، واكتفى به؛ وذلك للإشارة إلى أنّ أدنى شكٍّ بوجود الآخرة يحبطُ العمل، لا مجرّدَ الكفر الجازم بها فقط[1]، ولأنّ مَن شكّ بالآخرة شكّ بكلّ شيء في الدّين، وتنكيرُ الشّكّ لإفادة العموم والتّقليل؛ أيْ: ليَميزَ اللّهُ بين المؤمن بالآخرة ممَّن في قلبه أدنى شكٍّ مهما كان قليلًا.

نُكْتَةُ المغايرة بين نوع الخبر في الآية:

الإيمانُ بالآخرة طارئٌ على كفرهم وشكّهم بالآخرة متأصّلٌ فيهم

خولِفَ في النَّظم بيْنَ الصِّلتين؛ فجاءتْ جُملةُ ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فِعليَّةً، وجاءتْ جُملةُ ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾ اسميَّةً؛ مراعاةً لحالِ كفّارِ قريش؛ لأنَّ الإيمانَ بالآخرةِ طارئٌ على كُفرِهم السّابق، ومُتجدِّدٌ ومُتزايدٌ آنًا فآنًا؛ فكان مُقْتضى الحالِ إيرادَ الفعلِ في صِلَةِ أصحابِه، وأمّا شَكُّهم في الآخِرةِ فبِخلافِ ذلك؛ هو أمْرٌ مُتأصِّلٌ فيهم، فاجتُلِبَت لأصحابِه الجُملةُ الاسميَّةُ[2]، وكذلك للإشارة بالجملة الفعليّة التي تدلّ بفعلها المضارع على الدّوام التّجدّدي إلى أنَّه يَنْبَغي للمؤمن أنْ يترقّى في العِرفان والإيقان، إلى أنْ تخرجَ الرّوحُ عن الأبدان، وللإشارةِ بالجملة الاسميّة إلى أنّ المهلكَ هو الثّباتُ على الشّكّ بالآخرة إلى الموت[3].

نُكْتَةُ الاقتصار على قضية الإيمان بالآخرة:

جُحودُ كفّارِ قريش بالآخرة قَرينٌ للشِّركِ رغمَ أنّها ملاكُ الإيمان بالله

اقتصرَ البيانُ القرآنيُّ مِن عِلَلِ تَمكينِ الشَّيطانِ على تَمييزِ مَن يُؤمِنُ بالآخِرةِ ومَن لا يُؤمِنُ بها؛ لِمُراعاةِ أحوالِ الَّذين سيقَتْ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 274.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 184.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 496.

إليهم الموعظةُ بأهلِ سَبأٍ، وهم كفّارُ قُريشٍ؛ لأنَّ جُحودَهم الآخرةَ قَرينٌ للشِّركِ ومُساوٍ له؛ فإنَّهم لو آمَنوا بالآخرةِ لآمَنوا بربِّها، وهو الرَّبُّ الواحدُ الَّذي لا شَريكَ له، وإلّا فإنَّ عِلَلَ جَعلِ الشَّيطانِ للوَسوسةِ كَثيرةٌ، مَرجِعُها إلى تَمييزِ الكُفّارِ مِن المؤمنينَ، والمُتَّقينَ مِن المُعرضينَ[1]، ولبيانِ أهميّة الإيمانِ بالآخرة وبالبعثِ والحساب والجزاءِ، وأنّه هو ملاكُ الإيمانِ بالله، وبآياتِ الله، وبرسلِ الله، فليس مؤمنًا بالله، ولا بآيات الله ولا برسلِ الله؛ إلّا مَنْ كان مؤمنًا باليوم الآخر[2].

معنى (الواو) ودلالتُها في جملة ﴿وَرَبُّكَ﴾:

استئنافٌ يُعلّلُ نفيَ قهرِ إبليسَ للإنسان

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ استئنافيّة[3]، والجملةُ مُستأنفةٌ مسوقةٌ لتعليلِ ما قبلها[4]؛ أيْ: لا سلطانَ ولا قهرَ للشّيطانِ على الإنسانِ؛ لأنّ اللهَ يحفظُ القلوبَ، فلا يستطيعُ الشّيطانُ أنْ يجبرها أو أنْ يقهرها، فالحفيظُ هو: "الذي لا يخرجُ عن مقدرته ما هو في حفظه"[5]، ولذا قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: 82 - 83]، وكونه كذلك يعلمُ عِلمَ ظهورِ مَن يؤمنُ بالآخرة ومَنْ يشكُّ بها؛ لأنّ من أسمائه الحفيظ؛ وهو الذي يقتضي العِلْمَ والقُدرة، إذ بمجموعهما تقومُ ماهيةُ الحفظ.

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بعنوان الرّبوبيّة في ﴿وَرَبُّكَ﴾:

رحمةُ اللهِ بعبادِه ولطفُه بهم تطمينٌ لقلوبهم وتثبيتٌ لهم أمامَ مُغرياتِ إبليسَ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ ذِكْرَ لفظِ الرّبوبيّةِ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ ولم يَقُلْ: (والله على كل شيء)؛ لكونه أنسبَ للسّياق الذي تضمّن الإشارةَ إلى قوّةِ إغواءِ إبليسَ وتأثيره

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 184.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 803.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 217.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 265.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.

على النّاس، وشدّةِ ما يلاقونه منه؛ لأنّ في الرّبوبيّة معنى الرَّحمة والتَّربية والإشعارِ باللّطفِ والإحسانِ والعطاء، وكذلك للتّعبيرِ عن مدى رحمةِ اللّهِ بعباده ولطفِهِ وعنايتِه وإحسانه بهم؛ إذ لم يُسَلِّطْ عليهم إبليسَ تسليطَ قهرٍ، وإذ حفظَ قلوبَ عبادِه المؤمنين المخلصين من إغوائه، فهو المُدبّرُ لأمورهم المُحسِنُ إليهم بإخزاءِ الشّيطان عن قهرهم وإخسائه عنهم، وفي هذا تطمينٌ لقلوبهم وإزالةٌ للمخاوفِ التي قد تكونُ لحِقتهم ممّا قد يُضمرهُ لهم إبليسُ اللّعينُ، وكذلك سببٌ لثباتهم أمامَ مغرياته.

مرجع ضمير الخطاب في ﴿وَرَبُّكَ﴾:

من إكرامِ اللهِ وتشريفِه لنبيّه ﷺ إخزاءُ الشّيطانِ وإخساؤه

مرجعُ ضمير الخطاب في ﴿وَرَبُّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ هو النّبيّ ﷺ، والإضافةُ إضافةُ إحسانٍ وتشريفٍ له وتكريم، وفيها إشارةٌ إلى تسليته بحفظِ أُمّته، بإخزاءِ الشّيطان وردِّ كيدِه عن المؤمنين المخلصين؛ أيّ: فهو "المحسِنُ إليك بإخزاءِ الشّيطان بنبوّتك، وإخسائِه عن أمّتك"[1].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتُها في: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾:

حفظُ اللهِ متمكّنٌ ومحيطٌ بكلّ شيء

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ حرفُ جرّ يدلُّ على الاستعلاء، وقد أفادَ عظمةَ عِلْم اللّه وقدرته، وأنّ حفظه متمكّنٌ ومحيطٌ بكلّ شيء من الماديّاتِ والمعنويّات، والمشاهداتِ والغيبيّات، إذ شملها الاستعلاءُ باقترانِ ﴿عَلَىٰ﴾ بلفظ ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾.

دلالة التّعبير بلفظ العموم ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾:

لا يَخرُجُ عن عِلمِه وقدرته سبحانَه شَيءٌ مِنَ الكائناتِ

التّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾ وإضافته إلى ﴿شَيۡءٍ﴾ وهي نكرةٌ يفيدُ العمومَ، وكذلك في قوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ يفيد مع العموم الاستقصاءَ الشّاملَ لكلِّ ما يصلُحُ أنْ يُطلقَ عليه لفظُ شيء، ويتصوّره الذّهن؛ أيّ: أفادَ الإحاطةَ التّامّةَ لحفظِهِ سبحانه لكلّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 492.

شيء، فلا "يَخرُجُ عن عِلمِه وقدرته شَيءٌ مِن الكائناتِ"[1]، وهو حفيظٌ على كلّ شيء؛ يحفظُ أعمالَ العبادِ ليجازيَهم عليها من خيرٍ أو شَرٍّ، ويحفظُ عبادَه وأولياءَه من مكايدِ الشّيطان، والوقوعِ في الذّنوبِ والمعاصي، واتّباعِ الشّيطان والمهالك، ويحفظ خلقَه وكونَه حتّى تنقضيَ آجالُهم.

حفظُ الله بالغٌ شاملٌ لكلّ موجود

إيثار التّعبير بالشّيئيّة، والغرض من تنكيرها في ﴿شَيۡءٍ﴾:

لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ في أصلِ مادّته: عبارةٌ عن كلّ موجود، إمّا حسًّا كالأجسام، أو معنًى كالأقوال[2]، فهو لفظٌ يقعُ على كلّ ما أُخبر عنه، وهو أعمُّ العامّ[3]، وقد أفادَ استعمالُه في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ الشّمولَ التّامّ، والاستقصاءَ الشّاملَ، وخاصّةً أنّه أُضيف إلى لفظ ﴿كُلِّ﴾ الدّالّة على العموم؛ أيّ: إنّ حفظه تعالى شاملٌ لكلّ شيء، فلا يعزُبُ عنه مثقالَ ذرّة، وتنكيرُ لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ لإفادةِ المبالغةِ في شموليّة وعموم حفظِه تعالى لكلّ شيء، ولمراعاةِ عادةِ القرآن؛ إذ لم يَرِدْ لفظُ ﴿شَيۡءٍ﴾ في القرآن إلّا نكرةً.

غرض تقديم القيد ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾:

إبرازُ وتعزيزُ معاني شموليّةِ الحفظِ الإلهيّ لكلّ شيء

قدّم البيانُ القرآني الجارَّ والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ على الخبر ﴿حَفِيظٌ﴾؛ اهتمامًا بالمقدَّم؛ وهو شموليّةُ حفظِ اللّه لكلّ شيء؛ وكأنّه قال: (وربّكَ على كلّ شيءٍ على وجهِ الخصوصِ حفيظٌ)، وذلك تثبيتًا لهذا المعنى في ذهنِ المخاطَبين؛ لإبرازِ شموليّةِ الحفظِ الإلهيّ لكلّ شيء سبحانه، حيثُ يُؤكّدُ التقديمُ أنَّ اللّهَ ﷻ يحفظُ كلَّ شيء بلا استثناء، ممّا يعكِسُ عظمتَهُ وسعةَ قدرتِه، وتشويقًا للمُؤخّر وهو اتّصافه سبحانه بالحفظ، وكذلك قُدِّمَ ملائمةً لفاصلةِ الآيةِ التي بعدَها ﴿ظَهِيرٍ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.
(2) الرّاغب، المفردات: (شيأ).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شيأ).

بلاغة الكناية في ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾:

مَن جهلَ الشّيءَ وعجزَ عنه لا يُمكنهُ حفظُهُ

كنّى البيانُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ بصفة (الحفظ) عن القدرةِ والعِلْم؛ إذِ المعنى: وربّك على كلّ شيء قادرٌ وبه عالم؛ لأنّ مَن جهلَ الشّيءَ وعجزَ عنه لا يُمكنهُ حفظُه[1]، فالحفيظُ هو الذي لا يخرجُ عن مَقدرته ما هو في حفظه، وهو يقتضي العِلْمَ والقُدرةَ؛ إذ بمجموعهما تقومُ ماهيّة الحفظُ، ولذلك يُتبَعُ الحفظُ بالعِلْم كثيرًا؛ كقوله تعالى: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55][2].

دلالة التّعبير بصيغة (فعيل) في ﴿حَفِيظٌ﴾:

حفظُ اللهِ عظيمٌ فخيمٌ، فلا يخرجُ عن مَقدرته ما هو في حفظُه

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿حَفِيظٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ بصيغةٍ على وزنِ (فعيل)، وهي من أبنيةِ المبالغة التي عدلَ بها عن (حافظ)؛ لكونها تدُلُّ على قوّةِ الفعلِ، فلا يخرجُ عن مقدرته سبحانه ما هو في حفظه[3]، أو أنْ يكون ﴿حَفِيظٌ﴾ بمعنى محافظ عليه[4]، فإنَّ (فَعيلًا) و(مُفاعِلًا) صيغتانِ متآخيتانِ[5]، وتنكير ﴿حَفِيظٌ﴾ للتّفخيمِ والتّعظيم، فحفظُهُ سبحانه لا يُقادَرُ قَدْرُه.

علاقة جملة التّذييل بمضمون الآية الكريمة:

حفظُه سبحانُه لكلّ شيء تطمينٌ للمؤمن وتحذيرٌ للكافر

جملةُ ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ تَذْييلٌ، وهذا التَّذْييلُ تَنَزَّلَ منزلةَ الاحتراسِ عنْ غيرِ المعنى الكِنائيِّ من قولِه تعالى: ﴿لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ﴾؛ أيْ: ليَظْهَرَ ذلك لكلِّ أحد، فتقومَ الحُجّةُ لهُم وعليهم[6]، فالحفيظُ سبحانَه لا يفوتُه العِلْم بمَن يؤمنُ بالآخرة، ممَّن هو في شكٍّ منها، فهو يُحصي أعمالَ عباده من خيرٍ وشرّ، ويَحْفَظُ كلّ شيء ليجازيَهم عليه، وفي هذا التّذييل تطمينٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 263.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 263.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 131.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.

للمؤمنِ بالآخرةِ الذي عصمَه اللّهُ وحفظَ قلبَهُ منِ استيلاءِ الشّيطانِ عليه، وتحذيرٌ ووعيدٌ للشّاكِّ بالآخرة المُتَّبِعِ للشّيطان ووساوسِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّكّ والرَّيب:

الشّكُّ اعتدالُ النّقيضيْن، وضربٌ من الجهل يتناسبُ مع الشَّكِّ باليوم الآخر

الشّكُّ أصلٌ للرّيبِ وسببٌ فيه، فإنّ الإنسانَ يشكُّ أولًا، ثمّ يوقعهُ الشّكُّ في الرّيب[1]، والرّيبُ أخصُّ من الشّكّ[2]؛ الذي هو تردّدُ الذّهن بين أمرَين على حدٍّ سواء؛ أي: اعتدالُ النّقيضَين عند الإنسان وتَساويهُما، وذلك قد يكون لوجودِ أمارَتَيْن مُتساويَتَيْن عند النَّقيضَيْن، أو لعدَمِ الأمارةِ فيهما، فهو ضرْبٌ من الجَهل، وأمّا الرّيبُ فهو شكٌّ مع تُهمة[3]، أو شَّكٌّ وخوفٌ، يُقال: رابَهُ الأَمْرُ: إذا أَدْخَلَ عَلَيْهِ شَكًّا وخَوْفًا[4]، واستعمالُ لفظِ الشَّكّ في الآية أبلغُ في ذَمّ الذين يشكّون باليوم الآخر؛ كونه أنسبَ مع عدمِ الدّليل لديهم ومع جهلهم.

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/ 106.
(2) الرّاغب، المفردات: (مري).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 264، والرّاغب، المُفردات: (شكك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ريب).

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

عودٌ إلى خطابِ المشركين بعد تذكيرهم بحالِ الشّاكرين والكافرين ممّن مضى

لَمّا أثبَتَ سُبحانَه لنَفْسِه ولِذاتِه الأقدسِ مِن المُلْكِ في السَّمَواتِ والأرضِ وغَيرِهما ممّا مَرَّ ذِكْرُه، واستدَلَّ عليه مِن الأدِلَّةِ الَّتي لا يُمكِنُ التَّصويبُ إليها بطَعنٍ، وكان المقصودُ الأعظَمُ التَّوحيدَ؛ فإنَّه أصلٌ يَنبني عليه كُلُّ خَيرٍ؛ قال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿زَعَمۡتُم﴾: (زعم) أصلُ الزَّعمِ: القَوْلُ مِنْ غيرِ صِحَّةٍ ولا يَقين، وأَكثرُ ما يُقالُ فيما يُشَكُّ فيهِ ولا يتَحقَّقُ، ويُطلَقُ كذلك على الكَلامِ الَّذي لا سَنَدَ له[2]، والزَّعْمُ، والزُّعْمُ، والزِّعْمُ، ثلاثُ لُغاتٍ: القَوْلُ، وقيلَ: الزَّعْمُ الظَّنُّ[3]، قالَ شُرَيْح: "لكلِّ شَيْءٍ كُنية، وكُنيةُ الكَذِبِ: زَعَمَ، والزَّعْمُ: ادِّعاءُ العِلْمِ بالشَّيْءِ؛ ولِهذا يتَعَدَّى إلى مفعولَيْنِ"[4]، والمُرادُ بالزَّعمِ في الآيةِ: الكذبُ؛ أيْ: زعمتموهم آلهةً[5].

2) ﴿مِثۡقَالَ﴾: أصلُ (ثقل) ضِدُّ الخِفَّةِ[6]، والتَّثْقيلُ: ضِدُّ التَّخْفيفِ، والثِّقْلُ: واحِدُ الأَثْقالِ[7]، والأثقالُ: الأحمالُ الثّقيلة، ومِثْقالُ الشَّيْءِ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 492.
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (زعم).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 488.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 77.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثقل).
(7) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ثقل).

ميزانُهُ مِنْ مِثْلِه، وقوله تعالى: ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ أي: زِنةِ ذرّة[1]، والمِثْقالُ: ما يوزنُ به، وأصلُه في الأجسام، ثمّ يُقالُ في المعاني[2]، وكُلُّ شَيْءٍ لَهُ قَدْرٌ ووَزْنٌ يُنافَسُ فيه فَهوَ ثِقْل، والمِثقالُ: وزنٌ مَعْلومُ القَدْر[3]، ومعنى المثقال في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ؛ أيْ: وزنُ ذرّة.

3) ﴿ظَهِيرٖ﴾: (ظهر) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، يُقال: ظَهَرَ الشَّيْءُ يَظْهَرُ ظُهورًا فَهوَ ظاهِرٌ؛ إذا انْكَشَفَ وبَرزَ، والأَصلُ فيهِ كُلِّه: ظَهرُ الإنْسانِ، والظَّهيرُ: المُعينُ، كَأَنَّهُ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إلى ظَهْرِك، والظُّهورُ: الغَلَبَةُ[4]، وتَظاهرَ القومُ: تَعاوَنوا، وظاهَرَه: عاوَنَهُ، والظَّهيرُ: العَوْنُ، يُقال للواحد وللجَميع، فيُقال: هو ظَهيرٌ، وهم ظَهيرٌ[5]، ومعنى الظّهير في الآية: المُعينُ القويّ[6]، وهو موافقٌ للمعنى اللّغويّ؛ أيْ: وما له منهم من مُعينٍ على شيءٍ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

توبيخٌ وتقريعٌ للمشركين لزعمهم آلهةً عاجزةً لا تملكُ شيئًا ولا تُقدّمُ عونًا

يقولُ تعالى ذِكْره: قلْ أيّها الرّسول الكريم لهؤلاء المشركين على سبيلِ التّقريع والتّوبيخ: هؤلاء آلهتُكم الذين زعمتُموهم آلهةً من دونِ اللّه، اطلبوا منهم أنْ ينفعوكم، أو أنْ يرفعوا عنكم ضُرًّا نزلَ بكم، إنّهم بالقطعِ لنْ يستطيعوا شيئًا من ذلك؛ فهؤلاء الشّركاء لا يملكون شيئًا استقلالًا ولا على سبيلِ الشّركة، لا في السّماوات ولا في الأرض؛ بل الذي يملكُ كلّ شيء هو اللّهُ تعالى وحدَه، وما للّهِ من الآلهةِ التي يدعونَ من دونه معينٌ على خَلْقِ شيءٍ من ذلك، ولا على حفظه، وما فوّضَ إلى شيءٍ شيئًا[8].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (ثقل).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 175.
(3) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (المثقال)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 323.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، والرّاغب، المفردات: (ظهر).
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 20/ 12313.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 394، والواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 355.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 394، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 203، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علاقةُ الجملة بما قبلَها ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾:

جاءتْ جملةُ ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ استئنافَ خطابٍ للنّبيّ ﷺ ؛ ليَطلبَ من المشركين على سبيلِ التّقريع والتّوبيخ أنْ يدعوا آلهتَهم المزعومة؛ للكشفِ عن حالِ هذه الآلهة، وعن حقيقتها من العجزِ وعدم القدرة على شيء[1].

خطابٌ للنّبيّ أنْ يطلبَ من المشركين - تهكُّمًا وتوبيخًا - دعاءَ آلهتِهم العاجزة

دلالةُ القول في الفعل ﴿قُلِ﴾:

افتُتحتِ الآيةُ بكلمة ﴿قُلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾، وهو أمرٌ للنّبيّ ﷺ بأنْ يقولَ للمشركين أنْ يدعوا آلهتَهم المزعومة، ولم يخاطبهم مباشرةً، فلم يَقُلْ: (ادعوا الذين زعمتم)، وذلك تجديدًا لمعنى التّبليغ الذي هو مهمّةُ النَّبيّ ﷺ في كلّ القرآن[2]، وبيانًا لعُلوّ مقامِ الرّسالةِ، ومقامِ الرّسول من ربّه.

خطابٌ يُظهرُ مقامَ الرّسول وأهميّةَ مهمّتِه في التّبليغ

غرضُ الأمر في ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾:

الأمرُ للمشركين بأنْ يَدْعوا آلهتَهم المزعومةَ في قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليس من بابِ التّكليف، وإنّما غرضُه التّوبيخُ والتّهكُّمُ والتّحدّي، وإقامةُ الحُجّة والتّخطئةُ، وإظهارُ بُطلانِ ما هم عليه من عبادةِ آلهةٍ عاجزةٍ لا تملكُ شيئًا، وتبكيتًا لهم، وكذلك غرضُه التّعجيز؛ أيْ: بيانُ عجزِ المأمور، وهي الآلهةُ المزعومة، والمعنى: ادْعوهم فيما يَهمُّكم كما ادّعيتُم أنّهم شفعاؤنا في أمورِ الدُّنيا، واستمرّوا على دعائكم فلنْ يُجيبوكم، فهم لا يملكونَ مثقالَ ذرّةٍ في السّماواتِ والأرض[3].

أمرٌ إلهيٌّ للمشركين يتضمّنُ توبيخًا وتبكيتًا لهم، وإظهارًا لعجزِ آلهتِهم المزعومة

الدّعاءُ يشملُ دعاءَ الإحضار، ودعاءَ المسألة والاستغاثةِ وطلبِ

الآلهةُ عاجزةٌ عن تدبيرِ أمرِ أنفسِها، فبأيّ عقلٍ يدعونها؟.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 203، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 497، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 264.

الحوائج؛ أيْ: أَحضِروهم؛ لنُناقِشَهم، أوِ ادْعوهم دُعاءَ مَسأَلة[1]، أو اسألوهم فيما يهمُّكمْ لتعلموا هل يملكونَ جَلْبَ النّفعِ لكم، أو دفعَ الضّرّ عنكم، ولهذا أجابَ اللّهُ عنهم - قبل أنْ يجيبوا، بل قبلَ أنْ يسألوا به - بأنّهم ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾[2]، وقد آثَرَ القرآنُ التّعبيرَ بلفظ الدّعاء دونَ غيره؛ لاتّساعِ دلالةِ لفظ الدّعاء؛ ومناسبتِه للسّياقِ الذي هو سياقُ توبيخٍ وتقريعٍ للمشركين على اتّخاذهم آلهةً من دون اللّه، وعبادتِها والحرصِ على استمالةِ رضاها[3]، والتّضرّعِ إليها، وجَذْبِ رحمتِها، والابتهالِ إليها بالسّؤال[4].

مرجع ضمير المُخاطَبين في جملة ﴿ٱدۡعُواْ﴾:

في أمرِ المشركين بدعاء آلهتهم المزعومةِ مبالغةٌ في تخطئتهم وعجزِ آلهتهم

مرجعُ ضميرِ المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هم المشركون من قوم النّبيّ ﷺ، الذين ضُرِبَ لهم المَثَلُ بقصّة سبأ المعروفةِ عندهم بالنّقلِ في أخبارهم وأشعارهم، فتكون ﴿قُلِ﴾ موجّهةً إليه ﷺ بأنْ يقولَ للمشركين - من كفّارِ قريش أو للكفّار على الإطلاق -: اطلبوا من الذين زعمتُموهم آلهةً من دون اللّه أنْ ينفعوكم، أو أنْ يرفعوا عنكم ضُرًّا نزلَ بكم[5].

ألَكُم مسحةٌ من عقل؟ ادعوهم، فهل يجيبونكم؟.

ويحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ عامًّا لكُلّ مَن دعا مع اللّهِ تعالى غيرَهُ من كُفّار مَكَّةَ وغيرِهم، وتكون ﴿قُلِ﴾ موَجهةً لكلّ مَن يَتوَجّه الخِطاب إليه؛ من الرّسول ﷺ أو غيرِه ممَّن ورِثَه في أُمّته؛ أيْ: قُلْ أيّها المؤمنُ للذين يَدعون مع اللّه تعالى غيرَه: ادْعوا الذين زعمتُموهمُ آلهةً[6]، وفي إسنادِ طلبِ الدّعاء من مجموعهم مزيدُ تبكيتٍ وتَهَكُّمٍ بهم،

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 159.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 498.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (دعو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دعو).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 394، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 264، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 372.
(6) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 158.

وتخطئَةٍ لهم، ومبالغةٌ في عجزِ آلهتِهم، فلو أنّهم دَعَوا بمجموعهم الأصنامَ التي يعبدونها، فلن يستجيبوا لهم ولنْ ينفعوهم، أو يرفعوا عنهم ضُرًّا نزلَ بهم.

غرض التّعبير بالموصول في المفعول ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾:

سببُ توبيخِ المشركين وتخطئتِهم زعمُهمُ الباطلُ بوجودِ آلهةٍ من دونِ الله

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لبيانِ أنّ مَن اتّخذوهم آلهةً من دونِ اللّه، وجعلوهم مُستحقّينَ للعبادةِ والدّعاء كان بناءً على زعمٍ منهم، وللإيماء إلى أنّ سببَ توبيخهم والتّهكّم بهم وتخطئتِهم هو ذلك الزّعم، كما أنّ في التّعبيرِ بالاسم الموصول إفادةَ العموم؛ ليَشملَ دعاؤهم كلَّ من زعموهم شركاءَ من دونِ اللّه من الأصنام والملائكة وغيرهم، وفي طلبِ دعاءِ جميعِ مَن زعموهم آلهةً زيادةُ تعجيزٍ لهم.

سرُّ إيثار التّعبير بالفعل ﴿زَعَمۡتُم﴾:

بيانُ شناعةِ قولِ المشركين الباطلِ بأنّ للهِ شركاءَ

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ الزّعم في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾؛ للتّناسبِ بين معاني الزّعم في اللّغة وبين السّياقِ والمقام؛ إذ أصلُ الزّعمِ هو القولُ من غيرِ صحّةٍ ولا يقينٍ، فهو حكايةُ قولٍ يكونُ مظنّةَ الكذبِ، والزّعمُ أيضًا التّكفّلُ بالشّيء[1]، وأكثرُ ما يُستعملُ الزّعمُ فيما يُشَكُّ فيه، أو يكونُ باطلًا، وقد استعمله القرآنُ في مواضعِ ذمِّ القائلين[2]، وهذه المعاني كلُّها تتناسبُ مع حالِ المشركين الذين زعموا بأنّ للّهِ شركاء، ويتناسبُ مع سياق التّوبيخ والتّقريع والذّمّ لهم، وقد جاء لفظُ الزّعمِ بصيغة الفعل الماضي ﴿زَعَمۡتُم﴾؛ ليدلَّ على تحقّقِ وقوعِ هذا الزّعم منهم؛ فيكون في ذلك مزيدُ توبيخٍ وتقريعٍ لهم على شناعةِ زعمهم وتحقّقه منهم.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 488.

غرضُ إسنادِ الفعل ﴿زَعَمْتُم﴾:

الذّمُّ يشملُ جميعَ المشركين، وتحمّلُ تَبِعَةِ قولهم تطالُهم لاتّفاقهم عليه

أسندَ البيانُ القرآنيّ فعلَ ﴿زَعَمْتُم﴾ إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإشارةِ إلى إجماعِ المشركين على هذا الزّعم واتّفاقِهم عليه، وأنّه صدرَ من الجميع، دون أنْ يبحثوا عن دليلٍ أو يقينٍ لزعمهم هذا، ومن ثمّ فالذَّمُّ يشملهم جميعًا، وتحمّل مسؤوليّة وتبعةِ قولهم تطالُهم جميعًا.

غرض حذف مفعولي ﴿زَعَمْتُم﴾:

استهجانٌ واستبشاعٌ لِما يزعمهُ المشركون، فهو كذبٌ وافتراءٌ وأوهامٌ

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حُذِف مَفْعولا ﴿زَعَمْتُم﴾ بسببيْن مختلفيْن، وقد دلّ عليهما السّياقُ؛ فالمفعولُ الأوّل: هو الضّميرُ المحذوفُ الرّاجعُ إلى الموصول، وتقديره: (زعمتموهم)، حُذفَ قصدًا لتخفيفِ الصّلةِ بمتعلّقاتها؛ لطولِ الموصولِ لصلته، والمفعولُ الثّاني: وتقديره: (آلهة) أو (أولياء)، أو (أربابًا)؛ حُذفَ لدلالةِ صفته عليه، فهو موصوفٌ، صفتُه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، والموصوفُ يجوزُ حذفُه وإقامة الصّفة مقامَه إذا كان مفهومًا[1]، وقد حُذفَ المفعولُ الأوّل تخفيفًا، وحُذفَ الثّاني لقيام الصّفةِ مقامَ الموصوف، والمعنى: ادْعوا الذين عبدتُموهم من دونِ اللّه، فيما يهمُّكم من جَلْبِ نفعٍ ودَفْعِ ضرّ؛ لعلّهم يستجيبون لكم إنْ صحّ دعواكم[2]، وبلاغةُ حذفِ مفعولي (زعم) - وهما ضميرهم وتألّههم - ؛ تنبيهٌ على استهجانِ ذلك واستبشاعه[3]، وتحقيرٌ لهم فيما يزعمونه، فهو كذبٌ وافتراءٌ وأوهامٌ، يتخيّلها الكَفَرةُ والمشركون لاعتقادهمُ الضّالّ.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيّة؛ أيْ: مبتَدَأون من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 580، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 497، والصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 1531.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 249.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175.

جانبٍ غيرِ جانب اللّه، إنْ كانت كلمة ﴿دُونِ﴾ اسمًا للمكانِ المُباعِدِ، فهي إذًا مُستعارةٌ لمعنى المخالفة، والمعنى: زعمتموهم آلهةً مبتدئين إيّاهم من ناحية غير اللّه؛ لأنّهم حين يعبدونهم قد شُغلوا بعبادتهم ففرّطوا في عبادةِ اللّه المستحِقّ للعبادة، وتجاوزوا حقّ إلَهيتَه في أحوالٍ كثيرة وأوقاتٍ وفيرة[1]، ويحتمل أنْ تكون للتّوكيد، إنْ كانت ﴿دُونِ﴾ بمعنى غير، والمعنى: زعمتموهم آلهةً غير اللّه.

لا أشنعَ ممّن زعمَ آلهةً وشُغل بعبادتها، وفرّطَ في عبادةِ المستحقّ للعبادة

سرّ إيثارِ التّعبير بـ ﴿دُونِ﴾:

عبّر النَّظمُ الحكيم بكلمةِ ﴿دُونِ﴾ في الآية، وأضافَها إلى اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يَقُلْ: (ادعوا الذين زعمتم غير اللّه)؛ لكون ﴿دُونِ﴾ أوسعَ دلالةً من (غير) وأنسبَ للسّياق؛ فكلمةُ (دون) تأتي بمعنى (غير) وتأتي بمعنى المكان المباعد، وقد أفادتْ هنا معنى (غير)، كما أفادتْ معنى الظّرف والدّونيّة، وكذلك الاستعارةُ لمعنى المخالفة والإعراض، لأنّ ﴿دُونِ﴾ تُؤذِنُ بالحيلولة؛ "لأنّهم حين يعبدونهم قد شُغلوا بعبادتهم ففرّطوا في عبادةِ اللّه المُستحِقِّ للعبادة، وتجاوزوا حقّ إلَهيّته في أحوالٍ كثيرة وأوقاتٍ وفيرة"[2]، فكان في التّعبيرِ بكلمة ﴿دُونِ﴾ مناسبةً للسّياق؛ لبيانِ حقارةِ الآلهةِ التي زعموها وعبدوها من دون اللّه[3]، ولإظهارِ خطأهم؛ حيثُ انصرفوا عن عبادةِ المستحقّ للعبادة إلى عاجزٍ لا يملكُ شيئًا، وكلُّ معبودٍ سوى اللّه سافلٌ حقير.

كلُّ معبودٍ سواهُ سبحانه سافلٌ حقيرٌ لا يستحقُّ العبادة

سرّ إيثارِ التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الجليل في قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فلم يقلْ مثلًا: (من دون ربّكم) أو (من

الإعراضُ عن عبادةِ مَن له صفاتُ الجلالِ والكمالِ غايةُ الحمقِ والخطأ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175.

الرحمن)؛ تربيةً للمهابةِ وإدخالًا للرّوعةِ في النّفوس، ولكونِ الاسم الأعظم الجامعِ لكلّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ أنسبَ مع السّياقِ الذي هو سياقُ تقريعٍ وتوبيخٍ وتخطئةٍ للمشركين، ولبيانِ حقارتهم وفظاعة فعلهم، حين اتّخذوا آلهةً حقيرةً عاجزةً، لا تملكُ شيئًا ولا نفعًا ولا ضرًّا، وأعرضوا عن عبادةِ المتفضّلِ المستحِقّ للعبادةِ سبحانه، ذو الجلالِ والإكرام الذي حازَ جميعَ العظَمة.

علّةُ فصلِ جملة ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾:

في بيانِ حالِ الآلهةِ التي يَدّعونها المشركون بيانٌ لتخطئتهم في زعمهم

فَصَلَ البيانُ الإلهيّ جملة: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ عمّا قبلها: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولم يربطْ بينهما؛ لِما بينَ الجُملتَين من شِبهِ كمالِ اتّصال؛ إذ جاءتْ استئنافًا بيانيًّا، لبيانِ أحوال من زعمومهم، كأنّه قيل: ما بالُ هَؤُلَاء الآلهة؟ فأُجيبَ بذلك[1]، فهو "كلامٌ مستأنفٌ في موقعِ الجواب، ولم يمهلهم ليُجيبوا؛ إشعارًا بتعينه فإنّه لا يقبلُ المكابرة"[2]، فالجملةُ مبيّنةٌ لِما في قوله: ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ من التّخطئة، فأبانَ خطأهم وعظيمَ جُرْمِهم حين عبدوا آلهةً عاجزة[3]، فإذا كانوا من العجزِ والعَوَزِ لا يملكون وزنَ ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض، فكيف يكونون آلهة تُعبَدُ؟! فلم يمهلهم سبحانه ليجيبوا، بل قال: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾[4]، أو أن جملة ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ حالٌ من الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾[5]، أو صفةٌ للآلهةِ المزعومة؛ بيّنتْ حالَ وصفةَ هَؤلاءِ الآلهة في الواقعِ بأنّهم لا يملكون مثقالَ ذرّة[6].

معنى ﴿لَا﴾ ودلالتُها في ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾:

عدمُ مُلْكِ آلهتِهم المزعومة لأحقرِ الأشياءِ مستمرٌّ في الحالِ والمستقبل

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ نافيةٌ، وقد

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 498.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 309.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 249.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 61، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 265.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 159.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 417.

استعملها البيانُ القرآنيُّ دون (ما)؛ لأنّ ﴿لَا﴾ تخلّصُ المضارعَ للمستقبل بخلافِ (ما)، فإنّها تخلّصُ المضارعَ للحال؛ أيْ: أرادَ الحقُّ سبحانه أنْ يبيّنَ استمرارَ عجْزِ هذه الآلهةِ التي زعمها المشركون في الحالِ وفي المستقبل، وهذا أبلغُ في بيانِ عجزها، وفي إظهارِ تخطئتهم في عبادتها.

سِرّ التّعبير بالمضارع المنفي ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾:

آلهةٌ في منتهى العجزِ والضّعف لا تستحقُّ العبادة

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ (الملك) في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ لاتّساع دلالته؛ ومناسبته للسّياق، إذ أصلُ (ملك) في اللّغة يدلُّ على قوّةٍ في الشّيء وصِحَّةٍ[1]، ومن معاني المُلْك: العَظَمة والسّلطان، فالذي يملكُ له القُدرةُ على احْتِواءِ الشَّيْءِ الذي يملكه وضَبطِه، وله القُدْرَةُ عَلَى الاِسْتِبْدادِ بِهِ، والتّصرّف فيه[2]، فكان نفيُ مُلكِ الآلهة المزعومة لأحقرِ شيء في السّماوات والأرض نفيٌ لقُدرتها وتصرّفها واستبدادِها فيه، فهي لا تملكُ خَلقًا ولا تصرُّفًا، وفي ذلك دلالةٌ على أنّها في منتهى العجزِ والضّعف والحقارة، فكيف بمَن هذه صفته أنْ يكونَ مستحقًا للعبادة، وأنْ يجيبَ مَن يدعوه؟!

من الحُمق أن تدعو إلهًا لا يملك نفعًا ولا ضرًا

وعبّر البيانُ القرآنيّ بالفعل المضارع المنفي في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ وتجدّدِ هذا النّفي مهما امتدّ الزّمان - أيْ: عجزِ آلهتِهم المزعومة وعدمِ ملكِها لأيِّ شيءٍ في السّماواتِ والأرضِ - أمرٌ مُستمرٌّ مُتجدّدٌ، وفي هذا التّعبير دلالةٌ على تخطئتهم في اتّخاذها آلهةً وعدمِ استحقاقها للعبادة، ومن ثمّ عدمِ استجابتها ونصرتها لهم.

سِرّ التّعبير بـ﴿مِثْقَالَ﴾ دون (مِقدار):

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿مِثْقَالَ﴾ في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).
(2) ابن سِيدَه، المُحكَم، والزّبيديّ، تاج العروس: (ملك).

التّعبيرُ بالمثقال أدقُّ في أنّ المراد هو الدّلالةُ على وزنِ الذّرّة الواحدة

﴿ذَرَّةٍ﴾ دون غيره من الألفاظ كالمقدار؛ لكون لفظِ المثقال أنسبَ للسّياق، ومجيئه مع لفظ ﴿ذَرَّةٍ﴾، إذِ المثقالُ خاصٌّ بالوزن، فأصلُ (ثقل) ضِدُّ الخِفَّةِ[1]، ومِثقالُ الشَّيْءِ: ميزانُهُ مِنْ مِثْلِه[2]، والمِثقالُ: وزنٌ مَعْلومُ القَدْر[3]، فالمِثقالُ أخصُّ من المِقدار الذي هو المقياس، ويكون في العددِ أو الكيلِ أو الوزن أو المساحة والقضاء والحُكم[4]، فجاء التّعبيرُ بالمِثقال ليُحَدّدَ بشكلٍ أدقّ أنّ المُرادَ هو الدّلالةُ على وزنِ الذَّرّة، وهي ذرّةٌ واحدة، وليس للدّلالةِ على عددها أو كيلها أو مساحتها.

سِرُّ إضافة ﴿مِثۡقَالَ﴾ إلى ﴿ذَرَّةٍ﴾:

عدمُ مُلكيّةِ الآلهةِ لمثقال ذرّة، مبالغةٌ في عدم مُلكيّتِها لأيّ شيء

إضافةُ ﴿مِثۡقَالَ﴾ إلى ﴿ذَرَّةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ بيانيّةٌ؛ فكلمةُ ﴿مِثۡقَالَ﴾ نكرةٌ مُبهمةٌ لم يُحدّدْ فيها مثقال ماذا؟! فإضافةُ ذرّة إلى مثقال بيّنَ أنّ الآلهةَ المزعومة لا تملكُ ما يَعْدِلُ الذّرّة فيَثْقُل به الميزانُ، وقد جاء لفظُ ﴿ذَرَّةٍ﴾ نكرةً؛ ليُفيدَ التّقليلَ والتّحقيرَ، فالتّعبيرُ بعدم مُلْكيّتِهم لمثقالِ ذَرّة المقصودُ به أنّهم لا يملكون شيئًا على الإطلاق؛ لأنّ مثقالَ الذّرّة أقلُّ ما يُتَصَوّر في الحَقارةِ والقِلّة، وإذا انتفى مِلكُ الأحقر فانتفاءُ مِلْكِ الأعظم أولى؛ أيْ: لا يملكون شيئًا من السّماوات ولا في الأرض[5]؛ فإضافةُ ذرّة إلى مثقال المقصودُ هو المبالغةُ في الحقارة، بما تعرفُ العرب[6].

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في القيد ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الظّرفيّة، فمُلكُ آلهتِهم المزعومة لأيّ شيء، منفيٌّ عن أيّ جزءٍ من أجزاءِ السّماوات وما فيها.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثقل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (ثقل).
(3) الرّاغب، المفردات، ونشوان الحميريّ، شمس العلوم: (ثقل).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والمعجم الوسيط، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قدر).
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 250، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175.

سِرُّ التقييد بقيد السّماوات والأرض:

قَيَّد البيانُ القرآنيُّ عدمَ مُلكِ الآلهة المزعومة بقيدِ السّماوات والأرض في قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتّعميم عُرفًا؛ لكونهما ظَرفًا للموجودات الخارجيّة[1]؛ يعني أنّ أهلَ العرفِ يُعبّرون بهما عن جميعِ الموجودات، والمُرادُ نفي قدرتهم على شيءٍ من النّفع أو الضّرّ، أو الإيجادِ أو الإعدام[2] عن جميعِ الموجوداتِ في الكون العلويّ والسّفليّ، ممّا يدلُّ على منتهى عجزها.

نفيُ مُلكِ الآلهةِ المزعومة لجميع الموجوداتِ دلالةٌ على منتهى عجزها

ويحتمل أن يكون سببُ التّقييد أنّ آلهتَهم بعضُها سماويّة كالملائكة والكواكب، وبعضُها أرضيّة كالأصنام، فالمُرادُ نفيُ قدرةِ السّماويّ منهم على أمرٍ سماويّ، والأرضيّ على أمرٍ أرضيّ، ويُعلمُ نفيُ قدرتِه على غيرِه بالطّريقِ الأَوْلى، أو لأنّ الأسبابَ القريبة للخيرِ والشّرّ سماويّةٌ وأرضيّةٌ؛ فالمُرادُ نفيُ قدرتِهم بشيءٍ من الأسبابِ القريبةِ فكيف بغيرها؟![3].

سواءً أكانت الآلهة المزعومة سماويّةً أو أرضيّةً فهي عاجزةٌ

دلالةُ التّعبير بالسّماوات والأرض:

المُرادُ بالسّماوات والأرض في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسُهما وجوهرُهما وعينُهما، لا ما تشتملان عليه من الموجودات؛ لأنّ جوهر السّماوات والأرض لا يدّعي المشركون فيه مُلكًا لآلهتهم[4].

جوهرُ السّماوات والأرض لا يدّعي المشركون فيه مُلكًا لآلهتهم

معنى (الواو) ودلالتُها في قوله: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[5]، والجمعُ بين السّماوات والأرض؛ "لقصدِ التّعميم،

في نفي مُلكِ الآلهةِ المزعومة لأيّ شيءٍ في السّماواتِ والأرض مبالغةٌ في عجزها

(1) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 1532، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 372.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 265.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 309، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 250.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 61، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266.

إذ هما محلّ الموجودات الخارجيّة؛ أيّ: لا يملكون شيئًا ممّا في هذا الكون العُلويّ والسّفليّ"[1]، وفي هذا مبالغةٌ في عجزهم، وعدم استحقاقهم للعبادة.

دلالة تكرار حرف النّفي (لا):

تأكيدُ نفي مُلك الآلهةِ المزعومةِ لأيّ شيءٍ في الأرض

كرّرَ النّظمُ الحكيم حرفَ النّفي (لا) مع المعطوفِ على المَنْفيِّ قبْلَه في قولِه: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فلم يَقُلْ: (في السّماوات والأرض)؛ تأكيدًا لمعنى النَّفيِ؛ للاهتمام به[2]؛ أيّ: نفي ملكِ آلهتهم المزعومة لأيّ شيء في الأرضِ، بالإضافة إلى نفي ملكهم لأيّ شيءٍ في السّماوات.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الظّرفيّة، فمُلكُ آلهتِهم المزعومة لأيّ شيءٍ منفيٌّ عن أيّ جُزءٍ من أجزاء الأرض.

لطيفة جمعِ السّماوات وإفراد الأرض:

السّماواتُ سبعٌ ذاتُ أجرامٍ عظيمة، والأرضُ عالَمٌ واحد من جنسٍ واحد

جمعَ البيانُ القرآني ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إرادةً للسّماواتِ السّبعِ ولأجرامها العظيمةِ ذاتِ النّظامِ الخاصّ، المتفاوتةِ بالصّفات والآثارِ والحركاتِ وما فيها من أسرار، وأفردَ الأرض؛ لأنّها عالَمٌ واحد، ولأنّها من جنسٍ واحدٍ، وهو الصَّعيدُ، بالإضافة إلى أنّ الأرض لم تَرِدْ في القرآن إلّا مفردةً، ولمّا أُريد الجمع قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطّلاق: 12][3].

غرض تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

السّماواتُ أعظمُ وأعلى وأقدسُ من الأرض

قدَّمَ البيانُ الإلهيُّ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله: ﴿لَا

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.
(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 2/ 355.

﴿يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأمورٍ، منها الجَريُ على عادةِ القرآن الكريم؛ فجميعُ المواضع التي ذُكرَ فيها السّماوات والأرض قُدمتْ السّماواتُ على الأرض إلّا في آيتين لموجبٍ دلاليّ، أو أنَّ هذا التّرتيب من باب تقديم الأعظم والأعلى وذي الأهميّة، فالشّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذِكْرُ الأعظم والأعلى مكانًا على غيره، والأهمّ في قداسته، أو جاء هذا التّرتيب تناسبًا مع السّياق الذي يتحدّث عن الأُلوهيّة والمُلك والقُدرة والتّصرّف.

معنى (الواو) ودلالتها في قوله: ﴿وَمَا لَهُمۡ﴾:

نفيُ مشاركة الآلهة لِما في السماوات والأرض برهانٌ آخر لكذبهم فيما يدّعونه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ عاطفة، والمعطوفُ عليه جملة ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، فكلا الجُملتين نفتْ عن الآلهةِ أيَّ ملكٍ، ففي الجملة الأولى نفى عنهم أيّ ملكٍ مستقلّ لأيّ شيءٍ في هذا الكون، وفي الجملة الثّانية نفى ملكيتَهم لشيءٍ ولو على سبيلِ المشاركة؛ أيْ: بعد أنْ نفى عنهم الملكَ الخالص عن شوبِ المشاركة، نفى المشاركةَ عنهم أيضًا؛ تكذيبًا لهم فيما يدّعونه؛ أيْ: إنّ هؤلاء الذين زعمتموهم شركاءَ للّه تعالى في العبادة، لا يملكون شيئًا في هذا الكون ملكيّةً خاصّةً على سبيلِ الاختراعِ والاستبدادِ والتّصرف، ولا على سبيلِ المشاركة لغيرهم[2]، وفي نفي نوعي الملكِ عن آلهتهم المزعومة بيانٌ لغايةِ عجزِها وضعفها، وبرهانٌ لضلالهم.

معنى (ما) ودلالتُها في ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾:

نفيُ أيّةِ شَرِكَةٍ للآلهةِ المزعومةِ دلالةٌ على عدمِ استحقاقِها للعبادة

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ نافيةٌ لا عملَ لها[3]، نفتْ أنْ يكون للآلهةِ المزعومةِ أيُّ شركةٍ في السّماواتِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 417، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266.

والأرض، وقد أفادَ هذا النَّفيُ بطلانَ عبادتهم لهذه الآلهةِ المزعومةِ، وإثباتَ عجزِها وعدمَ استحقاقِها للعبادة.

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لَهُمۡ﴾:

ليس للآلهة المزعومة أيُّ ملكٍ في السّماوات والأرض على سبيلِ المشاركة

لام ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ لامُ الملك؛ أيّ: نفي أيّ ملكٍ للآلهةِ المزعومة في السّماوات والأرض على سبيلِ المشاركة، والمعنى: وما لتلك الآلهةِ التي يزعمونها شريكةً للّه من شركٍ في أمرٍ من أموره.

معنى (في) ودلالتُها في: ﴿فِيهِمَا﴾:

(في) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ حرف جرّ معناه الظّرفيّة؛ أيّ: نفيُ شركةِ الآلهة المزعومة لأيّ جزءٍ في السّماواتِ والأرض، ولا فيما فيهما من موجودات.

نُكْتَة تقييد المتعلّق ﴿لَهُمۡ﴾ بالقيد ﴿فِيهِمَا﴾:

نفيُ شركةِ الآلهةِ المزعومة لجميع الموجودات في السّماوات والأرض

في قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ قيّد البيانُ القرآنيُّ عدمَ شركة الآلهة المزعومة بقيد ﴿فِيهِمَا﴾ - العائد على السّماوات والأرض - ؛ للتّعميم عرفًا، والمراد نفيُ شركتِهم لجميعِ الموجودات؛ أيّ: وما لتلك الآلهةِ التي يزعمونها شريكةً للّه من شركٍ في أمرٍ من أموره لا فيهما ولا في غيرهما البتّة، وفي هذا دلالةٌ على منتهى عجزِ آلهتِهم المزعومة.

غرض تقديم ﴿فِيهِمَا﴾ على ﴿شِرۡكٖ﴾:

اهتمامٌ بنفي ملكِ الآلهة المزعومة لِما في السّماواتِ والأرض على سبيلِ الشّركة

قدّم البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرور ﴿فِيهِمَا﴾ على المسندِ إليه ﴿شِرۡكٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾، ولم يقلْ: (وما لهم من شرك فيهما)؛ للاهتمام بقيد ﴿فِيهِمَا﴾ الرّاجع إلى السّماوات والأرض، وللتّشويق إلى المُؤخّر وهو قوله: ﴿شِرۡكٖ﴾، أيّ: الاهتمام بنفي مُلكِ الآلهةِ المزعومة لأيّ شيء في السّماواتِ والأرض مُلكًا على سبيلِ الشّركة.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿مِن شِرۡكٖ﴾:

تأكيدُ نفيِ أيّ شركةٍ للآلهةِ المزعومةِ في السّمواتِ والأرض

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ حرف جرّ زائد للتّوكيد، والتّقدير: ما لهم شِرْكٌ في السَّماوات ولا في الأرض[1]، والغرضُ منها توكيدُ عموم النّفي واستغراقِه[2]؛ أيْ: تأكيد نفي أيّة شركة للآلهة المزعومة في السّماوات والأرض.

دلالة التّعبير بـ﴿شِرۡكٖ﴾:

ليس للآلهةِ المزعومة أيّة شركةٍ لا خَلْقًا ولا مُلْكًا ولا تصرُّفًا

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿شِرۡكٖ﴾ في قوله: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ دون غيره؛ لمناسبة معانيه للسّياق، فالشرك يدلّ في أصله على مُقارنةٍ وخِلافِ انْفِرادٍ، ومعنى الشّرك هو الشّركة؛ أيْ: مخالطةُ الشّريكين[3]، واتخاذُ شريكٍ للّه هو أعظمُ كفرٍ؛ لأنّه يُنافي إفرادَه بالعبادة، ومن معاني الشِّرك أيضًا: النَّصيب[4]، وهذه المعاني تتناسبُ مع السّياق الذي يَذمّ المشركين الذين اتّخذوا آلهةً باطلة، وجعلوها شريكًا للّه في العبادة، فيبرهنُ على خطأهم ويبطلُ زعمَهم؛ فينفي عن هذه الآلهةِ المزعومة أيّ نصيبٍ وأيّ ملكٍ للسّماوات والأرض على سبيلِ الشّركةِ مع اللّه، ويثبتُ أنّ ملكَ السّماواتِ والأرض ينفردُ به دون غيره.

نُكْتَةُ تنكير لفظِ ﴿شِرۡكٖ﴾ في الآية الكريمة:

جاء تنكيرُ لفظ ﴿شِرۡكٖ﴾ لإفادةِ العموم، فالنّكرةُ في سياقِ النّفي تُفيدُ العمومَ، والمعنى: وما لآلهتهم أيّةُ شركةٍ في السّماواتِ والأرض، لا خَلقًا ولا مُلكًا ولا تصرّفًا[5].

غرضُ حذفِ مُتعلّق الشِّرك:

من بلاغةِ القرآن الحذفُ للإيجاز

حَذفَ البيانُ القرآنيُّ متعلّقَ الشّركِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 160.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175.

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شَرَكَ).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (شرك).

(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 309، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 265.

﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾، ولم يذكره، والتّقدير: ما لهم فيهما من شركٍ مع اللّه؛ إيجازًا لأنّه محلّ الوفاق[1]، فهو مفهومٌ من السّياق، ولا خلافَ في أنّ المعنى نفيُ الشّركِ مع اللّه.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَمَا لَهُۥ﴾:

نفيُ الملكِ والشّركةِ والمظاهرةِ عن الآلهةِ المزعومةِ إثباتٌ لكمالِ عجزها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ عاطفة[2]، عُطفتْ على قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ فالجملُ الثّلاثُ المعطوفة بيّنتْ حالَ الآلهةِ المزعومة، حيثُ نفتْ عنهم أيَّ مُلكٍ لأيّ شيءٍ في هذا الكون، سواءٌ أكان مستقلًّا أم على سبيلِ المشاركة، ونفتْ أنْ يكونَ منهم للّهِ تعالى معينٌ في شيءٍ من قدرته؛ أي: انتفى ملكهم لأيّ شيء في السّماواتِ والأرض، فانتفى أنْ يقدروا على إعانةِ غيرهم، فظهرَ عجزُ معبوداتهم من جميع الجهات، وثبتَ أنّ المالكَ والمُتصرّفَ في هذا الكون هو اللّهُ وحدَه، دون حاجةٍ إلى عونٍ من تلك الآلهة أو من غيرها[3].

معنى (ما) ودلالتُها في ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾:

نفيُ أيِّ عونٍ للهِ من الآلهةِ المزعومةِ دلالةٌ على عجزها وعدمِ استحقاقها للعبادة

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ نافيةٌ لا عملَ لها، نفتْ أنْ يكونَ للّه جلَّتْ قدرتُه من هؤلاءِ الآلهةِ معينٌ يعينهُ على خَلْقِ شيء، ولا على حفظهِ ولا على تدبيرِ أمرٍ من أمورِ السّماواتِ والأرض ومن فيهما[4]، فأفادَ هذا النّفيُ عجزَ الآلهةِ وعدم استحقاقها للعبادة، وبيّن خطأ المشركين في اتّخاذهم آلهةً عاجزةً من دون اللّه.

معنى (اللّام) ودلالتُها في المتعلّق ﴿لَهُۥ﴾:

نفيُ أن يكونَ للهِ تعالى أيُّ عونٍ خاصٍّ من الشّركاء

لام ﴿لَهُۥ﴾ العائدةُ إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ هي لامُ الاختصاص؛ أيْ: نفي أنْ يكون للّهِ تعالى أيُّ عونٍ

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 264، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 287.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 394، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 265.

خاصٍّ من الشّركاء، والمعنى: وما للّه تعالى من آلهتهم المزعومة من مُعينٍ يُعينُهُ في تدبيرِ أمرٍ من أمورِ السّماوات والأرض.

معنى (مِنْ) ودلالتُها في: ﴿مِنۡهُم﴾:

حرف الجَرّ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم﴾ ابتدائيّة، والمعنى: وما لَهُ تعالى مِنْ عونٍ مبتَدَءٍ منهم.

سِرُّ تقييد ﴿لَهُۥ﴾ بالقيد ﴿مِنۡهُم﴾:

ردُّ القرآنِ على المشركين الذين زعموا أنّ آلهتهم تقرّبُ إلى الله وتبعدُ عنه

أتى البيانُ القرآنيُّ بالمتعلّق ﴿مِنۡهُم﴾ العائدِ إلى الآلهةِ المزعومة في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ مع أنّه ليسَ للّهِ تعالى أحدٌ يعينه أو يظاهره فيما يريد من إيجادٍ أو إعدام، أو في تدبيرِ أمورِ السّماوات والأرض؛ بل الأمرُ كلّه إليه وحدَه؛ لكنّه صرّح بالمتعلّق ﴿مِنۡهُم﴾ ردًّا على المشركين، إذْ زعموا أنّ آلهتَهم تُقرِّب إليه سبحانه وتُبعِدُ عنه[1]، إذِ السّياقُ في ذمِّ الشّركِ وبيانِ خطأ المشركين في زعمهم.

غرض تقديم ﴿مِنۡهُم﴾ على ﴿ظَهِيرٖ﴾:

الاهتمامُ في نفي العونِ من الشّركاءِ خاصّة، ردًّا على المشركين

قدّمَ البيانُ الآلهيّ الجارَّ والمجرور ﴿مِنۡهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾، والتّقدير: (وما له من ظهيرٍ منهم)؛ وذلك للاهتمامِ والتّركيز على نفي العونِ منهم خاصّة؛ لأنّ السّياقَ في الرّدِّ على المشركين الذين يزعمون أنّ أصنامهم شركاءُ مع اللّه، كما أنّ في التّقديم مراعاةً للفاصلة القرآنيّة.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّن ظَهِيرٖ﴾:

تأكيدُ نفي أيّ عونٍ للهِ تعالى من الآلهةِ المزعومة

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ حرفُ جرّ زائد للتّوكيد، والتّقدير: (وما له منهم ظهير)[2]، والغرضُ منها توكيدُ عموم النّفي واستغراقه[3]؛ أيْ: تأكيدُ نفي أيّ عونٍ للّه تعالى من الآلهةِ المزعومة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 187.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 160.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 499، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 160.

سِرُّ إيثارِ التّعبير بصيغة ﴿ظَهِيرٍ﴾:

عجزُ الآلهةِ عن إظهارِ أيّ عونٍ لله غايةُ البرهانِ على عجزها الكلّيّ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ظَهِيرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ لمناسبته للسّياقِ والمقام، فالسّياقُ هو الطّلبُ من المشركين دعاءَ آلهتِهم المزعومة، وذلك لإقامةِ الحُجّة عليهم وتوبيخهم وتخطئتهم لاتّخاذهم آلهةً لا تملكُ شيئًا انفرادًا ولا شركةً مع اللّه، ولا تقدرُ على تقديم أيّ عونٍ للّهِ ممّا يريده، والمقامُ بيانُ حالِ هؤلاء الشّركاء من شدّةِ الضّعفِ وغايةِ العجزِ، فالمشركون كانوا يعتقدون أنّ الآلهةَ تملكُ المظاهرة، فنفى اللّهُ ذلك عنهم، والعابدُ إنّما يتعلّق بمعبوده إذا كان يرجو منه العونَ بقوّة، "فالظّهيرُ الذي يعاونك ويساندُكَ بكلّ قوّته"[1].

سرُّ إيراد ﴿ظَهِيرٍ﴾ بصيغة المبالغة منكرًا:

أتى النّظمُ الحكيم في قوله: ﴿ظَهِيرٍ﴾ بصيغة (فعيل) التي تكون للواحدِ والجمع، وهي من أبنيةِ المبالغةِ والتّكرار[2] التي تدلّ على قوّةِ الفعل، وتدلّ على الكثرة، أي: ليس للّه أيُّ أعوانٍ يظاهرونه، والمرادُ المبالغةُ في نفي أيّ ظهيرٍ ومعينٍ للّه يُعينه في الخَلْقِ والإيجادِ والإعدامِ والتّدبير والتّصرف في أمورِ السّماوات والأرض، وجاء تنكيرُ لفظِ ﴿ظَهِيرٍ﴾ لإفادةِ العموم، فالنّكرةُ في سياقِ النّفي تُفيدُ العموم، والمعنى: ما للّهِ أيُّ عونٍ منَ الشّركاء على أيّ شيء، كما أنّ التّنكير لإفادةِ التّحقير أيضًا[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الزَّعم والحسبان:

الزَّعمُ قولٌ كذبٌ وادّعاءُ ما لم يكنْ، وهذه حقيقةُ قولِ المشركين أنّ للهِ شركاء

الزّعمُ هو مطيّةُ الكذب، أو حكايةُ قولٍ يكون مظنّةَ الكذبِ؛ أي: إطلاقُ كلامٍ مِنْ غيرِ صِحَّةٍ ولا يَقين، ولا سندَ له ولا دليلَ عليه،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12313.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/ 510.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 499.

وادّعاءُ ما لم يكنْ(1)، بينما الحسبانُ هو اعتقادٌ عن أمارةٍ اعتدتْ به، سواءٌ كان له وجودٌ في الحقيقة أو لم يكن؛ وهو مشتقٌ من (حسبت الحساب)(2)، والحسبانُ أنْ يُحْكَمَ لأحدِ النّقيضين من غير أنْ يخطرَ الآخرُ بباله، فيحسبَه ويعقدَ عليه الإصبع(3)، وقد فرّق أبو هلال العسكريّ بين الحسبان والزّعم؛ فذكر أنّ "الفرق بينهما أنّ الحسبانَ لا يكون إلّا باطلًا ... والزّعمُ قد يكون حقًّا، وقد يكون باطلًا"(4)، وفي كلامه نظرٌ؛ فالحُسْبانُ قد يكونُ فيما ليسَ باطلًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ١٩﴾ [الإنسان: 19]، إذًا فالزّعمُ هو قولُ الكذبِ، والحُسبانُ هو اعتقادٌ وحُكمٌ لأحدِ النّقيضين.

المِثقال والمِقدار:

المِثقالُ خاصٌّ بالوزن فهو أخصُّ من المِقدار الذي يكونُ في الوزن وغيره

المِثقالُ أخصُّ من المقدار، إذِ المِثقالُ خاصٌّ بالوزن، فأصلُ (ثقل) ضِدُّ الخِفَّةِ(5)، ومِثْقالُ الشَّيْءِ: ميزانُهُ مِنْ مِثْلِه(6)، والمِثقالُ: وزنٌ مَعْلومُ القَدْر، وأصله في الأجسام ثمّ يُقال في المعاني(7)، بينما المقدارُ أعمّ مِنَ المِثقال؛ إذِ المِقدارُ هو المِقياس، وقَدْرُ كلّ شيء: قياسُه ومَبْلَغُه، ومقدارُ الشّيء: مثلُه ومساويه من غيرِ زيادةٍ ولا نقصان، ويكون في العددِ أو الكيلِ أو الوزن أو المساحة والقضاء والحُكم؛ أي: يشملُ الشّيء الماديَّ والمعنويّ(8).

المظاهرة والمعاونة والمشايعة:

المظاهرةُ إظهارُ العَونِ بقوّة، والمعاونةُ المَدَدُ، والمُشايَعَةُ المُناصرة والمتابعة

المظاهرةُ أبلغُ من المعاونة؛ إذِ المظاهرةُ هي المعاونةُ والمساندةُ

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير، عمدة الحفّاظ: (زعم).
(2) الرّاغب، التّفسير: 1/ 115، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/ 52.
(3) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 185.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثقل).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (ثقل).
(7) الرّاغب، المفردات، ونشوان الحميريّ، شمس العلوم: (ثقل).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قدر).

بكلّ قوّة؛ إذ أصلُها من (ظَهَرَ) ويدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، والظَّهيرُ: المُعينُ، والأَصلُ فيه ظَهرُ الإنْسانِ، فكَأَنَّهُ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إلَى ظَهْرِكَ[1]، والظّهيرُ: هو المُعينُ الذي يُسندُ ظهرَ مَن يستعينُ به[2]، "فالظّهيرُ الذي يعاونكَ ويساندكَ بكلّ قوّته"[3]، وأمّا المعاونةُ فهي المساعدةُ والمساندةُ، والمَدد[4]، وأصلُه من الجَذْر (عون) ومعناه المحوريُّ: مَددٌ زائدٌ أو امتدادٌ من قوَّة في الباطنِ أو من الخارج[5]، بينما المشايعةُ هي المناصرةُ والمتابعةُ والمطاوعة، والشّيعَةُ الأَتْباعُ والأَنْصارُ، وكلُّ مَن عاوَنَ إنْسانًا وتَحَزَّبَ لَهُ فَهوَ لَهُ شيعةٌ[6]، وأصلُ (شيع) يَدُلُّ على مُعاضَدَةٍ ومُساعَفَة، وعلى بَثٍّ وإشادَةٍ[7]، وأصلُ الشّياع: الانتشارُ والتَّقوية، والشّيعةُ: من يتقوّى بهم الإنسان، وينشرونَ عنه أوامرَه ونواهيَه[8].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 806.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12313.

(4) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (عون).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عون).

(6) الفيّوميّ، المصباح المنير، والزّبيديّ، تاج العروس: (شيع).

(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شيع).

(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شيع).

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

[سبأ: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من نفي قدرة الآلهةِ المزعومةِ في الدُّنيا إلى نفي شفاعتها في الآخرة

بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السّابقة حالَ المزعومين أنَّهم آلهةٌ من دونِ اللّه تعالى، وأنَّهم لا يملكون في هذه الحياة الدُّنيا مثقالَ ذَرَّةٍ في السَّماوات ولا في الأرض، ولا يتصرَّفون في شيءٍ ممّا هو للّه الحقِّ سبحانه؛ ناسب بيان أمرٍ آخر، وهو أنَّه لا يملك أحدٌ الشَّفاعةَ عنده سبحانه إلّا لِمن أذن له، وذلك للرَّدِّ على مَنِ اعتقد أنَّ عبادةَ الأصنامِ الَّتي هي صورُ الملائكة ستشفع لهم، فأفادَتِ الآيتان بنفي نفعِ شيءٍ مِن دونِ اللّه تعالى، وأنَّ هؤلاءِ الشُّركاء ما هم إلّا أوهامٌ ضارَّة، لا حقائق نافعة.

شَرحُ المفرَداتِ:

1) ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾: (شفع) أصلٌ يدلُّ على مقارنة الشَّيئين، من ذلك الشَّفعُ خلاف الوتر، تقول: كان فردًا، فشفعته، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ [الفجر: 3]، وشفع فلانٌ لفلان؛ إذا جاء ثانيه ملتمسًا مَطْلَبَهُ ومُعينًا له[1]، والشّافعُ: الطّالب لغيرِه، وتقول: استشفعتُ بفلانٍ، فتشفَّع لي إليه، فشَفَّعَهُ فيَّ، والاسمُ: الشَّفاعةُ، واسم الطّالب: الشَّفيع، والمعين: الشّافع[2]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، أي: لا أحَدَ ينفع أحدًا بإعانتِهِ في مطلبهِ عند اللّهِ إلّا بإذنِ اللّهِ ورضاه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).
(2) الخليل، العين: (شفع).

2) ﴿أَذِنَ﴾: (أذن) أصلٌ يدُلُّ على المرورِ، ومنه الأُذُنُ: الجارحة، لمرور الصوت، ويُستعار لِمَن كَثُرَ استماعُهُ وتصديقه لما يُقال له، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ [التوبة: 61]، أي: استماعه لما يعود بخيرٍ لكم، والإذنُ في الشَّيء: إعلامٌ بإجازته والرُّخصة فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64]، أي: بإرادته وأمْرِه، وقوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 102]، أي: بعلمه، لكن بين العلمِ والإذنِ فرقٌ، فإنَّ الإذن أخصُّ، ولا يكاد يُستعمل إلّا فيما فيه مشيئةٌ به، راضيًا منه الفعل، أم لم يرضَ به، فإنَّ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 100]، فمعلومٌ أنَّ فيه مشيئَتَهُ وأمره[1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾، أي: بمشيئةِ اللهِ وعِلْمِه ورضاه.

3) ﴿فُزِّعَ﴾: (فزع) أصلٌ يدلُّ على الذُّعرِ، يُقال: فَزِعَ يَفزَعُ فزعًا؛ إذا ذُعِرَ، والفزع: الفَرَقُ من الشَّيء؛ وأمّا فَزَّعتُ عنه؛ فمعناهُ كَشَّفْتُ عنه الفَزَع، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾[2] بمعنى: كُشِفَ الفزع، وتفسير ذلك أنَّ جبريلَ لمّا نزل إلى النَّبيِّ ﷺ بالوحي، ظنَّتِ الملائكةُ أنَّه نَزَل بشيءٍ من أمر السّاعة، فَفَزِعت لذلك، فلمّا انكشف عنها الفَزَعُ؛ قالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾: سَأَلَت لأيِّ شيءٍ نزل جبريل؟ قالوا: ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾، أي: قالوا: (قال: الحقَّ)[3].

4) ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾: (علا) أصلٌ يدُلُّ على السموِّ والارتفاع، والعُلُوُّ: ضدُّ السُّفْل، والعُلُوُّ للهِ ﷻ عن كلِّ شيءٍ، فهو أعلى وأعظم ممّا يُثْنَى عليه[4]، و(عَلا) يقال في المحمود والمذموم، و(عَلِيَ) لا يُقال إلّا في المحمود، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4]، وقال: ﴿لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣﴾ [يونس: 83]، وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ٤٦﴾ [المؤمنون: 46]، والعَلِيُّ: هو الرَّفيع القدر مِن: عَلِيَ، وإذا وُصِف اللهُ تعالى به، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحج: 62]، وكما في الآية هنا: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ فمعناه أنَّه عالٍ على خلقِه، مستوٍ على عرشه، لا يحيط به وصْفُ الواصفين، ولا عِلمُ العارفين، فهو العليُّ بذاتِه وقهرِه وقدْرِه.

---

(1) الأصفهانيّ، المفردات: (أذن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فزع).
(3) ابن سيده، المُحكم والمُحيط الأعظم: (فزع).
(4) الخليل، العين: (علو).

5) ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾: (كبر) يدلُّ على خلاف الصِّغر[1]، والكِبْر: مُعظمُ الأمر، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النور: 11]، أي: معظم أمره[2]، وكَبُر الأمر، وخَطْبٌ كبير، وكَبُر الرَّجل في قدرِه، وكَبِر في سنِّه، وشيخٌ كبير، مِنْ عُلوِّ السِّنِّ[3]، ومعناه هنا في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، أي: الكبير الذي كلُّ شيءٍ دونه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الشَّفاعةُ منفيَّةٌ عن أهل الشِّركِ والنُّكران

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ الشَّفاعةَ في الآخرة لن تكون إلّا لِمَن أذن اللّه له في الشَّفاعة، فإذا كانت الشفاعاتُ لا تنفع عند اللّهِ أحدًا إلّا لِمَن أذِنَ اللّه في الشَّفاعة، واللّه لا يأذنُ في الشفاعة إلّا لِمَن رضي عنه، ولا يأذن فيه لأهل الكفر والشِّرك، فكيف يعبدون مَن يعبدونَهُ مِن دون اللّه زعمًا مِنهم أنَّهم يقرِّبونهم إلى اللّه زُلفى، وأنَّهم يشفعون لهم عند ربِّهم، فإذا أَذِن اللّه لِمَن أذِن له أن يشفعَ؛ فزِع لسماعه إذْنَهُ، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم، فجلّيَ عنها، وكُشِف الفزعُ عنهم؛ قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالت الملائكة: الحقَّ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ (الواو) وفائدتها:

استغراقُ نفي نفعِ الآلهة المزعومة لزمانَيِ الدُّنيا والآخرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ عاطِفةٌ، حيث عطفت الكلام على ما قبلَهُ لبيان أنَّ مَن لا يملك شيئًا من مخلوقات الدُّنيا، فهو غير مُستحِقٍّ للعبادةِ، ثمَّ زادت الأمرَ بيانًا بأنْ ذَكَرت نفيَ قُدرتِها على الشَّفاعة، فهي غيرُ مالكةٍ، وغيرُ قادرةٍ على الإنجاء في الدُّنيا، وغيرُ قادرةٍ على تقديم شفاعةٍ معنويَّةٍ للإنجاء في الآخرة،

(1) ابن سيده، المُحكم والمُحيط الأعظم، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (كبر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 395 - 400.

فجَمَعَت الواوُ بين نَفْيَين، نفي ملك شيءٍ في الدُّنيا، ونفي الشِّفاعة في الآخرة، فاستغرقت الزَّمان كلَّه.

دلالةُ (لا) النّافية:

نفيُ الشَّفاعةِ نفيٌ لوجودِها لا لمجرَّد نفعِها

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ نافيةٌ؛ إذ نفى الحقُّ أيَّ شفاعةٍ عنده يومَ القيامة إلّا لِمَن أذن له سبحانه، فمعنى نفي الشَّفاعةِ عدمُ وجودِها أصلًا، أي: لا تقع شفاعةٌ لهم من معبوداتِهم، وليس المعنى أنَّه يصدر عنهم شفاعةٌ، ولا تنفع، فإنْ كان المعبودون أصنامًا، أو كُفّارًا كفرعون، فسلْبُ الشَّفاعةِ عنهم ظاهرٌ، وإن كانوا ملائكةً أو غيرهم ممَّن عُبِدَ، كعيسى ﷺ، فشفاعتهم إذا وجدت؛ تكون للمؤمنين فحسب[1].

دلالةُ استعمالِ مفردة النَّفع:

عمومُ نفي الشَّفاعةِ عن الشّافع والمشفوع له

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مُفرَدَة النَّفع في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، ولم يأتِ بلفظةٍ أخرى تقوم مقامَها؛ وذلك لأنَّ النَّفع أعمُّ في الاستعمالِ، وأنسبُ في السّياق، فالنَّفعُ يجيء أوَّلًا: بمعنى المساعد الملائم، وهو ضدُّ الضارِّ وهو أكثر إطلاقِه، ومنه: دواء نافع، ونفعني فلان، ويجيء ثانيًا: بمعنى حصولِ المقصود من العمل ونجاحه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾ [الأنعام: 158]، فالنَّفعُ بالمعنى الأوَّل يفيدُ انتفاعَ المشفوع له بالشَّفاعة، أي: حصول النَّفع له بانقشاع ضرِّ المؤاخذة بذنب، كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر: 48]، وبالمعنى الثّاني في الآية يفيد القبولَ من الشّافع لشفاعته، فلمّا عبَّر في هذه الآية بلفظ ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ الصّالح لأنْ يعدَّ مضافًا إلى الفاعل أو إلى المفعول؛ احتمل (النَّفع) أن يكون نفعَ الفاعل، أي: قبول شفاعتِه، ونفع المفعول، أي: قبول شفاعةِ مَن شفع فيه[2]، فناسب لفظُ النَّفعِ لفظَ الشفاعةِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 541 - 542.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 187.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

جيءَ بالفعل ﴿تَنفَعُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ بصيغة المضارعِ، لتصوير نفي أن يكونَ هناك شفاعةٌ يوم القيامةِ، سواء في بداية الحسابِ أو أثنائه أو آخره، فإنَّ النَّفي شاملٌ مستمرٌّ في كلِّ الأوقات، وهذا أدلُّ في النَّفي، وأرسخُ في إنبات اليأسِ في قلوبِهم مِن أن تنفعَ الشَّفاعة، وأقوى في التَّرهيب لمن وعى قلبُه المقصودَ، فرعى عقلُه المطلوبَ.

شمولُ نفي الشَّفاعة يوم القيامة في الأوقات كلِّها

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾:

(أل) في لفظِ ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ عِوَضٌ عن مضافٍ إليه محذوفٍ، تقديرُهُ: ولا تنفع شفاعةُ الشّافعين، أو عهديَّةٌ وهي الشَّفاعة المنقِذَة من النار، أو الشَّفاعة التي زعم أهل الشِّرك أنَّها ثابتةٌ لمعبوداتهم.

بلاغةُ المجاز العقليِّ:

دلَّتِ الشَّفاعة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ على معنى الشّافع والشَّفيع، أي: لا يشفع إلّا مَنْ أُذِنَ له أن يكون شافعًا، ولا تنفع شفاعتُه إلّا في مَن أُذن له أن يكونَ شفيعًا، وبحسب ذلك فهي من قبيل المجاز العقليِّ؛ إذ أُسنِدَ النَّفع للشَّفاعة، وأُريد الشّافع والشَّفيع، مِن باب ذِكْرِ الصِّفة وإرادة الموصوف، تقول: الشَّفاعة لزيد، على معنى أنَّه الشّافع، كما تقول: الكرم لزيد، وعلى معنى أنَّه المشفوع له[1].

إسنادُ النَّفعِ للشَّفاعةِ مبالغةٌ في النَّفي واستغراقٌ للأفراد

نكتةُ تقييدِ نفي الشَّفاعة بالظَّرفِ:

قُيِّدَ نفي الشَّفاعة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ بالظّرفِ ﴿عِندَهُۥٓ﴾؛ وذلك لأنَّ الكلامَ في الرَّدِّ على معتقدات المشركين، فلمّا قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:

لا يُرادُ بالتَّقييدِ التَّخصيص بل الرَّدُّ على المعتقد

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 589.

18]؛ ناسب ذكر العنديَّة هنا، فنُفيَت شفاعتُهُم في عموم نفي كلِّ شفاعةٍ نافعةٍ عند اللّه إلّا شفاعة من أذن اللّه أن يشفع[1].

نكتةُ الإضمارِ دون الإظهار:

معنى قولهِ تعالى: ﴿عِندَهُۥٓ﴾، أي: عندَ اللّهِ، وجاء مضمرًا لا مُظهرًا؛ لأنَّ المعنى حاضرٌ في الأذهانِ، فالعنديَّة المنفيَّة هي عنده ﷻ.

نوعُ الاستثناءِ وفائدته:

تأكيدُ إبطال شفاعةِ الأوهام من الأصنام

قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ، فالمستثنى منه محذوفٌ تقديره: (ولا تنفع الشفاعةُ لأحدٍ إلّا لمن أَذِنَ له)[2]، وفي هذا إبطالُ شفاعةِ أصنامهم؛ لأنَّهم زعموا لهم شفاعةً لازمةً مِن صفات آلهتهم؛ لأنَّ أوصافَ الإلهِ يجب أن تكونَ ذاتيَّةً، فلمّا نفى اللّه كلَّ شفاعةٍ لم يأذن فيها للشّافع؛ انتفتِ الشَّفاعة المزعومة لأصنامِهم، وبهذا يندفع ما يُتَوَهَّم مِن أنَّ قوله: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ لا يبطل شفاعة الأصنام[3].

ويمكن أن يكونَ الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ بمعنى: (لا تُقبل شفاعةٌ إلّا شفاعةٌ كائنةٌ لمن أذن اللّه له)، والاستثناءُ مِن جنس الشَّفاعة المنفيِّ بقرينة وجود اللّام، وليس استثناء من متعلِّق ﴿تَنفَعُ﴾؛ لأنَّ الفعل لا يُعدَّى إلى مفعوله باللّام إلّا إذا تأخَّر الفعلُ عنه، فضعُفَ عن العمل بسبب التَّأخيرِ؛ فلذلك احتملت اللّام أن تكونَ داخلةً على الشّافع[4].

بلاغةُ (اللام) في تنوُّع المعاني:

احتمالُ الفاعليَّةِ والمفعوليَّةِ في سياقٍ واحدٍ

احتمل قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ أن يكونَ معناه: (إلّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 187.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 542.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 187.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 188.

لمن أذِن اللّهُ أن يكونَ مشفوعًا له)، وهو الظّاهر، أي: (إلّا شفاعة كائنة لأجله)، والشّافع وهو الفاعل محذوفٌ، وإنَّما دلَّ عليه المعنى والسياق، واحتمل أن يكونَ المعنى: (إلّا لمن أذِن اللّهُ أن يكونَ شافعًا)، فيكون قوله: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ بمعنى: (إلّا لشافعٍ أذِن اللّهُ له أن يَشْفَعَ لغيرِه)، والمشفوعُ محذوفٌ دلَّ عليه المعنى والسّياق، وتكون اللّام في ﴿أَذِنَ لَهُۥ﴾ لامَ التَّبليغ أو لامَ الملك، لا لام العلَّة، وفي هذا تكذيب لقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18](1).

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول (مَن):

دلالةُ استخدامِ (مَنْ) على الشّافع والمشفوع

يحتملُ أن يكونَ المقصودُ بالاسم الموصول (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الشّافِعَ، أي: لا تُقبَلُ شفاعة إلّا شفاعة كائنة لِمَن أذن اللّه له، أي: أَذِنَ له بأن يشفعَ، وعبَّر بالاسم الموصول (مَنْ) التي تختصُّ بأولي العلم في التَّعبير عن الآلهة والأصنام وغيرهم، فأُنزِل غيرُ العاقل منزلةَ العاقل، وهي نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: 5]؛ إذ عبَّر عن الأصنامِ بـ (مَنْ) لتنزيلِها منزلةَ العاقلِ؛ لأنَّهم عبدوها(2)، وهم كذلك يطلبونَ شفاعتَها عند اللّهِ تعالى، ويحتمل أن يكونَ المقصودُ بالاسم الموصول المشفوعَ فيه، أي: إلّا شفاعةً لمشفوعٍ أَذِن اللّه للشّافعين أن يشفعوا له، أي: لأجله(3).

دلالةُ استعمالِ فعل ﴿أَذِنَ﴾ ماضيًا:

الأخبارُ القرآنيَّةُ المستقبليَّة قطعيَّةُ الوقوع

يكون الإذنُ للشّافع في زمن المستقبلِ، لكنَّه صيغ فعلُ ﴿أَذِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ بصيغة الماضي؛ لأنَّها من قبيلِ الوعد، وهي من قبيل الإخبارِ عمّا سيحدث مستقبلًا مع قصد

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 542.
(2) السّامرّائي، معاني النحو: 1/ 119.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 188.

القطْعِ بوقوعِها، ونكتةُ التَّعبيرِ بالماضي أنَّ الوعدَ أو الحدث متحقِّقُ الوقوع، وهو مقطوعٌ بحصولِه.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

بـناءُ الفاعلِ تصريحًا أو تغيير الصيغة تعظيمًا

اختلفَ القرّاءُ في قَوْلِه تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾، فَقَرَأَ الجمهورُ: ﴿أَذِنَ لَهُۥ﴾ بِفَتْحِ الألف، على الفاعلِ وهو الله تعالى، وقَرَأَ أبو عَمْرو وحَمْزَة والكسائي وخلف[1]: ﴿أُذِنَ لَهُۥ﴾ بِضمِّ الألف على المفعول، وهي للتَّعظيم[2]، ويحدُث معها التفاتٌ مِنَ البناء للفاعل بقوله: ﴿عِندَهُۥٓ﴾ إلى البناء للمفعول بقوله: ﴿أُذِنَ لَهُۥ﴾.

بلاغةُ الإيجازِ بحذف الجُمل:

تصويرُ هولِ مشهدِ القيامة

في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾ طيُّ كلام، والتَّقدير: (إلّا لمن أَذِنَ له، ويومئذٍ يبقى النّاسُ مرتقبين الإذنَ لمن يشفع، فزعين من ألّا يُؤذنَ لأحد زمنًا ينتهي بوقت زوال الفزع عن قلوبهم حين يُؤذنُ للشّافعين بأن يشفعوا)، وهو إيجازُ حذفٍ[3]، وكان ذلك مفهومًا مِنَ السّياق وتصوير هول المشهدِ، وإيجازُ حذف الجُمل كثيرٌ في القرآن الكريم، قليلٌ في كلام النّاس.

فائدةُ حذفِ متعلّق فعل ﴿أَذِنَ﴾:

اشتمالُ الشّافع والمشفوعِ له بالنَّفي

اختلف المتأوِّلون في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾، فقالت فرقةٌ: معناه (لِمَن أَذِنَ له أن يُشفعَ فيه)، وقالت فرقةٌ: معناه (لِمَن أذِنَ له أن يشفع هو)[4]، واللَّفظ يعمُّهما؛ لأنَّ (الإذن) إذا انفردَ للشّافع؛ فلا شكَّ أنَّ المشفوعَ فيه مُعيَّنٌ له، وإذا انفردَ للمشفوع فيه؛ فالشّافع - لا محالة - عالمٌ مُعيَّنٌ لذلك[5].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 350.
(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 324 - 325.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 189.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 418.
(5) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 418.

انتظارُ الإذنِ بالشَّفاعة فزعًا وأملًا

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وفائدتها:

أداةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ ابتدائيَّةٌ، وهي تفيد ارتباطَ ما بعدها بما قبلها - لا محالة - فالضَّمائرُ التي في الجملة الواقعة بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾ عائدةٌ على ما يصلحُ لها في الجمل الَّتي قبلها، وقد أفادَت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الغاية بأصل وضعها، وهي هنا غايةٌ لما أفْهَمَهُ قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾[1] من أنَّ هنالك إذنًا قدسيًّا يأذن اللّٰه به ناسًا من الأخيار بأن يشفعوا، وأنَّ الذين يرجون أنْ يُشفعَ فيهم ينتظرون ممَّن هو أهلٌ لأن يَشفع، وهم في فزعٍ مِنَ الإشفاقِ ألّا يؤذَنَ بالشَّفاعة فيهم[2].

الإيذانُ بوجودِ تربُّصٍ وطولِ انتظارٍ لسماعِ الجواب

دلالةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في سياق الجملة:

اتَّصل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ بما فُهِمَ مِن هذا الكلام من أنَّ ثَمَّ انتظارًا للإذن وتوقُّعًا وتمهُّلًا وفزعًا مِنَ الرّاجين للشَّفاعة والشُّفعاء، هل يؤذَنُ لهم أو لا يؤذن؟ وأنَّه لا يُطلَقُ الإذن إلّا بعد مليٍّ من الزَّمان، وطولٍ من التَّربُّص، كأنَّه قيل: يتربَّصون، ويتوقَّفون مليًّا فزعين، حتى إذا فُزِّع عن قلوبِهم، أي: كُشِفَ الفزعُ عن قلوب الشّافعين والمشفوع لهم بكلمةٍ يتكلَّم بها اللّٰه سبحانه في إطلاق الإذن؛ تباشروا بذلك وسألَ بعضُهم بعضًا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾، أي: القولَ الحقَّ، وهو الإذنُ بالشَّفاعة لمن ارتضى[3]، فكانت الجملةُ الثّانية بمنزلة بيانٍ للجملةِ الَّتي سبقتها، وكلاهما خبرٌ.

الالتفاتُ محتملٌ بحسب بيانِ المعنى

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الخطاب إلى الغيبةِ:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ غائيَّةٌ، فإذا جعلناها لمنطوقٍ، وهو ﴿زَعَمۡتُم﴾ [سبأ: 22]، فيكون الضَّميرُ في ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾ التفاتًا؛ لأنَّ الضَّميرَ للكفّارِ[4]، فالتفت مِنَ المُخاطَبِ في

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 589، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 188.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 189.

(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 589.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 544 - 545.

قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سبأ: 22] إلى الغائبِ في ﴿عَن قُلُوبِهِمۡ﴾، وإذا جعلنا الكلام مرسلًا غير متقيِّدٍ بضميرٍ مضى ذكرُه، فلا التفات.

نكتةُ استعمالِ أداة ﴿إِذَا﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ ﴿إِذَا﴾ دون (إن) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾؛ لبيانِ تحقُّقِ وقوعِ ذلك التَّفزيع، وهو ما يلتئمُ مع دلالاتِ النَّظم، ويؤكِّد معاني السّياق.

دلالةُ الكنايةِ في لفظِ التَّفزيع:

كشفُ الفزعِ عند حصولِ الإذنِ بالشَّفاعة

فعلُ التَّفزيع في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ كنايةٌ عن ابتداءِ الإذنِ بالشَّفاعة لمن شاءَ اللّٰهُ لهم أن يشفعوا، وهو ميقاتُ كشفِ الفزعِ من قلوب الشّافعين والمشفوع لهم، بكلمةٍ يتكلَّم بها اللّٰه تعالى في إطلاق الإذن، فيسأل بعضُهم بعضًا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا الحقَّ، أي: القولَ الحقَّ، وهو الإذنُ بالشَّفاعة لمن ارتضى[1]، فيكون التَّفزيع - أي: ذهاب الفزع - هو الكنايةُ عن الإذنِ بقبول الشَّفاعة لمن شاء اللّٰه تعالى.

فائدةُ حذفِ المفعول:

حذْفُ المفعولِ تكثيرٌ للمعنى وتوسيعٌ للدّلالة

حُذِفَ المفعولُ أو نائب الفاعل - على القراءتين - في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ والمفعول هو الوجل، والمعنى: (حتّى إذا جُلّي، وكُشِفَ الوجلُ والخوف عن القلوبِ، وانتفى عنها، وفني)[2]، فلم يُذكر (الوجل)؛ تهويلًا لشدَّةِ الموقف وعظيم ما يُفهم، وذهابًا في عموم المعاني؛ ليذهبَ ذهن المخاطَبِ في ألوانٍ من معاني الخوفِ من مشهد ذلك اليوم.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 544.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 590.

بيانُ ما اعترى القلبَ من حيثُ الفاعلُ والفعلُ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

اختلف القرّاءُ في قَوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾، فقَرَأَ ابن عامر ويعقوب: ﴿فَزَّعَ﴾ مَفتوحَةَ الفاءِ والزاي مُشدَّدةً، أي: بمعنى: كشف الله الفزع عن قلوبِهم[1]، وقَرَأَ الباقون: ﴿فُزِّعَ﴾ بِضَمِّ الفاء وكسر الزاي مُشدَّدةً[2] على البناء للمفعول، وفيه تعظيمٌ لأمر التَّفزيع، والقراءتان تلتقيان في معنى تجليةِ القلبِ وانكشافِهِ باعتبارِ الفاعل، وباعتبارِ ما اعترى القلب.

دلالةُ صيغةِ التَّفزيع:

التَّضعيفُ في الفعل ﴿فُزِّعَ﴾ في القراءتَين للإزالة، وهو يحصلُ لهم بانكشافٍ إجماليٍّ يُلهَمونه، فيعلمونَ بأنَّ الله أذِنَ بالشَّفاعة، ثمَّ يتطلَّبون التَّفصيلَ بقولهم: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾[3].

نكتةُ صيغةِ ﴿فُزِّعَ﴾:

تصويرُ عظمةِ الموقفِ يومَ القيامةِ

بُنيَ فعلُ التَّفزيع في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾، بصيغة (فَعَّلَ) المشدَّدة على القراءتين معًا، ومعناه الإزالةُ، (فَزَّعْتُ)، أي: أزلت الفزع عنه[4]، وبناؤُهُ للمفعول ﴿فُزِّعَ﴾؛ لتعظيم التَّفزيع لصدورِه عن جنابٍ عظيم، ففيه جانبُ الآذنِ فيه، وجانبُ المبلِّغ له، وهو الملك[5]، مع استحضارِ معرفةِ الفاعل، الذي أومأت إليه قراءةُ البناءِ للفاعل ﴿فَزَّعَ﴾.

دلالةُ حرف ﴿عَن﴾:

أفادَ حرفُ ﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ المجاوزة، أي: الابتعادُ، فأبعدَ عن قلوبِهم الفزعَ بعد أن كان حاضرًا ماكثًا جاثمًا.

(1) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 339.
(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 529، وابن الجزري، النشر: 2/ 351.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 189.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 418.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 189.

القلبُ هو الاسم العَلَم على الآلة المُميَّزة

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ القلوبِ:

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة القلوب في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ دون الأفئدة، وذلك أنَّ القلوبَ هي الاسم العَلَم على هذه القطعة الصنوبريَّةِ ذات الإدراك المعلوم، فالمناسبُ في هذا السّياق ذكرُ القلوب التي تُمثِّل المعنى بالتَّجرُّد عن أيِّ دلالةٍ أخرى، فإنَّ الأفئدةَ تُطلق في سياق الحديث عن توقُّدِ المشهدِ وعمل المشاعر في القلوبِ، فكان المناسبُ هنا استعمالَ لفظ القلوبِ دون الأفئدةِ.

اختصاصُ القلوبِ بالتَّفزيع في ذلك اليوم

دلالةُ إضافةِ القلوبِ إلى الضَّمير:

أُضيف لفظُ القلوبِ إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾، والإضافةُ بمعنى اللّام، وهي لبيان الملك أو الاختصاص، والضَّمير في ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾ عائدٌ على ما عادت عليه الضَّمائر التي للغيبة في قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ [سبأ: 22]، وقوله: ﴿وَمَا لَهُمۡ﴾ [سبأ: 22]، وقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم﴾ [سبأ: 22]، وهمُ الملائكةُ الَّذين دعوهم آلهةً وشفعاء، أو عموم المدعوّين من دونِ اللّهِ، أو يكون الضَّمير في ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾ عائدًا على عموم الراجين للشَّفاعة يوم القيامةِ المنتظرينَ لها(1).

بذهابِ التَّفزيع عن قلوبٍ يقع الحرمان في غيرها

بلاغةُ الاكتفاءِ:

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ حذفٌ تقديره: (فإذا أذن اللّه لمن شاء أن يشفعَ؛ زال الفزعُ عن قلوبهم، واستبشروا؛ إذ إنَّه فُزِّعَ عن قلوب الذين قُبلَتِ الشَّفاعةُ فيهم)، أي: (وأيس المحرومون من قَبول الشفاعة فيهم)، وهذا من الحذف المُسمّى بالاكتفاءِ، اكتفاءً بذكرِ الشَّيء عن ذكر نظيرِه أو ضدِّه، وحسنه هنا أنَّه اقتصارٌ على ما يسُرُّ المؤمنين الذين لم يتَّخذوا من دونِ اللّهِ أولياء(2).

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 418، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 543.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 189.

دلالةُ استعمالِ فعل القولِ في جملة الجواب:

تصويرُ المشهدِ بأبعادِهِ النَّفسيَّة والشُّعوريَّة

جاء فعلُ القولِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ ماضيًا لاستحضار المشهدِ المستقبلي يوم القيامة، باعتبارِ وقوعهِ وتحقُّق حصولهِ، وأُتي بفعل القول لبيان أنَّه بمجرَّد التَّفزيع عن القلوب، وذهاب الوجلِ والخوف، يقع منهم القولُ استفهامًا واستعلامًا عمّا قيل في ذلك المشهد المهول، وهو ما يُصوِّر حالَ القائلين النَّفسيَّ.

تعيينُ مرجعِ ضمير فعل ﴿قَالُواْ﴾:

المشـفـوعُ له مسارِعٌ للسُّؤال مبادرٌ للاطمئنان

ضميرُ فعل القولِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ عائدٌ على بعض مدلول قولهِ تعالى: ﴿لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾، وهم الذين أُذِنَ للشُّفعاء لِقَبول شفاعتهم فيهم، وهم يوجِّهون هذا الاستفهامَ إلى الملائكة الحافّين من حول العرشِ(1)، ودلَّ ضميرُ الجمع في ﴿رَبُّكُمۡۖ﴾ على جماعة الشُّهود لقول اللّه تعالى وأمّرِه بقبول الشَّهادة.

نوعُ الاستفهامِ ودلالته:

الاسـتـفـهـامُ حقيقيٌّ في كونِ المسؤول عنه غيرَ معلوم

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ﴾ حقيقيٌّ؛ لأنَّ المُستفهم يسأل حقيقةً، عن عدم معرفةٍ بإذنِ اللّه في الشَّفاعة، فكان الجواب: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾، أي: قالوا: (قال الحق)، بمعنى الإذنِ في الشَّفاعة لمن ارتضاهُ سبحانه من نبيٍّ أو صدّيق أو غيرهما، ويومِئُ الاستفهام إلى طلب الاستعانة بِمَن درجتُه عاليةٌ عند اللّهِ تعالى، ومن لديه العلمُ اليقينيُّ بنبأٍ عظيمٍ هو قولُ اللّهِ تعالى في قَبولِ الشَّفاعة أو عدم قبولها.

مرجِعُ الإشارةِ (ذا) ودلالتها:

الإشارةُ في اسم الاسـتـفـهـامِ للمشهد الواقع فيه الحدث

الإشارةُ (ذا) في اسم الاستفهام: ﴿مَاذَا﴾ عومِلَت معاملةَ الموصول؛ لأنَّ أصل ﴿مَاذَا قَالَ﴾ بمعنى: (ما هذا الذي قال؟)، فلمّا كثُر استعمالُها بدون ذكرِ اسمِ الموصولِ؛ قيل: إنَّ (ذا) بعد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 189.

الاستفهام تصير اسمَ موصولٍ، وقد يُذكر الموصول بعدها كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: 255][1]، وهذا من باب الاتّساع في التَّوجيه، وإلّا فاسم الإشارةِ في قوله تعالى هنا: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ راجعٌ إلى المشهد الذي انتُزِع منه الكلامُ.

بلاغةُ الكنايةِ:

جملةُ ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ كنايةٌ عن الأمر الإلهيِّ في الإذن من عدمِه، كأنَّه قيل: بماذا أمر ربُّكم؟ والسُّؤال يُبيِّن رغبةَ السّائل في المعرفةِ الدّالَّة على تشويق السّائلين.

نكتةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّة:

الرُّبوبيَّةُ عنوانُ التَّربيةِ والرَّحمة واللُّطف

جاء التَّعبيرُ بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ دون الألوهيَّة، لما في الرُّبوبيَّة من استدعاء قَبولِ الشَّفاعة التي كانت تدور في أذهانهم، وطلب الرَّحمة؛ لأنَّ المقامَ هو مقامُ ربوبيَّة، فالخالق الربُّ سبحانه هو الذي يُرتجى في هذه السّاعة منه القبول للشَّفاعة.

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾:

مَن خضعَ لِله فَهِم مراده

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ إلى ضمير المخاطَبين، ولم يأتِ بضمير المتكلِّم، كأن يُقال: (ماذا قال ربنا)، ذلك أنَّ الخطابَ مِنَ الأدنى إلى الأعلى، فالخطابُ من جهة الذين فُزِّع عن قلوبهم إلى الَّذين لم يصبْهُمُ الفزع أصلًا، فلمّا كان المتكلِّمون يبحثون عن الشَّفاعة؛ ناسب أن يكون الخطابُ متَّجهًا إلى مَن يعلمون بحقيقة الأمرِ، فيُسألون عن ذلك؟.

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ:

ضميرُ ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ عائدٌ إلى المسؤولين، وهم الملائكة المُقرَّبون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 190.

الذين قال اللّه تعالى فيهم: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: 172](1).

علّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلَها:

فُصِلَت جملة ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ عن جملة ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾؛ لأنَّها جوابٌ لها، فاقتضى عدم وصلها، على طريقة المحاوراتِ في القرآن.

بلاغةُ الاختزالِ بحذف العامل:

دلالـةُ كلمةٍ واحـدةٍ على جملةٍ متكاملةٍ مفيدةٍ

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ مجازٌ بالحذف، أي: (قالوا: قال: القول الحقَّ)(2)، وانتصاب الحقِّ على أنَّه مفعول ﴿قَالُواْ﴾ يتضمَّن معنى القول، أي: (قال: القول الحقَّ)، وهذا هو المعنى الذي يقتضيه نظمُ الآيةِ، ويلتئِمُ مع معانيها(3)، فكلمةُ ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾ وقعت حكايةً عمّا قاله اللّه تعالى، فجاءت كلمة ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾ مختزلةً لذلك كلِّه، فالذي صدر أقوالٌ مِن قبول شفاعةٍ في بعض المشفوع فيهم ومِن حرمانٍ لغيرهم، كما يقال - وللّه المثلُ الأعلى -: ماذا قال القاضي للخصم؟ فيُقالُ: قال الفصلَ، فهذا حكايةٌ لمقول اللّه بالمعنى(4).

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾:

دلَّ التَّعريفُ في (أل) على الحقِّ المُطلقِ في هذا الموقف، فهو تخصيصٌ لهذا الحقِّ؛ إذ اختصَّ اللّه تعالى في إطلاقه وقوله، فكلُّ ما صدر في حقِّ الشَّفاعة؛ فهو الحقُّ دونَ غيرِه.

نوعُ (الواو) ودلالتها:

جملة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ تتمَّةُ جواب المجيبين، فيها تعظيمٌ للّه بذكر صفتين من صفاتِ جلاله، وهما صفةُ العليِّ وصفة الكبير(5).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 189.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 148.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 190.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 190.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 190.

التَّعريضُ بالآلهةِ التي لا تتَّصفُ إلّا بصفات النَّقص والعجز

بلاغةُ التَّعريضِ بتقديم الضَّميرِ:

قُدِّمَ ضميرُ الشَّأنِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾؛ لإفادةِ تعريفٍ جديدٍ لبيان عظيم شأنِ القولِ الصّادر عن اللّه تعالى؛ إذ أفادَ تقديمُ الضَّمير (هو) الحصرَ، فهو وحده العليُّ الكبير الذي لا يصدر عنه إلّا الحقُّ، وأفاد هذا التَّقديمُ التَّعريضَ بالآلهةِ الَّتي لا يصدر عنها إلّا الباطل؛ إذ هي لا تتَّصف بهذه الصِّفات العليا، الدّالَّة على الكمال المطلق.

صفات الله مطلقةٌ في دلالاتها مختصَّة في ذاته

معنى تعريفِ صفتَي ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾:

جاءت صفةُ اللّهِ تعالى ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ معرفةً؛ للدَّلالةِ على الكمال، فلا علوَّ يُشابه علوَّه، فهو العليُّ على التَّحقيق وحده دونَ سواهُ، والعُلُوُّ: علوُّ الشمول لمنتهى الكمال في العلم، ومثلها صفة ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾، فهو وحده سبحانه الكبير دونَ سواهُ على التَّحقيق، والكِبَر: العظمة المعنويَّة، وهي منتهى القدرة والعدلِ والحكمةِ.

تقديمُ الأصلِ المناسب للسياق على تتمَّته وبيانه

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ على ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾:

تشيرُ هذه الآيةُ إلى كمال اللّه وعظيم قدرتِه، وعلوُّ اللّه مستعارٌ للجلال والكمال التّامِّ، ولهذا قُدِّمَ العلوُّ، والكِبَرُ مستعارٌ لتمام القدرة، أي: هو العليُّ الكبير دون ما يعبدون من دونِهِ سبحانه؛ إذ ليس لتلك الآلهةِ كمالٌ ولا قدرة ببرهان المشاهدة، فكيف يطلبون شفاعتَها؟[1] فقدَّم ذِكرَ ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾؛ لأنَّه الأصلُ في كمال العلم الإلهيِّ، وهو المناسب لذكر الحقِّ، وذكر ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ كالتَّتمَّة الدّالَّة على عظمة الرَّحمةِ ومنتهى الحكمة.

نكتةُ تخصيصِ صِفتَي ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ بالذِّكر:

خصَّ النَّظمُ هاتين الصِّفتين لمناسبة مقامِ الجواب، أي: قد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 317.

قضى بالحقِّ لكلِّ أحدٍ بما يستحقُّه، فإنَّه لا يخفى عليه حال أحدٍ، ولا يعوقه عن إيصالِه إلى حقِّهِ عائقٌ، ولا يجوز دونه حائل[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّفاعة والوَساطة:

ارتباطُ الشَّفاعةِ غالبًا بالآخرة، وعموم الوساطة

الشَّفْعُ: ضمُّ الشيءِ إلى مثلِه، والشَّفاعَةُ: الانضمامُ إلى آخر ناصرًا له وسائلًا عنه، وأكثر ما يُستَعمَلُ في انضمام مَن هو أعلى حرمةً ومرتبة إلى مَن هو أدنى، ومنه: الشَّفاعَةُ في القيامة، قال تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ۝٨٧﴾ [مريم: 87]، ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه: 109]، ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [النّجم: 26]، ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: 28]، ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر: 48]، أي: لا يشفع لهم، ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: 86]، ﴿مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ﴾ [غافر: 18][2].

أمّا الوساطةُ؛ فتشير إلى التَّوسُّط بين طرفين في موقفٍ أو نزاعٍ، سواء كان ذلك في الأمور الدُّنيويَّة أو الدّينيَّة، وقد يكون في الأمور الحسنة والسَّيّئة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 191.

(2) الأصفهانيّ، المفردات، ص: 457 - 458.

﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تقريرُ بطلانِ عبادة المشركين، ببيانِ عجزِ آلهتهم وإفراد الله بالقدرة المطلقة

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة ضعفَ الآلهة المزعومة وانتفاءَ جدواها في الدُّنيا والآخرة؛ ناسب الانتقال إلى بيان شأن الرَّبِّ المستحقِّ للعبادةِ سبحانه، بغرضِ إلزامهم ببطلان عبادتها بأنَّها لا تستحقُّ العبادة؛ لأنَّ مستحقَّ العبادةِ هو الذي يرزقُ عبادَهُ، فإنَّ العبادةَ شكرٌ، ولا يستحق الشُّكر إلّا المُنعم، وهذا احتجاجٌ بالدَّليل النَّظريِّ؛ لأنَّ الاعتراف بأنَّ اللّه هو الرّزّاق يستلزم انفراده بإلهيَّته، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾؛ إذ لا يجوزُ أن ينفردَ ببعضِ صفاتِ الإلهيَّة، ويشارك في بعض آخر، فإنَّ الإلهيَّة حقيقةٌ لا تقبل التَّجزئة والتَّبعيض[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرْزُقُكُم﴾: (رزق) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على عطاء لوقت، ثمَّ يُحمَل عليه غير الموقوت، فالرِّزقُ: عطاءُ اللّهِ جلَّ ثناؤه، ويقال: رَزَقَهُ اللّهُ رزقًا، وهو مرزوقٌ من كذا، وأجرى عليه رزقًا، والاسم: الرِّزق[2]، ومعناه في الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾: أنَّ اللّه هو الذي يرزقكم مِنَ السَّماوات والأرض، ويُنزل لكم المطرَ، ويُنبت لكم النَّبات، ويُفجِّر لكم الأنهار، ويُطلع لكم مِن ثمار الأشجار، ويجعل لكم الحيوانات جميعها لنفْعِكم ورِزْقِكم، فلِمَ تعبدونَ معه مَن لا يرزقكم شيئًا، ولا يفيدكم نفعًا؟.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 191 - 192.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (رزق).

2) ﴿هُدًى﴾: (هدي) أصلٌ يدُلُّ على تبيُّن الوجهة أو تبيينها بالتقدُّم أو الكشف، والهدى: الرَّشاد والدَّلالة ضدُّ الضَّلال مؤنَّثٌ، وقد حُكي فيها التَّذكيرُ، قال اللَّحيانيُّ: الهدى مذكَّرٌ[1]، والهدى في الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ دلَّت على العقيدة الصَّحيحة، والإيمان باللّه وحده، كونه الخالقَ الرّازقَ المُدبِّرَ للكون كلِّه.

3) ﴿ضَلَٰلٖ﴾: (ضلّ) أصلٌ يدلُّ على غياب شيءٍ في آخر حتى لا يتميَّزَ هذا عن ذاك، ومنه الضَّلالُ ضدُّ الهدى، تقول: ضلَّ في الأمر يضلُّ ضلالًا؛ إذا لم يهتدِ لَهُ، وضلَّ في الأَرْض ضلالًا؛ إذا لم يهتدِ للسَّبيل[2]، ومن المجاز: ضلَّ في الدّين، وهو ضالٌّ وضليلٌ وصاحب ضلالٍ وضلالة ومضلَّل، وقد ضلَّلته: نسبته إلى الضَّلال، وواقع في أضاليل وأباطيل، وقد تمادى في أضاليل الهوى[3]، ودلَّ قوله في الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ على ضلال العقيدةِ والانحرافِ في تقدير أمورِها، والرُّكون إلى المخلوقين في العبادة وطلب الشَّفاعةِ مِنهم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تأكيدُ التَّوحيدِ ومصدر نعمة الرِّزق

تُبيِّن الآيةُ الكريمة - وهي خطابٌ للنَّبيِّ ولكلِّ الدُّعاة مِن بعدِهِ - أهمّيَّة الإيمانِ والتَّفكُّر بعظيم شأن الخالق الرّازق المستحقِّ للعبادة وحده سبحانه، فقال: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فأشارت إلى أنَّ الرِّزق، سواءٌ أكان مِن السَّماء (كالغيث) أم من الأرض (كالخيرات)، هو من عند اللّه وحده، والآيةُ في شأن من يتَّخذون غير اللّه وليًّا ومعبودًا، ثم يرجون شفاعتَهُ يوم القيامةِ،

(1) ابن سيده، المُحكم: (هدي).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ضلّ).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ضلّ).

فالآيةُ تدعوهم إلى إعادةِ النَّظر في تفكيرهم، وتدعوهم إلى التَّفكُّر في مظاهر الرِّزق في حياتهم، وكيف أنَّ كلَّ ذلك ينتمي إلى قدرةِ اللّٰه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ يُشير إلى حوار بين النَّبيِّ ﷺ وقومه، فالآيةُ تُبيِّن أنَّ الخيارَ مفتوحٌ بينه وبينهم، كما أنَّ استخدام ﴿أَوۡ﴾ هنا يُظهر التَّباين بين المؤمنين والكافرين، ممّا يعكسُ أهمّيَّةَ اختيار السَّبيل الصَّحيح والعقيدة السَّليمة، وتُعدُّ الآية من الشَّواهد العظيمةِ في طلب التَّفاعل في الخطابِ؛ إذ إنَّ التَّوجُّهَ بالحديث إلى المخاطَبين يجعلُهم يشعرونَ بالمشاركة في النِّقاش، وفيه تعزيز الحوار لغرض الإقناع، وتحقيق الإيمان الصّادق الصَّحيحِ، رافضًا الإشراكَ باللّٰه وكلَّ ما يؤدّي إليه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ الجملة عمّا قبلها:

الانتقالُ من الإقناعِ بالإخبار الغيبيِّ إلى الإخبار المشاهد

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾ استئنافٌ، بينه وبين ما قبلَهُ كمال انقطاعٍ ممّا استدعى الفصلَ بينهما، لِما بين الجملتين مِنَ التَّباين والاختلاف التّامِّ بحيثُ لا يُتصوَّر عطفُ إحداهما على الأخرى، وذلك لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنًى.

تعيينُ مرجعِ ضميرِ المخاطَب:

المخاطَبُ بفعل القول في قولهِ تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾ رسولُ اللّٰه ﷺ، ويعمُّ الخطابُ كلَّ من سلك سبيلَ الأنبياءِ في الدَّعوة إلى اللّٰه تعالى وإلى الإيمانِ به.

دلالةُ الأمرِ في سياق الاحتجاج:

الاحتجاجُ بأسلوبِ السُّؤال والجواب في دعوةِ المخالفين

أمرَ اللّٰهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾ أن يُخاطِبَ المشركين بغرضِ الاحتجاج وإقامة الدَّليل، بتوجيه سؤالٍ يُقِرّون بمضمونه الحقيقيِّ، وهو: ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؟ ثم أمره أن يقتضبَ الاحتجاجَ بأن يذكر جواب السُّؤال؛ إذ هم في بهتة ووجمة من السُّؤال والإجابة عنه، وأُعيدَ فعلُ الأمرِ بالقول ﴿قُلِ﴾؛ لزيادة الاهتمام بالمقول، فإنَّ أصلَ الأمرِ بالقول في مقام التَّصدّي للتَّبليغ دالٌّ على الاهتمام، وإعادة ذلك الأمرِ زيادةٌ في الاهتمام(1).

غرضُ الاستفهام وفائدتُه:

تقريرُ المشركين بحقيقةِ التَّفرُّد الإلهيِّ في الرِّزق

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾؛ لتقرير المشركين بما سيأتي، وللتَّنبيه على الخطأ؛ ولذلك أعقبَ بالجواب من طرف السّائل بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ لتحقُّق أنَّهم لا ينكرون ذلك الجواب(2)، وفائدته: استدعاءُ الفكر وإعادة النَّظرِ في تعيين من يرزقُ على وجه التَّحقيق.

بلاغةُ استعمالِ الرِّزق بصيغة المضارع:

ذِكرُ الرِّزقِ لبيان عظم المنَّة الربّانيَّة على عباده

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ الرِّزق في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾؛ لتكون المنَّةُ أعظمَ، فالرِّزقُ هو الاسم العَلَم على العطاء الربّانيِّ من غير حسابٍ أو مقابلٍ، وهو المبثوثُ في السَّماوات والأرض، يراه الجميع بأعينهم، ويلمسون آثارَهُ بأيديهم، وهو يعمُّ كلَّ رزقٍ يصل الإنسان، فاجتمع في هذا اللَّفظ العمومُ ووضوح المقصود، وبه كانت المنَّةُ أعظمَ على العباد.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

ديمومةُ الرِّزقِ دليلٌ على الاستحقاق الرَّبّانيّ

دلَّ الفعلُ المُضارع في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾، على ديمومة الرِّزق وعدم انقطاعِه عن العباد، فرزقُ اللّهِ متجدِّدٌ، وبه تقع منَّةٌ أخرى وهو استمرار الرِّزق مع شركهم، ففيه أنَّ الرُّبوبيَّة لا تتوقَّف إن أخلَّ الناس بالألوهيَّة، وهذا دليلُ الرَّحمةِ الَّتي لا تصدر إلّا عن الخالق المستحقِّ للعبادةِ سبحانه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 192.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 192.

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ:

ضميرُ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ موجَّهٌ لكلِّ من يصلح له الخطاب مِنَ المشركين باللّه تعالى، المقرّين له تعالى بالرّازقيَّة.

فائدةُ التَّعبيرِ بالضَّمير دون الاسمِ الظّاهِرِ:

الامتنانُ على المخاطَبين بالرَّحمةِ الرَّبّانيَّة والرزق الدّائم

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ مفعولًا به، دون الاسمِ الظّاهر، فلم يقل: (قل من يرزق الناس)؛ وذلك لبيان عنايةِ اللّه بخلقه، فإن كانوا يُشركون معه غيرَهُ، فإنَّه سبحانه لا يمنع الرِّزق عنهم، ولا عن أحدٍ مِن خلقهِ، وتلك صفةُ الرَّحمة الرَّبّانيَّة التي استحقَّ بها العبادةَ والتَّقديس، ففيه امتنانٌ على المخاطَبين.

فائدةُ الطِّباق:

جمْعُ السَّماوات والأرض في قوله تعالى: ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ طباقٌ يدلُّ على شمول موارد الرِّزق وعموم مصادره؛ إذ يدلُّ ذلك على عظيم عنايتِهِ بخَلقِه.

علَّةُ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

تقديمُ الأصلِ على الفرع والعِلَّة على النَّتيجة

في قوله تعالى: ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، قُدِّمَ ذِكرُ العامِّ على الخاصِّ، والكُلِّ على الجزء، والمُحيطِ بالمحاط به، فقُدِّمَ رزق السَّماوات، كالماء الذي هو من جهةِ السَّماء، وهو سرُّ الحياة، على رزق الأرض، الذي يأتي لاحقًا بعد نزولِ الماءِ وإنباتِ الأرض، فهو مِن تقديم الأصل على الفرعِ، والعلَّة على النَّتيجة، ففي السَّماء تدبيرُ الأمر والأرزاق وإنزال المياه، ثمَّ ما يتبعه من إنباتِ سطحِ الأرض، وتكوُّن الرِّكاز والمعادن في جوفها.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لابتداء الغايةِ، أي مبتدئًا بالسَّماء، فيكون السَّببُ للرِّزق مبتدئًا بالسَّماء كالماء الذي ينزل من السَّماء، وفيه إشارةٌ إلى مصدريَّة الوحي.

نكتةُ المجازِ بالحذف:

في قولهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مجازٌ بالحذف، أي: مِن جهتِها، فالمجازُ باعتبار الجهةِ، ولمّا كان الأمرُ معلومًا؛ آثر النَّظمُ الإيجازَ، فإنَّ الرِّزقَ يأتي من الجهةِ العليا، وهي السَّماء.

معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وفائدةُ جمعِها:

تعدُّدُ الأماكنِ بحسبِ تنوُّعِ جهاتِ السَّماواتِ التي ينزل منها الماءُ

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ، فهي السَّماوات المعهودة للمخاطَبين، وهي الَّتي يأتي الماءُ مِن جهتها، وهي تختلفُ باختلاف المكان الذي ينزلُ فيه الماءُ، فجمعها باعتبار التَّعدُّدِ المكانيِّ، والرزق النّازل مِنَ السَّماء يختلفُ من مكانٍ لآخر، فملحوظٌ في جمع السَّماوات تعدُّدُ الأماكنِ التي يُصيبها الرِّزقُ، وهو يُبيِّن الاختلافَ بين الأماكن باعتبارِ تعدُّد السَّماء التي فوقها، وهو ما يُؤكِّد أنَّ المقصودَ من السَّماوات هو جهاتها لا ذاتها.

فائدةُ العطفِ بالواو:

شُمولُ جميعِ أسبابِ الرِّزقِ العُلويَّةِ والسُّفليَّة

الواو في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ حرفُ عطفٍ للجمع بين أسباب الرِّزق العُلْويَّة والسُّفْليَّة، وبين أسباب الرِّزق المرئيَّة التي في الأرض وغيرِ المرئيَّة الَّتي في السَّماء، وأسباب الرِّزق التي هي من عمل الإنسان، وتلك التي ليست مِن عملِه ولا تقديره.

معنى تعريفِ لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ونكتة إفرادِها:

ما مِن مكانٍ في الأرض إلّا وفيه نوعُ رزقٍ يمتنُّ اللهُ به على عباده

تعريفُ لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ، وهي الأرضُ الَّتي يخرج منها الرِّزقُ، فأفاد العهدُ شمولَ كلِّ ما ينقدح في الذِّهن من الأرضِ ممّا يخرجُ منه الرِّزق، فينتفعُ منه الإنسان والحيوان، من سهولِها وهضابِها وأنهارها وبحارها وغاباتها وصحاريها، كلٌّ يقدِّم للإنسان أسبابًا خاصَّة من عموم أسباب الرِّزق، وأفرد لفظَ الأرضِ؛ ليدلَّ على أنَّ الأرض المعهودة هي كلُّ الأرض، فلا يوجد مكانٌ في الأرض إلّا وفيه نوعٌ من أنواع الرِّزق، وهذا في غايةِ الامتنان.

بيانُ الجملةِ الثّانية للأولى إمّا على كمال اتّصال أو شبهه

علّةُ فصلِ الجملةِ عمّا قبلَها:

فُصِلت جملة ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ عمّا قبلها، إمّا على اعتبارِ أنَّها مبيِّنةٌ لِما قبلها، فتكون من قبيل كمالِ الاتِّصال للاتِّفاق التّامِّ بين الجملتين من حيث الإنشائيَّة بفعل الأمر ﴿قُلِ﴾، وإمّا باعتبار أنَّها جوابٌ عن سؤال، بقطع النَّظر عن اتِّحاد السّائل والمسؤول، فتكون من قبيلِ شبهِ كمالِ الاتِّصال.

تولّي الإجابةِ عن المسؤولِ إعراضٌ عن نطقِهِ وإطلاقٌ لاختياره

نكتةُ تولّي الإجابةِ بعد توجيهِ السُّؤال:

آثرَ النَّظمُ الكريم تولّي الجواب بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، وذلك للإشعار بأنَّهم مُقِرّون به بقلوبهم، إلّا أنَّهم ربَّما أبوا أن يتكلَّموا به؛ لأنَّ الذي تمكَّنَ في صدورهم مِنَ العِناد وحُبِّ الشِّرك قد ألجم أفواهَهم عن النُّطق بالحقِّ مع عِلْمِهم بصِحَّتِه، ولأنَّهم إن تفوَّهوا بأنَّ اللهَ رازقهم؛ لزمهم أن يقالَ لهم: فما لكم لا تعبدونَ من يرزقكم، وتؤثرونَ عليه من لا يقدر على الرِّزق، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [يونس: 31]، حتى قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ [يونس: 31]، ثم قال: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: 32]، فكأنَّهم كانوا يُقِرّون بألسنتهم مرَّةً، ومرَّةً كانوا يتلعثمونَ عنادًا وضرارًا وحذارًا من إلزام الحُجَّة، ونحوه قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ [الرعد: 16][1].

تناسُبُ الاسم الجليل مع مقصودِ الآية لا موضوعها

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم الجليلِ:

آثرَ النَّظمُ الجليلُ الإتيانَ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُۖ﴾ دون عنوانِ الرُّبوبيَّة، في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، وسياقُ الآية في الرِّزق، وهو من مقتضيات توحيد الربوبيَّة، وذلك أنَّ الآيةَ ذكرتِ المتناسبَ مع مقصودِها لا موضوعها، ومقصودُ ذكرِ الرِّزق في هذا السّياق

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 590.

الاستدلالُ على استحقاقهِ ﷻ العبادة دون شريكٍ، فناسب مقصودُ الآية الإتيانَ بالاسم الجليل دون الرَّبِّ ونحوه.

نكتةُ حذفِ المسندِ:

حُذِفَ المسندُ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، فلم يقل: (قل الله يرزقكم)؛ وذلك للإيجازِ، ولإبراز المقصودِ من الاقتصارِ على ذكرِ المسندِ إليه، فهو مقصودُ الكلام.

بلاغةُ الوصلِ بين الجُمل:

التَّواصل البلاغيُّ بين الجمل في سياق الدَّعوة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ عاطفةٌ على قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، فيُقدَّرُ فعل أمرٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: (وقل: إنّا أو إيّاكم)، فاتَّفقتِ الجملتان في الإنشاءِ، واختلفتا في المعنى، فيكونُ بينهما ما سمّاه البلاغيّون بالتَّوسُّط بين كمال الانقطاع وكمال الاتِّصال.

فنُّ الاستدراجِ في الخطاب:

استدراجُ المنكرِ المعاندِ أقوى في إلزامهِ وأرسخُ في إذعانِهِ

تضمَّن قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ الإنصافَ واللُّطفَ في الدَّعوة إلى الله، والمعنى: (إنَّ أحد الفريقين منّا ومنكم لَعَلى أَحَدِ الأمرين من الهدى والضَّلال)، فأخرج الكلام مخرج الشَّكِّ والاحتمال، ومعلومٌ أنَّ مَن عبدَ الله، ووحَّدَهُ هو على الهدى، وأنَّ من عَبَدَ غيرَه من جماد أو غيره في ضلال، والرَّدُّ بالتَّورية والتَّعريض أبلغُ من الرَّدِّ بالتَّصريح، وهذا النَّوع يُسمَّى استدراج المخاطَب[1]، فيكون بذلك قد استدرجَ الخصم، واضطرَّه إلى الإذعان والتَّسليم، والعزوف عن المكابرة واللَّجاج[2].

ويمكن أن يتضمَّن معنى الجملةِ استنقاصَ المشركين والاستهزاء بهم، وقد بَيَّنوا أنَّ آلهتهم لا ترزقُهم شيئًا، ولا تنفعُ، ولا تضرُّ،

(1) استدراج المُخاطَب: أنْ يذكر له أمرًا يسلمه، وإن كان بخلاف ما ذكر حتى يصغي إليه إلى ما يلقيه إليه، إذ لو بدأ به بما يكره، لم يصغِ، ولا يزال ينقله من حال إلى حال حتى يتبيَّن له الحق، ويقبله.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 22/ 221.

فأراد الله مِن نبيِّه أن يوَبِّخَهم، ويستنقصَهم، ويُكَذِّبَهم بقولٍ غير مكشوف، إن كان ذلك أبلغَ في استنقاصِهم[1].

التَّأكيدُ على الانفصال التّامِّ بين الهداية والضَّلال

فنُّ اللَّفِّ والنَّشر المرتَّب:

قُدِّمَ ضميرُ المُتكلِّمين على ضمير المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾، ثمَّ أتبعها بقوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فيكتمل معها لفٌّ ونشرٌ مرتَّبٌ، فيكون المتكلِّمون بحسب ذلك هم المَعنيّون بالهداية، والمُخاطَبون هم الذين على ضلالٍ مبينٍ، وهي إشارةٌ بيانيَّةٌ بديعةٌ في بيان المهتدي من الضّالِّ.

حروفُ المعاني خادمةٌ لمقاصد المباني

معنى ﴿أَوْ﴾ ودلالتُها في الجملةِ:

أفاد حرفُ ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الإبهامَ على السّامع، والتَّخييرَ بين المعطوفين بأن يمتنعَ الجمعُ بينهما[2]؛ إذ أخرج الكلام مخرجَ الشَّكِّ في اللَّفظ دونَ الحقيقةِ لضربٍ من المسامحةِ وحسم العناد، وهو يعلم أنَّه على الهدى، وأنَّهم على الضَّلال، لكنَّه أخرجَ الكلامَ مخرجَ الشَّكِّ تقاضيًا ومسامحة، ولا شكَّ عنده ولا ارتياب[3].

الهُدى والضَّلال حالتان متناقضتان لا يجتمعان في ذاتٍ واحدةٍ

فائدةُ العطفِ بحرفِ التَّرديد ﴿أَوْ﴾:

استُعمِلَ حرفُ ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ لإبرازِ المقصد بطريقةٍ خفيَّةٍ توقِع الخصمَ في شَرَكِ المغلوبيَّة، وذلك بترديد حالَتَي الفريقين بين حالة هُدًى وحالة ضلال؛ لأنَّ حالةَ كلِّ فريقٍ لمّا كانت على الضِّدِّ من حال الفريق الآخر بين موافقة الحقِّ وعدمها؛ تعيَّن أنَّ أمرَ الضَّلال والهدى دائرٌ بين الحالتين لا يعدوانهما، ولذلك جيءَ بحرفِ ﴿أَوْ﴾ المفيد للتَّرديد[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 546 - 547.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 208.
(3) الزّركشي، البرهان: 3/ 409.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 192.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

مضمونُ الخطابِ للمشركين أصالةً ولغيرِهم تبعًا

المقصودُ بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكُمْ﴾ المنكرون والمعاندون، فيكون مرجعُهُ إلى كلِّ منكرٍ معاندٍ للرِّسالة السَّماويَّة، في زمان الرَّسول ﷺ، وفي كلِّ زمان؛ لتشمل المُعاندين جميعًا، فتجعلهم في خانةٍ واحدةٍ، ويكون الخطابُ عليهم حُجَّةً حيثما كانوا.

نوعُ (اللّام) وفائدتها:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ لامُ التَّوكيد، وهي تُستخدم لتأكيد الجملة، فهي زائدة للتَّوكيد؛ إذ أفادت عدمَ اجتماع الفريقين على حالة واحدة، والمُفاصلة بينهما.

بلاغةُ الاستعارةِ باستعمالِ حرف الاستعلاء:

تمكُّنُ المهتدي في تصرُّفه ليبلغ مقصدَه

دلَّ حرف (على) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾، على الاستعلاء المجازيِّ، فجعل الهدايةَ رفعةً وعلوًّا، وجعل المهتدين مستعلين على ذلك العلوِّ، وجيء في جانب أصحاب الهدى بحرف الاستعلاءِ المستعار للتَّمكُّن تمثيلًا لحال المهتدي بحالِ متصرِّفٍ في فرسهِ يُركِضُهُ حيث شاءَ، فهو متمكِّنٌ من شيء يبلغ به مقصده، وهي حالةٌ مماثلة لحال المهتدي على بصيرةٍ، فهو يسترجعُ مناهجَ الحقِّ في كلِّ صوب، متَّسع النَّظر، منشرح الصَّدر: ففيه استعارةٌ تمثيليَّةٌ مكنيَّة وتبعيَّة[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿هُدًى﴾، ولطيفة تنكيره:

الهدى أصلُ النَّجاة في الدّارَين وثمرةُ العبادةِ

عبَّرَ بالهداية في قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾؛ لأنَّها المُرادةُ في الخطاب، فمنِ اهتدى؛ فهو على الحقِّ، ومن ضلَّ؛ فهو على الباطل، وتنكير ﴿هُدًى﴾ للتَّعظيم، أو هي عمومُ الهدايةِ الدّالَّةِ على التَّواصل باللّه تعالى، إذ ما دام الإنسان على هدًى مِنَ اللّه، فهو على خيرٍ عظيمٍ، وقد حقَّق عمومَ المراد منه في الدُّنيا والآخرة، وفي الهدى معنًى الميلِ، فإذا مال الإنسانُ إلى الخيرِ؛ تمكَّنَ فيه، وثبت عليه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 193.

نكتةُ تقديم ﴿هُدًى﴾ على ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

قُدِّمَ ذِكرُ الهدى على الضَّلال في قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٍ﴾؛ لتقديم المتكلِّمين (إنّا) على المخاطَبين، ولتقديم مكانة الهداية على الضَّلال، ففيه حثٌّ عليها وطلبٌ لتحقيقها.

نكتةُ العطفِ بحرف ﴿أَوۡ﴾:

الاختيارُ بين الهدى والضَّلال طريقٌ مبين

حرف ﴿أَوۡ﴾ موضوعٌ للتَّخيير بين شيئين أو أشياء[1]، فأفاد العطفُ بحرف ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٍ﴾ التَّخييرَ بين الهدى والضَّلال اللَّذَين لا يُمكن أن يجتمعا في اعتقادٍ واحدٍ، وفي إنسان واحد، فلا يصحُّ أن يكونَ الطَّرفان على هدًى أو كلاهما على ضلال، ولو وُضِعَ حرف (الواو)؛ لأفاد الجمعَ بين الهدى والضَّلال، وهذا مُحالٌ.

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمال حرف الظَّرفيّة:

بيانُ شدَّةِ تلبُّس الضّالِّ بالوصف تمثيلٌ لحالِهِ وبيانٌ لبُعده

حرفُ ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ فِي ضَلَٰلٍ﴾ للظَّرفيَّة المجازيَّة، وذلك لبيانِ أنَّ الضّالَّ مُنغَمِسٌ في حيرةٍ، مرتبكٌ فيها، لا يدري أين يتوجَّه[2]، ولبيان شدَّة التَّلبُّس بالوصف تمثيلًا لحالهم في إحاطة الضَّلال بهم بحال الشَّيء في ظرفٍ مُحيطٍ به، لا يتركه يفارقه، ولا يتطلَّع منه على خلاف ما هو فيه من ضيقٍ يلازمُه، ففيه أيضًا استعارةٌ تمثيليَّةٌ تبعيَّةٌ[3].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾، ولطيفة تنكيره:

مقابلةُ الضَّلال للهدى تعيينٌ لنوعِ الضَّلال

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿ضَلَٰلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ فِي ضَلَٰلٍ﴾ دون رديفاتِها ومقارباتِها؛ للتَّنبيه على أنَّ الضَّلال هو ضياعٌ وتيهٌ عن الحقِّ والصواب، ولمّا قابل الهدى كان ضياعًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 547.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 548.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 193.

عن الإيمان، فأتى بالضَّلالِ ليُبيِّن أنَّ هؤلاء المشركين إنَّما اختاروا الطَّريق المقابل للهدايةِ، وهم في حال ضياعٍ، واختيارُهم أورَدَهم مهالك الفحش والسّوء، ونُكِّرَ لفظُ الضَّلال لتهويله، فهو الضَّلال المُهلك، كما أنَّ النَّجاةَ في الهدى المقابل.

نُكتَةُ التَّقييدِ بالوصف:

تــــرْكُ وصــفِ المهتدين مدحٌ يُقابله تعريضٌ بالضّالّين

جاءَ وصفُ الضَّلال بالإبانة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ولم يوصف الهدى المقابل له بذلك؛ وذلك أنَّ حقيقةَ الهدى مقول عليها بالتواطؤ، فالإيمانُ لا يزيد، ولا ينقصُ في ذاته، وإنَّما زيادته بكثرة الطّاعات، وأمّا الكفرُ؛ فيكونُ بإنكار بعض المعتقداتِ، وبإنكار جميعها، وكلُّ ذلك يصدق عليهِ الكفرُ، ولذلك قيل: كفرٌ دون كفرٍ، فوصف كفرهم بأنَّه أشدُّ الكفرِ، فإنَّ المبينَ هو الواضح في جنسهِ البالغ غاية حدِّه[1]، وللتَّعريض بالمشركين بأنَّ ضلالَهم مبينٌ بعد ذكرِ الأدلَّة والبراهين على الحقِّ، وأمّا الهدى؛ فلم يوصف بالمبين؛ لأنَّ السياقَ جاء لتسجيل الغواية على المشركين، لا لبيانِ أنَّ المؤمنين على الهدى المبين، فهذا أمرٌ واضحٌ لا يخفى، فترْكُ الوصفِ للمهتدين زيادةٌ في المدحِ.

فائدةُ التَّقسيمِ والمقابلة:

شـمـولـيَّـةُ التَّقسيم للنّاس فَـهُـم ما بين مهتدٍ وضالٍّ ولا ثالثَ لهما

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مقابلةٌ بين الاستعلاء والظَّرفيَّة والهدى والضَّلال، أفادت هذه المقابلةُ الإحاطةَ والشُّمولَ بجميع النّاس؛ إذ لا بدَّ أن يكون كلُّ إنسانٍ على هدًى أو في ضلالٍ، على حسب معتقدِهِ وعملِهِ، وقد أفاد فنُّ التَّقسيم تفصيل حال الهدى وحال الضَّلال على الفريقين المتكلِّمين والمخاطَبين، فذُكِرَ الفريقان معًا بقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾، ثُمَّ أُضيفَ إلى كلٍّ من أفرادِهِ ما له على جهة التَّعيين فقال: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 193.

إذ عُلِمَ من هذا التَّقسيم أنَّ القائلين على الهدى، وأنَّ المخاطَبين على الضَّلال، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يوجد قسيمٌ ثالثٌ، فإمّا هداية مقبولةٌ عند اللّه تعالى، وإمّا غواية مهلكةٌ في نار جهنَّم.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل:

إسنادُ الإبانةِ للضَّلالِ مجازٌ يُصوِّر تمكُّنَ الضَّلال من أصحابه

جاء وصفُ الضَّلالِ في قوله تعالى: ﴿ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، باسم الفاعل ﴿مُّبِينٖ﴾، فأُسنِدَتِ الإبانةُ للضَّلالِ من باب المجاز العقلي، فالذي يقوم بالفعل هو الضَّلالُ، فصار الضَّلالُ فيهم ذا فاعليَّةٍ قادرة على الإحاطة بهم، فلا تخرج أفعالُهم وتصرُّفاتهم عن وصفها بالضَّلال المبين، وهو تصويرٌ لحالهم مع الضَّلال، ووصفٌ لحالِهم بأنَّهم في ضلالٍ غير مبهم، وغير غامض، وهو ما يدلُّ على أنَّ اللّه تعالى قد أبان لهم طريقَ الحقِّ والخير، وهم قد اختاروا طريقَ الباطل والغيِّ.

بلاغةُ التَّعريضِ بفنِّ اللَّفِّ والنَّشر:

التَّقسيمُ يومئُ إلى ترجيح أحدِ الجانبين وإغفال الآخر

من لطائفِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أن اشتمل على إيماءٍ إلى ترجيح أحدِ الجانبين في أحدِ الاحتمالين بطريق مقابلةِ الجانبين في ترتيبِ الحالتين باللَّف والنَّشر المرتَّب، فقد ذُكِرَ ضميرُ جانب المتكلِّم وجماعته وجانب المخاطَبين، ثمَّ ذُكِرَ حالُ الهدى وحال الضَّلال على ترتيب ذِكْرِ الجانبين، فأومأ إلى أنَّ الأوَّلين موَجَّهون إلى الهدى، والآخرين موَجَّهون إلى الضَّلال المبين، لا سيَّما بعد قرينةِ الاستفهام، وهذا أيضًا من التَّعريض، وهو أوقعُ من التَّصريح لا سيَّما في استنزالِ طائرِ الخصم[1].

فنُّ تجاهلِ العارفِ:

تجاهلُ العارفِ موصلٌ للمقصود

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ فنٌّ بديعيٌّ، وهو تجاهلُ العارف[2]، وذلك أنَّه جعلَ أحدَ الفريقين إمّا أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 192.

(2) تجاهل العارف: هو أسلوب بلاغي يستخدمه المتكلّم عن أمر يعلمه حقيقة لكنّه يتظاهر بعدم معرفته ليخرج كلامه مخرجًا آخرَ؛ مدحًا أو ذمًّا أو تعجيبًا أو تقريرًا أو توبيخًا، ونحوها، يُنظر: ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ص: 5.

يكون على هدًى أو في ضلالٍ مبين، متجاهلًا أنَّه يعلم علمَ اليقينِ أنَّ مَن آمن بالله هو على الحقِّ المبين، وذلك لإيصالِهم إلى المقصود، واستنزالهم إلى ساحة البحثِ عنِ المعبود.

نكتةُ المخالفةِ بين الحروف:

تباينُ الحرفين ثمرةُ تباينِ المآلين

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ﴾ مخالفةٌ بين الحروف، فورد (على)؛ للدَّلالة على العلوِّ مع الهدى؛ ليدلَّ على مكانة الهدى ورفعته، وورد ﴿فِي﴾ مع الضَّلال؛ ليدلَّ على الاحتواء والضّيق والتَّضييق والانفصال عن عالم الحقِّ والصِّدق، فإنَّه إنَّما خولف بينهما في الدُّخول على الحقِّ والباطل؛ لأنَّ صاحبَ الحقِّ كأنَّه مستَعلٍ على فرسٍ جوادٍ يركضُ بهِ حيث شاء، وصاحبُ الباطلِ كأنَّه منغمسٌ في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يَتوجَّه[1].

الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

الرِّزقُ والعَطاء والهِبَة:

الــرِّزقُ أعــمُّ الأعــطــيــات، والإعــطــاء الــواصــل إلى الآخذ، والهبة تُطلق على التَّمليك

الرِّزق: اسْمٌ لِما يملك صاحبه الانتِفاع بِهِ، فَلا تجوز منازعته فيهِ، أَمّا الإعطاء؛ فهوَ اتِّصالُ الشَّيءِ إلى الآخِذ لَهُ، والهِبَة تقتَضي التَّمليك، فإذا وهبته لَهُ؛ فقد ملَّكته إيّاه، ثمَّ كثر استِعمال الإعطاء حَتَّى صار لا يُطلق إلّا على التَّمليك، فَيُقال: أعطاهُ مالًا؛ إذا ملَّكه إيّاه، والأَصل ما تقدَّم[2].

الهدى والرَّشاد:

الرُّشدُ يُستعمل في الخير، والهدى في الخير أصالةً وفي الشَّرِّ تهكُّمًا

الرَّشَدُ والرُّشْدُ: خلاف الغيِّ، يُستعمل استعمالَ الهداية، يقال: رَشَدَ يَرْشُدُ، قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: 186]، وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256]، وقال تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ [النساء: 6]، وهو الرُّشدُ المؤنسُ مِن اليتيم، وقال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 591.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 167.

﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: 66]، أمّا الهدى؛ فهو الدَّلالةُ بلطف، ومنه: الهديَّة، وخصَّ ما كان دلالةً بـ(هديتُ)، وما كان إعطاءً بـ(أهدَيتُ) نحو: أهديت الهديَّة، وهُديت إلى البيت، وجاءت الهدايةُ في غير الخيرِ، قال تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات: 23]، ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾ [الحج: 4]؛ إذ استُعمِل ذلك على سبيل التَّهكُّم مبالغةً في المعنى كقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21]، فمن الفروق بين الهُدى والرَّشاد أنَّ الرَّشادَ جاء في الخيرِ فقط، والهدى جاء في الخير أصالةً، وفي الشَّرِّ تهكُّمًا ومبالغةً في المعنى، فقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فقدِ احتمل أن يجدَ هؤلاء المخاطَبون أنفسَهم على الهدى، فإنَّما هو الذي يهدي إلى سواءِ الجحيم، فيأخذ حينئذٍ المعنى اللُّغويَّ لا الشَّرعيَّ.

الضَّلالُ والغوايةُ:

أصلُ الضَّلالِ الهلاك، وأصلُ الغيِّ الفساد

أصلُ الغيِّ الفسادُ، ومنه يُقال: غوي الفصيل؛ إذا بشم من كَثْرَة شرب اللَّبن، وإذا لم يَرْوَ مِن لبن أمِّه، فَماتَ هزلًا، فالكلمة مِنَ الأضداد، وأصل الضَّلال الهَلاكُ، ومنهُ قَوْلهم: ضلَّت النّاقةُ؛ إذا هَلَكت بضياعها، وفي القُرآن: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السَّجدة: 10]، أَي: هلكنا بتقطُّع أوصالنا، فالَّذي يوجبهُ أصلُ الكَلِمَتَينِ أَن يكونَ الضَّلالُ عن الدّين أبلغَ من الغيِّ فيه، ويُستَعْمل الضَّلالُ أَيْضًا في الطّريق، كما يُستَعمل في الدّين، فَيُقال: ضلَّ عن طريق كذا: فارقه، وهذا معناه اللُّغويُّ، ولا يُستعمل الغيُّ إلّا في الدّين خاصَّةً، فَهَذا فرقٌ آخر، ورُبَّما اسْتُعْمِل الغيُّ في الخيبة، يُقال: غوى الرَّجل؛ إذا خابَ في مطلبه[1].

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغوية، ص: 214.

﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦﴾

[سبأ: 25 - 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إيقاظُ النُّفوس ووعي القلوب

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة الرَّزّاق الحقيقيَّ؛ لتقرير المستحِقِّ للعبادةِ الحقَّة، وبيَّنت أنَّ النّاس إمّا على هدًى أو في ضلالٍ مبينٍ؛ ناسب الانتقال إلى تخليص المخاطَبين من أيِّ تبعةٍ قام بها المتكلِّمون، ولو بلغ مبلغَ الإجرام، كأنَّه قيل: دعوا عنكم أمرَ إجرامنا، والتفتوا إلى أعمالِكم الَّتي لن نُسألَ عنها كذلك؛ لأنَّ اللّه سيجمعُ بيننا ليحكم بيننا بالحقِّ المبين.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجۡرَمۡنَا﴾: (جرم) أصلٌ يدُلُّ على القطع بعد التَّمام، فالجَرْم: القطع، وجَرَمَ التَّمرَ: قَطَع عُذوقَهُ المتدلّية مِنَ النَّخل جَنْيًا لَهُ، وجَرَمَ النَّخلَ: خَرَصَهُ، وجَزَّهُ، والجُرامة: ما سقطَ مِنَ التَّمرِ، ويُسمّى الكثيف المتجمِّع من التَّمر المتساقط جِرْمًا، ومن ذلك قولهم: أُلقي عليه أَجْرامه، أي: ثِقَل جِرْمه، وقولهم: أعطيتُهُ كذا وكذا جَريمًا من طعام، أي: مُدًّا، ومن هذا البابِ أُطلِقَ الجُرْمُ على الذَّنب الغليظ دون مطلق الذُّنوب، فالمُجْرِم: من حمل جُرمًا كالآثِم والأوزار ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13]، وقد فُسِّر لفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾ [الأعراف: 40] في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾ [الأعراف: 40] بالكافرين، ولا وِزْرَ أثقلُ من الكفر والعياذ باللّه تعالى، فمعنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾، أي: لا تُسألون عن ذنوبنا لو أذنبنا[1].

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جرم).

2) ﴿يَجۡمَعُ﴾: (جمع) أصلٌ يدُلُّ على تضامِّ الشَّيء، يقال: جمعت الشَّيءَ جمعًا[1]، والمجمع حيث يُجْمَعُ النّاس، وهو أيضًا اسمٌ للنّاس، والجَماعَةُ: عددُ كلِّ شيءٍ وكثرته[2]، والمقصودُ في الآية: هو جمعُ النّاس يوم القيامة لحسابهِم وجزائِهم.

3) ﴿يَفۡتَحُ﴾: (فتح) أصلٌ يَدُلُّ على خلافِ الإغلاقِ، يقال: فتحتُ البابَ وغيرَه فتحًا، ثمَّ يُحمل على هذا سائرُ ما في هذا البناءِ، فالفتحُ: الحكم، واللّه تعالى الفاتحُ والفَتّاحُ، أي: الحاكم[3]، والفَتْحُ: أنْ تحكُمَ بين قَومٍ يختَصِمون إليكَ، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 89]، والفَتْحُ: النُّصرةُ، قال تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ [الأنفال: 19][4]، وقوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: يحكُم بيننا حُكمًا، يتبيَّن به الصادقُ مِن الكاذب، والمستحِقُّ للثواب مِن المستحِقِّ للعقاب.

المَعْنى الإجْماليُّ:

كـلُّ إنسـانٍ مسـؤولٌ عن عملِه في الدُّنيا وسـيأتي يـوم القيامة فردًا

تُبيِّن الآيتان الكريمتان الإرشادَ الإلهيَّ لنبيِّنا محمَّد ﷺ، في بيان موقفه من أعمالِ المدعوّين، وبيان موقف المدعوّين مِن أعماله، فكلُّ إنسانٍ رهينُ أعمالهِ، وليس لأحدٍ أن يُحاسَبَ على أفعال غيرِه، فتؤكِّد هذه الآيةُ على مبدأ الفرديَّةِ في الحساب يوم القيامة، حيث يُحاسَبُ كلُّ إنسانٍ على أعماله الخاصَّة.

كما بيَّنت أنَّه سيجمع النّاس كُلَّهم يوم القيامة، ويكون الفصلُ بينهم بالحقِّ، وأنَّ اللّه هو ﴿ٱلۡفَتَّاحُ﴾ بمعنى: أنَّه سيُظهر الحقَّ، ويكشفه، و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بمعنى: أنَّه يعلم كلَّ شيء، بما في ذلك أعمال العباد ونيّاتهم.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(2) الخليل، العين: (جمع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتح).
(4) الخليل، العين: (فتح).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الجملة عمّا قبلَها:

التَّفريقُ بين الأفعال الفرديَّة ومبدأ المسؤوليَّة في الاحتجاج

لمّا كان قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ يتضمَّن بيانًا للقول الذي قبله، فُصِلَ عنه؛ إذ لا يعطف البيان على المبيَّن بحرف النَّسق، فالجملةُ الثانية بيانٌ للأولى، وكلاهما إنشاءٌ بالأمر ﴿قُل﴾، فإنَّه لمّا ردَّد أمرَ الفريقين بيَّن أن يكونَ أحدهما على هدًى والآخر في ضلالٍ، وكان الضَّلال يأتي بالإجرام؛ اتَّسع في المحاجَّة، فقيل لهم: (إذا نحن أجرمنا؛ فأنتم غيرُ مؤاخذين بجُرْمِنا، وإذا عملتم عملًا؛ فنحنُ غيرُ مؤاخذين به)، أي: كلُّ فريقٍ مؤاخذٌ وحدَهُ بعملِه، فالأجدى بكلا الفريقين أن ينظرَ كلٌّ في أعمالِه وأعمال ضِدِّه؛ ليَعلم أيُّ الفريقين أحقُّ بالفوز والنَّجاة عند الله؟.

ويجوز أن تُعدَّ الجملةُ استئنافًا ابتدائيًّا، وفائدتُه أن تكونَ الجملةُ مستقلَّةً بنفسها ليخصَّها السّامع بالتَّأمُّل في مدلولها، وهي مع ذلك اعتراضٌ بَيِّنٌ أثناء الاحتجاج[1].

غرضُ فعلِ الأمر ﴿قُل﴾:

قُدسيَّةُ الخطابِ الإلهيّ وأثرُه في توجيه الرِّسالة

قوله تعالى ﴿قُل﴾ أمرٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ، جاء للإرشاد والبيان والتَّعليم لِما سيقولُهُ للمخاصمين، وهو أمرٌ لأمَّته أن يتنزَّلوا مع الخصوم في الدَّعوة إلى الحقِّ المبين، وفي ذلك دلالةٌ على معجزةِ هذا الخطاب، فهو القولُ النّافع في الدَّعوة، وهو المبيِّن للعلم الإلهيِّ في الكشفِ عن حقائق النَّفس البشريَّة.

نكتةُ تكرارِ فعل الأمر:

العنايةُ بالمخاطَبين بإعادة خطابٍ يحمل مضمونًا جديدًا

أُعيدَ فعلُ الأمر ﴿قُل﴾ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾؛ لأنَّه بيانٌ للجملة السّابقة، ولإقامة هذه الجملة: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ باستقلالٍ عن الجملة السّابقة، فهي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 193 - 194.

أمرٌ مستقلٌّ يأخذ مكانه في الدَّعوة والخطاب، فَفِعلُ الأمر يُبيِّن فعلَ الأمر، بأن يقولَ لهم مقالًا آخر، لزيادة الاهتمام، واستدعاء المخاطَبين للإصغاء إليه، وهذا أسلوبٌ دَعَويٌّ مُهِمٌّ يعلِّمُ القرآنُ مِن خلاله الدُّعاةَ التَّردادَ والتَّكرارَ وعَدَمَ اليأس من خطاب المنكرين.

فائدةُ حرف النَّفي ﴿لَّا﴾ ودخوله على المضارع:

المسـؤوليَّـةُ منوطةٌ بالفاعلِ، منفيَّةٌ عن عموم البشر

النَّفيُ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ جاء بحرف ﴿لَّا﴾؛ للدَّلالةِ على عمومِ النَّفي، وأنَّه متَّجِهٌ للماضي والحاضر والمستقبل، ففيه أنَّ كلَّ إنسانٍ محاسبٌ على فعله في الزَّمان كلِّه، وجاء فعل ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ مضارعًا لتوكيد معنى العموم، وبيان نفي كلِّ متجدِّد، في الحاضر والمستقبل، أي: لا تُسألون عن أعمالِنا الماضية والحاضرة والمستقبليَّة.

بلاغةُ الكنايةِ في استعمالِ لفظِ السؤال:

استعمالُ اللَّفظِ في بيان الغاية ووسيلتها

لفظُ السُّؤالِ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كنايةٌ عن أثرِه، وهو الثَّواب على العمل الصّالح والجزاء على الإجرام بمثلِه[1]، وجيءَ بلفظ السُّؤالِ باعتبار أنَّ الفاعلَ يُجازى على فعله - إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ - بتوجيهِ السُّؤال عن أعمالِه، فجَمَعَ هذا اللَّفظُ بين المحاسبة وأداتِها، وهو السُّؤال.

تعيينُ المقصودِ بضمير المخاطَبين:

المرادُ بالمخاطَبين في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ المنكِرون والمعاندون والمعارضون مِن مشركي قريش، وهو صالحٌ لكلِّ ضالٍّ ابتداءً، ولكلِّ عاصٍ مِمَّن لا يستجيب للدَّعوة.

معنى (عَنْ) ودلالتها:

كلُّ إنسانٍ مُبعَدٌ عن أعمالِ غيرِه مـجـازًى عن أعمال نفسِه

أفاد حرفُ (عَنْ) في قولِه تعالى: ﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ معنى المجاوزة والابتعاد، فجُعِلَ الإجرامُ المفترض في دائرة، والمخاطَبون في دائرةٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 194.

أخرى، والمخاطَبون مبتعدون عنها، لا يقربونها، أي: (لا تُسألون أيُّها المخاطَبون)، فجعلهم منصرفين عمّا أجرمَ غيرهم، وغيرهم منصرفون عن أعمالهم، وهكذا يكونُ الإنسانُ رهينَ أعمالِه ومعتقداته.

نوع (ما) ودلالتها:

أداة (ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ اسمُ موصولٌ يقع على ذوات ما لا يعقل، وصفات ما يعقل، وقد وقعَ على صفةِ الإجرام لإفادةِ العموم، أي: عمومِ الإجرام العقديِّ والسُّلوكي.

نكتةُ إسنادِ فعل الإجرامِ إلى ضمير المتكلِّم:

التَّنزُّلُ مع الخصمِ للإقرارِ بالحقِّ في المآل

أُسنِدَ فعلُ الإجرام إلى جانب المتكلِّم ومن معه في قوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ بناءً على زعم المخاطَبين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾ [المطففين: 32]؛ إذ كان المشركون يؤنِّبون المؤمنين بأنَّهم خاطِئون في تجنُّب عبادة أصنام قومِهم، وهذه نكتةُ صوغِهِ في صيغة الماضي؛ لأنَّه متحقِّقٌ على زعم المشركين[1]، فجاء الخطابُ بما يلائم طريقتَهم في تقدير الأمور، وزعمهم أنَّ المؤمنين بلا وعي ولا درايةٍ، وأنَّهم ضالّون، وذُكِرَ الإجرامُ تهويلًا ومبالغةً؛ إذ لا أذًى من إيمان المؤمن والتِزامه عبادةَ ربِّه، وهذا من التَّنزُّل مع الخصم في الإقرار بما يعتقد تماشيًا معه للإقرارِ بالحقِّ في المآل.

بلاغةُ الوصلِ بين الجملتَين الخبريَّتين:

التَّقابلُ بين المعاني والاتِّفاق في الحكم الختاميِّ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ حرفُ عطفٍ للوصل بين الجملتين؛ بسبب التَّوسُّط بين كمال الانقطاع وكمال الاتِّصال، لِتَحقُّق جانبٍ مِن الاتِّفاق وجانبٍ مِن الانفصال بين الجملتين؛ إذ إنَّ بين الجملتين اتِّصالًا يتمثَّل في كونهما خبريَّتين، والعلاقةُ التي بينهما هي علاقة التَّضادِّ، وبينهما اختلافٌ من حيثُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 194.

المعنى المدلول عليه في كلٍّ منهما، وهي مثلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤﴾ [الانفطار: 13 - 14].

معنى (لا) في قوله ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ﴾:

دعوةٌ للتَّأمُّل في المصير الأخرويِّ

جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ في زمن المستقبلِ؛ إذ تدخل (لا) على الفعل المضارع، فتُخلِّصُه للاستقبال، وفي العبارة دعوةٌ إلى النَّظر إلى المستقبل والتَّطلُّع إلى استقبال المصير الأخرويِّ، وهو ما سيكون يومَ القيامةِ مِنَ الحساب، والاستعدادِ له بالعمل الصّالح، والحرصِ على أن يكونَ الإنسان على هدًى ممّا يقولُ، ويفعلُ.

بلاغةُ المقابلة بين الجمل المتعاطفة:

المقابلةُ بين الإجرام الماضي والعمل الحاضر

بين قوله تعالى: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ مقابلةٌ، حيث جُعِلَ الإجرامُ صفةَ المتكلِّمين، كما يظنُّ المخاطَبون بالذين آمنوا، أو كما يدَّعون، وذُكِرَ العملُ على إطلاقهِ في صفة المخاطَبين، فيكون خيرًا كما يظنّون، أو كما يدَّعون، أو يكون إجرامًا وسوءًا، فأُسنِدَ الإجرامُ للمتكلِّمين لا لإقراره، بل لتخليص المخاطَبين مِن آثارِه، وإبعادِهم عن محاسبة المؤمنين، وأُسنِد العملُ للمخاطَبين، وهو أمرٌ يعُمُّ كلَّ سعيٍ مقصودٍ، لكي لا يجادلوا دفاعًا عن أنفسِهم مِن أيِّ اتِّهام، كما هي عادةُ المجرمين على الحقيقةِ، وهذا خطابٌ نفسيٌّ بديعٌ، تُفهَمُ أبعادُهُ وحقائقُهُ، وتُجتنب سلبيّاتُه وأوهامُه.

وجاء فعلُ ﴿أَجۡرَمۡنَا﴾ بِلَفْظِ الماضي، أَي: (قبل هذا)، ولم يقل: (نُجرِم)، فَيَقَع في مُقابلَة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأَنَّ من وصفِ المُؤمن أَن يعزمَ على أَلّا يُجرم، وقوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ خطاب للكفّار، وكانوا مُصرّين على الكفر في الماضي من الزَّمان والمستقبل، فاستغنَتْ بِهِ الآيَةُ عن قَول: (كُنْتُم)[1].

(1) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 209.

بلاغةُ استعمالِ لفظ العملِ، ونكتة صوغه مضارعًا:

التّعريضُ بالعملِ الفاسدِ والحثُّ على العمل الصّالح

جاءَ فعلُ العملِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ لأنَّهم ينتظرونَ منهم عملًا صالحًا؛ تعريضًا بأنَّهم يأتون عملًا غير ما عملوه، وتلويحًا بطلب إيمانِهم باللّه بعد كفرهم، وهذا ضربٌ من المشاركةِ والموادعةِ؛ ليخلوا بأنفسِهم، فينظروا في أمرِهم، ولا يُلهيهم جدال المؤمنين عن استعراض أنفسِهم ومحاسبتِها، وفيه زيادةُ إنصافٍ؛ إذ فَرض المؤمنون الإجرامَ في جانب أنفسهم، على حسب ظنِّ المشركين، وأسندوا العملَ على إطلاقهِ في جانب المخاطَبين؛ لأنَّ النَّظرَ والتَّدبُّرَ بعد ذلك يكشف عن كُنهِ كِلا العَمَلين[1].

نكتةُ حذفِ فعلِ الكينونةِ:

خطابُ الجزاء قائمٌ على الحججِ وخطابُ الدَّعوة قائمٌ على التَّلطُّف

حُذِفَ فعلُ الكينونة في قوله تعالى: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، ولم تأتِ كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النحل: 93]، وغيرها من الآيات القرآنيَّةِ، وذلك أنَّ الآيةَ حديثٌ في الدُّنيا لا في الآخرة، ولو أتى بفعل الكينونةِ؛ لأثبتَ عليهم عملَ المفاسدِ والمعاصي والكفر، وليس هذا المقصود؛ لأنَّ الخطابَ خطابُ دعوةٍ وهداية، لا خطاب حسابٍ وجزاءٍ.

غرضُ تكرارِ فعل الأمر:

استقلالُ ذِكرِ الحُجَجِ تأكيدٌ وتنكيلٌ

أُعيد ذِكرُ فعل الأمرِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾؛ لإقامة الجملة باستقلالٍ عن بقيَّة الجمل؛ لتكونَ كلُّ مجادلة مستقِلَّةً غير معطوفة، فتكون هذه الجملةُ استئنافًا ابتدائيًّا، وهي كذلك بمنزلة البيان للَّتي قبلها؛ لأنَّ نفي سؤال كلِّ فريق عن عملِ غيرهِ يقتضي أنَّ هنالك سؤالًا عن عمل نفسه، فبيَّن بأنَّ الذي يسأل النّاسَ عن أعمالِهم هو اللّه تعالى، وأنَّه الذي يفصل بين الفريقين بالحقِّ حين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 194.

يجمعُهم يوم القيامة الذي هم منكروه، فما ظنُّك بحالِهم يوم تحقَّق ما أنكروه[1].

بلاغةُ الكنايةِ بصيغة المضارع:

تصويرُ المشهدِ المستقبليِّ بحسابٍ إلهيٍّ وجزاءٍ عادل

استعمل النَّظمُ الكريم مفردةَ الجمع في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾، كنايةً عن إقامة الحساب بالعدالة الإلهيَّة؛ إذ مقتضى جمع المتخاصمين في صعيدٍ واحدٍ هو محاسبتُهم ومجازاتُهم على أعمالِهم في الدُّنيا، فدلَّ لفظُ الجمعِ على الحساب العادل؛ لأنَّ الذي سيجمع النّاس هو ربُّهم ﷻ، وجاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع لتصوير المشهد المستقبليِّ، ولمزيد التَّهديد بالإيماءِ إلى أنَّ هذا الجمعَ سيتحقَّقُ قريبًا، فإنَّ الموتَ قريبٌ، وما بعده إلّا جمعٌ وحسابٌ وجزاءٌ.

نكتةُ تقييدِ فعل الجمع بظرف (بين):

الإيماءُ إلى الافتراقِ والتَّنائي في المعتقدِ والسُّلوك

آثرَ النَّظمُ الكريم تقييدَ الجمعِ بظرف (بين) في قوله تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾، دون أن يقولَ: (يجمعنا)؛ وذلك لدلالتِه على الافتراق، فإنَّ البينيَّة تكون بين المفترقين، والسّياقُ هو الذي يُحدِّد ذلك، والمفترقون هنا هم المتكلِّمون والمخاطَبون، وافتراقُهم هو افتراقُ خصومةٍ في المعتقد والسُّلوك، وهو الذي اقتضى الحكمَ والحسابَ العادل، وهو المشارُ إليه ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّة:

مَنْ عصى الذي أحسنَ إليه؛ سيلقى حسابَه على يَدَيْهِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ عنوان الربوبيَّةِ في قوله تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾ دون الألوهيَّة، وذلك أنَّ الموقفَ هو موقف بعثٍ وحشرٍ وجمعٍ وحسابٍ وجزاءٍ، والذي يُناسبه هو الرُّبوبيَّة، لِما فيه من إلقامِهم الحسرةَ والنَّدامة، فإنَّ الربَّ الذي أطعمهم مِن جوعٍ، وآمنهم مِن خوفٍ، وربّاهم ورحمهم، ورعاهم، هو الذي سيُحاسبهم، ويُجازيهم على أعمالِهم، فمَن عصى الذي أحسن إليه؛ سيلقى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 195.

حسابَهُ على يديه، لتكونَ الرُّبوبيَّة في الدُّنيا حُجَّةً عليهم في الآخرة، فإنَّ مَن أساء إلى المحسن، فسيلقى جزاءَ إساءته، وهذا من بديع الاستعمالِ الدّالِّ على العدالةِ المطلقة بالحجَّة والبرهان.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبُّنَا﴾:

استحقاقُ الرَّبِّ العبادةَ الحَقَّة في الدُّنيا والجزاء في الآخرة

دلَّت إضافةُ لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾ على الاستحقاق، فاللهُ ﷻ استحقَّ بربوبيَّه العبادةَ الحَقَّة، والتَّوحيد الخالص، ومَن استحقَّ ذلك في الدُّنيا؛ فهو صاحب الحقِّ في الجزاء الأُخرويِّ، كما أومأت هذه الإضافةُ إلى أنَّه ﷻ ربُّ المتكلِّمين الذين يعتقدون بهِ الاعتقادَ الصَّحيح، فهو ربُّهم الذي يشرفون بعبادتهِ، فهو الرَّبُّ العظيم المستَحِقُّ للثَّناءِ والمجد.

نوعُ التَّراخي ودلالتُه:

الجمعُ بين تراخي الزَّمن والرُّتبة من الإيجازِ المثمِر

يحتمل حرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ دلالتَي الزَّمنِ والرتبة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، فأمّا الزمنُ؛ فتفاصيلُه غيرُ معلومة ما بين الجمع والفتح، وأمّا الرُّتبةُ؛ فإنَّ رتبةَ الجمع سابقةٌ لرتبة الفتح والحكم، ولا ضيرَ من اجتماع الدَّلالتين، بل هو الأليقُ بقانون الإيجاز في النَّظم، وتكثير المعاني.

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمال مفردةِ الفتحِ:

تشبيهُ المعنويّات بالمادّيّات أرسخُ في الأذهان وأقربُ إلى الأفهام

الفتح في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ هو الحكم والفصل بالحقِّ، وهو كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: 89]، وهو مأخوذٌ مِن فتح الكوَّة لإظهار ما خلفها[1]، فإنَّ الفتحَ في المادّيّات يكشفُ الحقيقة، ومثله الفتح في المعنويّات، فإنَّه يكشف الحقائقَ، ففيه استعارةٌ تصريحيَّةٌ بتشبيه الحكم بالفتح، والاستعارةُ أبلغُ من الحقيقة لما فيها من تصويرِ المشهد تصويرًا مادّيًّا، فإنَّ المعنى إذا صوِّر،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 195.

وكُشِف؛ فَهِمَهُ المخاطَب، ورسَخَ في ذهنه، وفيه إشارةٌ إلى إظهارِ ما كان خفيًّا مِنَ الحقائق التي لا تراها الأعْيُن، فيكونُ ذلك جليًّا واضحًا يوم القيامة.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾؛ لتصوير المشهدِ المستقبليِّ، ولمزيد التَّهديد بالإيماءِ إلى أنَّ الفتحَ سيقع قريبًا، ففيه دعوةٌ إلى المسارعةِ في التَّوبة.

نكتةُ تكرارِ الظَّرف ﴿بَيۡنَنَا﴾:

ما أشدَّ المفارقةَ في المـآل بعد نـزولِ الحقِّ في الحال!

كُرِّرَ ذِكرُ الظَّرف ﴿بَيۡنَنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لاختلافِ الموقفين، فالبينيَّة الأولى للجمع بين الخلائق، والبينيَّة الثّانية للفتح والحكم بين المتكلِّمين والمخاطَبين، فالأولى جمعٌ للمفترقين في الموقف لإجراءِ الحساب، والثّانية تفريقٌ للخصوم بعد الحكم بالحقِّ، فما أصعبَ الجمعَ مع خصوم الحقِّ! وما أشدَّ المفارقةَ في المآل بعد نزول الحقِّ في الحال!

نوعُ الباء ودلالتُها:

حـكـمُ الـلـه تعالى في العبادِ صادرٌ عن الحقِّ ملتبسٌ به

دلَّت الباءُ في قوله تعالى: ﴿يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ على الإلصاق والالتباس، أي: إنَّ الفتحَ والحكم الذي يحكمُ بِهِ اللّهُ؛ يكون ملتبسًا بالحقِّ لا يفارقه أبدًا؛ لأنَّه صدرَ عنه، وانتهى إليه، فالحقُّ محيطٌ بالعبادِ، مؤمنِهم وكافرِهم، وهو ما تطمئنُّ له قلوبُ الأبرارِ، وتفزع منه قلوبُ الفجّار.

معنى تعريفِ لفظِ (الحق):

تعريفُ لفظِ (الحقّ) للعهد الذِّهنيِّ، وهو الحكمُ العادلُ بين العبادِ يوم القيامةِ، فالمقصودُ بالحقِّ: ما يصدر في شأنِ العبادِ جزاءَ أعمالِهم في الدُّنيا.

نكتةُ تقييدِ فعل ﴿يَفۡتَحُ﴾ بقيد ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

بيانُ الحكم ونوعُهُ ترهيبٌ للكفّار وطمأنينةٌ للأبرار

جاء تقييدُ فعلِ الفتحِ بقيد ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ دون فعل الجمعِ في قوله تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ وذلك لأنَّ الجمع سيكون لأجل الجمع بين المختصمين والمفترقين، وهو جمعٌ مطلقٌ باعتبارِ أنَّ الجمع مقدِّمةٌ من مقدِّمات الحساب، أمّا الفتحُ والحكم؛ فتقييدُهُ بالحقِّ لِما سيصدر عن الحقِّ سبحانه بشأنِ العباد، فالتَّقييدُ لبيانِ أنَّ الحكمَ لن يكون إلّا بالحقِّ المبين في ذلك اليوم المتين.

معنى (الواو) ودلالتها:

عطفُ العلَّةِ على المعلول

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ حرفُ عطفٍ للجمع، والوصل بين الجملتين لفائدة بيانِ أنَّ اللّهَ تعالى الذي سيفتحُ بين الخلائق بالحقِّ هو الفتّاح العليمُ الَّذي لا تغيبُ عنه غائبةٌ في الأرض ولا في السَّماء، وفي الجملة المعطوفةِ معنى التَّعليل، فهو من عطفِ العلَّة على المعلول، أي: يحكمُ بيننا بالحقِّ؛ لأنَّه الفتّاح الحاكمُ بالحقِّ، العليمُ بالشؤون.

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

تعظيمُ الفتّاحِ العليم تهديدٌ للظّالمين

عُرِّف لفظُ ﴿ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بـ(أل) لإفادة الكمال، فهو الكاملُ ﷻ بهاتَين الصِّفتَين دون سواه، فأفاد ذلك التَّعظيمَ والتَّفخيمَ، ودلالة صيغة (فعّال) في: ﴿ٱلۡفَتَّاحُ﴾، وصيغة (فعيل) في قوله: ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة، وهذا فيه تهديدٌ وتوبيخٌ للمخاطَبين في سياق الآية، ولأولئك الذين لا يؤمنون[1].

نكتةُ تقديمِ صفة ﴿ٱلۡفَتَّاحُ﴾ على ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾:

تقديمُ ذِكرِ صفة ﴿ٱلۡفَتَّاحُ﴾ على ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ مِن باب تقديم النَّتيجة على السَّبب، فاللّه ﷻ يفتح بين العباد، ويحكم عليهم؛ لأنَّه العليم بهم، الخبيرُ بشؤونِهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 548.

بلاغةُ التَّذييلِ بصفتَي ﴿ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

دلالـةُ القـوَّةِ والعـلـمِ في تحقيق العدل الإلهيِّ

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تذييلٌ بوصفهِ تعالى بكثرة الحكم وقوَّته وإحاطة العلم، وبذلك كان تذييلًا لجملة ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ المتضمِّنة حكمًا جزئيًّا، فذُيِّل بوصفٍ كُلّيٍّ، وإنَّما أُتبع ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾ بـ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ حكمَهُ عدلٌ محضٌ؛ لأنَّه عليمٌ لا تحفُّ بحكمه أسبابُ الخطأ والجور النَّاشئة عن الجهل والعجزِ، واتِّباع الضَّعف النَّفسانيِّ النّاشئ عن الجهلِ بالأحوالِ والعواقب[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتحُ والفصلُ:

الفتحُ الحكمُ بين المفترقين بعد انغلاقٍ، والفصل جعلهما متباعدين

الفتحُ هو الحكمُ بين الشَّيئين ليظهر ما وراءهما، ومنه فتحُ الباب، ثم اتُّسِعَ فيه، فقيل: فتح إلى المعنى فتحًا؛ إذا كشفه، والفاتح الحاكم، وقد فتح بينهما، أي: حكم، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 89][2]، أمّا الفَصلُ؛ فبَوْنُ ما بين الشَّيئين، والفَصْلُ: القَضاء بين الحقِّ والباطل، واسمُ ذلكَ القضاءِ فَيصَلٌ، وقضاءٌ فَيْصَليٌّ وفاصِلٌ، وحُكْمٌ فاصِلٌ[3]، فالفصلُ بين العباد الحكمُ بينهم في جعل كلٍّ منهم في فصلٍ غير صاحبهِ، والفتحُ بيانُ ما انغلق في أمورِ الحكم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 195.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 396.
(3) الخليل، العين: 7/ 126.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [سبأ: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ مِن بيان الحقِّ في الآخرة إلى بيانِهِ في الدُّنيا

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة أنَّ الحكمَ بين العبادِ سيكون يوم القيامة، وأنَّ الجدالَ في الدُّنيا لتعيين المُحقِّ من المبطل لن يحسمَ المسألة؛ ناسب الانتقال إلى أمرٍ ظاهر بيِّنٍ لا يتوقَّف على الجدال والمماراة، وهو بيان ما يمتلكه أولئك الشركاء الذين زعم المشركون أنَّهم مستحِقّون للعبادةِ بما يمتلكون من صفاتٍ، لقطع الجدال والبتِّ بأنَّها آلهةٌ باطلةٌ، وأنَّ الحكم على الحقيقةِ للّه العزيز الحكيم.

بلاغةُ التَّدلّي في المناسبة بين الآيات

وفي مناسبة هذه الآيةِ لما قبلَها أنَّها جاءت على طريقِ الاستفسارِ، والمصطلح عليه عند أهلِ الجدلِ أن يكون الاستفسارُ مقدَّمًا على طرائق المناظرة، وإنَّما أخِّرَ هنا؛ لأنَّه كان مُفضيًا إلى إبطال دعوى الخصم بحذافيرها، فأريد تأخيرُهُ؛ لئلّا يفوتَ افتضاح الخصم بالأدلَّة السّابقة تدلّيًا في استدعاء المجادلة حتى يكون كلُّ دليلٍ مناديًا على غلط الخصوم وباطلهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرُونِيَ﴾: (رأي) أصلٌ يدُلُّ على لحظ العين الشَّيءَ حال اتِّجاهه إليه، تقول: رأيت بعيني رؤيةً، ورأيتُه رأيَ العَيْن، أي: حيثُ يقعُ البَصَرُ عليه، وتقول من رأيِ القَلْب: ارتأيتُ، وتراءى القوم: رأى بَعْضُهم بعضًا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الشّعراء: 61]، وتقول: تراءى لي فلانٌ، أي: تصدّى لك لتراه[2]، والمقصودُ في الآية:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 196.
(2) الخليل، العين: (رأي).

هو طلبُ الإثبات القطعيِّ بأنَّ الآلهةَ تستحِقُّ العبادة، ممّا يزعمه المشركون لها.

2) ﴿أَلۡحَقۡتُم﴾: (لحق) أصلٌ يدُلُّ على إدراك شيءٍ وبلوغه[1]، ولحقته: اتَّبعته، وألحقته: وصلت إليه، والملحق: الدّعي الملصقُ[2]، وهو المعنى المرادُ في الآية، أي: ألصقتُم بِهِ شركاء، وجعلتُم لهُ شركاءَ لا يستحقّون العبادة.

3) ﴿شُرَكَآءَۖ﴾: (شرك) أصلٌ يدُلُّ على مقارنةٍ وخلاف انفراد، فالشِّرْك باللّه: إثباتُ خصائصِ اللّهِ لغيرهِ، وهو ظلمٌ عظيمٌ، والشِّرْكةُ: مخالطة الشَّريكين، واشتركنا بمعنى تشاركنا، وجَمعُ شريكٍ: شُرَكاءُ وأشراكُ[3]، وهذا معنى ﴿شُرَكَآءَۖ﴾ في هذه الآية، أي: أروني هؤلاء الذين شاركوا اللّه في خصائصه بزعمكم الباطل.

المَعْنى الإجْماليُّ:

المطالبة بالبراهين طريقُ الإذعان لتوحيد ربِّ العالمين

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ أنَّ الشِّركَ باللّهِ ﷻ إثمٌ عظيمٌ، وأنَّه لا يحقُّ لأحدٍ أن يعبدَ غيرَ اللّهِ، أو يشرك به في ملكه، وجاءت بصيغة تحدّي الكفّار حيث أُمِر الرَّسول ﷺ أن يسألَهم، ويطلب منهم رؤيةَ تلك الآلهة الَّتي ألحقوها بعبادة اللّهِ سبحانه، فقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ﴾، ثم يجيب مؤكِّدًا أن لا إله إلّا اللّهُ، فيقول: ﴿كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فاللّه سبحانهُ هو وحده المتصرِّفُ في الحياةِ والعباد، كما أوضحت الآياتُ السّابقة، وهذه الآية تدعو النّاس ضمنًا للعودة إلى التَّوحيد، وطلبِ الإيمان باللّه، وفي الآية دعوةٌ إلى التَّفكُّر في عواقب أفعالِهم، وأنَّهم سيحاسبون على أعمالهم يوم القيامة، وعمومًا فإنَّ الآيةَ تدعو إلى التَّوحيد، وتؤكِّد على قدرةِ اللّه المطلقةِ في الحكم والفصل بين الخلائق.

---

(1) ابن سيده، المُحكم: (لحق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم: (لحق).
(3) الخليل، العين: (شرك).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

مباغتةُ أهل الباطلِ بالحقائق القطعيَّة سبيلُ أهلِ الحقِّ في نبذِ المزاعم الوهميَّة

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ﴾، عن قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ لأنَّ الجملة الثّانية مباينةٌ للجملة الأولى، فالجملتان إنشائيَّتان من حيث تصديرهما بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾، لكنَّ الاختلافَ وقعَ في مضمون هاتين الجملتين، حيث جاء مضمونُ الأولى خبرًا ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾، والثانية إنشاءً ﴿أَرُونِيَ﴾، فكان بينهما كمالُ الانقطاع، وفائدة ذلك الانتقالُ المُباغِت مِن الإخبار عن أحداثِ القيامة، إلى المواجهة الصَّريحة في نفي قدرة الآلهة المزعومةِ، وإثبات ذلك للعزيز الحكيم.

غرضُ تكرارِ فعل الأمر:

العنايةُ بالمضامين يتجلّى بنظم المعاني والتَّراكيب

أُعيدَ الأمرُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ﴾ رابعَ مرَّةٍ لمزيد الاهتمام، وهو رجوعٌ إلى مهيع الاحتجاجِ على بطلانِ الشِّرك فهو كالنَّتيجة لجملة: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾[1]، ولإعطاء الجملة استقلالًا في مضمونِها ومعناها، فإنَّ الجملةَ إذا جُعِلت مستقِلَّةً عن أخواتها في تصديرِها بما صُدِّرت به غيرها؛ كان ذلك أدعى للاهتمامِ، وأرسخَ في البيان.

نوعُ الرُّؤيةِ ودلالتُها:

الجمعُ بين الدَّليل العياني والدليل المعنوي

الرُّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَرُونِيَ﴾ هي رؤيةٌ علميَّةٌ، فقد كان يراهم، ويعرفهم، وإنَّما أراد بذلك أن يُريَهم الخطأَ العظيمَ في إلحاق الشُّركاء بالله، وأنْ يقايسَ على أعينِهم بينه وبين أصنامِهم؛ ليطلِعَهُم على إحالة القياس إليه والإشراك بهِ[2]، وطالبهم بالرُّؤية دون العلمِ، فلم يقل: (أعلموني)؛ لما يدلُّ عليه لفظُ الرُّؤيةِ من المعاينةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 196.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 593.

التي تقوم مقامَ الدَّليل، وما يدلُّ عليه اللفظُ من معنى العلم، فجمعَ هذا اللَّفظُ بين دلالة اللَّفظ ودلالة المعنى مراعاةً للإيجازِ، ومناداةً على بلوغِ درجةِ الإعجاز.

تعجيزُ المشركين في إثبات إلهيَّة الأوثانِ وتوبيخهم

غرضُ الأمرِ في قوله: ﴿أَرُونِيَ﴾:

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿أَرُونِيَ﴾ إمّا أن يُحمل على التَّعجيز، وهو تعجيز المشركين عن إبداء حجَّةٍ لإشراكِهم، وهو انتقالٌ من الاحتجاج على بطلان إلهيَّة الأصنام؛ بدليل النَّظير في قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ إلى إبطال ذلك بدليل البداهةِ[1].

وإمّا على التَّبكيت لهم والتَّوبيخِ، والمعنى: أنَّ الذين هم شركاءُ اللّه على زعمكم، هم ممَّن إن أريتموهم افتضحتم؛ لأنَّهم خشبٌ وحجرٌ وغير ذلك من الحجارةِ والجمادِ، كما تقول للرَّجل الخسيسِ الأصل: اذكرْ لي أباك الذي قايست بهِ فلانًا الشَّريف، ولا تريد حقيقةَ الذِّكر، وإنَّما أردت تبكيته، وأنَّه إن ذكرَ أباهُ؛ افتضح[2].

والمقصودُ بهذا الأمرِ: (أروني شخوصَهم؛ لنُبصِرَ هل عليها ما يناسب صفة الإلهيَّة؟)، أي: إنَّ كلَّ مَن يشاهد الأصنامَ بادئَ مرَّةٍ يتبيَّن له أنَّها خليَّةٌ عن صفات الإلهيَّة؛ إذ يرى حجارةً لا تسمع، ولا تبصر، ولا تفقه؛ لأنَّ انتفاءَ الإلهيَّة عن الأصنام بديهيٌّ، ولا يحتاج إلى أكثر من رؤية حالِها[3].

تعيينُ المقصودِ بالخطابِ:

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَرُونِيَ﴾ للمنكرين المعاندين لرسالة التَّوحيد؛ إذ أصرّوا على أن يجعلوا مع اللّه شركاء أصالةً، ولكلِّ معاندٍ في رفضِ التَّوحيد تبعًا إلى قيام السّاعة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 196.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 549.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 196.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول:

التَّهكُّم بالمشركين وبما ألحقوه بالله ربِّ العالمين

جاء التَّعبيرُ بالموصوليَّة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ﴾ دون التَّصريح بآلهتهم التي يعبدونها من دون اللهِ؛ لأنَّ الآلهةَ معلومةٌ للمخاطَبين، فكان التَّعبيرُ عنها بالاسم الموصول أشدَّ ملامًا مِن ذكرِها، ففيه معنى التَّهكُّم لاسيَّما بعد سرد أدلَّة الرُّبوبيَّة، ولتعليل ذكرها بما احتوته صلةُ الموصول مِن أمر الإلحاقِ باللّٰه تعالى، فهو إلحاقٌ باطلٌ لا يُكترَثُ بشأنِه، ولا يُنظر لشكلِه.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإلحاق:

الشِّركُ إلحاقُ الباطلِ بالحقِّ بابتداعِ الخلق

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ الإلحاقِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم﴾، إيماءً إلى أنَّ تلك الأصنامَ لم تكن موصوفةً بالإلهيَّة وصفًا ذاتيًّا حقًّا، ولكنَّ المشركين ألحقوها باللّٰه تعالى، فتلك خلعةٌ خلعها عليهم أصحابُ الأهواء، وتلك حالةٌ تخالِف صفةَ الإلهيَّة؛ لأنَّ الإلهيَّة صفةٌ ذاتيَّةٌ قديمةٌ، وهذا الإلحاقُ اخترعَهُ لهم عمرو بن لحي، ولم يكن عند العربِ مِن قبل[1].

دلالةُ إسنادِ فعل الإلحاقِ إلى ضمير المخاطَبين:

من ارتضى أمرًا؛ فإنَّه يُسندُ إليه، وسيُحاسب عليه

أُسنِدَ فعلُ الإلحاقِ إلى ضمير المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿أَلۡحَقۡتُم﴾؛ لتحميل المخاطَبين مسؤوليَّة الشِّرك الذي ارتضوه لأنفسِهم، فإنَّ فعلَ الإلحاقِ مُشعرٌ بأنَّ الذي قام بأصلِه هو آباؤهم، فلمّا أسندَهُ إليهم؛ أشعرهم بأنَّ مَن ارتضى أمرًا؛ فإنَّه يُسند إليه، وسيُحاسب عليه.

نوعُ الباءِ ومعناها:

المشركُ أعطى آلهته ما يستحقُّه الرَّبُّ سبحانه

عُدّي فعلُ الإلحاقِ في قوله تعالى: ﴿أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ﴾؛ بالباء الدّاخلة على الضَّمير في ﴿بِهِۦ﴾، وهو عائدٌ إلى اسم الجلالةِ من جملة: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾[2]؛ إذ أفادَ حرفُ الباء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 196.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 196.

الإلصاقَ، فجعلوا الإشراكَ في أعمالِهم وأقوالِهم وحياتِهم كُلِّها، فالإلحاقُ هو إعطاء الآلهةِ الباطلة ما هو للّه الحقِّ ﷻ.

دلالةُ استعمالِ مفردة الشِّرك:

ضابطُ الإلحاقِ أن يُعطى المخلوقُ حقوقَ الخالقِ

جاء استعمالُ لفظِ الشِّركِ في قولِه تعالى: ﴿أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ﴾، وهو إمّا أن يكون حالًا من الملحقين، أي: الأوثان، والتَّقديرُ: (ألحقتموهم)، وإمّا أن يكونَ مفعولًا ثالثًا، ونكتةُ استعمال هذه المفردة بيانُ أنَّ ما صنعوه إنَّما هو شركٌ حقيقيٌّ، وأنَّ إلحاق شيءٍ باللّه تعالى، وجعله مستحقًّا لما يستحقُّه اللّه تعالى إنّما هو شرك، فالشِّرك هو إعطاء وصفٍ للّه لغير اللّه تعالى، وهو دالٌّ على خطورةِ إلحاق الباطل بالحقِّ، لما يعتريه مِن الحكم الظّالم، فكلُّ إلحاقٍ من شأنِه أن يعطيَ المخلوق ما هو خاصٌّ باللّه تعالى، فهو شركٌ حقيقيٌّ مُخرج من الملّة، أيًّا كان شكله أو منهجه أو عصره، حجريًّا كان أم بشريًّا، وثنًا كان أم نصًّا يُطاع، فضابطُ الإلحاق أن تُعطى حقوقُ اللّه لغير اللّه تعالى، فهذا هو الشِّرك الذي يستحقُّ أصحابُهُ الوصفَ بالشِّرك وما يترتَّب عليه.

دلالةُ الجمعِ في ﴿شُرَكَآءَۖ﴾:

يختلقُ الإنسانُ العاجزُ أصنافًا مِنَ الأوثانِ على مدى الأزمانِ

دلَّ الجمعُ في قوله تعالى: ﴿شُرَكَآءَۖ﴾ على الكثرةِ والتَّنوُّع؛ لأنَّ الإنسان إن ضلَّ عن عبادةِ اللّه تعالى؛ فسوف يوكَّل الأمرُ إلى هواهُ في اختيار إلهٍ يعبده، فمِنهم من عبدَ الحجرَ والشَّجرَ، ومنهم من عبد الكواكبَ والأفلاك، ومنهم من عبد الجنَّ والحيوان، ولا تنتهي بالمشركين آلهتهم التي اقترحوها لأنفسِهم، فعبدوها ظُلمًا وعَدْوًا بغير علمٍ.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿شُرَكَآءَۖ﴾:

التَّنكيرُ للفظ ﴿شُرَكَآءَۖ﴾ للتَّهوين والتَّحقير، ودلالة التَّنكير منتزعةٌ من السّياق، فإنَّ كلَّ شركٍ نهايتُهُ إلى النّار في الآخرةِ، وما كان كذلك؛ فهو هيِّنٌ حقيرٌ.

العبرةُ في الإنكارِ في كونِ المُلحق به هو الله تعالى

نكتةُ تقديم ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿شُرَكَآءَ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿شُرَكَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ لزيادة تهويلِ صنيعِهم، فإنَّ موضعَ الإنكارِ هو في كون المشركين ألحقوا باللّهِ تعالى شركاء، فإنَّ معرفةَ بؤسِ المنكَر الذي اقترفهُ المشركون أرسخُ في ثباته، وأدعى لفهم هَولِ الفعل المقترف.

ردعُ الباطلِ المزعوم بتقرير صاحب الحقِّ المعلوم

بلاغةُ استعمالِ أداة ﴿كَلَّاۚ﴾:

أداة ﴿كَلَّاۚ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ردٌّ على ما تقرَّر مِن مذهبهم في الإشراك باللّه تعالى، وهي ردعٌ لهم عن مذهبهم بعدما كسرَهُ بإبطال المُقايَسة، وبعدما حجَّهم، وقد نبَّه على تفاحش غلطِهم - وإن لم يقدُروا اللّه حقَّ قدرِه - بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كأنَّه قال: (أين الذين ألحقتُم به شركاء مِن هذه الصِّفات؟)[1]، فوصف نفسَهُ تعالى باللّائق بهِ من العزَّة والحكمة[2].

تأكيدٌ على وحدانيَّةِ الله وعَظَمَتِهِ

نوعُ ﴿بَلۡ﴾ ودلالتها:

حرفُ ﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ للإضراب الانتقاليِّ، فبعد أن استفهمَ طالبًا رؤيةَ الآلهةِ الَّتي أشركوا بها؛ أضربَ عن جوابِهم بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فهو عزيزٌ لا يحتاج إلى شريك، حكيمٌ في عظيم شأنِه وخلقِه وتقديره للحياة.

الرَّدعُ عن اعتقاد الباطل والانتقال إلى إثبات الإلهِ الحقِّ

علَّة الجمعِ بين حرف الرَّدع والإضراب:

لمّا أعرضَ سبحانه عن الخوضِ في آثار هذه الإراءةِ؛ عُلِمَ أنَّهم مفتضحون عند تلك الإراءةِ، فقُدِّرت حاصلة، وأُعْقِبَ طلبُ تحصيلِها بإثبات أثرِها، وهو الرَّدعُ عن اعتقاد إلهيَّتها، وإبطالها عنهم بإثباتها للّه تعالى وحده، فلذلك جمعَ بين حرفَي الرَّدع والإبطال، ثمَّ الانتقال

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 593.

(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 420.

إلى تعيين الإلهِ الحقِّ على طريقة قوله: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾ [الفجر: 17][1]، وهذا فنُّ التَّرقّي في إثباتِ التَّوحيد.

نكتةُ مجيء ضمير الشَّأن ﴿هُوَ﴾:

مـن اختـصَّ بـالـعـزَّة والـحـكـمـة؛ فـهـو المستحقُّ للعبادةِ الحقَّة

الضَّمير ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ﴾ ضميرُ الشَّأن، والجملة بعده تفسيرٌ لمعنى الشَّأن، و﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ خبران، أي بل الشَّأن المهمُّ أنَّ اللَّه ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لا آلهتكم[2]، فأفاد معنى الاختصاص، و﴿هُوَ﴾ راجعٌ إلى اللّه وحده، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: 1][3].

علَّةُ التَّعبيرِ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

سياقُ استحقاقِ العبادة يُناسبُهُ الاسمُ الجليل

جاء التَّعبيرُ باستعمال الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ المقام مقامُ تعظيمٍ للّه تعالى، فنفى أن يكونَ له شركاء سبحانه، فسياق الآيات اندرجَ في تعظيمِ اللّه تعالى، وتفرُّده بالوحدانيَّة، وهو مَن يستحقُّ العبوديَّة وحده، فذكر لذلك الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة.

بلاغةُ القصرِ ونوعه:

قـصـرُ الإلـهـيَّـة على الله تعالى بصفتَي الـعـزَّة والحكمة

في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قصرَ العزَّةَ والحكمةَ على اللّه تعالى، وهي كنايةٌ عن قصرِ الإلهيَّة عليه سبحانه قصر إفراد[4]، وهو قصرٌ حقيقيٌّ، فلا يتَّصف أحدٌ بالعزَّة والحكم المطلق على وجهِ الاستحقاقِ إلّا اللّهُ تعالى، ولا يوصف به أحدٌ مِن خلقه.

معنى تعريف صفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

أفادَ تعريفُ الاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الكمالَ والتَّعظيم للّه سبحانه، وتفرُّده سبحانه بالعزَّة المطلقةِ والحكمةِ المطلقةِ سبحانه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 196 - 197.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 197.

(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 593.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 197.

نكتةُ اجتماعِ وصفَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

العزَّةُ والحكمةُ الكاملتان لا تكون إلّا للإله الحقِّ

معنى ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ هو الذي لا يحتاجُ إلى مُعينٍ وناصرٍ، ولا يحتاج إلى شريكٍ ومؤيِّدٍ، وجاء وصف ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ وصوغه بـ(فعيل)؛ ليدلَّ على المبالغة في العزَّة، فهي عزَّةٌ مُطلقةٌ، وجاء وصفه بوصف ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، والحِكمةُ: مَرْجِعُها إلى العَدْلِ والعِلْم والحِلْم، وجاء صوغُهُ بـ(فعيل)؛ للدَّلالة على المبالغةِ في الحكمةِ، فحكمةُ اللّه مطلقةٌ، واجتماع هذين الوصفين؛ للدَّلالة على أنَّه لا يكونان إلّا للّه تعالى، وعبادة غير اللّه تعالى دليل انعدام العزَّة والحكمة عمّا سواه، فأتى بالعزيز لبيانِ الاستغناء عن الآخرين، والحكيم لبيان منتهى العلم، أو مِن الإحكام، وهو إتقان الصُّنع، وهذا إثباتٌ لافتقار أصنامهم وانتفاء العلم عنها[1].

نكتةُ تقديم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾:

مناسبةُ صفة العزَّةِ للسّياق وتكميل صفة الحكيم لذلك

قُدِّمت صفةُ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على صفة ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ وذلك لأنَّ صفة العزَّةِ أولى لمقتضى الحال؛ إذ إنَّ السّياق يتناول نفي أن يكون للّه شريكٌ، والشَّريك لا يكون إلّا لضعفٍ وعدم التَّمكُّن مِن الإنجاز الفردي، فيحتاج إلى من يعينه، ويؤيِّده، ويناصره، ثمَّ أتى بالحكمةِ الَّتي مرجعُها إلى العدل والعلم، فبعد أن بيَّنَ عزَّةَ اللّه، وغناه عن الشَّراكة، أتمَّ ذلك بقوله: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، فاللّه تعالى سيحكمُ بين النّاسِ بالعدل.

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّؤيةُ والعلم:

العلمُ يتناولُ الموجوداتِ والمعدومات فهو أعمُّ من الرُّؤية

الرُّؤية لا تكون إلّا لموجود، والعلم يتناول الموجودَ والمعدومَ، فالعلمُ في تناول الموجودات والمعدومات أشملُ وأعمُّ مِنَ الرُّؤية، وكلُّ رؤية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 197.

لم يعرض معها آفةٌ، فالمرئيُّ بها معلومٌ ضرورةً، والرُّؤية في اللُّغة على ثلاثةِ أوجهٍ، أحدُها العلمُ، وهو قوله تعالى: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج: 7]، أي: (نعلمه يوم القيامة)، وذلك أنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ، والآخرُ بمعنى الظَّنِّ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾ [المعارج: 6]، أي: يظنّونَهُ، ولا يكون ذلك بمعنى العلم؛ لأنَّه لا يجوز أن يكونوا عالمين بأنَّها بعيدةٌ، وهي قريبةٌ في علمِ اللّهِ، واستعمالُ الرُّؤية في هذين الوجهين مجازٌ، فالعلمُ بحسب ذلك يقينيٌّ والرُّؤية احتماليَّةٌ، قد تعبِّر عن فكرة شخصيَّة؛ لأنَّ العلمَ يشيرُ إلى المعرفةِ والفهمِ المبنيِّ على الأدلَّة والتَّجاربِ، والرُّؤية تعني: القدرةَ على تصوُّر الأشياءِ، والثّالث: رؤية العين، وهي حقيقة[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 263.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من توحيدِ المرسِلِ إلى بيان وظيفة الرَّسول

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة الموقفَ مِنَ الشِّرك، وأثبتت التَّوحيد للّه تعالى وحده؛ ناسب الانتقال من تقرير صاحبِ الرِّسالةِ المستحقِّ للعبادةِ، إلى بيانِ وظيفة الرَّسول في التَّبليغ عن اللّهِ تعالى بشيرًا ونذيرًا للخلق أجمعين، وهو كذلك انتقالٌ من إبطال ضلالِ المشركين في أمر الرُّبوبيَّة إلى إبطالِ ضلالِهم في شأنِ صدق الرَّسولِ ﷺ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: (رسل) أصلٌ يدُلُّ على الانبعاث والامتدادِ، فالرِّسل: السَّير السَّهل الذي فيه استرسالٌ ولينٌ[2]، وأصلُ الرِّسل الانبعاثُ على التُّؤَدَة[3]، والرَّسولُ بمعنى الرِّسالةِ[4]، وتارة لمتحمِّل القول والرِّسالَة، والرَّسولُ يقال للواحد والجمع، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: 128]، وللجمع: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16]، والإرْسالُ يقال في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكونُ ذلك بالتَّسخير، كإرسال الرّيح، والمطر، نحو: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾ [الأنعام: 6]، وقد يكونُ ببعث مَن له اختيار، نحو إرْسالِ الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61]، ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣﴾ [الشعراء: 53]، وقد يكونُ ذلك بالتَّخلية، وترك المنع، نحو قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 197 - 198.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(3) الأصفهاني، المفردات: (رسل).
(4) الخليل، العين: (رسل).

أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ [مريم: 83]، والإرْسالُ يقابل الإمساك، قال تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر: 2][1]، والمقصودُ بالآية: بعثُ محمَّدٍ ﷺ برسالة من ربِّ العالمين.

2) ﴿كَآفَّةٗ﴾: (كفف) أصلٌ يدلُّ على الجمع والإحاطة، كِفافُ الثَّوْب: نَواحيه، والخَيّاطُ يَكُفُّ الثَّوْبَ، ويقولون: النّاسُ كافَّةً، أي: كُلُّهم، مَعْناه داخِلٌ في الكِفافَة[2]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: 36]، بمعنى: قاتلوا المشركينَ محيطين بهم[3]، وقيل: كافّينَ لهم كما يقاتلونكم كافّين، وقيل: معناه جماعة كما يقاتلونكم جماعة، وذلك أنَّ الجماعةَ يقال لهم: الكافَّة، كما يقال لهم: الوازعة لقوَّتهم باجتماعهم[4]، ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾، أي: إلى النّاس أجمعين، أو بمعنى: كافًّا لهم عن المعاصي، والهاءُ فيه للمبالغةِ كقولهم: راوية، وعلّامة، ونسّابة.

3) ﴿بَشِيرٗا﴾: (بشر) أصلٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيءِ مع حسنٍ وجمالٍ، فالبشرةُ ظاهرُ جلد الإنسان، وسُمّي البشرُ بشرًا لظهورهم، والبشير: الحسنُ الوجهِ، والبشارةُ: الجمالُ[5]، والبِشارةُ: ما بُشِّرْتَ به، والبَشيرُ: المُبشِّر بخيرٍ أو شرٍّ[6]، وقوله: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾، أي: مُبشِّرًا بدين الإسلام، ومبشِّرًا بنعيم الآخرة للَّذين يؤمنون بهذا الدّينِ.

4) ﴿وَنَذِيرٗا﴾: (نذر) أصلٌ يدلُّ على تخويفٍ أو تخوُّفٍ، ومنه الإنذارُ: الإبلاغُ، ولا يكاد يكون إلّا في التَّخويف، وتناذروا: خَوَّفَ بعضُهم بعضًا، ومنه النَّذرُ: وهو أنَّه يخاف؛ إذا أخلفَ[7]، فالإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التَّبشير إخبارٌ فيه سرورٌ، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل: 14]، ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: 13]، والنَّذيرُ: المنذرُ، ويقعُ على كلِّ شيءٍ فيه إنذارٌ، إنسانًا كان أو غيره، ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [نوح: 2]، ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [الحجر: 89]، قال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾

---

(1) الأصفهاني، المفردات: (رسل).
(2) ابن عبّاد، المُحيط في اللّغة: (كف).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كف).
(4) الأصفهاني، المفردات: (كف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(6) الخليل، العين: (بشر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).

[النجم: 56]، أي: من جنس ما أُنْذِرَ به الذين تقدَّموا(1)، وقوله: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾، أي: يُنذرهم عقابَ اللّهِ، ويُخبرهم بالأعمال الموجبة له.

المَعْنى الإجْماليُّ:

عالميَّةُ رسالةِ النَّبيِّ محمَّد بين البشارة والنذارة

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أُرسِلَ برسالةِ الإسلام للعالمين أجمعين، وليست قاصرةً على قوم أو أمَّةٍ معيَّنةٍ، فهو بشيرٌ لِمن يؤمن، ويعمل صالحًا، ونذيرٌ لِمن يعصي اللّه، ولا يتَّبع هداية النَّبيِّ ﷺ، ومع ذلك، فإنَّ أكثرَ النّاس لا يُدركون عِظم شأن هذه الرِّسالة، فيُنْكرونها، أو يُعرضون عنها، وتؤكِّدُ الآيةُ عالميَّة الرِّسالة، وأنَّ النَّبيَّ هو رسولُ اللّه إلى جميعِ البشرِ، وأنَّ البشارةَ تعني: إخبارَ النّاسِ بالخير، بينما النِّذارة: هي تحذيرُهم من عذابِ اللّه، وأنَّ اللّه أرسل النَّبيَّ لتعميم الدَّعوة، وإبراز أهمّيَّة العمل في ضوء الرِّسالة، محذِّرًا مِن الإعراضِ عنها(2)، وفي هذه الآيةِ إثباتُ رسالةِ محمَّد ﷺ على منكريها من العربِ وإثبات عمومِها على منكريها مِنَ اليهودِ(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ اختلافِ أسلوبِ الكلامِ مِنَ الأمرِ إلى الإخبارِ:

التَّعريضُ بإبطالِ مزاعم المشركين

اختلف أسلوبُ الكلامِ مِنَ الأمرِ بمحاجَّة المشركين إلى الإخبار برسالةِ النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾؛ تشريفًا له بتوجيهِ هذا الإخبار بالنِّعمة العظيمة إليه، ويحصلُ إبطالُ مزاعم المشركين بطريق التَّعريض(4)، مع ما فيه مِن قطع المحاجَّة مع المشركين، للإشعارِ بأنَّ تقريرَ الحقِّ في بيانِ صدق الرَّسول، ومنزلةِ الرِّسالة هو الأَولى بالمقام.

---

(1) الأصفهانيّ، المفردات: (نذر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 298.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 197 - 198.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 197 - 198.

نوعُ الواوِ ومعناها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ استئنافيَّةٌ؛ إذِ استأنف بموضوع الرِّسالة مخاطبًا رسولَهُ ﷺ في كونِهِ قد أُرسِل للنّاس كافَّة.

نوعُ (ما) ودلالتها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ حرف نفي، وقد أفادت نفيَ عمومِ الإرسال، ليعمَّ كلَّ إرسال متصوَّرٍ، وليتحقَّقَ بعد ذلك في المثبت بعد أداة الاستثناءِ.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإرسالِ:

عالميَّةُ الرِّسالة وسلاسة التَّبليغ يُناسبه لفظُ الإرسال

استعملَ النَّظم الكريم مفردة الإرسالِ دونَ البعثِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾؛ ليُعبِّر عن مهمَّة الرِّسالة الَّتي كُلِّف بها ﷺ خاصَّةً، فتومئ هذه المفردة إلى أنَّ الإرسال للنّاس كافَّةً كان بحكمة، فهو يدلُّ على السلاسةِ والانتظام والقصد والامتداد، فهو إرسالٌ عامٌّ مقصود، والسّياق قدِ اختصَّ بعالميَّة الرِّسالة، وهو ما يُناسبه لفظُ الإرسال.

فائدةُ إسنادِ فعلِ الإرسالِ إلى ضمير العظمةِ:

تشريفُ المُخاطَبِ وتعظيم الخطاب وتشريع المهمَّة

أُسنِدَ فعلُ الإرسال إلى ضمير العظمةِ في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ لتشريفِ المُخاطَبِ ﷺ، ولتعظيم المهمَّة الموكلة إلى الرَّسولِ ﷺ والرِّسالة التي يحملها، وهي رسالةُ التَّوحيد، واستعمالُ ضميرِ العظمةِ يدلُّ على مكانة الرَّسول والرِّسالة في سياق الوحي، فالإرسالُ هو من قِبَل اللّه تعالى، وهذه المهمَّة تشمل البشر جميعًا؛ لذا كان إسنادُ الأمرِ إلى خالقِهم ﷻ هو ما يُعطي الرَّسول تلك الشرعيَّة، وهو الذي يجعل التَّبليغَ أقوى في إقامة الحجَّة، وبيان المحجَّة.

بلاغةُ القصر:

استعمل النَّظمُ الكريم أداةَ الاستثناءِ بعد أداة النَّفي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾؛ لإفادة الحصرِ والقصرِ،

والقصر قصرٌ إضافيٌّ، أي: دونَ تخصيصِ إرسالِك بأهل مكَّة، أو بالعرب، أو بِمن يَجيئك يطلب الإيمانَ والإرشادَ، ويقتضي ذلك إثباتَ رسالتِهِ بدلالة الاقتضاء؛ إذ لا يصدق ذلك القصرُ إلّا إذا ثبتَ أصلُ رسالته، فاقتضى ذلك الرَّدَّ على المنكرين كلِّهم، سواءٌ مَن أنكر رسالتَهُ مِن أصلها، ومن أنكر عمومَها، وزعمَ تخصيصها[1]، فنُفيَ كلُّ إرسالٍ عنه ﷺ، ثمَّ أُثبِت إرسالٌ واحدٌ، وهو أنَّه لجميع النّاس، ففيه بيانُ اختصاصِهِ بهذا الإرسال، وأنَّه إرسالٌ رفيعٌ في وظيفته وغايته، فأفادت الآية أنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يُرسَل لأيِّ سببٍ آخر، إلّا أن يكونَ صاحبَ رسالةٍ شاملةٍ وكاملةٍ للنّاس جميعًا، فالإرسالُ كان للعموم، وليس لخصوصٍ مِنَ الأقوام.

شـمـولـيَّـةُ الرِّسالة إثباتٌ لعالميَّتها ودفعٌ لخصوصيَّتها

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿كَآفَّةً﴾ وأوجه إعرابها:

لفظُ ﴿كَآفَّةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، هي مِنَ ألفاظ العموم، ووقعت هنا حالًا إمّا من الكافِ، أي: أرسلناك حال كونك كافَّة للنّاس جميعًا[2]، وإمّا من (النّاس) مستثنًى من عموم الأحوال، وهي حالٌ مقدَّمةٌ على صاحبِها المجرور بالحرف، والتَّقديرُ في هذه الآية: (وما أرسلناك للنّاس إلّا كافَّة)، وقُدِّمَ الحالُ على صاحبه للاهتمام بها؛ لأنَّها تجمعُ الذين كفروا برسالتِهِ كلِّهم[3].

مهمَّةُ الرَّسولِ منعُ النّاسِ عن الكفرِ بالحجَّة والبيان

وتحتمل أن تكونَ ﴿كَآفَّةً﴾ اسمَ فاعلٍ من فعل كفَّ، وقيل: مصدر كالعاقبة والعافية، فيكون على حذفِ مضافٍ، أي: (إلّا ذا كافة)، أي: ذا كفٍّ للنّاس، أي: منعٍ لهم من الكفرِ، أو ذا منعٍ من أن يشذّوا عن تبليغِكَ، وإذا كان اسم فاعل؛ فقال الزَّجّاج وغيره: هو حالٌ من الكاف في أرسلناك، والمعنى: إلّا جامعًا للنّاس في الإبلاغِ، والكافَّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 199.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 185.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 420، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 198.

بمعنى الجامعِ[1]، وحقُّ التّاء في ﴿كَآفَّةً﴾ هذا أن تكون للمبالغةِ كتاءِ الرّاوية والعلامة[2].

نوعُ اللامِ في القيد ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

رحمةُ الله شَمِلَت جميعَ النّاس

تدلُّ اللّام الدّاخلة على لفظ الناسِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ على التَّخصيص والتَّعليل، فمعنى ﴿لِّلنَّاسِ﴾، أي: هي لأجل كلِّ النّاس وخاصَّةً بهم جميعًا لا ببعضهم، وتؤكّد (اللّام) في هذا السّياق على أنَّ الرِّسالة جاءت لتلبيةِ احتياجات النّاس وإرشادهم، ممّا يُبرز الشُّموليَّة والعموميَّة في الدَّعوة.

تعريفُ لفظ (النّاس):

تعريفُ لفظ (النّاسِ) في قوله تعالى: ﴿كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ لاستغراقِ جميعِ أفرادِ النّاس، فهي رسالةٌ موجَّهةٌ للنّاس جميعًا دون استثناءِ طائفةٍ من أخرى، وهو ما يُعيد النّاس إلى أصلِهم الأدميِّ.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿بَشِيرٗا﴾:

التَّبشيرُ هو أثرُ الخيرِ في قلوب العباد

جاء استعمالُ مفردة ﴿بَشِيرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾؛ لبيانِ ما تتركه هذه الرِّسالة من خير على وجوه من يؤمن بها، فهو يُبشِّرهم بالجنَّة والرِّضوان والنَّجاة من النّيران، ممّا يدعو إلى التَّفاؤل والأمل؛ إذ يدلُّ على ما في الرِّسالة مِنَ الرَّحمة والفضل؛ إذ بُعِثَ ليبشِّر النّاس بالخير.

نكتةُ تقديم البشير على النَّذير:

عند ابتداءِ الدَّعوة البشارةُ مقدَّمةٌ على النِّذارة

قُدِّمَ ﴿بَشِيرٗا﴾ على ﴿وَنَذِيرٗا﴾؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ في دعوة جميع الخلقِ، لا في خصوصِ محاجَّةِ المشركين، فلمّا انتقلت عن المحاجَّة إلى الإخبار بعالميَّة الدَّعوة للنّاس؛ بدأ النَّظمُ في ذِكر البشير لبيان

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 549.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 593.

أنّه المقدَّم في الذِّكر عند ابتداء الدَّعوة، وأنَّ الصِّفة الأوضح للرَّسول ﷺ هي صفةُ البِشارة لا النِّذارة، وأنَّ الأصلَ مقدَّمٌ على الفرع.

نوعُ الواوِ ومعناها:

عمومُ الرِّسالةِ للمُقبلين على الدَّعوة والمُدبرين عنها

الواو في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ جاءت لعطفِ المفرد على المفرد، لبيان اجتماعِ هاتين الوظيفتينِ المتقابلتينِ في المكلَّف بالرِّسالة، وأنَّ دعوتَهُ توازنٌ بين كونِهِ بشيرًا لمن أقبلَ، وأنصتَ، ونذيرًا لمن أدبر، واستكبرَ، وهو ما يُرشِّح العموم، فهي عامَّة كذلك للنّاس المتَّصفين بالإقبالِ، والمنعوتين بالإدبار.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿وَنَذِيرًا﴾:

الإنذارُ دليلُ التَّكامل والرَّحمة ببيانِ الحقائق على وجهها

استعملَ النَّظم الكريمُ مفردةَ ﴿وَنَذِيرًا﴾؛ لبيانِ أنَّ التَّبليغ اشتمل على أمورٍ يخافها النّاس، فالنِّذارة إخبارٌ على سبيل التَّخويف، كإنذار البعث والقيامة والحساب والجزاء والنّار، واشتملت مفردةُ النَّذير في دلالتها التَّقابليَّة على التَّكامل في التَّبليغ، والرَّحمة الإلهيَّة، فإنَّ التَّبشير وحدَه قد يخدع الجاهلَ بحقيقة المآل، فكان التَّكاملُ بين هاتين الوظيفتينِ هو الأوثق بعرى الدَّعوةِ، وبمقتضى الحكمة.

فنُّ الطِّباقِ:

في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فنُّ الطِّباق، فالبشيرُ يُقابلُهُ النَّذير، ونكتة الطِّباق بيان التَّكامل بين الوظيفتين، وأنَّهما جمعتا وظيفةَ الرِّسالة الشّاملة في سياق التَّبليغ الشامل.

نوعُ الواوِ وبيان وظيفتها الرّابطة:

التَّشريفُ برسالةِ ربِّ العالمين يتبعُهُ التَّكليف بتحمُّل صعوبات النّاس أجمعين

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حرف عطف، حيث عطفَتِ الجملة على الجملة السّابقة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وفائدة العطفِ: بيانُ أنَّ التَّشريفَ الإلهيَّ لنبيِّنا محمَّد ﷺ بالرِّسالةِ، لا يعني استجابةَ الخلق له، فبيَّن له أنَّ حالَ معظم النّاس هو ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ ليُعلمَهُ حقيقة

الأمرِ، ولينتقِلَ من بيان مهمَّة الرَّسول ﷺ إلى بيان واقع النّاس، فالواوُ تُعبِّر عن الرَّبط بين وظيفتَي البشارةِ والنِّذارة وما يتبعها من جهلِ النّاسِ، ممّا يُظهرُ تأثيرَ الجهل على استجابتِهم للرِّسالة.

دلالةُ الاستدراك:

كمالُ الرِّسالة وشرفُها لا يعني الاستجابة والإيمان

(لكنّ) في جملة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ للاستدراك، وفائدة الاستدراكِ في هذه الجملة رفْعُ ما يتوهَّم من اغترارِ المغترّين بكثرة عددِ المنكرين لرسالتِهِ ﷺ بأنَّ كثرتَهم تغرُّ المتأمِّل؛ لأنَّهم لا يعلمون[1]، وتأتي أداةُ الاستدراكِ؛ لتشيرَ إلى أنَّ ما ذُكِر مِن وظيفةِ البشارةِ والنِّذارة ستواجه بالحالة العامَّة للنّاس؛ إذ إنَّ كثيرًا منهم لا يستجيبون لهذه الرِّسالةِ، وهو ما يؤكِّد حاجةَ البشريَّة للإرشاد والتَّوجيه بالوحي وقيمه.

فائدةُ التَّعبيرِ بمفردة ﴿أَكۡثَرَ﴾:

أَكْثَرُ النّاسِ يأبَون شرفَ التَّكليف، وينهون عن سموِّ التَّبليغ

دلَّ التَّعبيرُ بالكثرةِ في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ على أنَّ الجهل وعدمَ العلمِ ليس خاصًّا بفئة صغيرةٍ، بل هو سائدٌ عند عموم النّاس - وهو ما يعكس حجم التَّحدّي الَّذي تواجهه الرِّسالة النَّبويَّة في توعية النّاس - ممّا احتاج إلى طباقِ التَّبشير والإنذار؛ ليشملَ أصنافَ الدَّعوة وشمول أساليبها، ويُظهر الفارقَ الواضح بين الذين يستجيبونَ للحقِّ، وأولئك الذين يُنكِرون الحقَّ والرِّسالة، ولا يَعونَ، ولا يستجيبون، وصيغة (أَفْعَل) تدلُّ على الكثرة الكاثرةِ والمبالغة فيها، فتوحي الصيغةُ بحجم العمل والمشقَّة التي سيبذلُها مَن أراد تبليغَ الرِّسالة، والعمل وفقَ مقتضيات الإرشاد الإلهيِّ.

توجيهُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

أظهرَ النَّظمُ الكريم لفظَ النّاس في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 199.

﴿ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لإعطاء هذه الجملة استقلاليَّةً في المضمون والنَّظم، ولدفع اليأسِ مِن قلب الرَّسول والدُّعاة، فأعلمهم أوَّلًا بوجوبِ التَّبليغ، ثمَّ بواقع النّاس، ليعلمَ أنَّ عليه التَّبليغَ لا الاستجابة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ۝٤٠﴾ [الرعد: 40]، ولتكونَ جملةُ الفاصلة مثلًا سائرًا يُستشهد بها على العموم، ويدخل في النّاس الكافرون والمؤمنون، لكنَّ الكافرين حظوا بالأكثريَّة.

الرَّسولُ مأمورٌ بتبليغ النّاسِ لا تحقيق استجابتهم

نوعُ ﴿لَا﴾ ودلالتُها:

أداة ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، نافيةٌ، حيث تُستخدم لنفي العلم عن ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، فهُم لا يعلمونَ بعظيم شأن هذه الرِّسالة، ومكانة الرَّسول عند اللّهِ سبحانه، وجيءَ بِها لإفادة نفي العموم، فنفت عن الأكثريَّةِ العلم، وتخصيص نفي عِلمِهم بمصالحهم الأخرويَّةِ جاء من السّياق.

نفيُ عمومِ العلم بمصالحِ العباد الأخرويَّة

فائدةُ إيثارِ نفي العلم على إثبات الجهل:

آثرَ النَّظمُ الكريم نفْيَ العلم لا إثبات الجهلِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ وذلك لزرعِ قيمةِ الهداية والإقبال على الدَّعوة، فنفْيُ العلم ألطفُ من إثبات الجهل، ففي النَّظم تعليمُ الدُّعاة التَّلطُّف بالنّاس عند دعوتِهم، ونفْيُ العلمِ هو علمُ الآخرة.

تعليمُ الدُّعاةِ التَّلطُّفَ بالمدعوّين في الخطابِ

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

حُذِفَ مفعولُ فعل العلم في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ إمّا لدلالةِ ما قبلَهُ عليه، فهو من قبيلِ الإيجازِ، أي: (لا يعلمون ما بشَّرتَ به المؤمنين، وما أنذرْتَ به الكافرين)، أي: (يحسبون البشارةَ والنِّذارة غيرَ صادقتين)، وإمّا أن يكونَ فعلُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ منزَّلًا منزلةَ اللّازم مقصودًا منه نفيُ صفةِ العلم عنهم على حدِّ قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ

العلمُ المنفيُّ هو علمُ الآخرة فهو الأنسبُ بالسّياق

﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزُّمر: 9]، أي: (ولكنَّ أكثر الناس جاهلون قدرَ البشارةِ والنِّذارة)(1).

وإمّا أن يكونَ الحذفُ لإفادةِ العموم، أي: لا يعلمون شيئًا من الأشياء، وهذا بعيدٌ، إذِ المقصودُ نفي ما ورد في السياق، فهو الأنسبُ، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الروم: 6-7]، فنفى عنهم علمَ الآخرةِ، وأثبتَ لهم علمَ الدُّنيا، فيكونُ النَّفي للمقصود بالسياق.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسالُ والبعثُ:

يغلبُ على الإرسالِ الرِّفقُ والسلاسة، والبعث الإثارة والإيقاظ

يشتركُ الإرسالُ والبعثُ في مَلْمَح دلاليٍّ عامٍّ، وهو توجيهُ الشَّيءِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، ويفترقانِ بأَنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَح التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارة، كبعثِ البعيرِ مِنْ مكانِه، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَح الرِّفْقِ والرَّحمةِ إلّا في المواضعِ الَّتي جاءَ مركَّبًا فيها معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)، نحوُ: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣﴾ [الفيل: 3]، كما أنَّه يجوز أَن يَبْعَث الرَّجل إِلَى الآخرِ لحاجَة تخصُّهُ دونك ودون المَبْعوث إِلَيْهِ كالصَّبيِّ تبعثهُ إِلَى المكتب، فَتَقول: بعثْتُهُ، ولا تَقولُ: أَرْسلتهُ؛ لأنَّ الإرْسال لا يكون إلّا برسالةٍ وما يجْري مجْراها(2)، لذلك فإنَّ الإرسال يتطلَّب وجودَ رسالةٍ أو محتوًى يُنقل، وغالبًا ما يتضمَّن فعلَ التَّواصل بين الأشخاص، بينما البعثُ: يشير إلى إرسالِ شخصٍ أو شيءٍ لأداء مهمَّةٍ معيَّنةٍ، دون الحاجةِ إلى وجود رسالةٍ، فيكون قد بعثه لأداء وظيفةٍ أو غرضٍ معيَّنٍ.

الكافَّة والعامَّة:

تشير (كافَّة) إلى الشُّموليَّة والعموميَّة، حيث تعني أنَّ الشَّيء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 199.

(2) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 289.

لفظُ (كافَّة) أرسخُ في العمومِ من لفظ (عامَّة) لعدم قبول الاستثناء

يشمل جميعَ الأفرادِ أو الأشياء دون استثناءٍ[1]، ووردت ﴿كَآفَّةً﴾ في هذه الآية؛ للدَّلالة على رسالةٍ تشمل جميعَ النّاس دون استثناء[2]، أمّا (العامَّة)؛ فتشير أيضًا إلى الشُّموليَّة، حيث تشملُ مجموعةً كبيرةً مِنَ الأفراد أو الأشياء، مع إمكانيَّة وجودِ استثناءات[3]، فـ(عامَّة): قد تشير إلى مجموعة من النّاس، وتستخدم في سياقات منوَّعة[4]، لكنَّها لا تعبِّر عن الشُّمول كما في (كافَّة)؛ إذ تحملُ دلالةً قويَّةً على عدم الاستثناء والشُّموليَّة المطلقة[5].

التَّخويفُ والإنذارُ:

الإنذارُ تخويفٌ بإعلامِ موضع الخطر والتَّخويفُ أعمُّ منه

الإنذارُ تخويفٌ مَعَ إعْلام مَوضِع المخافة من قَوْلك: نذرت بالشَّيء؛ إذا عَلمته، فاستعددت لَهُ، فَإذا خوَّف الإنسان غيره، وأعلمه حالَ ما يخوِّفه بِهِ؛ فقد أنذره، وإن لم يُعلِمْهُ ذَلِك؛ لم يقل: أنذرَهُ[6]، فالتَّخويفُ أعمُّ من الإنذار؛ لأنَّ الإنذارَ تخويفٌ بإعلام وإفهام، فالإنذارُ يحمل جانبًا إيجابيًّا وهو تعليمُ النّاسِ موضعَ الخطر، بخلافِ التَّخويف، فيحمل ذلك وغيره.

(1) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: 1/ 550.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 87.
(3) ابن منظور، لسان العرب: 3/ 65.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 154.
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/ 174.
(6) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 242.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: 29 - 30]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ مِن بيان التَّبليغِ إلى بيان موقفِ الكفرة من المُبلَّغين

لما بيَّنتِ الآية السّابقةُ وظيفةَ رسول الله ﷺ في تبليغِ النّاس كافَّةً، وتبشيرهم وإنذارهم، وعقَّب في الفاصلةِ ببيان أنَّ أكثر النّاس لا يعلمون حقائقَ الدّين، ولا يستجيبونَ لما يُحقِّق مصالحهم الأخرويَّة، ناسب بيان موقفِ أكثر الناس بما جاء على لسانِ المشركين: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ ليكونَ الجوابُ بتعيين موعدٍ لا يستأخرون عنه ساعةً، ولا يستقدمونَ، فهو انتقالٌ من التَّكليفِ بالتَّبليغِ، إلى بيان موقف المُبلَّغين؛ لتقومَ الحجَّةُ عليهم في عدم الاستجابةِ، والكفر بالسّاعة.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْوَعْدُ﴾: (وعد) أصلٌ يدُلُّ على ترجيةٍ بقول، يقال: وعَدتُهُ أعِدُه وعدًا، ويكون ذلك بخيرٍ وشرٍّ، فأمّا الوعيدُ؛ فلا يكونُ إلّا بشرٍّ، يقولون: أوعدته بكذا[1]، والوعدُ المقصودُ في الآية هو القيامة.

2) ﴿تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: (أخر) أصلٌ يدُلُّ على خلاف التَّقدُّم، والأُخُرُ نقيضُ القُدُم، تقولُ: مضى قدمًا، وتأخَّر أُخُرًا، وقال: وآخرة الرَّحْلِ وقادمته ومُؤَخَّر الرَّحل ومُقدَّمه[2]، وأخَّره، فتأخَّر، واستأخَرَ أيضًا، والآخِرُ بكسر الخاءِ بعد الأوَّل، وهو صفةٌ، تقول: جاء آخِرًا، أي: أخيرًا[3]، وقوله: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، أي: لا يتأخَّرون عن ذلك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).
(3) الرّازيّ، مختار الصحاح: (أخر).

3) ﴿سَاعَةٞ﴾: (سوع) أصلٌ يدلُّ على استمرارِ الشَّيء ومضيّه، سُمّيت السّاعة بذلك، يقال: جاءنا بعد سوعٍ من اللَّيل وسواعٍ، أي: بعد هَدْءٍ منه، وذلك أنَّه شيءٌ يمضي، ويستمرٌّ، ويقال: هو ضائعٌ سائعٌ، وناقةٌ مسياعٌ، وهي الَّتي تذهب في المرعى[1]، فهي تسعى، وتتحرَّك ساعةً من الزَّمن، والسّاعة تُصغَّر سوَيْعة، والسّاعة القيامة[2]، المقصود بالسّاعة في الآية الكريمة الفترة الزَّمنيَّة المحدودة.

4) ﴿تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾: (قدم) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على سبق، فالقِدَمُ خلاف الحُدوث، وشيءٌ قديمٌ إذا كان زمانُه سالفًا، وأصلُه قولُهم: مضى فلان قدمًا: لم يعرج، ولم ينثنِ[3]، والقُدْمَةُ والقَدَمُ أيضًا: السّابقة في الأمر، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس: 2]، أي: سَبَقَ لهم عند اللّهِ خيرٌ، وللكافرين قَدَمُ شرٍّ، والقِدَمُ مصدرُ القَديم مِن كلِّ شيءٍ، وتقول: قَدُمَ يَقدُمُ، وقَدَمَ فلانٌ قومَهُ، أي: يكون أمامهم، ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ [هود: 98][4]، والمقصودُ في الآية: هو أنَّ الميعادَ لن يتأخَّر، ولن يتقدَّم، وإنَّما سيأتي في موعده المضروبِ له.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الاستهزاءُ بالعقائد ثمرةُ الإنكار وطريق الكفّار

تُبيِّنُ الآيتان الكريمتان استخفافَ المشركين بعقيدةِ البعث، واستهزاءهم برسولِ اللّه ﷺ، بالسُّؤال عن موعد القيامة، منكرين قدومَ يومِ القيامة، فيسألون متى سيحدثُ هذا الوعدُ، ولذلك خُتِمَت الآية بقولهم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، أي: (أنتم لستُم صادقين في إخباركم بهذا الوعد)، وبناءً على السُّؤال يأتي الرَّدُّ من اللّه بأنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوع).
(2) الخليل، العين: (سوع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).
(4) الخليل، العين: (قدم).

القيامة لها ميعادُ يوم لا يعلم وقته إلّا هو سبحانه، لكنَّه موعدٌ لا يستأخر النّاس عنه، ولا يستقدمون؛ إذ لا يمكن أن يتخلَّف عنه أحدٌ، وهو يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾، فموعدُ يوم القيامةِ قادمٌ - لا محالة - ممّا يدعو المؤمنين إلى الثَّبات والتَّمسُّك بإيمانهم، وتحذيرُ الكافرين مِنَ الاستمرار في كفرهم وغيِّهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

مَن جَهِلَ الحقائقَ أنكرها استهزاءً واستبعادًا

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ عاطفة، والجملة معطوفةٌ على خبر (لكن) في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، والتَّقديرُ: ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون حقَّ البشارة والنِّذارة، ويتهكَّمون فيسألون عن وقت هذا الوعد الذي هو مظهرُ البشارةِ والنِّذارة، ويجوز أن تكونَ الجملةُ مستأنفةً، والواو للاستئناف[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بجملة ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

تكرارُ صدورِ الأقوالِ المُنكَرَة عن المنكرين للحقِّ

استعمل النَّظمُ الكريم مفردةَ القولِ بصيغة الفعل المضارع ﴿وَيَقُولُونَ﴾ وضمير (يَقولونَ) عائدٌ إلى المحاجّين من المشركين الذين صدرت عنهم هذه المقالةُ[2]؛ لبيانِ أنَّ هذا ديدنُهم، وأنَّ هذا القولَ قد صدر عنهم مرارًا، وبالفعل فقد جاءت هذه الآية: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ستَّ مرّاتٍ في القرآن الكريم، وهي توحي بالتَّعجُّب من سؤالِهم المشحون بالإنكار والاستبعادِ، مع ما فيها مِن رائحة التَّهديد والوعيد، فإنَّ ذكرَ قولِهم تسجيلٌ عليهم بإنكار العقائدِ الثابتة كالبعث والحساب، ليُحاسبوا على ذلك فيما بعدُ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 199.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 199 - 200.

بلاغةُ الكنايةِ في استعمال ﴿مَتَىٰ﴾:

السُّؤالُ عن زمن القيامةِ كنايةٌ عن إنكارها

وقع استفهامُ المشركين عن وقت القيامةِ بأداة ﴿مَتَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ الإنكارَ انصبَّ على تعيين موعد القيامة، وهو ما تولَّت الآيةُ اللّاحقة الإجابة عنه: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، على أنَّ الإنكارَ ليس لجهل زمان وقوعها، فإذا عُرِفَ الزَّمنُ؛ آمنوا، بل هو استفهامُ المستهزئ السّائل عن الوقت لإنكار الحدث، فالاستفهامُ عن الوقت هو كنايةٌ عن لازمِه، وهو الحدثُ، ولمّا سألوا سؤالَ المستهزئِ؛ لَزِم عن ذلك وقوعُ الإنكار، وهذا التَّوجيهُ هو الذي يتَّسق مع نظم الآية.

غرضُ الاستفهامِ ومقصوده:

غرضُ الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ هو إنكارُ البعث، والاستهزاء بالمؤمنين، فخرجَ الاستفهامُ إلى الإنكارِ والاستهزاءِ، بقرينة: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

نكتةُ حذفِ جوابِ الشَّرط:

الإيجازُ والاختزالُ من أماراتِ النَّظم المعجز

حُذِفَ جواب الشَّرطِ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لدلالةِ السِّباق المفهوم من السُّؤال عليه، أي: (إن كنتم صادقين في دعواكم؛ فعيِّنوا ميقاتَ هذا الوعد)، فنكتةُ الحذفِ الإيجازُ في النَّظم، وإرادة العموم، أي: (إن كنتم صادقين في زعمِكم بأنَّ البعثَ حقٌّ، وأنَّ القيامةَ آتيةٌ، فلا بدَّ أن تعلموا متى هو)، وهو يستلزمُ التَّشكيكَ في صِدق الرِّسالة، واتِّهام الرَّسول والمؤمنين بالكذب والافتراء على اللّه تعالى.

دلالةُ الإشارةِ بالقريب:

الإشارةُ بالقريب للمُستَهزئ به

استُعمِلَ اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ للاستخفاف والتَّحقيرِ، فإنَّ الإشارةَ للقريبِ مرادٌ بها الاستهانةُ بالمُشار إليه، وهو عقيدةُ البعثِ، فقد صوَّروا معنى إثباتِ البعث واستحضروهُ، ثمَّ أشاروا إليه بهذا، وهي طريقتُهم في الاستخفاف

والتَّحقير، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٦﴾ [الأنبياء: 36].

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْوَعْدُ﴾:

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ للعهد الذِّهنيِّ، فإنَّ المقصودَ به وعدُ إتيانِ القيامةِ، فسؤالهم واقعٌ لوعدِ القيامة، بقطع النَّظر عن الجزاءِ الواقع فيه، فهو حاوٍ لجزاءِ المؤمنين والمشركين.

نكتةُ استعمالِ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

بيانُ معتقدِ السّائلِ في شأن المسؤولِ عنه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ أداة ﴿إِن﴾ دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ للإيماءِ إلى اعتقادِ السّائلين، فهُم يسألونَ سؤالَ المنكرِ المستهزئِ، ولو اعتقدوا بأحقّيَّة البعثِ؛ لجاء سؤالُهم بأداة (إذا) الدّالَّة على تحقُّق الوقوع.

تعيينُ المقصودِ بضميرِ المخاطَبين:

المقصودُ بضميرِ المخاطَبين في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إمّا للرَّسول ﷺ باعتبار أنَّ معه جماعةً يخبرون بهذا الوعد، وإمّا للمسلمين عمومًا[1].

دلالةُ ذكرِ الكون الماضي:

تصويرُ الحال القائمةِ بين المؤمنين والمنكرين للبعث

جاء استعمالُ فعلِ الكون الماضي في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ دون الاستغناء عنه، فيُقال: (إن صدقتم)، وذلك لاستحضارِ ما صدر عنهم مرارًا من إثبات البعث والدَّعوة إليه، أي: إن كنتم صادقين في دعواكم للإيمانِ بالحساب والجزاءِ فيما مضى، فأفاد تصويرُ المشهد الماضي في علاقةِ المؤمنين بالمشركين القائمة على الدَّعوة إلى التَّصديق بالبعث وإنكاره من قبلِ المشركين،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 200.

وهو ما يُبيِّنه قولُه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣﴾ [النبأ: 1 - 3] على القول بأنَّ النَّبأَ هو البعثُ صراحةً، أو القرآن المشتمل على ذكرِ البعث تبعًا.

دلالةُ التَّعريضِ باستعمال مفردة الصِّدق:

استلزامُ تكذيبِ المؤمنين لعدمِ معرفةِ وقتِ القيامةِ جهالةٌ باللهِ وتطاولٌ على عبادِهِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ الصِّدق في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ إذ طلبوا جوابًا صادقًا متضمِّنًا إحضارَ ذلك اليوم؛ ليكتمل تصديقهم به، وإلّا فإنَّهم لن يُصدِّقوهم مهما فعلوا، ولو أنَّ الله تعالى أعلمَ رسوله بموعد ذلك اليوم، ثمَّ بيَّن الرَّسولُ للنّاس ذلك الموعد؛ لأنكره عموم النّاس، وكذَّبوه، فأرادوا بقولهم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّكم غيرُ صادقين أبدًا في دعواكم إلى الإيمان، فذِكرُ الصِّدق تعريضٌ بمقابله وهو الكذب، أي: (أنتم كاذبون لا صادقون)؛ بدليل عدم معرفة موعد البعث، وهذا ديدن المنكرين الجهلةِ.

علَّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

جاءت جملة: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ﴾ إلى آخرِها مسوقةً مساقَ الجواب عن مقالتهم، ولذلك فُصِلَت، ولم تُعطَف، على طريقةِ حكاية المحاورات في القرآنِ[1].

غرضُ فعلِ الأمرِ:

أمرُ اللهِ لنبيِّه أمرُ إرشادٍ وتوجيهٍ

جاء فعلُ الأمر في قوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ﴾؛ لغرضِ الإرشاد والتَّلقين، فإنَّ على الرَّسول والدُّعاة من بعده أن يُبلِّغوا النّاس عن الله تعالى كما أمر، ففي الآيةِ تلقينٌ للرَّسول ﷺ تلك الإجابة المُباشرة التي لا تصدرُ إلّا عن علّامِ الغُيوب، الملك المالك لذلك اليوم العظيمِ، مع ما في الأسلوبِ من دلالةِ التَّحذير.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 200.

نكتةُ ذِكرِ الجارِّ والمجرور ﴿لَّكُم﴾ وتقديمه:

تعريضٌ بالتَّهديد ودلالة التَّخصيص

في قوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ﴾ ذُكِر الجارُّ والمجرور ﴿لَّكُم﴾؛ ليدلَّ على التَّهديد والوعيد بذلك اليوم، ففي هذا الجواب عرَّضَ بذلك، فكان مطابقًا للمقصود من الاستفهام، ولذلك زيدَ في الجواب كلمة ﴿لَّكُم﴾؛ إشارةً إلى أنَّ هذا الميعادَ منصرفٌ إليهم ابتداءً[1]، وقُدِّم؛ ليدلَّ على الاختصاصِ، ومقصوده التَّهديدُ، كأنَّه لهم فحسب.

نوعُ (اللام) ودلالتها:

دلَّ حرفُ اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿لَّكُم﴾ على الاختصاص، وأشار الاختصاصُ إلى أنَّ هذا الميعادَ منصرفٌ إليهم؛ لأنَّه أولى بالمنكرين له مِن أهلِ التَّفريطِ والإضاعة.

دلالةُ إضافةِ لفظ ﴿مِّيعَادُ﴾ إلى ﴿يَوۡمٖ﴾:

ميعادُ يوم القيامة أو ميعاد عذابٍ في الدُّنيا

أُضيفَ لفظُ الـ﴿مِّيعَادُ﴾ إلى ﴿يَوۡمٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّيعَادُ يَوۡمٖ﴾ تجوُّزًا مِن حيث كان فيه، فإضافتُهُ إلى ظرفه بيانيَّة؛ لأنَّ الميعادَ هو اليوم نفسه[2]، وتحتمل الآيةُ أن يكونَ استعجالُ الكفرةِ لعذاب الدُّنيا، ويكون الجوابُ عن ذلك أيضًا، ولم يَجرِ للقيامة ذكرٌ على هذا التَّأويل[3]، فاليوم: يومُ القيامةِ - وهو السّابقُ إلى الذِّهن - أو يوم مجيء أجلهِم عند حضورِ منيَّتهم، أو يوم بدر[4]، والآيةُ تحتملُ هذه الأقوال.

دلالةُ لفظِ ﴿مِّيعَادُ﴾:

الميعادُ يُفسَّرُ في سياق الوعد والزَّمان

الظّاهرُ أنَّ الميعادَ اسمٌ على وزنِ مِفْعال استُعمل بمعنى المصدرِ، أي: (قل لكم وقوع وعد يوم وتنجيزه)، وقال الزَّمخشريُّ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 203.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 420.
(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 589، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 551.

(الميعاد) ظرف الوعدِ من مكانٍ أو زمانٍ، وهو هاهنا الزَّمانُ[1]، والدَّليلُ عليه قراءة من قرأ ميعادٌ يومٌ، فأبدل منه اليوم[2]، والميعاد يقعُ للخير والشَّرِّ[3].

دلالةُ استعمالِ حرفِ النَّفي ﴿لَّا﴾:

مباغتةُ وقتِ مجيءِ الميعاد، فهو غيرُ مقترنٍ بزمنٍ معيَّنٍ

أفاد النَّفيُ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ استحالةَ أن يختلفَ حضورُ المخاطَبين، وحضورُ الميعاد، فكِلا الحضورين متطابقٌ، فلا يتأخَّرُ المخاطبون، ولا يتقدَّمون عنه فترةً زمنيَّةً مهما كانت قصيرةً، وجيءَ بحرف النَّفي ﴿لَّا﴾؛ لبيانِ أنَّ وقت المجيءِ يبدأ من لحظةِ نزولِ الآية إلى أن يقعَ، ففيه معنى المفاجأةِ والمباغتة.

دلالةُ السّينِ والتّاءِ في فعل ﴿تَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾:

النَّظمُ كاشفٌ عن بواطن النُّفوسِ وخفيّاتِ الصُّدور

السّينُ والتّاء في الاستئخارِ والاستقدامِ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ للمبالغة[4]، فعلى الرَّغم ممّا يظهر على ألسنةِ المنكرين من استعجالِ مجيءِ ذلك اليوم، إلا أنَّهم يتمنّون في دواخلهم تأخُّرَهُ وعدم حضورِه، فبالَغَ هنا في قوله: ﴿لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾؛ لأنَّهم يطلبونَ في أنفسِهم ذلك، وقال: ﴿تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾؛ وصفًا لظاهر أقوالهم بأنَّهم يطلبون استعجالَهُ.

فنُّ التَّتميمِ في تقديم الاستئخارِ على الاستقدام:

نفيُ الاستئخارِ أصلٌ تمامُهُ في نفي الاستقدام

قُدِّمَ (الاستئخار) على (الاستقدام)؛ إيماءً إلى أنَّه ميعاد يوم عصيب، وعذاب عليهم، فمِن شأنِهم أن يتمنَّوا تأخُّرَه، ويكون ﴿وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ تتميمًا لتحقُّقِهِ عند وقتِهِ الَّذي أرادَهُ اللّه تعالى، وفيه كشفٌ لِما يدور في أنفسِهم، فهم يُراجعونَ أنفسَهم حين الخلوة، ويتوقَّعون قدومَ ذلك اليوم، فيرجونَ تأخيرَهُ وعدم حضورِه.

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 589.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 550.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 550.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 203.

دلالةُ حرفِ (عَنْ) في القيد ﴿عَنْهُ﴾:

دلَّ حرفُ (عَنْ) في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾ على نفي التَّجاوزِ عن الميعاد، ولو ساعةً، أي: لا تتأخَّرون، ولا تبتعدون عن وقت حضوره، ولو بمقدار وقت قصير.

نكتةُ تقييدِ فعل ﴿تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ بالجارِّ والمجرور:

موعدُ مجيءِ السّاعة أو العذابِ مطابقٌ لما كُتِبَ في الغيب

قُيِّدَ الفعلُ ﴿تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿عَنْهُ﴾ في قوله: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ ليُظهِرَ تعلُّق الأمرِ بوقتٍ وميعادٍ محدَّدٍ لا يتأخَّر، ثمَّ إنَّ الجارَّ والمجرور يعكس الإلحاح على أهمّيَّة التَّوقيت، وأنَّه سيأتي حتمًا في موعدِهِ الذي أراده اللّٰه تعالى، والتَّعبيرُ يُضفي معنى أكبرَ على الفعل؛ إذ يُشعر السّامع بأنَّ ثمَّة موعدًا عظيمًا ومُلحًّا يجب الانتباهُ إليه، ويُؤكِّد على ضرورة الإسراع في الإيمان والتَّوبة.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿سَاعَةً﴾ وتنكيرها:

العنايةُ بمطابقةِ مجيءِ الميعاد تحذيرٌ شديد وتهديدٌ خطير

(السّاعة) في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾ حصَّةٌ من الزّمن، وتنكيرها للتَّقليل بقرينة المقام؛ إذ نكَّر ﴿سَاعَةً﴾ للتَّهوين والتَّقليل والتَّحديد، في كونِها فترةً زمنيَّةً قصيرةً، ثمَّ إنَّ تنكيرَ ﴿سَاعَةً﴾ يُضفي طابعًا تحذيريًا؛ إذ السّاعة المنفيَّة في الآيةِ هي الوقت القليلُ مِنَ الزَّمن، وهذا الوقت منفيٌّ أن يقعَ، فدلَّ على ما دلَّ عليه عمومُ النَّظم من دقَّة المطابقةِ في مجيءِ الميعاد.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَنْهُ﴾ على ﴿سَاعَةً﴾:

قُدِّمَ ﴿عَنْهُ﴾ على لفظِ ﴿سَاعَةً﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾؛ لتخصيصِ اليوم، ولمزيد الاهتمام به، فهو يوم الانقطاع عن العمل، سواء كان الموت أو العذاب أو القيامة.

دلالةُ واوِ العطفِ بين جملتَي الطِّباق:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ حرفُ عطفٍ للجمع؛ إذ

جَمَعَ النَّقيضين، وهما التَّأخُّر والتَّقدُّم، وأبرز فنَّ الطِّباق المؤدّي إلى دلالة الشُّمول والإحاطةِ، وأفاد التَّسويةَ بين عدم الاستقدام وعدم التَّأخيرِ، وهذا أمرٌ لا ينفيه، ولا يُثبته إلّا القادرُ ﷻ.

شمولُ الزَّمانِ المنفي والإحاطة به

نكتةُ تكرارِ حرف النَّفي:

كُرِّرَ حرفُ النَّفي (لا) في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾؛ للتَّوكيد، ولبيان أنَّ الاستقدامَ والاستئخار سيّان في قدرة اللّه تعالى، فامتنع بذلك عدمُ حضورِهم يوم القيامةِ في الوقت المحدَّدِ الذي يجتمعُ فيه النّاسُ جميعًا، ولاستقلال كلِّ جملةٍ بالنَّفي.

قدرةُ اللهِ تنالُ الزَّمان كلَّه، ما مضى منه وما سيأتي

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ ﴿تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾:

حُذِفَ متعلِّقُ ﴿تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ إيجازًا، فالحذفُ يُضفي على الجملة طابعًا بلاغيًا، والمعنى: (ولا تَستَقْدِمونَ عليه ساعة)، وللإيماءِ بأنَّ القدرةَ على الاستقدام منفيَّةٌ كذلك عن المخاطَبين، فإنَّ للإنسان أوهامًا مِنَ الاقتدار على تجاوز الصِّعاب، فجاءت هذه الجملةُ لنفي ذلك كلِّه.

دفعُ مظانِّ الإنسانِ فيما يعتريه مِنَ الأوهامِ

بلاغةُ أسلوبِ الحكيم:

جاء الجوابُ في قوله تعالى: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ على طريقة الأسلوبِ الحكيم، فالأهمُّ للعقلاء أنْ تتوجَّه همَمُهم إلى تحقُّقِ وقوع الوعدِ، في الوقتِ نفسِه الذي عيَّنه اللّهُ له، وأنَّه لا يؤخِّره شيءٌ، ولا يقدِّمه، وحسَّن هذا الأسلوبَ أنَّ سؤالَهم إنَّما أرادوا به الكنايةَ عن انتفاء وقوعه[1]، فترك إرادتهم مِن سؤالِهم، وأجابهم بما ينفعُهم مِنَ الوعيدِ والتَّهديد، فإنَّ مَن استهان بالحقائق، فأنكرها؛ هُدِّدَ بها.

يقع التَّهديدُ والوعيدُ من المنكر موقعَ الرّادعِ الزّاجرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 200.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّأخيرُ والإنظارُ والتَّأجيل:

الإنْظارُ إمهالٌ إضافيٌّ، والتَّأخيرُ يُقابل التَّقديم، والتَّأجيلُ تأخير موعد سابق

الإنظارُ: إمهالٌ لينظرَ صاحبُهُ في أمرِه، خلاف التَّأخير، ويرشدُ إليه قوله تعالى حاكيًا عن هود ﷺ مخاطبًا لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ [هود: 55][1]، أي: لا تُعطوني فرصةً لتغييرِ موقفي.

أمّا التَّأخيرُ؛ فتأخيرُ شيءٍ عن موعدِهِ المحدَّد، مثل الوصولِ متأخِّرًا إلى موعد أو تأخير تنفيذ مهمَّة، ويكون عادة بسبب ظروفٍ غيرِ متوقَّعةٍ، والتَّأخير مقابلٌ للتَّقديم، قال تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: 13]، وقال: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم: 42]، وقال: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [إبراهيم: 44][2].

أمّا التَّأجيلُ؛ فالمدَّة المضروبة للشَّيء، قال تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ [غافر: 67]، وقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: 28]، وأصلُهُ: استيفاءُ الأجلِ، أي: مدَّة الحياة، وبذلك يكونُ التَّأجيلُ تأخيرًا للموعد المسمَّى مسبقًا[3]، فالتَّأجيلُ يعني تأخيرَ شيءٍ إلى موعدٍ لاحقٍ، ويتضمَّن تحديدَ موعدٍ جديدٍ في المستقبل لتنفيذ الحدث أو المهمَّة.

التَّقدُّم والتعجُّل:

التَّقدُّمُ عكس التَّأخُّر، والتَّعجيل طلبُ الشَّيء وتحرّيه قبل أوانه

القُدُمُ ضدُّ الأُخُرِ، ورجلٌ قُدُمٌ: مقتحِمٌ للأشياء يتقدَّمُ الناس، ويمضي في الحربِ قُدُمًا، ومُقدَّمٌ نقيضُ مُؤخَّر، واستَقْدَمَ، أي: تَقَدَّمَ[4]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: 34]، أي: لا يريدون تأخُّرًا ولا تقدُّمًا، وقوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: 12]، أي: ما فعلوه، قيل: وقَدَّمْتُ إليه بكذا؛ إذا أمرته

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 81.
(2) الأصفهانيّ، المفردات، ص: 69.
(3) الأصفهانيّ، المفردات، ص: 65.
(4) الخليل، العين: 5/ 123.

قبل وقتِ الحاجةِ إلى فعلهِ، وقبل أن يدهمَهُ الأمرُ والنّاس، وقَدَّمْتُ به: أعلمته قبل وقتِ الحاجة إلى أن يعمله، ومنه: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨﴾ [ق: 28][1].

أمّا التَّعجُّل؛ فيعني السَّبقَ وسرعة القيام بشيءٍ، واستعجلْتُهُ، أي: حثثته وأَمَرْتُهُ أن يُعَجِّلَ في الأمر[2]، وقد يشير التَّعجُّل للتَّعبير عن الإسراع دون تروٍّ، والعَجَلَةُ: طلبُ الشَّيءِ وتحرّيه قبل أوانِه، وهو من مقتضى الشَّهوة، فلذلك صارت مذمومةً في عامَّة القرآنِ حتى قيل: (العَجَلَةُ من الشَّيطان)، قال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾ [الأنبياء: 37]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ [طه: 114]، وقوله: ﴿۞وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾ [طه: 83]، وقوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه: 84]، فَذَكَرَ أنَّ عَجَلَتَهُ - وإن كانت مذمومةً - فالَّذي دعا إليها أمرٌ محمودٌ، وهو طلب رضا اللّهِ سبحانه[3].

(1) الأصفهانيّ، المفردات، ص: 65.
(2) الخليل، العين: 1/ 227.
(3) الأصفهانيّ، المفردات، ص: 548.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ٣١﴾ [سبأ: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ مِن بيان موقفِ المشركين مِـنَ التَّـوحيـدِ والـبـعـث إلى بيان حالهم يومَ البعثِ والجزاءِ

لـمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة موقفَ المشركين مِنَ التَّوحيد والبعث والرَّسول؛ ناسب الانتقال إلى بيانِ موقفِهم مِنَ الرِّسالات الإلهيَّة، وذكر ما استحقّوا به الوقوفَ بين يدي اللّهِ ﷻ للحسابِ والجزاء، مع تصوير حالهم يوم القيامةِ بعد بيان موقفِهم في الدُّنيا، لبيانِ أنَّهم ظلموا أنفسهم، فنالوا بسببِ ذلك الجزاءَ العادل.

كما أنَّه لـمّا ذكرَ تعالى أنَّ ميعادَ الُمستعجلين بالعذاب، لا بدَّ مِن وقوعِهِ عند حلولِ أجلِهِ؛ ذكرَ هنا حالَهم في ذلك اليوم[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿نُّؤْمِنَ﴾: (أمن) أصلان متقاربان: أحدهما الأمانةُ الَّتي هي ضدُّ الخيانة، ومعناها سكونُ القلبِ، والآخر التَّصديقُ، والمعنيان متدانيان، والأمنةُ مِنَ الأمنِ، والأمانُ إعطاءُ الأَمَنَةِ، والأمانةُ ضدُّ الخيانةِ[2]، والمرادُ بالإيمان في الآية: هو الإيمانُ بالقرآنِ الكريم وما احتواه من عقائد البعث والتَّوحيد.

2) ﴿تَرَىٰٓ﴾: (رأي) أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ، فالرَّأيُ ما يراهُ الإنسانُ في الأمر، وجمعه الآراءُ، والرِّئي: ما رأت

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 680.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).

العين من حالٍ حسنةٍ[1]، الرؤيةُ النَّظرُ بالعين والقلب[2]، والرُّؤيةُ في الآيةِ هي إبصارُ حالِ المشركين في القيامة.

3) ﴿مَوۡقُوفُونَ﴾: (وقف) أصلٌ يدلُّ على تمكُّثٍ في شيءٍ، ثمَّ يُقاس عليه، منه: وقفتُ أقف وقوفًا، ويُقال للَّذي يكون في شيءٍ، ثمَّ ينزع عنه: قد أوقف[3]، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصافات: 24]، ومنه استعير: وقَفْتُ الدّارَ؛ إذا سبَّلتها[4]، ودلَّ قوله: ﴿مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، على أنَّهم محبوسون في موقف المحشرِ، فلا مفرَّ لهم من ذلك الموقفِ.

4) ﴿يَرۡجِعُ﴾: (رجع) أصلٌ كبيرٌ مطَّرد منقاس، يدلُّ على ردٍّ وتكرارٍ، ورجع؛ إذا عادَ، والرُّجعى: الرُّجوعُ[5]، والرُّجوعُ: العود، والرَّجْعُ: الإعادة، ومنها قوله تعالى: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [المنافقون: 8]، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ﴾ [يوسف: 63]، وقوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف: 150]، وقوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْ﴾ [النور: 28]، ويقال: رَجَعْتُ عن كذا رَجْعًا، ورَجَعْتُ الجواب[6]، وقوله: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ تصويرٌ لما هم فيه مِنَ الجدالِ وإلقاءِ التُّهم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّصريحُ برفضِ الإيمان بالقرآنِ يتبعُهُ بيانُ حالِهم في عرصات القيامة

تُبيِّن الآيةُ الكريمة إنكارَ الكافرين للقرآن، وما جاء به مِن حقٍّ، فَهُم يرفضون الإيمانَ بما في القرآنِ وبما بين يديهِ مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّة كالتَّوراة والإنجيل، على الرَّغم بما فيها مِن الدَّلائلِ الواضحةِ؛ وذلك لأنَّ المشركين سألوا بعضَ أهلِ الكتاب، عن الرَّسولِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأي).
(2) ابن سيده، المُحكم: (رأي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقف).
(4) الأصفهاني، المفردات: (وقف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجع).
(6) الأصفهانيّ، المفردات: (رجع).

ﷺ، فأخبروهم بأنَّ صفاتِهِ مذكورةٌ في التَّوراة والإنجيل، فغضبوا، وأنكروا ما قالوا، ويحتمل أن يكونَ المعنى: لن نؤمِنَ بهذا القرآنِ، ولا بما فيه مِنَ الأخبار والآيات والدَّلائل، فيكون المرادُ: ﴿بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ما اشتمل عليه من أخبارٍ وأحكامٍ، ويكون المرادُ بالذين كفروا عمومَ الكافرين بما فيهم أهل الكتابٍ؛ لأنَّ الجميعَ لا يؤمنُ بالقرآن ولا بما اشتمل عليه.

ثم بيَّنت أحوالَهم يوم القيامة، بأنَّهم مَوْقوفونَ، أي: محجوزون ببؤسٍ وذلَّةٍ للحساب يوم القيامةِ، بمعنى: ولو ترى - والخطاب للجميع - حالَ الظّالمين وقتَ احتباسِهم عند ربِّهم يوم القيامةِ، وهم يتجاذبون، ويتجادلون فيما بينهم بالأقوالِ والتُّهَم، وكلُّ فريقٍ يُلقي التَّبعة على الآخر، لو ترى ذلك؛ لرأيت أمرًا عجيبًا، وحالًا فظيعة، ترتعد من هولها النُّفوس.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

ذِكرُ أقوالِ المُنكرين للتَّهديدِ والتَّحذير لا للسَّردِ والرواية

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ﴾ استئنافيَّة[1]، فالآيةُ استئنافٌ في ذكر قولٍ صدر عنِ الكافرين، يُضاف إلى ما تقدَّم من ظلمِهم وكفرِهم وإعراضهم، وتحتمل أن تكونَ الواوُ عاطفةً هذه الآيةَ على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾[2]، وذلك في سرد أقوالِهم المتفرِّقة زمانًا ومكانًا لبيانِ موقفِهم مِنَ الوحي عمومًا.

نكتةُ تغايرِ صيغ فعل القولِ:

أقوالُ المشركين منها ما هو كثيرُ التَّرداد ومنها ما هو نادرُ الوقوع

أتى فعلُ القولِ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ماضيًا، بخلاف فعل القول السّابقِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ جاء مضارعًا، فدلَّ هذا التَّغايُرُ في الصيغة على أنَّ ما جاء بصيغةِ المضارعِ؛ كان كثيرَ

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 22/ 226.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 203.

التَّرداد على ألسنة المشركين، بينما ما جاءَ في هذه الآيةِ، فيوحي بأنَّه قيل مرَّةً واحدة، لاسيَّما باقتران رفضِ الإيمانِ بالقرآن مع ما أنزلَ مِنَ الكُتُبِ السّابقة.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:

رسوخُ الكفرِ يحملُ صاحبَهُ على الرَّفض مع يقينيَّة الأدلَّة

استعمل النَّظمُ الكريمُ الاسمَ الموصولَ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ﴾؛ للاستشهاد عليهم بما في حيِّز الصِّلة، أي: إنَّما قالوا قولتهم الشَّنيعة؛ بسبب رسوخِ كفرِهم، ولبيان أنَّهم قومٌ معروفون بقولِهم هذا، ولو أتى بوصف الكفرِ بالاسم الظّاهر، فقال: (وقال الكافرون) دون الموصولِ؛ لعمَّ ذلك جميعَ الكافرين.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الكفرِ دون الشِّرك:

التَّلويحُ لأهلِ الكتاب بنعتِ الكفرِ إن شابهوا المشركين في رفض القرآن

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردة الكفرِ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الشِّرك ونحوه؛ لأنَّ السياقَ هنا هوفي ذكر الكفرِ بالقرآن والكتب السّابقة، لا في ذكر الشِّرك مع الله تعالى، كما أنَّ الوصفَ الأعمَّ المنطبق على عموم المشركينَ بالله تعالى هو الكفرُ، فأتى بالوصف المتَّسق مع عموم واقعهم، ومع خصوص السّياق، فكان هو الأنسب، ولما فيه من دلالةٍ على أنَّ رفضَ الإيمان بالقرآن يُصيب كلَّ كافرٍ به بهذا الوصفِ، ففيه تلويحٌ لأهلِ الكتاب بأنَّه سينالهم هذا الوصفُ؛ إن لم يؤمنوا بالقرآنِ، ولمشابهتِهم للمشركين في ذلك.

دلالةُ استعمالِ ﴿لَن﴾ وبلاغتها:

غطرسةُ الكفرِ مانعةٌ من نورِ الإيمان

جيءَ بحرف ﴿لَن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾ على لسانِ المشركين؛ لبيانِ تصريحِهم برفضِ الإيمان بالقرآن الكريم والكُتُبِ المنزَّلة على التَّأبيد؛ تأييسًا للنَّبيِّ ﷺ والمسلمين من الطَّمع في إيمانِهم، وهو يدلُّ على حالةِ الفجورِ الاعتقاديِّ، ورفض منطق العقل في النَّظر والتَّفكير الموصل إلى الحقِّ، ولو بعدَ حين، فهُم في عنجهيَّة وغطرسةٍ رافضةٍ للحقِّ المبين.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة الإيمان:

التَّصريحُ بالعنادِ ورفضِ دعوة الرَّسول

جاء على لسانِ المشركين قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ دون (كفرنا)؛ وذلك لأنَّ دعوةَ رسولِ اللّه ﷺ قامت على المطالبةِ بإيمانهم، فهُم صرَّحوا برفض ما طولبوا أن يقوموا به، وهو الإيمانُ بالقرآنِ وما جاء فيه، لا ما هم عليه، فكفْرُهم معلومٌ، فلا معنى لإثباته، فهُم قومُ بهتٍ وجدلٍ ومُناكدة.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿نُّؤْمِنَ﴾؛ للدَّلالةِ على رفضهم الإيمان حاضرًا ومستقبلًا، وهذا من تعنُّتهم وإصرارِهم على الكفر، فهُم مُصرّون على الكُفر مهما جاءتهم البيِّنات.

نوعُ (الباء) ودلالتُها:

السَّببُ المانعُ مِنَ الإيمانِ هو مضامينُ القرآنِ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ للسَّببيَّة، فإيمانُهم المقبول متوقِّفٌ على الإيمانِ بالقرآن، وهم رفضوا الإيمانَ بسبب ما جاء في القرآنِ مِن إثباتِ البعثِ ورفض عقائدِهم الباطلة، والمطالبةِ بالإذعان لأحكامِ اللّه تعالى، وتركِ ما هم عليه من الباطلِ.

غرضُ استعمالِ اسمِ الإشارة للقريب:

الكشفُ عن الضَّعف النَّفسي والهزيمة العقديَّة أمام القرآن

استُعمِلَ اسمُ الإشارةِ للقريب في قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وهو مشارٌ بهِ إلى حاضرٍ في الأذهان؛ لأنَّ الخوضَ في القرآن شائعٌ بين النّاس من مؤيِّدٍ ومنكرٍ، فكأنَّه مشاهدٌ، وغرض الإشارةِ التَّأكيد؛ فلم يقولوا: (لن نؤمن بالقرآن)؛ فكان ذكرُ اسم الإشارة لتعيينهِ بغرضِ توكيدِه، مع ما في استعمالهِ من إظهارِ خفيّات النُّفوس، وأنَّهم بلغوا موضعَ الضَّعف من مواجهةِ القرآن، فاسمُ الإشارةِ كاشفٌ عن حالهم التي هم عليها، وليس في اسم الإشارةِ معنى التَّحقير؛ لأنَّهم ما كانوا ينبزون القرآن بالنُّقصان، ومثال ذلك قولُ الوليد بن المغيرة: (إنَّ أعلاه لَمُثمرٌ، وإنَّ أسفلَهُ

لُغدقٌ)، وقول عبد اللّه بن أُبي بعد ذلك: (لا أحسن ممّا تقول أيُّها المرء)، وأنَّ عتبة بن ربيعة لمّا قرأ عليه رسول اللّه ﷺ القرآن، وقال له: (هل ترى بما أقول بأسًا؟)، فقال: (لا والدِّماء)، وكيف وقد تحدّاهم الإتيانُ بسورةٍ مثله، فلم يفعلوا، ولو كانوا ينبزونه بنقصٍ أو سخفٍ؛ لقالوا: نحن نترفَّعُ عن معالجة الإتيان بمثلهِ[1].

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾:

التَّعريفُ في لفظِ: ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ، وليس المرادُ به التَّمييزَ عن غيرِه، بل توكيد الكتاب الذي رفضوا الإيمانَ بهِ، وهو المتَّسق استعمالُه مع اسم الإشارة.

دلالةُ واوِ العطف:

الكفرُ بالكُتُبِ السّابقة إلحاقٌ فرعٍ بأصل

الواو في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حرفُ عطفٍ، حيث عُطِف عدمُ إيمانِهم بالكُتُبِ السّابقة على عدم إيمانِهم بالقرآن الكريم، وهو عطفُ إلحاقِ فرعٍ بأصل، حيث لمّا عرفوا أنَّ الكُتُبَ السّابقة قد أشارت إلى نبيِّ آخرِ الزَّمان، وهي منطبقةٌ على رسولِ اللّه ﷺ، فأعلنوا الكفرَ بها؛ لأنَّها تُلزمهم بما يرفضونه، فكان الموقفُ من الكُتُبِ السَّماويَّة واحدًا.

دلالةُ استعمالِ حرف (لا):

تتميمُ الكفرِ بنفيِ الإيمانِ بفروعِ الأصل

جاء استعمالُ (لا) النّافيةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ لتبيان الموقفِ من رفضِ الإيمان بالكُتُبِ السَّماويَّة، وأنَّه رفضٌ جازم، ويومئُ النَّفيُ إلى معنى التَّتميم، كأنَّهم قالوا: (ولا حتّى بالكُتُبِ السابقة له).

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول (الذي):

الإفصاحُ عنِ المقصودِ بالجملةِ لا بالاسم

جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لتعريفِ الكُتُبِ السّابقة بكونِها نازلةً بين يديه، فكان الاسمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 202 - 203.

الموصول واصفًا الكُتُبَ السابقة بصلته، فإنَّ الاسمَ الموصول يُتوصَّلُ به إلى وصف المعارفِ بالجمل[1].

دلالةُ الكنايةِ في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِۖ﴾:

الكفرُ بالدَّليلِ والمستدَلِّ إفلاسٌ من الإيمان

قوله تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِۖ﴾ كنايةٌ عن الكُتُبِ السّابقة، وهو ما نزل من كُتُبِ اللّه المبشِّرة برسول اللّه[2]؛ إذ حكيت في هذه الآية مقالة قالها بعض قريشٍ، وهي أنَّهم لا يؤمنونَ بالقرآنِ، ولا بِما بين يديه مِنَ التَّوراة[3]؛ إذ يروى أنَّ كفّار مكَّةَ سألوا أهلَ الكتابِ، فأخبروهم أنَّهم يجدون صفةَ رسولِ اللّه ﷺ في كُتُبِهم، فأغضبهم ذلك، وقرنوا إلى القرآنِ جميعَ ما تقدَّمه من كُتُبِ اللّه تعالى في الكفر، فكفروا بها جميعًا، والمعنى: أنَّهم جحدوا أن يكونَ القرآنُ من عندِ اللّهِ تعالى، وأن يكونَ لِما دلَّ عليه مِنَ الإعادة للجزاءِ حقيقةً[4]، فكان ذِكرُ ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِۖ﴾ من باب الإقرارِ بأنَّها نازلةٌ بين يديه، فكفروا بالدَّليل والمستدَلِّ عليه، لكي لا تبقى لأحدٍ مقالةٌ عندهم، وهذا مِن أعتى الكفرِ وأشدِّه، "فهُم لم يكونوا مدعوّين لأَنْ يؤمنوا بكتابٍ آخرَ غيرِ القرآن، ولكن جرى ذلك في مجاري الجدالِ والمناظرة، فعدمُ إيمانِهم بالقرآن مشهورٌ معلومٌ، وإنَّما أرادوا قطْعَ وسائلَ إلزامِهم بالإيمان"[5].

بلاغةُ الاكتفاءِ عن إيراد الجواب:

منهجُ القرآنِ قائمٌ على انتقاء التَّعقيبات بما يُمليه المقام من الاهتمام

جاء قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۖ﴾، بإيراد مقالةِ المشركين مع الاقتصارِ على حكاية مقالتهم دون تعقيب بما يُبطلها؛ إيماءً إلى أنَّ بطلانَها بادٍ لكلِّ من يسمعها؛ إذ جمعت التَّكذيب بالكتب والشَّرائع كلِّها، وهذا بهتانٌ

(1) ابن جني، الخصائص: 1/ 321.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 551.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 420.
(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 589.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 203.

واضحٌ[1]، وهذا من الإيجاز الدّالّ على أنَّ القرآنَ لا يكترث بكلّ مقال، بل يردُّ على بعضِها، بما يُمليه المقامُ مِن الاهتمام.

مشهدُ الكفرِ في الدُّنيا مآلُهُ مشهد الحسرة والنَّدامة في الآخرة

نوعُ الواو ومعناها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ استئنافيَّةٌ[2]؛ إذ الجملةُ بعدها في تصوير مشاهد القيامةِ وحال الظّالمين، وهم موقوفونَ فيها عند ربِّهم يتراجعون الأقوالَ فيها، وهو انتقالٌ من قيل الكافرين في الدُّنيا إلى قيلهم في الآخرة، فبعد أن بيَّنَ النَّظمُ الكريم قيلَ الكافرين في رفْضِ الإيمان بالقرآن لما تضمَّنه من التَّوحيدِ والبعث؛ انتقلَ لبيان قيلِهم فيما بينهم، وهم في الآخرة يُلقي بعضُهم إلى بعضٍ القولَ حسرةً وندامةً، فهو انتقالٌ من بيانِ السَّببِ إلى ذِكر المسبَّب.

إبهامُ الجوابِ لتهويل الموقف

دلالةُ استعمالِ (لو) مع حذف جوابِها:

استعملَ النَّظمُ الكريم أداةَ (لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾؛ لتصويرِ حالِهم الفظيعِ في القيامة المفيد للتَّهويل والتَّرهيب، ولذلك جاء جواب (لو) محذوفًا؛ فأبهَم الجوابَ لتهويل المشهد، أي: (لرأيت لهم حالًا منكرة من ذلِّهم وتخاذلهم وتحاورهم، حيث لا ينفعُهم شيءٌ من ذلك).

وأخبر عن حالِهم في صفة التَّعجُّب منها، و﴿تَرَىٰٓ﴾ في معنى (رأيت) لإعمالِها في الظَّرف الماضي، ومفعول ﴿تَرَىٰٓ﴾ محذوفٌ، أي: (حال الظّالمين؛ إذ هم موقوفون).

ثمَّ فسَّرَ ذلك الرُّجوعَ والجدل بأنَّ الأتباعَ - وهم الذين استضعفوا - قالوا لرؤسائِهم على جهةِ التَّذنيب والتَّوبيخِ وردِّ اللّائمة عليهم: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾، أي: أنتم أغويتمونا، وأمرتمونا بالكفر[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 203.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 22/ 226.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 551.

معنى فعلِ ﴿تَرَىٰٓ﴾ ونكتةُ صوغِهِ مضارعًا:

تصويرُ مشهدِ الظّالمين يوم القيامة

المقصودُ بالرؤيةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ البصريَّة؛ لأنَّ المرادَ ما سيكونُ يوم القيامة مِن إبصار حالهم تلك، وجاء الفعلُ مضارعًا لتصويرِ ذلك المشهدِ وتقريبِهِ مِن الأذهانِ، أي: لو تصوَّرت ذلك المشهدَ على الدَّوام؛ لَما رأيت إلّا أمرًا مهولًا يزدادُ هولُهُ مع الأيّام.

تعيينُ المقصودِ بالخطاب:

الخطابُ في (وَلَوۡ تَرَى) لكلِّ واحدٍ

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ لكلِّ مَن يصلح لتلقّي هذا الخطاب، ممَّن تَبْلُغُ سمعَهُ هذه الآية، أي: (ولو يرى الرّائي هذا الموقف)، وهذه الجملةُ وما ذُكِرَ بعدَها مِنَ الجمل المحكيَّة بأفعال القولِ بيانٌ لجملة ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾، أي: ولو ترى زمانَ رؤيةِ الظّالمين العذاب، وقد صرَّح بهذا المعنى في آياتٍ كثيرةٍ مثل قولِه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: 27]، وقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ [الأنعام: 30].

نوعُ ﴿إِذِ﴾ ودلالتُها:

﴿إِذِ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بـ﴿تَرَىٰٓ﴾، أي: (لو ترى في الزَّمان الذي يوقفُ فيهِ الظالمون بين يدي ربِّهم)[1]، وهو يومُ القيامة.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الظّالمون هم المشركونَ الذين حاربوا دعوةَ القرآنِ

تعريفُ الظالمينَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ استغراقيٌّ لما تقرَّر في الشَّرعِ، فيدخل فيه الظّالمون المشركونَ جميعُهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، لا جميع الظّالمين ممَّن وقع في ظلمٍ بالكلمة والسُّلوك، وقد وقع التَّصريحُ بأنَّه إيقافُ جَمْعَ بين المشركين أنفسِهم وبين الذين دعوهم إلى الإشراك، وأغروهم بِهِ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 203.

مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ [يونس: 28].

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإيقافِ:

هـوانُ الظّالمين في الآخـرة وذلُّ افتضاحِهم في الدُّنيا

يشير قولُهُ تعالى: ﴿مَوۡقُوفُونَ﴾ إلى حالة انتظارِ الحساب، وهناك يوقف الظالمون عند ربِّهم ليُسْألوا عن أفعالهم، فيدلُّ الإيقاف هنا على عدم وجود مفرٍّ للظالمين من مواجهة عواقبِ أفعالهم، وما يحويه هذا اللَّفظُ من الذُّلِّ والهوان، فإنَّ المشركين بحثوا في الدُّنيا عن العزَّة والكرامة، فانقلبت عليهم ذلًّا وتحقيرًا، وعُجِّل لهم ذلك بأن أُخبروا به في الدُّنيا، فلا هم نالوا ما أرادوا، ولا نجوا ممّا بِهِ أخبروا.

نكتةُ التَّقييدِ بالظَّرف ﴿عِندَ﴾:

جـزاءُ المنكِر أن يُعذَّبَ بما أنكر

أفادَ التَّعبيرُ بالعنديَّة في قوله تعالى: ﴿مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أنَّ الذين أنكروا الإيمانَ باللّه تعالى، وأنكروا الوقوفَ بين يديه، سينالون جزاء ذلك بأن يقفوا في القيامة وحالتهم الاستسلام والخذلان، وقد أخذتهم شدَّةُ الموقفِ لما هم فيه من الشِّقاء والحرج، فكان استعمالُ الظَّرف موحيًا بقوَّةِ الوعيد وشدَّةِ التَّهديد.

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيّة:

الـرُّبـوبـيَّـة تـدلُّ علـى قـدرةِ الله تـعـالى علـى البعث

آثرَ النَّظم الكريم الإتيانَ بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنَّ الموقفَ هو موقف حسابٍ وجزاء، وهذا من مقتضيات الرُّبوبيَّة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الذي خلقهم، وقدر على تربيتهم وإيجادهم من عدم، قادرٌ كذلك على بَعثِهم وحَشْرِهم وإرادتهم كالعدم؛ زيادةً في التَّهديد وردعًا عن البقاء في التَّكذيب.

فائدةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

تحريكُ الفطرة لعبادةِ الحقِّ والالتجاء إليه

إضافةُ الرَّبِّ إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ بمعنى اللّام، وقد دلَّت على أنَّه لا منقذَ لهم في هذا الموقف إلّا ربُّهم

الذي خَلَقَهم ورَبّاهم، ففيه تحريكٌ لفطرة التَّديُّن في النَّفس، لترك ما هي عليه مِنَ الانغلاقِ وراء الأوهام وباطل الأفهام.

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة:

جاء التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة المضاف إليها الظَّرف: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ لإفادة طول وقوفِهم بين يدي اللّه طولًا يستوجب الضَّجر، ويملأ القلوبَ رعبًا(1).

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿يَرۡجِعُ﴾:

اتِّهامُ الظّالمين بعضهم لبعضٍ في القيامة في استمراريَّةٍ وندامة

استعمل النَّظمُ الكريم مفردة ﴿يَرۡجِعُ﴾؛ لدلالتها على تردادِ الأقوال بين الظّالمين، فما يقولُه بعضهم تهمةً للآخر، يردُّه المتَّهم عليه، ففيها دلالة الرَّدِّ المستمرِّ، وجيء بفعلِ ﴿يَرۡجِعُ﴾ بصيغة المضارع لتصوير ذلك المشهد المهول، وهو التَّجاذب في الكلام بين الظّالمين وشدَّتِه، والمضارع ﴿يَرۡجِعُ﴾ يُظهِر أنَّ هذه الحالة ليست لحظةً عابرةً، بل هي مستمرَّةٌ متجدِّدَةٌ تتعلَّق بالمحاسبة والنَّدم، ممّا يعكس عمقَ الموقف وصداه في نفوسِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالبَعْضيَّة:

الظّالمون في القيامةِ أبعاضٌ مفرَّقون

دلَّت البعضيَّةُ في قوله تعالى: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ على أنَّ مصيرَ جميع الظّالمين واحدٌ، فجعلهم جميعًا في خانةٍ واحدةٍ عندما عبَّر عن مشادّاتهم فيما بينهم بقوله: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾، والعبارة تدُلُّ على الفوضى واضطراب النُّفوس، فهُم جميعًا أبعاضٌ متناوشون.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾:

لن يتجاوزَ القولُ حدودَ كونِه قولًا

دلَّ التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ على أنَّه قولٌ معروفٌ لا يخرج عن كونِه اتِّهاماتٍ متبادلةً ولومًا متبادلًا، وهو لا يخرج كذلك عن كونه قولًا، فلن يكونَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 203.

فيما بعد إلّا كذلك، فلا قدرةَ لأحدٍ على أحدٍ إلّا بالقولِ والتَّلاوم، وهذا تمامُ العجز، ومنتهى اليأسِ، وقد بيَّنتِ الآياتُ اللّاحقةُ مضمونَ القولِ الذي كان بينهم.

علَّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

فصلَتِ الجملةُ الثانية ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ عن الجملةِ الأولى: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾؛ لأنَّ الجملتَين خبريَّتان، والثّانية بيانٌ للجملة الأولى، فبينهما كمالُ الاتِّصال.

دلالةُ المضارعةِ في فعل ﴿يَقُولُ﴾:

استمرارُ الأقوالِ دليلُ خلودِ البؤس واليأس

جيءَ بالمضارع في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾؛ على نحو ما جيءَ في قوله تعالى: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾؛ ليكونَ البيانُ كالمبيَّن به لاستحضار حالة القولِ؛ لأنَّها حالةٌ غريبةٌ لِما فيها من جرأةِ المستضعفين على المستكبرين، ومِن تنبُّهِ هؤلاء مِن غفلتهم عمّا كان المستكبرون يغرونَهم بِهِ حتّى أوقعوهُم في هذا المأزقِ[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول:

مَن رَضيَ باستضعافِهِ رَضيَ بهوانِ الدُّنيا والآخرة

جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ المستضعفين قومٌ معروفون معهودون على مدى الأيّام، واستضعافهم ورضاهم به هو ما قادَهُم إلى ما هُم فيه، ولبيانِ أنَّ الَّذي دعاهم لأن يقولوا ما قالوا هو استضعافُهُم وهوانُهم في الدُّنيا، ففي هذا الوصف بيانٌ لواقع النّاس في الحياة، ما بين مستضعفٍ ومستكبرٍ، مع ما فيه من تحريك بقايا العزَّةِ في نفوسِهم لعلَّهم يتحرَّكون نحو الإيمان، لكن هيهاتَ من ميِّت الفؤادِ أن تكونَ في عقلهِ حياةٌ.

دلالةُ السّينِ والتاء في لفظ ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾:

مَنِ استضعفَ نفسَهُ عَدَّهُ النّاس ضعيفًا

السّين والتّاء في ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ للعدِّ والحسبانِ، أي: الَّذين يعدُّهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 204 - 205.

النّاس ضعفاءَ لا يؤبَهُ بِهم، وإنَّما يعدُّهم الناس كذلك؛ لأنَّهم كذلك، ويعلمُ أنَّهم يستضعفون أنفسهم بالأولى؛ لأنَّهم أعلمُ بما في أنفسِهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

جاء الفعلُ الماضي في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الأمرَ قد تحقَّق في أيام الدُّنيا، وهم اليوم أمام الحسابِ يوم القيامة، فلا رجعةَ لهم ولا توبةَ ولا شفاعةَ.

نكتةُ المقابلةِ بين ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ للمفعول و﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ للفاعل:

تعيينُ الفاعلِ والمفعول يقود إلى تعليل الأفعال وتنبيه اللِّئام

الضَّعفُ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ ضعفٌ مجازيٌّ، وهو حالة الاحتياج للمستكبرين في الدُّنيا في المهمّات إلى مَن يضطلع بشؤونِهم، ويذبُّ عنهم من المستكبرينَ، الَّذين بيدِهم مقاليدُ الأمور، فينهونهم عن الإيمانِ، ويصرفونهم كيف يشاؤون، فعُلِمَ المُستضعَفُ، وهم هؤلاء الأتباع؛ لأنَّه قد عُلِمَ المستكبرُ عليهم، فحُسنتِ المقابلةُ بين المبنيِّ للمفعول ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾، والمبنيُّ للفاعل، وهم الذين ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، وتعيينُ الفاعل من المفعول تعليلٌ لأفعال المستكبرين في الدُّنيا؛ بسبب طاعة الأتباع لهم، ورضاهم بالاستضعاف طلبًا للاستقواء بتلك المكانة، وهذا الذي جعل الظُّلم يستمرُّ ما بين مستكبرٍ آمر، ومستضعفٍ مأمور، وكلٌّ في فلك يظلمون.

نوعُ (اللّام) ومعناها:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ لامُ التَّبليغ؛ إذ اختصّوهم بهذا الخطاب؛ لأنَّهم في هذا الموقفِ لا يدينون إلّا لهؤلاء بما فعلوا بهم في الدُّنيا، فبلَّغوهم أقوالَهم.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول:

كلُّ مستكبرٍ سينال لومَ من استضعفه وألحقه به

عبَّرَ بالموصول في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ للاستشهادِ عليهم بما في حيِّزِ الصِّلة، أي: قال ما قالَهُ المستضعفونَ مِن قولٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 205.

موجَّهٍ للمستكبرين بسببِ استكبارِهِم عليهم في الدُّنيا، وللإيماءِ إلى أنَّ المستضعفين يُخاطبون قومًا معروفين لديهم، لا يخفَون عليهم، وهذا الخطابُ بين المستكبرين والمستضعفين سيكون بين كلِّ الأمم، ممَّن يتعارفون في ذلك اليوم المشهود، فيجتمعون في الآخرةِ، كما اجتمعوا في الدُّنيا، جمعهم اللهُ، ولمَّ شملَهُم فيما كانوا به يُكذبون.

بديعُ فنِّ الطِّباق:

بين قوله: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ و﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ طباقٌ، فهما ضدّان اجتمعا على الظُّلم في الدُّنيا، وعلى اللَّوم أثناء العذابِ في الآخرة.

دلالةُ ﴿لَوۡلَآ﴾ في الجملةِ:

يتعلَّق الظّالمون بأسبابٍ وهميَّة وأوهامٍ سرابيَّة

﴿لَوۡلَآ﴾ حرفُ امتناع لوجود، أي: حرفٌ يدلُّ على امتناع جواب - أي: انتفائه - لأجلِ وجودِ شرطِه، فعَلِمَ أنَّها حرفُ شرطٍ، ولكنَّهم اختصروا العبارة، ومعنى: لأجل وجودِ شرطِهِ، أي: حصوله في الوجود[1]، ومعنى قوله: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾: (لولا وجودُكم في حياتنا في الدُّنيا لما وقفنا هذا الموقفَ؛ إذ كنتم تأمروننا بالإعراضِ عن الرِّسالات والإيمان، فلولا ذلك؛ لكنّا مع المؤمنين).

فائدةُ مجيءِ ﴿لَوۡلَآ﴾ محذوف الجواب:

تركيزُ اللَّوم على ذاتِ المضلّين المستكبرين

أتى ﴿لَوۡلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾، وهو مِن الحروف الملازمة الدُّخول على الجملة الاسميَّة، فيلزم إيلاؤه اسمًا هو مبتدأ، وقد كَثُرَ حذفُ خبرِ ذلك المبتدأ في الكلام غالبًا بحيثُ يبقى من شرطِها اسم واحد، وذلك إيجازٌ؛ لأنَّ حرف ﴿لَوۡلَآ﴾ يؤذن بتعليقِ حصولِ جوابِهِ على وجود شرطه، فـ﴿أَنتُمۡ﴾ مبتدأٌ، والخبر محذوفٌ، أي: حاضرون، وهو لازم الحذف هنا[2]، وأتى الضَّمير ﴿أَنتُمۡ﴾ بعد ﴿لَوۡلَآ﴾ ضميرَ رفع على الأفصح، ولمّا كان مقامًا؛ استوى فيه المرؤوسُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 205.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 141.

والرَّئيسُ، بدأ الأتباعُ بتوبيخ مضلّيهم؛ إذ زالت عنهم رئاستُهم، ولم يمكنهم أن ينكروا أنَّهم ما جاءهم رسولٌ، بل هم مقرّون[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي:

تصويرُ شديدِ ألمِ المستضعفين وقد ضاع منهم ماضيهم

دلَّ التَّعبيرُ بالكون الماضي ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ الآتي على لسان المستضعفين على حتميَّة إيمانِهم لولا هؤلاءِ المستكبرون الذين صدّوهم عن السَّبيل، ومنعوهم مِنَ الإيمان بالرِّسالات في زعمهم الموهوم، وكلامُهم لا قيمةَ له؛ لأنَّهم كاذبون، وإنَّما يُعبِّرون عن حزنِهم، ويصدرون أصواتهم عن حسرتِهم، ولو أعيدوا؛ لعادوا، وإنَّهم لكاذبونَ مجرمون، وقيمةُ فعل الكونِ الماضي تصويرُ شديدِ ألمِهم، وهم يستحضرون الماضي الضّائع.

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿مُؤْمِنِينَ﴾:

الإيماءُ إلى رؤيةِ المستضعفين المؤمنين في دار النَّجاةِ

جاء التَّعبيرُ عمّا تمنَّوه باسم الفاعلِ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم تمنّوا أن يكونوا مؤمنين بثبات، وحُذِفَ المفعولُ بقصد الاتِّصاف بصفة الإيمان، لتنزيلِه منزلةَ اللّازم، أي: لاتَّصفنا بالإيمان، وتحقَّق فينا شرط النَّجاة، وأصبحنا مع مَن فاز في جنّات النَّعيم، ففي ذلك إيماءٌ منهم أنَّهم رأوا ما كان للمؤمنين، فتمنَّوا أن يكونوا مكانَهم في الآخرة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحبسُ والحصرُ والإيقافُ:

الحصرُ حبسٌ مع تضييق، والحبسُ أعمُّ منه، والإيقاف بغرض السؤال والمحاسبة

الحصْرُ: هوَ الحَبسُ مَعَ التَّضْييقِ، يُقال: حَصَرَهم في البَلَد، ويُقال حبس الرَّجل عَن حاجتِه؛ إذا مَنعَهُ عنِ التَّصَرُّفِ فيها، ولا يُقال حصَرَ في هَذا المعنى دونَ أَن يُضيِّقَ عليه، وهو في حِصارٍ أَي ضيقٍ، ويجوز أَن يُقال: إنَّ الحَبس يكون لمن تمكّنت مِنهُ، والحصرُ لمن لم تتمكَّن مِنْهُ، وذَلِكَ أنَّك إذا حاصرت أهل بلدٍ في البَلَد، فإنَّك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 552.

لم تتمكَّن مِنهُم، وإنَّما تتوصَّلُ بالحصرِ إلى التَّمَكُّنِ مِنْهُم، والحصرُ في هذا سَبَبُ التَّمَكُّن، والحَبس يكون بعد التَّمَكُّن[1].

وأمّا الإيقافُ؛ فللسُّؤالِ والمحاسبة، يقال: وقَفْتُ القومَ أَقِفُهُم وقْفًا، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصافات: 24].

الرَّجع، والجدال:

رجْعُ الكلامِ مجاوبةٌ من غيرِ غاية، والجدال حوارٌ قد تشوبُهُ المخاصمة

رَجْعُ القولِ، أي: الجواب، ورجْعُ البعضِ إلى البعضِ، أي: المجاوبةُ والمحاورةُ، وهي أن يقولَ بعضُهم كلامًا، ويجيبه الآخرُ عنه، وهكذا شُبِّهَ الجوابُ عنِ القولِ بإرجاع القولِ، كأنَّ المجيبَ أرجَعَ إلى المتكلِّم كلامَهُ بعينِه؛ إذ كان قد خاطبَهُ بكفائِه وعدلِه[2]، وأمّا الجدالُ؛ فإنَّ المجادلةَ هي المخاصمةُ فيما وقع فيه خلافٌ بين اثنين، والمخاصمةُ: منازعةُ المخالفةِ بين اثنين على وجه الغلظةِ، والمناظرةُ: ما يقع بين النَّظيرين[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114 - 115.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 204.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 488.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ٣٢﴾ [سبأ: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَيس بعد الاتِّهامِ إلّا ردُّه

لمّا ذكرتِ الآيةُ السابقةُ موقفَ الكافرين منَ الإصرارِ على الكفرِ، والتَّصريح برفضِ الإيمانِ بالكتُبِ المنزلةِ من الله تعالى، والانتقال إلى ذِكر حالِهم في نارِ جهنَّم؛ بسببِ ما اكتسبوه من الكفرِ والعنادِ، وبيان تلك المقاولة بين الذين استُضعفوا، والذين استكبروا، مع البدءِ بذكرِ ما قالهُ الذين استُضعِفوا مِنَ الأتباعِ وأراذل الكفّار؛ ناسب الانتقال إلى بيان ردِّ الذين استكبروا عليهم، لاستكمالِ المشهدِ، وبيان موقفِ النَّدامةِ والخزي في يوم الحسرةِ والخسارة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾: (كبر) أَصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ، يقالُ: هو كَبيرٌ، وكُبارٌ، وكُبّارٌ، قالَ تَعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ٢٢﴾ [نوح: 22]، ومِنَ الباب الكِبْرُ: العظمَةُ، وكذلكَ الكِبرياءُ، يُقالُ: ورِثوا المَجدَ كابِرًا عَن كابِرٍ، أَي: كَبيرًا عَن كَبيرٍ في الشَّرَفِ والعِزِّ[1]، والكِبرُ والتَّكَبُّرُ والاستِكبارُ تتقارب، والاستِكبارُ على وجهين: أحدهما: أَن يَتَحَرَّى الإنسانُ، ويطلُبَ أَن يكونَ كَبيرًا، وذَلِكَ مَتى كانَ على ما يجبُ، وفي المَكان الَّذي يجبُ، وفي الوَقْت الَّذي يجبُ، فَهوَ مَحمود، والثّاني: أَن يتشبَّع، فيُظهر من نفسِه ما ليس له، وهو مذمومٌ، وعليه ما وردَ في القرآن، قال تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: 34]، وقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (كبر).

[البقرة: 87]، وقال: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾ [نوح: 7][1]، والمراد بالمستكبرين هنا: القادةُ والكبراءُ وأصحاب النفوذ.

2) ﴿ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾: (ضعف) أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ القوَّة، يُقالُ: ضَعُفَ يَضْعُفُ، ورَجُلٌ ضَعيفٌ، وقَوْمٌ ضُعَفاءُ وضِعافٌ[2]، قال تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]، والضَّعْفُ قد يكون في النَّفس، وفي البدن[3]، وفي الحال، والضَّعْفُ والضُّعْفُ لغتان، قال: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ [الأنفال: 66]، واسْتَضْعَفْتُهُ: وجدتُهُ ضعيفًا، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ [النساء: 75][4]، والمراد بـ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾: أتباعُ السّادةِ ممَّن يسمعون كلامَهم، ويُنفِّذون أوامرَهم، ويلتزمون أحكامَهم، فلا يعترضون، ولا يُخالفون.

3) ﴿صَدَدۡنَٰكُمۡ﴾: (صدد) مُعْظَمُ بابِهِ يَؤولُ إلَى إعراضٍ وعُدولٍ، فالصَّدُّ: الإعراضُ، يُقالُ: صَدَّ يَصُدُّ، وهوَ مَيلٌ إلَى أَحَدِ الجانبَينِ، ثُمَّ تَقولُ: صَدَدْتُ فُلانًا عَنِ الأَمْرِ؛ إذا عَدَلْتَهُ عَنْهُ[5]، والصُّدودُ والصَّدُّ قد يكون انصرافًا عن الشَّيءِ وامتناعًا، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومنعًا[6]، نحو: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: 24]، ونحو: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: 1]"[7] والمعنى في الآيةِ: أنحن صرفْناكم ومنعْناكم عن الإيمانِ؟.

4) ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾: (جرم) أَصلٌ واحِدٌ يدلُّ على القطعِ، والجُرْمُ والجَريمَةُ: الذَّنْبُ[8]، وأصل الجَرْم: قطعُ الثَّمرة عَن الشَّجر[9]، وأَجْرَمَ: صار ذا جُرمٍ، واستُعيرَ ذلك لكلِّ اكتسابٍ مكروه، ومِنَ الإجرام قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطففين: 29]، وقوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ [هود: 35]، وقوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ٤٦﴾

(1) الراغب، مفردات القرآن: (كبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور: لسان العرب: (ضعف).
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (ضعف).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (ضعف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (صد).
(6) الجوهري، الصحاح: (صد).
(7) الراغب، مفردات القرآن: (صدد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (جرم).
(9) الراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (جرم).

[المرسلات: 46][1]، والمعنى في الآيةِ: مرتكبونَ للجرائم مِنَ القتلِ وتعذيبِ المؤمنين؛ لأنَّكم ترغبون بذلك، وتميلونَ إليه بأخلاقِكم.

المَعنى الإجماليُّ:

الرَّغبةُ الأخلاقيَّة في الإجرامِ هي سببُ كفرِ أتباعِ المستكبرين

توضِّحُ الآيةُ الكريمةُ ردَّ المستكبرين مِنَ المشركين على اتِّهام الضُّعفاء لهم بأنَّهم كانوا السَّببَ الرئيسَ وراء عدم إيمانهم بالرُّسل وكفرِهم بالوحي المُنَزَّل عليهم من عندِ اللَّه، وهو الأمرُ الذي أثار حفيظتَهم، ودفعهم إلى رفضِه، مع الجزم بأنَّ السَّببَ الحقيقيَّ في كفر الضُّعفاءِ يعود إلى تغلغلِ الإجرام فيهم، ومخالفتهم الفطرةَ التي فطر اللَّهُ تعالى خلْقَهُ عليها، حتى اعتادوا الامتناعَ عن الإيمان، وألِفوا اتِّباع زعمائِهم، والسَّيرَ في ركابهم، والحرصَ على تقليدهم من غير فكرٍ ولا رَويَّةٍ، فتأتي هذه الآية لِتوَضِّح إنكارَ الذين استكبروا هذا الاتِّهام، ورفْضَ كونِهم السَّببَ في كفر العامَّة والمستضعفين، وإرجاعَهم ذلك إلى أنَّ الإجرامَ قد تغلغل في نفوسِ هؤلاء، فأقبلوا على الكفرِ مختارين، وساروا مع كبرائِهم في طريق الشِّرك غير مُكرَهين، ما يعني: أنَّهم يستحقّون العذاب الذي لاحتْ مقدِّماتُه، والعقاب الذي ظهرتْ بوادرُه[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الجملة عمّا قبلها:

المحاورةُ والمقاولة من أسباب الفصلِ بين الجملِ

فُصِلت جملةُ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عمّا قبلها لشبهِ كمال الاتِّصال بينهما، فالجملةُ تُجيبُ عن سؤال أثارته جملة: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١﴾ [سبأ: 31]، في نفس المتلقّي عن ردِّ الذين استكبروا على اتِّهام الضُّعفاء لهم

(1) الراغب، مفردات القرآن: (جرم).

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 319، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 293 - 294.

بأنَّهم كانوا السَّببَ وراء كفرِهم بالوحي والرِّسالة، ومن ثمَّ فُصِلت عنها، كما يُفصَلُ الجوابُ عن السؤال[1].

دلالةُ استعمالِ فعلِ القول:

بمجرَّدِ الاتِّهامِ يأتي ردُّ اللئامِ

آثر النَّظم الكريمُ استعمالَ فعلِ القولِ: ﴿قَالَ﴾ الموضوعِ لإبراز ما يُتَصوَّر في النَّفس[2]، وهو ما يدلُّ على أنَّ الذين استكبروا سارعوا إلى إنكار اتِّهام الذين استُضعِفوا لهم بأنَّهم السَّببُ في عدم إيمانِهم، وكفرِهم بالوحي المُنَزَّل على رُسل اللّه؛ لئلّا يكون في سكوتهم نوعٌ مِنَ الإقرار بالاتِّهام الموجَّه إليهم، والرضا بالعقاب الذي أعدَّه اللّه تعالى لمن فعل ذلك، فَأُتيَ بفعل القول؛ لبيانِ أنَّه جوابٌ وردٌّ ورفضٌ لمضمونِ التُّهمةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

يقينيَّةُ الأحداثِ المستقبليَّة تستدعي تنزيلَها منزلةَ الماضية

آثرَ النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ بفعل القول ﴿قَالَ﴾ ماضيًا؛ مع أنَّ هذا الحدث لم يقع بعد، فسيقعُ بعد الحسابِ ودخول الكافرين النّار، وذلك لجريانِه في حكمِ ما وقع، فهو إخبارٌ عمّا سيكون يوم القيامةِ، وليقينيَّة وقوعها، فقد أتى بها النَّظمُ بهذه الصيغة، وفي اللفظِ استعارةٌ في الفعلِ حيث شبَّه القولَ في المستقبل بالقولِ في الماضي ليقينيَّة وقوعه، ثم استُعير لفظُ القول، واشتُقَّ منه فعلُ ﴿قَالَ﴾ على معنى (سيقولُ)، على سبيل الاستعارةِ التصريحيَّة التَّبعيَّة.

براعةُ العدولِ في صيغِ الأفعالِ:

بـحـسـنِ مع تصويرِ المشهدِ المـضـارعُ ومع يقينيَّته الماضي

جاء الفعلُ مضارعًا في قَوْلِه تعالى: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ [سبأ: 31]، بينما جاءَ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾، مَعَ أَنَّ السُّؤالَ والتَّراجُعَ في القَوْلِ لَمْ يَقَعْ، كما أنَّ قولَ الذين استكبروا،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 319.

(2) الراغب، مفردات القرآن: (قول).

والذين استُضْعِفوا فيما بعدُ، لم يقع كذلك، وذلك أنَّ الآيةَ الأولى صوَّرت المشهد ابتداءً، وهو المناسبُ لقوله تعالى في خطابِ النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [سبأ: 31]، أي: لو ترى حالَهم، وتتصوَّر مشهدَهم، وهم على تلك الحالِ التي يتراجعون فيها القولَ، ثمَّ لمّا أخبر عن ردِّ بعضِهم على بعضٍ؛ آثرَ الماضي؛ لِما فيه من تحقيقِ الأمر ويقينيَّتِه، فأتى كلَّ فعلٍ مع ما يُناسبُه مِنَ المَعاني والدِّلالات.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول:

تعليلُ ذَمِّ المستكبرين وبيانُ سببِ ما بهم مِنْ عذابٍ وهَوانٍ

جاءَ التَّعبير بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ دون الاسم الظَّاهرِ، فلم يقل: (المستكبرون)؛ وذلك ليُتَوَصَّل بما في حيِّزه مِنَ الصِّلة إلى ذمِّهم، وبيانِ السَّبب فيما نَزَل بهم مِنْ ذُلٍّ وهوانٍ وإيقافٍ للحساب والسُّؤال، ففي إعادة الموصولِ وصلتهِ مع كفاية الضَّميرِ إيذانٌ بأنَّهم قالوا ما قالوه بطريق العتوِّ والاستكبار[1]، الذي تشبَّعوا به، واعتادوا عليه، وهو ما لا يتحقَّق لو جاء التَّعبيرُ بالاسم المشتقِّ، فقيل: (المستكبرون)، أو عبَّر بالضَّمير، فقيل: (قالوا).

دلالةُ استعمال مفردةِ الاستكبار مادةً وصيغةً:

المبالغةُ في الكِبر والغرور، فلمّا تحقَّق منهم ذلك؛ حقَّ لهم العذابُ

استعمل النَّظمُ الكريم فِعلَ الاستكبار: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم بالغوا في الكِبر والتَّعظُّم عن عبادة اللّه، وقبول قولهِ المُنَزَّل على أنبيائه، واستَتْبَعوا الضُّعفاء في الغيِّ والضَّلال[2]، والمعنى: الذين عَدّوا أَنْفُسَهُم كُبَراءَ، وهُم ما عَدّوا أَنْفُسَهُم كُبَراءَ إلّا لِما يَقتَضي استِكبارُهُم؛ لأنَّهم لَو لَم يَكونوا كَذَلِكَ؛ لَوُصِفوا بالغُرورِ والإعجابِ الكاذِبِ[3]، وفي التَّعبير به ماضيًا دلالةٌ على أنَّهم كانوا ضالعين في الاستكبار، وبلغوا في ممارستهِ على المستضعفين مبلغًا

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 243.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 297.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 205.

لا نظيرَ له، ولا حدودَ له لإيغالِهم فيه، وأنَّهم لمّا تحقَّق منهم ذلك؛ حُقَّ لهم العذابُ.

نوعُ اللام ودلالتُها:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ للتَّبليغ، أي: لتبليغِ القولِ للمستضْعَفين، وهي لتعدية الفعلِ كذلك، فالَّذين استكبروا يوجِّهون كلامَهم إلى الذين استُضعِفوا بصفةٍ خاصَّةٍ.

علَّةُ التَّعبير بالموصول:

الرِّضا باتِّباع السّادةِ هو علَّةُ إجرامِ المستضعفين

أعاد النَّظمُ التَّعبيرَ عن المستضْعَفين باسم الموصول: (الَّذينَ) في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ مع قُربِ العهدِ به؛ لتأكيد أنَّهم عُرِفوا بهذا الوصف، وبلغوا فيه مبلغًا كبيرًا، لدرجةِ أنَّهم رضوا باتِّباع سادتِهم وكبرائِهم، وقلَّدوهم في كلِّ شيء، وأشركوا باللّه مثلَهم، ورفضوا الإيمانَ بالرُّسل وبالوحي النّازلِ إليهم؛ خوفًا من بطْشِ الكبراء وتنكيلهم، ومع هذا لم يُراعِ المستكبرون ذلك، فأنكروا اتِّهامهم، وأرجعوا سببَ كفرِهم إلى كونهم مجرمين.

دلالةُ السّين والتّاءِ في ﴿ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾:

الاستضعافُ حالةٌ تعرضُ للنّاسِ فيقبلُها بعضُهم ويأباها آخرون

في التَّعبير بالفعل: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ المُقترن بالسّين والتاء دلالةٌ على أنَّهم لم يكونوا في أصل خِلقتهم ضُعفاءَ، لكنَّ الكبراءَ صيَّروهم ضعفاء بما لديهم من نفوذ المالِ أو السُّلطة أو القوَّة، وفي الوقت ذاته لم يحصلْ من الذين استُضْعِفوا نوعُ اعتراضٍ على ما يُفعلُ معهم، فالسّينُ والتّاءُ في ﴿ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ للعَدِّ والحُسْبانِ، أَي: الَّذينَ يَعُدُّهُمُ النّاسُ ضُعَفاءَ لا يَؤْبَهُ بِهِم، وإنَّما يَعُدّونَهُمْ كَذَلِكَ؛ لأَنَّهم يَسْتَضْعِفونَ أَنْفُسَهُم بِالأَوْلَى؛ لأَنَّهم أَعْلَمُ بِما في أَنْفُسِهِم[1]، وهذا المعنى لا يتحقَّق؛ إذا جاء التَّعبيرُ بفعل الضَّعف الذي يُفهم منهُ أنَّ اللّه تعالى خلقَهُم ضعفاءَ، ولم يستَضْعِفْهم أحدٌ، وهو مخالفٌ للحقيقة والواقع.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 205.

نكتةُ بناء: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ للمفعولِ:

معرفةُ الفاعلِ تُغني عنِ التَّصريحِ بِهِ

جيءَ بفعل الاستضعاف مبْنيًّا لِما لَمْ يُسمَّ فاعلُهُ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾؛ لأنَّ الفاعلَ معروفٌ غيرُ مجهولٍ، وهم الرؤساءُ والكبراءُ وأصحابُ النُّفوذ والتأثير، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هؤلاءِ المستضعفين عندَهُم قابليَّةُ الضَّعفِ لإنفاذ شهواتِهم، والإتيانِ على مُلهياتِهم، فهُم يقبلونَ بأن يكونوا أتباعًا في مقابلِ أن ينالوا ما يشتهونَ، بقطعِ النَّظرِ عن صفةِ المستكبرِ وسلوكِه.

بلاغةُ المقابلةِ:

كلُّ استكبارٍ بحاجةٍ إلى أتباعٍ يمدّونه بالقوَّةِ والمنعةِ

بين جملتَي: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ و﴿ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ مقابلةٌ، حيث قابل النَّظمُ الكريمُ بين الاستكبارِ وفاعِليه مِنَ الرُّؤساء والكبراءِ وأصحابِ النُّفوذ في الطرف الأوَّل، والاستضعافِ ومَنْ وقع عليهم مِنَ الأتباع والدَّهماء في الطرف الثّاني، وهي مقابلةٌ تُبرزُ ما لدى الكبراء والمُتَسَلِّطين من قوَّة إقناعٍ وخداعٍ استطاعوا به تغريرَ غيرِهم، وتوضِّحُ في الوقت نفسِهِ ما كان عليه الطرفُ الثاني من خُنوعٍ وذِلَّة للشَّهوة، أدَّى بهم إلى المصير الذي يعدّونه سببًا في صدِّهم عنِ الإيمان باللّه تعالى وكُتُبِه ورُسُلِه.

غرضُ همزةِ الاستفهامِ:

عند انكشافِ الحقائق الكبرى يتبرَّأ الظّالمون بعضُهم مِن بعض

هَمْزَةُ الاستِفْهامِ في قوله تعالى: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ﴾ مُستَعمَلَةٌ في إنْكارِ قَولِ المُستَضعَفينَ تبرُّؤًا منهُ، وهَذا الإنكارُ بُهْتانٌ وإنكارٌ لِلواقِعِ، بَعَثَهُ فيهِم خَوفُ إلقاءِ التَّبِعَةِ عَلَيهِم وفَرطُ الغَضَبِ والحَسرَةِ مِنِ انتِقاضِ أَتباعِهِم عَلَيهِم وزَوالِ حُرمَتِهِم بَينَهُم، فَلَم يَتَمالَكوا ألّا يُكَذِّبوهُم، ويَذيلوا بِتَوريطِهِم[1].

دلالةُ إيلاءِ الهمزةِ ضميرَ (نَحْنُ):

في إدخال همزةِ الاستفهامِ على ضمير المتكلِّمين (نَحْنُ) دلالةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 206.

بعد عذاب الاستضعافِ في الدُّنيا يأتي عذابُ التَّخلّي في الآخرة

على أنَّ الإنكارَ موجَّهٌ إلى أن يكونوا هم الفاعلين للصَّدِّ، لا إلى الصَّدِّ نفسه، ما يعني أنَّ فعلَ الصَّدِّ حاصلٌ، ولكنَّه من فاعلٍ آخرَ، فقد أولى النَّظم الاسم (نَحْنُ) حرف الإنكار؛ لأنَّ غرضَ المستكبرين إنكارُ أن يكونوا هم الصّادين المستضعَفين عنِ الإيمان، وإثباتُ أنَّ المستضعفين هم الذين صدّوا بأنفسِهم عنهُ، وأنَّهم أَتَوا مِن قبل اختيارِهم[1].

نكتةُ تقديمِ المسند إليه في الآية:

تخصيصُ نَفْيِ الصّدِّ عن المستكبرين وإثباته لغيرِهم

جيء بِالمُسنَدِ إلَيه: ﴿أَنَحۡنُ﴾ قَبلَ المُسنَدِ الفِعليِّ: ﴿صَدَدۡنَٰكُمۡ﴾ في سياقِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ الَّذي هو في قوَّةِ النَّفيِ ليُفيدَ تَخصيصَ المُسنَدِ إليهِ بِالخَبرِ الفِعليِّ عَلى طَريقَةِ: ما أَنا قُلْتُ هَذا، والمَعنَى: ما صَدَدناكُم ولَكِن صَدَّكُم شَيءٌ آخَرُ[2].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الصَّدِّ:

نفْيُ الأدنى تنبيهٌ على نفيِ الأعلى، فالصَّدُّ مقدِّمة المنعِ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ مفردةَ الصَّدِّ في قوله تعالى: ﴿صَدَدۡنَٰكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المستكبرينَ نفوا عن أنفسِهم أنَّهم صدّوا المستضعفين عن الإيمانِ بالمنعِ والصرفِ والحيلولة، فدلَّ استعمالُ الصَّدِّ على نفيِ المنعِ وصرفِ المستضعَفين عنِ الإيمانِ، إذ الصَّدُّ هو مقدِّمةُ المنعِ، ولا يكون منعٌ إلّا بعدَ الصَّدِّ عنه، فذكر البدايةَ، وأرادَ الغاية، مع الإيماءِ إلى نفيِ الإجبارِ؛ إذ الصَّدُّ يومِئُ إلى استعمال القوَّة في المَنْعِ عنِ الإيمان، كما قال الزَّمخشريُّ: "أنحن أجبرْناكم، وحلْنا بينكم وبين كونِكم مُمَكَّنين مختارين؟"[3].

معنى ﴿عَنِ﴾ ودلالته:

دلَّ حرفُ ﴿عَنِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡهُدَىٰ﴾ على المجاوزة، وهو أشهرُ معانيه[4]، وفيه معنى الإزاحةِ والمنع، وهو ما يُؤكِّد دلالةَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 584.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 206.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 584.
(4) المرادي، الجنى الداني، ص: 245.

فعلِ الصَّدِّ، فكأنَّه قيل: أنحنُ صدَدْناكم، وأزَحْناكم، وأبْعَدْناكم عن الهدى.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾:

الـهُـدى كـلُّ ما فيه نجاة العبادِ يومَ القيامةِ

تعريفُ لفظِ: ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ إمّا للعهد، والمقصود: القرآنُ الموحى بهِ إلى رسول اللّه[1]، والذي سبقَ ذِكرُهُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: 31]، وسمَّوه هدًى؛ لتيقُّنِهم يوم القيامة مِن صِدْقِ ما أَخبَرَ بهِ، ويُمكن أنْ تكونَ اللّام لتعريف الجنس، فيكونُ الإنكار شاملًا جنس ما فيه هدايتُهم وصلاحُهم، سواء كان ذلك في كلامِ اللّه، أو في كلامِ الرُّسلِ صلوات اللّه وسلامه عليهم، وفي تعبيرهم بـ ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ ما لا يخفى مِن شعورِهِم بالنَّدم على عدم الإيمانِ بهِ ومخالفتهِم ما فيه.

بلاغةُ التَّهكُّمِ في تقييدِ الصَّدِّ بالظَّرفِ:

المُستضعَفون امتنعوا عنِ الهُدى قبل مجيئِه

قُيِّدَ إنكارُ المستكبرين كونَهم الفاعلين للصَّدِّ بالظَّرف الدّالِّ على البَعْديَّة في قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾؛ للدَّلالة على التَّهكُّم، أي: أجاءكم الهدى، وعرفْتموه، ثمَّ نحنُ صدَدْناكم بعد أن كِدتُم تؤمنونَ بهِ؟ فالمقصودُ بالقيدِ إثباتُ أنَّ المستضعَفين رفضوا الهُدى قبل مجيئِه، واختاروا طريقَ الضَّلالةِ مع الأسيادِ وأصحابِ النُّفوذ، لا أنَّهم آمنوا، ثمَّ أضلَّهم المستكبرون.

معنى إضافة ﴿بَعْدَ﴾ إلى ﴿إِذْ﴾:

إضافةُ الظَّرفِ إلى (إذ) تجرُّده من معنى الظَّرفيَّة

﴿إِذْ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ مُجَرَّدَةٌ عَن مَعنَى الظَّرفيَّة، ومَحضَةٌ لِكَونِها اسمَ زَمانٍ غيرَ ظَرفٍ، وهوَ أَصلُ وضْعِها، ولِهَذا صَحَّتْ إضافَةُ ﴿بَعْدَ﴾ إلَيْها؛ لِأَنَّ الإضافَةَ قَرينَةٌ عَلَى تَجْريد

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 293.

﴿إِذْ﴾ مِنْ مَعنَى الظَّرفيَّةِ إلَى مُطلَقِ الزَّمانِ مِثل قَولِهِم: حينَئِذٍ ويومَئِذٍ، والتَّقْديرُ: بعد زمنِ مَجيئِهِ إيّاكُم(1).

فـ ﴿إِذْ﴾ في الأصلِ ظرفُ زمان، لكنِ اتَّسع في الزَّمان ما لم يتَّسع في غيره، فأُضيفَ إليها الزَّمانُ، كما أُضيفَ إلى الجُمَلِ في قولك: جئتُك بعد إذْ جاء زيد، وحينئذٍ، ويومَئِذٍ(2)، فكذلك هنا أُضيفَ إليها ﴿بَعْدَ﴾، فأصبحَتْ مجرَّدةً من الزَّمان لإضافةِ ﴿بَعْدَ﴾ إليها.

بلاغةُ الاستعارةِ ودلالتها:

تشخيصُ الهُدَى بالرجلِ الحريصِ على مصلحة النّاس

في قوله: ﴿جَآءَكُم﴾ فيه استعارةٌ مكنيَّةٌ، شُبِّهَ فيها ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾ النّازلُ لأجلهم بالإنسان السّاعي إليهم، الحريصِ على مصلحتِهم، المتوجِّه لهم بالنُّصحِ والإرشادِ، ليخرجَهم ممّا هم فيه من ضلالٍ وغوايةٍ، ويأخذَ بأيديهم من طريق الهلاكِ والعذابِ إلى طريق النَّجاة والنَّعيم، فشبَّه الهُدى بشخص يجيءُ، وحذف المشبَّهَ به، ورمزَ لَهُ بفعل المجيءِ.

لطيفةُ تعديةِ فعلِ المجيء:

قيامُ حجَّةِ لله تعالى على خلْقِهِ أجمعين

في تعدية فِعلِ المجيءِ إلى ضمير المُستضعَفينَ المتَّصل في الفعل: ﴿جَآءَكُم﴾ إشعارٌ بتحقُّق وصولِ الهُدى إليهم، وأنَّهم لو أرادوا الإيمانَ به؛ لَما استطاع أحدٌ - كائنًا مَنْ كان - أنْ يحولَ بينهم وبين ذلك، ولكنَّ الانصرافَ والصَّدَّ كان منهم، والكُفرَ كان برغبتهم، فكأنَّ المستكبرين يُشيرون بأنَّ الهدى قد جاءكم كما جاءَ غيرُكم، فآمنوا، وكفرتم، ولم يجبركم أحدٌ على الكفرِ، بل هو محضُ إرادتكم.

نوعُ ﴿بَلْ﴾ ومعناها:

إبطالُ اتِّهام المُسْتَضْعفين وإثباتُ خلافِ ادِّعائهم

﴿بَلْ﴾ في جملة: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ حرفُ إضراب، يحكي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 207.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 584.

النَّظم تعبيرَ المُستَكبِرين به لإبطال اتِّهام الذين استُضعفوا لهم بأنَّهم كانوا السَّببَ في صَدِّهم عن الإيمانِ بالأنبياء والرُّسل، وإثباتِ ما جاء بعده مِنْ أنَّ كُفرَهم كان لتغلغلِ الإجرام في نفوسِهم، واختيارهم الانصرافَ عن الهُدى والرَّشاد إلى الغوايةِ والضَّلال، فنوعُ "﴿بَلۡ﴾ إضرابُ إبطالٍ عَنِ الأَمرِ الَّذي دخلَ عَليهِ الاستِفهامُ الإنكاريُّ، أي: ما صَدَدْناكُم بَل كُنْتُم مُجرِمينَ"[1]، فأبطلت ﴿بَلۡ﴾ ما قبلَها مِنَ الاتِّهام، وأثبتَتْ حقيقةَ الأمر الذي كان.

فائدةُ ذكرِ فعل ﴿كُنتُم﴾:

الإجــرامُ شهوةٌ تــسـتـولي على النُّفوسِ المريضة

جاء ذِكرُ فعل ﴿كُنتُم﴾ دونَ الإخبارِ المجرَّد في قوله تعالى: ﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾، فلم يقل: (بل أنتم مجرمون)؛ للدَّلالة على أنَّ المستكبرين يَرَون أنَّ السَّببَ الرَّئيسَ في كُفْر الذين استُضعِفوا لا يرجع إلى كونِهم الصّادّين لهم عنِ الإيمان، إنَّما يرجعُ إلى رسوخِ الذين استُضعفوا في الإجرام واعتيادِهم أعمال الكُفر ومَظاهِرَه، حتى صاروا كالمجبولين عليها[2].

بلاغةُ مفردة ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾ مادةً وصيغة:

الكفرُ وسيلةٌ للمجرمين ومراسٌ للطُّغاة الفاسقين

التَّعبيرُ باسم الفاعل المُشتَقِّ: ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾ دون الفعلِ دالٌّ على ثبات المستضْعَفين في الإجرامِ ومداومَتِهم على القيام بكلِّ أعمالِهِ وأفعالِه، وفي التَّعبيرِ بهِ دون (الكفر) إيذانٌ بتعمُّدهم الكُفْرَ وتَصميمِهم عَليه، عَلى بَصيرةٍ مِنْ أَنْفُسِهم دونَ تَسْويلِ مُسَوِّلٍ[3]؛ لأنَّهم اعتادوا القيامَ بكلِّ الأعمال الإجراميَّة المُستَقْبَحَةِ، الَّتي يدخل فيها الكفرُ دخولًا أوَّليًّا برهانيًّا، فالكفرُ وسيلةُ المجرمين، وديدنُهم في محاربةِ كلِّ حقٍّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 207.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 510.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 207.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاستكبارُ والاستنكافُ:

الاستكبارُ تعاظمٌ وتعالٍ، والاستنكافُ أنفةٌ وتنَحٍّ

الاستكبارُ: يدلُّ عَلَى خِلافِ الصِّغرِ، ومنه الكِبرُ: العَظَمَةُ والكِبرياءُ، والاسْتِكْبارُ يقال على وجهين: أحدهما، أن يتشبَّعَ، فيظهر من نفسِهِ ما ليس له، وهو مذمومٌ، وعليه ما وردَ في القرآن، قال تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: 34]، وقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ [البقرة: 87][1].

والاستنكافُ: يدلُّ عَلَى قَطْعِ شيءٍ وتَنْحيَتِهِ[2]، يقال: نَكَفْتُ مِن كذا، واسْتَنْكَفْتُ منه: أَنِفْتُ، قال تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: 172]، وأصله من: نَكَفْتُ الشَّيءَ: نَحَّيْتُهُ، ومن النَّكْفِ، وهو تَنْحيَةُ الدَّمْعِ عنِ الخَدِّ بالإصبعِ"[3].

ولمّا كان السياقُ يتحدَّث عن الذين تشبَّعوا بالكِبر، وأظهروا من أنفسِهم ما ليس لهم، وقاموا باستغلال نفوذِهم؛ جاء التَّعبير بـ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾؛ لمناسبته حالَهم.

الاستضعافُ والاستكراهُ:

الاستضعاف معاملةُ النّاس بأنَّهم ضعافٌ، والاستكراهُ حمْلُ الآخرين على فعلِ ما يكرهون

الاستضعافُ: يدلُّ عَلَى خِلافِ القوَّةِ، ومنه: اسْتَضعَفْتُهُ: وجدتُهُ ضَعيفًا، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ [النساء: 75][4].

والاستكراهُ: يدلُّ على خِلافِ الرِّضا والمَحَبَّةِ[5]، والإكْراهُ يقال في حمل الإنسان على ما يكرهُهُ، قال تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ [النور: 33]، فنُهي عن حَمْلِهنَّ على ما فيه كَرْهٌ وكُرْهٌ"[6]، ولمّا كان

(1) الراغب، مفردات القرآن: (كبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكف).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (نكف).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (ضعف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كره).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (كره).

كفرُ المستَضْعَفين حاصلًا باختيارهم، وبعد وقتٍ كافٍ مِنَ التَّأمُّل والتَّدبُّر، وحصل منهم اتِّباعًا للمستكبرين وتقليدًا؛ كان التَّعبيرُ عنهم بـ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ هو الأنسب؛ لخلوِّه مِنَ الاستكراه، ووجهُ استعمال مفردة الاستضعاف تحريكُ أفئدة الأتباع؛ ليعلموا أنَّهم استُضعفوا باتِّباعِ السّادة في عقلِهم، ونزَّلوا أنفسَهم منزلةَ المستضعَفين.

الصَّدُّ والمنْعُ:

الصدُّ إعراضٌ وصرف، والمنعُ خلافُ الإعطاء

الصدُّ: يدلُّ على الإعراض والعدول، وهوَ مَيلٌ إلَى أَحَدِ الجانِبَينِ، تَقولُ: صَدَدْتُ فُلانًا عَنِ الأَمْرِ؛ إذا عَدَلْتَهُ عَنْهُ، والصُّدودُ والصَّدُّ قد يكون انصرافًا عنِ الشَّيء وامتناعًا، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومنعًا نحو: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: 24][1].

والمنع: يدلُّ على خِلاف الإعْطاءِ، يُقال: مَنَعْتُهُ الشَّيْءَ مَنْعًا، وهو مانِعٌ ومَنّاعٌ، أي: بخيل، قال تعالى: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾ [الماعون: 7]، وقال: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ [ق: 25][2]، ولمّا كان قصدُ المستكبرين إنكارَ اتِّهام المُسْتَضْعَفين بأنَّهم السَّببُ في صرْفِهم عن الإيمانِ ومنْعِهم منه؛ كان التَّعبيرُ بـ (الصَّدِّ) أدلَّ على ذلك، وأنسبَ مِنَ المنع.

(1) الراغب، مفردات القرآن: (صد).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (منع).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾ [سبأ: 33]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ردِّ الاتِّهام إلى بيانِ آخر الحجج بعد انقضاء اللَّجج

بعد أنْ ذكرتِ الآيةُ السابقةُ إنكارَ الذين استكبروا اتِّهامَ المُسْتَضعفين بأنَّهم السَّببُ في كُفْرِهم بالرُّسل والهُدى المُنَزَّلِ عليهم، وإرجاعَ السَّبب في ذلك إلى تغلغلِ الإجرام في نفوسِهم، واختيارِهم تقليدَ الكُبراء والزُّعماء واتِّباعَهم؛ تأتي هذه الآيةُ لتحكيَ ردَّ المستضْعَفين الثاني على الذين استكبروا، الذي أبطلوا فيه إنكارَهم، وأكَّدوا ما ذكروهُ سابقًا مِن أنَّهم السَّببُ في كفرِهم بالرُّسل وصدِّهم عن الوحي النّازل إليهم، من خلال المكرِ في اللَّيلِ والنَّهار، والأوامر الصَّريحة الَّتي يدعونهم فيها إلى الكفرِ باللهِ تعالى والإشراكِ به آلهةً لا تَضُرُّ، ولا تنفعُ، وغير ذلك ممّا أورثَ الفريقينِ حسرةً وندامةً، زادها رؤيتُهم العذابَ واطِّلاعُهم على مشهد الأغلالِ، وهي توضَعُ في أعناق الكفّارِ يومَ القيامة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكۡرُ﴾: (مكر) أصل يدلُّ على المَكْرِ، وهو الاحتيالُ والخِداعُ[2]، وهو: صرفُ الآخرين عمّا يقصده بحيلةٍ، وينقسم قسمين: مَكْرٌ محمودٌ: ما يُتَحَرّى به فعلٌ جميلٌ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]، ومكرٌ مذمومٌ: ما يُتحرّى به فعلٌ قبيحٌ،

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 294 وما بعدها.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (مكر).

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]، وقال في الأمرين: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: 50][1]، والمرادُ هنا النَّوعُ المذموم.

2) ﴿أَندَادًاۚ﴾: (ندّ) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى شُرودٍ وفِراقٍ، ونَدَّ البَعيرُ نَدًّا ونُدودًا: ذَهَبَ عَلى وجهِهِ شارِدًا، ومِنَ البابِ النِّدُّ والنَّديدُ: الَّذي يُنادُّ في الأَمْرِ، أَيْ: يأتي برأيٍ غَيْرِ رَأْيِ صاحِبِهِ[2]، ونَديدُ الشَّيءِ: مُشارِكُهُ في جَوْهَرِه، وذلك ضربٌ مِنَ المُماثلة، فإنَّ المِثْلَ يقالُ في أيِّ مشاركةٍ كانَتْ، فكلُّ نِدٍّ مِثْلٌ، وليس كلُّ مِثْلٍ نِدًّا، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 22]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 165][3]، والمقصودُ: شركاءُ.

3) ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾: (ندم) كَلِمَةٌ تدلُّ عَلَى تَفكُّنٍ لِشَيْءٍ قَد كانَ، يُقالُ: نَدِمَ عَلَيهِ نَدَمًا ونَدامَةً[4]، والنَّدمُ والنَّدامَةُ: التَّحَسُّرُ والأسفُ[5] من تغيُّرِ رأيٍ في أمرٍ فائتٍ، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾ [المائدة: 31]، وقال: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾ [المؤمنون: 40]، وأصلُهُ مِن مُنادَمَةِ الحزن، والنَّديمُ والنَّدْمانُ والمُنادِمُ يَتَقارَبُ، قال بعضٌ: الشَّريانِ سُمّيا نَديمَيْنِ؛ لِما يتعقَّبُ أحوالَهما من النَّدامَةِ على فعليهما[6]، والمرادُ هنا: الشُّعورُ بالحسرة والأسف.

4) ﴿ٱلْأَغْلَٰلَ﴾: (غلّ) أَصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَخَلُّلِ شَيْءٍ، وثَباتِ شَيْءٍ، كالشَّيْءِ يُغْرَزُ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ العَرَبِ: غَلَلْتُ الشَّيءَ في الشَّيْءِ؛ إذا أَثْبَتُّهُ فيه، كَأَنَّهُ غَرَزْتُهُ[7]، وقيل: أصلُهُ: تَدرُّعُ الشَّيءِ وتَوَسُّطه، والغُلُّ طوقٌ من حديد يُجْعَلُ في العُنُقِ، وجَمْعُه أَغْلالٌ، وغُلَّ فلانٌ: قُيِّدَ به[8]، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ [الحاقة: 30]، وقال: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: 71]، فالمرادُ: الأطواقُ.

5) ﴿يُجْزَوْنَ﴾: (جزي) قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ غيرِهِ ومُكافَأَتُهُ إيّاهُ، يُقالُ: جَزَيْتُ فُلانًا

(1) الراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (مكر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ندّ).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (ندّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ندم).
(5) الفيروزابادي، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (ندم).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (ندم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلّ).
(8) الحموي، المصباح المنير: (غلّ).

أَجْزيهِ جَزاءً، وجازَيْتُه مُجازاةً[1]، والجَزاءُ: الغناءُ والكفايةُ، قال تعالى: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: 33]، والجَزاء: ما فيه الكفايةُ مِنَ المقابلةِ، إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ، يقال: جَزَيْتُهُ كذا وبكذا، قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه: 76]، وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40][2]، والجزاءُ هنا المعاقبةُ على صنيعهم مِنَ الكفرِ والإجرامِ في الدُّنيا.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

في النِّهايات تُبيَّن أسباب البدايات وتُعلم مآلات الرَّديّات

توضِّح الآيةُ الكريمةُ ردَّ الأَتْباعَ على ما قالَهُ المستكبرون الأسياد، فتحكي مراجعتَهم الثانيةَ التي أبطلوا فيها ادِّعاءاتِ الزُّعماء، وكذَّبوهم قائلين: أنتم لستُم صادقين في قولكم: إنَّكم لم تصدُّونا عن اتِّباع الهدى بعد إذ جاءنا، بل إنَّ مكرَكم بنا اللَّيلَ والنَّهارَ، وإغراءَكم لنا بالبقاء على الكُفر، وتهديدَكم إيّانا بالقتل أو التعذيب؛ إذا ما خالفناكم، وأمرَكم لنا بأنْ نكفرَ باللهِ تعالى، ونجعلَ له أندادًا، كلُّ ذلك هو الَّذي حالَ بيننا وبين اتِّباع الحقِّ الذي جاءنا به الرُّسل، وتُبَيِّنُ الآيةُ أيضًا أنَّ الفريقين أُصيبا بالحسرة والنَّدامة عندما وُضعت القيودُ في أعناقِ الذين كفروا جميعًا، سواءٌ مِنهم مَن كان تابعًا أم متبوعًا؛ بسببِ أعمالِهم السَّيِّئة، وأفعالهم القبيحة[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ العطفِ بالواوِ في أسلوب المحاورات:

إذا جيءَ بالعاطفِ فلبيان استكمالِ كلامٍ سابقٍ ودفعِ توهُّمِ استئنافِ كلامٍ جديد

جيءَ بِحَرفِ العَطفِ في حِكايَةِ هَذِهِ المَقالَةِ - مَعَ أَنَّ المُسْتَضْعَفينَ جاوَبوا بها قَولَ الَّذينَ استَكْبَروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ - لِنُكتَةٍ دَقيقَةٍ، وهيَ التَّنْبيهُ عَلَى أَنَّ مَقالةَ المُسْتَضْعَفينَ هَذِهِ هيَ في المَعْنَى تَكمِلَةٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (جزى).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (جزا).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 294 وما بعدها.

لِمقالتهم المحكيَّة بقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ [سبأ: 31]؛ تَنْبيهًا على أَنَّ مقالَتَهم تَلَقَّفَها الَّذينَ استَكْبَروا، فابتَدَروها بِالجَوابِ؛ لأنَّهم لَو انْتَظَروا تَمام كَلامِهم، وأبلعوهم ريقَهُم؛ لَحَصَلَ ما فيهِ إبْطالُ كَلامِهم، ولَكِنَّهُم قاطَعوا كَلامَهُم من فَرْطِ الجَزَعِ أَنْ يُؤاخَذوا بِما قالَهُ المستضعَفون[1]. فالذين استُضعِفوا مرَّ كلامُهم أوَّلًا، فجيءَ بالجواب محذوفَ العاطفِ على طريقةِ الاستئناف، ثم جيءَ بكلامٍ آخر للمُستضعَفين، فعُطِف على كلامِهِم الأوَّل[2]، فهذه الآيةُ تُقرِّرُ بأنَّه إذا قُطِعَ الكلامُ في المحاورة، وأُريد استكمالُهُ؛ جيءَ بالعاطفِ للاستكمالِ، ولدفْعِ توهُّمِ أنَّه كلامٌ استئنافيٌّ جديدٌ.

دلالةُ تكرارِ الاسم الموصول:

تمييزُ المتكلِّمين لمنع للالتباسِ

أعاد البيانُ التَّعبيرَ عنِ المستضعفين باسم الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ مع قُرب العهدِ به؛ لبيانِ أنَّ ما جاءَ بعدَهُ هو ردُّهم على إنكارِ المستكبرين، تمييزًا لكلامِهم، ومنعًا للالتباس بينه وبين كلام الذين استكبروا، بالإضافةِ إلى ما فيهِ مِن تأكيدِ أنَّهم عُرفوا بهذا الوصفِ، واشتُهروا بِه، وبلغوا فيه مبلغًا لا يَرْضى به عاقلٌ، ويرفُضُهُ كلُّ حرٍّ كريم، ومِنْ ثمَّ أعاد التَّعبيرَ به؛ تأكيدًا لذمِّهم، وتحقيرًا لشأنهم، وإنكارًا لرضاهم به.

نوعُ (اللام) ومعناها:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ للتَّبليغِ، أي: لتبليغ القولِ للمستكبرين، وهي لتعديةِ الفعلِ كذلك، فالَّذين استُضْعِفوا يوجِّهون كلامَهم إلى الذين استكبَروا بصفةٍ خاصَّةٍ.

غرضُ تكرارِ الاسم الموصول:

تأكيدُ ذمِّ المُستكبرين وتقويةُ السَّببِ فيما نزل بهم

كرَّر النَّظمُ التَّعبيرَ عن المجرورِ باسم الموصول: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 207.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 585.

لبيان أنَّهم المُخاطَبون بكلامِ المُستضْعَفين، وليَتوَصَّل بما في حيِّزه مِنَ الصِّلة إلى الإبلاغ في ذمِّهم وتأكيدِ السَّبب فيما نَزَل بهم من ذلٍّ وهوانٍ، وإيقافٍ للحساب والسُّؤال، والإيذان بأنَّهم قالوا ما قالوهُ بطريق العُتوِّ والاستكبار، كما سبق بيانُهُ.

بلاغةُ المقابلةِ:

شِدَّةُ الموقفِ تقودُ إلى شدَّة التَّبرُّؤِ من المستكبرين

بين جملتَي: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ و﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ مقابلةُ معنَيَين بمعنَيَين، قابل فيها النَّظمُ الكريمُ بين الاستضعافِ ومَنْ وقع عليهم مِنَ الأتباعِ في الطرف الأوَّل، والاستكبار وفاعليه مِنَ الكُبراء وذوي النُّفوذ في الطرف الثاني، وهي مقابلةٌ تُبرز ما ردَّ بِه المستضْعَفون الذين بلغَ بهم الاستضعافُ أقصى درجاته في الدُّنيا على الكُبراء الَّذين بَلغوا في الاستكبارِ والتَّعاظُم مبلغًا كبيرًا؛ ليتَّضحَ مِن خلالها أنَّ شدَّة القيامة أجبرتِ الأتباعَ الضُّعفاءَ على عدم السُّكوتِ في الإنكارِ على الكُبراء.

نوعُ ﴿بَلۡ﴾ ومعناها:

إبطالُ إنكارِ المُستكبرين لكونِهم السَّببَ في كفر المُسْتَضعفين

﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لِلإضرابِ الإبطاليِّ؛ إبطالًا لِمُقتَضَى القَصرِ في قَولِهِم: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ﴾، فَإِنَّهُ واقِعٌ في حَيِّزِ نَفْيٍ؛ لِأَنَّ الاستِفهامَ الإنكاريَّ لَهُ مَعْنَى النَّفْيِ[1]، والمعنى: بل صدَّنا مكرُكُم بنا في اللَّيل والنَّهار، وحملكم إيّانا على الشِّرك والأوزار[2].

أثرُ المعاني في اختلافِ الإعرابِ:

تنوُّعُ الإعرابِ دليلُ سعةِ المعاني وكثرتها

قولُهُ تعالى: ﴿مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ﴾ إمّا أن يكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: الصّادُّ لنا مكرُ الليل والنَّهار، أو سببُ كفْرِنا مكرُ اللَّيل والنَّهار، ويحتمل إعرابُهُ مبتدأً محذوفَ الخبرِ، والتَّقديرُ: بل مكرُكم باللَّيل والنَّهار صَدَّنا عن الإيمان، والتَّعبيرُ بِهِ يفيدُ قصر الصَّدِّ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 208.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 319، وإسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 298.

مكرِ الكُبراء، لا يتعدّاهُ إلى شيءٍ غيره - قصر قلب - إذ التقديرُ: "ما صَدَّنا إلّا مَكرُكُم، وهوَ نَقضٌ تامٌّ لِقَولِهم: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ﴾، وقَولِهِم: ﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾"[1]؛ وهذا الوجهُ أقوى مِنَ الأوَّل لما فيه مِن قوَّة الرَّدِّ على المستكبرين، بما يكشفُ صنيعَهم في الدُّنيا، وهو المتَّسقُ مع النَّظمِ في اختيارِ حرف ﴿بَلۡ﴾ الإبطاليِّ، واختيار مفردة المكرِ.

بلاغةُ الكنايةِ في انتقاءِ مفردةِ المكرِ:

الأتباعُ في نظرِ السّادة أدواتٌ لتنفيذِ مآربِهم بحيلةٍ ودهاء

اختارَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لفظَ ﴿مَكۡرُ﴾ الموضوعَ لصرف الآخرين عمّا يقصدُهُ بحيلةٍ، ففيه دلالةٌ على أنَّ الكبراءَ والزُّعماءَ كانوا يسلكون في التَّأثير على الأتباعِ مسالكَ الحيلةِ والخداع من أجلِ صدِّهم عن الإيمان بالرُّسل والوحي المُنَزَّل عليهم؛ ليكونوا لهم أعوانًا على الضَّلالةِ، فيستعملونَهُم فيما يخدمُ أغراضَهم، فأمْرُ السّادةِ للأتباعِ لم يكن باضطهادٍ، بل بحيلةٍ ومكرٍ ودهاء، وهذا ما أدركَهُ أولئك المغفَّلون الذين كانوا مجرَّدَ أدواتٍ بيد السّادة.

وإطلاقُ المكرِ على تسويلِهم لهم البقاءَ على الشِّرك، باعتبار أنَّهم يموِّهون عليهم، ويوهمونهم أشياءَ، كقولهم: إنَّه دينُ آبائِكم، وكيف تأمنون غضبَ الآلهةِ عليكم إذا تركْتُم دينَكم ونحو ذلك، والاحتيالُ لا يقتضي أنَّ المحتالَ غيرُ مستحسنِ الفعلَ الذي يحتالُ لتحصيله، والمعنى: ملازمَتُهم المكرَ ليلًا ونهارًا، وهو كنايةٌ عن دوام الإلحاحِ عليهم في التَّمسُّك بالشِّرك، و﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ﴾ ظرفٌ لما في ﴿مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ من معنى (صدَّنا)، أي: حين تأمروننا أن نكفرَ باللهِ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 208.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 209.

بلاغةُ المجازِ العقليّ:

في قوله تعالى: ﴿مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ الظرفيَّة، حيث أُضيف المصدرُ، وهو: المكرُ إلى ظرفه، وهو اللّيلُ والنّهار، وحقُّه أن يُضاف إلى أصحابِهِ وفاعليه، فيُقال: بل مكركُم في اللّيل والنَّهار، لكنَّ البيانَ عدلَ عن ذلك، وأضاف المكرَ إلى زمانه؛ للدَّلالةِ على أنَّ الكبراءَ كانوا لا يكفّون عن المكرِ بالأتباعِ لحظة مِنَ اللّيل أو النَّهار، حتَّى إنّه ليُخَيَّلُ إلينا أنَّ اللّيلَ والنّهارَ تجاوبا مع أصحابِ النُّفوذ، وصارا أصحابَ المكرِ بالأتباعِ، ففيه مِنَ المُبالغةِ الَّتي تعكس موقفَ الأتباعِ في النّارِ، وهم في غايةِ الخذلانِ في الآخرةِ بعد أن خذَلوا أنفسَهم في الدُّنيا.

من خذلَ نفسَهُ في الدُّنيا بتركِ الحقِّ؛ فهو لها خاذلٌ في الموقفِ الحقِّ

معنى تعريفِ لفظَي ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾:

(أل) في لفظَي ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ للعهدِ، وفيه دلالةٌ على أنَّ مكرَ الكُبراء لا يَفْتُر، ولا يسكن ليلًا أو نهارًا، وأنَّهم ملازمون له، لا ينفكّون عنه، ولا يتوقَّفون عنِ الكيد للضُّعفاء والدُّهماء.

فائدةُ فنِّ الطِّباق:

بين ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ و﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ طباقٌ بين اسمين، جمعَ بينهما النَّظمُ الكريمُ بحرف العطف الذي يفيدُ التَّشريك في الحكم؛ للدَّلالة على أنَّ مكرَ الكُبراء باللَّيل لا يختلفُ عن مكرهم بالنَّهار، ومكرَهم بالنَّهار لا يختلف عن مكرِهم باللَّيل، وللدَّلالة على أنَّ الكُبراءَ يمكرون بالضُّعفاء مكرًا مستمرًّا لا ينقطع، ولا يتوقَّف، وأنَّهم منشغلون بهم وبصدِّهم عن الإيمان دائمًا؛ لِما في إيمانهم من خطرٍ شديدٍ عليهم، ولما فيه من نُصْرةٍ للرُّسل ومساعدةٍ على انتشارِ دعوتهم.

استغراقُ الزَّمانِ كلِّه والدِّلالة على الديمومةِ

نكتةُ تقديم ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ على ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾:

قُدِّم ذِكرُ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ على ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾؛ لأنَّ اللَّيلَ أنسبُ بالخفاءِ

المقترن بالمكرِ، فإنَّ شأنَ الماكرين أن يمكروا في خفاءٍ عن النّاس، وهذا يكون عادةً في اللَّيلِ، والنَّهار يكون عادةً لتنفيذ مَكرِ اللَّيل، ففي اجتماعِ اللَّيلِ والنَّهار مع تقديم اللَّيل يكون هذا المعنى، أو أن نقولَ: إنَّ اللَّيلَ هو مَظِنَّةُ التَّوقُّف عن التَّفكير والمكر، بما يتخلَّله من نومٍ وراحةٍ للبدن والعقل، فإذا تأكَّد حصولُ المكر واشتدادُه فيه، فذلك يعني تأكُّدَ حصولِه واشتدادِه في النَّهار من باب أولى.

اللَّيلُ فيه مكرُ الفكرِ، والنَّهارُ فيه مكرُ العملِ

معنى ﴿إِذۡ﴾ ودلالتها:

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ﴾ ظرفٌ للمكرِ، وفي استعمالِه دعوةٌ للكُبراء كي يستحضِروا الأوامرَ الَّتي كانوا يأمرون فيها الأتباعَ والدَّهماء بالإشراكِ باللّٰه تعالى، والانصرافِ عن الرُّسل الدّاعين إلى عبادتِه؛ لأنَّها تُمثِّلُ ذلك المَكرَ بجلاء، والمعنى: بل مكرُكم الدّائمُ وقتَ أَمْرِكم لنا[1]، فحقيقةُ المكرِ تتمثَّل في أمر الأتباعِ بالكفرِ والطُّغيانِ.

مكرُ الظّالمين بأمرِ الأتباعِ وتوجيههم للكفرِ والإفساد

بلاغةُ انتقاءِ مفردة الأمرِ بصيغةِ المضارعِ:

في التَّعبير بالفعل: ﴿تَأۡمُرُونَنَآ﴾ الذي يقتضي الطاعةَ، ويصدر دائمًا مِنَ الأعلى إلى الأدنى دلالةٌ على أنَّ الكُبراء كانوا لا يُعطون الأتباعَ فرصةً للنَّظر فيما يوجَّهُ إليهم من أوامرِ الإشراك باللّٰه، وأنَّها كانت تصدر إليهم على وجه الإلزام الذي لا يقبلُ التَّفكيرَ أو الاختيارَ، وفي التَّعبيرِ بصيغة المُضارع دلالةٌ على كثرةِ هذه الأوامرِ، وتجدُّد صدورِها مِنَ الكُبراء مع كلِّ حدثٍ يُظَنُّ فيه ميلُ المُستَضعَفين إلى الإيمان، ويُشكُّ في حصولِه منهم، أو يُتَوَقَّعُ تفكيرُهم فيه، فالأوامرُ هي نتاجُ المكر، وعمل الأتباع تنفيذُها.

مكرُ السّادةِ يتمثَّل بأوامرِ الأتباعِ لتنفيذِ إرادتِهم ونتاج مكرهم

نكتةُ إيقاعِ الفعل ﴿تَأۡمُرُونَنَآ﴾ على المتكلمين:

في التَّعبير عنِ المفعول بـ (نا) المتكلِّمين المُتَّصل بفعل الأمر في

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 134.

قوله: ﴿تَأۡمُرُونَنَآ﴾ دلالةٌ على أنَّ هذه الأوامرَ كانت موجَّهةً إلى الأتباع والدَّهماء بصفةٍ خاصَّةٍ، كما أنَّها كانت تصدرُ مِنَ الكُبراء إليهم بصورة مباشرةٍ ليس فيها وسطاءُ ولا نوّابُ، وهو ما يدلُّ على شِدَّةِ إدراكِ الكُبراءِ خطورةَ إيمانِ الضُّعفاءِ عليهم، وخطورتَهُ كذلك في مساندة الرُّسل ومساعدتهم في انتشارِ دعوتِهم، وإيصالِ رسالتِهم.

مباشرةُ الكُبراءِ الأوامرَ دليلٌ على حرصِهم وخوفِهم من إيمانِ الضُّعفاءِ

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ الكفر:

التَّعبيرُ بفعل الكفرِ الموضوعِ لجحود الوحدانيَّة، أوالنُّبوَّة، أو الشَّريعة، أوثلاثتها[1]، في قوله تعالى: ﴿أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ الكبراءَ كانوا يُجبرون الضُّعفاءَ على فعل كلِّ مظاهرِ الكفرِ وأعماله، ولا يسمحونَ لهم بتركِ شيءٍ مِنْها، حتَّى يتغلْغَلَ الكفرُ في قلوبِهم، ولا يعرفونَ للإيمانِ سبيلًا ولا طريقًا، فالكفرُ هو مجمعُ الفسادِ، ومصبُّ أنهار الفجورِ والعصيان، فمَن أتاه؛ فقد أتى كلَّ رذيلةٍ، ووقع في كلِّ معصيةٍ خسيسةٍ.

الكفرُ مجمعُ البلاءِ والفسادِ ومصبُّ أنهارِ الفجورِ والاضطهاد

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿نَّكۡفُرَ﴾ مضارعًا؛ لِما يُفيده مِنْ أنَّ الكُبراءَ كانوا يطالبون الضُّعفاءَ بتجديد الجهرِ بالكفر كلَّ حينٍ، والاستمرارِ في القيام بأعماله؛ ليتأكَّدوا من ثباتهم عليه، وعدمِ التَّزعزُعِ فيه، بالإضافة لِما يُفيدُه التَّعبيرُ بالمضارع مِنِ استحضارِ الصّورة الماضيةِ الَّتي يَظهَرُ فيها الكبراءُ، وهم يأمرونَ الضُّعفاءَ بممارسةِ أعمال الكُفرِ باللّه أمرًا مصحوبًا بالتَّهديد والوعيد، كأنَّها حاضرةٌ ماثلة، تؤكِّد أنَّهم السَّببُ الرئيسُ في صَدِّهم عن الإيمانِ باللّه تعالى ونُصْرةِ رُسلِه، فالأمرُ بالكفرِ على الدَّوامِ من شأنِه أن يُبعِدَ النّاسَ عن الإيمانِ حتَّى يرسخَ الكفرُ في القلوبِ، وهكذا يُربّى النّاسُ على الكفر والنِّفاقِ وترك دينِ الفطرة.

الكفرُ باللّه والصَّدُّ عن سبيلِهِ يتجدَّدان في صورٍ كثيرةٍ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (كفر).

غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الجليل:

الكفرُ بالله تعالى تفريطٌ بالحقِّ الأعظم والواجب الأفخم

جاءَ التَّعبيرُ باسم الجلالةِ الأعظم في قوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ زيادةً في تقبيحِ فعل الكبراء وتشنيعِ صنيعِهم؛ لأنَّهم مكروا لغايةِ الكُفر بالملك الأعظم، المستحقِّ للعبادة وحده، الباديةِ نعمُه، الواضحةِ آلاؤُه، السابغةِ خيراتُه، والذي لا يُقادَر قدرُه، والإتيانُ بالاسم الأعظم لبيانِ النَّدامة والحسرة على التَّفريطِ بالحقِّ الأعظم، والواجب الأفخم.

بلاغةُ العطفِ ودلالته:

جمعَ الكافرون جميعَ أصنافِ الطُّغيان

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ لعطفِ ما بعدها على جملة: ﴿نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾، ودلَّ العطفُ على أنَّ الكبراءَ لم يكتَفوا بأمرِ الضُّعفاء بالكفر بالله، وإنَّما أمروهُم بالإضافةِ إلى ذلكَ أن يعبُدوا مِن دونِهِ آلهةً، زعموا أنَّها أندادٌ للّهِ ومماثلةٌ له في كلِّ شيءٍ، وفيه ما يدلُّ على بُلوغ حَنَقِ الضُّعفاء على الكبراءِ مداهُ، ورغبتِهم في إلقاء التَّبعة عليهم، ووَسْمِهم بالإجرام الذي اتَّهموهم بِهِ في إنكارِهم السّابق.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الجعل مضارِعًا:

الشِّركُ بالله تعالى مقاومةٌ للفطرة الَّتي فطرَ الله النّاسَ عليها

في التَّعبير بالفعلِ ﴿وَنَجۡعَلَ﴾ الدّالِّ على التَّحويل والتَّصيير[1] إشارةٌ من الضُّعفاء تؤكِّد أنَّهم لم يكونوا راغبينَ في الكفرِ باللّه، واتِّخاذِ أندادٍ من دونه، وأنَّ الكبراءَ همُ الذين أجبروهم على ذلك التَّحوُّل، وأرغموهم، وفي التَّعبيرِ بهِ مضارعًا دلالةٌ على تجدُّدِ إجبارهم، واستمرار الكبراءِ في إرغامِهم إلى أنْ فارقوا الحياةَ، وهم على ذلك، فهو جعلٌ مستمرٌّ متجدِّدٌ، فكلَّما استجدَّ نداءُ الفطرةِ؛ جدَّدوا عهدَ الشِّرك، والثَّبات عليه، كما قال المشركون: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦﴾ [ص: 6].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (جعل).

نوعُ (اللام) ودلالتها:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥٓ﴾ حرفُ جرٍّ بمعنى (مع)، استُعمِلَ للدَّلالة على أنَّ الكُبراءَ أجبروا المستضعَفين على الكفرِ باللّه تعالى واتِّخاذ شركاء مَعَهُ.

نكتةُ استعمالِ مفردةِ ﴿أَندَادٗاۚ﴾:

النِّدّيَّةُ عنوانُ تحدّي المخلوقِ للخالقِ

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة: ﴿أَندَادٗاۚ﴾ الدّالَّة بمادَّتها على المماثلة والمشاركة والنّدّيَّة، ففيها معنى التَّحدّي وادِّعاء القدرةِ المماثلة لقدرةِ اللّه تعالى، وهي تدلُّ على أنَّ الكُبراءَ أفهموا المُستضعَفين، وأقنعوهم بأنَّ الآلهةَ التي أمروهم بعبادتها، تُماثِلُ اللّه تعالى في كلِّ شيءٍ، وتُشاركه في القُدرة على أيِّ شيءٍ، ومِنْ ثَمَّ فهي جديرةٌ بالعبادة، فالمعنى: أمثالًا نعبدُهم مِنْ دونِ اللّهِ[1]، بخلاف لفظِ الشَّريك الذي لا يُلحظ فيه هذه الدَّقائق مِنَ المعاني.

غرضُ تنكير ﴿أَندَادٗاۚ﴾ وجمعه:

ما أكثرَ الأندادَ المزعومة وقلَّة حيلتها!

نُكِّر لفظُ ﴿أَندَادٗاۚ﴾ لبيانِ الكثرة والتَّعدُّد، ما يعني أنَّ الكبراءَ كانوا يُغرون الضُّعفاءَ بكثرة الأندادِ وتعدُّدِها، وكانوا يُخَيِّرونهم فيما بينها، ولا يشترطونَ توحيدَ المعبودِ مِنها، ما يؤكِّد أنَّ غايتَهم الكُبرى وهدفَهم الأعظمَ هو صرفُ الضُّعفاء، وصدُّهم عن الإيمانِ باللّه تعالى وحدَهُ.

نكتةُ تقديم الأمر بالكفرِ على الأمرِ بالجعلِ:

الكفرُ مقدِّمة اتِّخاذ الأنداد وطريق عبادةِ الأوهام

قُدِّمت جملة: ﴿نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ على جملة: ﴿وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾؛ لأنَّها مقدِّمة اتِّخاذ الأنداد، فإذا تحقَّق الكفرُ؛ سهُل اتِّخاذ الأندادِ؛ لأنَّ النَّفس البشريَّة تبحث عمّا تؤمن به، فإذا كفرت بالإله الحقِّ؛ بحثت عمّا تعبدُ من الأنداد الباطلة، وهذه طريقةُ الأسيادِ المستكبرين

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 5011.

الماكرين، فهُم يحرصونَ على إيقاع النّاس بالكفر، ليكونوا بعد ذلكَ باحثين عنِ الأندادِ لملْءِ الفراغِ التَّعبُّديِّ.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

تحتملُ الواو العطفَ والاستئنافَ والحال

(الواو) في جملة: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ تحتمل أن تكونَ للحال، والجملةُ بعدها لبيان حالِ الكُبراءِ والضُّعفاءِ يومَ القيامة، وتحتملُ أن تكونَ استئنافيَّة[1]، ويمكن أنْ تكونَ لعطف ما بعدها على جملة ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [سبأ: 31]، فتكون حالًا، أو على جُمْلَةِ: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [سبأ: 31][2]، استكمالًا لما يحصُل للفريقين مِنْ إهانةٍ وخِزْيٍ وتعذيبٍ يومَ الحساب.

نكتةُ انتقاءِ مفردةِ ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

إخفاءُ النَّدامةِ أثناء المحاورات إظهارٌ لها بقرينةِ المقام

جاءَ استعمالُ مفردة الإسرارِ في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾، وهو دالٌّ على الإخفاء في النَّفس، ففيه أنَّ الفريقين كليهما شَعَرَ بالنَّدم والحسرة عندما أَيْقَنَ بعدم جدوى التَّراجُع، وبخاصَّة بعد أنْ رأوا شيئًا مِنَ العذاب الذي أَعَدَّه اللّهُ لهم، والمَعْنَى: أَنَّهُم كُشِفَ لَهُم عَنِ العَذابِ المُعَدِّ لَهُم، وذَلِكَ عَقِبَ المُحاوَرَةِ الَّتي جَرَتْ بَيْنَهُم، فَعَلِموا أَنَّ ذلكَ التَّراميَ الواقِعَ بَينَهُم لَم يُغْنِ عَن أَحَدٍ مِنَ الفَريقَيْنِ شَيْئًا، فَحينَئِذٍ أَيقَنوا بِالخَيبَةِ، ونَدِموا عَلَى ما فاتَ مِنهُم في الحَياةِ الدُّنيا، وأَسَرّوا النَّدامَةَ في أَنْفُسِهِم، وكَأَنَّهُم أَسَرّوا النَّدامَةَ؛ استِبقاءً لِلطَّمَعِ في صَرفِهِ عَنهُم أَوِ اتِّقاءً لِلفَضيحَةِ بَيْنَ أَهلِ المَوقِفِ[3]، ويمكن أن يكونَ الإسرارُ بمعنى الإظهارِ، والمعنى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾، أي: أظهروها، وهو مِنَ الأضدادِ[4]، وقد يكون إسرارُهم النَّدامةَ يُرادُ منهُ السُّكوتُ عن المراجعة والمحاورة، فأظهروا بإسرارِهم وسكوتِهم ندامتَهُم.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 97.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 209.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 209.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 585.

يستوي الكُبَراءُ والضُّعفاءُ في الخِزي والنَّدامةِ

مرجعُ ضميرِ الجماعَة:

ضميرُ الجمعِ المرفوعِ في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ عائِدٌ إلَى جَميعِ المَذْكورينَ قَبْلُ، وهُمُ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾، وهم الظّالمون في قوله: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ: 31]، وفي التَّعبير عنهم بضميرٍ واحدٍ دلالةٌ على أنَّهم في الشُّعور بالخِزي والنَّدامة سواءٌ، وأنَّه لا فرقَ فيه بين الكُبراء والضُّعفاء؛ إذ يندمُ الكبراءُ على ضلالهم وإضلالهم، ويندمُ المستضعفون على ضلالهم واتِّباعهم المُضلّين(1).

أشدُّ العذابِ اجتماعُ العذابِ النَّفسيِّ والحسّيِّ

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾:

(أل) في لفظِ ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ لتعريفِ العهدِ، والمقصودُ به: الشُّعورُ بالحسرة والألم المعروف للمخاطَبين، والذي جرَّبوه مِرارًا وتكرارًا في الدُّنيا إذا فاتهم شيءٌ؛ كانوا يرغبون في حصولِه، ويَوَدّون الفوزَ بهِ، وفي التَّعبير به إشارةٌ إلى أنَّ هذا الشُّعور سيكون أشدَّ وأعظمَ بعد رؤيةِ العذابِ الذي أعدَّهُ اللّهُ تعالى لهم، وأنَّ به سيجْتَمِعُ عَليهم نوعانِ مِنَ العذاب، أحدُهما نفسيٌّ، وهو المتمثِّلُ في النَّدامةِ، والآخرُ حسّيٌّ، وهو المتمثِّلُ في الأغلالِ، وبهما يبلغُ عقابُهم على الإشراكِ باللّه تعالى قِمَّتَه وذِرْوَتَه.

في لحظةِ رؤيةِ العذابِ تُكتَمُ الأفواهُ وتُسَرُّ النَّدامة

دلالةُ ﴿لَمَّا﴾ الحينيَّة:

﴿لَمَّا﴾ في جملة: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ﴾ هي الظرفيَّةُ الحينيَّةُ المُتعلِّقةُ بالفعل: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾، عبَّر بها النَّظمُ الكريمُ لبيان أنَّ الوقتَ الذي سيندمُ فيه الكبراءُ والمستَضْعَفون هو وقتُ رؤيةِ العذابِ وما يترتَّبُ عليهم فيه، ووضعِ الأغلال في أعناقهم، وهو الوقتُ الذي لا تنفعُ فيه الأعذارُ، ولا تُغْني فيه الحسرةُ، كما أخبرَ بذلك الذِّكرُ الحكيمُ في مواضعَ مُتَعَدِّدة.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 585.

بلاغةُ انتقاءِ مفردةِ الرؤية:

الإخبارُ برؤيةِ العذابِ إخبارٌ يستصحبُ تحذيرًا ووعيدًا

استعملَ النَّظمُ الكريم فعل ﴿رَأَوُاْ﴾ المُتَعَدّي إلى ﴿ٱلۡعَذَابَۚ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾، ويحتمل أنْ يُقصدَ بهِ الرؤية البصريَّة، والمعنى: أنَّهم ندموا عندما شاهَدوا بأعينِهم العذابَ الذي أعدَّهُ اللّهُ لهم، ولا يخفى ما فيه من تهويلٍ وتعظيم للعذاب الذي ينتظرُهم؛ لأنَّه إذا كان ذلك حالهم بمجرَّد رؤيةِ العذاب، فكيف بِهم إذا أُلْقوا فيه؟.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي:

مشاهدُ القيامةِ حاضرةٌ في الأذهانِ راسخةٌ في أهل الإيمانِ

جاءَ تعبيرُ النَّظم بالفعلين: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ و﴿رَأَوُاْ﴾ ماضيين مع أنَّ الإسرار والرؤية سيكونان يومَ القيامةِ؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك لا بدَّ وأنْ يقعَ؛ جريًا على عادة البيانِ القرآنيِّ في التَّعبيرِ عن الأمور الغيبيَّة بالفعل الماضي؛ للتَّنبيه على أنَّ هذه الأمورَ لا ينبغي أن يتطرَّقَ إلى الأذهان أدنى شكٍّ في حصولها، وأنَّ ما يحكيه القرآنُ من أحداثها واقعٌ لا محالة.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡعَذَابَۚ﴾:

العذابُ في سياقِ القيامةِ عذابُ النّارِ

(أل) في ﴿ٱلۡعَذَابَۚ﴾ لتعريف العهد، والمقصود به: عذابُ النّار الذي ذُكِر في كتاب اللّه في مواطنَ عديدةٍ، وسُمّيت فيها النارُ بأسماء كثيرةٍ، تدلُّ على أنَّ نارَ الدُّنيا لا تساوي بجانبها شيئًا، ومِنْ ثمَّ يكونُ للتَّرهيب بها والتَّخويف من عذابِها أثرُه في صرف النّاس عن موجِباتها، الَّتي يأتي على رأسها الكفرُ باللّه واتِّخاذُ الأندادِ مِنْ دونِه.

نوعُ الواوِ ومعناها:

الكافرونَ يوم القيامةِ في عذابٍ مُهينٍ مُذِلٍّ

(الواو) في جملة: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾؛ لعطف ما بعدَها على جملة: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ﴾ [سبأ: 31]، والتَّقْديرُ: ولَو تَرَى إذْ جَعَلْنا الأَغلالَ في أَعْناق الَّذين كفروا[1]، ما يعني أنَّ الظّالمين يوقفون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 210.

للحساب في ذلٍّ ومهانةٍ، فيحصلُ بينهم التَّراجعُ الذي لم يُغنِ عنهم شيئًا، ثمَّ توضعُ الأغلالُ في أعناقِهم إمعانًا في الإذلال والخزي، في مشهدٍ تحذيريٍّ لِمَنْ ينهجُ نهجهَم، ويسيرُ على مِنْوالِهم.

غرضُ إسنادِ فعل الجعل إلى ضمير العظمَةِ:

تفخيمُ وضعِ الأغلالِ في الأعناقِ وتهويلُها

إسنادُ فعلِ الجعْلِ إلى ضمير الحقِّ بصيغة التَّعظيم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ مجازٌ مرسلٌ؛ تهويلًا وتفخيمًا لمشهد الأغلالِ الَّتي توضَعُ في أعناق الكافرين، إذ مِنَ البدهيِّ أنَّ اللّٰه تعالى بجلالِهِ وجبروتِهِ، الذي يخضع له كلُّ مَن في السَّماوات والأرض، ويخافه الجميعُ بلا استثناء هو الآمرُ بوضع الأغلال في أعناقِ الَّذين كفروا، وإذا كان الفعلُ على قدر الفاعل، فكيف يكون فِعْلُ الجعْلِ المُسندُ إلى اللّٰه تعالى بما له مِن العظمة والاقتدار؟.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾:

الأغلالُ معهودةٌ معانيها وهي للتَّقريب لا للتَّحقيق

﴿ٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾ جمع غُلٍّ بضم الغيْن، و(أل) فيه لتعريف العهد، والمقصودُ به: الدوائرُ المعروفةُ المعهودةُ من الحديدِ أَو الجلدِ التي تكون على سَعَة الرَّقَبَة، وتوضَع في عُنُقِ المَأسورِ ونَحوِهِ، ويُشَدُّ إليها بِسلسِلَةٍ أَو سَيرٍ مِن جِلدٍ أَو حَبلٍ[1]، والتَّعبيرُ به جاءَ جريًا على عادةِ البيانِ القُرآنيِّ في تقريبِ ما يحدثُ في الدّار الآخرةِ مِنَ العذابِ أَوِ النَّعيم بذكْرِ ما يَعْهَدُه الناسُ، ويعرفونَهُ، ليكونَ في تَصَوُّرِهُم له نوعٌ مِنَ التَّرغيب والتَّرهيبِ الباعثِ على تحقيقِ الغرضِ المنصوب له البيانُ مِنَ الإغراء أو التَّحذير، فالعهدُ لتقريبِ معنى الأغلالِ لا لتحقيقِ حقيقتها.

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾:

الأغلالُ متنوِّعةٌ بتنوُّعِ المجرمين واختلافِهم

عبَّر النَّظمُ عن المفعول بلفظ: ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾ جمعًا؛ للدَّلالة على كثرتِها وتنوُّعِها، ما يعني: وجود أغلالٍ تكفي الضُّعفاء والكُبراء، أو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 210.

للدَّلالة على أنَّ لكلِّ واحدٍ منهم أغلالَه الخاصَّة به، والتي توضع في رقبتِه زيادةً في المَهانةِ والإذلالِ.

بلاغةُ حرفِ الظَّرفيَّة:

جاء استعمالُ حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾، لبيانِ تَمكُّن الأغلال من أعناق الذين كفروا، كأنَّها تَخَلَّلَتْها وتَغَلْغَلَتْ فيها، فلا يُمكِنُهم التَّخلُّصُ منها.

بلاغةُ الكنايةِ في جعْل الأغلالِ في الأعناق:

سـيُـساقُ الـكـافـرون إلـى الـعـذاب صاغرين

جعْلُ الأغلالِ في أعناقِ الكافرين كنايةٌ عن انقيادهم إلى المصير الذي وُعِدوا به في الدُّنيا، أو شِعارٌ عَلَى أَنَّهُم يُساقونَ إلَى ما يُحاوِلونَ الفِرارَ والانفِلاتَ مِنْهُ[1]، وفي التَّعبيرِ بالـ ﴿أَعۡنَاقِ﴾ جمعًا دلالةٌ على أنَّه لن يُستثْنى أحدٌ مِنَ الكفّار من وضع الأغلالِ في عُنُقِه، وأنَّ الجميعَ سيكونون في ذلك سواءً، لا فرقَ فيهم بين الكُبراء والضُّعفاء، ففيه بيانُ العدالةِ الإلهيَّة في ذلك اليوم العظيم.

نكتةُ العدولِ عنِ الضَّمير إلى الاسم الظاهر:

مِـن أغـراضِ الـنَّـظـم إظـهـارُ الـعـلـلِ وبـيـانُ الأسباب

كان مُقتضى الظّاهر أنْ يُقال: (وجعلنا الأغلالَ في أعناقِهم)، لكنَّ النَّظمَ الكريمَ عدلَ عنِ الضَّمير إلى التَّعبيرِ بالظاهر، فقال: ﴿فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾؛ لتقبيحِ صنيعِهم والتَّشنيع بعملِهم، وبيانِ أنَّ كُفرَهم باللّه واتِّخاذهم الأندادَ مِنْ دونِه هو سببُ وضعِ الأغلال في أعناقِهم، وفيه أنَّ العذابَ سينزلُ بالكافرين جميعهم لا فرقَ بينَ المستكبرينَ منهُم والمستضعفين، فمَنِ انتهَكَ حقَّ اللّه تعالى بالكفرِ، حُقَّ عليه العذابُ يوم القيامة.

عِلَّةُ فصل الجملة عَمّا قبلها:

عـنـد تـطـرُّقِ الـسُّـؤال يـردُّه حسنُ الجوابِ

جاءت جملةُ: ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشبهِ كمالِ الاتِّصال الذي تُجيب فيه الجملةُ الثانيةُ عن سؤالٍ أثارتْهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 210.

الجملةُ الأولى في نفس المُتَلَقّي، حول السَّبب في وضع الأغلالِ في أعناقِ الكافرين؛ لما فيه من هولٍ وشدَّةٍ، و"كأنَّ سائلًا استعظمَ هذا العذابَ، فسألَ عن سببِهِ"[1]، ومِنْ ثَمَّ فُصِلَتْ عمّا قبلَها، كما يُفصَلُ الجوابُ عن السُّؤالِ، ويمكن أن يكونَ الفصلُ لاختلاف الجملتَين خبرًا وإنشاءً، فيما يُعرَفُ بكمالِ الانقطاعِ، الَّذي يمنع الاتِّصال اللَّفظي بحرف العطف، لكنَّه لا يمنع الاتِّصال المعنويَّ بين الجمل.

غرضُ أسلوبِ الاستفهام:

نـفـيُ مـظـنَّـةِ الظُّلم في عذابِ الكافرين

جاء أسلوبُ الاستفهام دون الإخبارِ باستعمالِ حرفِ ﴿هَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ﴾؛ لما لهُ مِن أثرٍ في تحريكِ العقولِ ولفتِ الأنظارِ إلى أنَّ وضعَ الأغلالِ في أعناق الذين كفروا جزاءٌ مُناسبٌ لكفرِهم باللّه، واتِّخاذهم أندادًا مِن دونِهِ، وليس فيه شيءٌ مِنَ الظُّلم أو المبالغة، والغرضُ مِنَ الاستفهام هو الإنكارُ، والمعنى: هَل جُزوا بِغَيرِ ما كانوا يَعمَلونَ[2]، أو النَّفي، والمعنى: لا يُجزون إلّا جزاءَ ما كانوا يعملون[3].

بلاغةُ اختيارِ مفردة الجزاء:

الإلماحُ إلى معنى العدلِ فيه مزيدُ ترهيبٍ وتحذيرٍ مِنَ الكفرِ

جاء التَّعبيرُ باستعمال مفردة ﴿يُجۡزَوۡنَ﴾ الدّالَّة على المكافأة[4]؛ للتَّأكيد على أنَّ وضعَ الأغلالِ في أعناقِ الَّذين كفروا هو الجزاءُ العادلُ للكفر باللّه تعالى واتِّخاذِ أندادٍ مِن دونِهِ[5]، وأوثر التَّعبيرُ عنه بالفعل المُضارع؛ لاستحضار صورة الكفّار حين توضَعُ الأغلالُ في أعناقِهم، ويُسحبون إلى جهنَّم، وبئس القرارُ، فتعملُ الصورةُ عملَها في زجرِ المُشركين، وتحذيرِ الكُبراء والمُستضعفين وغيرهم مِنَ الغاوين.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 211.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 211.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 135.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزى).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 209.

نكتةُ بناءِ فعل ﴿يُجۡزَوۡنَ﴾ للمفعولِ:

اللهُ تعالى هو الحاكمُ العدل

جيءَ بالفعل: ﴿يُجۡزَوۡنَ﴾ مبْنيًّا لِما لَمْ يُسمَّ فاعلُه؛ لأنَّ فاعلَ الجزاء معلومٌ معروفٌ، وهو اللّهُ المتَّصفُ بالعدل، والذي سَمَّى نفسَه عَدْلًا، ومِنْ ثمَّ لم يُصَرَّح به، والمعنى: لا يجزيهم اللّهُ إلّا بما كانوا يَعملون، وفيه دلالةٌ على أنَّ المُجازاةَ بالعدلِ مِنَ البَدهيّاتِ المعلومةِ المعروفةِ عن اللّه ﷻ.

نوعُ الاستثناءِ وبلاغتُه:

أعمالُ الإنسانِ تقوده في الآخرةِ إلى مصيرِه

﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ حرفُ استثناء، وجملة: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ هي المستثنى، ولا يوجد مُستثنًى منه، ما يعني أنَّ الاستثناءَ مُفَرَّغٌ، وهذا التَّركيب يمنحُ المعنى مزيَّةَ إثارةِ النُّفوس وتشويقها إلى ما يأتي بعد ﴿إِلَّا﴾، حتى إذا ورَدَ بعد التَّطلُّع إليه؛ ثبت عند المتلقّي، وتمكَّن في ذهنه أنَّ اللّه تعالى لا يجزي أحدًا من خَلْقِه إلّا الجزاء المكافئَ لِما كان يعملُهُ في الدُّنيا، فإنَّ المعنى إذا أُلقي على سبيل التَّشويق؛ تطلَّعت نفسُ السّامع إلى معرفتِه، فتتوجَّهُ إلى ما يردُ بعد ذلك، فإذا أُلقي؛ تمكَّن فيها فضْلَ تمكُّنٍ، وكان شعورُها به أتمَّ[1].

نوع ﴿مَا﴾ ودلالتها:

جزاءُ الكافرِ مِنْ جنسِ عملِه

﴿مَا﴾ اسمُ موصولٍ في محلِّ نصبِ مفعولٌ بِهِ ثانٍ لـ ﴿يُجۡزَوۡنَ﴾، وفي التَّعبيرِ بِهِ دلالةٌ على أنَّ ما يعمله النّاسُ عامَّة، والكافرون خاصَّة سيُحاسبون عليه في الآخرةِ، بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ، وأنَّ الجزاء سيكونُ من جنسِ العملِ ونوعهِ، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

وفي التَّعبيرِ باسم الموصول: ﴿مَا﴾ تشبيهٌ بليغٌ، جُعِلَ فيه جَزاؤُهُم ما كانوا يعمَلونَ عَلَى مَعنَى التَّشْبيهِ البَليغِ، أَي: مِثلَ ما كانوا يَعمَلونَ،

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: خفاجي: 3/ 196.

وهَذِهِ المُماثَلَةُ كِنايَةٌ عَنِ المُعادَلَةِ فيما يُجاوِزونَهُ بِمُساواةِ الجَزاءِ لِلأَعمالِ الَّتي جوزوا عَلَيها، حَتَّى كَأَنَّهُ نَفسُها، كَقَولِهِ تَعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: 26][1].

دلالةُ ذكرِ فعلِ ﴿كَانُواْ﴾:

أعمالُ الكافرين كانت ديدنهم في الدُّنيا، وهي جزاؤهم في الآخرة

عبَّر النَّظم الكريمُ في جملة: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بفعل الكينونةِ ماضيًا؛ للدَّلالة على أنَّ الله تعالى لا يُعاقبُ إلّا على الذُّنوب والخطايا التي مات فاعلوها، وهُم مصرّون على ارتكابها، ولم يتوبوا مِنْ فِعلها؛ لأنَّها صارت - بسبب إصرارهم - متغلغلةً في كينونتهم، ولم يستطيعوا التخلُّصَ منها، وللإيماءِ إلى أنَّ أعمالَهم تلك كانت ديدنَهم في الحياةِ الدُّنيا، لا يألفون سواها، ولا يرتحلونَ عنها.

نكتةُ استعمال مفردةِ العمل:

كُفْرُ الجميعِ صادرٌ عن قصدٍ وعمد

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالفعل: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾؛ لشمولِه كلَّ ما يقصِدُ إليه النَّاسُ من أفعالٍ؛ إذ "العَمَلُ: كلُّ فعلٍ يكون بقصدٍ، وهو أخصُّ مِنَ الفعل؛ لأنَّ الفعل قد يُنسب إلى الحيوانات التي يقعُ منها بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلَّما يُنسب إلى ذلك"[2]، ما يعني: أنَّ اللّهَ تعالى سيُعاقب الكبراءَ والضُّعفاءَ على الكفر به؛ لأنَّهم فعلوه عن قصدٍ وتَعَمُّدٍ.

لطيفةُ التَّعبير بالمضارع:

أعمالُ الكافرين في الدنيا تتجدَّد بتجدُّدِ كفرِهم وعنادِهم

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مضارعًا؛ لما يمتازُ به مِن الدِّلالة على الاستمرار التَّجدُّدي، ما يعني: أنَّ تجدُّدَ صُدور أعمال الكفر مِنَ الكُبراء والمُستضعفين يُؤَكِّدُ تَعَمُّدَهُم القيامَ بها، ويُقَوّي تَوَفُّرَ القصدِ الدّافعِ إلى إتيانها، ويجعل مجازاتِهم عليها بوضع الأغلالِ في أعناقِهم جزاءً مناسبًا، لا زيادةَ فيه ولا مبالغة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 211.

(2) الراغب: مفردات القرآن: (عمل).

بلاغةُ القصرِ في جملة الفاصلة:

مطابقةُ الجزاءِ للأعمال، ولا يظلم ربُّك أحدًا

سبق القولُ بأنَّ ﴿هَلۡ﴾ في جملة: ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يمكن أن تكونَ بمعنى (لا) النافية، والتقديرُ: لا يُجْزَوْنَ إلّا ما كانوا يعملون، ومن ثَمَّ يكونُ التَّعبيرُ من باب قصرِ الصِّفة على الموصوف بطريقَي النَّفي والاستثناء، فعبَّر به النَّظم الكريمُ لتقوية المعنى وتثبيتِهِ لدى المُتلقّين، من خلال قصرِ المُجازاة على كونها مماثلةً للأعمال، بعد نفْي أن تكونَ بأيِّ معيارٍ آخر، كالزيادة أو النُّقصانِ، وبذلك تتأكَّد مماثلةُ وضع الأغلال في أعناق الذين كفروا لكفرهِم باللّه، واتِّخاذِهم الأندادَ من دونه، واستُعْمِلَت ﴿هَلۡ﴾ دون (لا)؛ لأنَّها وغيرها مِن أدوات الاستفهامِ تساعد في تحريك عقولِ المخاطَبين ولفت انتباهِهم إلى المعاني المرادِ تثبيتُها في أذهانهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَكر والكَيد والخِداع:

الكيدُ مكرٌ قويٌّ والخداع يُلمَحُ فيه إظهار ما لا يُبطن

المَكْرُ مثلُ الكيد في أنَّه لا يكون إلّا مَعَ تدبُّر وفكر، إلّا أَنَّ الكيد أقوى من المَكْر؛ لأنَّه يتَعَدَّى بِنَفسِهِ، والمَكْر يتَعَدَّى بحرف، والَّذي يتَعَدَّى بِنَفسِهِ أقوى، والمَكْر: تَقْديرُ ضَرَرِ الآخرين من أن يُفعل بِهِ إذا لم يُعلَمْهُ بِهِ، والكيدُ: اسْمٌ لإيقاع المَكْروه بالآخرين قهرًا سَواء علم أَم لا، فَسُمّيَ فعلُهُ كيدًا، وإن علم بِهِ[1]. أمّا الخداع؛ فهوَ: إظْهار ما يُبطن خِلافه، أَرادَ اجتلابَ نفعٍ أَو دفع ضرٍّ، ولا يَقْتَضي أَن يكونَ بعد تدبُّر ونظر وفكر، يُقال: خدعَهُ في البيع؛ إذا غشَّه من جشع، وأوهمَه الإنصافُ، وإن كانَ ذَلِك بديهةً من غير فكرٍ ونظرٍ[2].

النِّدُّ والشَّريك:

النِّدُّ: هوَ المِثْل المُناد، ويُسمّى الضِّدُّ ندًّا، والنِّدُّ ما كانَ مثل الشَّيْءِ

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 259 وما بعدها.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 258.

يُضادُّه في أُموره، والنَّديدُ مثلُه، وأصل الباب: التَّشريد، فالندُّ لمنادَّته لصاحبه، كأنَّه يُريدُ تشريدَه[1]، أمّا الشريك؛ فهو المُخالِطُ من الشركة، وهي: أن يوجد شيءٌ لاثنين فصاعدًا، عينًا كان ذلك الشيءُ أو معنًى، قال تعالى: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 32][2]، وليس شَرْطًا أنْ يكونَ الشريكُ نِدًّا أو ضِدًّا.

النِّدُّ المُضادُّ في الأُمور والشريك المُخالِطُ، وليس شرطًا أن يكون نِدًّا

ولمّا كان المقامُ لإغراء المُستضْعَفين بالكفر والإشراكِ باللّه؛ كان التَّعبيرُ بـ﴿أَندَادٗاۚ﴾ أدقَّ وأنسب؛ لما فيه من إيهام بأنَّ لديهم القدرةَ على فعل ما يفعله اللّهُ تعالى، وهو ما لا يتحقَّقُ في الشُّركاء؛ إذ ليس شرطًا أنْ يكون الشريكُ نِدًّا.

الغُلُّ والقَيْد:

الغَلَلُ: تدرُّعُ الشَّيء وتوسُّطه، والغُلُّ مختصٌّ بما يُقيَّد به، فيجعل الأعضاء وسطَه، وجمعُه أَغْلالٌ، وغُلَّ فلانٌ: وُضِع القيدُ في عنقِه، كقوله: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ [غافر: 71][3]، أمّا القيدُ؛ فهو مثل الغُلِّ، ولكنَّه يكون في الأرجلِ والأقدام، فالمُقيَّدُ: مَوْضِعُ القَيْدِ من رِجْلِ الفَرَس، ومَوْضِعُ الخَلْخالِ مِنَ المرأةِ[4]، ولمّا كان القصدُ إهانةَ الكافرين وإذلالهم؛ بسبب كفرِهم باللّهِ واتِّخاذهم أندادًا من دونِه؛ ناسب التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾ دون القيودِ؛ لأنَّه أكثرُ إذلالًا وتشهيرًا وبروزًا مِنَ القيود.

الغُلُّ القيدُ الذي يوضَع في العنق، والقَيدُ ما يوضَعُ في الأرْجُل والأقْدامِ

الجزاءُ والثوابُ:

الجَزاء يكون على المَنْفَعَة والمضرَّة، على الخير والشَّرِّ، قال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١﴾ [النجم: 31]، أمّا الثَّواب؛ فالأكثرُ المُتعارفُ أنْ يكونَ في الخير[5]، قال

الجزاءُ يكون على الخير والشَّرِّ، والثَّوابُ يكونُ على الخيرِ في الأغلب الأعمِّ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 154.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (شرك).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (غلّ).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (قيد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (جزا).

تعالى: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران: 195]، وقال: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ﴾ [آل عمران: 148]، ولأنَّ السّياقَ يَقصد تأكيدَ أنَّ وضْعَ الأغلالِ في أعناق الذين كفروا هو الجزاءُ العادل لكفرِهِم باللّه، وليس فيه زيادةٌ أو نقصانٌ، فناسب التَّعبير بفعلِ الجزاء، الدّال على الإثابةِ على الخيرِ والمعاقبة على الشَّرِّ، دون فعلِ الثواب الشّائع في الخير، والذي قد يُفهم منه جوازُ العفوِ عنهم مع كفرهم وشركهم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: 34 - 35]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من حالِ المترفين في الآخرةِ إلى أحوالِهم وأحوالِ أمثالِهم في الدُّنيا

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة مشاهدَ القيامةِ في حوارِ الذين استكبروا مع الذين استُضْعِفوا، وأنَّهم نالوا جزاءَهُم العادلَ؛ انتقلتِ الآياتُ لبيانِ أنَّ ما جرى بين المستكبرين السّادةِ والمستضعَفينَ الأتباعِ هو سنَّةٌ مضت في الأمم السّابقة، وأنَّ اللّه تعالى ما أرسل في قريةٍ من رسولٍ ليُنذرَهم إلّا اعترضَهُ المترفون، وكفروا بما أتى بِهِ مِنَ البيِّنات، واعتمدوا على قوَّتِهم الماليَّة والبشريَّة، وأنكروا البعثَ والجزاء.

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿قَرۡيَةٍ﴾: (قري) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى جُمَعٍ واجتِماعٍ، مِن ذَلِكَ القَريَةُ، سُمّيَت قَرْيَةً لاجتِماعِ النّاسِ فيها[1]، وهي: كُلُّ مَكانٍ اتَّصَلَت بِهِ الأَبنيَةُ، واتُّخِذَ قَرارًا، وتَقَعُ عَلَى المُدُنِ وغيرِها، والجَمعُ قُرًى[2]، وقيل: اسمٌ للموضع غير المحصَّن الذي يجتمعُ فيه الناسُ، واسمٌ للناس أيضًا، فيُستَعْمَل في كلِّ واحدٍ منهُما، قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]، معناه: أهلُ القريةِ، وقال بعضُهم: القومُ أنفُسُهم، وعليه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾ [النحل: 112]، وقولُه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ [محمد: 13][3]، والمرادُ بالقريةِ في الآية: كلُّ قريةٍ أتاها رسولٌ فكذَّبته، وكفرَتْ بما جاء به.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قري).
(2) الحموي، المصباح المنير: (قري).
(3) الراغب، مفردات القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قري).

2) ﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾: (ترف) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهيَ التُّرفَةُ، يقالُ: رَجُلٌ مُترفٌ مُنَعَّمٌ، وتَرَّفَهُ أَهلُهُ، إذا نعَّموهُ بِالطَّعامِ الطَّيِّبِ والشَّيْءِ يُخَصُّ بِهِ[1]، والتُّرفَةُ تعني: التوسُّع في النِّعمة، يقال: أُترِفَ فلانٌ، فهو مُترَف، قال تعالى: ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون: 33]، وقال: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ [هود: 116][2]، والمعنى المحوريُّ: امتلاءُ الشَّيءِ بالريّ والرخاوة حتَّى ينتبر متميِّزًا عمّا حوله، وأَتْرَفَ الرجلَ: أعطاهُ شهوتَهُ، والشَّهوات لا تُشْبَع بنيل الضروري، والمُتْرَف: المُتَنَعِّم المُتَوَسِّعُ في ملاذِّ الدُّنيا وشهواتِها، والمرادُ هنا: رؤساؤُها وقادةُ الشَّرِّ منها[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المترفون أسرعُ النّاس كفرًا لافتخارِهم بالأموالِ والأولاد كفرانًا

تُبيِّن الآيتان موقِفَ المُتْرَفين في كلِّ أمَّة مِنَ الأمم، وكيف تعاملوا مع الرُّسل الذين أُرْسِلوا لهدايتهم، وتُبيِّن أنَّهم كانوا مُناوئين لهم، فلم يؤمنوا برسالتِهم، وناصبوهم العداءَ؛ لأنَّ التَّرفَ مِنْ شأنه أنْ يُفسِدَ الفطرةَ، ويبعثَ على الغرور والتَّطاول، ويحولَ بين الإنسان والتَّمَسُّك بالفضائل والقيم العليا، ويهدي إلى الانغماسِ في الرَّذائل والشَّهوات، وأنَّ هؤلاء المُترفين لم يكتفوا بإعلانِ كفرهِم، وتكذيبهم للأنبياء والمصلحين، بل أضافوا إلى ذلك التَّبَجُّحَ والتَّعالي على المؤمنين، فافتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أنَّ ذلك دليلٌ على محبَّة الله لهم، واعتنائه بهم، وأنَّه سبحانه ما كان ليُعطيَهم هذا العطاءَ في الدُّنيا، ثم يعذِّبهم في الآخرة[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ومعناها:

محاربةُ الصّالحين عادةُ الظّالمين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

(الواو) في جملة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٍ﴾ استئنافيَّةٌ، والكلامُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ترف).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (ترف).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ترف).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 461، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 297.

بعدها مُستَأنفٌ جيء به؛ "تَسليَةً لِقَلبِ النَّبيِّ صلى اللّه عليه وآله وسلم وبَيانًا؛ لأَنَّ إيذاءَ الكُفّارِ الأَنبياءَ الأَخيارَ لَيسَ بِدعًا، بَل ذَلِكَ عادَةٌ جَرَتْ مِن قَبْلُ"(1).

نوع (ما) ومعناها:

إيثارُ نفي العمومِ توكيدٌ لمفهومِ السُّننيَّة

(ما) في جملة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ حرفُ نفْيٍ، يدلُّ بمعناه على القطع بتكذيب المُترفين للأنبياءِ والمرسلين الذين أرسلَهم اللّهُ تعالى لهدايتهم، ويدلُّ ببنائِهِ المُنتهي بحرف المدِّ على انتفاء إيمانِهم بالرُّسل انتفاءً لا يمكن معه حصولُ التَّصديقِ منهم، وإيثارها على أدوات النَّفي الأخرى للعمومِ، ولتشملَ جميعَ الأنبياء الذين أرسلَهم اللّه تعالى إلى أقوامِهم، وهو توكيدٌ لمفهوم أنَّ هذه الآيةَ مِن آيات السُّنَنِ.

بلاغةُ انتقاءِ مفردةِ الإرسال:

الإرسالُ مرتبطٌ بمعنى السلاسةِ وتحقيقِ المقصدِ بوجودِ رسالةٍ

استعمل النَّظمُ الكريمُ في جملة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ فعلَ الإرسال؛ لدلالته على أنَّ النَّبيَّ المُرسَل لم يأتِ لأمرٍ يخُصُّه، ولكنَّه أُرسل مِن ربِّ العالمين برسالةِ الخير والنَّفع لأهل القرى، ومع ذلك كفرَ المترفونَ بما أُرسل به، والإرسالُ أصبحَ مِن الكلمات الدّالَّة على الرِّسالةِ الإلهيَّة بين المرسلِ سبحانه وخلقه، بخلاف البعثِ فهو أعمُّ مِن ذلك، ويُلاحظ في دلالةِ الإرسالِ اليُسر والسلاسة، بخلاف البعث الذي يدلُّ على الإثارة، ولا يستلزم وجودَ رسالةٍ.

نكتةُ إسنادِ الإرسالِ إلى ضمير العظمةِ:

تشريفُ الرُّسلِ وتعظيمُ شأنِ الإرسالِ يقتضي الإيمانَ والاتِّباعَ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بفعل الإرسال مُسندًا إلى ضمير الحقِّ في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾؛ تفخيمًا للإرسال، وتوقيرًا للمُرسلين الذين اصطفاهم اللّه للقيام بهذه المهمَّة، وفي التَّعبير دلالةٌ على أنَّ الواجب الذي كان مُتَوَقَّعًا مِن أهل القرى أنْ يَتَلَقَّوا هذا الإرسالَ بالتَّقدير

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 209.

والامتنان؛ لما فيه من برهانٍ على اهتمام المولى بِهِم، وحرصه سبحانه على إخراجِهم مِن الظُّلمات إلى النّور، كما كان مِنَ الواجب عليهم الإيمانُ بالرُّسل واتِّباعُهم، إلا أنَّ ما حصل منهم كان على النَّقيض من ذلك، ففيه من التَّسليةِ لرسول اللّه ﷺ والتَّخفيف عنه لمشابهةِ قومِه لسائر الأقوام.

غرضُ تنكيرِ ﴿قَرۡيَةٍ﴾:

رحمةُ الله تعالى عـمَّـت خـلْـقَـهُ بإرسال الرُّسل إليهم

جيءَ بلفظِ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ نكرةً؛ لإفادةِ العموم الدالِّ على أنَّ جميعَ القرى - على اختلافِ أحجامِها، واختلافِ أزمانِها، واختلاف أهلِها - كانت سواءً في الكُفر بالرُّسل، والتفاخر بالأموال والأولاد، وأنَّ إرسال الرُّسل عمَّ الأمم والقرى جميعَها، فضلًا من اللّه تعالى ورحمةً بعباده.

نوعُ ﴿مِّن﴾ وغرضُها:

حرفُ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ صلةٌ للتوكيدِ، وهي تُفيد تأكيدَ إرسالِ الرُّسل إلى أهل القرى كافَّة، فهي مؤكِّدة لمعنى العمومِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بوصف الإنذار:

الإنـذارُ كاشفٌ عن واقعِ الأقوامِ وحالِ القرى

أوثِرَ التَّعبيرُ عن الرُّسل بوصف النِّذارة في قوله: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ لبيانِ أنَّ تلك القرى كانت تعمل المعاصيَ، وتشركُ باللّه تعالى، فلزمهم الإنذارُ والتَّحذير من مآل أفعالهم، وللدَّلالةِ على أنَّ الإنذارَ - مع شدَّته وقوَّة تأثيره في النَّفس - لم يُجْدِ نفعًا مع أهل القرى، ولم يُؤَثِّرْ فيهم، فانصرفوا عن الإيمان إلى الكفرِ، وعن الشُّكر والثَّناء على اللّه تعالى إلى التَّفاخر بالأموال والأولاد.

نكتةُ صياغة ﴿نَّذِيرٍ﴾ بزنة (فعيل):

كـفـرُ الأقـوامِ بسببِ طغيانِهم لا بسببِ تقصيرِ المرسلين

أوثِرَ التَّعبيرُ عن الرَّسول بوصف ﴿نَّذِيرٍ﴾ بزنةِ فعيلٍ؛ للدَّلالة على أنَّ الرُّسل أدّوا حقَّ الرِّسالة، ولم يُقصِّروا في التَّبليغ، بل بالغوا في النِّذارة؛ حرصًا منهم على نفعِ أهل القرى؛ لأنَّ كثرةَ التَّخويف

بالعذاب المُعَدِّ للكافرين تدفع بدهيًّا إلى الإيمان بُغْيَةَ النَّجاة منه، ومع ذلك فأهلُ القرى كفروا بالله، وكذَّبوا رسلَهُ، وادَّعَوا أنَّه لن يعذِّبهم في الآخرة؛ لأنَّه أغناهم بالمالِ والولدِ في الدُّنيا.

دلالةُ تنكير لفظِ ﴿نَّذِيرٍ﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿نَّذِيرٍ﴾؛ لِما يُفيدُه التَّنكير من العموم، فالنَّكرةُ في سياقِ النَّفي تُفيد العمومَ، فدلَّ ذلك على إرادة السُّننيَّة، وأنَّ الله تعالى من سنَّتِهِ أن يرسلَ رُسلًا لجميعِ القرى، عدلًا منه ومنَّةً.

دلالةُ القصرِ بالاستثناء والنَّفي:

كفرُ المترفين طغيانٌ وجحودٌ واستكبارٌ

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ قصَرَ النَّظمُ القرآنيُّ موقفَ المُترفين مِنَ الرُّسل على قولهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، لمطابقة الخبرِ للواقع الذي كان عليه أهلُ القرى مع الرُّسل الذين أرسلَهُم الله تعالى لهدايتهم؛ تسليةً للرَّسول والذين آمنوا معه، ولئلّا يحزنوا، ويتألَّموا مِن فعل أهلِ مكَّة معهم بصفة عامَّة، وفِعل الكُبَراء والمترفينَ منهم بصفة خاصَّةٍ؛ لأنَّ مثلَ ذلك حدث مع جميعِ الرُّسل على مرِّ العصورِ والأزمان.

دلالةُ استعمالِ لفظِ القول:

ما ينطقُ به اللِّسان إعرابٌ عمّا استقرَّ في الوجدان

التَّعبيرُ بفعل القول الموضوع لإبرازِ ما تَتَصَوَّرُه النَّفسُ، في جملة: ﴿قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾، فيه دلالةٌ على أنَّ الكفرَ عقيدةٌ راسخةٌ في نفوس أهلِ القرى، ومتغلغلٌ فيها، وأنَّ ما خرجَ مِن ألسنتِهم ما هو إلّا إعرابٌ عمّا استقرَّ في قلوبهم، ومِن ثمَّ لم يُجْدِ معهم الإنذارُ وكثرةُ الرُّسل أيَّ نفعٍ، ولم يُحدِثْ فيهم شيئًا مِنَ التَّغيير، وفيه كذلك تحذيرٌ للمشركين وغيرهم مِنْ أنَّ هذه الأقوالَ وأمثالَها تعدُّ إدانةً لِمَن يقولُها، وسيلقى حسابَهُ عليها في الدُّنيا والآخرة إن مات مُصِرًّا عليها.

وجهُ إسنادِ فعلِ القول إلى المترفين:

المُترفونَ قدوةُ الدَّهماء ورأسُ البلاء

أَسنَدَ النَّظمُ القولَ إلَى المُترَفينَ مَعَ أَنَّ غَيرَهُم أَيضًا قالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ لأَنَّ الأَغنياءَ المُترَفينَ هُمُ الأَصلُ في ذَلِكَ القَولِ، أَلا تَرَى أَنَّ اللَّهَ قالَ عَنِ الَّذينَ استُضعِفوا: أَنَّهُم قالوا لِلمُستَكبِرينَ: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١﴾ [سبأ: 31]، ثُمَّ استدلّوا عَلَى كَونِهِم مُصيبينَ في ذَلِك بِكَثرَةِ الأَموالِ والأَولادِ، فَقالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾، أَي: بِسَبَبِ لَزومنا لدِيننا، وقَوْلُهُ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، أَي: في الآخِرَةِ، كَأَنَّهُم قالوا: حالُنا عاجِلًا خَيرٌ مِن حالِكُم، وأَمّا آجِلًا؛ فَلا نُعَذَّبُ؛ اعتِقادًا لِحُسْنِ حالِهِم في الآخِرَةِ أَيضًا قياسًا عَلَى حُسْنِ حالِهِم في الدُّنيا[1]، وإذا قالَ المُنَعَّمون ذلك؛ تَبِعَهُم الضُّعفاء، فإذا وُقِفوا عند ربِّهم؛ تَقاوَلوا بِما تقدَّم، ثمَّ لم ينفعْهُم ذلك[2].

المـترفـونَ أوّلُ المكذِّبين وأسرعُ الكافرين

وخُصَّ المترفونَ بالتَّكذيب؛ لأنَّهم - في الأغلب - أوَّلُ المُكَذِّبين للرُّسل ﷺ؛ لِما شُغلوا بِهِ مِن زخرفةِ الدُّنيا، وما غلبَ على قلوبهم منها، فهُم منهَمِكون في الشَّهوات والاستهانة بمَن لم يحظَ منها، بخلاف الفقراء، فإنَّ قلوبَهم لخُلوِّها من ذلك أقبلُ للخير، ولذلك تراهم أكثرَ أتباع الأنبياء[3].

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ التَّرف دونَ الغِنى:

التَّرفُ باعثٌ على التَّطاول وهادٍ إلى الوقوع في الرَّذائل

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ التَّرف، في قوله تعالى: ﴿قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ التَّرفَ الزائدَ عن الحدِّ "مِنْ شأنه أنْ يُفسد الفطرةَ، ويبعثَ على الغرور والتَّطاول، ويحولَ بين الإنسان وبين التَّمسُّك بالفضائل والقيم العليا، ويهدي إلى الانغماس في الرَّذائل والشَّهوات الدُّنيا"[4]، والمعنى: قال العظماء الذين لا شغلَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 209.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 513.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 553، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 321.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 297.

لهم إلّا التَّنعُّم بالفاني حتَّى أكسبَهم البغيَ والطُّغيانَ[1]، بخلاف (الغنى) الذي لا يحدث معه ذلك في الكثير الغالب؛ لأنَّهُ يكونُ بالمال أو بالقوَّة أو بالمعونة[2]، وقد يكونُ بشعور نابعٍ مِنَ النَّفس مع تَجَرُّدها مِنَ المال والقوَّة والمنعة.

لطيفةُ اسم المفعول في ﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾:

مَن لم يشكرْ نِعمَ الله؛ سُلِبها

صاغ البيانُ القرآنيُّ المُسند إليه بزنةِ اسم المفعول، فقال: ﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ما عندَهم مِنَ النِّعَم الَّتي يتفاخرون بها مَحضُ فضلٍ مِنَ اللّه تعالى عَليهم، وأنَّه ما خصَّهم بها لفضلٍ يستحقّونَهُ، أو لمزيَّةٍ امتازوا بها مِن غيرهم، وأنَّ مِن الواجبِ عليهم أنْ يشكروهُ سبحانه عليها بالإيمان برسُلِهِ والتَّصديق بالوحي المُنَزَّل إليهِم، والعمل بما يرشدُهم إليه، ففي بناء المسند إليه لِلمَفعولِ تَعريضٌ بِالتَّذكيرِ بِنعمَةِ اللّهِ عَلَيهِم؛ لَعَلَّهُم يَشكُرونَها، ويُقلِعونَ عَنِ الإشراكِ بِهِ[3].

التَّرفُ الكثيرُ مع الغفلةِ طريقُ البطرِ والكفرِ

وبَعضُ أَهلِ اللُّغَةِ يَقولُ: أَترَفَتْهُمُ النِّعمَةُ، أَي: أَبطَرَتهُم[4]، ما يعني: أنَّ في بناءِ الاسمِ المشتقِّ للمفعول إشارةً إلى أنَّ النِّعمةَ كانت سببًا في بَطَرهم وكبرهم، وفيه دلالةٌ على سوءِ طبيعتِهم وخبثِ طويَّتهم؛ لأنَّهم قابلوا نِعَمَ اللّهِ الكثيرةَ عليهم بالبطرِ والكفرِ، لا بالإيمانِ والشُّكرِ.

نوعُ الإضافةِ ودلالتها:

المترفونَ هم أعلامُ القرى وأصحابُ النُّفوذِ والتأثيرِ فيها

عبَّر النَّظمُ الكريم باسم المفعولِ مضافًا إلى ضمير القريةِ قائلًا: ﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾؛ وهي بمعنى (في)، أي: مترفونَ في القرى، أو (اللام) ففيها معنى الاختصاصِ؛ للدَّلالة على أنَّهم أعلامُ القرى، وأصحابُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 513.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 175.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 212.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 212.

النُّفوذِ والمال فيها، وأنَّ القرى كانت تُعرَف بهم، وتُضاف إليهم، ما مِن شأنه أنْ يجعلَ لكلامِهم التَّأثيرَ البالغَ في أهلِها.

نكتةُ إسنادِ القولِ الواحد إلى الجمعِ المتفرِّق:

الكفر ملّةٌ واحدةٌ في حرب دين اللهِ تعالى

جملة: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم﴾ حِكايَةٌ لِلقَولِ بالمَعنَى، أَي: قالَ مُترَفو كُلِّ قَرْيَةٍ لِرَسولِهِم: إنّا بِما أُرسِلتَ بِهِ كافرونَ، وهذا مِن مُقابَلَةِ الجَمعِ بالجَمعِ، الَّتي يُرادُ مِنها التَّوْزيعُ عَلَى آحادِ الجَمْعِ[1]، وفي هذا دلالةٌ على تواطُؤِ أهلِ الكفرِ على مواجهةِ الرُّسل وحربهم.

غرضُ التَّوكيدِ:

الكفرُ الصَّريحُ يُعلمُ مِنَ النَّظم الفصيح

صيغ قولُ المترفينَ لرسلهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ بتوكيدِ الكلامِ بإنَّ والجملةِ الاسميَّة وتقديم الجارِّ والمجرور على الخبرِ؛ لتَيئيسِ المرسلينَ مِن إيمانِهم، وإفقادِهم الأملَ في اتِّباعهم، وإعلامِهم بعدم جدوى إنذارِهم أو تبشيرِهم.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول:

كُـفْـرُ المترفين يعمُّ ما جاء به الرُّسل وإن كان فيه النَّجاة في أُخراهم

التَّعبيرُ عن الوحي باسم الموصولِ العام (ما)، فيه دلالةٌ على كُفرِ المترفين بكلِّ ما جاءَتْ بِهِ النُّذُرُ مِنْ طَلَبِ الإيمانِ باللّٰهِ، وإفرادِهِ بالعِبادَةِ، والإخبارِ بِأَنَّهُمْ رُسُلُهُ إلَيهِم، والبَعثِ والجَزاءِ عَلَى الأَعْمالِ[2]، سواء أكان إنذارًا أم تبشيرًا، ترغيبًا أم ترهيبًا، والمعنى: إنّا بما أرسلتُم به كافرون، وإنْ كان أهدى ممّا كنّا فيه، وأحسن ممّا نحن عليه، وإن كان فيه صلاحُنا ونجاتُنا؛ لأنَّنا ثابتون على دين آبائنا وأجدادنا لا ننفكُّ عنه[3].

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على الخبر:

قبحُ الرَّدِّ والجرأةِ في الجوابِ دليلُ طغيانِ الكفرِ

قُدِّمَ ذِكرُ الجارِّ والمجرور: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم﴾ على الخبر: ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 212.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 553.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 8/ 362.

لبيانِ رغبةِ المترفين في التَّعجيل بإخبارِ المرسلينَ بكفرِهم بالوحي الذي جاؤوهم بِهِ، وعنادِهم على التَّمسُّك بما هم عليه، وإصرارِهم على تقليد آبائِهم في الكفرِ والضَّلال، وإقناطِهم للنَّذير مِنْ أنْ ينظروا، ويتفكَّروا فيما جاءهم به[1]، وهو ما يدلُّ على قُبحِ ردِّهم، وجراءتهم على أنبياءِ اللّه تعالى.

نكتةُ بناءِ ﴿أُرۡسِلۡتُم﴾ للمفعول:

جحودُ الكافرين رغم آياتِ الله البيِّنات

جيءَ بفعل الإرسال مبنيًّا لغير الفاعل في قوله تعالى: ﴿أُرۡسِلۡتُم﴾؛ للدَّلالة على استهتارِ المترفين، ولامبالاتِهم بالمرسِلِ ﷻ، فهُم يعلمون المرسِلَ لكنَّهم يتعامَونَ عن ذلك، فغايةُ أمرِهم رفْضُ الرِّسالة، وردُّ المرسلين، والعناد على ما هم عليه من التَّرف والنَّعيم الزّائل، فهُم يُعلنون الكفرَ بالرُّسل بقطع النَّظر عن المرسِل.

دلالةُ التَّهكُّم وغرضُه:

الإخبارُ باستهزاءِ المترفين بالرُّسل تسليةٌ للمؤمنين

في قَولِهم: ﴿أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ تَهَكُّمٌ واستِهزاءٌ، بِقَرينَةِ قَولِهِم: ﴿كَٰفِرُونَ﴾، وهوَ كَقَولِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ [الحجر: 6]، أَوِ المَعنَى: إنّا بما ادَّعيتُم أنَّكُم أُرسِلتُم بِهِ[2]، ولا يخفى ما فيه من التَّبَجُّح والاجتراء على رسل اللّه، وإنَّما حكاه القرآنُ زيادةً في تسليةِ الرسول والمؤمنين، وتثبيتهم في مواجهة تكذيب أهلِ مكَّة وغيرهم.

دلالةُ استعمالِ لفظِ الكفر:

لفظُ الكفرِ أعمُّ الألفاظِ الدّالةِ على رفضِ الرِّسالة الإلهيَّة

استعمالُ مفردةِ الكفرِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ الدّال على جحودِ الوحدانيَّة، أو النُّبوَّة، أو الشَّريعة، أو ثلاثتها، يدلُّ على إنكارِ المُترفين كلَّ ما جاء بِهِ الرَّسول فيما يتَّصل بهذه الأمورِ الثَّلاثة، وليس في شيءٍ منها دونَ شيءٍ آخرَ، فهم

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 8/ 362.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 212.

كافرونَ باللّهِ، وكافرون بالرَّسول، وكافرون بما في الوحي الَّذي أُرسل بِهِ مِن أوامر ونواهٍ وتوجيهاتٍ، فأتى بمادَّة الكفرِ لبيان عموم كفرِهم، فهم يُكذِّبون، ويُشركون، ويفترون، ولفظ الكفرِ يشملها وغيرها مِنَ الألفاظ الدّالَّة على إخراجِ الإنسانِ مِن دائرة القبولِ الإلهيِّ.

لطيفةُ صوغِ لفظِ الكفرِ اسمَ فاعل:

المترفون غارقونَ في وهْمِ النَّعيم غافلون عن جنَّة النَّعيم

أوثِرَ التَّعبيرُ عن الخبرِ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ باسم الفاعل؛ لأنَّه يدلُّ بمعناهُ على ثبات المُترفين على الكفرِ ودوامِهم على القيام بكلِّ أعمالهِ ومظاهِرِه، المؤدّية إلى إفقادِ الرَّسول الأملَ في إيمانهم، وتيئيسِهِ مِنَ الطَّمع في استجابتهم، فقد رسخَ فيهم الكفرُ والجحود والاستكبار.

غرضُ العطفِ بالواو:

استكمالُ بيانِ موقفِ المترفين فيه تجليةٌ لحقيقةِ المشهدِ المبين

(الواو) في جملة: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، جيءَ بها لاستكمال كلامِ المترفين، الذين وضَّحوا به موقفَهم مِنَ الرُّسل الذين أُرسلوا إليهم، ولتحقيق مزيدٍ مِنَ التَّسلية والتَّثبيت، ببيان أنَّهم لم يكتفوا بإعلانِ صريحِ كفرِهم، بل أضافوا إليه ما يزيد الرُّسلَ يأسًا من إيمانهم، فادَّعَوا أنَّ ما هم عليه أفضلُ ممّا جاؤوهم به، واستدلّوا على ذلك بكثرة أموالِهم وأولادِهم، وأنَّ إنعامَ اللّه عليهم بذلك ما هو إلّا دليلٌ على رضاهُ عنهم، وتفضيلِه لهم على غيرِهم مِنَ الرُّسل وأتباعهم.

دلالةُ تَكرارِ فعل القول:

الإيماءُ إلى استقلالِ كلِّ قولٍ بحيثيَّةٍ مع الرَّبطِ بينهما

كان مِن الممكنِ أن يقتصرَ البيانُ على ذِكرِ القول المتقدِّم بأن يُقال: (قالوا: إنّا بما أُرسلتُم به كافرون، ونحن أكثرُ)، لكنَّ النَّظمَ كرَّرَ فعلَ القولِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ عبارةَ المترفين الثانية ليست بالضَّرورةِ أن تكون في أعقابِ الأولى مباشرة، وأنَّها كانت لبيان السَّببِ الَّذي شجَّعهم على أن يقولوا للرَّسول: إنّا بما أُرسلتَ بهِ كافرون، تُزاد على ذلكَ دلالةُ الإعادة على اهتمام الكافرين الشَّديد

بالحديث عمّا عندَهم مِنَ الأموال والأولاد، وتَكرار فَخْرِهم بذلك في مواطنَ كثيرةٍ، فأُقيمتِ الجملتان باستقلالٍ، فهما قولانِ اثنان، كلٌّ واحدٍ منهما له حيثيَّتُه، ويربط بينهما بالدِّلالةِ الجامعة، التي أشار إليها حرفُ العطفِ.

دلالةُ التَّعبير بفعل القول ماضيًا:

المـترفـون يعتقدون أنَّهم عـلى الـحـقِّ لما نالوه مِنَ النِّعَمِ

التَّعبيرُ بفعل القول الموضوعِ لإبراز ما في النَّفس دالٌّ على أنَّ المترفين يعتقدون اعتقادًا جازمًا أنَّ ما لديهم مِنَ الأموال والأولاد برهانٌ على أفضليَّتهم، ودليلٌ دامغٌ على صواب ما هم عليه، "فَجَعَلوا ما حَفَّ بِحالِهم في كُفرِهم مِن وفرَةِ المالِ والوَلَدِ حُجَّةً عَلَى أَنَّهُم مَظِنَّةُ العِنايَةِ عِندَ اللَّهِ، وأَنَّ ما هُم عَلَيهِ هوَ الحَقُّ"[1]، وفي التَّعبير بفعل القول ماضيًا دليلٌ على حصولِ قولهم: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ حصولًا مؤكَّدًا، وتحقُّقِ صدورِه عنهم، ليُعلَمَ أنَّ هذا ديدنُ المترفين المتغطرسينَ.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

الافتخارُ بالتَّكاثرِ ديـدنُ الأمـمِ ومسلك الأقوام

اختُلف في تعيينِ مرجعِ الضَّميرِ المرفوعِ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ فقيل: عائِدٌ عَلَى المُترَفينَ، وقيلَ: عائِدٌ عَلَى قُرَيشٍ، ويَدُلُّ عَلَيهِ ما بَعدَهُ مِنَ الخِطابِ في قَولِه: ﴿قُلۡ﴾؛ لِأَنَّ مَن تَقَدَّمَ مِنَ المُترَفينَ الهالِكينَ لا يُخاطَبونَ، فَلا يَقولُ إلّا المَوجودونَ[2]، غير أنَّ السياق يُرَجِّحُ أن يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى المُترفين، وأنَّ ما جاء بعده من الأمرِ بالقول من باب توجيهِ النَّبيِّ إلى بيان الحكمةِ الإلهيَّة في إنعامِ اللّٰه تعالى على خلقِه.

نكتةُ مجيءِ المسندِ إليه ضميرَ جمعٍ:

الـغـرورُ يـقـودُ صـاحـبَـهُ إلى اعتقادِ أفضليَّتِهِ على الآخرين

جاء المسندُ إليه ضميرَ جمعٍ مرفوعٍ في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 213.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 554، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 422.

﴿أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم قالوا ذلك؛ غرورًا وافتخارًا بما هم فيه من نِعَمٍ وأولادٍ، كأنَّهم قد خُصّوا بذلك دونَ غيرِهم، وتعريضًا بالمؤمنين الذين اتَّبعوا الرُّسل، بأنَّ ضَعْفَ حالِهم وقِلَّةَ عَدَدِهم وشَظَفَ عَيشِهم حُجَّةٌ عَلى أَنَّهُم غيرُ مَحظوظينَ عِنْدَ اللّهِ، ولَم يَتَفَطَّنوا إلَى أَنَّ أَحوالَ الدُّنيا مُسَبَّبَةٌ عَلى أَسبابٍ دُنْيَويَّةٍ لا عَلاقَةَ لَها بِأَحوالِ النّاسِ[1].

دلالةُ صيغةِ التَّفضيل:

كثرةُ الأموالِ والأولادِ توهِمُ الفضيلةَ المانعةَ مِن تحصيلِ الفضيلة

جاءَ قولُه تعالى: ﴿أَكۡثَرُ﴾ على وزنِ أفعل، ويمكن أن يكونَ معناهُ الزيادة المُطلَقَةُ، أي: غير المُقَيَّدة بمفضَّلٍ عليه، واسمُ التفضيلِ مسلوبُ المفاضلة، وقصدُ المُترفين من التَّعبيرِ بهِ: الإخبارُ بأنَّ لديهم مِن الأموالِ والأولادِ ما لا يُقادر قدرُهُ، ولا يُمكن حصرُهُ، والمعنى: أموالُنا وأولادُنا كثيرةٌ جدًّا، ويمكن أن يكون قصدُهم المفاضلةَ بينهم وبين الرُّسل وأتباعهم، والمُفَضَّل عليه محذوفٌ، تقديرُه: نحن أكثر أموالًا وأولادًا منكم[2]، وأيًّا كان نوعُ الأسلوب، فغرضُ المترفين من قولِهم: ﴿أَكۡثَرُ﴾ الاستدلالُ بالوفرةِ والكثرةِ، أو التي تفوق ما لدى الرَّسول وأتباعهِ على صحَّة مسلكِهم ورضوانِ اللّه عنهم في الدُّنيا والآخرة[3]، ما يعني: أنَّه لا ضرورةَ لإيمانهم بالرَّسول، ولا داعيَ لتركِ ماهم عليه إلى ما جاءَهُم بهِ.

نكتةُ الجمعِ بين الأموالِ والأولاد:

الخيرُ في نظرِ المُتَرَفين ينحصرُ في الخيرِ الماديِّ الحسّيِّ

في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ جمعَ المترفونَ في تعبيرِهم بين الأموال والأولاد؛ للدَّلالة على أنَّهم حازوا النَّعيم كلَّه، وملكوا زينةَ الحياة الدنيا، وصاروا في مأمنٍ من خوفِ الملوك،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 213.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 321.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 422.

وقهرِ الأعداء، وعدم نفوذِ الكلمة، والكَدِّ في تحصيل المقاصدِ ونحوِ ذلك[1]، وهذا مِن شأنه أن يغنيَهم عن اتِّباع الرسولِ، ولا يُحْوِجَهم إلى الإيمان بما جاءهُم بِهِ؛ لأنَّه علامةٌ على اصطفاء اللّٰه تعالى لهم ورضاه عنهم وعمّا يدينون به ممّا وجدوا عليه آباءَهم.

نكتةُ استعمالِ لفظِ الأولاد دون الأبناءِ:

الأولادُ أشملُ مِنَ الأبناء وأكثرُ عددًا في العزَّة والقوَّةِ

في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمال لفظِ الأولاد دون الأبناءِ؛ ليشملَ الذكورَ والإناث، والأبناءَ والأحفاد، وأبناءَ الرُّجلِ وما يعمُّ من أبناء العصبةِ الواحدة، فالأولادُ ملحوظٌ فيه الولادةُ التي تربط بين الولدِ والوالدِ في بلد أو قبيلة واحدةٍ، فهُم أكثر عددًا وأقوى منعةً، فهُم مولودون لتكثيرِ سوادِ القبيلة، أو القرية، وبه يكتسبون المنعةَ والقوَّةَ التي بها يستغنونَ عن غيرِهم، وهذا الاستغناءُ هو الذي يُشعر صاحبَه بالكبرِ والطُّغيانِ، ويورِّثه العجرفةَ والبُهتانَ.

نكتةُ تقديمِ الأموال على الأولاد:

الأموالُ مع الأولاد قوَّة، والأولاد بلا أموالٍ فقرٌ وعيلة

قَدَّم النَّظمُ ذكرَ الأموال في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾؛ لأنَّها في الأغلبِ الأعمِّ سببٌ في كثرة الأولاد، بالاستكثار من النِّساء الحرائر والإماء، اللّاتي يلِدْنَ الأولاد، ويقمْنَ على تربيتهم ورعايتهم[2]، فالأموال هي وسيلةُ تكثيرِ الأولاد، وتربيتهم، وقد تكون أعزَّ عند كثيرٍ مِنَ النّاس من الأولاد، ذلك أنَّه بالأموال تُشترى النُّفوس، وتُكتسب القوَّة، ويُؤتى بالعزَّة، وأولاد بلا أموالٍ ذلٌّ وقهرٌ وعَوَز عند من يريد السَّيطرة والقوَّة.

نوعُ الواوِ ومعناها:

التَّصريحُ بنفي العذابِ بعد التَّلويحِ به

الواو في جملة: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لعطفِ ما بعدَها على جملةِ:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 321.
(2) البقاعي، نظم الدرر 5/ 513.

﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾؛ لأنَّ كلتيهما مِن كلامِ المترَفِينَ، كما أنَّ الثانيةَ في حُكمِ المسبَّبة عن الأولى، والمترتِّبة عليها، وإنَّما جيءَ فيه بحَرفِ العَطفِ لِتَرجيحِ جانِبِ الفائِدَةِ المُستَقِلَّةِ على جانبِ الاستنتاجِ الَّذي يومِئُ إليهِ ما تَقَدَّمَهُ[1].

نوع (ما) ودلالتها:

(ما) في جملة: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ هي النّافية العاملةُ عملَ ليس، وآثر النَّظمُ النَّفي بها على لسانِ أولئك؛ لأنَّ مِن خصائصِها نفيَ الجمل الاسميَّة والفعليَّة، وهي آكدُ في النَّفي مِن (ليس)، وأوسعُ استعمالًا منها؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجملِ الاسميَّة فحسب[2].

المترفون ينفون عذابَهم في الدُّنيا والآخرة

دلالةُ تقديم النَّفي على الضَّمير:

في تقديم ضميرِ المتكلِّمين: ﴿نَحۡنُ﴾ وإيلائِهِ حرفَ النَّفي اهتمامٌ وتأكيدٌ لنفي العذابِ عنهم في الآخرةِ قياسًا على حالِهم في الدُّنيا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنين ليسوا كذلِك، ومعنى كلامِهم: نحن في نعمةٍ لا تشوبُها نقمة، وهو دليلُ كرامتِنا على اللّهِ ﷻ ورضاه عنا، فلو كان ما نحن عليهِ مِنَ الشِّرك وغيره ممّا تدعونا إلى تركِه مخالفًا لرضاه؛ لَما صِرْنا فيما نحنُ فيه مِنَ النِّعمة[3].

يعتقدُ المترفون أنَّهم على خيرٍ لم يكن لغيرِهم

دلالةُ حرفِ (الباء):

جيءَ بحرف (الباء) في قوله تعالى: ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ لتأكيد المُترفين انتفاءَ عذابِهم انتفاءً لا يقبل المِراءَ أو الجدل، قياسًا على النَّعيم الذي خُصّوا به في الدُّنيا، والمَنَعَةِ التي يعيشون فيها.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ العذابِ:

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ خبرًا لـ (ما)

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 213.

(2) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 231.

النافية، لما فيه مِنَ الدِّلالة على أنَّ المترفين يعتقدون أنَّهم بمنأى عن العذابِ الذي يُنذرهم به المرسلونَ، ويتوعَّدونهم بحصولِه لهم إن هم استمرّوا على كفرِهم، ولم يُؤمنوا بهم؛ لأنَّهم يقيسونَ حالَهم في الآخرة على الحالِ الَّتي هم عليها في الدُّنيا، ما يفيد بقاءَهم على الكفرِ وإصرارَهُم عليه؛ بسبب هذا القياس الفاسدِ، فدلَّت هذه المفردةُ على أنَّ المترفين يردّون على المرسلين ما يُنذرونَهم بِهِ مِن نزولِ العذابِ القريب في الدُّنيا أو في الآخرةِ، فاختيارُ هذه المفردةِ يومِئ إلى الحوارِ الَّذي دارَ بين المرسلين والمترفينَ، ويُرشِّحُ ذلك اختيارَ لفظ ﴿نَّذِيرٍ﴾، فهو الأنسبُ بأن يكونَ قد أنذرَهُم عذابَ اللّٰه تعالى.

المفردةُ القرآنيَّة تكشفُ عن الحوارِ المستور، وتعينُ على تقدير المحذوف

دلالةُ اسمِ المفعولِ في ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾:

صيغَ لفظُ ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ باسم المفعولِ؛ للإشارة إلى يقينِهم بانتفاءِ العذابِ عنهم في كلِّ الأحوالِ، إمّا لأنَّ العذابَ لا يكونُ أصلًا، أو لأنَّه أكرمنا بالنَّعيم، فلا يهينَنا بالعذاب[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القريةُ والمدينةُ:

القريةُ: كُلُّ مَكانٍ اتَّصَلَتْ بهِ الأَبنيَةُ، واتُّخِذَ قرارًا، وتَقَعُ عَلَى المُدُنِ وغيرِها، والجَمعُ قُرًى[2]، وسُمّيَت قَريَةً لاجتِماعِ النّاسِ فيها[3]، ولا يُلحَظُ فيها التَّحَصُّنُ، وعبَّر بها القرآنُ مفردةً ومثناةً ومجموعةً فيما يقارب الخمسين موضعًا.

المدينةُ المكانُ الأعمُّ في اجتماع النّاس، والقريةُ يُلحظ فيها التقارب بين أهلها

أمّا المدينةُ؛ فهي اسمٌ للمِصرِ الجامعِ المُحَصَّنِ، وأصلُها: الحصنُ يُبنى في أُصطُمَّة الأرض (أُصطُمَّة كلِّ شيءٍ: مُعظَمُهُ)، وكلُّ أرضٍ يُبنى بها حِصنٌ في أُسْطُمَّتِها، فهي مدينةٌ، أطلقها القرآنُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 249.
(2) الحموي، المصباح المنير: (قري).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قري).

على العواصم ونحوها[1]، واستعملها مفردةً ومجموعة بضع عشرة مرَّة، وهذا يعني أنَّ القريةَ أعمُّ مِنَ المدينة، وأقلُّ سُكّانًا منها.

الإنذارُ والتَّخويف:

الإنذارُ إعلامٌ بموضعِ المخافةِ، والتَّخويف أعمُّ

الإنْذارُ: تخويفٌ مَعَ إعلامِ مَوضِع المخافة، مِن قَوْلك: نُذِرْتُ بالشَّيْءِ؛ إذا عَلمتَهُ، فاستعددتَ لَهُ، فَإذا خَوَّف الإنسانُ غيرَهُ، وأعلمَهُ حال ما يخوِّفه بِهِ؛ فقد أنذرَهُ، وإن لم يُعلِمْهُ ذَلِك؛ لم يقلْ: أنذره، والنَّذر: ما يَجعلُهُ الإنسانُ على نَفسِهِ؛ إذا سَلِمَ ما يخافه، والإنذار: إحْسانٌ مِنَ المُنْذِرِ، وكلَّما كانَت المخافة أَشدَّ؛ كانَت النِّعمَةُ بالإنذارِ أعظمَ، ولِهذا كانَ النَّبيُّ أعظمَ النّاس مِنَّةً بإنذارهِ عِقابَ اللّه تَعالى[2].

أمّا التخويفُ؛ فهو بثُّ الرُّعبِ والخوف في نفوس الآخرين، من غير إعلامٍ بموضعِ المخافةِ، وقد يكون مقصودًا لذاتِهِ، وقد يكون لمصلحةٍ تعودُ عَليهم[3].

ولمّا كان السّياقُ لبيان انصرافِ أهلِ القُرى عنِ الرُّسل الذين جاؤوا لهدايتِهم؛ كان التَّعبيرُ بالإنذار أنسبَ؛ لدلالتِهِ على حصول الانصرافِ مع تحقُّق حبِّ الرُّسلِ لأقوامِهم وحِرصِهم عليهم، وعدم قصدهِم التَّخويفَ مِن أجلِ إفزاعِهم، ولكن مِن أجلِ المصلحةِ الَّتي تعود عليهم.

الترفُ والغِنى:

الأوَّلُ مرتبطٌ بالفساد والطُّغيان، والثاني لا يُشترطُ فيه ذلك

التَّرفُ: هو التَّنَعُّم والتَّوَسُّعُ في ملاذِّ الدُّنيا وشهواتها، وهو مرتبطٌ في الأغلبِ الأعمِّ بالرؤساءِ وقادة الشَّرِّ والفاسدين في القرى والمدن[4].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مدن).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242، والعسكري، الوجوه والنظائر، ص: 204.
(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ترف).

أمّا الغنى؛ فقد يكون مادّيًا، وقد يكون غير مادّيٍّ؛ لأنَّه يكون بِالمالِ وغَيره من القوَّة والمعونة[1]، ولا ارتباط بينه وبين الرؤساءِ وقادة الشَّرِّ والفاسدين، فقد يكون الغنيُّ صالحًا، وقد يكونُ غيرَ ذلك، وقد يُظنُّ الرَّجلُ غنيًّا، وليس عندَهُ مالٌ، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273]، ما يعني: أنَّ الغنيَّ ليس مُفْسِدًا باطِّراد، وليس سببًا في استكبارِ الناس ومعاندتهم الإيمانَ بالرُّسلِ، كالتَّرف الذي يكون سببًا في ذلك على الدَّوام، وهو ما يجعلُ التَّعبيرَ بـ (المترفين) أدقَّ وأنسبَ للغرض الذي تقصد إليه الآيةُ، مِن بيانِ أنَّ الانصرافَ عن الإيمان راجعٌ إلى فساد المترفين وانحرافهم، وليس إلى خللٍ في الرِّسالة أو الرسول.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 175.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٦﴾ [سبأ: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إبطالُ وهمِ أنَّ الرِّزقَ سببُ الفضيلةِ وعلَّة الخيريَّة

بعد أن بيَّنت الآيتان السابقتان تبجُّحَ المترفين واغترارَهم بما أنعمَ اللّهُ تعالى عليهم مِنَ الأموالِ والأولادِ، وادِّعاءَهم أنَّ اللّه سبحانه لن يعذِّبهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ لأنَّهُ أنعمَ عليهم بوافرِ المالِ والولد؛ ناسب بيان حقيقةِ رزقِ العباد، فأتَتْ هذهِ الآيةُ؛ لتأمر النَّبيَّ ﷺ بأنْ يُصَحِّحَ لهؤلاء المترفين خَطَأَهم، ويكشفَ لَهُم عن جَهْلِهم، ويبيِّنَ أنَّ موضوعَ الرِّزق فضلٌ مِنَ اللّه تعالى، يقسمُهُ كما يشاء بعلمِه وحكمتِه، فلا ينقاسُ عليه نعيمُ الآخرةِ وعذابها الَّذي مبناهُ على الاستحقاق، والمترتِّب على الإيمانِ والكفر[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبْسُطُ﴾: (بسط) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو: امتِدادُ الشَّيءِ، في عِرَضٍ أَو غيرِ عِرَضٍ، فالبِساطُ ما يُبسَطُ، والبَساطُ الأَرضُ، وهيَ البَسيطَةُ، يُقالُ: مَكانٌ بَسيطٌ وبَساطٌ، ويَدُ فُلانٍ بِسْطٌ: إذا كانَ منفاقًا، والبَسْطَةُ في كُلِّ شيءٍ: السَّعَةُ[2]، والباسِطُ: اللّهُ تعالى يَبسُط الرِّزقَ لِمَن يشاءُ، أي: يوسِّعُهُ، قال سبحانه: ﴿۞وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 27]، أي: لو وسَّعَهُ[3]، وهو المقصودُ في الآيةِ.

2) ﴿وَيَقْدِرُ﴾: (قدر) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ، يُقالُ: قَدْرُهُ كذا، أَي: مَبْلَغُهُ، وكذلكَ القَدَرُ، وقَدَرْتُ الشَّيءَ أَقدِرُهُ وأَقدُرُهُ مِنَ التَّقدير، قال تعالَى: ﴿وَمَن

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 586، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 298.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسط).
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط، والرّاغب، مفردات القرآن: (بسط).

﴿قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: 7]، فَمَعناهُ: قُتِرَ، وقياسُهُ: أَنَّهُ أُعطيَ ذلك بقدْرٍ يسيرٍ[1]، واستُعْمِلَ التَّركيبُ في معنى التَّضييقِ مِن كونِ الشَّيءِ على قَدْرِ الشَّيءِ دونَ زيادةٍ، قال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: 16]: ضَيَّقه[2]، وهو المرادُ في الآيةِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَسْطُ الرِّزق وقَدْرُه لا يتعلَّقُ بالهدى والضَّلال

تُخاطِبُ الآيةُ الكريمةُ رسولَ اللهِ ﷺ أن يُخبرَ هؤلاءِ الجاهلين بأنَّ بَسْطَ الرِّزْقِ وتقْتيرَهُ شَأْنٌ آخرُ مِنْ تصرُّفاتِ اللهِ المَنوطَةِ بما قَدَّرَهُ في نظامِ هَذا العالَمِ، فَلا مُلازَمَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الرُّشْدِ والغَيِّ، والهُدَى والضَّلالِ، ولو تَأمَّلْتُم أَسبابَ الرِّزقِ؛ لَرَأَيتُموها لا تُلاقي أَسبابَ الغَيِّ والاهتِداءِ، فرُبَّما وسَّعَ اللهُ الرِّزْقَ عَلى العاصي، وضَيَّقَهُ عَلى المُطيعِ، ورُبَّما عَكَسَ، وربَّما يوسِعُ على شخصٍ في وقتٍ، ويُضيِّق عليه في وقتٍ آخرَ، فَلا يغرَّنكم هَذا وذاكَ، فإنَّكُم لا تَعلَمونَ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

الاستئنافُ لتصحيحِ المفاهيمِ والجوابِ عن السّائلين

جاءتْ جملةُ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنَّها استئنافيَّةٌ، وتحتَمِلُ الاستئنافَ النَّحويَّ على اعتبارِ أنَّها تُنشِئُ تصحيحًا للمفاهيمِ المغلوطَةِ، فهي مفصولةٌ لكمالِ الانقطاعِ، أو الاستئنافَ البيانيَّ على اعتبارِ افتراضِ سؤالٍ، وهو ماذا يُقالُ لهؤلاءِ الذين يزعمون عدمَ تعذيبِهم؛ بسبب ما أُعطوا من أكثريَّةِ المالِ والولدِ؟ فتأتي هذه الآيةُ لتوضِّحَ الحكمةَ الرَّبّانيَّةَ في تقسيمِ الأرزاقِ على النّاسِ، ومِنْ ثَمَّ فُصِلَت عمّا قبلها، كما يُفصَلُ الجوابُ عن السؤالِ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قدر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 213، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 298.

تقويةُ حُجَّةِ الرَّسولِ في دحضِ قياسِ المُتْرَفين الفاسدِ

غرضُ الأمرِ ودلالته:

فعلُ الأمرِ الموجَّهُ إلى رسولِ اللّه ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ إرشادٌ لتصحيحِ ما شاعَ بين الأممِ السّابقة، وما يرغبُ في توهُّمه المعاصرون من مشركي قريشٍ، وجميعِ النّاس؛ لأنَّ حالَ مُتْرَفي قريشٍ معَهُ يُشبه حالَ المُتْرَفين مع رسلِهم، ومِن ثمَّ كان الأمرُ بضرورة إبطالِ هذا القياسِ ببيانٍ واضحٍ صريحٍ، ليس فيه لبسٌ ولا غموضٌ، والغرض من أمرِه بذلك؛ الاهتمامُ والعنايةُ، كأنَّه وصيَّةٌ خاصَّةٌ في هذا الأمر؛ لأنَّه إذا كانَ اللّه هو الَّذي يُلَقِّنُه الحُجَّة؛ كان ذلك أبلغَ في تقويتِه، فكأنَّ اللّه يُلَقِّنُه الحجَّةَ ليُحاجَّ بها، لكِن على لسانِه[1].

عند حلولِ الإنكارِ ينزلُ التَّوكيدُ ليُبرهنَ على المعنى الحقيقِ

غرضُ توكيدِ الخبر:

جاء الكلامُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ مُؤكَّدًا بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميَّة وتقديم المسند إليه على الخبرِ الفعليِّ؛ لأنَّه موجَّهٌ إلى الكافرين الذين يُنكرون أنْ يوسِّعَ اللّهُ في الدُّنيا على مَنْ لا يرضى فعلَه[2]؛ لأنَّهم يقيسونَ الثَّواب والعقابَ في الآخرة على نعيمِ الدُّنيا وشقائها، ولا يوجدُ بينَ الأمرين أدنى علاقةٍ، فالثَّوابُ والعقابُ مرتبطان بالإيمان والكفر، أمّا بسطُ الرِّزق وتضييقُهُ في الدُّنيا فمَرَدُّهما إلى إرادةِ اللّهِ تعالى ومشيئته.

اللّهُ تعالى هو المُتَكَفِّلُ بالأرزاقِ رعايةً لمصالحِ خلقِه، وحفظًا لحياتِهم

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّة:

اختار النَّظمُ الكريمُ في جملة: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ﴾ استعمالَ عنوانِ الرُّبوبيَّة، الموضوعِ للعناية والرِّعاية والتَّعهُّد[3]؛ للدَّلالة على أنَّ الرِّزقَ مِنَ الأمور التي تَكَفَّلَ اللّهُ بها رعايةً لمصالح خلقِه، وحفظًا لحياتِهم، بقطعِ النَّظر عن إيمانِهم وكفرِهم، ما يعني: أنَّ بسْطَ الرِّزقِ أو تضييقه لا علاقةَ لهُ بالهدى والضَّلال.

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم "سورة الفرقان": 45.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 514.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (رب).

دلالةُ إضافةِ لفظ الربوبيّة إلى الضَّمير:

تشريفُ خيرِ الخلقِ بالرُّبوبيَّة لا يعني تفضيلَهُ على الخلقِ بمقتضيات الرُّبوبيَّة

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بوصفِ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِ النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ﴾ دون (ربكم) أو (ربي وربكم)؛ تشريفًا للرَّسول الحاملِ للرِّسالة، النّاقلِ للبيانِ الإلهيِّ، وللإشارةِ إلى أنَّ الكافرين المُنكرين ليسوا أهلًا لشرفِ الإضافة إلى الاسم الجليلِ؛ بسبب كفْرِهم بالرَّسول، واغترارِهم بِنِعَمِ اللّهِ عليهم، واعتقادِهم الجازم انتفاءَ عذابِهم في الآخرةِ قياسًا على حالهِم في الدُّنيا، وغير ذلك ممّا يوجب حِرْمانَهم شرفَ الإضافةِ إلى الاسم الرَّبِّ، ويمنعُ نِسْبَتَهم إليه.

بلاغةُ الاستعارةِ التصريحيَّةِ:

إبرازُ سَعَةِ الرِّزق في صورةٍ محسوسةٍ يدركُها المخاطَبُ

في التَّعبيرِ بالفعل: ﴿يَبْسُطُ﴾ استعارةٌ، شُبِّهَ فيها تَيْسيرُ الرِّزقِ وتَكْثيرُهُ بالبسط، الذي يعني: نشْرَ الثَّوبِ وغيره، فاستُعيرَ البَسْطُ لتيسيرِ الرِّزقِ وتوسيعِهِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ الَّتي تبرزُ معنى التَّوسيعِ والتَّيسير في صورة محسوسةٍ ملموسةٍ يدركُها المخاطَبُ، ويعيها؛ إذ المَبسوطُ تَكثرُ مِساحَةُ انتشارِهِ، وتَتَّسِعُ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

بسْطُ الرِّزق وقدرُهُ متجدِّدٌ متغيِّرٌ لا يثبت لأحد

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ عن تيسير الرِّزق وتوسعته بالمُضارع: ﴿يَبْسُطُ﴾؛ لما يمتازُ بهِ مِنَ الدَّلالة على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ الَّذي يعني: أنَّ اللّه تعالى يُجدِّدُ رزقَ مَن يشاء من خلْقِهِ بالأموال والأولاد وغيرِهما في كلِّ وقتٍ أراده[2]، وليس شرطًا أن يكونَ ذلك علامةً على رضاهُ عن المُوَسَّعِ عليه، أو تفضيلِه له على غيرِهِ مِنَ الخَلقِ، فهو باعتباراتٍ ربّانيَّةٍ، لا نعلم حقائقَها، لكنَّنا نؤمن بها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 214.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 514.

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾:

الـرِّزقُ شاملٌ للأموالِ والأولادِ وغيرهما ممّا يتمتَّع به الإنسانُ

(أل) في ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ لتعريفِ الجنسِ، وهي تدلُّ على أنَّ اللّهَ تعالى يوَسِّع على مَن يشاءُ مِن خَلْقِه، ويعطيهِ مِن جميعِ أنواعِ الرِّزقِ وصنوفِهِ، فيوسِّع عَليهِ في الأموالِ والأولادِ وفي غيرهما، لدرجةِ أنَّ الآدميَّ قد لا يعرفُ مصادرَ التَّوسعة وأسبابَها، وكذلك يُضَيِّقُ مِنَ الرِّزق ما شاء على مَن شاء، كلُّ ذلك بعلمِهِ وحكمتهِ وقدرتهِ ﷻ.

نوعُ (اللامِ) ومعناها:

رزقُ العبادِ عائدٌ لإرادةِ الله تعالى وحدَه

(اللام) في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الاختصاصَ، وفيه دلالةٌ على أنَّ اللّه تعالى يَختصُّ مَنْ يشاءُ مِن خَلْقِه بالزيادة في الأموالِ والأولادِ، اختصاصًا لا يدلُّ على تفضيلٍ أو رِضًا، ولكنَّه اختصاصٌ يَرى به ماذا يفعلُ؟ وكيف يشكر ما اختُصَّ به دونَ غيرِه؟ فقد يَخْتَصُّ اللّه تعالى مَنْ يشاءُ ابتلاءً وامتحانًا، فلا يدلُّ البَسْطُ على الرِّضا، ولا القَدْرُ على السُّخط، على ما عُرف مِنْ سنَّته في هذهِ الدّار[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول:

بَسْطُ الرِّزقِ وقَدْرُه يعمُّ جميعَ الخَلقِ بلا استثناء

أوثرَ التَّعبيرُ عن المجرورِ باسم الموصولِ العامِّ في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ للدَّلالةِ على عموم البسطِ والقدر كلَّ البشر دون استثناءٍ، فبسطُ الرِّزقِ وقدْرِه ليس خاصًّا بأحدٍ دونَ أحدٍ، ولا بطائفة دونَ طائفةٍ، فقد يكون للمطيع، وقد يكون للعاصي، ولا علاقة بينَهُ وبين الكفرِ والإيمان، أو الهدى والضَّلال.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل المشيئةِ دونَ الإرادةِ:

بسْطُ الرزق وقَدْرُه يكونان لحكمةٍ وفائدةٍ في وقتهما المناسب

عبَّر النَّظمُ في صلة الموصولِ بفعلِ المشيئة المُسندِ إلى ضمير الربِّ في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه سبحانه يضعُ كلَّ شيءٍ في موضِعه اللّائقِ المناسبِ، فلا يوسِّع الرِّزق إلّا لحكمةٍ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 514.

ولا يُضَيِّقُه إلّا لفائدةٍ، وذلك هو شأنُهُ تعالى في كلِّ الأمور، ومع جميعِ الخَلقِ، وعبَّر بفعلِ المَشيئةِ دونَ فعلِ الإرادةِ؛ للإشارة إلى أنَّ البسطَ لا يحصل إلّا في الوقتِ الذي تتحقَّقُ بهِ مصالحُ العباد؛ إذ "الإرادَة تكون لما يتراخى وقتُه، ولما يتراخى أمرُهُ، والمشيئةُ تكونُ لما لمْ يتراخَ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ المشيئة مضارِعًا:

بسْطُ الرِّزقِ وقَدْرُه يتجدَّدان بتجدُّد مشيئة الله تعالى

عبَّر النَّظم الكريمُ بالفعل: ﴿يَشَآءُ﴾ مُضارعًا؛ لما يمتازُ به من الدِّلالة على تجدُّد مشيئتِه تعالى وعدم اقتصارِها على حالٍ واحدة، بمعنى: أنَّه قَدْ يوسِّع على العاصي، ويُضيِّق على المطيع، وقد يوسِّع عليهما معًا، وقد يُضيِّق كذلك عليهما معًا، وقد يُضيِّق على الواحد أوَّلًا، ثمَّ يوسِّع عليه آخرًا، وقد يوسِّع عليه أوَّلًا، ثم يضيِّق عليه آخرًا، وهكذا حسبما تتجدَّدُ مشيئته سبحانه وبحمده.

دلالةُ واو العطفِ:

قَدْرُ الرِّزقِ آخذٌ حكمَ البسط وجودًا وعدمًا وهو منوطٌ بالمشيئة

حرفُ (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ لعطف فعل (يقدر) على فعل: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾، وجيءَ به؛ للدَّلالة على أنَّ تضييقَ الرزقِ وقدرَه راجعان كذلك إلى مشيئةِ اللّٰه تعالى وحكمته، فلهما حكمٌ واحدٌ من حيثُ سببُ الصُّدورِ، وأنَّه غيرُ مُتسبِّبٍ عن الهدى والضَّلال، شأنُه شأنُ البَسطِ، ويجري عليه مِنَ الحِكمةِ والمشيئة ما يجري على التَّوسعةِ والبَسطِ، فالرِّزْقُ في الدُّنيا لا تدلُّ سِعَتُهُ، ولا يَدُلُّ ضيقُهُ عَلَى حالِ المُحِقِّ والمُبْطِلِ، فَكَم مِن موسِرٍ شَقيٍّ، وكم مِن مُعْسِرٍ تَقيٍّ[2].

لطيفةُ التَّعبيرِ بفعلِ القَدْرِ مضارِعًا:

أوثِرَ التَّعبيرُ بفعل القَدْرِ مضارعًا ﴿وَيَقۡدِرُ﴾؛ لِما يدلُّ عليه

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 209.

ربطُ قَدْرِ الرِّزق وبسطِه بالرِّضا والسُّخط من مزالقِ الأفهام

المضارعُ من الاستمرارِ التَّجدُّدي، الذي يفيد: أنَّ اللّهَ تعالى يتجدَّدُ تقديرُهُ رزقَ مَنْ يشاء مِنْ خَلقِهِ في الأموال والأولاد وغيرهما، في أيِّ وقتٍ يريده، وليس شرطًا أنْ يكونَ ذلك دليلَ سخطِه سبحانه على مَنْ قدَر عليه رزقَهُ، كما أنَّ البسطَ ليس دليلَ رضاهُ على مَن أَفْسَحَ لهم في العطاء، فإذا بسطَ اليوم؛ فقد يكونُ القدْرُ غدًا، والعكس بالعكس.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿وَيَقْدِرُ﴾:

تقديرُ الرِّزقِ تقليلٌ وتضييقٌ ليكونَ على قدر حاجةِ العبادِ

في قوله تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ استعارةٌ، حيث شُبِّهَ فيها عُسْرُ تحْصيلِ الرِّزق وقِلَّةُ حاصِلِه بالتَّقْدير، الذي يعني التَّحْديدَ والإعطاءَ على قدر الحاجة؛ لأنَّ الشيءَ القليل يَسهُل عدُّهُ وحسابُهُ، فاستُعيرَ القَدْرُ لعُسر التحصيل وقلَّتِه على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التَّبعيَّة، التي تبرز قلَّةَ الرِّزق وضيقَه، بحيث يكون على قدر المطلوبِ؛ لأنَّ الشيءَ القليلَ يسهُل عدُّه وحسابُه، ولذلك قيل في ضدِّه: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾ [البَقَرَة: 212][1].

نكتةُ حذفِ متعلِّق فعل ﴿وَيَقۡدِرُ﴾:

الـرِّزقُ المبسوطُ قد يأتيه زمانُ التَّقدير

مَفعولُ ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عَلَيهِ مَفعولُ ﴿يَبۡسُطُ﴾، والمعنى: يَقدِر الرِّزقَ لِمَنْ يشاء، وفي حَذفِهِ ودلالةِ مفعول فعلِ البَسطِ المذكورِ عليه تأكيدٌ على أنَّ قَدْرَ الرِّزقِ يجري عليه ما يجري على بَسْطِهِ مِنَ الخضوع لمشيئةِ اللّهِ تعالى وحكمته، وأنَّ وراءَهُ أسبابًا لا يُحيطُ بها النَّاسُ، ولا علاقةَ بينه وبين الهدى والضَّلال، أو الكفر والإيمان، ولبيانِ أنَّ هذا الرِّزقَ المبسوطَ هو نفسُه قد يأتيه يومٌ يُقدر فيه على صاحبِه.

نوعُ الواوِ ودلالتها:

أكثرُ النَّاسِ يجهلون مرادَ اللهِ وحكمته في البسطِ والقَدْرِ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يمكن أن تكونَ استئنافيَّة، جيءَ بها للتَّنبيهِ إلى جهلِ أكثرِ النّاس بحكمةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 214.

اللّه ومرادِه في توزيع الأرزاقِ على خلقِه، ويمكنُ أن تكونَ للحال، والجملةُ بعدها تدلُّ على أنَّ حال أكثرِ النّاسِ هو الجهلُ بمراد اللّه تعالى وحكمتِه في بسطِ الرِّزق وقَدْرِه.

فائدةُ إيثارِ أسلوب الاستدراكِ:

إبطالُ ما هو منتشرٌ بين النّاس بأنَّ البسطَ والقدرَ متعلّقان بالرِّضا والسُّخط

آثر النَّظمُ الكريم أسلوبَ الاستدراك بحرفِ (لَكِنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ دون الخبر، فلم يقل: (وأكثرُ الناس لا يعلمون)، وذلك للتَّنبيهِ على أنَّ أكثرَ النّاس يعتقدون خلافَ ذلك، فهُم يظنّون أنَّ البسطَ والقدر مرتبطان بالرِّضا والسُّخط، وبالهدى والضَّلال، ولا يعلمون أنَّهما راجعانِ لمشيئةِ اللّهِ تعالى وحكمته، فحمل حرفُ الاستدراك دلالةَ التَّجهيل لما هو سائدٌ ومنتشر بين النّاس.

دلالةُ استعمالِ مفردة الكثرةِ بصيغة (أفعل):

الفضيلةُ ثابتةٌ للقلَّةِ القليلة ومنفيَّة عن الكثرة المتكاثرة

جاء لفظُ ﴿أَكۡثَرَ﴾ على وزنِ أفعلَ، وهو يدلُّ على الكثرةِ المُطلَقَة ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، غيرِ المُقيَّدةِ بمفضَّلٍ عليه، أي: إنَّه مسلوبُ المُفاضلة، والمعنى: أنَّ الغالبيَّةَ العظمى مِنَ النّاس لا يعلمونَ أسبابَ تفضيلِ بعضِ الخَلقِ في الرِّزق مع كونِهم عصاةً كافرين، وأسبابَ التَّضييقِ على آخرين مع كونِهم مطيعينَ مؤمنينَ؛ لأنَّهم تَوَهَّموا أنَّ بَسْطَ الرِّزْقِ عَلامَةٌ عَلَى القُرْبِ عِندَ اللَّهِ، وأنَّ ضِدَّهُ عَلامَةٌ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ[1]، والتَّعبيرُ به على وزنِ أفعلَ يدلُّ على أنَّ قِلَّةً مِنَ النّاسِ - وهم المؤمنونَ - يَعرفون أنَّه لا ارتباطَ بينَ بسطِ الرِّزقِ وقَدْرِه ورضا اللّه وسُخطِه، وأنَّ أحوالَ النّاس في الآخرةِ مردُّها إلى الكفرِ والإيمان، لا إلى شيءٍ آخرَ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ معرَّفًا تعريفَ الجنسِ، وفي التَّعبير بها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 214.

النّاسُ لفظٌ عامٌّ خُصَّ منه القليلُ العالمُ بحكمةِ الله تعالى

دلالةٌ على أنَّ الناس على اختلافِ أنواعِهم وأحوالِهم وجنسيّاتِهم وأزمانِهم في الجهلِ بارتباط بسْطِ الرِّزق وقدرِهِ بمشيئة اللّهِ وحكمتِهِ سواءٌ، لا فرقَ في ذلك بين الرِّجال والنِّساء، والشَّباب والشُّيوخ والأغنياءِ والفقراءِ، والكُبراء والضُّعفاء، والمُترفين والمحتاجينَ، وفي إضافةِ ﴿أَكۡثَرَ﴾ للفظ النّاس إيماءٌ إلى هذا العمومِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بفعل العلمِ منفيًّا:

من نُفي عنه العلمُ ثبتَ عليهِ العجزُ، وليس له إلّا التَّسليمُ

أوثِرَ التَّعبيرُ بفعل العلمِ المنفيِّ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنَّ انتفاءَ العِلم يؤكِّد انتفاءَ القدرةِ على إدراكِ الأسبابِ الَّتي مِن أجلها يفاضلُ اللّهُ تعالى بين خلقِهِ في الرِّزق؛ لأنَّ ذلك ممّا يعجز الناس عنه، وممّا خصَّ الله به نفسَهُ، والمعنى: ليس لهم عِلمٌ ليتدبَّروا بِهِ ما ذكرنا مِنَ الأمرِ، فيعلموا أنّه ليس كلُّ موَسَّعٍ عليه في دنياه سعيدًا في عُقباه[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مُضارعًا:

الجهلُ هو السِّمةُ الغالبةُ في أكثر الناس في كلِّ زمن

جاء النَّظم الكريمُ بفعل العلم المنفيِّ مضارعًا في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ عِلم النّاس واستمرارِهِ في كلِّ زمانٍ بأنَّ اللّه تعالى يبسطُ الرِّزق لِمن يشاءُ مِن خلقِهِ ويَقْدِرُهُ على مَن يشاءُ منهم؛ لحكمةٍ لا يعلمها غيرُهُ، ولفوائدَ لا يحيط بها أحدٌ سواه، والواقعُ الحاصل أنَّ غالبيَّةَ الناس في كلِّ العصورِ يُرجعون البَسط إلى رضا اللّه تعالى، والقَدْرَ إلى غضبِهِ وسخطِهِ، وذلك ليس بصحيحٍ، ولأجلِهِ أَمَرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ أنْ يَقولَ ويوَضِّحَ.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

الجهلُ رأسُ الكفرِ، والشَّهوةُ والشُّبهةُ جناحاه

مَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عَليهِ الكَلامُ، أَي: لا يَعلَمونَ أَنَّ اللّهَ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ ويَقدِرُ، باعتِبارِ عُمومِ قولِه: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مَن كانَ صالِحًا أَو طالِحًا[2]، وأوثِرَ حذفُ المفعولِ؛ للتَّعميمِ الدّالِّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 514 وما بعدها.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 214.

على أنَّ الجهلَ سببٌ رئيسٌ في كفْرِ المترفين وغيرهم بالرُّسلِ، وسببٌ رئيسٌ في جعْلِهم يزعمون أنَّ مدارَ البسطِ هو الشَّرفُ والكرامةُ، ومدارَ القَدْرِ هو الذِّلَّةُ والهوانُ، ولا يدرون أنَّ الأوَّلَ كثيرًا ما يكونُ بطريقِ الاستدراجِ، والثّاني بطريقِ الابتلاءِ ورفْعِ الدَّرجاتِ[1]، ولا ارتباطَ بينَ حصولِهما في الدُّنيا والسَّعادة والشَّقاء في الآخرة؛ لأنَّ الجزاءَ في الآخرة يقابل الكُفرَ والإيمانَ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البسطُ والتَّوسعة:

البسطُ سَعةٌ وامتدادٌ والتَّوسعةُ سَعةٌ محدودة

بَسْطُ الشَّيءِ يعني: نشْرُهُ وتوسيعُهُ، وهو: امتِدادُ الشَّيءِ، في عِرَضٍ أو غَيرِ عِرَضٍ، والبَسطَةُ في كُلِّ شَيءٍ: السَّعَةُ، والباسِطُ: اللّهُ يَبْسُط الرِّزقَ لِمَنْ يشاءُ، أي: يوَسِّعُهُ[2].

أمّا التَّوسعةُ؛ فهي عَلَى خِلافِ الضّيقِ والعُسْرِ، والوُسْعُ: الغِنَى، واللّٰه الواسِعُ أَيِ: الغَنيُّ[3]، والمعنى المحوريُّ: انفساحٌ وانبساطٌ في جوف الشَّيء الملتحم ليضُمَّ ما يوضعُ فيه، والخطوة الواسعةُ: حيزٌ منبسِطٌ بين موقع الرِّجْل وموقعها التالي[4]، ما يعني: أنَّ التَّوسعةَ تكون في نطاق محدَّدٍ، بخلاف البسط الذي يمكن أن يحصلَ بغير حدود، ومن ثَمَّ كان التَّعبيرُ بـ (البسط) أنسبَ للسياق؛ لأنَّه لا يحصلُ إلّا بمشيئةِ اللّه تعالى وحكمته، ولأنَّه ليس علامةً على حالِ الإنسان في الآخرةِ، على الرَّغم من كونِه يحصلُ بغيرِ حدودٍ.

القدرُ والتَّضييقُ:

القدرُ إعطاءٌ على قدرِ الحاجةِ، والتَّضييقُ يُلحظُ فيه النُّقصان

القدرُ يَدُلُّ عَلى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِه، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ، قال تَعالَى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: 7]، مَعناهُ: قُتِرَ،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 135.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (بسط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وسع).

وقياسُهُ: أَنَّهُ أُعطيَ ذَلِكَ بِقَدْرٍ يَسيرٍ، واستُعْمِل في معنى التَّضييقِ مِن كون الشَّيءِ على قَدْر الشيءِ دون زيادة[1].

والتَّضييقُ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ السَّعَةِ، وهوَ الضّيقُ، والضَّيقَةُ: الفَقرُ[2]، والمعنى المحوريُّ: نقصُ فراغِ الحيِّز من تضامٍّ جوانبِ محيطِهِ، أي: تقاربُها بعضُها إلى بعضٍ: كما في ضيق الدّارِ والثوب والمكان على ما فيهنَّ[3]، ولأنَّ قضاءَ مصالحِ الخَلقِ ورعايتها مِن سماتِ الرُّبوبيَّة؛ كان التَّعبيرُ بفعل (القَدْر) أنسبَ؛ لدلالته على الإعطاءِ على قدرِ الحاجة، بخلاف التَّضييق الذي يكونُ أقلَّ مِنَ الحاجة، وأنقصَ من الضَّرورةِ، والذي قد يكون ضارًّا بمصالحِ الخَلقِ، ومفسدًا لها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قدر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيق).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضيق).

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبأ: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استكمالُ الآيةِ السّابقةِ بيانًا وإيضاحًا بما يُذهب سوءَ الفهمِ ويُلغي باطلَ الوهم

بعد أن أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ في الآية السابقة أنْ يُبيِّن للنّاس أنَّ بسْطَ الرِّزق وقَدْرَه راجعانِ إلى مشيئةِ اللّه تعالى وحكمته، ولا علاقةَ له بالإيمان والكفرِ أو الرِّضا والسُّخط؛ ناسب أن تأتيَ هذه الآيةُ لتزيدَ المعنى وضوحًا ببيانها أنَّ كثرةَ الأموال والأولاد ليس مِن شأنها أنْ تقرِّبَ إلى اللّه تعالى؛ لأنَّها ليست دليلَ محبَّتِهِ لهم، ولا برهانَ رضاه عنهم، وأنَّ الذي يقرِّبُهم منه، ويضاعفُ لهم الأجرَ والمثوبةَ، ويدخلُهم جنَّتَه هو الإيمانُ والعملُ الصالح[1]، فهذه الآيةُ استكمالٌ لما بدأتْهُ الآيةُ السّابقة في تثبيتِ أركانِ المعتقدِ الصَّحيح في الرِّزق بسطًا وقدرًا، بإيضاحِ العبارةِ، وإبانة المعنى المقصود.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُقَرِّبُكُمۡ﴾: (قرب) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ البُعد، يُقالُ: قَرُبَ يَقْرُبُ قُرْبًا، أي: دنا[2]، ويُستعمل في المكان والزَّمان والنِّسبة والحُظوة والرِّعاية والقدرةِ، ومِنهُ في الحُظوة قولُهُ تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ [المطففين: 28]، وقولُهُ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨﴾ [الواقعة: 88]، وقوله: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف: 114]، والمقصودُ في الآيةِ: هو نفيُ تقريبِ العبدِ مِنَ اللّه تعالى بسببِ الأموالِ والأولاد.

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 298.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قرب).

2) ﴿زُلْفَىٰٓ﴾: (زلف) يَدُلُّ عَلى اندِفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شَيءٍ، يُقالُ مِنْ ذَلِكَ: ازدَلَفَ الرَّجُلُ: تَقَدَّمَ، وسُمّيَت مُزدَلِفَةَ بِمَكَّةَ؛ لاقتِرابِ النّاسِ إلى مِنًى بَعْدَ الإفاضَةِ مِن عَرَفاتٍ، ويقالُ: لِفُلانٍ عِنْدَ فُلانٍ زُلفى، أي: قُربَى، قالَ اللّهُ جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: 25][1]، والزُّلفى: الحُظوة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37] أي: إزلافًا، والمعنى: تقريبًا سَلِسًا سهلًا[2].

3) ﴿ٱلضِّعْفِ﴾: (ضعف) يَدُلُّ عَلى أَن يُزادَ الشَّيءُ مِثْلَهُ، ومنه: أَضعَفْتُ الشَّيءَ إضعافًا، وضَعَّفْتُهُ تَضعيفًا، وضاعَفْتُهُ مُضاعَفَةً، وهوَ أَنْ يُزادَ عَلَى أصلِ الشَّيءِ، فَيُجعَلَ مِثلَينِ أَو أَكثَر[3]، قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء40]، وقال أيضًا: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ الفعل: (يضاعف) للفاعل والمفعول، و(ضِعف) بالكسرِ ومثناها وجمعها (أضعاف)، كلُّ ذلك مِن زيادة مثلِ الشَّيء أو أمثالِه عليه[4].

4) ﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾: (غرف) أصلٌ صَحيحٌ، منه الغُرفَةُ، وهي: العليَّة مِنَ البِناء، والجمع غُرَف وغُرُفات بضمِّ الرّاء وفتحها وسكونها[5]، وسَمّى اللّهُ منازل الجنَّة غُرَفًا، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: 75]، وقال أيضًا: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: 58]، وقال: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[6]، والمقصودُ: منازلُهم في الجنَّة.

المَعنى الإجماليُّ:

تبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ للمترفين بصفةٍ خاصَّة وللنّاس بصفةٍ عامَّةٍ الطريقَ الوحيدَ الَّذي يُقَرِّبُ مِنَ اللّهِ تعالى، ويؤهِّل لنيل رضوانِه، والفوز بجنانِه، فتخاطبُهم بما معناهُ: ليس الأمرُ كما زعمْتُم - أيُّها المترفون - مِن أنَّ كثرةَ الأموالِ والأولادِ ستُنْجيكم مِنَ العذابِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (زلف).
(2) الراغب، مفردات القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زلف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ضعف).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضعف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (غرف).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (غرف).

ولكنَّ الحقَّ والصدقَ أنَّ الذي يُنجيكم مِن ذلك، ويقرِّبكم مِنَ اللّه، هو الإيمانُ والعملُ الصالحُ، فالذين آمنوا، وعملوا الصّالحات، لهم عندَ اللّهِ تعالى الجزاءُ المُضاعفُ، وهم في غُرُفات الجنّاتِ آمنون مطمئّنون[1].

القربُ مِنَ الله تعالى منحصرٌ بالإيمانِ بهِ وبعملِ الصّالحات

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ومعناها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ تحتمل أنْ تكونَ لعطفِ ما بعدَها على قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾، فَيَكونَ كَلامًا موَجَّهًا مِنَ اللَّهِ تَعالى إلى الَّذينَ قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾، وتحتمل أَن تَكونَ عَطفًا عَلى جُمْلَة: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فَيَكونَ مِمّا أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بِأَن يَقولَهُ لَهُم، ويُبَلِّغَهُ عَنِ اللّهِ تَعالى[2]، ويمكنُ أن تكونَ الواو استئنافيَّةً، والكلامُ بعدها مستأنفٌ من جهتِه عزَّ وعلا، خوطِبَ به النّاسُ بطريقِ التَّلوينِ والالتفاتِ؛ مبالغةً في تحقيقِ الحقِّ وتقريرِ ما سبق[3].

تحتملُ الواوُ العطفَ على وجهين والاستئنافَ

دلالةُ النَّفي بأداة (ما):

آثرَ النَّظمُ الكريم النَّفيَ بأداةِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾؛ لأنَّ من خصائصها نفيَ الجُمَلِ الاسميَّة والفعليَّة، وأنَّها آكدُ في النَّفي مِن (ليس)، وأوسعُ استعمالًا منها؛ لاختصاصِ (ليس) بنفي الجملِ الاسميَّة فقط، والنَّفي بـ (ما) أنسبُ هنا؛ لأنَّها تفيدُ بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ نفيَ العموم بكون الأموالِ والأولاد سببًا في قربِ المترفين وغيرِهم مِنَ اللّه نفيًا قاطعًا لا حدودَ لَهُ.

نفيُ عمومِ ما يتخيَّله الذِّهنُ أرسخُ في تثبيت ما يُقرُّه الشَّرع

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 298.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 215.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.

فائدةُ استعمال مفردةِ الأموال جمعًا:

الشُّعورُ بالقوَّة والاستغناء من أسباب الكفرِ والطُّغيان

جاء استعمالُ لفظِ الأموالِ جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾، وهي ما يُتَمَوَّلُ به لتحقيق المنافعِ، ويُستغنى عنِ الآخرين بسببِهِ؛ ليوضّح للنّاسِ ممَّن يستغنونَ بأموالِهم عنِ الإيمان باللّه واتّباع الرّسول، ويظنّون أنَّهم لن يُعذَّبوا في الآخرة قياسًا على امتلاكِهم المالَ في الدُّنيا، أنَّ هذه الأموال - على كثرتها وتَنَوُّعِها - قيمتُها ليست حقيقيَّة، فلا تُقَرِّبُ إلى اللّهِ، ولا تُنجي من عذابِه، ولا اعتِبارَ بالتَّعَزُّزِ بها[1].

نكتةُ إضافةِ الأموال إلى الضَّمير:

خطابُ النَّفس المباشر أقوى في استحضار المعاني وتقييمِها

في إضافة الأموالِ إلى ضمير المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ دلالةٌ على امتلاكها، والقدرةِ على تصريفِها في تحقيق ما يستَغْنون بهِ، وينعَمون بسببِهِ، كما أنَّ الإضافةَ تُثير المترفينَ وغيرهم إلى استحضار صورِ الأموالِ الَّتي يمتلكونها، واستعراض أنواعها، ليتأكَّدوا من هوانِها، وانعدام جدواها في القربِ مِنَ اللّه، والإنجاءِ من عذابه، على الرَّغم من أنَّهم يرونها عظيمةً، وذاتَ أثرٍ كبيرٍ في دنياهم وآخرتهم، ففي الإضافة خطابٌ مباشر لكلِّ قارئٍ ليستحضرَ ما عندَهُ مِن قوَّةٍ ماليَّة، فيضَعَها في معيارِها الصَّحيح.

نوعُ الواوِ ومعناها:

لا شيءَ ينفَعُ العبدَ في الآخرة إلّا عملُه الصّالح

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم﴾ على: ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ بالواوِ الَّتي تفيد الاشتراكَ في الحُكم؛ لبيان أنَّ أولادَ المترفين مثلُ أموالهم في انعدام الجدوى في الآخرةِ، وأنَّهم لن يكونوا سببًا في الحُظوة عندَ اللّهِ تعالى، والإنجاء مِن عذابِ يومِ القيامَةِ.

نكتةُ تكرار النَّفي:

جيءَ بحرفِ (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم﴾، وهو حرفُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 209.

نفيٍ يدلُّ بمعناهُ ومبناهُ على نفي أنْ يكونَ للأولاد أدنى فائدةٍ في تحقيق القُرب مِنَ اللهِ والنَّجاة مِن عذابِه، نفيًا قاطعًا لا حدودَ له، وجيءَ بِهِ بَعْدَ العاطِفِ مع إمكانِ الاكتفاء بـ (ما)؛ لِتَأْكيدِ تَسَلُّطِ النَّفْيِ عَلى كِلا المَذكورَينِ؛ ليَكونَ كُلُّ واحِدٍ مَقْصودًا بِنَفْيِ كَوْنِهِ مِمّا يُقَرِّبُ إلى اللّه ومُلْتَفَتًا إلَيْهِ[1].

تأكيدُ تسلُّطِ النَّفي على المذكورين

فائدةُ اختيارِ لفظ (الأولاد) دون (الأبناء):

جاء إطلاقُ الأولادِ دونَ الأبناءِ ليشملَ الذُّكورَ والإناثَ، فيعمَّ الجميع، ولو ذكرَ الأبناءَ؛ لاقتصر على الذكورِ، والمرادُ نفْيُ ذلك عن الجميعِ، ويدخل فيهم ما كانَ مِن أصلابِهم.

نكتةُ جمعِ الأولاد والإضافة للضَّمير:

في التَّعبير بلفظِ ﴿أَوۡلَٰدُكُم﴾ جمعًا إشارةٌ إلى كثرةِ الأولاد وتنوُّعِهم، وفي الإضافة إلى ضميرِ المُخاطَبينَ دلالةٌ على شدَّة القربِ وقوَّةِ الالتصاق، والمعنى: إنَّ أولادَكم - مع كثرتِهم والتصاقِهم بكم - ليسوا بالجماعة الَّتي تقرِّبُكُم مِنَ اللّه، وتُنْجيكم مِن عِقابِه[2]، والإضافةُ بمعنى اللام، أي: أولادٌ هم لكم؛ للدَّلالة على الانتسابِ، أو (من) أي: أولادٌ مِنكم ومِن أصلابِكم، فمهما تعلَّقْتُم بهم، وتعلَّقوا بِكم، فإنَّ ذلك لا ينفعُ ما لم يكن على ميزانِ التَّقوى.

انتسابُ الأولادِ وتعلُّقهم بالآباء لن ينفعَهم شيئًا عند الله تعالى

نوعُ الباءِ ومعناها:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ﴾ لتوكيدِ النَّفي، والتَّعبيرُ بها يدلُّ على نفْيِ كونِ الأموالِ والأولاد مستعانًا بها في القُربِ مِنَ اللّه تعالى، والفوزِ والفلاحِ في الآخرة.

براعةُ استعمالِ الاسم الموصولِ المؤنَّث:

لَمّا كانَتِ الأَموالُ والأَولادُ جَمعَي تَكسيرٍ؛ عومِلا مُعامَلَةَ المُفرَدِ

لا نفعَ يُرجى مِنَ الأموالِ والأولاد مع الكفرِ باللهِ تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 215.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 515.

المُؤَنَّثِ، فَجيءَ بِخَبَرِهِما اسم مَوصولٍ لِلمُفرد المُؤَنَّثِ، عَلى تَأويلِ جَماعَةِ الأَموالِ وجَماعَةِ الأَولادِ، ولَم يُلتَفَت إلى تَغَلُّبِ الأَولادِ عَلى الأَموالِ، فَيُخبَرُ عَنهُما مَعًا بـ (الَّذين) ونَحوِه[1]؛ لأَنَّ الجمعَ المكسَّرَ عقلاؤُهُ وغيرُ عقلائِهِ سواءٌ في حكمِ التَّأنيث[2].

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿تُقَرِّبُكُمۡ﴾ وصوغها مضارعًا:

تأبيدُ نفي نفعِ الأموال والأولاد لأصحابِها في فضيلةِ التَّقريب

التَّعبيرُ بفعلِ القُربِ الموضوع لِما يُضادُّ البُعدَ في قوله تعالى: ﴿تُقَرِّبُكُمۡ﴾، ليس مقصودًا به القربُ المكانيُّ، ولكنَّه كنايةٌ عنِ التشريفِ والكرامة[3]، وفيه دلالةٌ على أنَّ الأموالَ والأولاد التي يَعتَقِدُ أصحابُها أنَّها دليلُ مكانتِهم عند اللّهِ تعالى ليست كذلك، وأنَّ الحقيقةَ التي لا بدَّ أنْ يعلموها أنَّها لن تكونَ سببًا في الحُظوة والمنزلةِ عند ربِّ العالمين بأيِّ حالٍ من الأحوال، وأوثرَ التَّعبيرُ بالمضارع الذي يفيدُ التَّجدُّد؛ للدَّلالة على أنَّها لن تكونَ سببًا في ذلك على سبيلِ التَّأبيد.

تعيينُ مرجع ضمائر الخطابِ:

التَّعبيرُ بأسلوب الخطابِ يجعلُ الكلامَ شاملًا النَّاسَ في كلِّ زمان ومكان

إذا كانت جُملَةُ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ مَعطوفَةً عَلَى قَولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾، فيكون كلامًا موجَّهًا من جانبِ اللّه تعالى، وضَمائِر الخِطابِ تَكون مَوَجَّهَةً إلى الَّذينَ قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾، وإذا كانت عَطفًا عَلى جُملَة: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ فيكونُ ممّا أُمِرَ الرَّسول ﷺ بأن يقولَهُ لهم، ويبلِّغَهُ عن اللّه تعالى، وتكون ضَمائِرُ الخِطابِ عائِدَةً إلَى الَّذينَ قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم﴾ اعتراضًا بين جملة: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ وجملة: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 215.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 215.

وتكون ضمائرُ الخطابِ موجَّهةً إلى جميع النّاس المخاطَبين بالقرآنِ مِن مؤمنين وكافرين[1]، وأيًّا كان مرجعُ الضَّمائر؛ فالتَّعبيرُ بأسلوب الخِطابِ يجعل الكلامَ موجَّهًا إلى الكافرين برسولِ اللّه ﷺ، وإلى النّاسِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ تحذيرًا مِنْ أنْ يفهموا فهْمَ المُترَفين، وينهجوا نَهْجَهم، ويقولوا قولَهم.

نكتةُ تعديةِ (تُقرّب) إلى ضمير المخاطَبين:

نُصْحُ المتفاخرين بالأموالِ والأولاد وبيانُ مآلِ تفاخرِهم

عُدّي فِعلُ التَّقريبِ إلى ضميرِ المُخاطَبين في قولِه تعالى: ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾؛ لأنَّهم المخصوصونَ بالبيان، المقصودونَ بالإنذار في المقام الأوَّل، ويدخل فيه غيرُهم مِن بابِ العموم؛ ذلك أنَّ قولَهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يفرِضُ بيانَ حقيقةِ هذه المقولةِ، ونُصْحَ قائليها بما يُبَيِّنُ خطأَهُم فيها، ليرجعوا إلى أنفسِهم، ويتفكَّروا في أحوالِهم، فيعلموا أنَّ الأموالَ والأولادَ لن تقرِّبَهم إلى اللّه، وأنَّ الكفرَ بالرَّسول وترْك العمل الصّالح مِن أسباب عذابِهم، فالأَولى بهِم أنْ ينصرفوا عمّا هُم فيه إلى الإيمانِ باللّهِ وعمل الصّالحات.

بلاغةُ الالتفاتِ:

خطابُ النّاسِ بطريقِ التَّلوينِ والالتفاتِ مبالغةٌ في تحقيقِ الحقِّ وتقريرِ ما سبق

كان مقتضى الظّاهرِ أن يُقالَ: (ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يَعلمونَ، وما أموالُهم ولا أولادُهم بالَّتي تقرِّبهم)، لكن النَّظم الكريم انتقلَ مِن ضَمائر الغيبةِ إلى ضَمائر الخِطابِ، فقال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ﴾؛ "لأنَّ الكلامَ إذا نُقل من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ؛ كان أحسنَ تطريةً لنشاطِ السّامع، وإيقاظًا للإصغاء إليهِ من إجرائهِ على أسلوب واحدٍ"[2]، ولما يفيدُه العدولُ إلى أسلوبِ الخِطاب مِن تنبيهِ المترفين ومن ينهجُ نَهْجَهُم، وبيانِ أهميَّة الكلامِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 214، 215.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/ 14.

الموجَّه إليهم؛ ليتلقَّوه بمزيدٍ من التفكُّرِ والتدبُّر المفضي إلى فعلِ ما يدعو إليهِ واجتناب ما يُنهى عنه، يُزاد على ذلك أنَّ الكلامَ وردَ على سبيل الاستئنافِ من جهتِهِ عزَّ وعلا، وخوطِب به النّاسُ بطريق التَّلوينِ والالتفاتِ مبالغةً في تحقيقِ الحقِّ وتقريرِ ما سبق[1].

بلاغةُ الإسنادِ المجازيِّ:

نفيُ التَّقريبِ عنِ الأموالِ والأولاد أبلغُ مِن نفيهِ عنِ السَّبب

إسنادُ فعلِ التَّقريب ﴿تُقَرِّبُكُمۡ﴾ إلى الضَّمير العائدِ إلى الأموالِ والأولادِ مجازٌ عقليٌّ علاقتُه السَّببيَّةُ، وفي التَّعبيرِ بهِ دلالةٌ على أنَّ المترفين وأمثالَهم يعتقدون كفايةَ الأموال والأولادِ في تحقيقِ متاعِ الدُّنيا، وتحقيقِ الحُظوةِ عندَ اللّه تعالى، والأمان مِن عذابهِ في الآخرة، وبرهانُ هذه العقيدةِ أنَّه أُسْنِدَ فِعلُ التَّقريبِ إلى الضَّمير العائدِ إليها، وكأنَّها فاعلُه الحقيقيُّ، وليست مجرَّدَ سببٍ فيه؛ لأنَّ ذلك هو ما يعتقدونه، ويؤمنون به.

دلالةُ تعليقِ فعلِ التَّقريب بالظَّرف:

التَّقريبُ مَجازٌ في التَّشريفِ والكَرامَةِ، وليس تَقْريبَ مَكانٍ

مِنَ الجائزِ أن يكونَ متعلِّقُ فعل التقريب جارًّا ومجرورًا، فيُقال: (بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ إِلَيْنَا) ولكنَّ النَّظمَ الكريمَ آثرَ تعليقَه بالظَّرف، فقال: ﴿تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا﴾؛ لأَنَّ التَّقريبَ هُنا مَجازٌ في التَّشْريفِ والكَرامَةِ، وليس تَقْريبَ مَكانٍ[2].

لطيفةُ الإضافةِ إلى ضميرِ العظمةِ:

تعظيمُ العنديَّة والإشارةُ إلى أنَّها لا تُنال إلَّا بشريف الأعمال والأقوال

أُضيفَ الظَّرفُ المُقَيَّدُ بهِ فعلُ التَّقريب إلى ضمير الحقِّ بصيغةِ التَّعظيم، في قولهِ تعالى: ﴿عِندَنَا﴾؛ لتعظيم المكانةِ والمنزلة الَّتي يَرقى إليها مَنْ قَرَّبَهُ اللّهُ تعالى، وللإشارةِ إلى أنَّها لا تُنال إلّا بشريفِ الأعمال، وأطهرِ الأقوال، وليس بالتَّفاخُرِ بالأولاد والأموال، وفي الإضافةِ أيضًا تحسيرٌ للمُترفين ومَنْ ينهجُ نهجهم؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 215.

لفقدِهم هذهِ المكانةَ بسبب كفرِهم باللّه ورسوله، وتعزُّزِهم بأموالِهم وأولادِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾:

تأكيدُ نفي كونِ الأموالِ والأولادِ سببًا في القُربى عند الله

﴿زُلۡفَىٰٓ﴾: اسمٌ لِلقُربِ، مِثلَ: الرُّجعَى، وهوَ: مَفعولٌ مُطلَقٌ، نائِبٌ عَنِ المَصدَرِ، أَي: تُقَرِّبُكُم تَقريبًا، ونظيرُهُ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17]، وفي التَّعبيرِ بِهِ تأكيدٌ وتقويةٌ لنفي كون الأموالِ والأولادِ سببًا في حصول التقريبِ بأيِّ شكلٍ من الأشكال، وبأيِّ صورةٍ مِنَ الصّور، والمعنى: وما جماعةُ أموالِكم وأولادِكم بالجماعةِ الَّتي تُقرِّبكم عندنا قُربةً[1].

دلالةُ الاستثناءِ في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ﴾:

الإيمانُ والعملُ الصالح هما سبب القربى عند الله تعالى

﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ﴾ حرفُ استثناءٍ، وقوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ هو المُستثنى، ولا يوجد مُستثنًى منهُ، ما يعني: أنَّ الاستثناءَ مُفَرَّغٌ أو منقطعٌ، ويمكنُ أن يكونَ الضَّميرُ المنصوب في: ﴿تُقَرِّبُكُمۡ﴾ هو المُستثنى منه، فيكونَ الاستثناءُ متَّصلًا[2]، وأيًّا كان نوعُ الاستثناء؛ ففي استعمال أداةِ الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ إثارةٌ للمخاطَبِ ولفتٌ لانتباهِهِ إلى ما يأتي بعد حرفِ الاستثناء، لأهمّيَّته البالغة، ولأنَّه في العادة يكون مُخالِفًا لِما قبلَهُ، ما يدعو النُّفوسَ لترقُّبه والتَّطَلُّع إليه.

فائدةُ استعمال ﴿مَنۡ﴾ اسمًا موصولًا:

ترغيبُ عموم الناس المؤمنين وغيرهم إلى الإيمان والعملِ الصّالح

﴿مَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ اسمٌ موصولٌ عامٌّ يمكن إعرابُهُ مستثنًى مِن المفعول في ﴿تُقَرِّبُكُمۡ﴾، ويجوزُ أن يكونَ مبتدأً وما بعده الخبرُ، وقولُه: ﴿ءَامَنَ﴾ صلةُ الموصولِ، وفي إيثار التَّعبيرِ به دلالةٌ على أنَّ معيارَ الإيمان وعمل الصّالحاتِ يشمَلُ الخَلْقَ أجمعين،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 586.

ويدخل فيهم مَنْ آمَن، وأصلحَ، وتخلَّى عن الغرور والافتخارِ مِنَ الكُفّار والمترفين، ولا يخفى ما فيه مِنَ التَّرغيبِ والتَّبشير.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإيمان وصوغِهِ ماضيًا:

إذا تغلغلَ الإيمانُ في القلوب؛ اطمأنَّتِ الجوارحُ واستقرَّتِ النُّفوس

عبَّر النَّظمُ بلفظِ الإيمان صِلةً للاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ دون الإسلام؛ لشمولِ الإيمان معنى الإسلام مضافًا إليه التَّصديقُ الذي لا يُخامرُه شكٌّ، والثَّباتُ الذي لا يناقضُه تزعزعٌ، ما يعني: أنَّ أحدَ أسباب الحُظوة عند اللهِ والفوز بجنَّته في الآخرةِ هو الإيمانُ الحقُّ، الذي يُعَدُّ العملُ الصالحُ بُرهانًا عليه، وليس الإيمان بالانتساب، وأوثرَ التَّعبيرُ بفعل الإيمانِ ماضيًا؛ لدلالتهِ على تحقُّق الإيمانِ وتغلغُلِه في النُّفوس، ولأنَّه مقدِّمةُ العملِ الصّالح.

فائدةُ حذفِ متعلِّقِ الفعل:

عمومُ كلِّ أركانِ الإيمان وجميع ما يُبَرْهِنُ عليه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ حذفَ متعلِّق فعلِ الإيمان ﴿ءَامَنَ﴾؛ لِما يُفيده الحذفُ من عموم الفعلِ وشمولِه الإيمانَ باللّه وملائكتهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليوم الآخر والقدرِ خيرِه وشرِّه، وكلَّ ما يُبرهِنُ على رسوخِ هذه المعاني في القلوبِ، واستقرارِها في النُّفوس.

نكتةُ اختيارِ فعل ﴿وَعَمِلَ﴾ مادَّة وصيغةً:

شرطُ العملِ أن يكون عن قصدٍ وغاية

العَمَلُ هو: كلُّ فعلٍ يكون بقصدٍ، وهو أخصُّ مِنَ الفعل؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسب إلى الحيوانات التي يقعُ منها بغير قصدٍ، وقد يُنسَب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك[1]، وفي التَّعبيرِ بفعل العملِ في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ دلالةٌ على أنَّ العملَ المُقَرِّبَ إلى اللّهِ هو العملُ الَّذي يفعلُهُ الإنسانُ بقصد القربى والنَّجاة مِنَ العذابِ، وليس الَّذي يقومُ بِه لغرضٍ آخر.

بلاغةُ ذكرِ لفظ ﴿صَٰلِحٗا﴾ بزنةِ (فاعل):

شرطُ العملِ الصّالحِ سلامةُ القصد وحُسن المتابعة

في التَّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿صَٰلِحٗا﴾ دلالةٌ على أنَّ العملَ المُرادَ هو

(1) الراغب: مفردات القرآن: (عمل).

الذي يكون لوجهِ اللّه تعالى، ووفق سُنَّةِ رسولِه ﷺ، وأوثِرَ صوغُه على وزنِ فاعل؛ للإشارةِ إلى كونِهِ ذا أثرٍ كبيرٍ في صاحبه وذا أثرٍ كبير في غيره؛ لأنَّهُ يدفعُ صاحبَه إلى مزيد مِنَ الأعمال المرضية، ويدفع غيرَهُ إلى الاقتداءِ به.

نكتةُ تقديم ذكرِ الإيمان على العمل:

تقديمُ الأصلِ على الثَّمرةِ مقتضى الظاهر والحال

قَدَّم النَّظمُ الكريمُ فعلَ الإيمان على فعل العملِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّ الإيمانَ شرطٌ رئيسٌ في صحَّة العمل وشرطٌ رئيسٌ في قبولِه، فلا يُقبل عملٌ إلّا إذا كان صاحبُه مؤمنًا حقَّ الإيمان، كما أنَّ العملَ الصالحَ برهانٌ على تحقُّقِ الإيمانِ وتغلغلِهِ في نفس العامل[1]، والبرهانُ يأتي ثانيًا، ولا يأتي أوَّلًا.

نوعُ الفاءِ ودلالتها:

الإيمانُ والعملُ الصالحُ شرطا الجزاءِ الأحسن

أفادتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ ترتُّبَ ما بعدَها على ما قبلَها؛ لوقوعِها في جواب الشَّرط الذي تضمَّنه اسمُ الموصولِ الواقع بعد حرفِ الاستثناءِ في جملة: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، وهي تدلُّ على أنَّ الجزاءَ المذكورَ مُرتَّبٌ على الإيمانِ والعملِ الصّالح ترتُّبَ المُسَبَّبِ على السَّبب، ولن يحصلَ بغيرهما مِنَ الأموال والأولاد، مهما كانوا ومهما بلغوا.

مرجعُ اسمِ الإشارة ودلالته:

التَّنويهُ بشأنِ المؤمنين وبيان عُلوِّ رُتْبتهم وبُعْدِ منزلتِهم في الفضْلِ

اسمُ الإشارة (أُوْلَٰٓئِكَ) يرجع إلى ﴿مَنْ﴾، وهمُ الموصوفونَ بالجمع بين الإيمان والعملِ الصالح، والجمع باعتبارِ معناهُ، كما أنَّ الإفراد في الفعلين: ﴿ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ باعتبارِ لفظِه[2]، وجيءَ باسم الإشارَة (أُولَٰٓئِكَ) في الإخبارِ عَن مصيرِ ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ للتَّنويه بِشَأنِهِم والتَّنبيهِ عَلى أنَّهُم جَديرونَ بما يَرِدُ بَعدَه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 515.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.

مِن أَجلِ تِلكَ الأَوصافِ الَّتي تَقَدَّمَت عَليه[1]، وما فيه مِن مَعنى البُعد؛ فللإيذانِ بعلوِّ رتبتهم وبُعد منزلتِهم في الفضلِ، أي: فأولئكَ المنعوتونَ بالإيمانِ والعمل الصّالح لَهُم جَزاءُ الضِّعْفِ[2]، ولا يكون في منزلتِهم العاليةِ الرَّفيعةِ إلّا مَن سلكَ مَسْلَكَهم، واقتفى أثرَهُم.

نوعُ اللامِ ودلالتها:

اللامُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ جَزَآءُ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد الاختصاصَ، وفي استعمالِه دلالةٌ على أنَّ الجزاءَ المذكورَ مخصَّصٌ لهم، فلا يشاركُهم فيه أحدٌ، ولا يخفى ما فيه مِنَ التَّشريف والتَّرغيب.

فائدةُ استعمالِ مفردة الجزاء:

بيانُ قيمةِ العدلِ المطلق بذكرِ جزاءِ المؤمنين تصريحًا والمترفين تعريضًا

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الجزاء في بيانِ الأجر الأخرويِّ لمن آمن وعملَ صالحًا، والجزاءُ موضوعٌ للمكافأة والمقابلة؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَنْ آمنَ وعمل صالحًا سينالُ الجزاءَ الذي تفضَّل اللّهُ ببيانِه عن جدارةٍ واستحقاقٍ، ويُفهم منه أنَّ مَنْ أعرضَ عن الإيمانِ وصالح العمل، وتفاخرَ بالأموالِ والأولاد وغيرِ ذلك سينال عقابَهُ عن وفاقٍ واستحقاقٍ؛ إذ الجَزاء يكون على الخيرِ والشَّرِّ، والإحسان والإساءة، ففيه تعريضٌ بالمترفينَ ومَن على منوالِهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ٣١﴾ [النجم: 31]، فدلَّ هذا الاستعمالُ على قيمةِ العدل الإلهيِّ في الآخرة.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلضِّعْفِ﴾:

جزاءُ الإيمانِ والعملِ الصّالح محضُ فضلٍ لا تُدركُ كثرتُهُ وقيمتُهُ

(أل) في لفظِ ﴿ٱلضِّعْفِ﴾ لتعريفِ العهدِ، والمرادُ: الضِّعفُ الذي يعهدُهُ النَّاسُ، ويعرفونَهُ، وهو المُكَرَّرُ المُضاعَفُ، فيصدقُ بالمكرَّر مرَّةً وأكثر، كما بيَّنه قولُه تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 217.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136، والآلوسي: روح المعاني: 11/ 323.

﴿سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البَقَرَة: 261][1]، والمعنى: يأخذونَ جزاءَهُم مضاعَفًا في نفسِه، مِن عشرةِ أمثالٍ إلى ما لا نهايةَ لَهُ[2]، ما يعني: أنَّه لا يستطيع أحدٌ إحصاءَ جزاءِ الإيمانِ والعملِ الصالح.

دلالةُ الإضافة في ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾:

الإضافةُ مبيِّنةٌ لنوعِ الجزاءِ ومقداره

إضافةُ لفظِ ﴿جَزَآءُ﴾ إلى لفظِ ﴿ٱلضِّعۡفُ﴾ من إضافةِ المصدرِ إلى مفعوله، وأصلُهُ: فأولئك لهم أن يُجازَوا الضِّعفَ، ثمَّ جزاءَ الضِّعف، ثمَّ جزاءَ الضِّعف[3]، وهي إضافةٌ بَيانيَّةٌ، أي: مبيِّنة لنوعِ الجزاءِ ومقداره، والمعنى: يجزيهم اللّهُ الجَزاءَ الَّذي هوَ المُضاعَفَةُ لِأَعمالِهِم، أي: لِما تَسْتَحِقُّهُ[4].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

تشتركُ القراءاتُ في معنًى واحدٍ وإن اختلفت ألفاظُها

قرأ رُوَيْسٌ ﴿جَزَآءً﴾ بالنَّصبِ عَلَى الحالِ مَعَ التَّنوينِ وكَسرِهِ وصلًا ورَفعِ ﴿ٱلضِّعۡفُ﴾ بالابتداءِ، والتَّقديرُ: لَهُمُ الضِّعْفُ جَزاءً، وقَرَأَ الباقونَ بِالرَّفعِ مِن غَيرِ تَنوينٍ وخَفضِ ﴿ٱلضِّعۡفِ﴾ بالإضافَةِ[5]، والقراءاتُ كلُّها تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ جزاء مَنْ آمنَ وعملَ صالحًا - وتركَ التَّفاخرَ بمتاعِ الدُّنيا الزائلِ - لا يعلمُ مقدارَهُ إلّا اللّهُ، ولا يستطيع أن يُحْصيَهُ أحدٌ غيرُه، وفيه تحذيرٌ للمترفينَ وغيرِهم مِنَ الاستمرارِ على ما هم فيهِ، وترغيبٌ للجميعِ في الإيمانِ والعملِ الصّالح.

نوعُ (الباء) ودلالتها:

السَّببيَّة والعِوض كلاهما يدلّان على أنَّ العملَ ورَّث الجزاءَ الأحسن

الباءُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ تَحْتَمِلُ السَّبَبِيَّةَ، فَتَكونُ دَليلًا عَلى ما هوَ المُضاعَفُ، وهوَ ما يُناسِبُ السَّبَبَ مِنَ الصّالِحاتِ، كَقَولِهِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 217.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 516.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 586.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 217.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 351.

تَعالَى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرَّحْمَن: 60]، وتَحْتَمِلُ العِوَضَ، فَيكونُ (ما عَملوا) هوَ المُجازَى عَليهِ، كَما تَقولُ: جَزَيْتُهُ بِألفٍ، فَلا تَقْديرَ في قَولِهِ: جَزاءُ الضِّعْفِ[1]، والمعنيانِ المذكورانِ للباءِ يدلّان على أنَّ العملَ هو الَّذي ورَّثهم الجزاءَ الأحسن في الآخرةِ.

فائدةُ استعمالِ أداة (ما):

استغراقُ الأعمالِ الصالحة الظّاهر منها والخفي

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ تحتملُ أن تكونَ موصوليَّةً، أي: بالذي عملوا، وتحتملُ أن تكون مصدريَّةً، أي: بأعمالِهم، واختيرَتْ (ما)؛ لأنَّها تدلُّ بمعناها ومبناها المُنتهي بألف المدِّ على أنَّ الجزاء بالأضعاف سيشمل كلَّ الأعمالِ الصّالحة التي عملوها، ولن يُستثنى مِنْ تلك الأعمالِ شيءٌ، مهما قلَّ أو كثُر، فهي لاشتمالِ جميعِ الأعمال الصّالحة واستغراقِها.

علَّةُ استعمالِ مفردة العملِ مادةً وصيغة:

الأعمالُ المقبولةُ هي المبنيَّةُ على الإيمان الرّاسخ

استُعمِلَ فعلُ ﴿عَمِلُواْ﴾ الموضوع لِما فُعِل بقَصْدٍ للدَّلالة على أنَّ الإيمانَ كان دافعَهم إلى العمل، مهما كانت المشقَّةُ المصاحبةُ له، أو المترتِّبةُ عليه، ما يعني: أنَّ أعمالَهم ثابتةٌ محفوظةٌ بأساسٍ راسخ متين مِنَ الإيمان[2]، وأوثِرَ التَّعبيرُ به ماضيًا؛ لدلالتِهِ على تحقُّق حصولِها وتأكُّدِ قيامِهم بها من غير شكٍّ أو ريب، وأنَّ مجازاتَهُم عليها بالأضعاف جزاءٌ مُسْتَحَقٌّ مِنَ اللّهِ ربِّ العالمين.

نوعُ (الواو) ودلالتها:

العطفُ والحالُ تُبيِّنان نعيمَ المآل

(الواو) في قوله: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ يمكن أن تكونَ لعطفِ ما بعدَها على جملة: ﴿لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾، وهي تدلُّ على نوعٍ آخر مِنَ النَّعيم الذي يُجزَونَهُ بسببِ الإيمان والعمل الصّالح، ويمكنُ أن تكونَ الواوُ للحال، والجملةُ بعدها حاليَّةٌ، جيءَ بها لبيان الطُّمأنينة الدائمة والسَّعادة الأبديَّة التي يَحيَونَها في الآخرةِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 217، 218.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 516.

نكتةُ تقديمِ المُسندِ إليهِ على المُسند:

تأكيدُ تَنَعُّمِ المُؤمنين العاملين بالنَّعيم النَّفسيِّ والحِسّيِّ

قُدِّمَ المُسندُ إليه: (هُمْ) على الخبر المُشْتَقِّ: ﴿ءَامِنُونَ﴾؛ لتأكيدِ الطُّمأنينة والأمنِ الذي ينْعَمُ بِهِ الَّذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ في غُرَفِ الجنّات، والذي يحصل لَهُم بِهِ نوعانِ مِنَ النَّعيم: أحدُهما: حسّيٌّ، ويتمثَّل في مضاعفةِ الأجر والثَّواب إلى ما لا نهاية، والآخرُ: نفسيٌّ، ويتمثَّل في الطُّمأنينة والأمنِ الذي يشعرُ به مَن يُقيم في هذه الغُرف، وبحصولهما يبلغ نعيمُهم ذِرْوَتَه.

بلاغةُ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

تصويرُ نعيمِ الجنَّة تقريبيٌّ والحقيقيُّ لا يتصوَّره عقلٌ

استُعمِلَ حرفُ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المؤمنينَ العاملين منغمسونَ في نَعيم الجنَّة انغماسًا يدلُّ على الشَّرف والرِّفعة، حيث تُلَقِّي الإقامةُ في منازلِ الجنَّة وغُرُفاتها في نفوسِهم الأمنَ والطُّمأنينة، الَّتي تزيد نعيمَهم نعيمًا[1]، ما مِن شأنِهِ أن يدفَعَ المُتلقّين إلى الإيمانِ والعملِ الصّالح؛ من أجلِ الفوزِ بِالإقامة في هذه الغُرف التي يبلُغُ فيها النَّعيمُ ما لا مزيدَ عَليه، والظَّرفيَّةُ هنا غيبيَّةٌ، والمعنى تقريبيٌّ لبيانِ عظيمِ الأجر، والانغماس في تلك الملذّات.

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ وجمعها:

النّازلُ في غُرفات الجنَّة يتمتَّع بجمال المَنظر وشُمول المَرأى

﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ جَمعُ مفرَدُهُ غُرفة، والغُرفَةُ هيَ: البَيتُ المُعتَلي، يُصعَدُ إِلَيه بِدرَج، وهوَ أَعَزُّ مَنزِلًا مِنَ البَيتِ الأَرضيِّ، ما يدلُّ على أنَّ النّازل في غرفاتِ الجنَّة يتمتَّع بجمال المَنظر وشمول المرأى[2]، وفي التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ جمعًا دلالةٌ على كثرَتِها وتنوُّعها أو اختلافها.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الخبر:

قَدَّمَ النَّظم الكريمُ الجارَّ والمجرورَ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 218.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 218.

التَّعجيلُ ببُشرى دخول المؤمنين الجنَّةَ وسكنِهم غُرَفَها

على الخبر ﴿ءَامِنُونَ﴾؛ لتعجيل البُشرى بدخولِ المؤمنين الجنَّةَ، وسكنِهم غُرَفَها ومنازلَها التي تمتازُ بالخصوصيَّة، ولها من فخامَة المنظر وسَعة مساحةِ الرُّؤية ما لا يُقادَر قدرُه، ولا تُحيطُ العبارةُ بوصفه.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

قراءةُ الإفرادِ دالَّةٌ على الجنسِ وهي متوافقةٌ مع قراءة الجمع

قَرَأَ حَمْزَةُ: ﴿فِي ٱلْغُرْفَتِ﴾ بإسكانِ الرّاءِ من غيرِ ألِفٍ عَلَى التَّوحيدِ، وقَرَأَ الباقونَ بِضَمِّها وفَتحِها وسُكونِها مَعَ الألِفِ عَلَى الجَمعِ[1]، وقراءةُ الإفرادِ تدلُّ على الجنس، وقراءاتُ الجمعِ تدلُّ على الكثرة، وفي القراءاتِ كلِّها دلالةٌ على أنَّ المؤمنَ ليس له في الجنَّة غرفةٌ واحدة أو منزلٌ واحدٌ فحسب، بل له غرفٌ متنوِّعةٌ ومنازلُ كثيرةٌ.

دلالةُ استعمالِ مفردة ﴿ءَامِنُونَ﴾:

الأمنُ في الآخرة من زوالِ النِّعَم هو كمال السَّعادة

جاء استعمالُ مفردة: ﴿ءَامِنُونَ﴾ لتأكيدِ بلوغ نعيمِ المؤمنين العاملين في الجنَّة أقصى درجاته؛ لخُلوِّه مِنَ القلق والخوفِ بصفةٍ عامَّةٍ، والقلق والخوف مِن انقطاع النَّعيم أو توقُّفه بصفة خاصَّة، فَإِنَّ مَنْ تنقطعُ عنه النِّعمةُ لا يكون آمنًا[2]، وهو تمامُ السَّعادة، كما أنَّ الإخبارَ بأمنِهم فيها يدفع توهُّمَ ما يكونُ في الدُّنيا من شأنِ الغرفات فيها، عند تطاول الزَّمان، وطروِّ ما يُؤثِّر في تلك الأبنيةِ مِنَ الهدم والسُّقوط، وتحوُّل النّاس من مكانٍ لآخر، فإنَّ كلَّ ما قد يطرأُ على الذِّهن من قياسِ نعيم الجنَّة على نعيم الدُّنيا، فمدفوعٌ بقولِه تعالى: ﴿ءَامِنُونَ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل:

أوثِرَ التَّعبيرُ عن الخبرِ بـ ﴿ءَامِنُونَ﴾ اسمًا؛ لِما يُفيده التَّعبيرُ

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 351، والزمخشري، الكشاف: 3/ 586، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 555.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 209.

بالاسم من ثبوتِ النَّعيم ودوامِهِ على سبيل التَّأبيدِ، فإنَّ مَن تنقطعُ عنْهُ النِّعمة لا يكون آمنًا[1]، فأمانُ أهلِ الجنَّة باقٍ - لا ينقطع - بقاءَ الجنَّةِ ونعيمها.

نكتةُ تقديمِ الإخبارِ بجزاء الضعف:

جزاءُ الضِّعف هو الجزاءُ العامُّ وما بعده فصورةٌ من صوره

قُدِّمت جملةُ ﴿لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ على جملةِ: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾؛ لأنَّ زيادةَ الأجرِ ومضاعفته إلى ما لا نهاية سببٌ في جدارتِهم بدخولِ غُرَفِ الجنَّة والتَّمتُّع بما فيها مِن نعيمٍ حسّيٍّ ونفسيٍّ، والسَّببُ يُقدَّم على المسبَّبِ؛ لما فيه مِنَ الإثارةِ إلى ترقُّب الجزاءِ والتطلُّع إليه، فإذا وردَ؛ ثبتَ في النَّفس، وتمكَّنَ منها، وأثارها إلى الرُّجوع للعامل الرَّئيس في مضاعفة الأجر المُفضي إلى غُرَفِ الجنَّة، ومن ثمَّ تقبل النُّفوس على الإيمان والعمل الصالح، وتتخلَّى عن التَّفاخر بالأموال والأولادِ وما يجري مجراهما، وهو القصدُ الأعظمُ في الآية الكريمة، كما أنَّ التَّقديمَ مِن باب ذكرِ الجزاءِ العامِّ قبل ذكرِ صورةٍ من صورِهِ، ومثالٍ من أمثلته.

بلاغةُ الجناس في الآية:

مَنْ آمن في الدُّنيا؛ أَمِن في الآخرة جزاءً مضاعفًا

بين فعل ﴿ءَامَنَ﴾ والاسم المشتقِّ ﴿ءَامِنُونَ﴾ جناسٌ يدلُّ على أنَّ الإيمانَ في الدُّنيا سببٌ في الأمن والنَّعيم في الآخرة، وأنَّ الجزاءَ عند الله تعالى مِن جنسِ العملِ، فمَن آمنَ في الدُّنيا؛ أَمِنَ، وتنعَّمَ في الآخرة، ومَنْ كفرَ في الدُّنيا، واطمأنَّ إلى أموالِهِ وأولادِه؛ خافَ، وفَزِعَ، وعُذِّبَ في الآخرة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الزُّلفى والقُربى:

الزُّلفى اقترابٌ مع حرصٍ، والقُربى أعمُّ من ذلك

الزُّلفى تدلُّ على انْدِفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلَى شَيءٍ، وسُمّيَت مُزدَلِفَةَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 209.

بِمَكَّةَ، لاقترابِ النّاسِ إِلَى مِنًى بَعْدَ الإفاضَةِ مِن عَرَفات، ويقالُ لِفُلانٍ عِندَ فُلانٍ زُلفى، ومعناه: التَّقريبُ السَّهل اليسير[1]، والقُربى تدلُّ عَلَى خِلافِ البُعد، والقُربَةُ والقُربَى: القَرابَةُ، ويُستَعْمَلُ في المكان والزَّمان والنِّسبة والحُظوة والرِّعاية والقدرة[2]، ولمّا كان المترفونَ يعتقدونَ أنَّ كثرةَ أموالِهم وأولادِهم برهانٌ على حبِّ اللّهِ تعالى لهم وتقريبِهم عنده؛ أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ لنفي اعتقادِهم بداهةَ الأمرِ وسهولتَهُ، ولبيانِ أنَّ عدم اختلافِ حالهِم في الآخرةِ عن حالهِم في الدُّنيا ليس مِنَ المسلَّمات التي لا جدالَ فيها ولا نقاشَ حَولَها، كما يظنّون.

الغُرفةُ والحجرةُ:

الغُرفَةُ تمتازُ بجمالِ المنظر وشمولِ المرأى، والحُجرة تمنعُ مِنْ كشف ما بداخِلها

الغُرفَةُ: هيَ البَيتُ المُعتَلي، يُصعَدُ إِلَيه بِدَرَجٍ، والجمعُ غُرَفٌ وغُرُفات بضمِّ الرّاءِ وفتحِها وسكونِها، وهي أَعَزُّ مَنْزِلًا مِنَ البَيْتِ الأَرضيِّ، وتمتازُ بجمالِ المنظَرِ، وشمولِ المَرْأى[3]، أمّا الحُجرَةُ مِنَ الأَبنِيَةِ؛ فهي مَعروفَةٌ، مأخوذةٌ مِنَ الحِجر، بمعنى: المَنعِ والإحاطَةِ عَلَى الشَّيءِ، وتمنعُ مَن بداخلها مِنْ أن يُرى، أو يطَّلعَ عليه غيرُهُ[4]، وليس لها من جمالِ المنظرِ الخارجيِّ، وشمولِ المَرْأى ما للغُرفِ العليَّة، ولمّا كان القصدُ بيانَ منزلةِ مَنْ آمنَ وعملَ صالحًا، وترك التَّفاخُر بالأموال والأولاد؛ ناسبَ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾؛ لما تمتازُ به مِنَ الفخامة والجمال والدِّلالة على تكريم نزلائِها والحفاوةِ بهم؛ بسببِ إيمانِهم وعملِهم الصّالحِ، وليس لكثرة أموالِهم وأولادِهم.

الأمنُ والسَّلامةُ:

الأمنُ طمأنينةُ النَّفسِ وزوالِ الخوفِ، والسَّلامةُ التَّعرّي من الآفاتِ الظاهرة والباطنة

الأمنُ: طمأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخوفِ[5]، ومعناه المحوريُّ: وثاقةٌ

---

(1) الراغب، مفردات القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زلف).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (قرب).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (غرف).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (حجر).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن، والحموي، المصباح المنير: (أمن).

في الباطن، كأنَّ الآمِنَ تمكَّن في حِصْن، أو امتلأَ قلبُهُ امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئِنُهُ، قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: 4][1]، والسَّلامة تدلُّ على الصِّحَّةِ والعافيَةِ والتَّعرّي مِنَ الآفات الظاهرة والباطنةِ، قال تعالى في الباطن: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: 89]، وقال في الظاهر: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: 71][2]، ولأنَّ غُرفاتِ الجنَّة تُعَدُّ تكريمًا وتشريفًا لمن آمنَ وعَمِل صالحًا، ولم تفتنْهُ مظاهرُ الدُّنيا الخدّاعةُ وزينتُها الزائفةُ مِنَ الأموالِ والأولادِ وغيرها؛ كانَ التَّعبيرُ بـ(الأمن) أنسبَ؛ لدلالتهِ على السَّلامة المزوجةِ بالطُّمأنينةِ والسَّعادة الأبديَّة، بخلاف السَّلامة التي قد لا يحصل معها شيءٌ مِنَ الاطمِئنان، ممّا يُنافي التَّشريفَ والتَّكريم.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أمن).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (سلم).

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾ [سبأ: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المقابلةُ بين الأضدادِ في الدُّنيا لبيانِ اختلافِ المآلِ في الآخرة

بعد أنْ ذكرَتِ الآيةُ السابقةُ أنَّ جزاءَ مَنْ آمَنَ وعمِلَ صالحًا، ولمْ يتفاخَرْ بكثرةِ أموالِهِ وأولادِه هو نعيمُ الجنَّةِ الدّائمُ، الذي لا يتوقَّفُ، ولا ينقطعُ؛ بسببِ ما عملوهُ في الدُّنيا، وما قدَّموه مِنَ الصّالحات؛ ناسب الانتقالُ إلى الضِّدِّ، وهم الذين كفروا، وعملوا المفاسدَ والفجور في الأرضِ، لبيانِ عقابِهم في الآخرةِ، وهم الذين كفروا برُسُلهم، ولم يؤمنوا بما جاؤوهم بهِ كِبرًا وعنادًا، وأصرّوا على التَّفاخُر بكثرة أموالِهم وأولادِهم؛ ليظهرَ الفارقُ بينَ الفريقين واضحًا جليًّا[1]، ولتعملَ المقابلةُ بينهما عملَها في العقولِ والنُّفوس.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡعَوۡنَ﴾: (سعي) المُعتَلُّ أصلٌ يدلُّ على مُضيٍّ قِطَع مِنَ اللَّيل[2]، والسَّعيُ: المَشْيُ السَّريعُ، وهو دونَ العَدْوِ، قال تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [الجمعة: 9]، ويُستَعْمَل للجدِّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، وقال: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾ [الإسراء: 19][3]، فالسَّعيُ في الآيةِ هو مضيٌّ لتنفيذِ شرٍّ معلوم.

2) ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: (عجز) يَدُلُّ عَلى الضَّعْفِ[4]، يُقالُ: فُلانٌ عاجَزَ فُلانًا؛ إذا ذَهَبَ، فَلَم يوصَلْ إلَيه، وأَعجَزْتُ فلانًا، وعَجَّزْتُه، وعاجَزْتُه: جعلته عاجِزًا، قالَ تَعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 555.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعو).
(3) الراغب، مفردات القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سعى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).

﴿ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 2]، وقال: ﴿يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾، ومعناه: ظانّين ومقدِّرين أنَّهم يُعْجِزوننا[1].

3) ﴿مُحۡضَرُونَ﴾: (حضر): إيرادُ الشَّيْءِ ووُرودُهُ ومُشاهَدَتُهُ[2]، ثمَّ جُعِلَ اسمًا لشهادة مكانٍ أو إنسانٍ أو غيره، قال ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [البقرة: 180]، وقال: ﴿وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾ [يس: 32]، وقال: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾[3]، أي: يُحْضِرُهم المُوَكَّلون بهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن أرادَ الحضورَ في الدُّنيا بالكفرِ فسيكون في الآخرةِ بالخزي

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ أنَّ الذين يَسْعَونَ في إبطالِ الآياتِ الدالَّة على وحدانيَّة اللّه تعالى وصدقِ رُسُله، زاعمين سبْقَهم وعدمَ قدرة أحدٍ عليهم، سوف تُحضِرُهم ملائكةُ العذابِ بدون شفقةٍ أو رحمةٍ، وتُلقي بِهم في عذابِ جهنَّم، وبئس القرارُ[4]، فهم أرادوا الحضورَ في الدُّنيا، فكان لهم في الآخرةِ جزاءٌ وِفاقٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

ذِكرُ عاقبةِ الكافرين إثرَ عاقبةِ المؤمنين ترهيبٌ يستدعي تحذيرًا

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ﴾ تحتملُ أن تكونَ استئنافيَّةً، جيءَ بها للتَّنبيهِ على جزاء الذين يُصرِّون على الكفر، ظانّين عدمَ قدرة اللّه عليهم؛ إنذارًا وتحذيرًا مِنَ السَّير على منوالِهم، وتحتمل أنْ تكونَ عاطفةً ما بعدَها مِن حال الكافرين على ما قبلَها مِن مآلِ المؤمنين جريًا على منهجِ البيانِ القرآنيِّ في تعقيبِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ والعكس؛ لِما لذلك من أثرٍ قويٍّ في نفوس

(1) الراغب، مفردات القرآن: (عجز).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حضر).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (حضر).
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 299.

المتلقّين، فالعطفُ مِن باب عطفِ الجزاءِ على الجزاءِ، مع اختلافِ حقيقةِ كلٍّ منهما.

ذمُّ الكافرين بذكرِ سببِ عقابهم الأخرويّ

فائدةُ استعمالِ الاسم الموصول:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن المسندِ إليه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ﴾ بالاسم الموصول؛ ليَتَوَصَّلَ بما في حيِّزه مِنَ الصِّلة إلى ذمِّ المعاندين، وبيانِ السَّبب في عقابهم بما بَيَّنَتْهُ الآيةُ الكريمةُ، وتعريضًا بالكافرين الذين يفعلونَ ذلك مع رسولِ اللّه ﷺ، وتحذيرًا لهم من الاستمرارِ فيه.

المعاندون مجتهدون جادّون في الصدِّ عن الآيات الصّادقة

بلاغةُ الاستعارةِ في مفردة ﴿يَسۡعَوۡنَ﴾:

فعلُ ﴿يَسۡعَوۡنَ﴾ مستعارٌ للاجتهادِ في العمل، كقولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢﴾ [النازعات: 22]، وإذا عُدّيَ بـ﴿فِيٓ﴾ كان في الغالب مرادًا منه الاجتهادُ في المضرَّة، فمعنى ﴿يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يجتهدونَ في إبطالِها[1]، ففيه دلالةٌ على أنَّ المعاندين جادّون في قصدِهم إبطالَ ما جاءَهم بهِ الرَّسولُ من آياتٍ وبراهين دالَّةٍ على وحدانية اللّه، ودالَّةٍ كذلك على صِدقِ ما جاءهم به، ويبذلون قُصارى جهدِهم في التَّهوين من شأنِها، وصرفِ النّاسِ عنها، وأوثِرَ التَّعبيرُ به مضارعًا؛ لما يفيدُه مِن الدِّلالة على تجدُّد سَعْيِهم، واستمرار مكرِهم وتفنُّنِهم في الكيد والصَّدِّ عن كلِّ ما جاءَ بهِ الرَّسول الكريم[2].

تصويرُ المعاندين بمَن يسيرُ في كلِّ طريقٍ يريدُ الإضلالَ

فائدةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

التَّعبيرُ بحرف الجرِّ المفيدِ للظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يدلُّ على أنَّ الكافرينَ يجتهدونَ في الإضرارِ بشخص الرَّسول وبرسالته، ويشتدّون في الطَّعن والتَّلفيق والتَّهوين مِنَ الآيات التي أيَّده اللّه بها[3]، مع ما في استعمالِ الحرفِ من تصويرِ سعيهم في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 218.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 516.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 218.

الآياتِ، بسعي شخصٍ في طرقاتٍ واسعةٍ، أي: هم يسيرون في كلِّ طريق لمحاربة دينِ اللّٰهِ تعالى ورسلِه.

دلالةُ اختيارِ لفظِ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ جمعًا دونَ مرادفاتها:

الأدلـةُ الإلهيَّة عاليةُ الوضوح لا يصحُّ معها إلا التَّسليم

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن الأدلَّة والبراهين التي جاء بها الرَّسولُ إلى قومِهِ بلفظ: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الموضوعِ للعلاماتِ الظاهرة[1]؛ للدَّلالة على أنَّها أدلَّةٌ واضحةٌ لا يمكن إنكارُها، وبراهينُ ساطعةٌ لا ينبغي إلّا تصديقُها، والإيمانُ بالرَّسول الذي بُعث بها، ولإثبات أنَّهم لم يكفروا بها، ويطعنوا فيها إلّا عنادًا واستكبارًا، وهذه المعاني لا تتحقَّق إذا جاءَ التَّعبير بكلماتٍ من قبيلِ: (دلائل) و(علامات)، التي قد لا يتوَفَّر فيها عنصرُ الظُّهورِ والبروز الدّافع للإيمانِ والتَّصديقِ، وفي التَّعبيرِ بها جمعًا دلالةٌ على كثرةِ معجزات الأنبياءِ وتنوُّعِها.

دلالةُ الإضافة وبلاغتُها:

فخامةُ الآياتِ وعظمتُها من عظمةِ مرسلِها

آثر النَّظمُ الكريمُ إضافةَ الآياتِ إلى ضمير الحقِّ سبحانه بصيغة التَّعظيم في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ لما تُحَقِّقُه الإضافةُ من تفخيم المُعجزات وتعظيمِها، والدِّلالة على أنَّ اللّٰه تعالى - بما لهُ من الكمالِ والاقتدارِ - هو الذي أيَّد رُسُلَه بها، وفيها كذلك إلماحٌ إلى أنَّ الواجبَ على المُرسَل إليهم أن يُؤمنوا بها، ويُذعنوا لما فيها مِنَ الوضوحِ الظّاهر والبرهان القاطع، إلّا أنَّهم كفروا بها بسببِ كِبرهم وعنادِهم.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الحال:

التَّشنيعُ بتبجُّح المعاجزين، وتقبيح اجترائهم على التَّكذيب

قَدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ على الحال ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الكافرين سارعوا في إنكارِ المُعجزات التي لا يُمكن إنكارُها، وتمادَوا في تكذيبِ ما يجبُ التَّصديقُ به، وفيه كذلك تشنيعٌ بتبجُّحِهم وتقبيحٌ لاجترائِهم على تكذيبِ الآيات التي أيَّد اللّٰهُ تعالى بها أنبياءَه ورسلَه.

---

(1) الراغب، مفردات القرآن: (أي).

مِن سَفَهِ الكافرين محاولتهم تعجيزَ آياتِ الله تعالى

علَّةُ اختيارِ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ بصيغة المفاعلة:

في التَّعبيرِ عن حال الكافرين السّاعين في الآياتِ بقوله تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّهم يطلبون تعجيزَها، أي: تعجيزَ الآتين بها عن إنفاذِ مراداتِهم[1]، والمعاجزُ: المُسابقُ الطّالب عجزَ مسايرِه عن الوصول إلى غايته وعن اللَّحاق به، فصيغ له وزنُ المفاعلةِ؛ لأنَّ كلَّ واحد يطلبُ عجزَ الآخرِ عَن لحاقِهِ، والمَعنى: أنَّهم بِعمَلِهم يغالبون رسولَ اللّه ﷺ، وهم لا يشعرونَ أنَّهم يحاولونَ أن يغلبوا اللّهَ، وقد ظنّوا أنَّهم نالوا مرادَهُم في الدُّنيا، ولم يَعلموا ما لَهم مِن سوءِ العاقبةِ[2].

جَمْعُ أهل الكُفْرِ بَيْنَ ضَلالهم في أنفسهم وإضلالِهم غيرهم

توجيهُ القراءتَيْن في قوله: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾:

قرأ الجمهور ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ بألف بعد العين، بينما قرأها ابن كثير وأبو عمرٍو البصريُّ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ بفتح العين وتضعيف الجيم[3]، وعلى قراءة الجمهور يكون معنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مُسابقين مشاقّين للسّاعين فيها بالقبول والتَّحقيق، مِن: (عاجَزَهُ فأعجزه): إذا سابقه فسبقه؛ لأنَّ كلّا من المتسابِقَينَ يطلب إعجازَ الآخر عن اللُّحوق به[4]؛ فالمعنى: مُعاندين، وقيل: معناه: ظانّين أنَّهم يغلبونَ الرَّسول وأتباعَه، وقيل معناه: يحسبونَ أنَّهم يفوتوننا لإنكارهم البعث والثَّواب والعقاب، فلا نقدر على إعادتهم ومُعاقبتهم[5]، وعلى قراءة ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ بتشديد الجيم يكون المعنى: مُبطِّئين مُثبِّطين؛ أيْ: يُثبِّطون النّاس عن اتِّباع الحقِّ، وقيل معناه: ينسبون المؤمنين إلى العجْزِ[6]؛ فهما قراءتان مشهورتان مُتقاربتا المعنى؛ وذلك أنَّ من عجَّز المؤمنين

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 516.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 295.
(3) ابن الجَزَريّ، النَّشر: 2/ 327.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 75.
(5) ابن خالَوَيْه، الحُجّة، ص: 254، والأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 185، والفارسيّ، الحُجَّة: 5/ 284.
(6) ابن زَنْجلَة، حُجَّة القراءات، ص: 481.

عن آيات اللّه، فقد عاجزَهم وغالبهم وفاز عليهم، وكان من صفة القوم الذين أنزل اللّه هذه الآيات فيهم أنَّهم كانوا يُبطِّئون النّاس عن الإيمان باللّه واتباع رسوله، ويُغالبون رسول اللّه ﷺ يحسبون أنَّهم يُعجِزونه ويغلبونه، وقد ضَمِنَ اللّه له نصرَهُ عليهم، فكان ذلك مُعاجزتهم اللّه[1]، ومِن بلاغة القراءتيْن تعاضدهما وتكاملهما في تصوير مشهد أهل الكفر وهم يصدّون عن سبيل اللّه؛ فقراءةُ: ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ تُقرِّر حالهم وهم يُعاجزون في آيات اللّه العظيم.

علّةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

المعاجزون يستحقّون العذابَ لإغراقِهم في الشَّرِّ

جيءَ بِاسمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في الإخبارِ عَن ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ﴾؛ للتَّنبيهِ عَلى أَنَّهمُ استَحَقّوا عَذابَ الجَحيمَ لِأَجلِ ما ذُكِرَ قَبلَ اسم الإشارَةِ مِن سَعْيِهم في إعاقَةِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ وتكذيبِ ما جاؤوا بِهِ مِن آياتٍ[2]، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للمبالغَةِ في ذمِّهِم وتحقيرِهم، والإشارةِ إلى بُعْدِ منزِلَتِهم في الشَّرِّ[3].

دلالةُ المقابلةِ باستعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

ظرفيّةُ أهلِ النّار تُقابل ظرفيّةَ أهلِ الغرفات

دلَّ حرفُ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ على أنَّ المعاندينَ سينغَمِسونَ في العذابِ، وسوف يحيطُ بهم إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ، ما يعني: أنَّهم لن يستطيعوا الخروجَ منهُ، ولَنْ يستطيعَ أحدٌ مِمَّنْ عوَّلوا عليه إنقاذَهم ممّا هُم فيهِ[4]، وما ألطفَ الظَّرفيَّة هنا المقابلة لظرفيَّة المؤمنين في الغرفاتِ، فهنالك الأمنُ والنَّعيمُ، وهنا الخوفُ والجحيمُ.

دلالةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾:

إذا أُطلِقَ العذابُ في سياقِ الآخرةِ فهو عذابُ النّار

(أل) في ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ لتعريف العهدِ، والمقصودُ به: عذابُ النار

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 602.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 218.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 516، والآلوسي: روح المعاني: 11/ 323.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 323.

الذي تحدَّث عنه البيانُ القرآنيُّ في أكثرَ مِن موضعٍ؛ جريًا على عادتِهِ في تقريب ما يحدثُ في الدّار الآخرةِ مِنَ العذابِ أو النَّعيم بذكر ما يعهدُه الناسُ، ويعرفونهُ؛ ليكونَ في تصوُّرِهِم له نوعٌ مِنَ التَّرغيبِ والتَّرهيب الباعثِ على تحقيقِ الغرضِ المنصوبِ لَهُ البيانُ مِنَ الإغراء أو التَّحذير.

الإحضارُ عذابٌ معنويٌّ يقودُ إلى عذابٍ حسيٍّ

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿مُحۡضَرُونَ﴾:

التَّعبيرُ عن الخبرِ باسم المفعول: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ الموكَّلين بالكافرينَ المعاجِزينَ مِن جندِ اللّهِ تعالى يحضرونهم على أهونِ وجهٍ وأسهلِه، وهم داخرونَ، فلفظُ الإحضارِ يدلُّ على غايةِ الإهانةِ لهؤلاءِ المعاجزين، مع ما فيه من التَّهكُّم بهم، والتَّعبيرُ بـ: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ اسمًا فيه دلالةٌ على الدَّوام[1] والمُلازَمَة، فَهوَ ارتقاءٌ في المَعنَى الَّذي دَلَّت عَلَيهِ أَداةُ الظَّرفيَّةِ مِن إحاطَةِ العَذابِ بِهِم[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

السَّعي والإسراع:

السَّعيُ يُستعمَلُ للجدِّ في الأمرِ، والإسراعُ يدلُّ على خلافِ البطء

السَّعيُ يدلُّ على المَشْيِ السَّريعِ، وهو دون العَدْوِ، قال تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [الجمعة: 9]، ويُستَعْمَلُ للجدِّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾ [الإسراء: 19][3]، والإسراعُ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ البُطءِ، فالسَّريعُ: خِلافُ البَطيءِ، وسَرعانُ النّاسِ: أَوائِلُهُم الَّذينَ يَتَقدَّمونَ سِراعًا، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ [المعارج: 43]، وقال: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 133][4]، والتَّعبيرُ بالـ (السَّعي) أنسبُ لما تقصدُ إليهِ الآيةُ من بيانِ حالِ المُعاندين وحِرصهِم على تعجيزِ الأنبياءِ والرُّسلِ عنِ القيام

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 210.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 218.
(3) الراغب، مفردات القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سعى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (سرع).

برسالتِهم، وصدِّ الناس عن دعوتِهم؛ لدلالتِه على الجدّية في الأمر والشدَّة في العزم، بخلاف الإسراعِ الَّذي لا يُشترَطُ فيه العزمُ بقدر ما يُنظرُ فيه إلى تَسارعِ الخُطا ومجرَّد السَّبق.

المعاجزةُ والمغالبة:

المعاجَزَةُ تعني: المحاولاتِ المتكرِّرةَ لتعجيز الأنبياءِ والرُّسلِ عن أداءِ رسالتِهم وتبليغ دعوتهم، "يُقال: أَعجَزتُ فلانًا وعَجَّزْتُهُ وعاجَزْتُهُ: جعلته عاجِزًا"[1]، وقصدُ القائمينَ بِها: عدمُ إتاحةِ الفرصةِ للرُّسل كي يقوموا بشيءٍ ممّا تتطلَّبُهُ رسالاتُهم.

المعاجزةُ المطالبةُ بتعجيزِ الآخر، والمغالبةُ يُلحظُ فيها القهرُ من غيرِ طلبِ التَّعجيز

أمّا المغالبةُ؛ فتعني محاولةَ قهرِ العدوِّ وهزيمته[2]، ما يدلُّ على أنَّ الهدفَ مِنَ المعاجزةِ يختلفُ عنِ الهدفِ مِنَ المغالبةِ، فالقصدُ في الأولى جعلَ الآخرَ عاجزًا تمامًا، والقصدُ في المغالبةِ تحقيقُ نصرٍ ماديٍّ أو معنويٍّ من غير تعجيزٍ للخصم أو صدٍّ عنه، وهو ما يجعل التَّعبيرَ بالـ (معاجزة) أنسبَ للسياق؛ لاتِّساقه مع ما يقصدُ إليهِ الكافرون من الحيلولةِ بينَ الرُّسل واستجابة النّاس لهم.

(1) الراغب، مفردات القرآن: (عجز).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ [سبأ: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بسطُ الرّزقِ شرٌّ عاجلٌ للكافرين وخيرٌ عاجلٌ وآجلٌ للمؤمنين

جاءت هذه الآيةُ بعد بيانِ جزاءِ الفريقين من أهل الجنَّةِ وأهل النّار، وقد تقدَّمت شبيهتها للرَّدِّ على مَن يظنُّ أنَّ بسطَ الرِّزق وقدرَه متعلِّقٌ بالرِّضا والسُّخط، فأتبعَ إبطال أن تكون الأموالُ والأولادُ بذاتهما وسيلةَ قربٍ لدى اللّه تعالى؛ ردًّا على مزاعمِ المشركين بما يشبهُ معنى الاستدراك على ذلك الإبطالِ مِن إثبات انتفاعٍ بالمال للتَّقرُّب إلى رضا اللّهِ إنِ استعملَ في طلبِ مرضاةِ اللّه تفصيلًا؛ لما أُشيرَ إليه إجمالًا من أنَّ ذلك قد يكون فيه قربةٌ إلى اللّه بقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنفَقۡتُم﴾: (نفق) يَدُلُّ عَلى انقطاعِ شَيءٍ وذَهابِهِ، يقال: نَفَقَتِ الدّابَّةُ نُفوقًا: ماتَت، وأَنْفَقَ الرَّجُلُ: افتَقَرَ، وذَهَبَ ما عِنْدَهُ[2]، وأنفقَ المالَ: صَرَفَهُ، وأذهبَهُ، وأصل الفعلِ للإنْفادِ، والإنْفاقُ يكون في المالِ وفي غَيْرِهِ، وقد يكون واجبًا وتَطَوُّعًا، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195][3]، ومعنى قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾، أي: ما أخرجتُم مِن مالٍ في سبيلِ اللّه تعالى.

2) ﴿يُخۡلِفُهُۥۖ﴾: (خلف) يدلُّ على أَنْ يَجيءَ شَيءٌ بَعدَ شَيءٍ يَقومُ مَقامَهُ، فالخَلَفُ: ما جاءَ بَعدُ، ويَقولونَ في الدُّعاءِ: "خَلَفَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 219.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نفق).

اللّهُ عَلَيكَ"، أَي: كانَ اللّهُ تَعالَى الخَليفَةَ عَلَيكَ لِمَن فَقَدْتَ مِن أَبٍ أَو حَميم، و"أَخْلَفَ اللّهُ لَكَ"، أَي: عَوَّضَكَ مِنَ الشَّيْءِ الذّاهِبِ ما يَقومُ بَعْدَهُ، ويَخْلُفُه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[1]، أي: يُعَوِّضُكُم خَيرًا مِنهُ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَسْطُ الرِّزقِ وقَدْرُه بيدِ اللهِ وحدَهُ

تدعو الآيةُ الكريمةُ رسولَ اللّه ﷺ إلى تكرارِ ما سبق أنْ قالَهُ للنّاس بصفةٍ عامَّةٍ وللمترفين بصفة خاصَّةٍ، من أنَّ بَسْط الرزق وقَدْرَه راجعٌ لإرادة اللّهِ تعالى ومشيئته، ولا علاقةَ له بشقاء الناس أو سعادتهم في الآخرةِ؛ لأنَّ مرجعَ ذلك إلى الإيمان والعمل الصّالح، وليس إلى كثرةِ الأموالِ والأولادِ، وأنَّ ما يُنْفِقُهُ أحدُهم في سبيلِ اللّهِ مِن المال الذي أَنْعَمَ به اللّهُ تعالى عليهِ، فسيُعوِّضُه عنه بما هو خيرٌ منه؛ جَريًا على ما هو معهودٌ مِن سُنَّة المولى سبحانه بزيادة الأسخياء من فضلهِ وكرمهِ وواسعِ عطائه[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الجملةِ عمّا قبلها:

بيانُ غايةِ بسطِ الرِّزق للأبرار بعد بيانِ عاقبة بسطِهِ للفجّار

جاء قولُه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ مفصولًا عمّا قبله لشبهِ كمال الاتِّصال، الذي تُجيب فيه الآيةُ المفصولةُ عن سؤالٍ أثارَتْهُ الآياتُ السابقة في نفس المتلقّي عن مدى انتفاع عبادِ اللّه تعالى بما يُنفقون من أموالِهم التي بسطَها اللّه لهم، فإنَّ الكافرين كانت عليهم عذابًا في النّار، فما حالُ المؤمنين؟ فكان الجوابُ تعليمًا لهم ما الذي يجبُ أن يكونَ عليهم، مِنَ الإنفاقِ في سبيلِ اللّهِ تعالى؛ لطلب النَّجاة عنده، وتحتمل أن تكونَ الجملةُ استئنافيَّةً، فيكون الفصلُ لاختلاف

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (خلف).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 299.

الآيتين خبرًا وإنشاءً، فيُفصلانِ لفظيًّا، لكنَّهما يتَّصلان معنويًّا؛ لأنَّ الحديثَ ما زال موصولًا بنِعَمِ اللّهِ تعالى، وأسبابِ الإنعامِ بهما على أناسٍ دون آخرين.

غرضُ الأمرِ ودلالته:

ترغيبُ المُخاطَبين فيما يُنجيهم مِن عذابِ الآخرة ويقرِّبُهم إلى الله زلفى

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ﴾ يُقصَدُ منْهُ توجيهُ النَّبيِّ ﷺ إلى إعادة المقولةِ الَّتي سبقَ أنْ أمرَهُ اللّهُ تعالى بقولِها؛ بقصد تقويةِ مَعناها وتأكيد مضمونِها، الدّالِّ على أنَّ بسْطَ أرزاقِ العِباد وقدْرَها راجعٌ إلى مشيئةِ اللّهِ تعالى وحكمتِه، وليس له علاقةٌ بِسعادتِهم وشقائِهم في الآخرة؛ لأنَّ مردَّ السَّعادةِ والشَّقاء في الآخرة راجعٌ إلى الإيمانِ والكفر، وليس إلى شيءٍ آخرَ مِن متاع الدُّنيا وزينتها، والغرضُ مِنَ الأمر بتكرار هذه المقولةِ: إرشادُ المؤمنينَ بصفةٍ خاصَّةٍ، والنّاس بصفةٍ عامَّةٍ وترغيبهم فيما يُنْجيهم مِن عذاب الآخرةِ، ويُقرِّبهم إلى اللّه تعالى زُلْفى، بعد تحذيرِهم ممّا يوجِب سخطَهُ وعذابَهُ في المقولة السّابقة.

غرضُ توكيدِ الخبرِ:

تثبيتُ مضامينِ الأخبارِ لدفعِ الأوهامِ الرَّديَّة وتثبيتِ الأفهامِ النَّديَّة

جاء الخبرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ مُؤكَّدًا بإنَّ والجملة الاسميَّة وتقديم المسندِ إليه على الخبرِ الفعلي؛ لأنَّ الكلامَ موجَّهٌ للنّاس جميعًا؛ موجَّهٌ للكافرين الذين يُنكِرون أنْ يوَسِّعَ اللّه في الدُّنيا على مَنْ لا يَرضى فِعلَهُ، والمعنى: ﴿قُلۡ﴾ يا أشرفَ الخلقِ لهؤلاء الجهلةِ الذين يظنّون أنَّ الرِّزق بحسب حُسن السَّعي وقبحه، أو حُسن حالِ الشَّخص عند اللّه وقبحها[1]، كما أنَّ الخبرَ موجَّهٌ أيضًا للمؤمنين بغرض تطمينهم وترغيبهم في إنفاق أموالهم في سبيل اللّه تعالى، دون خشيةٍ من نقصِها، أو خوفٍ مِن نفادِها؛ لأنَّ اللّهَ تعالى وعَدَ بِردِّ ما أنفقوهُ في سبيلِه منها[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 517.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 22/ 219.

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّة:

بسطُ الرِّزق وقدرُه مِن آثار الربوبيَّة

عبَّر النَّظمُ عن اللّهِ تعالى بعنوان الربوبيَّةِ، الموضوع للعنايةِ والرِّعايةِ والتَّعهُّد في جملة: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ﴾؛ لتأكيدِ أنَّ بسطَ الرزقَ وقدْرَه مِنْ أعمالِ الرُّبوبيَّة، التي تَغْلِبُ فيها مصالحُ الخلقِ وحاجاتُهم معيارَ الإيمانِ والكفرِ، إذِ الرِّزقُ بالأموالِ والأولادِ وغيرِهما مِنَ الأمورِ الَّتي تَكَفَّل اللّهُ تعالى بها؛ رعايةً لمصالح خلقِه، وحفظًا لحياتِهم، بقطعِ النَّظر عن إيمانِهم وكفرِهم.

دلالةُ الإضافةِ وفائدتها:

تشريفُ النَّبيِّ وتكريمُه والاهتمامُ برعايته وتوجيهه

أضافَ النَّظمُ الكريمُ وصفَ الربوبيَّة إلى ضميرِ النَّبيِّ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾؛ لِما في الإضافةِ مِنَ التَّشريف والتَّكريم الحاصلِ؛ بسببِ توجيههِ ﷺ إلى مُخاطَبة النّاس بهذا البيانِ المُعجزِ[1]، الذي يدلُّ على حُسنِ رعاية اللّه تعالى لعبدِهِ ورسولِه، وكمال عنايتِه بأمرِهِ وشأنِه.

بلاغةُ الاستعارةِ في اختيارِ فعل ﴿يَبۡسُطُ﴾:

تقريبُ صورة السَّعةِ في الرِّزقِ بما هو مشاهدٌ محسوس

في لفظِ ﴿يَبۡسُطُ﴾ استعارةٌ، حيث شُبِّهَ تَيسيرُ الرِّزق وتكثيرُهُ بالبسطِ الذي يعني: نشْرَ الثَّوبِ وغيرَه، فاستُعيرَ البسطُ لتيسيرِ الرِّزقِ وتوسيعِهِ على سبيلِ الاستعارةِ التصريحيَّة التبعيَّة، التي تُبرز معنى التوسيع والتَّيسير في صورةٍ محسوسةٍ ملموسة يدركُها المخاطَبُ ويعيها؛ إذ المَبسوطُ تَكثُرُ مِساحَةُ انتشارِهِ وتَتَّسِعُ[2].

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ لتعريف الجنسِ، وهي تدلُّ على أنَّ اللّهَ تعالى يوَسِّع على مَن يشاءُ مِن خلْقِهِ، فيعطيه مِن جميعِ أنواعِ الرِّزق وصنوفِهِ، أو للعهدِ الذِّهنيِّ، فيصدُق على ما يعرفُهُ النّاس مِنَ الأرزاقِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 517.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 214.

نوعُ (اللام) ودلالتُها:

اختصاصُ الله العبادَ بالبسط لحكمةٍ إلهيَّة

(اللام) في قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الاختصاصَ، وفيه دلالةٌ على أنَّ اللهَ يَختصُّ مَن يشاءُ مِن خَلْقه بالزيادة في الأموال والأولادِ وغيرِهما، وأنَّه قد يختصُّ بعضَ عباده بالبسط، كما اختصَّ المترفين، وقد يختصُّ بعضَهم بالقَدْرِ ابتلاءً وامتحانًا، فلا يدلُّ البَسْطُ على الرِّضا، ولا القَدْرُ على السُّخط، على ما عُرِفَ مِنْ سنَّته في هذه الدارِ[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بأداةِ الموصول (من):

احتمالُ بَسطِ الرِّزقِ يعمُّ جميعَ الخلائقِ بلا استثناءٍ

أوثِرَ التَّعبيرُ عن المجرورِ باسم الموصولِ العام في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ للدَّلالةِ على عموم احتمالِ بسطِ الرِّزقِ لكلِّ البشر دون استثناءٍ، فبَسْطُ الرزقِ وتوسعتُه ليس خاصًّا بأحدٍ دونَ أحد، ولا بطائفة دون طائفة، فقد يكون لعبادِه، وقد يكونُ لغيرِهم، ولا علاقةَ بينَهُ وبين الكفر والإيمان، أو الهدى والضَّلال[2].

نوعُ ﴿مِنْ﴾ ودلالتها:

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ هي البيانيَّة التي توضِّح مَن اختَصَّهم اللهُ تعالى مِن خَلقِه بسَعةِ الرِّزقِ وبسْطِه، ومَن اختصَّهم بقَدْرِ الرِّزق وكونِه مناسبًا للحاجة.

فائدةُ استعمالِ لفظِ (عباد) مضافًا:

تشريفُ المؤمنينَ وحضُّ المُترفينَ على سلوكِ سبيلِ المؤمنينَ

فائدةُ ذكرِ العبادِ في قولِه تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ الإيماءُ إلى أنَّه سبحانه في بسْطَةِ الأرزاقِ وقدْرِها متصرِّفٌ تصرُّفَ المالك في ملكه؛ إذ المبسوطُ لهم والمقدورُ عليهم كلُّهم عبيدُهُ، فحقُّهم الرِّضا بما قسم لهم مولاهم[3]، وأوثِرَ التَّعبيرُ عنهم بهذا الوصفِ مضافًا إلى ضمير المولى ﷻ: تشريفًا للمؤمنين، وترغيبًا للمُترفينَ في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 514.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 517.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.

سلوك مسلكِهم، والدُّخول في زمرتِهم، لينالوا الحُظوةَ عندَ اللّه، وأجرَ الإنفاقِ في سبيلِه، وليُنْجيَهم من عذابِ يوم القيامة، الذي توعَّد بِهِ مَنْ يُعاجِزون رُسلَهُ، ويتفاخرونَ بأموالِهم وأولادِهم.

نكتةُ إيثارِ صيغة (عِبادِ) على (عبيد):

العِبادُ لفظٌ يومِئُ إلى إرادةِ المؤمنين بدليلِ السّياق

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بوصف: (عِبادِ) دون (عبيد)؛ ولفظُ عباد أخصُّ من لفظِ عبيدٍ؛ إذِ العبيدُ يدخل فيه الفاجرُ والمؤمنُ، والعباد تختصُّ في غالب الاستعمالِ القرآنيِّ بالمؤمنين، وجيءَ به هنا للإلماحِ إلى ضرورةِ تسليم المخاطَبين لأوامر اللّه تعالى وحكمتهِ في جميع أمورِهم وشؤونِهم، ويدخلُ فيها ما يتَّصل ببسطِ الرِّزق وقَدْره دخولًا برهانيًّا، ففيها إيماءٌ إلى أنَّ بسطَ الرِّزق في هذا السياق يكونُ للمؤمنين بدليلِ لحاق الآيةِ في توجيهِ المؤمنينَ إلى الإنفاقِ في سبيل اللّه تعالى، فيكون العبادُ على ذلك شاملًا لجميعِ النّاس، لكنَّ المؤمنين هُم أولى النّاس في الدُّخولِ بدليل الإيماء السّياقي.

نكتةُ تقييدِ فعل البسط بـ: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾:

وجودُ التَّرف لا يدلُّ على الشَّرف

ذَكَرَ النَّظمُ القُرآنيُّ هَذا المَعنَى مَرَّتَين: مَرَّةً لِبيانِ أنَّ كَثرَةَ أَموالِهم وأَولادِهم غَيرُ دالَّةٍ عَلى حُسنِ أَحوالِهم واعتِقادِهم، ومَرَّةً لِبَيانِ أَنَّهُ غَيرُ مُختَصٍّ بِهِم، كَأَنَّهُ قالَ: وُجودُ التَّرَفِ لا يَدُلُّ عَلَى الشَّرَفِ، ثُمَّ إن سَلَّمنا أَنَّهُ كَذلِكَ، لَكِنَّ المُؤمِنينَ سَيَحصُلُ لَهُم ذَلِكَ، فَإِنَّ اللّهَ يُمَلِّكُهُم ديارَكُم وأَموالَكُم، والَّذي يَدُلُّ عَلَيهِ هوَ أَنَّ اللّهَ تَعالَى لَم يَذكُرْ أَوَّلًا: (لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ)، بَل قالَ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، وثانيًا: قالَ: ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، والعِبادُ المُضافَةُ يُرادُ بِها: المُؤمِنُ، ثُمَّ وعَدَ المُؤمِنَ بِخِلافِ ما لِلكافِرِ، فَإِنَّ الكافِرَ دابِرُهُ مَقطوعٌ، ومالُهُ إِلَى الزَّوالِ، ومآلُهُ إِلَى الوَبالِ، وأَمّا المُؤمِنُ؛ فَما يُنفِقهُ يُخلِفهُ اللّهُ، ومُخلَفُ اللّهِ خَيرٌ، فَإِنَّ ما في

يَدِ الإنسانِ في مَعرِضِ البَوارِ والتَّلَفِ، وهما لا يَتطرَّقانِ إلى ما عِندَ اللهِ مِنَ الخَلَفِ[1].

نوعُ الواوِ ودلالتها:

قَدْرُ الرزق يحصُلُ للمؤمنين كما يحصُلُ بسطُه

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَيَقۡدِرُ﴾؛ لعطْفِ ما بعدَها على جملةِ: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ جيءَ بها؛ للدَّلالة على أنَّ قَدَرَ الرِّزق راجعٌ كذلك إلى مشيئة الله تعالى وحكمتِه، وأنَّه يحدثُ لِعِباده المؤمنين، كما يحدثُ لغيرِ المؤمنين، ما يؤكِّد أنَّه ليس مختصًّا بطائفةٍ دون أخرى، ولا علاقةَ له بحالِ النّاس في الآخرة.

دلالةُ استعمالِ ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ بصيغة المضارع:

قَدْرُ الرزق شأنُه شأنُ البسط في كونِهما يتجدَّدان لحكمةٍ إلهيَّة

التَّعبيرُ بالفعل ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ الموضوع لِمَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِهِ[2]، فيه دلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى إذا قدَرَ على أحدٍ؛ رزقَه، فإنَّه يعطيه على قدر حاجتِه، ويفعل ذلك لحكمةٍ وغايةٍ، وأوثِرَ التَّعبيرُ به مضارعًا؛ لدلالته على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ، الذي يفيدُ: أنَّ اللهَ تعالى يتجدَّدُ قَدْرُ رزقه على مَنْ يشاءُ مِنْ خَلقِهِ، وليس شرطًا أنْ يكونَ ذلك دليلَ سخطِه على مَنْ قدَرَ عليهِ رزقَهُ، أو دليلَ رضاهُ على مَن بَسَطَ لهُ في الأموالِ والأولادِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿وَيَقۡدِرُ﴾:

قَدْرُ الرِّزق تضييقٌ مقصودٌ لتحقيقِ الحكمةِ ودفع المفسدة

في قولهِ تعالى: ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ استعارةٌ، شُبِّهَ فيها عُسْرُ تحْصيلِ الرِّزق وقِلَّةُ حاصِلِه بالتَّقْدير، الذي يعني: التَّحْديدَ والإعطاءَ على قدرِ الحاجة، فاستُعيرَ القَدْرُ لِعُسرِ التَّحصيل وقلَّتهِ على سبيل الاستعارةِ التصريحيَّة التَّبعيَّة التي تبرزُ قلَّةَ الرِّزقِ وضيقَه، بحيثُ يكونُ على قدرِ المطلوب، ويَسْهُلُ عَدُّهُ وحسابُهُ، ولِذَلِكَ قيلَ في ضِدِّهِ: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾ [البَقَرَة: 212][3].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 210.

(2) ابن فارس: مقاييس اللغة: (قدر).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 214.

نكتةُ حذفِ متعلِّق ﴿وَيَقۡدِرُ﴾:

مَفعولُ ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عَلَيه مَفعولُ ﴿يَبۡسُطُ﴾، والمعنى: يَقْدِر الرِّزقَ لِمَن يشاء، وفي حذْفِه ودلالة مفعول فعل البسْطِ المذكورِ عليه تأكيدٌ وتقويةٌ؛ لأنَّ قَدْرَ الرِّزق مع عبادِ اللّه ومع غيرِهم يجري عليه ما يجري على بسْطِه مِنَ الخضوع لمشيئةِ اللّه تعالى وحكمته، وأنَّ وراءه أسبابًا لا يُحيطُ بها الناسُ، ولا علاقةَ بينه وبين الهدى والضَّلال، أو الكفر والإيمان.

قَدْرُ الرِّزقِ كبسْطِهِ في ميزانِ الحقِّ

نوعُ اللامِ ودلالتها:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ لامُ الاختصاصِ، والضَّميرُ فيه يعود إلى اسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ اللّهَ تعالى قد يخصُّ إنسانًا ببسْطِ الرِّزقِ وقدره في حالين متعاقبَين، وهو بصفةٍ واحدةٍ على عملٍ واحد، لحكمةٍ يعلمها، ولو أنَّ الإكرامَ والإنعامَ يوجب الدَّوام لَما تغيَّرت حالُهُ مِنَ السَّعة إلى الضّيقِ، ولو أنَّ في يده نَفْعَ نفسِهِ؛ لما اختلفَ حالُهُ(1).

الإكرامُ والإنعامُ لا يوجبُ الدوام وكذلك القدرُ

نكتةُ استعمالِ اللّامِ دونَ (على) في ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾:

أوثِرَ استعمالُ حرفِ اللّامِ في قوله: ﴿لَهُۥٓ﴾ دون حرف (على)، فلم يقل: (عليه)؛ لئلّا يُحمَلَ القَدْرُ على معنى التَّضييقِ الَّذي قد يكون مقصودًا لذاته، ولا تقف وراءَهُ حكمةٌ أو هدفٌ، ويمكن للإنسان أنْ يدفعَهُ بنفسِه أو بمعونة غيرِه، ولبيانِ أنَّ هذا القدرَ هو لمصلحته الأخرويَّة، وهي المصلحةُ الَّتي عليها مدارُ مصالح العبادِ الدُّنيويَّة، وفي تَعْليقِ ﴿لَهُۥٓ﴾ بفعل ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ إيماءٌ إلَى أنَّ ذَلكَ القَدْرَ لا يَخلو من فائِدَةٍ لِلمَقدورِ عَلَيه رِزقُهُ، وهيَ فائِدَةُ الثَّوابِ على الرِّضا بما قُسِمَ لَهُ، والسَّلامةِ مِنَ الحِسابِ عَلَيهِ يَومَ القيامَةِ(2).

قَدرُ الرِّزقِ لتحقيقِ مصلحةِ العبادِ لا للتَّضييقِ عليهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 517.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 219.

نوعُ الواوِ ودلالتها:

الواو في قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لعطفِ الجملةِ على جملة: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الإنعامَ بالمالِ يجب أنْ يكون مصحوبًا بالإنفاق في سبيلِ اللّه، لا أنْ يكونَ سببًا في التَّفاخرِ وادِّعاء الامتناعِ مِنْ عذابه.

الإنعامُ بالمالِ على المؤمنين يُستصحَبُ بالإنفاق

نوعُ (ما) ودلالتها:

يجوز في (ما) أن تكونَ شرطيَّةً في موضع نصب بـ ﴿أَنفَقْتُم﴾، وقولُه: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ جوابُ الشَّرط، ويحتمل أن تكونَ موصولةً بمعنى الذي في موضعِ رفعٍ بالابتداء، والجملةُ ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ خبرها، ودخلتِ الفاءُ لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط[1]، وسواءٌ أكانت شرطيَّةً أم موصولةً؛ ففي التَّعبير بها دلالةٌ على عموم الجزاء لكلِّ ما ينفقُهُ العبدُ في سبيل اللّهِ، سواءٌ أكان قليلًا أم كثيرًا، وفيه مِنَ التَّرغيب ما لا يخفى.

الجزاءُ يعمُّ كلَّ ما يُنفِقُه العبدُ في سبيل الله

دلالةُ استعمالِ مفردةِ الإنفاق بصيغةِ الماضي:

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بالفعل: ﴿أَنفَقْتُم﴾؛ ليشملَ الإخلافُ الذي وعَدت به الآيةُ كلَّ ما يتمُّ إنفاقُه سواء أكان واجبًا أم نافلةً، فدلالةُ العموم مرادةٌ لينالَ صاحبها الجزاء الأحسنَ يومَ القيامةِ، وجاء التَّعبيرُ بفعل الإنفاقِ ماضيًا ﴿أَنفَقْتُم﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الثَّوابَ حاصلٌ على ما تحقَّقَ إنفاقُه، وليس على ما شحَّتْ بهِ النُّفوسُ، وأمسكتْ عن إخراجهِ الأيدي.

الجزاءُ يكون لما تحقَّقَ إنفاقُه في سبيل الله تعالى

تعيينُ مرجعِ الضمير:

الضَّميرُ المرفوعُ في قوله تعالى: ﴿أَنفَقْتُم﴾ يعودُ إلى عموم المخاطَبين، سواءٌ أكانوا مؤمنين أم كافرين، والمعنى: أنتم وأخصامُكم وغيرُهم[2]، اتِّساقًا مع التَّرغيب الذي تقصدُ إليه الآيةُ الكريمة.

---

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 196، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 324.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 517.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ هي البيانيَّةُ التي تُبيِّن ما أُبهِمَ ذِكرُهُ في فعل الإنفاق، أو لتوكيدِ المُنفَقِ في كونهِ أيَّ شيء يُنفَقُ في سبيل الله فسوف يخلِفُهُ اللهُ على صاحبه.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿شَيۡءٖ﴾:

المؤمنُ لا يحقرُ مِنَ المعروفِ شيئًا فهو في ميزان الله عظيمٌ

تنكيرُ لفظِ ﴿شَيۡءٖ﴾ يؤكِّد ما سبق ذِكْرُه مِن أنَّ كلَّ ما يُنفِقُه العبدُ في سبيل الله، سواءٌ أكان شيئًا كاملًا، أم بعضَ شيءٍ، أم أكثرَ مِن شيء، فإنَّ اللهَ تعالى يَعِدُ بأن يُخلِفَه على صاحِبه، تفضُّلًا منه وتكرُّمًا وزيادة في الإنعام والتَّشريف لِمَنْ يفعلُ ذلك من عبادِهِ.

نوعُ الفاء ومعناها:

الإنفاقُ سببٌ رئيسٌ في الزيادةِ والإخلافِ

(الفاء) في قولهِ تعالى: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ هي الواقعةُ في جوابِ الشَّرط، والتي تُفيد ترتُّب ما بعدَها على ما قبلَها، وتسبُّبه عنه، وفي التَّعبير بها دلالةٌ على أنَّ الإنفاق سببٌ رئيسٌ في الزيادة والإخلاف، وليس التَّفاخُر بالأموال والأولاد، ما مِن شأنهِ التَّرغيبُ في الشَّرط والحثُّ على المُسارعةِ فيه، دون خوفٍ مِنَ النَّفاد أو النُّقصان.

نكتةُ تقديمِ المسند إليه:

تأكيدُ حصولِ الإخلافِ وتحقيقُ الوثوقِ في وقوعه

قُدِّمَ المسندُ إليه (هوَ) على الخبر الفعلي: ﴿يُخۡلِفُهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾؛ لتقوية حصولِ الإخلافِ وتأكيدِه، وللإشارة إلى ضرورة الوثوق بوقوعِه وعدمِ الشَّكِّ فيه، ويُزاد على ذلك تفخيمُ الإخلافِ الذي يتولّاه اللهُ وتعظيمُهُ، ويمكن أن يكونَ التَّقديمُ لقصر الإخلافِ على الله تعالى ونفيه عن أيِّ أحدٍ غيرِه، والمعنى: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ لا غيرُهُ؛ بدليل أنَّ المُنفِقَ قد يجتهد كلَّ الاجتهادِ في الإخلاف، فلا يُنفِقُ، فدلَّ ذلك على أنَّه المُختصُّ بالإخلاف[1].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 518، والزمخشري، الكشاف: 3/ 586.

تفخيمُ الخُلْف بإخفاءِ قيمته وترك ذلك لكرم الرَّؤوف الرحيم

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ (الإخلاف) بصيغةِ المضارع:

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ فعلِ الإخلاف المُسنَدِ إلى ضمير الحقِّ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ دونَ مرادفاتِه؛ للدَّلالة على أنَّ اللّه تعالى سيتفضَّلُ بتعويضِ المُنفِق عمّا أنفقَهُ في سبيلِه مِن غيرِ توضيحٍ لقيمة العِوَض أو التزام به، ما يفيدُ التَّفخيم والإثارةَ إلى أنْ تذهبَ النَّفسُ في الخلف كلَّ مذهبٍ؛ لأنَّه إذا كانتِ العطيَّةُ على قدر المُعطي، فكيف يكون خُلْفٌ يعطيه اللّهُ سبحانه؟ وذلك بخلافِ (التعويض) - مثلًا - الذي يكونُ على سبيل الإلزام وبالقيمة المُكافِئة لما يَتِمُّ التَّعْويضُ عنه[1]، وجاء بصيغةِ المضارع؛ لأنَّ الإخلافَ سيحصلُ في المستقبل، وللدَّلالةِ على إمكان تجدُّده وحصوله مرّاتٍ ومَّراتٍ، لا يحُصي عددَها أحدٌ إلّا اللّهُ تعالى.

لعلم اللّه تعالى بعظيم أجرِ الإنفاقِ رغَّب العبادَ فيه وحثَّهم عليه

بلاغةُ الكنايةِ في الوعد بإخلاف النَّفقات:

في الوَعْدِ بإخْلافِ ما يُنْفِقُهُ المَرْءُ كنايَةٌ عَنِ التَّرْغيبِ في الإنفاقِ؛ لأَنَّ وعدَ اللّهِ بإخْلافِه مَعَ تأْكيدِ الوَعْدِ يَقتَضي أَنَّهُ يُحِبُّ ذَلِك مِنَ المُنفِقين، حَيْثُ أَكَّدَ ذَلِكَ الوَعْدَ بِصيغَةِ الشَّرطِ، وبِجَعْلِ جُملَةِ الجَوابِ اسميَّةً، وبِتقديمِ المُسنَدِ إليهِ على الخَبَرِ الفعليِّ بِقَولِهِ: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾، فَفي هَذا الوَعدِ ثَلاثَةُ مُؤَكِّداتٍ دالَّةٍ عَلَى مَزيدِ العِنايَةِ بِتَحقيقِهِ، لِيَنتَقِلَ مِن ذَلِكَ إِلَى الكِنايَةِ عَن كَونِهِ مَرغوبَهُ تَعالَى[2].

إخلافُ المُنْفِقِ يكونُ بما لا إحاطةَ به حسًّا وعقلًا

نكتةُ حذفِ متعلّقِ فعل ﴿يُخۡلِفُهُۥۖ﴾:

جاء فعلُ الإخلافِ ﴿يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ محذوفَ المُتَعَلِّق، لِما يفيدُه الحذفُ مِن إثارة النُّفوس إلى أن تذهبَ في المعمول كلَّ مَذهبٍ، ولِما يُفيده مِنَ العموم والشُّمول، الدّالِّ على أنَّ المُنفقَ قَدْ يُعَوَّضُ مِثل ما أَنفَقَ أو أَزْيَدَ، وقَد يُعَوَّضُ ثَوابًا، وقَد يُدَّخَرُ لَهُ، وهو كالدُّعاءِ في وعدِ الإجابَةِ،

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 237.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 220.

وقَد يُعَوَّضُ صِحَّةً، وقَد يُعَوَّضُ تعميرًا[1]، وقد يُعَوَّضُ بما لا إحاطةَ لنا به، ولا تبلغُهُ عقولُنا.

نوعُ الواوِ ودلالتها:

(الواو) في جملة: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ لعطف ما يليها على جملةِ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم﴾، والجملةُ داخلةٌ فيما أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بقولِه؛ تشجيعًا على الإنفاق وحثًّا عَليه، ويمكن أن تكونَ استئنافيَّةً، والجملة بعدها تَذْييلٌ؛ للتَّرْغيبِ والوَعدِ بالزِّيادةِ[2].

دلالةُ تقديمِ الضَّميرِ على المُسندِ:

ما يُخلفهُ خيرٌ ممّا ننفقهُ

قُدِّم المُسْنَدُ إليه: (هوَ) على الخبر: ﴿خَيۡرُ﴾ في جملة: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ لتأكيدِ أنَّ اللّه تعالى خيرُ الرازقين، وأنَّ ذلك مِنَ البدهيّاتِ التي لا شكَّ فيها، ولا إنكارَ لها، وأوثِرَ تكرارُ الضَّمير (هوَ) في جملةِ التَّذييل؛ لبيان أنَّ فاعلَ ذلك كلِّه هو اللّه، فالَّذي يبسُط الرِّزقَ، ويقدِره هو اللّه، والذي يأمر بالإنفاق هو اللّهُ، والذي وعدَ بالإخلافِ هو اللّه، وخير الرّازقين هو اللّهُ، وفي ذلك دلالةٌ على أَنَّ "ما يُخْلِفُهُ أَفْضَلُ مِمّا أَنْفَقَهُ المُنْفِقُ"[3]، وفيه أيضًا مِنَ التَّطمين ما لا يحتاجُ إلى بيانٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم التَّفضيل في الخبر:

رزقُ اللهِ تعالى لا تبلغُهُ قوى القادرين ولا إرادةُ المحسنين

التَّعبيرُ عن الخبرِ باسم التَّفضيل: ﴿خَيۡرُ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ إخلافَ اللّه لا نظيرَ له، ولن يبلغَ أحدٌ مبلغَهُ في العطاء والإخلافِ مهما أعطوا؛ لأنَّ كلَّ مُعطٍ يستمدُّ عطاءَهُ في الحقيقة مِنَ اللّه جلَّ في علاه، ما يعني: أنَّ ما سيُخلفُهُ، ويعوِّض بِهِ المنفقَ في سبيلِه أفضلُ ممّا يحصل بسبب إمساك المالِ، وأفضلُ ممّا يأتي مِن أيِّ طريقٍ آخرَ يتمُّ الإنفاق فيه، و﴿خَيۡرُ﴾ بِمعنَى: أَخيَرَ؛ لِأَنَّ الرِّزقَ الواصِلَ من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 220.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 220.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 220.

غَيرِهِ تَعالى إنَّما هوَ مِن فَضلِهِ أَجراهُ عَلى يَدِ بَعضِ مَخلوقاتِهِ، فَإذا كانَ تَيَسيرُهُ بِرِضًا مِنَ اللّهِ عَلى المَرزوقِ ووَعدٍ بِهِ؛ كانَ ذَلِكَ أَخلَقَ بِالبَرَكَةِ والدَّوامِ[1].

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لتعريف الجنسِ، وهو يستغرقُ جميعَ أفرادِ الرّازقين، وعبَّر عنهم باسم الفاعل باعتبارهم الموَصِّلين للرِّزق المتسبِّبين فيه.

نكتةُ إطلاقِ الرازق على غيرِ اللهِ تعالى:

تسميةُ غيرِ اللهِ بأنَّه رازقٌ باعتبارِ طريقِ الإيصال

جاء إطلاقُ لفظِ الرازقِ على غيرِ اللّه تعالى مجازًا باعتبار أنَّه واسطةٌ في إيصال رزقهِ تعالى، فهو رازقٌ صورةً، فاستُشْكِلَ أمرُ التَّفضيل بأنَّه لا بدَّ من مشاركة المُفضَّلِ المفضَّلَ عليهِ في أصلِ الفعلِ حقيقةً لا صورةً، وأُجيبَ بأنَّ اللّه خيرُ مَن تسمَّى بهذا الاسم، وأُطلِقَ عليه حقيقةً أو مجازًا[2]، ويُجاب بأنَّه يُقال: اللّهُ خَيرُ الرّازقينَ الَّذينَ تَظُنّونَهُم رازِقينَ، كما في قوله تعالى: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥﴾ [الصافات: 125]، أو يُقال: إنَّ العَبدَ إذا أَعطَى غَيرَهُ شَيْئًا؛ فَإنَّ اللّهَ هوَ المُعطي، ولَكِن لِأَجلِ صورَةِ العَطاءِ مِنهُ سُمّيَ مُعطيًا، كَما يُقالُ لِلصّورَةِ المَنقوشَةِ عَلى الحائِطِ: فَرَسٌ وإنسانٌ[3].

فائدةُ العدولِ بذكر لفظ ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

(الرزق) أعمُّ وأقوى من (الإخلاف)

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ دون (المُخْلِفين)، مع تقدُّم ذكرِ فعل الإخلافِ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾؛ وذلك لأنَّه أعمُّ مِنَ الإخلاف والتعويض، فالرازقُ ﷻ يرزق ابتداءً وإخلافًا، وترغيبًا وإحسانًا، ولو ذكر (المُخْلِفين)؛ لضاق الأمرُ، لكنَّه أتى بـ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لذكرِ الدَّعوى، وهي الرِّزق ابتداءً، والإخلاف فيما بعدُ، وهي الأنسبُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 220.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 324.

(3) الرازي، فتوح الغيب: 25/ 211.

في الاستدلال، فمَن رُزِقَ ابتداءً؛ يُخلَفُ انتهاءً، مع ما فيه مِن العموم لكلِّ أنواعِ الرِّزق إخلافًا وتعويضًا وإحسانًا وترغيبًا.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّفقةُ والصَّدقةُ:

النَّفقةُ عمومُ إخراجِ المالِ، والصَّدقةُ ما يُلحَظ فيه التَّطوُّع والوجوب

النَّفقةُ تدلُّ عَلى انقطاعِ شَيءٍ وذَهابِه، وأصلُ الفعل للإنفاد، والإنفاقُ يكون في المالِ وفي غَيرِه، وقد يكون واجبًا وتطوُّعًا، قال اللّه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]، وقال أيضًا: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾[1].

والصَّدقةُ تدلُّ عَلى قوَّةٍ في الشَّيءِ قَولًا وغَيرَهُ[2]، ومِنَ الباب الصَّدَقَةُ: وهي ما يَتَصَدَّقُ بِهِ المَرْءُ مِن مالهِ عَن نَفسِهِ وولده وغيرهما على وجه القربةِ كالزَّكاة، لكنَّ الصدَّقةَ في الأصل تُقال للمتطوِّع به، والزَّكاة للواجب، وقد يُسمّى الواجب صدقةً؛ إذا تحرّى صاحبُهُ الصِّدقَ في فعلِه، قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ [التوبة: 103][3].

ولمّا كانت الآيةُ تقصد إلى صَرْف المترفينَ وأمثالهم عن التَّفاخرِ بالأموال والأولاد، وتُرغِّبُهم في سلوكِ مسلكِ عِباد اللّٰه والدخول في زمرتِهم، كان التَّعبيرُ بـ (الإنفاق) أنسبَ؛ ليعمَّ قولُهُ: ﴿يُخۡلِفُهُۥ﴾ النَّفقةَ بجميع أنواعِها، سواء ما كان منها على جهة التَّطوُّع أو ما كان على جهة الفريضةِ.

الرِّزقُ والعطاء:

الرِّزق العطاءُ الَّذي لا يتوقَّف، ولا ينقطع، والعطاءُ ما يكون مكافأةً لشيءٍ ما

الرِّزقُ هو: العطاءُ الجاري الَّذي لا يتوقَّف، ولا ينقطعُ[4]، وقد يكونُ مالًا، وقد يكونُ غيرَهُ ممّا لا حصْرَ لَهُ ولا إحاطةَ بِهِ، بينما

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفق)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نفق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(3) الراغب، مفردات اللغة: (صدق).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 166.

العطاءُ: ما يتمُّ مناولتُه[1] مكافأةً لشيءٍ أو مقابل القيام بعملٍ مِنَ الأعمال، ولأنَّ الوعدَ بالإخلاف كان مِنَ اللّهِ تعالى؛ ناسبَ الإخبار عنه بـ: ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ تطمينًا للمخاطَبين، وإعلامًا بأنَّ المتكفِّل بالإخلافِ عليهم هو خيرُ الرّازقينَ الَّذين تغمرُهم نِعَمُهُ وأرزاقُه مِن غيرِ مقابلةٍ ولا مقايضةٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عطو).

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾ [سبأ: 40 - 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إبطالُ شُبُهاتِ أهلِ الشِّرْكِ

لَمّا ذكر اللّه تعالى في الآياتِ السّابقةِ جملةً من شُبُهاتِهم الباطلةِ، وعمِلَ على إبطالها من نحو استقوائِهم بكثرة المالِ والولد، وادعائهم أنَّها مانعةٌ لهم مِنَ العذاب، وبيَّن أنَّها لا تقرِّبهم إليه سبحانه زلفى، ومن نحو أنَّه تعالى هو مَن يبسطُ الرِّزق لعباده، وأنَّه خير الرّازقين لا مَن تعدّونهم، فتضيفون الرِّزق إليهم، فما هم إلّا وسائطُ لا يقدرون على شيء إلّا ما قدَّرهم اللّه عليه، فلمّا أبطل هذه الشُّبه؛ عُلِمَ أنَّ الأمر جميعَهُ للّه الواحد القهّار، ثمَّ إنَّه قد بقي من شُبَهِهِم عبادتُهُم الملائكةَ ظنًّا منهم أنَّهم يشفعون لهم؛ إذِ الملائكة من المقرَّبين، فأبطل هنا هذه الشُّبهةَ من تعلُّقهم بذلك، وبيَّن أنَّهم لا أمر لهم، وأنَّهم بريؤون من ذلكَ الادِّعاءِ، فما الملائكةُ إلّا خَلْقٌ مِن خلق اللّه، لا يعصون اللّه ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمَرون، وآيةُ ذلك أنَّهم تبرَّؤوا منهم مفتتحين كلامَهم بتنزيه الحقِّ ﷻ الذي لا يليقُ بجلالتِهِ أن يُعبدَ أحدٌ سواه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: (سبح) أصلانِ: أحدهُما جنسٌ من العبادَةِ، والآخرُ جِنسٌ من السَّعيِ[2]، وسبحانك: مضافٌ إلى الضَّمير العائدِ على اللّه تعالى، وجذره اللُّغوي (سبح)، ومنه التَّسبيحُ، ومعناه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 519 - 520.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).

التَّنزيهُ عن جميع ما لا يليق به ﷻ مِن أوصافٍ، وتبعيده من كلِّ ما يوصَفُ بالسّوء، فالتَّنزيه تبعيدٌ للَّه جلَّ ثناؤه من ذلك، فإنَّ مِن أقوال العرب: سبحان مِنْ كذا، أي: ما أبعدَهُ[1]، وله معانٍ أخرى كتعظيم اللَّه، وتمجيده بالصَّلاة والذِّكر[2]، ويعدُّ التَّسبيح من الأمور العامَّة الشّاملة في جميع العبادات قولًا أو فعلًا أو نيَّة[3]، ومعنى ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ وهو من قول الملائكةِ في الآية، أي؛ ننزِّهك يا ربَّنا تنزيهًا لك، ونبرِّئُك تبرئةً ممّا أُضيف إليك مِن هؤلاء مِن الشُّركاء والأنداد[4].

2) ﴿وَلِيُّنَا﴾: (ولي) أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُربٍ، من ذلك الوَلْيُ، يُقال: تباعدَ بعد ولْيٍ، أي: قُرب، وجلس ممّا يليني، أي: يُقاربني، ويدلُّ على اللُّزوم مع شيءٍ مِن جهة الاشتمال، وعدم الانفكاك، وكما هو حالُ الوليِّ؛ فإنَّه ملازمٌ لمولاه، لا ينفكُّ عنه، وتأتي الولاية بمعنى النُّصرة، وإن كانتِ الولايةُ كائنةً بين الكافرين في الدُّنيا، فإنَّها منفيَّةٌ عنهم في الآخرة[5]، أي: ينصر بعضُهم بعضًا في الدُّنيا، ويترك بعضُهم بعضًا في الآخرة، أمّا الحقُّ سبحانه؛ فهو الوليُّ الحقيق بهذا الاسم، ومعنى ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ هنا: "أي: ما كان ينبغي لنا أن نواليَ أعداءك، بل أنت وليُّنا من دونهم"[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

براءةُ الملائكةِ من عبادة الضّالّين

في اليوم الذي يحشرُ اللَّهُ تعالى الخلقَ؛ يسألُ اللَّه تعالى الملائكةَ عن هؤلاء الضّالّين أكانوا لكم عابدين حقًّا؟ فتنبري الملائكةُ تنزِّهُ ربَّها عن شِركهم، وأنَّه تعالى وحده الوليُّ من دون غيرِه، فلا يتَّخذ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سبح).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سبح).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سبح).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 299.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ولي).
(6) الثعلبي، الكشف والبيان: 19/ 377.

غيره وليًّا سواه، ونحن - أي: الملائكة - بريئون ممّا نسبوا إليك من الشِّرك والسّوء الذي أضافه لك هؤلاء، بل كانوا يعبدون الجنَّ، فهُم ضالّون سائرون على نهج الشَّياطين، مغترّون مصدِّقون بعبادتهم(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَيَوۡمَ﴾:

بيانُ جَمْعِهِم إلى الله تعالى يومَ الحَشْرِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ دالَّةٌ على العطف؛ فإنَّه لَمّا ذكرَ شيئًا من شُبهاتهم الباطلةِ، من نحو استقوائِهم بالمال والولد، وإضافةِ الرِّزق إلى غيره تعالى؛ فإنَّه قد بقي من تلك الشُّبهات عبادتُهم الملائكةَ بادِّعاء شفاعتها لهم، لا جرمَ أنَّ الملائكةَ مقرَّبون، غير أنَّهم بريئون من تلك الأباطيلِ، فعطف يومَ الحشر على قوله: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [سبأ: 31]، وأنَّهم مجموعون إليه بعد البعث(2).

فظاعةُ حالِ المُشْركين يومَ القيامةِ

وجملةُ الحشر من قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ متَّصلةٌ بما مرَّ من قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [سبأ: 31]، والمعنى: أنَّك لو رأيتهم في هذه الحالِ؛ لرأيت أمرًا فظيعًا، وهو أنَّهم محشورون جميعًا للحسابِ: العابدون والمعبودون(3).

ويجوز أن تكون الواوُ استئنافيَّةً(4) بادئةً بكلام جديد مستقلٍّ؛ فإنَّ الحشر واقعٌ على الجميع مِنَ المشركين، ومن عبدوه مِنَ الملائكة(5) لا يتعلَّق بشيء قبلَهُ، فيوم الحشر يومٌ آخر، سيجمعُ اللّهُ فيه النّاس جميعًا، فهو يمثِّل حدثًا مستقلًّا بذاته، وفي استقلاله إشارةٌ إلى أهمّيَّته البالغة.

(1) مكي القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 9534.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 519.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 308.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 104.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 454.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿وَيَوْمَ﴾:

التَّذكيرُ بعظمة يوم الجَمْعِ

﴿وَيَوْمَ﴾ مِن قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ مفعولٌ لعامل مضمرٍ، تقديره: واذكر يومَ يحشرهم[1]، وهو أسلوبٌ بلاغيٌّ يُضفي على الكلام قوَّةً وإيجازًا، ويجعل المتلقّي يشارك في استكمال المعنى بما فيه مِن دلالةٍ قويَّةٍ على عظمة يوم القيامة وجمْعِ النّاسِ فيه.

نكتةُ تنكير ﴿وَيَوْمَ﴾:

تعظيمُ يومِ الحشر وتهويلُ الأمر فيه

أورد لفظ ﴿وَيَوْمَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ نكرةً تهويلًا وتعظيمًا[2]؛ لتذهبَ النَّفسُ في تصويره كلَّ مذهبٍ ممكنٍ، فتتزاحم على المخاطَبين من الظُّنون المعترضة لما سيُصيبهم ذلك اليوم ما لا يتزاحمُ لو جاء بِه معرفةً.

دلالةُ التَّعبيرِ في الفعل ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾:

جمْعُ الخلقِ من غيرِ اختيارٍ منهم

للتَّعبيرِ بالحشر في قوله تعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ إشارةٌ بيانيَّةٌ، وهو أنَّه تعالى يجمعُهم غير مختارين ولا مريدين، وأنَّ في الحشر إشارةً إلى كثرتهم، وأنَّ هذه الكثرةُ ليست مانعًا من جمْعِهم وحسابِهم ومُجازاتِهم على ما كان مِن أفعالهم[3].

لطيفةُ صوغِ فعل الحشر مضارعًا:

تصويرُ مشهدِ الجموع المحشورة منتظرةً مصيرها

في التَّعبير بفعل الحشر ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بصيغةِ المضارع لطيفةٌ؛ وهي أنَّه أراد أن يصوِّر ذلك المشهد المهول حيث تموجُ تلك الجموعُ مِن البشرِ المحشورة بانتظار مصيرها زيادة في التَّخويفِ بما يدلُّ عليه الفعلُ المضارع من خاصَّة الحدوث والتَّجدُّد والاستمرار.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 423.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 83.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/ 2667.

اللهُ تعالى هو المتولّي حشرَ عبادِهِ يوم القيامة

مرجعُ ضميرِ الفاعل في ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾:

الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ مشتملٌ على ضميرٍ يعود إلى الحقِّ ﷻ[1]، فإنَّه هو المتولّي حشْرَ عبادِهِ يومَ القيامة لا غيره.

حشْرُ اللهِ تعالى الخلقَ ومعبوداتِهم من دونِهِ

مرجعُ ضميرِ المفعول في ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾:

الضَّميرُ (هم) في قوله تعالى: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ راجعٌ إلى الخلقِ جميعًا من المستكبرين والمستضعفين، وما كانوا يعبدون مِن دونِ اللّٰه تعالى[2] مِن الملائكة والجنِّ، فيجمعُهم المولى سبحانه؛ ليحاسبَهم على أفعالهم إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ.

استيعابُ الحشرِ جميعَ أصنافِ المشركين

دلالةُ الجمعيَّة في قوله: ﴿جَمِيعٗا﴾:

عبَّر بالجمعيَّة في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾، وهو لفظٌ على زنةِ (فَعيل)، ومعناه (مَفْعول)، أي: مجموع، يأتي دِرءًا لتوهُّم عدم الشُّمول، أو إرادة الخاصِّ بلفظ العامِّ، وهو معنى ﴿جَمِيعٗا﴾ في كلام العرب[3]؛ فإنَّه تعالى سيحشرُهم جميعًا؛ ليعمَّ حشرُه أصنافَ المشركين، وإن اختلفت نِحَلُهم واعتقاداتهم فيما يشركون؛ فإنَّ المشركين من العربِ لم يكونوا على مذهَبٍ واحد، بل كانوا نِحَلًا شتّى يأخذ بعضُهم من بعضٍ، وليس لهم مذهب منتظمُ العقائد والأقوال غير مختلط متنافٍ[4].

طولُ المدَّةِ وتراخيها يزيدُ من هولِ عذابِ الكافرين

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾:

لَمّا كانت مواقفُ المشركين في الحشر طويلةً، وزلازلُهُ عليهم مهولة[5]؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بما يبثُّه حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ مِنَ المهلة والتَّراخي[6]، وفي ذلك تحقيقُ مزيدٍ مِن عذابهم في

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 616.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.
(3) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/ 291.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 221.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 519.
(6) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 250.

تلك المواقفِ المهولة في تلك اللَّحظة الفارقة، مؤكِّدًا على طول المدَّة وتراخيها ممّا يزيد مِن هول العذابِ الذي ينتظرُ الكافرين.

موقفٌ طويل يتبعُهُ قولٌ يقرِّعهم ويؤيِّسهم

والمقرَّرُ في لسان العرب أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ دالَّةٌ على العطفِ مع التَّرتيب والتَّراخي، فيكون القول للملائكة متراخٍ عن الحشر، ويؤيِّده ما ورد في الآثار أنَّ الخَلق بعد الحشْرِ يبقون قيامًا في الموقف طويلًا من دون كلام؛ حتّى يشفعَ فيهم الرَّسول ﷺ، فعند ذلك يقال لهم ذلك القول من باب التَّقريع والتَّبكيت والإقناط عمّا تعلَّقت به أطماعُهم الفارغة من شفاعة الملائكة لهم[1]، وذلك ليس بكائنٍ البتَّة.

دلالةُ (القول) ومرجعه في ﴿يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

توبيخُ المشركين وتقنيطُهم من شفاعة مَن عبدوهُ

فعلُ القول في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ غرضُهُ توبيخ المشركين، وتقنيطُهم ممَّن يرجون منه الشَّفاعة[2]، والضَّمير فيه يعود على الحقِّ سبحانه، وفائدةُ التَّعبيرِ به مضارعًا تصويرُ يأسهم وقنوطهم، وفظاعة حالهم في يوم الوعد الذي أنكروه، وجحدوا وقوعَهُ[3]، كأنَّه محسوسٌ مشاهد.

نفيُ المعبوديَّة عَنِ الملائكةِ وإضافتها إلى الجنِّ؛ يقتضي كون الجنِّ غير الملائكةِ

وفي توجيه القول للملائكةِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ دلالةٌ تقتضي أنَّ الجنَّ ليسوا من الملائكة، وإلّا ضعفَتْ حجَّتهم؛ لأنَّهم إذْ ذاك ينفون المعبوديَّة عن أنفسِهم، لكنَّهم يضيفونها إلى طائفةٍ منهم، ويكون مِن نتيجةِ هذا أنَّ إبليسَ مِن الجنِّ لا مِنَ الملائكة[4].

توجيهُ القراءاتِ القرآنية في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿يَقُولُ﴾:

في الالتفات تعظيمٌ وتفخيمٌ يُلائِمُ يومَ الحشر

قُرِئَ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿نَقُولُ﴾ والنّون قراءةُ عامَّةِ القرّاء عدا حفصٍ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 324.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 519.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 221.

(4) الطوفي، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، ص: 516.

ويعقوبَ، فقد قرأاها بالياء[1]، فحجَّةُ من قرأه بالياء المناسبةِ للسّياق فيما قبلَهُ وما بعده ردًّا على لفظ الغيبة والإفراد في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ [سبأ: 39]، وقوله: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ [سبأ: 39]، وقوله: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، أمّا قراءةُ النّون؛ فهي خروجٌ مِنَ الغَيبة إلى الحضور، ومن الإفراد إلى الجمع، وفائدتُه الإخبارُ مِنَ الحقِّ ﷻ بلفظ الجمع للمتكلِّم تعظيمًا وتفخيمًا[2].

معنى (أل) في ﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

إبطالُ ألوهيَّة الملائكة يدلُّ على بطلان ألوهيّة ما دونها

(أل) في ﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تدلُّ على العهد؛ فإنَّهم الملائكةُ الذين كانوا يعبدونهم، والذين جعلوا بينهم وبين الجنَّة نسبًا بقولهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله من سروات الجنِّ، ونكتةُ اختصاص الملائكة بهذا القول: "أنَّ إبطالَ إلهيَّةِ الملائكة يفيدُ إبطالَ إلهيَّة ما هو دونها ممَّن عُبِدَ من دون الله بدلالة الفحوى، أي: بطريق الأَوْلى؛ فإنَّ ذلك التَّقرير من أهمِّ ما جُعِلَ الحشرُ لأجله"[3].

واختصاصُ الملائكةِ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ لكونهم أشرفَ شركائهم ومعبوداتهم[4]، فلا أصلحَ منهم للخطاب؛ ولأنَّ مبدأ الشِّرك متأتٍّ من عبادتهم، فإذا ظهر قصورُهم عن رتبة المعبودِ، واستبان تنزُّههم عن عبادتهم؛ ظهر حالُ غيرهم من شركائهم بطريق الأَوْلى[5] في كونهم خَلقًا من خلقِ اللّهِ، وإنَّما كانت عبادتهم من باب الضَّلال.

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 257.
(2) مكي القيسي، الكشف عن وجوه القراءات السبع: 2/ 209.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 380.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 137.

معنى (الهمزة) في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾:

في الخطاب التَّقريري عظةٌ للسّامعين وزجرٌ للجاهلين وتنبيهٌ للغافلين

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ استفهاميَّةٌ، والاستفهام خارج عن أصلِه في إرادة طلب العلم بشيءٍ لم يكن معلومًا من قبلُ، إلى معنى التَّقرير[1]، وفائدتها تتعلَّق بالسّامعين لا المخاطَبين من المشركين، فإنَّ الخطاب واردٌ على طريقة قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: 116]، وفي ذلك وعظٌ للسّامعين، وزجرٌ للجاهلين، وتنبيهٌ للغافلين[2].

مرجعُ الإشارةِ في ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾:

بيانُ حقيقةِ الضَّلال الذي وقعوا فيه

الإشارةُ بهؤلاء في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ راجعٌ إلى الفريق الذي عبد الملائكة والجنَّ، ومَن كان على شاكلتهم من المشركين[3]، وهم فئة ضالَّة اتَّخذت مِن هؤلاء آلهةً من دون اللّه تعالى؛ ليكشفَ لنا عن مدى سوء اختيارهم، وعن جهلهم بحقيقة الرُّبوبيَّة.

كشفُ زيفِ عبادة الأصنام وتأكيد مكانة الملائكةِ

ويجوز أن تكونَ الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ راجعةً إلى الأصنام لا إلى الملائكة، وآيةُ ذلك أنَّ هذا الخطابَ مشتملٌ على التَّهديد والوعيد، ومثل هذا الضَّرب مِن الخطاب لا يليق بالملائكة المقرَّبين[4].

نكتةُ تقديم المفعول ﴿إِيَّاكُمۡ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّه لا ينفعُ من العبادة إلّا ما كان خالصًا

تقديمُ المفعول على عاملِه في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ يدلُّ على التَّخصيص، أي: هل كانت عبادةُ هؤلاء خاصَّةً بكم دون اللّه تعالى[5]، وفي ذلك أبلغُ التَّحقيرِ لهؤلاء العابِدينَ؛ حيث لم يتوقَّف كفرُهم عند جعْلِ الشَّريك للّه تعالى،

---

(1) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 454.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15520.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/ 245.

(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 298.

بأن عبدوه، وعبدوا غيرَهُ، بل أفردوا غيرَهُ بالعبادَةِ، وهذا غايةُ الضَّلالِ والكُفرِ والإلحادِ.

التَّقديمُ أبلغُ في الخطاب وأنسبُ للفاصلةِ

ولتقديم المفعول ﴿إِيَّاكُمْ﴾ على عامله ﴿يَعْبُدُونَ﴾ فائدةٌ أخرى، وهي أنَّ التقديمَ أبلغُ في الخطاب، وفيه مراعاةٌ للفاصلة ﴿يَعْبُدُونَ﴾ مع ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾، ولو جاء على ما يقتضيه النَّظمُ من غير تقديم؛ لقال: يعبدونكم، فيكون الضَّمير متَّصلًا، فتفوت الفائدةُ بذلك(1).

الملائكةُ أشرفُ شركائِهم ممَّن عبدوهم مِنَ الأصنام

ويجوز في تقديم المفعولِ على عاملِه ألّا يكونَ من باب الحصرِ، كما هو المعهودُ في كلام العرب؛ لأنَّهم عبدوا غيرَ الملائكةِ، كما نطق به القرآنُ الكريم في موضعٍ آخرَ، وإنَّما التَّقديمُ كان؛ لأنَّ الملائكة أشرفُ شركائهم مِنَ الأصنام(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي ﴿كَانُواْ﴾:

الشِّركُ متأصِّلٌ عريقٌ في نفوسهم

يدلُّ التَّعبيرُ بفعل الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ على عراقتهم في الشِّرك في أنَّه كان شركًا متأصِّلًا في نفوسهم، فكانوا يعبدون الجنَّ والملائكة من دون اللّٰه اعتقادًا منهم بأنَّها تستحقُّ العبادة، فكشفت الآية حالَ الغفلةِ والضَّلال اللَّذين استمرَّا طويلًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿يَعْبُدُونَ﴾:

الإشارةُ إلى اعتقادهم استحقاقَ هذه المعبودات العبادةَ على الدَّوام

للتَّعبير بفعل العبادة ﴿يَعْبُدُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّهم كانوا يعبدونهم بأفعالهم الاختياريَّة والقسريَّة طوعًا وكرهًا؛ ليُعلم أنَّهم عبيدٌ خاضعون لكم بما أوتوا من قوَّةٍ وإرادة؛ لأنَّكم تستحقّون عبادتهم(3) على نيَّة الدَّوام والاستمرار بما يذيعه الفعل المضارع من خاصيَّة التَّجدُّد والاستمرار، وهذا أبلغُ في التَّشنيع على صنيعِهم في إمعانِهم في الشِّرك باللّٰه تعالى، ودوامهم على ذلك الباطلِ.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 556.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 528.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520.

لطيفةُ إسنادِ العبادة إلى ضمير جماعتهم:

أُسنِدَ فعلُ العبادةِ في قوله تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَ﴾ إلى ضمير الجمع؛ للإيماءِ إلى كثرةِ من يقعُ مِنه هذا الشِّرْكُ؛ إذْ إنَّ كثيرًا مِن الكافرين يدَّعون عبادةَ الملائكة من دونه تعالى[1].

غرضُ الاستفهام في الآية:

في التَّقريرِ تبكيتٌ وتوبيخٌ

الاستفهامُ في الهمزةِ في قوله تعالى: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ خارجٌ مخرج التَّقرير[2]، فإنَّ العبادة لَمّا كانت غيرَ نافعةٍ لانتفاءِ رِضا المعبود؛ خاطبَ المشركين بهمزة التَّقريرِ تبكيتًا وتوبيخًا؛ فيكون تقريعُهم أشدَّ، وتعبيرهم أبلغَ، وخجلهم أعظم[3].

التَّعريضُ بالمشركين بطريق ضرب الأمثال

والاستفهام في ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ خطابٌ موجَّهٌ إلى الملائكة، يُرادُ به التَّعريضُ بالمشركينَ[4]، على طريقةِ المثلِ: (إيّاكِ أعني، واسمعي يا جارة)[5]، فالتَّعريضُ في الآيةِ واقعٌ بطريقة ضربِ الأمثال في جملة المقال، وربَّ تعريضٍ أبلغُ مِنَ التَّصريح.

علَّةُ فصل جملة ﴿قَالُواْ سُبۡحَـٰنَكَ﴾:

جرى الفصلُ على منهج القول في المحاورة

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَـٰنَكَ﴾ عمّا قبلَهُ من غير أن يُباشِرَهُ العطف؛ لوقوعه في المحاورة محكيًّا؛ ولذلك أورِد ماضيًا، وهو الغالِبُ في الحكاية[6]، وهذا الحذف راجعٌ إلى الاستئنافِ البيانيِّ؛ لأنَّ حكايةَ قولٍ في محاورةٍ تبعثُ في نفس السّامِعِ سؤالًا عن ردِّ المحاورِ الآخَرِ، وكذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَـٰنَكَ﴾، هوَ استئنافٌ بيانيٌّ مؤسَّسٌ على سؤالٍ ناشئ من حكاية الملائكة، فإنَّه لَمّا أخبر بحشْرِهم وخاطَب الملائكة بصيغة الاستفهام التَّقريريِّ؛

(1) الإيجي، جامع البيان: 3/ 391.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 454.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 588.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.
(5) أبو عبيد، الأمثال، ص: 65.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.

نشأ سؤالٌ مفترض أنَّه ماذا يقول الملائكة حينئذٍ؟ فاستأنف بأن نزَّهوا الحقَّ ﷻ عن ذلك(1).

دلالةُ العدولِ إلى الماضي في ﴿قَالُواْ﴾:

إظْهارُ البراءةِ من الرِّضا بشرك المشركين

أورِدَ فعلُ القول مضارعًا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، فلمّا استأنف؛ عُدِل عن المضارِع، وأورِدَ ماضيًا بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾، والعدول من صيغة المضارع إلى صيغة الماضي، فائدتُه: الإشارة إلى تحقُّق الفعل(2)، فأنت يا ربَّنا ومولانا الذي نواليه من دونهم، ولا موالاة بيننا وبينهم، وفي ذلك إظهارُ براءتِهم ممّا نُسِبَ إليهم من الرِّضا بعبادتهم(3).

نكتةُ إسنادِ القول في ﴿قَالُواْ﴾:

إظهارُ عظمةِ الله تعالى وتحقيرُ الكافرين بألسنة ملائكيَّة طاهرة

في إسناد القولِ إلى ضمير الملائكة في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ هذا القول اعترافٌ على الكافرين، وإهانة لهم(4)، فهو قولٌ يتضمَّن إظهارَ عظمة اللّه تعالى، وتحقيرَ الكافرين بألسنة ملائكيَّة طاهرةٍ صدحت بالحقيقة؛ لتكشفَ عن عظمة الخالق، فنادتِ الملائكة بالتَّسبيح والتَّنزيه مؤكِّدة بطلان دعاوى الكافرين.

دلالةُ التَّسبيحِ وإضافته في: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾:

تنزيهٌ دالٌّ على خضوعهم وبراءتهم من رضاهم بالشِّرك

التَّسبيحُ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ حكاية عن الملائكة دالٌّ على خضوعهم، وتضرُّعهم إلى الحقِّ ﷻ، منزِّهين إيّاه من كلِّ نقصٍ وعيبٍ تنزيهًا يليق بجلاله، متبرِّئين ممّا رضاهم بعبادتهم، خائفين من سطوة اللّه وعقابه(5).

وموردُ تنزيهِ الملائكة: براءةٌ ممّا أضاف إليه هؤلاءِ من الشُّركاء

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 137.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 529.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 137.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 211.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520.

والأنداد[1]، وأن يكونَ غيرُ اللّه مستحقًّا للعبادة، فاللّه هو المتفرِّد بالرُّبوبيَّة، فينبغي أن يكون متفرِّدًا بالألوهيَّةِ، وهذه فائدةٌ مستوحاة من ذلك التَّنزيهِ مع لازمها، وهو أنَّهم يعلمون ذلك، فلا يصيبُهم ضررٌ بأن يكونوا معبودين[2].

مـوردُ التَّنزيهِ البراءةُ مِن استحقاق غيرِ اللّه تعالى العبادةَ

نكتةُ تقديمِ التَّسبيح في الآية:

خضوعُهم للّه تعالى بين يدي البراءةِ؛ خوفًا من حلول السَّطوة

قولُ الملائكة ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ بين يدي: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، وقبل أن يعلنوا ولايتهم للّه وحده؛ تعبيرٌ عميق عن خضوعِهم وتذلُّلهم للّه تعالى، وتَبَرِئَتِهم من كلِّ ما يعبدُه النّاس من دون المولى سبحانه، وهو تلازمٌ بين التَّنزيه والإعلان بالولاء يدلُّ على عُمقِ إيمان الملائكة، وخوفهم من أن تحلَّ عليهم سطوةُ الحقِّ تبارك تعالى[3].

موالاتُهم للّه سبحانه تكذيبٌ للمشركين

واستباقُ الملائكة التَّنزيهَ، ثمَّ إعلان ولايتهم للّه وحده اعتذارٌ لاتِّخاذ المشركين لهم شركاءَ[4]، وفيه طلبُ البراءةِ من الرِّضا بأن يكونوا معبودين مِن المشركين؛ فإنَّ الملائكة لَمّا وضعوا أنفسَهم موضعَ الولاية للّه ﷻ؛ كان في ذلك تكذيبٌ للمشركين الذين زعموا لهم الإلهيَّة، فالعابدُ لا يكون معبودًا البتَّة[5].

دلالةُ التَّركيب ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾:

الجمعُ بين التَّنزيه والإخلاصِ

في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ قدَّم الضَّمير ﴿أَنتَ﴾ الرّاجع إلى اللّه سبحانه؛ مراعاةً للأدب مع اللّه سبحانه بإظهار العلَّة مقام المعلول؛ إذ لا موالاة بيننا وبينهم، وفي الابتداء بـ ﴿أَنتَ﴾ إشعارٌ بأنَّهم لم يخالفوا رضا اللّه سبحانه؛ فلم يَرْضَوا بعبادتهم؛ لأنَّها خلاف رضاه ﷻ[6].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 414.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 529.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222 - 223.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 529.

وفي جملة ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ دلالةٌ على الحصْرِ والقصْرِ؛ وذلك لتعريفِ طرفَي الإسناد، والمعنى: أنَّ ولايتنا وحبَّنا إنَّما هو للّه وحده، فأنت وليُّنا ومولانا، ولا وليًّا لنا سواك[1]، وهو قولٌ يجمع بين التَّنزيهِ والتَّقديس والإخلاص في العبادة.

نكتةُ إفرادِ ضمير المخاطَبِ ﴿أَنتَ﴾:

أنــتَ ولـيُّـنـا لا نوالي غيرك

أُفْرِد ضمير المخاطَب في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾؛ لإفادة تحرير قضية التَّوحيد من شائبة الجمع، والمعنى: أنت وليُّنا لا نوالي غيرك، ولا نرضى بغيرك وليًّا، فالعبادة ولايةٌ بين العابد والمعبود، ورضا المعبود بعبادة عابدِهِ جزءٌ من الولاية[2].

دلالةُ التَّعبير بالولاية في الخبر ﴿وَلِيُّنَا﴾:

كرهوا عبادتَهم، فالعبادةُ جسرٌ بين العبد ومولاه لا يكون إلّا برضاه

لَمّا كرهوا عبادتهم؛ نفروا منها، وفائدةُ العبادة أن تكونَ وصلًا بين العابد والمعبود، ووسيلة للتَّقرُّب، فأخبروا أنَّ اللّه ﷻ هو مَوْلاهُم، وهو وحده الذي يستمدّون منه العونَ والنُّصرة، فهو معبودهم الذي لا وصلة بينهم وبين أحد إلّا بأمره ورضاه[3].

الـلـهُ تـعـالى هو الوليُّ النّاصر

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: أنت ناصرنا ومتولّي أمورنا، واسما الفاعل والمفعول هو وليّ؛ إذ الولايةُ نسبةٌ تستدعي وجودَ طرفين؛ لذلك فإنَّ الوليَّ واردٌ على زنة (فَعيل)، وهو صالح للفاعليَّة والمفعوليَّة، فيجوز أن يكون الوليُّ مواليًا بكسر اللّام، ويجوز أن يكون مواليًا بفتحها[4].

دِلالة الإضافة في ﴿وَلِيُّنَا﴾:

كـونُـك ولـيَّـنـا بالمعبودية أحبُّ إلينا من كونِهم أولياءنا بالعبادة

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، أي: إنَّك أولى بالمعبوديَّة،

(1) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/ 497.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 222.

وأحبُّ إلينا من كونِهم أولياءَ لنا بأن يعبدونا؛ فإنَّ الرِّضا بترك خدمة اللّهِ وعبادته، واتِّباع الهمج الرَّعاع الذين هم أضلُّ مِن البهائم والهوام، لا جرم أنَّه عينُ الجنون[1].

براءةُ الملائكةِ من أن يكونوا راضين بعبادة المشركين

وفي إضافة الولاية لهم ﴿وَلِيُّنَا﴾ إثباتُ موالاة اللّهِ ﷻ، وردُّ موالاة المشركين ونفيها، وفي ذلك براءتُهم من أن يكونوا راضين بعبادتِهم؛ لأنَّ تخصيصَ موالاتِهم باللّه تعالى، وإثبات معاداتهم لأهل الشِّرك: ينفي ذلك[2].

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن دُونِهِم﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ يُرادُ بها التَّوكيد[3] على أنَّ الولايةَ والرُّبوبيَّة إنَّما هي للّهِ وحدَهُ، ولا شريك لَهُ فيها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتركيب ﴿مِن دُونِهِم﴾:

الانـقـطـاعُ إلى ولايةِ الله تعالى والانـقـطـاع من ولاية غيره

قولُ اللّه تعالى: ﴿مِن دُونِهِم﴾، أي: من دونهم منزلةً؛ فأنت أقربُ إلينا من أنفسِنا، وأولى بالولاية من كلِّ شيء، فكيف نترك من هو أقرب إلينا في كلِّ معنًى من معاني الولاية، ونلتفت إلى غيره ممَّن بيننا وبينه عداوة، وأنت أدنى إلينا من كلِّ شيء من معاني العلم والقدرة وسواها، ومن كان هذا حالهُ من المعصية؛ فمآلُهُ الجفاء والعداء[4].

وأدخل حرفَ الجر ﴿مِن﴾ على لفظ (دون) الدَّالَّة على معنى (غير) في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾؛ تأكيدًا لمعنى الدُّنوِّ في المنزلةِ والرُّتْبَة، وجملة: ﴿مِن دُونِهِم﴾ واردةٌ توكيدًا للحصر المستفاد من تعريف الجزأين من جملة: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 212.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 335.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520 - 521.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.

تَوْجيهُ المتُشابِهِ اللَّفْظيِّ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في انتِقاءِ الألْفاظِ الملائِمَةِ لِسياقاتِها

قال اللّهُ سُبحانه: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾ [البقرة: 32]، وقال اللّه ﷻ: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: 18]، وقال اللّه تَعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾.

أمّا آيةُ البقرةِ؛ فقد تقدَّمها قولُ اللّه تعالى للملائكةِ: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]، فلمّا كانت هذه الأسماءُ لَم يُعلِّمها اللّهُ سُبْحانَه للملائكة؛ ناسَب ذلك قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾ [البقرة: 32].

وأمّا آية الفُرقان؛ فتقدَّمها قول اللّهِ تعالى لِما كان يُعْبَد من دونِه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧﴾ [الفرقان: 17]، فلمّا أرادَ المسؤولون إعلانَ إيمانِهم بتنزيه اللّه تعالى عن الشِّرك، والبراءة مِمَّن أشركوا بهم؛ ناسَب ذلك قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: 18].

وأمّا آيةُ سورة سَبأ؛ فسبقها قولُ اللّه تعالى للملائكةِ يومَ الحشر: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾، فلمّا أرادَ المشركون أن يتَّخذوا الملائكة أولياء مِن دون اللّه تعالى، وكانت الملائكة تعلم أنَّهم في حاجة إلى من يَتولّاهم؛ ناسب ذلك قوله تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾[1].

علَّةُ فصل جملة: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾:

بيانُ عبادةِ المشركين للجنِّ

فُصِل قولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ عمّا قبلَهُ من تنزيه الحقِّ سبحانه من الملائكة، وتبرئةِ أنفسهم ممّا نُسِبَ إليها من كونِهم معبودين؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، فهو جوابٌ عن سؤال ناشئ

---

(1) سعد محمد، استدراك ما فات، ص: 85 - 86.

مؤسَّس على ما سبق موجَّه للملائكة، مفادُه أنَّ هؤلاء إن لم يكونوا يعبدونكم؛ فمَن كانوا يعبدون؟ والجواب: أنَّهم كانوا يعبدونَ الجنَّ.

معنى ﴿بَلۡ﴾ في قوله: ﴿بَلۡ كَانُواْ﴾:

نفي الملائكةُ عبادتَهم، وأثبتوا عبادةَ الكافرين الجنَّ

﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ مؤذنةٌ بمعنى: الإضراب، إضرابٌ عن الأوَّل، وإثبات للثّاني[1]، فإنَّهم قد أضربوا عن ذلك، ونَفَوا أنَّهم عبدوهم على وجه الحقيقة[2]، ويُشير إلى نَفْيِ عبادةِ المُشْركينَ المَلائِكَةَ، وإثبات أنَّهم كانوا يعبدون الجنَّ.

الانتقالُ من التَّبرُّؤ من عبادتهم إلى الشَّهادة عليهم بعبادة الجنِّ

والإضرابُ في ﴿بَلۡ﴾ هنا إضرابٌ انتقاليٌّ، فإنَّهم تبرَّؤوا منهم، ثمَّ شهدوا عليهم وعلى من سوَّل لهم عبادةَ غير اللّه تعالى، فهو ليس إضرابَ إبطال؛ فالمشركون كانوا يعبدون الملائكةَ، لكنَّ أكثرهم كانوا يعبدون الجنَّ مع رضاهم بعبادتهم، فحاصل المعنى من كلام الملائكةِ: أنَّهم منكرون عبادةَ المشركين إيّاهم، وأنَّهم لم يأمروهم بذلك، بل إنَّ الجنَّ هي مَن سوَّلت لهم عبادةَ غيرِ اللّهِ تعالى، فعبدوا الجنَّ، وعبدوا الملائكةَ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي ﴿كَانُوٓاْ﴾:

عباداتُهم في الموضعين حاصلةٌ بأفعالهم الاختياريَّة والقسريَّة

اسْتُعْمِل فعلُ الكون ماضيًا في موضعين من الآية: الأوَّل قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾، أي: "بأفعالهم الاختياريَّة الموجبة للشِّرك"، والموضع الآخر قولُه تَعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾، والمعنى: أنَّ فعْلَهم ذاك حاصل "بأفعالهم الاختياريَّة والقسريَّة؛ ليعلم أنَّهم عبيدٌ لكم تستحقّون عبادتَهم"[4]، فعلم أنَّ عبادَتَهم في الموضعين حاصلةٌ بأفعالهم الاختيارية والقسريَّة.

(1) المبرد، المقتضب: 1/ 12.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 137.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 520 - 521.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡبُدُونَ﴾:

اسْتِمرارُ أهل الشِّرك في الباطلِ

في التَّعبير عن العبادةِ فعلًا مضارعًا: ﴿يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾؛ دلالةٌ على التَّجدُّد والاستمرار، وأنَّ هؤلاء المشركين استمَرّوا في هذا البطلانِ من غير ارعواءٍ.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡجِنَّۖ﴾:

تزيينُ الجنِّ عبادةَ غيرِ الله تعالى للنّاسِ

(أل) في ﴿ٱلۡجِنَّۖ﴾ مِنْ قولهِ تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ دالَّةٌ على العهد، فمعنى ﴿ٱلۡجِنَّۖ﴾ هنا: إبليس وذريَّته الذين زيَّنوا للمشركين عبادتَهم من غيرِ رضاهم بذلك، والتَّعبير بمادة (جنَّ) لها دلالةٌ على الاستتار، فقد كانوا يستترونَ عنهم، ويدخلون في أجواف الأصنام والأوثان، ويخاطبونهم مستجيرينَ به في مثل تلك الأماكنِ المخوِّفة[1].

بلاغةُ المجازِ في تعبيرهم بعبادة الجنِّ:

الجِنُّ هم الَّذين زيَّنوا للنّاسِ عبادة الملائكة

جاءَ التَّعبيرُ بعبادة الجنِّ في قول اللّه تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾، وهم كانوا يعبدون في الظّاهرِ الملائكةَ؛ لأنَّ قوله: ﴿يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ من باب المجاز المرسَلِ بذكر السَّبب وإرادة المسبَّب؛ ذلك أنَّ الجنَّ هم من زيَّن للمشركينَ عبادة الملائكة[2].

علَّةُ فصل جملة ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾:

جملةُ الإيمانِ موضِّحة لجملة العبادة

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ عن الجملة قبلَهُ: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾؛ لأنَّ الجملة الأولى تعبِّر عن فعل عامٍّ، وهو عبادة الجنِّ، أمّا الجملة الثّانية؛ ففيها إيضاح حالٍ خاصَّة متعلِّقة بالعبادة، وهي الإيمان بالجنِّ، فالجملة الثّانية مبيِّنَةٌ للجملة الأولى في نسبة الذين كانوا يؤمنون بالجنِّ مِن المشركين؛ فبين الجملتَينِ كمالُ الاتِّصالِ.

بيانُ الباعثِ لهم على عبادة الجنِّ

ويجوز أن يكونَ قولُ اللّه تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ جملةً

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 521.
(2) السمعاني، تفسير القرآن: 4/ 338.

مستأنفةً[1] استئنافًا بيانيًّا، فإنَّه بعد أن أعلنوا عبادة الجنِّ؛ كان السُّؤال المفترض النّاشئ عن ذلك أنَّه كيف تمكَّنت هذه الكائناتُ مِنَ السَّيطرةِ على عقولهم؟ والجواب يكمن في عُمقِ الإيمان الذي رسخ في قلوبِهم، فجعلهم يعبدونَ هذه المخلوقات الخفيَّة.

دلالةُ (الكثرة) في قولهم: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

الاحتراسُ مِنَ التَّعميمِ

جاء التَّعبيرُ بالكثرة في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ دون أن يَرِدَ في النَّظْمِ القرآنيِّ (جميعهم)؛ لما في التَّعبير بلفظ الأكثريَّةِ مِنَ الاحتراسِ عن دعوى الإحاطة والتَّعميم، فإنَّ الذين رأوهم، واطَّلعوا على أحوالهم من عبدةِ الجنِّ هم الأكثر، ولعلَّ أَنْ يكونَ في الوجود من الكفّار ممَّن لم يطَّلع الملائكة عليهم[2].

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

أكثرُ المشركين بالجنِّ مؤمنون

الضَّميرُ المقترن بلفظ (أكثر) في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ راجعٌ إلى المشركين[3] الذين عبدوا الملائكةَ بحسب ظنِّهم، غير أنَّهم كانوا يعبدون الجنَّ في حقيقة الأمر.

معنى (الباء) ومرجع الضَّمير في ﴿بِهِم﴾:

الإيذانُ بتمام الملابسةِ ودوام المصاحبة في إيمانهم بالجنِّ

المشهورُ في معنى حرف الجرِّ (الباء) في لسان العرب أن تأتيَ للمصاحبة والملاصقة[4]، وهي كذلك في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾، فهي هنا مؤذنةٌ بتمام الملابسة، وكمال المصاحبةِ والملاصقة، فإنَّ هؤلاء المشركين قد آمنوا بهم، أي: بالجنِّ فالضَّميرُ راجعٌ إلى الجنِّ، وانحازوا إليهم، وعبدوهم، ولابسوا ذلك الإيمان بهم حتّى كان مِن أمرهِم أنَّ اللّه ﷻ سيكبُّهم على وجوههم في نار جهنَّم، وبئس المصير.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 521.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 212.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.
(4) ابن السراج، الأصول في النحو: 1/ 210.

نكتةُ تقديمِ الجار والمجرور ﴿بِهِم﴾:

أكثرُ المشركين مبالغون في الإيمان بالجنِّ

قُدِّم الجارُّ والمجرور على الخبر في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾؛ لإفادة الحصر والتَّخصيص على جهة المبالغةِ، والمعنى: أنَّ أكثرَ المشركين مؤمنون مصدِّقون بالجنِّ المعبودين من دون الله، فكأنَّهم يُصَدِّقونهم وحدهم، ويكذِّبون ما عداهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإيمان في ﴿مُّؤۡمِنُونَ﴾:

أكثرُ الكافرين مصدِّقون بأباطيل الشَّياطين

التَّعبيرُ بمادَّة الإيمانِ في قولهِ تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾، وهيَ مادَّةٌ تدلُّ على التَّصديق، والمعنى: أكثرُ المشركين مصدِّقون بالشَّياطين[1]، وفي هذا تصويرٌ لحال الكافرين؛ إذ وُصِف إيمانُهم بأنَّه ليس إلّا تصديقًا بأباطيل الشَّياطين، وذلك يُنبِئُ عن عُمق الجحودِ الذي استوطنَ قلوبهم، فبدلًا من أن يكون إيمانُهم بالله سبحانه، صار إيمانُهم بالشَّياطين غالبًا على نفوسهم.

دلالةُ صوغ ﴿مُّؤۡمِنُونَ﴾ اسم فاعل:

المشركون راسخونَ في إيمانِهم بالجنِّ وإشراكهم بالله تعالى

لّما كان أكثرُ المشركين راسخين في إشراكِهم بالله تعالى بعبادتهم الجنَّ، لا يقصدون بعبادتهم غيرهم، وقليلٌ مِنهم من يقصدُ بعبادته تزيينَ الجنِّ مع انتفاء رضاه عن ذلك؛ أوردَ الإيمانُ باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾؛ للدِّلالة على هذا المعنى[2].

۞ الفروقُ المُعجَميَّة:

الحشر والجمع والبعث:

الجمعُ أعمُّها والحشر أخصُّها

الجمعُ معنًى عامٌّ في كلِّ ما تريد أن تضمَّه؛ إذِ الجيم والميم والعين أصلٌ تدلُّ على تضامِّ الشَّيء[3]، وأمّا البعثُ؛ فهو في أصله دالٌّ على الدَّفع والإثارة نحوَ فعلِ شيء معيَّن[4]، وأمّا البعث الإلهيُّ؛ فهو

---

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 450.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 521.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعث).

على نوعَين، أحدهما: إيجادُ الأعيان والأجناس لا على مثال، وهو مِن اختصاصِ الباري سبحانه لا يقدر عليه سواه، والآخر: إحياءُ الموتى[1]، وفي الآية موضع التَّفسير عبَّر بالحشرِ في قولهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾؛ لأنَّ الحشرَ وإن كان فيه معنى الجمع بعد البعثِ، فإنَّه يدلُّ على "زيادة معنًى، وهو السّوق والبعثُ والانبعاثُ، وأهل اللُّغة يقولون: الحشرُ الجمع مع سوقٍ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ"[2]، فهو مناسبٌ لمنزلة المحشورين ومؤذنٌ بالإهانة؛ إذِ الحشرُ واقعٌ على هؤلاء الكفّار باللّه جميعًا، وسوقهم سوقًا عنيفًا بما كان من عبادتهم الملائكةَ والجنَّ من دون اللّه تعالى[3].

الولاية والنُّصرة:

النُّصرةُ إعانةُ المظلوم، والولايةُ فيها معنى القرب

أوردَ لفظُ الوليِّ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ دون النَّصير؛ لما في لفظه من معنى القُربِ والإمارة، وأنَّه خلافُ العدوِّ[4]، وبه تقومُ الأمور، وتنتظمُ الأحوال، فأنت وليُّنا، ونحن عبيدُك، نبرأُ إليك منهم[5]، أمّا النَّصيرُ؛ فمادَّته: نصر، وهو دالٌّ على إتيان خيرٍ وإيتائه[6]، وفيه معنى الإمداد، ومنه أُطلِقَتِ النَّواصِرُ على مجاري الماء إلى الأودية؛ لأنَّه إمدادٌ بما فيه زيادةٌ مناسبة وقوَّة، كما تَمُدُّ النَّواصرُ الأوديةَ والتِّلاع بالماء[7]، ومِن هذا الملحظِ جاءتِ النُّصرةُ بمعنى إعانةِ المظلوم، ومن به حاجةٌ لذلك، وسياقُ الآية ليس في إعانة المظلوم، بل هي في الموحِّدين يومئذٍ، فإنَّهم يستظِلّون بولايته ﷻ.

(1) الراغب، المفردات: (بعث).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 299.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 289.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نصر).

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٤٢﴾ [سبأ: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يــومُ الحـشـر ينـجلي الحـقُّ ويندم الكافرون

لَمّا أبطل فيما سبق من آياتٍ تمسُّكاتِهم، وقطع عنهم تعلُّقاتهم؛ تسبَّب عن ذلك تقريعهم النّاشئَ عنه تنديمُهم في يوم مخاطَبتهم بهذا التَّبكيت، وهو يوم الحشرِ، عندئذٍ لا يملكون شيئًا لبعضهم، لا نفعًا ولا ضرًّا قطعًا لجميع الأسبابِ الكائنةِ في دار التَّكليف من دار الجزاءِ، فإنَّها مقصودٌ فيها إظهارُ العظمةِ التّامَّة للّه وحده سبحانه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡلِكُ﴾: (ملك) أصلٌ يدلُّ على قوَّة في الشَّيء وصحَّة، يُقال: أملك عجينه: قوَّى عجنَهُ وشدَّهُ، وملَّكت الشَّيءَ: قوَّيته، ويقال: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيء يملكه ملكًا، والاسم الملك؛ لأنَّ يدَه فيه قويَّةٌ صحيحة[2]، والملك: نوع مِنَ المِلك - بكسر الميم - فالمِلْك جنسٌ، والمُلك - بالضَّمِّ - نوعٌ منه، وهو أعلى أنواعه، ومعناه التَّصرُّف في جماعة عظيمةٍ أو أمَّةٍ عديدة تصرُّفَ التَّدبيرِ للشُّؤون، وإقامةِ الحقوق، ورعاية المصالح، ودفع العدوان عنها[3].

2) ﴿نَّفۡعٗا﴾: (نفع) تدلُّ اشتقاقاتُه على خلاف الضُّرِّ، وكلِّ ما كان خيرًا؛ فهو نفعٌ[4]، والنَّفعُ "ما يُستعانُ بِهِ في الوصول إلى الخيرات، وما يُتوصَّل به إلى الخير؛ فهو خير، فالنَّفع خيرٌ، وضدُّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 521 - 522.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (ملك).

(3) الراغب، المفردات: (ملك).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (نفع).

الضُّرُّ"[1]، ويطلق النَّفع على الفائدة التي تنال مِنَ الشَّيء، أو الجدوى التي تعودُ منه على المنتفع[2]، و﴿نَّفۡعًا﴾ في الآية الكريمة: كلُّ ما يُمكن أن يصلَهُم مِن خيرٍ، وأعظَمُ صورِ ذلك: الشَّفاعة[3]، فلا يرجو هؤلاءِ النّاكبون عن طريق الحقِّ أن يشفعَ لهم مَن كانوا يعبدونهم مِن دون اللّه تعالى.

3) ﴿ضَرًّا﴾: (ضرّ) يدلُّ على ضدِّ النَّفع، ويكون محمولًا عليه كلُّ ما قاربه من المعاني، ويأتي بمعنى سوءِ الحال في النَّفس كقلَّة العلم، أو في البدن، أو حالة ظاهرة كقلَّة المال والجاه، ومن معانيه إلحاقُ الأذى والمكروه بالمقابل، وهو يشمل المادّي والمعنوي، وأكثرُ الواردِ في القرآن الكريم هو بمعنى الضّيقِ وما يتفرَّع عنه[4]، و﴿ضَرًّا﴾ في الآية الكريمة شامِلٌ لكلِّ أنواعِ الأذى اللّاحقِ بهم، ومِنهُ: التَّعذيب[5].

4) ﴿ذُوقُواْ﴾: (ذوق) تدلُّ اشتقاقاتُه على اختبارِ الشَّيء من جهة الطَّعم، ثمَّ يُشتقُّ منه مجازًا، فإنْ نزل مكروه بإنسان؛ فقد ذاقه، وإذا نظر المرءُ في مقدار إعطاء القوس وقوَّتها؛ فقد ذاقها[6]، فالذَّوق يكون على جهةِ الحقيقةِ، ويكون على جهةِ المجاز كالتَّبكيت والتَّقريع، واستعمالُهُ للعذاب كثيرٌ في آي الذِّكر الحكيم[7]، والوارد في الآية الكريمةِ في قوله: ﴿ذُوقُواْ﴾ هوَ مِن هذا الباب؛ إذِ الأمر بالذَّوْقِ واردٌ على سبيل التَّوبيخ والتَّقريع[8].

۞ المَعْنى الإجماليّ:

في الآية بيانُ حال الكافرين يوم القيامة؛ حيث لا ينفعُهم أحدٌ، ولا يضرُّهم سوى أنفسهم، فكلمةُ اليوم تشير إلى يوم الحشرِ، ونفْيُ ملك الضرِّ أو النَّفْعِ عن بعضهم بعضًا،

(1) الراغب، المفردات: (نفع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفع).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 404.
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضر).
(5) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 497.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).
(7) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث، والراغب، المفردات: (ذوق).
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 289.

يعني: انقطاعَ كلِّ الأسباب والصِّلاتِ الدُّنيويَّةِ، فلا شفاعة تنفع، ولا قوَّة تضرُّ، ثمَّ يُقال للذين ظلموا أنفسَهم بأن عبدوا غيرَ اللّهِ تعالى: ذوقوا عذابَ النّار الأليم[1].

لقاءُ الكفّارِ جزاءَ أعمالِهِم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾:

تَرِدُ الفاء كثيرًا في لسان العرب رابطةً السَّببَ بما يؤول إليه[2]، ومن ذلك ورودها في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا﴾، فهو خطابُ تقريع وتوبيخ وتنديم متسبِّبٌ عن بطلان تمسُّكاتهم، وانقطاع تعلُّقاتهم[3].

إبطالُ تمسُّكاتهم وانقطاع تعلُّقاتهم

ويجوز أن تكون الفاءُ فصيحةً، وهي المُفْصِحةُ عن شرطٍ محذوفٍ، والمعنى: أنَّكم إن عبدتم الجنَّ؛ فاليوم لا يملك بعضُكم لبعضٍ نفعًا ولا ضرًّا[4].

الإيذانُ بترتُّب نفي النَّفع والضُّرِّ على عبادتهم الجنَّ

ويحتمل أن تكون جملةُ نفي النَّفع والضُّرِّ من قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾، مِن خطاب الملائكةِ للفريقين بعد أن شهدوا عليهِم من باب التَّوبيخ لهم، وإظهار الغضبِ عليهم، والتأكيد لإظهار البراءةِ منهم، والفاء على هذا فصيحَةٌ أيضًا[5].

إظهارُ الغضبِ والبراءة منهم

وجائزٌ أن تكون الفاءُ الدّاخلة على اليوم في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ﴾ لإفادةِ التَّوكيد[6]، أي: إنَّ نفيَ قدرتهم على النَّفع والضُّرِّ مؤكَّدٌ في ذلك اليوم دفعًا لتوهُّم ما كان من أمرهم في الدُّنيا؛ إذ النّاس في تلك الدّار - وهي دار التَّكليف - مخلًّى بينهم، يتضارّون، ويتنافعون[7].

نفيُ قدرتِهم على النَّفع والضُّرِّ مؤكَّدٌ في الآخرة

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 502.
(2) السيوطي، همع الهوامع: 2/ 555.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 521.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.
(6) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 85.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 558.

نكتةُ الحذفِ في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا﴾ محذوفٌ، والتَّقدير: فيقال لهم: اليوم لا يملك العابدُ ولا المعبودُ بعضهم لبعض نفعًا[1]، وتنقطع كلُّ صلةٍ، ولا يجد المتضرِّعُ ملجأً، وتظهر حقيقةُ العبودية.

معنى (أل) في ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾:

معنى (أل) في لفظة ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا﴾ دالَّةٌ على العهد، وهو يوم القيامةِ، يومُ الفصل بين العباد، ويومُ الحشر والحساب والجزاء[2].

معنى ﴿لَا﴾ في جملة: ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾:

انقطاعُ الصِّلاتِ وحسابُ كلِّ أحدٍ منفردًا

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا﴾ نافيةٌ، وهي دالَّةٌ على انقطاع كلِّ علاقة بين النّاس يوم القيامة، فلا يملك أحدٌ أن ينفعَ، أو يضرَّ آخَرَ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ فردٍ سَيُحاسَب على أفعاله وحده، ولا يتحمَّلُ أحدٌ ذنبَ آخر، أو ينقذُهُ مِن العقاب.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يَمۡلِكُ﴾:

المالكُ متصرِّفٌ في مملوكِهِ

نفيُ الملك في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾ نفيُ القدرة والاستطاعة، أي: لا يقدر بعضُكم على نفعِ بعضٍ أو ضرِّه، فالتَّركيب هنا مستعملٌ في لازم معناهُ من باب الكناية، وهذا اللّازمُ هو الملك، فالمالكُ متصرِّفٌ في مملوكهِ كيف يشاء[3].

أثر ﴿لَا﴾ في الفعل ﴿يَمۡلِكُ﴾:

نفيُ المُلكِ على النَّفعِ والضُّرِّ متحقِّقٌ في حالهم وهو يوم الحساب

المعهودُ في ﴿لَا﴾ أنَّها حرفٌ دالٌّ على النَّفي في المستقبل لِمَن لم يكنِ الفعل واقعًا منه[4]، والمعهودُ في الفعل المضارع أنَّه دالٌّ على

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 424.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 154، و: 22/ 223.

(4) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 1/ 20.

الحال والاستقبال بحسب سياقه، فلمّا دخلت ﴿لَا﴾ على فعل الملك بصيغتهِ المضارعيَّة؛ كان لها أثرٌ مقصودٌ، وهو أنَّ نفْيَ الملك والقدرة على النَّفع والضُّرِّ متحقّق في الحال التي هم عليها، وهو ذلك اليوم يوم الحساب.

معنى (اللّام) في ﴿لِبَعۡضٍ﴾:

الدلالةُ على تخصيص النَّفي

اللّام الدّاخلةُ على بعض في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾؛ لإفادة الاختصاص[1]؛ إذ تعمل على تخصيصِ النَّفي هنا، فلا يشمل كلَّ المخاطَبين، بل يختصُّ ببعضِهم، فلا يملك هؤلاءِ لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا يملك لغيرِهِ ذلك أيضًا.

نكتةُ نسبةِ عدمِ النَّفعِ والضُّرِّ إلى مبهَمٍ:

المبالغةُ في بيانِ عدمِ نفعِ الملائكةِ لعابديها

نُسِبَ انتفاءُ النَّفع والضُّرِّ إلى بعضِهم على طريقة الإبهام في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾، والقصدُ مِنْ هذه النِّسبة المبالغةُ في بيان عدم نفْعِ الملائكة لمن يعبدُهم بنظمِهِ في سلك عدم نفْعِ العابدين لهم، فإذا كان انتفاءُ العابدين غيرَ حاصل، فإنَّ نفْعَ الملائكةِ للعابدين محالٌ أيضًا، وأوردَ عدمَ الضُّرِّ مع أنَّه لا بحث عنهُ من باب تعميمِ العجز[2].

دلالةُ التَّعبيرِ في ﴿نَّفۡعٗا﴾:

بيانُ عجزِهم عن مطلَقِ النَّفع

للتَّعبيرِ بفقْدِ المقدرة على النَّفع في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ نَّفۡعٗا﴾ دلالةٌ على عجزِهم في ذلك اليوم[3] عن فعل أيِّ شيءٍ نافعٍ مهما كان صغيرًا نوعًا وقدرًا[4]، ولو كان نفعًا يسيرًا حقيرًا بدلالة إيرادِهِ نكرة.

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 85.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 137.

(3) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/ 497.

(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 85.

الإشارةُ إلى أنَّ الأمرَ لله تعالى وحده

ويجوزُ أن يكونَ معنى فَقْدِ القدرة على النَّفع في ذلك اليوم أن يكون دالًّا على أنَّهم لا يملكون الشَّفاعة[1]، أي: لا تملك الملائكةُ الشَّفاعة لمن عبدَهم من دون اللّٰه تعالى، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الأمر كُلَّهُ للّٰه الواحد القهّار[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ عاطفةٌ، فقد عطفَت نفيَ ملك الضُّرِّ على نفي ملك النَّفع[3]، ففي ذلك اليوم العظيم لا نفْعَ يُرجى، ولا ضرَّ يُخشى سوى ما قضى اللّٰه تعالى به.

معنى (لا) وتكرارها في قوله: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾:

نفْيُ القدرةِ على الضُّرِّ من المخلوقين على وجه التَّحقيق

(لا) الدّاخلةُ على الضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ نافيةٌ، فهي تدلُّ على نفي القدرة على الضُّرِّ، فلا يستطيع أحدٌ أن يضرَّ الآخر مطلقًا، سواء كانَ الضَّررُ جسديًّا أم نفسيًّا، وأنَّ اللّٰه ﷻ هو القادر وحدَهُ على النَّفع والضُّرِّ، وفي تكرار حرف النَّفْيِ (لا) تأكيدٌ لنزعِ تلك القدرة عن المخلوقين، وإثباتها للخالق العظيم.

دلالةُ تنكير ﴿ضَرًّا﴾:

عاجزونَ عن دفع أيِّ ضررٍ مهما صغُر أو كبُر

نُكِّرَ لفظُ الضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ للدِّلالة على عجزِهم في ذلك اليوم عن دفع أيِّ ضررٍ[4] عن بعضِهم بعضًا مهما كان[5]، ولو كان ضررًا يسيرًا حقيرًا.

ويجوز أن يكونَ معنى فقْدِ القدرة على الضُّرِّ في ذلك اليوم دالًّا على أنهم لا يملكون التَّعذيب[6]، أي: لا تملك الملائكةُ تعذيبَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 557.
(2) الإيجي، جامع البيان: 3/ 391.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 105.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 4/ 338.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 85.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 557.

الكافرين الذين عبدوهم مِن دونِ اللّه تعالى، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الأمرَ كلَّهُ للّه سبحانَهُ[1].

نكتةُ عطفِ ﴿ضَرًّا﴾ على ﴿نَّفۡعًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ نَّفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾ عُطِفَ نفيُ ملكهم الضرَّ على نفي ملكهم النَّفعَ؛ للدِّلالة على سلبِ مقدرتهم على كلِّ شيء؛ خيرًا كان أو شرًّا.

نكتةُ تقديمِ النَّفع على الضُّرِّ:

التَّقديمُ لقصدِ الاهتمام

قُدِّمَ نفْيُ القدرةِ نفعًا على نفي القدرة ضرًّا في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ نَّفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ لإفادة الاهتمام بالمقدَّم، فإنَّ المدارَ قائمٌ على الخلاص من العذاب، ورجاء الشَّفاعة، وزادَ عليه نفيُ القدرة ضرًّا من باب إكمال الأمر[2]، فإنَّهم كانوا يرجون الشَّفاعة، والنَّجاة من العذاب، ولا يرجون إلحاق الضَّررِ في ذلك اليوم العظيم.

تقديمُ النَّفع ملائمٌ لسياق المنافع المذكورة

وتقديمُ نفْيِ النَّفعِ على نفي الضُّرِّ متناسبٌ مع سياق الآيات الوارد فيه، فإنَّه "في القربى والزُّلفى والشَّفاعة التي تعني الفائدةَ منها، والرِّزق والأموال والأولاد والإنفاق"[3].

بلاغةُ الطِّباق في ﴿نَّفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾:

نفْيُ القدرة عمومًا بلا استثناء فيه

في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ نَّفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾ طباقُ إيجابٍ بين نفي النَّفع ونفي الضُّرِّ[4]، وهو مفيدٌ نفي قدرتِهم مطلقًا، فلا يصدُرُ مِنْهُم نفعٌ ولا ضَرٌّ.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لِبَعۡضٍ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على المفعول وما عُطِفَ عليه من قوله تعالى:

---

(1) الإيجي، جامع البيان: 3/ 391.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.

(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 85.

(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 304.

صغيرُ النَّفع وكبيره مختصٌّ بالله تعالى يوم القيامة

﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾؛ لأنَّ عامَّة النَّفع والضُّرِّ صغيرًا كان أو كبيرًا مختصٌّ باللّه سبحانه يوم القيامة خلاف ما كان في الدُّنيا؛ فقد نفع الجنُّ عابديهم ببعض المنافعِ الدُّنيويَّة، ونفع المشركون الجنَّ بخدمة وساوسهم، وفتنتِهم وإضلالهِم، وكذا الأمر بالنِّسبة إلى الضُّرِّ، فهو دنيويٌّ أيضًا[1].

غرضُ الخبرِ في الآية:

التَّعريضُ بضلال الَّذين عبدوا الملائكة والجنَّ

قول اللّه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ جملة خبريَّةٌ يُرادُ بها إعلامُ المخاطَبِ بمضمون الجملةِ على ما هو الأصلُ في الخبرِ، وضُمِّنَ هُنا أيضًا معنى التَّعريضِ بضلالِ عابدي الملائكة والجنِّ من دون اللّهِ تعالى، والمخاطَبُ المرادُ إعلامُهُ بمضمون الجملةِ هُم العابدونَ غيرَ اللّهِ تعالى الذين ظنّوا نفْعَ الجنِّ لهم، أمّا الملائكةُ؛ فعالمونَ مضمونَ الخبر[2]، فيكون إعلامُ المخاطَبِ راجعًا إلى المجموعِ لا إلى الجميعِ.

الإيجازُ بالحذف في نفي الضُّرِّ عنهم:

الحذفُ من الكلام اقتصادٌ في اللَّفْظِ

يجوز أن يكونَ في نفي الضُّرِّ عن العابدين والمعبودين يومَ القيامةِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ إيجازٌ بالحذف؛ فيكون المرادُ دفعَ الضُّرِّ، فهو على حذف المضافِ، أي: يوم لا يملكُ بعضُكم دفْعَ الضُّرِّ عن بعضٍ، أي: دفع الضُّرِّ عن عابديها[3].

دلالةُ ذِكر الضُّرِّ مع أنَّه غيرُ ذي فائدةٍ:

قطْعُ جميعِ الأسباب في دار التَّكليف قصدًا إلى إظهار تمام العظمةِ لله وحدَهُ

ذُكِر الضُّرُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَرّٗا﴾ مع أنَّه غيرُ مطلوبٍ لهُم، من باب إكمال الأمر؛ ليحقِّق قطْعَ جميع الأسباب التي كانت في دار الدُّنيا، مِن دار الجزاء؛ قصدًا إلى إظهار تمامِ العظمة للّه الواحد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 309.

القهّار من جميعِ الوجوهِ[1]، هذا على إجراء اللَّفْظِ القرآنيِّ على ظاهرِهِ من غير تقديرِ محذوفٍ.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَنَقُولُ﴾:

انقضَتِ الآجالُ وانكشفت الأسرار، فلم يبقَ إلّا الجزاءُ على الأفعال

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عاطفة؛ فقد عطفت هذه الجملةَ على قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾[2]، وبين الجملتين توسُّطٌ بين الكمالين؛ لاشتراكِ الجملتين في الخبريَّةِ، وبينهما مناسبةٌ في المعنى؛ إذْ كلتا الجملتين في ذكرِ أحوال المشركين يوم القيامَةِ.

دلالةُ القول وصوغِهِ مضارعًا في﴿وَنَقُولُ﴾:

إظهارُ استحقاقِهم العذابَ الشَّديدَ

لَمّا وقع الإخبارُ عن الحوار الذي يجري بين الملائكةِ والمشركين الذين ادَّعوا عبادتهم في ذلك اليوم؛ أردفَهُ بالتَّعبير بالقول ﴿وَنَقُولُ﴾؛ لإظهارِ أنَّهم مستحقّون هذا الحكم الشَّديد المغلَّظ؛ ولأنَّه جاء كالمعلول لقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾[3]، وفي صوغه مضارعًا بيانٌ لِقدرته تعالى في ذلك اليوم وتلك الحالِ، فلا يكون منه إمهالٌ ولا إهمال[4]، ولتقريب صورة المحاورةِ، كأنَّه مشاهدٌ محسوس بما في ذلك إظهار حالِ بهْتِ وجوه الكافرين.

نكتةُ إسنادِ القول في ﴿وَنَقُولُ﴾:

توكيدُ عظمتهِ تعالى وحتميَّة عذابِ الظّالمين

أُسْنِدَ فِعلُ القولِ في قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إلى الضَّمير العائد عليه سبحانه؛ للدِّلالة على القدرة الرَّبّانيَّة والعظمة الإلهيَّة[5]، وأنَّه ﷻ هو المتكلِّم الحقيقيُّ، وهو الذي

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 588.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 85.

يخاطب الظّالمين مباشرة، فيأمرهم بتذوُّق عذاب النّارِ، وليؤكّد على عظمته سبحانه، وعلى حتميَّة العقاب للظّالمين.

معنى (اللّام) في ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

خُصَّ الظّالمون احتراسًا من دخول الملائكةِ في خطاب العذابِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ دالَّةٌ على الاختصاص[1]، فإنَّ هذا القولَ هنا موجَّهٌ إلى فئةٍ خاصَّةٍ من النّاس، وهي فئة الظّالمين، فخصَّهم، وأفردهم بالخطاب؛ لأنَّه لَمّا كان قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ﴾ داخلًا تحته الملائكةُ المعبودون، والمُشْركون العابدون، ففي عدم التَّخصيص يكون الأمرُ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ممّا يعمُّ الجميع، وهو غير مرادٍ، ولذا جيءَ باللّامِ لإرادةِ التَّخصيصِ[2].

علّةُ التَّخصيص بالموصول في﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

إخراجُ الملائكة من إرادتهم بالوعيد

ذُكِرَ الكافرون من عُبّادِ الجنِّ بالموصول وصلتِه في قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، فأورد ظاهرًا دون الإضمارِ بأن يقول: (ونقول لهم)؛ لأنَّ الملائكةَ داخلون في حيِّز قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾، إلّا أنَّهم غيرُ مشمولين بما توعَّدهم من قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ فإنَّهم غيرُ راضين عن عبادة المشركين إيّاهم، فهم خلقٌ من خلق اللّه، لا يعصونه فيما يأمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

دلالةُ التَّعبير بالظُّلم ماضيًا في ﴿ظَلَمُواْ﴾:

الشِّركُ أعظمُ الظُّلمِ

استُعْمِلَ فِعلُ الظُّلم في قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لأنَّ "الظُّلم وضع الشَّيء في غير موضعهِ تعدّيًا"[3]، وهذا المعنى يصدُقُ على الموصوفين تمام الصِّدْقِ، فقد وضعوا العبادةَ في غير موضعِها[4]، بأن عبدوا الجنَّ والملائكة من دونِ اللّه تعالى، وأمّا

(1) الرماني، منازل الحروف، ص: 50 - 51.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 212.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 503.

صوغُهُ ماضيًا؛ فلتوكيد وقوعهِ فعلًا، فيكون الحكمُ على هؤلاء قاطعًا باتًّا، وأنَّهم مُستحِقّون للعقابِ بقيام الحجَّة عليهم.

دلالةُ الذَّوقِ في الفعل ﴿ذُوقُواْ﴾:

اقترانُ الذَّوقِ بالعذاب مُستعمَلٌ كثيرًا في القرآن

الأصلُ في الذَّوق أن يكونَ دالًّا على جودة الطَّعم بالعضو المخلوقِ لذلك، وهو الفمُ[1]، غير أنَّه استعملَهُ في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ من باب المجاز لمطلقِ الإحساسِ، وهو استعمالٌ مشهورٌ[2]، واقتران الذَّوقِ بالعذاب واردٌ على نحوٍ واسعٍ في القرآن الكريم.

تأثيرُ العذابِ على الظّالمين

وفي التَّعبيرِ بالذَّوقِ ﴿ذُوقُواْ﴾ تصويرُ عذاب النّار وشموله، فكما أنَّ الطَّعام والشَّراب - المترابطين بحاسَّةِ الذَّوق - يؤثِّران على الجسد والنَّفس؛ فإنَّ عذابَ النّار يؤثِّر على كلِّ ذرَّةٍ في المشركين[3].

غرضُ الأمرِ في الفعل ﴿ذُوقُواْ﴾:

اجتماعُ العذابِ الجسدي والنَّفسي على أهل الشِّرْكِ

فعلُ الأمرِ من قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ يُقصَدُ به الإهانةُ والتَّحقيرُ، ففيه زيادةُ الإيلام للظّالمين فوق ما هُم فيه مِنَ الألم، ومضاعفة الحسْرَةِ والأسف اللّذين يملأان قلوبَهم على ما كان من تفريطِهم وكفرهم، وترك الإيمان بالله تعالى فيما مضى من دنياهم[4].

توبيخُ الظّالمين وتقريعُهم

والتَّعبيرُ بفعل الذَّوْقِ بصيغة الأمر بقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ﴾ واردٌ موردَ التَّوبيخ والتَّقريع أيضًا[5]، وفيه تأكيدُ شدَّة العذابِ الذي سيلاقيه الظّالمون، وكأنَّهم سيأكلون من النّار، ويذوقون مرارتها بكلِّ حواسِّهم.

معنى (أل) ودلالة الإضافة في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

تعذيبُ الكفرة بالنّار التي كانوا بها يكذِّبون

(أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للعهدِ العلميِّ،

(1) الراغب، المفردات، ص: 332.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 21/ 132.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 834.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 285.

فالنّار مقصودٌ بها نار جهنَّم التي توعَّد اللّهُ تعالى بها الكافرين الظّالمين التي كانوا يكذِّبون بها بإنكارهم البعثَ، والنّار إنَّما تكونُ بعد البعثِ[1]، وإضافة العذابِ إلى النّار؛ لإرادة تخصيصه وتهويلِه.

دلالةُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم﴾:

في التَّعبير بالموصول وصلتِهِ لوصف النّار الَّتي يُعذَّبون بها في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ إيذانٌ بغلطهم وذنبهم وتنديمهم؛ لِما صَدَر مِنْهُم مِنَ الكَذِب[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في الفعل ﴿كُنتُم﴾:

تكذيبُهم بالنّار والعذاب؛ لأنَّهم مجبولون مطبوعون عليه

استُعْمِلَ فعلُ الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ تكذيبَهم بالنّار والعذاب أمرٌ دائمٌ، حتَّى كأنَّهم مجبولونَ مطبوعون على ذلك[3]، وفي هذا التَّعبير ذمٌّ لهم، فإنَّ ذلك الطَّبعَ أوردهم المهالكَ.

معنى (الباء) في ﴿بِهَا﴾:

تكذيبُهم بالنّار مؤذنٌ بتمام الملابسة

من معاني الباء في كلام العربِ الملابسةُ والمصاحبة والملاصقة[4]، واستُعملتِ الباءُ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ لهذا المعنى، فإنَّ تكذيبَهم بالنّار مؤذنٌ بتمام الملابسة وكمال المصاحبة، وفي ذلك ذمٌّ وتعريضٌ بهم، وأنَّه ما كان ينبغي لهم أن يكونوا على هذه الصِّفةِ مِنَ التَّكذيب والإنكار.

نكتةُ تقديم ﴿بِهَا﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ على ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؛ لإرادة الاهتمامِ بالمقدَّم؛ تشنيعًا للتَّكذيب به، وفي التَّقديم أيضًا رعايةٌ للتَّناسُب بين فواصل الآي[5].

---

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 258.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.
(4) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 140.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.

نكتةُ تعليق تكذيبِهم هنا بـ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

رؤيةُ الكفّارِ النّارَ ودخولهم فيها

في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ علَّق التَّكذيب بالنّار نفسها، فاستعمل الاسمَ الموصولَ المناسبَ لها ﴿ٱلَّتِي﴾، ولم يعلِّق بالعذاب الذي هو مآلُ أمرِهم بما كان منهم مِن كفرٍ، وسببُ ذلك أنَّ القولَ المخبرَ عنه هنا كلامُ اللّه ﷻ وحكمه، وقد أَذِنَ بهم إلى جهنَّم، وشاهدوها[1].

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

دقَّةُ البيان القرآنيِّ في تنويعِ الألفاظِ مُراعاة لسياقاتِها

قال اللّه تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ [السَّجْدَةِ: 20]، فاختلفت الآيتانِ من جهة أَنْ جُعِلِ الوصف ﴿ٱلَّتِي﴾ في آية سبأٍ يعود على ﴿ٱلنَّارِ﴾، وهي مؤنَّثة، بينما جُعِلَ الوصف ﴿ٱلَّذِي﴾ [السجدة: 20] في آية السَّجدة يعود على العذاب، وهو مذكَّر.

ووجهُ ذلك أنَّ آية السَّجدة تقدَّمها ذِكرُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ [السجدة: 20] ظاهرة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ [السجدة: 20]، ثمَّ أضمرها في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: 20]، فوقعت مظهرةً مكانَ المضمرة، وليس ذلك في آية (سبأ)، فلمّا كان المضمرُ لا يوصَفُ؛ بَعُدَ عن وصف الاسم الذي حلَّ محلَّه، فهو سادٌّ مسدَّه، فجاء الوصف لما أُضيف إليه، وهو العذابُ، وهو مذكَّر، فجاء ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي﴾ [السجدة: 20]، ولمّا لم يتقدَّم ما في سورة (سبأ) ما منزلته منزلةُ المضمر؛ أورد الوصف صريحًا، فأُجري عليه بقوله: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي﴾[2].

ووجهٌ آخَرُ في سرِّ اختلافِ التَّعبيرين: وهو أنَّهم في آية السَّجدة كانوا لابثين في النّار منذُ زمنٍ بعيد، ولم تكن رؤيتهم للنّار أوَّلَ مرَّةٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224 - 225.
(2) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 1067.

ودليلُ ذلك قولهُ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: 20]، فهذا هو عذابُهم المؤبَّد الذي أنكروه، أمّا آية سبأ؛ فإنَّ ذلك أوَّلُ ما رأوا النّار؛ لذكره عقيبَ الحشر والسُّؤال، فذكرَ المكذَّب به ههنا، وهو النّار[1].

ويجوز في سبب إجراء الوصف على العذاب في سورة السَّجدة، وإجرائه على النّار في سورة سبأ أنَّ آيةَ السَّجدة قد تقدَّمها قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السَّجۡدَةِ: 21] بما فيه تفصيلُ العذابِ وتكريره، والعذاب مذكَّرٌ؛ فتأكَّدت مناسبته للسّياق اللَّفظيِّ، فكان من المناسب عودُ الضَّمير إلى العذاب المضافِ إلى النّار؛ ليجريَ مجرًى واحدًا[2]، أمّا آيةُ سبأٍ؛ فلم يتقدَّم للعذاب وصفٌ، فكان المضاف إليه هو الجدير بالوصف؛ لأنَّه غرضُ التَّكذيب[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 213.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 404.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٤٣﴾ [سبأ: 43]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيانِ كُفرِهم؛ أتبعَهُ الإخبارَ بملازمتهِمُ الإصرارَ على التَّكذيب

بعد أن أخبرَ أنَّهم لم يؤمنوا بالقرآن الذي يخبرُ بالغيب مِن أمر الرَّحمن بما اهتدَت إليه عقولُهم، وشاهدتْهُ آثارُ عيونِهم في كلامه المعجزِ، ثمَّ أخبرَ ما كان مِنهم مِنَ الإيمان بالجنِّ غيبًا بأن عبدوهم مِن دونِ اللَّه بما لم يدعُ إليه عقلٌ، فصدَّقوا أخبارَهم، وخلطوا معها أكاذيبَهم، ثمَّ ذكرَ سلب النَّفع والضُّرِّ ممَّن ادَّعوا عبادتَهم، وأسند تعذيبَهم إلى تكذيبهم، بعد ذلك كلِّه أَتْبعهُ بما كان مِنهم مِن ملازمة الإصرارِ على ذلك الكفر والتَّكذيب بما جاء بِهِ مِنَ الصِّدق والحكمة، بأنَّهُ إذا تُليت عليهم الآياتُ البيِّنات؛ كذَّبوا ذلك، ورموهُ بالإفك المفترى[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُتْلَىٰ﴾: (تلي) تدلُّ تصريفاتُه على معنى الاتِّباع، ومنهُ تلاوةُ القرآنِ؛ فإنَّ آيَه يتبعُ بعضُها بعضًا؛ ولذلك غلب عرفًا في معنى التِّلاوة أنَّها دالَّةٌ على قراءةِ القرآن، وهذا الفعل يختصُّ باتِّباع الكُتُبِ الَّتي أنزلها اللَّهُ سبحانه، فتكون تارةً بالقراءة، وتارةً بالامتثال لما فيها من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيب، فتلاوةُ الكتاب: اتِّباعُهُ، والأخذ به من جهةِ العمل[2]، و"تلاه: تَبِعَهُ متابعةً ليس بينهم ما ليس منها،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 523 - 524.

(2) الخليل، العين: (تلا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (تلو)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلو - تلى).

وذلك يكونُ تارةً بالجسم، وتارةً بالاقتداء في الحُكم، ومصدرهُ: تلوٌّ وتلْوٌ، وتارةً بالقراءة وتدبُّر المعنى"[1]، ومعنى ﴿تُتۡلَىٰ﴾: تُقرأ، أي: إذا قُرِئَت عليهم الآياتُ البيِّنات.

2) ﴿يَصُدَّكُمۡ﴾: (صدّ) يدلُّ كثيرٌ من اشتقاقاتهِ على معنى الإعراضِ والعدول والإبعادِ، ومَن صددْتَهُ؛ فقد عدلْتَهُ وصرفْتَهُ عنه، فالصَّدُّ: إعراضٌ وصدوفٌ وامتناع[2]، و"المعنى المحوريُّ: اعتراضٌ بقويٍّ أو كثيف يرُدُّ المقبل، أو يمنعه كالجبل"[3]، والصَّدُّ الوارد في الآية بمعناه المجازيِّ، أي: إنَّ هذا الرَّجل الذي يدَّعي الرِّسالة ما هو إلّا رجلٌ يريد أن يصرفَكم عمّا أنتم عليهِ، ويدعوكم إلى تركِ عبادة الأصنام التي ورثتموها عن آبائِكم[4].

3) ﴿إِفۡكٌ﴾: (أفك) تدلُّ تصريفاتُه على قلبِ الشَّيء، وصرفِهِ إلى غير جهته، وأكثر ما يُستعمل في الكذب؛ "لأنَّ الكذبَ: صرْفُ الكلامِ عمّا ينبغي أن يكونَ عليه"[5]، وجميعُ الواردِ في القرآن الكريم مِن اشتقاقات الإفكِ هوَ بمعنى: التَّغيير والصَّرف عن الوجه الصَّحيح الَّذي يجب أن يكون[6]، وتدلُّ لفظةُ ﴿إِفۡكٌ﴾ في الآية على أنَّهم نفوا عن الكتابِ الَّذي أُنزلَ عَليهم - وهو القرآنُ - أنَّه من اللّه تعالى، بل هو كذب مفترًى[7].

4) ﴿مُّفۡتَرٗىۚ﴾: (فري) تدلُّ اشتقاقاتُهُ على قطْعِ الشَّيء، ثمَّ يتفرَّع عنه إصلاحًا وإفسادًا وتعجيبًا واختلاقًا للكذب، والإفراء للإفساد، والافتراء فيهما، وفي الإفساد أكثر، والفرية الكذب، فَرى كذبًا فَريًا، وافتراه: اختلقَهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: 38]، أي: اختلقَهُ[8]، ويرد الافتراءُ بمعنى الأمرِ العظيم من الكذبِ والبطلان، فيقال لمن يبالغُ في عملِهِ: إنَّه يفري الفري، أي: يقطع الأمرَ العجيبَ[9]، ومعنى المفترى في آية سبأ: أنَّه كذبٌ "مُختلَقٌ غير مطابقٍ للواقع، قد افتراهُ على اللّه تلبيسًا وتغريرًا على ضُعفاء الأنام"[10].

(1) الراغب، المفردات: (تلو).
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صدد).
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 94.
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أفك).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أفك).
(7) أبو بكر الحداد، التفسير الكبير: 5/ 246.
(8) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(9) السجستاني، غريب القرآن، ص: 103.
(10) النخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 2/ 180.

5) ﴿سِحۡرٌ﴾: (سحر) تدلُّ تصريفاتُه على الخداع والتَّخيُّل والإيهام، وإخراج الباطل على صورة الحقِّ، وهو أيضًا "الخداعُ، وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعلُه المشعبذُ بصرف الأبصارِ عمّا يفعلُه؛ لخفَّة يد، وما يفعله النَّمّام بقول مزخرفٍ عائق للأسماع"[1]، والسِّحْرُ: عبارةٌ عمّا خفيَ، ولطُفَ سببه، وهو عزائمُ ورُقًى وكلامٌ يُتَكلَّم به، وأدويةٌ وتدخيناتٌ، وله حقيقةٌ، ومنه ما يُؤَثِّر في القلوب والأبدان، فيُمرِض، ويَقتُل، ويُفَرِّقُ بين المرءِ وزوجه، ومِنهُ ما هو تخييلٌ.

والسِّحر في الآية الكريمة: هو السِّحر المعهود.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإعـــراضُ عن الآيات البيِّنات

يخبرُ اللّهُ سبحانه عن الكفّار كيف أنَّهم كانوا يتلقّون آياتهِ القرآنيَّةَ النّازلة عليهم بإنكار صريح، وتكذيب واضحٍ، فكانوا يصفون النَّبيَّ ﷺ بأنَّه - وحاشاهُ - رجلٌ يريد أن يصدَّهم عن دين آبائهم، ويدَّعون أنَّ ذلك الدّين هو الحقُّ، وأنَّ ما جاءهم به الرَّسول ﷺ هو الباطل[2]، ويزعمون أنَّ القرآنَ ليس إلّا إفكٌ وافتراء، بل إنَّهم ذهبوا إلى أبعدَ مِن ذلك؛ فوصفوهُ بالسِّحر، وهو دليلٌ واضحٌ على عنادِهم وكفرِهم، واستحقاقِهم للعقاب.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾:

بيـــانُ حـــالِ الـكـافـريـن في الدُّنيا والآخرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ عاطفةٌ[3]، فقد عطفت قصَّة تلاوةِ الآيات على الكافرين على قصَّة حَشْرِهِم يوم القيامة[4]، وهو عطْفٌ يمثِّل ربطًا بين قصَّتين أو حدثين، فالآيةُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سحر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 289.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 106.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 225.

التي تتحدَّث عن تلاوةِ الآياتِ على الكافرين تعود، وتتَّصل بحدثٍ آخر، وهو يومُ القيامة مجمَعُ النّاس للحساب والجزاء، وهو ربطٌ يعطي صورةً متكاملة عن حال الكافرين في الدُّنيا والآخرة، وبين الجملتين على هذا توسُّطٌ بين الكمالين؛ لما بينهما من التَّناسُب في المعنى، واتِّحادهما في الخبريَّةِ.

بيانُ حالِ الكافرين في الدُّنيا والآخرة

لطيفةُ التَّقييد بـ(إذا) دون (إن):

طُقَيِّدَ فِعلُ التِّلاوة بالأداةِ الدّالَّةِ على التَّحقُّق والقطع (إذا)؛ فإنَّه يدلُّ على الجَزم بوقوع مدخولها، دون حرف الشَّكِّ (إن)، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾، وذلك للتعجيب من وقاحتهم في أنَّ تكذيبَهم الرَّسول ﷺ إيّاهم حاصلٌ في أجدر الأوقات في تصديقهِ عندها، فهو وقتُ ظهور برهان صِدْقهِ لكلِّ عاقل متبصِّر[1]، وفيه دلالةٌ على تحقُّق تلاوةِ النَّبيِّ ﷺ عليهم القرآن وتبليغه إيّاهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتِّلاوة دون القراءة:

تتابُعُ تلاوةِ آياتِ القرآن فيه تذكيرٌ أكيدٌ

لَمّا كانت التِّلاوةُ تدلُّ على التَّتابع في القراءة؛ أوردَ هذا الفعلَ في الآية بقوله تعالى: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾، فالتِّلاوة خاصَّة عُرْفًا بالقرآن الكريم الذي تُتلى آياتُهُ الواحدة تلْوَ الأخرى[2]، وفي هذا التَّتابع من التَّذكير ما فيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿تُتۡلَىٰ﴾:

إعراضُهم عن الآياتِ مع تجدُّد تلاوتِها عليهم دليلُ شدَّةِ إعراضهم

أوردَ فِعلُ التِّلاوة بصيغته المضارعيَّة في قوله تعالى: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾؛ للدِّلالة على أنَّهم مع استمرار التِّلاوة وتجدُّدها؛ لم يحصُل منهم استجابةٌ للحقِّ الذي تدعو إليهِ الآياتُ، بل أعرضوا عَنْها ووصفوها بأبشعِ الأوصاف، وهذا يقتضي شدَّةَ عِنادهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 225.

(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.

وعظيمَ كِبْرِهم، ولو ذُكِرَتْ بالفعل الماضي (تليت عليهم)؛ لاحتمل تلاوتها مرَّةً واحدة[1].

نكتةُ بناءِ الفعل ﴿تُتْلَىٰ﴾ للمفعولِ:

ما كان معلومًا؛ جازَ حذفُهُ اقتصادًا في اللَّفظِ

الفعلُ مِن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ مبنيٌّ للمفعول، والآياتُ: مفعولٌ لَم يُسمَّ فاعلُه[2]، فقد حذف فاعلَ التِّلاوة؛ لأنَّه معلومٌ ظاهر مِن سياق الآية، وهو الرَّسول ﷺ، فهو الَّذي يتلو الآياتِ[3]، وهو حَذْفٌ يُسهم في إيجازِ العِبارة وجمالها.

ويجوزُ أن يكونَ الحذفُ لعدم تعلُّق السّياق بذكره؛ إذِ المقصود بيانُ إعراضهم وعنادهم، وذلك لا يتوقَّف على تلاوةِ الآيات مِن تالٍ مخصوصٍ، بل هذا مِنهم يكون في مقابلَةِ تلاوة القرآنِ أيًّا كان التّالي له.

معنى (على) في قولِه: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

علُوُّ منزلةِ القرآنِ وعظمةُ مُنزِلِهِ سبحانَهُ

حرفُ الجرِّ (على) بمعنى الاستعلاءِ في أصل وضعِهِ في لسان العرب[4]، وهو هنا كذلك في قوله تعالى: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ فهو دالٌّ على استعلاءِ الآيات الرَّبّانيَّة بنزولها على المشركين والكفّار[5]، وكأنَّها نازلةٌ عليهم من مكانة ساميةٍ في إشارة إلى علوِّ منزلة القرآن، وعظمة منزله ﷻ.

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

بيانُ عنادِ أهل الشِّرْكِ

الضَّميرُ المتَّصل بحرف الجرِّ مِن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعود إلى الكفّار الذين ذُكروا في سياق الآيات المنصرمةِ، وهم المشركونَ من أهل مكَّةَ[6] الذين يعاندون الحقَّ، ويجحدون النِّعم

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 2/ 142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(4) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 190.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.
(6) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 304.

على الرَّغم ممّا تَحمِلُه آياتُ اللّهِ تعالى البيِّناتُ مِنَ الأدلَّة والبراهين الواضحةِ على صِدق الرِّسالة النَّبويَّة، ووحدانيَّة اللّه تعالى.

نكتةُ تقييدِ التِّلاوة بـ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

تخصيصهم بالتِّلاوة أبلغُ في إقامَةِ الحجَّة عليهم

قُيِّدَ فِعلُ التِّلاوة بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لإفادة التَّخصيصِ بمَن وقع عليهم الفعلُ مِن غير أن يُشرك معهم غيرهم، فلا يكون منهم ادِّعاء أنَّ المقصود بالتِّلاوة سواهم، فلا يلزمهم سماعُهُ[1].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

الاهتمامُ والتَّعجيب والتَّشويق إلى ما بعده

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على نائب الفاعلِ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ اهتمامٌ بالمقدَّم، وتعجيبٌ من متعلِّقه، وأن يكون السّامع متشوِّقًا إلى ما يتلوه، وأنَّه من قَبيلِ البُهتان والكفر البواح[2].

دلالةُ التَّعبير بـ(الآيات) وجمعها:

آياتُ الكتاب مشتملةٌ على البراهين القاطعة

لَمّا كانت الآياتُ هنا مرادًا بها آياتُ القرآن الكريم - الذي أُنزِلَ على رسولهِ ﷺ[3] ذكرها بهذا اللَّفظ، ولم يذكرها بلفظ الأدلَّةِ أو العلامات؛ للإيماء إلى أنَّها آياتٌ لا تحتاج إلى دليلٍ آخرَ مَعها؛ إذْ لا تقبلُ الشَّكَّ أو التَّشكيك، فآياتُ اللّهِ سُبحانَهُ تحمل في طيّاتها البراهينَ القاطعة على صِدق الرِّسالةِ، وفي جمعها تقريعٌ لهم؛ إذ لم يؤمنوا بها على كثرَتِها؛ لاستحكامِ الغفلةِ فيهم.

لطيفةُ الإضافة في ﴿ءَايَٰتُنَا﴾:

آياتٌ عاليةُ القدر ساميةُ المنزلة

أُضيفَتِ الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ إلى ضمير العظمةِ العائدِ عليه سبحانه؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذه الآيات تنتفي عنها صفةُ البشريَّة، وفي إسنادها إلى ضمير العظمةِ دلالةٌ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 523.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 225.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 40.

على علوِّ قدرها وسموِّها ورفعتها وشرفها[1]، فهي كلامُ اللّه سبحانه، وهي دليلٌ على وحدانيَّتِهِ وقُدْرَتِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾:

آيــاتُ الـقـرآنِ الكريم مُكْتنفةٌ بـالـبـيـان لفظًا ومَعْنًى

وُصِفتْ آياتُ القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ بكونِها بيِّنات؛ إذ الحالُ وصفٌ لصاحبِها في المعنى، ونكتةُ هذا الوصفِ: أنَّ ظهورها كائنٌ مِن عند اللّه تعالى، فقد عَجزوا عن معارضتها، ولأنَّ معانيَها مشتملةٌ على الأدلَّةِ الواضحة المصدِّقة إلى ما تدعو إليه، فكانت ألفاظُها ومعانيها محفوفةً بالبيان[2].

آياتُ اللهِ تعالى مؤيَّدة بالبراهين

وفي وصف الآياتِ البيِّنات في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ توبيخٌ وتقريع لهم، فإنَّ أجوبتَهم الباطلةَ على الغاية من الجهالة، والنِّهاية من الضَّلالة؛ لأنَّ الآياتِ البيِّنات لا تُعارَض إلّا بالكُتُبِ السَّماويَّة أو المعجزات النَّبويَّة، وهم لا يملكون شيئًا من ذلك[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقول في ﴿قَالُواْ﴾:

مبادرتُهم إلى التَّكذيب بالحقِّ قبل تأمُّلِه

لَمّا ذَكرَ ما كان مِن أمرِ الآيات البيِّنات في تلاوتها عليهم؛ بادرَ هؤلاء المكذِّبون الرَّسولَ ﷺ إلى القول: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ﴾، "على الفور، من غير تأمُّلٍ لِما حملهم على ذلك من حظِّ النَّفس"[4]، فقد دفعت حظوظُ النُّفوس المكذِّبين إلى التَّسرُّع في إنكار الآيات البيِّنات، وبادروا إلى اتِّهامه ﷺ بأنَّه يريدُ إضلالهم، دونَ تأمُّلٍ أو تدبُّرٍ.

نكتةُ إسنادِ القول إلى ضمير جماعَتِهِم:

إنـكـارُ الـكـفّـار الرِّسالةَ موقفٌ جماعيٌّ

أُسْنِدَ فعلُ القولِ إلى ضمير الجَمْعِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ﴾؛ للدِّلالة على اتِّفاق الكافرين جميعًا على

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 86.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 225.

(3) الشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 711.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 523.

تكذيب ما جاء من الحقِّ، في إشارةٍ إلى أنَّ هذا القولَ كان موقفًا جماعيًّا متَّفقًا عليه، لا يقتصر على فردٍ واحد منهم، بل يشمل الجميعَ، وهو تعبيرٌ يؤكِّد عنادَهم وتمسُّكَهم بالباطل، مع وضوح الحجَّةِ عليهم.

الطَّعْنُ في النَّبيِّ ﷺ لردِّ دعوتِهِ الحقَّة

معنى ﴿مَا﴾ مع ﴿إِلَّا﴾ في الآية:

شأنُ إلّا الدّالَّة على الاستثناء أن تكونَ دالَّةً على القصر إذا سُبِقَت بالنَّفي (ما مع إلّا)[1]، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾؛ فقد "قصروا الرَّسول ﷺ على صفةِ إرادة صدِّهم قصرًا إضافيًّا، أي: إلّا رجلٌ صادٌّ، فما هو برسولٍ"[2]، فقد حصروا النَّبيَّ ﷺ في صفة واحدة هي الرَّغبة في إبعادهم عن عباداتهم؛ تقليلًا من شأنه، ونفيًا لرسالته، وإيهامًا للنّاس بأنَّه ليس إلّا رجلًا يهدف إلى تغيير عبادتهم.

ظهورُ صدقِ النَّبيِّ ﷺ

والقصرُ بـ ﴿مَا﴾ مع ﴿إِلَّا﴾ فيه معنى التَّوكيد، فإنَّه لَمّا كان لرسالته ﷺ من الظُّهور والتَّجلّي، وما له ﷺ مِنَ القبول، وقد ظهر ذلك لأتباعهم، فمالوا إليه بكلّيّاتهم، وأذعنوا له؛ فما كان مِنَ هؤلاء المستكبرين إلّا أن قالوا توكيدًا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾[3].

تجريدُ الكفّار لِرسالةِ الإسلام من صفة الرَّبّانيَّة

ويجوز أن يكونَ القصر الواردُ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ قصرًا يرادُ منه ردُّ رسالةِ الرَّسول ﷺ[4]، وتجريدُ دعوته من أيِّ صفة إلهيَّةٍ، في محاولةٍ منهم حصر نبيِّ اللّه تعالى في البشريَّة المحضة، ليتأتّى لهم ردُّ دعوته.

كمالُ وقاحتهم مع النَّبيِّ ﷺ

مرجعُ الإشارة ودلالتها في ﴿مَا هَٰذَآ﴾:

مرجعُ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن

---

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 337.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 523.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 531.

﴿يَصُدَّكُمْ﴾ هو الرَّسول ﷺ، وفي استحضارِه بطريق الإشارةِ إفادةٌ لحضوره مجلسَ التِّلاوة؛ فقد كان يقرأُ القرآنَ في مجالسهم كقراءته على عُتْبة، وعلى ابن أبي سَلول، وتعبيرُهم بالإشارة دون الاسمِ أو صفةِ النُّبوَّة أو الرِّسالة ما هو إلّا مِن تمام وقاحتهم، وكمال صفاقتِهم مع الرَّسول ﷺ طعنًا فيه(1).

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿رَجُلٌ﴾ وتنكيره:

حظُّهم من قدر النَّبيِّ ﷺ لردِّ رسالَتِه

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿رَجُلٌ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾؛ لأنَّ مرادَهُم: لا تسمعوا لهذا الرَّجل ولتلاوته، فهو رجلٌ واحدٌ كأيِّ رجلٍ من رجالكم، بل وتزيدون عليه أنتم بالكثرة(2)، وفي تنكيرِه استهانة برسالتِه، وتقليل من شأنه ﷺ، وإظهار التَّهكُّم به، وإلّا فإنَّه ﷺ علَمٌ معروفٌ بينهم(3).

وفي إيرادِه منكَّرًا أيضًا تقليلٌ من شأنه ﷺ تحذيرًا لقومهم، فلا ينبغي الإيمان برجلٍ غيرِ معروف(4) يدَّعي الرِّسالة بحسب زعمهم.

دلالةُ التَّعبير بفعل الإرادة مضارعًا:

إثارةُ الحميَّةِ فيهم لردِّ الحقِّ ولزوم الباطلِ

في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ نسبوا إرادةَ صدِّهم عن دين آبائهم وأسلافِهم له ﷺ، وغرضُهم من ذلك أن يثيرَ بعضُهم عصبيَّةَ بعضٍ، فإنَّ آباءهم في اعتقادهم همُ أهل الرَّأي والسَّداد؛ فلا يرون إلّا الحقَّ، ولا يفعلون غيرَ الصَّواب والحكمة، فيكون مريدُ الصَّدِّ مبتغيًا الباطل، وكاذبًا في القول، والحقُّ مطابقةُ الواقع، وإبطالُهُ قولٌ غير مطابقٍ للواقع، وهو الكذب لا غير بحسب زَعْمِهِم(5).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 523.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 304.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 531.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.

معنى ﴿أَن﴾ في جملة ﴿أَن يَصُدَّكُمْ﴾:

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ حرفٌ مصدريٌّ يُفيد التَّوكيد والتَّعليل[1]، أي: إنَّ هذا الرَّجلَ يريد أن يمنعَكم، ويصرفَكم عن عبادة الآباء والأجداد التي يظنّون أنَّ الانحيازَ عنها تيهٌ وضلال.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَصُدَّكُمْ﴾:

التَّحريضُ على قوَّة الاستمساك بدينِهم الباطِل

التَّعبيرُ بالصَّدِّ في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ فعلًا مضارعًا؛ للدِّلالة على أنَّه صدٌّ متجدِّد مستمرٌّ، وهذا فيه تحريضُ قومِهم على شدَّة التَّمسُّك بما وجدوا عليه آباءهم؛ ليقابلوا هذا الصَّدَّ المستمرَّ الذي يريد زعزعتَهُم عن دينهم.

فائدةُ عدمِ إسنادِ فعل الصَّدِّ لأنفسهم:

إرادةُ إلهابِ المخاطَبين وتهييجهم

في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ لم يسندوا فعل الصَّدِّ لأنفسهم مع أنَّهم معنيّون بذلك، فلم يرِد في النَّظمِ القرآنيِّ: (يُريد أن يصُدَّنا)، ونسبوه إلى جماعتهم؛ نفيًا للغرض عن أنفسهم، وتهييجًا وإلهابًا للمخاطَبين[2]؛ إذ صوَّروا الرَّسول ﷺ بأنَّه شخصٌ يسعى إلى فصْلِهم عن دين آبائِهم وأجدادهم، وهذا التَّحذيرُ يهدف إلى إثارةِ الخوفِ والقلقِ في نفوس المستمعين، وانحيازِهم عن قَبول دعوة الدّين.

معنى (عَنْ) في قوله: ﴿عَمَّا﴾:

الدَّعوةُ الحقُّ دعوةٌ إلى مباعدةِ عبادة غيرِ اللهِ تَعالى

الأصلُ في معنى (عَنْ) في كلام العربِ أن تدلَّ على المجاوزة[3]، والتَّعبيرُ بها في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ واقعٌ في هذا المعنى في دلالتها على المجاوزة والمباعدةِ[4]؛

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524.
(3) ابن بابشاذ، شرح المقدمة المحسبة: 1/ 237.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.

فإنَّ ما جاء به هذا الرَّجلُ - وهوَ محمَّد ﷺ - غرضُه دعوتُكم إلى ترك عبادةِ الآباء والأجداد، والانتقال إلى عبادة اللّه تعالى.

دلالةُ (ما) في ﴿عَمَّا﴾:

الإشارةُ إلى الأصنام التي كانوا يعبدونها

تَرِدُ (ما) كثيرًا اسمًا موصولًا دالًّا على غير العاقل كثيرًا، وللعاقل قليلًا[1]، وفي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ استعمل (ما) اسمًا موصولًا بمعنى (الذي)؛ إشارةً إلى الأصنام والأوثان[2] التي تُعبد من دون اللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في: ﴿عَمَّا كَانَ﴾:

إثباتُ عراقةِ شِركهم بالله تعالى

استُعمِلَ فعلُ الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ في إشارة إلى أنَّ عبادتَهم تلك عبادةٌ قديمة ثابتةٌ، فإذا ما ثبت لهم ذلك؛ أَلْهَبوا قلوبَ قومِهم وأشياعهم، وأوغروا صدورَهم، فتآلبوا على الرَّسول ﷺ، وازدادوا بدينهم تشبُّثًا[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَعۡبُدُ﴾:

إلهابُ السّامعين ليثبتوا على كفرهم

أورِدتْ عبادةُ الآباء فعلًا، واستُعْمِل بصيغته المضارعيَّة في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾؛ تحذيرًا لقومِهم بألّا يكونوا أَتْباعًا لهذا الرَّجل، وإلهابًا للسّامعين بتصوير آبائهم في صورةٍ مُثْلى مِنَ العراقة على العبادةِ وملازمتِها؛ بدلالة ﴿كَانَ﴾ والفعل المضارع الدّالِّ على الاستمرار؛ رَوْمًا منهم إلى الثَّبات على كفرِهم[4].

دلالةُ جمعِ الآباء وإضافتها في: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ﴾:

تحريكُ عِرقِ العصبيَّة منهم مبالغةٌ في تنفيرهم عن التَّوحيد

في قوله تعالى: ﴿كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ ذُكِرَ الآباءُ بصيغةِ الجمع، وأُضيفوا إلى المخاطَبين، ولم يُضِفْهُم المتكلِّمون إلى

(1) ابن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد: 1/ 165.
(2) الجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 330.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524.

أنفسِهم؛ لأنَّ المقصودَ تحريكُ عِرق العصبيَّة والحميَّة وإثارته منهم؛ مبالغةً في تقريرِهم على الكفر والشِّرك، وزيادةً في تنفيرِهم عن الإيمانِ والتَّوحيد[1].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾:

افـتراءُ الإفـك صادرٌ مِنَ الصّادِّ لهم عن شِرْكِهم بحسب زعمهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ عاطفة[2]، فهذه الجملةُ معطوفةٌ على الجملة من قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ﴾؛ لِما بينهما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاتِّحاد الجملتَين خبرًا، ووجود التَّناسُب في المعنى، والتَّناسُبِ في اللَّفظ، وهوَ اشتراك الفعلين في الظَّرف[3]، فالإفْكُ المفترى صادرٌ عمَّن يريد صدَّهم عن عبادة آبائِهم بحسب زعمهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالقول في ﴿وَقَالُواْ﴾:

زعـموا أنَّ وحدانـيَّة الله تـعالى كـذبٌ مُختلَقٌ

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾، يجوز أن "يكون المرادُ أنَّ القولَ بالوحدانيَّة إفكٌ مفترًى، ويدلُّ عليه هو أنَّ الموحِّد كان يقول في حقِّ المشرك: إنَّه يأفك"[4]، يؤيِّده قوله تعالى: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦﴾ [الصّافّات: 86]، وقوله تعالى: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: 22]، وفي التَّعبير بالقولِ إيماءٌ إلى مبادرَتِهم إلى مُطلق التَّلفُّظ قبلَ التَّأمُّلِ فيما أنكروهُ.

دلالةُ تَكرارِ الفِعْل (قالوا):

شناعةُ مقالةِ أهل الشِّرْكِ

بعد أن حكى اللهُ ﷻ مقالتَهم في قَصْرِهم الرَّسول ﷺ على إرادة صدِّهم عن عبادةِ آبائهم بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ﴾، أعاد فِعلَ القول بنصِّهِ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 138.
(2) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1894.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 213.

﴿هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾؛ اهتمامًا بما كان مِن حكاية قولِهم؛ لفظاعتهِ وقباحتهِ[1] مِن وصفهم كلامَ اللّه تعالى بالإفكِ المفترى.

مرجعُ الإشارةِ في ﴿مَا هَٰذَآ﴾ ودلالته:

طعْنُ الكفّارِ في القرآن بوصفِهم إيّاهُ بالإفكِ المفترى

اسمُ الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ عائدٌ على الكِتاب الكريم[2]، واختاروا التَّعبيرَ باسم الإشارة للقريبِ؛ لإرادَةِ تحقيرِ كلامِ اللّه ﷻ المعظَّمِ؛ إمعانًا منهم في الباطلِ.

معنى ﴿إِلَّآ﴾ في ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ﴾:

زعْمُهم أنَّ القرآنَ كذبٌ مختلَقٌ

﴿إِلَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ حرفُ استثناءٍ، وهو مفيدٌ مع حرفِ النَّفي الذي تقدَّمه ﴿مَا﴾ الحصرَ، والمعنى: أنَّهم لَمّا أرادوا الطَّعن في القرآن الكريم حصروهُ في الكذب المتعمَّد المفترى الذي لا حقيقةَ له[3].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِفۡكٞ﴾، وتنكيره:

إمعانُهم في الضَّلالِ والانحرافِ

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿إِفۡكٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ دون ما يُقاربُهُ مِنَ الألفاظ الأخرى، من نحو الكذب - وهو الإخبار عن الشَّيء بخلاف حقيقته مطلقًا، عمدًا أم خطأً[4] ولم يعبِّر بالافتراءِ، والأصلُ فيه الشَّقُّ والقطع والفصل، وما كان في القرآنِ الكريم؛ فهو بمعنى اختلاقِ ما لا أصلَ له[5]، فهو ادِّعاء الكذبِ، أمّا الإفكُ؛ فهو يدلُّ على قلْبِ الشَّيء، وصرفِهِ عن حقيقتهِ[6]، فهو أبعدُ في السّوءِ والأذى مِنَ الكذب الذي يحتمل الخطأَ من غير تعمُّد، والافتراءُ الذي لا أصل له، والقرآن موجودٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 588.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (كذب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فري).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).

مشاهدٌ حقيقة، فلا يمكن إنكارُهُ، فلم يكن لهم إلّا نعتُه بالإفك الموصوف بأنَّه أسوأُ الكذبِ[1].

نكتةُ وصف ﴿إِفۡكٌ﴾ بـ ﴿مُّفۡتَرٗى﴾:

وُصِفَ الإفكُ الدّالُّ على الكذب بالمفترى في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ مُّفۡتَرٗى﴾؛ للدِّلالة على أنَّه كذبٌ مصروفٌ عن وجهه الصَّحيح الذي يجب أن يكونَ غيرَ مطابقٍ للواقع، ومتعمِّدًا ما فيه مِنَ الصَّرف[2].

(كذب) مصروفٌ عن وجهِهِ الصَّحيحِ بتعمُّد

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾:

الواو من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملةِ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾[3]؛ لما بينهما مِنَ التَّوسُّطِ بين الكمالين، والعطفُ بين الجملتين مفيدٌ استمرارَ حالِ الكافرين في الكفر والعناد، فبعد أن سمعوا الآياتِ البيِّناتِ؛ لم يزدهم ذلك عن الإيمانِ إلّا نفورًا، وعلى الكفرِ إلّا إصرارًا.

لم يزدْهم سماعُ الآيات إلّا نفورًا

نكتةُ تَكرار القول في الآية:

لمّا ذكر اللّهُ تعالى حكايةَ قولهم مرَّتين في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗى﴾؛ كرَّر فعل القولِ مرَّةً ثالثة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾؛ لإظهار الإنكارِ العظيم لمقالَتِهم، والتَّعجيبِ البليغ منها[4].

المبالغةُ في إنكار قالَتِهم

نكتةُ الإظهارِ في مقام الإضمار:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمارِ؛ إذ كان مقتضى الظّاهر أن يَرِدَ في النَّظم القرآنيِّ: (وقالوا)، والنُّكتة في الإظهار: أنَّ فيه إنكارًا عظيمًا، وغضبًا

الإنكارُ العظيم على جرأتِهم على الله تعالى ومكابرتِهم الحقَّ

---

(1) السجستاني، غريب القرآن، ص: 108.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 227.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 138.

شديدًا، وتعجيبًا مِن أمرِهم بليغًا لما صدر مِنهم مِنَ الكفر، فكأنَّه قال: وقال أولئك الكفرةُ الذين تمرَّدوا على اللّه سبحانه بجراءتِهم ومكابرتِهم لذلك الحقِّ الهادي قبل أن يتأمَّلوهُ[1].

الكفرُ هو الباعثُ لهم على مقالة السّوءِ

وفي الإظهار إيماءٌ إلى أنَّ الكفرَ هو الحاملُ لهم على هذا القولِ[2]، فهو صفتُهم المميِّزةُ التي تميِّزهم مِن غيرِهم.

دلالةُ الإسنادِ في ﴿كَفَرُواْ﴾:

هؤلاءِ الكافرون متَّحدون في كفرِهم وتكذيبهم للرُّسل والآيات

لَمّا أُريدَ الكلامُ عن فِعل الكفر الصّادر ممَّن كفر، وكذَّب بآياتِ اللّه ﷻ؛ أُسْنِدَ إلى الضَّمير المجموع، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ في إشارةٍ إلى أنَّهم مُجمِعون على الكُفر، وأنَّه عملٌ جماعيٌّ يجمع كلَّ مَن جحدَ حقَّ اللّه تعالى، وفي هذا التَّعبيرِ يؤكِّد وحدةَ أهلِ الكُفْر في مواجهةِ الحقِّ، وأنَّهم مُتمالِئون على التَّمرُّد عليه.

دلالةُ وصْفِهم بالكفر:

ستروا ما دلَّت الأدلَّةُ عليه

الكفرُ في أصلِ اللُّغة دالٌّ على مَعنى السَّتر والتَّغطية[3]، ولَمّا كان مِن شأن أمرِهم مع القرآن والوحي والنُّبوَّة أنَّهم ستروا ما كان دليلًا للعقولِ على حقِّيَّة القرآن[4]؛ استحقّوا أن يوصَفوا بالكُفْرِ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾.

معنى (اللّام) في القيد ﴿لِلۡحَقِّ﴾:

اتِّهامُهم رسولَ اللّه ﷺ بالباطل

حرفُ الجرِّ (اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ دالٌّ على التَّخصيص[5]؛ فإنَّهم خصّوا نبيَّ اللّه ﷺ بهذا الاتِّهام الباطل، وكأنَّهم قالوا لَهُ كِفاحًا: ما جئتَ به ليس إلّا سحرًا مبينًا؛ وذلك لفرطِ ضلالِهم وعنادِهم.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 588.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 227.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524.
(5) الرماني، منازل الحروف، ص: 50 - 51.

توكيدُ حقّيّته وصِدقه

ويجوز أن تكونَ اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلْحَقِّ﴾ دالَّة على التَّوكيد؛ لإثبات أنَّ الحقَّ هو الصِّدق المطلق، وهو الأمرُ الثّابت الَّذي لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، والذي ليس هناك غيره[1]، وهو ما يؤكِّد على أهميَّة التَّمسُّك به، والعمل بأحكامه.

معنى (أل) في ﴿لِلْحَقِّ﴾ ودلالته:

عداءُ أهل الكفرِ للحقِّ بالكُلّيّةِ

(أل) في ﴿لِلْحَقِّ﴾ دالَّةٌ على الجنس، إي: لأمرِ النبوَّةِ أو الإسلام أو القرآن على أنَّ العطفَ لاختلافِ العُنوان بأنْ يُراد بالأول معناهُ والثاني نظمَه المعجزَ[2]، ولم يستعملْ لفظةَ (الرَّسول) أو (الوحي) أو (القرآن)؛ لأنَّ لفظةَ الحقِّ تُعبِّر عن كلِّ ما جاء به الرَّسول ﷺ من حقائقَ ومعارفَ وأحكام، فهي تشملُ القرآنَ والسُّنَّة بما يجعلها أكثرَ شموليَّة، وأوسع نطاقًا.

الحقُّ المبين لا مَطْعَن فيه

ويجوز أن تكون (أل) في ﴿لِلْحَقِّ﴾ للعهد[3] في إشارة إلى أنَّ المقولَ فيه هو الحقُّ المبينُ الذي لا يطعن فيه إلّا مَن كان مكابرًا معاندًا[4].

الإسلامُ هو الحقُّ الذي لا نقصَ فيه بوجهٍ من الوجوهِ

ويجوز أن تكون (أل) في ﴿لِلْحَقِّ﴾ للكمال[5]، والمعنى: "الذي لا أثبتَ منهُ، باعتبار كمال الحقّيَّة فيه"[6]، أي: إنَّ الحقَّ الذي جاء به الرَّسول هو الحقُّ المطلق الكامل الذي لا نقصَ فيه ولا شائبة، ومع ذلك قالوا عَنْهُ ما قالوا، وما ذاك إلّا لِعظَمِ ضلالِهم وانحرافِهم.

دلالةُ ﴿لَمَّا﴾:

مسارعتُهم إلى رفْضِ الحقّ

الأصلُ في ﴿لَمَّا﴾ أنَّها ظرفٌ مستعملٌ استعمالَ الشَّرط[7]، وجاءت في قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ دالَّةً على المسارعةِ في البتِّ بقولهم

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 138.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 574.
(4) الشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 711.
(5) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 178.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524.
(7) الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 77.

الباطل[1]، فقد سارعَ الكافرون مِن فورِهم إلى رفْضِ دعوة الرَّسولِ ﷺ والقرآن لّمّا جاءهم بالحقِّ والأدلَّةِ والبيِّنات بالكلام الباطل، ووصمَهُ بالسِّحر؛ إشارةً إلى مدى عنادِهم ورفْضِهم له، فاختاروا أسهلَ طريقٍ، وهو التَّشكيك.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمجيء دونَ الإتيان:

الحقُّ أمرٌ واقعٌ قطعًا

اسْتُعمِل فعلُ المجيء في قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ دونَ الإتيانِ؛ لما في الفعل ﴿جَآءَهُمْ﴾ من دلالة الحصولِ والتَّحقُّق[2]، فإنَّ مجيءَ الحقِّ حاصلٌ متحقِّق - لا محالة - بلا تباطُؤٍ.

موقعُ جملة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾:

تذييلٌ يعمُّ جميعَ أفرادِ الرِّسالة

جملةُ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّذييل ممّا سبق، فهو تكذيبٌ منهم يعمُّ جميعَ ما جاء به الرَّسولُ ﷺ ممّا يُتلى من وحيٍ، أو توحيد يُدعى إليه، أو استدلال يُستدلُّ به، أو معجزة من معجزاتِه[3].

معنى ﴿إِنْ﴾ و﴿إِلَّا﴾ في الآية:

تَشبُّث أهلِ الكُفْر بباطِلهم

﴿إِنْ﴾ مع ﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ دالَّةٌ على القَصْرِ؛ فقد بتَّ فيه أولئك الكفرةُ بجرأتهم على اللّه سبحانه، فقضوا بأنَّه سحرٌ[4]، مع عِلمهم في قرارة نفوسِهم أنَّ هذا الاتِّهام باطلٌ، والمعنى: أنَّ الكافرين النّاكبين عن طريق الحقِّ والهُدى قد قصروا كلَّ ما جاء بِه النَّبيُّ ﷺ على كونِه سحرًا، وهذا الحصْرُ يدُلُّ على عنادهم وتشبُّثهم بباطِلهم، ورفضِهِم القاطعِ للحقِّ.

نكتةُ إظهارِ المشار إليه ﴿لِلْحَقِّ﴾:

ظهورُ الحقِّ دفعَهم إلى وصْفِهِ بالسِّحر

في قوله تعالى: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أُظْهِر المشار إليه ﴿لِلْحَقِّ﴾ قبل اسم الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾؛ لانتفاء وجودِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 138.
(2) الراغب، المفردات، ص: 212.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 227.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 574.

الدَّليل عليه فيما سبق مِن كلام، والمعنى: أنَّه لَمّا ظهر لهم الحقُّ من إثباتِ التَّوحيد أو الإخبار عن الغيبيّات أو البعثِ؛ وصفوا ما جاءهم بالسِّحر المبين[1].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿سِحۡرٌ﴾، وتنكيره:

لم يجدوا ما يَدْفعون بِهِ الحقَّ إلّا اتِّهامُهم لَهُ بالباطِل

في وصْفِهم الحقَّ بأنَّه سحرٌ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾ مبالغةٌ منهم في الباطِلِ؛ إذ زعموا أنَّ القرآنَ الكريم - لكمال فصاحتهِ وعُلوِّ بلاغته بما لا يمكن الإتيانُ بمثلِهِ - جارٍ مجرى السِّحر[2].

دلالةُ وصفِ السِّحرِ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

وصفوا القرآن بالسِّحر الظّاهر ترويجًا لأكاذيبهم وأنَّه واضحٌ للعيان

لَمّا عجزوا عن مجابهة الحقِّ؛ أرادوا ترويجَ أكاذيبهم، فشبَّهوا القرآنَ بالسِّحر، ووصفوه بالمبين، أي: الظّاهرُ السِّحريَّة[3] في قوله تعالى حكايةً لقولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾، وهي محاولةٌ يائسة منهم لتشويه صورةِ الحقِّ، وإقناع النّاس بباطل دعواهم، ويشيرُ اسم الفاعل إلى أنَّ السِّحرَ الذي يتَّهمون به النَّبيَّ ﷺ واضحٌ وجليٌّ للعيان، فهو يُبين عن نفسِهِ لمن رآه، وتأمَّله[4]، أي: إنَّه سهلُ التَّمييز.

نكتةُ ترتيب مضامين الأقوالِ في الآية:

طعنُهم في الرَّسولِ وفيما جاء بهِ وفي وصفِهِ

حكى اللّهُ ﷻ مطاعنَهم على هيئة أقوالٍ مشتملةٍ على مضامين طعونِهم، **فالأوَّل**: طعنُهم في التّالي، وهو الرَّسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ﴾، **والثّاني**: طعْنُهم في المتلوِّ، وهو القرآنُ بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ مُّفۡتَرًىۚ﴾، **والثّالث**: طعْنُهم بأن وصفوا القرآن بأنَّه سحرٌ بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾، فجاء ترتيبُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 227.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 531.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 531.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 415.

طعونِهم وفقًا لما يُمليه عليه منطقهم في أنَّهم طعنوا أوَّلًا في الرَّسول، ثمَّ طعنوا فيما جاء به، ثمَّ طعنوا في وصف ما جاء به[1].

دلالةُ تعبيرِهم بـ (هذا) في الآية:

استُعمِلَ اسمُ الإشارة (هَذا) في ثلاثة مواضعَ مِنَ الآية، **فالأوَّل**: إشارةٌ إلى الرَّسول ﷺ، **والثّاني**: إشارةٌ إلى القرآن الكريم، **والثّالث**: إشارةٌ إلى وصف كتابِه الكريم، وتَرْكُ الاسم إلى الإشارة تحقيرٌ صريحٌ يدلُّ على جرأة بالغةٍ مِن هؤلاء الكافرين على اللّه تعالى ورسولِه وكتابه[2]، بتجاوزهم وتماديهم في تحدّي اللّه ورسوله وكتابِه، واستهانتِهم بالحقائق الرَّبّانية الثّابتة، بموجب كفرِهم وعصيانهم.

تحقيرٌ دالٌّ على جراءتِهم على الله تعالى ورسولِهِ وكتابه ورسالاته

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التِّلاوة والقراءة:

التِّلاوةُ أخصُّ مِنَ القراءة؛ لأنَّ القراءةَ قد تكون للكَلِمَةِ الواحدةِ وأكثر، بخلاف التِّلاوة؛ فإنَّ أصلَ اشتقاقاتها - الدّالَّ على التَّتابع - يدلُّ على قراءة اللَّفظِ الكثير المتتابع.

التِّلاوةُ أخصُّ من القراءة

وأورد فعلَ التِّلاوة في قوله تعالى: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾، ولم يورِدْ فعلَ القراءة؛ لخاصّيَّة التَّتابع في التِّلاوة؛ من إتباعِ الشَّيءِ الشَّيءَ، يقال: تلاه؛ إذا تَبِعَهُ، فإنَّها تكون للَّفظ الكثيرِ، أمّا القراءةُ؛ فتكونُ للكلمة الواحدة، كأن يقال: قرأ فلانٌ اسمَهُ، ولا يقال: تلا اسمَهُ[3]، ولمّا كان قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ واردًا موردَ الجمع؛ دلَّ ذلك على كثرتها؛ فلا يناسبها عندئذٍ إلّا لفظُ التِّلاوة[4].

الآية والعلامة والدَّليل:

معنى الدَّليل: أن تأتيَ بما تحتجُّ به على صحَّة مذهبك، وقد

الدَّليل ما يُحتجُّ به، والعلامةُ الأثرُ في الشَّيء، والآيةُ الطّائفةُ مِنَ القرآن

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 558.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 337.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 140.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.

يكون هذا الدَّليلُ وضعيًّا كدلالة الاسمِ على المسمّى[1]، أمّا العلامةُ؛ فالأصلُ فيها وجودُ الأثر المميَّز الذي يميِّزها مِن غيرها[2]، والآيةُ تأتي بمعنى العلامةِ والشَّخص والجماعة[3] وسوى ذلك، إلّا أنَّ المرادَ في الآيةِ: كونُها "طائفةً مِنَ القرآنِ، يتَّصل بعضُها ببعض إلى انقطاعها، طويلةً كانتْ أو قصيرةً"[4]؛ فصار لفظ الآيَةِ غلبًا بالغَلَبَةِ على الآيةِ القرآنيَّةِ.

السِّحر والكهانة:

السِّحرُ أقوى مِنَ الكهانة

الكهانةُ: تنبُّؤٌ بما يكونُ، فمُسْتَنَدُ الكاهنِ هو كلامُهُ الذي يذكرهُ للنّاس، أمّا السِّحر؛ فهو عملٌ في الأكثر؛ للتَّأثير في الأرواحِ لِتقومَ بأداء ما طُلِب منها، ولا يُمْكِنُ صُنعُ سِحْرٍ ما لم يقترن بعمَلٍ ما، ويصحبُ هذا العملَ كلامٌ مفهومٌ أو غير مفهوم، فالسِّحْرُ أشنَعُ وأقوى تأثيرًا، ولذا لَمّا وصف الكُفّارُ ما جاء به الرَّسولُ ﷺ بأنَّه إفكٌ مفترًى؛ ختموا أوصافَهم بأنَّه ﴿سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ لقصدِهم إلى المبالغة في وصف ما جاء به زيادةً في تنفير النّاس عنه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 71 - 72.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (علم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيي).
(4) الكفوي، الكليات، ص: 41.

﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾ [سبأ: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ادِّعاءاتُ أهلِ الشِّركِ عاريةٌ عن الأدلَّة

لمّا ذكرَ اللّه تعالى ما ألقاهُ الكافرون مِنْ سهام شكوكِهم على نور الإسلامِ، ووصفوا ما جاء به النَّبيُّ ﷺ بالسِّحر الظَّاهر؛ ردَّ اللّه تعالى عليهم مبطلًا ادِّعاءهم، وكشف زيف اعتقادِهم، فكيف يزعمون أنَّ دينَهم هو الدّين الحقُّ، و"من أين كذَّبوا بك، ولم يأتِهم كتاب، ولا نذير بهذا"[1]، وأنَّه تعالى ما أنزل عليهم من كتابٍ قبل القرآن يقرِّر لهم دينًا، ولا أرسل رسولًا يدعوهم إلى الحقِّ، والدّين الصَّحيح لا يُعرف إلّا بوحيٍ مِنَ اللّه سبحانه؛ فثبت عندئذٍ أنَّ دعواهم ما هي إلّا أوهامٌ باطلةٌ، لا تستندُ إلى أيَّة حجَّة عقليَّة أو شرعيَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُتُبٖ﴾: (كتب) تدلُّ تصريفاتُه على جمعِ الشَّيءِ إلى الشَّيء، و"ضمُّ الحروف بعضُها إلى بعضٍ بالخطِّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضُها إلى بعضٍ باللَّفظ. فالأصلُ في الكتابة النَّظمُ بالخطِّ، لكن يُستعار كلُّ واحدٍ للآخر"[2]، وقد يُقال: الكتابُ، ويُراد به المكتوبُ، مِن إطلاق المصدرِ وإرادة اسم المفعول، مثل الفراشِ، بمعنى: المفروش، فالكتابُ هو الصَّحيفةُ الَّتي كَتَبَ فيها[3]، ويأتي (الكتاب) في القرآن الكريم على أحدَ عشرَ وجهًا[4]، ومعنى الكُتُبِ في الآية: الكُتُبُ المنزَّلة مِنْ عند اللّه تعالى.

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 364.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كتب).
(3) نصر الهورينيّ، المطالع النّصرية، ص: 41.
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 526 - 527.

2) ﴿نَّذِيرٍ﴾: (نذر) تدلُّ تصريفاتُه على التَّخويفِ أو التَّخوُّف، ويكاد أن يكونَ منحصرًا في التَّخويف[1]، والمعنى العامُّ له ما يكون مِن إخبارٍ مشتمِلٍ على التَّخويف، مثلما يشتمل التَّبشيرُ على السُّرور[2]، والإنذارُ: "الإعلامُ بالشَّيء الذي يحذر منه، وكلُّ منذرٍ: مُعلِمٌ، وليس كلُّ مُعلِمٍ منذِرًا"[3]، ومعنى النَّذيرِ في الآية: هو الَّذي يُخوِّفُ مِنَ العقاب على ترك الشَّرْعِ والتَّفريط فيه[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـاهـوا في الظُّلـمات من غـيرِ كـتـابٍ ولا نذير، فجاءهم الرَّسولُ هاديًا وبشيرًا

ما دام قدِ انتفى عنهم الكتابُ السّامي والنَّبيُّ الهادي؛ فإنَّهم كالعميانِ في ظلمات اللَّيل، لا يرونَ سوى ما يخطرُ ببالهم، ولا يسمعونَ إلّا ما يريدونَ، وليس لديهم دليلٌ يثبتُ صحَّة أقوالهم، ولا نذيرٌ يرشدُهم إلى طريق الحقِّ، ويشهد بما يزعمونَ، فهُم محتاجون إلى مَن يعلِّمهم، فبعثَ اللّهُ تعالى إليهم محمَّدًا ﷺ، ليخرجَهم من الظُّلمات إلى النّور، ومن الضَّلال إلى الهدى، وقصدًا إلى إثبات نبوَّته[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم﴾:

من أدلَّةِ حمقِهم إنكارُهم الرِّسالةَ مِـن غـير كـتـابٍ يُهتَدى به

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ دالَّةٌ على الحال[6]، فالجملةُ في موضع الحال مِن قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾، وفي ذلك إيذانٌ بحماقتهم بدافع جهلِهم، وتعجيبٌ من حالهم[7]، فكيف

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(2) الراغب، المفردات: (نذر).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نذر).
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 337.
(5) السيوطي، معترك الأقران: 2/ 410.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 323.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 227 - 228.

ينكرونَ رسالتَهُ ﷺ، ولم يكن معهم مِن كُتُبٍ يدرسونها، ولا دينٍ يهتدون به.

انتفاءُ إيتائِهم كتبًا إلهيَّةً

ويجوز في الواو أن تكونَ عاطفةً[1]، فتكون قد عطفَت جملة نفي إيتائِهم الكُتُبَ السَّماويَّة الهادية التي يدرسونها، ويتعلَّمون منها دينَهم على جملةِ إنكارِهم رسالة الرَّسول ﷺ، واتِّهامهم إيّاه بالسِّحر المبين.

استئنافُ كلامٍ جديد إشارةٌ إلى أهمّيّته

ويجوزُ في الواو أن تكون استئنافيَّةً[2]، فإنَّه لَمّا ذكرَ مقالةَ السّوء منهم بإنكار الرِّسالة المحمَّديَّة، ورميها بالسِّحر المبين؛ ابتدأ كلامًا جديدًا في إشارة إلى أهمّيَّته، فقطعَهُ عمّا سبقَهُ من كلام في أنَّ اللّٰه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما آتاهم مِنْ كُتُبٍ مشتملة على صحَّة ما يدَّعون مِنَ الإشراك باللّٰه تعالى[3]، وما أنزل عليهم مِنْ وحيٍ ليتمسَّكوا به، ويتردَّدوا في قَبول دين جديدٍ يخشون على أنفسِهم مِن ضلالِه.

دلالةُ الحال في جملة ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾:

التَّعجيبُ مِن رفضهم الحقَّ

لَمّا أنكروا رسالتَهُ ﷺ فيما تقدَّم؛ أورد قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾؛ تعجيبًا من حالهم، فلا هدًى يهتدونَ بهِ، ولا مِن دينٍ يؤمنون به، حتّى يكونَ تمسُّكهم به دِرءًا لوقوعِهم في الضَّلال؛ إن فرَّطوا فيه، فمعنى الحال: إظهارُ العَجَبِ مِن رفْضِهم الحقَّ الرَّبّانيَّ؛ إذ لا مانعَ يمنعُهم، ولا صادَّ يصدُّهم عن قَبوله[4].

دلالةُ (ما) في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾:

شناعةُ تكذيبهم من غير مستنَدٍ

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ دالَّةٌ على النَّفي[5]، فإنَّهم قد كذَّبوا الرَّسول ﷺ، ورموه بالسِّحر، فهلّا

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 323، والدعاس، إعراب القرآن: 3/ 73.
(2) الخراط، المجتبى في مشكل إعراب القرآن: 3/ 994.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 589.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 228.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 453.

بيِّنوا مِن أين جاء تكذيبُهم ذاك، ولم يأتِهم كتابٌ قبل ذلك، وما أرسلنا لهم من نذيرٍ؟[1].

و(ما) النّافيةُ مُؤذِنَةٌ بأنَّ فيها إقرارًا مِنْهُم بالشِّرك والكفر وإباحتِهِ[2]، والتَّمسُّك به، وهم يعلمونَ بطلانه، وعلى انتفاء وجودِ أيِّ كتابٍ سماويٍّ أُنزِلَ على المشركين يدعوهم إلى الشِّركِ والكفر.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإيتاء في﴿ءَاتَيۡنَـٰهُم﴾:

في الإيتاءِ دليلُ السُّهولةِ والعظمَةِ

استُعْمِلَ فعلُ الإيتاء دون فعلِ الإعطاءِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾؛ لأنَّ الإيتاءَ يعبِّر عن المجيء بسهولةٍ ويسرٍ من غيرِ مشقَّةٍ ولا كلفة[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الكُتُبَ السَّماويَّة تأتي إلى النّاس بسهولةٍ ويُسرٍ، من غير جُهدٍ منهم، وفيه إيماءٌ إلى عظمَةِ ما ينزل مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ؛ لأنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ في المعظَّماتِ غالبًا.

لطيفةُ إسنادِ الإيتاءِ إلى ضمير العظمةِ:

عظمةُ مقاماتِ أصولِ الدّيانة

أُسنِدَ فعلُ الإيتاء إلى الضَّمير (نا) الدّال على العظمة الإلهيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَـٰهُم﴾؛ للإيماء إلى أنَّ هذا المقامَ مقامٌ عَظيمٌ وخَطِرٌ؛ لتعلُّقه بأصل الدّين وقوامه، فلا يُرْتَضى فيه إلّا بخطبٍ جللٍ خطير، وأمر عظيم كبيرٍ[4]، فلا يتحقَّق إلّا بإرادةٍ إلهيَّةٍ قويَّة.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن كُتُبٍ﴾:

التَّأكيدُ على خلوِّهم مِن كُتُبٍ سماويَّةٍ تؤيِّد باطلَهُم

القياسُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ﴾ أن يُعدّى فِعلُ الإيتاءِ إلى مفعوله الثّاني بنفسه، فيقال: (وما آتيناهم كُتُبًا)، غير أنَّه لَمّا أرادَ توكيدَ النَّفي؛ أوردَ حرفَ الجرِّ ﴿مِّن﴾[5]؛ تأكيدًا على

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 364.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 87.
(3) الراغب، المفردات، ص: 60.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 526.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 526.

انتفاءِ وجودِ الكُتُبِ السَّماويَّة لهؤلاءِ القوم، ممّا يزيدُ مِن قوَّة النَّفي، ويؤكِّد أنَّهم لم يكونوا على حقٍّ في ادِّعاءاتهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكتاب في: ﴿مِّن كُتُبٖ﴾:

كان الأجدرُ بهم الفرحَ بالحقِّ النّازِلِ

لَمّا كانت الآيةُ نازلةً في مشركي العرب، وكانتِ العربُ أُمَّةً أمّيَّةً؛ عُبِّرَ بنفي الكتاب عنهم في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾؛ إذ وردَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنّا أُمَّةٌ أُمّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ، ولا نَحْسُبُ»(1)، فكان نزولُ القرآن الكريم عليهم من أكبرِ المعجزاتِ المحمَّديَّة، وكان الأليقُ بهم أن يفرحوا بما أنزلَ عليهم مِن كتابٍ ساواهُم بالأممِ الَّتي نزلت عليها الكُتُبُ السَّماويَّة(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بالدِّراسة:

مُسارعَتُهم إلى التَّكذيب قبل التَّأمُّل

في قوله تعالى: ﴿يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ استُعمِلَ فعلُ الدِّراسة، ومعناها: القراءة مع التُّؤَدَةِ والتَّفهُّم، ويكون ذلك مع الإعادةِ والتَّكرير، فإنَّ الدَّرْسَ في لغة العربِ يدور حول دلالةِ التَّأثُّر بموجب تكرارِ العمل، ومنه الطَّريقُ الدّارس الذي ذهبتْ آثارُهُ من كثرة سلوكِه، فلم يعد يتبيَّن، ومنه دراسةُ الكتابِ، أي: قراءته بتمهُّل وتكرار لحفظه وتدبُّرِه، فالدِّراسة أخصُّ من القراءة؛ لأنَّ الدِّراسة تستلزم التَّمكُّن مِنَ المفعول(3)، واستعملَ فعلَ الدِّراسة هنا؛ لأنَّ فهْمَ مرادِ اللّٰه تعالى لا يتأتّى لهم إلّا عن تَكرار وفهْمٍ وتدبُّرٍ، فكيف يكذِّبون الرَّسول، ولم يكن منهم ذلك في الأصل؟ وزادَ تقويةَ هذه الدِّلالَةِ صوغُ الفِعْلِ مُضارِعًا.

توبيخُهم على عدَمِ بحثِهم عن الحقِّ

ويجوز أن يكونَ التَّعبيرُ بالدِّراسة قيدًا في النَّفْيِ، فيكونَ مِن قبيل قولك: ما عندي من كتابٍ يُقرَأُ، فالمقصدُ نفْيُ القراءةِ وحدَها،

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: 1924.
(2) العثيمين، تفسير القرآن الكريم (سورة سبأ): 271.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 295، و22/ 228.

مع أنَّ عندك كتابًا إلّا أنَّك لا تقرأ فيه[1]، وفي هذا التَّعبيرِ توبيخٌ شديد لهم في امتلاكِهم الكُتُبَ إلّا أنَّهم لا يقرؤونها، ومِن المتقرَّر أنَّ وجودَ الكُتُبِ لا يستلزمُ الانتفاعَ بها؛ إن لم تُباشَرْ بالدَّرس والنَّظر والقراءة، وإلّا كان وجودُها كعدمِها[2].

معنى (الواو) في:﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ﴾:

انتفاءُ إنزالِ الكُتُبِ عليهم وإرسالِ النُّذرِ إليهم

عُطِفَ بالواو[3] قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ على ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾، وفائدةُ العطف هنا: التَّعقيبُ والتَّأكيد في انتفاء حصولِ هؤلاءِ على أيِّ دليلٍ منه تعالى، ذلك "أنَّهم قومٌ جهّال أُمّيّون لا كتابَ لهم ولا نبيًّا، نشؤوا على طباعِهم الجاسية في الجاهلية، لا تثبَّت لهم بوجهٍ، ولا تمسَّك بشبهةٍ"[4].

دلالة تكرار (ما) في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ﴾:

توكيدُ النَّفي وتفصيلُ الأدلَّة

كرَّر (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾؛ لإفادة توكيدِ النَّفي، وفصل إيتائِهم الكُتُبَ عن إرسال النَّذير إليهم[5]، فهذا التَّكرارُ والتَّوكيدُ يعزِّز في نفس السّامع أو القارئ يقينًا بأنَّ هؤلاءِ القومَ لم يصلْ إليهِم أيُّ دليل، ثمَّ يُفصِّل في هذا الدَّليل، وهي الكُتُبُ السَّماويَّة والرُّسلُ المنذِرونَ.

دلالةُ الإسنادِ في ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾:

مظهَرُ العظمةِ الإلهيَّة في إرسالِ الكُتُبِ

أُسْنِدَ فعلُ الإرسال إلى ضمير الجمعِ العائد عليه ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ﴾، أي: لم نرسِل بما لنا مِنَ العظَمَةِ إرسالًا لا شبهة فيه[6]، ممّا يزيد مِن قوَّة التَّأكيد على حقيقة الرِّسالة.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 575.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 322.
(3) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 620.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 337.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 87.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 527.

معنى (إلى) ومرجع الضَّمير ﴿إِلَيۡهِم﴾:

الأصلُ في معنى حرف الجرِّ (إلى) في كلام العرب أن يدلَّ على انتهاءِ الغاية[1]، وقد استعملَهُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ﴾ بمعنى التَّوجيه والتَّخصيصِ، فهو يشير إلى أنَّ ذلك الإرسالَ ما كان موجَّهًا إلى أولئك القوم، وهم أهلُ مكَّةَ الذين لم يؤمنوا، وأنَّه ما أُرسل لهم نذيرًا يدعوهم إلى الشِّرك، ويخوِّفهم عذابَهُ على أن تركوه[2].

لم يُرسلِ اللهُ الرُّسُلَ للدَّعوة إلى الشِّرْكِ، بل للتَّحذير مِنْهُ

نكتةُ التَّقديم في الآية:

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِم قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ قدِّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿قَبۡلَكَ﴾، وقُدِّما على ﴿مِن نَّذِيرٖ﴾، وفي ذلك نفيُ تخصيصِ المخاطَبين بإرسال النَّذير، وفيه أيضًا تأكيدٌ على عدم إرسال أيِّ نبيٍّ إليهم قبلَ النَّبيِّ محمَّد ﷺ.

نفيُ تخصيصِ المخاطَبين بإرسال النَّذير إليهم

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿قَبۡلَكَ﴾:

معنى القبليَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِم قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾: الزَّمانُ المنصرمُ الَّذي يسبق رسالتَكَ الجامعة لكلِّ رسالة، ويجوز أن يُرادَ نفيُ الإرسال بهذا الباطل باستغراق جميع الزَّمان الماضي[3].

نفيُ أن يكونَ في الرِّسالة الإلهيَّةِ باطلٌ

نكتةُ عدمِ التَّقييد في الآية:

في ذِكر فعلِ الإيتاءِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم﴾ وردَ مطلقًا من غيرِ تقييدٍ بالظَّرف، فلمّا ذُكِرَ فعلُ الإرسالِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ﴾؛ قُيّدَ بالظَّرف، "وإنَّما لم يُقيَّد إيتاءُ الكُتُبِ بقيدٍ، كما قُيِّدَ الإرسال بقوله: ﴿قَبۡلَكَ﴾؛ لأنَّ الإيتاءَ هو التَّمكين من الشَّيء، وهم لم يتمكَّنوا مِنَ القرآن، بخلاف إرسالِ النَّذير، فهو حاصلٌ، سواءٌ تقبَّلوه، أم أعرضوا عنه"[4].

الإيتاءُ تمكينٌ فأُطْلِقَ لانتفائه عنهم

---

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 380.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 326.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 527.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 228.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن نَّذِيرٍ﴾:

لم يرسلِ اللهُ تعالى إليهم قبلُ نذيرًا البتَّة

الأصلُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾: (وما أرسلنا إليهم قبلَك نذيرًا)؛ ليتعدّى فعلُ الإرسال بنفسِه، لكنَّه لّمّا أرادَ توكيدَ نفي إرسال النَّذيرِ استعملَ حرفَ الجرِّ ﴿مِن﴾؛ ليدُلَّ على النَّصِّ في الاستغراق والتَّأكيد[1]، فهو نفيٌ مؤكَّد في أنَّ اللّه ﷻ لم يرسل لهم نذيرًا البتَّة[2].

نكتةُ صَوْغ ﴿نَّذِيرٍ﴾ على (فَعيل):

المبالغةُ في شدَّة الإنذار

﴿نَّذِيرٍ﴾ في الآية على وزن (فَعيل)، وهو صيغةُ مبالغةٍ[3]، وأوردَ هنا بهذه الصّيغةِ؛ ليدلَّ على شدَّة الإنذارِ ووضوحه، وكأنَّ اللّه سبحانه يخبرنا بأنَّ الرُّسلَ لم يكونوا مجرَّد مبشِّرين، بل كانوا يحملون إنذارًا شديدًا، وعقابًا أليمًا لَمَنْ لم يؤمن، وأنَّهم كانوا يدعونهم إلى الحقِّ والإيمان، وينذرونهم بالعذاب[4] وسوء المصير، ويحذِّرونَهُم من عواقبِ كُفْرِهم وعصيانهم.

دلالةُ الخَبَرِ في الآيَةِ:

التَّعجيبُ من رفْضِهم اتِّباعَ الرَّسول والقرآن

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، والمرادُ بها الدَّلالةُ على تحميقِهم لفرط جَهالَتِهم، والتَّعجيب من غرابةِ حالهم؛ فإنَّهم لم يدركوا أنَّ ما جاء إليهم مِنَ الحقِّ فضلٌ من اللّه تعالى يؤهِّلهم في أن يكونوا في عدادِ أهلِ الكتاب مِنَ الأمم، فيبلغوا مبلغَ أهلِ العلم؛ إذ لم يسبق أن جاءهم رسولٌ، أو أُنزِلَ عليهم كتابٌ، فلمّا رفضوا اتِّباع الرَّسول، والإيمان بالقرآن، وكان حريًّا بهم الاغتباطُ بذلك؛ دلَّ ذلك كلُّه منهم على جهالتِهم المفضيةِ إلى حماقتِهم، وكان أخلقُ ممَّن رآهم أن يتعجَّب من حالهم[5].

(1) ابن الأثير، البديع في علم العربية: 1/ 246.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 205.
(3) ابن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد: 1/ 479.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 382.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 228.

وَلّمّا كان هؤلاء المخاطَبون في فقرٍ عقليٍّ وعوزٍ روحيٍّ؛ كانوا لذلك مِن أشدِّ النّاس احتياجًا إلى ما ساقَهُ لهم اللّهُ سبحانه مِنَ الخيرِ على يد الرَّسول الكريم ﷺ، فأصبحوا أهلَ علمٍ شأنُهم شأنُ غيرهم مِنَ الأمم[1]، فكان الخليقُ بهم الرِّضا بذلك، وشكْرُ المنعِم على ما أنعمَ، فلمّا رفضوا ذلك كلَّه؛ حُقَّ لمن رأى حالَهُم أن يتعجَّب مِن حماقتهم، ويندهشَ من غبائِهم.

إعراضُهم عن الخير الذي ساقه الله تعالى لهم

فائدةُ تذييلِ الآية بنَفْيِ إرسالِ النَّذير:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ تذييلٌ للآية، غرضُهُ تجهيلُ أمرِهم وتسفيهُ رأيِهم لَمّا ذهبوا ذلك المذهبَ الزّائغ[2]؛ فإنَّ اللّه ﷻ لم يُرْسِل إليهم نذيرًا يدعوهم، وينذرهم بالعقاب؛ إن لم يشركوا[3].

تسفيهُ رأيهم لذهابِهم مذهبًا زائغًا

دلالةُ الجمعِ بين إيتاء الكُتُب وإرسال النُّذر:

بين قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ مناسبةٌ لطيفة، غرضُها صدُّ الأبواب التي يمكن أن ينفذوا منها للطَّعنِ في القرآن والرَّسول ﷺ، فقد نفى عنهم إرسالَ الكُتُبِ التي يدرسونها بأنفسِهم، ولا أرسلَ لهم نذيرًا يشافههم بشيءٍ، أو يباشرُ أهل عصرِهم[4]، فقابلَ ما بين الكُتُبِ المدروسة والنُّذر المشافِهة.

صدَّ اللهُ تعالى أبوابَ الطَّعنِ في الشَّريعة

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإيتاء والإعطاء:

حاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثة أوجهٍ[5]:

الإيتاءُ في الاستعمال القُرآنيّ يَرِدُ للشَّيءِ الكثير والأَمْرِ العَظيمِ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 835.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 138.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 589.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 424.
(5) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 87، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

أحدُها: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوِعَ لِفعْلِه، فتقول: آتاني شيئًا، فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ له مطاوعًا، فتقول: أعاطني شيئًا، فعطَوْتُه، ويترتَّب على هذا أنَّ الإيتاء أقوى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوِعٌ مِنَ الأفعال أَضْعفُ في إثبات مَفْعوله مِمّا لا مطاوِعَ له.

ثانيها: أنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاء، فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقِلُ مِنْهُ بعد قضاء الأَرَبِ منهُ.

ثالثها: أنَّ في الإعطاء دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاء.

وأمّا في خصوصِ الاستعمال القُرآنيِّ للفظتَي (الإيتاء) و(الإعطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا من جهَتَيْن[1]:

إحداهما: أنَّ الإيتاءَ لَم يُستعمَلْ إلّا للشَّيء الكثير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريم، والتَّوراة، والمُلْك، والرَّحمة، بخلاف الإعطاء؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ للشَّيء القليل، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلّا بقيد ما يدلُّ على الكثرة.

الأُخرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العبد يكون عن طيب نفسٍ، بخلاف الإعطاء؛ فهو مُطْلَقٌ.

الإرسال والبعث:

البعثُ أكثر معانيَ مِنَ الإرسال

ذَكَرَ ابنُ فَوْرَكٍ أنَّهما بمعنًى[2]، وقال ذلك جماعةٌ في سياقِ بَيانِهم مَعْنى إحدى اللَّفظتَيْن؛ فإنَّهُم يُفَسِّرونها بالأخرى[3]، كقول ابنِ جَريرٍ: "قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ [القمر: 19]، يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: إنّا بَعَثْنا على عادٍ؛ إذ تمادوا في طُغْيانهم وكُفْرِهم باللّه ريحًا صَرْصَرًا"[4].

(1) محمَّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

(2) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 1/ 221.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 470، و19/ 293، والواحدي، التفسير البسيط: 2/ 542، والماوردي، النكت والعيون: 1/ 123، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 127، والشنقيطي، العذب النمير: 4/ 59.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 22/ 132.

بل مِنَ العلماءِ مَنِ استدلَّ على مجيءِ البَعْثِ بمعنى التَّخْلِيَةِ بمجيءِ الإرسالِ لذلك المعنى[1]، فكأنَّهُ أعطى للبعث جميعَ ما للإرسال من المعاني.

وفرَّق بينهما جماعةٌ، منهم أبو هِلالٍ، فقال في الفُروقِ: "يَجوزُ أَنْ يبْعَثَ الرَّجلُ إلى الآخرِ لحاجةٍ تَخُصُّهُ دونك ودون المبعوثِ إليهِ، كالصَّبيِّ تَبْعَثُهُ إلى المكتب، فتقولُ: بَعَثْتُهُ، ولا تقولُ: أرسلْتُهُ؛ لأنَّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يَجْري مَجْراها"[2].

وهذا الفَرْقُ قد تُشْكِلُ عليه آياتُ إرْسالِ الرّياحِ، كما هو ظاهِرٌ، إلّا إن قيلَ: إنَّ إرْسالَ الرّياحِ يكونُ برسالةٍ يُفْهِمُها اللهُ تَعالى إيّاها، ويُفْهِمُها الأرضَ المَيْتَةَ، ولكنَّ هذا مِنَ الغيبِ الذي لا يُمكنُ الجراءةُ عليه إلّا بدَليلٍ مِنَ الشَّرْعِ.

وفرَّق بعضُ أهلِ العِلمِ بينَهُما مِن وجهٍ آخَرَ، وهو أنَّ الإرْسالَ أَخَصُّ مِنَ البعثِ، مِنْ جهةِ أنَّ "الإرسالَ يُفيدُ معنى البَعْثِ مع العُلوِّ"[3].

وفي تفسير المَنارِ تَقْريرٌ للفرق مِنْ جهةٍ أخرى، وهو أَنَّ البعثَ أَبْلَغُ مِنَ الإرْسالِ؛ "لأنَّهُ يُفيدُ معنى الإثارةِ والإزعاجِ إلى الشَّيْءِ المُهِمِّ، ولم يُذْكَرْ في القرآنِ إلّا في بعث المَوْتى، وفي الرِّسالَةِ العامَّةِ، أي: بَعْثُ عِدَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وفي بِعْثَةِ نَبيِّنا وموسى خاصَّةً، وكذا في بعثِ نُقَباءِ بني إسرائيلَ، وبَعْثِ مَنِ انتقمَ مِنْهُم، وعذَّبَهُم، وسَباهُم حينَ أَفْسَدوا في الأرض"[4].

وَيُشْكِلُ عليه ذِكْرُ إرسال الرّيحِ لِلعذاب في مَواضِعَ مِنَ القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: 69]، وقوله: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذاريات: 41]، ولم يُسْتَعْمَلْ معهُ البعثُ.

وأظْهَرُ مِنْ هذا كُلِّهِ ما ذَكَرَهُ ابنُ الزُّبير الغرناطيُّ مِن أنَّ الفعلَ (أرسل) أَخَصُّ في باب الإرسالِ مِنَ البَعثِ؛ "إذْ لا يُقالُ: أَرْسَلَ، إلّا فيما كانَ تَوْجيهًا، فيهِ معنى الانتقال حقيقةً أو مَجازًا، أَمّا (بَعَثَ)؛ فأوسَعُ، فإنَّه يقعُ بمعنى الإرسالِ، وبمعنى الإحياءِ، ومنه: البَعْثُ الأُخْراويُّ"[5].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/ 394.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/ 176.

(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/ 302.

(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 34.

(5) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 216.

وَبِناءً عليه؛ فالبَعْثُ أَكْثَرُ مَعانيَ مِنَ الإرسال، فيلتقيانِ في معنًى، وينفردُ البعثُ بمعنًى آخَرَ، وإذا جُمِعَ بينهما بمعنًى يُرادُ بِهِ التَّنْويعُ في العبارة والتَّفَنُّنُ فيها.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾ [سبأ: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكرُ المانعِ الموجب لإذعانهم

لَمّا نفى في الآيةِ السّابقة موجبَ طعْنِهم في الرَّسول ﷺ، واتِّهامهم إيّاه بالإفك والكذبِ والسِّحر؛ فإنَّه لم يأتِهم كتابٌ يدرسونه، وما أُرسل إليهم من نذيرٍ يحذرونَه؛ ذكرَ هنا المانع الموجبَ للإذعان في أنَّهم فعلوا ما فعلوا مِن التَّكذيب، وهو أبين طباعهم، وما بلغوا عُشْرًا صغيرًا ممّا كان مِن صفات أسلافِهم ممَّن هم أشدُّ قوَّةً منهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَلَغُواْ﴾: (بلغ) تدلُّ تصريفاتُه على الوصول إلى المكان المقصودِ بلوغُه، ومن معانيه الانتهاءُ إلى أقصى المراد من جهةِ المكانِ أو الزَّمان، أو ما كان من الأمور المقدَّرة، ومن معانيه أيضًا الوصولُ إلى قدر معيَّن[2]، ومعنى ﴿بَلَغُواْ﴾ في الآية الكريمة يحتمل أربعةَ أوجهٍ؛ هي العمل بما أمروا به، أو ما أعطوا من القوَّة والمال، أو ما بلغوا مِن شكرِ ما وُهبوا، أو ما أعطاهم مِنَ الحجَّة والبيان والبرهان[3].

2) ﴿مِعۡشَارَ﴾: (عشر) تدلُّ اشتقاقاتُه على العددِ المعلوم، ثمَّ يحمل عليه غيره[4]، ومعنى المعشارِ في الآية: "كالمرباع، وهما العشرُ والرُّبع، قال الأكثرون: معناه: وما بلغ هؤلاء المشركون عُشْرَ ما آتينا المتقدِّمين مِنَ القوَّة والنِّعمة وطول العمر"[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 527.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بلغ).

(3) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 455.

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عشر).

(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 500.

3) ﴿نَكِيرِ﴾: (نكر) تدور تصريفاتُه على خلاف المعرفةِ الَّتي يسكنُ إليها القلبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ، وأنكره: لم يقبلْهُ قلبُهُ، ولم يعترف به لسانُه، والباب كلُّه راجعٌ إلى هذا، فالنُّكر: الدَّهْيُ، والنَّكراء: الأمرُ الصَّعبُ الشَّديد، ونُكرُ الأمر نكارة، والإنكارُ: نفي الشَّيءِ وجحْدُهُ وردُّهُ، والتَّنكُّر: التَّنقُّل من حال تسرُّ إلى أخرى تُكره[1]، "فالنَّكيرُ مِنَ الإنكار الذي هو بمعنى الاستقباحِ والغضب مِن تكذيبِهم، والعقوبة تعبيرٌ عن هذا الغضبِ لازمةٌ له"[2]، ومعنى ﴿نَكِيرِ﴾ في الآية الكريمة: "تغييري ما كان بهم مِن نعمةٍ، وتنكُّري لهم عمّا كنتُ عليه مِنَ الإحسان إليهم"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

هلّا رأيتُم نهاية المكذِّبين ممَّن كان قبلَكم، وهم أشدُّ منكم قوَّةً وأكثر نفيرًا

لقد كان من أمرِ الأمم السّابقة من القرون الخاليةِ، كقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأضرابهم أن كذَّبوا الرُّسل والوحي، وكانوا في الدُّنيا أشدَّ بأسًا مِنَ العرب، وأكثر أموالًا، فقد هلكوا بسبب كفْرِهِم، فكيف بكم أنتم؟ بل إنَّ أهلَ مكَّةَ مِنَ المشركين، ومن كان على شاكلتِهم لم يبلغوا بقوَّتهم وكثرةِ ما لهم عشر ما آتينا من قبلهم مِنَ القوَّة وكثرة المال، فلم يدفعْ عنهم عذابَ اللّه تعالى، ولا ردَّه، وأنَّه تعالى أهلك الأممَ السّالفَةَ تدميرًا واستئصالًا، وهم أشدُّ منكم قوَّةً وعتادًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَكَذَّبَ﴾:

بيانُ علَّةِ التَّعذيب

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ عاطفةٌ[4] لِما بين الجملتين من التَّوسُّط بين الكمالينِ؛ لاشتراكهما في الخبريَّةِ، وما

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نكر).
(3) السجستاني، غريب القرآن، ص: 466.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 107.

بينَهما في التَّناسُب المعنويِّ، والمعنى: أنَّ أقوامًا سبقوا أهلَ مكَّة في التَّكذيب، وكانوا أشدَّ بطشًا، وأكثر عدَّة وعددًا وأموالًا، فأُهلِكوا، كقوم فرعونَ والنَّمرودِ وثمودَ وعادٍ[1]، ومَن كذَّب تكذيبَهم؛ نالَ جزاءَهُم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّكذيب ماضيًا في ﴿وَكَذَّبَ﴾:

تكذيبُ الرُّسُلِ دأبُ أكثرِ الأمم

عبَّر بفعل التَّكذيب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ للدِّلالةِ على شدَّة الجحودِ الصّادر مِنْهم وتكرُّره، وصيغ الفعلُ ماضيًا تأكيدًا لوقوعِهِ وتحقيقًا؛ وللإيماء إلى أنَّ ذلك كان من دأبِ الأمم التي أُرسل فيها الرُّسل، وأنَّه أمرٌ ليس بالمستحدَثِ؛ فإنَّ تكذيب الرُّسل والصّادقين سنَّة ماضية[2].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مِن﴾ في: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

ما مِنْ أُمَّةٍ إلّا وفيها مكذِّبون للرُّسُلِ

عُبِّرَ بالقبليَّة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مقرونًا قبلَها بـ﴿مِن﴾؛ للدِّلالةِ على الاستغراق[3]، أي: إنَّها تشمل جميعَ الأمم السّابقة من غيرِ استثناء، ومن ثَمَّ فإنَّ جميع الأممِ الَّتي سبقت أمَّة محمَّد ﷺ كذَّبَت رسلَها، وفي ذلك مزيدُ تسليةٍ للرَّسول ﷺ.

نكتةُ حذفِ مفعول الفعل ﴿وَكَذَّبَ﴾:

فِعْلُ التَّكذيب ﴿وَكَذَّبَ﴾ يقتضي مفعولًا، وقد حُذِفَ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: كذَّبوا الرُّسل، ونكتةُ حذفه دلالةُ ما بعده عليه من قولهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾[4].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾:

بيانُ اختلافِ حالِ المكذِّبين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ حاليَّة[5]، والجملةُ بعدها حالٌ، والمعنى: ولقد كذَّب الذين من قبلهم، وهم في

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 621.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 505.
(3) ابن الأثير، البديع في علم العربية: 1/ 246.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 229.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 533.

حالٍ لا تُقارن بحال مَن سبقهم مِنَ الأقوام، فكفّارُ قريشٍ لم يبلغوا عُشر ما أوتي جبابرةُ الأمم السّابقة مِن قوّةٍ تجتاح الأرضَ، وسلطانٍ يمتدُّ في الآفاق، ونعمةٍ تتدفّق عليهم أنهارًا، وأعمار تطول حتّى تكاد تضاهي الدُّهورَ[1].

معنى (ما) في قوله: ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾:

تكذيبُ الرُّسلِ أعظمُ أسباب الإهلاكِ

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ نافيةٌ[2]، والمعنى: لم يبلغ قومك من أهل مكّةَ عُشر ما آتينا قبلهم من الأموال والقوّة والسُّلطان ومع ذلك فقد أهلكناهم بالعذابِ الأليم حينَ كذّبوا رسلنا[3]، فكيف بِكم أنتم، وقد قلّت حظوظكم مِنَ الدُّنيا، وكفرتم باللّه ورسوله؟.

بيانُ مرجع الضّمير في ﴿بَلَغُواْ﴾:

تنوُّعُ المعاني باختلاف مرجعِ الضّمير

الواو المتّصلةُ بالفعل في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ في محلِّ رفعٍ على الفاعليّة[4]، ومرجعُ ضمير الفاعل هذا يحتمل أن يكونَ كفّار قريش بأنّهم لم يبلغوا مِنَ القوّة والظُّهور، ويحتمل أن يكونَ راجعًا إلى الأمم التي تقدّمت، ومضت[5].

نكتةُ إسنادِ البلوغ المنفيِّ إلى ضمير جماعتهم:

لا تُغني الكثرةُ شيئًا عن أهل الباطلِ

أُسْنِدَ فعلُ البلوغ المنفيِّ إلى ضمير الجمع من قوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾؛ لبيان أنّهم على كثرتهم لم يبلغْ واحدٌ منهم ذلك المبلغَ، وهم أهلُ مكّة مِن مشركي قريش، وسواهم مِن العرب[6]، ففيه توهينٌ وتوبيخ لهم، وأنَّ الكثرة والجمع لا يغني عنهم شيئًا إن كانوا سائرين في طريق الغيِّ والضّلال.

---

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 621.
(2) بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصل: 9/ 362.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 95.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 621.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 424.
(6) القنوجي، فتح البيان: 11/ 206.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مِعۡشَارَ﴾:

المبالغَةُ في تحقير شأنِهم

﴿مِعۡشَارَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ مفعولٌ به للفعل (بلغ)[1]، والمعنى: لم يبلغ قومُك - يا محمَّد - عُشرَ ما أعطينا الأممَ السّابقةَ من قوَّة وسلطان وأموال وغيرها، بل ومن نِعَمٍ أخرى لا تُحصى، فكيف بكم وقد أعطاكمُ اللّهُ من النِّعَم ما لم يعطِ غيرَكم[2]؟ والغرضُ من التَّعبير بلفظ ﴿مِعۡشَارَ﴾ الدِّلالةُ على المبالغة في التَّقليل[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصول في: ﴿مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾:

تنوُّعُ نِعَمِ اللهِ تَعالى على الأُممِ السّابقةِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ استعملَ الاسمَ الموصول (ما) الدّالَّ على الإبهام والعموم وعدمِ التَّعيين[4]، وفي ذلك دلالةٌ على شموليَّة النِّعم الَّتي أُعطيت للأمم السّابقة؛ إذ يشير إلى كلِّ النِّعم دون حصرٍ أو تحديد، وهذا التَّعميمُ يعكس تنوُّعَ النِّعم وحجمها الَّتي وهبها اللّه سبحانه للأوَّلين "مِن طول الأعمارِ، وقوَّة الأجرام، وكثرةِ الأموال والأولاد، وتوالي النِّعم، والظُّهور في البلاد"[5].

بيانُ مرجعِ الضَّمير في قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾:

اختلافُ المعاني لاختلاف مرجع الضَّمير

(هم) في قوله تعالى: ﴿مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ ضمير متَّصلٌ في محلِّ نصبٍ على المفعوليَّة للفعلِ (آتى)[6]، ومرجع الضَّميرِ يحتمل أن يكون كفّار قريش، بأنَّهم لم يبلغوا جزءًا يسيرًا ممّا جئتهم بِهِ من النّور والآيات والبيِّنات، ويحتمل أن يكونَ راجعًا إلى الأمم الَّتي تقدَّمت ومضت بأن يشكروا النِّعمة، ويحمدوا المنَّة[7].

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 107.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 416.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 310.
(4) خالد الأزهري، شرح التصريح: 1/ 317.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 504.
(6) بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصل: 9/ 362.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 424.

موقعُ جملة ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ ودلالتها:

تقريبُ معنى التَّهديدِ وتعزيزُ هولِ التَّعذيبِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ جملةٌ معترضةٌ[1]، سيقت لتقريب معنى التَّهديدِ الواردِ في الآية، فهي توضِّح أنَّ عقابَ مَن يخاطِبُهم سيكون أيسرَ مِن عقاب الأمم الَّتي خلت[2]؛ لأنَّهم لم ينعموا بنِعَم مماثلة، وبذلك فإنَّ هذه الجملةَ تعزِّزُ من هول العقاب المنتظر، وتجعل التَّهديدَ أكثرَ وقعًا في النُّفوس.

معنى (الفاء) في قولِهِ: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾:

العطفُ بطريق التَّفصيل والتَّفسير

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾ عاطفةٌ تكذيبَهم رسلَهُ تعالى على جملة التَّكذيب من قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ بطريق التَّفصيل والتَّبيين والتَّفسير[3]، كالواردِ في قوله تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ [القمر: 9].

ويجوز أن تكونَ الفاءُ للتَّفسير؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من المجمل، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾ تفصيلٌ لذلك المجمل[4].

ويجوز في الفاء أن تكونَ سببيَّةً، فقد كذَّبوا بسبب عنادِهم وكفرِهم بالحقِّ[5].

دلالةُ التَّعبير بالتَّكذيب في ﴿فَكَذَّبُواْ﴾:

توكيدُ التَّكذيبِ السّابق

التَّكذيبُ الواردُ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾ دالٌّ على توكيد المعنى في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[6]؛ لبيان أنَّ هذه صفةٌ ذميمةٌ عبرَ الأزمان، ويؤكِّد أنَّ الكفرَ والتَّكذيبَ سمتانِ مشتركتانِ بين جميع الكافرين، ممّا يعظم خطورةَ هذا الفعل ونتائجَهُ الوخيمةَ.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 309.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 229.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 138.

(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 533.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 528.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 229.

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿فَكَذَّبُواْ﴾:

التَّحذيرُ من سُلوك سبيل الكُفْرِ والتَّكذيبِ

الضَّميرُ (الواو) في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾ راجعٌ إلى الذين مِن قبلهم تناسقًا مع الضَّمائر في ﴿بَلَغُواْ﴾ و﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾[1]، والذي يشيرُ إلى الأمم السّابقةِ التي كذَّبت رسلها، وعاقبهم اللّٰهُ تعالى، وفي ذلك إيماءٌ إلى استمراريَّة سلوكِ الكفر والتَّكذيب عبرَ التّاريخِ، فاللّٰه سُبحانه يربطُ بينَ مصيرِ الأمم الخاليَة، ومصير مَن يخاطبُهم مِن قريش؛ ليحذِّرهم من مصيرٍ مشابه؛ إذا ما استمرّوا على كفرِهم وتكذيبِهم؛ لأنَّ مَن كذَّب الرُّسلَ قبل قريش؛ عوقبوا، ومَن كذَّب بعدهم؛ سيلاقون المصير نفسَه.

نكتةُ تَكرار التَّكذيب في الآية:

تكذيبُ الرُّسل مسبَّبٌ عن إقدامهم على فعل التَّكذيب

كُرِّر التَّكذيبُ في الآية، فقد ذُكِرَ أوَّلًا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، وفي قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾؛ لأنَّ القصدَ في أوَّل الآية بيانُ صدور التَّكذيبِ منهم ومباشرتهم له وإقدامهم عليه، ثم جُعِل تكذيبُ الرُّسل في الموضع الثّاني مسبَّبًا عنه، كقول القائل: أقدم فلانٌ على أَنْ يَكْفُر، فكفَرَ بالرَّسول ﷺ[2].

التَّكذيبُ الأوَّلُ عامٌّ والثّاني خاصٌّ

ومن دلالاتِ تكرار التَّكذيب: أَنَّ التَّكذيبَ الأوَّل دالٌّ على العموم، وهو تكذيبٌ بالكُتُبِ المنزلة، والرُّسل المرسلة، والمعجزات الباهرة، وغيرها ممّا كان الواجبُ التَّصديقَ بهِ، وأنَّ التَّكذيب الثّانيَ دالٌّ على الخصوص، وهو تكذيبُ الرُّسل[3].

دلالةُ التَّعبير بالرِّسالة وإضافتها في ﴿رُسُلِيۖ﴾:

تكذيبُ الرُّسل جريمةٌ عظيمةٌ تستحقُّ العقاب الإلهيَّ

عُبِّرَ بلفظ الرِّسالةِ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾؛ لأنَّ لفظها مُشْعِرٌ بالوحي الإلهيِّ، وحمل الأمانة، والتَّكليف الرَّبانيِّ، ممّا يجعل

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 198.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 589.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 382.

تكذيبَ الرُّسل جريمةً عظيمة تستحقُّ العقابَ الإلهي، وأضافها اللّه ﷻ إلى الضَّمير العائد عليه سبحانه توكيدًا لذلك المعنى.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف في الآية:

مُعاجلةُ اللهِ تَعالى للمكذِّبين بالعذابِ

في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إيجازٌ بالحذف، فالجملةُ تحمل في طيّاتها تهديدًا صريحًا للمكذِّبين؛ إذ يشير إلى عاقبة تكذيبِ الرُّسل، وعصيان الأوامر، فهو على تقديرِ: فكذَّبوا الرُّسلَ، فأهلكناهم، فكيف كان نكيري وعذابي[1]؟ فأشار إلى سُرعة عقابِهم وعذابهم بعد تكذيب الرُّسل، فحَذْفُ فعلِ الإهلاك مُؤْذِنٌ بأنَّ العقابَ كان حتميًّا وسريعًا.

ويحتمل أن يكون الحذفُ عطفًا على تقديرِ: (فحين تمادوا في تكذيبِ رُسلي؛ أتاهم إنكاري تدميرًا واستئصالًا)[2].

معنى (الفاء) ودلالتها:

تأكيدُ الجُملة احترازًا من إعادَتِها

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ تدلُّ على أنَّ هذه الجملةَ وما قبلها في قوَّة الجملةِ الواحدة، فالفاءُ هنا مؤكِّدةٌ للفاءِ من قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾ تأكيدًا لفظيًّا؛ احترازًا من أن تُعادَ الجملة إعادةً ساذجة[3]، يأباه النَّظم القرآنيُّ الجليل.

ويجوز أن تكونَ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فصيحةً، والمعنى: فماذا يكون حالهُم إن كذَّبوا الرُّسلَ؟ فيكون الجواب: أن يأتيَهُم إنكاري استئصالًا وتدميرًا[4].

دلالةُ (كيف) في الآية:

بيانُ عظمةِ عقابِ اللهِ تعالى

(كيف) في أصل وضعهِ في كلام العربِ مستعملٌ للسُّؤال عن الحال[5]، وقد وردَ لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 310.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 304.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 230.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 533.
(5) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/ 192.

استفهامًا عن الحال التي هم عليها آنئذٍ، وهو مستعملٌ في التَّقرير والتَّفظيع[1]، أي: كان إنكاري عليهِم عظيمًا فظيعًا مستأصِلًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي في الآية:

شـدَّة عـذابِـهِ للمكذِّبين رسلَهُ كالجبلَّة والطَّبع

أورد فعلَ الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ فإنَّه لَمّا كان تكذيبُهم الرُّسلَ سببَ هلاكهم، ومع ما بسط لهم مِنَ النِّعم، فلم يغنِ عنهم دفْع النِّقم؛ قيل للرّائي أو السّامع هذه الجملة الدّالَّة على شدَّة عذابِهِ التي هي له تعالى كالجبلَّة والطَّبع[2].

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿نَكِيرِ﴾:

الإنكارُ حاصلٌ بالتَّدمير لا بمطلَق التَّغييرِ

اسْتُعْمِل لفظُ النَّكير دون التَّغيير مثلًا في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: نكيري، ومعناهُ: إنكاري لفعلِهِم بالتَّدمير والاستئصالِ وتغييرِ المنكر حينما كذَّبوا رُسُلي[3]، فكلمة ﴿نَكِيرِ﴾ هنا لا تدلُّ على التَّغيير فحسبُ، بل تشير إلى عذاب أليم أصابهم بسبب جرمِهم، وهو عقابٌ يستحقّونه جزاءً لفعلِهِم المنكر، بخلاف لفظ (تغيير)؛ فإنَّها تقتضي انتقالَ حالٍ إلى حالٍ أُخرى من غير استلزامِها العذابَ.

غرضُ الاستفهام في قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾:

بـيـانُ عـظـمَـةِ الـعـذابِ لـلـتـعـريـض بالمُكذِّبين

قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ جملةٌ استفهاميَّة تحمل في طيّاتها معنى التَّعظيم والتَّأكيد على شدَّة العذابِ الذي أصاب الأممَ السّابقة وتفظيعُهُ، وليس استفهامًا باقيًا على أصلِه؛ إذ ليس المرادُ قطعًا: طلبَ العلم بشيء لم يكُن معلومًا مِنْ قبلُ، وجملة الاستفهام منزَّلةٌ منزلة التَّهديد الضِّمنيِّ لقريش على وجهِ التَّعريضِ؛ إذ تشيرُ إلى أنَّهم قد يتعرَّضون لعقاب نكير مماثلٍ إذا لم يتوبوا إلى الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 230.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 528.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 589.

سبحانه[1]، فاللّه تعالى يذكِّرهم بقصَّة الأمم السّالفة؛ ليكونوا عبرةً لهم، وليعلموا أنَّ عذابَ اللّه شديدٌ.

نكتةُ حذفِ الضَّمير في ﴿نَكِيرِ﴾:

تخفيفُ اللَّفْظِ مع تحصيل التَّناسُب الصَّوتيّ

حُذِفَ الضَّميرُ المضاف إلى لفظ ﴿نَكِيرِ﴾، والأصل فيه: (نكيري) بياءٍ بعد الرّاءِ المكسورَةِ[2]، وذلك لإرادَةِ التَّخفيف، مع الإبقاءِ على الكسرة للإيماءِ إلى المحذوف، ولتحصيل التَّناسُبِ اللَّفظيِّ بينَها وبين الفاصلة الرّائيَّة في الآيةِ قبلُ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾[3].

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿نَكِيرِ﴾:

﴿نَكِيرِ﴾: اسمٌ بمعنى الإنكارِ، أي: كيف كانَ إنكاري عليهم بعذابِ الاستئصالِ، ولازمُ ذلك: غضبُ اللّه تعالى عليهم المؤدّي إلى إيقاعِ العقابِ وتسليطِهِ عليهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البلوغ والوصول:

الوصولُ أعَمُّ مِنَ البلوغِ

البلوغُ أخصُّ مِنَ الوصول؛ إذ البلوغُ هو الوصولُ إلى منتهى القصد والغايةِ زمانًا أو مكانًا أو غيرَهُما، ولذا لا يقال: وصلتِ الثِّمارُ، ووصل أشده، ووصل الصَّبيُّ، واستُعْمِلَ فِعلُ البلوغِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ للدِّلالة على أنَّهم بعيدون كلَّ البُعد عن إدراكِ غايتهم.

الإنكار والتَّغيير والإنذار:

التَّغييرُ تحويلٌ، والإنذار تخويفٌ، والإنكار تغييرٌ يستتبع العقاب

النَّكيرُ: هو إنكارُ الشَّيءِ جملةً وتفصيلًا، وهو في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكارٌ مِنَ اللّه سبحانه، ويحمل في طيّاته

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 425.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 256.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 230.

معنى الشِّدَّة والعقوبة والعذاب لمن ارتكبه، "والنَّكير: الإنكارُ للأمر ... وإنكارُ اللّهِ للمُنكَرِ، يستتبعُ عقابَهُ وعذابه لمن وقع منه المنكرُ"[1]، وهو توكيدٌ على حُرمةِ الفعل وخطورته، أمّا التَّغييرُ؛ فهو إحداث تحوُّلٍ في الواقع، والتَّغييرُ قد يكون على السَّلبِ أو الإيجاب، فقد يتضمَّن عقابًا، وقد لا يتضمَّنه، وأمّا الإنذارُ؛ فهو التَّخويف من الإعلام بموضع الخوف، فإنَّ قولك: أُنْذِرْتُ بالشَّيء، أي: عَلِمْتُه، فحصلَ الاستعدادُ له[2]، فالإنذارُ يجمعُ بين إعلامِ الفرد بالخطر المحتمل، وبين تخويفهِ مِن عواقبه.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 836.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.

﴿۞قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ [سبأ: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تليينُ الكلامِ رجاءَ قبولِهم الوعْظَ

لَمّا كانت الآياتُ السّابقة جاريةً مجرى إبطال شُبَهِهم كلِّها ممّا رموهُ بالكذب والجنون والسِّحر ونحوه، وتنبيههم للتَّحذير لهم؛ فكان أن ليَّن مِن عريكَتِهم، وخفَّف مِن جموحهم، وفي ذلك توطئةٌ لجدارَتِهم بقَبول الوعظ والإرشاد، فجاءت هذه الآيةُ على صيغة الأمرِ له ﷺ بأن يُقبِل عليهم مخفِّفًا عليهم مخافةَ النُّفور من طوله[1]، وأن يدعوَهُم، وينذرَهم أن يرجعوا عن غيِّهم، وإلّا شَمِلَهُم العذابُ الأليم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعِظُكُم﴾: (وعظ) تدلُّ تصريفاتُه على التَّخويف والزَّجرِ[2]، والوعظُ والعظة والموعظة "كلامٌ أو عمل يُنبَّه به الإنسانُ إلى عواقب ما يفعلُه، أو ما هو مُقدِم عليه ليتوقَّف عنه ... وكلُّ ما جاء في القرآنِ من التَّركيب؛ فهو بمعنى هذا الإذكارِ والتَّنبيه"[3]، وقوله تعالى: ﴿أَعِظُكُم﴾ الوارد في الآية: بمعنى: آمركم وأوصيكم بكلمةٍ واحدةٍ هي كلمة الإخلاصِ (لا إله إلّا اللّه)[4].

2) ﴿بِوَٰحِدَةٍۖ﴾: (وحد) تدلُّ تصريفاتُه على الانفراد[5]، ومِنْهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 529.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وعظ).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وعظ).

(4) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 381.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحد).

الوحدةُ: الانفراد[1]، والواحد أوَّلُ عددِ الحساب، ومبناهُ على انقطاع النَّظير وعَوَزِ المثل[2]، ومعنى (واحدة) في الآية، أي: منفردة، والمعنى: أعظكم بخصلة منفردةٍ؛ هي طاعةُ اللّه، أو كلمة التَّوحيد[3].

3) ﴿تَقُومُوا۟﴾: (قوم) تدور اشتقاقاتُه على الانتصابِ أو العزم[4]، والإقامةُ: الثَّباتُ والاستقرارُ، يقال: أقام بالمكان، أي: ثبتَ واستقرَّ فيه، وتُطلق بمعنى الدَّوام على الشَّيء، كقولهم: أقامَ الشَّيء بمعنى: أدامَهُ، والمقام هو الموضعُ الَّذي تقيمُ فيه، والقيام يأتي على عدَّة أضربٍ، منه قيامٌ بالشَّخص إمّا بتسخير أو اختيار، ومنه قيامٌ للشَّيء مراعاةً وحفظًا له، ومنه العزم على الشَّيء[5]، والمراد بالقيام في قوله تعالى: ﴿تَقُومُوا۟﴾ لا يُقصَدُ منه القيامُ بالأرجل والأقدام، وإنَّما القيامُ بالأمر والجدِّ فيه للنَّظر في أمر هذا الرَّسول ﷺ قيامًا خالصًا لا يشوبهُ اتِّباع هوًى أو ميل[6].

4) ﴿جِنَّةٍ﴾: (جنّ) تدلُّ تصريفاتُه على السَّتر، ومنه الجِنَّة بمعنى الجنون؛ لأنَّه يغطّي العقلَ، ويسترهُ، والجنونُ يكون حائلًا بين العقلِ والنَّفس، وبغياب العقل واستتاره يحصل الجنونُ[7]، ومنه الجنُّ، وتسميتُهم كذلك لاستجنانِهم، أي: اختفائِهم مِنَ النّاس، فلا يرونهم، ومعنى الاجتنانِ: الاستتارُ والتَّغطية، وأجنَّهُ اللّهُ، فهو مجنونٌ[8]، وقوله تعالى: ﴿جِنَّةٍ﴾ في الآية بمعنى: الجنونِ[9]؛ فإنَّه ﷺ مبرَّأٌ منه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إذا سوَّلت لكم أنفسُكم تكذيبَ الرَّسول ﷺ، واتِّهامه بالسِّحر ونحوه؛ فأنعموا النَّظر، فأين آثارُ ما رميتموه به؟ هذا محمَّد ﷺ، وكان من مقالتكم عنه أنَّه ساحرٌ، فهل ظهر أثرُ السِّحر على أحوالِه وأفعالِه وأقوالِه؟ ثمَّ قلتم: إنَّه شاعرٌ، فمِن أيِّ قسم من أقسام الشِّعر

(1) الراغب، المفردات: (وحد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وحد).
(3) مكي القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 5936.
(4) الخليل العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(6) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 169.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جن).
(8) الخليل، العين، وابن قتيبة، غريب القرآن، وابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (جن).
(9) الفيروزابادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص: 363.

الدَّعوةُ إلى التَّفكُّرِ في أحوالِ النَّبيِّ المُرسَلِ

كلامُه؟ وقلتم: إنَّه مجنون، فأين الجنونُ الذي زعمتم؟ وفي ذلك كلِّه أنتم عاجزون فهلّا صدَّقتموه[1]، فإنَّ صاحِبَكُم ليس فيه شيءٌ مِن دعواكم، وما هو إلّا منذرٌ لكم بين يدي السّاعة ينذرُكم العقابَ على كُفركم، ويخوِّفكم عذابَ جهنَّم قبل أن تَصلوا إليها[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ جملة ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾:

الانتقالُ مِن أحوالِ الكُفرِ إلى الدَّعوةِ إلى الإنصاف

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِه استئنافًا نحويًّا[3]، يُرادُ به الانتقالُ ممّا حكاهُ عن أحوالِ كُفْرِ المشركين، وما تخلَّله مِنَ النَّقض والاستدلالِ والتَّسليةِ والتَّهديد إلى دعوتِهم إلى أن يكونوا منصفينَ في نظرِهم، وتأمُّلِهم في الحقائقِ؛ ليظهرَ لهم خطؤُهُم فيما ارتكبوهُ مِنَ الانحرافِ في تلقّي دعوةِ الإسلامِ، وفيه إرشادٌ لهم للاختلاء بأنفُسِهم كي يُلْزِمَهُم الحجَّة، ويُسْقِطَ عنهم أعذارَ المجادلة[4].

دلالةُ التعبير بالقول وغرضه:

التَّلطُّفُ في الوعظِ لتجنُّبِ النُّفور

بعد أن دحضَ اللّهُ تعالى كلَّ شبهةٍ أثارها المشركون، ولطَّف في معاملتِهم بتنبيهاتِهِ الحكيمةِ؛ صاروا مستعدّينَ لاستقبالِ الوعظِ والإرشاد، ومع ذلك ألقوا عليهِ تهمةَ الجنونِ والكذبِ، فخاطبَهم اللّهُ تعالى مِنْ غيرِ تفصيلٍ طويل؛ ليجنِّبَهم المللَ والنُّفور[5]، فأورد الفعلَ ﴿قُلۡ﴾ هنا اهتمامًا بما احتوت عليه هذه الجملةُ مِنَ المعاني[6].

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 187 - 188.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 305.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1896.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 231.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 529.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 231.

دلالةُ ﴿إِنَّمَآ﴾، وسرُّ إيثارها:

التَّوحيدُ أسُّ الشَّريعةِ وأساسُها

﴿إِنَّمَآ﴾ في كلام العربِ تدلُّ على الحصرِ والتَّحقيق[1]، وهي كذلك في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾، فالوعظُ منحصرٌ في التَّوحيد؛ لأنَّ مَن وحَّد الله سبحانه حقَّ توحيده؛ انشرحَ صدرُه، وارتفع قدرُه، وانقادَ للشَّريعةِ كُلِّها، وقد أمرهم النَّبيُّ ﷺ بما يفتح لهم أبوابَ العبادات، ويهيِّئ لهم أسباب السَّعادات[2]، وإيثارُها على (ما) مع (إلّا)؛ لأنَّ ﴿إِنَّمَآ﴾ دالَّةٌ على التَّحقيق والتَّوكيد مع القصر.

وهذا القصرُ بالنِّسبة لزمنٍ خاصٍّ؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ لم يأمرْهُم في جميع عمره معهم بشيءٍ واحد، وهو التَّوحيدُ فحسب، بل أوامرُهُ كثيرةٌ، وإنَّما المعنى: أعظكم أوَّلًا بالتَّوحيد، ولا آمركم في أوَّل الأمر بغيرِه؛ لأنَّه سابقٌ على الجميع[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالوعظ مضارعًا ﴿أَعِظُكُم﴾:

التَّحذيرُ مِن سوءِ العاقبةِ والتَّرغيبُ في حسنِ الختامِ

جاء التَّعبيرُ بالوعظ في قوله تعالى: ﴿أَعِظُكُم﴾؛ لأنَّ الوعظَ كلامٌ مشتملٌ على التَّحذير من المكروه، والتَّرغيب في حسن الخاتمة، وما هو ضدُّ المكروه، فهو ما كان نُصْحًا مختلطًا بتحذير من أن يلحقَكَ ضرٌّ في عاقبة أمرك، أو هو تحريضٌ لك على جلبِ المنفعة[4]، وصيغةُ المضارع تدلُّ على وعظٍ مستمرٍّ ومتجدِّد، فالآيةُ فيها أمرٌ ضمنيٌّ للنَّبيِّ ﷺ لمواصلةِ الدَّعوة، والاستمرار في تذكير قومهِ لعلَّهم يهتدون[5]، أي: إنَّ الدَّعوة إلى الله تعالى والعظةِ والحكمةِ ليست مقتصرةً على لحظة معيَّنةٍ، بل هي أمرٌ مستمرٌّ يَتطلَّب تذكيرًا وتوجيهًا دائِمَيْن.

(1) السبكي، عروس الأفراح: 1/ 131.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 214.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 214.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 98، و: 22/ 231.
(5) مجموعة مؤلفين، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 8/ 289.

بيانُ مرجع الضَّمير في ﴿أَعِظُكُم﴾:

قول اللّه تعالى: ﴿أَعِظُكُم﴾ فعل مضارعٌ، وفاعله ضميرٌ مستترٌ وجوبًا، والكاف في محلِّ نصبِ مفعولُهُ[1]، والكاف راجعةٌ إلى المخاطَبين مِن كفّار مكَّة الذين رموا النَّبيَّ ﷺ بالسِّحر والكذب والجنون[2].

إنّما أنصحُ لكم يا أهل مكَّة بنصيحةٍ واحدةٍ لا شيءَ غيرها

نكتةُ حذفِ الموصوف والتَّعبير بصفتهِ ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾:

في قول اللّهِ تَعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ اكتفاءٌ بالصِّفة عن الموصوفِ، والعظةُ هنا هي الطّاعةُ التي تتضمَّنُ التَّوحيدَ والإخلاص، فيكونُ المعنى أنَّه يعظهم، ويذكِّرهم بهذه الخصلةِ الواحدة[3]، أو بهذه الكلمةِ الواحدةِ، كقول الرجل لقرينه: اسمعْ أكلِّمْك كلمةً واحدةً[4] أو قضيَّةً واحدةً[5] أو حسنة واحدة[6]، فلفظُ (واحدة) صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ بما يدلُّ عليه المقام، ويفرضُهُ السّامع، ونكتةُ حذفِ الموصوف قُرْبُ الكلامِ مع الحذفِ مِنَ الأفهام، واختصارُه في الاستدلال، وإيجازُهُ في نظم الكلامِ؛ ليكونَ أدْعى لاستنزالِ طائرِ صدِّهم ونُفورهم[7].

طَيُّ الكلامِ للتقريب والاختصار والإيجاز

بلاغةُ القصرِ في الآية:

في قول اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وهو قصرٍ إضافيٌّ، والمعنى: أعظكم بموعظةٍ واحدة لا بغيرها ممّا فيها تفصيلٌ وتطويلٌ؛ لِأَنَّكم قد استكثرْتُم الحججَ، ومللْتُم مِنَ الرُّدود، وتذمَّرتم مِنَ القرآن، فسأختصر لكم المجادلةَ في كلمةٍ واحدةٍ، وهذا كقول المناظرِ والمجادل بعد بسط الأدلَّة والحُجَج: والحاصِلُ كذا وكذا[8].

اختصارُ المجادلَةِ أَدْعى لجمع القَلْبِ عَليها

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 623.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 838.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 256 - 257، والزمخشري، الكشاف: 3/ 589.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 459، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 311.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 425.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 214.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 232.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 231.

دلالةُ التَّعبيرِ بالقيام في: ﴿أَن تَقُومُواْ﴾:

المرادُ مِنَ القيام في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ - في أحد أوجُهِهِ - القيامُ المعهود، وهو الانفضاضُ عن مجلس الرَّسولِ ﷺ وتفرُّقهم عن اجتماعِهم عنده[1]، وهو قيامٌ لأجل التَّفكُّرِ[2].

بلاغةُ التَّجوُّز في التَّعبير بالقيام:

للقيام في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ وجهٌ آخَرُ، وهو قيامٌ لا يُراد به المثولُ على القدمين، إنَّما الانتصابُ في الأمر، والنُّهوضُ فيه بداعي الهمَّة والاجتهاد؛ فيكون المعنى: أن تقوموا لوجهِ اللّه خالِصًا[3].

معنى (اللّام) في ﴿لِلَّهِ﴾:

الأمرُ بالإخلاصِ في الأمور كلِّها

من معاني اللّام في لسان العربِ الاختصاصُ[4]، وهي كذلك في قولهِ تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾، والمعنى: "أن تقوموا للّه، أي: لوجه اللّهِ خالصًا، لا لحميَّة، ولا عصبيَّة، بل لطلب الحقِّ والاسترشاد"[5].

ويجوز أن تكونَ اللّامُ دالَّةً على التَّعليل، وهو معنًى لها في كلام العرب[6]، فاللّام تدلُّ على أنَّ القيامَ والتَّفكُّرَ يكون للّه وحده، خالصًا لوجهه الكريم، وليس لأجل سببٍ دنيويٍّ، أو رغبة في الثَّناء مِنَ الخلقِ، وهذا المعنى لِلّام والمعنى الذي تقدَّم متآيلانِ.

دلالةُ التَّعبير بالاسم الأحسن (الله):

استِحضارُ عظمةِ الله تعالى أدْعى للإخلاصِ لَهُ

جاء التَّعبيرُ بالاسم الأحسن (اللّه) في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾؛ لجَمْعِه لمعاني صفاتِ الجلال والجمال والكمال، فيكون أدعى

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 589.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 209.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 590.
(4) الصبان، حاشية على شرح الأشموني: 2/ 320.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 505.
(6) ابن مالك، تسهيل الفوائد، ص: 145.

لاستحضار عظمتهِ سبحانَهُ بما أوتوا مِن الإحسانِ[1]، فيدفعهم ذلك إلى إخلاصِ العملِ للّه سبحانه.

دلالةُ ﴿مَثۡنَىٰ﴾ و﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾:

تكريرٌ لإفادة التَّرصيفِ

﴿مَثۡنَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ معدولٌ بها عن تكرير لفظ الاثنين، وهو تكريرٌ لإفادة معنى ترصيفِ الأشياء المتعدِّدة بأن تجعل كلَّ معدودٍ بعدد اثنين مرصفًا على نحو عددِهِ، والمعنى: أن تقوموا للّه اثنين اثنين، وكذلك لفظُ ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ هوَ تكرير لإفادة التَّرصيف، والمعنى: فردًا فَردًا[2].

دلالةُ التَّعبير بالفرد والاثنين:

كثرةُ الاجتماعِ مدعاةٌ لتشويش الخواطر

قول اللّه تعالى: ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ في موضع نصبٍ على الحاليَّة مِن ضمير الرَّفع في فعل القيام[3]، وعُبِّرَ بالتَّثنية والإفراد دون الجمع الكثير؛ لأنَّ الاثنين يتعاونان في التَّفكيرِ، يعرض كلُّ واحدٍ منهما على الآخرِ محصولَ فكرهِ، وثمار تأمُّله، ويتناقشان بعمقٍ وصدقٍ، لا يسود بينهما أيُّ انحيازٍ أو تعصُّب أو اتِّباع هوًى، حتّى يميل بهما الفكرُ السَّليم والنَّظر الصَّحيح نحو جادَّة الحقِّ، وبالمثل يتأمَّل الفردُ في ذاته ونفسه بنزاهةٍ وحيادٍ وإنصافٍ من دون مكابرة، ويقارن أفكارَهُ بمعاييرِ العقلاءِ وأحوالهم، أمّا الجمعُ الكثير؛ ففيه تشويشُ الخواطر، وعمى البصائر، فيحجب الرُّؤية؛ فيقلُّ العدلُ والإنصاف، ويكثر الجورُ والاعتساف[4].

الإيماءُ إلى ذِكر اللّه تعالى على كلِّ حالٍ

وفي قوله تعالى: ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ إشارةٌ إلى جميع الأحوال الَّتي يكون عليها الإنسان في تفكُّره، فإذا كان مع غيرهِ دخلَ في قوله تعالى: ﴿مَثۡنَىٰ﴾، وإذا كان مختليًا بنفسهِ دخلَ تحت قوله تعالى:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 529.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 232.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 307.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 590.

﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾، فكان مرادُ هذا التَّعبير أن يأمرَهم بالقيام مجتمعينَ ومنفردينَ، فلا حالَ يمرُّ عليهم إلّا ويذكرون اللّه تعالى فيه(1).

المثنى كنايةٌ عن عمل النَّهار، والفرادى كنايةٌ عن عمل اللَّيل

ويحتمل أن تكونَ التَّثنيةُ عملَ النَّهار، وهو فيه مُعان، والإفرادُ عمل اللَّيل، وهو فيه وحيد(2)، فالمثنى يشبه عمل النَّهار؛ إذ يرافق الإنسانَ فيه آخرون، أمّا الإفرادُ؛ فيشبه عملَ اللَّيل؛ إذ يكون الإنسانُ وحيدًا مع نفسِه؛ لأنَّ النَّهارَ عادة ما يكون وقتًا للاجتماع، بينما يكون اللَّيلُ وقتًا للانطواء والتَّفكير.

نكتةُ تقديمِ ﴿مَثۡنَىٰ﴾ على ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾:

الحقائقُ مِن مُتعاضِدَيْن في النَّظر أجْدى وأفْيَد

قُدِّمَ حالُ التَّثنية على حالِ الإفراد في قوله تعالى: ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ لأنَّ الحقائقَ مِن متعاضِدَيْن اثنين في النَّظر والتَّأمُّل أجدى من صدورها من واحدٍ؛ ليَبْرُزَ فضلُ التَّعاون والتَّبادل الفكريِّ؛ إذ إنَّ حال التَّثنية - أي: العمل مع الآخر - تُثمر حقائقَ أعمقَ وأشمل، فالنِّقاش البنّاء بين اثنين يزيدُ مِن عُمق الفهم، ويصقل الرَّأي، ممّا يجعلُ كلَّ فردٍ أكثرَ بصيرة ووعيًا، فإذا ما ظهر الحقُّ بينهما؛ غدا كلُّ واحدٍ منهما مفكِّرًا في الأمر، فيزداد بصيرة ورشادًا(3).

يقومُ الاثنان، فيعتبران في أمر الرَّسول، ثمَّ يقوم كلُّ واحدٍ منفردًا

وفي التَّعبير بـ﴿مَثۡنَىٰ﴾، ثمَّ إتْباعُه بـ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ إشارةٌ إلى التَّرتيب المنطقيِّ الزَّمنيِّ في القيام للاعتبار بما كان مِن أمرِ الرَّسول ﷺ، فقد أمرهم أن يقومَ كلُّ واحدٍ منهما مع صاحبه للاعتبار والتَّفكُّر في أمر هذا الرَّجل الذي اتَّهموه بالجنون والسِّحر والكذب، فإذا ما فعلا ذلك؛ قام بعد ذلك كلُّ واحدٍ منهما منفردًا متفكِّرًا مع نفسه متأمِّلًا فيما كان مِن أمره(4).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 214.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 311.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 425.
(4) مكي القيسي، الهداية: 9/ 5937.

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾:

الأمرُ العظيم جديرٌ بالتَّأنّي وطول التَّدبُّر

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ حرفٌ دالٌّ على العطف بتراخٍ، فإنَّ اللّهَ تعالى لمّا طلب منهم القيامَ لأمر عظيم؛ بيَّن ما يتبَعُ القيامَ، وهو التَّفكُّر في أمر الرَّسول ﷺ، وهو أمرٌ يستحقُّ التَّأمُّل والتَّدبُّر، وطول التَّروّي[1]، فلا يكن منهم استعجالٌ في الحُكم، ولذا بيَّنَهُ مقرونًا بحرف العطف الدّالِّ على المُهْلَة ﴿ثُمَّ﴾.

أهمّيَّةُ التَّفكُّر في أحوال النَّبيِّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ مطلبان، أحدُهما: أن يقوموا للّه، والآخر: أن يتفكَّروا في أمرِ الرَّسول ﷺ بادِّعائِهم أنَّه مجنونٌ، وجاء هذا الأخيرُ متأخِّرًا في الرُّتبة، واردًا بحرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾؛ "لأنَّ التَّفكُّر في أحوال النَّبيِّ ﷺ أهمُّ في إصلاح حالِ المخاطَبين المعرضين عن دعوته، بخلاف القيامِ للّه؛ فإنَّهم لا يأبونه"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّفكُّر في: ﴿تَتَفَكَّرُواْۚ﴾:

مَن تأمَّل الأدِلَّة طالِبًا الوصولَ إلى الصَّواب؛ تبيَّن له طريقُ الحقِّ

(التَّفكُّر) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ في حاله ﷺ، وفيما رمَوْهُ به من الجنونِ، والحالُ أنَّه ﷺ كان أرجحَهُم عقلًا، وأصدقهم قولًا؛ ذلك أَن التَّفكُّر يهدي غالبًا إلى الصَّواب وتعرُّف الحقيقة؛ إذا تجرَّدَ صاحبُهُ عمّا يُشَوِّش نظرَهُ، ويُبَلْبِلُ فِكْرَهُ، ويُلوِّثُ قصدَهُ[3].

التَّفكُّرُ مجازٌ عن العِلم؛ لأنَّ العِلمَ نتيجتُهُ

والتَّفكُّر: تكلُّف الفِكر على الوجه الصَّحيح، وتكون نتيجتُه بلوغَ العلم[4]، والمعنى هنا: أن تتفكَّروا، فتَعْلَموا أنَّ ما بصاحبكم مِن جِنَّة، فيكون التَّفكُّر حينئذٍ مجازًا عن العلم؛ لكونهِ سببًا له، والمعنى: ثمَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 530.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 233.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 561.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 233.

تتفكَّروا؛ لتعلموا أنَّ أمرَهُ فيما جاء به مِنَ الرِّسالة والوحي والكتاب ما هو إلّا حقٌّ محضٌ لا شكَّ فيه(1).

الدَّعوةُ العامَّة إلى التَّفكُّر

دلالةُ إسنادِ فعل التَّفكُّر إلى ضمير جماعتهم:

أُسنِدَ فعلُ التَّفكُّر إلى الضَّمير المجموع العائد على المخاطَبين بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾؛ لما فيه مِنَ التَّوجيه الجماعيِّ إلى التَّفكير والتَّدبُّر في أمر النَّبيِّ ﷺ، وهذا التَّوجيه العامُّ ممّا يزيد من قوَّة الحجَّة، ويجعل الأمرَ أكثر إلحاحًا، فهو توجيهٌ عامٌّ إلى التَّفكُّر على النَّحو المذكور في الحالِ قبلُ: ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.

في إطلاق التَّفكُّر عن القَيْدِ عمومٌ وشمولٌ

فائدةُ إطلاقِ فِعْلِ التَّفكُّر:

فعلُ التَّفكُّر يتعدَّى بالحرفِ، فيُذكرُ معه المتفكَّر فيه عادةً، غير أنَّه وردَ مطلقًا عن أيِّ تقييدٍ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾؛ وذلك للإشارةِ إلى عُمْقِ التَّفكُّر المطلوب وشموليَّته، أي: يتفكَّروا في كلِّ ما يتعلَّق بأمرهِم العظيم(2).

تنبيهٌ مِنَ الله تعالى للنَّظر في أمر الرَّسول ﷺ

علَّةُ فصل قولِه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾:

فُصِلَ قولُهُ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّها استئنافٌ نحويٌّ؛ وردَ تنبيهًا من اللّٰه سبحانه يدعوهم فيه إلى النَّظر والتَّأمُّل في أمرِ نبيِّهم محمَّد ﷺ بنظرةٍ متأنّيةٍ وعميقةٍ، بعيدًا عن التَّسرُّع والتَّهوُّر في الحُكم(3).

الجوابُ عن علَّة القيام لله تعالى إخلاصًا

ويجوز أن يكونَ الفصلُ استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّه لمّا قيل لهم: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾؛ اتَّجه لهم أن يَسألوا عن علَّة تلك الإقامة للّٰه، وذلك الخلوص إليه مثنى وفرادى، وسرُّ هذا النَّظر الدَّقيق، وسبب التَّفكُّر العميقِ، فجاء الجواب: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 535.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 535.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 590.

﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾ أي: لاستعلام حال صاحبِكم، واستكشافِ أمره بتصدّيهِ للأمر العظيم[1].

دلالةُ ﴿مَا﴾ في: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾:

نفيُ الجنونِ عن الرَّسول ﷺ أمرٌ مؤكَّدٌ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ دالَّةٌ على الاستفهام، ولا يُراد به الاستفهامُ المحضُ، بل هو استفهامٌ مؤوَّل بالنَّفي خارجٌ مخرجَهُ على معنى أيِّ شيء بصاحبِكم مِن آثار الجنونِ، والمعنى: لا شيءَ مِن ذلك البتَّة[2].

ويجوز أن يكونَ معنى ﴿مَا﴾ في الجملة دلالتَها على النَّفي المحضِ، على تقدير: أن تتفكَّروا، ثمَّ تعلموا أنَّ صاحبَكم ليس بمجنونٍ، وأنَّ انتفاءَ الجنونِ عنه أمرٌ مؤكَّدٌ لا مراء فيه، فجملةُ النَّفي معمولةٌ لِفعل التَّفكُّر[3].

معنى (الباء) في: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾:

رجاحةُ عقلِ النَّبيِّ ﷺ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ، فيكون فيه نفيُ لصوقِ الجنون بالنَّبيِّ ﷺ.

ومن معاني الباء في كلامِ العربِ الظَّرفيَّة[4]، ويجوز أن تكونَ الباءُ في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ من هذا القبيلِ، فهي على معنى (في)[5]، فقد نفى الجنونَ عنِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ، أي: إنَّه ليس ظرفًا للجنون؛ توكيدًا على رجاحةِ عقلِ النَّبيِّ وسلامة تفكيرِه؛ وذلك ردًّا على مَن شكَّكوا في رسالته، واتَّهموه بالجنون.

بلاغةُ الإظهارِ في التَّعبيرِ بِـ(صاحب):

حالُ النَّبيِّ ﷺ مِنَ الكمالِ ورجاحةِ العَقلِ لا تَخفَى

لَمّا كان الكلامُ جاريًا على لسان الرَّسول ﷺ؛ لتصديرِ الآية

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 535.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 562، والشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 713.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 233.
(4) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 141.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 328.

بقول اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ﴾، فكان مقتضى الظّاهرِ أَن يردَ في النَّظمِ القرآنيِّ: (ما بي مِن جِنَّة)، إلّا أنَّه أظهرَ في مقام الإضمارِ، فقال تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾، "وفائدته: التَّنبيهُ على أنَّ حالَهُ معلومٌ لديهم، لا يلتبسُ عليهم؛ لشدَّة مخالطتهِ بهم مخالطةً لا تذَرُ للجهالة مجالًا، فهم عرفوه، ونشأ بينهم حتَّى جاءهُم بالحقِّ"(1).

دلالةُ الإضافةِ في ﴿بِصَاحِبِكُم﴾:

طولُ صُحْبَتِهِ لَهُم صحبةً كريمَةً مدعاةٌ للإقرارِ لَهُ بالكَمالِ

الصّاحبُ في اللُّغة: من كان ملازمًا ملازمةً طويلةً على كلِّ حال(2)، وقوله تعالى: ﴿بِصَاحِبِكُم﴾ دالٌّ عليه ﷺ، أي: الذي جاءَ بالرِّسالة والدَّعوة إلى اللّه سبحانه، وقد صاحَبَكُم زمنًا طويلًا؛ "إشارةً إلى مصاحبتهِ أربعين سنةً في صحبةٍ كريمة عاقلةٍ أمينة، يرجعونَ إليه في أمورِهِم المهمَّة، ويشركهم في فعلِ الطَّيِّبات أنَّى اتَّجهوا إليها، وأنَّ ما دفعَكم إلى هذا الوصفِ الذي يُنافي ماضيَهُ وحاضره إنَّما هو أنَّه جاء بالحقِّ بشيرًا ونذيرًا"(3).

معنى ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾:

ليس في صاحِبِكُم أيُّ أثَرٍ للجُنون

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾؛ لتأكيد النَّفي، وللنَّصِّ على الاستغراقِ، على تقدير: ما بصاحبِكم أدنى جنونٍ(4)، فهذا الاستغراقُ في النَّفي يعزِّز من قوَّة التَّعبير، ويؤكِّد براءةَ النَّبيِّ ﷺ من هذه التُّهمةِ الباطلة، فكأنَّ اللّه تعالى يقول: ليس في صاحبِكم أيُّ أثرٍ للجنون، لا في قلبه، ولا في عقله، ولا في أفعاله، بل هو بعيدٌ كلَّ البُعدِ عن هذه الصِّفة الذَّميمة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 234.

(2) الراغب، المفردات: (صحب).

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/ 3019.

(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 535.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿جِنَّةٍۚ﴾، ولطيفة تنكيرِها:

دعوى الجنونِ أروجُ

الجِنَّةُ هو الجنون، وقد نُفي عن النَّبيِّ ﷺ ذلك[1]، وقد كان التَّفكُّر بالاقتصار على نفي الجنونِ عنه ﷺ؛ لأنَّ أصلَ الطَّعن في نبوَّته كان أن رمَوهُ بالجنونِ والسِّحرِ والكذب، فكان ابتداءُ إرجاعِهم إلى جادَّة الحقِّ والصَّواب أن يُنْفى عنه الجنونُ، حتّى إذا أَذْعنوا؛ كان حقيقًا أنَّ ما جاء بِهِ لا يكون إلّا مِن عاقلٍ، فأمّا السِّحرُ والكهانة؛ فنَفْيُهما أيسرُ مِن ذلك؛ لأنَّهما يحتاجان إلى مزاولةٍ طويلة، وأمّا الشِّعرُ؛ فليس في القرآن من مسحةِ الشِّعر شيءٌ باعترافهم، وأمّا الكذبُ؛ فبعيدٌ، فقد خالطوه، وكان بين ظهرانيهم، فعرفوا صِدْقَهُ وأمانته، فلم يبقَ إلّا دعوى الجنونِ، فهي أروجُ بين أهل مكَّةَ؛ لأنَّ الجنونَ يطرأُ على الإنسان دفعةً واحدةً[2].

وجاء لفظُ ﴿جِنَّةٍۚ﴾ منكَّرًا؛ للدِّلالة على العمومِ؛ لأنَّها في سياق النَّفي، فليس به ﷺ أيُّ ضربٍ مِنْ ضروبِ الجنونِ.

الاستدلالُ باللّازمِ في الآية:

نفْيُ الجِنَّةِ عنه يُرادُ به إثباتُ الرِّسالةِ لَهُ

في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ إيماءٌ إلى دلالة المُخالفَة، وهو أنَّ نفْيَ الجِنَّة عنه ﷺ "يفيد كونه رسولًا، وإن كان لا يلزمُ في كلِّ مَن لا يكون به جِنَّةٌ أن يكونَ رسولًا، وذلك لأنَّ النَّبيَّ ﷺ كان تظهر منه أشياءُ لا تكون مقدورةً للبشر، وغيرِ البشرِ ممَّن تظهرُ منه العجائبُ إمّا الجنُّ أو الملك"[3].

علَّةُ فصلِ قولِهِ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ﴾:

بيانُ وظيفةِ الرَّسول ﷺ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ﴾؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا[4]، فهو انتقالٌ إلى بيانِ وظيفتهِ ﷺ في النِّذارة والتَّحذيرِ والتَّخويف

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 95.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 234.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 215.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 624.

مِنَ العذاب الشَّديدِ الذي سيحلُّ بِكم ذلك اليوم؛ إن بقيتُم على كفرِكم وشرِكِكم[1].

معنى ﴿إِنۡ﴾ في: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ﴾:

المُـرادُ بـالإنـذار تَخْويفُ العُصاة مِن عذاب الآخرة

﴿إِنۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ﴾ حرفٌ دالٌّ على النَّفْيِ، أي: ما هو إلّا نذيرٌ، والمعنى: ليس هذا الرَّجلُ الذي أُرْسِل إليكم، وقُلْتُم فيه ما قُلْتُم إلّا نذيرٌ مبينٌ؛ يخوِّفكم عذابَ الآخرة؛ إن عصيتُم اللّهَ تعالى، وتركتم دعوتَهُ وراء ظهوركم[2].

بيانُ مرجعِ الضَّمير ﴿هُوَ﴾ في الآية:

مرجعُ الضَّمير ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ﴾: الرَّسول ﷺ، فهو الذي تتحدَّث عنه الآياتُ بِعَيْنِه[3].

معنى ﴿إِلَّا﴾ في الآية:

تخليصُ العِباد مِـنَ الـغـوايـةِ وظيفَةُ الرُّسُلِ

﴿إِلَّا﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستثناء، وهي مع النَّفْيِ قبلها أو شِبهه تدلُّ على القَصْرِ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ﴾، وهو هنا قصر إضافيٌّ، فالرَّسول الذي أُرْسِلَ إليكم ما هو إلّا نذيرٌ خاصٌّ لكم[4]، يُريد تخليصَكُم ممّا أنتُم فيه مِنَ الغواية والضَّلال وعبادة الأوثان والتَّمسُّك بدين الآباءِ والأجداد.

معنى (اللّام) في ﴿لَّكُم﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ تدلُّ على الاختصاص، فالنِّذارة مختصَّة بكم، وهذا على وجهِ المبالغةِ في الاهتمام، حتّى كأنَّه لا يُنذِرُ غيرَهُم.

نكتةُ إيثارِ القصر وبلاغته في الآية:

دفعُ المطاعن عن النَّبيِّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ أسلوبُ قصرٍ، وطريقُهُ:

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 307.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 460.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 531.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 531.

النَّفيُ والاستثناءُ، وهو قصر موصوف - وهو النَّبيُّ ﷺ - على صفة - وهي النِّذارة بقرُبِ العذابِ - قصرًا إضافيًّا؛ فلا تحوم حولَهُ الأوصاف الأخرى التي لَمزتُموه بها[1]، كالكذب والسِّحر والجنونِ.

الإشارةُ إلى قُرْب العذابِ

دلالةُ التَّعبيرِ بِ ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ﴾:

البَيْنيَّة في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ دالَّةٌ على التَّرتيبِ، أي: "إنَّ محمَّدًا ﷺ جاء في الزَّمن من قبلِ العذابِ الشَّديدِ الذي تُوُعِّدوا به"[2].

وفي ذلك أيْضًا إشارةٌ إلى قربِ حلولِ العذاب، فهو يحذِّركم مِن عذابٍ حاضرٍ يُصيبُكُم عن قريب[3].

بيانُ عظمَةِ الأهوالِ والشَّدائِد

بلاغةُ الاستعارة في: ﴿يَدَيۡ عَذَابٖ﴾:

في قول اللّه تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ استعارةٌ؛ إذ المرادُ: بيانُ هولِ أمرِ العذاب الذي يصيبُهم بتصويرِهِ في صورةِ من يملِكُ آلةَ بطشٍ وقسوة تُحيط بمن تقصدُه[4]، وهي استعارةٌ مكنيَّةٌ أصليَّةٌ.

فالاستعارةُ في قولِه تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ﴾ لما يكون مِنَ الأهوال العظيمة، والشَّدائد المفزعةِ أمامَ الإنسانِ في ذلك اليوم العصيب[5].

ويجوز أن يكونَ هذا التَّركيبُ ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ﴾ من باب الكنايةِ، أي: قدّامه[6]، فالعبارة فيها إشارةٌ إلى وجود عذابٍ قريبٍ سيصيبُ الكافرين والمشركين قبل العذابِ الأكبرِ الذي ينتظرُهم في الآخرة، ومعناه قربُ الحدوثِ؛ ولذا اقتضى القبليَّة[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 235.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 425.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 215.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 531.
(5) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 623.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 536.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 235.

دلالةُ الوصفِ بالشِّدَّةِ على زِنَة (فَعيل):

العذابُ الشَّديدُ حاصِلٌ لَهُم في الدُّنيا والآخرة

لَمّا توعَّدهم بحلول العذابِ قريبًا منهم؛ وصفَهُ بالشَّديد في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾، والعذاب الشَّديدُ: الجهلُ والجحود والطَّرد واللَّعن من اللّٰه تعالى، وفي الآخرة: الحسرةُ والنَّدامة ودخول النّارِ[1].

وغرضُ وصفِ العذاب بالشِّدَّة: ترهيبُ الكافرين والمشركين، وإيقاظُ ضمائِرِهم ليَؤوبوا إلى اللّٰه تعالى، فوَصْفُ العذابِ بهذه الصِّفة القويَّة يَحْمِلُهُم على إدراكِ عِظَم جُرْمِهم، وزادَ العذابَ قوَّةً وشدَّةً التَّعبيرُ بالصِّفة المشبَّهة ﴿شَدِيدٖ﴾، وهي (فَعيل) مِنَ الشِّدَّة؛ لإفادة معنى الثُّبوت واللُّزومِ والدَّوامِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الوعظ والنُّصح والإرشاد:

الـوَعْـظُ أخـصُّ من النُّصح

الوعظُ هوَ التَّخويفُ والزَّجر بِما وقع لغيره، ويكونُ للتَّذْكير بالخَيْر مِمّا يَرِقُّ لهُ القَلْبُ، كَما يكونُ للتَّذْكير والإنذار بما وقع للعُصاةِ[2]، والنَّصيحةُ: كلمَةٌ جامِعَةٌ تدلُّ على إرادة الخير للمَنْصوحِ لَهُ وبذلِهِ لَهُ[3].

فالنَّصيحةُ عَلى هَذا أعمُّ مِنَ الوعظِ؛ لأنَّ النَّصيحةَ قد تكونُ تَذْكيرًا بمعلوم مغفولٍ عَنْهُ، أو تعليمًا لمجهولٍ، بخلافِ الوَعْظِ فغالِبُ استِعْمالهِ يكونُ في التَّذكير بمعلوم مَغْفولٍ عَنْهُ.

أمّا الإرشادُ؛ فهو بيانُ الطَّريق إلى الشَّيء وتبيينِه[4].

ولَمّا كان مِن أمرِ المشركين ما كان من توهينِ قَدرِ الرَّسول ﷺ، بأنَّه

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 307.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/ 264.
(3) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 1/ 219.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 209.

رجلٌ يريد أن يصدَّهم عن عبادةِ آبائِهم، وأنَّ ما جاء به مِن الكتابِ إفكٌ مفترًى، وأنَّ الحقَّ ما هو إلّا سحرٌ مبينٌ كان حريًّا به أن يعظَهم بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾؛ لما في الوعظ مِنَ الزَّجر والتَّعنيف المقترن بالحذرِ والتَّخويفِ[1]، بخلافِ النُّصح والإرشادِ الذي لا يناسب مقامَ التَّغليظِ والتَّشديد على هؤلاء المكذِّبين.

الجنون والتَّخبُّط:

نفْيُ التُّهمة المَنْسوبَةِ دونَ غيْرِها

بين الجنونِ والتَّخبُّط عمومٌ وخصوص مُطْلَقٌ؛ إذ التَّخبُّطُ نوع مِنَ الجنونِ يَحْمِلُ صاحبَهُ على الصُّراخ والسُّقوط[2].

والتَّعبيرُ بالجنون في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾؛ لأنَّ الجنونَ أعمُّ، وقد كان الكافرون ينسبون الجنونَ إلى الرَّسولِ ﷺ[3]، ولم يكونوا ينسبون إليه التَّخبُّط، فلمّا أُريدَ أن يُنْفى عنه ما نسبوه إليه سابقًا؛ أورِد لفظُ الجنَّة دون ما سواها من تخبُّط أو نحوِه.

(1) الراغب، المفردات: (وعظ).

(2) أبو عبيد الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (خبط).

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 5/ 102.

﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨﴾ [سبأ: 47 - 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

إثباتُ دليلٍ مِن أدلَّة النُّبوَّة

كان مِن شأن الآية السّابقة أَنْ نفى اللّهُ ﷻ عن نبيِّه ﷺ الجنون - وهذا النَّفيُ يستلزم كونه نبيًّا - أردفَهُ بسببٍ آخرَ يلزم من كونِه نبيًّا مرسلًا من عند ربِّه، فإنَّه مع عنائِه الشَّديدِ في تحمُّل الدَّعوة إلى اللّه تعالى، لا مطمع له في غرضٍ دنيويٍّ عاجل، إنَّما كان قصدُه الثَّوابَ الأخرويَّ، وأنَّ ما جاء به هو الحقُّ من عند علّام الغيوب.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجۡرٖ﴾: (أجر) تدلُّ تصريفاتُه على الكراء في العملِ، وعلى جَبْرِ العظم الكسير، ويمكن الجمعُ بين المعنيَين بأنَّ أجرةَ العامل كأنَّها شيءٌ يُجبَرُ بهِ حالُ الأجيرِ فيما لحقَهُ من كدٍّ وتعبٍ وجهدٍ؛ ولذلك قيل فيه: إنَّه الجزاءُ على العمل والجهدِ[1]، والأجرُ هو الثَّوابُ على العمل الدُّنيويِّ أو الأخرويِّ[2]، ومعنى الأجر في الآية: الجُعْلُ من مالٍ أو غيره، فإنَّه ﷺ لا يريدُ منهم جُعلًا على إنذارهِ العذابَ، وتبليغهِ الرِّسالة[3].

2) ﴿شَهِيدٞ﴾: (شهد) تدورُ اشتقاقاتُه على الحضورِ والعلم والإعلامِ، لا يخرج شيءٌ مِن فروعهِ عن المذكور، ومن ذلك الشَّهادةُ؛ فإنَّها تجمعُ معاني تلك الأصول، وتأتي بمعنى الخبرِ القاطع أيضًا،

(1) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (أجر).

(2) الراغب، المفردات: (أجر).

(3) العليمي، فتح الرحمن في تفسير القرآن: 5/ 433.

والشَّهادة: الحضورُ مع المشاهدة، وتكونُ بالبصر أو بالبصيرة[1]، وتَرِدُ الشَّهادة في اللُّغة على معانٍ عدَّةٍ، منها ما تقدَّمَ، ومنها الإقرارُ والحكم[2]، وذلك بحسب سياقِها التي تَرِدُ فيه، والمقصودُ بالشَّهيد في الآية: "العالم بجميعِ الأمور، وبما أنا عليهِ مِن إخباري عنْهُ بإرسالِهِ إيّاي إليكم، وما أنتم عَليهِ"[3].

3) ﴿يَقۡذِفُ﴾: (قذف) تدلُّ تصريفاتُه على الرَّمي والطَّرح، ويأتي القذف بمعنى الرَّمي البعيد، ومنه: المَنْزِل القذيفُ، أي: البعيدُ، وقد يردُ بمعنى الإتيان بالشَّيء، والرَّمي به[4].

والقذفُ ضربان: حقيقيٌّ، بمعنى: الرَّمي والدَّفع بغلظةٍ إلى مسافةٍ بعيدةٍ قصيَّةٍ، ومجازيٌّ: وله معانٍ عدَّةٌ بين السَّبِّ والشَّتم والتُّهمة ونحو ذلك، ومعنى القذف في الآية أنَّ اللّه سبحانه "يُلقي الحقَّ مِن وحيٍ وشرعٍ إلى أنبيائهِ بالحقِّ لا بالباطل"[5].

4) ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾: (غيب) تدلُّ اشتقاقاته على تستُّر شيءٍ عَنِ العيون، ومنه: الغيبُ، وهو خلافُ الحاضرِ المشاهدِ، ومن معانيه: المطمئنُّ من الأرض، وأيُّ موضعٍ تسمع منه صوتًا، ولا تراهُ؛ فهو غيبٌ، وكلُّ مكانٍ لا يُدرى ما فيه، أو لا يُدرى ما خلفَهُ؛ فهو مِنَ الغيبِ، ويأتي الغيبُ بمعنى الشَّكِّ والظَّنِّ؛ لأنَّه نفيٌ للعلم بما لا دراية فيه، وأيُّ شيء غابَ عن العيون؛ فهو غيبٌ[6]، ويرد الغيبُ بمعنى السَّترِ، ومنه قولهم: غيَّبت الشَّيءَ في التُّراب؛ إذا سترتُهُ[7]، ومعنى ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾: "الذي يعلمُ ما تنطوي عليه القلوبُ، مِنَ الوساوس والشُّبَهِ، ويعلمُ ما يقابلُ ذلك، ويدفعه مِنَ الحُجج"[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في هاتين الآيتين أمرَ اللّهُ ﷻ رسولَهُ الكريم ﷺ بالتَّصريح ببراءَتِهِ من طلبِ الدُّنيا

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (شهد).
(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 268.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 11/ 297.
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (قذف).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قذف).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غيب).
(7) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 361.
(8) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 682.

وطلبِ الأجر على الرِّسالة، وقد طلبَ منه التَّوكُّل على اللّه تعالى في الأجر والجزاءِ؛ إقرارًا منهُ بأنَّه تعالى شهيدٌ على كلِّ شيءٍ ممّا يصدر عن البشر مِن أفعالٍ وأقوالٍ، فهو علّام الغيوبِ الذي يأتي بالوحي وآياتِ القرآنِ[1].

براءةُ الرَّسول مِنَ الطَّمع ونزاهتِهِ عن الدُّنيا وتوكُّله على الله علّام الغيوب

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآية: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم﴾:

لَمّا كان قولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ كلامًا جديدًا مستأنفًا[2]؛ فُصِل عن سابقِهِ، فبعد أن بيَّن اللّه تعالى في الآياتِ السّابقةِ الرَّدَّ على شكوك المشركين في نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ بزعمِهِم أنَّه مجنونٌ، يأتي ليؤكِّد بلسان الحالِ والمقال أنَّ دافعَهُ في تبليغ الرِّسالة ليس طلبَ الأجرِ الدُّنيويِّ، بل هو لوجهِ اللّه تعالى وحبًّا لعباده.

التَّصريحُ بعدم طلبِ الأجر الدُّنيويِّ على الدَّعوة

دلالةُ القولِ في الأمر ﴿قُلۡ﴾:

القولُ في فعل الأمرِ ﴿قُلۡ﴾ دالٌّ على الاهتمامِ بالمقول[3]، فقد أمرَ اللّه سبحانه عبادَهُ بالابتعادِ عن طلبِ الدُّنيا الفانيةِ، وعدم التَّعلُّقِ بالأجر الدُّنيويِّ في أداء الرِّسالة، بل التَّسليم للّه تعالى في كلِّ أمورِ الدُّنيا والتَّوكُّل عليه في الجزاء الأخرويِّ[4].

الاهتمامُ بالمقول في التَّبرّي مِن طلب الدُّنيا

دلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا سَأَلۡتُكُم﴾:

تدلُّ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ﴾ على الشَّرط، فهي بمعنى: (مهما)[5]، وفي ذلك إيذانٌ بنزاهة الرِّسالة النَّبويَّة، وخلوِّها من أيِّ مصلحة ذاتيَّةٍ، فالنَّبيُّ ﷺ لم يكن يسعى إلى كسب

نزاهةُ الرِّسالة النَّبويَّة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 425.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 625.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 327.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 425.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 532.

مالٍ أو شهرةٍ من خلال دعوته، إنَّما دعا إلى الحقِّ إرضاءً للّه تعالى، وإرشادًا للنّاس إلى الطَّريق الصَّحيح.

ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ في الجملة بمعنى النَّفي[1]، فإنَّه ﷺ لم يسأل قومه مالًا، ولا يريد منهم جُعلًا ولا عطاءً على تأدية الرِّسالة الإلهيَّة، ونصْحِهِ لهم، وأمْرِهِ إيّاهم بعبادة الواحد الدَّيّان[2].

نفيُ طلبِ الأجر رأسًا

ويجوزُ أن تكون ﴿مَا﴾ موصولةً في محلِّ رفع بالابتداءِ، وعائدُ الصِّلة محذوفٌ، ودخلَتِ الفاء في ﴿فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾؛ لِما في الموصول من رائحةِ الشَّرط، والغرضُ هنا نفْيُ مسألة الأجر رأسًا، مثل ما يقول الرَّجل لصاحبه: إن أعطيتَني شيئًا؛ فهاك خُذْه، مع علمِهِ أنَّه لم يعطِه شيئًا؛ لأنَّه أرادَ القطع؛ لتعليقهِ الأخذَ بما لا يكونُ[3].

دلالةُ السُّؤال في قوله: ﴿سَأَلۡتُكُم﴾:

لا فائدةَ للرَّسول مِن هذهِ الدَّعوة من جَعْلٍ أو مال

في التَّعبيرِ بالسُّؤال في قوله تعالى: ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ﴾ دلالةٌ على أنَّه لا فائدةَ دنيويَّة لَهُ ﷺ من هذه الدَّعوة، مِن جُعْلٍ أو مال أو نحوه منذُ بِعْثَتِه حتّى وقتِ نزول الآية، وإلى انتقالِهِ إلى الرَّفيق الأعلى[4]، وأنَّ شيئًا من أموالِهِم لم ينتَقِلْ إليه ﷺ؛ إذ حقيقةُ السُّؤال: استخراجُ ما في حوزةٍ أخرى، وذلك بطلبِ تحصيله بدفْعٍ أو حثٍّ.

نكتةُ إدخالِ ﴿مِّنۡ﴾:

بيانُ حقيقةِ المسؤولِ

لَمّا كانت ﴿مَا﴾ في أوَّلِ الجملة من قوله تعالى: ﴿مَا سَأَلۡتُكُم﴾ مبهمةً دالَّة على العموم؛ أورد ﴿مِّنۡ أَجۡرٖ﴾ هنا بيانًا لذلك الإبهام[5]، فإنَّ ﴿مَا سَأَلۡتُكُم﴾ جملةٌ مبهمةٌ ينتظر السّامعُ بيانَها؛ لأنَّ السُّؤال يحتمل أن يكونَ متعلِّقًا بأمورٍ كثيرة، فبيَّنَها بالأجر، وهو الجعل أو المال أو العطاء، فتكون ﴿مِّنۡ﴾ على هذا بيانيَّةً.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 327.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 291.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 562.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 236.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 236.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿أَجۡرٖ﴾، ولطيفة تنكيره:

لم يسألهم عطاءً ولا جعلًا ولا مالًا ولو كان قليلًا حقيرًا

عُبِّرَ بالأجر في قوله تعالى: ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ﴾ للدِّلالة على كلِّ عوضٍ بحسب ظنِّهم؛ فيدخل تحته جملةُ أمور، منها الجعلُ والعطاءُ والمال[1]، وفي تنكيره دلالةٌ على تقليلهِ، فإنَّه ﷺ لم يسألهم أجرًا مِن ذلك، ولو كان قليلًا حقيرًا.

الإيماءُ إلى طلبِ الأجرِ مِنَ الله تعالى وحدَهُ

ويجوزُ أن يكونَ تنكيرُ الأجر في الآية دالًّا على التَّعظيم والتَّكثير، فإنَّه هنا يُعلي الأجرَ؛ إذْ لا يأخذ الأجرَ مِن محدود القدرةِ والعطاء، بل يطلبه ممَّن لا حدَّ لقدرته في نيل الأجرِ، وهو الكريمُ سبحانه؛ إذ الدَّعوةُ إلى اللّه تعالى عملٌ جليلٌ، فَلا يُجازى عليه إلّا مِن اللّه تعالى[2].

معنى (الفاء) في: ﴿فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾:

اختلافُ معاني الفاء بحسب دلالة (ما)

إذا كانت ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ﴾ شرطيَّةً؛ فإنَّ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ واقعةٌ في جواب الشَّرط، على تقدير: أيُّ شيءٍ سألتُكُم إيّاهُ من مالٍ أو جُعْل؛ فخُذوه، فإنَّه مِلكٌ لكم[3].

وإذا كانت ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ﴾ نافيةً؛ فإنَّ الفاءَ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ تفريعيَّة[4]، وتفريعُها واقعٌ على نفي الأجر المزعوم[5]، يعني: لم أسألْكُم أجرًا، وإن وُجِد؛ فهو لكم.

نكتةُ بناءِ التركيب ﴿فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾:

في تقديم الضَّميرِ على الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ اهتمامٌ بالمقدَّم؛ إذ السّياقُ في نفي الأجرِ، فكان تقديمُهُ أَهَمَّ؛ ليكون أوقَعَ في نفيِ ما قد يتوهَّمونَهُ.

---

(1) مكي القيسي، الهداية: 9/ 5938.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 12/ 7107.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 591.
(4) فاء تربط جملتين؛ أولاهما علَّة لثانيهما، وما بعدها فرع عنه، ينظر: الصبان، حاشية على الأشموني: 3/ 142.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 236.

معنى (اللّام) في ﴿لَكُمۡۖ﴾:

الأجرُ مردودٌ عليهم على فرضِ حصولِه

من معاني اللّام في كلام العرب دلالتُها على المِلك[1]، وهو كذلك في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾، أي: ما سألتكم مِن أجرٍ؛ فهو لصالحكم، وهو مردودٌ عليكم، وفي اللّام تأكيدٌ لردِّ الأجرِ عليهم لو كان حاصلًا، كما يُقال: هذا المالُ لكم، أي: إنَّه ملكٌ لكم، تستطيعون التَّصرُّف فيه.

بلاغةُ الكنايةِ في نفي طلب الأجر:

كنايةٌ تهكُّميَّة عن عدم انتفاعِه منْهُم بدعوتهم إلى الحقِّ

زعم أهلُ الباطلِ أنَّه يُريدُ أجرًا على ما جاء به مِن النُّبوَّة والإرشاد، فقال لهم: هو ذا الأجرِ، خذوهُ، فهو لَكم إن كان ظنُّكم أنّي منتفعٌ به نظيرُ ما دعوتكم إليه، وهو أسلوبٌ مبتكرٌ في الكناية الدّالَّة على التَّهكُّم في أنَّه لم ينتفعْ بدعوتِه لهم، فيُفرض الانتفاعُ، كأنَّه واقعٌ مشاهد، ثمَّ يؤول الأمرُ إلى الانكفافِ عنه وتركه؛ ليُفْضيَ به إلى البراءة منه والتَّعرُّضِ له[2].

علَّةُ فصل: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾:

رغبَةُ النَّبيِّ ﷺ فيما عندَ الله تَعالى

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِه استئنافًا بيانيًّا، فإنَّ قيامَ النَّبيِّ ﷺ بأعباء الرِّسالة والدَّعوة - ثمَّ هو لا يطلبُ أجرًا على ذلكَ - يبعث هذا في نفسِ المتلقّي سؤالًا؛ فما الحامِلُ له على تحمُّل مشاقِّ الدَّعوة؟ فجاء الجوابُ بأنَّ ذلك امتثالٌ لأمر الله تعالى، وطلبٌ للأجر منه سُبحانَهُ[3].

معنى ﴿إِنۡ﴾ في الآية:

براءتُه ﷺ من طلبِ الأجرِ الدُّنيويِّ على الدَّعوةِ

﴿إِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ دالٌّ على النَّفي، أي: "ما سألتكم من أجرٍ على الرِّسالةِ التي أؤدّيها إليكم، والقرآنُ

---

(1) المبرد، المقتضب: 1/ 39.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 236.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 237.

الذي أتيتُكم به من عند اللّه؛ فهو لكم، وتأويله: أنّي إنَّما أنذرُكم، وأبلِّغكم الرِّسالة، ولست أجرُّ إلى نفسي عرَضًا من أعراض الدُّنيا"[1].

تجرُّدُ القَصْدِ من إرادة غيرِ وجهِ الله تعالى

معنى ﴿إِلَّا﴾ وبلاغةُ القصرِ في الآية:

﴿إِلَّا﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستثناء، فتكون مع ﴿إِنْ﴾ النّافية دالَّةً على القصْرِ والحصْرِ، أي: لا أطلبُ أجرًا مِن أحدٍ كائنًا مَن كان إلّا مِنَ اللّه ﷻ، وجاء القصرُ بأقوى طرُقِ القصر، وهو النَّفيُ والاستثناءُ؛ تأكيدًا لهذا المعنى، وردًّا على أهل الشِّرْكِ الذين قد يتوهَّمونَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ طَمِعَ - وحاشاهُ - فيما أيدي النّاسِ.

صِدْقُ وعدِ الله تعالى في إثابةِ نبيّه ﷺ

معنى ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

﴿عَلَى﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاستعلاء[2]، والاستعلاءُ ضربانِ: مادّيٌّ ومعنويٌّ، والمرادُ به هنا الاستعلاء المعنويُّ، فإنَّ أجره على اللّه تعالى يقتضي أنَّه حقٌّ ثابتٌ، وذلك بالنَّظر إلى وعد اللّه تعالى الصّادق[3].

عظمةُ أجرِ الدّاعي إلى اللهِ سُبْحانَه

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾:

لمّا قُصِرَ استيفاءُ أجرِه على اللّه ﷻ وحدَهُ؛ عُبِّرَ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾، فقال تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ للإيذان بكمال عظمتِه، وتمام جبروتِه ﷻ[4]؛ لما يتضمَّنُهُ هذا الاسمُ من صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

الإشهادُ على صِدقِهِ في عَدمِ طلبِهِ الأجرَ

معنى (الواو) في: ﴿وَهُوَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ حاليَّةٌ[5]، أي: والحال أنَّه تعالى "حفيظٌ مُهَيْمِن يعلم أنّي لا أطلبُ الأجر على نصيحتِكم ودعائِكم إليه إلّا منه، ولا أطمعُ منكم في شيءٍ"[6].

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 257.
(2) ابن السراج، الأصول في النحو: 3/ 176.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 237.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 532.
(5) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 624.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 591.

ويجوز أن تكونَ الواوُ في الجملة عاطفةً[1]، فإنَّ قولهُ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ معناه: وهو العالم بالأمورِ جميعِها بما أنا عليه مِن إرساله، وما أنتم عليه، وهو معطوفٌ على ما سبقها من قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، أي: إنَّما أطلبُ ثوابَ ذلك مِن عند اللّه[2].

بيانُ مرجعِ الضَّمير (هو):

التَّكامُلُ بينَ المعاني المُخْتَلِفَة

الضَّمير المنفصلُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ عائدٌ على القرآن الكريم الذي يُفهم مِنَ المقام، ويُستنبطُ مِنَ السّياق، وكذا ما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾، فكأنَّه حصرَ فائدة الكتابِ الكريم بهم لا به ﷺ، ويَكونُ مَعْنى الآيَةِ نظيرَ معنى قولِهِ تَعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ [ص: 86 - 87][3].

ويجوز أن يكونَ مرجعُ الضَّميرِ اللّهَ سُبحانَهُ؛ فيكون فيه توكيدُ شهادته تعالى على الأشياء جميعًا، فهو الشّاهدُ المطَّلع على كلِّ صغيرة وكبيرة، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال العباد.

وفي التَّعبير بالضَّمير المنفصل (هوَ) على الوجهينِ دلالةٌ على توكيدِ المعنى الذي سيقَ لَهُ[4].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ في: ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾:

عُـمـوم إحـاطـةِ اللهِ تَعالى

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ يدلُّ على استعلاء اللّه تعالى على كلِّ شيءٍ، وأنَّه فوق كلِّ شيء، ومحيطٌ به من جميع الجهاتِ، فهو العليمُ بكلِّ ما في السَّماوات والأرض، لا يخفى عليه شيءٌ مهما دَقَّ أَوْ صَغُر.

---

(1) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1897.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 291.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 236.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 90.

دلالةُ التَّعبيرِ بلَفْظِ ﴿كُلِّ﴾:

التَّنصيصُ على عمومِ الإحاطةِ الإلَهيَّة

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ للتَّنصيص على عُموم الإحاطةِ الإلهيَّة بجميع الأشياء، فاللّه تعالى هو الشّاهدُ المطَّلع على كلِّ صغيرةٍ وكبيرة، عالِمٌ بما يجري في السَّماوات والأرض، وما تُخفي الصُّدور سرًّا وعلنًا(1).

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

شمولُ الشَّهادة الإلـهيَّـة لكلِّ شيء

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبر ﴿شَهِيدٌ﴾؛ لإرادة الاهتمام بالمقدَّم، وهو التَّنبيهُ ابتداءً إلى عموم الأشياء، فهو سبحانه شاهدٌ على أعمال العباد وأقوالهم وأسرارِهم، وهو أيضًا شاهدٌ على الأحداث الكونيَّة كبيرها وصغيرها.

دلالةُ التَّعبير في الخبر ﴿شَهِيدٌ﴾:

استِشهادُ النَّبيِّ ﷺ ربَّـهُ تعالى على ما في نيَّتِهِ وقصدِهِ

ذُيِّلتِ الآيةُ الكريمة بلفظ الشَّهيد، لدلالتها على إحاطة اللّه تبارك وتعالى على البواطن والنّيّات، فيكون ذلك أنسبَ لقولِه سبحانه حكايةً لقول نبيِّه ﷺ: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ إذ إنَّ ذلك يقتضي أنَّه عليه الصلاة والسلام مخلِصٌ في عملِه، لا يُريد عرضًا مِن أعراض الدُّنيا على دعوتِه النّاس إلى الحقِّ، ولمّا كان الإخلاصُ أمرًا باطنًا لا يُطَّلَعُ عليه؛ أشهدَ عليه اللّهَ سُبحانَهُ المطَّلعَ على الأحوالِ كلِّها.

لطيفةُ صوغِ ﴿شَهِيدٌ﴾ على (فَعيل):

الشَّهيدُ أبلغُ من الشّاهِدِ

آثر النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ لفظ ﴿شَهِيدٌ﴾ على (شاهد) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ لأنَّ الشّاهد هو الرّائي للحادثة، فيشهدُ بما رآه وما سمعَهُ، وقد لا يعلم تفاصيلَ الحادثة وأسبابها وحيثيّاتِها، بخلاف الشَّهيد؛ فهو صيغةُ مبالغة على زِنَة

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 28/ 6.

(فَعيل)[1]، فالشَّهيد أكثرُ عِلمًا من الشّاهد؛ لعلمِهِ بتفاصيل الحادثةِ وخفاياها، وإحاطته بالمسألةِ إحاطةً كاملةً[2].

علَّةُ فصل الآية ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي﴾:

الـرَّدُّ عـلى إنكارهم صِدْقَ الرِّسالة

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا[3]؛ لأنَّهُ لمّا لم يبقَ شيءٌ يقدَحُ في شأنِ المُبَلِّغ؛ أورثَ ذلك سؤالًا في نفس المتلقّي: قَدْ بَرِئَت ساحَتُك، فمَن لنا بصحَّة ما تُخْبِرُ بِهِ؟ فقالَ: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ تأكيدًا لإنكارِهم أن يكونَ ما جاء به حقٌّ، ولذا أعاد القولَ ﴿قُلۡ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ كلَّ كلامٍ ما هو إلّا دليلٌ مستقلٌّ بالدِّلالة[4].

دلالةُ التَّعبيرِ في ﴿قُلۡ﴾:

تَكرارُ فعلِ القول للاهتمام بالمقُولِ

أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّهُ محمَّدًا ﷺ أن يُخبر قومَهُ بأنَّ ربَّه سبحانه هو الذي يرسل الحقَّ، وهو الوحيُ والقرآن، وفي هذا دلالةٌ على القوَّة والسُّلطان الإلهيِّ في إيصال رسالته، ولما كان هذا مِنَ الأهميَّة بمكانٍ؛ أعاد فعلَ القولِ أمرًا ﴿قُلۡ﴾ من باب الاهتمام بالمقولِ[5].

غرضُ التوكيد في: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ﴾:

إيـصـالُ الـلـه تـعـالى الـحـقَّ للعبادِ

﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ دالَّةٌ على توكيدِ الجملة الاسميَّةِ الخبريَّةِ بعدها، وغرضُ هذا التَّوكيدِ تحقيقُ خبرِ القذف[6] الدّالِّ على قوَّة الإصابة ودقَّتها، وكأنَّ الحقَّ سهمٌ من سِهام اللّهِ سبحانَهُ ينطلق نحو هدفِهِ بدقَّة متناهية، فيُقذف في قلوب عبادِه؛ ليخرجَهم من ظلمات الشَّكِّ إلى نور اليقين.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 569.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 1/ 140.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 241.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 532.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 237.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 237.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الرَّبِّ وإضافته في ﴿رَبِّي﴾:

تنوُّعُ إحسانِ اللهِ تعالى لنَبيِّه ﷺ

جاء التَّعبيرُ باسم اللهِ تعالى (الرَّبِّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ وأضافه إلى ضمير الرَّسول ﷺ؛ للإيماءِ إلى إحسانه له بأنواع الإحسان والمِنَن، وفي تبييض وجههِ عند الامتحان والمِحَن[1].

وفي ذلك أيضًا الإيذانُ بأنَّ الحقَّ مع الرَّسول ﷺ، وأنَّه مؤيَّد من ربِّه، والرَّبُّ ناصرهُ، فإنَّ المراد بالرُّبوبيَّة هنا ربوبيَّةٌ خاصَّة هي ربوبيَّة الولاء والاختصاص لا عمومها؛ إذ ربوبيَّتُه سبحانه تشمل النّاس جميعًا[2].

بلاغةُ الاستعارة في ﴿يَقْذِفُ﴾:

إلقاءُ الله تعالى الحقَّ على عباده

اسْتُعْمِل فعلُ القذف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّ الكافرين كان مِن أفعالهم أنَّهم يَرْمونَ بآياتهِ وحِكَمِه[3]، فالاستعارةُ هنا تصريحيَّةٌ تحقيقيَّة مِن استعمالِ القذفِ للأجسام، ثمَّ استُعيرَ لإيراد الحقِّ[4]؛ للإشارةِ إلى إصابةِ الهدفِ، وكأنَّ الحقَّ سهمٌ من سهام اللهِ ينطلق مصيبًا هدفَهُ بدقَّةٍ متناهية، فالقذفُ في اللُّغةِ يشير إلى رمي الشَّيءِ بقوَّةٍ ودقَّة، كما في رمي السَّهم، وفي القرآن الكريم يُستعار هذا المعنى؛ ليدلَّ على إلقاء اللهِ الحقَّ على عباده، كإلقائه الوحيَ على أنبيائه، كما يَرِدُ في مواضِعَ؛ للدِّلالة على رمي الباطل وتفنيدِه[5].

ويجوز أن يكونَ معنى القذفِ بالحقِّ هنا: أنَّه سبحانه يرسلُ الوحيَ على مَن يشاء من عبادهِ، كالوارد في قوله تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: 15][6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 532.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 237.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 425.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 581.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 591.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 238.

الوعدُ بإظهارِ الإسلام وإفشائِه في الأقطارِ

ويجوز أن يكونَ المعنى: "يرمي بالحقِّ إلى أقطار الآفاقِ، على أنَّ ذلك مجازٌ عن إشاعتِه، فيكونُ الكلامُ وعدًا بإظهار الإسلام وإفشائهِ"[1].

دِلالةُ الفعل المضارعِ ﴿يَقۡذِفُ﴾:

الحقُّ دائمُ الظُّهور لا انقطاعَ له

جاء التَّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ إخبارًا مِنَ اللّٰه تعالى بأنَّ الحقَّ يتجَدَّدُ مجيئُه، ولا ينقطِعُ؛ إذ إنَّ اللّٰهَ سُبحانَهُ لا يُخْلي زمانًا من قيام الحجَّةِ على العبادِ.

وتتجلّى عظمةُ اللّٰه تعالى وقدرته المطلقةُ على إشاعة الحقِّ في كلِّ زمان ومكان، وهذا التَّعبير القرآنيُّ يبعث في النُّفوس الطُّمأنينةَ واليقينَ بأنَّ الحقَّ سيبقى دائمًا هو المنتصر، وأنَّ الظُّلمَ والباطل مهما طال أمَدُهُما، فإنَّهما زائلان.

معنى (الباء) في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تنوُّعُ الدِّلالاتِ لاختلاف معاني الحُروف

الباءُ في قول اللّٰه تعالى: ﴿يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ تدلُّ على المصاحبة[2]، وآية ذلك أنَّ فعلَ القذف يتعدّى بنفسِه[3]، ففِعلُ القذفِ مصحوبٌ بالحقِّ، أي: إنَّ اللّٰه تعالى يقذفُ مع الحقِّ مصحوبًا بالبراهين والمعجزات التي تُثْبِت صدقَهُ.

ويجوز أن تكون الباء للسَّببيَّة[4]؛ لأنَّ فِعل القذف يتعدّى بنفسِه، فالحقُّ هو السَّبب في فعل القذفِ، أي: إنَّه سبحانه يقذف بسببِ الحقِّ[5]، أي: الوحي والإلهام في قلوبِ العبادِ، وذلك بسببِ كونِه الحقَّ المطلقَ.

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للعهد العلميِّ، والمرادُ بالحقِّ:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 329.
(2) الجزولي، المقدمة الجزولية في النحو، ص: 127.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 563.
(4) العكبري، اللباب في علل البناء والإعراب: 1/ 361.
(5) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 16/ 85.

الوحيُ وآياتُ القرآن الكريم[1]، فهو كلامُ اللّهِ الحقُّ الذي أوحاهُ اللّه إلى نبيِّه ﷺ، وكلُّ ما جاء به هو الحقُّ.

نكتةُ حذفِ متعلّقِ الفعل ﴿يَقۡذِفُ﴾:

أثَرُ الحقِّ إلى قلوبِ المُستعِدّين لاستقبالِه

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ حُذِف متعلِّقُ فعل القَذْفِ؛ لأنَّ معنى: يقذفُ بالحقِّ في قلوبِ المؤمنينَ، أو في نفوس المحقّين[2]، بما يُضفي على الجملة طابعًا مِنَ العموم والشُّمول؛ لأنَّ حذف المتعلِّق مؤذِنٌ بذلك، فيصل إلى كلِّ قلبٍ مستعدٍّ لاستقباله.

نكتةُ تقديمِ ﴿رَبِّي﴾ على ﴿يَقۡذِفُ﴾:

نُصْرَةُ اللهِ تَعالى لنبيِّه ﷺ

قُدِّم المسندُ إليه ﴿رَبِّي﴾ على الخبر الفعليِّ ﴿يَقۡذِفُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾؛ للإشارة إلى الاختصاصِ دون تقوية الجملةِ؛ لأنَّه حاصلٌ بالتَّوكيد، وهو اختصاصٌ باعتبار المعنى الكائن في القذفِ، وهو أنَّه ربٌّ ناصرٌ لرسوله دونكم، فما نفعَ اعتزازُكم واغترارُكم بأموالكم وأولادِكم وقوَّتكم[3].

غرضُ الخبرِ في الآية:

وعيدُ أهلِ الكُفران ووعدُ أهلِ الإيمانِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، والمرادُ بالخبَرِ إعلامُ المخاطَبِ بما تضمَّنته الجملةُ، مع معنًى آخرَ مجازيٍّ، وهوَ التَّعريضُ بالتَّهديد والتَّخويف مِن أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ سيُخزي الكافرينَ، ووعدٌ وتبشيرٌ بنصرةِ المؤمنينَ[4].

دلالةُ الإيجازِ في الآية:

إلقاءُ الله تعالى الوحيَ إلى الرُّسل بالحقِّ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ إيجازٌ بالحذف، وذلك أنَّ المرادَ بالحقِّ: ما يقابِلُ الباطل، والباء دالَّةٌ على الملابسة، فيكون

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 425.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 216.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 237 - 238.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 238.

المقذوفُ على ذلك محذوفًا، على معنى أنَّه تعالى يُلقي ما يُلقي إلى أنبيائهِ ﷺ مِنَ الوحي بالحقِّ لا بالباطل[1].

موقعُ قوله: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾:

تنوُّعُ الدّلالات باختلافِ أوجُهِ الإعرابِ

قوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ واقعٌ موقعَ الرَّفع على أنَّه صفةٌ لـ محلِّ ﴿إِنَّ رَبِّي﴾، فإنَّ التَّقدير: قل ربّي علّام الغيوبِ يقذف بالحقِّ[2]، ويجوز أن يكون مرفوعًا على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو علّام الغيوب[3].

دلالةُ التَّعبير في ﴿عَلَّٰمُ﴾:

بيانُ سعَةِ علمِ اللهِ تعالى

استُعمِلَ الوصفُ ﴿عَلَّٰمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؛ لما فيه مِنَ الإشارة إلى علم اللّهِ تعالى بالنّيّات والضَّمائرِ، ومن كان هذا حالَهُ، لا يُرسِلُ إليكم رسولًا بالباطل.

والتَّعبيرُ بالعلّام بصيغة (فعّال)، وهي للمبالغة، والمبالغةُ هنا إمّا باعتبار كثرةِ العلم؛ فإنَّ علِمَ اللّه تعالى شاملٌ لكلِّ شيء، لا يخفى عليه شيءٌ ألبتَّةَ، أو باعتبار الكيفيَّة، فاللّهُ تعالى في أعلى درجاتِ العلم[4]، وفي صيغة المبالغةِ دلالةٌ على أنَّه سبحانَهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالته[5].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ جمعًا:

إحاطَةُ عِلمِ اللهِ تَعالى بكلِّ غيبٍ

في التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ - وهو ما خفيَ، واستتر - إيماءٌ إلى أنَّه سبحانه يعلم الشَّهادةَ أيضًا، فيكون في الآية اكتفاءٌ، والتَّقدير: علّامُ الغيوب والشَّهادة.

وفي ذِكر لفظ ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ جمعًا إيماءٌ إلى أنَّه عالمٌ بكلِّ ما يستتر

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 329.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 257.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 238.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 323.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 238.

في قلوب العباد، وما يختفي في ضمائرِهم، فكم مِن سرٍّ مدفون في أعماق النُّفوس إلّا وهو معلومٌ لدى العليم الخبير؛ لأنَّه يعلمُ ما كان وما يكون، وما سيكون، وما لم يكُنْ لو كان كيف سيكونُ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السُّؤال والطَّلب:

السُّؤال يكون بِالقَوْل، والطَّلبُ يكون بالسَّعْي والابتغاءِ

السُّؤال: "استدعاءُ معرفةٍ، أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يؤدّي إلى المال"[1]، ويكونُ السُّؤالُ بالقول والكلامِ، بخلاف الطَّلب؛ فيكون بالسَّعي وغيره[2].

وعُبِّر بالسُّؤال في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾؛ لأنَّ المعنى يكونُ على هذا: إنَّه ما طلبَ منهم شيئًا، ولو كان أمرًا لا سعيَ فيه ولا ابتغاء، فإنَّه لم يطلب منهم شيئًا، ولو كان كلامًا، بخلاف ما لو عُبِّرَ بالطَّلب، فإنَّهم قَد يستَعْظِمون ذلك؛ لِما في الطَّلبِ مِن معنى: "الفحصِ عن وجودِ الشَّيء عينًا كان أو معنًى"[3].

الأجر والثَّمن:

الثَّمنُ عِوَضٌ عَنِ المَبيعِ، والأصلُ في الأجرِ أن يكونَ قبلَ العَملِ

الأصلُ في معنى الثَّمن أن يكونَ عوضًا ممّا يُباع ويُشترى[4]، والثَّمن ليس محدَّدًا بقيمة معيَّنةٍ كثيرة أو قليلة، وإنَّما بحسب التَّراضي بين الطَّرفين، فقد يكون وفقَ المُثْمَن أو أزيدَ منه أو أنقص[5]، والأصلُ في الأجر أن يُحصَّلَ قبلَ مباشرة العمَلِ المأجور عليه، ولذا يقالُ: لا أعملُ حتّى آخذَ أجري[6]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ واردٌ في موضعِه على الغاية مِنَ الدِّقَّة

(1) الراغب، المفردات: (سأل).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 286.
(3) الراغب، المفردات: (طلب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمن).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 441.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 17.

والتَّناسُب، فإنَّه لم يسألهم أجرَ تبليغ الدَّعوة والرِّسالة قبل أن يدعوهم، فيمنعهم ثقلُ ذلك وغرمُه مِنَ الإجابة[1].

القذف والرَّمي:

القَـذْفُ أخـصُّ مِنَ الرَّمي

القذفُ والرَّمي كلمتان تحملان معانيَ متقاربةً، إلّا أنَّهما تختلفان في الاستعمالِ القرآنيِّ، فالرَّميُ: هو إطلاقُ الشَّيءِ عمومًا بفحواهُ الحسّيِّ كالسَّهم والحجر، أو المعنويِّ كنايةً عن الشَّتم[2]، أمّا القذفُ؛ فهو نوعٌ خاصٌّ مِنَ الرَّمي، وهو يقتضي البُعد[3]، والبُعد قرينُ الشِّدَّة وقوَّة الإصابة؛ لكونه نازلًا من عَلٍ، ومنه الواردُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾، فاللّهُ سبحانه "يرمي بالحقِّ بالوحي يُنزلُهُ من السَّماء"[4]، ويرسل الحقَّ مِنَ الدّين والأحكام والبيِّنات إلى النّاس بقوَّة وإيضاح تامٍّ وإصابةٍ محقَّقةٍ.

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 460.

(2) الراغب، المفردات: (رمى).

(3) الراغب، المفردات: (قذف).

(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 22/ 130.

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ٤٩ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠﴾ [سبأ: 49 - 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الحقُّ حُطَمَةُ الباطل

لمّا ذكر الله أنّه يَقذفُ بالحقّ، وكان ذلك بصيغةِ الاستقبال، ذكرَ هنا أنّ ذلك الحقَّ قد جاء، وهو القرآنُ والوحيُ، وبطلَ ما سواه منَ الأديان، فلم يبقَ لغير الإسلام ثباتٌ، لا في بدءٍ ولا في عاقبةٍ، فلا يُخافُ على الإسلام ما يُبطِله[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُبۡدِئُ﴾ (بدأ) أصلٌ يدلُّ على افتتاح الشّيء، والبدءُ والابتداءُ: تقديمُ الشّيء على غيره نوعًا منَ التّقديم، ومَبْدَأُ الشّيء: هو الذي منه يتركّبُ، أو منه يكون، فالحروف مبدأُ الكلام، والنّواة مبدأُ النخل[2]، فالمعنى المحوريُّ للبدء: هو ظهور الشّيء أو تكوّنُه لأوّل مرّة، ومنَ الظهور، أوِ التّكوّن لأوّل مرّة تولّدَ معنيان: **الأوّل**: إنشاء الشّيء، أي: إيجادُه لأوّل مرّة ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: 34]، **والآخر**: هو كونُ الشّيء أوّلَ فعْل الفاعل في أمْرٍ ما كقوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: 76]، أو سبقُه آخرَ في أمر كقوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ [التوبة: 13][3].

2) ﴿يُعِيدُ﴾ (عود) أصلان صحيحان، يدلُّ أحدُهما على تثنيّة في الأمر، وعودةٍ بعد بدء، أي: الرّجوعُ إلى الشّيء بعد الانصراف

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 216، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 563.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بدأ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بدأ).

عنه إمّا انصرافًا بالذات، أو بالقول، والعزيمةِ[1]، والآخَرُ جِنْسٌ مِنَ الخَشَبِ، والمعنَى المحوريُّ له: استمرارُ الشّيء امتدادًا أو تكرّرًا أو تجدّدًا، بمعنى رجوعِ الذّات نفسِها إلى المكان ولو بحال مختلفةٍ، من ذلك: التّثنية، ومعادُ الرّجل: بلدُه؛ لأنَّه يتصرّف ثمّ يعود إليه[2]، والمرادُ هنا بـ ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾: أي: زال الباطِلُ وهلَك؛ فلم تَبْقَ منه بقيَّةٌ يُقبِلُ بها أو يُدبِرُ، أو يُبدِئُ أو يُعيدُ[3]، وقالوا: ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ هنا إبليسُ (وَما يُبْدِئُ وما يُعيدُ)، أي: لا يخلقُ ولا يبعثُ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحــقُّ ظـاهـرٌ لـلـعـيـان فمن شاء اتّبعَه وآمن به

أكّد اللّه سبحانه ما سلفَ في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨﴾ [سبأ: 48] فأمر رسولَه ﷺ أن يُخبر قومَه بأنّ الإسلام سيَعلو على سائر الأديان، وأنّ غيره سيضمحلُّ ويزول، والمعنى: قل أيُّها الرّسولُ لهؤلاء الكافرين: لقد جاء الحقّ المتمثّلُ في دين الإسلام الذي أرسلني اللّهُ به إليكم، وما دام الإسلام قد جاء، فإنّ الباطل المتمثّلَ في الكفر الذي أنتم عليه قد آن له أن يذهب وأن يزول، فلم تبقَ منه بقيّةٌ تُبْدي شيئًا أو تعيدُه، تمامًا، كما يَهلك الحيّ، فإنّه إذا هلك لم يبقَ له إبداءٌ، أي: فِعل أمرٍ ابتداء، ولا إعادةٌ، أي: فِعله ثانيًا؛ فقدِ اندثر وأُهيل عليه التّرابُ إلى غير رَجعةٍ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآيةِ عمّا قبْلَها:

الــوَحـــيُ هـو مُستودَعُ الحقِّ

فُصلت جملةُ ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ عمّا قبْلها؛ لِما بينهما من كمال

(1) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (عود).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بدأ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدأ - عود)، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 503، والكفوي، الكليات، ص: 30.

(4) الراغب، المفردات: (بدأ).

(5) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 98، وطنطاوي، الوسيط: 11/ 309.

الاتّصال، فهي توكيدٌ لِما قبلها، والتّأكيدُ من دواعي الفصل[1]، فإنّ الحقَّ قد جاء بنزول القرآن ودعوةِ الإسلام[2]، وزهَقِ الباطل.

دلالةُ تَكرارِ الأمرِ بالقول:

إذا تكرّرَ الأمرُ تقرّرَ وثبتَ

تَكرارُ الأمر بالقول في جملة: ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ بعد قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ [سبأ: 48]؛ لزيادةِ الاهتمام بالمَقول؛ فإنَّ أصل الأَمر بالقول في مقام التَّصدّي للتَّبليغ دالٌّ على الاهتمام، وإعادةَ ذلك الأَمر زيادةٌ في الاهتمام، والتماسِ العنايةِ لمضمونه عن طريق تنبيهِ السّامع عليه بتحفيزِ الابتداءِ بفعل القول[3]، وإيثارُ لفظ القول يناسبُ التّنبيهَ؛ لِما فيه من دلالة الجهرِ بالكلام، والتّصريحِ بالمقال.

سرُّ إيثارِ لفظِ المجيءِ دونَ الإتيانِ:

يُستعملُ المجيءُ في كلّ حاضرٍ بقصدِ اليقين والتّحقّقِ وإظهارِ العزمِ في الفعلِ

إسنادُ المجيءِ إلى الحقِّ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾، والتَّعبيرُ به دونَ غيره؛ لتحقيق حصولِ الحقّ ومُثولِه، وتأكيدِ حضورِه ووصولِه، ولو عبّرَ بالإتيان لكان أخفَّ في الدّلالة، وأقلَّ في الثّبوت؛ لأنّ الإتيان قد يكون باعتبار القصدِ وإن لم يكن حصولٌ، أمّا المجيء فيقال باعتبار الحصول[4].

دلالةُ التّعريفِ بـ (أل) في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

استجمعَ القرآنُ خصائصَ الحقّ وسِماتِه

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ من قوله: ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ هي الجنسيّةُ الدّالّةُ على الحقيقة والماهيَّة، وعلى الكمال في خصائصِ أوصافِ الجنس، فهي تتعلّق باستيفاء الخصائصِ، لا باستيفاءِ الأعداد والأفرادِ، أي: الحقّ الكامل، وعبّر بالحَقّيّة؛ ليدلَّ على ثابتِ الوجود[5]، الذي لا تَعتريه الأغيارُ، ولا تطرأُ عليه الاحتمالاتُ المتضادّةُ، ولا يَخْلَقُ

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 184.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 239.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 238.
(4) الراغب، المفردات: (جاء).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 216، والبقاعي، نظم الدرر: 15/ 533.

من طول القِدَم، فهو صالحٌ على الاستمرار، وعلى هذا فاللفظُ عامّ أريد به الخاصُّ، وهو الإسلامُ أوِ القرآن، فإنْ قيل: كيف تكون (أل) جنسيّةً، ثمّ يُراد بمدخولها خاصٌّ؟ فيُقال: هذا للمبالغة في المدح، كما يُقال: جاء عبدُ اللّه هو الإنسان، أو هو الرّجلُ، أي: هو الإنسان على الحقيقة، أي: تجسّد فيه جنسُ الإنسان وجنس الرُّجولة، فكذلك هنا: لك أن تجعل الكلام على تقدير موصوفٍ، أي: جاء القرآنُ الحقّ الذي استجمع خصائصَ جِنْس الحقّ وسِماتِه، كأنّه قيل: القرآن الخالصُ الأحقّيّة، فلا خالِصَ في باب الحقيقة إلّا هو[1].

أو هو من تسميّةِ الخاصّ بالعام مدحًا له، على طريقة المجاز المرسَل، وتكون (أل) للعهد، فأطلق العامَّ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، وأراد به الخاصَّ المعهودَ (القرآن)، أوِ استعارةٌ تبعيّةٌ، فشبّه القرآن أوِ الإسلام في ثبوته وظهورِه بالموجود الثّابتِ الذي لا يقبل الإزالةَ والاضمحلال[2].

ويصحّ أن تكون (أل) للعهد الذِّكْري، بالنّظر إلى سبْق اللّفظ في الذِّكْر في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨﴾ [سبأ: 48].

دلالةُ العطفِ في ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ﴾:

الحقُّ فضّاحٌ للباطل كشّافٌ لِسَوْءَتِه

جملةُ: ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ للجمع بين المؤثِّر والأثر، والملزوم واللّازم؛ فإنّ مجيء الحقّ مؤثِّرٌ في إزالة الباطل، أو مُبْطِلٌ لفاعليّتِه بعد أنْ كان فاتِنًا، فقوله: ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ هو تعقيبٌ بأثرِ مجيء الحقّ، وهو أنْ يصبح الباطلُ بلا تأثير ولا فاعليّةٍ[3].

نكتةُ النّفيِ بـ (ما) في ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾:

حالُ الباطل الدّائمةُ عدمُ التّأثيرِ فلا يبطلُ ولا يُعيدُ

(ما) في قوله: ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ للنّفي، وتفيدُ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 461.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 540.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 239.

الاستمرارَ، أي: تلك حالُ الباطلِ المستمرّةُ: أنّه لا يبطلُ ولا يعيدُ، ويصحُّ أن تكون استفهاميّةً على إرادة النّفي، فهو استفهامٌ في معنى الإنكار، أو في معنى التّقرير على النّفي والإنكار، ويكون الاستفهامُ مجازًا مرسلًا[1]، كأنّه قيل: جاء الحق فأيُّ شيءٍ بقي للباطل حتّى يعيده ويُبدِئه؟! أي: فلم يبقَ منه شيء، كقوله: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ [الحاقة: 8]، أي: لا ترى[2]، ووجْهُ النّفي أظهر؛ لكونه أوجزَ وأقصرَ، وأمّا وجهُ الاستفهام ففيه تطويلٌ لا حاجة إليه؛ لأنّ مآلَه إلى النّفي[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿يُبۡدِئُ﴾ و﴿يُعِيدُ﴾:

الحقُّ بالنّسبة للباطل كالتّراب المُـهـال على جُثمان الميّت

في قوله: ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، شبّه الباطلَ في عدم نفعِه وعدمِ تأثيره بالحيّ الهالكِ الذي ناله العجزُ التّامُّ، فلا قدرةَ له على ابتداء شيءٍ أو فعلٍ، فضلًا عن إعادته أو تكريرِه[4]، قال ابنُ عاشور: "وإسنادُ الإبداء والإعادة إلى الباطل مجازٌ عقليٌّ أوِ استعارةٌ"[5].

بلاغةُ المطابَقةِ بين ﴿يُبۡدِئُ﴾، ﴿يُعِيدُ﴾:

الباطِلُ لا رتبةَ له لا في الأولى ولا في الآخرة

بين قوله: ﴿يُبۡدِئُ﴾ وقولِه: ﴿يُعِيدُ﴾ طباقُ إيجابٍ صرّح فيه بإظهار الضّدّين، وهو الابتداءُ والإعادة، فالابتداءُ في معنى التّأسيس، والإعادةُ هي تَكرارُ التّأسيس مرّةً أخرى، وهما ضدّان باعتبار أنّ الابتداء هو الأوّلُ، والإعادةَ هي الآخرة، والأولى والآخرة ضدّان، واجتماعُهما في السّياق يرسّخُ شدّةَ العجز، وانعدامَ التّأثير بانعدام القدرة على القيام بالفعلَين.

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 202.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 313.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 541.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 591.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 239.

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾:

الباطلُ لا إنعاشَ له ولو توهّمَ المبطِلون حياتَه

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ كنايةٌ عن هلاك الباطل واضمحلالِه وزهوقِه؛ فإنّ فعلَ الأمر ابتداءً وإعادةً تلزمُ عنه القدرةُ والفاعليّةُ والحياة، ونفيُ ذلك يلزمُ عنه الهلاكُ والخمود وزوالُ الفاعليّة، وهذه الكناية حاصلةٌ من معنى الاستعارةِ السّابقةِ(1).

نكتةُ حذفِ معمولِ: ﴿يُبۡدِئُ﴾ و﴿يُعِيدُ﴾:

الباطلُ عاجِزٌ والحقُّ ناجِزٌ

حُذفَ معمولُ ﴿يُبۡدِئُ﴾ و﴿يُعِيدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ لأنّ المراد نفيُ إيقاع الفِعلين، فالفعلُ غيرُ واقعٍ أصلًا، فلا يتعيّنُ له معمولٌ حينئذ، أو أنَّ المراد التَّعميمُ، أي: لا يبدئُ الباطلُ ولا يعيد شيئًا، فيكونُ المعمول مقدَّرًا؛ لكنّه حُذِفَ للمبالغةِ في تحقيق نفْيِ العامل(2).

علّةُ تَكرار ﴿وَمَا﴾ في: ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾:

الباطلُ زائلٌ من جميع الوجوه، والحقُّ ثابتٌ من كلّ وجْه

لم يقلْ في السّياق الكريم: (وما يبدئ الباطل ويعيد)، بإدخال الإعادةِ في حيّز النّفي من غير تَكرارٍ لأداة النّفي، ولكنْ كرّر الأداةَ، فقال: ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾؛ للتّنبيه على حصول النّفي استقلالًا في كلٍّ، وهذا آكَدُ في تحقيق زوالِ الباطل من جميع الوجوه.

علّةُ فصلِ جملةِ: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ﴾ عمّا قبلها:

إذا وفّيت البلاغَ فاعتِزالُك لا بأس فيه عليك

جملةُ: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ استئنافيّةٌ مؤسِّسةٌ لصفحةٍ جديدة من صفحات الحِجاج، ومُغايرةِ الحوار؛ لانتقالها من تقرير الحقّ واعتناقِه، ودحضِ الباطل وإزهاقِه، إلى تنزيل الكلامِ على شخصه الشّريفِ، تاركًا جدالَهم، ومُلتفتًا عنهم إلى الإقبال على حاله وشأنه، ولا يخفَى ما في ذلك من

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 541.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 202.

العناية بالنّتائج والخُلوصِ إلى المقاصد، وعدمِ التّعلّق بما للنّاس من أحوالٍ ومقامٍ[1].

غرضُ الأمرِ بالقولِ في ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ﴾:

الرّسولُ أمينٌ على الوحي لفظًا ومعنىً فيؤدّيه كما يتلقّاه

تكرّر الأمرُ بالقول في جملة: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ﴾ للاهتمام بالمقول، والتّنبيهِ على قصد استقلالِ كلّ مقولٍ في مضمونه؛ ليرعى السّامعُ كلَّ جملةٍ بدرجةٍ منَ العناية لا تتفاوتُ في نظيراتها، والغرضُ منَ التّصدير بفعل القول هنا: استعطافُ المعاندين وتأليفُ قلوبهم؛ لحُسن الإصغاءِ بما في ﴿قُلۡ﴾ منَ الإيحاء إلى أنّ ما بعده مُبلَّغٌ عن جهةٍ أعلى منَ الرّسول، والرّسولُ ناقلٌ؛ ولذا فهو خطابُ مصلحةٍ لهم يوقِفهم على تحذيرٍ يُرهَب، أو نفعٍ يُرغب، أو تقريرٍ وتأصيلٍ يُخالف معهوداتِهم في الاعتقاد، ويكشفُ لهم ما لم يكونوا على خُبْرٍ به من قبلُ، فيستنيروا به ويعلموا أنّه الحقّ الذي ينبغي اتّباعُه والاستمساك به[2].

دلالةُ إيثارِ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

الرُّسلُ معصومةٌ فلا تَضلُّ أو تزيغُ

أوثرت ﴿إِن﴾ الشّرطيّةُ دون (إذا) في قوله: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ﴾؛ لقصد إخراجِ الكلام على الافتراضِ تنزّلًا في الحِجاج مع المُعاند، ومعاذَ اللّه أن يقال: (إذا ضللت)؛ لعصمة الرّسول ﷺ عنِ الضّلال جملةً وتفصيلًا[3].

معنَى الفاءِ في ﴿فَإِنَّمَآ﴾:

حرصُ الرّسولِ على هدايةِ المعاندين

الفاءُ في جملة: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ﴾ رابطةٌ لجواب الشّرط، لها معنى التّفريع والتّسبيب، أي: تسبّب عنِ افتراض وقوعِ الشّرط إضلالي على نفسي، أي: تفريعُ الجواب على الشّرط، واقترانُها بالجواب هنا جوازًا؛ لصلاحيّة وقع الجواب شرطًا[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 217، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 239.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 534.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 534.
(4) صافي، الجدول: 11/ 242، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 106.

التّجرّدُ في إثبات الحقّ من دواعي قَبولِه والإنصاتِ له

وجهُ التّعبيرِ بـ (إنّما):

معنى (إنّما) إثباتٌ لِما يُذكرُ بعدها، ونفيٌ لِما سواه، فهي تفيد إثباتَ الحكم لمدخولها، ونفيَه عمّا عداه[1]، ولذا فهي تفيد معنى القصر، أي: لا يضلُّ إلّا على نفسه، وأوثر القصرُ بـ(إنّما) على القصر بالنّفي والاستثناء؛ لأنّ القصر بـ(إنّما) يكون لِما هو ظاهرٌ ممّا لا ينكره المخاطَب، أو ما نزِّل هذه المنزلةَ نحو (إنّما هو أخوك)، ويحسنُ وقوعُها في التّعريض كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد: 19]، وكونُ جريرةِ الأعمال راجعةً على النّفْس دون غيرها، فهذا ممّا لا ينكرُه المخاطَب، فناسبَ التّعبيرُ بـ(إنّما)، وأمّا القصرُ بالنّفي والاستثناء فيكون لِما ينكرُه المخاطبُ أو يرتابُ فيه، أو ما ينزَّل تلك المنزلةَ[2].

الضّلالاتُ أحمالٌ مُستكرَهةٌ

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾:

تعديةُ الضّلال بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ فيه استعارةٌ مكنيّةٌ؛ إذ شبّه الضّلالَ بحِمْلٍ مُستثقَلٍ كائنٍ عليه، فعدّاه بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ الشّائع استعمالُه في معاني الإكراه على الأشياء غيرِ الملائمة عكسَ اللّام، وذِكْرُ حرف الاستعلاء تخييلٌ للمكنيّة، ولا يُقال: ضمّنَ ﴿أَضِلُّ﴾ معنى (أجْني)؛ لأنّ ﴿ضَلَلۡتُ﴾ الذي هو فعلُ الشّرّط المفْتَرَض لم يُضمَّنْ معنى فعلٍ آخر[3].

الضّلالُ مُتَجَلٍّ، والنّفوسُ مُكابِرةٌ أنْ تستبْصِرَه

وفي استعمال حرفِ الاستعلاء في قوله: ﴿أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ - بتنزيل الضّلالِ منزلةَ الشّيء المستعلي على غيره - استعارةٌ تمثيليّةٌ بتشبيه هيئةِ الإنسان وهو ضالٌّ بهيئة شيءٍ محسوسٍ مُستعلٍ على شيءٍ آخرَ بائنٍ منه وظاهرٍ عليه، فهو باستعلائه في محلّ الانكشافِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (إذن)، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 329.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 250.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 240.

التّامّ والوضوحِ الكامل، فلا يلتبسُ أمرُه على أحد، والغرضُ من تلك الاستعارة: التّنبيهُ على أنّ الضّلالَ ظاهرٌ في بُطلانه، ومكشوفٌ أمرُه، ومفضوحٌ في النّفوس شأنُه، فلا يخفى تفنيدُه على أحد؛ فإذا كان ذلك كذلك فأمرُ الضّلال بيّنٌ، وعَوارُه لا يخفَى ولا يُرتابُ فيه[1].

نكتةُ اشتراطِ الهدايةِ بـ(إنْ) دون (إذا):

لا قيمة للمناظرة إذا انطلقت من مبدأ الانحياز

اشترطَ الهدايةَ بـ(إنْ) دون (إذا) في قوله: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ جريًا على أصل القصدِ في الكلام، وهو الافتراضُ للاستدلال واستدعاءِ النّظر؛ فإنّ قوله: ﴿إِن ضَلَلۡتُ﴾ جارٍ على الافتراض، فأكمل الاحتجاجَ على نفْس الوتيرة؛ طلبًا للإنصاف، وعدمِ الانحياز إلى جهةٍ على حسابِ الأخرى، ودفعًا لِم يوهِم التّزكيةَ والتّقريرَ بتحقيق اهتدائه؛ إذ ليس حينئذٍ للمناظرةِ معنى، وأحدُ طرفيها مبنيٌّ على الانحياز[2].

سرُّ التّعبيرِ في الهُدى بالافتعالِ وفي الضّلالِ بالمجرّد:

طرائقُ الباطلِ تستقطِبُ المتردّدين

جاء التّعبيرُ عنِ الهدى بصيغة الافتعال في قوله تعالى: ﴿ٱهۡتَدَيۡتُ﴾؛ إشارةً إلى أنّه لا بدّ فيه من هادٍ وعلاج، أمّا الضّلالُ فعبّر عنه بالفعل المجرّدِ في قوله تعالى: ﴿ضَلَلۡتُ﴾؛ وذلك لكثرة طرائقِه وسُبُله، فكان الانخراطُ فيه أسهلَ[3].

بلاغةُ الاحتباكِ في الآية:

لا ينفعُ العبدُ إلّا نفْسَه إنْ نَفَع، ولا يضرُّ إلّا نفْسَه إنِ امتَنَع

في قوله سبحانه: ﴿إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ احتباكٌ (حذفٌ تقابليٌّ)، بحذف المُقابِل من أحد الطرفين وإثباتِه في الآخر؛ شحذًا لذهن السّامع، واستنهاضًا له على استخلاص ما وراء ظاهرِ النّظم، وتقديرُ الآية على الاحتباك: (قل إن ضللت فإنّما أضلّ بسبب نفسي على نفسي، وإن اهتديت

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 534.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 535.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 535.

فإنّما أهتدي لنفسي بهداية اللّه تعالى)[1]، فحذفَ أوّلًا كونَ الضّلالِ من نفسِه بما دلّ عليه من كون الهُدى منَ الوحي، وثانيًا كونَ الهدى له بما دلّ عليه من كون الضّلال عليه[2].

معنَى الباءِ في: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ﴾:

الباء في قوله: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ سببيّةٌ، أي: بسبب الذي يوحيه ربّي، أو للملابسة، أي: ملتبسًا بوحي ربّي إليّ.

دلالةُ (ما) في الجواب ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ﴾:

الوحيُ الشّريف لِباسُ المُخْلِصين وسِـربالُ المُسْتَمْسِكين

(ما) في جملة الجواب في قوله: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ يحتمل أن يكون موصولًا بمعنى (الذي) أي: (بالذي يوحيه ربّي إليّ)؛ ليدلَّ - بما يفيده منَ العموم - على استغراق اللّفظِ لكلِّ الموحى به إليه ﷺ بوصفه أنوارَ هدايةٍ، ومفاتيحَ درايةٍ، ويحتمل أن تكون (ما) مصدريّةً، أي: (فبوحيِ ربّي إليّ اهتديت)[3]، فتكون الإشارةُ إلى حدثِ الوحي نفسِه.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُوحِيٓ﴾:

التّعبيرُ بصيغة المُضارعِ ﴿يُوحِيٓ﴾ في الآية الكريمة دالٌّ على الاسْتمْرار؛ إذ بدوامه دوامٌ للهداية، ويجوز أن تكون لحكاية الحال الماضية[4].

نكتةُ تقييدِ الوحيِ بالجارِّ والمجرورِ في ﴿إِلَيَّ﴾:

كـمالُ النّبيِّ البَشريُّ حاصلٌ بكمالِ النّبوّةِ في رُتبةِ الهُدى والعِصمة

تقييدُ الوحيِ بحرف الانتهاء المضافِ إلى ضمير المتكلّم في قوله: ﴿يُوحِيٓ إِلَيَّ﴾؛ لتقرير رسالتِه ﵇، بإجراء وصفِ الوحي المفهوم منَ الفعل: ﴿يُوحِيٓ﴾، على نفسه ﷺ، ولا يخفَى ما فيه من أنّ مُنْتهى عملِ الوحي ومقصودَه هو خطابُ الأنفس والذّوات، ولذلك كان لا بدّ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 329.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 535.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 426.
(4) القونوي حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 542.

من ذِكْرِ ضميره ﷺ؛ لأنّ ذاته الشّريفةَ هي مهبِطُ الوحي الشّريفِ بالهداية والنّور، وكان لا بدّ في النّظم أن يقول: ﴿يُوحِىٓ إِلَىَّ﴾؛ لأنّه في مقام المقابلةِ مع قوله: ﴿نَفْسِىٓ﴾ من قوله: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىٓ﴾، كأنّه قيل: الضّلالُ منّي عليّ، والهُدى منه إليّ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفاعل:

الاصطفاءُ بالرّسالة لا يتيسّرُ إلّا لصفوةِ الخلْقِ وخُلاصتِهم

تقديمُ الجارّ والمجرور على الفاعل في قوله: ﴿يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾؛ لإفادة الاختصاص والحصرِ، أي: (يوحي إليّ وحدي لا إلى غيري)، وفيه قصرُ الوحي على الرّسول ﷺ، والتّنبيهِ على اختصاصه بالرّسالة، وفي القصر إيماءٌ إلى كونِه خاتمَ المرسلين، فلا وحيَ إلى أحد بعده.

دلالةُ التّعبيرِ بعنوانِ الرّبوبيّةِ في الفاعل ﴿رَبِّىٓ﴾:

الاصطفاءُ بالوحيِ الشّريفِ هو أعلى مقاماتِ الإحسان

عبّرَ في السّياق الكريم بعنوان الرّبوبيّةِ دون غيره في قوله: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ جريًا على عادة القرآن في اقتران مقام الإحسان بنعوتِ ما يقتضي الإحسانَ ويدلّ عليه، والوحيُ في قوله: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ﴾ هو أعلى مقاماتِ الإحسان؛ لأنّه سببُ الهداية والعصمة، والرّبوبيّةُ التي اقترنت به، فهي كالأمارة على هذا الإحسان، فحصلَ في الآية: أنّ الوحيَ عنوانٌ على الهداية، والرّبوبيّةَ عنوانٌ على الوحي.

بلاغةُ الاحتراسِ في قوله: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾:

استقصاءُ محلِّ النّزاعِ في الحوار دليلٌ على كمالِ عقلِ المُحاوِرِ ونزاهتِه

في عطفِ قوله: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ بعد قوله: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ احتراسٌ منَ الاقتصار على افتراض حالِ الضّلال فقط، بما يُخِلّ بأصل الحوارِ والمناظرة الجاريةِ منه إليهم؛ فيكونُ حينئذٍ حوارًا غيرَ مستوعِبٍ لطَرَفَي القضيّة، الأمر الذي قد يُلجِئُ السّامعَ إلى التّساؤل عن جانب الافتراضِ المطويِّ حينئذٍ في الكلام، ولو قال: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ وسكَت ولم يذكر المقابلَ منَ الهداية؛ لكان فيه إيهامٌ

بأنّه يُقرّر هدايةَ نفسِه بعدم ذكرِها وإدخالِها في حيّز الافتراض كما الضّلالِ، وهذا فيه إخلالٌ بكمال الحوار الذي يجبُ أن ينبنيَ على المساواة والاستقصاء في الأطراف[1].

بلاغةُ المقابلةِ بين ﴿إِن ضَلَلۡتُ﴾ ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ﴾:

استقلالُ السّامعِ باستخلاصِ ما يطمئنُّ إليه أبعدُ عنِ التّهمة وأبرأُ عنِ الإكراه

بينَ قوله: ﴿إِن ضَلَلۡتُ﴾ وقوله: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ﴾ مقابلةٌ بديعةٌ بين الهدى والضّلال، وإدخالِ كليهما في حيّز الشّكّ والافتراض باشتراطِهما معًا بحرف (إن)، وهذا من تمام المقابلة؛ ولذلك لم يقل: (إنْ ضللت فبسبب كذا، وهدايتي بسبب كذا)؛ لتجريَ المقابلةُ على نسقٍ واحد في الشّرطيّة التي هي أقومُ في استرعاء الانتباه، وإيكالِ السّامع إلى عقله في استنتاج الحكم اللّائق، ولو قال: (وهدايتي بسبب كذا)؛ لكان جزمًا بالحكم، يُقصي السّامعَ عن استقلاليّته بالنّظر بنفسه في القضيّة لاستخلاص الحكم؛ ولذا جاءتِ المقابلةُ في النّظم على أسلوب الشّرطيّة في الطّرفين؛ لتحقيق فردانيّةِ السّامع في الاقتدار على الاستخلاص بنفسه؛ لكون هذا أعرقَ وأرسخَ قدَمًا في الاحتجاج والتّسجيلِ عليهم[2].

بلاغةُ الكنايةِ في ربط الهداية بالوحي:

ربطُ الهداية بالوحي في قوله: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ كنايةٌ بالإيماء إلى أنّه ﷺ على هدى؛ لأنّه أثبتَ أنّ وحيًا منَ اللّه تعالى واردٌ إليه[3].

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ عمّا قبلها:

سلامةُ القصدِ هي ضمانةُ إصابةِ الحقّ

جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ تعليليّةٌ ممّا قبلها، وهي كالخاتمة المؤكِّدة بالمصادقَة، والإشهادِ على سلامة قصدِ المتكلّم، وهو الرّسولُ ﷺ؛ فهي في موقع فصلِ الخطاب ممّا قبلها، كأنّه قيل: إنْ ضللت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 240.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 592.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 241.

فكذا وإن اهتديت فكذا، واللّه سبحانه من ورائي سميعٌ قريبٌ في كلّ حال فأجمعوا أمرَكم واحرصوا على ما ينفعُكم[1].

نكتةُ حذفِ متعلّقِ ﴿قَرِيبٌ﴾:

لم يُذكَر في السّياق الكريم متعلّقُ القربِ في قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾؛ لكونِه صفةً يندرجُ تحتها جميعُ ما جاز أن يتعلّقَ بها؛ ولذلك لم يحدّدْ مجالَ القرب، فلم يقل: قريبٌ من أي شيء؛ لإرادة التّعميم، ولوقاية الفاصلة أن تنخرِم.

اللهُ قريبٌ من أيّ شيءٍ؛ لأنّه القاهرُ على كلّ شيء

بلاغةُ الكنايةِ في جملة التّذييل:

صفةُ القريب في جملة التذييل: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ فيها كنايةٌ عنِ العلم والإحاطةِ فيه، فهو قربٌ مجازيٌّ، وهذا تعريضٌ بالتّهديد[2].

وجهُ التّعبيرِ بصفتَيْ ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾:

اللهُ سميعٌ قريبٌ لكلّ شيء؛ لأنّه آخِذٌ بناصية كلّ شيء

اصطفى السّمعَ والقُربَ في الفاصلة؛ ليدلّ على أنّه يسمع البلاغَ في حيّز القول المأمورِ به في قوله: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ﴾، فهذا إشهادٌ منه على صحّة ذلك البلاغ، أي: بلاغي ذلك القولَ إليكم ليس من عندي، بلِ اللّه أمرَ به، وهو سامِعُه، وهو من ورائي وورائكم محيطٌ قريب، ومن مقتضياتِ قُربِه، أنّه آتاكم منَ الحجج ما يُقرّب هُداه إليكم بذلك البلاغ الذي هو مضمونُ الشّرط في حيّز القول، وهو قريبٌ أيضًا بوحْيه الذي أوحاه إلى عبيده ليهتدوا.

القولُ شاهدُ الإنكارِ، والاهتداءِ، ولا يخفى على الله منهما شيء

ولمّا كان معظمُ الضّلال الإنكار بالقَول ومعظمُ الاهتداء بإقرار الحق بالقَول اختيرَت صفةُ السّمع، أمّا قولُه: ﴿قَرِيبٌ﴾ فالمُراد به القربُ علمًا؛ تنبيهًا عَلَى أنه تَعالَى عالمٌ بقول كلٍّ منَ المُهتدي والضّالِّ، وكذلك فعلَه، وإنْ بالغَ في إخفائِهما وجاهد، فعُلِمَ من هذا البيان حسنُ ختْم الكَلام به، والكلامُ وإن خُصّ به عليه الصّلاة السَّلام لكنّه عامّ بغيره[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 241.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 241.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 140، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 542 - 543.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإعادةُ والتّكرارُ:

الإعادةُ فيها فاصلٌ وانصراف، والتَّكرارُ فيه عطفٌ واقتران

الإعادةُ مِنَ العَوْد، وهو الرّجوعُ إلى الشّيء بعد الانصرافِ عنه، ويدلّ أصلُه على تثنيةٍ في الأمر[1]، فيُلمَح فيه: تثنيةُ الأمر، أي: تَكراره مَثْنَى مثنى، ووجودُ الفاصل بين مَرّاته، وهو المُعبَّر عنه بالانصراف، ذاتًا أو قولًا أو نيّةً وقصدًا، فالرّجوع إلى الشّيء: تَكرارٌ لِما كان عليه أوّلَ، ولكنّه تَكرارٌ مفصولٌ بين مَرّاته بالانصراف عنِ الشّيء ثمّ الرّجوعِ إليه مرّةً أخرى، فهذا مَلمَحٌ لا بدّ أنْ يُلتَزَم، وهو ملمَحُ الفاصلِ بالانصراف الذّاتي أوِ النّفسي قبل إعادة الفِعل.

وأمّا التّكرارُ، فأصلُه يدلّ على عطفِ الشّيء على الشّيء بالذّات أو بالفعل، فهو يدلّ على جمْعٍ وترديدٍ للشّيء بالرّجوع إليه بعد المرّة الأولى، وارتدادٍ إلى الشّيء مرّةً أخرى[2]، ويُلحَظ في التَّكرار أنّه إعادةٌ بعطفِ الشّيء على الشّيء مرّةً بعد مرَّة، فالعوْدُ في التَّكرار عوْدٌ سريعٌ من غير فاصل، ولذا عبّر عنه المعجميّون بالعطف، وبالتّرديد، وبالجمْع، وهذه الثّلاثةُ تدلُّ على أنّ التَّكرار يكون فيه اقترانٌ، وسرعةٌ، وعدمُ الفاصل بالانصراف بين المرّة والمرّة، كما هو حاصلٌ في معنى الإعادة، ولذلك يُلمحُ في التَّكرار: الاقترانُ بين الشّيء وإعادته، فيقال: كرَّرتُ الدَّرسَ فحفظتُه، أي: أعاده مرّاتٍ متعاقِبةً ومقترِنةً، ومجموعةً معطوفةً غيرَ مشوبةٍ بفاصلٍ وانصرافٍ طويل، وأمّا الإعادةُ فلفظٌ لا يُلمَحُ فيه هذا التّزامُنُ والاقتران بين الفِعل الأوّل وبين إعادته، ومنه الإعادةُ بالبعث في يوم القيامة، فبين الأولى والآخرة فاصلٌ وانصرافٌ عظيم.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (عود).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (كر).

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ٥١ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ٥٢﴾ [سبأ: 51 - 52]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لـكـلّ سـعـي غـايـةٌ، وغـايـةُ الـضّـالّ سـوءُ المُنْقَلَب

لمّا عرّض بهم بضلالهم، وحصل تقريرُ الرّسالة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾، ذكر هنا استحقاقَهمُ العقوبةَ، حين يحِلّ بهم الفزعُ من مشاهد الموت، والبعثِ، ساعةَ لا ينفعُ التّداركُ والنّدم[1]، ولمّا قال: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أخبرَ هنا أنّه وإنْ لم يعذّب عاجلًا ولم يعيِّن صاحبَ الحقِّ في الحال، فيومُ الفزعِ آتٍ لا فوتَ، وإنّما يَستعجِلُ بالعذاب من يخافُ فوتَ الجاني منَ العقوبة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَزِعُواْ﴾: (فزع) أصلان صحيحان، أحدُهما الذُّعر، والآخرُ الإغاثةُ[3]، وفَزِعَ الرجلُ إذا رُعِبَ، فالفَزَعُ: انقباضٌ يعتري الإنسانَ ونفارٌ من كلّ شيء مخيفٍ، وهو من جنس الجزع، ولا يقال: فَزِعْتُ منَ اللّه، كما يقال: خفت منه[4]، والفزعُ في الآية: الخوفُ المخصوصُ بالمفاجأة[5].

2) ﴿فَوْتَ﴾: (فوت) أصلٌ يدُلُّ على خِلافِ إدراكِ الشَّيءِ، والوُصولِ إليه[6]، والفَوتُ: التَّفَلُّتُ والخلاصُ مِنَ العِقابِ[7]، والمعنى المرادُ هنا: أي: فلا نجاةَ ولا هربَ ممّا استحقّوه منَ الجزاءِ[8].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 241.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 217.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فزع).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فزع).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 241.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوت).
(7) الراغب، المفردات: (فوت).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.

3) ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾: (نوش) أصلٌ يدُلُّ على تَناوُلِ الشَّيءِ[1]، والتّناوشُ: التَّناوُلُ، وإدراكُ ما يُريدونَ، أوِ التَّناوُلُ السَّهلُ أوِ الخَفيفُ، وأكثرُ وُرودِه في شُرْبِ الإبلِ شُرْبًا خَفيفًا مِنَ الحوضِ ونحوِه[2]، والمقصودُ في الآية: التَّناولُ السَّهلُ، أي: ومِن أينَ لهم أنْ يتناولوا الإيمانَ تناولًا سهلًا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الدّنيا مَزْرعةُ الآخرةِ، فلا تصلحُ الآخرةُ لأعمالِ الدّنيا

ولو رأيتَ أيّها الرّسولُ هؤلاءِ المكذّبين، حين يَفزعون ممّا رأوا منَ العذاب الشّديد؛ لرأيت منَ الأمر ما يعجزُ القولُ عن وصفه، فهم لا يتمكّنون منَ الهرب، ولا يفوتُهم ذلك العذابُ، ولا يجدون ملجأً ولا مأوى يبتعدون فيه، ثمّ ذكر أنّهم حين معاينةِ العذاب يقولون: آمنّا بهذا الدّين، ومن أين لهم في الآخرة تناولُ الإيمان والتّوبةُ منَ الكفر، وكان ذلك قريبًا منهم في الدّنيا فضيّعوه، وكيف يَظفرون به في الآخرة وهي بعيدةٌ عن دار الدّنيا التي هي محلُّ قَبول الإيمان[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى (الواو) في ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

ساعةُ الحسابِ ساعةُ الفزعِ، فلا يلوذُ بالأمان إلّا أهلُ الإيمان

جملةُ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾ معطوفةٌ على قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ﴾ [سبأ: 31]، تعديدًا لأحوالهم عند نزول الوعيدِ بهم، فهم يَجمعون إلى وقوفهم للحساب الفَزَعَ منه[5]، ويصحُّ أن تكون الواوُ للاستئناف النّحويِّ؛ لأنّ الجملة شروعٌ في معنًى جديدٍ عن الكلام قبلَها[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوش).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 358.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 318، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 243.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 100، وطنطاوي، الوسيط: 11/ 311.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 536.
(6) صافي، الجدول: 11/ 243.

معنَى (لو) وعلّةُ إيثارِها دون غيرها:

(لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾ شرطيّةٌ امتناعيّةٌ، أي: امتناعُ وقوعِ الجواب؛ لامتناع الشّرط، والجوابُ محذوفٌ، تقديرُه: (لرأيت حالًا عظيمةً، أو أمرًا عظيمًا مُدهشًا)، فامتنع عدم اطّلاعه على ما يُدهِش؛ لامتناع رؤيتِه إيّاهم فَزِعين في ذلك الوقت[1].

الـخـوفُ والـتّرهـيـبُ يحصلُ بمجرّدِ الـتّـخـيّـلِ، فكيف بالمُعاينة والاطّلاع

ولم يقل في السّياق الكريم: (وإنْ ترى إذ فزعوا)؛ للدّلالة على البُعد في وقوع الشّرط، فشرطُ (لو) أبعدُ من (إنْ) في الوقوع[2]؛ إذ لو أُطْلِعَ لرأى منَ الأمر ما يعجزُ القولُ عن وصفه.

هولُ المرئيّ منَ العذاب يعجزُ الوصفُ عنِ الإحاطة به

نكتةُ حذفِ جوابِ (لو):

حُذف جوابُ (لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾؛ للتّهويل والتّشنيع على حالهم، والتّقديرُ: لرأيت أمرًا فظيعًا[3]؛ لأجل أن يذهب الذّهنُ في تقديره كلَّ مذهب؛ أو لأنّك مهما قدّرت، فالأمرُ أعظمُ ممّا قدّرت[4].

مهما قدّرَ العقلُ فأمْرُ الحسابِ أعظمُ ممّا قدّرَ

دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ الرّؤيةِ:

الرّؤيةُ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ بصريّةٌ يُراد بها الاطّلاعُ والمعاينة، أي: لو اطّلعتَ عليهم وقتَ فزعهم، وهذه الرّؤيةُ العينيّةُ هي التي يتركّبُ عليها نظرُ العقل، واعتبارُ القلب، ولها في القرآن نظيرٌ نحوَ قولِه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: 27]، وقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [السجدة: 12][5].

رؤيـةُ البصرِ تستلزمُ رؤيةَ البصيرة

نكتةُ اجتماعِ المضارعةِ مع الماضويّةِ في الآية:

عبّرَ في قوله: ﴿فَزِعُواْ﴾ بالماضي؛ لتحقّق وقوعِه بالخبر الصّادق،

الـحـوادثُ الـمُـدهِـشـةُ لا تنقضي عجائبُها في الذّكريات

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 89.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 90، 91.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 241.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 307.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 564.

والظّاهرُ أنّه وقتُ البعث وقيامِ السّاعة، وعبّرَ بالمضارعة في: ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ لقصد تجدّدِ العجَب الحاصلِ منَ الرّؤية، كأنّه قيل: لا ينتهي عجبُك واندهاشُك واستفظاعُك إذا رأيتهم فزِعين، فكأنّ الرّؤيةَ وإن حصلتْ جملةً واحدة، لكنّ أثرَها منَ الاندهاش والتّعجّب ما يزال يتجدّدُ، فكأنّه لهول الموقفِ ما يزال يحدثُ ويحصلُ[1].

مرجعُ ضميرِ الخطابِ في الفعل ﴿تَرَىٰٓ﴾:

الأصـلُ في خطابات القرآن العمومُ إلّا ما ثبت تخصيصُه

ضميرُ الخطابِ في الفعل ﴿تَرَىٰٓ﴾ من قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ﴾ للرّسول ﷺ، أو لكلّ من تصحُّ منه الرّؤيةُ من أهل التّكليف، والحملُ على العموم أولى في الإفادة؛ لعدم المانعِ من إرادته[2].

دلالةُ ﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ فَزِعُواْ﴾:

﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ فَزِعُواْ﴾ ظرفٌ لِما مضى منَ الزّمان؛ ولذا اقترن هنا بما مضى، وقد تفيدُ التّعليلَ على إضمار مفعولٍ للرّؤيّة، أي: ولو ترى أهلَ النّار بشرّ حالٍ؛ لِتَمَلُّكِ الفزعِ منهم[3].

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في الآية:

تـأخـذُ الأزمـنـةُ رُتبتَها من رتْبةِ حوادثِها الواقعةِ فيها

يجوز أن يكون ﴿إِذۡ﴾ نفسُه معمولًا لفعل الرّؤية، ويجرّدَ عنِ الظّرفيّة، على طريقة المجاز العقليّ، بإسناد الفعل إلى غير مفعولِه الحقيقيّ؛ إذِ المرادُ برؤية الزّمان رؤيةُ ما يشتملُ عليه منَ الوقائع والأهوال والمخاوفِ التي هي سببُ الفزع، وهذا منَ المبالغة في شأن ذلك الوقت، وأنّه ليس كسائرِ الأوقات، فيُخشَى ذلك الزّمنُ ويُهابُ كأنّه عينُ ما يقعُ فيه[4].

سرُّ إيثارِ لفظِ الفزعِ:

الفزعُ هو خوفٌ مخصوصٌ بالمفاجأة

عبّرَ بالفزع دون غيره في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾، فلم يقل:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 564.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 330.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 205.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 544.

(خافوا)؛ لأنّ الفزع هو رعبٌ وخوفٌ مخصوصان بالمفاجأة، فهو الخوفُ المفاجئ، وهذا الفزع هو وقتُ البعث، وسمّاه تعالى بـ﴿ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: 103]؛ لكونِ قيامِهم منه يحصلُ فجأةً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل: 21]، فيشعرون بأنّهم كانوا غيرَ مُهيِّئين لهذا الوقت أسبابَ النّجاة من هولِه، فعبّرَ بالفزع؛ ليدلَّ على أنّه خوفٌ مفاجئ غيرُ مستمرّ؛ لأنّ الخوف المستمرَّ لا يسمّى فَزَعًا[1].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في التّعبيرِ بالفزعِ:

جعلُ فزعِهم مرئيًّا مجازٌ عقليٌّ أيضًا؛ لأنّ الفزعَ نفسَه حالةٌ قلبيّةٌ لا تُرى كيفيّتُه، إنّما الذي يُرَى آثارُه الجاريةُ على الحواسّ.

توجيهُ الفعلِ ﴿فَزِعُواْ﴾ بين الاستعارةِ والحقيقةِ:

المستقبلُ الذي يخبرُ الله عنه هو بمنزلةِ ما قد حدثَ بالفعل لتحقّقِه حتمًا

في التّعبير بقوله: ﴿فَزِعُواْ﴾ ماضيًا استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ؛ شبّه الوعيدَ المؤكَّدَ في انتظار حصوله مستقبلًا بالحاصل المُحقَّقِ في انقضائه وتمامِه، أو شبّه الواقعَ في المستقبل بالحاصل في الماضي في تحقّق الوقوع، فذكر لفظَ المشبّه به، وهو اللّفظُ الماضي، وأريد المشبّهُ وهو المستقبل، إلّا أن يُقال: إنّ المضيّ هو باعتبار ثبوتِه الكِتابيّ في اللّوح المحفوظ والأزليّ في علم اللّه، فحيئنذٍ فالماضي على حقيقته، ولا استعارةَ[2].

معنَى الفاءِ في قوله: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾:

مآلُ الفزعِ وعلّتُه بسببِ عدمِ فوْتِهم من قدرة الله عليهم

الفاء في قوله: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لتفريعِ مدخولِها على ما قبْلها، أي: ترتّبَ على فزعهم وتسبّبَ عنه عدمُ فوْتِهم من قدرة اللّه عليهم، فما بعد الفاء مُسبَّبٌ عمّا قبْلها[3]، ويصحّ أن تكون الفاء تعليليّةً، فما بعدها عِلّةٌ لِما قبْلها، فهي داخلةٌ على السّبب، أي: فزعُهم كائنٌ بسببِ عدمِ فوتِهم، كمن لا يجدُ مهربًا فيفزعُ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 241، وابن عثيمين، مجموع الرسائل والفتاوى: 9/ 298.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 592.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 536.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 543، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 330.

دلالةُ جملةِ الاعتراضِ: ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾:

أشدُّ الرَّوعِ ما تنعدمُ معه سبلُ الخلاص

جملةُ ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ اعتراضيّةٌ بين المتعاطفات الماضية: ﴿فَزِعُواْ﴾، ﴿وَأُخِذُواْ﴾، وفائدةُ الاعتراض: التّسجيلُ عليهم بأنّه فزَعٌ ليس في الإمكان الخلاصُ منه، فلا استراحةَ لهم ولا هدوءَ بين فزعهم وأخْذِهم[1].

معنَى (لا) في جملة ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾:

نفيُ الوجودِ أبلغُ من نفي الإمكان

(لا) في قوله: ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ هي النّافيةُ للجنس؛ لاستغراق نفْيِ أنواعِ الفَوت كلِّها، ونفيِ أدنى جزءٍ منه، أي: لا فوتَ يحصلُ لهم بأيِّ وجه منَ الوجوه وبأيِّ حال منَ الأحوال، ولا يخفَى ما في نفي الفوتِ مع حذف الخبر من نفي الوجود أصلًا، لا نفيَ الإمكان فقط، أي: لا فوتَ موجودٌ حتّى يحصلَ لهم، ونفيُ الوجود أبلغُ من نفي الإمكان[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالفوتِ دونَ السّبقِ:

نفيُ الفوتِ يدلُّ على شدّةِ الشَّرك الواقعين فيه، بحيث لا إرادةَ لهم معه ولا اختيارَ

لم يقل في السّياق الكريم: (فلا سبْقَ)، بل قال: ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾؛ لأنّ الفوت أدلُّ على الأسْر والقهر والاحتجازِ والاضطرارِ منَ السّبْق، فلا يُقال لهم: سابقون، وهم متلبّسون بالفزع، غيرُ متمكّنين ولا مُختارين، بل متورّطون مرهونون، وأمّا السّبقُ فهو أليقُ بحالةٍ فيها نوعُ تمكّنٍ واختيار، فبدهيٌّ في الآية أن ينتفيَ عنهمُ السّبقُ وهم تحت سطوةِ الفزع؛ لأنّ السّبقَ هو التّقدّمُ على الشّيء بالقدرة على مجاوزتِه، فيُتصوّرُ في السّبق وجودُ مسافةٍ ممكنةٍ يمكنُ للسّابق قطعُها لإحراز التّقدّم عنِ الشّيء أوِ التّقدّم على ما سواه، وأمّا الفوتُ فليس معه ذلك الإمكانُ، فهو متلبّسٌ تمامًا بما لا يُفلِته تقدُّمًا ولا تأخّرًا، فهو أدلُّ على نفي إدراكِ النّجاة، ونفيِ إمكان الفِكاك منَ السّبق[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.

(2) الخطيب، التفصيل في إعراب التنزيل: 22/ 182.

(3) الراغب، المفردات: (سبق - فوت)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فوت).

بلاغةُ الكنايةِ في نفيِ الفوتِ:

نفيُ الفوت في قوله: ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ كنايةٌ عن لازمِه مِن استمرار قهرهم، وتحقّقِ يأسِهم، وانقطاعِ نجاتهم أبدًا.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ﴾:

جملةُ: ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿فَزِعُواْ﴾ وما بينهما اعتراضٌ سبق بيانُ دلالته[1]، وفي العطف مزيدُ تحقيرٍ لشأنهم، وترهيبٍ لهم زيادةً على الفزع، فليس ثمّةَ أيسرُ من أخذهم، وأهونُ من قهرهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في التّعبير بالأخذِ:

صوّرَ العذابُ بقادرٍ على الأخْذ

الأخْذُ هو تناولُ الشّيء وتحصيلُه بقوّة وقهر، فهو إزالةٌ للشّيء من حِرزه الأوّل إلى حرز مُتناوِله، والمرادُ به في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ﴾ التّمكّنُ منهم والقبضُ عليهم؛ لملاقاة ما أعِدّ لهم منَ العذاب، فشبّه الغلبةَ عليهم بالأخذ، بجامع التّمكّنِ في كُلٍّ، على سبيل الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّة[2].

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿وَأُخِذُواْ﴾ لغيرِ فاعلِه:

يُحذَف الفاعلُ لشدّةِ ظهوره، وتوفّرِ القصدِ على الفِعل

بُني الفعلُ لغير المعلوم في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ﴾ تحقيرًا لشأنهم، وأنّهم منَ الهوان بمكانٍ، لدرجة أنّهم قابِلون للأخْذ على كلّ حالٍ، فلا حاجةَ لإظهار الفاعل حينئذٍ، ففي البناء لغير المعلوم تصويرٌ لسرعة أَخْذِهم وفجْأتِه وسهولته[3].

لطيفةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجمعِ ﴿وَأُخِذُواْ﴾:

إسنادُ الأخذ إلى ضمير جماعَتِهم في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ﴾، أفاد عمومَ الأخذِ واستغراقَه لأفرادهم، فلا إفلاتَ لأحدٍ منهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 536.

معنَى ﴿مِن﴾ في القيد ﴿مِن مَّكَانٍ﴾:

جعلُ أخذِهم من مكان قريب يدلُّ على سهولة الأخذِ وسرعةِ التّمكّنِ منهم

﴿مِن﴾ في القيد بالمتعلّق في قوله: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: بدأ أخذُهم وحصرُهم إلى العذاب من جهة مكانٍ قريبٍ وهو أرضُ المحشر[1]، أوِ المكانُ القريب هو القبور، ولهذا يقولون إذا خرجوا من قبورهم: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]، فهم يُؤخذون من قريب من حين ما يخرجون منَ القبور، يُكشف لهم عن أمرٍ أعظمَ ممّا كانوا يشاهدونه في القبور[2].

دلالةُ التّعبيرِ بمفردةِ المكانِ:

لا حصانةَ لمخلوقٍ إذا شاء اللهُ هزيمتَه

التّعبير بمفردةِ المكان في قوله: ﴿مِن مَّكَانٍ﴾ إشارةٌ إلى عدم نجاتِهم بحالٍ، فمهما انحصروا في مكان مَكينٍ لا يَنجون، فالأماكنُ كلّها حينئذٍ ليستْ حصنًا لأحد أو حاجِبًا حاميًا له، وليستْ نافذةً للهرب أوِ الفرار.

نكتةُ وصفِ ﴿مَّكَانٍ﴾ بـ ﴿قَرِيبٍ﴾:

قوّةُ ربِّ العبادِ لا تتأثّرُ بالأبعادِ والآماد

وصفُ المكان بالقرب في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ للتّنبيه على عدم الإمهالِ في أخذهم إلى العذاب، فكلّما كان أخذُهم من جهة قريبة كان الانتهاءُ إلى الغاية أسرعَ وأسهلَ، فالمعنى: أنّ موضِعَ أخذِهم قريبٌ من موضعِ إلقائِهم في جهنّم، على أنّ المراد منَ المكان أرضُ المحشر للحساب، وهذا شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١﴾ [الرحمن: 41]، أي: يُؤخذون بالنّواصي والأقدام لإلقائِهم في النّار، وإن كان المرادُ بالمكان القريب القبورَ، فهو قريبٌ من مكان الحسابِ والمحشرِ الذي هو قريبٌ من جهنّم، وعلى كلٍّ: فأخْذُهم عُنوةً يجعل ما حسِبوه منَ الأماكن بعيدًا عن ملاقاة مصيرهم - يجعلُه قريبًا وشيكًا؛ لكونه

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 309.

أخْذًا بمطلق القدرة والقهرِ التي لا تتأثّر بحواجز المسافات، ولا بالأبعاد والآماد[1].

بلاغةُ الكنايةِ في قرب المكان:

وصْفُ المكانِ بالقرب في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ كناية عن سرعةِ نزول العذاب بهم، والاستهانة بهم وبهلاكِهم، وإلّا فلا قُربَ ولا بُعدَ بالنّسبة إلى الله ﷻ[2]، لكن يجوز أن يُجعل القربُ منوطًا بمبدأ غاية الأخْذِ ومنتهاه، بالنّسبة إلى مكان ابتداء الغاية ومكانِ انتهائها، لا بالنّسبة إلى الآخِذ وهو المولى سبحانه.

الله سبحانه خالقُ الأماكنِ والأزمانِ، والمخلوقُ لا يؤثّر في الخالق بحالٍ

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ (فعيل) في ﴿قَرِيبٖ﴾:

التّعبيرُ عنِ القرب في قوله تعالى ﴿مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ بصيغة (فعيل) صفةً مشبّهةً؛ للدّلالة على ثبوت الصّفةِ، أي: دائمُ القُرب.

بلاغةُ الجناسِ بين كلمتَيْ ﴿قَرِيبٖ﴾ و﴿قَرِيبٞ﴾:

كلمتا (قريب) في: ﴿مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ هنا، وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ جناسٌ تامٌّ اتّفقت فيه الكلمتان في الحركات والحروف عددًا وترتيبًا، مع الاختلاف التّامِّ في المعنى حقيقةً ومجازًا، وهو محسّنٌ بديعٌ جرى على غير تكلّفٍ[3].

كلّما خلا الكلامُ من وصْمةِ التّكلّف كان أبلغَ

موقعُ جملةِ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾:

جملةُ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ﴾، فاجتمع لهم - بعد الفزع والأخْذ - الاضطرارُ للإيمان، وقد خرج وقتُه، بخروجهم منَ الدنيا[4].

نكتةُ الإجمالِ في الضّمير:

مرجعُ الضّمير في قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ إلى ما كان يجبُ

ما يكفي فيه الإجمالُ، كان التّفصيلُ فيه فضولًا لا يُضيفُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 330.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.

عليهم الإيمانُ به بالغيب، فلم يؤمنوا به إلّا مُشاهدةً لما عاينوه، فيعودُ إلى الوعيد، أو يوم البعث، أوِ النّبيّ ﷺ، أوِ القرآن؛ لأنّ جميع ما يصحُّ مَرجِعًا للضمير مُشاهَدٌ لهم، فأجملوا فيما يرادُ الإيمانُ به؛ لأنّهم ضاق عليهم الوقت فاستعجلوه بما يحسبونه مُنْجيًا لهم منَ العذاب، أوِ الإجمالُ في الضّمير؛ لعودِه على اللّفظ المجمل الجامع وهو (الحقّ) في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ [سبأ: 48]، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾، ولذلك أُفرد[1].

معنَى (الواو) في ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾:

جملةُ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ اعتراضيّةٌ بين قوله: ﴿وَأُخِذُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ لتسجيل الإنكارِ عليهم، وانقطاعِ أمانيهم، وهي في الاعتراض شبيهةٌ بجملة ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ بين المتعاطفات، ويصحُّ أنْ تكون استئنافًا بالإنكارِ عليهم، بعد إقرارهم بالإيمان على غير طائل، فيحسنُ الوقفُ على قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، ثمّ الابتداءُ بقوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾، وفي الابتداء بهذا الاستئناف ترهيبٌ وإجلالٌ لمقام يومِ القيامة الذي لا ندمَ فيه ولا اعتذار[2].

يومُ القيامةِ يومُ حسابٍ وأهوالٍ لا يومَ إيمانٍ وأعمال

دلالةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾:

(أنّى) في قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ استفهاميّةٌ بمعنى: (كيف أو (مِنْ أين)، أي: كيف، ومن أين لهمُ التّناوشُ؟ والاستفهامُ مجازيٌّ، معناه الإنكارُ والنّفي والاستبعاد، على طريقة المجاز المرسل لعلاقة الإطلاق والتّقييد، أي: يبعُد لهم التّناوشُ منَ المكان البعيد، كأنّه قيل: لا سبيلَ لهم إلى تناول الإيمان؛ لذهاب أزمانِ التّكليف[3].

خروجُ الوقتِ مؤذِنٌ بفوات الفُرصة

ويُراد بـ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ السّؤالُ عن موضع التّناوش، وعن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.
(2) الخطيب، التفصيل في إعراب التنزيل: 22/ 184.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 311، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 22/ 183.

حالتهم التي هم فيها، وكلاهما استفهام غيرُ حقيقيٍّ، فالغرضُ مِنَ العدول إلى (أنى) توسيعُ المعنى، وزيادتُه فبدل أن يكرِّر عدّةَ تعبيرات لإفادة هذين المعنيَين جمعهما بلفظ واحد[1].

دلالةُ القيدِ ﴿لَهُمُ﴾ وسرُّ تقديمِه:

اللّام في: ﴿لَهُمُ﴾ من قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾ للاختصاص؛ لكونِ الاستفهام عنهم، والتّناوش المذكورِ خاصًّا بهم، وقُدّم الجارُّ والمجرور على المبتدأ: ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾؛ لكون الاستفهامِ عنه، فهمُ المقصودون منَ الاستعجاب بالاستفهام.

دلالةُ مجيءِ ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ على صيغة (التّفاعل):

التّناوشُ: مصدرٌ قياسيٌّ للخماسيِّ (تناوش)، وزنه (تَفاعُل) بفتح التّاء وضمّ العين، و(تفاعُل) يدلُّ على المشاركة والمطاوعة، والمطاوعةُ هنا في الآية منفيّةٌ بانتفاء التّناوش، وتصويرُ تلك المُطاوعة حاصلٌ؛ لأنّ المتناوِل لما يُريد، كأنّه حتّى يحصلَ عليه يُحاوِل التقاطَه، فيعزُبُ عنه ذلك المُراد؛ لِبُعدِه، وكأنّ المُراد لّما لم يكن في الإمكان، كان كأنّ له إرادةً امتنع بها على مُريدِه، أو أنّ المطاوعة منفيّةٌ باعتبار إرادةٍ حقيقيّةٍ فيمن يملك أمْرَ الشّيءِ المُرادِ، وهو اللّٰه سبحانه المؤثّرُ والفاعلُ الحقيقيّ في كافّة الشّؤون عطاءً ومنْعًا[2].

> الله هو الفاعلُ الحقيقيُّ في كلّ شأنٍ عطاءً ومنعًا

نكتةُ التّعبير بالتّناوش دونَ التّناول:

عبّر بالتّناوش دون التّناول في قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾؛ لأنّ الذي يتناول الشّيء إذا كان عن قرب يقال: تناولَه وأدركه، وأمّا إذا كان عن بعد فيقال: تناوشَه[3]، وهذا مبنيٌّ على أنّ التّناوش هو تناولٌ للشّيء في غير حينه ووقته، فيكون تناولًا للبعيد، وهو ما

> التّناوشُ محاولةُ قبْضِ ما ينفلِتُ ولا يتأتّى الإمساكُ به

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 255 - 256.
(2) صافي، الجدول: 11/ 245.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 311.

يَتعذّرُ ولا يحصلُ[1]، وقيل: عبّر بالتّناوش دون التّناول؛ لأنّ التّناوش هو تناولٌ مخصوصٌ بالسّهل القريب[2]، فكأنّه عبّر به هنا نكايةً وتعريضًا بهم، ونعيًا عليهم؛ لأنّهم حينئذٍ يجعلون الصّعب سهلًا، والبعيدَ قريبًا، وهو تناول أسبابِ الإيمان في غير زمن التّكليف، فهم يريدون تناوشَها وكأنّها سهلةٌ قريبة، وهيهات! فهي متعذّرةٌ بعيدةٌ، فكأنّه قال: وأنّى لهم تناولُ مرادِهم وقد بَعُدوا عن مكانِ إمكانِ ذلك[3]! وعلى كلا الوجهين السّابقين، فالتّناوش: تناولٌ مخصوصٌ بحالٍ مخصوصة.

التّناوشُ لا يُقال إلّا فيما قَرُب، فالشّيءُ البعيدُ يؤخَذُ ويُتناوَل ولا يُتناوَش

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ في ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، مثّل حالَهم بحالِ من يريد أن يتناول الشّيءَ من بُعد، كما يتناوله الآخَرُ من قُرب، وهذا تمثيلٌ على طلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعَهم إيمانُهم بعد نفادِ وقت التّكليف والتّوبة[4]، فقوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾: أنّ التّناوش إنّما يكون من مكان قريب، وهم يتناوشون الشّيءَ البعيد منَ المكان البعيد؛ ولذلك فلن يحصل لهم مبتغاهم؛ لإخلالهم بشرط القُربِ الذي لا بدّ منه في معنى التّناوش.

البعيدُ عسِرٌ، فتناولُه متعذِّرٌ، والقريبُ مزهودٌ، فعدمُ تناولِه حماقةٌ

بيانُ إجراءِ النّظمِ على التّشبيه المفردِ المفرّق:

يصحُّ إجراءُ قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ على التّشبيه المفرّق المفرد، بتشبيه جزءٍ بجزء، ولفظٍ منَ الجملة بما يناسبُه، فيشَبَّه السّعيُ بما يحصل بسرعة بالتّناوش، ويشبّه فواتُ المطلوبِ بالمكان البعيد، كالحوض بعيدِ القعر يُلتمَسُ منه الإمساكُ بالسَّمَكِ فيه، فيفلِت ويفوت ويعسُر على التّناول، أو كالحوض تَنوشُه

(1) الثعلبي، الكشف والبيان: 22/ 138.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 593.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 426.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 566.

الإبل، أي: تشربُ منه ما علا منَ الماء؛ لأنّه السّهل القريب، ولا تغوص في قعره لتشرب؛ لكونه البعيدَ العَسِرَ[1].

بلاغةُ الطّباقِ في ﴿مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾، و﴿مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾:

الأماكنُ ثابتةٌ، وقربُها أو بُعدها بحسب السّاعين إليها

بين قوله تعالى: ﴿مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ في الفاصلة السّابقة، وقولِه: ﴿مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ هنا - محسّنُ الطّباق البديع، وهو طباقٌ بالإيجاب، صُرِّح فيه بإظهار الضّدّين[2]، وفي اجتماعهما تلميحُ انحسارِ الأماكن عليهم؛ فقربُ مكانهم دليلُ سهولة أخذهم، وسرعته، وبُعد المكان دليلُ انتفاء الحصول على مبتغاهم مهما سَعوا.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفزعُ والرّعبُ:

الفزَعُ إنِ استمَرّ صار رُعبًا!

الفزع والرّعبُ كلاهما من أجناس الخوفِ المخصوصةِ، فالفزَعُ: انقباضٌ ونُفورٌ يعتري الإنسانَ منَ الشّيءِ المُخيف، وهو من جنس الجزَع، يعني يقطع الإنسانَ ويصرفُه عن مُلاحظة ما هو بصدده، فهو حاجِبٌ وصارِفٌ كالجزَع، ويمكن أن يقال: إنّ الفزع هو الخوفُ الصّادِم المفاجئ الذي يزلزل القلبَ ويحطّمُه؛ لمُلاقاته هَوْلًا غيرَ معهود، ولذا يذعرُ ويفْرَق، كأنّه بالفزع صارت نفسُه أبعاضًا وتفاريقَ من قوّة الانزعاج والمفاجأة والزّعزعة؛ ولذا عبّر هنا في الآية بـ﴿فَزِعُواْ﴾؛ لملاقاتهم هَوْلًا غيرَ معهود، فيخرج به القلبُ عن عهْدِه فيفزعُ[3]، وأمّا الرّعب فيقترن بمعنيَيِ الانقطاع، والامتلاء، فهو خوفٌ يملأ النّفْسَ ويُغرِقُها ذُعرًا حتّى تتقطّع عزائمُها وتصيرَ تفاريقَ ممزّقةً، والرُّعبُ ناقِضٌ للعزائم دائمٌ، وهو طويلُ المدى عنِ الفزع، ولذلك جعله اللّهُ أداةً للنّصر على الأعداء، فقال: ﴿سَأُلۡقِي فِي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 243.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.

(3) ابن فارس، المقاييس: (فزع)، والراغب، المفردات: (فزع - جزع)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فزع - رعب).

﴿قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأنفال: 12]، ولم يأتِ الرّعبُ في القرآن في أحوال الآخرة، بل جميعُ سياقاته في الدّنيا، ولعلّ السرَّ في ذلك أنّ الرّعب طويلٌ أمَدُه، ويومَ القيامة سريعٌ حسابُه ناجِزٌ في أهوالِه؛ لأنّها متبوعةٌ بالجنّة أوِ بالنّار، وعليه نستطيع التّفريق بين الفزع والرّعب، بأنّ الفزع طَرَفٌ منَ الرُّعب، وذلك لاقتران الفزع بفجْأةٍ تُخيف، بدليل قولِه تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾ [ص: 22]، ولذلك كان غيرَ مستمِرّ، أمّا الرّعب فقد يستمِرُّ ويطول، مع ما في الرُّعبِ مِن اتّساعٍ وتبسُّطٍ للخوفِ في النّفْس[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رعب).

﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ٥٤﴾ [سبأ: 53 - 54]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لكلِّ وقتٍ واجِبُه

لمّا بيّن في الآية السّابقة أنّهم لا إمكانَ لهم بالظَّفَر بمطلوب الدّنيا منَ التّكاليف وهم في الآخرة، ولا يقعُ لهم حسابٌ ولا جزاءٌ وهم في الدنيا، بيّن اللّه تعالى هنا أنّ إيمانَهم لا نفع فيه بسبب أنّهم كفروا به من قبلُ، وقد خرج وقتُ الدّنيا، فلا يمكنُ لهم استدراكُ ما فاتهم فيها، وإنْ أمْكَن فلا يُقبَلُ ولا ينفعُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَقۡذِفُونَ﴾: (قذف) أصلٌ يدلُّ على الرّمي والطّرح، وهو: الرّميُ البعيد، والدَّفْعُ بغلَظٍ إلى مسافة بعيدة[2]، ولمّا كان القذف: هو الرّميَ باليد من بُعدٍ، عُبّر عنه في الآية للدّلالة على القول بدون تروٍّ ولا دليل[3].

2) ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾: (غيب) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على تستّر الشّيء عنِ العيون، ثم يُقاس، ومن ذلك الغَيْب: ما غابَ ممّا لا يعلمُه إلّا اللّه، ويُقال للشّيء: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنّه لا يغيبُ عنه شيء[4]، ومعنى ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ في الآية: أي: من حيث لا يدركونه ببصرهم وبصيرتهم[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 217.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قذف).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (غيب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غيب).

3) ﴿وَحِيلَ﴾: أصلُ (حول) يدُلُّ على انفِصالِ الشَّيءِ عن غَيرِه، والحِوالُ كُلُّ شيءٍ حالَ بَين اثنَيْن، وهو الحاجِزُ الذي يحيلُ بين الشّيء وغيره[1]، والمرادُ به في الآية: أي: حُجِزَ ومُنِعَ[2].

4) ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾: (شيع) أصلانِ يَدُلُّ أَحدُهُما على مُعاضدةٍ ومساعفةٍ، والآخرُ عَلَى بَثٍّ وإشادَةٍ[3]، والأشياعُ: جمعُ شيَع، والشّيَع: جَمعُ شيعة، وهم كُلُّ قَومٍ اجتَمَعوا على أمرٍ، وأصلُه مِنَ التَّشييعِ، وهو التَّتَبُّعُ والتَّقويةُ، والمرادُ به هنا: بأشباهِهِم مِن كَفَرةِ الأُمَم، كقوم نوحٍ وفرعون وعاد وسائرِ المُتْرَفين[4].

5) ﴿مُّرِيبِۭ﴾: أصلُ (ريب) يدُلُّ على شَكٍّ، والرّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمَأْنينةِ، والرّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السّوءِ، فهي قِسمٌ مِنَ الشَّكِّ[5]، و﴿مُّرِيبِۭ﴾ هنا اسمُ فاعل، أي: موقِعٌ في التّهمة ومَوْرِدٌ للشّكّ وباطل الظّنّ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ يومَ القيامة للمفرّطين شأنٌ يُشتَهى بعدما كان شأنًا يُستثقَل ويُمَجّ

يخبر المولى سبحانه أنّ هؤلاء المُدّعين الإيمانَ في ساعة الفزع، قد كفروا بهذا الدّين في الدّنيا، وكانوا ينطقون بأقوالٍ لا علمَ لهم بها، وبينها وبين الحقّ والصّدق مسافاتٌ بعيدةٌ، فقد نسبوا إلى اللّه تعالى الولدَ والشّريك، وقالوا في الرّسول ﷺ: إنّه ساحر، وفي شأن البعث: إنّه لا حقيقةَ له، وفي شأن القرآن: إنّه أساطيرُ الأوّلين[7]، وهكذا كانوا يرمون بالظّنّ من جهة بعيدة عن إصابة الحقّ، ليس

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حول - حيل)، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حول).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 73.
(3) ابن فارس، المقاييس: (شيع).
(4) الراغب، المفردات: (شيع)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 309، والواحدي، البسيط: 8/ 204، والنيسابوري، غرائب الفرقان: 5/ 504.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، و الأزهري، تهذيب اللغة: (ريب).
(6) الشوكاني، فتح القدير: 2/ 576.
(7) طنطاوي، الوسيط: 11/ 311.

لهم فيها مستندٌ لظنّهم الباطل، فلا سبيلَ لإصابتهم الحقَّ، كما لا سبيل للرّامي إلى إصابة الغرضِ من مكان بعيد، وكانت نتيجةُ عدمِ صلاحية إيمانهم في غير الوقت، أنْ حُجِزَ بين هؤلاء الكفّار وما يشتهون منَ التّوبة والعودة إلى الدّنيا ليؤمنوا، كما فعل اللّٰه بأمثالهم من كفرة الأمم السّابقة، إنّهم كانوا في الدّنيا في شَكٍّ من أمر الرّسل والبعثِ والحساب، مُحْدِثٍ للرّيبَة والقلق، فلذلك لم يؤمنوا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو في قوله: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾:

الكافرُ لا مبدأ له غيرُ النّفعيّةِ

جملةُ: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ﴾ حاليّةٌ منَ الضّمير في ﴿بِهِۦ﴾ أو منَ الفاعل في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ في جملة: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: وقالوا آمنّا به والحالُ أنّهم قد كفروا به من قبلُ، فالواو في قوله: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ﴾ مجتلَبَةٌ لضمّ هذه الجملة إلى الجملة التي قبلها في اجتماع معنيَيهما في نفس الوقت، ولذلك تسمّى واوَ الوقت، أي: اجتمع قولُهم: آمنّا به، مع كفرِهم به من قبلُ، فثبوتُ كفرهم مجتمعٌ في وقتٍ واحد مع ادّعاء إيمانهم[1].

بلاغةُ الطّباقِ بين الإيمانِ والكفرِ:

الآخــرةُ محلُّ حســابٍ، وليست محلَّ قَبولِ الإيمان

بين قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ هنا، وقولِه تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ في الآية السّابقة جناسُ إيجابٍ فائدتُه تسجيلُ كذبهم عليهم وتوكيدُه بـ (قد) التحقيقيّةِ، وصيغةِ الفعل الماضي الدّالِّ على تحقّق فعلِ كفرِهم ووقوعِه منهم في الدّنيا بعد تصريحهم في الآخرة بالإيمان، وفي ذلك ترسيخُ أنّ إيمانهم مُدّعىً لا نفعَ منه؛ إذ صرّحوا به خوفًا بعد فزعهم من رؤية شدّةِ العذاب، فضلًا عن أنّ الدّنيا هي محلُّ قَبول الإيمان وليست الآخرة.

(1) صافي، الجدول: 11/ 244، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 298، 300.

معنَى (الباء) في القيد ﴿بِهِۦ﴾:

كَفَروا بما آتاهم من قبلُ في وقت التّمكّن من الإيمان

الباء في ﴿بِهِۦ﴾ من قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ للتّعدية، وهي الباءُ المعاقبة للهمزة، وتسمّى باءَ النّقل، ومعناها تأكيدُ تعدية فعلِ الكفر إلى مفعوله الهاء العائدةِ على الرّسول ﷺ؛ إذ وصفوه بالسّاحر، وعلى البعث؛ إذ أنكروه، وعلى القرآن إذ كذّبوه.

معنَى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾:

الزّمانُ هو العُمُر، وكلٌّ يُسألُ عن زمنه

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ ابتدائيّةٌ، ولم يقل: (كفروا به قبل) بإسقاط الجارّ؛ لعدم استغراق زمانِ القَبليّة؛ لأنّ زمن القَبليّة في الدّنيا من زمان تكليف، وما قبل زمان التّكليف حيث كانوا غيرَ مستوفين لشرائط أهليّة التّكليف، فأراد بالقَبليّة زمانَ التّكليف فقط، لا جميعَ زمانهم في الدّنيا، ولذلك أدخل ﴿مِن﴾، لإرادة أقربِ زمان منهم، وهو زمنُ تكليفهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالقَبْليّة في القيد ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾:

حين يرتبطُ الكلامُ بزمنٍ ما، فلا بدَّ من تحديده وتوثيقه بالقرائن

قولُه تعالى: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ متعلّق بالفعل: ﴿كَفَرُواْ﴾، وقيّده به؛ للدّلالة على مناط كفرهِم، بتعيين ظرْفِه، وهو أوانُ التّكليف الذي دلّت عليه القَبْليّة، ولو قال: (وقد كفروا به) ولم يذكرِ الظّرف؛ لكان إبهامًا وإيهامًا[1].

لطيفةُ حذفِ المضافِ إليه ﴿قَبۡلُۖ﴾:

لم يُذكرِ المضافُ إليه في قوله: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾، فلم يُقل: (من قبل أيّ شيء تحديدًا)، طلبًا للإيجاز؛ لكون المقصودِ بالقَبليّة واضحًا، وهو زمنُ التّكليف والاختيار في الدّنيا[2].

موقعُ جملة: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾:

التّمادي في الكذبِ والبُهتانِ وادّعاء العلم والمعرفةِ

جملةُ: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ عطفٌ على جملة الحال ﴿وَقَدۡ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 140.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 140.

﴿كَفَرُواْ﴾ فهي حالٌ ثانية، والتّقديرُ: (وكانوا يقذفون بالغيب)[1]، فلم يكونوا يكتفون بالكفر، وإنّما يُصرّون عليه متمادين في الكذب والزّور بكلامٍ من غير تأنٍّ، ولا علمٍ ولا دليل.

بلاغةُ الاستعارةِ في التّعبير بالقذف:

رميُهمُ الكلامَ بعيدًا عن موقعه المُستحَقّ

أصلُ القذف: الرّمي باليد من بُعْدٍ، وهو هنا مستعارٌ للقول بدون تروٍّ ولا دليل؛ إذ نزّلَ الأقوالَ الوارِدة على غير منازلها منَ الحقّ والصّدق منزلةَ رمْيِ الشّيء بعيدًا عن مَرماه، وكأنَّ للأقوال مَرمًى قريبًا، وهي مواقعُها في الصّدق والحقّ، ومرمًى بعيدًا، وهي مواقعُها في الكذب والزّور، ففي استعمال القذفِ هنا في مجاري الأقوالِ استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ إذ شبّهها بمرامي المقذوفات البعيدةِ، أي: يتكلّمون فيما غاب عنِ القياس من أمورِ الآخرة بما لا علمَ لهم به، إذ أحالوا البعثَ والجزاء وقالوا لشركائهم: هم شفعاؤنا عند اللّه[2].

القذفُ في القول هو الكَذِبةُ التي لا التباسَ في بُطلانِها

ويصحُّ إجراءُ التّركيب في قوله: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ على طريقة الاستعارة التّمثيليّةِ، بتشبيه حالهم في تقوّل الأباطيلِ من غير عِلمٍ ولا برهانٍ بحالِ من يقذفُ شيئًا وهو غائبٌ عنه لا يراه، فهو لا يصيبُه البتّة[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿وَيَقۡذِفُونَ﴾:

مجيءُ الفعل على صيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لحكاية الحالةِ الماضيّة، واستحضارِ كونِها كانت حالًا مستمرّةً لهم ومتجدّدةً، فقد كان ذلك ديدنَهم[4].

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿وَيَقۡذِفُونَ﴾:

حُذفَ مفعولُ ﴿وَيَقۡذِفُونَ﴾ من قوله: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لدلالة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.

فعل ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ عليه، أي: يَقذفون بمقولات الكفر وأفاعيلِه، فيرمون بها جزافًا[1].

معنَى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾:

من أخذَ الغيبَ بغيرِ الوحي فقدِ افترى الكذبَ

الباءُ في قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ للملابسة، أوِ السّببيّة، والمعنى على الملابسة: أي: يحكمون على ما غاب عنهم بالظّنّ وعدمِ العلم، ويكون قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ضدَّ قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3][2] أي: يؤمنون بحقّ الغيب المعلوم الثّابتِ المقطوعِ به، كأنّه قيل: يقذفون الباطلَ مُلتبِسًا بما غاب، فلم يشهدوه أو يعلموه، أوِ المعنى: يقذفون الأحكامَ حالَ كونِهم ملتبسين بالغيب، أي: وهم غائبون عمّا يحكمون عليه، فيقعُ حكمُهم موقِعَ الزّيف وعدمِ الإصابة[3]، والسّببيّة على معنى: يقذفون بالباطل بسبب كُفرِهم بالغيب الذين كُلّفوا بالإيمان به، فالكلامُ على تقدير مضافٍ.

معنَى (أل) في: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾:

الغيبُ هو الحقُّ الذي غاب عنِ الشّهود في نفسِه

(أل) في ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ من قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ للعهد، أي: يتكلّمون بما غاب عنهم من حقائق الإيمان؛ منَ البعث والحساب، والجنّة والنّار[4]، فكان قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ في معنى: (ويكفرون)، كأنّه قيل: ويكفرون بهذه الأمور الغيبيّةِ بنفيها أو تحريفِها.

بلاغةُ الجناسِ التّامِّ بين الفاصلة هنا والتي قبْلها:

من كان بعيدًا في الدّنيا، فهو في الآخرة في بُعدٍ، فالجزاءُ من جنس العمل

بين قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، وقولِه: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ جناسٌ تامٌّ في: ﴿مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ في الموضعين، في عدد الحروف وهيئتِها وترتيبِها، واختلافٍ في المعنى، فالمكانُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 217.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 73.

البعيد في الموضع الأوّل: الآخرة، وفي الموضع الثّاني: الدّنيا[1]، والجمع بينهما استحضارُ عِظَةٍ لحالَين أحدُهما حالٌ، والآخرُ مآلٌ؛ والجزاءُ من جنس العمل.

بلاغةُ الوصلِ في ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ﴾:

جملةُ ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ﴾ معطوفةٌ على الجُمل الفعليّةِ قبْلَها: ﴿فَزِعُواْ﴾ ﴿وَأُخِذُواْ﴾، وعلّةُ وصلها بهما أنّ قوله: ﴿وَحِيلَ﴾ داخلٌ ضمْنَ أفراد الوعيدِ التي لحقت بهم، وهي: الفزعُ، والأخذ، والحيلولة[2].

دلالةُ التّعبيرِ بِفعل الحَيلولة:

التّعبيرُ بفعل الحَيلولة في قوله: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾؛ ليدلَّ به على الانفصال القهريّ الذي جرى عليهم؛ لعزْلِهم عن مُشتهياتِهم التي عزّ عليهم فواتُها، فالحَيلولة تفيدُ العزلَ القهريَّ الذي يورث الحزَنَ والإيلامَ النّفسيّ؛ لحصوله بعد ظنّ الإمكان، وتعوّدِ التّوقّع والحصول، فيكون الانحجابُ أقوى وأقهرَ وأنكى[3].

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿وَحِيلَ﴾ للمفعول:

جاء الفعلُ ﴿وَحِيلَ﴾ على بناء ما لم يُسمَّ فاعِلُه، في قوله: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ للإشارة إلى أنّ حصول الحَيلولة بأسهلَ ما يكون، فلِسهولة الفعلِ واقعًا طوى الفاعلَ ولم يسمِّهِ لفظًا؛ ولأنّ النّاجعَ فيهم بالإيلامِ والنّكاية هو نفسُ الحيلولة، لا كونُها من فاعلٍ معيّن، وأيضًا في طيّ الفاعل تسريعٌ بقهرهم بتلك الحيلولة، وتمحيضٌ لها في إجرائِها عليهم[4].

سِرُّ التّعبيرِ بالظّرفِ (بين) وتَكرارِه:

البينيّةُ في قوله: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ تدلُّ على

مَن حادَ عن الإيمان مختارًا في الدّنيا حيلَ بينه وبينه في الآخرة

العزلُ القهريُّ عمّا ينفعُ يورثُ الحزنَ والجزعَ

يُسْرُ قهرِهم، وسرعةُ إيقاعه، وجْهُ ذلِّ جزاءَ لكفرهم

يومُ الحسابِ هو يومُ الحزن والفِراق لكلِّ مُستكبِر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 245.
(3) الراغب، المفردات: (حول).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 539.

الظّرفيّة المكانيّة، وظرفُ البينيّة هنا يدلُّ على الفراق، كأنّه قيل: افترقوا عن مكانِ ما يشتهون، وافترقتْ مُشتهياتُهم عن مكانهم، وفي تكرير البينيّة ما يفيدُ تأكيدَ حصول الفراق في الجانبين[1].

بعدَ فواتِ زمنِ التّكليف كلُّ مُشتَهىً للكافر أيًّا كان ممنوعٌ

دلالةُ ﴿مَا﴾ في: ﴿مَا يَشۡتَهُونَ﴾:

يصحُّ أن تكون ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يَشۡتَهُونَ﴾ موصولةً، والعائدُ محذوفٌ، أي: الذي يشتهونه، وتعريفُ الجملة بالصّلة؛ قد يفيد التّعظيمَ بسبب العَهديّةِ المفهومة منَ الموصول وصلتِه، أي: انتفاعُهم بالإيمان بعد فوات زمنِ التّكليف، وما يتوقّف عليه حُسنُ المصير من عدمه، فهو أعظمُ مقصود، وأشرفُ مطلوب، وقد يفيد العمومَ مع الإبهام من غير تعيين؛ زيادةً في الوعيد والتّرهيب، لكون كلِّ مُشتَهىً أيًّا كان سيفوتُهم، حتّى يصل بهم الحالُ إلى يأسهم من تخفيف العذاب، واشتهائِهم وِردًا من ماء يُغاثون به كما في قوله: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: 50][2].

ويصحُّ أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريّةً - تؤوّل مع مدخولها بمصدر، أي: حيل بينهم وبين اشتهائهم أو مشتهاهم، والمصدرُ المؤوّل ينتظمُ فيه معنى الثّبوت المصدريِّ، ومعنى التّجدّد والاستمرارِ الفِعليّ، فتحصل بذلك المبالغةُ في تصوير تلك المشتهيات في إلحاحِها عليهم، بما يزيد من ضغط الاحتياجِ إليها في نفوسهم، فيزدادون ألمًا فوق الألم؛ لفواتها وفقدِها[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالاشتهاء:

فواتُ المرغوبِ مع اللهفة في الحرص عليه يزيدُ منَ الألم والحسرة

عبّر بالاشتهاء في قوله: ﴿مَا يَشۡتَهُونَ﴾؛ للتّنبيه على كمال اللهفة في تمنّي المُراد، وللإشارة إلى أنّه بفواتِه منهم قد فاتهم كمالُ اللّذّة، وحصل لهم تمامُ الألَم، ولذلك لم يقل: (ما يحبّون أو

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 209.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 122.
(3) الخطيب، التفصيل في إعراب التنزيل: 22/ 186.

يتمنّون)؛ لتصويرِ مدى أثرِ فواتِ تلك المرغوباتِ عنهم في بشاعةِ العاقبة وشناعةِ المصير.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَشۡتَهُونَ﴾:

حُذف مفعولُ ﴿يَشۡتَهُونَ﴾؛ للعلم به بدلالة السّياقِ عليه، وهو انتفاعُهم بإيمانهم ونجاتُهم منَ النّار[1]، أو للإعمام، فيتناول الحيلولة بينهم وبين كلِّ مرغوبٍ لهم ولو كان ضئيلًا، ولا يخفَى ما فيه من تهويل الحِرمان الذي لحِقَ بهم وتشنيعِه، وكأنّ غياب ما يشتهونه وحرمانَهم منه واقعًا اقتضى غيابَه لفظًا.

لا حرمانَ أشدُّ من منْعِ الانتفاعِ منَ الإيمان، والنّجاةِ منَ النّار

بلاغةُ التّشبيهِ المُرسلِ في الآية:

في قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ﴾ شبَّه فيه هؤلاء المذكورين بالحيلولة بينهم وبين مشتهياتِهم من دفْع العذابِ عنهم، بمثالِ مَن قبْلَهم ممّن كانوا على شاكلتهم فلم يُجابوا إلى ما اشتَهَوا، ولم يُسْعَفوا؛ إذِ استغاثوا، مثلَ قومِ نوح وعاد وصالح ﵇، وغيرهم[2].

سنّةُ الله ماضيةٌ لا تتخلّفُ عن قومٍ دون قومٍ

فائدةُ القيدِ بقوله: ﴿مِّن قَبۡلُۚ﴾:

ورودُ القيدِ بالمتعلّق في قوله: ﴿فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ﴾ يؤيّدُ ما ذكره بعضُ المفسّرين بأنّ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ﴾ يعني: عندَ الموت؛ لأنّه قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ﴾، أي: قبْلَ زمانِهم[3]، وهذا فعل ماضٍ يدلُّ على أنّ هذا أمرٌ قد مضى على من سبقَ، ولو كان يومُ القيامة لم يكن قد مضى من قبلُ[4].

لا جديدَ في التّاريخ، مصارعُ الظّالمين تتشابهُ في السّبيل والمصير

دلالةُ التّعبيرِ بمُفردةِ الفعلِ في ﴿كَمَا فُعِلَ﴾:

عبّر بلفظ (الفعل) في قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم﴾؛ للدّلالة على أنّ إنزال الحرمانِ بهم هو جارٍ بتأثير القُدرة وقوّة القهر، فيقعُ على

مادّةُ (فعل) تدلُّ على تقرير المقاصدِ وإنجاز النّيّاتِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 252.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 245.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 539.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 318.

الوجه التّامّ منَ الإنجاز والتّحقيق؛ لأنّ (الفِعل) يُعبّرُ به عنِ القدرة على الشّيء[1]، وعلى التّأثير من جهة المؤثّر[2]؛ ليدلَّ على أنّ ما وقع بهم هو منَ الفاعل الذي لا يجري شيءٌ خارجَ فِعله وتأثيره، وقد كانوا في الدّنيا يُنكرون فِعلَه سبحانه، بل ويَنسبون ما هو له منَ الفِعل إلى شركائهم ومعبوداتهم الباطلةِ، فَلابَسَهم فِعلُ ما أنكروه، وحاق بهم ما لم يعبؤوا به، فاستعملَ لذلك مادّةَ الفِعل الدّالّةَ على أصل الإحداث الذي يستلزمُ الأداءَ أوِ التّنفيذ الجادّ الذي لا فتورَ فيه ولا تساهلَ[3].

نكتةُ بناءِ ﴿فُعِلَ﴾ لغير فاعِلِه:

كما طوَى الفعلَ في الزّمن سرعةً طوَى فاعلَه في النّظم حذفًا

بناءُ ﴿فُعِلَ﴾ على صيغة ما لم يُسمّ فاعلُه في قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم﴾، مع مجيئه على صيغة المضيّ؛ لتسريع حركةِ النّظم بما يدلّ على سرعة حركةِ المعنى في الإنجاز والتّحقيق، أي: فُعِلَ بهم ذلك بأيسرِ وجهٍ، فهلكوا في لمح البصر كأن لم يَغنوا فيها.

معنَى (الباء) في القيد ﴿بِأَشۡيَاعِهِم﴾:

والباءُ في: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم﴾ لتعدية الفِعل، ومعناها الإلصاقُ، أي: ألصق بهم ما فُعِل بهم.

وجهُ المجازِ في إطلاق الأشياعِ على النُّظراء:

كلُّ شبيهٍ بشبيهه يلتحقُ

(الأشياعُ) في قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ﴾ المُماثِلون لهم في أصل الكُفر، والمُشابِهون لهم في أصل المصير والعاقبة، فهذا التّشابهُ بينهم يجعلُهم كأنّهم منهم، فلذا عبّرَ عنه بأشياعِهم[4]، وأصلُ المُشايعة: المُتابَعةُ التي يتقوّى فيها النّظيرُ بنظيره، فيصيرُ ما بينهما ممّا تماثلا فيه مُشاعًا بينهما، كأنّ أحد الطّرفين شاع

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (فعل).
(2) الراغب، المفردات: (فعل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فعل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شيع).

في الآخَر وبُثَّ فيه، وتفرّقَ في أنحائه، حتّى صار كأنّه هو؛ لِتوافق لِتوافُق ما بينهما وتماثُله[1]، فأطلقتِ المُشايعةُ - هنا - على مُطلق المُماثلة على سبيل المجاز المرسَل بقرينة قوله: ﴿مِّن قَبۡلُۚ﴾، أي: كما فُعِل بأمثالهم في الدّنيا من قبلُ، وأمّا يومُ الحشر فإنّه يُحال بينهم وبين ما يشتهون، وكذلك أشياعُهم في وقتٍ واحدٍ[2].

موقعُ جملةِ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ﴾:

الاستقرارُ على الشّكّ دليلٌ على تمحّض الكفر

جملةُ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ﴾ تعليليّةٌ لِما قبلَها، والافتتاحُ بـ(إنّ) المؤكّدةِ أغنى عن حرف التّعليل، كأنّه قيل: (ما نزل بهم منَ الوعيد منَ الحيلولة بينهم وبين رغائبهم؛ ذلك لأنّهم كانوا في الدّنيا في شكٍّ من أمرِ الإيمان، واستمرّوا على هذا الشّكّ وارتضَوهُ، فكان الاستقرارُ على الشّكّ مؤدّيًا لتمحيض الكفر)، ويصحُّ أن تكون الجملة استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤال يثيرُه قوله: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ كأنّ سائلًا سأل: هل كانوا طامعين في حصول ما تمنّوه؟ فأجيب: أنّهم كانوا يتمنّون ذلك، ويشكّون في استجابته، فلمّا حيل بينهم وبينه غشيَهم اليأسُ، واليأس بعد الشّكّ أوقعُ في الحزن منَ اليأس المتأصِّل[3].

نكتةُ جعلِ حالتِهم شكًّا في ﴿شَكّٖ مُّرِيبِۭ﴾:

الشّكُّ واليقينُ في الكفر متساويان في الحُكم والمآل

تعليلُ مصيرهم في قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾، بما استحوذ عليهم من حال الشّكّ في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ﴾؛ للدّلالة بالأدنى على الأعلى في الحكم؛ لأنّه إذا كان من أحوالهم الشّكُّ في الإيمان، وكان ذلك كُفْرًا، فأوْلَى منه في تقرير كفرِهم: حالُ تيقّنِهم منَ الكفر؛ فلئلّا يُتوهّمَ أنّ الشّكّ في الإيمان

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شيع).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 245.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 245.

والاستمرارِ عليه ليس مؤثّرًا في حقيقة الإيمان بالانتفاء والزّوال، فخصّه بالذّكر؛ للتّنبيه على أنّ كلًّا من شكِّ الكافر أو يقينِه في إنكار قضايا الإيمان يتساويان في المآل، مِنْ نفيِ الإيمان، وعدمِه، وعدمِ النّظر في دليله(1).

دلالةُ التّعبيرِ بالكون الماضي:

عقابُ الله مستحَقٌّ، فليس مظلومًا من جوزي به

فائدةُ الكونِ الماضي في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ﴾، فلم يقل: (إنّهم في شكّ)؛ زيادةً في تحقيق النّسبة بين الاسم والخبر، للدّلالة على أنّ حالهم في الشّكّ كان عريقًا، يجري منهم مجرى الدّم، ويُلازمُهم ملازمةَ الطّبع والجبِلّة، ولا يخفَى ما في ذلك منَ الدّلالة على استحقاقهم ما حاق بهم منَ العقوبة، فلم يكونوا معذورين أو مظلومين(2).

دلالةُ حرفِ الظّرفيّةِ: ﴿فِي﴾:

تحقيقُ الكفرِ باستعمال حرفِ الوعاء

لم يقل في السّياق الكريم: (إنّهم كانوا شاكّين)، بل قال: ﴿كَانُواْ فِي شَكّٖ﴾، أي: غارقين في الشّكّ واقعين فيه، مشمولين به، فكأنّه صار وعاءً لهم، فحرفُ الظّرفيّة يدلّ على تحقيق كفرهم، وشدّةِ غفلتهم(3).

بلاغةُ المجازِ في وصف الشّكّ بالمُريب:

شكُّ الكافر متجذِّرٌ فيه كالطّبْع والجبِلّة

وصفُ الشّكّ بكونِه مريبًا في قوله: ﴿فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ﴾ هو من وصف المعاني بصفات العقلاء والأعيانِ والذّواتِ، فهو منَ المجاز العقليِّ، بإسنادِ ما هو لصاحب الشّكّ (الذّات)، إلى الشّكّ نفسِه (المعنى)؛ للمبالغة في إزهاق باطِلهم، بجعلِه فاعِلًا للرّيبَة وموقِعًا فيها، كأنّه قال: (كانوا في شكٍّ مُشكِّك) كقولهم: (لَيۡلٌ ألۡيَل)، أي: مُتكاثِفُ الظّلمة، فظلامُه ليس كسائر الظّلمات(4).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 246.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 540.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 540.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 594.

بلاغةُ الاستعارةِ في وصفِ الشّكّ بالمريب:

الشّكّ ينخرُ في النّفس حتّى يؤذيَها كما لو كان إنسانًا يؤذي

ويصحُّ إجراءُ التّركيب: ﴿شَكٍّ مُّرِيبِۭ﴾ على الاستعارة، بجعلِ الشّكِّ كالإنسان، ثم ينسَبُ إليه ما هو من خواصّ الإنسان وهو الإرابةُ، فيكون قد شبّه الشّكَّ بإنسانٍ يصحُّ أن يكون مُريبًا على وجه الاستعارةِ المكنيّةِ التّخييليّة(1).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القذفُ والرّميُ:

الرّميُ أعمُّ والقذْفُ أخصُّ

بين القذفِ والرّمي عمومٌ وخصوصٌ، فالقذفُ أخصّ؛ لتقيّده بالرّمْي البعيد، ولاعتبار البُعد فيه، قيل: منزِلٌ قَذَفٌ وقَذيفٌ، وبلدة قَذوفٌ: بعيدة، وأمّا الرّمْيُ فهو الإلقاءُ والطّرح للشّيء قريبًا كان ذلك أو بعيدًا، وكلًّا منَ القذف والرّمي يستعملُ في الأعيان والمعاني والمقولات، وكلاهما استعيرَ للشّتم والعيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النور: 4]، و﴿يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾ [النساء: 112]، وقوله هنا: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ هو من مقولات الغيبِ والافتراءِ على اللّه والرّسول، وعبّر هنا بالقذف، لمناسبة البُعد في قوله: ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾، ولمقابلة استعمالِ القذف في الحقّ في الآية قبلَه، في قوله: ﴿رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨﴾ [سبأ: 48] فهو يقذِفُ بحقّ الغيب أقاويلَهم الباطلةَ في الغيب، والحقُّ إذا كان مقذوفًا كان أمْكَنَ(2).

الحولُ والفصلُ والمنعُ:

الحولُ هو انفصالٌ مخصوصٌ بالتّغيّر

أصلُ (الحَوْل) يدلّ على تغيّر الشّيء وانفصالِه عن غيره، ولذلك عبّر هنا بالحَيلولة في قوله: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾؛ للدّلالة على الانفصال بينهم وبين ما يرغبون، وللدّلالة أيضًا على

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 591.

(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رمى).

أنّ ما يشتهون لم يعُدْ قابِلا لذلك، بل تغيّر، فلا ينفعُهم، فقد تحوّل عنهم، وتحوّل في نفسِه بعدم نفْعِه[1].

وأمّا الفصلُ والانفصالُ، فهو مجرّدُ حصولِ المفارَقَة والحجوزيّة بين شيئَيْن، سواءٌ بقيا على أصلهما أو تغيّرا[2].

الأشياعُ والأشباهُ والأتباعُ:

الأتباعُ أعمُّ مِنَ الأشياع، والأشباهُ أعمُّ منَ الأتباع؛ فقد يتشابهُ ما ليس بتابِع

الأشياعُ: يُقال للأتباع الذين لهم قوّةٌ وانتشارٌ بالتّبعيّة القائمةِ بينهم، فهم يتماثلون ويتشابهون في العصبيّة والقوّةِ والتّحزّب لمسلكِهم في الكفْر والباطل، والانتشارِ والشّيوع الذي هو عبارةٌ عنِ التّمكين والنّفوذ، كما كان أمثالُهم في الأمم السّابقة، وهذا معنى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ﴾ أي: نظرائِهم السّابقين في الاستقواء بالكفر والتّعصّب له، مع انتشارهم وشيوعِهم في النّفوذ والجاه، فلم يكونوا قِلَّةً أو حُثالةً، وأصلُ ذلك من (الشّياع): الانتشارُ والتّقويةُ، يقال: شاع الخبر، أي: كثر وقوي، وشاعَ القوم: انتشروا وكثروا، وشَيَّعْتُ النّارَ بالحطب: قوّيتها، والشّيعَةُ: من يتقوّى بهم الإنسانُ وينتشرون عنه، وكلُّ من فاق إنسانًا وتحزّب له، فهو له شيعةٌ، والشّيَع: الفِرَق المتحزّبة؛ لأنّ كلّ فرقةٍ تتعصّب لِما لديها وتتقوّى به، واختيرَ لفظُ ﴿بِأَشۡيَاعِهِم﴾ في الآية، بمعنى أمثالِهم السّابقين الذين هم أتباعٌ لهم في كفْرِهم، كأنّهم اطمأنّوا لباطِلِهم تقوّيًا منهم بمن كانوا عليه من قبلُ، فقد كان لهم فيه سَلَف، وهذا ممّا يقوّي ويُجَرِّئ[3].

وأمّا الأشباهُ: فهم الأتباعُ لمجرّد المُماثلةِ والتّشابه، فمعناه يتعلّقُ بالمُحاكاة في الجوهر أوِ المظهر، كما قال تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾

(1) الراغب، المفردات: (حول).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (فصل).

(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شيع).

[البقرة: 118]، أي: في الغيّ والجهالة، وهذا تشابهٌ في الكيفيّة والجوهر، وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: 23]، وهذا تشابهٌ في الظّاهر، كأنّ الآياتِ تظاهرتْ فتَبِعَ بعضُها بعضًا، فصارت أشباهًا(1).

وأمّا الأتباعُ: فمن (تبع) وهو أصل يدلّ على التُّلوِّ والقَفْوِ(2)، فالشّيءُ يتبع الشّيءَ: إذا تلاه وجاء في قفاه، فهو يدلّ على مطلق اللّحوقِ للغير في شّيء ما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ [غافر: 47]، أي: لَحِقْنا بكم في العمل والمصيرِ.

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شبه).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).

سُورَةُ فَاطِرٍ

سُورَةُ فَاطِرٍ

التّعريفُ العامُّ بالسورة:

سورةُ فاطر كلُّها مكّيّةٌ

سورة فاطر كلُّها مكّيّةٌ بالاتّفاق[1]، وذكر الطّبرسيُّ أنّ بعضهم استثنى منها آيتَين وهما: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: 29]، وقولُه: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32][2]، ولا يوجدُ دليلٌ على استثنائهما.

ترتيبُ السّورةِ في النّزولِ والمُصحفِ وعدُّ آيِ السّورة:

هي السّورةُ الخامسةُ والثّلاثون في ترتيب المصحف الشّريف، وهو التّرتيبُ الثّابت، والمُعوَّلُ عليه عند أهل النَّظرِ والتَّحقيق؛ جاءت بين سورتَيْ سبأ ويس، يقول الدّانيُّ: "وَهي أَرْبَعونَ وستّ آيات في المدني الأَخير والشّاميّ، وخمس في عدد الباقينَ"[3].

وأمّا ترتيبُها النُّزوليُّ فهي الثّالِثَةُ والأَرْبَعونَ في تَرْتيبِ نُزولِ سوَرِ القُرآنِ، نَزَلَت بعدَ سورَةِ الفُرقانِ وقبلَ سورَةِ مَريَمَ[4].

فضائلُ السّورةِ:

لم يثبتْ في فضائِلها أحاديثُ صحيحةٌ على وجه الخصوص، سوى ما تقدّم فيها وفي أخواتها أنّها منَ المثاني، فقد روي عَنْ واثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «أُعْطيتُ مَكانَ التَّوراةِ السَّبْعَ وأُعْطيتُ مَكانَ الزَّبورِ المَئِينَ وَأُعْطيتُ مَكانَ الإنْجيلِ المَثانيَ وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ»[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 247.
(2) الطبرسي، مجمع البيان: 8/ 515.
(3) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 210.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 247، دروزة، التفسير الحديث: 3/ 107.
(5) ابن حنبل، المسند، رقم: (16982).

۞ أسماءُ السّورةِ الكريمةِ وسببُ التّسميةِ:

سـورةُ فـاطـر تُـسـمَّـى سـورةَ الملائكة

يقول ابنُ عاشور: "سُمّيَتْ (سورَةَ فاطِرٍ) في كَثيرٍ مِنَ المَصاحِفِ في المَشرِقِ والمَغرِبِ وفي كَثيرٍ مِنَ التَّفاسيرِ، وسُمّيَت في كَثيرٍ مِنَ المَصاحِفِ والتَّفاسيرِ (سورَةَ المَلائِكَةِ) لا غَيرَ"(1)، وقدْ وردتْ تَسميتُها بـ (سورة الملائكة) في صحيحِ البخاري(2)، وفي سنن التّرمذيّ(3).

وقد ربط البقاعيُّ اسمَها بمقصودها فقال: "فمقصودُها إثباتُ القدرة الكاملة للّه تعالى؛ اللّازم منها تمامُ القدرة على البعث، الذي عنه يكون أتمُّ الإبقاءين: الإبقاء بالفعل دائمًا أبدًا بلا انقطاعٍ ولا زوالٍ ولا اندفاعٍ في دار المقامةِ التي أذهب عنها الحزنَ والنّصب واللّغوب، ودارِ الشّقاوة الجامعةِ لجميع الأنكاد والهموم، ولاسم السّورة أتمُّ مناسبةٍ لمقصودها؛ لأنّه لا شيءَ يعدل ما في الجنّة من تجدّد الخلق، فإنّه لا يُؤكل منها شيءٌ إلّا عاد كما كان في الحال، ولا يرادُ شيءٌ إلّا وُجد في أسرع وقت، فهي دارُ الإبداعِ والاختراعِ بالحقيقة، وكذا النّار: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: 56]؛ وكذا تسميتُها بالملائكة فإنّهم يبدعون خلقًا جديدًا كلَّ واحدٍ منهم على صورته التي أراد اللّه المطابقةِ لقدرته سبحانه وعزّ شأنُه"(4).

ويمكنُ أن يُضاف إلى ما ذكره بأنّ تسميتَها بـ (سورة فاطر) إنّما جاء لارتباط هذا الاسم بأهمّ الحقائق والمفاهيم التي عرضت لها السّورةُ الكريمة، وهي: حقيقةُ الإله، والكون، والإنسان، والحياة، فمن حقيقةِ الألوهيّة تنبثقُ بقيّةُ الحقائق والمفاهيم؛ فاسمُه تعالى: الفاطرُ - الذي يقوم معناه على الابتداء والخلق وشقّ الشّيء - إنّما يرتبط مع مظاهر قدرة اللّه تعالى في السّورة الكريمة، فضلًا عنِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 247، والسّيوطي، الإتقان: 1/ 194.
(2) البخاري، الصحيح: باب تفسير سورة الملائكة (فاطر): 4/ 1805.
(3) الترمذي، سنن التّرمذيّ: باب، ومن سورة الملائكة: 5/ 363.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 1 - 2.

ارتباطه بتقسيم النّاس وانفطارِهم في حقيقة الألوهيّةِ والكونِ والإنسانِ والحياةِ.

وأمّا تسميتُها بسورة الملائكة فإنّما يتناغمُ مع كون هؤلاء الملائكة رُسلَ اللّه تعالى إلى الأنبياء، الذين اصطفاهم اللّه تعالى بتبليغ النّاس دينَه القويم، الذي يتكفّل بإجابتهم عنِ الأسئلة الرئيسة، التي شغلتِ الإنسانيّةَ جمعاء، حول حقيقةِ الوجود والكون والإنسان، وهمُ الذين ضلّ فيهم أقوامٌ فنَسبوا إليهم فريةً أنّهم بناتُ اللّه، فبيَّن لهم أنَّهم ليسوا من جنس البشر، وإنّما هم رسلُه.

المحورُ العام للسّورةِ:

مَـدارُ سـورةِ فـاطـرٍ حـولَ تفصيلِ أُمّـاتِ النّعمِ وتصحيحِ المفاهيمِ

المحورُ العامُّ لهذه السورة يدور حول بيانِ قدرة اللّه تعالى على الخلق، فذكرتْ أوصافَ الملائكة وتخليقَهم، ثم بيَّنت أنَّ اللّه من يفتحُ أَبوابَ الرّحمة، وذكَّرت الخلقَ بالنّعم، ثمّ تعرّضت إلى التّحذير منَ الجنّ وعداوتهم، وتسليةِ الرّسول، وإنشاءِ السّحاب، وإثارته، وإحالةِ نسبة العزَّة إلى اللّه، وصعودِ كلمة الشّهادة، وتحويلِ الإنسان من حال إلى حال، كما ذكرت عجائبَ البحر، واستخراجَ الحِلْيَة منه، وتخليقَ اللَّيل، والنَّهار، وعجزَ الأَصنامِ عنِ الرُّبوبيّة، وصفةَ الخلائق بالفقر والفاقة، واحتياجَ الخَلق في القيامة، وإقامةَ البرهان والحجّة، وفضلَ القرآن، وشرَفَ التِّلاوة، وأَصنافَ الخَلْق في ميراث القرآن، ودخولَ الجنَّة من أَهل الإيمان، وخلودَ النّار لأَهل الكفر والطّغيان، وأَنَّ عاقبةَ الكفر الخسرانُ، والمِنَّةَ على العباد بحفظ السّماءِ والأَرض عن تخلخل الأَركان، وأَنَّ العقوبة عاقبةُ المكر، والإخبارَ بأَنَّه لو عَدَلَ رَبُّنا في الخَلْقِ لم يسلمْ من عذابه أَحدٌ منَ الإنس والجانّ[1]، وذكر البقاعيُّ أنّها خاتمةُ السّور المفتتحةِ باسمِ الحمدِ[2].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 386 - 387.

(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 16/ 1.

❁ موضوعاتُ السّورةِ وخصائصُها:

تقومُ موضوعاتُ سورةِ فاطر على بيـانِ حقيقةِ المصطلحاتِ الأربعةِ الإلهِ، الكونِ، الإنسانِ، الحياةِ

هذه السّورةُ الكريمةُ تشارك السّورَ المكّيّةَ في تقرير مفاهيم الدّينِ الرّئيسةِ حول حقيقةِ الإله، والإنسان، والكون، والحياة، وأثرِ الفهمِ السّليم لهذه المفاهيم في دوام النّعمِ وتجدُّدها، ومن ثمَّ بيانِ أصنافِ النّاس في التّعامل مع هذه المفاهيم، وعقدِ الموازنات بينهم، وبيانِ أسباب انحرافِ الكافرين في التّعامل معها، واقتضى ذلك بيانَ مصائرِ السّابقين الذين أساؤوا فهمَها والتّعاملَ معها، ثمّ الوعدَ والوعيدَ لكلّ صنفٍ من هذه الأصناف.

الخصائصُ الموضوعيّةُ للسورة:

أولًا: تميَّزتِ السّورةُ الكريمة بأنّها شاركت أُسرتَها منَ السّور الأربعةِ الأخرى (الفاتحة، والأنعام، والكهف، وفاطر) باستهلالها بالحمد، وفي هذا يقول د. مستغانمي: "إنّ السّور القرآنيّةَ ذاتَ المطالع المتطابقةِ يوحّدُها ويربطُ بين نسيج كلٍّ منها رباطٌ قويٌّ منَ المضامين والمحتويات والألفاظ يجعلُها تنتمي إلى أسرة واحدة، وليس من قبيل الصّدفةِ أن تبدأ سورٌ بعينها ببدايات متطابقة، وتُفتتحُ سورٌ أخرى بافتتاحيّات مختلفة، ثمّ لا ينتبه القارئُ المتدبّرُ والمستمعُ المنصتُ إلى ما يجمعُها ويربطُها"[1].

ثانيًا: تفرّدتِ السّورةُ الكريمة بذكرِها مظاهرَ من قدرة اللّه تعالى في الكون مازتْها عن غيرها منَ السّور وإن شاركتها في ذكر ذاتِ المظاهر، فمن ذلك أنواعُ الجبال وألوانُها، والغرابيبُ السّود، وألوانُ النّاس والدّوابّ والأنعام، وإمساكُ السّماوات والأرض.

ثالثًا: تميّزت ببيانها خشيةَ العلماء للّه، وأقسامَ النّاس: الظّالم، والمقتصِد، والسّابق، وسنّة اللّه في عدم إهلاك النّاس بماكسبوا، وغيرِ ذلك.

(1) المستغانمي، جواهر الدّرر في علم مقارنات السّور، ص: 81.

رابعًا: شاركت سورةَ سبأ التي سبقتْها في ترتيب المصحف الشّريف في تناولها لقضيّة شكرِ النّعم والتّحذيرِ من كفرانها، وربطِ الشّكر بدوام النّعم وزوالِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾،﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾ [فاطر: 12].

خامسًا: بيّنتِ السّورة حقيقةَ هذا الكون وما فيه من آياتٍ ومخلوقات على أنّها من مظاهرِ ملكوته، الآيات [9] و[13]، و[27 - 28]، و[41].

سادسًا: بيّنتِ السّورة حقيقةَ الإنسان ومراحلَ تخلّقه في الآيات [11]، و[39].

سابعًا: بيّنتِ السّورة حقيقةَ الحياة وما فيها منَ الغرور في الآية [5].

ثامنًا: ذكرتِ السّورة أقسامَ النّاس في التّعامل مع هذه المفاهيم والحقائقِ التي ذكرها لهم في كتابه في الآية [32].

تاسعًا: عقدتِ السّورة الكريمة عدّةَ موازَنات بين هذه الأصناف من خلال تقرير سنّةِ التّقابلِ في الكون كلّه في الآيات [19 - 22].

عاشرًا: عرضت السورة لبعض أسباب الانحرافِ العقليّ والعقديّ لدى المكذّبين، ومنها: الاغترارُ بالحياة الدّنيا، واتّباعُ الشّيطان مع أنّ عداوته مقرَّرةٌ، وتزيينُ الأعمال، والاستكبارُ، في الآيات [5 - 6]، [8]، [42 - 43].

الحادي عشر: بيّنتِ السّورة الجزاءَ الأخرويَّ لكلّ صنفٍ منَ المخلوقين ممّن ذكرتْهم في ثنايا السّورة في الآيات [7]، [33 - 37].

الخصائصُ الأسلوبيّةُ للسّورة:

أولًا: تميّزتِ السّورة الكريمة بكثرة ذكرِ المقابلات وأسلوبِ الطّباق فيها، وذلك لارتباط هذا الأسلوبِ بمحورِها القائم على الموازنة بين أصناف البشر، فمن ذلك: يفتحُ ويمسكُ، عذبٌ فراتٌ وملحٌ أُجاجٌ، يولجُ اللّيل في النّهار ويولجُ النّهار في اللّيل، الشّمسُ والقمرُ، الأعمَى والبصيرُ، الظّلماتُ والنّورُ، الظّلُّ والحرورُ، الأحياءُ والأمواتُ، الظّالمُ والسّابقُ، السّماواتُ والأرضُ، سرًّا وعلانيةً، كفروا وآمنوا، بشيرٌ ونذيرٌ، الغنَى والفقرُ، وهكذا.

تميّزت سورةُ فاطر بخصائصَ أفردتْها عن غيرها منَ السّور

ثانيًا: تفرّدتِ السّورة الكريمة بأنساقٍ تعبيريّةٍ فريدةٍ منها: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: 6]، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ [فاطر: 8]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: 10]، ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ [فاطر: 12]، ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [فاطر: 15]، ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣﴾ [فاطر: 23]، ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: 24]، ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [فاطر: 35]، ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: 45] وغيرُها.

ثالثًا: هناك كلماتٌ تكرّرت بمشتقّاتٍ مختلفةٍ في آية واحدة؛ مثل قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١﴾ [فاطر: 11]، وقوله: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩﴾ [فاطر: 39].

رابعًا: ذُيّلت اثنتا عشرةَ آيةً من آيات السّورةِ الكريمة بأسماء الله الحسنى منفردةً أو مقترنةً، وهي: ﴿قَدِيرٞ﴾، ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ﴿عَلِيمُۢ﴾ [فاطر: 8]، ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15]، ﴿عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر: 28]، ﴿غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر: 30]، ﴿خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾ [فاطر: 31]، ﴿حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر: 41]، ﴿عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾ [فاطر: 44]، ﴿بَصِيرَۢا ٤٥﴾ [فاطر: 45].

خامسًا: ذُيّلت خمسٌ وثلاثون آيةً من آيات السّورة الكريمة بحرف الرّاء المتّصفِ بالقوّة والجهر، أي: بنسبة (78 بالمائة) من آيات السّورة، وبدأتِ السّورة به منَ الآية الأولى، واختتمتْ به.

سادسًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة في أسلوبها بذكْرِ بعض الأبنيةِ والمشتقّاتِ الصّرفيّةِ التي لم تردْ في غيرها منَ السّور، فمنها منَ الأفعال: ﴿يَصۡعَدُ﴾ [فاطر: 10]، ﴿يَبُورُ ١٠﴾ [فاطر: 10]، ﴿تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: 29]،

﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ [فاطر: 32]، ﴿أَحَلَّنَا﴾ [فاطر: 35]، ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ [فاطر: 37]، ﴿نُعَمِّرۡكُم﴾ [فاطر: 37]، ﴿يَحِيقُ﴾ [فاطر: 43]، وغيرُها.

ومنَ الأسماء: ﴿مُمۡسِكَ﴾، ﴿مُّعَمَّرٍ﴾ [فاطر: 11]، ﴿أَجۡنِحَةٍ﴾، ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾ [فاطر: 18]، ﴿مُسۡمِعٖ﴾ [فاطر: 22]، ﴿جُدَدُۢ﴾ [فاطر: 27]، ﴿بِيضٞ﴾ [فاطر: 27]، ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ [فاطر: 27]، ﴿سُودٞ ٢٧﴾ [فاطر: 27]، ﴿ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: 34]، وغيرها.

ولا شكّ أنّ لهذه الأبنيةِ والاشتقاقات ارتباطًا قويًّا بمحور السّورة ومقصودِها العامّ.

سابعًا: تميّزتِ السّورة الكريمة بذكرها لفظًا فريدًا هو: (قِطمير) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر: 13]، وذلك في سياق نفيِ النّفع عن هؤلاء الشّركاء، ولا شكّ أنّ هذا مرتبطٌ بمحور السّورةِ الكريمة في بيان حقيقةِ الألوهيّة وتفرّدِها بالنّفع والضّرّ.

بيانُ المناسبةِ بين سورةِ فاطر والسّور المجاورة لها:

تقدّم في سورة سبأ الرّبطُ بينها وبين سورة فاطر، ونعيدُه هنا للفائدة:

أولًا: خصّصت سورةُ فاطر: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وذكرت سبأ بأنّ الحمدَ مستحقٌّ للّه الذي له ما في السّماوات وما في الأرض، وبأنّ له الحمدَ في الآخرة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١﴾ [سبأ: 1].

ثانيًا: تناولت كلتا السّورتيْن موضوعَ الرّزق على سبيل الإنكار، فجاء في سبأ: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: 24]، وفي فاطر: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

ثالثًا: كلتا السّورتيْن أشارتا إلى تكذيب السّابقين، ففي سبأ: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾ [سبأ: 45]، وفي فاطر: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥﴾ [فاطر: 25].

سـورةُ فاطر متّصلةٌ تمامًا بسورتَي سبأ ويس مضمونًا وأسلوبًا

رابعًا: قرّرت سورةُ فاطر أنّ وعد الله للكافرين واقعٌ لا مرية فيه ولا ارتياب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥﴾ [فاطر: 5]، وبيّنته أيضًا سورةُ سبأ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾ [سبأ: 29 - 30][1].

خامسًا: حذّرت سورةُ فاطر منَ الشّيطان، وقرّرت أنّه عدوٌّ مبينٌ للجنس البشريّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: 6]، وسبقتها سبأ ضاربةً المثَلَ بالذين أنعمَ الله عليهم بنعمٍ شتّى، ولكنّهم أعرضوا فجازاهم الله بما صنعوا، وضرب بهم المثَلَ: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ: 20 - 21].

سادسًا: ذكرت سورةُ فاطر جزاءَ الذين كفروا، وجزاءَ الذين آمنوا وعملوا الصّالحاتِ، وبدأت بذكر الذين كفروا نظرًا لقرب الحديث عنِ الشّيطان الذي يسعى جاهدًا ليجعل متّبعيه في عذاب السّعير: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾ [فاطر: 7]، ولكن في سورة سبأ قدّمتِ الحديثَ عنِ الذين آمنوا وعملوا الصّالحاتِ: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾ [سبأ: 4 - 5].

سابعًا: ذكرت سورةُ فاطر أنّ كلّ ما يقعُ في الكون، وما يولد من مولود، وما يُعمّر من معمّر، ولا يُنقص من عمره، إلّا وهو مسجَّلٌ في

(1) المستغانمي، جواهر الدّرر في علم مقارنات السّور، ص: 88.

كتاب مبين: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر: 11]، وتناولت سبأ ذاتَ الموضوع مع مزيد بيانٍ وإيضاح: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ: 3].

ثامنًا: قرّرت سورةُ سبأ أنّ الله تعالى أرسل محمّدًا ﷺ بشيرًا ونذيرًا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: 28]، وقرّرت سورةُ فاطر ذاتَ الحقيقة دون الإشارة إلى أنّه لكلّ النّاس: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: 24].

تاسعًا: قرّر الله تعالى في سورة فاطر أنّ الذي أوحاه إلى نبيّه محمّدٍ ﷺ هو الحقُّ مصدّقًا لِما بين يديه منَ الكتب: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [فاطر: 31]، والمؤمنون الذين أوتوا العلم أيضًا شهدوا في سورة سبأ بأنّ الذي أُنزل على محمّدٍ هو الحقّ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: 6][1].

عاشرًا: قرّرت سورةُ فاطر أنّ الذين كفروا جزاؤهم الذي يستحقّونه حقًّا وعدلًا هو نارُ جهنّم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: 36]، وتكرّر التّعليقُ نفسه في سورة سبأ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: 17][2].

مناسبة السورة لسورة (يس) الواقعة بعدها:

وأمّا وجهُ اتّصالها بسورة (يس) فيقول عنه الزّحيلي: تظهرُ صلةُ السّورتيْن من وجوه ثلاثة:

أولًا: بعد أن ذكر تعالى في سورة فاطر قوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ [فاطر: 37] وقولَه:

---

(1) المستغانمي، جواهر الدّرر في علم مقارنات السّور، ص: 96.

(2) المستغانمي، جواهر الدّرر في علم مقارنات السّور، ص: 98.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ [فاطر: 42] والمرادُ به محمّدٌ ﷺ، وقد أعرضوا عنه وكذّبوه، افتتح سورةَ يس بالقسم على صحّة رسالته، وأنّه على صراط مستقيم، وأنّه أُرسل لينذر قومًا ما أنذر آباؤهم.

ثانيًا: هناك تشابهٌ بين السّورتين في إيراد بعض أدلّة القدرةِ الإلهيّة الكونيّة، فقال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [فاطر: 13] وقال في سورة يس: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾ [38 - 39].

ثالثًا: وقال سبحانه في فاطر: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: 12] وقال في يس: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾ [يس: 41].

ويضاف إلى هذه النّقاطِ الثّلاث:

رابعًا: اشتمالُ كلتا السّورتيّن على الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين، ففي فاطر: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾ [فاطر: 32 - 33]، و﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ [فاطر: 36 - 37].

وجاء في سورة يس: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾ [يس: 55 - 59]، و﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: 63 - 65].

خامسًا: جاء الحديث عن عداوة الشّيطان في السّورتيّن، ففي فاطر: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: 6]، وفي

يس: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ [يس: 60 - 61].

سادسًا: جاء التّحذيرُ للكافرين في كلتا السّورتيْن الكريمتيْن، ففي فاطر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝٤٤﴾ [فاطر: 44]، وفي يس: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤﴾ [يس: 13 - 14].

سابعًا: اشتراكُ السّورتين بدلائلِ قدرة اللّه تعالى في الأنفس والآفاق، ففي فاطر مثلًا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١﴾ [فاطر: 11]، وجاء في يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾ [يس: 77].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١﴾ [فاطر: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الافتتاحُ بذِكْرِ الحمدِ، وما بعده، هو افتتاحٌ باليقينيّات التي ودّوا لو تناوشوها من مكان بعيد

لمّا ذكرَ في ختام سورة سبأ أحوالَ الكافرين في اليوم الآخر، وقدرةَ اللّه عليهم هنالك، وعدمَ قَبوله لهم، والقضاءَ عليهم بالمصير المذموم، وكان ذلك إلماحًا إلى يوم البعث الذي تُعادُ إليه الخليقةُ بعد فنائها في الدّنيا، فافتتح هنا سورةَ فاطر بالثّناء على نفسه سبحانه بطلاقة قدرته على بَدء الخلْق منَ العدَم - السّماوات والأرضِ والملائكةِ وعموم الموجودات - فأتبَع ذِكْرَ المَعاد بذِكر المبدأ؛ ليكون ذلك أرسخَ في الإيمان وأنورَ في البرهان، على أنّ من قدَر على البدء من لا شيءٍ، فهو أقدرُ على الإعادة من شيء[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَاطِرِ﴾: أصلُ (فطر) يدُلُّ على فَتح شَيءٍ وإبرازه[2]، و﴿فَاطِرِ﴾، أي: خالِق ومُبتَدِئ، يُقالُ: فطَرَ اللّهُ الخَلقَ، أي: ابتدَأهم وأوجدهم من عدَم[3]، والفاطِرُ: فاعلُ الفَطر، وهو الخَلقُ، وفيه مَعنى التَّكوُّنِ سَريعًا لأنَّه مُشتَقٌّ مِنَ الفَطر وهو الشَّقُّ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الفَطْرُ هو الخلْقُ النّاشئُ منَ العدَم

الحمدُ للّه الذي خلق السّماواتِ والأرضَ بقدرته، والذي جعل الملائكة رُسلًا إلى أنبيائه، وإلى من يشاء من عباده، ليبلغوهم ما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 221.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فطر).
(3) الواحدي، البسيط: 18/ 399.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 248.

يأمرُهم سبحانه بتبليغه إليهم، وهؤلاء الملائكةُ المكرّمون، ذوو أجنحةٍ عديدةٍ، منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثرُ من ذلك - لأنّ المراد بهذا الوصف، بيانُ كثرة الأجنحة لا حصرُها -[1]، يطير بها المَلَك لتنفيذ ما أمر به، يزيدُ اللّه في الخلق ما يشاء منَ المواهب والأعمال، والأرزاقِ والآجال، والأخلاقِ والأحوال، إنَّ اللّه على كلِّ شيءٍ قدير، ولا يُعجزه شيء.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاستهلالِ في الافتتاحِ بالحمدِ:

الاســتــهــلالُ بالحمدِ تعويدٌ على افتتاحِ كلِّ شأنٍ بالحمد

جملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ ابتدائيّةٌ، وافتتاحُ السّورة بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ مُؤذِنٌ باستحقاقِ اللّه للحمد دون غيره، وبأنّ صفاتٍ من عظمةِ اللّهِ وجلالِه ستُذْكَرُ فيها بعد ذلك؛ لأنّ الحمدَ ثناءٌ وعنوانٌ على المحمودات منَ الأفعال والصّفات؛ ولذلك أجرى صفاتِ الأفعال ﴿فَاطِرِ﴾ و﴿جَاعِلِ﴾ على اسم الجلالة بعد إيراد الحمد؛ لكون تلك الصّفاتِ موضوعاتِ ذلك الحمد؛ إيذانًا بأنّ السّورة جاءت لإثباتِ التّوحيدِ وتصديقِ الرّسول ﷺ[2].

دلالةُ إيثارِ الجملةِ الاسميّةِ على الفعليّة:

ثبوتُ استحقاقِ اللــه تــعــالى للحمد ودوامُه أنسبُ في مقام المدح

أوثر التّعبيرُ بالجملة الاسميّة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الدّالّةِ على الثّبوت والاستمرار، وليس الفعليّة: (أحمدُ اللّه) الدّالّةِ على التّجدّد والحدوث؛ لأنّ الثّبوت والدّوام أنسبُ في مقام المدح والثّناء والتّعظيم.

نكتةُ التّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ للاستغراق، بمعنى أنّ المستحِقّ لجميع المحامدِ، ولكافّة ألوانِ الثّناء هو اللّه تعالى[3]؛ "إذِ الحمدُ في الحقيقة

---

(1) طنطاوي، الوسيط: 11/ 319.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 248.

(3) طنطاوي، الوسيط: 11/ 318.

كلُّه له، إذ ما من خيرٍ إلّا وهو موليه"[1]، أو لاستغراق الجنس على أتمّ عموم؛ لأنّ الحمد بالإطلاق على الأفعال الشّريفةِ والكمال هو للّه، والشّكرُ مستغرَقٌ فيه؛ لأنّه فصلٌ من فصولِه[2]، ويصحُّ أن تكون (أل) للعهد، على اعتبار أنّنا نحمدُ اللّهَ على أساس الحمْدِ الذّاتيّ الأزليّ القديمِ الذي حمِدَ به نفسَه، فباعتبار ذلك الحمْدِ الأوّل، جاء كلُّ إنشاءٍ للحمْدِ بعده[3].

الحمدُ كلُّه لله؛ لأنّـه مصدرُ كلِّ جميلٍ وخيرٍ

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِلَّهِ﴾:

اللّام في قوله تعالى ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاق أو للمِلْكِ؛ إذِ اللّه تعالى خالقٌ لكلِّ من نطق بالحمد، ومالكٌ له، والخالقُ مالكٌ[4]، أو للاختصاص بأنّ له تعالى بكلِّ المحامد اختصاصًا[5].

سرُّ التّصريحِ بالاسمِ الأعظمِ:

جاء التّصريحُ بالاسمِ الأعظمِ (اللّه) سيرًا على عاداتِ القرآن بإظهاره في مقام المدح والتّعظيم، ولفخامة السّياقِ الوارد فيه بإسناد إيجادِ السّماوات والأرض إليه، وفي ذلك تربيةٌ للمهابة والإجلال له سبحانه في النّفوس؛ إذ لا مُستحقَّ للحمد إلّا هو الفاطرُ لهذا الكون وما فيه ومَنْ فيه.

لا أعظمَ من فاطرِ السّموات والأرض وما فيهما ومن فيهما

بلاغةُ المجازِ في التعبير بـ﴿فَاطِرِ﴾:

إطلاقُ الفاطر على الموجِد سبحانه فيه استعارةُ الشّقِّ للإيجاد، كأنّه شَقّ العدَمَ فأخرجَ من بطنه السّماواتِ والأرض، أو كأنَّ العدَمَ كامِنٌ فيهما، وبإيجادهما يُشَقّان ويُخْرَجُ العدمُ منهما، وإطلاقُ الفَطْرِ بمعنى الشَّقِّ على الإيجاد - مجازٌ مرسلٌ علاقتُه السببيّة؛

تحريكُ العدمِ بالحياة لا يقدرُ عليه إلّا فاطرُ السّماوات

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/ 27.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 428.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 1/ 482 - 483.

(4) القنوجي، فتح البيان: 11/ 116.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 160.

لأنّ الشّقّ هو سببُ الإيجاد أوِ الملزوميّة، فأطلق الملزومَ ﴿فَاطِرِ﴾، وأراد اللّازمَ: (موجِد)[1].

معنَى الإضافةِ في: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

فاعليَّةُ الإيجادِ لمّا تـزلْ، ولـوِ انقطعتْ عنِ الموجوداتِ؛ لزالتْ وتعطّلتْ

الإضافةُ في قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ حقيقيّةٌ معنويّةٌ محضةٌ؛ لأنّ المضاف للماضي، فتفيدُ الإضافةُ تعريفَ المضاف، ويصحُّ أن تكون الإضافةُ لفظيَّةً غيرَ محضة، على اعتبار أنّ ﴿فَاطِرِ﴾ للاستمرار، لا للمضيّ؛ لأنّ الإيجاد مستمرٌّ، ولأنّ فاعليّة الإيجاد ما تزال تحدثُ، حتّى فيما هو موجودٌ بالفعل، ولوِ انقطعتْ تلك الفاعليّة عنِ الموجوداتِ؛ لزالتْ وتلاشتْ وتعطّلتْ، وعليه، فالإضافةُ على نيّة الانفصال، فلا تفيدُ تعريفًا، ولا تخصيصًا؛ لأنَّ التّعريف حاصلٌ قبل الإضافة، بل تفيدُ التّخفيفَ اللّفظيَّ، بالتّخلّص من ثِقَلِ التّنوين، فلا يقال: (فاطرٌ السماوات والأرضَ)[2].

بلاغةُ المجازِ المرسَلِ في: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

إطلاقُ المحلِّ وإرادةُ الحالِّ فيه

في قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عبّر عن جميع الوجود والعالَم بالسّماوات والأرض، فأطلق الجزءَ وأراد الكلَّ، فهو مجازٌ مرسلٌ بعلاقة الجزئيّة، والمعنى: (اللّه فاطر العالَم كلّه).

ويجوز أن يُراد بالسّماواتِ والأرضِ مَنْ فيهما، مِنْ بابِ قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]، أي: (فاطر أهل السّماوات والأرض)، وذلك أبلغُ من ذِكر المضافِ المحذوف؛ لأنّ في هذا الحذف إيهامًا بأنّ السّماواتِ والأرض شاهدةٌ على هذا الإيجاد، مثلما تشهدُ القريةُ نفسُها بما يُسأل منها، وذلك أبلغُ في الدّلالة على الإحاطة بالمقصود وألطفُ دلالةً، وهذا التّوجيه جارٍ على المجاز المرسل، بإطلاق المحلّ، وإرادةِ الحالّ[3].

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 253، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 3، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 141، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 335.

(2) السّامرائي، معاني النحو: 3/ 131، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 22/ 191.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 233.

ويجوز أنْ يكون المرادُ نفْسَ السّماوات والأرض، تخصيصًا لهما، وتنويهًا بشأنهما، كونَهما عنوانًا على ما سواهما منَ الموجودات وأدلَّ على عجيب القدرة وطلاقة الإعجاز؛ لكونِهما أكبرَ الموجودات، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57].

اختصاصُ العالَمِ العلويِّ بالذِّكْر؛ لِشَرفِه وعراقتِه في الدّلالة على القُدرة

نكتةُ التّتابُعِ بين الأوصاف: ﴿فَاطِرِ﴾، و﴿جَاعِلِ﴾:

سبقتِ الإشارةُ إلى أنّ الإتيان بالوصف بعد الوصف في قوله: ﴿فَاطِرِ﴾، و﴿جَاعِلِ﴾ تابِعٌ لإيراد الحمد في الافتتاح؛ لأنّ الحمد بريدُ الثّناء، والثّناءُ لا يكون إلّا على الجميل منَ الأفعال، والحسَنِ منَ الصّفات، فكان سردُ الصّفات في ﴿فَاطِرِ﴾ و﴿جَاعِلِ﴾ تعليلًا لذلك الحمد، وتفصيلًا لحيثيّات الثّناء الذي انطوى عليه، كأنّه قيل: (الحمد لله؛ لأنّه فاطر السّماوات والأرض؛ ولأنّه جاعل الملائكة رسلًا).

الثّناءُ لا يكونُ إلّا على الجميل منَ الأفعال

دلالةُ التّعريفِ بـ (أل) في: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: للاستغراق والعموم، أي: جاعلُ كلّ الملائكة رسلًا، ودليلُ العموم قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61]، وقولُه: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ٢١﴾ [يونس: 21]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: 31]، ووجهُ ذلك: أنّ وصف الرّسوليّة بالنّسبة للملائكة لا يختصُّ بنزول الوحي فقط أو تبليغ الرّسالات، بل الرّسوليّة في الملائكة كوساطةِ الجند بين المَلِك والرّعيّة، فكذلك الملائكةُ هم وسائطُ غيبيّةٌ بين الله سبحانه وخلقِه، ويصحُّ أنْ تكون (أل) عهديّةً على إرادة التّبعيض، أي: (جاعلٌ مِنَ الملائكة رسُلًا)، على اعتبار أنّه ليس كلّ الملائكة وسائطَ بين الله وبين خلقه، بدليل قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 75]، وقولِه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ [الأنبياء: 19]، أي: (ملازمين عنده)، فليسوا وسائطَ؛ لأنّه خصّصهم بعد تعميم

يَصطفي الله تعالى منَ الملائكة رُسلًا مكلَّفين

قولِه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنبياء: 19] والملائكةُ جميعًا هم مَنْ في السّماوات، ثم ذكرَ منهم من لا يبرحُ السّماواتِ لملازمته العنديّةَ.

دلالةُ التّعبير بالجعْلِ دون الخلق:

الرّسوليّةُ للملائكة صفةُ تكليفٍ لا صفةُ جبلّةٍ

لم يقل في السّياق الكريم: (خالق الملائكة رسلًا)؛ للإشعار بأنّه ليس كلُّ الملائكة رسلًا، وللإيذان بأنّ الرّسوليّة للملائكة صفةُ تكليف، لا صفةُ جِبلّة؛ ولذلك قال ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾؛ للدّلالة على أنّه قضاءٌ لاحِقٌ بعد خلْقِهم.

معنَى الجعْلِ في: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

القولُ في (جاعل) كالقول في (فاطر)

(الجعل) في قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إمّا بمعنى التّصيير، وهو تحويلُ الشّيء من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، وإمّا بمعنى الإبداع بمعنى الخلق والإحداث، أي: أوجدَهم على تلك الهيئة حالَ كونهم رسلًا، والإضافةُ محضةٌ بمعنى المضيّ؛ لأنّ ذلك قضاء، وقضاءُ اللّه ماضٍ، أو لأنّ ذلك الجعلَ مضى وقتُه وانقضى زمنُه، فلا حاجة لاعتبار الإضافة لفظيّةً غيرَ محضة على أنّ ﴿جَاعِلِ﴾ لحكاية الحال، على معنى (يجعل)[1].

دلالةُ إجراءِ الرّسالةِ على الملائكة:

الرّسالةُ في النّاس فرعٌ عنِ الرّسالة في الملائكة

أجرى اللّه تعالى صفةَ الرّسوليّة على ملائكته في قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾؛ لمناسبة المقصودِ من إثبات الرّسالة في البَشَر، أي: جاعلُهم رسلًا منه إلى المرسلين منَ البشر؛ للوحي بما يراد تبليغُهم إيّاه للنّاس، فكونُهم رسلًا يُستدلّ به على ثبوت الرّسالة والوحي ولوازمِه في النّاس[2].

نكتةُ التّعبير في ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾:

وصفُ الجناح خاصٌّ برسل الملائكة ويجوزُ أن يكون حاصلًا في كلّ الملائكة

قولُه: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ يجوز أن يكون حالًا من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، فتكون

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 336.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 249.

الأجنحةُ ذاتيّةً لهم من مقوّمات خِلقَتِهم، ويجوز أن يكون حالًا منَ الضّمير في ﴿رُسُلًا﴾، فيكون خاصًّا بحالة رسوليّتِهم[1].

توجيهُ الدّلالةِ العدديّةِ في ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾:

التَّكرارُ لإفادة التّوزيع

قولُه: ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ صفاتٌ معدولةٌ عن أعداد مكرّرةٍ: اثنين، وثلاثة، وأربعة، وفائدةُ العدل: الدّلالةُ على التَّكرار، فـ﴿مَّثۡنَىٰ﴾ في معنى: (اثنين اثنين)، و﴿وَثُلَٰثَ﴾: ثلاثة ثلاثة، و﴿وَرُبَٰعَۚ﴾: أربعة أربعة، فأفاد التَّكرار التّوزيعَ العدديَّ، أي: اثنين اثنين متوزّعةٌ على الأنواع، أي: اثنين لفرد، واثنين لفرد آخر، وثلاثة لفرد، وثلاثة لفرد آخر، وليس التَّكرار حاصلًا للذّات الواحدة، فمنَ الملائكة ما له جناحان، ومنها ما له ثلاثة، ومنها ما له أربعة[2]، أي: لا يُراد بالمعدول عنه التّوكيدُ، إنّما يراد به تكريرُ العدد[3].

دلالةُ العطفِ في ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾:

الواوُ في قوله: ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ للمغايرة، وإفادةِ التّفريق والتّفاوت بين أنواع الملائكة، فنوعٌ له جناحان، ونوعٌ له ثلاث، ونوع له أربعة[4].

موقعُ جملةِ: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ ممّا قبلها:

إتباعُ التّفصيل العدديِّ بالإجمال فيه؛ دفعٌ لتوهّم الحصرِ في العدد

جملةُ ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشأ جوابًا عن سؤالٍ مقدّر بعد قوله: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ كأنّ سائلًا سأل: هل هذا العدّ للأجنحة هو منتهى إحصائها في أنواعها؟ فأجيب بما يدفع توهّمَ الحصرِ في العدد، فقال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾، كأنّه قيل: (أولي أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع وأكثرَ من ذلك).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 249.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 429.
(3) الراغب، المفردات: (ثلث، ربع)، والسمين الحلبي، الدرّ المصون: 3/ 563، وصافي، الجدول: 11/ 249، ودرويش، إعراب القرآن: 8/ 120.
(4) الواحدي، البسيط: 18/ 399، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 141.

يزيدُ في خلقه ما تقتضيه مشيئتُه وحكمتُه

نكتةُ التّعريفِ بـ (أل) في ﴿ٱلۡخَلۡقِ﴾:

عرّف النّظمُ الكريمُ ﴿ٱلۡخَلۡقِ﴾ بـ(أل)؛ لأنَّ التّعريف بها أقوى منَ التّعريف بالإضافة في التّعميم والاستغراق، فتستغرقُ الزّيادةُ المعلّقةُ على المشيئة كلَّ الخلق، فلم يقل: (يزيد في خلْقِه ما يشاء) بالإضافة، بل قال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾؛ ولو قال: (يزيد في خلقه ما يشاء)، لأوهم أنّ مرجِع الضّمير لِأقرب مذكورٍ وهو الخلْقُ المُضمَّنُ في الجَعل في قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾، فلمّا قال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ على العموم الكامِل، عُلِم شمولُ تلك الزّيادة لجميع ما خلَقَ ممّا ظهر أو بطن ممّن تعلّقتْ المشيئةُ به، ولذا جرى معنى الزّيادة هنا على الوسْع والعموم الذي أسندت إليه ممّا دلّ عليه التّعريفُ، فمعنى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾، أي: يزيد في خلق الأجنحة وفي غيره ممّا تقتضيه مشيئتُه وحكمتُه[1].

قامتِ الخليقةُ على التّفاوتِ والتّفاضل

سرُّ تعليقِ الزّيادةِ على المشيئة:

تعليقُ الزّيادة في الخلق على المشيئة في قوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾، وتعاقبُ ذلك بعد قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ تفاوتَهم في رُتَبِ الرّسوليّة، فبعضُهم في الرّسالةِ أعلى من بعض، تمامًا كما تفاضَل رسُل البشر فيما بينهم، وتفاوتُهم في مقادير الخِلْقة، في أعداد الأجنحة، والذي يؤثّرُ في تفاوتِ الهيئات وتفاضلِها إنّما هو حاصلٌ بمقتضى المشيئة ومؤدّى الحكمة، وليس أمرًا تستدعيه ذواتُهم، والآية متناولةٌ لعموم الزّيادةِ الحاصلةِ في سائر المخلوقات، كالصّور والمعاني، من ملاحة الوجه، وحسنِ الصّوت، وسائرِ الهيئات، وحصافةِ العقل، وسماحةِ النفس، ومروءاتِ الطّباع، وسائرِ المعاني والخِصال[2].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 596.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 253.

الوسعُ في القُدرة يستلزمُ الوسعَ في المشيئة

موقعُ جملةِ الفاصلةِ في الآية:

جملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليليّةٌ لمضمون ما قبْلها، كأنّه علّل صفاتِ أفعاله السّابقة من كونه فاطرَ السّماوات والأرض، وجاعلَ الملائكة رسلًا، بطلاقة قدرته، واستغراقِها للأشياء تقديرًا وإيجادًا، أوِ الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ، وقع جوابًا عن سؤالٍ ذهنيٍّ تفتّق في عقل السّامع، تقديرُه: (أنّى تأتّى ذلك الخلْق العظيم وأمْكَن؟!)؛ فأجيب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، كأنّه قيل: (بإعجاز القُدرة تأتّتْ تلك الموجوداتُ)[1].

القادرُ على الابتداءِ قادرٌ على الإعادةِ

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿فَاطِرِ﴾:

في قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كنايةٌ عن إمكان البعث والإعادة؛ لأنّ معنى ﴿فَاطِرِ﴾ أي: مبتدِئُ الأشياءَ إيجادًا وخلْقًا، فيلزمُ أنّ من قدر على الابتداء قادرٌ على الإعادة[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

فاطرٌ وبديعٌ:

الخلْقُ في (فاطر) قد يقع على غير مثال، وقد لا يقعُ

أصلُ فاطر: من (فطر) الدّالِّ على فَتْحِ شَيْءٍ وشَقِّه وإبْرازِه، ومنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: موجِدُها منَ العدَم، كأنّه شقّ العَدَم فاستخرجها منها، فلكونِه خلْقًا أبْرزَ بعد عدمٍ، كأنّه قبْل خلْقِه كان غائبًا في العدم فظهر منه وبرَز، فالفَطْرُ هو الخلْقُ والإنشاء بالنّظَر إلى العدَم السّابق عليه.

وأمّا البديعُ، فمِن (بدع) الشّيءَ، إذا اخترعه على غير مثالٍ سابق، فهي خِلْقَةٌ لا نظير لها سبقَها، فالإبْداعُ: إنشاء صَنْعةٍ بلا احتذاءٍ واقتداء، وإذا استُعمل في الله تعالى فهو إيجادُ الشّيء بغير آلةٍ ولا مادّةٍ ولا زمانٍ ولا مكانٍ، وليس ذلك إلّا لله[3]، وعليه يتّضحُ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 360.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 319.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (بدع، فطر).

الفرقُ بين ﴿فَاطِرِ﴾ و(بديع)، فكلاهما يتّحدان على معنى ابتداء الخلْق والإيجاد، ويفترقان في أنّ ﴿فَاطِرِ﴾ تقال بالنّظر إلى الإيجاد منَ العدم، و(بديع) تقال بالنّظر إلى الإيجاد على غير مثالٍ سابقٍ.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾ [فاطر: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الله يَصطفي أنواعًا منَ الرّحمات لمن شاء، زيادةً منه في الإكرام والعطاء

لمّا بين في الآية السابقة كمالَ القدرة ذكر هنا بيانَ نفوذِ المشيئة ونفاذِ الأمر، يعني: إنّه تعالى إنْ رحم فلا مانعَ له، وإنْ لم يرحم فلا باعثَ له عليها[1]، فلما ذكر أنواعًا منَ الخلائق العظيمةِ، وخصّها بما يزيد في رُتبتها وخلْقِها على ما سواها، ثمّ عمّم تلك الزّيادةَ على ما شاء من خلْقه، تنبيهًا على أنّ هذه الزّيادةَ ليست قاصرةً على هذه الأنواع العظيمة المُتعيّنة في مطلع السّورة، فقال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ أخبر هنا في هذه الآية أنّ هناك زيادةً أخرى تشملُ الخلْقَ جميعًا، ويشتركون جميعًا في أصلها، ويتفاوتون في مقاديرها، وهي فتوحاتُ الرّحمة التي وسعت كلَّ شيء، وهذه الفتوحاتُ هي زوائدُ على الأصل الذي يسعُ كلَّ الموجودات، وهذه الزّوائد في فتوحات الرّحمات هي من جنس تلك الزّيادة في الخلْق، فقال: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُمۡسِكَ﴾: أصلُ (مسك) يدلّ على حَبْسِ الشَّيْءِ، يقال: أَمْسَكْتُ عنه كذا، أي: مَنَعته، وإمساكُ الشّيء: التعلّقُ به وحفظه، ومنه قولُه تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: 41][2]، والإمساكُ هنا: المنعُ، أي: لا مانعَ لرحمتِه إذا هو أرسلها وفتَحَ بها على من يشاء.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 222.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (مسك).

2) ﴿مُرۡسِلَ﴾: أصلُ (رسل) يدلّ على انبعاثٍ وامتداد في تُؤدةٍ ويُسْر[1]، وتُصوّر منه تارة الرّفقُ، فقيل: على رِسْلِكَ، إذا أمرته بالرّفق، وتارة الانبعاث فاشتقّ منه الرّسول، والإرسال: يقابل الإمساك، كقوله تعالى هنا: ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إن شاء الله تعالى أمرًا فلا مانعَ له

ما يفتح اللّهُ للنّاس من رزقٍ ومطرٍ وصحّةٍ وعلْمٍ وغيرِ ذلك منَ النِّعَم التي لا تتناهى أنواعُها وأفرادها، فلا أحدَ يقدرُ أن يُمْسِك هذه الرّحمة، وما يمسِكْ منَ الأقدار عمومًا إنْ خيرًا وإن شرًّا، فلا أحد يستطيعُ أن يرسل ما قدّر إمساكَه، بعده ﷻ، وهو العزيز القاهر لكلّ شيء، الحكيمُ الذي يرسل الرّحمة ويمسكُها وفْق حكمتِه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾:

الله كريمٌ يُطْمِعُ النّاسَ في خيره

جملةُ: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ ابتدائيّةٌ شرطيّةٌ[4]، وهي استئنافٌ مُخصِّصٌ للعموم في قوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾، فهذا عمومٌ في كلّ زيادةٍ وخيرٍ يحصل في كلّ أصنافِ الخلْق، فكأنّ الكلام على حذفِ مضافٍ، أي: (يزيد في أصناف الخلق ما يشاء)، وقولُه: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ تخصيصُ ذلك العموم الحاصلِ في الخلْق بما يكون في النّاس منهم؛ لأنّ فتوحاتِ الرّحمة هي من جنس تلك الزّيادة في الخلْق.

دلالةُ ﴿مَّا﴾ في ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ﴾:

الله وحده هو مصدرُ كلّ فتحٍ، فالطّمعُ يجبُ أن يتعلّق به وحده

﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رسل).
(3) مجموعة من العلماء، التفسير الميسّر، مجمع الملك فهد، ص: 434.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 252.

شرطيّةٌ، تفيد العمومَ، فتقع على كلّ شيءٍ منَ الخير أراده اللّه لعبده منَ السّعة في الأموال والأحوال والآجال، وكلِّ خيرٍ ظهرَ أو بطَن، ولا يخفى أنّ ﴿مَّا﴾ تقعُ لذوات غيرِ العقلاء، ولصفات العقلاء، وهي هنا كذلك، فالمقصود: أيُّ شيءٍ من جوهر الخيرِ وأسبابه، وأيُّ شيءٍ من تَراحُم الخلْق فيما بينهم يقعُ فهو من فتوح اللّهِ وحده؛ **فالأوّل:** ذواتُ الأشياء، وهي موادُّ الخيرات وأعيانُها، **والثّاني**: صفاتُ العقلاء وهي تراحُمُ النّاس فيما بينهم بما يُنجِز المصالحَ، ويدفع الأضرارَ[1].

بلاغةُ المجازِ والاستعارةِ في ﴿مَّا يَفْتَحِ﴾:

الفتْحُ إرهاصٌ للإرسال

سُمّيَ الإرسالُ في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ فتْحًا، بدليل قوله: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾، وبدليل المقابلةِ بالإمساك في: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾، فالإمساكُ مقابلهُ الإرسالُ، فلمّا كان الفتْح سببًا للإرسال سمّاه به، على طريقة المجاز المرسل؛ لعلاقة السّببيّةِ، فأطلق السّببَ: (الفتح)، وأراد المُسبَّبَ: (الإرسال)، وتسميةُ الإرسال بالفتْح؛ للإشعار بأنّ هذا الإرسالَ عن وُسْع، وللإشارة إلى أنّ ذلك الإرسال كان بعد إغلاقٍ وانكتام، انفتَح بالإنعام، وهو تصويرٌ لحالةٍ بديعةٍ ومعجِزَة، وهي حالُ الانعتاق منَ العُسْر إلى اليُسْر، فصوّرَ تأثيرَ العُسْر في حالِ الإنسان وتحوّلَه إلى اليُسر، بحال الحِصار والجمود الذي انفكّ وانفتح وتفتّق بِمراسيلِ الرّحمات المِدرارة، ومَسايِيلِ الخيرات المُنهمِرة الدّفّاقَة، فكان في استعارة الفتْح للإرسال تمثيلٌ نَيِّرٌ بديعٌ سرى في التّركيب، فاستضاء به النّظم وأينَعَ[2].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 429، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 252، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 86.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 8.

دلالةُ ﴿مِن﴾ في ﴿مِن رَّحۡمَةٍ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن رَّحۡمَةٍ﴾ بيانيّةٌ لِما في الشّرطِ منَ الإبهام، فـ﴿مَّا﴾ عامّةٌ، و﴿مِن﴾ بيّنتْ ذلك العامَّ من أيّ صنفٍ هو[1].

دلالةُ التّنكيرِ في ﴿رَّحۡمَةٍ﴾:

التّنكير في: ﴿رَّحۡمَةٍ﴾ للتّعظيم والتّكثير والإشاعة والإبهام، كأنّه قال: من أيّةِ رحمة كانت سماويّةً أو أرضيّةً، فلا أحدَ يقدر على إمساكها وحبْسها[2].

نكتةُ إفرادِ ﴿رَّحۡمَةٍ﴾:

رحمةُ الله أنواعٌ لا تُحصى وألطافٌ لا تُعدّ

أُفردتِ الرّحمةُ في قوله: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٍ﴾، لِمُناسبةِ التّنكير؛ للدّلالة على عموم الجنس؛ توسّلًا بذلك إلى إطلاقها وشيوعِها في أفراد الرّحمات كلِّها الحسّيةِ والمعنويّةِ، والظّاهرةِ والخفيّةِ، وليدلّ بالإفراد على أنّ جميع الرّحمات هي من ذلك الجنس وهذا الأصلِ الذي هو من عند الله وحده، كأنّه قيل: (من رحمتِه التي منها جميعُ الرّحمات)، ولم يَجْمَعِ اللّفظَ؛ تنبيهًا على أنّ رحمة الله ﷻ لا تُحصى في أنواعها فضلًا عن أفرادها[3].

علّةُ الابتداءِ بفتحِ أبوابِ الرّحمةِ:

رحمةُ الرّحمن الرّحيمِ تسبقُ دومًا غضبَه

تقديمُ بيانِ فتح أبواب الرّحمة في الذّكر في الآية دليلٌ على سَبْقِ رحمتهِ غضبَه، وهو وجهٌ من وجوه الفضل، وأكّد هذا عوْدُ الضّمير في ﴿مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ عليها؛ ليُعلم أنّ المفتوح أبوابُ الرّحمة، ولا ممسكَ لرحمته[4].

دلالةُ الفاءِ في الجواب: ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾:

إذا أتتِ الفتوحُ زالتِ الحتوف

أصلُ ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ أنّها اسمٌ موصولٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 12.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 596.

(3) أبوحيان، البحر المحيط: 9/ 12، وابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 24.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 222.

ضُمّن معنى الشّرط، فانقلبت صِلتُه إلى جملةٍ شرطيّةٍ، وانقلبت جملةُ الخبر جوابًا، فأصلُ ﴿مَّا﴾ الشّرطيّةِ هو الموصولة، على طريقة تشبيهِ الموصول بالشّرط، ولذا اقترن الجوابُ بالفاء، في قوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾؛ ليدلّ على أنّ (انتفاء الإمساك) ترتّبَ على ثبوت الفتّح، ترتُّبَ الجزاء على الشّرط، فيكون ثبوتُ الفتْح بالرّحمة سببًا لعدم إمكانِ المانع من ذلك، ولو حذفَ الفاء، لاحتمل السّببيّةَ وغيرها، أي: يحتمل أنّ انتفاء الإمساك مترتِّبٌ على ثبوت الفتْح، ويحتمل أنّ انتفاء الإمساك ليس مترتِّبًا على وجود الفتْح، بل هو حاصلٌ له قبل الفتْح، وعلى هذا فدخولُ الفاء يفيدُ التّنصيصَ على السّبب، وحذفُها لا يفيد التّنصيصَ على شيء، بل يحتمل السّببَ وغيرَه، فدخولُ الفاء هنا دلّ على ثبوت استحقاقِ الجواب باستحقاق الشّرط، من غير انفصالٍ بينهما، فهما مقترنان اقترانَ الوعدِ بشرطِه، فلا يقعُ الوعدُ إذا لم يحصلْ شرطُه الموجِبُ له[1].

دلالةُ النّفيِ في الجواب: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾:

لا يستطيعُ أحدٌ إيصادَ ما فتحَه الله

(لا) في الجواب في قوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾، هي النّافيةُ للجنس، أي: لا مُمْسِكَ لها موجودٌ، فلا يوجد شيءٌ أصلًا يستطيعُ إيصادَ ما فتحه اللّه منَ المغاليق، أوِ اعتراضَ ما بسَطَه وأعطاه، أو منعه[2].

نكتةُ التّعبيرِ بـ﴿مُمْسِكَ﴾ دون (ماسِك):

الإمساكُ يقترنُ بالقصد، والمَسْكُ قد يقترنُ به وقد لا يقترنُ

قولُه: ﴿مُمْسِكَ﴾ اسمُ فاعل من (أمسك)، ولم يقل في السّياق الكريم: (فلا ماسِك لها)، لكون (الإمساك) الذي هو من (أمسك) يدلّ على القصْد والعمْدِ والإحكام في الفِعل، ولذلك قال: ﴿مُمْسِكَ﴾، وأمّا (مسَك) فقد يقعُ بأدنى مُلابسة ومن غير إصرار، فيخلو منَ الإحكام، ولذا لم يقل (ماسك)؛ لتحقيق التّحدّي في المُضمَّن في النّفي.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 429، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 252، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 86، 4/ 127.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 25.

لا قُدرةَ لأحدٍ سوى اللّه على الحقيقة

دلالةُ التّعبير بالاسمِ دونَ الفعلِ:

لم يقل في السّياق الكريم: (فلا يُمسكها أحد) بنفي الفعل، بلِ اتّجه لنفي الوصف عن الذّات، ولذا عبّر باسم الفاعل؛ ليدلَّ على انتفاء ذلك الوصفِ عن جميع الذّوات، وهذا أبلغُ منَ الفعليّة التي تدلّ على الحدوث دون الذّات، مع ما في الاسم منَ الثّبوت والاستمرار الذي لا يخفى.

مرجعُ الضّميرِ في ﴿لَهَاۖ﴾:

الضّميرُ في ﴿لَهَاۖ﴾ يعود على الرّحمة، أي: لا ممسِك لتلك الرّحمة، أي: لا مانعَ لها أنْ تصِلَ إلى مواقعها المقدورة إنِ اللّهُ أرسلَها[1].

الفتْحُ يعقبُه الإرسالُ، والإمساكُ يسبقُه الغلْقُ

توجيهُ المقابلةِ المعنويّةِ بين (الفتْح) و(الإمساك):

بين الفتْح في قوله: ﴿يَفۡتَحِ ٱللَّهُ﴾، والإمساكِ في قوله: ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ مقابلةٌ معنويّةٌ؛ لأنّ الفتح في معنى الإرسال، فكأنّه قيل: (ما يرسله اللّه فلا ممسِك له)، أو (ما يفتحُه اللّه فلا مُغلِقَ له)، والتّعبيرُ بثبوت الفتح في مقابلِ نفي الإمساك، فيه كنايةٌ بديعةٌ عن أنّ اللّه سبحانه غالِبٌ مانعٌ، وأنّ وعده ماضٍ نافذٌ، وأنّ التّعلّق بغيره في المنع أوِ العطاء تعلّقٌ بما لا ضمانَ له، ولا ثِقةَ فيه، وكنايةٌ عن أنّ المنع والعطاء والنّفع وعدمَه هو ذاتيٌّ في اللّه، بمعنى أنّ اقتدار اللّه على ذلك هو وصفٌ ذاتيٌّ فيه سبحانه، وأمّا ما سواه فهو الأوصافُ العرضيّةُ التي لا ثباتَ لها ولا ذاتيّة، ولذا كان التّعلّقُ بها في المخلوقين تعلّقًا بما لا حقيقةَ له في نفسِه، بل من غيره، وهو مصدرُ الأشياء، وهو اللّه سبحانه، فعاد كلُّ شيءٍ إليه، ولذا وجبَ التّعلّقُ به وحده.

حذفُ المتعلّقِ للتّعميم؛ لإفادة شُمولِ القُدرة

نكتةُ حذفِ متعلّقِ: ﴿يُمۡسِكۡ﴾:

حذفُ متعلّق ﴿يُمۡسِكۡ﴾ في قوله: ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ﴾؛ للتّعميم، فيشملُ الرّحمةَ وغيرها، أي: (وما يمسكه اللّه من المنافع أو المضارّ فلا

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 12.

يشاؤه، ولا يقضي به، فلا مرسِل له بعد منْع اللّه له)، بدليل أنّه لم يذكر للإمساك تبيينًا، فهو باقٍ على العموم في كلّ ما يُمْسِك، أمّا تقديرُ المفعول على الرّحمة، بدلالة ما قبله عليه، أي: (وما يمسك من الرّحمة)، فتضييقٌ للمعنى من غير حاجة أو مُعارِضٍ يقتضيه، ولكن على هذا الوجه يكون الضّميرُ المذكّر في الجواب في قوله: ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ عائدًا على لفظ ﴿مَّا﴾ في: ﴿مَّا يَفۡتَحِ﴾، والتأنيث في: ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ عائدًا على لفظ الرّحمة، وعلى معنى ﴿مَّا﴾، ومعناه: الرّحمة[1].

وعلى هذا الوجْه لحذف المتعلّقِ نكتةٌ بديعةٌ، وهي وقايةُ النّفوس وتجنيبُها من استيحاشها ما تكره، بعد أنْ آنَسَتْ ما تحِبّ، ولذلك لم يقل: (وما يمسك من الرّحمة)؛ لأنّ إمساك الرّحمة ممّا يُنفِّرُ ويوحِش، لا سيّما بعد حصول التّفاؤل بذكرها في: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾؛ وليدلّ بذكرها مع إرسالها وحذفها مع إمساكها على أنّ رحمته سبقت عقوبتَه[2].

من رحمة الله وقايتُه النّفوسَ استيحاشَ ما تكره، بعد أنْ آنَسَتْ ما تُحِبّ

معنَى ﴿مِنۢ﴾ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾:

﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ ابتدائيّةٌ؛ للدّلالة على البَعديّةِ الخاصّة، وهي بعديّةُ الإمساك المذكور، أي: فلا مُرسل له من بعد إمساك اللّه له، أي: من تلك الجهة وهو حالُ منْعِ اللّه له بإمساكه وعدمِ إنفاذه، ولو أسقط الجارّ فقيل: (فلا ممسِك له بعده)؛ لاستغرق زمانَ البعديّة، الذي يتجاوزُ زمنَ وقوع الإمساك ويتقادمُ عنه، فربّما يدّعي مدّعٍ فجورًا وزورًا أنّه لمّا وقع الإمساكُ كان هو المُمْسِكَ، فضيّق زمنَ البَعديّة بإدخال ﴿مِنۢ﴾؛ لقطع هذه الأوهام[3].

لا أحدَ يُنْفِذُ ما حبسَه الله

فائدةُ التّقييدِ بالبَعديّةِ في الإمساك دون الفتح:

ذُكر في قوله تعالى ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ

الرّحمةُ بابٌ للتّوبةِ لا للتّفريط

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 12.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 7.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 7.

لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ القيدُ بالبعديّة في جانب الإمساك وهو جانبُ الوعيد عند من يقدّرُ المتعلّقَ بالرّحمة بقرينة ذِكْرها المتقدّم، أي: (وما يمسك منَ الرّحمة فلا مرسل لذلك من بعده)، فيكونُ قد ترك القيدَ بالبعديّة في جانب الوعد، وذكرَه في جانب الوعيد؛ للتّأكيد والتّهديد؛ لئلا يغترّ أحدٌ بسبْق الرّحمة للغضب، فيُغريه ذلك على التّقصير والتّفريط، فألحَقَه بالقيد تأديبًا وتهذيبا؛ لعدم الغرور والرّكون[1].

إنّ الكريمَ إذا وهبَ ما سَلَب

وفي ترك القيد بالبعديّة أيضًا في جانب الوعد والتّرغيب بالرّحمة؛ لأنّ القيد بالبعديّة في معنى الاستثناء، كأنّه قال: (فلا ممسك للرّحمة إلا اللّه أو غيرُ اللّه)، فلم يقل ذلك؛ لأنّ الرّحمة إذا جاءت لا ترتفع، فإنّ من رحِمَه اللّه في الآخرة لا يعذّبُه اللّه بعدها أبدًا، لا هو سبحانه، ولا غيره، بخلاف من يعذّبه اللّه، فقد يرحمُه اللّه بعد العذاب كالفسّاق من أهل الإيمان، وأمّا تطبيقُ ذلك على حال الدّنيا، فحينئذٍ يكون في ترك القيد إشارةٌ إلى أنّ الأصل الغالبَ في أحوال أهل الدّنيا الرّحمةُ، وأنّ الأصل عند اللّه الرّحمةُ لا العذاب، ولذلك يصبرُ عليهم ولا يعجّلُ بأخذهم، ولا يخفى ما في ترك القيد منَ الدّلالة على أنّ الرّحمة سبقتِ الغضبَ، ولذلك لم يقيّدِ العطاءَ بها باستثناء، أو بما هو في معنى النّقض لها أو إزالتها، كأنّه يقول: الرّحمة أصلٌ ثابت لا ينتقض[2].

بيانُ الاحتباكِ في الآية:

فعلُ الله نافذٌ ناجزٌ في جميع الأحوال

يصحُّ إجراءُ النّظم على الاحتباك، أوِ الحذفِ التّقابليِّ بحذف ما في أحد الجانبين ما ذُكر نظيرُه في الثّاني، فكأنّه قيل: (ما يفتح اللّه للنّاس من رحمةٍ فيرسلها، فلا ممسك لها من بعده، وما يحبِس ويمنع منَ الرّحمة أوِ النّقمة، فيُمسكها، فلا مرسلَ لذلك من بعده).

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 9.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 222.

بيانُ المجازِ في استعارةِ الإمساكِ للحبْس:

الإمساكُ يدلُّ على شدّةِ القبضِ والتّمكّنِ منَ الفعل

أصلُ الإمساك في قوله: ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ﴾ هو القبضُ على الشّيء بالجارحة، فيمتنعُ عمّن سوى آخِذه، ثمّ استُعمِل في الحبْس والمنع عمومًا، وإنْ لم يقع فيه تناولٌ بالجارحة، فالإمساك في الآية مجازٌ عنِ الحبْس والمنع؛ ولذلك قوبل به الفتْحُ في: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ﴾، وهو جارٍ على الاستعارة التّصريحيّة، شبّه منْعَ الشّيءِ في حيّز الحبْس، بإمساك شيءٍ والقبْضِ عليه في حيّز الكفّ، بجامع الانحباس في كلٍّ[1].

مرجعُ الضّميرِ في: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾:

قيدُ البَعديّةِ يدلُّ على التّحدّي

الضّميرُ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ يعود على اللّه ﷻ، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: 23]، وقولُه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [الجاثية: 6][2]، ومعنى (من بعد اللّه)، أي: من بعد إمساك اللّه، فالكلامُ على حذف مضاف[3]، ويصحُّ أن يعود الضّميرُ على المصدر المفهوم منَ الفعل السّابق في: ﴿يُمۡسِكۡ﴾، وهو (الإمساك)، أي: من بعد ذلك الإمساك، والأقربُ عوْدُه إلى اسم الجليل سبحانه؛ لأنّه أدلّ على كمال التّصرّف في حقّ اللّه ﷻ[4]، ولكون السّياق واردًا بأسماء الذّوات، وهو قوله: ﴿يَفۡتَحِ ٱللَّهُ﴾ ﴿مُمۡسِكَ﴾ ﴿مُرۡسِلَ﴾، فلمّا قال: ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾، أي: لا مُرسِلَ له - واسم الفاعل يدلّ على الذّات - من بعدِ مُمْسِكه وهو اللّه، فاستكمال النّظم على تقدير الذّات هو الأليقُ.

نكتةُ تأنيثِ الضّميرِ ثمّ تذكيره في: ﴿لَهَاۖ﴾، ﴿لَهُۥ﴾:

تذكيرُ الضّميرِ لعمومِ مرجِعِه

أنّث الضّميرَ في قوله تعالى: ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾؛ لِعوْده على الرّحمة في: ﴿مِن رَّحۡمَةٖ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ على اعتبار أنّ الضّمير

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسك)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 252.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 253.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 429.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 28.

المذكّر يعود على لفظ ﴿مَّا﴾ الذي معناه الرّحمة، أي: (ما يمسك منَ الرّحمة فلا مرسل له، أي: لذلك الذي أمسكه، وهو الرّحمة)، وعلّةُ مجيء الضّمير في الأوّل على التّأنيث، وفي الثّاني على التّذكير عوْدُه على لفظ ﴿مَّا﴾ المذكّر، دون معناها المؤنّث، فيتّفقُ في التّأنيث كما الضّميرِ الأوّل؛ لأنّ الرّحمة كانت أقربَ وأظهرَ، في الموضع الأوّل، ولذا أنّث الضّميرَ بعدها؛ لحضورِ وقُربِ ما يدلّ عليه، وفي الثّاني في: ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ ذكّر الضّميرَ؛ لأنّ لفظ الرّحمة كان بعيدًا في الموضع الأوّل، وجاء هنا مضمرًا، فحسُنَ تذكيرُ الضّمير؛ لأنّ أقرب مذكورٍ قبله هو لفظ ﴿وَمَا﴾ في: ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ﴾ فعاد الضّمير على لفظه، ولو أنّث في موضع التّذكير للمعنى، وذكّر في موضع التأنيث للّفظ جاز، ولكنّ الأفصحَ منَ الكلام التّأنيثُ إذا ظهر قبل الضّمير ما يدلّ عليه، والتّذكيرُ إذا لم يظهر ذلك[1].

موقعُ جملةِ الفاصلةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

العزيزُ غالِبٌ في إرادته، والحكيمُ مُتْقِنٌ في تقديره

جملةُ الفاصلة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، ومعرِبٌ عن كون كلٍّ منَ الفتح والإمساك إنّما هو حاصلٌ بموجب الحكمة التي عليها يدور أمرُ التّكوين، والواوُ حاليّة، أي: هو فاعلٌ لذلك والحالُ أنّه وحده هو العزيزُ الحكيم، وتعريفُ الطّرفين المسنَدِ والمسنَدِ إليه أفاد القصرَ، أي: هو وحده العزيزُ المانعُ والحكيمُ الصّانع، وواو الحال تفيد أنّ الجملة يُراد بها الحاليّةُ، لا التّعليلُ، والواو الحاليّة يراد منها مصاحبةُ ما بعدها لِما قبلها، وأنّ ما بعدها مستقرٌّ وثابت من قبَل الحدث المصاحبِ لها، وهو الفتح والإمساك المذكوران، ولذا فمجيءُ جملة الفاصلة جملةً حاليّةً مقترنةً بالواو؛ يدلّ على الاهتمام بمضمونها، والمبالغةِ في ثبوته وتحقيقِه، فالمعنى:

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 328، والسمرقندي، بحر العلوم: 3/ 99.

يفعل ما يفعل منَ المنع والعطاء والإرسال والإمساك والتّحدّي بهما وهذه حاله منَ العزّة والحكمة، فلا استبعادَ ولا استغرابَ[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسالُ والإطلاقُ:

الإرسالُ فيه سهولةٌ وبحبوحةٌ، والإطلاقُ فيه كدٌّ ومُعالَجةٌ

الإرسالُ: أصلُ الرِّسْلِ: الانبعاثُ على التُّؤَدَة، أي: إطلاق الشّيء وإفلاتُه بيُسْرٍ وعدم عجَلَة، وتُصوّر منه تارة الرّفق، فقيل: على رِسْلِكَ، إذا أمرته بالرّفق، وتارة الانبعاثُ فاشتقّ منه الرّسول[2]، وعبّر هنا في الآية بمادّة الإرسال في قوله: ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ إشارةً إلى معنى الرّسالة في قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾؛ للإلماح إلى أنّه لا إرسالَ إلّا منَ الله، فإذا كان ذلك حاصلًا في العطايا والأرزاق والخير والشرّ في قوله: ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾؛ فأولى به أن يقع في شؤون الوحي والرّسالات، فلا إرسالَ لأحدٍ منَ النّاس أو منَ الملائكة إلّا منه وبإذنه، كما أنّه لا إرسالَ لشيء منَ الأشياء أو لِغرضٍ منَ الأغراض - كما في: ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ - إلّا منه.

وأمّا الإطلاقُ: فأصل (طلق) يدلّ على التّخلية والإرسالِ[3]، وهو انعتاقُ الشّيء ممّا كان يقيّده، والطّلاق الشّرعيّ: هو التّخلية من وثاق الزّوجيّة، فمتى ذُكِرَ القيْد يُقال: أطلقت، ولا يُقال أرسلت، ومنه: أَطْلَقْتُ البعيرَ من عِقاله[4]، إذا فكَكْته عنه، فأُرْسِل، ويكأنّ الإرسالَ هو استمرارُ الإطلاق، فالإطلاق يُتصوّر معه الإفلاتُ منَ القيْد، والإرسال هو الانطلاقُ في بحبوحةٍ ويُسْر، وهذا يكون بعد تعوّد الانطلاق من غير قيْد، ولذا فالإرسال يأتي بعد الإطلاق،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 8، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 306.
(2) الراغب، المفردات: (رسل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلق).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طلق).

ولم يقل في النّظم: (فلا مُطْلِقَ لها) اختيارا للأسهل، فإنّ الإرسال فيه سهولةٌ وخِفّة، والإطلاق فيه صعوبةٌ؛ لكونه حاصلا من قَيْد، فإذا امتنع الأسهل، فامتناعُ الأصعب أولى وآكَدُ، فاصطفاء الإرسال آكَدُ في التّحدّي والمُمانَعة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ [فاطر: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

على العبد أنْ يذكرَ نعمةَ الله عليه في الإرسالِ والإمساكِ والمنعِ والعطاءِ

هذه الآيةُ من جنس الآية التي قبْلَها في توفُّر العزائم والنّيّات والهِمَم على باب الله وحده، فالآية قبْلَها: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾، فكان معناها القصرَ، والحصرَ في انفراده سبحانه بمفاتح الأمور ومغالِقِها، ثمّ جاءت هذه الآية لتقرير مضمون ذلك، والتّأكيدِ عليه، بإعادة معنى ذلك القصر والحصر في انفراده سبحانه بالخالقيّة والرّازقيّة، اللّذَين يجري بهما ويحصلُ منهما الإرسال والإمساك في الآية السّابقة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾: أصلُ (أفك) يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه، يقال: أَفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيْءِ: إذا صَرَفْتُهُ عَنْه، والإفكُ: كلُّ مَصروفٍ عن وجهه الّذي يحِقُّ أن يكونَ عليه[1]، والمعنى في الآية: أي: تُصرَفونَ عنِ الحَقِّ[2]، فـ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾: منَ الأَفْك بالفتح، وهو الصّرْف، يقال: ما أفَكَك عن كذا، أي ما صرفك عنه، وقيل هو منَ الإفك بالكسر، وهو الكذبُ.

مَنْ ذكرَ النِّعَمَ ونسي المُنعِمَ فقد انقلبَ مصروفًا إلى سوء السّبيل

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ينادي اللّه عبيدَه منَ النّاس جميعًا، ونداؤه لهم هو خطابُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أفك).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 328.

تنبيهٍ، وهو من فتْحِ الرّحمةِ لهم أن يُناديَهم، ومن إمساك الشّرّ عنهم أن يستجيبوا لندائه، وهو يأمرُهم أن يذكروا نِعَمَه عليهم ذِكْرَ تعديدٍ لها، واعترافٍ بها، وإسنادِها إلى المُنْعِم بإيجادها وإيصالِها وتمكينِهم منَ الانتفاع بها، فإذا ذكروها ذكروا اللّه، وإذا ذكروا اللّه بالنِّعَم أحبّوه وأطاعوه وأنابوا إليه؛ ولذلك لمّا كان ذِكْرُ اللّه هو المقصود من ذِكْر النِّعمة قال سبحانه على سبيل التّقرير والتّسجيل: هل من خالقٍ لكم ولِما أنعم به عليكم أحدٌ غيرُ اللّه، فيستحقُّ الولاءَ والعبوديّةَ دون اللّه، ذلكم اللّهُ الذي أوجدكم بالخلْق، وأمدّكم بالرِّزْق، وسخّر لكمُ السّماءَ والأرضَ وعاءً لِما أمدّكم به من تلك الأرزاق؛ ليشملكم رزْقُه من فوقكم منَ السّماء، ومن تحت أرجلكم منَ الأرض، وغايةُ ذلك: إقرارُكم واعترافُكم بحقيقة أنّه لا إله إلّا اللّه، فبأيّ حالٍ وبأيّ منطِقٍ تنصرفون عنه وتنقلبون عن سبيله إلى سُبُلِ الشّرك التي لن تؤدّي بكم إلّا إلى سوء المُنْقَلَب، والجزاءُ من جنس العمل، فلا تأفِكوا، وارجعوا إلى حال الاستقامة، ولا تستمرّوا على حال النّكسة والإفْك.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ممّا قبْله:

جملةُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطابٌ استئنافيٌّ مؤكِّدٌ ومقرِّرٌ لِما قبْله، فلمّا قرّر بأسلوب الشّرط والجزاء - الذي يحفّز النّفوسَ على اليقين والاستبشار بموعد اللّه أنّ ما يفتحه اللّه لا غالِقَ له، وما يمنعُه اللّه لا مرسِلَ له، وكان ذلك من أجلّ النِّعَم والقيَم أن تتجَمعَ هِمَمُ النّاس على مقصودٍ ومصدرٍ واحد منه وإليه المقاديرُ والمصائرُ، وكان ذلك عِصمةً لهم منَ التّوزّع أشتاتًا في تفاريق السّبُل وتباعيض المتعلّقات، ومختَلَفِ الجهات بما يفسخُ العزائم وينقضُ الهِمَم ويفوّتُ المقاصد والأغراض - أتبع ذلك بأسلوب النّداء عليهم بما يقرّر ذلك ويصرّح

لا خالقَ للنِّعَم إلّا اللّه، فهو سببُ كلِّ نعمةٍ، وإليه وحدَه إيجادُها

به، وهو ثبوتُ نعمة اللّه عليهم، وثبوتُ أنّه لا خالق للنِّعَم إلّا هو، فهو سببُ كلِّ نعمة، إليه وحده إيجادُها، ومنه وحده إيصالُها، فكانت هذه الآية بامتنانِ النّداء، مقرِّرةً لموعود الشّرط في الآية التي قبلها[1].

دلالةُ استهلالِ الخطابِ بالنّداءِ:

التّذكرةُ بالنِّعَم من جوالب شُكرِ المُنعِم

النّداءُ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾؛ للامتنان على العالَمين بالإنعام، وغرضُ النّداء ظاهرٌ في جملة جواب النّداء وهي قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ فالغرضُ التّذكرةُ بفيوضات النِّعم التي لا ينقطع تواترُها على النّاس ما قامت بهم حياة.

ويدلُّ على الاهتمام بالمنادَى والعنايةِ بمضمونه؛ لأنّ النّداء يتضمّن التّنبيه؛ ولهذا إذا قلتَ للطّالب: يا ولد! فإنّه ينتبه، فتصديرُ الحكم بالنّداء يدلّ على العناية به؛ لأنّ النّداء يفيد التّنبيه[2].

معنى(أل) في: ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

النّاسُ عيالُ الله وهو أرحمُ بهم من أنفسهم

(أل) في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ وهو المنادَى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، جنسيّةٌ؛ لاستغراق الأفراد، والاستغراقُ بين الحقيقيّ، أوِ العرفيّ، والعرفيُّ أظهر؛ لأنّ المقصود بالنّاس مَنْ يفهمون ذلك الخطابَ؛ لصلاحيتهم للتّكليف والتّلقّي، فيخرج منهمُ المجنون ومن في حكمه ممّن اتّصف بموانع الأهليّةِ في التّكليف والخطاب.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في تسمية الشّكر بالذِّكر:

الـذِّكْـرُ هـو آلـةُ إظهارِ الشّكر

المرادُ بالذّكر في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ الاعترافُ بالنّعمة وشكرُها، والتّعبيرُ عن ذلك بالذِّكر من باب تسمية الشّيء بسببه؛ لأنّ ذِكْرَ النّعمة أوّلًا بالقلب واللّسان هو سببُ شكرها، فيكون ذلك مجازًا مرسلًا لعلاقة السّببيّة، أوِ التّعبير بالذِّكْر وإرادةُ الشّكر هو

(1) صافي، الجدول: 11/ 251.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 29.

من إطلاق الجزء وإرادةُ الكلّ؛ لأنّ الذِّكر باللّسان هو من شُعَبِ الشّكر؛ لأنّ الشّكر على النِّعم يقع بقول اللّسان واعتقادِ القلب وعملِ الجوارح، فالذِّكْر جزءٌ منه، وإنّما خُصّ ذلك الجزءُ منه؛ لكون الذِّكْر هو آلةَ إظهار الشّكر، فيكون ذلك مجازًا مرسلًا أيضًا لعلاقة الجُزئيّة(1).

دلالةُ إطلاقِ لفظِ الذِّكرِ في ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾:

ذكرُ القلبِ من غيرِ اللّسانِ كتمانٌ، وذِكرُ اللّسان من غير القلب هذيانٌ

المرادُ بالذِّكر في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ التّذكّرُ بالقلب وباللّسان، فهو من عموم المشترك، أو من إرادة القدر المشترك؛ فإنّ الذِّكر باللّسان، والذِّكر بالقلب يستلزم أحدُهما الآخرَ، وإلّا لكان الأوّل هذيانًا، والثّاني كتمانًا(2).

دلالةُ إضافةِ النّعمةِ إلى اسمِ الألوهيّةِ:

لا بدَّ في النّعمة من ثلاثة أمور إيجادُها، وإيصالُها، وقابليّةُ الانتفاع بها

إضافةُ النّعمة إلى اسم الجليل سبحانه؛ لتعريف النّعمة وتشريفها بإضافتها إلى اسم الكمال الأجلّ، وفي الإضافة إشارةٌ إلى أنّ نِعَم اللّه لا يقدرُ على إيجادها وإيصالها وقابليّة الانتفاع بها إلّا اللّه الجامعُ لصفات القهر والجلال والإحسان والجمال.

دلالةُ إفرادِ النّعمةِ في: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾:

المفردُ يفيدُ الاستغراقَ والعمومَ بإضافته

أفردَ النِّعمةَ في قولِه تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾؛ لأنّها اسمٌ أقيم مقامَ المصدر، فيقال: أنعمَ اللّهُ عليه إنعامًا ونِعْمَةً، أقيم الاسم مُقامَ الإنعام؛ كقولك: أنفقت عليه إنفاقًا ونفقةً، بمعنًى واحدٍ؛ ولذلك أفرد ولم يُجمَع؛ لأنّ من حقّ المصدر الإفرادَ؛ لأنّه من حيث دلالتُه على المعنى المجرّد (الإنعام) يتناول القليلَ والكثير بحسب متعلَّقاته منَ الأعيان قِلّةً وكثرة، أوِ المرادُ بالنّعمة هنا اسمُ الجنس، يعني جنس الشّيء المُنعَم به وحقيقتُه، والمراد به الجمعُ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 10.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 254.

لا الواحد، بلِ المرادُ به الاستغراقُ والعموم، بدليل تعريفه بإضافته إلى اسم الجلالة، والتّعريف بالإضافة هنا تعريفُ الجنس المفيد للاستغراق؛ إذِ المفردُ يفيدُ الاستغراقَ بالإضافة[1].

بلاغةُ الكنايةِ في ذِكْرِ النّعمةِ:

الخطابُ بذِكر النّعمة في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ كنايةٌ عن حفظها، وعدمِ كفرانها، كقولك لمن أنعمتَ عليه: أذكر أياديَّ عندك، تريد حفظَها وشكرَها[2].

بلاغةُ حذفِ متعلّقِ الذّكرِ:

ذِكْـرُ النّـعـمـةِ كـنـايةٌ عـن ذِكْـرِ المُنعِم

لم يقلْ في السّياق الكريم: (اذكروا نعمت اللّه عليكم في أيّ شيء وبأيّ كيفيّة) ليقع الذِّكْرُ المأمورُ به موقِعَه المُطابِقَ لجميع حقيقته، وهي الذِّكرُ باللّسان ثناءً، واعترافًا وتحدُّثًا بنعمة اللّه، والذِّكرُ بالقلب اعتقادًا وانقيادًا للمُنعِم الرّازق، والذّكْرُ بالجوارحِ بإنفاق النِّعمةِ على النّفْسِ، والإحسان بها إلى الخلْق، وعدمِ الطّغيان بها في الأرض[3].

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ في: ﴿عَلَيۡكُمۡۚ﴾:

نِـعَـمُ الـلـه تعالى محيطةٌ بالإنسان من كلّ جانبٍ نازلةٌ عليه مِنَ السَّماء

الجارُّ والمجرور في قوله ﴿عَلَيۡكُمۡۚ﴾ متعلّقٌ بالإنعام، في قوله: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، وحرفُ الاستعلاء في: ﴿عَلَيۡكُمۡۚ﴾ يفيد إحاطةَ النِّعم بالإنسان من كلّ جانب، حتّى كأنّها مثلُ شيءٍ مُطْبِقٍ مُسْتَعلٍ عليه؛ لتزاحُمِها وكثرتِها؛ ولذا لم يقل: (إليكم)، وأيضًا في التّعبير بحرف الاستعلاء إشارةٌ إلى كونها نازلةً عليه مِنَ السّماء؛ لأنّها مِنَ الأرزاق المُستودَعَة في السّماء، فالنِّعَمُ مُستعليةٌ على النّاس من هذا الوجه[4].

---

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 31.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 13.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 31.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 8.

الاستفهامُ في حقيقته إنشاءٌ، وفي مَجازِه خبَرٌ

بلاغةُ المجازِ في الاستفهام بـ﴿هَلۡ﴾:

الاستفهامُ في قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ إنكاريٌّ في معنى النّفي؛ ولذلك اقترن ما بعده بـ ﴿مِنۡ﴾ التي تُزاد لتأكيد النّفي، واستعمالُ الاستفهام في غير حقيقته التي هي طلبُ الفهم مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الإطلاقُ والتّقييدُ(1).

عرّف اللهُ نفسَه إلى خلْقه بصفاتِ العطاءِ والإحسانِ

وجهُ الكنايةِ في ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾:

جملةُ ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾ تقريرٌ بوَحدانيّة اللّه سبحانه في صفاته وأفعاله والتي منها الخلْق والرّزق، وذلك كنايةٌ عنِ النّظر والفِكَر وما يؤدّي إلى استيفاء ذلك التّقرير وتحقيقِه(2).

(هل) أوسعُ في المعنى وأجمعُ منَ الهمزة

نكتةُ اصطفاءِ ﴿هَلۡ﴾ دون همزة الاستفهام:

إيثارُ التّعبير بـ﴿هَلۡ﴾ دون همزة الاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾؛ لِما في أصل معنَى (هل) منَ الدّلالة على التّحقيق والتّصديق؛ لأنّها في الأصل بمعنى (قد)، والسّياقُ لمّا كان بمعنى النّفي، جاء باستفهامٍ أُشرِب معنى النّفي، وذلك يحصلُ بـ﴿هَلۡ﴾، ولا يحصلُ بالهمزة.

الاستفهامُ إذا كان بمعنى النّفي أُشرِبَ معنى التّحدّي

واستعمل ﴿هَلۡ﴾ دون حرف النّفي، فلم يقل: (ما من خالق غير اللّه يرزقكم)؛ لأنّ ﴿هَلۡ﴾ لا تتمحّض للنّفي فقط، بل هي تدلّ على معنيَين، النّفي، والاستعجابِ والاستنكارِ المستلزم للتّقرير، فهي أوسعُ وأجمعُ في المعنى؛ ولذلك أوثِرتْ لِغرض النّظم(3).

معنَى ﴿مِنۡ﴾ في: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ صِلةٌ زيدت لتأكيد النّفي المستفادِ من ﴿هَلۡ﴾، وهي تفيد استغراقَ النّفي كذلك وعمومَه(4).

---

(1) ابن عاشور التحرير والتنوير: 22/ 254.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 254.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 254، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 242.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 8، 9.

موقعُ قوله: ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ واختلافُ القراءات فيه:

نـفـيُ خـالـقـيّـةِ غـيرِ الله تعالى يفيدُ ثبوتَها له سبحانه وحده

معنى قولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، أي: (هل خالقٌ مغايرٌ له تعالى موجودٌ)، على أنّ ﴿خَٰلِقٍ﴾ مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ المقدّرِ بـ(موجود) أو بـ(لكم)، زيدت عليه ﴿مِنۡ﴾ لتأكيد العموم، و﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ نعتٌ لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ باعتبار محلّه؛ لأنّ محلّه الرّفعُ، ولذلك جاء ﴿غَيۡرُ﴾ مرفوعًا، وقرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو جعفر - تواترًا - بالجرّ في ﴿غَيۡرِ﴾ على أنّه نعتٌ لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ باعتبار لفظه[1]، والنّفيُ مع الاستثناء أفاد الحصر[2]، وأيضًا على اعتبار (غير) صفةً لـ﴿خَٰلِقٍ﴾، فيفيد التّركيبُ الحصرَ أيضًا، إلّا أنّ إفادة القصر على معنى الاستثناء نصّيٌّ، والقصرَ بـ﴿غَيۡرُ﴾ على معنى الصّفة تضمّنيٌّ، فمعنى (ما من خالق إلا اللّه) أفاد الحكمَ، وهو ثبوتُ الخالقيّة للّه وحده نصًّا صريحًا، وأمّا (ما من خالقٍ غير اللّه) فهو نفيٌ لِخالقيّةِ غيرِ اللّه، ومضمونُه ثبوتُ خالقيّة اللّه سبحانه[3].

دلالةُ ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ بين الصّفة والاستثناء:

حـــقـــيـــقـــةُ الاستثناء إخراجُ بعضٍ من كُلٍّ

(غير) في قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، صفةٌ لـ﴿خَٰلِقٍ﴾، ويصحُّ حمْلُها على الاستثناء بمعنى: (ما من خالق إلّا اللّه)، والاستفهامُ في ﴿هَلۡ﴾ بمعنى النّفي، كما سبق، والفرقُ بين معنيَي (الوصف والاستثناء): أنّ (غير) إذا كانت صفةً لم توجب للاسم الذي وصفته بها شيئًا، ولم تنفِ عنه شيئًا؛ لأنّه مذكور على سبيل التّخصيص بموصوفيّةِ (غير) له، فإذا قلتَ: (جاءني رجل غير زيد)، فقد وصفتَه بالمغايرة له، وعدمِ المماثلة، ولم تنفِ عن زيدٍ المجيءَ، وإنّما هو بمنزلة قولك: (جاءني رجل ليس بزيد)، وكذا هنا

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 351.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 142.

(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 265.

في النّظم الكريم: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، فمعناه: ثبوتُ المغايرة وانتفاءُ المماثلة لِمَن انتفت عنه صفةُ الخالقيّة بينه وبين اللّٰه سبحانه، وليس في ذلك ثبوتُ الخالقيّة للّٰه نصًّا، فالمراد هو اتّصافُ كلِّ منِ انتفى عنه الخالقيّة وهو المذكور في: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ بالمغايرة الواردة في: (غير اللّٰه)، وليس المراد نصًّا ثبوتَ الخالقيّة للّٰه، وأمّا إذا كانت ﴿غَيۡرُ﴾ استثناءً، فإنّه إذا كان قبلها إيجابٌ، فما بعدها نفيٌ، وإذا كان قبلها نفيٌ، فما بعدها إيجاب، لأنّها هنا محمولةٌ على (إلّا)، فكان حكمُها كحكمه، فالمعنى حينئذ من قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، أي: (ثبوتُ الخالقيّة للّٰه، ونفيُها عمّا عداه)، فكأنّه قال: (ما من خالقٍ إلّا اللّٰه)، وهذا هو الفرق بين معنى (غير) على الوصفيّة، ومعناها على الاستثناء[1].

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿غَيۡرُ﴾:

ينفردُ اللّٰه بصفة الخالقيّة والرّازقيّة

﴿غَيۡرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ اسمٌ متوغّلٌ في التّنكير والإبهام، فقوله: ﴿خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: غيرُ متميّز ولا متعيّن، فالمراد الإطلاقُ في الإبهام والإشاعة، أي: نفي الخالقيّة عن أيّ شيءٍ غيرِ اللّٰه سبحانه، والأشياء كلها متّصفةٌ بمغايرة اللّٰه سبحانه، وهذه المغايرة واقعةٌ من جهة الذّات ومن جهة الصّفة، فلا ذاتَ موجودةٌ هي مِثْلُ اللّٰه في ذاته، ولا شيء له صفةٌ كصفته سبحانه، ومنها الخالقيّةُ والرّازقيّة[2]، فأصل (غير) أن يكون وصفًا جاريًا على ما قبله تَحليةً له بالمغايرة، والاستثناء فيه عارِضٌ مُعارٌ من (إلّا)، فالذي لـ (غير) في أصله أن يكون وصفًا تابعًا في الإعراب لِما قبله، ومعناه المغايرةُ، وخلافُ المماثلة، ودلالتُه على ذلك من جهتين: من جهة الذّات، ومن جهة الصّفة، تقول: (مررت برجل

---

(1) ابن يعيش، المفصل: 2/ 71.
(2) ابن يعيش، المفصل: 2/ 70.

غير زيد) قاصدًا إلى أنّ مرورك كان بإنسان آخر، أو بمن ليست صفتُه صفتَه، وتطبيق ذلك على الآية هنا قد مَرّ[1].

عِلّةُ وصفِ النّكرة بالمضاف إلى أعرف المعارف:

نفيُ وجودِ خالقٍ غيرِ الله تعالى

منَ الثّابت أنّ النّكرة إذا أضيفت إلى معرفة اكتسبت تعريفًا، وفي قوله: ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ أضيفتْ ﴿غَيۡرُ﴾ إلى أعرف المعارف وهو اسمُ الذّات الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، ومع ذلك وقعت ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ صفةً لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ وهو نَكِرة، ولا تصلحُ المعرفة أن تقع وصفًا لنكرة، والعِلّةُ في وقوع ذلك هنا: أنّ لفظ ﴿غَيۡرُ﴾ موغِلٌ في التّنكير، فلا يكتسب تعريفًا في مثل هذا التّركيب[2]، وإيغالُه في التّنكير الدّالِّ على العموم يناسبُ نفيَ خالقٍ غيرِ اللّه تعالى.

موقعُ جملةِ ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ وأثرُه في البيان:

جملةُ (يرزقكم) استئنافٌ بيانيٌّ؛ لسؤال سائلٍ عن لازمِ الإيجاد والخلق

جملة ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ استئنافيّةٌ، بعد تمام المبتدأ والخبر في الجملة قبْلها: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، ولذا يكون الوقف هنا كافيًا، ثمّ الابتداء بـ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ وهو داخلٌ في حيّز النّفي والإنكار من قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾، ونكتةُ اختيار استئناف جملة ﴿يَرۡزُقُكُم﴾، وفصلُها في الإعراب عن جملة: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها لو جُعلَتْ وصفًا لـ﴿خَٰلِقٍ﴾، على معنى: (لا خالق موجودٌ متّصفٌ بالرّزق غير اللّه)؛ لكان معنى ذلك: نفيَ وجود خالقٍ موصوفٍ بوصفَي المُغايرة والرّازقيّة معًا، من غير تعرّضٍ لنفي وجود ما اتّصف بالمغايرة فقط، وهذا معنى فاسدٌ، ولو جعلت جملة: ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ خبرًا للمبتدأ: ﴿خَٰلِقٍ﴾، أو جعلت مفسّرةً لمضْمَرٍ ارتفع به قولُه تعالى: ﴿خَٰلِقٍ﴾ على الفاعليّة، أي: (هل يرزقكم خالقٌ غيرُ اللّه)؛ لكان المعنى على ذلك: نفيَ رازقيّة خالقٍ مغايرٍ له تعالى، من غير تعرّضٍ لنفي وجوده

(1) ابن يعيش، المفصل: 2/ 70.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 339، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 205.

رأسًا، مع أنّه المراد حتّمًا، فكان في ذلك إيهامٌ مُخِلٌّ بالمعنى، فكان استئناف جملة ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ هو الأفصحَ والأَوْلَى والأَسْلَمَ[1].

نكتةُ اختصاصِ صفتَي الخالقيّةِ والرّازقيّةِ في إثبات الألوهيّةِ:

من لا يَخلقُ لا يَرزُقُ، ومن لا يَخلُقُ ولا يَرزُقُ لا يستحقُّ العبادةَ

اختصاصُ صفة الخالقيّة والرّازقيّة في إثبات الألوهيّة في قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾؛ لأنّ هذين الوصفين هما أظهرُ دلائل الإلهيّة عند النّاس، فمن لا يَخلقُ لا يَرزُقَ، ومن لا يَخلُقُ ولا يَرزُقُ لا يستحقُّ العبادةَ، فهذان الوصفان هما عِلّةُ استحقاق العبوديّة[2].

نكتةُ اقترانِ صفةِ الرّازقيّةِ بصفة الخالقيّة:

الخلْقُ بدون رزقٍ قصورٌ في الخالقيّة

اقترانُ صفةِ الرّازقيّة بصفة الخالقيّة في قوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾؛ لِمناسبةِ مطلع الآية؛ فإنّها في التّذكير بالإنعام الموجِب للشّكر والإيمان، ولِتَقَعَ بهذا الاقتران الكنايةُ عنِ الاستدلال على انتفاء وصفِ الخالقيّة عن غيره تعالى؛ لأنّه لو كان غيره خالقًا، لكان رازقًا؛ إذِ الخلْقُ بدون رزقٍ قصورٌ في الخالقيّة؛ لأنّ المخلوق بدون رزق لا يلبثُ أن يصير إلى الهلاك والعدم، فيكون خلقه عبثًا يُنَزّهُ عنه الموصوفُ بالإلهيّة المقتضية للحكمة، وأيضًا: للدّلالة بهذا الاقتران على اقتران نعمتَي الإيجاد والإمداد، فالإيجادُ حاصلٌ بالخلْق، والإمدادُ حاصلٌ بالرّزق[3].

بلاغةُ الكنايةِ في انفراد الله وحده بالخلْق والرّزق:

كونُ الله منفردًا بالرّزق يَستوجِبُ الانقطاعَ عن التّأميل في الخلْق

انفرادُ اللّه وحده بالخلْق والرّزق كنايةٌ عن لازِمِه، وهو انقطاعُ أملِ كلِّ أحدٍ من غيره؛ حتّى من نفسه؛ فحصل بذلك الإخلاصُ له وحده سبحانه في عبوديّته، وابتغاءِ الرّزْق منه وحده، كما قال تعالى:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 143.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 255.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 255.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ [العنكبوت: 17][1].

معنَى ﴿مِّنَ﴾ في: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

رزقُ الأرضِ أوسعُ منَ النّبات والطعام

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: من جهة السّماء والأرض، وفيه: أنّ الأرزاقَ شاملةٌ لِمُخرجاتِ السّماء منَ الأمطار، ومخرجاتِ الأرض منَ النّبات والزّرع وسائرِ الخيرات الأرضيّة[2].

بلاغةُ الكنايةِ في تقييد الرّزق بـ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

الرّزقُ كلُّه من عند الله ولو أجرى الله إيصالَه على يد أحدٍ من خلْقه

القيدُ بالجِهَةِ في قوله تعالى: ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أفاد تعدّدَ مصادر الأرزاق، بما ينبّه على سعتها وكثرتها، وفي ذلك كنايةٌ عن سعةِ المتفضّلِ بها والموجِد لأسبابها، وكنايةٌ أيضًا عن أنّه لا رازقَ إلّا اللّه، وإنْ توهّم الإنسانُ أنّ المخلوقَ قد يرزقُ بسبب العطايا التي يتداولُها النّاس فيما بينهم، فكونُ الرّزْقِ منَ السّماء والأرض اللذينِ هما عبارة عن الكون كلّه، يفيد أنّ اللّه أحاط بشأن الرّزْق، بإيداعه فيما يستوجبُ كمالَ الإحاطة والقدرة وهو السّماء والأرض، فيلزم عن ذلك أنّ المخلوقين لا يُنْسَب إليهم رِزْقٌ بحالٍ منَ الأحوال؛ لأنّ شأن الرّزق أعظمُ عليهم وأعجزُ لهم؛ لعجزِهم عنِ الإحاطة وقصورِهم بقلّة الوسع وضعف الطّاقة[3].

موقعُ جملةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

تحقيقُ كلمةِ التّوحيدِ هي الغايةُ منَ البدء بالخلْق، والعنايةِ بالرّزق

جملةُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير ما في حيّز النّفي والإنكار في الجملة قبلَه، وهو قولُه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾، فالجملة نتيجةٌ عُقَبَ ذكْرِ الدّليل؛ إذ رتّب على انفراده بالخالقيّة والرازقيّة، انفرادَه بالإلهيّة؛ لأنّ هذين الوصفين هما أظهرُ دلائل الإلوهيّة عند النّاس.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 9.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 143.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 255.

وجملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أيضًا جاريةٌ مجرى الجواب على من يتوهّمُ الاستفهامَ حقيقيًّا في: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، فيُجاب بثبوت وحدانيّته[1].

إذا كان العبد مخلوقًا مرزوقًا، فكيف يتكبَّرُ أو يُصْرَفُ

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ تفريعيّةٌ؛ لترتيب مدخولِها على ما قبْلَها، أي: لترتيب الإنكار عليهم في انصرافهم منَ الإيمان إلى الشِّرك على ما قبْلَها من تقرير وحدانيّة اللّه الموجِبَةِ للإيمان واليقين، كأنّه قيل: وإذا تبيّن تفرّدُه تعالى بالألوهيّة والخالقيّة والرّازِقيّة، فمِن أيّ وجْهٍ تُصرَفون عنِ التّوحيد إلى الشِّرك[2]؟!

الآفِكُ منصرفٌ عن وجه الحقيقة انصرافَ المنقلِب على وجهه

دلالةُ (أنّى) في الآية:

(أنّى) في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ اسمُ استفهام عنِ الحالة، أو عنِ المكان، أو عنِ الزمان، وهو بمعنى: (كيف)، أو (مِنْ أين)، أي: كيف، ومن أين، وبأيّ وجهٍ وحالٍ ينصرفون عن وجه الحقيقة انصرافَ المنقلِب على وجهه؟ والاستفهامُ مجازيٌّ، معناه الإنكارُ والاستعجابُ والتّوبيخُ والتّقريعُ، على طريقة المجاز المرسل لعلاقة الإطلاق والتّقييد، وفائدتُه: التّسجيلُ والنّعيُ عليهم بالإفْك والزّور، فكأنّه يقول لهم: أنتم من أهل الإفْك والتّطرّف في الكذب والضّلال؛ إذْ كيف تقرّون بأنّه الخالقُ وحده ثمّ تعبدون معه غيره[3].

لله سبيلٌ واحد يجمعُ ويَهدي، ولغيره ألفُ سبيلٍ يشتِّتُ ويُحيِّر

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

لم يقل في السّياق الكريم: (مَنِ الذي أفَكَهُم)، ولذلك بنى الفعلَ لغير فاعله؛ لأنّ آفِكيهم أصنافٌ كثيرون، فحذْفُ الفاعلِ للتّعميم، وفيه كنايةٌ عن تمحُّضِهم في الضّلال والإفْك؛ لكثرة أوليائهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 143، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 255.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 143.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 9، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256، وابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 36، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 22/ 199.

وأئمّتهم في الغَواية، فلا سبيل لهم واضحٌ، بل هم حائرون في السّبُل، متوزّعون أشتاتًا لا ثبات لهم على مبدأ، ولا يقينَ لهم في مَسْلكٍ ومنهج، ومن كان كذلك فهو أبعدُ ما يكونُ عنِ استبصار الحقّ وتلمُّسِ آثارِ الهداية ودلائلِ الرّشاد[1]، وهم دائبون على هذه الحال بدلالة صيغةِ المضارع.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤﴾ [فاطر: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رسولُنا أجلُّ نِعَمِ اللهِ ورَحماتِه للعالَمِين

لَمّا أمَرَ اللّه النّاسَ جميعًا بذِكْرِ نعمةِ اللّه عليهم، وكانَ إرسالُ الرُّسُلِ على العموم نعمةً عظيمةً، وإرسالُ النبيِّ محمدٍ ﷺ نعمةً أجلَّ وأعظمَ، وكانَ الأمرُ بذِكرِ النِّعْمةِ أمرًا بشُكْرِها؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ مِن النّاسِ مَن يكذّبُ بها.

ولمّا ذُكِّرَ النّاسُ بأنَّ اللّهَ هو الخالقُ الرّازقُ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 3]، وخُتِمتِ الآية بالتَّوحيد الّذي هو الأصلُ الأوّلُ من أصولِ الدّين؛ نُبِّه في هذه الآيةِ على أنَّه المقصودُ بالذّات بذِكْر ما يعقبُه في الأصل الثّاني وهو الرِّسالةُ مِن تصديقٍ وتكذيبٍ، فجاء البيانُ القرآنيُّ ناعيًا على قريشٍ سوءَ تَلقّيهم لآياتِ اللّهِ وطَعْنِهم في بيِّناته؛ مُسلّيًا نبيَّه ﷺ[1].

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿تُرْجَعُ﴾: أصلُ (رجع) كبيرٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، يدُلُّ على رَدٍّ وتَكْرارٍ، والرُّجوعُ: العَوْدُ إلى مكانٍ منه البدءُ، سواءٌ كان مكانًا أوْ قولًا أوْ فِعلًا، وسواءٌ كان العَوْدُ بذاتِه أوْ بجزءٍ من أجزائِهِ أوْ بفعلٍ من أفعالِه[2]، تَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا؛ إذا عادَ[3]، ومعنى الرُّجوع إلى اللّهِ: الرُّجوعُ إلى وقْتِ نَفاذِ حُكْمِهِ المُباشِرِ في عبادِه[4]، والمرادُ بـ﴿تُرْجَعُ﴾ هنا: العَوْدُ والمآبُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 203.
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رجع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجع).
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 11/ 257، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 223.

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

عزاءٌ كريمٌ مِنَ اللهِ سبحانه للنَّبيِّ فيما يَلْقَى مِن قومه مِن تكذيبٍ

يقولُ اللّه سبحانه مسَلّيًا نبيَّه ﷺ: وإنِ استمرّوا على أنْ يُكذّبوك يا محمَّد ﷺ فيما بلّغتَ إليهم مِنَ الحقّ المبين، فتلك سُنَّةُ أمثالِهم مِن كُفّارِ الأُمَمِ الماضيةِ الّذين كذّبوا رُسُلَهم؛ فلا تَحزَنْ لذلك، ولك فيمَن سبَقَك مِنَ الرُّسُلِ أُسوةٌ، وإلى اللّه وحدَه ترجعُ أمورُ الخلائقِ جميعًا يومَ الدّين؛ فيحاسبُ كلَّ امرئٍ على عَملِه، ويجزيهِ عليه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو:

أقبحُ الكفرِ بالنِّعَمِ عدمُ شُكْرِ صاحبِها

(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها من مجموعِ الشّرطِ والجوابِ على جملة: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [فاطر: 3]، والمعنى: وإنِ استمرّوا على انصرافِهم عن قَبولِ دَعوتِك، ولم يَشكروا النِّعْمةَ ببَعْثِك فلا عجبَ؛ فقد كذَّبَ أقوامٌ مِن قبلِهم رسلًا مِن قبلِك[2]، فالواوُ عطَفَت ما هو كفرٌ بالنِّعْمةِ على الأمْرِ بذكرِها الَّذي هو أمرٌ بشُكْرِها؛ وهذا مِن عطْفِ مضمونِ كلامٍ على مضمونِ كلامٍ آخَرَ، ويجوزُ أنْ تكون عاطفةً لِما بعدَها على ما بعد (الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝﴾ [فاطر: 3]؛ لأنَّ الإفكَ هو الكذبُ الفاحشُ القُبحِ؛ كالتّكذيبِ المذكورِ.

سِرُّ التعبيرِ بـ (إنْ):

قد بانَ لهم أنَّ اللهَ فاطرُ السَّماواتِ والأرضِ؛ فكيف يُكذِّبونَ رسولَه؟!

آثرَ البيانُ الإلهيُّ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾؛ لأنَّ فعلَ الشّرطِ الذي هو تكذيبُ أهلِ الكفرِ نبيَّنا محمّدًا ﷺ قد تحقَّقَ وقوعُه؛ فكان التّعبيرُ بـ(إنْ) على خلافِ الظّاهرِ؛ تنبيهًا على أنَّ التَّكذيبَ من مِثْلِهم كالمُحالِ؛ لتنزيلِهم - بعدَ قيامِ الحجةِ وتكذيبِهم

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 330، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 533، 534، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 301 - 302.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256.

- منزلةَ مَن أيقنَ بصدقِ الرّسول؛ فلا يكونُ فرْضُ استمرارِهم على تكذيبه إلّا كما يُفْرَضُ المُحالُ[1].

علّةُ إفرادِ التَّكذيبِ بالذِّكْرِ:

يُكذّبون محمّدًا؛ ومُرسِلَه المُنعِمَ عليهِم الخالِقَ لهُم!!

أفْرَد القرآنُ من أحوالِ أهلِ الكفرِ التَّكذيبَ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ بالذِّكرِ؛ اهتمامًا بتسليةِ نبيِّنا محمّدٍ ﷺ؛ لأنَّ مِن مقاصدِ الآيةِ التَّسليةَ المذكورةَ، وأيَّدَ القرآنُ هذا بذكرِ تكذيبِ رسلٍ كثيرينَ قبلَ نبيِّنا ﷺ، وتَكرارُ التَّكذيبِ في جملة: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ﴾ أبلغُ في إنكار تكذيبه وتقبيحِه والتَّشْهيرِ به، وأبلغُ في تسليةِ رسولنا محمَّدٍ ﷺ؛ وتنبيهًا على أنَّ الأكثرَ يُكذِّبُ[2]؛ وإشارةً إلى ما تضمّنَه قولُه: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر: 3] من تبليغ بالتَّوحيدِ ووجوبِ إفرادِه بالعبوديّةِ، فكان التّكذيبُ أهمَّ سمةٍ يُعرَفُ بها المخاطَبون.

علّةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

حدوثُ التَّكذيبِ بعدَ العلمِ بالبراهينِ إصرارٌ على الضَّلالِ المُبِين

نَظَم القرآنُ التّكذيبَ الذي هو فعلُ الشّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ فعلًا مضارعًا؛ نظرًا إلى حدوثِ التّكذيبِ مِن أهلِ الكفرِ بعدَ قوّةِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وهو إنَّما يكونُ في المستقبلِ؛ فجاءَ فعلُ الشّرط مضارعًا دالًّا على الاستقبال على الأصلِ فيه بعدَ أداة الشّرط، والمعنى: إنْ حدَث منهم تكذيبٌ مستمرٌّ في المستقبل بعدَما قرَع أسماعَهُم مِنَ البراهينِ الدّامغةِ[3].

فائدةُ الانتقالِ إلى خطابِ النَّبيِّ ﷺ:

مَن كانَ اللهُ معَهُ فمَن ذا يكونُ عليه؟!

لم يَرِد لرسول اللّه محمّدٍ ﷺ ذِكرٌ صريحٌ في الآياتِ الثّلاثِ الأولى في مطلع السّورة، والتي وردت مِن قبلِ هذه الآية، ومعَ ذلك خاطبَه ربُّنا بقولِه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾؛ دلالةً على قَصدِ الإبلاغِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 203.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256.

في تسليتِه، بتوجيهِ الخطابِ الرَّبانيِّ لهُ ﷺ، وهذا معنًى جليلٌ من شأنِ رسولِنا ﷺ أنْ يُدْرِكَه، وأنْ يجريَ في قلبه ونفسِه.

وفي تعليقِ التّكذيبِ بذاتِ النّبيِّ ﷺ دونَ دعوتِهِ ودينِهِ وكتابِهِ إشارةٌ جليلة إلى أنَّ تكذيبَ النّبيِّ ﷺ هو تكذيبٌ لما جاء به من عند اللّه، وفي ذلك ربطٌ عميقٌ بين ذاتِه وما جاءَ به من عند ربِّه؛ لأنَّه السّببُ والمبلّغُ عنِ اللّه تعالى والمخبرُ عمّا نزل إليه من ربِّه، ففي التّعليقِ مجازٌ حذفيٌّ تقديرُه: (وإن يكذبوا رسالتك) مثلًا.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَقَدۡ﴾:

في ظاهِرِ اللّفظِ والنَّظْمِ بلاغةٌ وحِكْمةٌ

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ﴾ سببيَّةٌ رابطةٌ بينَ الشّرط وجوابِه، والجوابُ المُسبَّبُ محذوفٌ، لعدمِ صِحَّةِ ترتُّبِ ما بعدَ (الفاءِ) وتسبُّبِه عمّا قبلَه؛ وفيه لمحٌ إلى أنَّ تكذيبَ نبيِّنا ﷺ وتكذيبَ الرُّسلِ من قبلِه من جِنْسٍ واحِدٍ.

غرضُ التَّعبيرِ بـ(قد):

شديدُ الرّغْبةِ في الشَّيْءِ لا تَتَوقَّعُ نَفْسُهُ عَدَمَ تَحَقُّقِهِ

كلمةُ (قد) أداةُ توْكيدٍ؛ ودخولُها على الفعلِ الماضي في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾: أفادَ معنَى تحقيقِ التّكذيبِ المذكورِ؛ وهذه التَّسليةُ تُظهرُ الصّورَةَ لعظيمِ حُزْنِ نبيِّنا ﷺ على ضلالِ قومِه، وأنَّه مِن شِدَّةِ حرصِه على هدايتِهِم كانَ لا يتوقَّعُ تكذيبَهُم؛ فكان كالمُنْكِرِ له، أوِ الشّاكِّ فيه، وفي (قد) مدحٌ لنبيِّنا على شديدِ خوفِه على قومِه، ورأفتِه بأُمَّتِه.

دلالةُ حذفِ الفاعلِ:

أوذيَ نبيُّنا حسًّا ومعنًى؛ كما أوذيَ الرُّسُلُ مِن قبلِه

حذفَ القرآنُ فاعلَ فعلِ التّكذيبِ؛ فبنَى الفعلَ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ﴾؛ نظرًا إلى مقصد التّسليةِ؛ لأنَّ التّسليةَ محطُّها وقوعُ التّكذيبِ، لا تعيينُ المُكذِّبِ[1]، ففيه تعظيمُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 203.

التّكذيبِ وتحقيرُ المُكذِّب، وإتيانُ القدرة الإلهيَّة عليه، ولمّا نتَجَ عنِ الحذفِ إسنادُ التَّكذيبِ إلى الرُّسُل في الظّاهرِ؛ دلَّ على قوّة التّكذيبِ، وشدّةِ التصاقه بالرُّسُلِ، وتأثُّرِهم به؛ وهذا أبلغُ في تحقيق مقصدِ التّسليةِ، وإنَّما أظهرَ المكذِّبين له ﷺ وحذفَ مُكذّبي الأمم السّابقة؛ لأنَّ المقصود أنْ يرعويَ هؤلاءِ المكذِّبون بأولئك الَّذين عوقبوا حتى لم يُذكروا.

علّةُ التَّعبير بلفظ: ﴿رُسُلٌ﴾:

استحضارُ الرِّسالةِ في سياقِ التَّكذيبِ أبلغُ في التَّسْليةِ

آثَر القرآنُ التَّعبيرَ بصفةِ (الرِّسالةِ) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ نبيَّنا محمّدًا ﷺ قد أدَّى ما حمَّلَه اللّهُ مِن رسالةٍ إليهم؛ فلم يُقصِّر، وهذا ممّا يُساعِدُ على تحقيقِ قَصْد التَّسْلية، ولبيانِ قبحِ تكذيبِهم؛ لأنَّ الرِّسالةَ تُضاف إلى اللّه تعالى؛ لأنَّه المُرْسِلُ بها؛ فإذا كذَّبوا نبيَّهُم المُرسَلَ فقد كذَّبوا اللّه تعالى المُرْسِلَ، قال تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33]، وليكونَ في أمرِ رسولِ اللّهِ محمّدٍ ﷺ عِبرةٌ وعِظةٌ لمَن يكونونَ رُسُلًا لرسولِ اللّه ﷺ مِن أمَّته منَ العلماءِ والدّعاة.

سِرُّ التَّنكير:

نُكِّرَ لنبيِّنا سابِقوه؛ ليتذكَّر أحوالَهُم الكثيرةَ؛ فيتسلَّى بهم

نَظَم القرآنُ نائبَ الفاعل ﴿رُسُلٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾ نكرةً؛ لأنَّه أبَرُّ بالسّياقِ وقصدِه؛ لإفادته التّفخيمَ والتَّعظيمَ والتَّكثيرَ؛ أي: رُسُلٌ ذَوو عددٍ كثيرٍ، وأولوا آياتٍ ونُذُرٍ، وأهلُ أعمارٍ طِوالٍ، وأصحابُ صبرٍ وعزْمٍ، وما أشْبَهَ ذلك، وهذا أسْلَى لنبيِّنا محمّدٍ ﷺ وأحثُّ له على المُصابرةِ، والاستمرارِ في دعوتِهم[1].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 12/ 65، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 464، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 167 - 168.، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256.

آخِرُ الرُّسُلِ بلاؤُه أعظمُ، وصبرُه أفخمُ

بلاغةُ التّقييدِ:

الجارُّ والمجرور ﴿مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ في قوله: ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ﴿رُسُلٞ﴾؛ والوصفُ قيدٌ للموصوفِ، وهذا القيدُ معلومٌ لكلِّ مُتلقٍّ؛ فضلًا عن نبيِّنا محمّد ﷺ؛ لأنّه معلومٌ أنَّه سُبِقَ برُسلٍ كثيرينَ؛ ففي التَّصريح بالتَّقييدِ بالقَبْلِيَّةِ مُضافةً إلى كافِ الخطابِ النَّبَوِيِّ إشعارٌ لطيفٌ بأنَّه آخِرُ الرُّسُلِ؛ كما أشعَر به الجَمْعُ النَّكِرةُ: ﴿رُسُلٞ﴾؛ قال البقاعيُّ: "ونفَى أنْ يُرْسَلَ غيرُه بعدَ وجودِه بقولِه: ﴿مِّن قَبۡلِكَۚ﴾"[1]، وفي هذا بيانٌ لخطَرِ مكانتِه ومَوقعِه بينَ الرُّسُلِ عليهم الصّلاةُ والسّلامُ في مقابلةِ ما يدلُّ عليه تكذيبُ قومِه إيّاهُ؛ مِن عنادِه وقِلَّةِ الاكتراثِ به.

ذِكْرُ بعضِ خصائصِ نبيِّنا مِن شأنِه أنْ يُسلّيَه، ويُرغِّبَ القومَ في دينِه

نُكتةُ ذِكْر: ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾؛ للتَّنْبيهِ - بقرينةِ أنَّ الخطابَ لنبيِّنا ﷺ - على قوَّة استحضارِ الرَّسولِ لهؤلاءِ الرُّسُلِ وأحوالِهم مع أقوامِهم، وأحوالِ أقوامِهم معهم؛ كأنَّهم جميعًا كانوا في فترةٍ زمانيَّةٍ قريبةٍ مِن بعْثِه وإرسالِه ﷺ إلى قومِه.

في ذكْرِ هذهِ الكافِ شديدُ اعتناءٍ واحتفالٍ بنبيِّنا ﷺ

فائدةُ ذِكْرِ (كافِ) الخطابِ:

آثر البيانُ الإلهيُّ ذكرَ كافِ الخطاب في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ مصرِّحًا بها حضًّا على المبالغةِ في طلبِ التَّأسّي بالرُّسُلِ السّابقينَ، وحصولِ التَّسْليةِ بأحوالِهم وأحوالِ أقوامِهم؛ بإرشادِه ﷺ في لُطْفٍ إلى أنْ ينظرَ في أحوالهم وأحوالِ أقوامِهم، ثم ينظرَ في حالِه وحالِ قومِه؛ ليتحقَّقَ المقصودُ؛ فيتسلَّى بأنَّ حالَه ليس بدعًا من أحوال الرسل قبله.

تحقَّقَ نبيُّنا بكمالِ الصَّبْرِ عليهم والرَّحْمةِ بهم

سِرُّ حَذْفِ الجوابِ:

الظّاهرُ أنَّ جوابَ الشّرطِ محذوفٌ، وأنَّ تقديرَه: (فلا تحزنْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 203.

عليهم، واصبرْ على هدايتهم)؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾، وأمّا قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾: فهو مِن حركةِ معنى التّسْليةِ في الآيةِ؛ كما أنَّ الجوابَ المحذوفَ كذلكَ؛ فهو دليلٌ على الجوابِ أيضًا على الجُمَلةِ، وقد اكتفَى القرآنُ بذكرِ السَّببِ عن ذِكْرِ المُسبَّبِ، وفي هذا الحذفِ إيجازٌ واختصارٌ دالٌّ على أنَّ صبرَ النّبيِّ ﷺ وعدمَ جزعه ليسَ المقصودَ بالذّات، وإنّما تسويةُ تكذيبِه بتكذيبِ الأنبياء السّابقين؛ لأنّ صبرَه ثابتٌ في الدَّعوة.

وذكَر الآلوسي جوازَ أنْ تكونَ جملةُ: ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾: هي الجوابَ مِن غير تقديرٍ، ويكونَ المُترتِّبُ على الشَّرْطِ الإعلامَ والإخبارَ؛ كما في قوله تعالى -: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: 53][1].

دلالةُ (الواو):

اكتَسبَتِ الجملةُ المعطوفةُ معنَى التَّذْييلِ؛ بما فيها مِنَ العموم

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ عاطفةٌ لما بعدَها على ما بعدَ (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾؛ لبيانِ جزاءِ المُكذِّبينَ على وجهٍ يعُمُّهُم وغيرَهُم، والتّقديرُ: (وإن يكذبوك فإلى اللّه ترجع الأمور)، أي: اصبرْ على هدايتهم فإنَّ الأمورَ والأحوالَ راجعةٌ إليه ليفصلَ بينكم؛ ففي الجملة المعطوفةِ مزيدُ التّسْليةِ، وبيانُ أنَّ أمرَ أولئك المُكذِّبينَ وأمرَ أولئكَ الرُّسُلِ في جملةِ عمومِ الأمورِ التي أُرْجِعت إلى اللّه تعالى؛ إذ لا تَخرج أمورُهم من نِطاق عُمومِ الأمرِ[2].

علّةُ التّعبيرِ بـ(إلى):

لقاءُ اللهِ هوَ الغايةُ التي تُسعِدُ الفائزين

عبَّر القرآنُ بحرف الانتهاءِ (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 167.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 257.

﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ اللّه هو الَّذي يَفْصِلُ بينَ جميعِ المخلوقاتِ؛ فهو الحَكَمُ بينَ الرُّسُلِ والمكذِّبين من أقوامهم؛ "وفي هذا وعيدٌ للكفّار، ووعدٌ للنّبيِّ ﷺ "(1).

مُرْسِلُ الرُّسُلِ هو الذي ترجعُ إليه الأمورُ

علّةُ التّعبيرِ باسْمِ الجلالةِ:

عبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ مُظهرًا له؛ لمناسبة الدّلالةِ على الألوهيَّة بالتَّنْبيهِ على البَعْثِ بذِكْر الرَّجْعِ إلى اللّه، وهذا الاسْمُ هو المسيطرُ على الأسماءِ والصِّفاتِ كلِّها: ما نعلمُه منها، وما لا نعلمُه، وهي لا تتناهَى لأنَّها كمالاتُه تعالى فهو أدلُّ على الجلالِ في مقامِ الوعيدِ والتّهديدِ، ولا يخفى أنَّ الرّجوعَ تقديرُه: وإلى مكانِ البَعْثِ الَّذي أمرَ به تعالى ترجعونَ، أو يكونُ في استعمال (إلى) مع غيرِ المكان قرينةٌ على استعارة مكنيّة بتشبيهِ غيرِ المكانيِّ بالمكانيِّ؛ للدّلالةِ على إحاطةِ اللّه بالعباد كما يحيطُ المكانُ بالمُتمكِّنِ فيه، والجملةُ برُمَّتِها كنايةٌ عنِ الحساب والفصلِ بينَ الأنبياء والمكذِّبين لهم يومَ الدّين؛ فلا ينبغي الانقطاعُ عنِ الدَّعوة نتيجةَ التّكذيب.

في الـرُّجـوعِ مـنـاسـبـة لإنكارهم البعث

علّةُ التّعبيرِ بالرُّجوعِ:

في التّعبيرِ بالرَّجْعِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ تصديقٌ لنبيِّنا محمّدٍ ﷺ، وتحذيرٌ لَمن يُكذِّبونه؛ فإنَّ من جملةِ ما نَصّوا على تكذيبِه البَعْثَ، وفي (الرُّجوعِ والرَّجْعِ) إشارةٌ إلى هذا البَعْثِ؛ لأنَّ الرُّجوعَ العَوْدُ إلى ما كانَ منه البَدْءُ، أوْ تقديرُ البَدْءِ مكانًا أوْ فعلًا أوْ قولًا؛ فالرُّجوعُ العَوْدُ، والرَّجْعُ الإعادةُ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: 28]، وقولِه سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 281]، ولا يخفَى أنَّ مادَّة هذا اللّفظِ تدورُ على رَدٍّ وتَكْرارٍ(2).

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 429.

(2) الراغب، المفردات، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (رجع).

تتجدّدُ للنّاسِ حقائقُ الأشياءِ في كلِّ وقتٍ؛ فمَن يعتبِرُ!

دلالةُ التّعبيرِ بالمُضارَعةِ:

نظَمَ القرآنُ معنَى الرُّجوعِ فعلًا مضارِعًا في قوله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ نظرًا إلى ما في الرُّجوعِ مِن تكرارِ ما يتَّصِفُ بمعنَى الفعلِ مِنَ الأشياءِ والأمورِ؛ تأسيسًا على العمومِ الَّذي في الجمعِ ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ الشّاملِ لكلِّ أحوالِ كلِّ المخلوقاتِ، وفي المُضارَعةِ إشارةٌ إلى إمكانِ مُشاهَدةِ أصلِ هذا الرُّجوعِ في الدُّنيا بمُشاهَدةِ رحيلِ النّاسِ جميعًا إلى الحياةِ البرزخيَّة بالموْت.

في الحذفِ تذكيرٌ لطيفٌ بإنكارِ الألوهيَّةِ والبَعْثِ

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي ﴿تُرۡجَعُ﴾:

قرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وعاصمٌ وأبو جعفرٍ ﴿تُرۡجَعُ﴾ بضمِّ التّاءِ وفتحِ الجيمِ مبنيًّا للمفعول، وأمّا الباقون فقرأوا: ﴿تَرۡجِعُ﴾ بفتحِ التّاءِ وكسرِ الجيمِ مبنيًّا للفاعل[1]، والقرآنُ حذَفَ في القراءةِ الأولى فاعلَ الرَّجْعِ، وأسندَ إليه (الأمور) نائبَ فاعلٍ فقال: ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ للدّلالةِ على كمالِ ظُهورِ الألوهيَّةِ الحَقَّةِ، وراءَ الدّلالة على كمالِ العلْم بالفاعلِ الَّذي هو اللهُ؛ فإنَّ مَن يكونُ إليه الرَّجْعُ يكونُ هو فاعلَه؛ ففي ذلك رَدٌّ لطيفٌ على التَّكذيبِ المذكورِ في الآيةِ مِن قبلُ، وهذه القراءةُ مِنَ الرَّجْعِ، والقراءةُ الثانيةُ ذُكِرَ فيها الفاعل، وبناءً عليه تتحقّقُ الاستعارةُ المكنيَّة؛ إذ شبَّه الأمورَ بأجسامٍ قابلةٍ للرُّجوعِ كما ترجعُ الأجسامُ ليتمَّ القضاءُ فيها؛ قال أبو السّعود: "وقُرِئَ: ﴿تَرۡجِعُ﴾ بفتحِ التّاءِ مِنَ الرُّجوعِ، والأوَّلُ أدخلُ في التَّهويلِ"[2]، والقراءتانِ بهذا متنوِّعتانِ؛ ففيهما إبلاغٌ في الوعيدِ والتّهديدِ مِن جهةٍ، وفي تسليةِ الرُّسولِ وأهلِ الإيمانِ ووعدِهم مِن جهةٍ أخرى.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ وجمعه:

جاء لفظُ ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ نائبَ فاعلٍ لـ ﴿تُرۡجَعُ﴾ مع ما يُلْحَظُ فيه من

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 209، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 462.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 464.

معنَى الأمْرِ؛ إشارةً إلى قيام أمرِه تعالى بأحوالِ المخلوقاتِ وشؤونِها؛ وأنَّها عَلاقَةُ إحاطةٍ وقَهْرٍ وعِلْمٍ شاملٍ وقدرةٍ فاعِلَةٍ تامَّةٍ مُخْتارةٍ؛ فهو المُسيْطِرُ على تلك الأحوالِ والشُّؤونِ، ومَن يتّصفونَ بها مِنَ العقلاءِ، كما يدلُّ (الأمر) على الحكم والقضاء؛ فيكونُ في النصّ إشارةٌ إلى أنَّ ما وقع الاختلافُ فيه بين الرُّسُل والمكذّبين يحكمُ اللّه فيه عندَ الرّجوعِ إليه، فلا تجزعوا أيُّها الأنبياء والدُّعاة واصبروا على الدّعوة والإرشاد.

ما انفردَتْ به السّورةُ مِن معاني القُدرة على الخَلْق يَقْتضي هذا المعنَى

وناسبَ الاختصاصَ بالرّجوع إليه جمعُ ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ الدّالُّ على الاستغراق والشّمول؛ إذ ما مِن أمرٍ وحالٍ - مهما تعدّد - إلّا وهو راجعٌ إليه ليحكُمَ فيه، ويُنصفَ المظلومَ مِنَ الظّالم.

بلاغةُ التّقديمِ:

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على جارّ ومجرور متعلِّقَينِ بالفعلِ: ﴿تُرۡجَعُ﴾؛ وكان الظّاهرُ التّأخيرَ؛ بأنْ يُقال: (وتُرجع الأمور إلى اللّه)؛ ففي التّقديم تنبيهٌ على كمالِ ظهورِ ألوهيَّة اللّه في الكونِ؛ وبهذا يكونُ تكذيبُ الرُّسُلِ عمومًا، والرَّسولِ محمّدٍ ﷺ خصوصًا ظاهرَ البُطْلانِ، وفيه معنَى أنَّ مِن شأنِ اللّه تعالى أنْ تُرجع إليه الأمورُ؛ لأنّه تعالى له جميعُ الأمورِ كلِّها؛ حِسّيِّها ومعنويِّها؛ ففي التَّقديم تعليلٌ في المعنى للحُكْم الذي تُثْبِتُه الجملةُ، وفيه أيضًا معنَى القَصْرِ؛ وهو قصرُ صفةِ رَجْعِ الأمورِ على موصوفٍ هو اللّهُ بحيثُ لا تتجاوزُه إلى غيره مطلقًا قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وداعي التَّوكيدِ الذي يُحقّقُه القَصْرُ التَّكذيبُ المذكورُ؛ فإنَّ أهلَ الكفرِ والشِّرْكِ المُكذِّبينَ نبيَّنا محمّدًا ﷺ لا يُصدِّقونَ بمضمونِ القَصْرِ القائمِ على إثباتِ معنى المقصورِ للمَقصورِ عليه، ونفيِه عن غيرِه.

اللّهُ هوَ الباقي الذي لا يتغيَّرُ، والذي يختصُّ بأنْ ترجِعَ إليه كلُّ المُتغيِّراتِ

سِرُّ إبهامِ الجزاءِ:

اقتصَر القرآنُ في هذه الجملةِ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على

فِقْهُ مَوْقِعِ الآيةِ يُساعِدُ على توجيهِ كثيرٍ مِن مُكوِّناتِها

ذِكْرِ اختصاصِ المرجِعِ باللّٰه تعالى معَ إبهام الجزاءِ ثوابًا وعقابًا إبلاغًا في الوَعْدِ والوعيدِ[1]؛ لأنَّ إجمالَ الجزاءِ يجعلُ النَّفْسَ تذهبُ في تصوُّرِه كلَّ مذهبٍ مُمْكِنٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 464، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 168.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥﴾ [فاطر: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

هذه الآيةُ مُرتبِطةٌ بجميعِ ما قبلَها مِن آياتٍ

لَمّا أشعَر قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ بقوَّةٍ بالبَعْثِ فدلَّ على يوم القيامةِ الذي يظهرُ فيه وعدُ الله ووعيدُه، وهو الأصلُ الثّاني بعدِ تقرير الأصلِ الأوَّلِ الذي هو الألوهيَّةُ والتّوحيدُ، وبعد أنْ قدَّمَ التَّذكيرَ بدلائلِ الوُحدانيَّة المشتملةِ عليها معَ الدَّلالةِ على نِعَم الله عليهم، ليعلموا أنَّه لا يَستحقُّ العبادةَ غيرُه، وأنَّه لا يتَّصفُ بالإلهيَّة الحَقَّةِ غيرُه؛ انتقلَ هنا إلى شيءٍ مِنَ التَّفْصيلِ والتَّصريح؛ فهدَّدَ بهذا اليوم، وحذَّر منه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾، أي: إنَّ وعْدَه الذي وعَده من عقابه المُكذِّبينَ في يوم البعثِ وعدٌ واقعٌ لا يتخلَّفُ، وقوَّى إرادةَ يوم القيامة بذِكر الحياة الدّنيا؛ فقال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعۡدَ﴾: أصلُ (وعد) الدّلالةُ على ترجيةٍ بقولٍ، يُقالُ: وعَدتُه أَعِدُهُ وعْدًا، ويكونُ ذلك بخيرٍ وشرٍّ، فأمّا الوعيدُ فلا يكونُ إلّا بشَرٍّ[2]، والوَعْد والعِدَة يكونانِ مصدرًا واسمًا، فأمّا العِدَةُ فتُجمعُ على عِدات، والوَعد لا يُجمعُ، والموعدُ: مَوضِعُ التَّواعد، وهو الميعاد[3]، والمقصودُ بالوعد في الآية: الإخبارُ عن فِعْلِ المُخبِرِ شيئًا في المُستقبَلِ[4].

2) ﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾: (غرّ) أصلُ الغُرورِ: النُّقْصانُ، وقيل: مِن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 204، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 257.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 258.

غَرِّ الثَّوْبِ، وهو أثَرُ كَسْرِهِ[1]، والغُرور: ما اغْتُرَّ بِهِ مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا، والمَغْرورُ: المَخْدوعُ[2]، ويأتي الغُرورُ بمعنى الغِشِّ والتَّلْبيسِ، يُقال: غَرَّهُ في بَيْعٍ، أيْ: غَشَّهُ[3]، والمرادُ بالغُرورِ في الآيةِ: إظهارُ الشَّيءِ المَكروهِ في صورةِ المَحبوبِ الحَسَنِ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

على الإنسانِ ألّا يَرتبِطَ بالدُّنيا؛ مهما حَصَلَ له مِن زَهرتِها ونَعيمِها

يا أيُّها النّاسُ إنَّ وعدَ اللّه بالحَشْرِ والجزاء حقٌّ لا شكَّ فيه، فلا تغرنَّكم الحياةُ الدُّنيا؛ فيذهلنَّكم التَّمتُّعُ بمتاعها والانشِغالُ بها، ولا يَخدَعَنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسه، وأمانيِّه الباطِلة، ووُعودِه الكاذِبة[5]، فلا يَليقُ بذي هِمَّةٍ عَليَّةٍ اتِّباعُ الدَّنيء، والرِّضا بالدّونِ الزّائِلِ عن العالي الدّائِم[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ صدرِ النّداءِ عمّا قبْلَه:

الفصلُ والوصلُ يُنْظَرُ فيهما إلى عَلاقاتِ المعاني

ورَدتْ جملةُ النِّداءِ في صدرِ الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مفصولةً عمّا قبْلها؛ لأنّها إنشاءٌ، وجملةُ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ خبرٌ؛ واختلافُ الجُملتَيْنِ؛ خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنًى من مؤشِّرات حذف الواوِ.

وإذا كانت جملةُ النِّداءِ تهيئةً لِما بعدَها؛ وهو: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾، وكانَ هو المقصودَ، وكانَ ما قبلَ هذهِ الآيةِ يُنْتِجُه؛ من كونِ رجْعِ الأُمورِ ورُجوعِها مَقصورًا عليه؛ تأسيسًا على أنَّها مِلْكُه وبيدِه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرَّ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غرَّ - غرر)، والجرجاني، التعريفات، ص: 161.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غرَّ - غرر)، والجرجاني، التعريفات، ص: 161.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غرر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 331، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 323، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 108.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 11.

حذفت (الواوُ) في صدرِ الآيةِ؛ نظرًا إلى ما بينَ المقصودِ الذي بعدَ النِّداءِ وما قبلَ جملةِ النِّداءِ.

بلاغةُ الانتقالِ إلى خطاب عموم الناس:

تسليةُ الرّسول ووعظُ المُرسَل إليه

انتقلَ النّظمُ القرآنيُّ من خطابِ النّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ مواساةً وتسليةً له، وترفيهًا عن قلبه، إلى خطابِ النّاس المُرسَلِ إليهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لوعظِهم وإرشادِهم، حتى لا يقلقَ النّبيُّ على مصيرهم، وليمارسَ الدّعوةَ إلى اللّه بذلك الانتقالِ والخطابِ البهيِّ الجليل، فيتواءمُ الخطابانِ ويلتقيانِ في تنبيهِ الرّسول إلى واجبِهِ التّبليغيِّ وتنبيهِ النّاسِ إلى واجبِهم الانقياديِّ.

بلاغةُ النِّداء:

ينبغي أنْ يكونَ الإنسانُ يَقِظًا جِدًّا؛ إذا تُحُدِّثَ عن عدوِّه

نوديَ النّاسُ؛ ليتنبَّهوا لِما بعدَ النِّداءِ؛ لجليلِ أهميَّتِه لهم في السّياقِ، ونودوا بـ:(يا) في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ التي هي في أصلِ الاستعمال لنداءِ البعيدِ؛ تنبيهًا على غفلة المُنادَى عنِ المعنى الوارِدِ في حيِّزِ النِّداءِ؛ وهو: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾، وما تفرَّعَ عليه؛ هذا بالنِّسْبةِ للمُنادَى الكافرِ؛ إذا كانَ الخطابُ لأهل الكفرِ، وعلى تنزيلِ المُنادَى المؤمنِ منزلةَ الغافلِ عن هذا المعنى؛ إذا كانَ الخطابُ لأفرادِ الفريقيْنِ جميعًا؛ ليزدادَ وعْيًا بحقيقة هذا المعنى، وليرسَخ فيه أكثرَ؛ حتّى يستطيعَ مواجهةَ أهلِ الكُفر وتكذيبِهم؛ ويؤيِّدُ كونَ الخطابِ لهم جميعًا ما في السِّباق مِن قولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، ولَمّا كانَ في النِّداءِ معنى الإيقاظِ والتّنبيه للمُنادَى عُبِّر عنه بـ: ﴿ٱلنَّاسُ﴾؛ "أي: الذينَ عندَهُم أهليَّةٌ للتَّحرُّكِ إلى النَّظَرِ"[1].

بلاغةُ التَّكْرارِ:

تجدُّدُ داعي النِّداءِ؛ فكُرِّرَ

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ رجوعٌ إلى خطابِ النّاسِ، وتكريرُه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 204.

لتأكيدِ العِظَةِ والتَّذْكيرِ[1]، وكان المُنادَى ﴿ٱلنَّاسُ﴾؛ لأنَّ ما بعدَ النِّداءِ يُهِمُّ كلَّ إنسانٍ؛ مؤمنًا كانَ أو كافرًا، ومِن فوائدِ تَكرارِ النِّداءِ ربْطُه بينَ ما ورَد بعدَه وبين آيةِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ﴾ [فاطر: 3] الآية.

سِرُّ التَّوكيدِ:

في التَّأكيدِ إحسانٌ إلى المعنى والمُتلقّيه جميعًا

أكَّد القرآنُ معنى الجملةِ التي بعدَ النِّداءِ: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ بـ: إنَّ؛ معَ اسْميَّتِها؛ مواجهةً لإنكارِ أهلِ الكفرِ الحشرَ والتّكذيبِ بالبَعْثِ[2]، ونظرًا إلى قوّة المعنى وحقّيَّتِه في نفسِه، ولِما تضمّنَه قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ من إثباتِ البعث والحساب المحتاجَيْنِ إلى التّأكيدِ والإثباتِ، وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ التَّوكيد لتغليب فريقِ المُنكرينَ على المُؤمنين؛ لأنَّهم أحوجُ إلى تقويةِ المَوعظة[3].

علّةُ التّعبيرِ بلفظِ (الوَعْدِ):

في الوَعْدِ ترغيبٌ وترهيبٌ؛ لأهلِ الإيمانِ والكُفرِ

عبَّر القرآنُ بـ(الوعدِ) بعد خطابِ النّاسِ عامَّةً مُؤمنِهم وكافرِهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ حَقّيَّة ما يتعلَّقُ بأهلِ الإيمان وأهل الكفر من خيرٍ وشرٍّ؛ لأنَّه وعْدٌ بالقيامة وجزاءِ العبادِ جميعًا؛ و"الوَعْدُ يكونُ في الخيرِ والشّرّ؛ يُقال: وعدْتُه بنفعٍ وضرٍّ وعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا، والوعيدُ في الشَّرِّ خاصَّةً"[4]، وهذا مُؤسَّسٌ على العموم في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، وما فيه من تنبيهٍ على القيامةِ والبَعْثِ.

علّةُ التّعبيرِ باسْمِ الجلالة:

التَّعبيرُ باسْمِ الجلالة مُفصِحٌ عن علَّة الحُكم

عَبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾؛ لتحقيقِ وصفِ الوعدِ المضافِ إليه بالحَقّيَّةِ؛ فإنَّ الخبرَ وصفٌ في

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 465.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 204.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 257.

(4) الراغب، المفردات: (وعد).

المعنى للمبتدأ؛ لأنَّه تعالى هو "الذي له صفاتُ الكمالِ، وهو مُنزَّهٌ عن كلِّ شائبةِ نقصٍ؛ فهو لا يجوزُ عليه في مجاري العاداتِ للغنى المُطلق أنْ يُخْلِف الميعاد"[1].

نُكتةُ الإضافةِ:

وعـدُ العظيم متحقِّقٌ لا شكَّ فيه

أضافَ القرآنُ الوَعْدَ إلى اللهِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾؛ مِن إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه؛ فهو في معنى: وعَدَ اللهُ؛ وهذه الإضافةُ سبيلٌ للإبهام والإيجازِ الّذي عمَّ سياقَ الآياتِ بدءًا من جملةِ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾، وهي أيضًا "توطئةٌ لكونه حقًّا؛ لأنَّ الله لا يأتي منه الباطلُ"[2]؛ فالخبرُ ﴿حَقّٞۖ﴾ نتاجُ الإضافةِ، والإضافةُ مِن عناصرِ توكيدِ وصفِ الوعدِ بذلك، وفيها أيضًا تعظيمُ هذا الوَعْدِ وتفخيمُه وتهويلُه؛ ولهذا مُهِّدَ له بجملة النِّداءِ.

علّةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿حَقّٞۖ﴾:

وعد الله تعالى حـقٌّ يقطع كـلَّ باطل

أخبر النّظمُ القرآنيُّ عن وعْدِ الله بأنَّه ﴿حَقّٞۖ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾؛ "والحقُّ هنا مقابلُ الكذب، والمعنى: أنَّ وعدَ الله صادقٌ"[3]، وإنّما عدَل عن (صادقٌ)، أو (صدقٌ) إلى ﴿حَقّٞۖ﴾؛ لأنَّه أبلغُ في الإنذارِ والتَّهديدِ والوعيدِ؛ مُراعاةً للتَّكذيبِ الّذي في السِّباقِ القريب؛ لأنَّ الصِّدْقَ يُقابلُ الكذبَ، ولأنَّ في الحقِّ حَسْمًا وفَصْلًا وقَطْعًا، وحِكْمةً ليس في الصِّدقِ؛ إذ "أصلُ الحقِّ المُطابقةُ والموافقةُ ... والحقُّ يُقال على أوجهٍ منها أنَّه يُقال للموجَدِ بحسَبِ مُقْتَضَى الحِكْمة؛ ولهذا يُقال: فِعْلُ الله تعالى كلُّه حقٌّ"[4]، وفيه معنًى زائدٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 204.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 258.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 258.
(4) الراغب، المفردات: (حق).

ليس في الصِّدْقِ؛ وهو الإحكامُ والصِّحَّةُ[1]، وهذا اعتناءٌ شديدٌ بوَعْد اللّه، وإحسانٌ إلى مُنْكِريه وغيرِهم جميعًا، كما أنَّ الصِّدق يكونُ بمطابقةِ الكلامِ للواقع، وفي الحقِّ اعتُبِرت مطابقةُ الواقع للكلامِ، فهو أبلغُ وأرسخُ.

نُكتةُ الإخبارِ بالمصدرِ النَّكرة:

المبالغةُ في المصدرِ كاشفةٌ لا زائدةٌ

أخبرَ القرآنُ عن: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بأنَّه ﴿حَقّٞ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، والخبرُ وصفٌ في المعنى للمبتدأِ وما في حُكْمِه، و﴿حَقّٞ﴾ مصدرٌ، والمصدرُ لا يقَع صفةً على الأصلِ؛ وفي الوصفِ به إبلاغٌ في إثباتِ معناه للموصوفِ، وأنَّ الموصوفَ بلَغ في الاتِّصافِ به كلَّ مبلغٍ مُمْكِنٍ؛ حتَّى كأنَّ الموصوفَ خُلِقَ مِنَ الوَصْفِ، قال ابنُ عاشور: "ووصْفُه بالمصدر مبالغةٌ في حقِّيَّته"[2]، ونَظَمَ القرآنُ الخبرَ نكِرَةً؛ لإفادةِ تهويله وتعظيمه وتفخيمه؛ نظرًا إلى ما يتَّصِفُ بأنَّه حقٌّ؛ وهو الوَعْدُ المُضافُ إلى المَلِكِ الأعْظَمِ ﷻ.

معنَى (الفاء) ودلالتُها:

الدُّنيا تَصْرِفُ عن الآخِرة، والآخِرةُ تَصْرِفُ عنِ الدُّنْيا

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ تفريعٌ لما قبْلَها على جملة: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، وفيها معنَى السَّببيَّة؛ ودلَّت على أنَّ اعتقادَ البعثِ وغيرِه يجعلُ حاجزًا بينَ القلبِ وبينَ الحياةِ الدُّنْيا؛ شَهَواتِها وملذّاتِها ونعيمِها وما جَرَى في هذا الطَّريقِ مِنَ المعنى؛ وقد أفادَتِ (الفاء) أنَّ قلبَ الإنسانِ لا يجتمعُ فيه اعتقادُ كمالِ اللّه جلالًا وجمالًا وحُبُّ الدُّنيا حُبًّا يجعلُها تغُرُّ الإنسانَ في كلِّ وقتٍ، وأنَّ خلوَّ قلوبِ أهل الكفرِ والمعصيةِ من ذلك الاعتقادِ هو الذي دفَعَهُم للتَّكذيبِ والإفْكِ ونحوِ ذلك.

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (حق).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 258.

بلاغةُ النَّهْي:

في أسلوبِ النَّهْيِ حَسْمٌ وحِرْصٌ وإحسانٌ

كلمةُ (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾ ناهيةٌ، والمقصودُ مِنَ النَّهي التَّحذيرُ الشّديدُ مِنَ الغُرورِ بالحياةِ الدُّنْيا؛ يستوي في هذا المؤمنُ والكافرُ، والطّائعُ والعاصي؛ غيرَ أنّهم يختلفونَ في تلقّي النَّهي، وهذا ظاهرٌ؛ لاختلافِ أحوالِهم؛ إيمانًا وكفرًا، وطاعةً وعصيانًا. "والنَّهْيُ في الظّاهرِ موجَّهٌ للنّاسِ، والمنهيُّ عنهُ مِن أحوالِ الحياة الدّنيا، وليستِ الحياةُ الدّنيا مِن فِعْلِ النّاسِ؛ فتعيَّنَ أنَّ المقصودَ النَّهْيُ عن لازمِ ذلك الإسنادِ؛ وهو الاغترارُ بمظاهرِ الحياةِ، ونظيرُه كثيرٌ في كلامِ العرَب؛ كقولهم: (لا أعرفنَّكَ تفعلُ كذا، ولا أرينَّك ههنا)، ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ [المائدة: 2] ... وكذلكَ القولُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾"[1].

علّةُ التَّعبيرِ بالغُرورِ:

الغُرورُ مُقْتَضَى حـالِ أهلِ المعصيةِ

جعَلَ القرآنُ ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ منهيًّا عنه في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾؛ لأنَّه أبلغُ في التّحذيرِ مِنَ الحياةِ الدُّنْيا ومِن الغَرورِ الَّذي هو الشّيطانُ أوْ هو وغيرُه؛ ووَجْهُ ذلكَ أنَّ في الغُرورِ تحسينًا للقبيحِ، وتزيينًا له؛ إذ هو إيهامٌ يَحْمِلُ الإنسانَ على فعلِ ما يضرُّه، أي: إيهامُ النَّفْعِ والصَّلاحِ فيما هو ضرٌّ وفسادٌ، ويلزمُ مِنَ الغُرورِ بها الخِداعُ الّذي هو أنْ يُسْتَرَ عنِ الإنسانِ وجهُ الصَّواب، فيَقَعَ في مكروهٍ، ولذا عبَّر النَّظمُ بالملزوم وهو الغرورُ وأراد به لازمَهُ وهو الخِداعُ كنايةً، ونفيدُ مِنَ ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ الشُّعورَ بالزّهو مع الافتتانِ والإعجابِ بالشَّيءِ الزّائل، نتيجةَ تغلُّبِ القوى الشَّهوية على الحِكمة العقليَّة؛ وتزيُّنُ للنّفس حلاوةَ الدّنيا والإقبالَ على ملذّاتها بكل زهوٍ وافتتان، مع أنها نعمٌ ناقصةٌ ومباهجُ زائلةٌ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 258، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 465.

دلالةُ المضارعة:

لا يَمَلُّ الشَّيطانُ مِن تَكْرار الغُرور، والحَياةُ الدُّنيا مِن شأنِها ذلكَ

لَمّا كانَ الغُرورُ أوِ التَّغْريرُ المُتعَلِّقُ بالحياةِ الدُّنْيا مُتجَدِّدًا ومُسْتَمِرًّا معَ الإنسانِ ما دامَ فيهِ حياةٌ؛ نَظَمَ القرآنُ هذا المَعْنَى فِعْلًا مُضارِعًا؛ فقالَ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾، وهذا يَتطَلَّبُ أنْ يكونَ حَذَرُ الإنسانِ مِنَ الدُّنْيا والغرورِ مُسْتمِرًّا مُتجدِّدًا، وهذا يَتطَلَّبُ منه مُجاهَدةً عظيمةً شاقَّةً لنَفسِه وللشَّيْطانِ، وفي اختيارِ المضارع دلالةٌ على أنَّ الدّنيا بمُختلَف أحوالِها تدفعُ الإنسانَ باستمرارٍ إلى الاغترار بها والإعجابِ بما فيها، فينسى الوعدَ الحقَّ ويغفلَ عنه، ولذا جاءَ النّهي مُتسبِّبًا عن حقّيَّة وعدِ اللهِ وأهمّيّةِ الإيقان به؛ للتّخلُّصِ من ذلك الاغترارِ والتّغرير.

داعي التَّوكيدِ في ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾:

للدُّنْيا حلاوةٌ وللشَّيطانِ حيلةٌ مِن شأنِهما أنْ تُنْسيا العبدَ ربَّه!

اتَّصلَتْ نونُ التَّوكيدِ الثَّقيلةُ بالفعلَيْنِ المنهيِّ عنهما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾؛ لمواجهةِ إنكارِ المُكذِّبينَ الذين يَدُلُّ لسانُ حالِهم على أنَّ الحياةَ الدُّنْيا لا تَغُرُّ، وأنَّ الشَّيطانَ لا يغُرُّ؛ فهم في غفلةٍ عظيمةٍ عن ذلك أصلًا؛ فعوملوا معاملةَ المُنْكِرَ له، وليكونَ أهلُ الإيمانِ والطّاعةِ على حَذَرٍ دائمٍ مِنَ الشَّيطانِ، كما أفادَ التّوكيدُ للنَّهيِ عنِ الغُرور في الدّنيا الانتباهَ إلى أنَّ ما فيها من نِعَمٍ وأموالٍ ومَتاعٍ وشبابٍ فإنَّه زائلٌ مُتحوِّلٌ وناقصٌ، وعلى المغرورِ به الحذرُ منه وعدمُ الغفلةِ، فكأنَّ (النّونَ المؤكّدةَ) توقظُ السّامعَ من غفلتِه، التي يقعُ فيها نتيجةَ الخوضِ في تفاصيلِ الحياةِ وشؤونها.

سِرُّ حَذْفِ المضاف:

أحوالُ الحياةِ الدُّنْيا مِن شأنِها أنْ تُغْرِقَ الإنسانَ فيها

المرادُ بالحياة ما تشتملُ عليه أحوالُ الحياةِ الدُّنْيا؛ من لهوٍ وترفٍ، وانتهاؤُها بالموتِ والعدمِ؛ مِمّا يُسوِّلُ للنّاسِ أنْ ليس بعدَ هذهِ الحياةِ أُخْرَى[1]، وإنَّما عبَّر القرآنُ عن أحوالِها بذاتِها؛ بحذفِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 258.

المضافِ؛ إبلاغًا في تقريرِ غُرورِها وتَغْريرِها؛ فأحوالُها شديدةُ الغُرورِ، فيقوَى التَّحذيرُ منها بذلك.

بلاغةُ المجازِ العقليِّ:

كلُّ ما يتعلَّقُ بالدُّنيا يغُرُّ!!

أَسندَ القرآنُ الغُرورَ أوِ التَّغْريرَ إلى الحياة الدُّنْيا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾، وهذا الإسنادُ - ولو على تقديرِ مضافٍ - مجازيٌّ؛ لأنَّ الغارَّ للمرءِ هو نفْسُه المُنْخدِعةُ بأحوالِ الحياةِ الدُّنْيا؛ فهو مِن إسناد الفعلِ إلى سببِه والباعِثِ عليه[1]، وهذا يُبرزُ قوَّةَ الحياةِ الدُّنْيا وشدَّةَ سيطرتِها على النَّفْسِ الإنسانيَّة؛ وبهذا يَشْتَدُّ التَّحْذيرُ منها، ولا يبعدُ أنْ يكونَ في التّركيب استعارةٌ بالكناية؛ إذ شبَّه الدّنيا بالشَّيطان الذي يُسوّلُ للإنسان الرّكونَ إلى المعاصي والتّكذيبَ للرُّسُل، وحذفَه وأبقى من لوازمِه كلامُه الّذي عبّر عنه بالغارّ المُهلِك.

دلالة التّعريف:

من شأنِ الحياة ومباهِجِها إغفالُ النّاسِ عنِ الوعدِ الحقِّ

تعريفُ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ في قوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ إمّا للعهدِ الذِّهنيِّ؛ لأنَّها حاضرةٌ بقوَّةٍ في أذهانهم، وأمامَ أبصارِهم، وفي بصائرِهم؛ ولأنَّهم مُتقلِّبون في نعيمِها، ومُحاطون بأحوالِها، وإمّا للجنس والحقيقة، إذ من شأنِ هذه الحياةِ وماهيّتِها أنْ تدفع النّفسَ إلى الرُّعونة والإسراف في نيلِ مآربها منها، ولا تلتفتَ إلى حقيقتِها الزّائلةِ ونهايتِها الأليمة، وما بعدَها من حسابٍ وجزاءِ حقٍّ.

سِرُّ التَّصريحِ بالموصوفِ:

أحاطَتْ بهم النِّعَمُ؛ فابتَعَدوا عنِ المُنْعِمِ؛ لأنَّهمُ اغْتَرّوا بها

مِن سُنَنِ البيانِ القرآنيِّ ذِكْرُ (الدُّنْيا) مِن غيرِ ذِكْرِ (الحياة) مِن قبْلِها في بعضِ مواضعِه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [البقرة: 130] وهذا كثيرٌ جِدًّا، وذِكْرُها وصفًا مِن بعدِ ذِكْرِ موصوفِها (الدُّنْيا) في بعضٍ آخَرَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 258.

﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [آل عمران: 14]، وهذا غيرُ قليلٍ؛ وإنّما صرَّحَ القرآنُ هنا بالموصوفِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾؛ للتَّنْبيهِ على كثرةِ النِّعَمِ التي يَمُنُّ اللهُ بها على النّاسِ، وقوَّتِها وعظَمَتِها؛ حتَّى غرِقوا فيها، وأحاطَتْ بهم، وتمكَّنوا فيها، وتمكَّنوا منها؛ فهي نِعَمُ فاطرِ السّماواتِ والأرضِ، والتَّعبيرُ بالغُرورُ استَدْعَى بقوّةٍ التَّصريحَ بالحياةِ، والتَّصْريحُ بها حقَّقَ معنَى الغُرورِ، ومكَّنَهُ.

ووصَف القرآنُ: ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ الذي هو منَ الدُّنوِّ؛ وهو القُرْبُ بالذّاتِ أوْ بالحُكْمِ[1]، والقُرْبُ عمومًا إمّا أنْ يكونَ وسيلةَ تعظيم، أوْ أنْ يكونَ وسيلةَ تحقيرٍ؛ والدُّنْيا من هذا الثّاني؛ ولهذا قال أهلُ اللُّغةِ: إنَّها سُمّيَت بذلك؛ لِدُنوِّها، والدَّنيءُ مِنَ الرِّجالِ الضَّعيفُ الدّونُ[2]، ففي وصفِ الحياةِ بها إبلاغٌ في التَّحْذيرِ منها، والتَّنْفيرِ مِنَ التَّسْليمِ والانقيادِ لها؛ فإنَّ الحياةَ الدُّنْيا ما قادَتْ أحدًا إلّا إلى الهلاكِ، وإنّه "لا يليقُ بِذي هِمَّةٍ عليَّةٍ اتِّباعُ الدَّنيءِ والرِّضَى بالدّونِ الزّائلِ عنِ العالي الدّائم"[3].

نُكْتَةُ التَّقْديمِ:

كـــلُّ غُـــرورٍ يرجِعُ إلى غُرورِ الشَّيْطانِ!

المعطوفُ على المُفرَّعِ مُفرَّعٌ مِثْلُه؛ وإنَّما قُدِّم ذِكْرُ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ على ذِكْرِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ الذي هو الغَرورُ؛ لإفادةِ عِظَمِ تسبُّبِ الحياةِ الدُّنْيا في التَّغْريرِ المذكورِ الذي يَصْرِفُ عن معرفةِ اللهِ، بل يُؤدّي إلى الكفرِ والشِّرك، وأُخِّرَ ذِكْرُ الغَرورِ الشّيطانِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه يُساعِدُ على أنْ تكونَ الحياةُ الدُّنْيا سببًا في تغريرِ الإنسانِ؛ فيُقرِّبُها منه، ويُقرِّبُه منها، فموقِعُه مِنَ الحياةِ الدّنيا موقعُ الحبيبِ، وموقعُه مِنَ الإنسانِ موقِعُ العَدوِّ؛ لأنَّه يدفعُه إلى ما يَضُرُّه؛ ولهذا كانَ في تأخيرِه توطئةٌ لوصفِه بالعَداوةِ في الآيةِ اللّاحقةِ.

(1) الراغب، المفردات: (دنو).
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (دنا).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 204.

سِرُّ الوَصْلِ:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على الجملة التي بعد الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لاتّفاقِهما إنشاء لفظًا ومعنىً، وهذا ظاهرٌ جِدًّا؛ لتَكرارِ جملةِ النَّهْي، والعَلاقَةِ القويَّةِ بينَ الحياةِ الدُّنْيا والغَرورِ، كما أفاد عطفُ النّهي بالجمعِ بينَ الاغترارِ بالدُّنيا والاغترارِ بوعود الشّيطان الفارغةِ الدِّلالةَ على أنَّ مِن شأنِ المغترّين أنْ يجتمع في قلبِهم وأعمالِهم كلا الاغترارَين، إذ لا يستقيمُ أن يكونَ هنالك اغترارٌ بالدّنيا دون الاغترارِ بالشّيطان وما يُلقيه في القلب العاصي من أمانٍ فارغة.

الاتِّصالُ بينَ الحياةِ الدُّنْيا والغَرورِ قويٌّ جِدًّا

غرضُ التَّكْرارِ:

إذا كانَ القرآنُ قد أبلغَ في بيانِ دلالةِ التَّقديم بجعْلِ ذِكْرِ الحياةِ الدُّنْيا في جملةٍ مُستقِلَّةٍ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فإنَّه أبلغَ في بيانِ دلالةِ التَّأخيرِ هذه بجعْلِ التَّحذيرِ مِنَ الغَرورِ في جملة مستقِلَّة كَرَّرَ فيها جملةَ النَّهْي: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، وقال أبو السّعود: "وتكريرُ فعلِ النَّهي؛ للمبالغة فيه، ولاختلافِ الغُرورَيْنِ في الكَيْفيَّة"[1]؛ فقد تضمَّنتِ الآيةُ غُرورَيْنِ؛ غرورًا يغترُّه المرءُ من تلقاءِ نفسِه، ويُزيِّنُ نفسَه مِنَ المَظاهر الفاتِنةِ التي تلوحُ له في الدُّنْيا ما يتوهَّمُه خيرًا، ولا ينظرُ في عواقبه؛ بحيثُ تَخفَى مضارُّه في بادئِ الرّأي، ولا يظنّ أنّه مِنَ الشّيطان، وغرورًا يتلقّاه مِمَّن يغُرُّه؛ وهو الشّيطانُ[2].

التَّكرارُ إبلاغٌ في التَّحذيرِ والإحسانِ

معنَى (الباء) ودلالتُها:

(الباءُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ للمُلابَسَة، وهي داخلةٌ على مُضافٍ مُقدَّر؛ نحو: بشأنِ اللّه، أي: يتطرَّقُ إلى نَقْضِ

تغريرُ الشّيطانِ النّاسَ كاملٌ تامٌّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 465، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 168.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 259.

هدى الله؛ فإنَّ الفعل (غَرَّ) يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، فإذا أُريدَ تعديتُه إلى بعضِ متعلِّقاتِه عُدّيَ إليه بواسطة حرفِ الجَرِّ؛ فقد يُعدَّى بالباءِ؛ وهي باءُ المُلابَسة؛ كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: 6]، وقوله سبحانه: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤﴾ [الحديد: 14]؛ وذلك إذا أُريد بيانُ مَنِ الغُرورُ مُلابِسٌ له على تقديرِ مضافٍ، أي: حالٍ مِن أحوالِه، وتلك مُلابَسةُ الفعلِ للمفعولِ في الكلام على الإيجاز، وليست هذه الباءُ باءَ السَّببيَّة(1)، والباءُ لا تخلو مِن معنى الإلصاقِ الذي هو أصلُ معانيها؛ فتدلُّ على شدَّة تغريرِ الشّيطانِ النّاسَ؛ ولهذا نُظِمَ النَّهيُ عن تغريره في جملةٍ مُستقِلَّةٍ؛ فقدِ استطاع الشّيطانُ أنْ يُعْمي أبصارَهُم وبصائرَهُم عن حقائقَ تتعلَّقُ بذي الجلال والإكرامِ؛ فمِن ذلك أنَّه يُمَنِّيهم المغفرة معَ الإصرار على المعاصي.

علّةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالة:

مَـنِ اتَّـبَـعَ الشَّيطانَ نَسيَ اللهَ!

عبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾؛ ليكونَ تعليلًا في المعنى للنَّهْيِ، وتقويةً وتحقيقًا له؛ فإنَّه دالٌّ على الجلال والجمال والكمال؛ فهو الجامعُ لجميع الأسماء والصِّفات؛ فهل يليقُ به سبحانه أنْ يُغرِّرَ النّاسَ به الغَرورُ؟! فإنَّ ذلك التَّغْريرَ يجُرُّ الإنسانَ إلى نِسْبةِ النَّقْصِ إلى اللهِ ﷻ، وإنَّما آثَرَ ذكرَ لفظِ الجلالة في الجملةِ الثّانية دونَ ذكرها في الجملةِ السّابقة؛ لبيانِ الفرق بين تغريرِ الدُّنيا للمؤمنينَ وتغريرِ الغَرور للنّاس؛ إذ يقتصرُ تغريرُ الدُّنيا على فتنةِ النّاس والإعجابِ بالدّنيا ونسيانِ الآخرة، في حين أنَّ تغريرَ الغَرور للنّاس يتعلَّقُ بالله تعالى وصفاتِه وأحكامِه وتكاليفِه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 259.

دلالةُ حذفِ المضاف:

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ على تقديرِ مضافٍ محذوفٍ؛ بقرينةِ أنَّ الغرورَ أوِ التّغرير لا يتعلّقُ بالذّاتِ، وإنَّما ببعضِ صفاتِ الذّاتِ، أي: ولا يغرنكم بعفوِ اللّه وكرمِه تعالى ورحمتِه ومغفرتِه وما جرى في هذا الطّريقِ مِنَ المعنَى؛ فحُذِف المضافُ؛ للدّلالةِ على عمومِه بمعنى كثرتِه، ووراءَ هذا مِنَ المعنى تمكُّنُ الشّيطانِ مِنَ النّاسِ؛ فلو أراد أنْ يَغُرّهم بالذّاتِ لفعَل؛ إبلاغًا في بيانِ أنَّه لا يتركُ طريقًا يُحقِّقُ به عداوتَه لهُم إلّا سلَكَه.

الشّيطانُ متربِّص بالنّاس؛ يصدُّهم عن سبيل الله تعالى

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

الظّاهرُ أنْ يُقال: (ولا يغرنكم الغرور باللّه)، ولكِنْ قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿بِٱللَّهِ﴾ على الفاعل: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾؛ لفتًا إلى الدَّواءِ الذي يُحصِّنُ الإنسانَ من أنْ يُغرِّرَه الشَّيطانُ؛ وهو الدُّخولُ في دائرةِ العُبوديَّةِ للّه تعالى وحدَه؛ فمَن تمسَّك بحَبْلِه سبحانه عصَمَه مِنَ الشّيطانِ، ويؤيِّدُ هذا خطابُ النّاس بقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، ولفتًا إلى عِظَم تغرير الشّيطانِ؛ فإنَّه مُتعلِّقٌ بشأنِ المَلِكِ الحقِّ ﷻ، ويَتْبَعُ هذا إنكارٌ لطيفٌ أنْ يكونَ هذا التّغريرُ متعلِّقًا باللّه تعالى، وهذا الإنكارُ يَتوَجَّهُ إلى النّاسِ.

التعلُّق بالله العظيم حصنٌ من الشيطان الرجيم

علّةُ التّعبيرِ بـ﴿ٱلْغَرُورُ﴾:

عبَّر القرآنُ عنِ الشّيطانِ بـ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ في قوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، والتَّعبيرُ عنه بذلك معَ ضميمةِ كونِه من مادَّة الفعلِ المُسْنَدِ إليه: ﴿يَغُرَّنَّكُم﴾ يشيرُ إلى كمالِ حدوثِ هذا الفعلِ منه؛ كأنَّه خُلِقَ من مادَّة هذا الفِعْل؛ تنبيهًا على كمالِ عداوتِه للإنسانِ؛ لأنَّ هذا الشَّيطان أدركَ عظيمَ رحمةِ اللّه التي يفتحُها للإنسانِ، وجليلِ نعمةِ اللّه عليه؛ فكان مِن شأنِه أنْ يعملَ على ذَهابِ ذلكَ منه وعنه!!.

الشَّيطانُ أكبرُ عدوٍّ للإنسانِ

بلاغةٌ: (أل):

معنَى اللَّفظ قد يتسبَّبُ في تعدُّدِ أوجُهِ تعريفِه

كلمةُ: (أل) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ للعهد الذِّهْنيِّ؛ والمرادُ الشّيطانُ، ويجوزُ التَّعْميمُ، أي: لا يغرنّكم كلُّ مَن شأنُه المبالغةُ في الغرور[1]، والأَوْلى الحملُ على العهد؛ لأنَّه الأنسبُ بالتّحذيرِ مِنَ الحياة الدُّنْيا في السِّباقِ، وبصريحِ الإخبارِ بعداوة الشّيطانِ للنّاسِ، والأمرِ باتِّخاذِه عدوًّا في اللِّحاقِ، والنَّهْيُ عنِ الأعلى هنا يستلزمُ النَّهْيَ عنِ الأَدْنى من بابِ أَوْلَى، ويجوزُ أنْ تكونَ: (أل) دالَّةً على معنى الكمال في الصِّفةِ المستفادةِ من مدخولِها؛ أي: هو كاملٌ في التَّغْريرِ والغُرورِ، وليس ذلك إلّا الشّيطانَ، وقولُه تعالى في لحاقه القريب: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ قرينةٌ على فَهْم ذلك.

دلالةُ صيغةِ المبالغةِ:

الغَرورُ هو المبالغُ في الغُرورِ، شديدُ التَّغريرِ

مدخولُ (أل) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ على وزن: (فعول)، وهذه صيغةُ مبالغةٍ؛ كـ: (الصَّبور، والغفور، والشَّكور)، وهي ناظرةٌ إلى كثرةِ الّذين يغرُّهُم الشّيطانُ من جهةٍ، وإلى أنَّ ذلك من شأنِه وطَبْعِه منذ أنْ خالَف ربَّه، وصارَ من شأنِه وديدَنًا له؛ بسببِ تلك الكثرةِ أيضًا؛ فهو "يُغرِّرُ النّاسَ بتزيين القبائحِ لهم؛ تمويهًا بما يلوحُ عليها مِن محاسنَ تُلائِمُ نفوسَ النّاسِ"[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغُرور والخَدْع والوَهْم:

الغُرورُ أخصُّ مِنَ الوَهْمِ، ومُستلزِمٌ الخَدْعَ

(الغُرورُ) إيهامٌ يَحْمِلُ الإنسانَ على فعلِ ما يضرُّه؛ مثلُ: أنْ يرَى السّرابَ، فيحسَبُه ماءً، فيضيّع ماءَه، فيَهلِكُ عطَشًا، وتضْييعُ الماءِ فِعْلٌ أدّاه إليه غُرورُ السَّرابِ إيّاه، وكذلك غرَّ إبليسُ آدمَ، ففعَلَ آدمُ الأكلَ الضّارَّ له، وقال عليُّ بنُ عيسى: (الغُرور) إيهامُ حال السُّرورِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 168.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 258.

فيما الأمرُ بخلافِهِ في المَعلوم، ففي الغُرورِ مَيْلٌ نفسيٌّ نحوَ الفعلِ الضّارّ معَ إرادةٍ له، إذ يَغترُّ بالدُّنيا ويُعجَبُ بحالِه، وما لَدَيهِ مِن نِعَمٍ حتَّى يظنَّ واهِمًا بقاءَها وعدمَ تحوُّلِها عنه، ويستلزمُ ذلك الخدعَ ويَقتضيهِ.

(والخَدْعُ) أنْ يَستُرَ عنه وجهَ الصَّواب، فيوقِعَه في مَكروهٍ، وأصلُه مِن قولِهم: خدَع الضّبُّ؛ إذا توارَى في جُحْرِه، ويُقال: خدَعَه في الشّراء والبَيع؛ إذا أظهرَ له خلافَ ما أبطنَ، فضرّه في ماله، فليس فيه ميلٌ نفسيٌّ نحوَ الفعل، لكنّه يفعلُهُ ظانًّا أنَّه نافعٌ، ولذا كان لازمًا للمَغرور بشؤونِه المُعجَبِ بأحواله.

و(الوَهْمُ) أعمُّ منهما؛ فليس كلُّ وهْم أوْ إيهام غُرورًا؛ لأنَّه قد يوهِمُه مخوِّفًا؛ ليَحذَرَ منه، فلا يكون قد غرَّه، والغُرورُ قد يُسمَّى خدعًا، والخدعُ يُسمَّى غُرورًا؛ على التَوسُّع، والأصلُ ما قلناه.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّفْصيلُ بعدَ الإجمالِ تمكينٌ للمقصودِ في النَّفسِ

لَمّا خُتِمَت الآيةُ السّابقةُ بالنَّهي عنِ الاغترارِ بـ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ الّذي هو في الظّاهرِ الشَّيطانُ، وكانَ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ إبهامٌ مّا في المرادِ بالغَرور؛ بيَّنَتْ هذه الآيةُ أنَّ الغَرورَ هو الشَّيطانُ؛ ليتقرَّرَ المسندُ إليه بالبيانِ بعدَ الإبهام[1]، ولَمّا أَوْمأتِ الجملةُ الأخيرةُ في الآيةِ السّابقةِ إلى عداوة الشّيطانِ صَرَّحتْ هذهِ الآيةُ بها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾: أصلُ (شطن) يدُلُّ على البُعْدِ، يُقالُ: شَطَنَتِ الدّارُ تَشْطُنُ شُطونًا؛ إذا غَرَبَتْ، ونوًى شَطونٌ، أَي: بَعيدَةٌ[2]، والشَّيطانُ: اسمٌ للجِنّيِّ الكافرِ المَخلوقِ مِنَ النّارِ، مَأْخوذٌ مِنَ الشَّطَنِ، وهو: البُعْدُ، أيْ: بَعُدَ عنِ الخَيْرِ[3]، وكُلُّ عاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الجِنِّ والإنْسِ والدَّوابِّ فهو شَيْطانٌ، وقيلَ: مَأْخوذٌ من شاطَ يَشيطُ: إذا هَلَكَ واحْتَرَقَ[4]، والمقصود بالشَّيطانِ في الآية: اسمٌ للجِنّيِّ الكافِرِ المَخلوقِ مِنَ النّارِ.

2) ﴿عَدُوّٞ﴾: (عدو) أصلُه يدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ، يُقالُ: تَعَدَّى النَّهَرَ، أيْ: تَجاوَزَهُ[5]، والعَدُوُّ: خِلافُ الصَّديقِ، وهو المُبْغِض،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 259.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شطن).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (شطن).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شطن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدو).

مُشْتَقٌّ مِنْ عَدا عليه يَعْدو بمعنى: وثَبَ؛ لأنَّ المُبغِضَ يَثِبُ على المَبغوضِ لينتقمَ منه، ووزنُه فَعولٌ[1]، والعَداوةُ: إرادةُ السّوءِ لِمَن تُبغضُهُ وتكرهُهُ، والعُدْوانُ: الظُّلْمُ، يُقالُ: عدا فُلانٌ على فُلانٍ، يَعْدو عليه، عَدْوًا؛ إذا ظَلَمَهُ، والرَّجُلُ العادي: الظّالِمُ[2]، والمُرادُ بالعَدوِّ في الآيةِ: المُجاوِزُ حدَّه في ضررِ صاحبِه.

3) ﴿فَٱتَّخِذُوهُ﴾: (أخذ) أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، قال الخليلُ: هو خلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[3]، والإِخذُ بالكسر: الاسمُ، والأمْرُ منه: خُذْ، وأصلُه: أُؤْخُذْ، إلّا أنَّهم استثقلوا الهمزتين؛ فحذفوهما؛ تخفيفًا[4]، والاتِّخاذُ: مُبالغةٌ في الأَخذِ، أيْ: أَخَذَ أخذًا يُشبهُ المُطاوعةَ في التَّمَكُّنِ[5]، ويجري مجرى الجَعْلِ، والمُرادُ بالاتِّخاذِ في الآيةِ: الجَعْلُ.

4) ﴿حِزۡبَهُۥ﴾: (حزب) أصلٌ يدلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ، فمن ذلكَ الحِزْبُ وهي الجماعةُ مِنَ النّاسِ، والطّائفةُ من كُلِّ شيءٍ حِزْبٌ، يُقالُ: قَرأَ حِزبَه مِنَ القُرآنِ[6]، والحِزْبُ: النَّوبةُ في وُرودِ الماءِ، وهو أيضًا: النَّصيبُ، يُقالُ: أَعطِني حِزْبي مِنَ المالِ، أي: حَظّي ونَصيبي[7]، والحِزبُ في الآيةِ معناه: الجَماعةُ الَّذينَ توافَقوا على شيءٍ واحدٍ[8]، والمرادُ بهم أتباعُ الشَّيطان.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبَيِّنُ اللّه ﷻ عداوةَ الشَّيطانِ لابنِ آدَمَ، فيقولُ: إنَّ الشَّيطان

الآيـةُ غـايـةٌ في التَّحـذيرِ مِـنَ الـشَّـيـطـانِ؛ لـشِـدَّةِ عداوته للنّاسِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 620.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 238.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(4) الجوهري، الصحاح: (أخذ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 55.
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس: (حزب).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حزب).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 96.

لكم عدوٌّ أيَّها النّاس منذُ بدايةِ خَلْقكم؛ فقد أخرجَ أباكم آدمَ منَ الجنَّة، وتوعَّد بإضلال ذريّته، فعادوه أشدَّ العَداوة، وخالِفوه فيما يأمُرُكم، واحذَروا طاعتَه، واستَفرِغوا وُسْعَكم في مُحاربتِه ومُجاهَدته، فما يدعو المتحزّبينَ معَه والمُشايعينَ له إلّا إلى ملاذِ الدُّنيا وشهواتِها الآثمة؛ ليورِّطَهم فيها، ويجعلَهم من أصحابِ جهنَّم؛ وبئسَ المصير[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ صدرِ الآيةِ عمّا قبلَه:

الشّيطانُ حبيبُ الإنسانِ في الظّاهرِ، عدوُّه في الباطنِ

فُصِلتْ جملةُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ﴾ عمّا قبلَها؛ لاختلافهما خبرًا وإنشاءً، ولأنَّها لازمةٌ لقولِه: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾؛ على أنَّ ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ هو ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾، أو على أنَّ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ أحدُ أفرادِ ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾؛ فإنَّ عناصرَ جملةِ النَّهي تدلُّ بقوَّةٍ على عداوةِ الشّيطانِ للإنسانِ، بل على شدَّة هذه العداوةِ؛ فكانت هذه الجملةُ المفصولةُ تحقيقًا لِما قبلها؛ ووراء هذا مِنَ المعنى أنَّ الشّيطانَ لا يُظْهِرُ عداوتَه للإنسانِ، بل يُحاول أنْ يُخفيَها في حيَلِه وخُدعِه، فصرَّح لنا القرآنُ بعَداوتِه؛ لنكون على ذُكْرٍ منها، وذهبَ ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ جملة: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ﴾ تتنزَّلُ مِن جملة: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ منزلةَ البيان مِنَ المُبَيَّن؛ فلذلك فُصِلت ولم تُعطَف، وهذا مِن دلالةِ ترتيبِ الكلامِ على إرادةِ المتكلِّم؛ إذ يعلمُ السّامعُ مِن وقوعِ وصفِ الشّيطان عَقِبَ وصفِ الغَرور أنَّ: ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ هو الشّيطان[2]، كما اقتصرَ الفصلُ على الغُرور النّاجم مِنَ الشَّيطان دونَ الحياة الدّنيا؛ لأنَّ ضررَهُ يؤدّي إلى فسادِ المُعتقَد بالله، بخلافِ الدّنيا القاصرِ ضررُها على الغَفلة عن حقيقةِ الوُجودِ الأرضيِّ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 331، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 302.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 259.

داعي التَّوكيدِ في جملة ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾:

لَمّا كانت جملةُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ نتيجةً لِما قبلها، وكان ما قبلَها دالًّا عليها بقوّة؛ لتعدُّدِ العناصرِ المُفْهِمةِ ذلك؛ نُظِمَ مضمونُها مؤكَّدًا مُحقَّقًا بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملةِ، ومِن دواعي التَّوكيد: أنَّ "أفعالَ المُشايعينَ لهُ بما يُمَنّيهم به مِن نحوِ: إنَّ ربَّكُم حليمٌ، لا يتعاظمُه ذنبٌ؛ معَ الإصرارِ على المعصيةِ: أفعالُ المُعتقدينَ لِمُصادَقتِه"[1]، كما تناسبَ هذا التّوكيدُ معَ توكيد صدرِ الآية السّابقة، أعني قوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾، وتأكيدُ حقيَّةِ وعدِ اللّٰه لا يُشكِّكُ فيها إلّا مَنِ اتَّخذَ الشّيطانَ صديقًا له يُشكّكُهُ باللّٰه وبوعودِه الصّادقة، فاحتاجَ إلى توكيدٍ للمُرتاب المتردّد في ذلك.

كلُّ مَن يستجيبُ لـلـشّـيـطـانِ في حُـكْـمِ الصَّديقِ لهُ!

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾:

الحرفُ (أل) في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ، ويجوزُ أنْ تكونَ للعهد الذِّكريِّ؛ على أنّه المقصودُ بـ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾؛ فيكونُ النّظمُ واردًا على قاعدةِ إعادةِ المعرفة معرفةً، ليكونَ مذكورًا بوصفِه واسمِ جنسِه معًا تعميقًا لتبشيعِه وتفضيعِه، كما يحتملُ أنْ تكونَ (أل) للجنس، ليفيدَ أنَّ هذا الجنسَ مِنَ المخلوقات اسمُهُ الشَّيطان، وعداوةُ الحقيقةِ أعمقُ من عداوةِ الفرد؛ لأنَّها عداوةٌ جماعيّة قائمةٌ على تبايُنِ الحقيقتَين بالأفضليَّة، وفي نظْمِه مُعرَّفًا بـ(أل) إشارةٌ إلى حضورِه القويِّ في حياةِ النّاسِ؛ فهو يَعرِفُهُم ويَتعرَّفُ عليهم بشدَّةٍ.

الشّيطانُ يعرِفُ الإنسانَ معرفةَ المتتبِّعِ له!

علّةُ التّعبيرِ بالشّيطانِ مُظْهَرًا:

لفظُ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ النّون فيه أصليّةٌ، وهو من: شطَن، أي: تباعَدَ، وقيل: بلِ النّونُ فيه زائدةٌ؛ من: شاطَ يَشيطُ؛ احْترَقَ غضبًا؛ فالشّيطانُ مخلوقٌ مِنَ النّار؛ كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن

مَـــنِ اتَّـــبَـــعَ الشَّيطانَ احترَقَ فـؤادُه، وبعُدت نفسُه عن الخيرِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 204.

﴿نَّارٖ ١٥﴾ [الرحمن: 15]، ولكونِه مِن ذلك اختَصَّ بفَرْطِ القوَّة الغضبيّة والحَميَّة الذّميمة، وامتنَع مِنَ السُّجود لآدم[1]، وعبَّر القرآنُ عمّا يَصْدُقُ عليه قولُه تعالى: ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ بـ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾؛ لدلالتِه على البُعْدِ والاحتراق؛ فهو "المُحترقُ بالغضب، البعيدُ مِنَ الخير"[2]؛ تمهيدًا لوصْفِه بالعداوةِ في قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾؛ فالأنْسَبُ بهذا الوصفِ لفظُ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾، لا إبليسُ وغيرُه؛ ففيه إشارةٌ إلى ضرورة عدم القُرْبِ منه، والتّنفيرِ منه؛ لأنَّ من شأنِ الذي يغُرُّ غيرَه أنْ يُظْهِرَ القُرْبَ والمودَّةَ والمحبَّةَ له، "وأظهَرَ اسْمَ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ في مقام الإضمار؛ للإفصاحِ عنِ المرادِ بـ: ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ أنَّه الشّيطانُ"[3]، فيتحقَّقُ الرَّبْطُ بينَ صدْرِ الآيةِ وعجُزِ ما قبلها؛ على جهةِ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ، وحسَّنَ الإظهارَ في موضِعِ الإضمارِ تغايُرُ اللّفظِ؛ فهو في الآيةِ السّابقة: ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾، وهو هنا: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾، كما أفادَ الإظهارُ أنَّ الغُرور مقترنٌ بلفظٍ يُثير كلَّ ضررٍ وعاقبةٍ وخيمةٍ، وأنّه مدعاةٌ للزّهو والفَخْر والإعجاب بالذّات كما وقعَ للمَغرورِ إبليسَ من إعجابٍ أدّاه إلى الطَّردِ واللَّعن.

سِرُّ العدولِ عنِ الإضافةِ:

الشّيطانُ يُقْبِلُ بكُلّيَّةِ عَداوتِه على الإنسانِ

كانَ مِنَ المُمكنِ النّظمُ بالإضافة: (إن الشيطان عدوكم)، وهذا أوجزُ مِمّا عليه التّنزيلُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾؛ لكن في نَظْمِ القرآنِ تحقّقَ أسلوبُ الاختصاص، معَ تنكيرِ المقصورِ، ولو عُبِّرَ بالمذكور فاتَ ذلكَ، ودَلَّ على أنَّ النّاسَ يعرفون الشّيطانَ، ويتنبَّهون لمكايدِه وحيَلِه، وأحوالُهُم في الواقع ترفضُ ذلك، والواقعُ لا يرتفعُ، وفي فَصْلِ الإخبار بعداوته عنِ التَّعلُّقِ بالنّاسِ: ﴿لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾؛ معَ ضميمةِ أنَّ اللّام في: ﴿لَكُمۡ﴾ للاختصاص والغرضِ؛ فهو مختصٌّ

(1) الراغب، المفردات: (شطن).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 204.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 260.

بكم لا ينشغلُ عنكم وسوسةً وتشكيكًا باللّه أوِ اغترارًا بعَفْوه وعدم تعذيبِه فرطَ رحمتِه، وهي داخلةٌ على كافِ خطابِهم؛ يكون ذلك إبلاغًا في معنى القَصْرِ وبيانًا لكمالِ عداوتِه، وأنَّ تلك العَداوةَ "مودَعةٌ في جِبِلَّتِه؛ كعداوة الكلب للهِرِّ؛ لأنَّ جِبِلَّة الشّيطان مَوْكولةٌ فيه بإيقاعِ النّاسِ في الفسادِ وأسوأ في قوالبَ محسَّنةٍ مُزيَّنة"(1)، وفيه أيضًا إيحاءٌ بأنَ كلَّ عداءٍ في الشّيطانِ إنَّما يُصوِّبُه إلى النّاسِ، وبلاغةُ مِثْلِ هذا الأسلوبِ مِمّا يُستطعَمُ أكثرَ مِمّا يُكْتَبُ فيه.

علّةُ التّعبيرِ بـ: ﴿عَدُوٌّ﴾:

التئامُ الشّيطانِ في الظّاهرِ، عداوةٌ في الباطنِ

وصَفَ القرآنُ الشّيطانَ بالعداوةِ للإنسانِ مرَّتَيْنِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾؛ لأنَّ الخبرَ وصفٌ في المعنى للمبتدأ وما في حُكْمِه، والمفعولُ الثّاني وصفٌ في المعنى للمفعولِ الأوَّلِ؛ لقَصْدِ بيانِ عَلاقَةِ الشّيطانِ بالإنسانِ؛ وهي العَداوةُ القديمةُ التي لا تَكادُ تَزولُ، وهيَ المُتكرِّرَةُ في حديثِ القرآنِ عنِ الشَّيطانِ، وهي عداوةٌ ومُعاداةٌ مقصودةٌ؛ "وإثارةُ العَداوة بين النّاس والشّيطان معنًى مِن معاني القرآنِ تصريحًا وتضمينًا"(2)، والعَداءُ أوِ المُعاداةُ التي هي التَّجاوزُ ومُنافاةُ الالتئام بالقلب تتناغى معَ الغُرورِ المنهيِّ عنه، ووصفِ الشَّيطان بالغَرورِ في قوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾؛ فإنَّه يوهِمُ المحبَّةَ والصَّداقةَ؛ إذ ظاهرُه الحرصُ على مصلحةِ الإنسانِ، وفي مبادلةِ العداوة بالعداوة كمالُ العدالة؛ إذ مِنَ الخطأ مصاحبةُ العدوِّ والإصغاءُ له والثّقةُ به، وإنَّما جاءَ فعلُ الأمرِ بجعلِه عدوًّا عند الوسوسةِ والتّشكيكِ بلفظ (الاتّخاذ) الدّالِّ على الجعْلِ والاهتمامِ بالمتّخَذ؛ ليوافقَ الاختصاصَ المُفادَ من ﴿لَكُمۡ﴾، فتكونُ عداوتُه على سبيلِ الاتّخاذِ والاهتمامِ والعِناية.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 260.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 260.

سِرُّ تنكيرِ لفظ (العدوّ) خبرًا ومفعولاً:

المعنَى الظّاهرُ للتَّركيبِ يُساعِدُ على توجيهِ عناصره

نَظَمَ القرآنُ خبرَ ﴿إِنَّ﴾ نكرةً، ومفعولَ الاتِّخاذِ الثّانيَ نكرةً أيضًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾؛ وتنكيرُ الأوَّلِ يدلُّ على تهويلِ عَداوة الشّيطان للإنسانِ، وتعظيمِها، وتفخيمِها، وتنكيرُ الثّاني يدلُّ على وجوبِ مبادلةِ عَداوتِه بعداوةٍ تُضاهيها في الفخامةِ والمبالغةِ والقوّة، وإلّا فإنَّ عدمَ تعادُلِ العَداوتَينِ يؤدّي إلى غلبةٍ لوَسوستِهِ الخفيَّةِ واغترارٍ باللّه وجهالةٍ به.

دلالةُ الاسْميَّةِ:

الشّيطانُ يُحارِبُ النّاسَ جميعًا!

أخبرَ القرآنُ عن عداوةِ الشّيطانِ بجملتَين اسميَّتين تقرِّران عداوتَه لجميعِ النّاس؛ وهما: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾؛ فهنالك جملةٌ صغرى وجملةٌ كبرى؛ والجملةُ الاسميَّةُ صورةٌ لقِدَمِ تلك العداوةِ، وأنّها ثابتةٌ دائمةٌ لا تَزولُ، ولا تكاد تَزول[1]، وإذا كانَتْ عداوتُه ثابتةً مستقِرَّةً لجميعِ النّاسِ، لا تَنْقطِعُ، بانَ عِظَمُها وشِدَّتُها، ومدَى بُغضِه وحقدِه على بني آدمَ، واشتملتِ الجملةُ الاسميّةُ على الوظيفةِ التّنبيهيَّة، التي يغفلُ عن مضمونِها المُخاطَبُ.

نكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾:

النّاسُ هدفُ الشّيطانِ؛ فهم أمامَه دائمًا؛ يسعى في أذاهُم

لَمّا كان الأصلُ في النَّظْمِ أنْ يُقال: (عدو لكم)؛ لأنَّ: ﴿لَكُمۡ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بـ: ﴿عَدُوّٞ﴾: كان في تقديم: ﴿لَكُمۡ﴾ على: ﴿عَدُوّٞ﴾ دلالةُ الاختصاصِ والقصرِ؛ أي: قصرِ صفةِ عداوة الشّيطان على موصوفٍ هو أنتم أيُّها النّاسُ؛ قَصْرًا حقيقيًّا مجازيًّا ادّعائيًّا؛ لأنَّ الشّيطانَ عدوٌّ للّهِ ﷻ، بسببِ حِقدِه على الإنسانِ، وتفضيلِ اللّه تعالى هذا الجنسَ البشريَّ على جنسِه، وهذا القَصْرُ يُحقِّقُ الحُكْمَ بعداوةِ الشّيطانِ للنّاسِ في نفوسِ المُتلقّين؛ لطَرْدِ أيِّ إنكارٍ أوْ شكٍّ فيهم في ذلك، ووراءَه مِنَ المعنى أنَّ الشّيطانَ في غايةِ الفراغ لأذى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 465.

النّاسِ، وهذا يعني ضرورةَ أنْ يجتهدوا في عداوتِه، وذلك إنّما يكونُ بالإقبال على اللّه تعالى وحْدَه(1).

معنَى (الفاء) ودلالةُ التَّعبيرِ بها:

الإحـسـانُ في التّحذيرِ مِنَ الشّيطانِ جليٌّ ظاهرٌ

لَمّا دلَّتْ جملةُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٞ﴾ على كمالِ عداوةِ الشّيطانِ للنّاسِ، وشِدَّتِها في نفسِها وفي تصويبِها وتسليطِها على النّاسِ؛ كانَ في رحِم ذلكَ لا محالةَ إرشادُ النّاسِ إلى جَعْلِه عدوًّا، فلَمّا صرَّحَ القرآنُ بذلك أتَى بـ(فاءِ) السُّرْعةِ والسَّببيَّة؛ ليُفْهِم ضرورةَ قوّةِ التَّنبُّه لعداوته في كلِّ ما يتعلَّقُ به، ومعنى قوَّةِ التَّنبُّه لذلك يَتْبَعُ معنى السُّرْعةِ، وليُفْهِمَ أنْ ليس للإنسانِ مِن شيءٍ يُحصِّلُه مِن جملة: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٞ﴾ أهمُّ مِنِ اتّخاذِ الشّيطان عدوًّا.

علَّةُ التَّعبيرِ بالأخْذِ:

الأخْذُ يوحي بأنَّ جَعْلَ الشّيطانِ عدوًّا مُكتَسَبٌ

عبَّر القرآنُ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ عنِ (الجَعْلِ) الذي هو تَصْييرُ الشَّيءِ على حالةٍ دونَ حالةٍ بـ(الأَخْذِ) على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة؛ فالتَّعْبيرُ بالأَخْذِ يَسْتَحْضِرُ ما يَسْعَى الشّيطانُ إليه؛ مِن أخْذِ النّاسَ نحوَ المعصيةِ والمُخالَفةِ إلى حدِّ الكُفْرِ والشِّرْكِ؛ فيكونُ طلبُ جعْلِه عدوًّا مصحوبًا بما يُقوّيه ويُعلِّله ويُحقِّقُه؛ وهذا أبلغُ مِن أنْ يُقال: (فاجعلوه عدوًّا)، ويَنْطَوي التَّعْبيرُ على أنَّ النّاسَ إذا غرَّهُم الشَّيطانُ كانَ الشّيطانُ عندَهُم حبيبًا؛ فأُمِروا باتِّخاذِه عدوًّا لا حبيبًا لأنّه عدوّهم.

دلالةُ التعبير بصيغة الافتعالِ في (اتَّخَذَ):

الـشّـيـطـانُ معَ ضعْفِه يتقوَّى على الإنسانِ!؛ فـلا بُــدَّ مِـن مُجاهَدتِه

لَمّا كانَ الشّيطانُ مِن شأنِه أنْ يَبْذُل ما في وُسْعِه، وهو كثيرٌ وغزيرٌ ومتعدِّدٌ ومتنوِّعٌ وظاهرٌ وخفيٌّ، وكانَ ذلك على جهةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ والنَّشاطِ، فكانت "عداوتُه تحتاجُ إلى مُجاهَدةٍ عظيمةٍ لأنَّه يأتي الإنسانَ مِن قِبَلِ الشّهواتِ؛ عبَّر بصيغة الافتعال؛ فقال:

---
(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 204.

﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ أي: بغاية جُهْدِكُم"[1]، وآثرَ النّظمُ التّعبيرَ بالجملةِ الفعليَّة مقابلَ الجملةِ الاسميَّة؛ لأنَّ عداوة الشّيطان أمرٌ ثابتٌ فيه وطبعٌ مركوزٌ لا يحتاجُ إلى عناء وتكليفٍ به، فناسب التّعبيرَ بالاسمية، بخلاف عداوةِ الإنسان للشَّيطان فإنّها ليست طبعًا مركوزًا، بل تحتاجُ إلى مكابدةٍ ومشقّةٍ وقيامٍ بالتّكاليف وشدّةِ تحمُّلٍ.

غرضُ الأمر في ﴿فَٱتَّخِذُوهُ﴾:

المعنَى التَّكْليفيُّ يَصْحَبُه معنًى تثقيفيٌّ

في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ أمرٌ صريحٌ باتِّخاذِ الشّيطانِ عدوًّا، وهذا الأمرُ للوجوب؛ إذِ المأمورُ به واجبٌ؛ لأنَّه في مقام الأمرِ والإلزام مِنَ اللّهِ ﷻ، ومن بلاغةِ هذا الأمرِ في النَّظْم أنَّه مُحاطٌ ومُكْتَنَفٌ بما يُنْتِجُه ويُعلِّله في آنٍ؛ فقبلَه قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، وبعدَه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ وهذا إحْسانٌ إلى النّاسِ، وأيُّ إحْسانٍ هوَ؟ والمعنى: اتّخذوه عدوًّا؛ "بمخالفتِكم لهُ في عقائدِكُم وأفعالِكم وكونِكُم على حَذَرٍ منه في مجامعِ أحوالِكُم"[2]، ووظيفةُ الجملة إنجازيّةٌ بعدَ تحقّقِ الوظيفةِ التّنبيهية للجملةِ السّابقة؛ إذ مَن تنبَّهَ لعداوة شخصٍ فإنَّه يبادرُ إلى اتّقاءِ مَكرِهِ بجعلِهِ عدوًّا، والتّصرُّفُ معه كما يتصرَّف معَ الأعداء بحذرٍ بالغٍ.

فائدةُ التّعبيرِ بالضّميرِ في ﴿فَٱتَّخِذُوهُ﴾:

إذا غيّبَ العبدُ الشّيطانَ مِن حياتِه تحقَّقَتْ عداوتُه عندَه

كان مِنَ الممكنِ أنْ يُعيد القرآنُ لفظَ ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾؛ فيقول: (فاتّخذوا الشّيطان عدوًّا)؛ ليُظهر شدّة عداوتِه وحضوره في حياةِ الإنسانِ؛ إفسادًا وضررًا، ولكنَّ القرآنَ عبَّر عنه بضميرِ الغَيْبةِ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ على الأصلِ معَ التَّنْبيهِ على أنَّ الإظهارَ قوَّةٌ، والغَيْبة ضعْفٌ؛ للإشعارِ بأنَّ اتّخاذَ الشّيطانِ عدوًّا يُصاحبُه اعتقادُ صَغارِهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 204.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 465.

وهوانِه وضعْفِه وحقارتِه، وما جَرَى في هذا الطّريقِ مِنَ المعنى، فأمّا إذا عظُمَت عداوتُه في بصرِ الإنسانِ وبصيرتِه فلن يكونَ قدِ اتَّخَذَه عدوًّا، وليس كلُّ ما جاءَ على أصلِه لا يُسأل عن سببِه وحِكْمتِه.

فائدةُ تَكْرارِ لفظ ﴿عَدُوًّا﴾:

تَكْرارُ ما يُفْهِمُ التَّحْذيرَ صورةٌ لتَكْرارِ مظاهرِ عداوةِ الشّيطانِ

لفظ ﴿عَدُوًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ مفعولٌ ثانٍ للاتِّخاذِ؛ وهذا الوصفُ للشّيطانِ ذُكِر مِن قبلُ في جملة: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾؛ والأمرُ بالاتِّخاذِ لازمٌ للجملةِ قبله؛ ففي تَكرارِ ذِكْرِ العداوةِ معَ الإطنابِ بالإفصاحِ بالأمرِ بالاتِّخاذِ إبلاغٌ في تقريرِ عداوة الشّيطان للنّاسِ، وفي إيقاظِ النّاسِ مِن غفلتهم، وفي طلبِ ديمومةِ الحذرِ مِنَ الشّيطانِ، وليكونَ في التَّصريحِ والإفصاحِ بذلك إقامةٌ للحُجَّةِ على النّاسِ كلِّ النّاسِ؛ خاصِّهم وعامِّهم.

سِرُّ الفَصْلِ في ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ﴾:

البيانُ السَّخيُّ الذي يتولَّدُ بعضُه مِن بعضٍ

فُصِلت جملةُ: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها نتاجُ ما قبلَها؛ مِن تقريرِ أنَّ الشّيطانَ للنّاسِ عدوٌّ مبينٌ، وأمرِهِم باتِّخاذِه عدوًّا، وهي تُنْتِجُ مضمونَ ما قبلَها؛ فبينهما كمالُ اتِّصالٍ؛ لِما بينهما مِنَ التّوكيدِ المعنويِّ الخفيِّ؛ ففي الثّاني مِن جديدِ المعنى ما فيه؛ وقد نبَّه أبو السّعود على ذلك كلِّه؛ فقال: هذه الجملةُ "تقريرٌ لعداوتِه، وتحذيرٌ مِن طاعتِه؛ بالتَّنْبيهِ على أنَّ غرضَه في دعوة شيعتِه إلى اتِّباعِ الهوَى والرُّكونِ إلى مَلاذِّ الدُّنْيا ليس تحصيلَ مطالبِهم ومنافعِهم الدُّنْيويَّة؛ كما هو مقصدُ المُتحابّينَ في الدُّنْيا عندَ سَعْيِ بعضِهم في حاجةِ بعضٍ؛ بل هو توريطُهم وإلقاؤُهم في العذابِ المُخلَّدِ مِن حيثُ لا يحتسِبون"[1].

ويجوزُ أنْ تكونَ الثّانيةُ تعليلًا في المعنَى لِما قبلها؛ على تقديرِ سؤالٍ عن علَّةِ الأمر باتّخاذ الشّيطان عدوًّا؛ لأنَّ في هذه العِلَّةِ مِنَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 465.

التَّفصيلِ ما ليس في الجملةِ التي تفرَّع عليها هذا الأمرُ؛ وهيَ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؛ فكان غيابُ العاطفِ؛ لِما بينَهما مِن شِبْه كمال الاتّصال، وبهذا يكونُ المعلول المكلّفُ به إيجابًا، له علّتانِ متقدّمةٌ ومتأخّرة، وحفُّه بعلّتينِ بيانٌ عميقٌ لسرِّ الأمر والتّكليف بالحذر والانتباه، فهو قدِ اتَّخذكم أعداءً له ويدعوكم لتكونوا من أصحابِ السَّعير، ومشاركين له في العذابِ المُبين، ومن ثمَّ جاء التّكليف باتّخاذِه عدوًّا حقيقيًّا؛ فهو ذو نيّةٍ مُبيّتةٍ مع دعوةٍ فعليّةٍ.

بلاغةُ القَصْر بـ﴿إِنَّمَا﴾:

دخولُ الإنسانِ النّارَ أمرٌ مُلاحَظٌ في كلِّ ما يكونُ مِنَ الشَّيْطانِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ جملةٌ قصْريَّةٌ، طريقُ القصرِ في ﴿إِنَّمَا﴾ أنْ تُستعمل فيما يَعلمُه المُخاطَبُ ولا يُنْكِرُه، أوْ فيما يكون كذلك عندَه؛ إذا علِمَه؛ و﴿إِنَّمَا﴾ مِن هذا الثّاني بالنِّسْبةِ للمُتلقّينَ مِن أهلِ الإسلامِ والإيمانِ، وهي مِن تنزيلِ المُنْكِرِ منزلةَ المعلوم بالنِّسْبةِ للمُتلقّين مِن أهلِ الكفرِ والشِّرْكِ والمعصيةِ؛ فإنَّ لسانَ حالِهم يُفْهِمُ ذلكَ؛ فالتَّوكيدُ الذي في القصرِ يواجِه هذا الإنكارَ، وفي ﴿إِنَّمَا﴾ تعريفٌ بمقصدِ الشّيطانِ للنّاسِ جميعًا؛ وأنَّ هذا المقصدَ هو الأصلُ فيه، قال ابنُ عاشور: "وجيء بها في صيغةِ حصرٍ؛ لانحصار دعوتِه في الغاية المذكورة عقَّبها بلامِ العلَّة؛ كيلا يُتوهَّمَ أنَّ دعوتَه تخلو مِن تلك الغاية؛ ولو في وقتٍ ما"، وبهذا العموم الَّذي يقتضيهِ الحَصْرُ صارتِ الجملةُ أيضًا في معنى التَّذْييلِ لِما قبلَه كلِّه"[1]، والمقصورُ موصوفٌ؛ وهو دعوةُ حزبِ الشّيطانِ، والمقصورُ عليه صفةٌ؛ وهو هدفُ هذه الدَّعْوةِ وغرضُها؛ وهو كونُ هؤلاءِ الحزبِ مِن أصحابِ السَّعيرِ، وهذا قصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ؛ لأنَّ الموصوفَ لا يتجاوزُ الصِّفةَ المذكورةَ إلى صفةٍ أخرى حقيقةً.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 261.

علّةُ التّعبير بلفظ (الدُّعاءِ):

عبَّر القرآنُ بـ(الدُّعاءِ) المُسنَد إلى ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾؛ إشارةً إلى عظيمِ رغبة الشّيطان في تحقُّقِ غرضِ دعوتِه، واستجابةِ مَن يدعوه له؛ فأمّا أصلُ الرّغبةِ فبأصلِ عداوتِه للنّاسِ، وتوجُّهِه إليهم، وأمّا الإبلاغُ فيها فلأنَّ الدُّعاءَ قائمٌ في أصلِ استعمالِه على أنْ تُميلَ الشيءَ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منك[1]، ففيه هنا إشارةٌ إلى وسوسةِ الشّيطانِ وحيَلِه في الإقناعِ والإغراءِ؛ وهذا يزيدُ في التَّحْذيرِ مِنَ الشّيطانِ، واليقظةِ لتغريرِه، وتجنُّبِ تولّيه، وذلك مقصدُ السّياقِ، وفي التّعبيرِ عنِ الوسوسةِ والإغراءِ الخفيِّ بـ(الدّعاء) استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ هذا الفعلُ الخفيُّ مع ضعفِهِ إلّا أنَّ له وقعًا مثلَ وقعِ الدّاعي والمُنادي إلى أمرٍ جلَلٍ، فسمَّى وسوستَهُ وفعلَهُ دعاءً وكلامًا بصوتٍ عالٍ؛ لأنَّ ذلك شأنُهُ ولا ينفكُّ عنه، حتى إنَّه لا يسكتُ عن ذلك ولا يتوقّفُ قَيْدَ لحظة.

الشّيطانُ يتلطَّفُ مـعَ الـنّـاسِ؛ لـيـوقِـعَـهُـم في الضَّرَرِ!

دلالةُ المضارعة في صيغة الدّعاء:

نظَم القرآنُ معنَى (الدُّعاء) فعلًا مضارِعًا بقوله: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾؛ إشارةً إلى تَكرارِه مِنَ الشّيطانِ وتجدُّدِه واستمرارِه منه؛ كلَّما تهيَّأَ له ذلك في الإنسانِ الذي يدعوه؛ ووراء هذا مِنَ المعنَى عظيمُ حِرْصِ الشّيطانِ على تحقيقِ هدفِه؛ فهو لا يَكِلُّ، ولا يَمَلُّ.

الشّيطانُ يصبرُ عـلى هـدفِـه وغـرضِـه؛ وإنْ كـان خـبـيـثًـا قبيحًا!

علّةُ التّعبير بلفظ الحِزْبِ:

عبَّر القرآنُ عنْ أتباعِ الشّيطانِ بـ(الحِزْبِ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾؛ ليُصوِّرَ ما يَبتغيه الشّيطانُ منهم؛ وهو أنْ يكونوا جماعةً قائمةً على التَّحزُّبِ والتَّجمُّعِ والتّناصُرِ، والحزبُ هنا مقابلٌ موضوعيٌّ لـ﴿عَدُوًّاۚ﴾؛ إذِ العلاقةُ بين جماعةٍ إنْ كانت قائمةً على الخُصومةِ فهم أعداءٌ وإلّا فهم حزبٌ واحدٌ، والتَّعبيرُ

معنى الحِزْبِ نتيجةٌ سِباقيّةٌ، وتوطئةٌ لِحاقيّةٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

بالحِزْبِ إنْ كانَ حقيقيًّا فهو مُؤسَّسٌ على إيجازٍ بالحذفِ، والتَّقديرُ: (إنَّما يدعو النّاسَ؛ ليكون بعضُهم حِزبَهُ، ويدعو حِزبَه ليكونوا مِن أصحابِ السَّعير)، ومعلومٌ أنَّ النّاسَ جميعًا لن يتَّبعوه، وذكَر ابنُ عاشور أنَّ في الكلام إيجازًا بالحذفِ؛ والتّقديرُ: (إنَّما يدعو حزبَهُ دعوةً بالغةً مقصدَه)، والقرينةُ ما تقدَّمَ مِنَ التَّحذير، ولو كان لا يدعو إلّا حزبَه لَما كان لتحذير غيرِهم فائدةٌ[1]، وهذا على أنَّ التَّعبير حقيقيٌّ لا مجازيٌّ أيضًا.

وإنْ كانَ مجازًا فهو مجازٌ مرسَلٌ؛ علاقتُه الكلّيةُ، والمعنى: إنّما يدعو النّاسَ، وخصّ الذين فيهم أهليَّةٌ وقابليَّةٌ لأنْ يكونوا حِزبَه، والّذين ستُؤثِّر فيهم دعوتُه، فيتَّبِعونَه؛ والعمومُ في النِّداءِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ دليلٌ على المجازِ؛ فالدّعوةُ للنّاسِ جميعًا، وفي التَّعبيرِ بالحِزْب ما ينبني عليه قوّةُ المعرفة للدّاعي ودعوتِهِ وهدفِها، وقولُه: ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: قرينةٌ أخرى على صواب هذا الفَهْم؛ إذ مِنَ العقل أنْ لا يَسْتجيب الإنسانُ لدعوةٍ أيِّ دعوةٍ غرضُها السَّعيرُ!![2].

بلاغة الإدماج في الآية:

الدَّمْجُ يستدعي غـمـغـمـاتٍ نـفـسـيَّـةً وتـسـاؤلاتٍ داخليَّةً عن ذلك الحِزْبِ

يُبيِّنُ قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ موقفَ البشر مِن عدوِّهم، وكان الظّاهرُ أنْ تُعلنَ نتيجةُ الموقفِ؛ أنَّ ناسًا امتثلوا للأمر فاتّخذوه عدوًّا، وآمنوا باللّه، واستمرّوا على إيمانهم، وأنَّ ناسًا لم يمتثلوا فاتَّبعوه وصاروا حزبَه، ثمَّ تقريرُ جزائهما، ولكنَّ القرآنَ في هذه الجملة أدمجَ الأمريْن؛ لأنَّ جملة القصرِ أثارت الثُّنائيَّة المؤمنةَ والكافرةَ بالنَّصِّ على الكافرة، وإفهامِ المؤمنةِ ضِمْنًا، وطيُّ موقفِ المؤمنين مِنَ الشّيطان إرشادٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 261.

(2) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1423، 1426.

لهم إلى مزيد مِنَ التَّأمُّل في موقفِ الكافرين، وتوفيرِ عنايةِ المُتلقّي بالتَّلقّي على هذا التَّأمُّل[1].

علّةُ الإضافةِ في ﴿حِزۡبَهُۥ﴾:

الإضافةُ ضرورةُ معنَى المُضافِ

إذا كانَ هؤلاءِ الأتبَاعُ المُعبَّرُ عنهم بالحِزْبِ جماعةً خاصَّةً بالشّيطانِ كانوا لا بُدَّ في سياقِ البلاغةِ والحِكْمةِ أنْ يُضافوا إليه فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾، وليس مِنَ البلاغةِ مُطْلَقًا إطلاقُ الحزبِ مِنَ الإضافةِ؛ فيُقالُ: (إنّما يدعو الحِزْبَ)، والإضافةُ بمعنى (اللّام)، أي: الجماعةُ المنسوبونَ إلى الشَّيطانِ بالطّاعة والاتّباعِ والانقياد، والإضافةُ تفيدُ الإهانةَ؛ لأنَّ المضافَ إليه عدوٌّ للنّاس وغَرورٌ.

معنَى (اللّامِ) في ﴿لِيَكُونُواْ﴾:

طبيعةُ معنى مدخولِ اللّامِ يُرشِّحُ وجْهَي معناها

(اللّامُ) في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ لامَ العلَّة؛ فإنَّ الشّيطان قد يكونُ ساعيًا لغايةِ إيقاعِ الآدميّينَ في العذابِ؛ نِكايةً بهم؛ وهي علّةٌ للدَّعوة خفيَّةٌ في خاطرِه الشّيطانيِّ؛ وإنْ كان لا يجهَرُ بها؛ لأنَّ إخفاءَها من جملة كَيده وتَزيينِه، ويجوزُ أنْ تكون (اللّامُ) للعاقبة والصّيرورة؛ مِثْلُ ما في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8]، فقال ابنُ عطيّة: "لأنَّه لم يَدْعُهم إلى السَّعير؛ وإنَّما اتَّفق أنْ صار أمرُهم من دُعائه إلى ذلك"[2]، فإنْ كانت للتّعليلِ فهي مستعملةٌ بمعناها الحقيقيّ، ودلّتْ على أنَّ الشّيطان كارهٌ لأفراد حِزبِه؛ إذ يدعوهم إلى العاقبةِ الوخيمة والنّار اللّاهبة، وإنْ كانت للعاقبةِ ففيها استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ، إذ شُبِّهتِ العلّةُ بالعاقبة بجامع التّرتّب، إظهارًا لكراهةِ الشّيطان لبني آدم، وأنَّ نتيجةَ مَن يتبعُه العذابُ المهين.

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1426.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 43، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 262.

سِرُّ التَّعبيرِ بمادَّةِ الكَوْنِ:

الشّيطانُ يريدُ لنا الكمالَ في المعصيةِ!!

كانَ مِنَ الممكنِ أنْ يقولَ النّظمُ: (لِيُسَعَّروا) ونحوَ ذلك ممّا هو أوجزُ، ولكنَّ السّياقَ القرآنيَّ الذي هو التَّحْذيرُ العليُّ مِنَ الشّيطانِ؛ مِن شأنِه أنْ يَكونَ فيه تعريفٌ تفصيليٌّ بقَصْدِ الشّيطانِ ممَّن يدعوهُم إلى غرضِه؛ ومِن ذلك هنا أنْ يكونوا عريقينَ في الإثم والمعصية بحيثُ يكونونَ من رؤساءِ أهل النّارِ؛ وصورَةُ ذلكَ كلُّ عناصرِ قوله تعالى: ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ ومنها التَّعبيرُ بمادَّة الكَوْنِ في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونُواْ﴾.

دلالةُ المُضارعة في قوله: ﴿لِيَكُونُواْ﴾:

جهةُ المُضارَعةِ تدقُّ وتخفَى، وتتعدَّدُ

نظَمَ القرآنُ الحكيمُ معنَى (الكَوْن) فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ نظرًا إلى تجدُّدِ دَعوةِ الشّيطانِ، واستمرارِها وتَكرارِها؛ مِن جهةِ أنَّ جملةَ الكَوْنِ المضارعِ مُترتِّبَةٌ على تلك الدَّعوة، فهل مِن يقظٍ لذلك؟! وكانَ في المضارعِ تمهيدٌ لذكرِ نارِ السَّعيرِ؛ لأنَّها مأخوذةٌ مِنَ الاشتعالِ والاتّقادِ والارتفاع؛ فمِن شأنها أنْ تُقَلْقِلَ مَن يُعذَّبُ بها.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿أَصۡحَٰبِ﴾:

صحِبَ العاصون الشَّيطانَ، فصحِبوا نارَ السَّعيرِ!

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ كلمة (الأصحاب) في قوله: ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للدّلالةِ على أنَّ الشَّيطانَ يُلازِمُهم حتّى يوقِعَهُم في المعصيةِ على جهةِ اللُّزوم؛ بحيثُ يألفونَها وتألفُهم؛ فيكونُ من جزائهم مُلازمةُ النّارِ؛ بحيثُ لا يخرجونَ منها أبدًا؛ فقد صارتْ بينهم وبينَ نارِ السَّعير أُلْفةٌ ومعاشرةٌ وتلازُمٌ وعدمُ نفورٍ؛ على سبيلِ الإبلاغ في تقريرِ شدّة العقاب؛ حتَّى أصبحَتْ نارُ السَّعيرِ كالمالِ مملوكًا لهم؛ قال الرّاغبُ: "الصّاحبُ: المُلازِمُ إنسانًا كان أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا، ولا فرقَ بينَ أنْ تكون مصاحبتُه بالبدن، وهو الأصلُ والأكثرُ، أو بالعناية والهمَّة ... ويُقال للمالك للشّيء: هو صاحبُه، وكذلك لمَن يَمْلِكُ التَّصرُّفَ فيه"[1].

---

(1) الراغب، المفردات: (صحب).

دلالةُ الإضافةِ على الاستعارة:

في الإضافــة تصويرٌ لِما يختلجُ في نفسيّة الشَّيْطانِ!

في إضافةِ ﴿أَصۡحَٰبِ﴾ إلى ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ في قوله: ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تمكينٌ لدِلالةِ التَّعبيرِ بلفظِ المُضافِ؛ لأنَّها تفيدُ الاختصاصَ؛ تصويرًا لعظيم قلَقِ الشّيطانِ مِن خروجِ أتْباعِه الذين هم حِزْبُه مِن نارِ السَّعيرِ، وفي الإضافة استعارةٌ مكنيّةٌ؛ إذ شُبّهتِ السَّعيرُ بشخصٍ تطولُ ملازمتُهُ وتعمُّقُ أواصرُ الصِّلة به، ثمَّ حذفَه وأبقى من خواصِّه ولوازمِه ما يدلُّ عليه وهو ﴿أَصۡحَٰبِ﴾، والغرضُ مِنَ إعلانِ الصُّحبةِ للسَّعير أنْ يكونَ أتباعُهُ مالكينَ له حتى صارتْ بينَهم وبينَ النّار ألفةٌ وصُحبة.

معنَى (أل) في ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾:

كَمُلَ الشّيطانُ في المخالفة؛ فأرادَها لبني آدمَ

دلّت (أل) في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ على معنى الكمالِ في مدخولِها؛ فهي إمّا للجنسِ أوْ للعَهد الذّهنيّ؛ بيانًا لشيءٍ يتعلَّقُ بهدفِ الشّيطانِ مِن دعوتِه الخبيثة؛ وهو كمالُ التَّعذيبِ بنارِ السَّعيرِ، وتلك صورَةٌ لكمالِ بُغضِه للإنسان، وحِقدِه عليه، وعداوتِه له.

غرضُ التَّعبيرِ بالسَّعير:

الجزاءُ يدلُّ على العَمَلِ، وعلى حالِ العاملِ

ذكَر النّظمُ القرآنيُّ في تقريرِ غرضِ دعوةِ الشّيطانِ مِن طبقاتِ النّارِ وأصنافِها ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ في قوله: ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ وقد استدعَتْها صيغةُ المضارعة ﴿لِيَكُونُواْ﴾، وشِدَّةُ العداوةِ التي قرَّرَها السّياقُ بأكثرَ مِن عنصرٍ؛ فإنَّها تُنْتِجُ إيقاعًا في الآثام والمُخالفات؛ بحيثُ تكونُ النَّتيجةُ دخولَ السَّعيرِ؛ وهيَ النّارُ الشَّديدةُ؛ فالسَّعرُ التهابُ النّار، ومدارُ الكلمةِ على الاشتعالِ والاتِّقادِ والارتفاع[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الشّيطان وإبليس:

اتّحادٌ في الذّات اختلافٌ في المفهوم

ماصَدَقُ الشّيطانِ وإبليس واحدٌ؛ وهو الشِّرّيرُ مِنَ الجنِّ؛ ولهذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعر).

يُقالُ للإنسانِ إذا كان شِرّيرًا شيطانٌ، ولا يُقال: جِنّيٌّ، ولكنَّ لفظَ (الشّيطان) يَشتملُ على خصوصيَّة معنَى البُعْد عنِ الخيرِ، ومعنَى الاحتراقِ غضبًا، ويشتملُ لفظُ (إبليسَ) على خصوصيَّة معنَى اليَأْسِ؛ يُقال: أَبْلَسَ؛ إذا يئسَ؛ قال اللّه تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧﴾ [المؤمنون: 77]، قالوا: ومِن ذلك اشْتُقَّ اسمُ إبليسَ؛ كأنَّه يئِس مِن رحمةِ اللّهِ، وقال الرّاغب: الإبلاسُ الحُزْنُ المُعارِضُ؛ مِن شدّة اليأس؛ ومنه اشتُقَّ إبليسُ[1].

الدُّعاء والنِّداء:

الدُّعاءُ نِداءٌ خاصٌّ؛ والنِّداءُ أعمُّ منه

(الدُّعاءُ) أنْ تُميلَ الشّيءَ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منك، وقد يكونُ لطَلَبِ الإقبالِ أوْ لا، ويأتي مَقرونًا بالتّذلُّلِ ومَمزوجًا بالحِكمة والمَوعظة، وأمّا (النِّداءُ) فهو رفْعُ الصَّوت وظهورُه طالبًا إقبالَه، ولا يأتي مَمزوجًا ولا مَقرونًا بما ذكر، فكلُّ دعاءٍ نداءٌ وليس كلُّ نداءٍ دُعاءً.

الحِزْب والفَوْج والثُّلَّة والزُّمْرة والفريق والطّائفة:

معاني هذه الأسرةِ تتلاقى في (الجماعة) وتختلفُ في (المميّز)

يُقال في اللّغةِ لكلِّ جَمْعٍ (جماعةٌ)، وهذه الجماعةُ بحدوثِ فروقٍ واختلافٍ بينَ أفرادِها تتقسَّمُ جماعاتٍ، ولفظُ الجماعةِ يقَع عليها جميعًا؛ فمنها: الحزبُ، والفريقُ، والطّائفةُ، وغيرُ ذلك؛ فهذه جماعاتٌ خاصَّةٌ تدخلُ في الجماعةِ الأكثرِ الأُمِّ، فـ(الحِزْبُ) الجماعةُ تتحزَّبُ على الأمر، أي: تتعاون عليه، و(الفَوْجُ) الجماعةُ الكثيرة؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢﴾ [النصر: 2]، ومعلومٌ أنّه لا يُقال للثُّلَّة (فوج) كما يقال لهم: جماعة، والثُّلَّةُ: الجماعةُ تندفعُ في الأمر جملةً؛ من قولك: ثللتُ الحائطَ؛ إذا نقضتَ أسفلَه، فاندفع ساقطًا كلَّه، و(الزُّمْرةُ) جماعةٌ لها صوتٌ لا

(1) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 307، والراغب، المفردات: (بلس)، و(شطن)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بلس).

يُفْهَم، وأصلُه مِنَ الزّمار، وهو صوت الأنثى مِنَ النَّعام، و(الفريقُ): جماعةٌ مُمَيَّزةٌ عنِ الجماعةِ الأُمِّ؛ مِمّا يفرق بينهم جميعًا، وفريقُ الخيل: ما يفارق جمهورَها في الحلبة، فيخرجُ منها، وفي مثَل: أسرعُ مِن فريق الخيل، و(الطّائفةُ) الجماعةُ التي مِن شأنها الطَّوْفُ في البلاد للسَّفر، ويجوز أنْ يكون أصلُها الجماعةَ التي تستوي بها حلقةٌ يُطاف عليها، و(الشّيعَةُ) يُقال: شيعةُ الرّجل همُ الجماعة المائلةُ إليه؛ مِن محبَّتهم له، وأصلُها مِنَ الشّياع؛ وهي الحطبُ الدّقّاق التي تُجعل مع الجزل في النّار(1).

(1) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة: (حزب)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 165، 231، 234، 307، 308، 415.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾ [فاطر: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

النّاسُ قِسمانِ أمامَ دعوةِ الشَّيْطانِ

لَمّا أنْهَى تعالى البيانَ في غرضِ الشّيطانِ إلى مُنْتهاهُ؛ نبَّه على ما حكَمَ به هو سبحانه في أشْياعِه بهذِه الآيةِ[1]، ولَمّا أجْمَلَ تعالى أتْباعَ الشّيطانِ بأنَّهم حِزْبُه، وسكَت السّياقُ عن أضداهِم الَّذين اتَّخذوه عدوًّا فصَّلَتْ هذه الآيةُ حِزبَه، وأفصحَتْ بالفريقِ المُقابِلِ لهُم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَذَابٞ﴾: (عذب) أَصْلُ الكَلِمَةِ مِنَ العَذْبِ، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنّه يَمْنَعُ الشَّخْصَ مِنَ الرُّجوعِ لِلْجَريمَةِ[2]، والعَذابُ: الضَّرْبُ بِعَذْبَةِ السَّوْطِ، أيْ: طَرَفِها[3]، والعَذابُ أيضًا: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديدُ[4]، والمُرادُ بِالعَذابِ في الآية: الإيجاعُ الشّديدُ، وهو عذابُ الآخرة.

2) ﴿شَدِيدٞۖ﴾: (شدّ) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ، وفُروعُه تَرجِعُ إليه، يُقال: شَدَدْتُ العَقْدَ شَدًّا، أيْ: قَوَّيْتُهُ[5]، والشِّدَّةُ القوَّةُ والجَلادَة، والشَّديدُ الرَّجُلُ القَويُّ[6]، والشِّدَّةُ: الصَّلابَةُ[7]، وهيَ نَقيضُ اللّينِ تَكونُ في الجَواهِرِ والأَعراض، والجَمْعُ شِدَدٌ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 205.
(2) النووي، تهذيب الأسماء واللغات: 4/ 10.
(3) الراغب، المفردات: (عذب).
(4) الخليل، العين: (عذب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شد).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شد - شدد).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (شد).

وشَيْءٌ شَديدٌ: بَيِّنُ الشِّدَّةِ[1]، والمرادُ بالشَّديد في الآية: القويُّ الإيلامِ الَّذي لا يُقادَر قَدرُهُ.

3) ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: (غفر) أصلٌ يدلُّ على التَّغْطِيَةِ والسَّتْرِ، ومنه الغَفرُ والمَغفرة، يُقالُ: غَفَرَ اللَّه ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها وتَجاوَزَ عنْها[2]، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ منَ اللَّه هو أنْ يصونَ العبدَ مِن أنْ يمسَّهُ العذاب[3]، وعليه فالمُرادُ بالمغفرة في الآية: سَتر الذُّنوبِ بعدمِ الحِسابِ عليها.

4) ﴿وَأَجْرٌ﴾: (أجر) الجَزاءُ على العَمَلِ[4]، ومنه سُمّيَ الثَّوابُ أَجْرًا؛ لأنَّ اللَّهَ يَجْزي العَبْدَ عليه، والأَجْرُ: العِوَضُ، مَصْدَرُ أَجَرَهُ وآجَرَهُ يَأْجُرُهُ ويَأْجِرُهُ، والأجيرُ: فَعيل بمعنى فاعل أو مفاعل، والاستئجارُ: طلبُ الشَّيء بالأجرة[5]، والمقصودُ بالأجر في الآية: العِوَضُ والجَزاءُ على العَمَلِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأجرُ لا يَثبُتُ إلّا باتِّصافِ الفاعِلِ بوصفَينِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ

يُبيِّنُ اللَّه سبحانَه أقسامَ النّاسِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: الذين كفروا بسيرِهم وراءَ الشّيطانِ وقبولِهم تغريرَه وخِداعَه لهم عذابٌ شديدٌ لا يُقادَر قَدرُهُ، والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحةَ الخالِصةَ للَّه تعالى، والموافِقةَ لِشَرعِه لهم مَغفِرةٌ مِنَ اللَّه لذُنوبِهم، فيَسترُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها؛ ولهم أجرٌ كَبيرٌ[6].

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شدد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(3) الراغب، المفردات: (غفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(5) الراغب، المفردات: (أجر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 332، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 534، 535، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 304.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع مطلع الآية بالنسبة لما قبلها:

مِـن شـأنِ الإجـمـالِ أنْ يُشَوِّقَ النَّفْسَ للتَّفصيلِ

لَمّا حذَّر تعالى النّاسَ كلَّ النّاسِ مِن غرورِ الحياةِ الدُّنيا والشّيطانِ، وقرَّرَ أنَّ للشّيطانِ حِزْبًا، وسكَت السّياقُ إلى هذه الآيةِ عن ذِكْرِ أضدادِهم؛ كانَ مِن شأنِ ذلك أنْ يُحرِّكَ المُتلقّينَ للسُّؤالِ عن حِزْبِ الشّيطانِ وحِزْبِ الرَّحْمنِ وجزائِهما، فجاء قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ .. الآية، مصرّحًا لهم بأنَّ حزبَ الشّيطانِ هُمُ الَّذينَ كفروا وجزاؤُهم العذابُ الشّديد، وأنَّ الَّذين آمنوا هم الفريقُ المقابلُ لهم وجزاؤُهم المغفرةُ والأجرُ الكبير؛ فموقعُ هذه الآية استئنافٌ بيانيٌّ.

وذهبَ ابنُ عاشورٍ إلى أنّها استئنافٌ ابتدائيٌّ يفيدُ مُفادَ الفَذْلكة والاستنتاجِ مِمّا تقدَّمَ، وأنَّ هذا الاستئنافَ يومئُ إلى أنَّ الّذين كفروا هم حزبُ الشّيطانِ بطريقةِ قياسٍ مطويٍّ؛ لعكوفهم على مُتابعته؛ وإنْ لم يُعلنوا ذلك؛ لاقتناعٍ منهم بملازمة ما يُمْلِيه عليهم، وأنَّ المؤمنين العُصاة ليسوا مِن حزبه؛ لأنّهم يعلمونَ كيدَه، ولكنَّهُم يتَّبِعون بعضَ وسوستِه، وهم مع ذلك يلعنونه، ويتبرَّأون منه[1]، وقولُه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ يؤيِّدُ أنَّ عصاةَ أهلِ الإيمانِ ليسوا مِن حزبِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموَصولِ:

الـتَّـعـبـيـرُ بالموصولِ يشيرُ إلى علّةِ الحُكْمِ معَ الإيماءِ إليه

عبَّر القرآنُ عن أتْباعِ الشّيطانِ بـ(الاسم الموصولِ) في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾؛ ليُنبِّهَ على مُتابَعَتِهم للشّيطانِ؛ كما خطَّطَ وأرادَ؛ فهم قومٌ أعلنوا المعصيةَ، وجهَروا به، فعُرِفوا وشُهِروا بها؛ وهذا ملمحٌ مأخوذٌ مِن أنَّ صِلَةَ الموصولِ ينبغي أنْ تكونَ معلومةً للمُخاطَبِ، أوْ كالمعلومةِ له؛ إذا تلقّاها، وليلفتَ إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 262.

المقصدِ الأعظمِ للشّيطانِ؛ ذلك الّذي إذا كانَ مِن حِزْبِه كانوا مِن أصحابِ السَّعيرِ؛ ألا وهو الكفرُ باللهِ ﷻ، وللإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبر وعلَّته.

علّةُ التَّعبيرِ بـ(الكفر والإيمان):

التَّعبيرُ بالحِزْبِ فتَحَ البابَ لذِكْرِ الكفرِ والإيمانِ

لَمّا سبَق خطابُ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ جميعًا بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾، وقرَّرَ السّياقُ أنَّ للشّيطانِ حِزْبًا، أي: جماعةً خاصَّةً تتميَّزُ بما يجعلُها تُبايِنُ غيرَها مِن جماعاتٍ، وكانَ ذلك منطويًا على أنَّ النّاسَ قسمانِ أمامَ دعوةِ الشّيطانِ؛ صرَّحَ هنا بأنَّ النّاسَ قِسْمانِ، هما أهلُ الكفرِ وأهلُ الإيمانِ، وذلك حَسْمٌ وفَصْلٌ في شأنِ الشّيطانِ واتِّباعِه؛ إحسانًا عليًّا إلى النّاسِ، قال الزّمخشريُّ في أمرِ الحَسْمِ: "ثمّ كشَف الغطاءَ، وقَشَرَ اللِّحاءَ؛ ليقطع الأطماعَ الفارغةَ والأمانيَّ الكاذبةَ؛ فبنَى الأمرَ كلَّه على الإيمانِ والعملِ، وتركِهما"(1).

ويُضافُ إلى ذلك ما ذكره ابنُ عاشورٍ مِن أنَّ الآيةَ أشارَتْ إلى طرفَيْنِ في الضَّلالِ والاهتداءِ، وطَوَتْ ما بين ذَيْنِك مِنَ المراتبِ؛ ليُعْلَم أنَّ ما بينَ ذلك يَنالُهم نصيبُهم مِن أشبهِ أحوالِهم بأحوالِ أحد الفريقَيْنِ؛ على عادة القرآنِ في وضْعِ المسلم بين الخوفِ والرَّجاء، والأملِ والرَّهْبةِ(2).

دلالةُ الفِعْلِ الماضي:

الحَسْمُ والفَصْلُ في شأنِ مُعاداةِ الشّيطانِ إحْسانٌ عظيمٌ

مِن سُنَنِ البيانِ القرآنيِّ أنْ ينظُمَ (الكفرَ) فعلًا ماضيًا صلةَ موصولٍ؛ للدّلالةِ على أَدنى أسنانِ الكُفر ومستوياتِه، وأنْ ينظُمَ الإيمانَ بهذه الصّيغة؛ للدّلالة على أَدنى أَسنانِ الإيمانِ ومستوياتِه،

(1) الزمخشري، الكشاف: 12/ 608.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 263.

كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾؛ والغرضُ البلاغيُّ من ذلك هنا التَّنبيهُ على أنَّ مَن كانَ منه أدنى درجةٍ ومستوىً من درجات الكفر ومستوياته فهو مِن حِزْبِ الشّيطانِ، وأنَّ مَن كانَ منه أقلُّ درجةٍ ومستوًى مِن درجاتِ الإيمانِ ومستوياته فهو مِن حِزْبِ الرّحمنِ؛ ووراء ذلك مِن المعنى غايةُ التَّرهيبِ والتَّنفيرِ مِنَ الشّيطانِ وموافقتِه، وغايةُ التَّرغيبِ والحثِّ على موافقةِ الرّحمنِ ﷻ، كما أفادَ التّعبيرُ بالصّيغتَين الماضيتَين تحقُّقَ كُفر الكافرين وإيمانِ المؤمنين، ومن ثمَّ ترتّبَ على كليهما الجزاءُ الموافق.

سِرُّ حذفِ متعلّقِ ﴿كَفَرُواْ﴾ و﴿ءَامَنُواْ﴾:

يُلْحَظُ في الكُفْرِ معنَى المُعاداةِ، وفي الإيمانِ عدمُها

الأصلُ أنْ يتعلّقَ بالكفرِ متعلّقٌ بواسطةِ حرفِ الجرِّ (الباء)، وكذلك الإيمانُ؛ وإنَّما حُذِفَ في موضِعَيه في الآيةِ؛ تنزيلًا لكلٍّ من فِعْلِ الكفرِ والإيمانِ منزلةَ الفِعْلِ اللّازمِ الذي لا يتعدَّى؛ والمعنى: الّذين كانَ منهم كفرٌ، والّذين كان منهم إيمانٌ؛ تمكينًا لدلالة نَظْمِهما في صورِ الفعلِ الماضي الوارِدِ صلةً للموصولِ؛ إشارةً إلى أنَّ وقوعَ مطلقِ كفرٍ هو علامةُ حِزْبِ الشّيطانِ، وأنَّ وقوعَ مطلقِ إيمانٍ هو علامةُ غيرِ حِزْبِ الشّيطانِ؛ أي: مِن غيرِ تفصيلٍ، فالحذفُ واردٌ على منهاجِ الإيجازِ الذي هو مِن سَمْتِ بيانِ السّياقِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ الحذفُ للعِلْم بالمحذوفِ؛ لترتبِطَ آياتُ السّياقِ بعضُها ببعضٍ في أذهانِ المُتلقّينَ، أي: الَّذين كفروا بنعمتِ اللهِ، أوْ باللهِ خالقِهم ورازقِهم؛ فالمآلُ واحدٌ، والَّذين آمنوا باللهِ خالقِهم ورازقِهم.

دلالة اللّامِ وما تؤول إليه:

العذابُ الشَّديدُ لازمٌ لهم لا محالةَ

(اللّامُ) في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ لامُ الاختصاصِ، وهيَ التي تتضمَّنُها الإضافةُ؛ وفي ذلكَ مع ملاحظةِ القصرِ الّذي في الجملة

إبلاغٌ في تقريرِ العذابِ لأهل الكفرِ؛ كأنَّه يُقابِلُ وصْفَ العذابِ بالشِّدَّة؛ أي: كأنَّه يُلاحِظُ شِدَّةَ العذابِ؛ وفي هذا مِن ترهيبِ كلِّ عاقلٍ مُنْصف لنفسِه أوَّلًا ما فيه، ودلالةُ (اللّام) على الاختصاص تفيدُ أنَّ العذابَ خُلِق من أجلِهم، ففيه معنى الغرضيّة، مع دلالةِ التّهكُّم والاستخفاف بمآلِهم؛ إذِ التّملُّك إنّما يكونُ لما يُملكُ دونَ العذابِ وآلامِه.

نُكتةُ تقْديمِ الجارِ والمجرورِ ﴿لَهُمۡ﴾:

الـجـزاءُ مِـن جِنْسِ العملِ، ومُطابِقٌ لهُ!

قدَّمَ القرآنُ الحكيمُ المسنَدَ على المسنَدِ إليه وصفتِه في قوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾؛ للدّلالة على قَصرِ العذابِ الشّديد عليهم، أي: على الَّذين كفروا؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وكان مِنَ الممكن أنْ يقولَ القرآنُ: (الذين كفروا يُعذبون عذابا شديدا) ونحوَ ذلك مِنَ التَّراكيبِ وصور المعاني؛ ولكنَّه بنَى الجملةَ على القَصْر؛ لأنَّه يُشْعِرُ بالخُصوصيَّةِ والتَّفْرقةِ والتَّمييز، والقَصْرُ تَشْديدٌ في تقريرِ الحُكْم؛ وهو بهذا يُلاحِظُ شِدَّةَ عداوةِ الشّيطانِ التي غفَلَ عنها أفرادُ حِزْبِه؛ فاتَّبَعوه وأعانوه على تحقيقِ هدفِه، والتّوكيدُ الذي ينطوي عليه أسلوبُ القصرِ إبلاغٌ في التّرهيبِ مِنَ الكفرِ والشّيطانِ؛ بعدَما يُحقِّقُ المعنى في الأَنْفُسِ؛ فيزيدُها قلقًا ورُعبًا.

علّةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿عَذَابٞ﴾ منكّرًا:

عــذابُ حِــزْبِ الـشّـيْـطـانِ على قدرِ جرمِهم

عبَّر القرآنُ في تقريرِ جزاءِ الذين كفروا بالعذابِ في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾؛ لإبرازِ شِدَّةِ الجزاءِ؛ بأنْ يكونَ تمهيدًا للوَصْفِ بـ﴿شَدِيدٞۖ﴾؛ لأنَّهُم نُبِّهوا على شِدَّة عداوةِ الشّيطانِ تنبيهًا بليغًا عَلِيًّا؛ لكنَّهُم لم يسْتَجيبوا؛ فلوحِظ ذلك في جزائهم، كما نظَم القرآنُ المسنَدَ إليه نكرةً لإفادة تهويلِ ذلك العذابِ، وتعظيمِه وتفخيمِه؛ إبلاغًا في التّرهيبِ مِنَ الكفرِ، والتَّنْفيرِ منه؛ فإنَّ أصلَ ذلك المعنَى حاصلٌ بالمعنَى الظّاهرِ للكلمة، ووصفُه بالشِّدَّةِ قرينةٌ على ذلكَ، وتحقيقٌ لهُ، وكذلك كونُ جملتِه اسْميَّةً.

دلالةُ الاسميَّةِ في الجملة:

مِن شِدَّة العذابِ ثبوتُه وديمومتُه

قولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ متكوّنٌ من جارٍّ ومجرورٍ خبرٌ مُقدَّمٌ، ومبتدأٌ مُؤَخَّرٌ موصوفٌ وصفتُه، والجملةُ الاسميَّةُ خبرُ الاسْمِ الموصولِ وصلتِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ونَظْمُ إثباتِ العذابِ الشَّديدِ لهم في صورَةِ الاسميَّةِ تحقيقٌ للإثباتِ وتوكيدٌ له؛ فتزدادُ شِدَّةُ العذابِ في أَنْفُسِ المُتلقّينَ مِن أهل الكفرِ خصوصًا.

نُكتةُ تقْديمِ جَزاءِ الكُفر:

إنَّـما يُعْتَنَى بالسَّقيم، لا بالصَّحيحِ

جاء القرآنُ في هذه الآيةِ بذِكْرَ الّذين كفروا وجزائِهم فقال: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾، مقدّمًا ذلك على ذِكرِ الَّذين آمنوا وجزائِهم؛ للاهتمامِ والعنايةِ بهم؛ ووجهُ ذلك أَنَّهُمُ المعنيّون بهم في سياقِ السّورةِ بالدّرجةِ الأولى؛ إذ همُ المُكذِّبونَ رسولَنا محمّدًا ﷺ، الّذي سلّاه ربُّه وسرَّى عنه مِن أجلِ ذلك، فكانَ ذكرُ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وجزائِهم مِن تمام ذكرِهم؛ ليظهَرَ البيانُ فيهم بالبيانِ في أهلِ الإيمانِ؛ مِن بابِ أنَّ التّقابُلَ بينَ الأشياءِ والمعاني يوضِّحُها ويُمكِّنُها في النَّفْسِ؛ إحسانًا إلى المعنى المقصود وإلى المُتلقّيه جميعًا؛ قال ابنُ عاشور: "وذِكْرُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تتميمٌ بأنَّ الّذين لم يكونوا مِن حزبِه قد فازوا بالخَيرات"[1]، أي: تكملةٌ وإتمامٌ للفائدةِ، فجملةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: وجودُها على خلافِ الظّاهرِ؛ لأنَّ الكلامَ في شأنِ المكذِّبين للدّعوة ورسولِها، ومِن فوائدِ ذِكْرِها تأكيدُ شأنِ العاصينَ في نفسِ الرّسول ونفوسِ الكافرين، ووجهُه أنَّ كلًّا مِنَ المتقابلَيْن يُظهِر حالَ الآخر ويُقوّيه في النّفس، ومن فوائده التّوطئةُ للنّفي الآتي بعدَه[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 262.

(2) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1434.

بلاغةُ الوَصْل في ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها مِنَ الموصولِ وخبرِه على نظيرِ ذلكَ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾؛ فالجملتانِ متّفقتانِ خبرًا لفظًا ومعنًى؛ وبينهما جامعٌ ظاهرٌ وهو تقارنُ الأضدادِ في الخيال؛ والتَّقابلُ بينَ أجزائِهما.

الوَصْلُ تَعْدادٌ للخبرِ؛ كأنَّه نتيجةٌ لِما قبله، ومِن تمامِه

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصولِ:

عبَّر القرآنُ عن مُخالفي الشّيطانِ الَّذين عرَفوا عظيمَ عداوتِه لهم؛ فاتَّخذوه عدوًّا بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ المُتلقّينَ في تطلُّعٍ وشَوقٍ لمعرفةِ خبرِ أضداد: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن بعدِ ذِكْرِهم وذكرِ جزائهم: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾؛ فالصِّلةُ تُبرِزُ لهم أهمَّ وأعظمَ وأفخمَ وأكرمَ ما يُعْرَفُ به هؤلاءِ؛ وهو الإيمانُ؛ تأسيسًا على أنَّ الموصولَ مُبْهَمٌ غامِضٌ، ووضوحُه وبيانُه يكونُ في صِلَتِه، ووراءَ هذا مِنَ المعنَى تعظيمُ الإيمانِ وتفخيمُه؛ وإنْ كانَ على أدنى مُستوىً مِن مُستوياتِه؛ على ما يُفْهِمه نظمُه فعلًا ماضيًا في صورة صلةِ موصولٍ؛ لأنَّ الإيمانَ عظيمٌ في ذاتِه؛ وفي هذا مِن كمالِ التّرغيبِ ما فيه، ولَمّا كان عملُ الصّالحاتِ في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ معطوفًا على جملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾، وكان المعطوفُ على الصِّلةِ صلةً كان في نظمِه كذلك ما في نَظْمِ الإيمانِ صلةً؛ فعملُ الصّالحاتِ مِن أجلِّ ما يُعْرَف ويُشْهر به هؤلاءِ النّاسُ مِن أهلِ الإيمانِ.

مُطلقُ الإيمانِ هوَ الفارِقُ بينَ حِزْبِ الرَّحمنِ وحِزْبِ الشّيطانِ

بلاغةُ التَّقابُل بين الكفر والإيمان:

القَرْنُ بين جماعتَي الكفر والإيمان في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بعاطفٍ، يُقوّي تحريكَ المُتلقّين؛ للمقارنةِ بينهما؛ وفَهْمِ كلِّ طرَفٍ منهما في نورِ الآخَرِ؛ لأنَّ المُتقابلاتِ والثُّنائيّاتِ يُبرِز حقائقُ بعضِها حقائقَ بعضِها الآخر؛ والضِّدُّ يُظْهِرُ

التَّقابُلُ بينَ الثُّنائيّاتِ قد يكونُ ظاهرًا كلُّه أوْ بعضُه

حُسْنَه الضِّدُّ؛ فتتمَكَّنُ المعاني الجزئيَّةُ وما يقصدُ إليه السّياقُ مِنَ الآيةِ في النَّفْسِ، وهذا إحْسانٌ إلى المعنى وإلى المُتلقّيهِ جميعًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالعملِ:

العملُ يعظُمُ بعِظَم غايتِه

عبَّر القرآنُ الحكيمُ بـ(العمل) في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ كلَّ فِعْلٍ صالحٍ مُؤسَّسٍ على الإيمانِ يكونُ مِنَ الواحدِ من أهلِ الإيمانِ، مِن شأنِه أنْ يكونَ دليلًا على أنَّ عاملَه ليس مِن حِزْبِ الشّيطانِ؛ وإنَّما مِن حِزْبِ الرَّحْمنِ؛ وفي هذا تفخيمٌ لشأنِ العملِ الصّالحِ أيِّ عمَلٍ صالحٍ.

سِرُّ حذفِ الموصوفِ وإقامةِ الصفة: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، مقامَه:

مَنْ يُعادي الشّيطانَ يضَعُ صلاحَ الأعمالِ هدفًا أمامَه

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صفةُ موصوفٍ محذوفٍ؛ يدلُّ عليه لفظُ الفعلِ؛ والتَّقديرُ: (وعملوا الأعمال الصّالحات)؛ بدليلِ وصفِ العملِ بالصَّلاحِ صراحةً في بعضِ آيِ الذِّكرِ الحكيمِ؛ وفي الحذفِ هنا إشارةٌ إلى قوّة ظهور معنى الصِّفةِ في الموصوفِ؛ حتَّى كأنَّ الموصوفَ يُعْرَفُ بها، وهي تدلُّ عليه؛ لأنَّ اتِّخاذَ الشّيطانِ عدوًّا يحتاجُ إلى مُجاهَدةٍ ومَشَقَّةٍ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ الصَّلاحُ في الأعمالِ قويًّا.

بلاغةُ (أل) التّعريفيّةُ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

مَنِ اتَّخذَ الشّيطانَ عَدوًّا ميَّزَ بينَ القبيحِ والحَسَنِ

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للجنس؛ فلا يتحمَّلُ السّياقُ أنْ تكونَ للاستغراقِ، ولا أنْ تدُلَّ على الكمالِ؛ فأعمالُ حِزْبِ اللهِ الّذينَ حالُهم ضدُّ حالِ حِزْبِ الشّيطانِ من جِنْسِ الأعمالِ الصّالحاتِ؛ لأنَّ الغرضَ المُراعَى هنا كونُ الأعمالِ الصّالحاتِ علامةً على مُخالفةِ الّذين آمنوا لحِزْبِ الشّيطانِ؛ مِنَ الّذين كفروا.

نكتةُ جمعِ القِلَّةِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

قليلُ المُجاهِدِ لا يُقالُ لهُ قليلٌ

نظَمَ القرآنُ صفةَ مفعولِ فِعْلِ العمَلِ جَمْعَ قِلَّةٍ كموصوفِها؛ والتّقديرُ: (وعملوا الأعمال الصّالحات)؛ فأمّا نظمُه جَمْعًا

فللإشعارِ بأنَّ اتِّخاذَ الشّيطانِ عدوًّا يفتقرُ إلى عمَلِ الأعمالِ الصّالحاتِ، فلا بُدَّ في سياقِ الإبلاغِ في التّحذيرِ مِنَ الشّيطانِ بالتَّصْريحِ بالجمعيَّةِ، وأمّا كونُه جَمْعَ قِلَّةٍ فلِلتَّنْبيهِ على أنَّ القليلَ مِن أهلِ الإيمانِ في هذا السّياقِ عظيمٌ؛ لأنَّ فيه مشَقَّةً بالغةً؛ إذ يُلْحَظُ فيه اتّخاذُ الشّيطانِ عدوًّا.

سِرُّ اخْتِصاصِ الإيمانِ بذِكْرِ العملِ معَه:

مَنْ عـرَفَ اللهَ عرَفَ الشّيْطانَ؛ فـالأوَّلُ حبيبُه، والآخَرُ عدوُّه

لم يجئِ النَّظْمُ الحكيمُ بذِكْرِ عملِ السّيِّئاتِ معَ الكفرِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾؛ لأنَّ كلَّ سيئةٍ بعدَ الكفرِ هيَ دونَه؛ فلا ذنبَ أقبحَ مِن ذنبِ الكفرِ؛ فهو المقصودُ الأعظمُ والأعلى والأكرمُ للشّيطانِ؛ وإنْ كان على أدنى مستوًى مِن مستوياتِه؛ كما يدلُّ عليه نظمُه فعلًا ماضيًا في صورة صلةِ موصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ولو تحقَّقَ فقد تحقَّقَ له كلُّ شيءٍ، ولو لم يتحقَّقْ فكلُّ وساوسِه وحيَلِه بإيقاعِ العبدِ في آثامٍ أخرى لا قيمةَ لها عندَه؛ فقد كفى بالكفرِ دليلًا عظيمًا على أنَّ الإنسانَ من حِزْبِ الشّيطان!، وأمّا الإيمانُ فهو ما وقَر في القلبِ، وصدَّقَه العملُ؛ فكانَ عملُ الصّالحاتِ إبرازًا لِما يدلُّ على اتِّخاذِ الشّيطانِ عدوًّا؛ إبلاغًا في بيانِ أنَّهم أعداؤُه، وأنَّه عدوُّهم؛ وهذا مؤسَّسٌ على أنَّ الإيمانَ ينمو بالعمل الصّالح، فكأنَّ اتِّخاذَ الشّيطانِ عدوًّا ينمو بعملِ الصّالحات كما ينمو بهِ الإيمانُ؛ فالكُمَّلُ في الإيمانِ ومعرفةِ اللّهِ تعالى كُمَّلٌ في اتِّخاذِ الشّيطان عدوًّا، ومعرفةِ طرائقِه التي يوقِعُ بها العبادَ في مواطنِ الزَّلَلِ، وذُكِرَ العملُ الصّالحُ مع الإيمان أيضًا؛ لأنَّ له أثرَه؛ لاقترانه به، قال الرّازي: "﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: قد ذُكِر تفسيرُه مرارًا، وبُيِّن فيه أنَّ الإيمان في مقابلته المَغفرةُ، فلا يُؤبَّدُ مؤمنٌ في النّار، والعملُ الصّالح في مقابلتِه الأجرُ الكبير"[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 266.

بلاغةُ اللامِ في ﴿لَهُم﴾:

مِـنَ الإحـسـانِ الاعتدادُ بمَشقَّةِ أهلِ الإيمانِ

مَهَّدَ القرآنُ الحكيمُ للقصرِ بطريقِ التّقديمِ بقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾؛ بما فيه مِن (اللّام) التي هي للاختصاصِ، ودخولِها على ضميرِ الَّذين آمنوا؛ بما يُشْعِرُ بمعنى الإضافة؛ وفي ذلك بملاحظة القصرِ إبلاغٌ في تقرير المغفرة والأجر الكبير للَّذين آمنوا؛ كأنَّ ذلكَ يُلاحِظُ الشِّدَّةَ التي عانَوها وهم يُخالفونَ الشّيطان، ويُبرزون عَداوتَه باتِّباعِ دينِ اللّهِ ورَسولِه.

نُكتةُ تَقْديمِ الجارِ والمجرورِ ﴿لَهُم﴾:

أيُّ فَرْحَةٍ تَغْمُرُ الـذيـنَ خالَـفـوا الـشّـيـطـانَ وعــادَوْهُ يـومَ القيامةِ؟!

قدَّم القرآنُ العظيمُ المسندَ على المسنَد إليه، وما عُطِفَ عليه وصفتِه في قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾؛ للدّلالةِ على قصرِ المغفرةِ والأجرِ الكبيرِ عليهم، أي: على الَّذين آمنوا؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ؛ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ فمَن لم يكُن مِنَ الذين آمنوا لم يكُن له مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ؛ وسلَك القرآنُ طريقَ القَصْرِ؛ لكونِه الألصقَ بغرضِ المقارنةِ بينهما، وبطبيعة حالِهما؛ لأنَّه يُشْعِرُ بالخُصوصيَّةِ والتَّفْرقةِ والتَّمييز، والتّوكيدُ الذي يشتملُ على القصرِ إبلاغٌ في التّرغيبِ في الإيمانِ وعملِ الصّالحات؛ بعدَما يُطمئنُ النُّفوسَ ويُحقِّقُ فيها المعنَى، ولَمّا كان القصرُ تَشْديدًا في تقريرِ حُكْمِ جملتِه كانَ يُلاحِظُ مخالفةَ شِدَّةِ عداوة الشّيطانِ، والقصرُ بهذا الطّريقِ فيه تذكيرٌ بنظيرِه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾؛ وأنَّ الَّذين آمنوا فقِهوه، وعملوا بمُقْتضاه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالمغفرة:

كـيـف نَـخْـذُلُـه تـعـالى؛ وهـو يُـعـيـنُـنـا على اتّخاذِ الشّيطانِ عدوًّا؟!

جعَل القرآنُ الحكيمُ مِن جزاءِ الذينَ آمنوا (المغفرة) في قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾؛ نظرًا إلى أنَّ أعظمَ مصايدِ الشّيطانِ ما يَعْرِضُ للإنسانِ خطأً وجهلًا مِنَ العِصيانِ؛ لِما له مِنَ النُّقْصانِ؛ ليَجُرَّه بذلك إلى العَمْدِ والعُدْوانِ؛ فوعَد ربُّنا سبحانه الواحدَ مِن أهلِ

الإيمانِ؛ بأنْ يَصونَهُ مِن أنْ يَمَسَّهُ العذابُ؛ داعيًا له إلى طاعتِه، وإزالةً لخجلتِه؛ فقال: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ﴾ أي: سَترٌ لذنوبهم؛ بحيثُ لا عقابَ ولا عتابَ؛ وذلك مُعجَّلٌ في هذهِ الدّارِ، ولولا ذلك لافْتَضَحوا، وغدًا؛ ولولا ذلك لهلكوا(1)، وبينَ الإيمانِ القلبيّ الصّادرِ منهم والمغفرةِ الخفيّةِ تناسبٌ؛ إذِ الإيمانُ سببٌ لنَيلِ الغُفران؛ إذ لا يخلو إيمانٌ من قلَّة عمَلٍ أوْ صُدور جِناية؛ لكنَّ الإيمانَ والثّباتَ عليه سببٌ لغُفرانه.

سِرُّ التَّنْكيرِ في ﴿مَّغۡفِرَةٌ﴾:

مخالفةُ الشّيطانِ سببٌ في مغفرة الله

نظَمَ القرآنُ ما وعَد اللّهُ به أهلَ الإيمانِ مِنَ المغفرة نكرةً بقوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ﴾؛ للدّلالةِ على عظَمتها، أي: مغفرةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّه تعالى لم يُمكِّن عدوَّهُم الشّيطانَ منهم، وسهَّلَ لهم طريقَ الانضمامِ لحِزْبِه تعالى؛ فهي شيءٌ عظيمٌ فَخْمٌ في أبصارِ الَّذين آمنوا وبصائرِهم، والتّنكيرُ مشعِرٌ بالامتنانِ والإحسان.

نكتةُ تَقْديمِ المغفرة على الأجر:

مَن عامَلَ عبادَه بالتَّخْليةِ بعدَ التَّخْليةِ كانَ حبيبًا لهم

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على قوله: ﴿مَّغۡفِرَةٌ﴾؛ مِن عطفِ المفرداتِ بعضِها على بعضٍ، وقُدِّمتِ المغفرةُ على الأجرِ الكبيرِ؛ إحْسانًا إلى الَّذين آمنوا؛ بأنْ تسبقَ لهمُ التَّخْليةُ على التَّحْليةِ؛ قال البقاعيُّ: "ولَمّا محاها عيْنًا وأثَرًا أثبتَ الإنعامَ؛ فقال: ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾"(2)، وعطْفُ الأجرِ الكبير على المغفرةِ من عطف العامِّ على الخاصِّ؛ لدَفْعِ توهُّم قصرِ الجزاء على كونه مغفرةً فقط؛ لأجل الذّنوب التي يفعلونها(3)، كما أنَّ بينَ العمَلِ الصّالح والأجرِ الكبيرِ تناسُبًا؛ إذِ الإيمانُ سببٌ للمغفرةِ، والعملُ الصّالحُ سببٌ لنيلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 205.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 205.
(3) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1434.

الأجرِ الكبير، كما تناسبَ الجمعُ بينَ الصّالحات معَ وصفِ الأجرِ بأنَّه كبير، إذ كثرةُ الصّالحات توصِلُ إلى الأجرِ الفَخْم.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ (الأجر):

سبحانَ مَن يكافئُ على الفَرضِ والواجبِ!

جعَل القرآنُ الحكيمُ مِن جزاءِ الَّذين آمنوا الأجرَ؛ فقال: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ وفي ذِكْرِ الأجرِ اعتدادٌ بعملِ الَّذين آمنوا؛ لأنَّ الأجرَ الكراءُ على العمَل، وقال الخليلُ: الأجرُ جزاءُ العملِ، والأجرُ أيضًا جَبْرُ العَظْمِ الكسيرِ؛ فأُجْرةُ العاملِ كأنَّها شيءٌ يُجْبَرُ به حالُه فيما لحِقَه مِن كَدٍّ فيما عمِلَه[1]، وإذا تذكَّرنا أنَّ ذلك الاعتدادَ في مواجهةِ عداوةِ الشّيطان الشّديدةِ أبْصَرْنا في الاعتدادِ إعانةً عظيمةً للَّذين آمنوا على اتِّخاذِ الشّيطانِ عدوًّا، والإجمالُ في قوله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ دونَ تعيينِ هذا الأجر؛ لتفخيمِه وتعظيمِه[2].

سِرُّ تنْكيرِ ﴿وَأَجْرٌ﴾:

سبحانَ مَن يوفِّقُ للخير، ويَجْزي عليه جزاءً عظيمًا!

نظَم القرآنُ معنى (الأجر) نكرةً؛ فقال: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ للدّلالةِ على عِظَمِه وفخامته؛ في نورِ سياق اتِّخاذِ الشّيطانِ عدوًّا، وأنَّ أعمالَ الَّذين آمنوا ذاتُ مُجاهدةٍ ومَشقَّةٍ، ووصفُ الأجر بـ﴿كَبِيرٌ﴾، والمعنى: أنّه أجْرٌ "يجِلُّ عنِ الوصفِ بغيرِ هذا الإجمالِ؛ فمنه عاجلٌ بسهولةِ العبادة ودوامِ المعرفةِ، وما يرونه في القلوب مِن وراءِ اليقينِ، وآجلٌ بتحقيقِ المسؤول مِن عظيم المِنَّة، ونَيْلِ ما فوقَ المأمولِ في الجنَّةِ"[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بـ﴿كَبِيرٌ﴾:

مَن عَظُمَ اللهُ في قلبِه حقُرَ الشَّيطانُ فيه

اشتملَ قولُه تعالى على توصيفِ الأجرِ بأنّه كبير وذلك في قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ وإنّما عبَّر تعالى به؛ ليَصْغُرَ في أبصارِ الَّذين آمنوا وبصائرِهم الشّيطانُ، وعداوتُه الشّديدةُ، وحِزْبُه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

(2) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1434.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 205.

والحياةُ الدُّنْيا، ويَعْظُم فيها الإيمانُ وأهلُه؛ لأنَّ مادَّة هذا اللَّفظ تدورُ على خلافِ الصِّغَرِ؛ فالشّيطانُ صغُر عندهم فاحتقروه، وهم قد عظَّموا اللّه تعالى[1].

دلالةُ صيغةِ المبالغةِ:

لن يغلبَ حقيرٌ عظيمًا

﴿كَبِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على وزن: (فعيل)؛ وهو مِن صيَغِ المبالغةِ؛ ففيه إشارةٌ إلى سَعَةِ ذلك الأجرِ، وأنَّه يُحيطُ بأعمالهم الصّالحاتِ، ولا يكافئها فقط؛ ففيه امتنانٌ عظيمٌ؛ يُقابلُ به ربُّنا ﷻ كيْدَ الشّيطانِ وشِدَّةَ حِرْصِه على إدخالِ النّاسِ النّارَ، ومُلازمتِهم النّارَ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ [فاطر: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نفيُ التَّسْويةِ بينَ الفريقين تقريرٌ لِما قبلَه، وتمهيدٌ لِما بعدَه

لَمّا كانَ مِن سَمْتِ سياقِ الآياتِ تنبيهُ المُتلقّينَ الغافلينَ عن مُقْتضَى نِعْمةِ اللّه عليهم، وإيقاظُهم لشُكرِها بتوحيدِه ﷻ، وكانَ القرآنُ قد قرَّرَ عداوةَ الحياةِ الدُّنْيا والشّيطانِ للنّاسِ، وأمرَهُم باتِّخاذِه عدوًّا، وأنَّ للشّيطانِ حِزْبَه، وأنَّهم الَّذين كفروا، وأنَّ أضدادَهم همُ الَّذين آمنوا، مع إجمال جزاءِ الفريقَيْن؛ جعَلَ القرآنُ نتيجةَ ذلك كلِّه نفيَ التَّسْويةِ بين الفريقَيْن على جهةٍ تدعو إلى التَّفكيرِ في حالهما وشأنِهما في نورِ ما سبَق، وهي جهةُ الاستفهام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زُيِّنَ﴾: أَصْلُ (زين) يدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيءِ وتَحْسينِه[1]، والزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْنِ، والتَّزْيينُ تَصْييرُ الشَّيْءِ زَيْنًا، أيْ: حَسَنًا، فهو تَحسينُ الشَّيءِ المُحتاجِ إلى التَّحسينِ، وإزالةُ ما يَعتريهِ مِنَ القُبْحِ أوِ التَّشويهِ[2]، والزّينةُ: جامعٌ لكُلِّ ما يتزيّنُ به النّاسُ، وما يَحْسُنُ في أنظارِهم[3]، والمقصودُ بالتَّزْيينِ في الآيةِ: تَحْسينُ ما لَيْسَ بِحَسَنٍ بَعْضَهُ أَوْ كُلَّهُ، والمُزيِّنُ للأعمالِ السَّيِّئةِ هنا هو الشَّيطانُ.

2) ﴿سُوٓءُ﴾: (سوء) أَصْلُ السّوءِ: القُبْحُ، وضِدُّه: الحُسْنُ[4]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 179.
(3) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (زين).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سوأ).

والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَمِلَ سوءًا، أي: شَرًّا وفَسادًا[1]، والسّوءُ أيضًا: الحُزْنُ والغَمُّ، ويأْتي بِمعنى الضَّرَرِ والأَذى، كقولِهم: بَلَغَهُ السّوءُ، أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكرَهُ فهو سوءٌ، والإساءَةُ: فِعْلُ الشَّرِّ وما يُكْرَهُ، ومِن مَعانيه أيضًا: المُنْكَرُ والفُجورُ والبَلاءُ والعَذابُ والشَّتْمُ والشِدَّةُ والقَتْلُ[2]، والسّوءُ في الآية مرادٌ به: الشَّرُّ والفَسادُ والكُفر[3].

3) ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾: (حسر) أصلٌ واحِدٌ، وهو مِنْ كَشْفِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَسَرْتُ عنِ الذِّراعِ، أي: كَشَفْتَهُ، والحاسِرُ: الَّذي لا دِرْعَ عليهِ ولا مِغْفَرَ[4]، ومِنَ البابِ الحَسْرَةُ: التَّلَهُّفُ على الشَّيْءِ الفائِتِ، وهي أَشَدُّ حالاتِ النَّدَمِ حَتَّى يبْقى النّادِمُ كالحَسيرِ مِنَ الدّوابِّ الَّذي لا مَنْفَعَةَ فيهِ[5]، والمُرادُ بالحَسَراتِ في الآيةِ: جمعُ حَسْرَة، وهي الغمُّ على ما فاتَ والنَّدمُ عليه[6].

4) ﴿يَصۡنَعُونَ﴾ (صنع) أَصلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، والصُّنع: عَمَلُ الشَّيْءِ صُنْعًا، وامْرَأَةٌ صَناعٌ ورَجُلٌ صَنَعٌ؛ إذا كانا حاذِقَيْنِ فيما يَصْنَعانِه[7]، فالصُّنع إجادةُ الفعل، فكلُّ صُنع فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صنعًا، ولا يجوز نسبتُهُ إلى غيرِ الآدميّين[8]، والمُرادُ بالصُّنْعِ في الآيةِ: التَّدبيرُ بمكرٍ، أي: إنَّهم يُدبِّرونَ مكائدَ للنَّبيِّ ﷺ وللمُسلمينَ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُحَذِّرُ الآيـةُ مِن سُلوكِ الإنسانِ سُبُلَ الهَلاكِ؛ وهو لا يَشعُرُ

يُبيِّنُ الحقُّ سبحانه الفَرْقَ الشّاسعَ بين المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، فقال: أفمَنْ حسَّنَ له الشَّيطان سيّئَ الأعمال مِن معاصي

(1) الزبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 264.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسر).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (حسر).
(6) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 108.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صنع).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 267.

اللّه والكفرِ به وعبادةِ ما دونَه منَ الآلهة والأوثان، فحسبَ سيّئَ ذلك حسنًا، وظنَّ قبيحَهُ جميلًا: كمَنْ ليس كذلك؟!، فإنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ إضلالَه، فيَصرِفُه عنِ الإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ؛ ويَهدي مَن يَشاءُ هدايتَه، فيَدُلُّه ويوفِّقُه للإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ، فلا تُهلِكْ نَفْسَك يا محمَّدُ ﷺ حُزْنًا على الكافِرينَ؛ بسَبَبِ ضَلالِهم عنِ الحَقِّ، إنَّ اللّهَ عليمٌ بما يَصنَعُه الكافِرونَ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيهم عليه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عَلاقَةُ الآيةِ بمَعاني السّورةِ:

مِن آيِ السّورة ما هو كالأُمِّ لباقيها؛ مِن جهةِ المعنَى

القرآنُ يتحدَّثُ عنِ (النَّفْس) المُزيَّنِ لها أيًّا كانت ديانتُها، والعبرةُ بعُمومِ اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، ولكون التّزيينِ أمرًا عامًّا لتسلُّطِه على البشر كلِّهم؛ كان لجملةِ النّفي ذاتِ الطّرفينِ المذكورينِ جميعًا أوِ المذكور أحدُهما والآخرُ مقدّرٌ ميزةٌ، وهو تناسبُها وتلاؤمُها وتمازجُها بكلّ آيةٍ في السّورة تُحدِّث عن عمل الكافر أوِ المؤمنِ الطّائع أوِ العاصي، أوْ عنهما معًا، أوْ عن جزاءِ أحدهما أوْ جزائهما معًا، فهي واقعة موقعَ التّعليل والتّأكيد لهذه الآيات؛ ضعْ جملةَ التّزيين هنا بإزاء قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَۚ﴾، وآيةَ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ تُبْصِرْ هذا المَوْقِعَ العجيبَ[1].

بلاغةُ موقِعِ الآيةِ:

قد تقَع الآيةُ موقِعًا على خلافِ الظّاهرِ؛ لِحِكْمةٍ بلاغيّةٍ

الحالتانِ اللّتانِ تُقرِّرُهما جملةُ النّفي؛ حالةُ مَن زُيِّنَ له سوءُ عملِه فرآهُ حسنًا، وحالةُ مَن ليس كذلك هما الكائنتانِ بعدَ دعوةِ النّاسِ كلِّهم إلى الإيمانِ الحقّ، وتحذيرهم منَ الكفر الباطل ودواعيه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1420.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وكان الظّاهرُ أن تجيءَ آيةُ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عَقِبَ هاتين الآيتَيْن، ثم تأتي آيةُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ﴾ بعد آيةِ التّزيين؛ لأنَّ المقصود فيها تقريرُ جزائهما، والجزاءُ نهايةُ المطاف للفريقين.

فجَمع النّظمُ الحكيمُ "الفريقينِ معًا في حُكْم نداء النّاس، وجمَع ما لهما مِنَ الثّوابِ والعقابِ في حُكْم الوعد، وحذَّرَهُما معًا عنِ الغُرور بالدّنيا والشَّيطان"[1]، ومجيءُ الجزاءِ وسببه الظّاهرُ مِن الكفر والإيمان يوقعُ في النّفس معنًى؛ كيف كفر مَن كفرَ، واستحقَّ هذا العذابَ الشّديدَ بعد ما ذَكر له فاطرُ السّماوات والأرض الدّنيا وغرورَها والشّيطانَ وعداوتَه؟ فكانت في جملة التّزيين الجوابُ، وهذا احتفالٌ بالجزاء والتّزيين معًا، وتقريرُ الجزاء عَقِبَ بيان عداوة الشّيطان؛ مِمّا يُؤكِّد هذه العداوةَ في النّفس؛ لأنَّ مجاورةَ الجزاء لها يعني أنّها سببٌ فيه، والعذاب الشديد هو الحاصلُ في: ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾، وهو "النّار الشّديدة، وغلبَ في لسان الشَّرع على جهنَّم"[2]، وفي هذا احتفالٌ بالعَداوة والجزاء معًا، ومجاورتُهما تُنتِج معنى أنَّ الذين كفروا حزبُ الشّيطان المصرَّحُ به في قوله: ﴿حِزْبَهُۥ﴾، وأنّ الذين آمنوا حزب اللّه، فهل يستوي الحزبان أيّها الرّسول؛ فتُذهبَ نفسك عليهم حسرةً؟[3].

بلاغةُ الجمعِ مع التّفريقِ والتّقسيمِ:

نتجَ عن صورة نَظْم الآياتِ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فنٌّ بديعيٌّ شاهدٌ على التّماسُك الّذي بينَ عناصر النَّظم؛ مِمّا جعَل هذا البيانَ مِنَ النَّمط العالي في النَّظْم والباب الأعظم فيه، وهذا هو البابُ الذي ترجمَه الإمام عبدُ القاهر بقوله: "أنْ تتَّحد أجزاءُ الكلام، ويدخُلَ بعضُها في بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأوَّلٍ، وأنْ تحتاج في الجملة إلى أنْ تضعَها في النّفس وضْعًا واحدًا"[4]، وذكَر عبدُ القاهر

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 608.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 262.

(3) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1421 - 1422.

(4) عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 93.

الـقـرآنُ بلَـغ الــغــايــةَ في تَماسُكِ المعاني

منه (فنَّ التَّقْسيم)، "وخصوصًا إذا قسَّمتَ، ثمّ جمعتَ"[1]، والفنُّ النّاشئُ هنا عن حركة المعنى هو الجمعُ مع التّفريق والتّقسيم، أمّا الجمع فسبقَ بيانُه، "وأمّا التّقسيمُ فهو قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية؛ لأنَّه بَيَّن فيه أحوالَ الفريقينِ وما لَهما وعليهما مِنَ الثّواب والعقاب، وأمّا التَّفريقُ فقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ لأنّه فرّق فيه وبَيَّن التّفاوت بينَ الفريقين، كما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ مِن هذين الفريقين؛ كمَن لم يُزيَّن له"[2]، فجعلُ الطّيبيّ المحذوفَ طرفًا مُقابلًا للمذكور، وبذا يكون نفيُ التّسوية ممّا يَقومُ عليه اشتدادُ ارتباطِ الكلامِ ببعضِه، وما قبل التّزيين مِن آية: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وما بعدَه مِن قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ مُرشِّحٌ؛ لكون المحذوف الطَّرفَ المقابلَ للمذكورِ.

سِرُّ الخطابِ بالمعنَى المعلومِ:

القـرآنُ يعالجُ المُسبَّبَ بعلاجِ السَّببِ

نفيُ استواءِ مَن زُيِّنَ لهُ ومَن ليس كذلك معنًى معلومٌ؛ فلماذا خاطب القرآنُ به أمَّةَ الدَّعوة؟ قال البقاعيُّ: "ولمّا أبان هذا الكلامُ تفاوتَ الحِزبينِ في المآل بالهَلاك والفوز، وكان لا يُقدِمُ على الهلاك أحدٌ فيه حِسّ، وكان الكفّارُ يدّعون أنَّهم الفائزون قناعةً بالنَّظَر إلى ما هم فيه، ويدّعونَ أنَّهم أبصرُ النّاسِ وأحسَنُهم أعمالًا، وكذا كلُّ عاصٍ ومبتدِعٍ؛ كان ذلك سببًا في إنكار تَساويهما، فأنكرَه مُبيِّنًا السَّببَ في ضلالِهم، بما فيه تسليةٌ للمُحسنين، وندبٌ إلى الشُّكر، وحثٌّ على مُلازَمةِ الافتقار والذُّلِّ وسؤالِ العافية مِنَ الزّلل والزّيغ، فقال: ﴿أَفَمَن﴾ ..."[3].

سِرُّ العطف والتفريع بالفاء:

ردُّ الأوهـام من محاسنِ الكلام

(الفاءُ) في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها

(1) عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 94.
(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 12/ 608.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 14.

على ما تضمّنهُ الكلامُ السّابق من عدمِ التّسويةِ بينَ مآلِ الحزبين، الَّذي من شأنِهِ أنْ يُحدث إنكارًا لدى الحزب الخاسر، بأنّهم أحسنُ أعمالًا وأفضلُ أداءً، فجاءَ العطفُ السّببيُّ المشيرُ إلى سببِ الإنكار والادّعاءِ، والتّفريعيُّ الدّالُّ على تفرُّع السُّؤال عمّا قبله بـ(الفاء) مُجيبًا عن ذلك الوهم رادًّا عليهم؛ بأنّه لا يستوي المُزيَّنُ له أعمالُهُ فيراها حسنةً معَ غيرِ المُزيَّنِ له، فـ(الفاء) عاطفةٌ لِما بعدها على محذوفٍ يلائم ما بعدَها، يُقدَّر بنحو: (أتُحكِّمون الهوى وتتركون العقل والحكمة فتُسوّوا بينهما؟) ونحو: (أتغفلونَ عنِ الفرق بينكم وبين المؤمنين فتسوّوا بينكم وبينهم؟) فالمحذوفُ يُقدَّرُ قبل الفاءِ وبعدَ الهمزة، ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ تفريعًا لمعاني الآية بعدَها على جميع ما تقدَّمَ؛ للإيماء إلى استحقاقِ حزبِ الشّيطانِ عذابَ السَّعيرِ، ولتسليةِ النَّبيِّ ﷺ على مَن لم يَخْلُصوا مِن حبائل الشّيطان مِن أمّة دعوتِه بأسلوب المُلاطَفة في التَّسْلية؛ وعلى ذلك فالهمزةُ مُقدَّمةٌ مِن تأخيرٍ.

بلاغةُ الاستفهامِ:

النَّفيُ بطريقِ الإنكارِ إحْسانٌ إلى المعنَى والمُتلقّيهِ جميعًا

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ للإنكارِ اللّازمِ منه معنَى النَّفْي[1]، وأصلُ المعنى: فليسَ مَن زُيِّنَ له سوءُ عمله كمَن ليس كذلك، وإنَّما جاء النّفيُ بالاستفهام لأنَّ القوم في غفلة؛ ألا تراهم زُيِّن لهم وأثَّر فيهم التّزيينُ، فرأوا الحسَنَ قبيحًا، والقبيحَ حسَنًا؟، فمُقتضَى حالِهم الإيقاظُ والإثارةُ والتّنبيهُ والتّحريكُ والتّنشيطُ والتّعجيبُ وما جرى في هذا الطّريق منَ المعنى؛ وذلك محضُ الاستفهام، لا يصحُّ أن يُخاطَبوا - بسبب ما هم فيه مِن تكذيب وكفر وادّعاءِ تفضيلٍ باطلٍ ... ونحوه - بالنّفي الصَّريح؛ لأنَّ المقصود أنْ يتأمّلوا ويفكّروا بحالهم، وذلك داعيةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 266، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 465.

أسلوبِ الاستفهام، فلم يقلِ القرآن لهم: (ليس مَن زين ... كمَن ليس كذلك)، وإنّما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ﴾؛ ليتنبّهوا، فيرجعوا إلى أنفسهم ويراجعوها وتُراجعَهم، فيعلموا أنَّ ما هم عليه باطلٌ، وأنَّهم جوّزوا وجودَ أمر لا يوجد مثلُهُ مِنَ التّكذيب والكفر والتّفضيل، فإذا أنصفوا أنفسَهم أوّلًا وخصمَهم ثانيًا قالوا: ليسوا سواء، وهذا إقامةٌ للحُجَّة عليهم وإلزامٌ لهم بها؛ إذِ النّفسُ في داخلها تنطقُ بالنّفي، ولا تستطيع أنْ تُخفيَه إلّا في الواقع.

نكتةُ الحَمْلِ على اللَّفظِ والحَمْلِ على المَعنى:

الإفرادُ إقامةٌ للحُجَّةِ، والجَمْعُ بيانٌ لرحمةِ نبيّنا وكمالِ علم الله تعالى

حمَلَ القرآنُ على لفظِ (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ﴾ بالإفراد في: (﴿لَهُۥ﴾ - ﴿عَمَلِهِۦ﴾ - ﴿فَرَءَاهُ﴾)؛ والإفرادُ أمكنُ في تقرير النَّفي، وأدعى إلى الإلزام بالمقصود، ووجهُ ذلك أنّ ليس المطلوب مقارنةَ جماعةٍ بجماعة؛ فذلك قد يكونُ صعبًا، ولكن بينَ فرد وفرد، وذلك ممكنٌ وسهل، فيتحقّقُ المقارنُ الفرقَ بين الفريقينِ وعقيدتَيْهما ويتأكَّدُ منه، وطرَفا النّفي هما الكافر والمؤمن؛ بقرينة الآية التي قبْلَها، وأمّا العدولُ عنِ الإفراد إلى الجمع بالحَمْل على معنى (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾؛ فللإيذان بأنَّه ﷺ يستوي عنده الغنيُّ والفقير والحرُّ والعبد والقويُّ والضَّعيف والتّابعُ والمتبوع ... في تعلُّق حرصِه الشّديد على هدايتِهم، وذلك مدحٌ له ﷺ، وبُني على هذا الجمعُ في قوله تعالى: ﴿يَصۡنَعُونَ﴾، وعلمُه تعالى بما تصنع الجماعةُ دالٌّ بقوّة على علمِه بما يصنع فردٌ، وهو أدلُّ على التَّهديدِ والتَّرهيبِ أيضًا[1].

علّةُ التّعبير بلفظ ﴿زُيِّنَ﴾:

التَّزيينُ مِن أقوى وسائلِ الغُرورِ أوِ التَّغريرِ الشَّيطانيِّ

عبَّر القرآنُ بمادَّة (التَّزيين) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ﴾؛ للإشعار بالحالة النّفسيَّة للمُزيَّن له؛ مِنَ السَّهو والغَفلة واللّغو

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1432 - 1433.

والكفر والعصيان والبُعْد عنِ الحقيقة، ويلزم هذا إعجابُه بنفسه وافتتانُه بها ورفضُه أيَّ نقد أوْ نقاش، وما ذلك إلّا لِما غرّه باللّه الغَرور، وهذا معناه موتُ القلب وموتُ العقل، فقد ماتَ لديهِ التّمييزُ بين الحقِّ والباطل، وكان الحبُّ كلُّه للباطل كفرًا أوْ معصيةً، وهذا كلُّه مقصود؛ لترتُّب معنى التّسليةِ عليه، وهذا التَّزْيينُ هو الألصقُ بالغُرورِ أو التَّغْريرِ، والغَرورِ، وشدَّةِ عداوتِه للنّاسِ[1]، ونلحظُ في مادّة الفعلِ انقلابَ حقائقِ الأعمالِ التي يرتكبُها المُزيَّنُ له، فلا يراها إلّا وهي ذاتُ جمالٍ وبَهاءٍ ورَواء، مع أنَّها سوءٌ وكدَرٌ وقُبْحٌ، فيكونُ ذلك كنايةً عن عَمَى البصيرة وغَشاوة النّظر، اللّازمِ منه أيضًا عدمُ الفكر الصَّحيح والنّظرِ السَّديد لحقيقةِ عملِه.

دلالةُ البناءِ للمفعول في ﴿زُيِّنَ﴾:

المُزَيَّنُ لهُم مِنَ السَّهْلِ سُرعةُ استحسانِهم القبيحَ مِن بعدِ تزيينِه لهم!

حذَف القرآنُ فاعلَ التّزيين، وهو الشَّيطان؛ لكثرةِ مسالكِ (الغَرور) التي يدخلُ بها على الإنسان، فكأنَّ الفاعل الشّيطانُ وهذه المسالك، وكانَ مِنَ السَّهل حصولُ التّأثير فيهم بأيٍّ منها، وبعدَ الاستقلال أيضًا لا يكون أمامَهم إلّا اتّباعُ الهوى الذي لزِمَهم بعد قَبول التّزيين، فالحذفُ دالٌّ على كثرة الفاعلينَ له، ويمكن أن يكون الحذفُ لِما قاله البقاعيّ: "ولما كان الضّارّ هو التّزيينَ من غير نظر إلى فاعل معين بُني للمفعول قولُه: ﴿زُيِّنَ﴾ ..."[2]، والتّزيينُ مبناه الغرورُ المذكور في قوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ إذِ الغرورُ صفةٌ قائمةٌ بفاعل التّزيين، والمُزيِّن شأنُه التّدبيرُ في خفاء، وهذا من أسرار التّعبير بالغرور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: 22]، وهو يغرُّ النّاس بتزيين القبائح لهم؛ تمويهًا بما يلوحُ عليها من محاسنَ تلائم نفوسَ النّاس"[3]

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1439.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 16.

(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد: 16/ 20.

والتّمويهُ أوِ الإيهامُ لا يكون ظاهرًا؛ لتعلُّقِه بالنَّفس، والنّفسُ شأنُها الخفاءُ، والملائمُ للحالة النّفسيَّة القابلة للغُرور حذفُ الفاعل، فكأنَّه لخفاءِ الفعل خفيَ الفاعل منَ الكلام.

دلالةُ المُضيِّ في ﴿زُيِّنَ﴾:

القومُ الكافرون سريعو قَبولِ التَّزْيينِ!

نظَم القرآنُ معنَى التَّزْيين فعلًا ماضيًا في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ﴾؛ لوقوع مضمونِه، والإخبارِ بتحقُّقِ وقوعِه في أمثالِ هاتِه النُّفوس، وأنَّه يكونُ سِمَةً غالبةً عليهِم، وأنَّ التَّزيينَ إنْ أصابَ أحدًا تمكَّنَ منه ورَسَخَ.

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور:

ليس أحدٌ يحرصُ على ضلالِ النّاسِ كحرصِ الشّيطانِ عليه!

قدَّم القرآنُ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهُۥ﴾ على نائب الفاعل في قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ على خلاف الأصلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُقدَّمَ مُعتَنًى ومُهتَمٌّ به مِن قبل المُزَيِّن له، وفيه إيهامُ القَصر، وأنّه خصوصًا أهلٌ للتّزيين؛ لأنّ الشَّيطان وغيرَه يُزيِّنون للنّاس كلِّهم؛ لأنَّه عدوٌّ لهم جميعًا، وبذا فالتّقديمُ يُفسِّر المجاز في قوله: ﴿حِزْبَهُۥ﴾، ويُعلِّلُ الغرابةَ والدّهشة النّاتجةَ عنهما، ولذا كان الأمرُ بالاتّخاذ له عدوًّا للنّاس جميعًا في هذه السّورة[1].

علّةُ التَّعبيرِ بـ(السّوء):

التّزيينُ في ظاهرِه جمالٌ، وفي باطنِه سوءٌ!

عبَّر القرآنُ بـ(السّوءِ) في قوله تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ للتَّنْفيرِ والتَّرهيبِ مِن قَبول التَّزيين، ومِنَ الشّيطانِ المُزيِّن ومِن غيرِه؛ لأنَّ السّوءَ كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمور الدُّنْيويَّة والأخرويَّة ومِنَ الأحوال النَّفْسيَّة والبدنيَّة، والخارجةِ مِن فواتِ مالٍ وجاهٍ، وفَقْدِ حميمٍ[2].

علّةُ التَّعبيرِ بالعمل:

ما أبصرَ الشّيطانُ مدخلًا إلى تضليلِ الإنسانِ إلّا سلكَهُ

عبَّر القرآنُ بالعملِ في قوله تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على قوَّة التَّزْيينِ بما فيه مِن عمومٍ؛ حيثُ يشملُ كلَّ ما يكونُ مِنَ الإنسانِ

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1439.
(2) الراغب، المفردات: (سوأ).

مِن فِعْلٍ بقَصْدٍ[1]، سواءٌ كانَ قولًا أوْ فعلًا، والتَّعبيرُ به يتوافقُ معَ التَّعبيرِ بالعمل في جانبِ أهلِ الإيمان في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ كأنَّ فيه دعوةً قويَّةً إلى المقارنة بينهما، وإشارةً إلى أنَّ الأعمالَ السَّيِّئَةَ تصيرُ بالتَّزْيين أعمالًا صالحاتٍ في أبصارِ المُزَيَّنِ لهم وبصائرِهم!

معنَى (الفاء) ودلالةُ التَّعبير بها:

التَّزْيينُ قويٌّ، والمُـزَيَّـنُ لـهُ ضعيفٌ

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ للسَّببيَّةِ والسُّرعةِ؛ وهي تدلُّ على نفي وجودِ أيِّ مقاومةٍ للتّزيين، وبهذا كان ما بعدَها مُسبَّبًا عمّا قبلها؛ إذِ الاعتقادُ المذكورُ مقامٌ عظيمٌ في باب الضَّلال، وهو لا يكون بادئَ ذي بدأ، بل بعدَ سببٍ ودافعٍ هو التّزيينُ، ولو كان العاطفُ (ثمّ) كانتِ الغرابة منَ المعطوف، ولكنَّ (الفاء) آنسَتِ النّفوسَ وهيّأتها لتلقّيه، ومعنى التّعقيب والسُّرعة وجهُ ذلك، ومحصولُ ذلك أنّهم حزبُ الشّيطان[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بالرُّؤْيةِ:

الرُّؤْيةُ أدلُّ على قَبولِ التَّزيينِ بقوَّةٍ

قولُه تعالى: ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ يدلُّ على ادّعائهم أنّ السيّئةَ حسنةٌ؛ لأنَّ التّزيينَ يقتضي فعلَ السيّئة، واعتقادَها حسنةً يلزمُ منه الادّعاء، وفاعلُ (رأى) الضّميرُ العائد على (مَن)، و(الهاءُ) مفعولٌ أوّل، و﴿حَسَنًاۖ﴾ مفعولٌ ثانٍ، "ورأى إذا عُدّي إلى مفعولين اقتضى معنى العلم"[3]، وهاهنا كذلك؛ فالرُّؤْيةُ هنا قلبيّةٌ، ولفظُها الاعتقاد، فثَمّ تجوّزٌ في: (رأى)؛ إذِ استعيرتِ الرّؤيةُ التي هي إدراكُ المرئيّ للاعتقاد؛ بجامع أنَّ كلًّا منهما سبيلٌ لتحقيق الإدراك، والقرينةُ أنَّ التَّزْيينَ هنا نفسيٌّ، واعتقادُ السّوء حسَنا حسَنٌ عند المُزيَّن له؛

(1) الراغب، المفردات: (عمل).

(2) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1443.

(3) الراغب، المفردات: (رأى).

وإن كان غيرَ صواب في الحقيقة، والمسألةُ في الآية تتعلّقُ بالحِلّ والحُرمة، والأحكامُ تُعتَقد ولا تُشاهَد، وجملةُ التّزيين تعليلٌ لجعلِ الحرام حلالًا، ونكتةُ المجاز المبالغةُ في بيان حصول الاعتقاد، والتّنبيهُ على أنَّ صاحبه يُذيعه ويُشهِره ويُحارِبُ به ومن أجله، كأنّه شيءٌ محسوس.

سرّ مجيء ﴿حَسَنًاۖ﴾ منكّرًا:

عجيبٌ وغريبٌ أنْ يكونَ السّوءُ في غايةِ الحُسْنِ!!

نظَم القرآنُ المفعولَ الثّانيَ لفعل الرُّؤية نكرةً في قوله: ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾؛ للدّلالة على فَخامته وعظمتِه؛ أي: إنَّ حسنَهُ جليٌّ واضحٌ قويٌّ مِن آثارِ التَّزْيين، وهذا مِن شأنِه أنْ يُثير الغرابةَ والعجبَ في نفوس المُتلقّين؛ لأنَّ الكفرَ أحدُ الأشياء التي زُيِّنت أوْ تُزَيَّنُ للإنسان، وبالتَّزْيينِ يصيرُ في غاية الحُسْنِ، وهكذا كلُّ ما ينصبُّ عليه التَّزْيينُ.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ (السّوء والحسَن):

التَّقابُلُ إحسانٌ إلى المعنى والمُتلقّي جميعًا

بينَ (السّوء والحسَن) إمّا طباقٌ ظاهرٌ؛ إذا روعي أنَّ القبيح يُعبَّر عنه بالسَّيِّء، والقرآن "عبَّر عن كلِّ ما يقبح بالسّوأى، ولذلك قوبِلَ بالحسنى، قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10]، كما قال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [يونس: 26]، والسّيِّئةُ الفِعْلةُ القبيحة، وهي ضدُّ الحسنة ..."[1]، وإمّا طباق خفيٌّ؛ إذا لم تكن المراعاةُ، حيثُ سوءُ العمل يستلزمُ قبحَه عند النّفوسِ السّوِيَّة، وفيه مزيدُ قوّةٍ في الإبانةِ عن سِمَةِ القوم، ومزيدُ إيضاحٍ لوجوبِ ذمِّهم، وذلك ما يفعلُه التّقابلُ في النّفس.

سرُّ التَّعبيرِ عنِ الكافرِ بمضمونِ الصِّلةِ:

في الصّلة تصويرٌ دقيقٌ لنفسيَّة الكافرِ

في تعبير القرآنِ عن (الكافر) الذي هو مِن حِزْب الشّيطان بمعنَى الصِّلة شناعة فعله، وقبح وصفه، قال الآلوسي: "وفي التّعبير عنِ الكافر بـ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ إشارةٌ إلى

(1) الراغب، المفردات: (سوأ).

غايةِ ضلالِه، حتى كأنَّه غُلِب على عقله، وسُلِبَ تمييزُهُ، فشأنُ المغلوبِ على عقله ذلك"[1].

بلاغةُ الإيجازِ والاكتفاءِ والكنايةِ:

ذِكْـرُ الـصّـورة الأعلى هي الأبَرُّ بالسّياقِ وقصدِه وحـركـةِ المعنى فيه

رؤيةُ القبيح حسنًا مشيرٌ إلى عكسه، وهي رؤيةُ الحسَنِ قبيحًا، فهاتان صورتانِ، المذكورةُ في النّظم أصلٌ للثّانية، فاكتُفي بالأصل لدلالته على الآخر، ولأنّ متعلّق مرضهم الكفرُ، وهو وصفُهم قبل مجيءِ الإسلام، ولأنّ الاحتشاد كثيرٌ كونُه لإثبات حُسْنِ قبيحٍ، وقليلٌ أن يكون لإثباتِ قبحِ حسنٍ، والأوّلُ مبدؤُهم وغرضُهم، والثّاني طارئٌ عليهم بمجيءِ الرّسول محمّد ﷺ؛ من أجل ذلك اقتصرَ القرآن على الصّورة التي نظمَها ناقلًا بدقّةٍ وصفَ القوم؛ إذِ الصِّلة معلومةٌ لديه بقوّة، وإنْ كان غافلًا عنها؛ فطلبُ الكفِّ يكونُ أقوى حين يُبنَى على ذكر التّزيين والرّؤية قبْلَه، وصدرُ المعقِد تصريحٌ بتكذيبهم، وهم لا يكذّبون الرّسول، ولكنَّ الظّالمين بآيات اللّه يجحدونَ، فلا يتأتّى لهم جحودُها إلّا إذا تبدّلتْ حقائقُها، وهو لا يكونُ إلّا بالتّزيين، والحاصلُ أنَّ هنالك اكتفاءً في تزيينِ القبيح على أنَّه حسَنٌ، ويُفهمُ منه تصوير الحسن على أنَّه قبيح؛ لأنَّ مَن زُيِّنَ له القبيحُ حسنًا فمِنَ المؤكَّد أنَّ نقيضَه منَ العمل الحسَنِ يكون لديه قبيحًا،؛ لأنّه يعتقدُ أنّ ما هو عليه حسنٌ وغيره قبيحٌ، وفي ذلك كنايةٌ عن حالة الجمودِ التي تلازمُ عقولَهم على ما ورِثوه من معتقداتٍ وأعمالٍ فاسدة.

سِرُّ حذفِ الخبرِ في الاستفهام:

الحذفُ إحسانٌ إلـــى أهـلِ التّكذيبِ والكفرِ خصوصًا

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ تسوية لطرف مقدّر محذوف، وسبيلُ التقدير باعتبار كونِ (مَنْ) موصولةً أوْ شرطيّةً، وباعتبار تعدُّدِ قرائن السّياق، والمختارُ أنَّ (مَنْ) موصولٌ مُبتدأ، وما بعده صلتُهُ، والخبرُ محذوفٌ، يُقدّرُ بنحو: (كمن لم يُزين له

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 169.

على معنى أنَّه لم يُؤثِّر فيه التّزيينُ، وهذا ما يقتضيهِ النّظرُ عندَ أبي حيّانَ، وقوّاه بأنَّ هذا أسلوبٌ قرآنيٌّ، فيشهدُ لمثلِ هذا التّقدير نحوُ قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ١٤﴾ [محمد: 14] وقوله: ﴿۞أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد: 19] وغيرِهما، وحسّنَه السَّمين الحلبيّ؛ لموافقتِه لفظًا ومعنًى[1]، ولاشتمالِ السّورة على نفيِ التّسوية هذا صراحةً مرّتين، ونبّه الرّازي على هذا بقوله: "يعني: ليس من عملَ سيّئًا كالَّذي عمِلَ صالحًا، كما قال بعد هذا بآيات: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠﴾ [فاطر: 19 - 20]"[2]، وما ذكروه من تقديرات، نحو: (كمن هداه اللّه)، و(كمن اهتدى)، و(كمن علم الحسنَ والقبيحَ وعمل بما علمَ ولم يُزين له سوءُ عمله)، وغيرِها فإنّها تُفهَمُ مِنَ المقابلة بين الطّرفينِ تحتَ تنبيهِ الاستفهام.

وأيًّا ما كانتْ صيغةُ الطّرفِ المُقابل للمذكورِ فبلاغةُ (الحذف) متمثّلةٌ في الدَّرجةِ الأولى فيما ينتابُ النّفسَ عند سَماعِ الآية، والحذفُ يجعلُ النّفس تذهبُ في تخيُّل المحذوفِ كلَّ مذهبٍ مُمكنٍ، وقد فسَّر البقاعي الحذفَ بقوله: "وطوى المشبَّهَ به، وهو (كمَن أبصرَ الأمورَ على حقائقِها، فاتّبَعَ الحسنَ واجتنبَ السّيِّءَ)؛ لأنَّ المقامَ يَهدي إليه، وتعجيلًا بكشفِ ما أُشكِل على السّامع منَ السَّبب الحاملِ على رُؤيةِ القبيح"[3]، والنّفسُ الحيّة يُفزعها النّموذجُ المعروض، فطوى المسندُ؛ للتّعجيل بما يُؤنسها.

نكتةُ ذكر الطَّرفِ المُفضَّلِ عليه:

آثر النّظمُ الكريمُ تقديمَ المزيّن له على غير المزيّن له في قوله:

في هذا التَّقديم فَـرْشٌ لطيفٌ لجملةِ النَّهيِ اللّاحِقَةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 300، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 213 - 214.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 266.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 14 - 15.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾، وهو دالٌّ على صَرْفِ الرَّسول ﷺ حرصَه كلَّه إلى هذا الطّرفِ؛ وبهذا يتّضح تعلّقُ التّقديم بالحذف، وأنَّ أحدَهما بسببٍ منَ الآخر.

معنَى (الفاء) ودلالةُ التّعبير بها:

ما بعدَ (الفاءِ) هنا ركيزةٌ لِما قبلَها

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ للتَّفريع والتّسبيبِ والتّعليل فـ:"لمّا نفى التّسويةَ بَيْنَهُما والمشابهةَ اتَّجهَ لسائلٍ أنْ يقولَ: لمَ هذه التّفرقةُ ونفيُ التّسويةِ؟ فقيل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾"[1]؛ فقد فرّعتْ ما بعدَها على ما قبلَها، وهو جملةُ التَّزْيين؛ والمُفرَّعُ مِن شأنِه أنْ يَكْشِفَ ما أشكَلَ على المُتلقّي مِنَ السَّببِ الحاملِ على رؤيةِ القبيح حسنًا، والحسَنِ قبيحًا! ومَن علم مضمونَ ما بعدَ (الفاءِ) مِن كونِ إضلالِ مَن يشاءُ وهدايةِ مَن يشاءُ بيدِ اللّه سبحانه استقرَّ في نفسه بسرعةٍ وقوَّةٍ أنَّ مِنَ النّاسِ مَن زُيِّنَ له سوءُ عملِه فرآه حَسَنا، ومَن ليس كذلك، وعظُم في نفْسِه كونُ اللّه مُضلًّا مَن يشاءُ، وهاديًا مَن يشاءُ؛ فما بعدَ الفاء "تقريرٌ للتَّسْلية، وتأْييسٌ مِن اهتداءِ مَن لم يَخْلُقِ اللّهُ فيه أسبابَ الاهتداءِ إلى الحقِّ مِن صحيح النَّظَرِ وإنصافِ المُجادَلة"[2].

علَّةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالةِ:

للألوهيَّة الحقَّة مِنَ العِلْم والحِكْمة ما ليسَ لغيرها

عبَّر القرآنُ باسْم الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾؛ الجامع لجميع معاني الأَسماءِ والصِّفاتِ؛ لدعوةِ الرَّسولِ ﷺ ومَن معَه مِن أهل الإيمان في كلِّ عصر ومِصْر وجنسٍ إلى التَّسْليم للّه الملِكِ الأعظم الحكيم العليم الخبيرِ في شأنِ المُكذِّبينَ المُعاندينَ، وليكونَ الاسمُ الأعظم كالعلَّة لذلك الشَّأن العظيم والفعلِ الخطير المتمثّلِ بخَلْقِ الهدايةِ والضَّلالِ في قلوبِ المُكلَّفين.

---

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتهما على تفسير البيضاوي: 16/ 18.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 264.

علّةُ التَّعبير بالإضلال:

الإضلالُ مُؤسَّسٌ على الغُرورِ بالدُّنيا والشّيطان

عبَّر القرآنُ بـ(الإضلالِ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾؛ للإشارةِ إلى ما فيه أهلُ التَّكذيبِ والكفرِ وحِزْبُ الشّيطانِ مِن ضلالٍ، أي: عُدولٍ عنِ الطّريقِ المستقيم، وهو ضلالٌ في معرفةِ اللّهِ تعالى وما يَتْبَعُ تلك المعرفةَ، وهذا الوصفُ مِن شأنِه توكيدُ التَّأييسِ مِن هؤلاءِ المُكذِّبينَ، الذين زُيِّنَ لهم سوءُ عملِهم فرأوْه حسَنًا، ولمّا كان أصلُ هذه الكلمة يدلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذَهابِه في غيرِ حقِّه[1] كانَ ذا نَسَبٍ ورَحِمٍ بقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾، وكأنَّ خلقَ (الضّلال) لهم لِما أنَّ قلوبَهم يَسهُلُ عليها الوقوعُ تحتَ طائلةِ التّزيينِ والغُرور، فلم تستحقَّ الهدايةَ ولم يُكتَبْ لها التّوفيقُ، ومن ثمَّ جاءت صيغةُ (الإفعال) للدّلالةِ على إيصالِ الضَّلال لهم نتيجةَ هوانِ اللّه تعالى في أعيُنِهم وغفلتِهم عن عداوةِ الغَرور لهم.

علّةُ التَّعبير بالهداية:

سبحانَ مَن يسَّر لنا طريقَ الوصولِ إليه!

عبَّر القرآنُ بـ(الهداية) في مقابل (الإضلالِ) في قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾؛ تأسيسًا على ذِكْرِ نعمةِ اللّه على النّاسِ في أوَّلِ السّورةِ، وأمرِهم بذِكْرِها، أي: شُكْرِها، معَ تقريرِ أنَّ اللّه هو خالقُهم ورازقُهم، ولا إله إلّا هو؛ ووجهُ ذلك أنَّ "الهداية: الدَّلالةُ بلُطْفٍ"[2]، ولا أدلَّ على اللُّطْفِ والتَّلطُّفِ مِنَ التَّوجيهِ إلى اللّه مِن طريقِ نعمِه ورحمتِه ورزقِه.

بلاغةُ الإسنادِ إلى لفظ الجلالة:

اللهُ هو خالقُ المسبَّبات والأسباب

أسندَ القرآنُ كلًّا مِنَ (الإضلالِ والهداية) إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾، وإسنادُهما إليه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضَلل).
(2) الراغب، المفردات: (هدي).

تعالى حقيقيٌّ؛ لأنَّه خالقُ أسبابِ الضَّلالِ والاهتداءِ وخالقِهما لكمالِ علمِه بمخلوقاتِه وأحوالِهم وما رُكِّبوا عليه وما يختارونَه من خيرٍ أوْ شرٍّ؛ وذلك مِن تصرُّفِه تعالى بالخَلْق؛ وهو سِرٌّ مِنَ الحِكْمة عظيمٌ، لا يُدْرَكُ غَوْرُه[1]، وإسنادُهما إليه في الظّاهرِ إبلاغٌ في تقريرِ خَلْقِه أسبابَهُما، وتحريكٌ للنَّفْسِ اليَقْظَى إلى فَهْمِ ذلك ليستقرَّ فيها؛ لحصولِها عليه بعدَ شيءٍ مِنَ التَّأمُّلِ والتَّفكُّر؛ فتتسلَّى ويخِفُّ حَيْرتُها وعجبُها مِن هؤلاءِ المُكذِّبينَ، ولتسكُنَ نفسُ النّبيِّ ﷺ من عدمِ تمكُّنِه هدايتَهم وإيصالَ الإيمانِ إلى قلوبِهم مُقرِّرًا له أنَّ فاعلَ ذلك هو اللّهُ تعالى.

دلالةُ الفعل المُضارع ﴿يُضِلُّ﴾، ﴿وَيَهۡدِي﴾:

تَـجَـدُّدُ خَـلْـقِ الأَسْـبـابِ دالٌّ عـلـى كـمـالِ الأُلوهيَّة

لَمّا كان إسنادُ الإضلالِ والهدايةِ إلى اللّه بواسطة خَلْقِه أسبابَهما مع خلقِهما في قلوبِ عبادِه على وفقِ علمِه العظيم بهم وبأحوالِهم، وكانَتْ هذه الأسبابُ متفاوتةً فكانت متجدِّدةً، دلالةً على أنَّه الفاعلُ القادرُ المختارُ؛ صوَّر القرآنُ ذلك بنَظْمِ كلٍّ منهما فعلًا مضارعًا في قوله الجليل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿مَن﴾:

مَن يُضِلُّه اللهُ ومَن يهديه اللهُ لا يَكادُ يَنْحَصِرُ!

كلمة: ﴿مَن﴾ اسمُ موصولٍ عامٌّ للعاقل؛ يصدقُ على المُذكَّرِ والمُؤنَّثِ والمُفْرَدِ والمُثَنَّى والجَمْع؛ وهي مفعولُ ﴿يُضِلُّ﴾، ومفعولُ ﴿وَيَهۡدِي﴾ في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾، والعمومُ الذي فيها يُشيرُ إلى عظَمةِ كلٍّ مِنَ الإضلالِ والهداية، وفخامتِهما؛ أي: عظَمَةِ خَلْقِهما وخلقِ أسبابِهما، وفخامته؛ وهذا يُصَوِّرُ جانبًا مِن حقيقةِ الألوهيَّة الحقَّةِ؛ مِن شأنِه أنْ يُقيمَ نبيَّنا محمّدًا ﷺ وأهلَ الإيمانِ في مقامِ التَّسْليم للّه في شأنِ هؤلاءِ، الذين زُيِّنَ لهم سوءُ عملِهم فرأوه حسَنًا؛ وعلى جهة التَّرقّي والكمالِ بالنِّسْبةِ لنبيِّنا ﷺ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 264.

مشيئةُ اللهِ تابعةٌ للعِلم المتعلّق بالأشياءِ على ما هيَ عليه

علّةُ التّعبيرِ بالمشيئةِ:

عبَّر القرآنُ عنَ الصّلة بالمشيئةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾؛ وهي منَ اللهِ الإيجادُ، وهيَ منهُ تقتضي وجودَ الشَّيْءِ؛ ولذلكَ قيلَ: ما شاءَ اللّهُ كانَ، وما لم يَشأْ لم يكُن؛ تناغيًا معَ ما تجرَّدَتْ له السّورةُ؛ مِن تعْريفِ العبادِ بالاختراعِ والخَلْقِ؛ وبذِكْرِ المشيئةِ الإلهيَّةِ تتلاشَى فكرةُ استبعادِ أنْ يوجَدَ مِنَ النّاسِ مَن زُيِّن له سوءُ عملِه، فرآه حسنًا، وإنَّما عبَّر عنِ المفعولِ بـ(الموصول والصِّلة)؛ للإشارةِ إلى أنَّ علّةَ الإضلال والهداية هي المشيئةُ التي لا يُحيطُ بها أحدٌ من خلقِهِ؛ لأنَّها تتعلّق بعلمٍ محيطٍ بمَن خلقَ وأحوالِ خلقِه، التي تستحقُّ الهدايةَ والإضلالَ.

صيغةُ اللَّفظةِ تدلُّ على شيءٍ يتعلَّقُ بمعناها

دلالةُ المضارعة في ﴿يَشَآءُ﴾:

نظَمَ القرآنُ معنَى (المشيئةِ) فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾؛ نظرًا إلى تَجدُّدِ مُقْتضَى المشيئةِ الإلهيَّة؛ مِن وجودِ الشَّيءِ، وتَكرارِه، واستمرارِه، وهذا يُعرِّفُ باللّه تعالى؛ في مواجهةِ التَّكذيبِ مِن أهلِ الكفرِ.

في هذا الحذفِ حَسْمُ الألوهيَّةِ وفَصْلُها، وتقريرُ مشيئتِها

سِرُّ حذفِ مفعول المشيئة:

حذَف القرآنُ مفعولَ فِعْلِ المشيئةِ في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾؛ معَ أنَّه مُتعدٍّ؛ والتَّقديرُ: فإنَّ اللّه يضلُّ مَن يشاءُ إضلالَه، ويهدي مَن يشاءُ هدايتَه؛ وقد دلَّ على المحذوفِ بقوَّةِ لفظُ الفِعْلِ؛ فمِن دواعي الحَذْفِ الإيجازُ، ومنها: الإشعارُ بنَفاذِ هذه المشيئةِ؛ ففيه تصويرُ تفرُّدِ القدرة الإلهيَّة وطَلاقَتِها وهيمنتِها وسلطانِها العالي؛ والحذفُ يساعدُ النَّفيَ في بناءِ النَّهي عليه، ووقوعِه موقِعَه مِن قلْبِ الرَّسولِ ﷺ[1]، ومنها: تحريكُ نفسِ المتلقّي لمزيدٍ مِنَ التَّفكيرِ في مضمونِ الجملتيْنِ المُتعاطفتيْنِ عن طريقِ تأويلِ

---

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1453.

الحذفِ، وفِقْهِ المحذوفِ وسِرِّه؛ فيتمكَّنُ المعنَى فيها؛ وذلك سبيلٌ لتحقُّقِ المقصودِ منه؛ وهو دَفْعُ استبعادِ وجودِ نموذجِ مَن زُيِّن له سوءُ عملِه فرآه حسنًا.

دلالة العطف في ﴿وَيَهۡدِى﴾:

الـهـدايـةُ كـالإضـلالِ؛ في الاطِّـلاعِ على الحِكْمةِ الإلهيَّةِ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۖ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على ما قبلَها؛ وهي جملة: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾؛ لِما بينَهما مِنَ التّوافق الخبريِّ لفظًا ومعنى، ولتقارُنِ الضّلال والهدايةِ في الخيال؛ والمسندُ إليه والمفعول واحدٌ، بقي أنَّ بين الهداية والإضلال طباقًا، غرضُه بيانُ قدرةِ اللّه العظيمةِ وإرادتِه المحيطةِ وعلمِه التامِّ بالأشياء، فليس على الدُّعاة إلّا التّسليمُ والرّضا بتلك المشيئة، وأنَّ واجبَهم الحقيقيَّ هو التّبليغُ ليس إلّا، فلا تَنزعجوا من عدمِ الهداية لبعضِهم، ولا تغترّوا بحصولِ الهداية على أيديكم؛ لأنَّ ذلك خلقُ اللّه وحدَه.

نكتةُ تقْديمِ الإضلال:

تسلية الرَّسول بـتـحـقُّق وقـوع مـشـيـئـة الـلـه تعالى

قدَّم القرآنُ الحكيمُ جملةَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ على جملة: ﴿وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لأنَّ القَصْدَ تسليةُ الرُّسولِ ﷺ، والتَّخْفيفُ مِنَ الحَيْرةِ والعَجَبِ والغَرابةِ التي تعتري النَّفْسَ مِن سَماع التّبليغ وعدم الاهتداءِ للحقِّ، كما يتطابقُ هذا التّقديمُ مع تقديمِ ذكرِ التّزيينِ للكافرينَ دونَ مَن لم يُزيَّن لهم.

معنَى (الفاء) في ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾:

ربـطُ الـنَّـهـي بجميع ما قبلَه أبلغُ

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ للتَّفريع والتّعقيبِ والتّسبُّب؛ أي: تفريع ما بعدَها على مجموعِ ما قبلَها، مِن قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لأنَّ تفريعَها على جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۖ﴾ تفريعٌ له على: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾؛ فالنَّفي ممهِّدٌ للنَّهي، والنَّهيُ مفرَّعٌ عليه؛ وهذا أتَمُّ في إقناعِ النَّفس بالنَّهي،

وامتلاكِه إيّاها، ودَفْعِ أيِّ شُبْهةٍ قد تردُ في الخاطِر حولَ استنفادِ الأسباب، فإنَّ مَن عرفَ أنَّ سببَ التّزيينِ هي المشيئةُ فإنَّه لا يحزنُ على ذلك الضَّلال، ولو قُدِّمَ النَّهيُ على النَّفيِ أوْ على جملةِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾ لَما كانَ كذلك[1]، ومآلُ المعنى على جعْلِ التَّفريعِ على جميعَ ما قبلَه مِنَ الآيةِ: أفتَتَحسَّرُ على مَن زُيِّنَ لهم سوءُ عمَلِهم، فرأوه حسَنًا، واختاروا لأنفسِهم طريقَ الضَّلال؛ فإنَّ اللّه أضلَّهُم باختيارِهم، وهو قد تصرَّفَ بمشيئتِهِ؛ فهو الذي أضلَّهم، وهدَى غيرَهم بمشيئتِهِ وإرادتِهِ التي شاءَ بها إيجادَ الموجودات، لا بأمرِهِ ورضاهُ الّذي دعا به النّاسَ إلى الرَّشاد؛ فلا تذهبْ نفسُكَ عليهم حَسَراتٍ[2].

غرضُ النَّهْيِ في ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ﴾:

الـرَّسـولُ ﷺ شديدُ التَّحسُّرِ عـلى ضـلالِ قومِه!

دخلتْ (لا) النّاهيةُ على الفعلِ المضارِعِ في قوله تعالَى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾؛ والنَّهْيُ موَجَّهٌ صَراحةً إلى رُسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ، والغرضُ مِنَ النَّهْيِ النُّصْحُ والإرشادُ، وتحقيرُ العُنْصُرِ البشريِّ المُتعلِّقِ بالنَّهْي؛ وهُمْ مَن زُيِّن لهُم سوءُ عملِهم، فرأوهُ حسَنًا، وإجلالُ المنهيِّ؛ وهو نبيُّنا محمّدٌ ﷺ، والغرضُ منَ النّهيِ أيضًا الإشفاقُ على النّبيّ ﷺ، وإنَّما عُبّرَ عنِ الإرشادِ والإشفاقِ بأسلوبِ النَّهي؛ لشدّةِ حرصِه ﷺ على هدايةِ قومِهِ الحرصَ الشَّديدَ، فصارَ النَّهيُ تكليفًا له بالتّبليغِ دونَ النّظرِ إلى النّتائجِ، الّتي هي من أخصِّ شؤونِ أفعالِ اللّه تعالى الخاصّةِ بعظمتِه.

فائدةُ التعبيرِ بـ ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ﴾:

نبيُّنا يُنْفِقُ كلَّ نفيسٍ؛ مِن أجلِ هدايةِ النّاسِ

عبَّر القرآنُ بـ(الذَّهاب) مضارعًا مجزومًا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾ وأرادَ به التَّلفَ والعدَمَ؛ على جهةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ إذ شبَّه فعلَ الإهلاكِ بالذَّهابِ بجامعِ الزَّوالِ

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1448.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 265.

في كلٍّ، ثمَّ حذفَ المشبّه؛ تجسيمًا للإهلاكِ وإخراجًا له مَخرجَ المحسوساتِ؛ لتتحقّقَ للنّاظرِ صورةُ التّلفِ الشّديدةُ والتّحسُّر الكبير، التي كانت تظهرُ على النّبيِّ ﷺ بشكلٍ واضح؛ وللإشعارِ بعظيم حِرْصِ نبيِّنا ﷺ على هدايتِهم ونجاتِهم؛ بذِكْرِ عملِه مِن دعوةِ أهل الكفر إلى الإيمانِ ذَهابًا وإيابًا؛ والذَّهابُ فيه معنَى الجلالِ والنَّفاسَة والفخامةِ؛ ومَن يُراجِعُ استعمالاتِ هذه المادَّة في كلامِ العَرَبِ يَفْهَمُ ذلكَ، وذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّ إسنادَ النَّهيِ إلى نفْسِه ﷺ قرينةٌ على هذهِ الاستعارة[1].

بلاغةُ توجيهِ النَّهْيِ إلى نَفْسِ نبيِّنا ﷺ:

نَـفْـسُ نـبـيِّـنـا ونَفْسُ المُزَيَّنِ لهُ شَتّانَ ما هُما

أسندَ القرآنُ الفعلَ المنهيَّ عنه إلى نَفْسِ رسولِ اللّه محمّدٍ ﷺ؛ على قراءةِ فتحِ التّاءِ ورفعِ السّينِ من: ﴿تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾، ووقع هذا الفعلُ على نفْسِه ﷺ؛ على قراءةِ ضمِّ التّاءِ ونصبِ السّين في: ﴿تُذْهِبْ نَفْسَكَ﴾[2]، ووراءَ توجيهِ النَّهْيِ إلى نفْسِه الشَّريفة لَفْتُ الرَّسولِ إلى حقارةِ هذهِ النَّفْسِ المُزَيَّنِ لها؛ ليُقلِّلَ مِن شديدِ حرصِه على هدايتِها، وإلى نفاسةِ نفسِه الشَّريفةِ ﷺ، واشتمالُ النَّفْسِ على الحَسَراتِ أبلغُ في تصويرِ جهدِه ﷺ في دعوتِهم إلى الحقِّ، وحرصِه على هدايتِهم مِن اشتمالِ القلبِ عليها؛ بأنْ يُقال: (فلا يذهب قلبك عليهم حسرات).

دلالةُ الإضافةِ في ﴿نَفْسُكَ﴾:

إنَّ نَـفـسًـا جِـدُّ حـريـصـةٍ على هـدايةِ الـنّـاسِ لـهـيَ أشــرفُ النُّفوسِ

في إضافةِ (النَّفْسِ) إلى ضميرِ رسولِ اللّه محمّدٍ ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ إفادةُ شَرَفِ نفْسِه ﷺ، وجلالِها وعظمتِها وفخامتِها، وفيه أيضًا تنبيهٌ قويٌّ لطيفٌ على الفَرْقِ بينَ نَفْسِ نبيِّنا ﷺ ونَفْسِ المُزيَّنِ له سوءُ عملِه؛ فقدِ انتزَع القرآنُ من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 265.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 351.

نفْسِه الشَّريفةِ نفْسًا أخرى؛ على طريقةِ التَّجْريدِ؛ فيَتقرَّرُ أنَّ المُبلِّغ نفْسانِ لا واحدةٌ؛ وفيه "فائدةُ توزيع النّهي والخطاب على شيئَينِ في ظاهر الأمر، فهو تكريرُ الخطاب والنَّهي لكليهما ... وفائدةُ التّكريرِ الموجَب تقريرُ الجملة في النَّفس"[1].

دلالةُ التَّعْبير بحرف الجرّ (على):

نبيُّنا محمّدٌ أرْحَمُ الخَلْقِ بالخَلْقِ

عبّر النّظمُ القرآنيُّ بحرف الجر (على) في قوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾: وهو متعلِّقٌ بالفِعْلِ ﴿تَذۡهَبۡ﴾؛ كما تقولُ: هلكَ عليه حُبًّا، وماتَ عليه حزنًا، ويجوزُ أنْ يتعلَّق بـ: ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾؛ لأنَّ المصدر وإن كانت لا تتقدَّم عليه صلتُه لكن تُسومِحَ في ذلك بالظّرف والمجرور[2]، وعبَّر به إشارةً إلى عظيم إقبالِه ﷺ على النّاسِ من أهل الكفرِ خُصوصًا؛ فهو مُتتبِّعٌ لأحوالهم، محيطٌ بهم، يُحاوِلُ أنْ يَتطَلَّعَ على نفسيّاتِهم؛ حتَّى يُعالِجَها؛ لِتَقْبَلَ هُدَى اللّه، وفي جوازِ تعلُّقِ (الحرف) بالمتقدِّم عليه والمتأخِّرِ إشارةٌ إلى أنَّ إذهابَ النّفس والتّحسُّر متعلّقانِ بالقوم، وأنَّ شدّة التّحسُّر توصلُ إلى الإهلاك، وكأنَّ الحرف مرتبطٌ بهما معًا لرسم صورةِ الإشفاق الشَّديدة.

نكتةُ تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

ما تحسَّر عليهم إلّا لَمّا كانوا في محلِّ عنايتِه واهتمامِه

بناءً على تعلُّق الجارِّ والمجرور بـ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾ دون ﴿تَذۡهَبۡ﴾ فقد تقدَّمَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على متعلَّقِه في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾؛ تخصيصًا؛ وتنبيهًا على أنَّ المُحدَّثَ عنهم يكونُ منهم ما يتسبَّبُ في حدوثِ الحَسَراتِ من نبيِّنا ﷺ؛ فهم محلُّ نظَرِ نبيِّهم وشُغلِه وهَمِّه؛ وهذا تصويرٌ لواقعِ موقفِ نبيِّهم منهم، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ القبائحَ التي تكونُ منهم تُحقِّرُهم؛ فيكونُ من شأنِها أنْ تتسبَّبَ في تخفيفِ حسراتِه ﷺ وتقليلِها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 265 - 266.

(2) محي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 12/ 265.

علَّةُ التَّعبير بلفظ ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾:

كلُّ غمِّه ﷺ؛ مِن أجلِ هدايةِ النّاسِ!

تُعرَبُ ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ مفعولًا لأجلِه؛ والمعنى: فلا تُهلِكْ نفسَك لأجلِ الحسَرات، فيفيدُ التّعليلَ للنّهي، وتكونُ الحسراتُ باعثةً للتّلف وليستْ غايةً للفاعلِ؛ كقولهم: (قعدتُ عنِ الحرب جُبْنًا)، ويؤولُ المعنى إلى النّهي عنِ التّحسّر عليهم، لكنَّه إنَّما نهى عنِ الفعل المعلَّل بالتحسُّر إشارةً إلى أنَّ التّحسُّرَ يؤدّي إلى الإتلافِ والإهلاك، والحَسَراتُ جمعُ (حَسْرة) مصدرًا؛ وإنَّما عبَّر تعالى بها؛ تصويرًا لحالِ نبيِّنا ﷺ معَ النّاسِ، الذين يدعوهم إلى دينِ اللّه تعالى؛ وما يكونُ عليه مِنَ الغَمِّ على ما فاتَه مِن اهتداءِ هؤلاءِ الّذين زُيِّن لهم سوءُ عملهم فرأوه حسَنًا، والنَّدم عليه؛ كأنَّه انحسَر عنه ما حمَلَه على ما ارتكبَه، أوِ انحسَر قواه مِن فَرْطِ غَمٍّ، أوْ أدركَه إعياءٌ عن تداركِ ما فرَطَ منه[1]، وكأنَّ النّبيَّ ﷺ اعتراهُ وألَمَّ به حَسرةٌ؛ مِن أجلِ التَّزْيين المذكورِ، ونتيجتِه السَّيِّئة.

نُكتةُ إيرادِ الجَمْعِ جمعَ قِلّةٍ في ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾:

فـي الجمـع تعظيمٌ لدعوة رسولِ الله ﷺ النّاسَ

عبّر النّظمُ بالجمعِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾؛ للدَّلالة على تضاعُفِ اغتمامه ﵊ على أحوالِهم، أوْ على كثرةِ قبائحِ أعمالِهم الموجِبةِ للتَّأسُّفِ والتَّحسُّر، أوْ قصدًا إلى التَّنبيه على إرادة أفرادٍ كثيرةٍ مِن جنس الحسْرة؛ لأنَّ تلفَ النَّفْس يكون عندَ تعاقُبِ الحسَرات الواحدةِ تلوَ الأُخرى؛ لدوام المُتحسَّرِ منه؛ فكلُّ تحسُّرٍ يترك حزازةً وكمدًا في النَّفْس حتَّى يبلُغ إلى الحدِّ الذي لا تُطيقُه النَّفْسُ؛ فينفطرُ له القلبُ[2]، ولعلَّ التّعبيرَ بالقلّة إشارةٌ إلى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 170، والراغب، المفردات: (حسر).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 206، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 170، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 266.

أنَّ أدنى التّحسُّر لا يليقُ بهم، لأنَّهم مارسوا الضَّلال بشتى صورِه وأنواعِه، وفي الجملةِ بأكملِها كنايةٌ عن شفقةِ اللّه تعالى ورحمتِه بحبيبِه ﷺ أنْ لا يتحسّرَ على مآلِ الكافرين؛ لأنّ المحِبَّ يطلبُ من حبيبه أنْ يشعُرَ بالسَّعادةِ والرّاحةِ، وأنْ لا يغتمّ لمصيرِهم.

التَّوْجيهُ البلاغيُّ للقراءتَين في: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾:

القــراءتــانِ تَـتَـعـاضـدانِ في إبرازِ غايةِ شَرَفِ نَفْسِ نبيِّنا ﷺ

قرأ أبو جعفر: ﴿فَلَا تُذۡهِبۡ نَفۡسَكَ﴾ بضمِّ التّاءِ وكَسْرِ الهاءِ، والفعلُ المنهيُّ فيها مِن (أذْهَبَ)، والمعنى على أنَّه نهيٌ للرَّسولِ أنْ يُذْهِبَ نفسَه، وقرأ الباقونَ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾ بفتحِ التّاءِ والهاءِ؛ وهي مِن (ذهَبَ)، والمعنى على أنَّه نهيٌ لنفسِه؛ وهو كنايةٌ ظاهرةٌ عن نهيِه[1]، وتعدُّدُ القراءةِ داعٍ لزيادةِ التَّأمُّلِ في المعنى، فتَهتدي النّفسُ إلى المقصود، وهذا كلُّه تثبيتٌ لقلبِ رسولِ اللّه ﷺ، وتسليةٌ له، ومِن ورائه مَنْ يقتدي به؛ لأنَّ حالته هذه "حالةٌ يُعانيها الدُّعاة كُلَّما أخلصوا في دعوتِهم، وأدركوا قيمتها وجمالَها وما فيها مِنَ الخير، ورأَوُا النّاسَ في الوقتِ ذاتِه يَصُدّون عنها، ويُعرِضون"[2]، ويستفادُ من نَهْيِ النَّفس أنَّها محلُّ الإدراكِ، فخاطبَ النّفسَ ناهيًا لها عنِ التّحسُّرِ والإيلام.

سِرُّ فَصْلِ تذييل الآية:

يا حِلْمَ اللهِ على صنيعِ هؤلاءِ المُزَيَّنِ لهم، المُكذِّبينَ لنبيِّهم!

فُصِلتْ جملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ عمّا قبلَها؛ لاختلافهما خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنًى، ولأنَّها نتاجُ ما قبلها؛ فمَن كانَ بيدِه إضلالُ العبادِ وهدايتُهم - على جهةِ خَلْقِ أسبابِ ذلكَ - ؛ كانَ عليمًا بما يَصنعونَ لا محالةَ، وكانَ مُجازيَهُم على ما يكونُ منهم في الدُّنيا مِن أعمالٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ واقعًا

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 352، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 462 - 463، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 1458.
(2) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1458.

في جوابِ مَن سأَل عمّا يفعلُ اللّه بهؤلاءِ الذين زُيِّن لهم سوءُ عملهم فرأوه حسنًا؛ فإنّهم يُؤذون أولياءَ اللّه، ويشتدُّ أذاهُم[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ جوابًا عن سُؤالٍ مُتعلّقٍ بخلقِ الضَّلالةِ والهِداية، فأجابَ بأنّه يختارُ لهمُ الضّلالةَ والهدايةَ؛ لأنَّه عليمٌ بالَّذي يَصنعونَهُ عندَ سَماعِ الآياتِ والمَواعظِ النّبويَّة، ويحتملُ أنْ يكون جوابًا عن سؤالٍ يتعلّقُ بالنَّهي عنِ التّحسُّر على مصيرِهم ومآلِهم، بأنَّ اللّه عليمٌ بالّذي يصنعونَهُ من مَكرٍ وإيذاءٍ، فلا يَنبغي أنْ تُشفِقَ عليهم.

داعي التَّوكيدِ في تذييل الآية:

تأكيدُ الخبرِ يُراعي أكثرَ من جهةٍ

أكَّد القرآنُ مضمونَ جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ معَ (اسْميَّةِ الجملةِ)؛ تنبيهًا على خطَرِ مَقامِ المُجازاةِ على قَبولِ التَّزْيين، وأثَرِه السَّيِّءِ؛ مِن رؤيةِ الحَسَنِ قبيحًا، والقَبيحِ حَسَنًا، وعلى صعوبةِ مَقامِ مواجهةِ التَّزْيين؛ قَبولًا ورفضًا؛ فمَن لم يُثبِّتْ نفسَه بغايةِ جهدِه زَلَّ لطولِ إملائِه تعالى لهم، وحِلْمِه عليهم، وفي توكيدِه تمثيلٌ لحالِ رسولِ اللّه ﷺ بحالِ مَن أغفلَهُ التَّحسُّرُ عليهم عنِ التَّأمُّل في إمهالِ اللّهِ إيّاهُم[2]، ومَن زُيِّن له سوءُ عمله فرآهُ حَسَنًا مِن شأنه أنْ يكونَ لسانُ حالِه مُنْكِرًا لمضمونِ الجملةِ، فأُكِّدَ له؛ لِلَفتِه إلى وقوعِه على جهةِ التَّوكيدِ والتَّحقيقِ.

سِرُّ إظهارِ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾:

هـذا الإظـهـارُ يُشْبِه الالتفاتَ في فائدتِه العامَّةِ

عبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾؛ على جهة الإظهار في موضع الإضمار؛ لسبقِه بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾؛ لإفادةِ كمالِ التَّرهيبِ مِنَ الجَزاءِ المُترتِّبِ على علْمِه تعالى بصنيعِهم، وكمالِ تسليتِه ﷺ، وحسَّنَ هذا الإظهارَ انتقالُ الحديثِ مِن كونِه عنِ اللّه تعالى في جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 206.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 206.

مَن يَشَآءُ﴾ إلى الحديثِ عن نبيِّه ﷺ في جملة: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ ثم جاءَ الحديثُ عنه تعالى في آخِرِ جملةٍ في الآيةِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ﴿عَلِيمُۢ﴾:

ما أضعفَ التَّزْيِينَ والمُزيِّنَ والمُزَيَّنَ له!

عبَّر القرآنُ بصفة العِلْم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ اللّهَ تعالى لا يخفَى عليه شيءٌ يَتعلَّقُ بالمُزَيَّنِ لهم سوءُ عَمَلِهم، فيَرَوْنَه حَسَنًا، وبالمُزَيِّنِ لهم ذلكَ؛ فإنَّهم جميعًا يسلكونَ مَسالكَ الخِداعِ والكذبِ، وما جرى في هذا الطّريق مِنَ المعنَى؛ ففي الإخبارِ بعِلْمِه تعالى ترهيبُهُم، أو إشارةً إلى أنَّ إضلالَهُ مَن يشاءُ وهدايتَه مَن يشاءُ جارٍ على كمالِ علمِه بالَّذي يَصنعونه، فلم يكُن في إضلالِه وهدايتِه إلّا عادِلًا حَكيمًا.

دلالةُ صيغةِ المُبالغة في ﴿عَلِيمُۢ﴾:

علمُه تعالى هو العلمُ الشّامل

نظَم القرآنُ صفةَ العِلْم على صيغةِ (فعيل) في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، وهي مِن صيغِ المبالغةِ؛ للدّلالةِ على أنَّه تعالى يعلمُ ما في أنفسهم، وما يصنعون ممّا يخفَى على المخلوقينَ؛ فيقوَى إفادةُ وعيدِهم وترهيبِهم، وتقوَى التّسليةُ للنّبيِّ ﷺ وللمُؤمنين.

معنَى (الباء) ودلالةُ التّعبيرِ بها في ﴿بِمَا﴾:

ليس كمِثلِ علمِه تعالى بأحوالِ العبادِ علمٌ

(الباءُ) حرفٌ لا يخلو مِن معنى الإلصاقِ عند المُحقِّقينَ مِنَ العلماءِ؛ فتفيدُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ شِدَّةَ علمِه تعالى بصنيعِ هؤلاءِ المُزيَّنِ لهم، وكمالَ هذا العِلْمِ؛ فيكونُ الوعيدُ أعظمَ، والتَّهديدُ أقوَى، والتَّرهيبُ أشدَّ، والتَّسليةُ أزيدَ.

معنَى (ما) وعلّةُ التَّعبيرِ بها:

علمُ الله مُحيطٌ بهم وبأعمالِهم ومَصنوعاتهم

كلمةُ (ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ مصدريَّةً، والمعنى: واللّه عليم بصُنْعِهم؛ وعليه يكونُ في التَّعبيرِ إبلاغٌ في تقريرِ علمِه تعالى بأعمالهم الصّادرةِ منهم، وأنْ تكونَ موصولةً؛

والمعنى: واللّه عليم بالّذي يصنعونَه من أشياءَ ومصنوعاتٍ؛ وعليهِ يكونُ التَّعبيرُ ناظرًا إلى عِلْمِ اللّه تعالى بهم؛ ذاتًا وصفاتٍ، وأنَّ ما يَصْنعونه؛ وهم يُخْفونه عن غيرِهم مِنَ الخَلْقِ معلومٌ للّه تعالى؛ ففي الموصوليَّةِ تحقيقُ مضمونِ الجملةِ؛ مِنَ الحُكْمِ بعلْمِ اللّه بما يصنعونَ، والإبهامُ في (ما) تصويرٌ لخفيِّ أعمالِهم التي يُؤْذونَ بها نبيَّهُم وأهلَ الإيمانِ، ومَدُّ الألفِ فيها تصويرٌ لكثرةِ هذا الأذَى.

علّةُ التّعبيرِ بالصُّنْعِ في ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾:

أفعالُهم ضدَّ الإسلام والنّبيِّ تحوّلَ لصناعةٍ ماهِرة

لَمّا كانَ التَّعبيرُ بالتَّزْيين يوحي بتعمُّد هذا الصِّنْفِ المُزَيَّنِ له، واعتمادِه على الحيَلِ وطُرُق الخداعِ وأساليبِ الأوهام حتّى صار ذلك سجيَّةً فيهم، وظَنّوا أنّهم يُجيدون ويُتقنون ما يفعلونَ عبَّر القرآنُ بالصُّنع؛ لأنَّ الصُّنْعَ إجادةُ الفِعْلِ؛ قال البقاعيُّ: "﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي: مِمّا مُرِّنوا عليه، وانطبعوا فيه مِن ذلك، حتى صار لهم خُلُقًا، يبعُد كلَّ البعد انفكاكُهم عنه"[1]، وفي التّعبير به أيضًا إشارةٌ إلى أنَّهم يُدبِّرون مكائدَ للنّبيِّ ﷺ وللمسلمين؛ فيكونُ هذا الكلامُ إيذانًا بوجود باعثٍ آخَرَ على النَّهْيِ عنِ الحَسْرة عليهم[2].

دلالةُ المضارعة في ﴿يَصْنَعُونَ﴾:

المُزَيَّنُ لهم يجتهدون في فِعْلِ الشَّرِّ

نظَم القرآنُ معنَى الصُّنْعِ فعلًا مضارعًا، فقال: ﴿عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾؛ دلالةً على تَكْرارِ أفعالِهم، واستمرارِها، وكثرتِها؛ حتَّى صارَ لهم صنعُ الشَّرِّ الذي هو نتيجةُ التَّزْيينِ خُلُقًا، ودَيْدَنًا لهُم؛ فالمُضارَعةُ تُصَوِّرُ حركيَّةَ أفعالِهم، وانفعالَهُم بالتَّزْيين، وشِدَّةَ تأثيرِ التَّزْيينِ فيهِم، بقي أنَّ الجملةَ بتمامِها كنايةٌ عن معنيَيْنِ مُتضادّين باعتبارِ المُخاطَب؛ فبالنِّسبةِ للنّبيِّ ﷺ تطمينٌ له ودفعٌ للحسَرات على مَصيرهم، وبالنِّسبة للمزيَّنِ لهم الوعيدُ والتّخويفُ من مآلهم السّيِّءِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 206.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 267.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾ [فاطر: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّهيئةُ لفِقْهِ الدَّليلِ إحسانٌ جليلٌ

لمّا نبَّه تعالى في السِّباقِ على البعثِ وما وراءَه بقولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾، وكانَ في التَّزْيينِ تعطيلٌ عن إدراكِ الحُجَّةِ والبُرْهانِ على البعثِ فعُرِضَ في صورةِ الاستفهامِ لطَرْحِه؛ تهيأةً للتَّفكُّرِ في الدَّليلِ الكونيِّ المُسْتوجِبِ الإيمانَ بالبعثِ وغيرِه، والذي يكونُ حُجَّةً على مَن ضَلَّ، واتَّبَع الشّيطانَ، وصارَ من حِزْبِه؛ جاءَ بهذا الدَّليلِ في هذه الآيةِ، كما دلّتِ الآيةُ على أنَّ الإضلالَ والهدايةَ فعلُ اللهِ تعالى الَّذي يُرسِلُ الآياتِ، فتنزلُ على القلوبِ الميتةِ، فتَهْتدي بها وتحيى، فيكونُ دليلًا على النُّشورِ والهدايةِ والإضلالِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرۡسَلَ﴾ (رسل) أصلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، يَدُلُّ عَلَى الانْبِعاثِ والامْتِدادِ، فالرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ، وناقَةٌ رَسْلَةٌ: لا تُكَلِّفُكَ سياقًا[1]، والإرْسالُ يُقالُ في الإنسانِ، وفي الأشياءِ المحبوبةِ والمكروهةِ، وقد يكونُ ذلك بالتَّسخيرِ، كإرسالِ الرّيحِ والمطرِ، وقد يكون ببعثِ مَن له اختيارٌ، نحو إرْسالِ الرّسلِ، وقد يكون ذلك بالتَّخليةِ، وتركِ المَنعِ، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ [مريم: 83][2]، والمقصودُ بإرسالِ الرّياحِ في الآيةِ: الإجراءُ والإطلاقُ والإسالةُ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (رسل).

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/ 412.

2) ﴿فَتُثِيرُ﴾: (ثور) أصلٌ يدلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ وانتشاره[1]، يُقال: ثارَ الغبارُ والسَّحابُ ونحوُهما، يَثور ثَوْرًا وثَوَرانا: انتشرَ ساطِعًا، وقد أَثَرْتُهُ[2]، وثَرَّيْتُ التُّرْبَةَ، أَي بَلَّلْتها، ويُقال: التقى الثّريان، وذلكَ أَنْ يَجيءَ المَطَرُ فيرشَحُ في الأَرضِ حتَّى يلتقيَ هو ونَدى الأَرضِ، وأرضٌ ثَرْيا، أَي ذاتُ نَدًى[3]، ويُقال: أثارَ الثَّورُ التُّرابَ؛ إذا بَحثَهُ بقوائمِهِ[4]، وكذلك أَثَرْتُ الأرض، والإثارةُ في الآية معناها: تَحريكُ القارِّ تحريكًا يضطربُ به عن مَوضِعِه[5].

3) ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾: أصلُ (سوق) واحدٌ، وهو حَدْوُ الشَّيءِ[6]، يُقالُ: ساقَهُ يَسوقُه سَوْقًا، والسَّوْقُ: إزجاءُ الماشي مِن ورائه، وضِدُّهُ القَوْدُ، والسَّوْقُ مُشْعِرٌ بالإزْعاج والإهانة[7]، والسّوْقُ: معروفةٌ؛ وسُمّيَتْ بذلك؛ لأنَّ الأشْياءَ تُساقُ إليها ومنها، وتُذَكَّرُ وتُؤنَّثُ[8]، السَّيِّقُ مِنَ السَّحابِ ما طَرَدَتْهُ الرّيحُ، كانَ فيهِ ماءٌ أو لَمْ يَكُنْ، وفي الصِّحاح: الَّذي تَسوقه الرّيحُ ولَيْسَ فيهِ ماءٌ[9]، فالسَّوْقُ في الآية معناه: توجيهُ الشّيءِ وتَسييرُهُ بقَصْدٍ.

4) ﴿بَلَدٍ﴾: أصل (بَلَدٌ) الصَّدْرُ، يُقالُ تبلَّدَ الرَّجُلُ؛ إذا وضعَ يدهُ على صدره عند تحيُّرِهِ في الأَمْرِ، والبلدةُ: النَّجْمُ، يقولونَ هو بَلْدةُ الأَسدِ، أي: صدرُه، والبَلَدُ صدرُ القُرى[10]، والبَلَدُ أيضًا: كلُّ موضعٍ مُتحيِّزٍ منَ الأرض، عامِرٍ أَوْ غيرِ عامرٍ، خالٍ أَوْ مَسكون، والطّائفةُ منه بَلْدةٌ، والجميعُ البِلاد[11]، ومعناه هنا: جانِبٌ مِن مُتَّسَعٍ مِن أَرضٍ؛ عامرةً كانت كما هو الشّائعُ أَمْ غامرةً[12]، والمُرادُ به في المقام الأوَّلِ مكَّةُ؛ حماها اللّه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ثور).
(2) الراغب، المفردات: (ثور).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثور).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ثور).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 121.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوق).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 241، و24/ 69.
(8) ابن عباد، المحيط في اللغة: (سوق).
(9) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سوق).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلد).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بلد).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 346.

5) ﴿مَّيِّتٖ﴾: (موت) أصلٌ يدلُّ على ذَهابِ القوَّةِ مِنَ الشَّيءِ[1]، والمَيْتُ: بتَخْفيفِ الياءِ وتَشْديدِها: هو الَّذي فارَقَ الحَياةَ، ويَسْتَوي فيه الذَّكَرُ والأُنْثَى، يُقالُ: ماتَ يَموتُ مَوْتًا، فهو مَيِّتٌ، وجَمعُه: أمواتٌ ومَوْتَى، ومَيِّتون، ومَيْتون، ويُطلَق أيضًا على مَن في حُكْمِ المَيِّتِ وليس بِه[2]، والبلدُ المَيِّتُ في الآيةِ مُرادٌ بِه: أرضٌ لا زرعَ فيها، وهي في المقامِ الأوَّلِ مكَّةُ؛ شرَّفَها اللّه تعالى.

6) ﴿فَأَحۡيَيۡنَا﴾: (حيّ) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ المَوتِ[3]، والحَيُّ مِنْ كُلِّ شَيءٍ: نَقيضُ المَيِّتِ، وحَيَّ يَحْيا، فهو حَيٌّ، ومِنه الحَيَوانُ، وهو كُلُّ ذي روحٍ، ناطِقًا كان أو غَيرَ ناطِقٍ، والحيُّ مِنَ النَّباتِ: ما كانَ طَرِيًّا يَهتزُّ، وأرضٌ حَيَّةٌ، أيْ: مُخصِبَةٌ[4]، والمرادُ بالإحياءِ في الآيةِ: تصرُّفٌ في المعدومِ بإيجادِه ثُمَّ إعطائِه الحياةَ، وهو مُستعارٌ لِما يُشبِهُ إحياءَ المَيِّتِ[5].

7) ﴿ٱلنُّشُورُ﴾: (نشر) أصلٌ يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه، ومنه نَشَرْتُ الكتابَ؛ خِلافَ طويتُه، ونشرَ اللّه الموتى فنَشَروا، وأَنشَرَ اللّهُ المَوْتَى أَيْضًا[6]، والنَّشْرُ: الكَلَأُ اليابسُ؛ إذا أصابَهُ مطرٌ فيُنْشَرُ، أي: يَحْيا[7]، والنُّشور: الحَياةُ بَعْدَ المَوْتِ، يُقال: نشرَ اللّه الميّتَ وأنشرَهُ، أي: أحياه[8]، فالنُّشورُ معناه هنا: الإحياءُ والبعثُ بعدَ الموتِ، من نَشْرِ الشَّيءِ المَطويِّ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ الحقُّ سبحانه بعضَ مَظاهرِ قُدرتِه ورَحمتِه، مُستدِلًّا على المَعادِ بإحيائِه الأرضَ بعدَ موتِها، فيقولُ: واللّهُ الَّذي أرسَلَ الرِّياحَ بقُدرتِه، فتُثيرُ سَحابًا، فسُقْناه إلى بلدٍ لا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موت).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (موت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيَّ).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حيي).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 12.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(7) الراغب، المفردات: (نشر).
(8) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (نشر).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 322.

نباتَ فيه، فأخصَبْنا تلك الأرضَ المُجْدِبةَ، وأنبَتْنا فيها الزَّرعَ بعدَ يَبَسِها؛ فكما أحيا اللهُ الأرضَ المَيْتةَ يُحيي الأمواتَ بعدَ فَنائِهم، فيُخرِجُهم مِن قُبورِهم أحياءً[1]، وكما يُحيي الأرضَ بعدَ موتِها يُحيي القلوبَ المُظلمةَ، فيَهديها بقُدرته وحدَه إلى الإيمانِ فلا تذهَبْ نفسُك عليهم حسَراتٍ.

قَبولُ الأرضِ المَيِّتةِ الحياةَ اللّائقةَ بها دليلُ النُّشورِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ (الواو) في مطلع الآية:

إثباتُ البعثِ مِن أهمِّ مقاصدِ القرآنِ

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على جملة: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾؛ مِن عطفِ الدّليلِ على المُسْتَدَلِّ عليه المبنيِّ على النَّظرِ؛ وهو الإخراجُ مِنَ العدَمِ؛ وهما متَّفقانِ خبرًا؛ لفظًا ومعنًى؛ واللّهُ هو الَّذي أرسلَ الرّياح في هذه الآيةِ، وهو الذي وعْدُه حقٌّ في المعطوفِ عليه؛ فلهذا جاءَتِ الواوُ، ويحتملُ أنْ يكونَ معطوفًا على جملة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۖ﴾ وهما متّفقتانِ خبرًا لفظًا ومعنىً، والغرضُ إثباتُ قدرتِه على الإضلال والهداية بتمثيلٍ عجيبٍ يكونُ فيه إحياءٌ للأرضِ الميّتة كالقلوبِ المظلمة، مع إثباتٍ للنُّشورِ الّذي تُنكِرُه تلك القلوبُ المزيّنُ لها سوءُ عملِها.

بلاغةُ موقعِ الآيةِ في السياق:

في تأخيرِ الدّليلِ إحسانٌ إليه وإلى المُتلقّيهِ جميعًا

جَرَى ذِكْرُ المُسْتَدَلِّ عليه والدَّليلِ؛ المُتعاطفَيْن بالواوِ في نَظْم السّورةِ على الأصلِ؛ فالمُستدَلُّ عليه سابقٌ في الذِّكرِ على الدَّليلِ؛ ولكنَّ الظّاهرَ أنْ يَقترِنا، لكنَّ القرآنَ فصَلَ بينهما بالمَعْقِدِ الأوَّلِ مِنَ السّورةِ [مِن الآية: 4 إلى الآية: 8]؛ لأنَّ فيه الحياةَ الدّنيا التي تَغُرُّ، والشّيطانَ وعداوتَه وحزبَه وتزيينَهُم جميعًا، وكلُّ ذلك مِمّا يَصْرِف الكافرين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 335، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 327، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 685.

عنِ الإيمان بهذا الوعد وهو النُّشور، فقدَّمه النَّظْمُ الحكيمُ؛ ليُشير إلى هذا؛ ليتنبّهوا إليه فيهتدوا؛ ذلك إذا تنبَّهوا وأنصفوا أنفسَهُم، وهذا إحسانٌ مِنَ اللّه إليهم؛ يَستوجِبُ الإيمانَ به؛ كمظهَرٍ مِن مَظاهِرِ حَمْدِه وشُكْرِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: 1]، ثم جاءَ الدَّليلُ؛ وقد تهيَّأوا لتلقّيه؛ فيكونُ أفْعَلَ في نفوسِهم[1].

علّةُ اصطفاءِ دليلِ الرّياح:

هــذا تـعـليـلٌ لمجموعِ الدَّليلِ، أي هو إجماليٌّ

اختارَ القرآنُ الحكيمُ مِن دلائل الوَحدانيَّة دلالةً تجمعُ أسبابَ المطرِ فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾؛ ليُفْضيَ مِن ذلك إلى تنظيرِ إحياءِ الأمواتِ بعدَ أحوالِ الفناءِ بآثارِ ذلك الصُّنْعِ العجيب، وأنَّ الّذي خلَق وسائلَ إحياءِ الأرضِ قادرٌ على خَلْقِ وسائلَ لإحياءِ الّذين ضَمِنَتْهم الأرضُ؛ على سبيل الإدماج[2]، وأنَّ الَّذي يرسلُ الرّياحَ يُرسِلُ الأنبياءَ، ويبشِّرون بالدّعوة وينذرونَ النّاس لقاءَ يوم البعث والنُّشور، حتى تصلَ تلك الدّعوةُ إلى القلوب الميِّتة فتَحيى بإذن اللّه وحدَه، كذلك النُّشور؛ إذِ الإنباتُ نشورٌ وإحياءُ القلوبِ بعثٌ وحياة.

علّةُ التّعبير باسْمِ الجلالةِ:

معرفةُ اللهِ هيَ مقصَدُ المقاصدِ

عبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ لأنَّ المقامَ لإثباتِ البعثِ وما يَتْبَعُه، وإنكارُ أهلِ الكفرِ للبعثِ إنَّما هو عندَهُم صورةٌ لرفضِ التَّوحيدِ والإيمانِ والنُّبوَّة؛ فكانَ المقصدُ الأعظمُ مِن إثباتِه إثباتَ ما يُنكرونَهُ للإلهِ الحقِّ؛ واللّائقُ بذلك الاسْمُ الجامعُ للأسماءِ والصِّفاتِ كلِّها، المستلزِمُ جميعَ معانيها، والمعنى: أنَّ الَّذي أرسلَ الرّياح هو اللّهُ الَّذي له كلُّ كمالٍ، ويَستحيلُ عليه كلُّ نقصانٍ، لا شيءٌ غيرُه مِنَ الطَّبيعةِ ولا

---

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1459.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 267.

غيرِها[1]، كما أنَّ مَدار مُنكري النُّشور من عبدةِ الأوثان يتأسّسُ على أنَّ اللّه خالقُ السَّماواتِ والأرض، لكنَّه لا يفعلُ الإحياءَ بعد الموتِ إمّا لصُعوبته عليه وإمّا لأنّه غيرُ مريدٍ لذلك، كما يستحيلُ في عقولِهم الضّعيفةِ عودةُ الرَّميم للحياةِ مجدّدًا، فذكرَ لهم الاسمَ العلَم الَّذي يعرفونَه ويعبدونَ الأوثان التي تقرّبُهم إليه؛ فكيفَ يجمعونَ بينَ معرفتِه خالقًا لكلِّ شيء، ويشركون به آلهةً أُخرى ثمَّ يُحيلونَ قدرتَه على ذلك الإحياء! وكيفَ لا يُصدِّقونَ بإرادته ذلك بعدَما أنبأَهم بها وحيًا.

بلاغةُ التَّصْديرِ باسْمِ الجلالةِ مُظْهَرًا:

السّــورةُ بُنيتْ عــلى هــذا التَّصْديرِ

اسْمُ الجلالة في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ مبتدأٌ، خبرُهُ الاسْمُ الموصولُ؛ وإنَّما صُدِّرَت الآيةُ به؛ لأنَّه أصلُ المُستدَلِّ عليه؛ مِنَ البعثِ وغيرِه؛ ففي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ ما بعدَه من شأنِه أنْ يُعرِّفَ بهِ تعالى؛ لا سيَّما أنَّ الدّليلَ ممّا يُعاينونه[2]، ولو قيل: (وهو الذي أرسل الرياح) ما لاءَمَ الاحتفالَ بالدَّليلِ والتَّهيئةِ لهُ، وكانَ في الاستدلالِ نوعُ ضعفٍ؛ وإنّما الملائمُ لذلك والأبلغُ في الاستدلالِ صريحُ اسْمِ الجلالةِ؛ على أنَّ اختلافَ السّياقِ الجزئيِّ يُحسِّنُ التَّصريحَ به.

علّةُ التّعبيرِ بالموصول:

لا ينزلُ المطرُ ولا تجري الرّياحُ إلّا بأمرِ الله وحدَه

جعَل القرآنُ خبرَ اسم الجلالة اسمًا موصولًا في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ لفتًا إلى عظمةِ الدّليلِ وشرَفِه وفخامته وقوَّته؛ مِن جهةِ تمكُّنِ المُخاطَبينَ المقصودينَ به منهُ؛ وإنْ كانَ ممّا يُعاينُه كلُّ النّاسِ؛ لأنَّ الأصلَ أنْ تكونَ صلةُ الموصولِ معلومةً للمُتلقّينَ، ونلحظُ في الإسنادِ تعريفَ الطَّرفينِ لإفادةِ الحصر، ردًّا على مَن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 207.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 440.

يزعُمُ أنَّ إرسالَ الرّياح ونزولَ المطر يحدثُ بقضيّةٍ طبيعيَّةٍ، لا تفتقرُ إلى السّبب التّامِّ الموجِدِ لها.

علّةُ التّعبيرِ بالإرسال:

لو عُبِّر بغيرِ الإرسالِ ضاعَ المعنى البيانيُّ الذي يكونُ معَه رونقُ البلاغةِ

عبَّر القرآنُ بـ(الإرسالِ) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ تنبيهًا على الامتنانِ المُدمَج مع الاستدلالِ؛ فهو إرسالُ رحمةٍ؛ يجلبُ الخيرَ للنّاسِ جميعًا وغيرِهم مِنَ الحيواناتِ والدَّوابِّ؛ فإنَّ الرَّسَلَ انبعاثٌ فيه تُؤَدَةٌ وسُهولةٌ ورِفْقٌ، وإرسالُ الرّيحِ يكونُ بالتَّسْخيرِ؛ وهو ممّا يفتحُه اللّه للنّاسِ مِن رحمةٍ، ومِنَ النِّعَمِ التي أُمِر النّاسُ أنْ يذكروها؛ ليشكروها في مطلعِ السّورةِ، بقي أنَّ لفظ (الإرسال) يدلُّ على أنَّها موجودةٌ في مكانٍ قد قُيِّدتْ به، ثمَّ تُؤمَرُ بالتّحرُّك إلى مكانٍ آخر، فتكون هنالك استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ؛ إذ شبَّه الجريانَ والتحرُّك بالإرسالِ بجامعِ المجئِ إلى مكانٍ غيرِ المكانِ الذي كانت فيه؛ للدّلالةِ على أنّها مأمورةٌ لا تتحرّكُ بذاتها، بل تجري على وفقِ نواميسَ حدَّدها القادرُ الحكيمُ تعالى.

دلالةُ مجيء ﴿أَرۡسَلَ﴾ في فاطر ماضيًا، وفي الروم مضارعًا:

التَّعبيرُ بالماضي على خلاف الظّاهر

لَمّا كانتِ السّورة قد تجرَّدَتْ للتّعريفِ بفاطرِ السّماواتِ والأرضِ؛ دلالةً على القدرة بالاختيار، فكانَ المرادُ الإيجادَ مِنَ العدم، وكان إرسالُ الرّياحِ دالًّا على ذلك؛ نظَمَ القرآنُ معنَى الإرسالِ فعلًا ماضيًا مسنَدًا إلى ضميرِ اسم الجلالةِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ لأنَّه تعالى الفاعِلُ الحقيقيُّ، والمعنَى: أوجدَها مِنَ العدم مُضطَرِبةً؛ فيها أهليَّةُ الاضطرابِ والسَّيْرِ؛ ليُصَرِّفَها كيفَ شاءَ، لا ثابتةً كالأرضِ، وأسكنَها ما بينَ الخافقَيْنِ؛ لصلاحِ مكانِ الأرضِ، ولَمّا أُسنِد فعلُ الإرسال إلى اللّه جيءَ بلفظ الماضي؛ لوجوب وقوعِه وسرعةِ كونه؛ كأنَّه كانَ؛ فهو قدَّر الإرسالَ في الأوقاتِ المعلومة وإلى المواضعِ المُعيَّنة، ولأنّ القَصْدَ مِنَ الاستدلالِ وقوعُ الإحياءِ وتقرُّرُ

وقوعِه؛ إظهارًا لإمكانِ نظيره، وإنَّما نظَم القرآنُ معنَى الإرسالِ فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: 48] الآية؛ لأنَّ المقصودَ هناكَ الاستدلالُ على تجديدِ صُنْعِ اللّه ونعمِه[1].

بلاغةُ التَّعريفِ بـ(أل):

الـرِّيـاحُ جِنْـسٌ مِـنَ المخلـوقاتِ مستقِلٌّ

(أل) في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾، و: (الرّيح) على القراءتَيْنِ المُتواترتَيْن: للعَهْدِ الذِّهْنيِّ؛ إشارةً إلى عِلْم المُتلقّينَ بها وبأثرِها؛ إذ كان اعتمادُ العربِ أوَّلَ مَن نزَل عليه القرآنُ مِن أُمَّةِ الدَّعْوة على الماءِ في بيئتِهم الصَّحْراويَّة، ويُفْهَمُ مِن كلامِ ابن عاشورٍ إمكانُ حَمْلِ (أل) على التَّعْريفِ بالجِنْسِ؛ أي: جِنْسِ الرّياحِ، وجِنْسِ الرّيحِ[2]، وهذا الوجهُ أدلُّ على ما تجرَّدتْ له السّورةُ؛ مِن تعريفِ العبادِ على الاختراعِ والخَلْقِ، والاستدلالُ على إثباتِ البَعْثِ عليه أقوى وأعظمُ، ولمّا تعلّقَ الإرسالُ بالرّياحِ أفادَ أنَّ هذا الجنسَ المتحقّقَ في أفرادِه لا يجري أيُّ فردٍ منه إلّا بأمرِه وحدَه، وذلك دليلُ العظمةِ والاقتدارِ التّامّ.

التَّوْجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي الجمعِ والإفرادِ في: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾:

قــراءةُ الإفــرادِ مبنيَّةٌ على قراءةِ الجَمْعِ

﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأها بالإفرادِ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وأبو جعفر: ﴿ٱلرِّيحَ﴾، وقرأها الباقونَ بالجَمْعِ[3]، وفي الجَمْعِ دلالةٌ على عظيمِ التَّفاوُتِ بينَ أفرادِها؛ نظرًا إلى تعدُّدِ أشكالِ الرّياحِ المُرسَلةِ وأنواعِها الكثيرة؛ لأنَّ الرّياحَ جَمْعُ كثرةٍ؛ فيكونُ في الجَمْعِ دلالةٌ على أنَّه تعالى الفاعلُ القادرُ بالاختيارِ، وأمّا قراءةُ الإفرادِ فتشيرُ إلى أنَّ اقتدارَه تعالى على إرسالِ الرّياحِ التي هي جَمْعُ كثرةٍ كاقتدارِه على إرسالِ ريحٍ واحدةٍ، وما دامَ أنَّ (أل) فيه للجنسِ فإنَّ المرادَ جنسُ الرّيحِ من غيرِ دلالةٍ على قلّةٍ ولا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 206، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 171، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 267 - 268.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 269.
(3) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 463.

كثرة، والجنسُ إنَّما يتحقّقُ في أفراده، فيفيدُ الكلَّ التزامًا، ونجدُ أنَّ بينَ الرّياحِ والرُّسلِ علاقةً؛ فكلٌّ منهما مُرسَلٌ لوظيفةٍ، إذ وظيفةُ الرّياح إثارةُ السَّحاب ووظيفةُ الرُّسُل إثارةُ الأفكارِ والمعاني الحقَّة.

معنَى (الفاءِ) ودلالةُ التّعبيرِ بها:

عمليَّةُ ثَوَرانِ السَّحابِ تكونُ عَقِبَ إرسالِ الرّياحِ

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ معناها السَّببيَّةُ والتّعقيب، أي: إنَّ إثارةَ السَّحابِ مُرتَّبٌ ومُسبَّبٌ عن إرسالِ الرّياح؛ مِن غيرِ مهلةٍ؛ وهذا يدلُّ على تفاعُلِ المخلوقاتِ، وكمالِ انقيادِها للّه سبحانه؛ لأنَّه خالقُها، كما أنَّ الرُّسُل عقيبَ بعثِهم وإرسالِهم يُثيرونَ في النّاس معانيَ كانت خامدةً، فتعملُ على تجميعِها وترتيبِها وتنظيمِها في عقولِهم الخاليةِ من تلك المَضامين.

علّةُ التّعبير بالإثارة:

إثارةُ السَّحابِ مِمّا يأخُذُ النَّفْسَ والعقلَ

جعَلَ القرآنُ المُسبَّبَ عن إرسالِ الرّياح ثَوْرَ السَّحاب أوْ ثَوَرانَه أو إثارتَه؛ وهو انتشارُه معَ سُطوعِه؛ فقال تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾، وفيه دلالةٌ على قوَّةِ الاستدلالِ؛ بظهورِ المُسبَّبِ بقوَّةٍ؛ وفيه تصويرُ حالِ السَّحابِ كما هو في الواقعِ مِنَ الاضطراب؛ معَ ما فيهِ مِن مزيَّةِ الإيجازِ البديعِ، وفي صنيعِ الأنبياءِ والرُّسُل تسطَعُ أنوارُ الرِّسالة في ربوعِ الحياة، وتدبُّ فيها المعاني العميقةُ للحياة المنظَّمة المُستقيمة.

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾:

الفاعلُ الحقيقيُّ هو اللهُ

أسندَ القرآنُ ثوارنَ السَّحابِ أوْ ثَوْرَها إلى ضميرِ الرّياحِ أوِ الرّيح على القراءتيْن؛ لأنَّ المسندَ إليهِ السَّببُ، فهو مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ السّببيَّةُ، إذ ما يحدُثُ في الكون يَجري على نواميسَ وسُنَن، ولكنَّ الفاعل الحقيقيَّ هو اللّه تعالى دونَ السُّنَنِ والقوانين؛ وهذا أدلُّ على تصويرِ عمليَّة إنزالِ المطرِ بدءًا من إرسالِ الرّياح؛ ولو أسندَ القرآنُ ذلك إلى ضميرِ اسمِ الجلالة فاتَ ذلك[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 206.

دلالةُ المضارَعة في ﴿فَتُثِيرُ﴾:

إثـارةُ الـرّيـاحِ السَّحابَ شيءٌ عجيبٌ

لَمّا كان قولُه تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ مبنيًّا على قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ كانَ التَّعبيرُ بالمضارعِ (تثير) على خلافِ الظّاهرِ الذي هو (أثارت)؛ وإلّا فالإرسالُ مُتجدِّدٌ، فالثَّورانُ مُتجدِّدٌ، وفي المضارعِ (تثير) حكايةٌ للحالِ التي تقَع فيها إثارةُ الرّياحِ السَّحابَ، واستحضارٌ لتلك الصّورةِ البديعةِ الدّالَّةِ على القدرةِ الرَّبّانيَّة وتمامِها؛ وهكذا تفعلُ العربُ فيما فيه غَرابةٌ؛ تنبيهًا للمُتلقّي على ذلك، وحثًّا له على تدبُّرِه وتصوُّرِه، ولَمّا كان المرادُ الاستدلالَ على القدرةِ على البعث، وكان التّعبيرُ بالمضارعِ يَرُدُّ التَّعنُّتَ عُبِّر بالمضارع، ولأنَّ الإثارةَ خاصّيَّةٌ للرّياح، وأثَرٌ لا ينفكُّ في العادةِ عنها؛ فلا يوجَدُ إلّا بعدَ إيجادِها، فيكونُ مُستقبلًا بالنِّسْبة إلى الإرسالِ، وعلى هذا يكونُ استعمالُ المضارعِ على ظاهرِه وحقيقتِه من غير تأويلٍ؛ لأنَّ المُعتَبَر زمانُ الحُكْم لا زمانُ التَّكلُّم، ولَمّا أُسنِد فعلُ الإثارةِ إلى الرّياح، وهي تؤلّفُ في زمان قال تعالى (تثير) بلفظ المستقبل، ولذلك أُسْنِدَ إليها، وفيه على كلٍّ دلالةٌ على استمرارِ الإثارةِ وتَكرارِها أيضًا[1].

سِرُّ تنْكيرِ السَّحاب:

الـسَّـحـابُ قد يـكـونُ مـصـدرَ إنعامٍ جليلٍ على النّاسِ

نظَمَه القرآنُ الكريم (السحاب) في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ نكرةً؛ إشارةً إلى معنَى العَظَمةِ فيه؛ نظرًا إلى الماءِ الذي يَحْمِلُه؛ وهذا من مواضع الامتنانِ في الاستدلالِ في هذهِ الآيةِ، كما أنَّ مضامينَ الوحي والنُّبوَّة تُشبِهُ السَّحابَ المحمَّلَ بالخير العميم للبشريَّة، وتجري تلك المضامينُ بينَ الشُّعوبِ والأُمَم، وتنتقلُ داخلَ القلوبِ والعقول، وإنَّما جمعَ ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ لتعدُّدِ الرُّسُلِ، وأفردَ ﴿سَحَابًا﴾ لاتِّحاد الرِّسالةِ والمضمونِ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 12/ 613، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 207، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 171، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 267 - 268.

سبحانَ المُتفضِّلِ على مخلوقاتِهِ

معنَى (الفاء) ودلالةُ التَّعبير بها:

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على ما بعدَ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ على جهةِ التَّسبُّبِ والتَّرتُّبِ مِن غيرِ مهلةٍ؛ فيلزمُ منه ترتُّبُه وتسبُّبُه عن إرسالِ الرِّياحِ أيضًا؛ ومجموعُ ما سبَق سببٌ في هذا السَّوق، وهذا السَّوْقُ مُترتِّبٌ عليه؛ وفي (الفاء) تصويرٌ لامتنانِه تعالى على المخلوقينَ، وما ينتفعُ بالماءِ مِن غيرِهم مِنَ المخلوقات بجَعْل السَّوقِ عَقِبَ إثارةِ السَّحابِ من غيرِ مهلةٍ، وكذلك يستعقبُ إثارةُ المعاني الحقَّة في نفوسِ النّاس أنْ يَسوقَها اللّه إلى القلوبِ الَّتي تنتفعُ بها، ويَصرِفُها عنِ القلوبِ الغافلة عنها؛ لأنَّها عَمِيَتْ بصائرُها واستكبرتْ عليها، فحُرِمَتْ من منافعِها وخيرِها.

إنَّما يسوقُ اللهُ الخيرَ إلى النّاسِ

علّةُ التّعبير بالسَّوْقِ ماضيًا:

عبَّر القرآنُ الحكيمُ بـ(السَّوْق) في قولِه تعالَى: ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾؛ إشعارًا بغزارةِ هذا الماءِ الّذي يَحمِلُه السَّحابُ؛ تنبيهًا على إنعامه تعالى بالمَطَرِ؛ لأنَّ السَّوقَ استُعملَ في سَوْقِ الإبلِ والدَّوابِّ؛ وفيهِ أيضًا إشعارٌ بالاعتناءِ بالمطرِ؛ صورةً للاعتناءِ بمَن يَنتفعُ بالماءِ في المقام الأوَّلِ، وما يَنتفعُ به مِنَ المخلوقاتِ، ونظَمَ القرآنُ معنَى السَّوْق فِعْلًا ماضيًا تنبيهًا على أنَّ كلَّ سَوْقٍ كانَ بعدَ إثارةِ الرّياح السَّحابَ في الماضي والمستقبل منه وحده أو بواسطة من أقامة لذلك من جنده من الملائكة أو غيرهم، لا من غيره[1]، ففي وضْعِ الماضي موضعَ المضارع بأنْ يُقال: (فنسوقه)؛ إذ هو معطوفٌ على مضارعٍ في (تثير) إبلاغٌ في تقريرِ وقوعِ السَّقْي؛ كأنَّه قد كانَ؛ إشعارًا بعظيمِ الامتنان.

فــي الالـتـفـاتِ تنبيهٌ للمُكذِّبينَ؛ لـيَـلـتـفِـتـوا إلى عظمة الله

دلالةُ الالتفات في ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ﴾:

لَمّا كانَ سَوْقُ السَّحابِ إلى بلدٍ دونَ آخَرَ، وسَقْيُه لمكانٍ دونَ مكانٍ مِنَ العظمةِ بمكانٍ التفتَ القرآنُ عنِ الغَيْبة، وجعَلَه في مَظْهَر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 207.

العَظَمَةِ؛ فأضافَ السَّقْيَ إلى ضميرِ العظمة؛ فقال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ﴾، أي: فكان السَّوْقُ منه وحدَه، أوْ بواسطةِ مَن أقامَه لذلك مِن جندِه مِنَ الملائكة أوْ غيرِهم، لا مِن غيرِه[1]، معَ ما في الانتقالِ مِنَ الغَيْبة إلى التَّكلُّم مِن تنشيطِ المُتلقّين، وإيقاظِهم؛ للإصغاءِ إلى البيانِ، وهذا أحْسَنُ مِن إجراءِ الكلامِ على أسلوبٍ واحدٍ؛ وهذه فائدةٌ عامَّةٌ للالتفاتِ.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿إِلَىٰ﴾:

إنّما يَعظُم الاستدلالُ في النَّفسِ بدَمْجِ الامتنانِ معَه

عَدَّى القرآنُ فِعْلَ السَّقْيَ بـ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾؛ وهو حرفُ انتهاءِ الغايةِ في الزّمانِ والمكانِ وغيرِهما؛ وهو أصلُ معانيها؛ فدلَّ التَّعبيرُ بها على أنَّ كلَّ بلدٍ ميِّتٍ غايةٌ للسَّقْي المذكورِ، يستوي في هذا البعيدُ والقريبُ؛ وهذا وجهٌ من وجوهِ الإنعامِ والامتنانِ[2].

علّةُ التّعبيرِ بالبلدِ:

البلدُ مكانٌ كلُّه أهلٌ للسَّكَنِ

جعَلَ القرآنُ المَسْقيَّ (البلدَ) في قوله تعالى: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ سقيَها مقصودٌ به سَقْيُ مَن يقطنونَه، والّذين هم في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى الماءِ؛ لأنَّهُم تبلّدوا في المكانِ الذي هُم فيه، وتوطّنوا فيه على جهةِ اللُّزوم؛ فالبلدُ المكانُ المختطُّ المحدودُ المُتأنِّسُ باجتماعِ قُطّانِه وإقامتِهم فيه[3]، كما أنَّ بينَ البلد والقلب مناسبةً عميقة؛ إذِ البلدُ يتوطّنُ فيه النّاسُ، فيحتاجون إلى الماءِ لاستمرارِ الحياة فيها، والقلبُ تتوطّنُ فيه الأفكارُ والمفاهيمُ فتحتاجُ إلى أنوارِ الهداية الإلهيَّة لتعيشَ وتستقيمَ.

سِرُّ تنكير ﴿بَلَدٖ﴾:

في التَّنكيرِ تكثيرٌ مع هوانٍ وضَعفٍ

نظَم القرآنُ غايةَ السَّقْي نكرةً، فقال: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ﴾؛ للدّلالةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 207.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 207.
(3) الراغب، المفردات: (بلد).

على التَّكْثيرِ؛ بقرينة التَّعبيرِ بـ﴿إِلَىٰ﴾؛ إشارةً إلى عُمومِ الامتنانِ والإحسانِ؛ فهو سبحانه يَزيدُ في الخَلْقِ ما يشاءُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ويجوز أنْ يدلَّ التّنكيرُ على ضعْفِ هذه البلدِ وهوانِها؛ بقرينةِ الوصفِ: ﴿مَّيِّتٍ﴾، وكذلك القلوبُ فإنَّها مع كثرتها ضعيفةٌ قبلَ وصولِ أنوارِ الهدايةِ إليها.

دلالةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾:

البلدُ الميّتُ شديدُ الافتقارِ إلى الماءِ

وَصَفَ القرآنُ البلدَ بقولِه: ﴿مَّيِّتٍ﴾، والمعنى: الذي لا نَبْتَ فيه، قدِ اغْبَرَّ مِنَ القَحْطِ، وهذا الوصفُ استعارةٌ لمعنَى اليُبْسِ[1]، بجامعِ شدّة عدمِ النَّفْعِ؛ لأنَّ البلدَ في معنَى الأرضِ؛ وهي تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ والغرضُ منها: بيانُ شِدّة افتقارِ البلدِ إلى الماءِ، وأنَّ الاقتدارَ على إحيائِها عظيمٌ؛ فهوَ إنَّما يكونُ من ذي قدرةٍ تامّةٍ كاملةٍ مطلقةٍ وسيعةٍ؛ يتعلَّقُ بها كلُّ شيءٍ؛ وبهذا يظهرُ الاستدلالُ والامتنانُ معًا، وكذلك يُقال في الموتِ في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾، أي: بعدَ يُبْسِها، ويحتملُ أنَّ الكلام قائمٌ على استعارة مكنيّةٍ؛ إذ شبّه البلدَ بإنسانٍ يقومُ به الموتُ، ثمَّ حذفه وأبقى من خواصّهِ ولوازمِه الموتَ فوصفَهُ به، وكذلك القلبُ فإنّه قبل وصول أنوارِ الوحي إليه لا ينبضُ بالحياة الطيّبةِ الهانئةِ في ظلِّ تعاليم اللّه وإرشاداتِه العظيمة، أوِ المرادُ بالبلد أهلُها العِطاشُ المحتاجونَ للماء، حتى إنَّهم من شدَّة عطَشِهم وُصِفَ البلدُ بالميّت مبالغةً، مع أنَّ المَوتى أهلُها وسكّانها؛ فهو مجازٌ عقليٌّ.

التّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي: ﴿مَّيِّتٍ﴾:

كلُّ مُكوِّناتِ المعنَى القرآنيِّ ذاتُ معنًى

قرأ الوصفَ ﴿مَّيِّتٍ﴾ الواردَ في قوله: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بتشديدِ الياءِ نافعٌ وحفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو جعفرَ وخلَفٌ، وقرأه الباقونَ بالتَّخْفيفِ: ﴿مَّيْتٍ﴾، وهما بمعنًى واحدٍ في المشهورِ،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 431، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467.

وقال بعضُهم: الميْتُ بالتَّخفيفِ هو الَّذي ماتَ فعلًا، والميِّتُ بالتّشديد والمائِتُ هو الّذي لم يَمُتْ بَعْدُ[1]، ولَمّا كانَ الموتُ في الوَصْفِ بمعنَى عدمِ الإنباتِ والزَّرْعِ، وكانَ عدمُ تهيُّؤِ الأرضِ أوِ البلدِ للإنباتِ والزَّرْعِ ليس على درجةٍ واحدةٍ؛ بل بينَ ما يصدقُ عليه البلدُ مرادًا به الأرضُ تفاوتٌ قويٌّ ملحوظٌ نبَّه القرآنُ على ما تحقَّقَ فيه أصلُ معنَى الوصفِ بقراءةِ التّخفيفِ، وعلى ما قويَ فيه معنَى الوصفِ واشتدَّ بقراءةِ التّشديدِ؛ فهما طرَفانِ أعلى وأدنى؛ يدلّانِ على درجاتٍ أخرى بينهما؛ فكان مجموعُ القراءتَيْنِ دالًّا على القدرةِ الكاملةِ للّه تعالى، ومُعرِّفًا العبادَ بالاختراعِ والخَلْقِ، وأنَّه الفاطِرُ.

معنَى (الفاء) ودلالةُ التّعبيرِ بها:

سُبحانَ مَن يُعلِّمُ عبادَه الحِكْمةَ والتَّدريجَ!

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ معناها السَّببيَّةُ، أي: إنَّ إحياءَ الأرضِ مُسبَّبٌ ومُرتَّبٌ على سَقْيِ السّحابِ في قوله تعالى ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾، وإذا كان معطوفًا على هذا كانَ معطوفًا في المعنَى على جميعِ ما قبلَه؛ مِن إرسالِ الرّياحِ إلى السَّقْيِ المذكورِ؛ فالإحياءُ نِتاجُ عمليَّةٍ بُنِيَتْ على التَّدْريجِ؛ دلالةً على حِكْمته تعالى، وأنَّه فاعلٌ قادرٌ بالاختيارِ، وإنْ كان البلدُ الميتُ والأرضُ المُجدِبة تَحيا بالماءِ النّازلِ منَ السُّحبِ فإنَّ القلوبَ المُظلِمةَ والنُّفوسَ العَطْشى إلى أنوارِ الوَحْيِ تُضيءُ بكلماتِ النّورِ، وتهتدي للحقِّ وتتفتّحُ للحياة المباركة، وتسعَدُ في دروبِ النّجاة.

علّةُ التّعبيرِ بـ(الإحياء):

سُبحانَ مَن يُحيي النُّفوسَ بكلامِه ومائِه!

عبَّر القرآنُ بـ(الإحياءِ) في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لأنَّه نَصٌّ في المُسْتَدَلِّ عليه؛ وهو إحياءُ النّاسِ الموتَى، والمعنى: أنَّ البلدَ لا نَبْتَ فيه؛ فإذا أصابَه الماءُ منَ السَّحابِ اخْضَرَّ، وأنْبَتَ؛ فتلكَ حياتُه،

(1) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 463، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 171 - 172.

ففيه مِنَ الإيجازِ ما لا يخفَى؛ لأنَّ تفصيلَ الإحياءِ يُطيلُ الكلامَ؛ وهو معلومٌ للمُتلقّينَ[1]، وفي التّركيبِ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ؛ إذ شبّه الإنباتَ بالإحياءِ بجامعِ الوجودِ بعدَ عدمٍ، فلم يقلِ النّظمُ: (فأنبتنا)، بل عبَّر عنه بـ(الإحياء)؛ لأنّه بصددِ إثباتِ النُّشورِ والحياةِ بعدَ الموت، وبصددِ إثباتِ أنَّ أنوارَ النّبوَّة والرّسالةِ تُساقُ بقدرةِ اللّه وحدَه بعدَ تبليغِ الرّسولِ لها إلى القلوبِ المُتعطّشة الضّامئة، فتُسقى منها فتَحيا بعدَ إظلامٍ، ويكونُ الإحياءُ حينئذٍ مُستعارًا للهداية.

دلالةُ المُضيِّ في ﴿فَأَحۡيَيۡنَا﴾:

المَـقيـسُ عليه تـأكَّـدُ وقـوعُـهُ؛ فكذلك المَقيسُ

نظَم القرآنُ معنَى (الإحياءِ) فِعْلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ مُشاكِلًا نَظْمَ السَّقْيِ في قوله: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾، ونَظْمَ الإرسالِ في قوله: ﴿أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ مفيدًا التَّرابُطَ بينَ عناصرِ المعنَى في الآيةِ؛ لأنَّ الإحياءَ المذكورَ هو المقيسُ عليه، ولا بُدَّ أنْ يكونَ واقِعًا مُحَقَّقًا مُقرَّرًا[2].

علّةُ الإسنادِ إلى ضميرِ العَظَمة:

التّـنـبـيـهُ على عَـظَـمةِ الإحـياءِ تحريكٌ للنّظرِ

لَمّا كانَ إحياءُ الأرضِ المَيِّتةِ على تفاوُتِ مَوتِها بمعنى عدم صَلوحِها للإنباتِ والزَّرْعِ لا يكونُ إلّا بقدرةٍ تامَّةٍ وعِلْمٍ شاملٍ، فكانَ مِنَ العظمةِ بمكانٍ؛ أسنَدَ القرآنُ الإحياءَ إلى ضميرِ العَظَمةِ؛ فقال تعالى: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ وهذا إنَّما يكونُ منه تعالى وحدَهُ، أي بدون واسطةٍ، وهذا الإسنادُ منبئٌ عنِ اختصاصِ الإحياءِ به تعالى، وكذلك السَّقيُ في قوله تعالى: ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾؛ لِما فيهما مِن مزيدِ الصُّنْعِ، ولتكميلِ المُماثَلةِ بين إحياءِ الأرضِ وبينَ البعثِ الذي شُبِّه به قولَه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[3].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 431.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467.

معنَى (الباء) ودلالةُ التّعبير بها:

في الباء عظمةُ الدّليلِ والنِّعْمة

(الباءُ) في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ معناها السَّببيَّةُ؛ فالسَّحابُ أوِ الماءُ سببٌ، وإحياءُ الأرضِ مُسبَّبٌ، وهي لا تخلو من معنَى (الإلصاقِ)؛ فتدلُّ على قوّة السَّببيَّةِ والسَّببِ وشِدَّتِهما، وهذا يوحي لا محالةَ بغزارةِ الماءِ، وعِظَمِ الإحياءِ ونتيجته مِن كثرةِ الزُّروعِ والثِّمارِ، وتنوُّعِها، وتعدُّدِها، وفي إشارةِ النَّظم إلى سببيَّة الماءِ للإحياءِ دلالةٌ على مكانةِ السَّبب في النَّهج القرآنيّ، وبيانٌ لأثرِ الرّسُل الذين تصلُ الهدايةُ منَ اللّه للقلوبِ المُظلمة بسببِهم ووساطتِهم.

مَرْجِعُ الضَّميرِ المجرور في: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ﴾:

عناصرُ الكونِ تتفاعلُ في إبرازِ ألوهيَّةِ الله القادر

الضَّميرُ المجرورُ محلًّا بـ(الباءِ) في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يُرادُ به السَّحابُ في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾؛ كالضّمير في قوله تعالى: ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾؛ فمرجِعُهُما واحدٌ؛ لكنَّ رجوعَه هنا إلى السَّحابِ إنَّما هو على تأويلِ أنَّ السّببَ في الحياةِ هو السّحابُ بما ينشأُ عنه مِنَ الماءِ، والمعنى: فأحيينا بالسَّحاب الأرضَ؛ فإنَّهُ سببُ السَّببِ، ويمكنُ أنْ يكونَ الضّميرُ للمطرِ على طريقة (الاستخدام) البديعيّ، والمعنى: فأحيينا بالمطر النّازلِ منه المدلولِ عليه بالسَّحابِ؛ فإنَّ بينهما تلازُمًا في الذِّهْنِ كما في الخارجِ[1]، والأبلغُ رجوعُه على السَّحابِ بالتَّأويلِ المذكورِ؛ لأنَّ فيه إبلاغًا في استحضارِ دَوْرِ السَّحابِ في عمليَّة الإحياءِ، وربطًا في ظاهرِ اللَّفْظِ بينَ السَّحابِ والأرضِ؛ تنبيهًا على عظمةِ الإحياءِ، وأنَّه لا يَقْدِرُ عليهِ إلّا واحدٌ ليس كمِثْلِه شيءٌ؛ وهو اللّهُ تعالى، ويؤيِّدُ ذلك أنَّ القرآنَ لو قال: (فأحيينا الأرض) لصَحَّ على الجملة؛ للعِلْم بسببِ الإحياءِ مِنَ المعطوفِ عليه، فلَمّا صرَّح القرآنُ به كان الأعلى حَمْلَ الضّميرِ على السّحاب.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 207، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467.

الأبلغُ سياقًا الحَمْلُ على الجِنْسِ

بلاغةُ التّعريفِ بـ(أل) والإفرادِ:

(أل) في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ إمّا للعِهْدِ الذِّهْنيِّ؛ وهي الأرضُ التي يعيشُ عليها النّاسُ في ذلك البلد، وإمّا للجِنْسِ؛ وهذا هو الأعلى؛ لأنَّه يترتَّبُ عليه اللَّفْتُ إلى تفاوتِ أفرادِ هذا الجِنْسِ في الوصفِ ﴿مَّيِّتٖ﴾؛ وهذا التَّفاوتُ يدلُّ على أنَّ اللّه هو الفاعلُ القادرُ بالاختيارِ، وإنّما عبّر أوّلًا بـ(البلد) عندَ سَوْقِ السَّحاب، ثمَّ عبّر بالأرض عند الإحياء؛ للدِّلالة على أنّ سوْقَ السَّحاب يكونُ إلى البلد منظورًا فيه إلى السُّكّان الحالّينَ فيها، وأمّا الإحياءُ فهو لأرضِ البلد التي أجدَبَتْ، وحياةُ الأرض حياةٌ للبلد والسكّان الّذين فيه، وكذلك سوقُ الهداية إلى النّفوس منظورٌ فيه إلى القلوب، وإحياءُ القلوبِ وهدايتُها سببٌ لإحياءِ النّفوس والأبدانِ التي تحلُّ فيها تلك النّفوسُ والأرواح.

لـلأرضِ مـوتٌ وحياةٌ كالإنسانِ

سِرُّ ذِكرِ الموتِ في ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾:

كانَ منَ المُمكن أنْ يقول القرآنُ: (فأحيينا به الأرض) دون ذكر المتعلِّق: ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾؛ لأنَّه معلومٌ من قوله تعالى: ﴿بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾؛ ولكنَّ القرآنَ صرَّحَ به؛ إبلاغًا في تقريرِ الدَّليلِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ التي صُرِّحَ فيها بالمذكورِ مقطعُ بيانِ هذا الدّليلِ، ولأنَّ منَ البلاغةِ أنْ يُقْرَنَ الإحياءُ بالإماتةِ في سياقِ الإرشاد إلى القدرة على البعثِ الذي يُكذِّبُ به القومُ الكافرون؛ ففي ذكر الموتِ تحقيقٌ للإحياءِ، وأنَّه حقيقيٌّ[1]، بقي أنَّ بينَ ﴿فَأَحۡيَيۡنَا﴾ و﴿مَوۡتِهَاۚ﴾ طباقًا يرسُمُ شدّةَ الإحياء وعظمتَه؛ فإنّ الأرضَ قد ماتتْ حتى لا يُظنَّ أنَّ بالإمكان إنباتَها، وهنا تتجلّى عظمةُ الإحياء الإلهيّ الّذي يجعل الميّتَ مُنتصبًا، وكذلك القلوبُ التي ماتتْ من طولِ العَهد بالنّبوَّة والرّسالة، وتحوَّلتْ قيمُها إلى معتقداتٍ باليةٍ وأفكارٍ سقيمة، حتى إنَّه لا يُظنُّ اهتداؤها لأنوارِ الحقِّ والحقيقة.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 207.

دلالةُ الإضافة في ﴿مَوۡتِهَاۚ﴾:

أضافَ النَّظْمُ القرآنيُّ الموتَ إلى ضميرِ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ المؤنَّثةِ في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾؛ إمعانًا في تجلية الاستدلالِ؛ بما فيها مِن إفادةِ ثبوتِ الموت للأرضِ على جهة الاتِّصافِ والاخْتِصاصِ واللُّزوم، وفي إسنادِ الموت إلى الأرض استعارةٌ مكنيّةٌ ظاهرة، إذِ الموتُ عبارةٌ عن عدم الحياة عمّا مِن شأنِه أنْ يكون حيًّا.

الإضـــافـــةُ تـوهِـمُ حقيقةَ المـوتِ؛ والحقُّ أنَّـه استعـارةٌ لليُبْسِ!

سِرُّ فَصْلِ خاتمة الآية ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾:

الظّاهرُ أنْ يُعطف قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ بـ(الواو) على مجموع قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ لِما بينَهما منَ التّناسُب؛ وإنّما غابت (الواوُ)؛ للتَّنْبيهِ على قوّة إنتاجِ ما حقُّه أنْ يكونَ معطوفًا عليه على ما حقُّه أنْ يكون معطوفًا؛ فمَن عقِلَ صِلةَ الموصولِ مِن إرسال الرّياح وما عُطِف عليه صدَّق دعوَى البعثِ وغيرِه بقوّةٍ وسُرعةٍ؛ مِن غير واسطةٍ؛ فلم يعُقْه عائقٌ، ولم يحُل بينَه وبينَ ذلك حائلٌ.

الدَّليلُ موَصِّلٌ للمطلوبِ بِقوَّةٍ

دلالة الكاف في قوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

(الكافُ) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ في حيِّزِ الرَّفْعِ على الخبريَّةِ، أي: مِثْلُ ذلك الإحياءِ الّذي تُشاهدونه على سبيل الاستمرار إحياءُ الأمواتِ وبعثُهم للحِساب، ومعناها التَّشابُهُ؛ وهو الجمعُ بين شيئَيْنِ في أمرٍ مِنَ الأمور؛ مِن غير قصدٍ إلى زيادةٍ ونقصانٍ؛ وُجِدت الزّيادةُ أوْ لم توجَدْ؛ فالقصدُ حينئذٍ هو بيانُ مُجرَّدِ اتِّفاقِ الطَّرفيْنِ في وجهِ الشَّبه؛ دونَ خُصوصيّاتٍ فيه؛ كأنْ تُراعَى فيه زيادةٌ ونقصانٌ، أوْ ظهورٌ وخفاءٌ؛ فالمرادُ هنا إثباتُ التَّشابُهِ في مُجرَّدِ وقوعِ الإحياءِ، والمعنى: كذلك النّشورُ في صِحَّة المَقْدوريَّةِ وسهولةِ التَّأتّي مِن غير تفاوتٍ بينَهما أصلًا[1].

مـــا أســـهـــلَ الـــوصـــولَ مِـن إحياءِ الأرضِ إلى إحياءِ المَوْتى!

(1) السعد التفتازاني، المطول، ص: 335، ومحمود موسى حمدان، أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، ص: 207، 233، 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467.

الأعلى سياقًا كونُ المُشبَّه مجموعَ الدَّليلِ

مَرْجِعُ اسْمِ الإشارةِ:

الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ إنَّما هي إلى المذكور مِن قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، والأظهرُ أنْ تكون الإشارةُ إلى مجموعِ الحالةِ المُصوَّرة، أي: مِثْل ذلك الصُّنْع المُحْكَم المُتْقَن نصنعُ صُنْعًا يكونُ به النُّشورُ؛ بأنْ يُهيِّئَ اللّه حوادثَ سماويَّةً أوْ أرضيَّةً أوْ مجموعةً منهما، حتَّى إذا استقامَتْ آثارُها وتهيّأتْ أجسامٌ لقَبولِ أرواحِها أمَرَ اللّه بالنَّفْخةِ الأولى والثّانية؛ فإذا الأجسادُ قائمةٌ ماثِلةٌ؛ أمَرَ اللّه بنفخِ الأرواح بالأجِنَّة عندَ استكمالِ تهيئتِها لقَبول الأرواحِ[1].

من شأنِ الدَّليلِ المذكورِ أنْ يكونَ مقيسًا عليه

نكتةُ الإشارةِ للبعيدِ:

اسْمُ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ مرادٌ به الإحياءُ المصدرُ المستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾؛ وهو للمفرد البعيد؛ والبُعْدُ فيه تعظيمٌ للإحياءِ، أي: كَشْفٌ عن عظمتِه في بابِ الاستدلالِ؛ فهو دليلٌ مقيسٌ عليه واضحٌ جليٌّ لا خلافَ في ثبوتِه ووقوعِه.

القادر على إحياء كلِّ ميّتٍ قادرٌ على النشر والبعث

علّةُ التّعبير بـ﴿ٱلنُّشُورُ﴾:

عبَّر تعالى بـ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ مُشبَّهًا في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾؛ مأخوذًا مِن: نَشَرَ الثَّوبَ؛ بسَطَهُ؛ على جهة الاستعارة[2] دونَ معنَى البَعْثِ، أوْ إحياءِ الموتى؛ إشعارًا بقوةِ الاستدلالِ بإحياءِ الأرضِ على المطلوبِ، وبعظيمِ اقتدارِ اللّه تعالى على الإحياءِ المقيسِ؛ لأنَّ نَشْرَ العبادِ يكونُ بعد إحيائِهم، ولأنَّ النَّشْرَ ألصقُ بحالِ المشبَّه بِه المقيس عليه؛ فإنَّ النَّشْرَ مِن معانيه الكلأُ اليابِسُ؛ إذا أصابَه مطرٌ؛ فيُنْشَر، أي: يحيا[3]، ونلحظ أنَّ ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ المستدلَّ على وقوعِه بإحياء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 268.
(2) الراغب، المفردات: (نشر).
(3) الراغب، المفردات: (نشر).

الأرضِ وإنباتِ النَّبات يقومُ على دليلٍ ماديٍّ ملموس، وهنالك دليلٌ عقليٌّ ومعنويٌّ على النّشور أيضًا، وهو أنَّ القلوبَ الميّتةَ والنُّفوسَ التّائهةَ في أوحالِ الشّركِ وأوهام المعتقداتِ الباطلة، تعودُ للحياة بعدَ اختيار اللّه تعالى لها الهدايةَ والخير، وبذَينك يجتمعُ الدّليلانِ الحسّيُّ والمعنويُّ على تحقُّق وعدِ اللّه بالبعث والنُّشور والحساب يومَ الدّين، كما تتحقّقُ تهدئةُ نفسِ الرّسول ﷺ ببيانِ أنّ واجبَه التّبليغُ، وأمّا الإحياءُ بالهداية فهو أمرٌ راجعٌ إلى قدرة اللّه تعالى، الذي يُضِلُّ مَن يشاء ويَهدي إلى الخير مَن يشاء.

بلاغةُ التّعريف بـ(أل) في ﴿ٱلنُّشُورُ﴾:

حَمْلُ (أل) على الجِنْسِ يلمّحُ إلى أنَّه مُؤسَّسٌ على التّدريج كإحياءِ الأرضِ

(أل) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ يُراد بها معنى الجنسِ؛ لفتًا إلى الأفرادِ المنشورينَ، وتذكيرًا بأحوالهم المختلفة؛ ترهيبًا؛ بتصوير موقفِ احتشادِهم، ودلالةً على عظيم قدرة اللّه تعالى على ذلك، ويُفهَمُ من كونِ حقيقة ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ كذلك أنَّ عمليّة النُّشور تشبهُ عمليّةَ الإنبات وبثِّ الحياة في الأرضِ الميّتة التي لا يظنُّ أهلُها أنّها تعود مجدَّدًا لتورقَ بالحياة، لكنَّها بالنّسبة لِمَن خلق السَّماواتِ والأرضَ أمرٌ هيّنٌ، فهل هنالك من مُتعجِّبٍ في عمليّةِ الإعادة والبعث للإنسان، وهل هنالك من متعجِّبٍ في هدايةِ اللّه لِمَن يشاءُ، وبثِّ النّور في القلوبِ الميِّتةِ الضّالّةِ بعدَ طولِ عهدٍ بالنّبوّات والرِّسالات.

۞ الفروقُ المُعجَميَّة:

البعث والنَّشْر:

البعثُ اتّصالُ الرّوح بالجسدِ والنّشرُ تركيبُ الأعضاء

بعثُ الخَلْق اسمٌ لإخراجهم من قبورهم إلى الموقفِ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۗ﴾ [يس: 52]، والنُّشورُ: اسْمٌ لظهور المَبعوثينَ وظهورِ أعمالِهم للخلائق؛ ومنه قولُك: نشرتُ اسمَك، ونشرتُ فضيلةَ فلان، والبعثُ هو الإحياءُ ودبُّ الرّوح في البدنِ الميّت، والنّشرُ عمليّةُ التّركيبِ للأعضاء؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ [البقرة: 259]؛ فالبعث إحياءٌ مجمَلٌ يتضمَّن النّشر، والنّشرُ بعثٌ مفصّلٌ ببيان ترتيبِ الأجسام، والبعثُ يتعلّقُ بالأروح والتصاقِها بالأجساد الميّتة، والنّشرُ يتعلّقُ بالأعضاء ترتُّبًا، والمناسبُ لسياقِ الآيةِ النّشرُ.

والآيةُ الكريمة فيها إثباتٌ للنّشور الذي يُكذِّبُ به المشركون، وإثباتٌ لمدلول قوله ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾؛ فإنّ تفرّعَ قوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ عن قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾؛ فإنَّ هذه الآية تتفرّعُ عن قوله: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾، فضربَ المثلَ في كيفيّةِ وصولِ الهدايةِ إلى قلوبِ المُؤمنين، الّذي هو أمرٌ خارجٌ عن طاقةِ الرّسول، المكلّفِ بالتبليغ فحسبُ، الّذي يتولّى الهدايةَ هو اللّه تعالى وحدَه، وإن كان وجودُ الرّيح سببًا للسَّوق إلى البلد الميِّت، ووجودُ الرّسول سببًا لسَوْقِ الهداية إلى الأرواحِ المُظلمة، وبهذا تكون الآيةُ بكمالها استعارةً تمثيليّةً بتشبيه حالةٍ منتزَعةٍ من متعدّد بهيئةٍ أخرى، أعني تشبيهَ هدايةِ اللّه بعمليَّة النُّشور التي لا يقدرُ أحدٌ على إيجادِها.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾ [فاطر: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآيـةُ شُـروعٌ في تفصيلِ معنًى مُـجْـمَـلٍ سبَق ذكرُه

لَمّا قرَّرَ تعالى في السِّباقِ غُرورَيْنِ إجمالًا؛ الأوَّلُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، والثّاني في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وفصَّلِ الغُرور الثّاني وتوابعه، وأبقَى تفصيلَ الغُرورِ الأوَّلِ إلى هنا؛ بدأَ في تفصيلِه بهذه الآيةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ بينَ هذه الآيةِ وما قبلَها كمالُ اتِّصالٍ؛ لأنَّ إثباتَ أنَّه تعالى قادرٌ على النُّشور بإثباتِ المَقيس عليه إثباتٌ لأنَّ له الحِكْمةَ والعِزَّةَ في الدّنيا والآخرة؛ مع ضميمةِ أنَّ مُنافسةَ الكَفَرة في العِزَّة فوقَ مُنافَستِهم في الحِكْمة، ومَن نافَسَ في الحِكْمة فإنَّما يُنافِسُ فيها لاكتسابِ العِزَّة، والكفرةُ إنَّما عبدوا الأوثانَ؛ ليعتزّوا بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ٨١﴾ [مريم: 81][1]، ويحتملُ أنَّ الآية تفصيلٌ لِما أجملَه قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الَّذي صدرَ فيه الحكمُ على الكافرينَ بالعذاب الشَّديد، وأنَّ ذلك الحكمَ بسبب مكرِهم، وصدرَ فيه الحكمُ على المؤمنين بالمغفرة والأجرِ الكبير، وأنَّ ذلك الحكمَ بسببِ قبولِهم الكلِمَ الطيّبَ والعملَ الصّالح.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾: (عزَّ) أصلٌ يدلُّ على القوَّةِ والشِّدَّةِ والغَلَبَةِ والرِّفعةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 269.

والامْتِناعِ، خِلافَ الذُّلِّ[1]، وهذه المادَّةُ في كلامِ العربِ لا تخرجُ عن معانٍ ثلاثةٍ؛ أحدها: معنى الغَلَبَة، يقولون: مَنْ عَزَّ بَزَّ، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ، يقال منه: عَزَّ يَعُزُّ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص: 23][2]، والثّاني: معنى الشِّدَّة والقوَّة، يقال منه: عَزَّ يَعَزُّ[3]، والثّالث: أن يكونَ بمعنى نَفاسَة القَدْر، يقال منه: عَزَّ يَعِزُّ[4]، ومعاني العزَّة الثّلاثةُ تجتمعُ كلُّها في حقّ اللّه تعالى في آنٍ واحدٍ، فلا يتخلَّف عنه، ولا تنقص عزَّته في حالٍ منَ الأحوال، ولا زمنٍ مِنَ الأزمنة مهما قلَّ، والمرادُ بالعِزَّةِ في الآية: الشَّرفُ والغلبةُ والحَصانةُ مِنْ أنْ يُنالَ بِسوءٍ[5].

2) ﴿يَصْعَدُ﴾: (صعد) أصلٌ يدُلُّ على ارتفاعٍ ومشقَّةٍ، من ذلكَ: الصَّعودُ وهو الذَّهابُ في المكان العالي، يُقالُ: صَعِدَ في السُّلَّم صُعودًا إذا ارتقاهُ وارتفعَ فيه، وهو خِلافُ الحَدورِ[6]، والجَمْعُ صَعائدُ وصُعُدٌ مِثْلَ عَجوزٍ وعَجائِزَ وعُجُز، والصَّعودُ: العقبة الكؤود، وجَمْعُها الأَصْعِدَةُ[7]، والمقصودُ بالصُّعودِ في الآية: الإذهابُ في مكانٍ عالٍ، وهو مُستعارٌ للبُلوغِ إلى عظيم القَدْرِ، وهو كنايةٌ عن القَبولِ لدَيْه[8].

3) ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾: (طيب) أصلٌ يدُلُّ على خِلافِ الخَبيث، مِنْ ذلكَ الطَّيِّبُ: ضِدُّ الخَبيثِ[9]، والوَصْف على وزْنِ فَيْعِلٍ صيغةٌ تدُلُّ على قوَّةِ الوَصْفِ في الموصوفِ، وهو المُتَّصِفُ بالطَّيِّبِ[10]، وهو ما تَستلذُّه الحواسّ، وما تستلذُّه النَّفْس[11]، يُقالُ: طابَ الشَّيءُ يَطيبُ طيبًا وطابًا، أي: لَذَّ أو زَكا[12]، والطَّيِّبُ أيضًا: الأفضَلُ من كلِّ شَيْءٍ[13]، ويأتي بِمعنى

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزز).
(2) النحاس، معاني القرآن: 1/ 379.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(4) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: (عزز).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 271.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صعد).
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صعد).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 272.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طيب).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 185.
(11) الراغب، المفردات: (طيب).
(12) ابن سيده، المحكم: (طيب).
(13) الزبيدي، تاج العروس: (طيب).

الحلالِ[1]، والكلمةُ الطَّيِّبةُ: شهادةُ أَنْ لا إله إلّا اللّه، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللّه ﷺ[2]، والمُرادُ بالطَّيِّبِ هنا: ما يَطيبُ ويَحْسُنُ مِنَ الكلامِ، وهو التَّوحيدُ والتَّمجيدُ وذِكرُ اللّه ونحوُه[3].

4) ﴿يَمۡكُرُونَ﴾: (مكر) أصلٌ يدلُّ على الاحتيالِ والخداعِ[4]، وقد مكَرَ به يمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[5]، والمَكرُ: إخفاءُ الكَيْدِ وإيصالُ المَضَرَّة، وكذلك الكَيدُ والمخادعةُ، ولكِنَّه نوعانِ؛ قَبيحٌ: وهو إيصالُ ذلك لِمن لا يَستحِقُّه، وحَسَنٌ: وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عقوبةً له؛ فالأوَّلُ مَذمومٌ، والثّاني ممدوحٌ[6]، والمقصودُ بالمَكْرِ في الآية: تدبيرُ إلحاقِ الضُّرِّ بالغَيْرِ في خُفيةٍ؛ لئلّا يأْخُذَ حِذْرَه[7].

5) ﴿يَبُورُ﴾: (بور) أصلٌ يدُلُّ على هلاكِ الشَّيءِ[8]، والبَوْرُ مصدرُ بارَ الشَّيْءُ يبورُ بورًا إذا هلَك، ودارُ البَوارِ: دارُ الهلاك[9]، والبائرُ الكاسِدُ، وسوقٌ بائرَةٌ أَي: كاسِدَةٌ[10]، والبَوارُ في الآية مُرادٌ به فَرطُ الكَسادِ، أي: يَبطُلُ ويَفسُدُ، واستُعيرَ هُنا لخَيبةِ العَمَلِ[11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ العِزَّةَ الكاملةَ إنَّما هي له وحْدَه، فَمَن كان يُريدُ العِزَّةَ فلْيَسألْها مِنَ اللهِ وحْدَه؛ فإنَّ لله وحْدَه العِزَّةَ، وإلى اللهِ وحْدَه لا إلى غيره يصعدُ الكلمُ الطّيّبُ، أي: يُقبل عندَه، ويكون مرضيًّا لديه، والعمل الصّالحُ الصّادرُ عن عباده المؤمنينَ يرفعُهُ اللّه تعالى إليه،

أعمالُ المؤمنينَ تَنفعُهم؛ ليَعلمَ النّاسُ أنَّ أعمالَ المُشرِكينَ سَعيٌ باطِلٌ

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة: (طيب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 431.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(5) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (مكر).
(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (مكر - كيد).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بور).
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (بور).
(10) ابن عباد، المحيط في اللغة: (بور).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 275.

ويَقبلُه منهم، ويُكافِئُهم عليه، والَّذين يَعمَلونَ الأعمالَ السَّيِّئةَ لهم عذابٌ شديدٌ يُهانونَ فيه غايةَ الإهانةِ جزاءَ مَكرِهم، وعمَلُ أولئكَ وخِداعُهم يَبْطُلُ ويَذهَبُ، فلا يَروجُ ولا يَنفعُهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ مطلع الآية:

التّفصيلُ بعدَ الإجمالِ من مقاصدِ البُلغاءِ

هذه الآيةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ يوجِّهُ الخطابَ إلى أهلِ الكفرِ والشِّركِ؛ لكَشْفِ اغترارِهم بطلبِهم العِزَّةَ في الدُّنيا؛ لأنَّ أعظمَ غرورِ المشركينَ ناشئٌ عن قَبول تعاليمِ كُبرائِهم وسادتِهم، وأعظمُ دَواعي القادةِ إلى تضليلِ دَهمائهم وصُنّاعِهم هو ما يجدونه مِنَ العِزّةِ والافتتانِ بحُبِّ الرِّئاسةِ؛ فلا جرمَ كانت إرادةُ العِزّةِ مِلاكَ تكاتُفِهم بعضِهم مع بعضٍ، وتألُّبِهم على مناوأة الإسلامِ؛ فأعلمَهم القرآنُ أنَّ كلَّ مُستمسكٍ بحبلِ الشِّركِ مُعْرِضٍ عنِ التَّأمُّلِ في دعوةِ الإسلامِ لا يُمسِّكُه بذلك إلّا إرادةُ العِزَّةِ؛ فلذلك نادَى عليهم القرآنُ بأنَّ مَن كان ذلك صارِفَه عنِ الدّينِ الحقِّ فلْيعلم بأنَّ العِزّةَ الحقَّ في اتِّباعِ الإسلامِ، وأنَّ ما هم فيه مِنَ العِزَّةِ كالعدمِ[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ الفصلُ لشِبهِ كمالِ الاتّصالِ؛ إذ قد تقدّمَ حكمٌ على الكافرينَ بالعذابِ وحكمٌ على المؤمنين بالأجرِ المستطابِ، فنشأ سؤالٌ عن سببِ الاستحقاقِ لذلك، أجابَ عنه مُبيّنًا سببَ ذلك معَ بيانِ الصّارفِ عنِ الإيمانِ إلى الكفرِ، وهو طلبُ العِزّةِ الجوفاءِ مع أنَّها للّهِ ومَن سارَ على وفقِ أوامرِه.

بلاغةُ موقعِ الآيةِ:

موقِعُ الآيةِ جزءٌ جليلٌ من بلاغتِها؛ بل هو رأسُ بلاغتِها

كان الظّاهرُ أنْ تقعَ هذه الآيةُ عقِبَ جملة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 341، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 538، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 330.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 269.

﴿عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ﴾؛ ليأتيَ التّفصيلُ بعدَ الإجمالِ، ولكنَّ القرآنَ أتَى بها مِن بعد إقامةِ دليلٍ على شيءٍ مِن أهمِّ الأشياءِ التي يُبرِزُ بها أهلُ الكفرِ والشِّركِ كفرَهُم وشركَهُم؛ وهو إنكار البَعْثُ؛ وقد ثبت بهذا الدّليل أنَّ للّه العزّةَ في الدّنيا؛ أليس هو الذي يُحْيي الأرضَ بعد مَوْتها؟، وأنَّ له العزّةَ في الآخرة؛ أليس هو الذي يُحيي المَوتى؟ وهدمُ عِزَّةِ الكفرِ والشِّرْك مِن بعدِ ذلك أبلغُ وأحكمُ وأعلى وأعظمُ.

سِرُّ ذِكْرِ الكَوْنِ؛ مادَّةً وصيغةً:

البـشـر كـامـلـو الرَّغبةِ في العِزَّة في الدُّنْيا!

كان الظّاهرُ أنْ يقولَ القرآنُ: (من يرد العزة)؛ ولكنّه أتَى بـ(الكون) الماضي فاصلًا بين كلمةِ الشّرط وفعلِ الإرادة؛ فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾؛ لتصويرِ دوام إرادةِ العِزّة واستمرارِها؛ لأنَّها كالصِّفة اللّازمة لهم، وكالخُلُقِ الذي يكونُ مِن ديدنِ البشر؛ والمعنى: (مَن كان يريد العزّةَ في وقتٍ مِنَ الأوقات)، ونُظِمَ الكونُ فعلًا ماضيًا؛ دلالةً على أنَّ الإرادةَ المذكورةَ كالشّيءِ الّذي هو مُتحقِّقُ الوقوعِ؛ فهو كالثّابتِ المستقرِّ؛ إبلاغًا في طلبِ ذلك[1].

بلاغةُ الحَمْلِ على اللَّفْظِ:

الـحَـمْـلُ على اللَّـفْـظِ هنا مِن ضُــروبِ إيـجـازِ القصْرِ

كلمةُ ﴿مَن﴾ يُحمَلُ على لفظِها بالإفرادِ والتّذكير، وعلى معناها بالجمع مُذكَّرًا ومُؤنَّثًا؛ وفي الآية حُمِلَ على لفظِ بالإفرادِ والتّذكيرِ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾؛ حثٌّ لكلِّ فردٍ على حِدَةٍ على التَّأمُّلِ في دين الإسلام دينِ اللّه الحقِّ؛ فإنَّ فيه العِزَّةَ كلَّ العِزَّة، كما تُرشّحُ إرادةُ اللّفظ أنَّ المعبَّر عنه بـ﴿مَن﴾ كلُّ فردٍ فردٍ على سبيلِ الاستقصاء، ليفيدَ أنَّ كلّ فردٍ أرادَ العزّةَ وبحثَ عنها فليَبحثْها فيما يُقرِّبُهُ إلى اللّه تعالى.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.

مَن أراد الشّيءَ اختارَه وأحبَّه

علّةُ التّعبيرِ بـ(الإرادةِ) مضارعًا:

التَّعبيرُ بالإرادةِ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ يُصوِّرُ كمالَ رغبةِ الجنسِ الإنسانيِّ في حصولِ العِزّةِ لهم في الدُّنيا؛ لأنَّها العَزمُ على الفِعْلِ أوِ التَّرْكِ بعدَ تصوُّرِ الغايةِ المُترتِّبةِ عليه مِن خيرٍ أوْ نفعٍ أوْ لذَّةٍ ونحوِ ذلكَ، ولأنَّها تكونُ لِما يَتراخى وقتُهُ، ولِما لا يتراخَى؛ فنفَسُهُم في طلبِها طويلٌ[1]، ونظَم القرآنُ فعل الإرادةِ مضارعًا؛ للدّلالةِ على انفعالِهم بهذا المعنَى؛ كأنَّه يتجدَّدُ في أنفسهم وقلوبهم في وقتٍ بعدَ وقتٍ، ونظرًا إلى أعمالهم المُتجدِّدةِ التي هي مُؤسَّسةٌ على إرادتِهم.

البحثُ عنِ العِزّةِ الدُّنيويّةِ من صورِ الغُرورِ بالدُّنيا

علّةُ التّعبير بالعِزّةِ معرّفةً بـ(أل):

جاء مفعولُ الإرادةِ ﴿العِزّةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ لتصويرِ حالةِ الاغترارِ بالحياةِ الدّنيا؛ فالبحثُ عنِ العزّةِ الدّنيويَّة ينجُمُ منَ الاغترارِ بها وبمباهجِها الفانية؛ إذِ الغلَبةُ والقوّةُ والشِّدّةُ والرِّفعةُ والامتناعُ ونفاسَةُ القَدْرِ والكِبرُ والعُجْبُ وما جرَى في هذا مِنَ المعنَى يتّصفُ به المغترّ الذي يظنُّ أنّه لا يزولُ، ونظَمَ القرآنُ معنَى العزَّة مُعرَّفًا بـ(أل)؛ للدّلالةِ على أنَّها العِزَّةُ الشّاملةُ الكاملةُ التّامَّةُ؛ "وتعريفُها للجنس"[2]، ومعنى الكمال يتْبعُه؛ لأنَّ أهل الكفر لا يريدونَ شيئًا مِنَ العِزَّة لأهل دينِ اللّه تعالى. "وقيل: تعريفُ ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ الأولى للاستغراق أيضًا، أوْ للعهد؛ والمرادُ: الفَرْدُ الكاملُ، والمعنى: مَن كان يريد العزّة جميعَها أوِ الفردَ الكاملَ منها، وهي العزّةُ التي لا يَشوبُها ذِلّةٌ مِن وجهٍ فهو لا ينالُها؛ فإنَّها للّه تعالى وحده"[3]، ولا سبيلَ لنَيل شيءٍ منَ العزَّة إلّا بالتّمسُّك باللّه تعالى ومنهجِهِ القَويم.

(1) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 35.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.

سِرُّ حذفِ جوابِ الشَّرط:

مَن طلَب الشّيءَ مِن غيرِ صاحبِه خابَ

في قولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ اسمُ شرطٍ جازم في محلّ رفع مبتدأً، و﴿كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ جملةُ الشّرطِ، وجملةُ الجوابِ محذوفةٌ تدلُّ عليها جملةُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾؛ لأنَّ ثبوتَ العزّةِ للّه ليس بمُرتَّبٍ في الوجود على حصولِ الشّرط، وساغَ قيامُ هذه الجملةِ مقامَ الجوابِ؛ لدلالتها عليه، وتقديرُ الجواب: (فليطلبْها مِنَ اللّه)، أو: (فليستجبْ إلى دَعْوة الإسلام)، وسِرُّ حذفِ الجوابِ - علاوة على الإيجاز - هو تحريكُ نفوسِ المُتلقّينَ للقيام في مقام طَلَبِ العِزَّةِ مِن طريقِ اللّه تعالى؛ ويساعدُ على ذلك تهيئتُهُم بالحذفِ للإمعانِ في التَّفكُّرِ في دليلِ الجوابِ؛ فإنَّ مَن فَقِهَهُ لم يطلبِ العزَّةَ إلّا مِنَ اللّه، أي: إنَّ اختصاصَ العزّة به تعالى موجِبٌ لتخصيصِ طلبها به تعالى، والمعنى على هذا الوجه: مَن كان يريد العزّة وطريقَها القويمَ، ويُحبُّ نيلَها على وجهها.

وثمّةَ **وجهٌ آخَرُ** مِنَ المعنى؛ وهو: مَن كان يريدُ العزّةَ بمغالبةٍ فلن يأخذَها؛ فإنَّ العزَّةَ ليست لغير اللّه، ولا تتمُّ إلّا للّه، وهذا المُغالِبُ مغلوبٌ، وإنَّما حُذفَ الجوابُ إبلاغًا في تقرير معناهِ معناهُ وتحقيقه، وثمّةَ **وجهٌ ثالثٌ** مِنَ المعنى؛ وهو: (مَن كانَ يريدُ عِلْمَ العزّة فلله العزّة جميعًا، فهو المتَّصِفُ بها)، وعلى هذا لا جوابَ محذوفٌ، وإنَّما المحذوفُ المضافُ إلى العِزَّةِ التي في الشّرط؛ وسِرُّ حذفه تصويرُ كمالِ الرَّغبةِ في إرادةِ العِزَّةِ[1].

معنَى (الفاء) ودلالةُ التّعبير بها:

(الـفـاءُ) داعٍ لـلـمـقـارَنـة بـيـنَ الـعِـزّةِ المطلوبةِ وعِزّةِ الله تعالى

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ رابطةٌ بينَ جُملةِ الشّرط وجملةِ الجواب في الأصل، ولَمّا حُذِف الجوابُ على بعض

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 431، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 269، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 12/ 268.

وجوه معنى جملةِ الشَّرط والجوابِ والجملةِ التي بعدَ الجوابِ كانت رابطةً بينَ الشّرطِ وهذهِ الجملة: (للّه العزة جميعا)؛ وفي هذا الرَّبْطِ في ظاهرِ اللَّفظِ إرشادٌ إلى الإسراعِ إلى طلبِ العِزَّةِ في ساحةِ دينِ اللّه تعالى ورضوانِه الأعظمِ.

العِزَّةُ للمليك الأعظمِ الخالق

علّةُ التّعبيرِ باسْمِ الجلالة:

عَبَّر القرآنُ باسْم الجلالة في قولِه تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾؛ تعليلًا في المعنَى للحُكْم الذي تُثْبتُه الجملةُ؛ لأنَّه الاسْمُ المُهَيْمنُ على جميعِ الأسماءِ والصِّفاتِ؛ فهو وحْدَهُ المُسْتَحِقُّ للعِزَّة كلِّها؛ على جهةِ الشُّمولِ والإحاطة.

في القصرِ نوعُ تعريفٍ بالألوهيَّة الحقَّة

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور:

في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ المُتعلّقانِ بالخبرِ على المبتدأ؛ لإفادة الاختصاصِ؛ أي: قَصْرِ عزّة الدّنيا وعزّة الآخرة على اللّه؛ بحيثُ لا يتجاوزُ المقصورُ المقصورَ عليه إلى غيرِه مطلقا؛ قصرًا حقيقيًّا مجازيًّا ادِّعائيًّا؛ لعدم الاعتداد بما للمشركين مِن عِزَّةٍ ضئيلة، أي: فالعزّةُ للّه لا لهُم[1]، وتوكيدُ الحُكْم بالقصرِ يواجِه إنكارَه مِن أهل التّكذيبِ والكفر، والقَصْرُ حَسْمٌ وتوكيدٌ؛ فيتناغَى مَعَ أسلوبِ الشّرط، ولا يُنافي دلالةَ القَصْرِ قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]؛ لأنَّ ما للّه تعالى وحدَه العِزّةُ بالذّات، وما للرّسول ﷺ بواسطة قُرْبه مِنَ اللّه، وما للمؤمنينَ بواسطة الرّسول ﷺ، وكأنَّه للإشارة إلى ذلك أُعيد حرفُ الجرِّ في جملةِ سورة (المنافقون)[2].

ليس كمِثْلِ عِزَّة الله عِزَّةٌ غيره

سِرُّ وضعِ المُظْهَر موضِعَ المُضمَر:

كان مِنَ المُمْكن أنْ يقولَ القرآن: (فلله جميعا) بحذفِ المبتدأ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.

﴿ٱلۡعِزَّةُ﴾؛ لدلالةِ قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ عليه، أوْ بذكرها بالضّمير: (هي)؛ ولكِنْ لَمّا كانت العِزّةُ مقصورةً عليه تعالى قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا كانَ مِنَ البلاغةِ التّصريحُ بلفظِها في سياقِ إثباتِها لِمَن هي له دونَ غيرِه مُطلقًا، فهي العِزّةُ القويّةُ الحاضرةُ، وما يدّعيه غيرُه من عزّةٍ فهي الضّعيفةُ الباليةُ الواهيةُ، وللإنباءِ بكمالِ المُغايرةِ بينَ عزّته تعالى والعزّةِ التي يُريدونها؛ فالعِزَّةُ له ولأهلِ دينِه حقٌّ، والعزّةُ لغيرِهم باطِلٌ.

دلالةُ مجيءِ لفظ ﴿ٱلۡعِزَّةُ﴾ معرّفًا:

الـلـه ﷻ؛ هو مصدرُ العِزِّ كلِّه

(أل) في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ للاستغراقِ؛ بقرينة ﴿جَمِيعًاۚ﴾؛ والمعنى: فلله أفرادُ العزّة في الدُّنْيا وأفرادُ العزّة في الآخرة؛ وإذا كان للّه تعالى ذلك فهو الإلهُ الحقُّ، وغيرُه الباطلُ، ويجوزُ أنْ تكونَ للجنسِ[1].

علّةُ التّعبير بـ﴿جَمِيعًاۚ﴾:

عِـزَّةُ الـلـهِ هـيَ العِزَّةُ!

يُعرَبُ ﴿جَمِيعًاۚ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ حالًا، أي: العِزّةُ كلُّها للّه، لا يَشِذُّ شيءٌ منها، فيثبتُ لغيره؛ لأنَّ العِزَّة المُتعارَفةَ بينَ النّاس كالعدمِ؛ إذ لا يخلو صاحبُها مِن احتياجٍ ووهَنٍ؛ والعِزَّةُ الحَقُّ للّهِ، وهذهِ الحالُ أفادَتْ الإحاطَةَ؛ لأنَّ السّياقَ لتقريرِ العِزَّةِ التي هي للّه، لا لغيرِه؛ فكانَتْ بمنزلة التَّأكيد للقصر الادِّعائيِّ؛ فحصلَتْ ثلاثةُ مؤكِّداتٌ؛ فالقصرُ بمنزلة تأكيدَيْنِ؛ لأنَّ الحَصْرَ ليس إلّا تأكيدًا على تأكيدٍ، وكلمةُ ﴿جَمِيعًاۚ﴾ بمنزلةِ تأكيدٍ[2].

سِرُّ فَصْلِ جملة ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ﴾:

إرشـادُهُـم إلى طريقِ عـزَّة الله إحسانٌ إليهم

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها بيانٌ لِما يُطْلَبُ به العِزَّةُ؛ وهوَ التَّوحيدُ والعملُ الصّالحُ؛ فالقرآنُ قدَّرَ استجابةَ أهلِ الكفرِ لكونِ العِزَّة للّه جميعًا؛ وأنَّهُم سألوا عن طريقِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 173، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 271.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 271.

تحصيلِ هذه العِزَّة؛ وسلوكِ السَّبيل إلى نَيْلِها؛ فأُجيبوا بأنَّه الطّاعةُ القوليَّةُ والفعليَّةُ؛ تحريكًا لأنْ يسألوا عنه، ويتأمَّلوا فيها؛ فغابَتِ (الواوُ)؛ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ[1].

علَّةُ التّعبيرِ بـ(إلى):

مَن كان إليه مآلُ الأمور كانَ الإلهَ الخالِقَ

عبَّر القرآنُ بـ(إلى) في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّه تعالى غايةُ الغاياتِ؛ وهذا مُؤسِّسٌ على قصرِ العزّة عليه تعالى؛ يؤيِّدُ هذا أنْ قيل: ﴿إِلَيۡهِ﴾ على الأصلِ، ولم يُقَل: (إلى اللّه)؛ وما دامَ مآلُ أحوالِ الإنسانِ إليه تعالى فعليه أنْ يَرْكَنَ إليه، ويُحصِّلَ العزَّة من دينه.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

التَّناظُرُ في الأسلوبِ كمالُ ترغيبٍ في عزّة الله

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ: ﴿إِلَيۡهِ﴾ على الفعلِ: ﴿يَصۡعَدُ﴾ في قوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، ودلالةُ التّقديم تفيدُ قصرَ صعودِ الكلم الطّيّب على اللّه تعالى قصرَ صفةٍ على موصوفٍ؛ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ وهذا القصرُ مُشاكِلٌ للقصرِ في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾؛ كأنَّ في هذا التَّشاكُلِ تنبيهًا على أنَّ القصرَ الثّانيَ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ﴾ تعليلٌ في المعنى للقصرِ الأوَّل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾؛ لدلالة القصرِ الثّاني على شُمولِ علْمِه تعالى وقدرتِه؛ ويُؤنِسُ بهذا التّعبيرُ عن ذي الجلال والإكرام بضمير اسم الجلالة في ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ على الظّاهر، دون إعادة اسمه ظاهرًا، وفي التَّقديم دلالةٌ على كمال الاعتدادِ بصعود الكلِم الطّيّب، أي: إليه يصِلُ الكلمُ الطّيّبُ الذي به يُطلبُ العزّة، لا إلى الملائكة الموكَّلين بأعمال العباد فقط، وهو يُعِزُّ صاحبَه، ويُعطي طلبَتَه بالذّات، وفي التّقديم إشعارٌ بأنَّ كلَّ ما يُقدَّمُ مِنَ الكلِم الطَّيِّب إلى غير اللّهِ لا طائلَ تحتَه[2].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 173.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 173، والراغب، المفردات: (صعد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 272.

كلُّ نفيسٍ سبيلُه شاقٌّ

علّةُ التّعبيرِ بالصُّعودِ:

عبَّر القرآنُ بالصُّعودِ في قوله تعالى: ﴿يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ وهو الإذهابُ في مكانٍ عالٍ؛ وهو مستعارٌ للبلوغ إلى عظيمِ القدر، والتّركيبُ بَعْدَ الاستعارةِ كنايةٌ عَنْ قَبول الكلمِ الطَّيِّبِ لديه تعالى، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ الصُّعودَ مجازٌ بالاستعارة عن قَبوله تعالى إيّاهُما؛ وهو غيرُ مُستساغ، وإنَّما يُستساغ إذا كان تركيبُه كنايةً عنه بعد الاستعارة المذكورة أوْ إذا لم تكن استعارةٌ، وذكر أيضًا أنَّ الصُّعود حقيقيٌّ؛ لأنَّ ثمّةَ مضافًا محذوفًا في: ﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، والتّقديرُ: إليه يصعد كَتَبَةُ الكلم الطّيّب، وذهَب بعضُهم إلى أنَّه استعارةٌ لِما يصِلُ مِنَ العبدِ إلى الله؛ كما استُعير النُّزولُ لِما يصِلُ مِنَ الله إلى العَبْدِ، وعلى كلٍّ فبينَ الصُّعودِ والعِزَّة مِنَ التناسب ما يستدعي اصطفاءَ الصُّعودِ الذي تدورُ مادَّتُه على الارتفاع والمشقَّة، وقيل: الصُّعودُ مجازٌ مرسَلٌ عن قَبوله بعَلاقة اللُّزوم، وقيل: لا مانعَ مِن اعتبارِ حقيقة الصُّعود للكلِم؛ فلله تعالى تجسيدُ المعاني، وكونُ الصُّعود إليه ﷻ مِنَ المُتشابه، وعلى كلٍّ فالتّعبيرُ به مُلائمٌ للعزّة المطلوبةِ مِن طريقِ دينِ الإسلام(1)، بقي أنّ معنَى الصُّعود وقعَ فعلًا مضارعًا؛ نظرًا إلى تجدُّد حصولِ الكلِم الطّيِّب مِنَ العبادِ؛ وأنَّ مِثْلَ الكلِم الطّيِّب ينبغي أنْ يَتكرَّرَ ويَكْثُرَ ويستمرَّ؛ لشرفِه في نفسِه أوّلًا، ولكونِ ذلك سبيلًا إلى غايةٍ نفيسةٍ؛ وهي العزّةُ التي للّه وحدَه.

تحصيلُ الكلِم الطيّبِ مُيَسَّرٌ على الخلق

علّةُ التّعبير بـ﴿ٱلۡكَلِمُ﴾:

﴿ٱلۡكَلِمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ جَمْعُ كلِمة، أوْ اسمُ جنسٍ جمعيٌّ، واحدُه كلِمةٌ، والمرادُ به الجاري على قوانينِ الشَّرْعِ عن نيَّةٍ حسَنةٍ وعقيدةٍ صحيحةٍ سواءٌ كان سِرًّا أوْ علَنًا؛ لأنَّه عَيْنُ الحِكْمةِ؛ فيُعِزُّ صاحبَه ويُثيبُه؛ فيتناولُ الذِّكْرَ والدُّعاءَ والاستغفارَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 467، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 272.

وقراءةَ القرآنِ، وإطلاقُ الكلِم على ذلك - وإنْ كان واحدُه الكلمة - بالمعنى الحقيقيِّ: ظاهرٌ؛ لتضمُّنه عِدَّةَ كلمات، ويجوزُ أنْ يكونَ القرآنُ عبَّر بالكلِم عنِ الكلام كما عبَّر عنه بالكلمة؛ مَجازًا مرسَلًا؛ لعَلاقة الجُزئيَّة، أوْ أنْ يكونَ القرآنُ عبَّر بالكلِم تأسيسًا على حَمْلِ مفردِه على المعنى المجازيِّ الذي هو الكلامُ، فإطلاقُ الكلِم على ذلك لتعدُّدِه بتعدُّدِ القائلِ، وكأنَّ القرينة على إرادة المعنى المجازيِّ للكلمة أو للكلِم الصّادقِ على الكلام الوصفُ بـ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾؛ بناءً على أنَّ ما يُستطابُ ويُستلذُّ إنّما هو الكلامُ دونَ الكلمةِ العَريَّةِ عن إفادة حُكْمٍ تنبسطُ منه النَّفْسُ أوْ تنقبِضُ، ودونَ الكلِم الّذي إفادتُه أَدنى مِنَ إفادة الكلام[1]، وإنّما عُبِّر بالكلِم دونَ الكلام؛ للإشارةِ إلى إمكانِ تحصيلِه ونَيْلِ العِزّة مِن طريقِه وسهولتِه والتّمكُّنِ منهُ؛ إبلاغًا في التّرغيبِ فيه.

بلاغةُ التّعريف بـ(أل):

قولُ الكلِم الطَّيِّبِ يَكْمُلُ بِهِ العبدُ

عرَّف القرآنُ ﴿ٱلْكَلِمُ﴾ بأل في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ لإرادة معنَى الجنس؛ أي: جنسُ الكلِم الطّيِّب؛ إشارةً إلى شُمول علمِه تعالى وقدرتِه، أوْ لإرادة معنى الكمالِ في وصفه، أي: الكلِمُ الطّيِّبُ الكاملُ؛ إبلاغًا في التَّرغيبِ فيه قولًا واعتقادًا، وتعريفُ الوصفِ: ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ تابعٌ لتعريفِ الموصوفِ.

دلالةُ الوصف:

لا حُجَّةَ لِمَن سكَت لسانُه عن قولِ الكلِمِ الطَّيِّبِ

وصَفَ القرآنُ الكلِمَ بـ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ إبلاغًا في التّرغيبِ في قولِه؛ على جهة التَّكرار والكثرة والاستمرار؛ لأنَّ معناه أنَّ العقلَ السّليمَ يستلذُّه ويستطيبُه؛ لِما فيه مِنَ الدّلالة على التّوحيدِ الذي هو مدارُ النَّجاةِ، والوسيلةُ إلى

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 431، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 468، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 174.

النَّعيم المُقيم، أوْ يستلذُّه الشّرعُ أوِ الملائكةُ ﵈، أوْ لأنَّه حسَنٌ يَقْبلُه العقلُ، ولا يرُدُّه[1]، وفي التّوصيفِ به إشارةٌ إلى علّة الحُكم عليه بالصُّعود، فاللّه طيّبٌ لا يقبلُ إلّا طيِّبًا.

سِرُّ الوَصْلِ:

التَّـواصُـلُ بينَ الجملتيْنِ قويٌّ جِدًّا

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على جملة: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ لِما بينهما مِنَ التناسُب؛ فهما جملتانِ خبريَّتانِ لفظًا ومعنًى، والعملُ الصّالحُ هو الألْصقُ بالكلِم الطَّيِّبِ، والعملُ مقابلٌ للكلِم، أي: الأفعالُ التي ليست مِنَ الكلام، والرَّفْعُ قريبٌ مِنَ الصُّعودِ، والضَّميرُ الفاعلُ المستترُ للرَّفْعِ إمّا ضميرُ الكلم الطّيّب، وإمّا ضميرُ اسم الجلالة الذي في قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾، وبهذا العطف اكتملَ نيلُ العزّة باللّه تعالى، وذلك بالكلِم الطّيّب الدّالِّ على الإيمان بـ(لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه) والعملِ الصّالح المأمورِ به شَرعًا، فهو بمثابةِ قوله تعالى المتكرّر: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25].

نكتةُ تقديمِ القول على العمل:

الدَّعوةُ إلى نَيْلِ الـعِـزَّةِ دعـوةٌ إلى الإيـمـانِ والإسلامِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ مِن تمام قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ لأنَّ كلًّا منهما سبيلٌ لنَيْلِ العِزّةِ الحقَّةِ؛ الأوَّلُ القولُ، والثّاني العملُ، وإنَّما قُدِّم الأوَّلُ؛ لأنَّه أصلٌ للثّاني؛ لاشتمالِه على التّوحيدِ الذي هو رأسُ الإيمان؛ فمَثَلُ نَظْمِ ترتيبِ هاتيْنِ الجملتيْنِ كمَثَلِ نَظْمِ ترتيبِ الإيمانِ والعملِ الصّالح في القرآن؛ فإنَّ الإيمانَ مُقدَّمٌ عليهِ لا محالةَ، أوْ لأنَّ القولَ وسيلةٌ للعملِ؛ فقدَّم الوسيلةَ على الغايةِ؛ لأنَّ السّياقَ للإرشادِ إلى نَيْلِ المطلوبِ؛ وهو العِزَّةُ.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 431، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 174.

علّةُ التّعبير بالعَمَل معرّفًا:

القــــولُ كــالــدَّعْـوى، والفعلُ كدليلِها

عبَّر القرآنُ بالعمَل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾؛ ليُقابِلَ القولَ المدلولَ عليه بـ:﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ في الجملةِ السّابقةِ؛ إرشادًا إلى ضرورةِ مُصاحبةِ العمَل الصّالح للقولِ؛ لأنَّ العملَ دليلُ صدق القول، والمرادُ بالعمل هنا ما هو فِعْلٌ، و(أل) للجنس؛ إرشادًا إلى ضرورةِ التَّكافؤِ بينَ القولِ والعملِ، وإلى أنّ أيَّ عملٍ صالحٍ مقبولٌ ومَرضيٌّ عنه، وتعريفُ الوصفِ: ﴿ٱلصَّٰلِحُ﴾ تابعٌ لتعريفِ الموصوفِ.

سِرُّ إفرادِ (العمل):

العملُ الصّالحُ شـريــفٌ في نفسِه؛ وإنْ قَلَّ

عبَّر القرآنُ بالعمَلِ مفردًا دونَ الجَمْعِ؛ إشارةً إلى التَّمكُّنِ مِن إتيانِه، وأنَّه في مَقْدورِ أهلِ التَّكْذيبِ والكفرِ؛ إبلاغًا في التَّرغيبِ فيه، وإشارةً إلى مُلاحَظةِ التّوحيدِ في هذا العمل أوْ هذه الأعمالِ؛ فبذلك تُنالُ العِزَّةُ؛ معَ ضميمةِ دلالةِ: (أل) على الجنسِ.

بلاغةُ الوصفِ بـ ﴿ٱلصَّٰلِحُ﴾:

بالعملِ الصّالحِ يـصـلُـحُ الـعـبـدُ لِنَيلِ العِزَّةِ

الوصفُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ كاشِفٌ للعملِ؛ ويدلُّ عليه قولُه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ لأنَّ العملَ المُطابِقَ للكلِمِ الطَّيِّبِ لا بُدَّ أنْ يكونَ صالحًا، والعملُ الّذي يرفعُه اللّه أوْ يرفعُه الكلمُ الطَّيِّبُ لا بُدَّ أنْ يكونَ صالحًا؛ ففي التَّصريحِ بالوصفِ إبلاغٌ في التّرغيبِ في هذا العملِ، وتنبيهٌ لطيفٌ على سوءِ عملِ الذين كفروا؛ وتمهيدٌ لتقريرِ ضدِّ هذا العمل الصّالح في جانبِ الكلمِ الخبيثِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ لأنَّ القَصْدَ إلى المقارنةِ بينَ العِزَّتَيْنِ عزّةِ أهلِ الكفرِ والشّركِ وعزّةِ الإسلامِ.

نكتةُ تقديمِ المسند إليه:

لــزومُ الـعـمـلِ الـصّـالـحِ شاقٌّ على النَّفسِ

قدَّم القرآنُ المسندَ إليه ووصفَه على خبره الفعليّ المُثبَتِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾؛ وفي هذا تمكينٌ وتحقيقٌ للحُكمِ الَّذي تُنتجُهُ الجملةُ في النَّفْسِ؛ عن طريقِ تشويقِها إلى معرفتِه

عند الإخبار بالمسنَد إليه، ومِن قبلِ الإخبار بالمسند؛ وداعي ذلك أنَّ الفعل شاقٌّ على النَّفْسِ؛ فكأنَّها تهربُ منه، فحقَّقَه القرآنُ فيها؛ إرشادًا لها إلى لزومه؛ فإنَّ القولَ يثبتُ بالفعل، ويتحقَّقُ ويتمُّ ويكمُلُ به؛ وبهذا التّقديم حصلت المغايرةُ بين الجملتَيْنِ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ و: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾.

علّةُ التّعبيرِ بالرّفعِ:

مَـن رَفَـعَ اللهُ عملَه الصّالحَ نالَ العزَّةَ

جعَل القرآنُ خبرَ العملِ الصّالح فعلَ (الرَّفْعِ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾؛ والرَّفْعُ نقلُ الشّيءِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ أعلى منه، وحقيقتُه نقلُ الجسم مِن مقرِّه إلى أعلى منه، وهو كنايةٌ للقَبول عند التَّعظيم؛ لأنَّ العظيم تتخيَّلُه التَّصوُّراتُ رفيعَ المكانِ، وإنَّما لم يُعْطَف العملُ الصّالح على الكلم الطّيّب؛ فيكون مسندًا إلى الصُّعودِ أيضًا، وأُخْبِرَ عنه بجملة: ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾؛ مع تساوي الخبرَيْنِ؛ لفائدتَيْنِ:

أوَّلُهما: أنَّ الكلِم الطّيّبَ يصعَدُ بصاحبه إلى مقامِ القَبول عند اللّه تعالى؛ لأنّه المطّلعُ على ما في السَّرائر وحدَه، والعمل الصّالح يرفعُ صاحبَه على غيره مِنَ النّاس، وفي كلٍّ مِنَ الصُّعود والرَّفع رفعةٌ وعِزّةٌ، فلا عزّةَ تُبتغى إلّا بالكلِم الطيّب للّه، والعملِ الصّالح من أجلِ اللّه، فالصُّعودُ يكونُ للّه تعالى والرّفعُ يكونُ بالنّسبة للنّاس.

وثانيهما: أنَّ الكلم الطّيّب يتكيَّفُ في الهواء؛ فإسنادُ الصُّعود إليه مناسبٌ لماهيّته، وأمّا العمل الصّالح فهو كيفيّاتٌ عارِضةٌ لذواتٍ فاعلةٍ ومفعولة، فلا يُناسبُه إسنادُ الصّعود إليه، وإنّما يحسُنُ أنْ يُجعل متعلّقًا لرفعٍ يقَعُ عليه، ويسخّره إلى الارتفاع[1].

دلالةُ المضارعة:

تَـكـرارُ العمل الصّالحِ شَرَفٌ آخَرُ

نظَم القرآنُ معنى (الرَّفْعِ) فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾؛ نظرًا إلى تجدُّدِ العمل الصّالحِ، وإرشادًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 272 - 273.

إلى تَكرارِه والإكثارِ منهُ واستمرارِه؛ حتَّى يكونَ مُصاحبًا مُكافئًا للكلِم الطَّيِّبِ؛ ليحصُلَ التّناسُقُ المُؤدّي إلى نيل ما هو نفيسٌ؛ وهو العِزَّةُ الحقَّةُ الباقيةُ.

بلاغةُ مَرجِعِ الضّميريْن:

تحصيلُ النَّفيسِ يتطلَّبُ مُكابَدةَ المشقَّةِ

الضّميرُ المستترُ الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ عائدٌ إلى مَعاد الضّمير المجرور في ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ والضّميرُ المنصوبُ في ﴿يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ عائدٌ إلى العمل الصّالح، أي: يرفعُ اللّهُ العملَ الصّالحَ؛ وفي ذلك بيانُ أنَّ الفعلَ أعلى مِنَ القولِ؛ لا مِن جهة المقارنة في الذّات، وإنَّما مِن جهة أنَّه المقصودُ بالذّاتِ، والقولُ وسيلةٌ إليه؛ فاللّه سبحانه هو الذي يتولَّى رفْعَه، ولصاحبِه عندَه عِزٌّ منيعٌ، ونعيمٌ مقيمٌ، وعملُه يفوزُ؛ وفي ذلك كلِّه تقريرٌ لنفاسة العِزَّة المطلوبة التي يُرشدُ السّياقُ إلى نيلِها، وأنَّ النَّفيسَ لا بُدَّ مِن مكابدة المشقَّة؛ للحصولِ عليه، والمشقَّةُ تكونُ في الأفعال، لا في الأقوالِ؛ فقصدُ السّياقِ المذكورُ يؤيِّدُ ما ذكرناه مِن تفسير الضّميريْنِ المرفوعِ والمنصوبِ[1].

سِرُّ الوَصْلِ:

التَّـواصُـلُ بينَ المعاني في البيانِ العَليِّ سَخيٌّ

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على مجموع قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾؛ لِما بينهما مِنَ التَّناسُب، إذ يقترنُ في الخيالِ حالُ الشّيءِ بضدِّه؛ وبعدَ أنْ عرفنا حالَ المُعتزّين باللّه بسببِ الكلِم الطّيّب والعملِ الصّالح ينتقلُ الذّهنُ إلى بيانِ حالِ المُعتزّين بالغرور بسببِ التّكذيبِ والمكر، فلا عزّةَ لهم ولا قيمةَ؛ أي: لَمّا بيَّن تعالى حالَ الكلم الطّيّب والعمل الصّالح بيَّنَ حالَ الكلم الخبيثِ والعملِ السّيِّءِ وأهلِهما؛ ففي الأوّل بيانُ ما يحصّل العزّةَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 272.

مِنَ الحِكْمة، وفي الثّاني بيانُ ما يُكسِبُ الذِّلَّة، ويوجب النِّقْمةَ مِن رديء الهِمَّة.

وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ المعطوفَ عليه جملةُ الشّرط فقط: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾؛ إذِ المعطوفُ فريقٌ مِنَ الّذين يُريدون العزّة مِن أهل الشّرك، وإنَّما خُصّوا بالذِّكْر؛ لِما اختصوا به مِن تدبير المكْر؛ وهو مِن عطف الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمام بذِكْرِ الخاصِّ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مِن عطفِ الشّاهدِ على الحُكْم؛ ففي إخراج قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ مخرجَ الشّرط نوعُ توبيخٍ وتنبيهٌ للمخاطَبينَ على خطأِ رأيهم وفسادِ طريقتهم وتضليلِهم فيما هم فيه مِن طلَبِ العزّة مِن غير مَوضعِها ومكانِها؛ كأنَّه قيل: أيُّها الضّالّون تنبَّهوا على خطئِكم، وتيقَّنوا أنْ ليس الوصولُ إلى المطلوبِ ما أنتم عليه مِن رَوْمِ العزّة مِن عندِ غير اللّه؛ لأنَّ العزّة كلَّها للّه وحدَه، وطريقُ الوصول إليها الإيمانُ والعملُ الصّالحُ، واعلموا أنَّ مَن أعزَّه اللّه فلا مُذِلَّ له، ومَن أذلَّه فلا مُعِزَّ له؛ ألا ترونَ إلى قريشٍ حين بذلوا جُهَيْداهُم في إطفاء نور اللّه، وإذلالِ مَن أعزَّه اللّه ورفَع من قدرِه، ومكروا تلك المنكراتِ السّيِّئات؛ مِن الإثبات والقتل والإخراج، وأبَى اللّه إلّا أنْ يُتِمَّ نورَه كيف قلَبَ الأمرَ عليهم؛ حيثُ أخرجهُم مِن مكّة، وأبادَهُم بالقتل في بدر، وأثبتهم في قَليبِه[1].

نكتةُ التّقديمِ:

مِنَ البلاغة العامَّة للمُغايَرة اللَّفْتُ والتَّنْبيهُ والإيقاظُ

قُدِّم قولُه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ لجريان ذِكْر عزّة اللّه؛ فقُدِّم ما هو المناسبُ لآثار عِزّة اللّه في حِزْبه وجندِه[2]، ولأنَّ الآيةَ سيقَتْ للإرشادِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، والطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 12/ 616، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 468، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 173.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 273.

إلى طلبِ عِزّة اللّهِ مِن بعد إقامة دليلٍ يُنْتِجُها، ويشهدُ لها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾؛ فبيَّن القرآنُ أوّلًا السّبيلَ إلى ذلك، ثم حقَّقَه وأكَّدَه بما بعدَه.

علّةُ التّعبيرِ بالموصولِ:

اللّه يُخبرُهم بأنّه عليمٌ بمكرِهم رقيبٌ عليهم

عبَّر القرآنُ عن مُريد العزّة بغير اللّه تعالى بـ(الاسم الموصول) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ مضمون الصِّلة علّةٌ فيما يرِدُ بعدَها مِنَ الحُكْم، والمعنى: لهم عذاب شديد؛ جزاءَ مكرِهم.

علّةُ التّعبيرِ بالمكرِ مضارعًا:

زُيِّنَ للذين كفروا مكرُ السّيِّئات

جعَل القرآنُ صلَةَ الموصولِ مكرَ السيئات في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، "والمكرُ تدبيرُ إلحاق الضّرّ بالغير في خفية؛ لئلّا يأخذ حذرَه"(1)؛ لأنَّ المكرَ يصلُح أنْ يكونَ أثَرًا قويًّا مِن آثارِ تزيينِ سوءِ العملِ حسنًا؛ فقد زُيِّن لأهل الكفر والشّرك حُسْنُ إيذاءِ نبيِّنا ﷺ وأهلِ الإيمانِ إيذاءً خفيًّا، ولأنَّ مريدَ العزّة بغير اللّه مِن شأنِه ذلك المَكرُ، كما تتحقّقُ به المقابلةُ مع الكلِم الطّيّب والعملِ الصّالح؛ إذِ المكرُ يشتملُ على قولٍ وفعلٍ معًا، فهو في ذاتِه من جنس الأقوال وارتباطِه بالسيّئات يُعطيه معنى الفعليَّة، ونظَم القرآنُ معنى المكر فعلًا مضارعًا لحكاية الحال الماضيةِ؛ مِن مكرِ قريشٍ بنبيِّنا محمّدٍ ﷺ؛ لأنَّ الآية في الّذين مكروا برسول اللّه ﷺ بدار النَّدْوة؛ ففيه تصويرُها في مشاهدة السّامع، ولمّا كان لفظُ الآية صادقًا على ذلك السّبب وعلى غيرِه - إذِ العبرةُ بعُموم اللّفظ لا بخصوص السّبب؛ إذا تحقّقت صورةُ السّبب - كانَ في المضارع دلالةٌ على تجدُّد مَكرهم واستمرارِه، وأنَّه دأْبُهُم وهِجِّراهُم(2).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 12/ 616، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

سِرُّ حذفِ الموصوف:

في الحذفِ تبشيرٌ ووعيدٌ

﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ منصوبٌ، وعلامةُ نصبه الكسرةُ على أنَّه وصفٌ لمَصدرِ (المكر) نائبًا منابَ المفعولِ المُطلَق المُبيِّن لنوع الفعل؛ أو لِما في حُكْم المَصدر، فكأنَّه قيل: (والذين يمكرون المكر السّيّء)، أو (أصنافَ المكرِ السّيّء)، وفي تقدير ذلك مبالغةٌ في الوعيد الشّديد على قصدِ المكر، وفي حذفِ الموصوفِ وإبقاء الصِّفة إشعارٌ بكمالِ الصّفة في الموصوفِ، والتصاقِ الموصوفِ بها دون أدنى انفكاك؛ فالموصوفُ محضُ سوء، وبأنَّ السّوءَ هو مقصدُ الّذين يمكرونَ وكلُّ همِّهم، ونبَّه الآلوسي على أنَّ في الحذفِ إشارةً إلى عدم تأثيرِ مَكرِهم[1].

سِرُّ حذفِ المتعلِّقِ:

معَ مبالغتِهم في المكرِ نجّى الله نبيَّه ومَن معَه

منَ المقرَّر أنَّ فعلَ (المكر) يتعلَّق بالمضرورِ بواسطة (الباءِ) التي للمُلابسة؛ يُقال: مكرَ بفلان، والقرآنُ قال هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وحذف المتعلّق؛ لأنَّه ضمَّن: ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ معنى: (يكسبون أو يقصدون).

والوجهُ أنَّه لا تضمينَ، وإنَّما غابُ المضرورُ مِنَ الكلامِ وهو نبيُّنا ﷺ، ومَن معَه من أهل الإيمان؛ تنزيهًا لمقامه الشّريفِ ﷺ، ولأنَّ الآية قرّرت أنَّ العزّة جميعًا لله، ومعلومٌ أنَّ العزّةَ لرسوله بواسطة قُربه مِنَ اللّه، وأنّ العزّة لأهل الإيمان بواسطةِ اتّباعهم لرسولِهم؛ فلن يتمكَّنَ أهلُ الكفر والشّرك منهم؛ وفي ذلك تمهيدٌ للإخبار عن مكرهم بأنّه: ﴿يَبُورُ﴾.

علّةُ التّعبيرِ بالسّيّئاتِ:

مكرُ السَّيِّئاتِ عندَ أهلِ الكفرِ حَسَنٌ جدًّا!

عبَّر القرآنُ بما هو مِنَ السّوءِ؛ وهو: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ لتحصُل المقابلة

(1) الزمخشري، الكشاف: 12/ 618، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

بينَ: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ و:﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾؛ لأنَّ السّوء ما يعُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدّنيويّة والأخرويّة ومِنَ الأحوال النّفسيّةِ والبدنيّةِ والخارِجَةِ، وليُنَبِّه في لُطْفٍ على أنَّ المُحدَّثَ عنه مُريدي العزّة مِن جنسِ مَن زُيِّن له سوءُ عملِه فرآه حسَنًا، وأنَّ العِزَّة الباطلةَ التي يطلبونها بالكفر والشّرك زُيِّن لهم أنّها العِزّة الحقّةُ، وبذا يتحقّقُ الطّباقُ بينَ ﴿ٱلصَّٰلِحُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ إذِ الصّالحُ يدلُّ على العمل الحسنِ المقابلِ للعمَل السّيّء.

بلاغةُ تعريفِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وجمعِها:

ارتكبوا بابًا مِنَ السَّيِّئاتِ؛ كي ينالوا العزَّة!

عرَّف القرآنُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بـ(أل)، وتعريفُها تابعٌ لتعريفِ موصوفها المقدّر بـ(المَكَرات)، واحدتُها (مَكْرَةٌ)، فيكون الموصوف مقدّرًا مجموعًا بناء على أنّ صفته - ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ - كذلك؛ و(أل) فيه للجنس، فكذلك في الصّفة؛ والتّعريف هو تعريفُ الجنس[1]، أي: جنس السّيِّئات؛ مِنَ الأقوال والأفعال الماكرة التي تكونُ منهم، قال ابنُ عاشور: "وكان حقُّ وصف المصدر أنْ يكون مفردًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، فلَمّا أريدَ هنا التّنبيهُ على أنَّ أولياءَ الشّيطان لهم أنواعٌ مِنَ المكر عُدِل عنِ الإفراد إلى الجمع، وأوتيَ به جمعَ مؤنَّثٍ؛ للدّلالة على معنى الفَعَلات مِنَ المكر؛ فكلُّ واحدةٍ مِن مكرِهم هي سيِّئةٌ... وأنواعُ مَكَراتهم هي ما جاءَ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ [الأنفال: 30]"[2].

وعبّر القرآنُ بجمع القِلّة؛ تصويرًا بالجمعيَّة لكثرةِ ما يكونُ مِنَ المَكَراتِ السّيّئات مِن هؤلاءِ الّذين يريدونَ العِزّة مِن غير طريق اللّه، وهذا صورةٌ لعظيم رغبتِهم فيها، وفي القِلّة إشارةٌ إلى ضَعْفِها وبُطلانِها وحَقارتِها؛ ذاتًا وصفةً وأثرًا ومآلًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

بلاغةُ تقديمِ الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾، ومعناه:

مَـــنِ اخـتُـصَّ بـشيءٍ وجـدَه لا محالةَ

(اللّامُ) في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فيها معنى الاختصاصِ؛ وهذا تمهيدٌ للقصرِ الحاصلِ بعدَ ذلكَ بتقديم ﴿لَهُمْ﴾ على ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، وتحقيقٌ لهُ، وهذا إبلاغٌ في تقريرِ العذابِ الخاصِّ بهم، وفي هذا كلُّ ترهيبٍ مِن مَكرِ السَّيِّئات، وقدَّم النّظمُ الجارَّ والمجرورَ على المسنَد إليه ووصفِه: ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ لإفادةِ قصرِ العذابِ الشّديدِ على الذين يمكرونَ السّيّئات؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ؛ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنَّ هذا المكرَ الموجِب للمقصورِ لا يكونُ إلّا منهم، وبنَى الجملةَ على القَصْر؛ لأنَّه يُشْعِرُ بالخُصوصيَّةِ والتَّفْرقةِ والتَّمييزِ؛ فكان الألصقَ بقصْدِ التَّفْرقةِ بينَ العِزّةِ التي يريدونَها وأهلِها الماكرينَ وبينَ العِزّةِ التي هي للّه وحدَه، وقد اختارَها أهلُ الإيمانِ، والقَصْرُ تَشْديدٌ في تقريرِ الحُكْمِ؛ وهو بهذا ينظرُ إلى شِدَّةِ أهلِ الكفرِ والشّركِ في سبيلِ تحصيلِ العِزَّةِ، ولَمّا كانوا طالبينَ للعزّةِ بقوَّةِ رغبةٍ وعنفوانِ النَّفْسِ، فكان لسانُ حالِهم مُنكِرًا للآخرةِ وما يكونُ فيها مِن جزاءٍ وعقابٍ معَ إنكارِهم ذلك بلسانِ المقالِ واجهَهُم القرآنُ بالتّوكيدِ الذي ينطوي عليه القصرُ.

علّةُ التّعبير بـ(العذاب) منكّرًا:

الـجـزاءُ مِـن جنسِ العملِ

قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: جزاؤهُم المُؤسَّسُ على مضمونِ جملةِ الصِّلةِ؛ فعُبِّر بالعذابِ؛ لشدّةِ الإيذاءِ الحاصلِ بالمكرِ؛ لأنَّه يكونُ في خفيةٍ؛ وقد مَرَّ في تفسيرِ الآيةِ السّابعة مِن (سورة فاطر) أنَّ أصلَ العذابِ الضَّرْبُ، ثم استُعير في كلِّ شِدَّةٍ؛ وهو بهذا توطئةٌ لوصفِه: ﴿شَدِيدٌ﴾، ونظَم القرآنُ المسندَ إليه: ﴿عَذَابٌ﴾ نكرةً؛ للدّلالةِ في نورِ الصِّلةِ والصِّفةِ واسميَّة الجملةِ على تعظيمِه وفخامته

وتهويله، أي: هو عذابٌ "لا يُقادَرُ قدرُه، ولا يُؤْبَه عندَهُ؛ لِما يمكرونَ"(1)، وتنكيرُ الوصفِ: ﴿شَدِيدٌۖ﴾ تابعٌ لتنكيرِ الموصوفِ: ﴿عَذَابٌ﴾؛ فهو تمكينٌ وتحقيقٌ له.

دلالةُ الوصف بـ﴿شَدِيدٌۖ﴾:

أيُّ نَفْسٍ تُطيقُ عذابَ اللهِ الشّديدَ؟!

وصَف القرآنُ العذابَ بـ﴿شَدِيدٌۖ﴾ في قوله: ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌۖ﴾ معَ أنَّه مدلولٌ عليه ضِمْنًا بكلمة: ﴿عَذَابٌ﴾ المنكَّرة؛ إبلاغًا في تقرير شدّة الجزاء؛ لشدّة الإيذاء بمكرِ السّيّئات؛ إبلاغًا في التَّرهيب مِن ذلك المكرِ الذي كلُّه شَرٌّ وسوءٌ مَحْضٌ، وفي توصيفِ العذاب بـ(الشّديد) مبالغةٌ؛ لأنَّ (فعيلًا) موضوعٌ للمبالغة أوْ صفةٌ مشبّهةٌ دالّةٌ على الثّبوتِ والدّوام، وإنّما اختارَ توصيفَ العذاب بـ(الشّدّة) دون العظيم أوِ الأليم وغيرِهما؛ لأنَّ مكرَ السّيّئات حرصٌ على إيقاعِ أنواعِ الأذى بكلّ دقّةٍ وخفاء، فكانتِ الشّدّةُ موازيةً له ومستلزمةً للعظمةِ والإيلامِ.

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّة:

الاسميَّةُ الثَّوبُ العامُّ الذي احتوَى المعنَى

قولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ﴾ خبرُ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ وهو مُكوَّنٌ مِن خبرٍ مقدَّم، ومبتدأٍ مؤخّر؛ ونَظْمُ جزائِهم مِن إثباتِ العذابِ الشّديدِ لهُم في صورة هذه الجملةِ الاسميَّةِ ملائِمٌ لشدَّة العذابِ، وتحقيقٌ لها في أنفس الماكرين المُكذِّبين.

دلالة الواو في قوله ﴿وَمَكۡرُ﴾:

خسر الماكرون الدُّنيا والآخرة

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ عاطفةٌ للجملةِ بعدَها على جملةِ: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ﴾؛ فهي في حُكْم الخبرِ عنِ الّذين يمكرونَ السّيّئات، وأفادَ المعطوفُ عليه الجزاءَ للمكرِ بالعذابِ الشّديد، وأفادَ المعطوف زوالَ ذلك المكرِ؛ لأنَّ المكرَ السّيِّءَ لا يحيقُ إلّا بأهلِه.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 468.

نكتةُ تقديمِ مصير الماكرين إلى العذاب على مصير مكرهم إلى البوار:

قدَّم ما يكونُ في الآخرةِ على ما يكون في الدّنيا والآخرة معًا؛ وهو: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ على ما يكونُ في الدُّنيا فقط؛ وهو: ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، وفي التّقديم إبلاغٌ في تقرير بوار مكرِهم، وخيبةِ عملِهم؛ كأنَّه ذُكِر مرَّتَيْنِ؛ مرّةً صراحة في عجُز الآية، لأنَّ الإخبارَ بأنَّ لهم عذابًا شديدًا في الدّنيا والآخرة يلزمُ منهُ ثبوتُ مضمون بوارِ مكرهم، والمبالغةُ في تقرير بوار مكرِهم مبالغةٌ في تقرير أنَّ العزّة التي يريدونها كخيط العنكبوت؛ فهي واهيةٌ باليةٌ باطلةٌ، فالعِزّةُ للّه وحده، وهي العِزَّةُ الحَقَّةُ؛ فعليهم أنْ يطلبوها في اتِّباع دينِ الإسلام، ولا يبعدُ أنْ يكونَ تقديمُ الجزاءِ الأخرويّ في مقابلِ السّيِّئات، وتأخيرُ بوارِ مَكرهم في مقابلةِ فِعلهم المكرَ على قاعدةِ اللّفِّ والنَّشرِ غيرِ المرتَّب.

بوارُ المكرِ يُنْتِجُ فـواتَ نَيْلِهِم العِزَّةَ

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

أضافَ القرآنُ المكرَ إلى الإشارةِ لُمريدي العِزّة الماكرينَ في قوله تعالى: ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ إشارةً إلى لزومِهم مَكْرَ السَّيِّئات؛ كأنَّه مُخْتَصٌّ بهم؛ وكأنَّهم لا يكونُ منهم سِواهُ؛ فهم يَتَفَنَّنونَ فيه، ويُبالِغون فيه؛ تمهيدًا للإخبارِ عنهُ بأنَّه يَبورُ.

تفنَّنوا في مَكْرِ السَّيِّئاتِ حتَّى اخْتُصّوا به!

غرضُ التّعريفِ باسْمِ الإشارة:

عبَّر القرآنُ عن مُريدي العزّة الماكرين بـ(اسم الإشارة) في قوله تعالى: ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ دونَ الضّمير الذي هو مُقتضى الظّاهر؛ لتمييزِهم أكملَ تمييز؛ بسبب ما هم فيه مِنَ الشَّرِّ والفسادِ ممّا يُميِّزُهم عن سائر المُفسدين، واشتهارِهم بذلك؛ فيكون ذلك صورةً لتمييز (المكرِ) المضافِ إليهم ووضوحه في علم اللّه تعالى وعلم رسوله ﷺ؛ بما أعلمَه اللّهُ به منه؛ فكأنَّما أُشير إليهم وإلى مَكرهم باسْمِ إشارةٍ واحدٍ على سبيلِ الإيجاز، ومعنَى البُعْدِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾

تميَّزوا في المكرِ لإرادةِ تميُّزِهم بالعِزَّةِ

يُنبِّهُ على ترامي أمرِهم في الطُّغْيان، وبُعْدِ منزلتِهم في العُدوان، أي: ومكرُ أولئكَ المُفسدينَ الَّذين أرادوا أنْ يَمكروا به ﷺ[1].

الموقعُ الإعرابيُّ للضّمير ﴿هُوَ﴾ ودلالتُه:

قَصْرُ البَوارِ على مَكْرِهِم اعتناءٌ بهلاكِهِم

الضّميرُ المُتوسِّطُ بين ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿يَبُورُ﴾ في قوله: ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ضميرُ فَصْلٍ يُفيد القصرَ، أي: مكرُهم يبورُ دون غيرِه، ومعلومٌ أنَّ غيرَه هنا تعريضٌ بأنَّ اللّٰه يمكرُ بهم مَكرًا يُصيبُ المَحَزَّ منهم؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54][2]..

علّةُ التّعبيرِ بـ(البوار):

مَكْرُ السَّيِّئاتِ والعِزَّةُ كالنَّقيضيْنِ؛ لا يجتمعانِ أبدًا

أخبرَ القرآنُ عن مكْرِ مُريدي العِزّةِ بـ(البَوارِ) دون الهلاكِ في قوله تعالى: ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ إبلاغًا في تقرير هَلاكِه؛ مُراعاةً لشدّة الإيذاءِ فيه، وإشارةً إلى أنَّ هذا المكرَ لا يُحقِّقُ لهم العِزَّةَ التي يُريدونها؛ لبُطْلانِ أثَرِه وفسادِه؛ لأنَّ البوارَ لا خيرَ فيه؛ لأنَّه فرْطُ الكَساد، كسادُ التّجارة وعدمُ نَفاقِ السِّلْعة؛ وفرْطُ الكساد يؤدّي إلى الفساد؛ فلأجل هذا عُبِّر بـ(البوار) عنِ الفساد، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة؛ بجامع عدم التّأثيرِ في كلٍّ؛ فالبوارُ فيه معنى الهلاكِ والفسادِ وزيادةٌ، وقد يكون استعارةً لخيبةِ العملِ، والمآلُ واحدٌ[3].

دلالةُ المُضارعة في ﴿يَبُورُ﴾:

إنَّ في بوارِ مَكْرِ قريشٍ لعبرةً لمَن يخشَى

نظَمَ القرآنُ معنَى البَوارِ فعلًا مضارعًا في قوله ﴿هُوَ يَبُورُ﴾؛ لحكايةِ بوارِ مكرِ قريش الذي أخبرتْ به آيةُ الأنفالِ، وتصويرِها في مشاهدة المُتلقّين؛ كما نُظِم معنى المكر فعلًا مضارعًا ﴿يَمۡكُرُونَ﴾،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 208، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 468، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 274.

(3) الراغب، المفردات: (بور)، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 275.

وفيه أيضًا ترهيبٌ شديدٌ مِنَ المكرِ؛ لدلالتِه على تجدُّد البوار؛ كلّما تجدَّدَ شيءٌ مِن مكرِهِم؛ "فالمضارعُ للاستمرارِ التَّجدُّديِّ"[1].

سِرُّ ذِكْرِ أهلِ السّوءِ وجزائِهم، وغيابِ أضدادِهم:

في الـذِّكْـرِ والـغـيـابِ مَعًا إحسانٌ إلى مُريدِ العِزَّةِ

اشتمَل القِسْمُ الثّاني مِنَ الآية على تفصيلِ حالِ أهلِ الكلم الخبيثِ والعمَلِ السّيّء وجزائِهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾، في حينِ أجملَ في قوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ ذكرَ جزاءِ أهل الكلِم الطّيّب والعمل الصّالح وإنْ فُهِم مِنَ الصُّعود والرّفع؛ لأنَّ ذكرَ أهل السّوء وجزائهم في القِسْم الثّاني إبلاغٌ في طلبِ تركِهم ما هم عليهِ والتَّخَلّي عنه؛ والذين يَطلبون به العِزّةَ الباطلةَ، فهم المقصودونَ في الآية بالإرشاد إلى العِزّة الحقَّة وطريقِها القويم، وأمّا أهلُ الإيمانِ فاقتُصِرَ في جزائهم على ذكر عزّتِهم من خلال الصُّعود والرَّفع لهم عمَّن سِواهم.

وفي الآية تقديرُ بَيانِ مَصير أصحاب الكلم الطيب والعمل الصالح، من العزّة والنعيم المقيم في الآخرة، من مدلول المقابلة مع مصير أهل المكر المذكور في الآية، وأمّا مصيرهم في الدّنيا فهو الصعود والرّفعة، في مقابل البوار المستحقّ على أهل المكر، وقد يأتي على وجه تقدير الإيجاز، والله أعلم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرادة والاختيار والمشيئة:

الإرادةُ أعـمُّ منهما مِن بعضِ الجهات

الإرادةُ: تكون لِما يَتراخَى وقتُه، ولِما لا يتراخَى، وقيل: هي العزمُ على الفعلِ أوِ التَّرْك بعد تصوُّر الغايةِ المترتِّبة عليه من خيرٍ أو نفعٍ أو لذَّةٍ ونحوِ ذلك، وهي أخصُّ مِنَ المشيئةِ من جهة وأعمُّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 176.

منها مِن أخرى، وأعمُّ مِنَ الاختيار، فالاختيارُ: إرادةُ الشّيء بدلًا مِن غيرِه، ولا يكونُ مع خُطور المُختارِ وغيرِه بالبال، وأصلُ الاختيارِ الخيرُ؛ فالمختارُ هو المريدُ لخيرِ الشّيئَيْنِ في الحقيقةِ، أوْ خيرِ الشّيئَيْنِ عندَ نفسِه مِن غير إلجاءٍ واضطرارٍ، والمشيئةُ تكونُ لِما لم يتراخَ وقتُه، وهي ابتداءُ العزمِ على الفعل؛ فنِسْبتُها إلى الإرادةِ نِسْبةُ الضَّعْف إلى القوَّة، والظَّنِّ إلى الجزم؛ فإنَّك ربّما شئتَ شيئًا؛ ولا تريدُه؛ لمانعٍ عقليٍّ، أو شرعيٍّ، وقد يُطلَقُ كلٌّ منهما على الآخَر؛ توسُّعًا[1].

(1) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 28، 35.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١﴾ [فاطر: 11]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

هـذهِ الآيـةُ من دلائل عِـزَّةِ اللهِ وحْدَهُ

لَمَّا حرَّكَ القرآنُ أهلَ التَّكذيبِ والكفرِ والشِّركِ إلى النَّظَرِ في دينِ الإسلامِ بإرشادِهِم إلى طلبِ العِزَّةِ منهُ بعدَ أنْ قدَّمَ لهم دليلًا على الوَحدانيَّةِ وصِحَّةِ البَعْثِ والنُّشورِ، وكانَ هذا الدَّليلُ يتمثَّلُ في إحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها، وكانت هذه الأرضُ هي التي خلَقَ اللهُ الإنسانَ من ترابِها وطينِها؛ قدَّمَ دليلًا آخَرَ مُؤسَّسًا على هذا الدَّليلِ الأوَّلِ؛ وهوَ خَلْقُ الإنسانِ، والدَّليلُ الثَّاني مِن أنفُسِ النَّاسِ، والدَّليلُ الأوَّلُ مِن دلالةِ الآفاقِ؛ والآيةُ السَّابقةُ تُقرِّرُ مفاوتةَ النَّاسِ في الأخلاقِ، وهذه الآيةُ تُقرِّرُ وحدتَهم في جنسِ الأصلِ؛ وأصلُه التُّرابُ المسلولُ منه الماءُ بعدَ تخميرِه فيه؛ وإنِ اختلفَتْ أصنافُه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُّطۡفَةٖ﴾: أصلُ (نطف) يدلُّ على نُدوَّةٍ وبَلَلٍ[2]، والنُّطْفَةُ: ماءُ الرَّجُلِ الَّذي يتكوَّنُ منه الوَلَدُ، وهو المَنيُّ، وقيلَ: ماءُ الرَّجُلِ أوِ المَرْأةِ، مَأخوذٌ مِنَ النُّطْفَةِ والنُّطافَةِ: وهي القَليلُ مِنَ الماءِ يَبْقَى في دَلْوٍ أوْ قِرْبَةٍ، وقيلَ النُّطْفَةُ: الماءُ الصّافي قَلَّ أوْ كَثُرَ[3]، فَمِنَ القَليلِ: نُطْفَةُ الإنسانِ، والجَمعُ: نُطَفٌ، ونِطافٌ[4]، والمرادُ بها في الآيةِ: ماءُ الرَّجُلِ، وهو المَنيُّ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 275.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نطف).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نطف).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (نطف).

2) ﴿أَزْوَٰجًاۚ﴾: أصلُ (زوج) يدُلُّ على مُقارنةِ شيءٍ لشيءٍ، مِن ذلكَ الزَّوْجُ؛ زَوْجُ المرأةِ، والمَرأةُ زَوْجُ بَعْلِها، وهو الفَصيحُ[1]، فالزَّوْجُ كلُّ شيءٍ ثانٍ مع شيءٍ آخَرَ بينهُما تقارُنٌ في حالٍ ما، وسُمّيَتِ الأُنْثَى القَرينَةُ لِلرَّجُلِ بِنِكاحٍ (زَوْجًا)؛ لِأَنَّها اقْتَرَنَتْ بِهِ، وصَيَّرَتْهُ ثانيًا، ويُسَمَّى الرَّجُلُ زَوْجًا لَها لِذَلِكَ بِلا فَرْقٍ، فَمِنْ ثَمَّ لا يُقالُ لِلمَرأةِ: زَوْجَة بِهاءِ تَأْنيثٍ؛ لأَنَّهُ اسْمٌ، وليسَ بوصفٍ[2]، والمُرادُ بالأَزْواجِ في الآية: جَمْعُ زَوْجٍ، وهو اسْمٌ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنِ اثْنَيْنِ مِنْ صِنْفٍ واحِدٍ.

3) ﴿تَضَعُ﴾: أصلُ (وضع) يدُلُّ على الخَفْضِ لِلشَّيْءِ وحَطِّهِ[3]، يُقال: وضَعتُ الشَّيْءَ أَضَعهُ وضعًا، وهو ضدُّ رَفعتُه[4]، ويُقالُ ذلك في الحَمْلِ والحِمْلِ، ويُقالُ: وضَعَتِ الحملَ فهو مَوْضوعٌ[5]، ووُضِعَ في تجارتِه يوضَعُ: خَسِرَ، والمُرادُ بالوَضعِ في الآية: الوِلادة.

4) ﴿يُعَمَّرُ﴾: أصلُ (عمر) يَدُلُّ عَلَى بَقاءٍ وامْتِدادِ زَمانٍ[6]، ومنه: العَمْرُ والعُمُرُ: اسمٌ لِمدَّة عِمارة البدنِ بالحياة، فهو دونَ البقاء، فإذا قيل: (طال عُمُرُهُ) فمعناه: عِمارَةُ بدنِه بروحِه، وإذا قيل: (بقاؤُه) فليس يَقتضي ذلك؛ فإنَّ البقاءَ ضدُّ الفناء، ولفضل البقاءِ على العُمْرِ وُصِفَ اللّه به، وقلَّما وُصِفَ بالعُمر، والتَّعْميرُ: إعطاءُ العمْر بالفعل أَوْ بالقول؛ على سبيل الدُّعاء[7]، والتَّعميرُ في الآية مُرادٌ به: جَعْلُ الإنسانِ عامرًا، أَيْ: باقيًا في الحَياةِ؛ فإنَّ العَمْرَ هو مُدَّةُ الحياةِ، ومعنى (عَمَّرَهُ) بِالتَّضْعيفِ: جعلَه باقيًا مُدَّةً زائدَةً على المُدَّةِ المُتعارَفَةِ في أَعمارِ الأجيالِ[8].

5) ﴿يُنقَصُ﴾: أصلُ (نقص) كلِمَةٌ واحِدَةٌ، هي النَّقْصُ: خِلافُ الزِّيادَةِ، ونَقَصَ الشَّيءُ، ونَقَصْتُهُ أَنا، وهو مَنْقوصٌ، والنَّقْصُ أيضًا: الخُسْرانُ في الحَظِّ، والنُّقصانُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (زوج).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زوج)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 428.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وضع).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وضع).
(5) الراغب، المفردات: (وضع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمر).
(7) الراغب، المفردات: (عمر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 277.

المصدَرُ، والنَّقيصَةُ: العَيبُ؛ يُقالُ: ما به نَقيصَةٌ، أَيْ: شَيءٌ يَنْقُصُ، ومَرجِعُ البابِ كُلِّه إلى هذا[1]، والمقصودُ بالنَّقص في الآية: إزالةُ بَعضِ الشَّيء، والمعنى: ولا ينقُصُ مِن عُمر أحدٍ غيرُه، بأن يُعطى عُمرًا ناقصًا عنه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأعمارُ كالأرزاق؛ مُقدَّرةٌ محدَّدةٌ في صحيفةِ كلِّ إنسان

يَذكُرُ الحقُّ سبحانه ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، وسَعةِ عِلْمِه، فيقولُ: واللّهُ خلَقَ أباكم آدَمَ مِن تراب، ثمَّ خلقَكم مِن مَنيٍّ، ثمَّ جعَلَكم ذُكرانًا وإناثًا، وما مِن أنثى تَحمِلُ حَمْلًا أوْ تضعُه إلّا واللّهُ عالمٌ به، لا يخفَى عليه شَيءٌ منه، فيَعلَمُ وقتَ حَمْلِه ووَضْعِه، ونَوْعَه وشَكْلَه، وغيرَ ذلك مِن شُؤونِه، وما مِن زيادةٍ في عُمُرِ إنسانٍ أو نُقصانٍ منه إلّا وذلك مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، إنَّ ذلك الأمرَ العظيمَ مِن كتابةِ أعمارِ جميعِ الخَلقِ؛ ما زاد منها وما نَقَصَ، وتقديرِها، وإحصاءِ ساعاتِها ودقائِقِها، والإحاطةِ بها على وجهِ التَّفصيلِ أمرٌ يسيرٌ على اللّهِ سُبحانَه، فلا يَعسُرُ عليه شَيءٌ مِن ذلك[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الوصلِ:

(الــواو) تكشِفُ عن قوّةِ اتّصالِ المعاني بعضِها ببعضٍ

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ عاطِفَةٌ لِما بعدَها على جملة: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ مِن عطفِ الدّليلِ على المستدلِّ عليه[4]، أوْ على آية: ﴿وَٱللَّـهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ مِن عطفِ الدّليلِ على الدّليل، أوْ على جملة: ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ مِن عطفِ الدّليلِ على المُستَدَلِّ عليه؛ فقد نبَّهَتْ هذه الآيةُ "على أنَّه قادرٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نقص).
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 307.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 432، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 334، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 539، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 23.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209.

على التّمييز بعدَ شديدِ المزْج، وأنَّه قدِر على كلِّ شيءٍ مِنَ الأرزاق والآجال والمصائبِ والأفراحِ؛ فلا ثمرةَ للمَكْر إلّا ما يلحَق الماكِرَ مِن الحَرجِ والعقوبة مِنَ اللّه، والضَّرَر"[1].

علّةُ الإظهارِ في موضِعِ الإضْمارِ:

هذا الدَّليلُ يَظْهَرُ بـه الألـوهـيَّـةُ الـحـقَّـةُ ظـهـورًا قويًّا

عبَّر القرآنُ باسْم الجلالةِ مُظْهَرًا في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ لطولِ الفصل بين موضِع ذكره في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ وبين صدرِ هذه الآية؛ فذلك مِمّا حسَّنَ الإظهارَ في موضِعِ الإضمارِ، وداعيه: تجديدُ دليلٍ على مقصدِ المقاصدِ؛ وهو التَّوْحيدُ؛ ففيه تنبيهٌ على أنَّ هذا الدّليلَ مِن شأنِه وحْدَه أنْ يُحقِّقَ المطلوبَ، وأنَّ المُسْتَدَلَّ عليه لا يَتوقَّفُ إثباتُه على مجموعِ الأدلّةِ المذكورةِ في السّورة.

نكتةُ تقديمِ المسند إليهِ (الله):

لا يـقـدر على الخلق إلّا الله تعالى

قدَّمَ القرآنُ المسندَ إليهِ (اللّه) على خبرِه الفعليِّ المُثْبَتِ ﴿خَلَقَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ لتحقيق الحُكْم الذي تُنْتِجُه الجملةُ الاسميَّةُ الصَّدرِ والفعليَّةُ العجُزِ، وتقريره في النَّفْسِ؛ فإنَّ تلقّيَ اسمِ الجلالةِ يُشْعِرُ نفْسَ المُتلقّي بأنَّ حديثًا عنه يكونُ، فإذا جيءَ بالحديث، فقيل: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية: فقد علِمَه؛ وقد وُطِّئَ له، وقُدِّمَ الإعلامُ فيه، فدخَل على القلب دخولَ المأنوسِ به، وقبِلَه قَبولَ المُهيَّأِ له، المُطمئنِّ إليه؛ وذلك لا محالةَ أشدُّ لثبوتِه، وأنْفَى للشُّبْهة، وأمنعُ للشَّك، وأدخلُ في التَّحقيقِ[2]، وفي تصديرِ الآية به مُناسَبةٌ لسَوْقِها مَساقَ الاستدلالِ؛ فإنَّ إثباتَ التّوحيدِ هو المقصدُ الأصيلُ، أي: واللّهُ الذي له جميعُ صفات الكمالِ خلقكم مِن تراب... إلخ، وفيه أيضًا: دلالة قصرِ المسنَد على المسنَد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209.
(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 132.

إليه دون أنْ يتعدّاه إلى الأصنام التي يعبدُها المشركونَ مِن دون اللّه؛ قصرًا إضافيًّا إفراديًّا؛ فإنَّ هذهِ الآيةَ "في أمر الأصنام، وفي بعثِ الأجساد مِنَ القبور"[1]، فهم يُشركون مع اللّه غيرَه في الألوهيَّة والعبادة، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ، والتّوكيدُ الّذي فيه يواجِه إنكارَ أهل الكفرِ للبعثِ والتّوحيدِ، وتكذيبَهُم ذلك.

علّةُ التّعبيرِ بالخَلْقِ ماضيًا:

الخَلْقُ هو الأبَرُّ بالمُسْتَدَلِّ عليهِ

جعَل القرآنُ المسندَ إلى اسم الجلالةِ الخَلْقَ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾؛ لأنَّه دليلٌ على البعثِ؛ وهو إيجادُ الشّيءِ مِنَ الشّيءِ، والمعنى: واللّه خلقكم ابتداءً مِنَ التُّراب في ضِمْنِ خلْقِ آدمَ عليه السلام منه خلْقًا إجماليًّا، وهو دالٌّ على الحِكْمةِ أيضًا؛ لأنَّه في الأصلِ: التَّقديرُ المستقيمُ، ونظَم القرآنُ معنَى الخَلْقِ فِعْلًا ماضيًا؛ إبلاغًا في الاستدلالِ؛ بالتَّنبيهِ على أَصْلِ الخَلْقِ؛ وهو خَلْقُ آدَمَ عليه السلام؛ وكأنَّ اللّه قد خلَق (النّاسَ) بخَلْقِه؛ فلكُم أيُّها المُكذِّبون عِبْرَةٌ فيمَن سَبقَكُم مِن أبيكم الأوَّلِ ومِن آبائِكم وأجدادِكُم الَّذين تفرَّعوا عنهُ.

علّةُ جريانِ المعنَى على الخطاب:

المــواجــهــةُ بالمعلومِ أفعلُ في النُّفـوسِ؛ كـأنَّـها تُعيدُه عليها مِن جديدٍ

بنَى القرآنُ المعنَى في أوّلِ هذه الآيةِ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ على طريقةِ الخطابِ؛ بتسليط كلٍّ مِن فِعْلِ الخَلْقِ وفِعْلِ الجَعْلِ على ضميرِ الخطابِ (الكافِ)؛ والمُخاطَبُ في ظاهرِ اللَّفْظِ النّاسُ جميعًا، والمقصودُ في المقامِ الأوَّلِ أهلُ الكفرِ والشِّرْكِ مُنْكِرو البَعْثِ، وداعي ذلك عِلْمُهُم به؛ واللّه يُذكِّرُهم "بأصل التّكوينِ الأوّل مِن تراب، وهو ما تقرَّرَ علمُه لدى جميعِ البشرِ مِن أنَّ أصلَهُم وهو البشرُ الأوّلُ خُلِق مِن طينٍ؛ فصار ذلك حقيقةً مُقرَّرةً في علم البشر"[2]، ووراءَ ذلك إلزامُهُم بمُقْتَضَى هذا الدّليلِ المعلومِ لديهِم.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 432.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 275.

لو عُبِّر بغير التُّراب لضاعَ المعنَى البيانيُّ الذي يَضيعُ معه رَوْنَقُ البلاغةِ

معنَى الجارِّ والمجرورِ:

كلمةُ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ معناها ابتداءُ الغايةِ، أي: خلقكُم ابتداءً مِن ترابٍ؛ وهذا يُشاكِلُ الحديثَ عن أصلِ الخَلْقِ، وأفادَ الحرفُ بيانَ حالِ الخلق بأنَّه من تراب، وجعَل القرآنُ الخَلْقَ مِن ترابٍ؛ لأنَّه الَّذي خُلِقَ منه أبو البشر؛ آدمُ عليه السلام، والمقصودُ بيانُ أصلِ الخَلْقِ؛ وهو خلْقُ آدمَ، والتُّرابُ أغلبُ أجزائه؛ فمنه تكوينُه؛ فمزجَه اللّهُ منه مزجًا لا يُمكِنُ لغيرِه تمييزُه، والتُّرابُ هو المناسبُ لِما تجرَّدَت له السّورةُ مِنَ الاختراعِ وتعريفِ العبادِ بالخَلْقِ؛ أي: إنَّه تعالى الفاطِرُ؛ ذلك أنَّ إبداعَ ما أَسْكَنَه أنواعَ الأنوار بالهداية والعلوم الباهرة مِنَ التُّرابِ الذي هو أكثفُ الأشياءِ أغربُ؛ فهو دالٌّ على ما تجرَّدَتْ له السّورةُ[1].

تكوَّنَ آدمُ مِن نوعٍ مِن أنواعِ التُّرابِ

سِرُّ تنكيرِ التُّراب:

نظَم القرآنُ التُّرابَ نكرةً في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ للدّلالةِ على النَّوْعيَّةِ، أي: واللّه خلقكم مِن نوعٍ مِنَ التُّرابِ مخصوصٍ عجيبٍ؛ ألا تراه قد خُلِقَ منه أبو البشرِ آدمُ عليه السلام؟!، كما نلمحُ في التّنكير إشارةً إلى أنّ أصل الإنسان من شيءٍ قليلِ الأهمّيّة، ومن ثمَّ لا ينبغي أنْ يغترَّ بالدّنيا ويطلبَ العزّةَ بغير اللّه، وفي تحديد مادّة المخلوقِ الأوّل الّذي صار إنسانًا من مجرّد تراب؛ دليلٌ واضحٌ على أنَّ البعث أمرٌ ممكنٌ؛ لأنّ الإنسانَ تحلّل وعاد إلى التّراب، فيعادُ بعد ذلك التّحلُّلِ بجمع أجزائِه إلى الحياة مجدَّدًا.

قد تكونُ (ثمّ) على بابها أو للتّفاوتِ الرُّتبيِّ مَعًا

علّةُ التّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

عبَّر القرآنُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ لأنَّ بينَ الخَلْقِ الثّاني التَّفصيليِّ - خَلْقِ التَّناسُلِ - وبينَ الخَلْقِ الأوَّلِ الإجماليِّ تراخيًا؛ فكانَتْ ﴿ثُمَّ﴾ على أصلِها، ولمّا كانَ الخَلْقُ مِن نطفةٍ فوقَ الخَلْقِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/ 100 و: 5/ 208.

مِن ترابٍ كانت ﴿ثُمَّ﴾ للتّفاوت الرُّتْبيِّ أيضًا، والمعنى: ثمّ بعدَ ذلك في الزَّمانِ والرُّتْبةِ خلقَكُم مِن نطفةٍ لا مناسبةَ بينها وبين التُّراب؛ دلالةً على كمالِ القدرة والفِعْل بالاختيار(1)، وليكونَ الخلقُ مِنَ التّراب دليلًا باهرًا على الإعادةِ مِنَ التّرابِ مجدَّدًا لكلِّ المخلوقات.

سِرُّ تَكرارِ (مِنْ) والتّنكيرِ للمجرور:

كلُّ مرحلةٍ مِن مراحلِ خَلْقِ الإنسانِ تدلُّ على الله!

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ عطفٌ بـ ﴿ثُمَّ﴾ على ﴿مِّن تُرَابٍ﴾، والمعطوفُ على المجرورِ مجرورٌ؛ وكان الأصلُ والظّاهرُ غيابَ (مِن) الجارّة الثّانية، لكنَّ القرآنَ كرَّرَها؛ تصويرًا لعظمة الخَلْقِ مِن نطفةٍ، وأنَّه خَلْقٌ حقيقٌ أنْ يكونَ وحْدَه دالًّا على كمالِ قدرة اللّه تعالى وتمامِها؛ بما يُشْعِر به تَكرارُها مِن استقلالِ ما بعدَها، ونظَم القرآنُ (النُّطْفَة) نكرةً؛ للدّلالة على النَّوعيَّة، أي: مِن نوعٍ مِنَ النُّطْفةِ مخصوصٍ؛ فقد جعلَها اللّهُ أصلًا ثانيًا مِثْليًّا مِن ذلكَ الأصلِ التُّرابيِّ أشدَّ امتزاجًا منه(2).

علّةُ التّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

الجعلُ أزواجًا يدلُّ على البَعْثِ

عبَّر القرآنُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ العاطفةِ لِما بعدَها على ما بعدَ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ معَ كونِ هذا الجَعْلِ مِن تمام الخَلْقِ مِن نطفةٍ؛ للدّلالة على التّرتيبِ الرُّتْبيِّ الَّذي هو أهَمُّ في الغرضِ الّذي هو دلالةُ التّكوين على بديع صُنْع الخالقِ سبحانه؛ فذلك موزَّعٌ على مضمونِ قولِه: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾(3).

علّةُ التّعبيرِ بالجعلِ مادّةً وصيغةً:

الازدواجُ أساسٌ في تركيبِ النُّطْفةِ

عدَل القرآنُ عنِ الخَلْقِ إلى التّعبيرِ بـ(الجَعْل) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ لأنَّ جعلَهُم أزواجًا حالةٌ في التَّكوينِ الثّاني

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 276.

الذي هو الخَلْقُ مِن نطفةٍ؛ فهذا الجَعْلُ أزواجًا شرطُ هذا التَّكْوينِ الثّاني مِنَ (الازدواج)؛ وهذا الجعلُ معناه تصييرُ الشّيء على حالةٍ دونَ حالةٍ، وإنّما عقّب الأزواج بعدَ النّطفةِ دونَ التّراب؛ لأنَّ النُّطفةَ تتّصفُ بالذِّكر والأنثى دونَ التّراب الّذي خُلق منه آدمُ عليه السلام، وأمُّنا حواءُ التي خُلقتْ من ضلعِه؛ والاستدلالُ بدِقَّة صُنْعِ النَّوْعِ الإنسانيِّ من أعظمِ الدّلائلِ على وُحدانيَّة الصّانع؛ وفيها غُنْيَةٌ عنِ النَّظَرِ في تأمُّل صُنْعِ بقيَّةِ الحيوان[1]، ونَظَمَ القرآنُ معنَى الجَعْلِ فعلًا ماضيًا؛ تأسيسًا على نَظْمِ الخَلْقِ كذلكَ، ثمّ إنَّ خَلْقَ المخاطبينَ قد كانَ؛ إذْ لا يُخاطَبُ أحدٌ بذلك إلّا وقد أوجدَه اللّٰه في الحياة، وكانَ مُؤهَّلًا للخطابِ الشَّرْعيِّ، وهذا الجَعْلُ معلومٌ لجميعِ النّاسِ على جهةِ الوضوحِ؛ فلا حاجةَ إلى استحضارِ صورتِه بنظْمِه فعلًا مضارعًا، وفي توالي الأفعالِ الماضية بيانٌ لعظيم الامتنان بخَلْقِ الإنسان، وأنَّ ذلك الأمرَ المتحقّقَ لا يقدرُ على فعلِه إلّا اللّٰه تعالى، الذي يخلقُ منَ التّراب ومنَ النُّطفة، ويكونُ منهما الأزواج: الذّكور والإناث.

علّةُ التّعبيرِ بالأزواجِ:

لو عُبِّرَ بغير الزَّوْج لفسَدَ المعنى العقليُّ، ولضاع المعنى البيانيُّ

جعَل القرآنُ المفعولَ الثّانيَ لفِعْلِ الجعْلِ ﴿أَزْوَٰجٗاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾؛ وهو جَمْعُ زَوْجٍ؛ وتفسيرُه بالذُّكور والإناثِ يُؤيِّدُه توجيهُ الخطابِ إلى النّاسِ في ظاهرِ اللّفظ، وجعْلُهُم أزواجًا يدلُّ بقوّةٍ على أنَّ اللّٰه قادرٌ فاعلٌ مختارٌ، ويُكذِّبُ أهلَ الطّبائع، ويدلُّ على البَعْثِ؛ بتمييزِ ما يَصْلُح مِنَ التُّرابِ للذُّكورة والأُنوثةِ؛ فهما مختلفان؛ لأنَّهما اثنانِ، ومتّفقانِ؛ لأنَّ مصدرَهُما واحدٌ، ولو قيل (أصنافا) أفادَ معنى تمييزِ الشَّيئَيْنِ بعضِهما عن بعضٍ[2] دونَ معنى الزّوجيَّة الدّالّةِ على الصّنفِ الذّكريِّ والأنثويِّ ليزدوجا ويُشكِّلا كائنًا جديدًا.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 276، والراغب، المفردات: (زوج).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 276.

سِرُّ التّنكير في ﴿أَزۡوَٰجٗاۚ﴾:

الكثرةُ في الدّليل مِن وجوهِ الإحسانِ فيه

نظَم القرآنُ الأزواجَ نكرةً، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾؛ للدّلالةِ على التّكثيرِ، أي: ثمّ جعلَكم أزواجًا كثيرةً، تدلُّ تلك الكثرةُ على كمال قدرةِ اللّه تعالى، وأنَّه فاعلٌ مختارٌ، وهذا التّنكيرُ فضلًا عنِ الجمعيَّةِ يُؤدّي مُؤدَّى جَمْعِ الكثرة.

سرُّ الوصل:

الدّليلُ الواحدُ على المطلوبُ جملةٌ مِنَ الأدِلّةِ!!

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على جملة: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ من عطفِ دليلٍ على دليل؛ إذ "بعدَ الاستدلالِ بما في بدْءِ التّكوينِ الثّاني مِنَ التّلاقُحِ بينَ النُّطْفتيْن؛ استدلَّ بما ينشأُ عن ذلك مِنَ الأطوارِ العارضةِ للنُّطْفة في الرَّحِم؛ وهو أطْوارُ الحَمْلِ من أوَّلِه إلى الوَضْع"[1]، فقد أُريدَ إشراكُ المعطوفِ مع المعطوفِ عليه في الإخبار عنِ اللّه تعالى؛ تعريفًا بجانبٍ مِن جوانب ألوهيَّته الحقَّة؛ فالحَمْلُ أيضًا مُكذِّبٌ لأهلِ الطَّبائع بأنَّه لا يكونُ من كلِّ جماعٍ[2]، وأفادَ العطفُ أيضًا اختصاصَ خلقِ الإنسان باللّه، وأنَّ علمَ ما تحملُه الإناث وما تضَعُهُ لا يجري إلّا بعلمِهِ، فهو المُحيط علمُهُ بذلك ولا يُشارِكُهُ أحدٌ في الخلقِ والإيجاد.

نكتةُ تقديم أحد الجملتين على الأخرى:

التّدريجُ في الخَلْقِ مِن مظاهرِ الحِكْمة

قدَّم القرآنُ جملة: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ على جملة: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ الثّانيةَ مُشْتقَّةٌ مِنَ الأولى، وخارِجةٌ من رَحِمِها؛ فهو كعطفِ الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ إرشادًا إلى أهمّيَّة الخاصِّ في سياقِ الاستدلالِ، والثّانيةُ مبنيَّةٌ على الأولى؛ فهي مُؤسَّسةٌ على أحوالِ النُّطَفةِ في الرَّحِم واجتماعِ الأَزواج.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 276.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209.

علّةُ التّعبيرِ بـ (ما):

الأبلغُ في الاستدلالِ كونُ (ما) لنفيِ الحال

كلمةُ: (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾ نافيةٌ غيرُ عاملةٍ باتِّفاقٍ؛ وهي تُخلِصُ المضارعَ بعدَها للحالِ عندَ الأكثرِ، وقد يُقال: إنَّ عمومَ اللّفظِ في الآية يُقوّي حَمْلَ (ما) على الاستقبالِ؛ فالحَمْلُ أمرٌ عامٌّ، وفاعلُه قد دخلت عليه ﴿مِنۡ﴾، فزادتْه عمومًا، لكنَّ القرآنَ قصَد غيرَ ذلك؛ وأرادَ إبرازَ الاستدلالِ بالحَمْلِ على المطلوبِ؛ من تكذيب أهلِ الطّبائعِ، وتقريرِ قدرتِه تعالى الفاعلةِ المختارةِ؛ والألصقُ بذلك حَمْلُ (ما) على النَّفْيِ في الحالِ؛ لتمكُّنِ المُخاطَبينَ منهُ من أوَّلِ وجودٍ لهُ في الأُنْثَى؛ وبذلك يعْظُم الاستدلالُ بذلك الحَمْلِ ويفْخُم في نفوسِ المُتلقّين.

دلالةُ المضارعة في ﴿تَحۡمِلُ﴾:

تجدُّدُ الحَمْلِ ميزةٌ في كونِه دليلًا

نظَم القرآنُ معنَى الحَمْلِ فعلًا مضارعًا، فقال: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾ نَظَرًا إلى تجدُّدِ الحَمْلِ؛ بكثرةِ الإناثِ الحواملِ، وهذا جهةُ قوّةٍ للدّليلِ، ونظرًا إلى تطوُّرِ الحَمْلِ الواحدِ في نفسِه، ونمائِه، وترقّيه؛ فهو ينمو شيئًا فشيئًا، واللّه عليمٌ بكلِّ ذلكَ.

دلالةُ حرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾:

عمومُ الأنثى مُشاكِلٌ لأصلِ الخَلْقِ

فاعلُ الحملِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾ مجرورٌ لفظًا مرفوعٌ محلًّا؛ لدخولِ ﴿مِنۡ﴾ الزّائدة عليه؛ إذِ الأصلُ في الصِّناعةِ ألّا تكونَ، ولكِن لَمّا كان سياقُ الجملةِ لتقريرِ سَعة علمِه تعالى وشمولِه؛ المُستلزِم لكمالِ قدرتِه وتمامِها زيدَتْ ﴿مِنۡ﴾؛ للدّلالة على كمالِ الاستغراقِ، فيزدادُ العمومُ الذي في ﴿أُنثَىٰ﴾[1].

علّةُ التّعبيرِ بـ(الأُنثى) منكّرةً:

لو عُبِّر بغير الأُنثى ضاعَ المعنى البيانيُّ

جعَل القرآنُ فاعلَ الحَمْلِ (الأنثى) دونَ المرأةِ أوِ الزّوجةِ ونحوِهما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾؛ للتّنبيهِ على علْمِ اللّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209.

بكلِّ حملٍ، لأنّ الغرضَ بيانُ كمالِ علمِه، فكانَ التّركيز على الوضْع مِنَ الأنثى مطلقًا، بخلاف ما لو ذكرَ (الزّوجة والمرأة) فإنّه يُشير إلى أنّ علمَه بما كانَ مِن طريقٍ شرعيٍّ فحَسبُ، ونظَم القرآنُ الأنثى نكرةً في سياقِ النَّفي الذي هو بـ(ما)؛ للدّلالة على العموم؛ بقرينة قولِه: ﴿إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ القَصْدَ إثباتُ علمِ اللهِ المُحيطِ بكلّ شيءٍ ظاهرًا كانَ أوْ خَفيًّا.

جمالية الترقّي في نسق النظم بالعطف:

في أجــزاءِ الاستدلالِ تَرَقٍّ؛ لأنَّ الحَمْلَ قبلَ الوَضْعِ

قدَّم القرآنُ (الحَمْلَ) على (الوَضْع) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾؛ لأنَّ الاستدلالَ في الآية أُدْمِج فيه التّنبيهُ على إحاطة علْم اللّه بالكائنات الخفيَّة والظّاهرة، ولكون العِلْم بالخفيّات أعلى قَدَّم القرآنُ ذِكْرَ الحَمْل على ذِكْرِ الوَضْع، والمقصودُ مِن عطف (الوضع) أنْ يُدفَع توهُّمُ وقوفِ العلْم عند الخفيّات التي هي مِنَ الغيبِ دون الظّواهر، بأنْ يشتغلَ عنها بتدبيرِ خفيّاتها كما هو شأنُ كُبَراء العُلَماء مِنَ الخَلْق، ولظهور استحالةِ توجُّهٍ لإرادة الخلْق نحوَ مجهولٍ عندَ مُريده[1].

سِرُّ الوصل:

وَضْــعُ الحَمْلِ دليلٌ مستقِلٌّ

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ عاطفةٌ لما بعدَها على الجملةِ التي بعدَ الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾؛ فهو خبرٌ عن اللّه تعالى كجُملة: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾، والوَضْعُ كالحَمْل في الدّلالة على تكذيبِ أهلِ الطّبائع؛ لأنَّ كلَّ وضعٍ لا يَتِمُّ كلَّما حُمِلَ به[2]، ولا يبعدُ أنْ يكونَ المرادُ بعطفِ (الوَضْع) على (الحَمْل) إحاطةَ علْم اللّه بما يكونُ بينَهما من تبدُّلاتٍ في الحملِ إلى حينِ وضعِه، فهو تعالى كما يُحيطُ علمُهُ ساعةَ الحَمْل وساعةَ الوَضْع فإنَّ علمَهُ مُحيطٌ بما بينَهما.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 276.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209.

علّةُ التّعبيرِ بـ(لا):

علم الله تعالى محيط بما قلَّ وجلَّ

كلمةُ (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ نافيةٌ غيرُ عاملةٍ، وهي نافيةٌ للفِعْل في الاستقبالِ؛ لأنَّ الوَضْعَ نهايةُ الحَمْلِ الذي يَسْتَغْرِقُ أشْهُرًا؛ فهو بالنِّسْبةِ للحَمْلِ مُسْتَقْبَلٌ، وليس كلُّ حَمْلٍ يتِمُّ إلى الوَضْعِ.

علّةُ التّعبيرِ بـ(الوضع):

الإنسانُ محمولٌ موضوع؛ ثم يُنكِرُ على الله!:

عبَّر القرآنُ بـ(الوَضْع) دونَ الولادة مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾؛ لمناسبةِ الخَلْقِ من تُرابِ الذي في صدرِ الآيةِ؛ لأنَّ مادَّة الوضع تدورُ على الخَفْضِ للشّيءِ وحطِّه، والخَفْضُ ضدُّ الرَّفْعِ، وللتّنْبيهِ في لُطْفٍ على حالِ الإنسانِ المُلازِم له؛ ما دام حيًّا؛ وهو الضَّعْفُ والانكسارُ والاحتياجُ والافتقارُ، ثمَّ هو الآنَ يُنْكِرُ التّوحيدَ والبَعْثَ وغيرَ ذلك، ويكونُ خصيمًا لِمَن خلَقَه من نطفة!! كما أنَّ مَن أحاطَ علمُهُ بحَمْلِ الإنسانِ ووَضْعِه فإنَّه قادرٌ على خَلْقِ الإنسانِ من تُراب، ومن نُطفة، وقادرٌ على إحيائِهِ وبَعْثِهِ ونَشْرِه، بقي أنَّ بين (الحمل والوضع) طباقًا يُشير إلى علمِ اللّه الكاملِ بأقصى الحالَينِ المتضادَّين، وما يكونُ بينَهما.

دلالةُ المضارعة في ﴿وَلَا تَضَعُ﴾:

تَكرارُ الوضعِ واستمرارُه وكثرتُه إبرازٌ للاستدلال

نظَم القرآنُ معنَى (الوَضْع) فعلًا مضارعًا في قوله: ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾؛ تصويرًا للحركيَّةِ التي فيه، التي تجعلُ حالةَ الوَضْعِ فيها معنى التَّجدُّدِ؛ نظرًا إلى صعوبةِ إخراجِ المولودِ من رحم أُمِّه وعُسْرِه، وتنبيهًا على تجدُّد الوضع؛ بكثرةِ الإناثِ الواضعاتِ من جهةٍ، وبكثرة الوضع مِن واحدةٍ مِنَ الإناثِ من جهةٍ أخرى.

معنَى (الباء) ودلالةُ التّعبيرِ بها:

سَعَةُ العِلْمِ تدلُّ على تمامِ القُدرة

(الباءُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ للمُلابَسة، والمعنى: وما تحملُ من أُنثى ولا تضع هذه الأنثى إلّا مُلتبِسَةً بعلمِه

تعالى تابعةً لَمشيئتِه أَوْ للمُصاحَبَة، أي: وما تَحملُ مِن أُنثى ولا تَضَعُ إلّا مَعَ عِلْمِه، وإلّا معلومةً، والحَمْلُ على المُلابَسة التي هي الإلصاقُ أبلغُ؛ لأنَّ (الباءَ) حينئذٍ تُصوِّرُ حقيقةَ إحاطةِ عِلْمِ اللّه تعالى بالأُنثى وأحوالها؛ مِنَ الكمالِ والتَّمام[1]، وفي جَعْلِ كلٍّ مِنَ (الحَمْلِ والوَضْعِ) مُقترنًا بعلْمِ اللّه استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ، وفي ذلك دلالةٌ على كمالِ المُصاحبة بين كلٍّ مِنَ الحمل والوضع وبين علمِ اللّه تعالى المقاربِ لهما كما يقاربُ الصّاحبُ صاحبَه.

بلاغةُ وقوعِ الجارّ والمجرور ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ حالاً:

الجارُّ والمجرور في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾ في موضعِ نصبٍ؛ حالٌ مِنَ الفاعلِ، أي: إلّا مُلتبسةً بعلمِه تعالى ومعلومةً له، ومعلوميَّةُ الفاعلِ راجعةٌ إلى معلوميَّةِ أحوالِه مُفصَّلةً، ومنها حالُ ما حملتْهُ الأُنثى ووضَعَتْه، فجعْلُه حالًا مِنَ الفاعلِ أبلغُ معنًى وأحْسَنُ لفظًا مِن جعْلِه حالًا مِنَ المفعول؛ أعني المحمول والموضوع وإنْ كان ذلك مُقْتَضَى سياقِ الكلام؛ لأنَّ المفعولَ محذوفٌ متروكٌ، وإثباتُ العِلْمِ على المحمول والموضوع بإثباتِ العِلْمِ بالحامِلِ والواضِعِ لأجلها أبلغُ مِن إثباتِه لهما ابتداءً، وجعْلُه حالًا مِنَ الحَمْلِ والوَضْعِ أنفُسِهما خلافُ الظّاهرِ، والتَّعبيرُ بالمصدرِ (العِلْم) إبلاغٌ في تقريرِ عِلْمِه تعالى بالأنثى؛ حَمْلًا ووضْعًا[2].

حالُ الأنثى حَمْلًا ووضْعًا يدلُّ على الله

علّةُ الإضافةِ في ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾:

أُضيفَ (العِلْم) إلى ضمير اسم الجلالةِ في قوله: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾ دون الاسم الظّاهرِ؛ ليربطَ القرآنُ المعنى من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى آخر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾

ليس كلُّ ما جاءَ على أصلِه لا يُسأل عن سببه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 469، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 177، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 276.

(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 12/ 620، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 12/ 272، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 177، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 276.

بعضَه ببعضٍ في أذهان المُتلقّين؛ ليُجدِّدوا فِكْرًا وتأمُّلًا في مجموعِ المعنَى، وليَبْرُزَ المطلوبُ المُستدلُّ عليه في نفوسِهم وقلوبِهم بقوّةٍ.

بلاغةُ القصر في الجملة:

في مواجَهةِ الإنكارِ اعتدادٌ به؛ فتحريكٌ إلى تجديدِ التَّأمُّلِ في المُنكَرِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ قُصِرَ حَمْلُ كلِّ أنثى ووضْعُها على التَّلبُّسِ بعِلْمِ اللّه تعالى؛ قصرَ موصوفٍ على صفةٍ؛ قصرًا إضافيًّا إفراديًّا؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ المقصورِ للّه تعالى، ونفيُه عنِ الأصنام التي يعبدُها أهلُ الكفر والشِّرك مِن دون اللّه سبحانه، وطريقُ القصرِ النَّفيُ والاستثناءُ، والاستثناءُ مفرَّغٌ من عمومِ الأحوالِ؛ وهذا الطّريقُ معَ التَّوكيدِ الذي في القَصْرِ يواجِهُ إنكارَ القومِ المُخاطَبينَ مِن أهل الكفر والشِّرك، ويُعْلِمُهم أنَّ ذلك الحَمْلَ والوضْعَ إنّما هو بقدرتِه تعالى، ويدخلُ في مضمونِ القصرِ عِلْمُ اللّه بوقتِ الحمْلِ والوَضْعِ، ونوعِ الحَمْلِ، أي: المحمولِ، وشكْلِه، وغيرِ ذلك، واللّهُ مُختصٌّ بكلِّ ذلك حتّى عن أُمِّ المحمولِ التي هيَ أقربُ إليه، فلا يكونُ كلُّ ذلك إلّا بقدرتِه، فما شاءَ أتمَّه، وما شاءَ أخْرَجَه[1].

سِرُّ وصل جملة ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾:

الإنسانُ مِن أصلِ خلْقِه إلى موتِه تدلُّ أحوالُه على الله

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ عاطفةٌ للجملة بعدَها على الجملة التي بعدَ الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾؛ فالمعطوفُ خبرٌ عنِ اللّه أيضًا؛ مِن عطفِ دليلٍ على دليلٍ؛ لأنَّ ما بعدَ الوَضْعِ أوِ الوِلادَةِ يدلُّ على أنَّ اللّه قادرٌ فاعلٌ مختارٌ؛ لتفاضُلِ النّاسِ في الأعمار؛ معَ تماثُلِهم في الحقيقة، ولَمّا كان الحديثُ عنِ التّكوينِ يَستتْبِعُ ذِكْرَ الموتِ المكتوب على كلِّ بشرٍ؛ جاءَ القرآنُ بذِكْرِ عِلْمِه بالآجال والأعمار للتّنبيه على سَعَةِ العِلْمِ الإلهيِّ[2]، والفعلُ الأوّل منفيٌّ بـ (ما)، والثّاني منفيٌّ بـ(لا)؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 276.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 277.

كالفعليْنِ في المعطوفِ عليه؛ مع اشتمال المعطوفِ على قصرٍ كالذي في المعطوفِ عليه؛ وبهذا يشتدُّ الارتباطُ بينَ المعاني.

علّةُ التّعبيرِ بـ(ما):

أحـوالُ النّـاسِ مُشاهَدةٌ لهم

كلمة: (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ﴾ نافيةٌ للفِعْلِ بعدَها في الحالِ؛ لأنَّ التّعميرَ - الّذي هو جَعْلُ الإنسانِ عامِرًا، أي: باقيًا في الحياة، ويُقال: (عمَّرَه) بالتّضعيف؛ جعَلَه باقيًا مدّةً زائدةً على المُدَّةِ المُتعارَفةِ في أعمارِ الأجيالِ - ؛ مُشاهَدٌ لكلِّ أحدٍ في الحالِ، وقد أُريدَ ذلك بقرينة إخراجِه في صورة المضارعِ.

علّةُ التّعبيرِ بفعل (التّعمير) مضارعًا:

خلق الله عباده لعمارة الأرض بطاعته

لّما قصَد القرآنُ إلى بيانِ التّفاوُتِ بينَ النّاسِ في الأعمارِ معَ الاشتراكِ والتّساوي في أصلِ الخَلْقِ؛ عبَّر بالتَّعمير فقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾؛ وتنبيهًا على أنَّ هذا الإنسانَ هو أصلُ عمارةِ الأرضِ؛ فإنَّ العُمُرَ اسْمٌ لمُدَّة عمارةِ البدنِ بالحياة، والزّيادةُ في عمر مَن طال عمرُه أي: صار إلى طولِ العمرِ بالفِعْلِ حِسًّا أوْ معنًى، إنّما هيَ زيادةُ الفاعلِ القادرِ المختارِ، والتي لولاها لكان عمرُه أقْصَرَ ممّا وصَل إليه[1]، ونظَم القرآنُ معنَى التّعميرِ فعلًا مضارِعًا استحضارًا لأحوالِ الإنسانِ المعمّر، وتصويرًا لحركةِ حياتِه في الوجودِ؛ كأنَّ كلَّ عامٍ من أعوامِ حياتِه عمرٌ مستقِلٌّ؛ استظهارًا لإنعامِه تعالى، ولكمالِ قدرةِ اللّهِ تعالى، وسَعةِ عِلْمِه المُحيطِ بكلِّ شيءٍ.

دلالةُ البناءِ للمفعولِ في ﴿يُعَمَّرُ﴾ و﴿يُنقَصُ﴾:

إنَّما يَقْدِرُ على التّعميرِ والنّقْصِ الله

نظَم القرآنُ كلًّا من معنى التّعميرِ والنّقص على إحدى قراءتيْنِ متواترتيْنِ في قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ فعلًا مبنيًّا لِما لم يُسَمَّ فاعلُه: ﴿يُعَمَّرُ﴾ - ﴿يُنقَصُ﴾؛ للدّلالةِ على عظيمِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209.

اقتدارِه سبحانه على التّعمير والنّقص، وأنّهما سَهْلٌ عليه، وأنَّ كلًّا منهما هو المقصودُ بالإسنادِ[1].

دلالةُ الجارّ والمجرور:

ما أعظم عِلْمَ اللهِ المُحيطَ بكلِّ شيءٍ!!

المجرورُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ فاعلُ فِعْلِ التّعمير؛ وهو مجرورٌ لفظًا مرفوعٌ محلًّا؛ لدخولِ: ﴿مِن﴾ الزّائدة عليه؛ إذِ الأصلُ في الصِّناعةِ ألّا تكون، ولكِنْ لَمّا كانَتْ سعةُ العلم وتمامُه دالًّا على القدرةِ التّامةِ المختارةِ كانت زيادةُ: ﴿مِن﴾ دالَّةً على كمالِ الاستغراقِ؛ وهذا إبلاغٌ في العموم المستفادِ بوقوعِ الفاعلِ نكرةً في سياقِ النَّفْي، وعبَّر القرآنُ بقوله تعالى: ﴿مُّعَمَّرٍ﴾ عن (أحد) باعتبار مصيرِه مجازًا مرسلًا؛ باعتبار ما سيكونُ، والمعنى: وما يُمَدُّ في عُمرِ أحدٍ، وفي ذلك تمهيدٌ لأسلوبِ الاستخدام الحاصلِ بعوْدِ الضّميرِ على: ﴿مُّعَمَّرٍ﴾؛ لأنَّه يتأسَّسُ عليه الجملةُ المعطوفةُ: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾؛ وهذا يكشفُ عن شدة ارتباطِ الثّانية بالأولى، ونظَم القرآنُ فاعلَ فِعْلِ التّعمير: نكرةً في سياقِ النَّفْي الكائنِ بـ(ما)؛ فأفادَ معنى العموم؛ لأنَّ من مقاصدِ سياقِ الآيةِ التّنْبيهَ على سَعَةِ العِلْمِ الإلهيِّ.

بلاغةُ الاستخدامِ:

في الاستخدام تـمامُ المقابلةِ وكمالُها

الضّميرُ المجرورُ محلًّا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ عائدٌ على: ﴿مُّعَمَّرٍ﴾؛ على تأويلِه بـ (أحدٍ)؛ كأنَّه قيل: وما يُعمَّر من أحدٍ، ولا يَنقُصُ من عُمُره، أي: عُمُرِ أحدٍ وآخَر؛ وهذا كلامٌ جارٍ على التّسامُحِ في مِثْلِه في الاستعمالِ، ومعتمدٌ على أنَّ السّامعينَ يَفْهمون المرادَ، فهو على طريقة قولِهم: لا يُثيب اللّهُ عبدًا ولا يُعاقبُه إلّا بحقٍّ، لكِنْ لا على معنى: لا يَنقص عمرُه بعدَ كونِه زائدًا؛ على معنى: لا يُجعلُ مِنَ الابتداءِ ناقِصًا، فالمعمَّرُ المذكورُ المرادُ به الفِعْلُ، الّذي

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 209.

عادَ إليه الضّميرُ المُعمّرُ بالقوّة؛ فهو مِن بديعِ الاستخدامِ[1]، ولو كان التّعبيرُ بـ(أحد) صراحةً لَما صحَّ هذا المعنى[2].

سِرُّ الوَصْلِ:

الشّيءُ وضِدُّه يدلّانِ على الله!

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ عاطفةٌ للجملةِ بعدَها على جملة: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ﴾؛ فهي إخبارٌ عنِ اللّه تعالى أيضًا، والتَّقابُلُ بينَ معنَى الجملتَيْنِ ظاهرٌ؛ فالمُعمَّرُ يُقابلُه المنقوصُ.

علّةُ النّفي بـ(لا):

التّعبيرُ بـ(لا) مَنظورٌ فيه إلى مآلِ النَّقْصِ

لَمّا كان النَّقْصُ المذكورُ في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ مدلولًا عليه بالموتِ، وكانَ الموتُ غيْبًا إنّما يعلمُه اللّهُ تعالى؛ وكانَ النَّقْصُ مُستقبَلًا عُبِّر بـ (لا) النّافيةِ التي تدلُّ على نفيِ الفعلِ بعدَها في المستقبلِ، ولَمّا كانَ النَّقْصُ أكثرَ مِنَ التّعمير؛ على قراءةِ البناءِ للفاعلِ ناسبَه التّعبيرُ بـ(لا)؛ فزمانُ النّقْصِ مُمْتَدٌّ طويلٌ.

علّةُ التّعبيرِ بـ(النَّقْصِ) مضارعًا:

في النّقْصِ إبرازٌ لمعنَى الزّيادةِ في التّعمير

لَمّا كانَ التّعميرُ فيه معنَى الزّيادةِ كانَ المقابلُ له النَّقْصَ؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾، وهذا النَّقْصُ يدلُّ على قدرة اللّه الفاعلةِ المختارة؛ فهذا المُعمّرُ بالقوّة كان قابلًا في العادةِ لطول العمر؛ فلم يعمّر بنقْصِ الفاعل المختارِ نقْصًا لولاهُ لطالَ عمرُه، ونظَم القرآنُ معنَى النَّقْصِ فعلًا مضارعًا؛ نظرًا إلى تجدُّدِ مُشاهَدةِ مَن ينقص عمرُه بعلامةِ الموتِ؛ لا سيَّما أنَّ هؤلاءِ كثيرونَ؛ على قراءةِ البناء للمفعول، وإرشادًا إلى مُشاهدة تجدُّد ما يدلُّ على كمال قدرة اللّه تعالى في هذا النَّقْصِ، ونلاحظُ طباقًا بين ﴿يُعَمَّرُ﴾ و﴿يُنقَصُ﴾

---

(1) الاستخدامُ هو: أنْ يُراد بلفظٍ له معنيانِ أحدُهما، ثم بضميرِه معناه الآخرُ، أو يُرادَ بأحد ضميرَيْهِ أحدُهما، وبالآخَرِ الآخَرُ، يُنظر: الخطيب القزويني، الإيضاح، ص: 570.

(2) الزمخشري، والطِّيبي، الكشاف مع فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 12/ 620 - 621، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 210، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 469، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 277.

يشيرُ إلى إحاطةِ علْمِ اللّه بعُمُر الإنسان زيادةً ونُقصانًا، وأنَّ كلَّ ذلك مقدورٌ للّه تعالى جارٍ على وفْق علْمِه وإرادته.

التّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي: ﴿يُنقَصُ﴾:

في الـقـراءتـيْنِ تفصيلٌ في شأنِ قُدرتِه المُختارة

قرأَ يعقوب قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَنقُصُ﴾ بفتح الياءِ التَّحْتيَّةِ وضَمِّ القافِ مبنيًّا للفاعلِ، وهذهِ القراءةُ تشيرُ إلى أنَّ قِصَرَ العُمُر أكثرُ مِنَ الزّيادةِ فيه، وقرأه الباقونَ بضمِّ الياءِ وفتحِ القافِ مبنيًّا للمفعولِ: ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾، ونائبُ الفاعلِ ضميرٌ مستترٌ يعودُ على المُعمَّر أيضًا، وقد سبَق ذكرُ دلالةِ البناءِ للمفعول، ومجموعُ القراءتيْنِ ضرْبٌ مِنَ الإيجازِ(1).

علّةُ التّعبيرِ بالحال:

التّعبيرُ بالكتاب إبـلاغٌ في تقريرِ الحِفْظِ والعِلْم الإلهيّ

قولُه تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ جارٌّ ومجرورٌ في محلِّ نصبٍ؛ حالٌ مِنَ الفاعلِ، وهو أبلغُ مِن أنْ يُقال: (مكتوبا)؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾: مِن وجوهِ معناه: في عِلْمِ اللّه؛ وهو الأعلى؛ وقد قيل فيه: هو اللَّوْحُ المحفوظ، أوْ صحيفةُ الإنسانِ، ووجهُ استعلاءِ هذا الوجهِ أنَّ الجملة في سياقِ تقرير العِلْمِ الإلهيّ؛ وأضبطُه في مجاري عاداتِ النّاسِ ما كُتِبَ؛ فعُبِّر عن عِلْمِ اللّهِ بالكتابِ مِن أجلِ ذلك خطابًا للنّاس بما يعهدونَه ويعرفونَه؛ مجازًا مرسلًا علاقتُه السَّبَبيَّةُ أوِ الآليَّةُ، أوْ على سبيل الاستعارة التّصريحيّة؛ بجامع شدّةِ الحِفْظِ بين علم اللّه تعالى الّذي لا يغيبُ عنه معلومٌ والشّيءِ المكتوبِ الَّذي لا يُزاد فيه، ولا يُنقَص(2).

سِرُّ تنكيرِ ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾:

لـيـس كـمِـثْـلِ عِلْمِه تعالى عِلْم

نظَم القرآنُ (الكتابَ) نكرةً في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾؛ للإشارةِ إلى تعظيمه وفخامته؛ فإنَّ كتابًا يَحْوي آجالَ الخَلْقِ

(1) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 463، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 210.

(2) الزمخشري، الكشاف: 12/ 625، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 210، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 469، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 276.

وأعمارَهُم وأحوالَهم جديرٌ بأنْ يكونَ كذلك؛ وهذا كشْفٌ عن سَعةِ علمِه تعالى وعَظَمتِه.

بلاغةُ القصر في الجملة:

العِلْمُ يتعلَّقُ بالأشياءِ المَوجودةِ والمَعدومةِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ قُصِرَ تعميرُ كلِّ مُعمّرٍ ونقْصُ كلِّ منقوصٍ على أنْ يكونَ في كتابٍ، أي: في عِلْمِ اللّهِ؛ قصرَ موصوفٍ على صفةٍ؛ قصرًا إضافيًّا إفراديًّا؛ لأنَّ المقصورَ ثابتٌ للّه عِلْمًا، ومنفيٌّ عنِ الأصنام خصوصًا، وغيرِها عمومًا، وطريقُ القصرِ النّفيُ والاستثناءُ؛ وهذا مع التّوكيد الّذي في القصر إنّما هو تحقيقٌ لمضمون الكلام وتوكيدٌ له؛ لأنَّ المقصورَ عليه عندَ أهل الكفر والشّرك يصدقُ أيضًا على ما يعبدونَه مِن دون اللّه؛ وهو الأصنامُ؛ معَ صدقِه على اللّه تعالى.

سِرُّ الفَصْلِ خاتمة الآية:

مِثْلُ عظَمَةِ اللهِ؛ قُدرةً وعِلْمًا تَروعُ وتُحيِّرُ!

فُصِلتْ جملةُ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها تقريرٌ وتوكيدٌ وتحقيقٌ لِما قبلَها؛ لأنّها يلزمُ منها كونُه تعالى الّذي خلقهم مِن تُراب، ثمَّ مِن نُطفة، ثمَّ جعلَهم أزواجًا، وأنْ يكون عليمًا بما تحملُ كلُّ أنثى وما تضعُ، وبالتّعْمير والنّقْص؛ فبينَها وبينَ ما قبلَها كمالُ اتِّصالٍ، ويجوزُ - وهذا هو الأظهرُ - أنْ تكونَ جوابًا عن سؤالٍ يثيرُه جميعُ ما سبَق مِنَ الآيةِ؛ تقديرُه نحوُ: هل يقدرُ اللّه على كلِّ أولئك؟!؛ فغابتِ الواو؛ لشِبْه كمالِ الاتّصال.

سِرُّ التَّوْكيدِ في خاتمة الآية:

تقريرُ السُّهولة والقِلَّة بعدَ غايةِ العظمةِ مِمّا تستغربُه النَّفسُ!

لَمّا كان ما قرَّرَتْه الآيةُ في شأنِ اللّه تعالى أمرًا لا يُحيطُ به العَدُّ، ولا يَحصرُه الحَدُّ؛ فكانَ في عِدادِ ما يُنْكِرُه الجهلةُ، ولا يُسلِّمُ به الكَذَبةُ؛ أكَّدَ القرآنُ بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ عظيمَ اقتدارِه تعالى على ذلك، وسهولةَ ذلك عليه سبحانه[1]، كما أفادتْ ﴿إِنَّ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 210.

التّعليلَ لِما تقدّمَ مِن علم مُحيطٍ بكلِّ تلك التّفاصيلِ الدّقيقةِ، بأنَّ ذلك أمرٌ يسيرٌ وعلمٌ هيّنٌ.

معنَى ﴿ذَٰلِكَ﴾ وإفرادُها:

سهولةُ الكلِّ عليه تعالى أبلغُ في التّقرير

اسمُ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يُرادُ به كَتْبُ الآجال كلِّها، وتقديرُها والإحاطةُ بها على التّفصيل، أوْ جميعُ ما سبَق مِن مَعاني الآيةِ؛ مِنَ الخَلْقِ وما بعدَه[1]، وهذا الثّاني هو الأظهرُ المُتَّسِقُ معَ ما سيقت له الآيةُ، والبُعْدُ في ذلك: يُشير إلى سَريانِ معنى التّعظيم والتّفخيم في جميعِ مَعاني الآيةِ السّابقةِ على هذه الجُملة؛ حيثُ تأسَّسَتْ بقدرةِ اللّه الكاملة، وعلْمِه التّامِّ؛ فهي مَحارٌ للعقولِ والأفهام[2]، وفي الإفرادِ لاسم الإشارة إشارةٌ إلى كمالِ اقتدارِه تعالى على الخَلْقِ المذكورِ والجَعْلِ، وغيرِ ذلك، وكمالِ علمِه بالأشياءِ المذكورة وغيرِها؛ فيكونُ في اسم الإشارةِ تمهيدٌ لخبرِ الإشارة ﴿يَسِيرٌ﴾، ويمكنُ القولُ: إنَّ اسمَ الإشارة البعيدَ دالٌّ على عظيم ذلك المذكورِ من تفاصيلِ الخَلْقِ والعُمَر لكنَّه مع عظمتِه هيّنٌ عليه، ولذا أفردَهُ.

دلالةُ التّعبير بـ: ﴿عَلَى﴾:

قدرةُ اللهِ وعلمُه فوقَ العقلِ البشريِّ!!

عبَّر القرآنُ بحرفِ الجَرِّ: ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ للدّلالةِ على غايةِ اقتدارِ اللّه تعالى على الخَلْقِ، وغايةِ إحاطةِ عِلْمِه تعالى بالأشياء؛ وهذا أبلغُ مِن أنْ يُقال: (إنَّ ذلك عندَ اللّهِ يسيرٌ)، وإذا كانت كلمةُ: ﴿عَلَى﴾ معناها في الأصل: الاستعلاءُ الحِسّيُّ، لكنَّها هنا للاستعلاءِ المجازيِّ، فذلك العلمُ سهلٌ على اللّه تعالى، وفوقيّتُه مجازيّةٌ للدّلالة على تمكُّنِه من ذلك العلْمِ وغيره تمكُّنًا لا يحيطُ به العقل البشريُّ ولا يُدركُه، وتكونُ ﴿عَلَى﴾ مستعارةً لبيانِ اتّساعِ العلم الإلهيِّ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 210، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 469.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 469.

علّةُ الإظهار في موضِع الإضمار:

كان الظّاهرُ أنْ يُعبَّر عنِ اسمِ الجلالة بالضّمير في جملة الفاصلة؛ فيُقال: (إنَّ ذلك عليه يسير)؛ لذِكْرِ اسم الجلالة مُظْهَرًا في صدر الآيةِ التي بُنيت على مسندٍ إليه؛ وهو اسم الجلالة: ﴿ٱللَّهِ﴾، وعلى مسندٍ وما عُطِفَ عليه؛ وهو باقي الآية غير جملة الفاصلة، وحسَّنَ الإظهارَ في موضعِ الإضمارِ طولُ المسافةِ البيانيَّة بين صدرِ الآية وعجُزِها، والرَّبْطُ اللّفظيُّ القويُّ بينهما، والتّصريحُ باسْم الجلالةِ؛ لتحريكِ النُّفوسِ عامَّةً ونفوسِ أهلِ الطّبائعِ المُكذِّبينَ خاصَّةً إلى تَكرارِ النَّظَرِ والتَّأمُّلِ في شأنِه تعالى في أمرِ المخلوقينَ، وللإبلاغِ في تقرير أنَّ ألوهيَّتَه سبحانه حاضرةٌ بشدّةٍ في جميعِ ذلكَ.

مَن صدَّق مضمونَ الآيةِ لم يغِبْ جلالُ الله وجمالُه عنهُ لحظةً!!

نكتةُ التّقديم للجارِّ والمجرور:

لَمّا استحضَر إظهارُ اسْمِ الجلالةِ كمالَه تعالى؛ جَلالًا وجَمالًا بقوّةٍ في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ تأسَّسَ عليه أنْ يكونَ اسمُ الجلالةِ تعليلًا في المعنَى لمعنَى الخبَر ﴿يَسِيرٌ﴾؛ فلذلك قُدِّم الجارُّ والمجرور على متعلَّقه؛ على خلاف الأصل والظّاهر؛ وأفْهَم كلامٌ للبقاعيِّ أنَّ هذا الأسلوبَ فيه قصرُ المُؤَخَّر على اسم الجلالةِ المُقدَّم مَعَ جارٍّ لفظِه، أي: ليس ذلك يسيرًا إلّا على اللّه؛ وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ؛ قصرًا إضافيًّا إفراديًّا؛ إذا كانَ هؤلاءِ المُكذِّبونَ لنبيِّنا محمّدٍ ﷺ قد أشركوا معَ اللّه غيرَه في الألوهيَّة والعبادة، وقلْبيًّا؛ إذا كانوا قد خصّوا الأصنامَ بذلك، ونفَوْهُ عنِ اللّه تعالى[1].

الّذي ليس كمثله شيءٌ قادرٌ على كلِّ شيءٍ

علّةُ التّعبيرِ بـ﴿يَسِيرٌ﴾ منكّرًا:

جعَل القرآنُ الخبَرَ: ﴿يَسِيرٌ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ ليَظْهَرَ كونُه تعالى فاطِرًا؛ لأنَّ الخبرَ فيه معنَى السُّهولة والقِلَّة والخِفَّة؛ فتحصُلُ للمُتلقّي دهشةٌ كالدَّهْشة الّتي تعتريهِ عن مُشاهدةِ

الفاطرُ كلُّ شيءٍ عليه يسيرٌ!!

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 210.

شيءٍ ليس له مِثالٌ سابِقٌ، والقَرْنُ بينَ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرّاجعِ إلى جميعِ ما سبَق أوْ إلى كَتْبِ الآجالِ وتوابِعِ ذلك وبينَ ﴿يَسِيرٌ﴾ يُبرزُ كمالَ قدرةِ اللّه سبحانه وتمامَها، وإنّما كان ذلك يسيرًا عليه؛ لاستغنائِه تعالى عنِ الأسبابِ؛ فكذلك البَعْثُ[1]، والتّعبيرُ بـ:﴿يَسِيرٌ﴾ يُرشِّحُ حَمْلَ اسْمِ الإشارةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ على جميعِ ما سبَق مِن معاني الآيةِ، ونظَم القرآنُ الخبرَ نكرةً؛ للدّلالةِ على التّقليلِ؛ وهذا تمكينٌ وتحقيقٌ لمعنَى القِلَّة في المفردةِ نفسِها؛ إبلاغًا في تقريبِ كمالِ قدرتِه تعالى؛ لأنَّ جميعَ الأشياءِ المُمْكِنةِ في التَّعلُّقِ بقُدرتِه سواءٌ.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الخَلْق والذَّرْء:

الخلقُ الإيجادُ مـنَ العـدمِ والـذّرءُ إظهـارٌ للموجود

الخَلْقُ: في اللُّغة: التّقديرُ؛ يُقال: خلقْتُ الأديمَ؛ إذا قدَّرْتَه خُفًّا أوْ غيرَه، والخلْقُ العادةُ التي يعتادُها الإنسانُ، ويأخذُ نفسَه بها على مِقدارٍ بعينه، ويُستعمَل الخلْقُ في إبداعِ الشّيءِ مِن غير أصلٍ ولا احتذاءٍ، وليس ذلك إلّا للّه تعالى، وأمّا الذي يكونُ بالاستحالة فقد جعلَه اللّه لغيره في بعضِ الأحوال؛ كعيسى عليه السلام، ويُستعمل في إيجاد الشّيءِ مِنَ الشّيءِ، والذَّرءُ: أصلُه الإظهارُ، ومعنى: (ذرأ اللّهُ الخلْقَ): أظهرهم بالإيجاد بعدَ العدمِ، ومنه قيل للبياضِ: (الذّرأة)؛ لظهورِه وشهرتِه، و: (ملحٌ ذرآني)؛ لبياضه، والذَّرو بلا همزة التَّفرقةُ بين شيئَيْن، ولذا كان بينَ الخلْقِ والذَّرءِ تلازمٌ؛ فالخلقُ إيجادٌ والذّرءُ إظهارٌ للمَوجود وبثٌّ له.

النُّطْفة والمنيّ:

النُّطفةُ أعمُّ مِنَ المَنيِّ في الأصلِ، وهـي عـينُـه في العُرْفِ

النُّطْفةُ: ماءٌ قليلٌ، والماءُ القليلُ تسمّيه العربُ النُّطْفةَ؛ فيقولون: هذه نطفةٌ عذبةٌ، أي: ماءٌ عَذبٌ، ثمَّ كثُرَ استعمالُ النُّطفة في المَنيِّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 469.

حتَّى صارَ لا يُعْرَفُ بإطلاقِه غيرُه، وأمّا المَنيُّ: فيفيدُ أنَّ الولدَ يُقدَّرُ منه؛ وهو مِن قولك: منى اللّهُ له كذا، أي: قدَّرَه[1].

الزَّوْج والصّنف:

الزَّوْجُ أعمُّ مِنَ الصّنف

الزَّوْجُ: هو ما يُقال لكلِّ واحدٍ مِنَ القرينيْن مِنَ الذَّكر والأنثى في الحيوانات المُتزاوِجةِ، ولكلِّ قرينيْن فيها وفي غيرِها؛ كالخُفِّ والنَّعْلِ، ولكلِّ ما يَقترنُ بآخَرَ مُماثِلًا لهُ أوْ مُضادًّا، والصِّنْفُ: ما يتميَّزُ مِنَ الأجناس بصفةٍ؛ يقولون: السّواداتُ الموجودةُ صنفٌ على حيالها؛ وذلك لاشتراكِها في الوجود؛ كأنَّها ما صنّف مِنَ الجنس؛ فلا يُقال للمعدوم: صنفٌ؛ لأنَّ التَّصنيفَ ضَرْبٌ مِنَ التَّأليف، فلا يجري التّأليفُ على المعدومِ، ويَجري على بعض الموجوداتِ حقيقةً، وعلى بعضِها مجازًا[2].

---

(1) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 542.

(2) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 323، والراغب، المفردات: (زوج).

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢﴾ [فاطر: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستدلالُ بتنوُّع الخلق على عظمةِ الخالقِ

لمّا ذكر اللهُ ﷻ الأدلَّة على إثباتِ البعثِ؛ أردف في هذه الآية ذِكرَ البراهين المختلفة على وحدانيَّته وعظيم قدرته بخلقه الأشياءَ المتَّحدةَ في الجنس، المختلفةَ في المنافع، وذلك بالماء العذب والماءِ المالح، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ﴾ الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَذْبٌ﴾: (عذب) أصلٌ صحيحٌ، لكنَّ كلماتِه لا تكاد تنقاس، ولا يمكن جمعُها إلى شيء واحد، وعَذُبَ الماءُ يَعْذُبُ عُذوبَةً، فَهوَ عَذْبٌ، أي: طَيِّبٌ، وأَعْذَبَ القَوْمُ؛ إذا عَذُبَ ماؤُهُم، واستَعْذَبوا؛ إذا استَقَوا، وشَرِبوا عَذبًا[2]، وعُمِّمَ العَذب في كلِّ مُستساغ من الشَّراب والطَّعام[3]، ومعناه في الآية: أنَّه طيِّبٌ حُلوٌ لذيذ، ملائم للطَّبع والذَّوق[4].

2) ﴿فُرَاتٌ﴾: (فرت) كلمةٌ واحدةٌ، وهي الماء الفراتُ، وهو العَذْبُ، يقال: ماء فُرات للواحد، ومياه فُرات للجمع[5]، قال تعالى:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 338.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عذب).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 24، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 364.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرت).

﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ٢٧﴾ [المرسلات: 27]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾، ووزنه (فُعال) من فَرَتَهُ، وهو مقلوب من رَفَتَهُ؛ إذا كسَرَهُ؛ لأنَّه يكسِرُ سَوْرَةَ العطش، ويقمعُها، وقيل: هو البارد، ومعناه في الآية: أنَّه مُفرِط في العذوبة مستساغ[1].

3) ﴿سَآئِغٞ﴾: (سوغ) أصلٌ يدلُّ على سُهولة الشَّيءِ واستمرارِه في الحَلْق خاصَّةً[2]، وساغ الشَّرابُ يَسوغ سَوغًا وسَواغًا: سَهُل مدخلُه وانحداره في الحَلْق[3]، والسّائغ مِنَ الشَّراب: العَذْب[4]، ومعناه في الآية: أنَّ شربَهُ لا يُكلِّف النَّفسَ كراهةً، فيسهل ابتلاعُه دون غُصَّةٍ ولا كُره[5].

4) ﴿مِلۡحٌ﴾: (ملح) أصلٌ صحيحٌ يرجع إلى البَياض، ومنه المِلح المعروف، وسمّي لبياضه[6]، ويقال: ماءٌ مِلْح، وقد قالوا: مالح، ذكره ابن الأعرابيِّ، ومعناه: الماءُ الذي تغيَّرَ طَعْمُه التَّغيُّرَ المَعْروف، واللُّغة المشهورة هي ما جاءتْ بِهِ الآيةُ (مِلح)، وأمّا قولُهم: (مالح)؛ فورد على قلَّة[7].

5) ﴿أُجَاجٞ﴾: (أجّ) أصلٌ يدلُّ على الشِّدَّة، إمّا حرًّا وإمّا ملوحةً[8]، وقد وُصِف البحرُ في قوله تَعالى: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ بوصف (أجاج) من الأجيج، وهو تلهُّب النّار، ومن هنا قيل: هو الذي يُحرقُ بملوحته؛ لأنَّ شربَهُ يزيد العطشانَ عطشًا وتعبًا، وقيل: هو المُرُّ، وقيل: هو الحارُّ، فهو يقابل الفُراتَ عند من فسَّره بالبارد[9].

6) ﴿طَرِيّٗا﴾: (طري) أصلٌ يَدُلُّ عَلى غَضاضَةٍ وجِدَّةٍ، فالطَّريُّ: الشَّيْءُ الغَضُّ، ومَصْدَرُهُ الطَّراوَةُ والطَّراءَةُ، ومِنْهُ: أَطْرَيْتُ فُلانًا، وذَلِكَ إذا مَدَحْتَهُ بِأَحْسَنِ ما فيهِ[10]، ومعنى ﴿لَحۡمٗا

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 263، والشّعراوي، تفسير الشعراويّ: 17/ 10470.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوغ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوغ).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوغ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 280.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملح).
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 625، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 351.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجّ).
(9) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 33، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 333.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طري).

﴿طَرِيًّا﴾، أيْ: غضًّا جديدًا[1]، والمقصودُ في الآية: هو السَّمكُ وسائرُ الحيوانات البحريَّة[2].

7) ﴿حِلْيَةً﴾: (حلو) أصلٌ يدلُّ على أكثرَ مِن أصلٍ، الأوَّلُ: طيبُ الشَّيءِ في مَيلٍ مِنَ النَّفسِ إليَه، ومنه لفظُ: الحُلْوُ، وهوَ خِلافُ المُرِّ، يُقالُ: استَحلَيتُ الشَّيءَ، وقَد حَلا في فمي يَحلو، والثّاني: تَحسينُ الشَّيءِ، ومنه لفظُ الحُليِّ، أي: حُليُّ المَرأةِ، وهوَ جَمعُ حَلي، وحَلَّيتُ المَرأةَ، وهَذِهِ حِليَةُ الشَّيءِ، أي: صِفَتُهُ[3]، والمُراد بالحِليَةِ في الآية: كلُّ ما يُتحلَّى به مِنَ اللُّؤلؤ والمرجان وغيرِهما[4].

8) ﴿مَوَاخِرَ﴾: (مخر) أصلٌ يدُلُّ على شَقٍّ وفَتحٍ، يُقالُ: مَخَرَتِ السَّفينَةُ الماءَ مَخْرًا: شَقَّتْهُ، ويُقالُ: مَخَرْتُ الأَرْضَ، أي: أرسَلْتُ فيها الماءَ، ويُقالُ: اسْتَمخَرْتُ الرّيحَ، أيِ: استَقْبَلْتُها بِأنْفي[5]، ويُقال: سفينةٌ ماخِرة، والجمع: مَواخِر[6]، فمعنى ﴿مَوَاخِرَ﴾: جوارٍ في البحر تَشُقُّ الماءَ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

دلالةُ خلقِ البحرين على قدرةِ اللهِ ووحدانيَّته

يُخبر تعالى ذِكرُهُ ببعض الأدلَّة على قدرتِهِ ووحدانيَّتِه، وذلك بالماءِ الَّذي حولنا، وهو على نوعَين: عذبٍ شديدِ العذوبةِ، سَهْل مرورُهُ في الحلق يزيل العطشَ، وهذا مِلح شديد الملوحةِ، وهما لا يستويان ومن كلٍّ مِنَ البحرين يأكلُ النّاس سمكًا طريًّا شهيَّ الطَّعم، ويستخرجون زينةً هي اللُّؤلؤ والمَرْجان يلْبَسونها، والسُّفن فيه شاقّات المياهِ؛ ليبتغوا من فضلِهِ من التِّجارة وغيرها، وفي هذا دلالةٌ على

(1) الرّاغب، المفردات: (طري).
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 238، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 352.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلو).
(4) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 03/ 127.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مخر).
(6) الرّاغب، المُفردات: (مخر).

قدرةِ اللّهِ ووحدانيَّتِهِ، ولعلَّهم يشكرون اللّهَ على هذه النِّعَمِ الَّتي أنعم بها عليهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ وصلِ الآية بما قبلَها:

الاستدلالُ على الأُلوهيَّة بالآيات الأرضيَّة والسَّماويَّة

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ بما قبلَهُ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، وذلك بالاستدلالِ بالأحوال في الأجواء بين السَّماءِ والأرض على تفرُّدِ اللّه تعالى بالإلَهيَّة، إلى الاستدلال بما على الأرض من بحارٍ وأنهارٍ، وما في صفاتِها من دلالةٍ زائدةٍ على دلالة وجود أعيانها، على عظيم مخلوقاتِ اللّهِ تعالى[2]، ويجوز أن يكونَ الكلامُ من باب الاستئنافِ؛ للإشارة إلى تعدُّدِ مظاهر قدرتِه، حيثُ ذكرَتْ هذه الآيةُ مظهرًا آخر في التَّدليل على وحدانيَّتِهِ سبحانه.

نُكْتَةُ النَّفي بـ (ما):

التَّأكيدُ على نفي المساواةِ بين البحرين

أوثِر النَّفيُ بـ (ما) في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾؛ تأكيدًا على عظَمةِ اللّهِ ﷻ في التَّنويع والمخالفة بين المتماثلات، فنفى سبحانه استواءَ البحرين العذبِ الفُراتِ والمِلْحِ الأُجاجِ، ففيه من معنى التَّأكيدِ ممّا ليس في غيرِه، كما قال سيبويه: "وإذا قال: (لقد فعل)؛ فإنَّ نفيه: (ما فعل)؛ لأنَّه كأنَّه قال: (واللّهِ لقد فعل)، فقال: (واللّهِ ما فعل)"[3]، فهي آكَدُ في النَّفي مِن (لم)[4].

دلالةُ نفي الاستواءِ:

التَّنبيهُ على حكمة الخالق في تنويع مخلوقاتِهِ

عُبِّرَ بنفي الاستواء في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾؛ لأنَّ المعنى نفيُ المعادلة بين شيئَين[5]، والنُّكْتَةُ فيه التَّنبيهُ على الحكمة

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 345، نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 436.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 279.

(3) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

(4) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 569.

(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).

الرَّبّانيَّة في المخلوقات، وهي ناموس تمايزِها بخصائصَ مختلفةٍ، واتِّحاد أنواعِها في خصائصَ متماثلةٍ؛ استدلالًا على دقيق صنع اللّه تعالى، كقوله سبحانه: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ [الرّعد: 4][1]، وفي هذا دليلٌ على كمال قدرتِه ونفوذ إرادته، وفيه أيضًا الدَّلالةُ على أنَّ البحرين، وإن اشتركا في بعضِ الفوائدِ كجري الفُلكِ فيهما، وأكلِ اللَّحم الطَّريِّ، واستخراجِ اللُّؤلؤ، لا يتساويان من حيثُ الماءُ في حَدِّ ذاته[2].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡبَحۡرَانِ﴾:

عمومُ لفظِ (البحر) في كلِّ ماءٍ كثيرٍ واسع

جاء لفظُ ﴿ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ معرَّفًا بـ (أل) الدّالَّة على تعريف الجنسِ المفيدِ للعموم والاستغراق، فيُرادُ بالبحرين جميعُ الماءِ الملْح وجميعُ الماءِ العَذْبِ حيثُ كان، فهو يعني بهِ جنسَ العَذْبِ وجنسَ المالِحِ، والبحرُ في كلام العربِ: اسمٌ للماء الكثير القارِّ في سعة، أو هي مستنقعاتٌ على وجهِ الأرض، حاصرةٌ للمياه المجتمعة فيها، فالفراتُ والدِّجلة بحران عذبان، وبحرُ خليجِ العَجَم مِلْحٌ[3].

سرُّ ذكرِ تفاوت البحرين في طعمِ الماءِ:

إيثارُ النَّظم القرآنيّ إيجاز المعاني

ذكر القرآنُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ تفاوتَ البَحْرين في طَعْم الماء، دونَ خلقِهما من باب الإيجازِ بالحذف؛ لأنَّ الاستدلالَ باختلاف مذاقِ البحرين العَذْبِ الفُراتِ والمِلْح الأُجاج يتضمَّن الاستدلالَ بخَلْقِ البحرين أنفسِهما وتكوينهما، والمعنى: أنَّه خَلَقَ البحرين العَذْبَ والأُجاجَ على صورةٍ واحدةٍ، وخالفَ بين أعراضِهما، ففي الكلام إيجازُ حذفٍ، وإنَّما قَدَّم مِن هذا الكلامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 279.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 36.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 433، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 279، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 364.

تفاوتَ البَحْرين في المذاق، واقتصر عليه؛ لأنَّهُ المقصودُ من الاستدلال بأفانين الدَّلائل على دقيقِ صُنعِ اللّه تعالى[1].

تفصيلُ ما أُجمِلَ من حال البحرين

نُكْتَةُ فصلِ قولِه: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾:

فُصِلَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ عن الجملة السّابقةِ، وهي قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾؛ لوجودِ كمالِ الاتّصال بينهما، وهو اتّحادُ الجُملتين اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تنزَّلُ الثّانية مِنَ الأولى منزلةَ نفسِها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ حالًا مبيِّنة لقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾.

التَّمييزُ والتَّخصيص بالإشارة

سِرُّ التَّعبيرِ باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

عبَّرَ القرآنُ الكريم باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، والأصلُ فيه أنَّه يُستعمَلُ للشّاهدِ القريب المشار إليه، وقد وقعتِ الإشارةُ بِهِ في هذا السّياق إلى مُقدَّر في الذِّهن يُفسِّره الخبرُ، والنُّكتةُ في الإشارةِ به تمييزُه وإعلانه، بحيثُ لا يستطيع المخاطَبُ المغالطة فيه ولا في مضمونه[3]، وقال المُبرِّدُ: العربُ تُشير بهذا إلى الغائبِ، قال جرير[4]:

هذا ابنُ عمّي في دمشق خليفةٌ***لو شئت ساقكمُ إليَّ قطينا

وهذه الإشارة قائمةٌ مقامَ الضَّمير في الرَّبط[5].

حلاوةُ مياهِ الأنهارِ، وموافقتُها للطَّبع والذَّوق

دلالةُ الوصفِ بقوله: ﴿عَذْبٌ﴾:

وُصِفَ البحرُ بأنَّهُ عَذْبٌ في قوله تَعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه طيِّب حلوٌ لذيذ، ملائمٌ للطَّبع والذَّوق، بحيثُ يشعر الإنسانُ عند شُربِهِ باللَّذَّة، كمياه الأنهار، وإنَّما سُمّي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 279.
(2) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 47.
(4) البيت لجرير في ديوانه، ص: 477.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 263.

العذبُ بحرًا؛ لكونهِ مع المِلْح، كما يقال للشَّمس والقمر: قمران بالتَّغليب[1].

نُكْتَةُ وصفِهِ بـ ﴿فُرَاتٌ﴾:

الـدَّلالـةُ على كمال التَّنعُّم

وُصِفَ البحرُ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ بكونه (فراتًا)، دونَ الاكتفاء بوصف ﴿عَذْبٌ﴾، الَّذي يدلُّ على حلاوة طَعْمِهِ؛ لأنَّ القرآنَ أراد مزيدَ فضلٍ وتنعُّمٍ على البشر، وذلك بالانتقال من الضَّروريّات، وهو شُربُ الماء، إلى الكمالات وهو الماءُ المُفْرِط في العذوبة؛ أخذًا من قوله: ﴿فُرَاتٌ﴾، فهو بمعنى مُفْرِطٍ في العُذوبةِ مستساغٍ، ووزنُه (فُعال) من فَرَتَهُ، وهو مقلوبٌ من رَفَتَهُ، إذا كَسَرَهُ؛ لأنَّه يَكسِرُ سَوْرَةَ العطش، ويقمعُها، وقيل: هو البارد، ومن هذه الكلمة سَمَّوا نهرَ الفُراتِ لعذوبة مائِه، فلَيس المرادُ بالفُرات أنَّ الماء كماء نهرِ الفُراتِ؛ لأنَّ الكلمةَ وُضِعَت أوَّلًا، ثمَّ سُمّيَ بها النَّهرُ[2].

دلالةُ الوصفِ بـ ﴿سَآئِغٌ﴾:

المبـالـغـةُ في الـدَّلالـةِ على عذوبةِ الماء

زاد النَّظمُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ وصفًا آخر للبحر، وهو كونه سائغًا شرابُهُ، ومعناه: أنَّ شربَهُ لا يُكلِّفُ النَّفْسَ كراهةً، وهو مشتقٌّ من الإساغة، وهي استطاعة ابتلاعِ المشروب دونَ غُصَّة ولا كُره، قال عبد اللّه بن يَعْرُب[3]:

فساغَ ليَ الشَّرابُ وكنتُ قَبلًا ***أكاد أغصُّ بالماء الحميم

دلالةُ التَّعبيرِ بالشَّرابِ دونَ الشُّرب:

الإساغةُ وصفٌ للمشروب دونَ الفعلِ

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ (الشَّراب) دون الشُّرب في قوله: ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾؛ لأنَّ الشُّربَ يُطلَق على تناول كلِّ مائعٍ، ماءً كان أو غيره، بخلاف الشَّراب؛ فإنَّه يُطلَق على المشروب، قال تعالى في صفة أهل الجنَّة: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ٢١﴾ [الإنسان: 21].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 24، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 364.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 263، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10470.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 280.

دلالةُ التَّرتيب بين صفاتِ البحرِ:

تدرُّجُ الصِّفاتِ على سبيل التَّرقّي تحقيقٌ للمبالغة

النّاظرُ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ﴾ يجد وصفَ البحرِ بالعُذوبة أوَّلًا، وبالفُرات ثانيًا، وبالإساغة ثالثًا، فجاءتِ الأوصافُ على سبيل التَّرقّي؛ لأنَّ أوَّل وصفٍ يطلبُه الشّاربُ في الماء أن يكونَ عذبًا طيِّبًا، ثمَّ جاء الوصف الثّاني ﴿فُرَاتٞ﴾ مبالغةً في الوصف الأوَّل؛ للدَّلالةِ على أنَّه شديدُ العذوبة والحلاوة، ثمَّ جاء الوصفُ الثّالثُ الَّذي هو نتيجةٌ للوَصْفين الأوَّلَين، فإذا كان الماءُ عذبًا فراتًا سَتَسْتَسيغُه نفسُ الشّاربِ دونَ غصَّة، وفي هذا التَّرتيب دلالةٌ على مزيد فضلِ اللهِ على خَلْقِهِ في كمال تنعيمِهِ لهم.

سرُّ وصلِ ﴿وَهَٰذَا﴾:

الجمعُ بين المعاني وضِدِّها إبرازٌ للوحدانيَّة

وُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾ بالجملة الَّتي قبلَهُ، وهي: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ﴾ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع، وذلك لوجودِ مناسبةٍ في المعنى بينهما، وهي المقابلةُ بين البحر الأوَّل بقوله: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾، والبحر الثّاني بقوله: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾؛ وذلك لإبراز الدَّليلِ على وحدانيَّتِه ﷻ؛ فإذا كان العَذْبُ الفُرات السّائغ شرابُهُ منَ الأدلَّة على وحدانيَّتِهِ سبحانه، فكيفَ بالقُدرة على الجمع بين الضِّدّين.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِلۡحٌ﴾ دونَ مالح:

مِلْحٌ أفصحُ من مالح، وكلاهما صالِحٌ في لغة العرب

أوثِرَ وصْفُ ﴿مِلۡحٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾ دونَ مالحٍ؛ لوجود فرقٍ بينهما: فالمِلْح: الماءُ الذي فيه الطَّعْمُ المعروفُ مِن أصلِ الخِلْقة كماء البحر، والمالح: الماءُ الَّذي وُضِعَ فيه مِلحٌ، فتغيَّر طعمُهُ، ولا يقال فيه إلّا مالح[1]، واللُّغة المشهورةُ هي ما جاءت به الآيةُ ﴿مِلۡحٌ﴾، وأمّا قولهم: (مالح)؛ فوردَ على قِلّة، وليس بلغةٍ رديئةٍ كما قيل؛ لأنَّ معناه: الماءُ الَّذي تغيَّرَ طَعْمُهُ التَّغيُّرَ المَعْروف.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 228، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 625، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 351.

المبالغةُ في شدَّة الملوحة

بلاغةُ الوصف ﴿أُجَاجٌ﴾:

وُصِفَ البحرُ في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بوصف ﴿أُجَاجٌ﴾، ومعناه: الشَّديدُ المُلوحة، وإنَّما سُمّيَ أُجاجًا مِنَ الأجيج، وهو تلهُّبُ النّار، ومن هنا قيل: هو الَّذي يُحْرِق بملوحتِهِ؛ لأنَّ شُربَه يزيدُ العطشانَ عطشًا وتعبًا، وقيل: هو المُرُّ، وقيل: هو الحارُّ، فهو يقابِلُ الفُرات عند مَن فسَّرَه بالبارد[1]، ومما يُذْكَر في بلاغة التَّعبيرِ بقوله: ﴿أُجَاجٌ﴾ إبرازُ حكمة اللّه تعالى ودقيق صنعِه في الحفاظ على ماءِ البحرِ؛ لِئَلّا يصابَ بالعَفَن من تقادُم الدُّهور والأزمان، وفي هذا تعليمٌ للبشر أنَّ المِلْحَ من الأسباب التي يُحافَظُ بها على الأشياء حتّى لا تصابَ بالعَفَن، وهذا ما استفادت منهُ البشريَّةُ في كثير من صناعاتها باستخدام المِلْح كوسيلةٍ لعَدَمِ تعَفُّن الأشياء.

تقويةُ المعاني وتوضيحُها بالجمع بينَها وأضدادِها

سِرُّ المقابلةِ بين حال البحرَيْنِ:

تضمَّنَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فنًّا من فنون البديع، وهو المقابلةُ، حيثُ قابل النَّظمُ الكريمُ بين بحرين، أحدُهما: عذبٌ فُراتٌ نهايةٌ في الحَلاوة، والثّاني: مِلْحٌ أُجاج نهايةٌ في الملوحة، فبينَهما تضادٌّ يثيرُ الذِّهْنَ ويجذب الانتباهَ، ويزيدُ الكلامَ حُسْنًا وطَرافةً، كما يُقوّي المعنى؛ إذ بضدِّها تتمايز الأشياءُ[2].

اختلافُ البحرين دليلٌ على كمال القُدرة

دلالةُ الآيةِ بين الحقيقةِ والمجاز:

اختار بعضُ العلماء حملَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ على الحقيقة، وقالوا: إنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ ذِكْرُ دليلٍ آخَر على قدرةِ اللّه تعالى، وذلك من حيثُ إنَّ البحرين يستويان في الصّورة، ويختلفان في الماء، فإنَّ أحدهما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 33، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 333.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 365.

فُرات والآخر مِلْح أجاج، ولولا ذلك بإيجابِ موجِب؛ لما اختلف المستويان، ثمَّ إنَّهما بعدَ اختلافهما يوجد منهما أمورٌ متشابهة، فإنَّ اللَّحم الطَّريَّ يوجد فيهما، والحِليَة تُؤخذ منهما، ومَنْ يوجِدُ من المتشابهَين اختلافًا، ومن المُختلفَين اشتباهًا لا يكون إلّا قادرًا، فقولُه سبحانه: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ عدمَ استوائهما دليلٌ على كمال قدرتِه، ونفوذ إرادتِه[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة في الآية:

تمثيلُ الفَرْقِ المبين بين المسلمين والكافرين

يشتمل قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾ في قول بعض المفسِّرين على استعارة تمثيليَّة، وهو تركيبٌ استُعمِلَ في غير ما وُضِع له لعلاقة المشابهة، وليس فيه ذِكرٌ للمشبَّه ولا لأداة التَّشبيه، فقد مثَّل اللهُ سبحانه في هذه الآية للمؤمن والكافر بالبحرين، ثمَّ فضَّل البحرَ الأُجاج على الكافر بأنَّه قد شارك البحرَ العذبَ في منافع من السَّمك واللُّؤلؤ، وجري الفُلْك بما ينفع النّاس، والكافر خالٍ من النَّفع مطلقًا، وهذا على نسق قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: 179]، وقولِه: ﴿كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ﴾ [البقرة: 74]، وقد يُقال: إنَّ المؤمنَ والكافر - وإن اشتركا في بعض الصِّفات كالشَّجاعة والسَّخاوة - لا يتساويان في الخاصّيَّة العُظمى؛ لبقاء أحدِهما على فطرتِهِ الأصليَّة مِنَ التَّوحيد[2].

علاقةُ وصْفِ المِلْح الأُجاج بالكافر:

كُفْرُ الكافر يوصِل إلى الإحراقِ كالماء الأُجاج

ربطَ بعضُ العلماء بين وصف الأُجاج في قوله: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾ بالكافر؛ وذلك لأنَّ الأُجاج هو الَّذي يُحْرِق بمِلْوحته، ويُؤذي

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 228، وابن عادل، اللّباب: 16/ 116.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 604، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 227، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 386.

مَن يتناولُه، كما أنَّ الكفرَ يُحْرِق الفؤادَ، ويقطع الأكبادَ، ويُفْسِد الفطرةَ السَّليمة، ويوصِل إلى الشَّقاوة المُؤبَّدة، فالجامعُ بينهما الأذيَّة في كلٍّ[1].

مَنافعُ البحرِ الجسيمة الدّالَّةِ على القدرة الإلَهيَّة العظيمة

دلالةُ التَّعبيرِ بالواو في ﴿وَمِن كُلّ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يجوز أن تكونَ عاطفةً، ويكون الكلام من باب التَّتميم لصفة البحرين وما فيهما من النِّعم والمنافعِ، والتَّكميل للتَّمثيل بتفضيل المشبَّه به على المشبَّه، على سبيل الاستعارة التَّمثيليَّة، فهو استدراكٌ لدعوى الاشتراك بين المشبَّه والمشبَّه به لئَلّا يلزمَ منه أن يكونَ المشبَّه أقوى، وهذا الاستدراك مخصوص بالمِلْح، وإيضاحُه أنَّه شَبَّه المؤمنَ والكافر بالبحرين، ثُمَّ فضَّل الأُجاج على الكافر بأنَّه قد شارك الفراتَ في منافع، والكافرُ خِلْوٌ من النَّفع[2]، وقد تكون الواوُ استئنافيَّةً، فتكونُ الجملةُ استئنافيَّةً استطراديَّةً.

أثرُ الاستطرادِ البيانيِّ في تتميم المعاني

بلاغةُ الاستطرادِ في الآية:

يشتمل قولُه تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ على فنِّ الاستطراد، وهو فنٌّ رفيع من فنون البيان، وسمّاه ابنُ المعتزِّ الخروجَ من معنًى إلى معنًى، وتعريفُه: أن تكونَ في غرض من الأغراض، ثمَّ تخرج منه إلى غيرِه لمناسبة بينهما، أو هو ذِكْر الشَّيءِ في غير موضعِه لمناسبة بينَه وبين ذلك الموضع، فبعدَ تشبيهِ المؤمن والكافر بالبحرين، استطردَ، فذكَرَ منافعَ البحرين، وهذا ليس من تمام ضَرْب المَثَل لما فيه من صفة المَدح الَّتي لا تُناسِب الكافر، ووجهُ ذلك: أنَّه لمّا ضربَ البحرَ المِلْحَ مثلًا للكافر، وكان لا يناسب وصفَه بما يُشعِر مَدْحَه، والسّياق في معرض الذَّمِّ له؛ قيل: إنَّ ذلك واردٌ على سبيل الاستطرادِ[3].

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 35/ 16.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 352، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 333.
(3) ابن التّمجيد، الحاشية على تفسير البيضاوي: 35/ 16.

الامـتـنـانُ على الإنسانِ بإخراج اللَّـحـمِ الـطَّـرِيِّ من البِحار

دلالةُ حرف الجرِّ (مِنْ):

ورد في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ حرفُ الجرِّ (مِنْ)، ومعناه الابتداء، وفيه إشعارٌ بأنَّهم يبتدِئون أَكلَهُ من البحر، مُبالَغَةً في تَهَيُّئِه للأكل في مقام الامتنان، وفيه أيضًا دلالةٌ على القدرةِ الإلَهيَّةِ في خَلْقِ الحياة والمنافع في البحرِ الأُجاج شديدِ الملوحة.

استخراجُ اللَّحم الطَّرِيِّ والحِلْيَةِ من كِلا البحرين

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿كُلٍّ﴾:

عُبِّرَ بلفظ ﴿كُلٍّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾؛ لأنَّه مِن ألفاظ العموم، فدلَّ ذلك على عمومِ حُكمِ استخراج اللَّحم والحِليَة من كِلا البحرَين المالح والعذب، وقد جاء في النَّظم منوَّنًا بتنوين العِوض عن كلمة، والتَّقدير: (ومِن كلِّ واحد من البحرين المختلفَين طعمًا تأكلون لحمًا طريًّا، وتستخرجون حليةً تلبسونها)، فهو نظير قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢﴾ [الرّحمن: 22]، وقد أنكر بعضُ المفسِّرين هذا العمومَ، وزعموا أنَّ المقصودَ من مجموعهما الصّادق بخصوص البحرِ المِلْح؛ لأنَّ العَذْبَ لا يخرج منه لؤلؤٌ ولا مُرجان[1]، وهو قولٌ باطلٌ بنصِّ القرآن العظيم، فقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ صريحٌ في إرادة العَذْبِ والمِلْح معًا[2].

الاهتمامُ بتقديم ما حقُّه التَّأخيرُ في الكلام

نُكْتَةُ تقديم ﴿وَمِن كُلٍّ﴾:

دلَّ تقديمُ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ على الاختصاص، فقَصَرَ النَّظمُ استخراجَ السَّمكِ والحِليَة على كونهما مِنَ البحرين العَذْب والمِلْح، وقد يكون غرضُ التَّقديم الاهتمامُ بالبحرين، باعتبارهما مثلًا للمؤمن والكافر كما تقدَّم.

طـعـامُ الـبـحـرِ غـذاءٌ مـتـجـدِّدٌ للنّاس

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَأۡكُلُونَ﴾:

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغة المضارع في الفعل ﴿تَأۡكُلُونَ﴾ في قوله

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 446، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 279.

(2) الشّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص: 151، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 138.

تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأۡكُلُونَ لَحۡمًا طَرِيًّا﴾؛ للدَّلالة على التَّكرُّر والاستمرار، فالأكلُ مِن أسماكِ البحر عادةٌ مستمرَّةٌ للنّاس، خاصَّةً للشُّعوب الَّتي تُقيم على سواحل البحار وضفافِ الأنهارِ[1]، وفيه دلالةٌ على أنَّ اللّه سبحانه يُجدِّد مخزون اللَّحم الطَّريِّ في البحار بقدرتِه وعلمِه، مع تجدُّد الأكل وكثرة الآكلين، فخزائنُهُ سبحانه لا تنفد.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿لَحۡمًا﴾:

الامتنانُ بتكثيرِ طعام البحار

جاء لفظُ ﴿لَحۡمًا﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأۡكُلُونَ لَحۡمًا طَرِيًّا﴾، والنُّكتةُ في تنكيرِه التَّكثيرُ والتَّعظيم، فالصَّيّادون يستخرجون من البحارِ كمّيّاتٍ هائلةً من السَّمك، ممّا يستوجب شكرَ المنعِم سبحانه على سعة فضلِه وامتنانه، وقال بعضُهم: بأنَّ تنكير لحمًا للتَّنويع؛ لأنَّه يخالف ما هوَ مُتَعارَفٌ عليه من اللُّحوم[2].

سرُّ وصفِ لحمِ البحر بقوله: ﴿طَرِيًّا﴾:

كمالُ القدرةِ في استخراج اللَّحم الطَّريِّ من البحر الأُجاج

وُصِفَ لحمُ البحر بالطَّراوة في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأۡكُلُونَ لَحۡمًا طَرِيًّا﴾؛ للتَّنبيه إلى أنَّه ينبغي المسارعةُ إلى أكله؛ لأنَّه يُسرع إليه الفسادُ والتَّغيير، وتناوُلُه بعد ذهاب طراوتِه مِن أضرِّ المأكولات على الإنسان، وفيه دلالةٌ على أنَّه أرطبُ اللُّحوم، ويؤكِّد ذلك التَّعبير بصيغة ﴿طَرِيًّا﴾، وهي على وزن (فعيل)، وهي تدلُّ على شدَّة الرُّطوبة، وفيه أيضًا إيماءٌ إلى كمال قدرتِه تعالى؛ لأنَّ ذلك لم يقعْ بمقتضى الطَّبع، بل بمحضِ قدرةِ اللّه تعالى وحكمته، حيثُ أوجد هذا اللَّحمَ الطَّريَّ النّافع في الماء المِلْحِ الأُجاج الَّذي لا يُشرَب[3].

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

شمولُ لحمِ البحر للسَّمك وسائر الحيوانات البحريَّة

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأۡكُلُونَ لَحۡمًا طَرِيًّا﴾ الكنايةَ عن

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 35.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 238.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 334.

السَّمك بقوله: ﴿لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾، وإنَّما لم يقل: وهو السَّمك؛ لأنَّه ينتظمُ ما سوى السَّمكِ من الحيوانات البحريَّةِ[1]، وفيه تلويحٌ بانحصار الانتفاعِ بهِ في الأكل.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ﴾:

تتميمُ الامتنانِ بذِكر نِعَمٍ أخرى للبحارِ

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ بما قبلَهُ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، فقد انتقل النَّظمُ القرآنيُّ إلى بيان نعمةٍ ثانية من النِّعم الَّتي تصل إلى النّاس عن طريق البحرين، وهي نعمةُ استخراجِهم منهما ما ينفعهم، وما تتحلّى به نساؤهم، كاللُّؤلؤ والمرجان وغيرهما.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ﴾:

بذلُ الجهدِ في طلب اللُّؤلؤ والمرجان من أعماق البحار

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ بالفعل (تَسْتَخْرِجونَ) دون (تخرجون)؛ لما في الفعل (تَسْتَخْرِجونَ) من معنًى زائدٍ على الفعل (تخرجون)؛ وذلك لأنَّ السّين والتّاء للتَّأكيد، وفي هذا إشارةٌ إلى كثرةِ الإخراج، ويمكن أن تكونَ السّين والتّاء للطَّلب، فحِليَةُ البحرِ تكون في الأعماق، ولا يوصَلُ إليها إلّا بتكلُّف الغوص والبحث، كما يشير نظمُ الآية بأنَّ مِن الواجب على المسلمين أن يباشروا بأنفسهم استخراجَ ما في البحرين من كنوز نافعةٍ، وألّا يتركوا ذلك لأعدائِهم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ﴾:

استخراجُ اللُّؤلؤ والمرجان من أعماق البحار عمل دائم متكرِّر

في استعمال صيغة المضارعِ في الفعل ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ﴾ دلالةٌ على التَّكَرُّر والاستمرار، فاستخراجُ اللُّؤلؤ والمرجان من أعماق البحار عملٌ دائمٌ متكرِّرٌ للصَّيّادين الَّذين يعيشون على هذه الحِرفَةِ.

---

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 238، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 352.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 334.

استخراجُ ما تتحلّى به النِّساءُ من البحار

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿حِلۡيَةٗ﴾ دون (زينة):

آثَر النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظ ﴿حِلۡيَةٗ﴾ دون (زينة) في قوله تعالى: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ لوجود فرق بينهما، فلفظ ﴿حِلۡيَةٗ﴾ - اسم لما يَتحلّى به النّاس، ويتزيَّنون بلُبسِه - هو إشارةٌ إلى الحلية الخارجيَّة؛ بخلاف الزّينة التي تكونُ للظّاهر والباطن، وعلى ذلك؛ فالزّينةُ أعمُّ من الحِلية، ولذلك كان التَّعبير بالحِلية في هذا السّياق؛ لأنَّ المقصودَ الحِلية الخارجيَّة، يقال: تحلَّتِ المرأةُ إذا لبست الحِليَّ، والمقصود: الإشارةُ إلى نِعَم اللّه سبحانه الَّتي تصل إلى العباد عن طريق استخراجِها من البحرين؛ لينتفعوا بها، ولتتحلّى به نساؤهم، كاللُّؤلؤ والمَرجان وغيرهما.

سَعةُ الفضل والامتنان بتنويع اللُّؤلؤ والمَرجان

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿حِلۡيَةٗ﴾:

جاء لفظُ ﴿حِلۡيَةٗ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾؛ للدَّلالة على الكثرة والعظَمة، فالصَّيّادون يستخرجون من البحار حِليةً كثيرة، كما يحتمل أن يكون التَّنكير للإبهام والتَّنويع، فحليةُ البحرِ متنوِّعةٌ من اللُّؤلؤ بأنواعه وألوانه، والمرجان بألوانه، وكلُّ هذا يستوجب شكرَ المنعم سبحانه على سَعة فضله وامتنانه.

الأصلُ في حلية البحر الحِلُّ للرِّجال والنِّساء على حدٍّ سَواء

علّةُ إسنادِ الفعل ﴿تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾:

أُسنِدَ فعل (اللُّبس) لجماعة الذُّكور دون الإناثِ في قوله تعالى: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾، مع أنَّ هذه الحِلية يلبَسُها النِّساء في الأعمِّ الأغلب من الأحوال، وذلك على سبيل التَّغليب، لاختلاطهم بالنِّساء، وكونهم متبوعين، أو لأنَّهم سببٌ لتزيُّنهنَّ فإنَّ النِّساء يتزيَّنَّ - في الغالب - ليَحسُنَّ في أعين الرِّجال[1].

ويجوز أن يُحمَل الكلامُ على ظاهرِه، ويكون لبسُ حِلية البحر

---

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 238، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 352.

من اللُّؤلؤ والمرجان للرِّجال والنِّساء، ما لم يصاحبْ ذلك محظورٌ آخر كالتَّشبُّه أو غيره، قال ابنُ العربيِّ المالكيُّ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النّحل: 14]: "يعني به اللُّؤلؤَ والمرجانَ، لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ٢٢﴾ [الرّحمن: 22]، وهذا امتنانٌ عامٌّ للرِّجال والنِّساء، فلا يحرم عليهم شيء منه، وإنَّما حرَّم اللّهُ على الرِّجال الذَّهبَ والحريرَ"(1).

بلاغةُ التعبير بالفعلِ ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾:

أثرُ المجازِ البيانيِّ في إثراء المعاني

يحتمل التَّعبيرُ بالفعل ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أن يكونَ على المجاز، وذلك بتضمين (تلبسون) معنى (تتمتَّعون) و(تستلذّون)، إمّا بنفس الحِلية، أو بإلباسها النِّساءَ على طريق الاسْتعارَةِ بجامع مطلقِ التَّمتُّع، أو مجاز مرسل؛ لأنَّ التَّمتُّع لازمٌ للُّبس، ونُكْتَةُ هذا العدولِ: أنَّ اللّائق بالنِّساء إخفاءُ الزّينةِ عن غير المحارم، فأُخفيَ التَّصريحُ به، وأُسنِدَ إلى غير ما هوَ له تنبيهًا على ذلك(2).

دلالةُ المضارع في الفعل ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾:

تـكـرُّرُ تـزيُّـنِ الإنسان بحلية البحر من اللُّؤلؤ والمرجان

أوثِرَ استعمالُ صيغة المضارع في الفعل ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾؛ للدَّلالة على التَّكرُّر والاستمرار، فالتَّزيُّنُ بحليةِ البحرِ مِنَ اللُّؤلؤ والمرجان عادةٌ متكرِّرة للنِّساء، وكذلك للرِّجال إن جعلنا الفعل عامًّا غيرَ مختصٍّ بجنسٍ دونَ جنسٍ.

سِرُّ تقديمِ نعمةِ الأكل على استخراج الحلية:

تـقـديـمُ الضَّروريّات على الكماليّات

النّاظرُ في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يجد تقديمَ الامتنان بنعمة الأكل في قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ على نعمة لُبس الحِليّ في قوله: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من باب الاهتمام بالضَّروريّات، فحياةُ الإنسان تتوقَّف

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 03/ 127.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 240.

على الطَّعام، وبعضُ الشُّعوبِ لا قوتَ لها إلّا من طعام البحر، أمّا اللُّبسُ والزّينة؛ فهما فرعٌ عن سلامة الإنسان ورفاهيَّتِه، فلا يَلْتفتُ إليهما الجائع.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَتَرَى﴾:

بيانُ نعمةٍ ثالثةٍ من نِعَم الخالق سبحانه في البحار

وُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ بما قبله بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران؛ وذلك للإشارة إلى بيانِ نعمةٍ ثالثةٍ من نِعَمِهِ تعالى عن طريقِ وجودِ البحار في الأرضِ، وهي نعمةُ السَّير فيها للتِّجارة في البحر، إلى البلدان البعيدةِ في مُدَّةٍ قريبةٍ(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالرُّؤية في الآية:

المشاهدةُ من أقوى الأدلَّة في الحثِّ على المعرفة

استُعمِل فعلُ الرُّؤية (ترى) في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ لأنَّه في هذا السّياق دالٌّ على الرُّؤية البصريَّة، فيكون متعدّيًا لمفعول واحدٍ، والمعنى: أنَّك ترى - أيُّها العاقل - ببصرك السُّفُنَ في كلٍّ مِن البحرَين مَواخِرَ تشُقُّ الماءَ بمقدِّماتها، وتُسْرِع السّيرَ فيه من جهة إلى جهة، والإتيان بفعل الرُّؤية هنا يومئ إلى دعوة الإنسان إلى أن ينطق بالدَّليل على وحدانيَّة اللّه من خلال آيات اللّه في البحار.

بلاغةُ الجملة الاعتراضيَّة:

التَّعجيبُ من تسخير السَّير في البحر

جملة: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ معترضةٌ بين الجُمَل المتعاطفة، مع إمكان العطف لقصد مخالفة الأسلوب؛ للتَّعجيب من تسخيرِ السَّيرِ في البحر باستحضارِ الحالة العجيبة بواسطة فعل الرُّؤيةِ، وهو يُستعمَلُ في التَّعجيبِ كثيرًا بصيغ كثيرة، نحو: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ [الأنعام: 27]، و﴿أَرَءَيۡتَ﴾ [الكهف: 63]، و﴿مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: 102]، واجتلابُ فعلِ الرُّؤية في أمثاله يفيد الحثَّ على معرفة ذلك، فهذا النَّظمُ للكلام

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 335.

غرضُه إفادةُ هذا المعنى، ولولاها؛ لكان الكلام هكذا: وتستخرجوا منه حِليةً تلبسونها، وتبتغوا من فضلهِ في فلك مواخر[1].

نُكْتَةُ إفراد ضميرِ المخاطَب:

قصدُ العمومِ في الخطاب على سبيل البدليَّة

جاء فعلُ الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ مسندًا إلى المفرد (ترى) مع جمعه فيما سبق؛ للدَّلالة على أنَّ الخطابَ فيه لكلِّ من يَصلُح أن يُخاطَب به، وقد يكون الإفرادُ هنا مع سبق التَّعبير بالجمع في قوله: (﴿تَأْكُلُونَ﴾، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾، ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾)؛ لأنَّ الخطاب لكلِّ أحدٍ يتأتّى منه الرُّؤية، دون المنتفعين بالبحرين فقط، أو لأنَّ الرُّؤيةَ صدرت واحدًا بعد واحدٍ، بخلاف الأكل واللُّبس والابتغاء، أو لأنَّ الرُّؤية خاصَّة بمن حضر في السُّفُن بخلاف غيرها[2].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْفُلْكَ﴾:

تعريفُ الجنس المفيد للعموم

عُرِّفَ لفظُ ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ بـ (أل) الدّالَّة على تعريف الجنس المفيد للعموم، والمقصود به السُّفُن، وهذا اللَّفظ ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ يُطلق على المفرد والجمع، وهو في هذا الموضع جمعٌ، بدليل صفته بجمع ﴿مَوَاخِرَ﴾[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالفُلْكِ دونَ السَّفينة:

الـفُـلْـكُ أعظمُ حـجـمًـا مِـنَ السَّفينة

آثَر النَّظمُ التَّعبيرَ بالفُلْكِ دونَ السَّفينة لوجود فرق بينهما، فالفُلْك يُطلق على ما عظُم من السُّفُن، ويؤكِّد ذلك أنَّ وروده في القرآن يأتي مع جريانِه وشقِّه للرّيح، قال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [البقرة: 164]، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النّحل: 14]، وكما هنا في سورة فاطر: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ فذُكِرَت مع شَقِّ الرّيح لِعظَمها، وتأتي أيضًا في مواطن الحديث عن المتاع كآيةٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 119.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 240، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 366.

(3) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 319.

عظيمة من آيات اللّه؛ وذلك لأنَّ الماءَ لا يطفو على سطحه أصغرُ الأجرام، فكيف بهذا الفُلْك العظيم الَّذي سخَّره سبحانه للرُّكوب في البحرِ، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩﴾ [الشعراء: 119]؟ بخلاف السَّفينة فإنَّها مأخوذةٌ منَ السَّفْن؛ إذ إنَّها تَسْفِنُ على وجه الأرض، أي: تلزق بها، أو أنَّها تَسْفِن الرَّملَ؛ إذا قلَّ الماءُ، أي: تقشُره، فكأنَّ في ذِكْرِ السَّفينة إيحاءٌ بأنَّها تجهَّزت للإرفاء الَّذي يحمل معنى النَّجاة، والسَّفينة أقلُّ حَجمًا، يُؤكِّد هذا ذِكْرُها في قصَّة نبيِّ اللّه موسى مع الخضرِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ﴾ [الكهف: 71]، وقال بعدَها: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف: 79]، فنِسبةُ مُلكيَّتها للمساكين يوحي بأنَّها أقلُّ حجمًا وقدرًا من الفُلْك؛ لذلك آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالفُلْك في إبراز قدرته سبحانه، وعظيمِ صُنْعِه[1].

سِرُّ تخصيصِ الفُلْك بالذِّكر دونَ غيرها:

ركـوبُ الفُلْك وسيلةُ معرفةِ العجائب

خَصَّ القرآنُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ ذِكْرَ الفُلْك التي تمخَرُ في البحر دونَ غيرها من العجائب؛ لأنَّها هي الوسيلةُ الموصِلةُ لمعرفة عجائب البحر؛ فذِكْرُها يتضمَّن ذِكرَ العجائب، ويوصِل إليها.

دلالةُ جريانِ الفُلْك في البحر:

تعليمُ الإنسانِ الانتفاعَ بالبحار

دلَّ التَّعبيرُ بجريان الفُلْك في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ على عظيمِ قدرة اللّه تعالى؛ لأنَّ سيرَ الفُلْك ومَخْرَها للبحرِ ليس من شأنِ البشر أن يفعلوه إلّا بإلهامِ اللّه تعالى له، حتّى يتعلَّم الإنسانُ من مخلوقاتِ اللّه تعالى ما فيه منفعةُ البلاد والعباد بحمل الرُّكّاب والأمتعة، وفيه إشارةٌ إلى دعوة الإنسانِ إلى تعلُّم الصِّناعات الَّتي تخدمه، وترتقي به.

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللّغوية، ص: 117.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة:

جريُ السُّفنِ في البحر المِلْح أكثرُ مِنَ العذب

استُعمِل حرفُ الجرِّ (في) الدّالِّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ للدَّلالة على تمكُّن مَخْرِ الفُلْك في البحر، وأنَّها في وسطِه، بمعنى: أنَّ الماء يحيط بها من كلِّ جانبٍ، وفي هذا دليلٌ على قدرتِه ﷻ في حفظها من أسباب الهلاك والغرقِ، وللدَّلالة على وجودِ جزءٍ منها في الماء.

دلالةُ الإضمارِ في قوله: ﴿فِيهِ﴾:

توسيعُ المعاني بتعدُّدِ مرجعِ الضَّمير

أفاد التَّعبيرُ بالإضمار دون الإظهارِ في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ على جواز تعدُّدِ المرجع، فيجوز أن يعودَ إلى البحر المِلْح؛ لأنَّ أمر الفُلْكِ فيه أعظمُ من أمرها في البحر العَذْب، وإن كانت السُّفنُ تجرى في البحرين، ويجوز أن يكون الضَّمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ عائدًا إلى جنس البحر، والمعنى: وترى السُّفُنَ تشقُّ كلَّ بحر؛ لتسيرَ فيه من مكان إلى مكان[1]، فالتَّعبيرُ بالإضمار وسَّع المعنى المراد، وكساه بالعموم.

نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملة ﴿فِيهِ﴾:

الاهتمامُ بتقديمِ مكان الطَّفوِ في الكلام

تَقدُّمُ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾ على المفعول به ﴿مَوَاخِرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ للاهتمام بالظَّرف، وهو ﴿ٱلْبَحْرَانِ﴾؛ لأنَّه لـمّا كان طفو الفُلك على الماء حتّى لا يغرق فيه؛ أظهرَ في الاستدلال على عظيم صنعِ اللهِ تعالى في المخلوقات، قُدِّم ما يدلُّ عليه، وهو الظَّرفيَّة في البحرِ، وقد تكون نُكْتَةُ التَّقديم أيضًا أنَّه لتمام تمثيل المُؤمن بالماء العذبِ والكافر بالماء المِلْح الأُجاج، فالأهمُّ تقديمُ لفظة ﴿فِيهِ﴾ لمدخليَّته التّامَّة في توضيح التَّمثيل[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿مَوَاخِرَ﴾:

لفظُ ﴿مَوَاخِرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ مفردُه

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 335.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 240، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 280.

المَخْرُ دليلٌ على عظَمة الفُلْك

(ماخرة)، وهي الَّتي تمْخُر الماءَ، أي: تَشُقُّه، فمعنى ﴿مَوَاخِرَ﴾: شواقٌّ للماء بجريها مُقبلةً ومُدبرةً بريح واحدة، يقال: مَخَرتِ السَّفينةُ مَخْرًا ومُخورًا، إذا شقَّتِ الماءَ بجُؤْجُئِها، ويقال: مَخَرتِ السَّفينةُ الماء، ويقال للسَّحاب بناتُ مَخْر؛ لأنَّها تَمْخَر الهواء[1]؛ لذلك كان التَّعبيرُ به مناسبًا لتصوير حركة الفُلْكِ في البحر وقوَّةِ دفعها.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾:

عظَمةُ الفُلْكِ حجمًا وجريًا

ذهب بعضُ العلماء إلى أنَّ المَخْر الصَّوتُ الَّذي يحدث من جري السَّفينة بالرّيح، ولا تمخر الرّيحُ من السَّفن إلّا الفُلك العِظام، قال الجَوهَريُّ: "مخرت السَّفينةُ تَمْخَر مخرًا، إذا جَرَت تشُقُّ الماء مع صوت، فإذا كان الصَّوتُ جزء معنى المخر أطلق اللَّفْظ، وأريد به جزءُ معناه، وهو الصَّوت مَجازًا، فالمَعْنَى: وترى الفُلْك مصوِّتات في جريهنَّ[2]، ويكون التَّعبيرُ بالرُّؤية مع شدَّة الصَّوت لَمَخْر الفلكِ دليلًا على وضوحه، فيسمعه كلُّ مَن يرى الفُلْك مع كثرة أمواج البحر.

بلاغةُ الإدماجِ في الآية:

إدماجُ الامتنان في مقام الاستدلال

سيق قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ مساقَ الاستدلالِ على دقيق صنع اللّه تعالى في المخلوقات، وأُدمِج فيه الامتنانُ بقوله في الآية: ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، وقولِه: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فالمقصد الأوَّل من سياقها: الاستدلالُ على عظيم الصُّنع في المغايرة بين البحرين، وتضمَّن أيضًا ذِكْرَ نِعَمٍ مصدرُها البحر، مَنَّ اللّه بها على عباده فضلًا وكرمًا[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالابتغاء دون الطَّلب:

السَّعيُ والاجتهاد لاستخراج كنوزِ البحار

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالابتغاء دونَ الطَّلب في قوله تعالى:

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 433، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 605.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: 2/ 812، وابن التّمجيد، الحاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 240.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 280.

﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ لأنَّ الابتغاءَ يحمل معنى الاجتهاد في الطَّلب، ولذلك كان التَّعبيرُ به هنا أبلغَ للاجتهاد في طلب منافعِ البحر؛ لأنَّ بعضَها يكون في عُمقِهِ، ممّا يستدعي بذلَ مزيدٍ من الجهد؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالابتغاء أوفى بالمقصود.

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لِتَبۡتَغُواْ﴾:

كرمُ الرَّحمنِ في تسخير البحار لمنفعة الإنسان

دلَّ حرفُ اللّام في قَوْله تَعالى: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ على التَّعليل، وهي متعلِّقة بمحذوف دلَّ عليه الكلام السّابق، والمعنى: أوجدنا البحرين، وسخَّرناهما لمنفعتكم، لتطلبوا أرزاقَكم فيهما، وهذه الأرزاقُ هي من فضلِ اللّهِ تعالى عليكم، ومن رحمته بكم[1].

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾:

كلُّ ما يطلبُهُ العبدُ بعضٌ من فضلِ اللهِ الواسع

ورد حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، ومعناه هنا التَّبعيض؛ للدَّلالة على أنَّ كلَّ ما يطلبه الإنسانُ من الرِّزق هو بعضٌ يسير جدًّا من فضل اللّه الَّذي عمَّ به خَلْقَهُ، وقد ورد في الحديث أنَّه سبحانه لو أعطى كلَّ إنسان مسألته، «ما نَقَصَ ذلكَ ممّا عِنده، إلّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ؛ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ»[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفضل في الآية:

كنايةُ الابتغاءِ من فضلِ الله على التِّجارة

دلَّ التَّعبيرُ بالفضل في قوله تعالى: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ على طلب المزيد من المنافعِ؛ لأنَّ الفضلَ معناه الزيادة، والمرادُ هنا الزّيادة على ما ذُكِرَ من المنافع من الشُّرب والأكل واستخراج الحِلية، ولذلك ذهب البعضُ إلى أنَّ المقصودَ به التِّجارةُ، كما عبَّر عنها بذلك في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 198]، ويدخل في هذا الابتغاء كلُّ سفرٍ له وجهٌ شرعيٌّ، كالحجِّ والغزو ونحوهما[3].

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 335.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2577).

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 433، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 120.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿فَضۡلِهِۦ﴾:

الرِّزقُ كلُّه من فضل الله الكريم، لا بكسب العبد

أُضيفَ الفضلُ في قوله تعالى: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ إلى ضميره ﷻ؛ إشارةً إلى أنَّ العبدَ ينبغي ألّا يرى الرِّزق بكسبه وحِذْقِه، بل يرى كلَّ ذلك من فضل ربِّهِ، ولهذا قُرِنَ الابتغاءُ بالفضل في كثير من المواضع، منها قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]، وقولُه سبحانه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النّحل: 14][1].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ﴾:

الجمعُ بين ابتغاء الفضلِ وشكر المنعم سبحانه

جاء قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ معطوفًا على ما قبلَهُ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع، فجمع النَّظمُ إلى العِلَّة الأولى من ابتغاء الفضل عِلَّةً ثانية، وهي رجاءُ شُكْر المنعم سبحانه على العباد بهذه النِّعَم، من تسخير البحار وما فيها من قوتٍ وزينةٍ، وتيسير النُّقلة فيها، وغيرِ ذلك من النِّعَمِ.

دلالةُ التَّعبير بحرف الرَّجاء:

التَّرجّي يدلُّ على أنَّ الفعل مرضيٌّ عند الرَّبِّ العليِّ

ورد حرف (لعلّ) الدّالِّ على التَّرجّي في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، وهو بهذا المعنى محالٌ في حقِّه سبحانه، فهو سبحانه عالمٌ على اليقين بما يصير إليه أمرهم، ولهذا قال العلماء: إنَّه خرج مخرجَ لامِ التَّعليل، كأنّما قيل: لتشكروا اللّهَ سبحانه على ما أنعم عليكم به من ذلك الفضلِ، وحرفُ التَّرجّي للإيذان بكونه مرضيًّا عندَه تعالى[2].

نُكْتَةُ العدولِ عن لام التَّعليل:

تقصيرُ العِباد في الشُّكر مع عظيم الامتنان

عُدِلَ عن لام التَّعليل إلى التَّعبير بحرف التَّرجّي (لعلَّ) في قوله سبحانه: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ لفائدتين: إحداهما: الإيماءُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 93.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 01/ 386، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 366.

إلى أنَّ شكرَهم مع عظيم مِنَّة اللّه تعالى عليهم أمرٌ ليس متحقِّقًا، بل يُحتمَل تخلُّفُه[1]، وفيه دلالةٌ على أنَّ العباد لا يستطيعون توفيَة اللّهِ حقَّهُ في الشُّكر في مقابلة النِّعم مهما بذلوا فهم مقصِّرون، والأخرى: حُسْنُ تناسبِ الفواصل، إذ لو جيء بلام التَّعليل؛ لَحُذفت نونُ الفعلِ للنّاصب (لتشكروا)، وذلك يُفَوِّتُ تناسبَ الفاصلة مع ما قبلها وبعدَها، وهذه الفائدة تبعٌ للسّابقة؛ إذ لا تُتصوَّر بدونها.

دلالةُ التَّعبيرِ بمادَّة الشُّكر:

الشُّكرُ عِرفانُ الإحسانِ ونَشْرُه

أوثِرَ التَّعبيرُ بلفظ الشُّكر في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ لأنَّ الشُّكرَ: عِرْفانُ الإحْسانِ ونَشْرُه[2]، فقد امتنَّ اللّهُ على عباده في هذه الآية، بأن سخَّر لهم البحرَين العَذب والمِلْح لينتفعوا بخيراتهما، ويركبوا فيهما طلبًا للرِّزق، فوجب على العِباد مقابلةَ هذه النِّعم بشُكر المنعم بها سبحانه؛ لذلك كان اختيارُ التَّعبيرِ بالشُّكر هو الأَوْلَى.

دلالةُ المضارع في ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

وجوبُ تجديدِ الشُّكر بتجدُّد النِّعم

جاء الفعل ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ بصيغة المضارع الدّالَّة على الاستمرار والتَّجدُّد؛ وذلك لأنَّ العبد مطالبٌ بتجديد الشُّكر كلَّما تجدَّدت له نعمةٌ، فيعترفُ بقلبه، ويشكر بلِسانه، ويعمل بجوارحه؛ لإرضاء المُنعِم بها سبحانَه، كقوله سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سَبَأ: 13].

نُكتَةُ حذفِ مفعول ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

إطلاقُ الشُّكر بقصد إفادة العموم

حُذِفَ مفعول الفعل ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، وفي تعليل ذلك ثلاثةُ مَسالِكَ، **الأوَّلُ**: أن يُقدَّر له منصوب خاصٌّ، والمعنى: لعلَّكم تشكرون اللّهَ، **الثّاني:** ألّا يُقدَّر مفعولٌ خاصٌّ؛ لإفادة العموم، والمعنى: لعلَّكُم تشكرون جميعَ نعمِه، **الثّالث:**

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 01/ 501.

(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ص: 419.

أَنْ يُنَزَّلَ الفعلُ المتعدّي منزلةَ اللّازم، فلا يُقَدَّرُ له مفعولٌ أصلًا، ومعنى ﴿تَشْكُرُونَ﴾ على هذا: يحصلُ لَكُمُ الشُّكرُ.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

آيـةُ الـنَّـحـلِ لتعداد النِّعم، وآيـــةُ فـاطـر لتوضيح المثَل

تشابه قولُهُ تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، مع قوله سبحانه في سورة النَّحل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤﴾ [النّحل: 14]، والنّاظرُ في الموضعين يجدُ بعضَ الفروقِ بينهما:

منها: أنَّ فعل ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ غيرُ معطوفٍ بالواو في موضع فاطر، ومعطوف نظيرُه في آية النَّحل؛ لأنَّ الابتغاءَ عُلِّقَ هنا في فاطر بـ ﴿مَوَاخِرَ﴾، إيقافًا على الغرض من تقديم الظَّرف، أمّا في آية النَّحل؛ فقد ذُكر المَخْرُ في عداد الامتنان؛ لأنَّه به تيسيرُ الأسفار، حيثُ اجتمع في آية النَّحل الاعتبارُ وإبداءُ النِّعمة في تسخير البحر وأكلِ اللَّحم الطَّريِّ منه، وإخراجِ الحِلية للِّباس ونحوِه، ولمّا كان مقصودُ هذه الآيةِ تعدادَ النِّعم؛ ناسبَ ذلك عطفُ بعضِها على بعضٍ.

ومنها: تأخير الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾ في سورة النَّحل، وتقديمُه في سورة فاطر، وعِلَّة ذلك أنَّ آية النَّحل بُنيت على تأخير المجرورات عمّا تعلَّقت به، وجرى الكلام جريًا واحدًا للتَّناسب والتَّشاكل، فقيل: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ﴾ [النحل: 14]، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ﴾ [النحل: 14]، ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: 14]، أمّا آية سورة فاطر؛ فمَبنيَّةٌ على تقدُّم المجرور في قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

وقال بعضُ العلماءِ أيضًا في التَّفريق بين الموضعين: أنَّ آيةَ النَّحل سيقت لتعداد النِّعَم، كما يُؤذِن بذاك سوابقُها ولواحقُها، وتعقيبُ

الآيات بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النَّحل: 18]، فكان الأهمُّ هناك تقديم ما هو نعمة، وهو مَخْرُ الفلك للماء، بخلاف ما هنا في فاطر، فإنَّه إنَّما سيق استطرادًا لتمام تمثيل المُؤْمن بالماء العذب، والكافر بالماء المِلْح الأُجاج، فكان الأهمُّ تقديمَ لفظةِ ﴿فِيهِ﴾؛ لمدخليَّته التّامَّة في توضيح التَّمثيل[1].

ومنها: ذِكْرُ ﴿مِن﴾ [النحل: 14] في سورة النَّحل وسقوطُها في سورة فاطر، وعِلَّة ذلك أنَّ موضع سورة فاطر مستقلٌّ لا إبهامَ فيه ولا احتمال؛ لأنَّ تقديرَ الكلام: من كلِّ البحر أكلُكم واستخراج الحلية للِّباس، فالكلامُ في قوَّة المبتدأ والخبرِ؛ بخلاف موضع النَّحل، فإنَّه لو سقط المجرورُ منه؛ لكانَ فيه مجالٌ للاحتمال، فلو قيل: (وتستخرجون حلية) لم يكن بالنَّصِّ في أنَّ استخراجَ الحليةِ من البحر، وإن كان ظاهرًا، إلّا أنَّ هذا القدرَ من الاحتمال منقدحٌ في سورة النَّحل، وغيرُ منقدحٍ في سورة فاطر، فكان قولُه: ﴿مِنۡهُ﴾ [النحل: 14] رافعًا لهذا الاحتمال[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المِلْح والأُجاج:

دلالـةُ الأُجـاج على المبالغة في المُلُوحة

يتَّضِح الفرقُ بين لفظَي (المِلح) و(الأُجاج) في اختلاف درجة الوصف، فالمِلْح: الماءُ الذي فيه الطَّعمُ المعروف من أصل الخِلقة، كماء البحر[3]، أمّا لفظ (أُجاج)؛ فمعناه: الشَّديدُ الملوحة، إذ قد سُمّيَ أُجاجًا من الأجيج، وهو تلهُّبُ النّار، ومن هنا قيل: هو الَّذي يُحْرِق بمُلوحته؛ لأنَّ شُربَه يزيد العطشان عطشًا وتعبًا، وقيل: هو المُرُّ، وقيل: هو الحارُّ[4]، فجَمَعَ نظمُ الآية بينهما إفادةً للمبالغة.

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 240، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 353.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 297.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 228، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 625، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 351.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 33، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 333.

العَذْبُ والفُرات:

دلالــةُ الـفُـرات على المبالغة في العذوبة

يتَّضِح الفرقُ بين لفظي (العذب) و(الفُرات) في اختلاف درجة الوصف، فمعنى (العذب) وصفًا للماء: أنَّه طيِّبٌ حُلوٌ لذيذٌ ملائمٌ للطبع والذَّوق، بحيثُ يَشْعُر الإنسانُ عند شُرْبِهِ باللَّذة، كمياه الأنهار[1]، وأمّا وصفُ (فرات)؛ فمعناه أنَّ الماءَ مُفرِط في العذوبة مستساغٌ، ووزنه (فُعال) من فَرَتَهُ، وهو مقلوبٌ من رَفَتَهُ؛ إذا كَسَره؛ لأنَّه يَكسِرُ سَوْرَةَ العطش، ويقمعها، وقيل: هو البارد[2]، فجُمِعَ نظمُ الآية بينَهما إفادةً للمبالغة.

السُّفن والفُلك:

الـسُّـفُـن من القَشْرِ، والفُلْك مِنَ الدّوران

يظهر الفرقُ بين لفظَي (السُّفن) و(الفُلك) في ملمح الاشتقاقِ، فاشتُقَّ لفظ (السُّفن) من (السَّفَن) وهو القَشْر، فهي تَسْفِن الماءَ، كأنَّها تقشرُه، كما سُمّيَ (السّفِنُ) وهو المِبرد بهذا الاسم؛ لأنَّه يقشر الحديدَ، وسُمّيت السَّفينةُ فُلْكًا لدورانها[3]، وممّا يُذكر في الفرق بينهما: أنَّ الفُلْك أعظمُ مِنَ السُّفن، فهي أكبرُ حجمًا منها، يُؤكِّد ذلك ما ذكره القرآنُ عن السَّفينة في قصَّة نبيِّ اللّه موسى ﵇ مع العبد الصّالح في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: 71]، وقولِه: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: 79]، فنسبةُ مُلكيَّتها للمساكين يوحي بأنَّها أقلُّ حجمًا وقدرًا من الفُلْك؛ لذلك آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالفُلْك في إبراز قدرته سبحانه وعظيم صنعه[4].

الحِليَة والزِّينة:

عـمـومُ الزّيـنـةِ واخـتـصـاص الحِلية بما يَحْلى في العين

يتَّفقُ اللَّفظان في الدَّلالة على تحسين الشَّيء، ويختلفان في المعنى الدَّلاليِّ لكلٍّ منها، فالزِّينة عامَّة في كلِّ ما يُتَزيَّنُ به، محمودًا كان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 24، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 364.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 263، والشّعراويّ، تفسير الشعراويّ: 17/ 10470.
(3) الشّرنوبيّ، السّراج المنير: 03/ 319.
(4) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغوية، ص: 117.

أو مذمومًا، في حين أنَّ الحِلية خاصَّةٌ بما تتحلّى به المرأة لتَحْلى في العين، قال الأصمعيُّ: حَلِيَ في عيني بالكسر، وحَلا في فمي بالفتح، ويقال أيضًا: حَلِيَتِ المرأةُ، أي: صارت ذاتَ حُليٍّ، فهي حَلِيَّةٌ وحاليَةٌ، ونِسوةٌ حَوالٍ، وحَلَّيْتُها تَحْلِيَةً[1]، فاستعمل النَّظمُ القرآنيُّ أخصَّ اللَّفظين لتعلُّق الحِلية باللُّؤلؤ والمرجان، وهما من الحِلية الظّاهرة.

الحمد والشُّكر:

الحـمـد أعـمُّ مُتَعَلِّقًا وأخصُّ آلـةً، والشُّـكـرُ أخـصُّ مُتَعَلِّقًا وأعمُّ آلةً

جعل بعضُ العلماء كالأَخْفَشِ وجماعةٍ الحَمْدَ مرادفًا للشُّكْر[2]، وفي ذلك نَظَرٌ، بل بينَهُما فرقٌ ذكرَهُ غيرُهم من العلماء، فذهَب الخطّابيُّ إلى أنَّ الشُّكرَ أعمُّ مُطْلَقًا مِنَ الحمد، فقال: "الحمد نوعٌ، والشُّكر جِنْس، فكلُّ حَمْدٍ شُكْرٌ، وليس كُلُّ شُكْرٍ حمدًا"[3]، وعكس الجَوْهَريُّ، فجعل الحَمْدَ أعمَّ مُطلقًا مِنَ الشُّكر[4]، والرّاجحُ: أنَّ بين الحمدِ والشُّكْرِ عمومًا وخصوصًا وجْهيًّا؛ فالحمدُ أعمُّ مُتَعَلِّقًا وأخصُّ آلةً، والشُّكْرُ: أخصُّ مُتَعَلِّقًا وأعمُّ آلةً[5]، وذلك أنَّ الحَمْدَ يكون في مقابِل النِّعمةِ ويكون ابتداءً، قال الأزهريُّ: "الحمدُ قَدْ يكون شُكْرًا للصَّنيعة، ويكون ابْتِداءً للثَّناء على الرَّجُلِ"[6]، بل قد يُحْمَدُ على المُصيبَةِ[7]، وذلك في حَمْدِ اللّهِ تعالَى؛ إذْ يكون عَلَى كلِّ حالٍ، بخلاف الشُّكْر؛ فلا يكون إلّا في مُقابَلَةِ نِعْمَةٍ، قال في القاموس:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (حلِيَ).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 4/ 251، وذكر بِهرام الدَّمِيرِيّ في تحبير المختصر: 1/ 62، أنه ظاهر قول سيبويه، وهو ظاهر كلام ابن جرير في تفسيره: 1/ 138.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 4/ 251.

(4) الجوهريّ، الصّحاح: 2/ 466.

(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 202، والتَّهانَوِي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/ 541، وحافظ حكمي، معارج القبول: 1/ 72.

(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/ 252.

(7) كما جاء مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ ﵁ أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «إذا ماتَ ولَدُ العَبْدِ، قالَ اللَّهُ لِملائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ ولَدَ عَبْدِي، فَيَقُولونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: ماذا قالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ، واسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا في الجَنَّةِ، وسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»، رواه الترمذيّ، برقم: (1021)، وهو حسن كما في صحيح الجامع الصَّغير، برقم: (795).

"الشُّكْرُ: عِرفانُ الإحسانِ ونَشرُه، ولا يَكونُ إلّا عن يَدٍ"[1]، فتَحَصَّل مِن هذا: أنَّ الحَمدَ أعمُّ متعلِّقًا مِنَ الشُّكر، أمّا الآلةُ؛ فالحَمدُ يكون باللِّسان والقلبِ دون الجوارحِ، كما يُستفادُ هذا مِن حَدِّ الحَمدِ المَعزوِّ آنفًا إلى ابْنِ سيدَه وابنِ تيميَّةَ الحفيدِ، بخلاف الشُّكْرِ فَإنَّه يكون بالقلبِ واللِّسان والجوارح، كما قال اللّٰه سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سَبَأ: 13]، فتقرَّر من هذا: أَنَّ الشُّكرَ أعمُّ مِن جهةِ الآلَةِ، فآثَر النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ لفظ (الشُّكر) في هذا السّياق، مقابلةً للنِّعم الكثيرة المستخرجة من البحرَين.

(1) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط، ص: 419.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اختلافُ الأزمنة طولًا وقِصَرًا دليلٌ على عظمةِ الخالق

لمّا ذكرَ سبحانه في الآية السّابقة اختلافَ الذَّواتِ الدّالِّ على بديع صنعِه؛ أتبعَهُ في هذه الآية تغييرَهُ المعاني، وجعل ذلك آيةً على بديع قدرتِه، فقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ الآية، ويمكن أن يقالَ أيضًا: إنَّه لـمّا كان بين الفُلْكِ في البحر والشَّمس والقمر في مدارهما مناسبة، فإنَّ كلًّا منهما سارحٌ في تلك العوالم الشّاسعة؛ أردفَه بذكر اللَّيل والنَّهار، وتسخيرِ الشَّمس والقمر[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُولِجُ﴾: (ولج) أصلٌ يدلُّ على دُخول شيءٍ، يقال: ولَج في منزلِه، ووَلَجَ البَيْتَ يَلِجُ وُلوجًا، والوليجة: البِطانةُ، ويقال: رجلٌ خُرَجَةٌ وُلَجَةٌ، أي: كثيرُ الخُروجِ والوُلوج[2]، وبعضهم خصَّص الوُلوج: بالدُّخول في مُضَيَّقٍ، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، ومعنى قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ هو التَّنبيهُ على ما ركَّب اللّهُ ﷻ عليه العالَم من زيادة اللَّيل في النَّهار، وزيادةِ النَّهار في اللَّيل، وذلك بحسب مَطالع الشَّمس ومغارِبها[3].

2) ﴿وَسَخَّرَ﴾: (سخر) أصل مُطَّرِدٌ مستقيم يدلُّ على احتقار واستذلال، من ذلك قولنا: سخَّر اللّه ﷻ الشَّيء، وذلك إذا ذلَّلَهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 212، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 367.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولج).
(3) الرّاغب، المفردات: (ولج).

لأمره وإرادته(1)، والتَّسْخيرُ: سياقة إلى الغرض المختصِّ قهرًا، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 13](2)، وليس في القرآنِ من التَّركيب إلّا ما هو من السُّخريَة أو التَّسْخير(3)، والمعنى في الآية: ذَلَّلهما لِمَنافِعِ خَلْقِهِ ومَصالِحِ عِبادِهِ(4).

3) ﴿ٱلْمُلْكُۚ﴾: (ملَك) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ، ثمَّ قيلَ: مَلكَ الإنسانُ الشَّيءَ يملكهُ ملكًا، والاسمُ الملكُ؛ لأَنَّ يدهُ فيهِ قويَّةٌ صحيحةٌ"(5)، والمِلكُ يكونُ على نوعينِ: مِلْكٌ هو التملُّكُ والتَّولّي، ومِلْكٌ هو القوَّةُ على ذلكَ، تولّى أو لم يتولَّ"، والمُلك أيضًا هو "التَّسلُّطُ على جماعة، والتَّصرُّفُ في أمرهم، فهو من إمساكه بأمورِهم حُكمًا وتدبيرًا، وعُبِّرَ عنه أيضًا بأنَّه "الحقُّ الدّائم للّه"(6)، والمُلْكُ هنا جميعُ ما خلقَ اللّهُ من أجرامٍ وسماواتٍ وأرَضينَ وبشرٍ وحيوانٍ وجمادٍ وغيرِه، فكلُّ شيءٍ مُلكٌ له سبحانه(7).

4) ﴿قِطْمِيرٍ﴾: (قطمر) اختلفَ العلماءُ من أصحاب المعاجم وغيرهم في معنى القِطميرِ، فقيل: هو شِقُّ النَّواة، أو القِشرة الَّتي فيها، أو الفَوفة التي في النَّواة، وهي القشرة الرَّقيقة الَّتي على النَّواة، بين النَّواة والتَّمرة، أو النُّكتَة البيضاء التي في ظهر النَّواة الَّتي تنبت منها النَّخلة(8)، ويُستعمَلُ للشَّيء الهَيِّن النَّزرِ الحقير، ويُضرب به المَثَلُ في القِلَّة، قال اللّه تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، ولم يرد في القرآنِ إلّا في هذا الموضعِ، وأكثر المفسِّرين على أنَّ القِطمير هو لفافةُ النَّواة(9)، وإذا كان المقصودُ في الآية ضربَ المَثَل بأدنى شيءٍ يُمْتَلَك، وذلك يتحقَّق في الخيط لكونهِ جرمًا مستقلًّا، يمكن أن يُعزَل، ويُؤْخذَ، أي: يُمْتَلك، وكذلك الفوفة: الجبَّة، في حين أنَّ الشَّقَّ حالٌّ في جِرم النَّواة لا يُمْلك وحده، فالرّاجح أنَّ المقصودَ به في الآية هو ذلك الخيطُ الممتدُّ في شقٍّ بين قُمْع النَّواة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(2) الرّاغب، المفردات: (سخر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سخر).
(4) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/ 279.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).
(6) الرّاغب، المفردات: (ملك).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملك).
(8) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، الزّبيديّ، تاج العروس: (قطمر).
(9) الدّرّ المصون، السّمين الحلبيّ: 9/ 221.

وشقها - وهو ما قاله المفسرون - أو الفوفة، وكلاهما صالحٌ للتَّعبير عن المعنى المقصود[1].

۞ المَعنى الإجْماليّ:

مُلْكُ الكونِ كلِّه للـه وحـدَه لا شريكَ له

يُخبر ربُّنا تعالى ذِكْرُه أنَّه يُدْخِل من ساعات اللَّيل في النَّهار، فيزيد النَّهارَ بقَدْرِ ما نقص من اللَّيل، ويُدْخِل من ساعات النَّهار في اللَّيل، فيزيد اللَّيلَ بقَدْرِ ما نقص من النَّهار، وإنَّ هذا بلا شكٍّ لأمرٌ عجيب، وذلَّل الشَّمسَ والقمرَ نعمةً منه عليكم، يجريان لوقت معلوم، ذلكم الَّذي فعل هذا هو الله ربُّكم له الملكُ كُلُّه، وإليه وحدَه الأمرُ، فاعبدوه وحدَه، ولا تعبدوا غيره؛ لأنَّ الذين تدعونهم من دون الله لا يملكون شيئًا مهما صَغُر؛ فهُم لا يملكون نقيرًا ولا قطميرًا[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

كمالُ الانقطاعِ بينهما

جاءت جملة: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ مفصولةً عن الجملة التي قبلها: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ لوجود كمالِ الانقطاع بينهما، وهو اختلافُ الجملتين اختلافًا تامًّا، بحيثُ لا تكون بين الجملتين مناسبةٌ في المعنى ولا ارتباط، بل كلٌّ منهما مستقلٌّ بنفسه[3]، فبعدَ الاستدلال على بديع صنع الله ﷻ في المغايرة بين البحرين العذب والمِلْح؛ انتقل إلى بيان آياته في اختلاف اللَّيل والنَّهار وحركةِ الشَّمس والقمر؛ ليتذكَّرَ النّاسُ بذلك أنَّه الإلهُ الواحدُ المستحقُّ للعبادة دونَ غيرِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يُولِجُ﴾ دونَ (يدخل):

إبـرازُ الحـركة والـدَّوران في الإيلاج بين اللَّيل والنَّهار

أوثِرَ استعمالُ الفعل ﴿يُولِجُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ دون (يدخل)؛ لتعدُّد معاني الإيلاج، فيأتي بمعنى الدُّخول

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملك).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 345، نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 436.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 107.

الَّذي يقابله الخروجُ، قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ [سبأ: 2]، ويأتي بمعنى العبور أو المرور، والمراد الدُّخول الَّذي يعقبه خروجٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، وعلى هذا جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالولوج في قوله: ﴿يُولِجُ﴾ دون الدُّخول؛ لأنَّ الدُّخول يقتضي المكوثَ فيه مدَّةً تطول أو تقصر، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [البقرة: 58]، أو يقتضي الاستقرارَ فيه وعدمَ الخروج، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: 124] بخلاف الولوج، فإنَّه يعني الدُّخولَ في الشَّيء من باب، والخروجَ منه من الباب المقابل له، فلا يحمل معنى المُكثِ والاستقرارِ، بل يبقى بقدر ما يستغرقه من باب الدُّخول والخروج، ولمّا كان سياق الآيةِ يتحدَّث عن اللَّيل والنَّهار ودخولِ كلٍّ منهما في الآخر دخولًا لا استقرارَ فيه؛ عبَّر بالفعل ﴿يُولِجُ﴾، ويكون معناه عبارةً عن أنَّ ما نقص من اللَّيل؛ زاد في النَّهار، فكأنَّه دخلَ فيه، وكذلك ما نقص من النَّهار يدخل في اللَّيل، فينقص الأوَّل، ويزيد الثّاني، كما في فصل الرَّبيع والصَّيف[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

الدَّلالةُ على التَّجدُّد والاستمرار في تعاقب اللَّيل والنَّهار

دلَّ التَّعبيرُ بالمضارع ﴿يُولِجُ﴾ على تجدُّد هذا الفعل من دخول ساعات اللَّيل في النَّهار، ودخولِ ساعات النَّهار في اللَّيل، وهذا واضحٌ في تعاقب اللَّيل والنَّهار طولًا وقصرًا في الفصول الأربعة من السَّنَة.

بلاغةُ الصّورة البيانيَّة في الإيلاج:

تجسيدُ معنى الإدخال في صورة محسوسةٍ

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ صورةً بيانيَّةً بديعةً من نوع الاستعارة، فإيلاجُ اللَّيل في النَّهار: غشيانُ ضوءِ النَّهار

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 434، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 367، عبد الجبار فتحي، الفروق اللّغوية، ص: 523.

على ظلمة اللَّيل، وإيلاجُ النَّهار في اللَّيل: غشيانُ ظلمةِ اللَّيل على ما كان من ضوء النَّهار، فالمُوْلَج هو المختفي، فإيلاجُ اللَّيل انقضاؤه، واستعارةُ الإيلاج لذلك استعارةٌ بديعة؛ لأنَّ تقلُّص ظلمةِ اللَّيلِ يحصل تدريجًا، وكذلك تقلُّصُ ضوءِ النَّهار يحصل تدريجًا، فأشبه ذلك إيلاجَ شيءٍ في شيءٍ؛ إذ يبدو داخلًا فيه شيئًا فشيئًا(1).

نُكْتَةُ إضمارِ الفاعل في الآية:

اختصاصُ الله ﷻ بأمورِ الكون وحدَه

أُضْمِر الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾؛ لكونه معلومًا أنَّه لا يَقْدِر على ذلك إلّا اللّٰه سبحانه، فذلك مختصٌّ به وحدَه، ولا ينصرف ذهنُ السّامعِ عند ذِكْر الآيات الكونيَّة من اللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر إلّا إلى الخالق القادرِ سبحانه، وأيضًا لنُكْتَةِ الإيجاز فقد تقرَّر الفاعلُ في آية أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾ [الحج: 61].

دلالة (أل) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

دلالـةُ الجنس عـلى الحقيقة بقطع النَّظرِ عن الأفراد

جاء لفظا ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ معرَّفَين بـ (أل) الدّالَّة على تعريفِ الجنس المقتضي للعموم، ويسمّيها البلاغيّون (لامَ الحقيقةِ)، وتُسمّى أيضًا لام العهد الذِّهني(2)، وهي الَّتي تبيِّن الحقيقةَ بقطعِ النَّظرِ عن الأفراد، وهي تعرِّف حقيقةً ذهنيَّةً يُراد بها فردٌ مبهمٌ من أفراد الحقيقة باعتبار عهديَّته في الذِّهن، لاشتمال الحقيقة عليه، كما في قوله: ﴿أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: 13]، وقولهم: ادخل السّوق(3).

بلاغةُ المطابقةِ بين ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

توضيحُ الكلامِ بالجمع بين الضِّدّين في المقام

يتضمَّن قولُه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ طباقًا بديعًا بين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 315.
(2) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.

لفظَتي ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾، وهو محسِّنٌ معنويٌّ يوضِّح اختلافَ زمنَيهما، وكونهما من آياتِ الله العظيمة، فبين تقابلِ اللَّيل والنَّهار وتخالفِهما تضادٌّ يثير الذِّهنَ، ويجذبُ الانتباه، ويزيد الكلامَ حُسنًا وطرافةً، كما يقوّي المعنى؛ إذ بضِدِّها تتمايز الأشياء.

سرُّ تقديم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ في الآية:

للعناية والاهتمام به لأنَّه الأصل

تقدَّمَ ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾؛ لنُكْتَة الاهتمامِ به، فأمرُهُ أعجبُ في كيفيَّة غشيان ظُلمتِه تلك الأنوار النَّهاريَّة، وكذلك هو أسبق؛ لأنَّ الظُّلْمَة هي الحالةُ السّابقة للعوالم قبلَ خلقِ النّور في الأجسام النَّيِّرة، فالظُّلمةُ عدمٌ والنّورُ وجودٌ، وكانت الموجوداتُ في ظُلمة قبلَ أن يخلقَ اللهُ الكواكبَ النَّيِّرة، ويوصلَ نورَها إلى الأجسام الَّتي تستقبلها كالأرض والقمر، وقد جعل بعضُ العلماء تقديمَ اللَّيلِ لأهمّيَّته في العبادة، فاللَّيلُ لخِدمة المولى ﷻ، والنَّهار لخِدمة الخَلْقِ، ومعارجُ الأنبياء عليهم السلام كانت باللَّيل، واللَّيلُ هو الأصل، والنَّهار فرعٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالحرف ﴿فِي﴾:

اللَّيلُ والنَّهارُ ظرفان زمنيّان للزِّيادة والنُّقصان

استُعمِلَ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالُّ على الظَّرفية الزَّمنيَّة في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾؛ لأنَّ كلًّا من اللَّيل والنَّهار ظرفان زمنيّان لزيادة ساعات اللَّيل في النَّهار، وزيادة ساعات النَّهار في اللَّيل.

بلاغةُ المقابلةِ في الآية:

إظهارُ القدرة الإلهيَّة على خَلْق الأمور المتضادَّة

يظهرُ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ مقابلةُ إيلاجِ النَّهار في اللَّيل؛ لإيلاج اللَّيل في النَّهار، والنُّكْتَةُ في ذلك: تتميمُ إظهارِ القُدرة الإلَهيَّة على خَلْقِ الأمور المتضادَّة، وعدمُ لزوم طريقةٍ واحدة كقدرة الصُّنّاع من البشر، وبأنَّه سبحانه قادرٌ على تغيير أحوالِ ما هو أعظم حالًا من الإنسان، وذلك بتغيير أحوالِ

الأرض وأُفُقِها بين ليل ونهار في كلِّ يوم وليلة، تغييرًا يُشْبهُ طُروَّ الموت على الحياة في دخول اللَّيل في النَّهار، وطُروُّ الحياة على الموت في دخول النَّهار على اللَّيل، وبأنَّه سبحانه قادرٌ على أعظم من ذلك(1).

بلاغةُ الإدماجِ في الآية:

إدمـاجُ ذِكْـرِ المسلمين والكفّار في ذِكْر اللّيل والنّهار

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ فنًّا من فنون البلاغة يُسمّى (الإدماج)، وحقيقتُه: أن يتضمَّن الكلامُ معنيين: معنًى مصرَّحًا به، ومعنًى كالمشار إليه(2)، فأدمج النَّظم القرآنيُّ في ذكر اللَّيل والنَّهار تشبيهَ الكفر باللّيل والإسلام بالنَّهار؛ لأنَّ الكفرَ ظلامٌ وضلال، فصاحبه مِثْل الَّذي يمشي في ظُلمة، ولأنَّ الإيمان نورٌ يتجلّى به الحقُّ والاعتقادُ الصَّحيح، فصاحبُه كالَّذي يمشي في النَّهار، ففي هذا إيماءٌ إلى أنَّ الإيلاجَ المقصود هو ظهورُ النَّهار بعد ظلمة اللَّيل، أي: ظهورُ الدّين الحقِّ بعد ظُلمة الإشراك، ولذلك ابتُدِئ في الآية بإيلاج اللَّيل في النَّهار، أي: دخول ظُلمةِ اللَّيل تحتَ ضوءِ النَّهار.

سرُّ الجمع بين الإيلاجين للّيل والنَّهار:

تـعـاقُبُ اللَّيل والنَّـهـار دليلٌ على تقلُّب الزّمان

في الجمع بين ذِكر إيلاج اللَّيل في النَّهار، وإيلاج النَّهار في اللَّيل، إيماءٌ إلى تَقلُّب أحوال الزَّمان، فقد يصير المغلوبُ غالبًا، ويصير الغالبُ مغلوبًا، وفيه إدماجُ التَّنبيه بأنَّ العذاب الَّذي استبطأه المشركون منوطٌ بحلول أجلِه، وما الأجل إلّا إيلاجُ ليلٍ في نهار، ونهارٍ في ليل(3).

نُكْتَةُ عطفِ تسخير ﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ على الإيلاج:

ارتـبـاطُ اللَّيل والنَّـهـار بحركة الشَّمس والقمر

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ على ما قبلَه من إيلاج اللَّيل في النَّهار والعكس؛ لتمام المناسبةِ بينهما، فبفضلِ اللهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 184.
(2) العسكريّ، الصّناعتين، ص: 423، وأحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة: 1/ 83.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 315.

سبحانه في تسخير الشَّمس والقمر تعلمُ حكمةَ الإيلاج، وبحركة النَّيِّرين تختلف الأوقاتُ، وتظهر الفصولُ الأربعة الَّتي تتعلَّق بها المصالحُ، والأمور المهمَّة[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّسخير دون الخَلْق:

تسخيرُ الشَّمس والقمر لمنافع النّاس

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالتَّسخير دونَ الخَلْق في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾؛ لأنَّ التَّسخير معناه التَّذليلُ العظيم لهما، فالبَشَرُ لا يستطيعون التَّحكُّم فيهما؛ لذلك كان من فضلِ اللّهِ سبحانه أنَّه جعلهما طائعَين لما يُراد منهما من المنافع، ولأنَّ التَّسخير يحمل في طيّاته معنى الخَلْق، فقد يُخْلَق الشَّيء، ولا يُسَخَّر، فلا يستطيع الإنسان أن ينتفع به؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالتَّسخير أوفقَ لمعنى الآية.

نُكْتَةُ العدول إلى الماضي ﴿وَسَخَّرَ﴾:

تجدُّدُ الإيلاجِ بين اللَّيل والنَّهار دون التَّسخيرِ

عَدَلَ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ من الفعل المضارع ﴿يُولِجُ﴾ إلى الماضي ﴿وَسَخَّرَ﴾ لنُكْتَة بلاغيَّة، وهي أنَّ إيلاج أحدِ المَلَوَين في الآخر متجدِّدٌ حينًا فحينًا، فناسَبَه المضارعُ الدّالُّ على التَّجدُّد، وأمّا تسخيرُ النَّيِّرينِ؛ فأمرٌ لا تجدُّدَ فيه، وإنَّما المتعدِّدُ والمتجدِّدُ آثارُه، فناسبَهُ الماضي الدّالُّ على التَّحقُّق[2].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ و﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾:

شهرةُ الشَّمس والقمر تغنيهما عن التَّعريف

جاء لفظا ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ و﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ معرَّفَين بـ (أل) الدّالَّة على تعريفِ العهدِ، فهذان اللَّفظان يُطلقان على نجمَين معروفين من بين سائر النُّجوم، وقد ذهب ابن عطيَّة إلى أنَّهما لا تفيد التَّعريف[3]، باعتبار أنَّ كلَّ واحدٍ منهما لا نظيرَ معهودٍ له من جنسه.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 367.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 353.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 434.

نُكْتَةُ تقديم تسخير الشَّمس على تسخير القمر:

الـشَّـمـس هي الأصـل والأهـمُّ، والقَمَر فرعٌ عنها

تقدَّم ذِكْر ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ على ﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾؛ لأهمّيَّة الشَّمس وفضلِها، فهي الأصلُ بضيائها ودفئها ومنافعها للنّاس، والقمر فرعٌ عنها، وهي الأكبرُ جِرمًا، والأهمُّ في حساب الأوقات، فبالشَّمسِ تُعَرَف الأيّامُ، وتُعْرف ساعاتُها، فإنَّ شروقَها وغروبها يُحدِّد عددَ ساعات اللَّيل والنَّهار ودرجاتِهما، واختلافَ أقاليمِ الأرض فيها طولًا وقِصَرًا، حتّى يَقِلَّ النَّهارُ في بعض الأرض، ويكونَ الأكثرُ ليلًا، ويتناسب اللَّيلُ والنَّهار في بعض الأرض، وبالشَّمس تُعْرَف مناطقُ الأرض على حسب تسلُّط نورِها وأشعَّتها على الأرض، وتكون الفصولُ الأربعةُ من صيف وخريف وشتاء وربيع، فهي أعلى مرتبةً من القمر[1].

سرُّ تخصيص ﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ بالذِّكر:

الشَّمس والقمر أشرفُ الكواكب

النّاظرُ في آيات القرآن الكريم عمومًا، وفي هذه الآية في مقام التَّسخير، يجد ذِكْرَ ﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ فقط، دون غيرهما من الكواكب السَّيّارة؛ لأنَّهما أظهرُ الكواكب وأشرفُها وأعظمُها في منافع النّاس، وما عداهما يدخل فيهما من باب أولى.

سرُّ فصل قوله: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي﴾:

جريانُ الشَّمس والقمر فرع عن تسخيرهما

فُصِل قولُه تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ عمّا قبلَه؛ لوجود كمالِ الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تنزَّل الثّانية من الأولى منزلةَ نفسِها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ بيانًا لتسخير الشَّمس والقمر.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿كُلّٞ﴾ وتنكيره:

بـلاغـةُ إيـجـازِ الـحـذف بتنوين العوض

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/ 2601.
(2) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.

﴿مُّسَمًّىۚ﴾ بلفظ ﴿كُلٌّ﴾، وهو من ألفاظ العموم، والأصلُ فيه الإضافةُ، وقد جاء منونًا بتنوين العِوض عن المضاف إليه، والتَّقدير: كلٌّ من الشَّمس والقمر يجري إلى أجلٍ، وهو من إيجازِ الحذفِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في الفعل ﴿يَجۡرِي﴾:

استعارةُ الجَري للدَّلالة على طول حركة الشَّمس والقمر

تَظْهَر بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بالفعل ﴿يَجۡرِي﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ لأنَّ معناه المشيُ السَّريع، وقد استُعير هنا لانتقال الشَّمس في فَلَكها، وانتقالِ الأرض حولَ الشَّمس، وانتقالِ القمر حولَ الأرض؛ تشبيهًا بالمشي السَّريع؛ لأجل شسوع المسافاتِ التي تُقطَع في خلال ذلك[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

دوامُ جريانِ الشَّمس والقمر

جاء الفعلُ ﴿يَجۡرِي﴾ بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار في الحركة لكلٍّ من الشَّمس والقمر، وقد بيَّن القرآنُ ذلك بقوله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: 40].

سرُّ التَّعبيرِ باللّام في قوله: ﴿لِأَجَلٖ﴾ دون (إلى):

دقَّةُ النَّظم القرآنيّ في اختيار حروف المعاني

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ باللّام دون (إلى) في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ لوجود فرقٍ بينهما، فاللّام معناها الاختصاصُ، أمّا (إلى)؛ فمعناها انتهاءُ الغاية، لكنَّ بعضَ العلماءِ ذهبَ إلى أنَّ اللّام هنا بمعنى (إلى) في الدَّلالة على الانتهاء، بمعنى أنَّ الجريَ لمدَّةٍ معيَّنةٍ هي نهاية الدُّنيا ومجيء القيامة، أو لمدَّة محدَّدة يُتِمُّ فيها دورانَه، فالشَّمسُ تُتِمُّ دورتَها في سَنةٍ، والقمرُ يتِمُّ دورتَه في شهر[3]، وهذا القول غيرُ دقيق؛ لأنَّه جعلهما بمعنًى واحد من باب

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 367.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 180.

التَّعاقب، وممّا يُؤكِّد ذلك إنكارَ الزَّمخشريِّ التَّعاقبَ بين هذَين الحرفين، وأغلظ في النَّكير على القائلينَ بهِ، واختار أن يكونَ معنى اللّام هنا الاختصاصَ، فقولُه: ﴿يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ معناه: يجري لإدراكِ أجلٍ مُسمّى، فتجعلُ الجريَ مختصًّا بإدراك أجل مسمًّى؛ وذلك لأنَّ جريَ الشَّمسِ مختصٌّ بآخر السَّنَة، وجريَ القمرِ مختصٌّ بآخر الشَّهر، وهذا المعنى مقبولٌ غيرُ نابٍ به موضعُه[1]، وقد حاول الطّيبيُّ الجمعَ بين القولين بأنَّ مآلهما واحدٌ، وأنَّ الغرضَ منهما الغايةُ، وهو حاصلٌ بهما؛ لأنَّ الغاياتِ يَجمعُها معنى انتهاءِ الغايةِ والعِلَّة[2]، والبلاغةُ تقتضي التَّمييزَ بين الحرفين؛ لأنَّ القرآنَ استعمل كلَّ حرفٍ في موضعه، ففي سورة لقمان جاء التَّعبيرُ بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾ [لقمان: 29] في قوله: ﴿كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [لقمان: 29]، وهذا دليلٌ على التَّفريق بينهما، ويكون اختيارُ اللّامِ هنا دونَ (إلى)؛ للإشارة إلى أنَّ هذا الجَريَ يكون لعِلَّة زمنيَّة لا تتخلَّف.

نُكْتَةُ تنكير ﴿لِأَجَلٖ﴾:

إبهامُ أجَلِ البعثِ على جميع الخلق

جاء لفظُ ﴿لِأَجَلٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ مُنَكَّرًا، والغَرضُ من تنكيره الإبهامُ، والإبهامُ له علاقةٌ مباشرةٌ بالتَّعظيم والتَّفخيم، فإنَّ من أراد أن يُعَظِّم شيئًا أبهمَهُ بحيثُ لا يُكتَنَهُ وصفُه، وتذهب النَّفسُ فيه كلَّ مذهب، وتتشوَّق إلى معرفة خبره وتفصيله.

سرُّ التَّعبيرِ بالأجل دونَ الوقت:

الوقتُ ممدود والأجل محدود

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالأجل دون الوقت في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾؛ لأنَّ الأجل أخصُّ من الوقت، فله بدايةٌ وله نهاية، بخلاف الوقتِ فهو عامٌّ، وآياتُ القرآن تُظْهِر أنَّ الأجل

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 502.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 314.

محدودٌ، منها قولُه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾ [الرّعد: 38]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: 235]، وغيرُ ذلك من الآيات.

نُكْتَةُ وصفِ الأجل بـ ﴿مُّسَمًّى﴾:

ساعةُ البعثِ معيَّنةٌ لا يعلمها إلّا اللهُ سبحانه

وُصِفَ الأجلُ بأنَّه ﴿مُّسَمًّى﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إشارةً إلى أنَّ لهذا النِّظام الشَّمسيِّ أمدًا يعلمُه اللهُ، فإذا انتهى ذلك الأمدُ؛ بَطَل ذلك التَّحرُّكُ والتَّنقُّلُ، وهو الوقتُ الذي يُؤذِن بانقراض العالَم، فهذا تذكيرٌ بوقت البعثِ(1)، والمُرادُ بـ (الأجل) هو قيامُ السّاعة، وقيل: آمادُ اللَّيل وآماد النَّهار، فيكون على هذا اسمَ جنسٍ، و(المسمّى): أصلُه المعروف باسمه، وهو هنا كنايةٌ عن المُعيَّن المُحدَّد؛ إذِ التَّسميةُ تستلزِم التَّعيينَ والتَّمييزَ عن الاختلاط، وفي التَّعبيرِ به إشارةٌ إلى أنَّه معلومٌ معيَّن، ولا ينبغي الجهلُ به.

نُكْتَةُ بناءِ ﴿مُّسَمًّى﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

تَركُ التَّصريحِ بالمعلومِ جائزٌ وبليغ

بُني لفظُ ﴿مُّسَمًّى﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لظهور المعنى وعدم خفائِه، فمعلوم أنَّ أجلَ هذه الدُّنيا بأجرامها قد سمّاه، وحدَّده خالقُها ﷻ وحدَه، ولم يُطْلِع أحدًا مِنَ الخَلْق عليه، لا مَلِكٍ مُقرَّبٍ ولا نَبيٍّ مرسَلٍ.

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾:

مزيدُ تعريفِ الخالقِ ﷻ بدلائل قدرتِهِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ على سبيل الاستئنافِ البيانيِّ، فإنَّه سبحانه لمّا ذكرَ أشياءَ كثيرةً تدلُّ على قدرتِهِ الباهرة، من إرسال الرّياح، والإيجادِ من تراب وما عُطِفَ عليه، وإيلاجِ اللَّيل في النَّهار، وتسخيرِ الشَّمسِ والقمرِ؛ أشار إلى أنَّ المتَّصفَ بهذه الأفعال العجيبةِ هو اللّه العظيم ﷻ(2).

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 434، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 21.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة الجمعيِّ للبعيد:

تعظيمُ شأنِ الخالق سبحانه وتشريفُ قَدْرِه

وردتِ الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ باسم ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المخصَّصِ للبعيد، والنُّكْتَةُ في ذلك أنَّ الأصل في الإشارةِ أن تكونَ إلى محسوس، فلمّا كان يستحيل إحساسُه تعالى بالحواسِّ في الدُّنيا؛ أشار النَّظمُ الكريمُ إليه إشارةَ بعيدٍ، مع أنَّه أقربُ من كلِّ قريبٍ؛ للإيذان بغاية العظَمةِ، أي: ذلك العظيمُ الشَّأنِ الَّذي أبدع هذه الصَّنائعَ البديعةَ من أوَّل السّورة إلى هنا، من إيلاج اللَّيل في النَّهار وبالعكس، وتسخيرِ الشَّمس والقمر[1].

الموقعُ النَّحويُّ للاسم الكريم ﴿ٱللَّهُ﴾:

كمالُ التَّنزيهِ في منع بعض الأوجه الإعرابيَّةِ

تعدَّدتِ الأوجهُ الإعرابيَّةُ في الاسم الكريم ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾، فيجوز أن يكونَ خبرًا للمبتدأ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، و﴿رَبُّكُمۡ﴾ خبرٌ ثانٍ، أو نَعتٌ لله[2]، وقال الزَّمخشريُّ: "ويجوز في حُكم الإعراب إيقاعُ اسم الله صفةً لاسم الإشارة، أو عطفَ بيان، و﴿رَبُّكُمۡ﴾ خبرٌ، لولا أنَّ المعنى يأباه"[3]، وردَّ عليه أبو حيّان بقوله: "أمّا كونه صفةً؛ فلا يجوز؛ لأنَّ الله عَلَمٌ، والعَلَمُ لا يوصَف به، وليس اسمَ جنسٍ كالرِّجال، فتُتَخيَّل فيه الصِّفةُ، وأمّا قوله: "لولا أنَّ المعنى يأباه"، فلا يَظْهَر أنَّ المعنى يأباه؛ لأنَّه يكون قد أخبرَ بأنَّ المشار إليه بتلك الصِّفات والأفعال المذكورة ﴿رَبُّكُمۡ﴾، أي: مالكُكم، أو مصلحُكُم، وهذا معنًى لائقٌ سائغ"[4]، وأفاد الطَّيبيُّ أنَّ ذلك يُشار به إلى ما سبق؛ للدَّلالة على جدارة ما بعدَه بسبب الأوصاف السّابقة، ولو كان وصفًا أو بيانًا؛ لكان المشارُ إليه ما بعدَه، وأمّا جَعْلُه عطفَ بيانٍ؛ ففيه تخييلٌ للشِّركة، ألا ترى إذا قلت: ذلك الرَّجلُ سَيِّدُك، ففيه نوْعُ شركة؛ لأنَّ (ذا) اسمٌ مُبهَمٌ تمَّ تَبيِّنُه[5].

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 368.

(2) الدّرّ المصون، السّمين الحلبيّ: 9/ 220.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 605.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 21.

(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 629.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الرُّبوبيَّة:

إيجادُ الآياتِ الكونيَّة من خصائص الرُّبوبيَّة، ومستلزمَةٌ لتوحيد الألوهيَّة

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ بلفظِ الرُّبوبيَّة دون سواه من أسماء الله وصفاتِه؛ لاختصاص الرَّبِّ سبحانه بإيجادِ الآياتِ الكونيَّة المشاهدةِ، من تعاقُبِ اللَّيل والنَّهار، وتسخيرِ الشَّمس والقَمر، وكذلك لما في وصف الرُّبوبيَّة من الدَّلالة على الشَّفقة بالمَربوب، ومحبَّةِ الخير له، فهو تذكيرٌ لعبادِه بنعمة الإيجادِ والإمدادِ، وهو معنى الرُّبوبيَّة، وتوطئةٌ للتَّسجيل عليهم بكفران نعمتِه، ونسبتِها للأوثان.

دلالةُ الإضافةِ والتَّعريف في: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾:

الإضافةُ للتَّشريف والقُرب، والتَّعريف للحَصْرِ

دلَّتِ الإضافةُ على التَّشريف والقُرْب، فهو ربُّكم الواحد الَّذي له الخَلْق والأمْرُ، فاعبدوه، ولا تعبدوا غيرَه، وفي هذا تعريضٌ بالمشركين الَّذين عبدوا الأصنامَ[1]، ودلَّ تعريف الطَّرفين في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ على الحصرِ، والمعنى: أنَّه ﷻ خالقُ الأفعال المذكورةِ وحدَهُ، فهو المستحِقُّ للعبادةِ دونَ غيرِه.

دلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لَهُ﴾:

الكونُ كلُّهُ بما فيه مِلكٌ لخالقِه سبحانه

ورد التَّعبيرُ باللّام من ﴿لَهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ دون غيرها لتعدُّدِ معانيها، فمنها المِلكُ، فإنَّه سبحانه خالقُ كلِّ شيءٍ، فكان مالكًا له؛ إذِ الخالقُ مالكٌ، وذهب بعضُ العلماء إلى أنَّها للاختصاص، ويُرجِّحُه أنَّ فيه تقليلًا للاشتراك، وجعلها ابنُ هشام أيضًا للاستحقاقِ، فإنَّ لامَ الاستِحْقاقِ هي الواقِعَة بَين مَعنًى وذاتٍ[2]، كما في هذه الآية.

نُكتَةُ تقديم شِبه الجملة ﴿لَهُ﴾:

المُلكُ لله وحدَه لا لغيره

تَقدُّمُ شبهِ الجملة في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ لإفادةِ الحصرِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 425، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 04/ 202.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 275.

أي: المُلك للّه وحدَه لا لغيره، وأمّا مُلْكُ ملوكِ الدُّنيا؛ فهو لنقصِه وتعرُّضه للزَّوال بمنزلة العَدَم، وفي حديث القيامة: «ثمَّ يقول: أنا المَلِكُ، أينَ ملوكُ الأرض؟»[1]، فاللّهُ سبحانه هو المَلِكُ الحَقُّ، وفي هذا الحصر إبطالٌ لادِّعاء المشركين الألوهيَّةَ في أوثانهم[2].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾:

استـغـراقُ مُـلـكِ الخالقِ سبحانه لجميع السَّماوات والأرض وما فيهما

جاء لفظُ ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ معرَّفًا بـ (أل) الدّالَّة على استغراقِ جنس المُلْك، فجميعُ مُلكِ السَّماوات والأرض وما فيهما، ومطلَقُ التَّصرُّف في الأولى والآخرة له تعالى، وليس لغيره مُلكٌ أصلًا، وكلُّ من هذا شأنُه؛ فهو متفرِّدٌ بالأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالمُلك دونَ المِلك:

عـمـومُ المُـلـكِ في سياسةِ البلادِ والعباد

آثَرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ دون (المِلك) في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾؛ لأنَّ مضمومَ الميم خصَّهُ الاستعمال بمُلك البلاد ورعاية النّاس، وفيه جاء قولُه تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، وصاحبه: مَلِكٌ، بفتح الميم وكسر اللّام، وجمعه: مُلوك[4]؛ بخلاف المِلْك فلا يتأتّى منه سياسةُ النّاسِ وحُكمُهم.

دلالةُ تعدُّدِ الإعراب لقوله: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾:

تنويعُ الوُجوهِ الإعرابيَّةِ، فيه تكثيرٌ للمعاني الدَّلاليَّة

تعدَّدت الأقوالُ في موقع جملة ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾، فيحتمل أن تكونَ الجملةُ: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ خبرًا ثالثًا للمبتدأ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، بمعنى: أنَّ اللّه عظيمُ الشَّأن، المشار إليه بتلك الصِّفات والأفعال المذكورة هو الرَّبُّ، وله مطلقُ المُلك والتَّصرُّف، كما يمكن أن تكونَ كلامًا مبتدأً في مقابلة قوله

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (2787)، ومسلم في صحيحه، برقم: (4534).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 336.
(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 38.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 336.

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾؛ للدَّلالة على تفرُّده تعالى بالأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾:

المقابلةُ بين مُلْكِ المُستَحِقِّ للرُّبوبيَّة، وبين عجزِ الأوثان الشِّركيَّة

دلَّ التَّعبيرُ بالواو على عطف قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ على سبيل المقابلةِ لقولِه تعالى قبله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾، فبعدَ أن صرَّحَ سبحانَه بأنَّه خالقُ الخلائقِ، ومُدبِّرُ الأحوالِ السَّماويَّة والأرضيَّة، وأنَّه الرَّبُّ الَّذي له المُلكُ والسُّلطانُ وحدَه، عطف عليه التَّصريحَ بأنَّ أصنامَهم لا يملكون مِن المُلك شيئًا، ولو حقيرًا، ويحتمل أن يكونَ كلامًا مستأنفًا؛ للدَّلالة على تفرُّدِه بالأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة، وتكون جملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ مبيِّنةً لعِلَّة ما تضمَّنه قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ من التَّفرُّد بالأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلتِه:

ذَمُّ المشركين بدعاءِ غيرِ ربِّ العالَمين

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ بالاسم الموصول (الّذين) وصِلَتِه ﴿تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، دون الاسم الظّاهر (الأوثان)؛ لتقريعِ المشركين بما في حيِّز الصِّلة، وهو دعاءُ غيرِ اللّه والإشراكُ به الأصنامَ العاجزة عن أدنى الأمور، فذَمَّهم بذلك من أوَّلِ الأمر، كما ذمَّهم في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: 5]، وفي التَّعبيرِ باسم الموصولِ لفتُ انتباهِ المشركين إلى عجزِ الأصنام عن أن تدفعَ الضُّرَّ عن نفسِها، فضلًا أن تدفعَه عن غيرِها.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ عن الأوثانِ بضمير جمع العقلاء:

ظنونُ المشركين الجهلاءِ في إلحاق الأوثان بالعقلاء

جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ ذِكْرُ الأوثانِ الَّتي يعبدُها المشركون من دون اللّهِ تعالى

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 148.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 39/ 16.

بضميرِ جمعِ العقلاء؛ جريًا على زعمهِم وتفكيرهم، مع أنَّها جمادٌ غيرُ أحياءٍ، فضلًا عن أن يكونوا عاجزين[1]، وهذا من باب استمالةِ الخصم لكي يراجعَ الأمرَ في نفسِه، ويتبيَّنَ له أنَّه على الباطل، وليس على الحَقِّ، كما يمكن أن يكون ذلك من باب التَّشبيهِ بالعقلاء لمّا نسبوا إليها بعضَ ما يُنسب للأحياء كالمُلك، وقال بعضهم: إنَّهُ قد خرج مخرجَ التَّغليبِ ليشملَ الكلامُ عَبَدَةَ الأصنامِ وعبدةَ الملائكةِ وعيسى عليه السلام، وغيرَهم منَ المُقرَّبين[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَدۡعُونَ﴾ في الآية:

الدُّعاءُ هو العبادة، والعبادةُ هي الدُّعاء

أوثِرَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ لأنَّ الدُّعاء يُطلَق، ويُراد به النِّداءُ والعبادةُ، ولمّا كان الدُّعاءُ عامًّا يشمل الأمورَ الدُّنيويَّةَ والعباديَّةَ؛ عَبَّر بالدُّعاء من باب العموم، وخصَّه بالذِّكر هنا؛ لأنَّ معناهُ العبادة، وهذا يستلزم دعاءَ المعبودِ، فالدُّعاءُ يُطلَق على سؤال العبدِ من اللّه حاجتَه، وهو ظاهرُ معناه في اللُّغة، ويُطلَق أيضًا على عبادةِ اللّه عن طريق الكنايةِ؛ لأنَّ العبادةَ لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمِه والتَّضرُّعِ إليه، وهذا إطلاقٌ أقلُّ شيوعًا من الأوَّل، وقد جاء من كلام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ما فيه صلاحيَّةُ معنى الدُّعاءِ لما يلائم المَعْنَيين في حديث النُّعمان بن بشير قال: سمعت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «الدُّعاء هو العبادة»[3]، ثمَّ قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]، فإنَّ قولَهُ: «الدُّعاء هو العبادة» يقتضي اتِّحادَ الحقيقتَين، فإذا كان الدُّعاءُ هو العبادة؛ كانت العبادةُ هي الدُّعاء لا محالةَ[4]، وممّا يُذْكَر في سِرِّ التَّعبير

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 5029.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 354.

(3) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (2969)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 181.

بقوله: ﴿تَدۡعُونَ﴾ دون (تعبدون) الإنكارُ على المشركين في دعائهِم الأصنام، وهذا الإنكارُ يَلْزَمُ منه إنكارُ عبادتِهم لها أصلًا.

دلالةُ المضارعِ في قوله: ﴿تَدۡعُونَ﴾:

تَكَرُّرُ دعاءِ المشركين لآلهتهم الباطلة دونَ جَدوى

عُبِّرَ بالمضارع ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ دونَ غيرِه من الأزمنة؛ لما يُفيدُه المضارعُ من تَكَرُّرِ الحدثِ وتَجدُّدِه واستمرارِه[1]، وفي ذلك دلالةٌ على تَكَرُّر دعائِهم لآلهتهم الباطلةِ، وتَجدُّد ذلك منهم دونَ أن يحصلوا منها على أيِّ نفعٍ أو دفعٍ، وممّا يُذْكَر في سرِّ التَّعبير بالمضارع: تصويرُ صورةِ المشركين واستحضارُها في عُكوفهم على دعوةِ الأصنامِ.

دلالةُ حذفِ المفعول به:

حُذِفَ المفعولُ به في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على بُطلانِ كلِّ ما يُعبدُ من دونِ اللّه، وعدمِ استحقاقِه للذِّكر؛ لحقارته وللتَّهوين من شأنه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

تفريطُ المشركين في حقِّ عبادة ربِّ العالَمين

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ لدلالتِها على معنى الابتداء، ويكون المرادُ أنَّهم مبتدئون من جانبِ غيرِ جانبِ اللّه، فهم يعبدون آلهةً مبتدئين إيّاهم من ناحيةِ غيرِ اللّه؛ لأنَّهم حين يعبدونهم قد شُغِلوا بعبادتهم، ففرَّطوا في عبادة اللّه المُستحِقِّ للعبادة، وتجاوزوا حقَّ إلَهيَّتِه في أحوال كثيرةٍ وأوقات وفيرة[2].

دلالةُ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرور ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

الإنكارُ على القومِ عبادةَ آلهةٍ باطلةٍ من دونِ الله

تضمَّن قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ التَّقييد بالجارِّ والمجرور بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ وذلك للإشعارِ بالإنكار عليهم عبادةَ آلهةٍ باطلةٍ لا ينبغي أن تُعْبَد لوضاعتها، ولجعلهم ذلك عِوَضًا عن

---

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 78.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.

عبادة الإله الحقِّ سبحانه، ويدلُّ التَّقييد أيضًا على مخاطبة المشركين بتَرْك ما هم عليه من عبادة الأصنام؛ لأنَّهم جاوزوا اللّهَ ﷻ إلى عبادة غيره، وهذا مخالفٌ للفطرة السَّليمة، فضلًا عن الشَّرع الحكيم.

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

تحقيرُ أصنامِ المشركين والتَّنبيه على وضاعتها

أُضيفَت كلمةُ (دون) إلى ضمير اسم الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ لتحقير أصنامِهم، ولبيانِ عجزِها عن دَفْعِ الضُّرِّ عنهم أو نصرهم؛ لأنَّها لا تنفع، ولا تضرُّ، ولا تملك لنفسها شيئًا، فضلًا عن أن تملك غيرَها.

بلاغةُ المقابلةِ في الآية:

إثباتُ المُلك للرَّبِّ المستحِقِّ للعبادة، ونفيُه عن الآلهة الباطلةِ

تتضمَّن الآيةُ فنًّا من فنون البديع، وهو المقابلةُ، حيثُ قابل النَّظمُ بين إثبات المُلْك للرَّبِّ المستحقِّ للعبادة سبحانه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾، وبين نفي المُلْكِ عن الآلهة الباطلة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾، فبينَهما تضادٌّ يُثير الذِّهنَ، ويجذب الانتباهَ، ويزيدُ الكلام حسنًا وطرافةً، كما يقوّي المعنى، إذ بضِدِّها تتمايز الأشياء.

دلالةُ النَّفي بـ ﴿مَا﴾:

المبالغةُ في توكيد انتفاء المِلْك عن الأوثان

جاء النَّفيُ بحرف ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾؛ للتَّأكيد على نفي مِلْك الأوثان شيئًا ولو حقيرًا، فينتفي عنها وصفُ الإلَهيَّة بطريق الأولى، وكلَّما كان السّياقُ القُرآنيُّ يحتاج إلى مبالغةٍ في توكيد النَّفي جيءَ به منفيًّا بـ ﴿مَا﴾ النّافية؛ لما تتميَّز به عن سائر حروفِ النَّفي من خصائص: كنفي الحال ونفي الجنس، متَّصلةً بمنفيِّها أو منفصلةً عنه، واقترانُ اسمِها بـ ﴿مِن﴾ الدّالَّة على الاستغراق والتَّوكيد وغيره(1).

---

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 1/ 253.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يَمْلِكُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

كلُّ مُلْكٍ مِلْكٌ، وليس كلُّ مِلْك مُلْكًا

أوثِرَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿يَمْلِكُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾؛ لأنَّ (مَلَكَ) أصلٌ صحيح يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء وصِحَّة، ثمَّ قيل: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَمْلِكُه مَلْكًا، والاسم المِلْك؛ لأنَّ يده فيه قويَّةٌ صحيحة، فالمُلْكُ: ضبطُ الشَّيءِ المتصرَّفِ فيه بالحُكم، والمِلْكُ كالجنس للمُلْكِ، فكلُّ مُلْكٍ مِلْكٌ، وليس كلُّ مِلْكٍ مُلْكًا، ولذلك كان التَّعبيرُ بالفعل ﴿يَمْلِكُونَ﴾؛ للدَّلالة على نفي المِلْكيَّة لأيِّ شيءٍ ولو كان حقيرًا، فضلًا عن التَّصرُّف فيه، وفي هذا توبيخٌ للمشركين في عبادتهم مَن لا يملك، ولا يتصرَّف.

بلاغةُ جِناس الاشتقاقِ بين ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ و﴿يَمْلِكُونَ﴾:

جناسُ الإلحاق بما اتَّفق في أصل الاشتقاق

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ محسِّنٌ بديعيٌّ يُسَمَّى بجناس الاشتقاق، حيثُ توافقت كلمتا ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ و﴿يَمْلِكُونَ﴾ في الحروف الأصولِ، وهي (ملك)، وهو ملْحَقٌ بالجِناس الاصطلاحيِّ؛ لأنَّ كثيرًا ما يَلْحَق بالتَّجنيس الكلمتان الرّاجعتان إلى أصلٍ واحدٍ بالاشتقاق، لما فيه من المسامحة[1].

بلاغةُ الاحتباكِ في الآية:

الاستدلالُ بالمَذكور على المحذوفِ على جهة التَّقابل

جَعَلَ بعضُ العلماءِ قولَه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ من قبيل الاحتباكِ، ومفهومُه: أن يَجتمع في الكلام متقابلان، ويُحذَفَ من كلٍّ واحدٍ منهما مُقابلُه؛ لدلالة الآخَر عليه[2]، ويتجلّى ذلك في الآية: ذِكْر المُلك أوَّلًا دليلًا على حَذْفِه ثانيًا، والملك ثانيًا دليلًا على حَذْفِه أوَّلًا[3].

---

(1) العصام الأسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 464.
(2) الجرجاني، التّعريفات، ص: 12.
(3) الخطيب الشّربيني، السِّراج المُنِير: 3/ 320.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قِطۡمِيرٍ﴾:

المبالغةُ في نفي عجزِ الأوثان عن المِلك

أوثِرَ التَّعبيرُ بحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾، وهو في هذا للمبالغة في النَّفي؛ لأنَّ حرفَ الجَرِّ ﴿مِن﴾ من معانيها الاستغراقُ، فتدخلُ لابتداء الجِنس إلى انتهائه، واكتفى بذِكْر ﴿مِن﴾ عن ذكر (إلى)؛ لدلالة إحدى الغايتَين على الأُخرى[1]، فأفاد التَّعبيرُ بـ ﴿مِن﴾ المبالغةَ في استغراق انتفاء مِلك الأوثان لأدنى شيءٍ ولو كان حقيرًا، وإذا انتفى أنَّها تملك شيئًا؛ انتفى عنها وصفُ الإلَهيَّة بطريق الأَوْلى.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿قِطۡمِيرٍ﴾ وتنكيره:

الأوثانُ لا تملك شيئًا، ولو لفافة نَواة

عُبِّرَ بلفظ (قطمير) في قوله تعالى: ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الأوثان لا تملك شيئًا ولو قليلًا؛ لأنَّ المشهور في القطمير أنَّه لُفافة النَّواة، ويُضرَب به المَثَل في القِلَّة، كقوله:

وأبوكَ يَخْصِف نَعْلَه متوركًا***ما يملك المسكينُ من قِطمير[2].

سرُّ اختيار القطمير دونَ غيره:

عـجـزُ الأصـنـام عن أدنى الأشياء

ذَكر القرآنُ الكريم لفظَ ﴿قِطۡمِيرٍ﴾ دونَ غيرِه من الألفاظ التي يُضْرَب بها المَثَلُ في القِلَّة والحقارة، وهذه الألفاظ مجموعة في النَّواة، الفتيل: وهو ما في شِقِّ النَّواة، والقِطمير: وهو اللُّفافة، والنَّقير: وهو ما في ظهرها[3].

وقد خصَّ القرآنُ الكريم كلَّ واحدٍ منها بذِكْره في السّياق المناسب له؛ فذُكِر النَّقيرُ في سورة النِّساء عند قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ٥٣﴾ [النِّساء: 53]، وفي قوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النِّساء: 124]، وذُكِرَ الفتيل في قوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 5/ 444.
(2) لم أهتدِ إلى قائله، وهو في البحر المحيط: 7/ 305.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 221.

فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ [النّساء: 49]، وورد أيضًا في سورة النِّساء عند قوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النّساء: 77]، ومن خلال النَّظر في سياق هذه الآيات تجد أنَّ كلَّ لفظٍ جاء مناسبًا للسّياق الَّذي ورد فيه؛ فلفظُ (النَّقير) جاء مع بعض اليهودِ الَّذين أُعْطوا نصيبًا من المِلك، ومع ذلك فهُم شديدو البخلِ؛ فلن يُؤتوا النّاسَ منه شيئًا، ولو كان بمقدار النَّقْرةِ في ظهر النَّواة، وأمّا مع أهلِ الإيمان، فجاءتْ لبيان العدلِ المُطلَق في عدم نقصِ المؤمنين من حسناتِهم شيئًا، ولو كان بمقدار هذا النَّقير، ومثلُ ذلك يقال في لفظ الفتيلِ، فقد جاء في سياقات نفي الظُّلم عمَّن هو من أهل الدُّنيا أو في الطَّريق إلى الآخرة، وذلك لما في الفتيلِ من معنى الامتداد في شقِّ النَّواة، فهو يحمل الأثرَ الدّائم، وهو مناسِبٌ لأهل الجنَّة في نفي الظُّلم، بالنَّقص من أعمالِهم، ولو كان بمقدار الفتيل؛ وذلك لامتداد أثرِ أعمالِهم من الدُّنيا إلى الآخرة، أمّا اختيارُ لفظِ القطمير في سورة فاطر دونَ غيرِه ممّا سبق؛ فهو الأنسبُ؛ لأنَّ سياقَ الآياتِ جاء في نفي امتلاكِ الأصنام شيئًا يمكن فَصْلُهُ عن النَّواة، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الأصنامَ لا تَمْلِك شيئًا، ولا تَخْلُق شيئًا، ولو كان بمِقْدار هذه اللَّفافة الرَّقيقة التي تكون حولَ النَّواة.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

دقَّة النَّظم القرآنيّ في اختيار حروف المعاني

قال ﷻ في هذه السّورة: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾، وقال سبحانه في سورة الرَّعد: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الرّعد: 2]، وجاء في سورة لقمان: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان: 29]، وقال ﷻ في سورة الزُّمر: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ

وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾ [الزمر: 5]، فاختصَّ موضعُ لقمانَ بقوله: ﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [لقمان: 29] وما سواه إنَّما هو: ﴿يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾، والنُّكتَةُ في ذلك اختلافُ معنى الحرفين (إلى) و(اللّام)، فالأوَّل دالٌّ على الانتهاء، والثّاني دالٌّ على العلَّة، فقولُه سبحانه: ﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [لقمان: 29]، معناه: لا يزال كلٌّ من الشَّمس والقمر جاريًا حتّى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمّى له، وإنَّما خصَّ ما في سورة لقمان بـ "إلى" الَّتي للانتهاء؛ لأنَّ الآياتِ التي تكتنفها آياتٌ مُنَبِّهةٌ على النِّهاية والحشر والإعادة، وهو ما يُؤذِن بتوقُّف حركة هذه الكائنات بعد انتهائها إلى الغاية الَّتي أرادها اللّه تعالى؛ إعلانًا بِبَدء حياةٍ أُخرى ونظام كونيٍّ آخر، ويُؤكِّد ذلك ما ذُكِر قبلَها بقوله: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾ [لقمان: 28]، وبعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ [لقمان: 33]، فكان المعنى: (كلٌّ يجري إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تُكوَّر فيه الشَّمسُ، وتنكدر فيه النُّجومُ كما أخبر اللّه تعالى)، أمّا باقي المواضعِ؛ فسياقُها مناسبٌ للتَّعليل، فأوثِرَ استعمالُ حرفِ اللّام، فسياقُ سورةِ الملائكة إنَّما هو في ذِكر النِّعَم التي ابتدأ بها في البرِّ والبحر؛ إذ يقول: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾، وكذلك موضعُ الزُّمر وموضعُ الرَّعد، فالآياتُ الَّتي تكتنفهما في ذكر ابتداء الخَلْقِ وابتداءِ جَرْي الكواكبِ، وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغايةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الزمر: 5 - 6]، فاختصَّ ما عندَ ذِكرِ النِّهاية بحرفها، واختصَّ ما عندَ الابتداء بالحرف الدّالِّ على العِلَّة الَّتي يقع الفعل من أجلها[1].

(1) الإسكافيّ، دُرَّة التّنزيل وغُرّة التّأويل: 01/ 1057.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المُلك والمِلك:

الـمَـلِـكُ من المُلك، والمالِكُ مِنَ المِلك

المِلكُ أصلهُ: الشَّدُّ والرَّبطُ[1]، ومِنهُ: إملاكُ العَروسِ؛ لأنَّهُ عَقدٌ ورَبطٌ للنِّكاحِ[2]، أو هو: احتِواءُ الشَّيءِ والقُدرةُ عَلَيهِ[3]، وهو راجعٌ إلى الأوَّلِ. والمُلكُ أصلهُ: قَهرُ مَن تَتَأتّى مِنهُ الطّاعَةُ، أو هوَ التَّصرُّفُ بالأَمرِ والنَّهيِ في النّاسِ[4].

والمِلكُ والمَلكُ - على ما سبق تقريره - يرجعان إلى أصلٍ جامعٍ، وهو القوَّةُ في الشَّيءِ[5].

ويظهر الاختلاف بين اللَّفظين أيضًا في اسم الفاعل المشتقِّ من كلِّ واحد منهما، فالمالِك: اسم فاعل مشتقٌّ مِنَ المِلكِ - بكسر الميم وفتحها - واللّٰه هو المالك، أي: "مالكُ الأشياءِ كلِّها ومُصَرِّفُها على إرادته، لا يَمتَنِع عَلَيهِ مِنها شيء؛ لأنَّ المالِكَ في كلامِ العَرَبِ للشَّيءِ: هو المتصرِّفُ فيه، القادرُ عَلَيهِ"[6]، والمَلِكُ: اسم فاعل مشتقٌّ من المُلكِ - بضمِّ الميم -[7] وهو مَن يَنفُذُ أمرُهُ في مُلكِهِ[8]، فآثَر النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ في هذا السّياق لكونِهِ سبحانه المتصرِّفَ الوحيد في مخلوقاتِهِ.

القِطميرُ والنَّقيرُ والفتيلُ:

دلالــةُ أجــزاء النَّواة على القِلَّة والحقارة

تشتركُ هذه الألفاظُ الثَّلاثة في كونها أجزاءَ النَّواة، كما تشترك في استعمالِها مثلًا في القلَّة والحقارة، وتختلف في المعنى الدَّلاليِّ لكلِّ لفظ منها.

---

(1) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 30.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/ 184.
(3) ابن سِيدَه، المُحكم والمحيط الأعظم: 1/ 322.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 1/ 48، والرّاغب، المفردات، ص: 774.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/ 351.
(6) الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 43.
(7) السَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: 4/ 110.
(8) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 30.

فالفتيلُ: هو الخيط الأبيضُ في شِقِّ النَّواة، ويروى عن ابنِ عَبّاس رضي الله عنهما أَنَّه قال: "الفتيل ما يخرج من بَين الإصبعين؛ إذا فتلهما".

والقِطمير: هو اللُّفافة، أي: الغشاء الرَّقيق الملتفُّ حولَ النَّواة.

والنَّقير: النُّقرةُ في ظهر النَّواة، الَّتي تنبت منها النَّخلة[1].

قال الأزهريُّ: "وهذه الأَشياء تُضرَب كُلُّها أَمْثالًا للشَّيء التّافهِ الحقيرِ القليلِ"[2]، وإذا كان المقصودُ في الآية ضرْبَ المَثل بأدنى شيء يُمْتَلَك، وذلك يتحقَّق في الخيط، لكونه جِرمًا مستقِلًّا يمكن أن يُعْزَل، ويُؤْخَذ، أي: يُمْتَلك، وكذلك الفوفةُ: الجبَّة، في حين أنَّ الشَّقَّ حالٌّ في جِرم النَّواة، لا يُمْلك وحدَهُ، فالرّاجح: أنَّ المقصودَ بهِ في الآيةِ هو ذلك الخيطُ الممتدُّ في شقٍّ بين قُمْعِ النَّواة وشقِّها - وهو ما قاله المفسِّرون - أو الفوفة، وكلاهما صالحٌ للتَّعبيرِ عن المعنى المقصود[3].

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 9/ 221.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 14/ 206.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملك).

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ عجزِ الأصنامِ عن السَّمع وعن أيِّ نفع

لـمّا ذُكِرَ في الآية السّابقة أنَّ الأصنامَ لا تملك شيئًا، ولو كان حقيرًا، وذلك لتيئيس المشركين مِن انتفاعهم بها؛ ذكر هنا في هذه الآيةِ ما يدلِّل على ذلك العَجز، فقد كان المشركونَ يزعمونَ أنَّ الأصنامَ تسمع منهم، فلذلك كانوا يُكلِّمونها، ويوجِّهون إليها محامدَهم ومَدائحَهم وحوائجهم، فأبطلَ اللّهُ سبحانه مزاعمَهم، منبِّهًا إلى عجز أصنامهم عن السَّمع والإجابة والنَّفع والضُّرِّ(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾: أَصْل (جوب) واحِدٌ، وهو خَرْقُ الشَّيءِ(2)، والجَوبُ: قطعُ الجَوبَة، ويُستعمَل في قطع كلِّ أرض، وجوابُ الكلامِ: هو ما يقطع الجَوبَ، فَيَصِلُ من فم القائل إلى سَمْعِ المستمع، والجوابُ يُقال في مقابلة السُّؤال، والاستجابة قيل: هي الإجابة، وحقيقتُها: التَّحرّي للجواب والتَّهيُّؤ له، لكن عُبِّر به عن الإجابة لقلَّة انفكاكِها منها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60](3)، وفي أسماء اللّه: المجيب، وهو الَّذي يقابلُ الدُّعاء والسُّؤال بالعطاء والقبول(4)، فمعنى الاستجابةِ في الآية: قبولُ الدُّعاء، وإعطاءُ المسؤول.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 283.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جوب).

2) ﴿بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾: (شرك) أصلان، أحدهما: يدلُّ على مقارنةٍ وخلاف انفراد، والآخر: يدلُّ على امتدادٍ واستقامةٍ، والمقصودُ هنا الأوَّل، وهو الشِّرْكَةُ، بأن يكونَ الشَّيءُ بين اثنين، لا ينفرد به أحدُهما، وأشركت فلانًا؛ إذا جعلته شريكًا لك، قال اللّهُ جلَّ ثناؤه في قصَّة موسى: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 32][1]، والشِّركُ في الدّين ضربان، أحدُهما: الشِّركُ العظيمُ، وهو: إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، وذلك أعظمُ كفْرٍ، والآخر: الشِّركُ الصَّغير، وهو مراعاةُ غيرِ اللّه معَه في بعض الأمور، وهو الرّياء والنِّفاق، ولفظُ الشِّركِ من الألفاظ المشتركة، فأكثرُ الفقهاءِ يحملونه على الكُفّار جميعًا، ويرى آخرون أنَّهم عدا أهل الكتاب[2]، وأكثرُ ورودِ مفردات التَّركيب في القرآن بمعنى اتِّخاذ الكفّار شريكًا أو شركاء للّه، تعالى عمّا يصفون[3]، وهو المرادُ في هذه الآية.

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّأكيدُ على عجزِ الأوثان بنفي ما يدعون لها من الأُلوهيَّة

يقول تعالى ذِكرهُ في هذه الآية: إن تدعوا - أيُّها المشركون - هؤلاء الآلهةَ الَّتي تعبدونها من دون اللّه لا يسمعوا دعاءكم؛ لأنَّها جمادٌ لا تفهم عنكم ما تقولون، ولو سمعوا على سبيل الفرضِ؛ ما أجابوكم، ويوم القيامةِ يتبرَّؤون منكم، ولا أحدَ يخبرك - أيُّها الرَّسول - أصدقَ من اللّه العليم الخبير[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

بيانُ بعضِ صفات العجز في معبوداتِ المشركين

فُصِل قولُهُ تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ عمّا قبلَهُ، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).
(2) الرّاغب، المفردات: (شرك).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرك).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 350، نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 436.

لوجود كمالِ الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجُملتين اتِّحادًا تامًّا، وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تُنزَّل الثّانيةُ من الأولى منزلةَ نفسِها[1]، فقد وقعت جُملَةُ: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ بيانًا أو خبرًا ثانيًا عن معبودات المشركين، والمقصدُ منها تنبيهُهم إلى عجز أصنامهم بأنَّها لا تُسمَع[2].

بلاغةُ أسلوبِ الشَّرط في الآية:

إقامةُ الحُجَّة على المشركين بعدم سماعِ الأصنام لدعائهم

تَظْهَرُ بلاغةُ أسلوبِ الشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ في تعليق مضمون الجوابِ على دوام حصولِ مضمون الشَّرط، فيَحصُل الثّاني بحصول الأوَّل، فكلَّما دعا المشركون أصنامَهم من أجل جَلْب نفعٍ أو دفعِ ضرٍّ، عجزت هذه الأصنامُ عن سماع دعائِهم وإجابته، فظهر جهلُ المشركين بدعاء مَن هذه حالُه.

غرضُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

حرفُ (إذا) للمقطوعِ بِهِ، وحرف (إن) للمحتمِل الوقوعِ

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ بحرف الشَّرط الجازم ﴿إِن﴾، وهو وإن كان يرد عمومًا في المعاني المحتمَلَةِ الوقوعِ، والمشكوكِ في حصولها، والموهومة والنّادرة والمستحيلة وسائرِ الافتراضات الأُخرى[3]، إلّا أنَّ دخولَهُ على فعل الشَّرطِ المضارع ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾ يفيد افتراضَ تكرُّرِ الحَدَث ودوامِه واستمرارِه، وهو موافقٌ لسياق الآية، فتعجز الأصنامُ في كلِّ مرَّةٍ عن إجابة الدّاعين، فعَجْزُها ثابتٌ مستمرٌّ، وفي هذا توبيخٌ لهم بسفاهة مَن يُقدِم منهم على دعوة الأصنام.

دلالةُ التَّعبيرِ بالدُّعاء في: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ﴾، وكونه مضارعًا:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالدُّعاء دونَ السُّؤالِ في قوله: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ﴾؛

---

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.

(2) الخطيب الشّربينيّ، السِّراج المُنير: 3/ 320، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 283.

(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 69.

للدَّلالة على نفي القليل، وهو الدُّعاء الذي يلزم منه نفيُ الكثير، وذلك من السُّؤال، فالسُّؤالُ أعمُّ والدُّعاء أخصُّ، ودلَّ التَّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾ على تجدُّد دعاء المشركين للأصنام، واستمرارِهم في طلب الحاجات منهم في الدُّنيا والشَّفاعة في الآخرة.

الدُّعاءُ أخصُّ من السُّؤال، والمضارع للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار

دلالةُ التَّعبيرِ بالإضمار في ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ﴾:

التَّهكُّمُ ممَّن يدعون الأوثانَ والأصنامَ

دلَّ التَّعبيرُ بالضَّميرِ في قوله: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ دونَ الإظهار، بأن يقول: وإن تدعوا الأوثان أو الأصنامَ، على التَّهكُّم بهم؛ لأنَّهم جعلوها أهلًا لسماع دعائِهم، وهم لا يسمعون.

بلاغةُ النَّفي بـ ﴿لَا﴾:

استمرارُ عَجْزِ الأصنامِ في جميعِ الأزمنةِ على الدَّوام

أوثِرَ استعمالُ حرفِ النَّفي ﴿لَا﴾ دون غيرها من أدوات النَّفي في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾؛ لما تتميَّزُ به من كونها أقدمَ حروفِ النَّفي في العربيَّة، وتتميَّز بدخولها على الأسماء والأفعال، فهي غير مختصَّةٍ، ولهذا لا تعمل، وتدخل ﴿لَا﴾ على الفعل المضارع، فلا تُقيِّدُهُ بزمنٍ على الأرجح، فهي تُفيد هنا الاستمرارَ، بمعنى استمرارِ عجز الأوثان عن إجابة الدُّعاء في جميعِ الأزمنةِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بنفي السَّماع دونَ نفي الاستجابة:

نفيُ إدراكِ الأوثانِ للمسموعاتِ وإجابتِها

عُبِّرَ بنفي السَّماع في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾؛ لنفي اللّٰه سبحانه عن الأصنام صفةَ السَّمعِ، وهو إدراكُ المسموعات، والسَّمع نوعان: سمعُ إدراكِ المسموع، وسمعُ إجابةِ المسموع، ومثالُه في قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة: 1]، فقد أثبت اللّٰهُ لنفسِه سبحانه سمعَ الإدراك، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39] أثبتَ سبحانه لنفسِه سمعَ الاستجابة، وفي قول المصلّي: (سمع اللّٰهُ لَمَن حَمِدَه) يُقصَد به الأمران جميعًا، يعني: يسمع، ويجيب مَن حمده بالإثابة، وأمّا الأصنام؛ فهي عاجزةٌ عن

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 330.

نوعي السَّمعِ جميعًا، فهي لا تُدرِك المسموعاتِ، ولا تُجيب داعيها من باب أولى، فلذلك كان التَّعبيرُ بنفي السَّماع دونَ نفي الاستجابة؛ لأنَّه أعمُّ.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾:

مواصلةُ الاستدلالِ على بُطلان عبادة الأصنام

عُطِفَتِ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ على الجملة السّابقةِ في قوله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ بحرف الواو الدّالِّ على الجمعِ والاقترانِ، لذلك جمع النَّظمُ الكريم في هذه الآية ثلاثةَ أمورٍ تدلُّ على بُطلان عبادةِ الأصنام، **أوَّلُها**: أنَّها لا تسمع إن دُعيت، **والثّاني**: أنَّها لا تُجيب، ولو سمعت، وإنَّما جاء بهذه؛ لأنَّ لقائل مُتعسِّف أن يقول: عساها تسمع، والثّالث: أنَّها تتبرَّأ يومَ القيامة من الكفّار[1].

نُكْتَةُ (لو) في الآية:

مجاراةُ مزاعم المشركين لبيان عجزِ الأوثان المبين

أوثِرَ التَّعبيرُ بحرف (لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾؛ لأنَّه حرفُ شرط يُفيد الفرضَ والتَّقديرَ، ومجاراةً لمزاعم المشركين حين يدعونها، فإنَّها لا تستجيب لدعوتهم، ولا تَردُّ عليهم بقبول، وهذا استدلالٌ سندُه المشاهدة، فطالما دَعَوا الأصنامَ، فلم يسمعوا منها جوابًا، وطالما دَعَوها، فلم يُحَصِّلوا ما دعوها لتحصيله، مع أنَّها حاضرةٌ بمرأى منهم، غيرُ محجوبةٍ، فعدمُ إجابتِها دليلٌ على أنَّها لا تسمع، وفي هذا دليلٌ على عجزِها وبطلانِ عبادتها؛ لأنَّ شأنَ العظيم أن يستجيبَ لأوليائِه الَّذين يسعونَ في مرضاتِه، وهذا من أبدع الاستدلال الموَطَّأ بمقدِّمة متَّفَق عليها[2].

نُكْتَةُ التَّعبير عن الأوثان بضمير العقلاء:

عبَّر القرآنُ الكريم عن الأوثان الَّتي يعبدها المشركون من دونِ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 434.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 605، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 283.

اللّهِ تعالى بضمير العقلاءِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾؛ لأنَّ عبَدَتَهم كانوا يصفونَهم بالتَّمييز جهلًا وغباوةً، ولأنَّه أُسْنِد إليهم ما يُسْنَد إلى أولي العِلْم مِنَ السَّمع والاستجابة، ويجوز أن يُراد كلُّ معبود من دونِ اللّهِ من الملائكة والجنِّ والإنس والأصنام، فغلَّب غيرَ الأصنامِ عليها، وقد يكون تنزيلُ الأصنامِ منزلةَ العقلاءِ مجاراةً للمردود عليهم على طريقة التَّهكُّم(1).

أوهامُ المشركين الجهلاءِ في إلحاق الأوثان بالعقلاءِ

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾:

يجوزُ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾ أن يكون (استجاب) بمعنى إجابةِ المنادي بكلمات الجوابِ، كما يجوز أن يكون بمعنى إجابة السّائلِ بتنويلِه ما سألَه، وهذا من استعمالِ المشترِك في معنييه(2).

جوازُ استعمالِ المشتركِ في معنييه

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ دون (أجابوا):

عبَّر بالفعل ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾ دونَ (أجابوا)؛ لأنَّها أخصُّ من (أجاب)، وهي تقال لمن قَبِل ما دُعيَ إليه، وأمّا (أجاب)؛ فتُقال لِمَن أجاب بالقبول وبالرَّدِّ، فهي أعمُّ، قال الرّاغب: "الاستجابةُ هي التَّحرّي للجواب والتَّهيُّؤ له، لكن عَبَّرَ بهِ عن الإجابةِ لقِلَّة انفكاكِها منها"(3).

الاستجابةُ أوكَدُ دلالةً من الإجابة

دلالةُ النَّفي بـ ﴿مَا﴾ دونَ غيرِها من حروف النَّفي:

جاء النَّفيُ بحرف ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾؛ للتَّأكيد على نفي أدنى استجابةٍ للأوثان، فهي لا تُغْني عنهم شيئًا في جَلْب نفعٍ أو دفعِ ضرٍّ، ويُلْحَظ في النَّظم أنَّه كلَّما كان السّياقُ القرآنيُّ يحتاج إلى مبالغةٍ في توكيد النَّفي؛ جيء به منفيًّا بـ ﴿مَا﴾ النّافية؛ لما تتميَّزُ بِهِ عن سائر حروف النَّفي من خصائصَ، كنفي

المبالغةُ في توكيد انتفاء الاستجابةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 369.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 283.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 202.

الحال، ونفي الجنسِ متصِلةً بمنفيّها، أو منفصلةً عنه، واقترانِ اسمِها غالبًا بـ (من) الدّالّة على الاستغراق والتّوكيد وغيره(1).

دلالةُ اللّام في ﴿لَكُمۡۖ﴾:

تبكيتُ المشركين في اعتقادهم نفعَ الأصنام

جاء الفعلُ (استجاب) في قوله تعالى: ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ متّصلًا بحرف اللّام الدّالِّ على التّعديَة، كما قالوا: حَمِد له، وشكر له، وهذا هو الغالبُ في استعمالِه، كقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60]، وقد يَحذِفون اللّامَ، فيُعَدّونه بنفسِه(2)، كقول كعب بن سعد الغَنَويِّ(3):

ودَاعٍ دعا يا مَنْ يجيبُ إلى النَّدى***فلم يستجِبْهُ عند ذاكَ مجيبُ

سرُّ وصل ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

بيانُ حالِ الأوثان يومَ القيامةِ بعد بيان حالِها في الدُّنيا

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ بما قبلَه بحرف الواوِ؛ تكميلًا لوصف الأوثان، فإنَّه سبحانه لمّا بَيَّنَ عدمَ النَّفعِ فيهم في الدُّنيا؛ بَيَّنَ عدمَ النَّفعِ منهم في الآخرة، بل أشار إلى وجود الضَّررِ منهم في الآخرة، فينطقها اللّهُ سبحانه فتتبرَّأُ من شركهم(4).

نُكْتَةُ تقديمِ الظَّرف ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

تهويلُ جزاءِ المشركين يومَ الدّين

تَقدُّمُ الظَّرفِ (يوم) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ لغرض تهويلِ جزاء المشركين، فـ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أهولُ مِن غيره من الأيّام بما لا يُقايَس، وعذابُه أفظعُ من عذاب الدُّنيا بما لا يقارَن، وفي ذلك اليوم تتبرَّأ الأوثانُ من عابديها، وتقول: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾ [يونس: 28].

---

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 253.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 91.

(3) البيت في ديوانه من قصيدة مطلعها:

تقولُ ابنَةُ العَبسِيِّ قَد شِبتَ بَعدَنا***وَكُلُّ امرِئٍ بَعدَ الشَبابِ يَشيبُ

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 229.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

يومُ القيامةِ معروفٌ في عقيدة المسلمين

جاء لفظُ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ معرّفًا بـ (أل) في قولهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾؛ لدلالته على العهد، فيومُ القيامة معهودٌ عند المسلمين بما أخبر القرآنُ والسُّنَّةُ النَّبويَّة بأنَّه يومُ الحشرِ الَّذي يقوم فيه النّاسُ من خُمود الموتِ إلى بَعْثِ الحياة من أجل الحساب والجزاء[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالكفر في قوله: ﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾:

الكفرُ بالشَّيء يُلزِمُ الإقرارَ ببطلانه

أوثِرَ التَّعبيرُ بالكفر في قوله: ﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾؛ لأنَّ الكفرَ بالشَّيء يُلْزِمُ الإقرارَ ببطلانه، ويكون معنى ﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾: يُقرّون ببطلانِ إشراكِكم لهم، ولأنَّه يدلُّ أيضًا على الجُحودِ والتَّبرُّؤ بقولهم: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾ [يونس: 28][2].

نُكْتَةُ المضارع في ﴿يَكۡفُرُونَ﴾:

تبرُّؤُ الأوثانِ من عابديها يومَ القيامة

استُعمِلت صيغةُ المضارع في الفعل ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستقبال إذ محلُّه يوم القيامة، وهو اليوم الموعودُ للخلائق، وفيه يتبرَّأُ المتبوع من التّابع، ويرى المشركون فيه عاقبةَ شركِهم.

كُفْرُ الأوثانِ بينَ الحقيقة والمجاز:

لا يمتنعُ كلامُ الجمادِ يومَ القيامة

دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ على أنَّ الأوثانَ تَكْفُر بشِرْكِ عابديها، وقدِ اختلفَ المفسِّرون في كيفيَّة ذلك، فذهب الجمهورُ إلى أنَّ ذلك بلسان المقال على وجه الحقيقة بأن يخلقَ اللهُ فيها قدرةً على النُّطق، فتتبرَّأ من عبادة المشركين إيّاها، وتقول: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾ [يونس: 28]، وذهب فريقٌ آخَر إلى أنَّ كُفْرَ الأوثانِ يكون بلسانِ الحال على وجهِ المجاز، بما يظهر هناك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 04/ 188.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 40/ 16.

من جُمودها وبُطولها عند حركة كلِّ ناطق، ومُدافعةِ كلِّ محتجٍّ، فيَجيء هذا على طريق التَّجوُّز[1]، كما قال ذو الرِّمَّة[2]:

وَقَفتُ عَلى رَبعٍ لِمَيَّةَ ناطقٍ***يُخاطِبُني آثارُهُ وأخاطِبُه

وَأَسقيهِ حَتّى كادَ مِمّا أَبُثُّهُ***تُكَلِّمُني أَحجارُهُ ومَلاعِبُه

معنى الباء في قوله: ﴿بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾:

ورد حرفُ الباءِ في قوله تعالى: ﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ دالًّا على التَّعديَة؛ إذِ الفعلُ كُفْرٌ يتعدّى إلى مفعولهِ بالباء.

نُكْتَةُ إضافةِ الشِّركِ إلى ضمير المخاطَبين:

أُضيفَ الشِّركُ في قوله تعالى: ﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ إلى ضمير المخاطَبين من باب إضافة المصدر إلى الفاعلِ، فالكفّارُ جعلوا الأوثانَ شركاءَ للّه، فأضافَ الشِّركَ إليهم من حيثُ إنَّهم قرَّروه، وارتَضَوه لأنفسهم[3].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾:

التَّذييلُ بتأكيدِ صِـدقِ أوصـافِ آلهةِ المشركين

جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ على سبيل التَّذييلِ لما سبق، وفائدةُ التَّذييلِ غالبًا توكيدُ المذيَّل، وإبرازُ حُكْمِهِ في صورة كليَّة[4]، فأكَّد اللّهُ سبحانه صدقَ ما حكاه عن المشركين من حالِ آلهتِهم، ونفي ما يدَّعون لهم مِن الإلَهيَّة[5].

بلاغةُ النَّفي بـ (لا):

تحقيقُ صِـدقِ الأخبار بأنَّ المُخْبِرَ بها هو الخبير

استُعمِل أداة النَّفي (لا) دونَ غيرِها من أدوات النَّفي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ لما تتميَّز بهِ من كونِها أقدمَ حروفِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 434، والواحديّ، التفسير البسيط: 18/ 412، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 40.

(2) البيتان في ديوانه، بلفظ: وقَفتُ عَلى رَبعٍ لِمَيَّةَ ناقَتي ... فَما زِلتُ أَبكي عِندَهُ وأُخاطِبُه، يُنظر: ديوان ابن الرّمة، ص: 23.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 434.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 369.

النَّفي في العربيَّة، وتتميَّز بدخولها على الأسماء والأفعال، فهي غيرُ مختصَّةٍ، ولهذا لا تعمل، وتدخل (لا) على الفعل المضارع، فلا تقيِّده بزمنٍ على الأرجح[1]، فهي تُفيد هنا تحقيقَ هذه الأخبارِ، بأنَّ المخبِرَ بها هو الخبيرُ بها وبغيرها، ولا يخبرُكَ أحدٌ مثلَ ما يُخْبِرك هو[2].

سرُّ التَّعبيرِ بفعل الإنباء:

النَّبأُ أهمُّ مِنَ الخبر وأعظم منه

أوثِرَ التَّعبيرُ بفعل الإنباءِ دون غيره، كالإخبار مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾؛ لأنَّ النَّبأَ - كما يقول أهلُ اللُّغة - أهمُّ مِنَ الخبرِ وأعظمُ منه، وفيه فائدةٌ مهمَّة، ولهذا جاء في القرآن استعمالُه في الأخبار الخطيرة نحو قوله تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النّمل: 22]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧﴾ [ص: 67]، وقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾ [النّبأ: 2][3]، وبما أنَّ المقامَ هنا في يوم القيامة، فلا يوجد خبرٌ أعظم منه؛ لذلك عُبِّرَ عنه بالنَّبأ.

دلالةُ توجيهِ الخطاب في قوله: ﴿يُنَبِّئُكَ﴾:

عمومُ الخطابِ في الجُمَل المرسلة مرسل الأمثال

يحتمل الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ وجهين من حيثُ المقصودُ به، أحدهما: أن يكونَ ذلك خطابًا مع النَّبيِّ صلّى اللّه عليه وآله وسلَّم، ووجهه: هو أنَّ اللّه تعالى لمّا أخبر أنَّ الخشبَ والحجر يوم القيامة ينطق، ويُكذِّبُ عابدَه، وذلك أمرٌ لا يُعلَم بالعقل المجرَّدِ لولا إخبارُ اللّه تعالى عنه أنَّهم يكفرون بهم يومَ القيامة، وهذا القول مع كون الخبرِ عنه أمرًا عجيبًا هو كما قال؛ لأنَّ المُخبرَ عنه خبير، وثانيهما: هو أن يكون ذلك خطابًا غيرَ مختصٍّ بأحد، أي: هذا الذي ذُكِرَ هو كما قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أيُّها السّامعُ كائنًا من

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 330.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.

كنتَ ﴿مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾، ويقوّي هذا الوجه: أنَّ هذه الجملة أُرسلت مرسلَ الأمثال، فلا ينبغي تخصيص مضمونها بمخاطَب معيَّنٍ[1].

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾:

نفيُ فعلِ الإنباء كنايةٌ عن نفي المُنبِئ

تضمَّن قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ كنايةً، حيثُ جَعَل نفيَ فعلِ الإنباء كنايةً عن نفي المُنبِئ، ولعلَّ التَّركيب: ولا يوجد أحدٌ يُنبِّئُكَ بهذا الخبر يُماثل هذا الخبيرَ الَّذي أنبأك به، فإذا أردفَ مُخْبِرٌ خبرَهُ بهذا المثل؛ كان ذلك كنايةً عن كون المُخبِرِ بالخبر المخصوص، ويريد بـ ﴿خَبِيرٖ﴾ نفسَهُ؛ للتَّلازم بين معنى هذا المَثل وبين تمثُّلِ المتكلِّم منه، فالمعنى: ولا يُنَبِّئُكَ بهذا الخبرِ مِثْلي؛ لأنّي خَبِرتُه[2].

فائدةُ التَّعريفِ بقوله: ﴿مِثۡلُ﴾:

المِثلُ المساوي إمّا في قَدْرٍ أو في صفة

عُبِّرَ بلفظ ﴿مِثۡلُ﴾ بكسر الميم وسكونِ المثَلَّثة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه سبحانه الخبيرُ على الحقيقة دونَ سائرِ المُخبِرين، وهذا المعنى مستفادٌ من لفظ ﴿مِثۡلُ﴾[3].

دلالةُ الوصفِ ﴿خَبِيرٖ﴾:

وصفَ الرَّبُّ سبحانه بأوصاف الصِّدق والكمال

دلَّ التَّعبيرُ بوصف ﴿خَبِيرٖ﴾ على أنَّه سبحانه هو الخبيرُ بالأمر وحدَه؛ لأنَّه الَّذي يخبر بالأمر على ما هو في نفس الأمرِ والواقعِ، وهو المرادُ بالحقيقةِ، لا ما هو مقابَل بالمجاز، فيكون تحقيقُ ما أخبر به هنا عن آلهتِهم هو الحقُّ؛ لأنَّه خبيرٌ على ما هو الواقع وفي نفس الأمر[4].

دلالةُ وزن (فعيل) في ﴿خَبِيرٖ﴾:

المبالغةُ في العِلْمِ بدقائق الأمور

أوثِرَ التَّعبيرُ بالصِّفة المشبَّهة ﴿خَبِيرٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾؛ لأنَّها مشتقَّةٌ من خَبُرَ فلانٌ الأمر؛ إذا علِمَه علمًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 229، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 22.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.
(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 41/ 16.
(4) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 41/ 16.

لا شكَّ فيه، والخبيرُ: هو العالم بدقائق الأمورِ لا يتوصَّل إليها غيرُه، وقال الغزاليُّ: هو الَّذي لا يَعزُب عنه الأخبارُ الباطنة، ولا يجري في المُلك والملكوت شيء، ولا تتحرَّك ذرَّةٌ، ولا تسكن، ولا تضطرب نفسٌ، ولا تطمئنُّ، إلّا ويكون عندَه خبرُها[1].

دلالةُ تنكير ﴿خَبِيرٍ﴾:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ لفظُ ﴿خَبِيرٍ﴾ نكرةً، مع أنَّ المرادَ به خبير معيَّن، وهو المتكلِّم فكان حقُّه التَّعريفَ، فعدلَ إلى تنكيرِهِ لقصد التَّعميم في سياق النَّفي؛ لأنَّ إضافةَ كلمةِ ﴿مِثۡلُ﴾ إلى ﴿خَبِيرٍ﴾ لا تُفيدُه تعريفًا[2].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ في الآية:

بـنـاءُ الأمـثـالِ عـلـى الإيـجـازِ والاختصارِ

صار قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ مثلًا من الأمثال، ولمّا كان شأنُ الأمثالِ أن تكون موجَزةً صيغَ على أسلوب الإيجاز، فحُذِفَ منه متعلِّق فعل (ينبئ)، ومتعلِّقُ وصف ﴿خَبِيرٍ﴾، ولم يُذْكَرْ وجهُ المماثلةِ لعلمِهِ مِنَ المقام[3].

دلالةُ الخِتام في الآية:

ومَن أصدقُ مِن الله حديثًا

خُتِمَتِ الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ تذييلًا لتحقيق هذه الأخبارِ، بأنَّ المُخبِرَ بها هو الخبيرُ بها وبغيرها، ولا يُخبِرُك يا محمَّد عن أمر هذه الآلهة، وعن عَبَدتِها يومَ القيامة إلّا ذو خبرةٍ بأمرها وأمرهم، وهو اللّه الذي لا يخفى عليه شيءٌ كان، أو سيكون في مستأنَف الأزمان، فإنَّه الخبيرُ بكُنْهِ الأمور دونَ سائرِ المُخبِرين[4].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 370، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 370.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنباءُ والإخبارُ:

عمومُ الخبرِ وخصوصُ النَّبأ بأنَّه الخبر الَّذي له خَطْبٌ وشأن

ظاهرُ صنيعِ كثيرٍ مِن أصحاب المعجمات أنَّهما مترادفان[1]، ولعلَّه جريٌ منهم على المسامحة؛ تقريبًا للمعاني، بل إنَّ بعضَهم نصَّ على ترادفهما[2]، وفرَّق بينهما جماعة من أهل العلم - وهو التَّحقيق - وذلك أنَّ النَّبأَ هو الخبر الذي له خطبٌ وشأنٌ، ومنه سُمّيَ النَّبيُّ نبيًّا؛ لأنَّه يوحى إليه، والوحيُ: خبرٌ عظيمٌ له شأن، بخلاف الخبر، فهو أعمُّ؛ إذ يُطلق على ما له شأن، وما ليس ذلك[3].

وذكر أبو هلالٍ العسكريُّ فرقًا آخر، وهو أنَّ النَّبأَ لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمه المُخبَر، بخلاف الخبرِ، فإنَّه أعمُّ منه، فيكون لما يعلمه المُخبَر، ولما لا يعلمه[4].

وهذا الفرقُ فيه نظرٌ، فإنَّ اللّه تعالى قال: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ [التّوبة: 70]، والاستفهام في ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾ [التوبة: 70] للتَّقرير[5]، أي: قد أتاهم نبأ الذين من قبلهم، فقد علموه قبلُ، ومع ذلك وقع التَّعبيرُ عنه بلفظ النَّبأ، فآثَر النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ (النَّبأ)؛ لتعلُّقِ الأمرِ بيومِ القيامة، فهو نبأٌ عظيمٌ له خطب وشأن.

---

(1) الخليل، العين: (خبر)، والأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (نبأ).

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (نبأ) و(خبر).

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 227/ 8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 306/ 2، والشّنقيطي، العذب النّمير: 146/ 1، 104/ 2، 138، 607.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 528.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 260/ 10.

المحتويات

